المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
بمكة المكرمة
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة
الدراسات العليا

الطالب أجرى التعديلات المطلوبة
د/ أحمد محمد بناني

لقد أجرى الطالب التعديلات المطلوبة د/ محمد الحبيب

د/ عبد الشكور العروسي

القادرية في موريتانيا

عرض ونقد



بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب

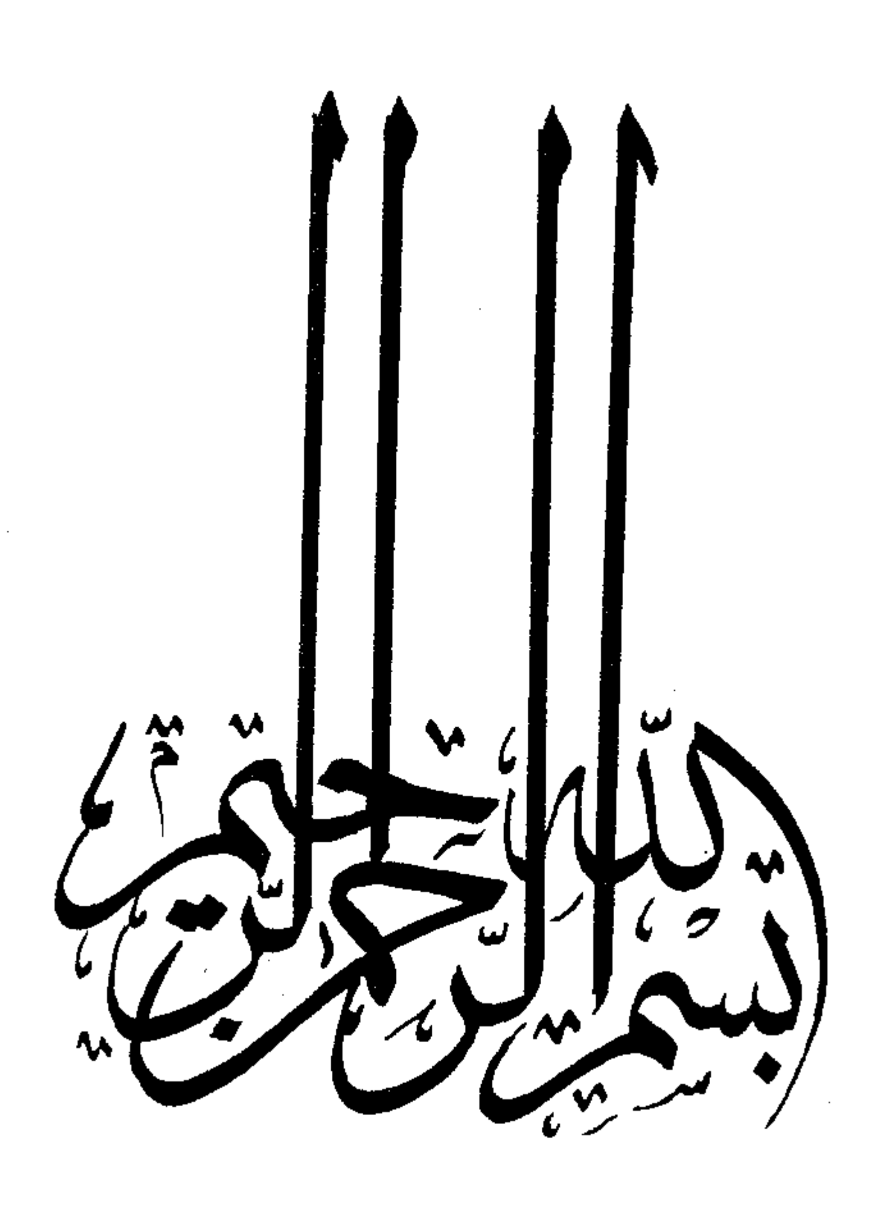
محمد الداه أحمد

إشراف الدكتور

عبد الشكور محمد أمان العروسي

الجزء الأول

عام ١٤١٢هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

القادرية في موريتانيا عرض ونقد

(ملخص البحث)

الحمد لله المنعم المتفضل وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين وبعد ، فقد بني هذا البحث على أربعة أعمدة ثلاثة أبواب وفصل ختامي بالإضافة الى مقدمة وتمهيد في البداية وخاتمة في النهاية. أما المقدمة فتناولت أهمية الموضوع وأسباب اختياره وجمع مادته ومنهج دراسته وما بذل فيه ومحتوياته بعد بحثه اعتماداً على خطته.وأما التمهيد فقد تناول نشأة التصوف ونسبته وحده وأقسام الصوفية والطرق الأولى .

أما الباب الأول : فعن نشأة القادرية حيث خصص الفصل الأول لنشأتها في بغداد مع ترجمة وافية للشيخ عبد القادر الجيلي الذي تنسب إليه ثم ما ينسب إليه من عقيدة وسلوك وسلاسل صوفية طرقية-ثم اتصل الكلام بالفصل الثاني عن نشأة القادرية في موريتانيا حيث مهد له بمدخل عام تضمن أربعة مقاصد في التعريف بموريتانيا - ميدان البحث - ودخول الاسلام إليها والعقيدة فيها أيام دولة المرابطين والنزاع العقدي بينهم وبين المهدي بن تومرت شيخ الموحدين ثم العقيدة بعد ذلك في موريتانيا قبل دخول القادرية وبعد دخولها وتتبع البحث دخول القادرية الى موريتانيا محاولاً بيان مراكزها الأولى وانطلاقاتها وفروعها مستعرضاً أهم الطرق الصوفية الأخرى في البلاد مثل الشاذلية بفرعيها : المتالية والأغظفية.والتيجانية التي أصلها الحافظية والحموية . ثم ترجم البحث لأحد عشر علماً من أعلام القادرية بموريتانيا مفصلاً القول في حياة العلمين المنسوبة لهما الطرق الرئيسة - البكائية - الفاضلية - دارساً وناقداً سلاسلهما في الصوفية .

الباب الثاني : عقائدهم : حيث بين هذا الباب بالعرض والنقد منهج القادرية الفكري وموقفها من التأويل والعلم والعقل والجهاد وعقيدتها في الحلول والاتحاد ووحدة الوجود والقضاء والقدر والملائكة والنبوات والولاية وختمها وما يندرج تحت الولاية عند الصوفية من علم الغيب والعصمة والتصرف في الكون والحيل وعلوم السر والتوسل والاستغاثة والتبرك .

الباب الثالث : السلوكيات والعبادات عندهم : على ضوء الكتاب والسنة والمأثور عن سلف الأمة.فدرس فيه مكانة الشيخ في الطريقة وما ينسب إليه وما يجب له ولذويه وما يجب عليه للمريدين وما يجب عليهم فيما بينهم إلى أن اتصل البحث بالعبادات عندهم فدرس الخلوة وآدابها والعبادات الخاصة بهم وما أحدثوه من صلاة وذكر ودعاء وهيئات ثم تتبع البحث أهم أورادهم ومقاصدها فعرضها على الكتاب والسنة والمأثور عن السلف الصالح إلى أن خلص الى الأحوال الصوفية عندهم وموقفهم منها وعباداتهم في أثناء طرق الأحوال لهم وربط ذلك بالمقامات عندهم عموما وخصوصاً مقام الجذب والفناء والتوكل ، حتى دخل البحث الى آخر أعمدته التي بني عليها وهو :

الفصل الختامي : الصحوة السلفية في الطريقة القادرية حيث درس فيه بعد تمهيد يوضح عنوانه والمراد منه منطلقات هذه الصحوة ومظاهرها في العقيدة والسلوك وسبل تدعيمها ذاكراً نماذج من الشيوخ والمدارس يرى أنها أحق وأولى بالدعم من غيرها .

ثم ختم البحث بخاتمة تستخلص نتائجه وآماله وتقترح وسائل لقطف ثماره على ضوء الكتاب والسنة وعمل سلف الأمة .

أهم نتائج البحث :

أولاً : أن الطرق الصوفية حادثة في الملة الإسلامية بعد القرون المفضلة ولا يصح شيء من سلاسلهم الطرقية الى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأسانيدهم إلى الشيخ عبد القادر الجيلي موضوعة أصلا .

ثانياً: أن القادرية في موريتانيا نشأت في القرن العاشر الهجري .

ثالثاً: عندهم انحرافات كبيرة في العقائد .

رابعاً: عندهم غلو عظيم في شيوخهم .

خامساً: عندهم أذكار وأوراد وعبادات مبتدعة أصلاً .

سادساً: عندهم أغلاط علمية وتاريخية بسبب البعد عن الكتاب والسنة وتصديق الخرافات والمنامات والالهامات .

سابعاً: لهم مشاركات في نشر الاسلام الطرقي الصوفي ولهم جهود في نشر العلم وإقامة مراكز اقتصادية يأوي إليها العالم والمتعلم على نهجهم في ذلك .

ثامناً: تاب على أيدي بعضهم كثير من قطاع الطرق وأهل السلب والنهب .

تاسعاً: شارك بعضهم في مقاومة الاستعمار .

عاشراً: رجع أفراد منهم إلى الكتاب والسنة ودعوا إلى محاربة البدعة .

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

الطالب	المشرف	عميد كلية الدعوة وأصول الدين
محمد الداه أحمد	د/ عبد الشكور العروسي	د/ علي بن نفيع العلياني
	١٤١٢/٩/١١هـ	

شكر ودعاء

الحمد لله الذي بنعمته وجلاله تتم الصالحات والصلاة والسلام على من ختمت به النبوات محمد وآله وصحبه السادات .

وبعد فإنه قد تضافرت جهود كثير من الخيرين في هذا البحث وكان لبعضهم مساهمات أساسية وللبعض الآخر مشاركات لها أثرها .

وانطلاقاً من قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يشكر الله من لا يشكر الناس)* وقوله صلى الله عليه وسلم : (من صنع إليه معروف فقال لفاعله . جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء)** فإني أشكر وأدعو لكل من سعى معي في هذا البحث ابتداء وانتهاء .

فأشكر حكومة خادم الحرمين الشريفين والشعب السعودي المضياف ، وأشكر أهل العلم والطلاب الذين سعوا معي في البحث عن المراجع في كل من جامعة أم القرى والجامعة الإسلامية بالمدينة المنوره والمغرب وموريتانيا وفي مقدمة أهل العلم الذين استوجبوا مني الشكر والدعاء أستاذي الفاضل الدكتور / عبد الشكور محمد أمان العروسي الذي صحبته موجها ثم مشرفا فكان لي نعم الموجه الموفق والمشرف الناصح الأمين فله مني على كل ذلك الشكر الجزيل والدعاء الخالص ما حييت .

وأشكر وأدعو من أعماق قلبي لأولئك الذين سعوا معي في تذليل الصعاب التي عرضت لي من الناحية النظامية أو النواحي المالية في جامعة أم القرى والرابطة وأخص بالذكر الأستاذ مراد سليمان عرقسوس ومن معه من الخيرين في شئون التعليم بالرابطة.

واني أخص بالشكر والدعاء هؤلاء العبادلة والصالحين والمحمدين أما العبادلة فهم : معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف .

ومعالي الدكتور عبد الله بن عبد الله الزائد .

ومعالي الشيخ عبد الله بن بيه ..

وفضيلة الشيخ عبد الله بن محمد الخليفي .

وأما الصالحون فهم : معالي الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد.

وفضيلة الشيخ صالح بن محمد المقوشي .

وفضيلة الدكتور صالح بن عبد الله العبود .

وأما المحمدون فهم : الأستاذ محمد المصطفى بن الندى .

والأستاذ محمد الحسن بن اددو - والأستاذ سيدي محمد بن أحمدو .

والأستاذ محمد الحافظ - والاستاذ الشيخ محمد عبد الله بن الشيخ محمد حامد .

هذا وأقول للجميع شكر الله لكم وجزاكم الله خيراً .

الباحث

---

* ابو داود والترمذي .

** الترمذي . وكلاهما حسن صحيح .

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أما بعد ...

فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة . (*)

قال تعالى : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ (**)

قصة الاختيار وأهمية الموضوع :

هذا وإنه لما من الله تعالى علي بالرحلة في طلب العلم إلى هذه البلاد المقدسة كنت حريصا على مقارنة ما نتعلم ونسمع هنا بما كنت تعلمت في بلادي وسمعت من أهلي ومشايخي وخصوصا في أصول الدين إذ بصحة العقيدة وسلامة المنهج تكون قوة الايمان واليقين وصحة العمل وقبوله إن شاء الله تعالى وبفساد العقيدة يفسد الجميع والعياذ بالله .

وإني وجدت في المناهج الدراسية والدروس العامة في الحرمين الشريفين والمحيط العلمي العام تضليلا وتبديعا للصوفية واتهاما بالغلو المفضي إلى الشرك .

فقارنته بما كنت أسمع من والدي ووالدتي ثم شيوخي بعد ذلك حيث إني كنت أسمع منهم تأسفا على من دخل من إخوانهم في الطرق الصوفية ويقولون : أعوذ بالله أصبح من أهل الأوراد أهل الرقص والازدراد .

(*) صحيح مسلم من خطبته صلى الله عليه وسلم .

(**) سورة التوبة الآية ١٢٢ .

وإذا رأوا من يرتكب أمراً غريبا في الدين نسبوه إلي بدع الطرقين وشطحاتهم وغلوهم في الدين .

ولكن هذا الموقف وتلك العبارات والأحكام لا تعطي علما حقيقيا وتوضيحا كاملاً للعقائد المنحرفة أو الغلو المذكور والبدع المنفرة ، وإذا سمعنا عن أحد من العلماء المحلين أنه يكفرأحد الشيوخ المتبوعين واستشكلنا ذلك قيل لنا : إنما فعل ذلك سداً للذريعة وحماية لجانب التوحيد ودفاعا عن الشريعة فهو أثابه الله من أهل الأتباع .

ومن هنا قلت : لعل هذا الذي نتلقاه ونسمعه هنا من هذا الباب أو من التشددات الشخصية . ولكن هذا الاحتمال تبدد عندما التحقت بجماعة العقيدة والفكر الإسلامي ضمن النشاطات الطلابية بكلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة حيث اشتركت في ندوات علمية عن البدع ومضارها ومظاهرها في البلاد الإسلامية وكانت بدع المتصوفة لها نصيب وافر من المناقشات والردود فاستفدت كثيراً عن الصوفية تاريخا وعقيدة وسلوكا حتى شعرت من نفسي باهتمام خاص بهم تمثل في القراءة عنهم وتفهم لما يكتب عنهم حتى اشتركت في الدورة التدريبية على الدعوة والخطابة الخاصة بالمتخرجين حيث تمكنت من قراءة عدد من كتب الصوفية وكتب خصومهم لنتمكن من إعداد ندوات وإدارة حوارات في نفس المجالات ، فوفقت بحمد الله في ذلك ولكني فزعت جداً وتأسفت كثيراً على ما وجدت من انحرافات وبدع وخرافات تقول بها الصوفية أو تعتقدها وتدافع عنها ، وقلت في نفسي عسى أن تكون صوفية موريتانيا سالمة من هذه العقائد المخرجة من الملة والبدع المكفرة ثم نويت أن أبحث عن كتبهم وأن أسأل عن أحوالهم وعقائدهم فإن وجدت عنهم ما يحتاج إلى الرد عليه حاولت رده وبينت لهم حسب طاقتي ما فيه نصحاً لهم وشفقة عليهم ولكن لم يكن ذلك بالأمر الذي يجعلني أختاره موضوعا لرسالة علمية تحتاج إلى جهد كبير ووقت طويل ، وإنما كان مجرد نية يمكن أن تحقق متى ما أذن الله وتهيأت الأسباب بتحصيل بعض مؤلفاتهم ومحاورة بعض المنتسبين للعلم من شيوخهم حتى تكون نصيحة عن وعي وتثبت أورد مؤيد بالدليل والبرهان يقيم الحجة

ويبرىء الذمة ويعطي ثمرة ومردودا حسب الجهد الذي بذل فيه بعيدا عن الجامعات وأقسام الدراسات العليا والرسائل العلمية وما يطلب فيها من موضوعية ومنهجية وقيود زمنية وآداب علمية . لذا فإنه مع وجود ذلك الإهتمام والخلفية العلمية والنية الجازمة لم نفكرفي طرح هذا الموضوع ولو ضمن موضوعات أخرى عرضت لي أثناء السنة المنهجية كاحتمال وارد وانما أخذت بعد الانتهاء من السنة المنهجية في اقتراح عناوين لموضوعات في الأديان أو التيارات الوافدة على البلاد الإسلامية حيث عرضت على الموجه بعضا منها ووافق لي على خطة عن البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم في الكتب المنزلة وتقدمت بها إلى مجلس القسم وتوقعت الموافقة وانتظرت شهراً تقريبا وكانت النتيجة أن القسم يطلب كشرط للموافقة على تسجيل الموضوع مقارنة خطته بخطة رسالة أعدت في الموضوع ثم إبداء الفروق بينهما . وهذه الرسالة أعدت في بلد آخر ولم تنشر بعد ولا علم لي بها ، فضقت لضيق الوقت عن ذلك ولما ضاع من وقتي وجهدي ثم تواصلت لقاءاتي مع الموجه دون أن نتفق على موضوع نهائي إذ كانت الموضوعات التي أعددتها في المجالات المذكورة إما أن نتركها من نفسي بعد أن نبحث فيها ويتبين لي عدم جدواها وإما أن يعترض عليها الموجه اعتراضا وجيها فأتوقف عنها .

وفي أحد اللقاءات تحدثنا عن الدعوة الإسلامية وما يعترضها من عقبات فكانت فرصة لي أن أتحدث عن موريتانيا وما يمكن أن يكتب عنها فأخذ الموجه يستمع إلي حتى نثرت له كنانتي عن الموضوعات والمجالات الدعوية في موريتانيا فعجمها عوداً عودا حتى توقف عند الطرق الصوفية في موريتانيا فحدثته عنها فوجد أن هذا الموضوع هو أصلبها عوداً وأمرها مذاقاً فقال لي لماذا لا تكتب في هذا ؟

فتعللت بأنه موضوع شائك والكتابة فيه شاقة وأن الماجستير إنما هي مقدمة للدكتوراه فلا تتكلف كثيراً في المقدمة دون الهدف ، ولكن ودعته بعد الاتفاق على أنه موضوع يستحق الأهتمام والمشورة فيه .

فأخذت في مقابلة بعض الأساتذة والشيوخ والزوار استشيرهم في الكتابة في هذا الموضوع وأطلب منهم المعونة وأجمع منهم المعلومات ولكن كان بعضهم يحذرني منه لأنه حسب مفهومه سيتناول الأولياء والصالحين والعلماء العاملين إلى غير ذلك من العبارات

التي تخوف من الإقدام وتدعو إلى الاحجام ٠ والبعض الآخر يشير علي بالكتابة فيه لأنه موضوع حيوي ومهم ولكن كيف ؟ وأين المصادر ؟ لا تجد جوابا واضحاً مساعداً وفهمت من ذلك كله أنه موضوع ذو مجاهل ومشاق وأن أهل التصوف لا يعرفون إلا القليل عن تصوفهم وما هم عليه ، والأساتذة لا يعرفون عن تاريخ بلادهم وما فيها من العقائد إلا النزر اليسير وغالبه من السماعات والحكايات ، وأما المكتوب فيسمعون فقط أن فلانا له تآليف وأنه من أهل العلم ٠

عند ذلك استخرت الله تعالى في العمل على كشف ذلك المجهول وتوضيح ذلك الغموض فانشرح صدري لذلك ورغبت فيه فأخذت في جمع شتات المعلومات التي جمعتها في أثناء تلك المقابلات والمشورات لنسبك منها خطة معقولة ومقبولة ٠ ولكي نبني خطتي على أساس متين وعلى نماذج سابقة ناجحة أخذت في قراءة بعض الرسائل العلمية التي أعدت عن الصوفية والكتابات الجادة الأخرى فخرجت من قراءتي بتصور واضح لعناوين الأبواب الرئيسية وبالاقتصار ايضاً على الطريقة القادرية بدلا من عنوان: الطرق الصوفية وذلك أن المصادر أجمعت لي على أنها أقدم طريقة صوفية في الإسلام منظمة وأن هذا السيل الذي نراه من الطرق الصوفية إنما هو فروع لها أو كالمتفرع عنها ففضلت أن يكون جهدي في الأصول إذ بصلاحها تصلح الفروع وبفسادها يكون فساد الفروع وعلى ذلك تمت صياغة الخطة ومناقشتها مع الموجه حيث وافق عليها وقدمتها للقسم للموافقة عليها ٠

ولكني كنت متخوفا من أمرين :

أحدهما : رد الموضوع علي ٠

وثانيهما : صعوبته إذا ما ووفق عليه ٠

أما خوفي من رده علي فلأن من عادة الجامعات وأقسام الدراسات العليا عدم الموافقة للطلاب على تسجيل موضوع يخشى أن يكون الطالب المتقدم يتعصب له أو يتعصب عليه . وهذا أمر قائم بالنسبة لي مع هذا الموضوع حيث إنه يخشى علي من التعصب له لأنه موضوع في العقيدة وهي أخطر ما يكتب فيه لأن غيرها يقال فيه

أصبت أو أخطأت وفيها يقال آمنت أو كفرت أو ابتدعت وانحرفت . وهذا عن الأهل والإخوان والجيران من الصعوبة بمكان .

ويخشى علي من التعصب عليه لأنه يظن بي . وأرجوا أن يكون ظن يقين . أنني من طلبة العلم السلفيين الداعين إن شاء الله إلى التزام الكتاب والسنة وما كان عليه الصالحون من السلف . والمعروف عن السلف بغض البدع ومحاربتها والتشهير بأهلها والتنفير من مصاحبتهم أو مجالستهم أو حتى مكالمتهم أو مصافحتهم ومعلوم أن الصوفية قد ولدت على البدع وتربت عليها ولم تفطم عنها حتى يومنا هذا وقد رد عليها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره وتكلم فيها أئمة كبار كمالك ، والشافعي ، وغيرهما من أهل العلم والتحقيق ، سواء أدخلنا عملهم ذلك في الجرح والتعديل أو في محاربة أهل البدع والأهواء فهم استجازوا ذلك ورأوه من القرب إلى الله تعالى .

وقد خففت من تخوفي من رد الموضوع بدعوى التعصب له أو عليه بدوام الاستخارة والتوجه إلى الله في حسن الاختيار وشرب زمزم ثم بقناعتي أن السلفي لا يخشى عليه من التعصب للباطل ولو كان عليه أبوه وأمه ، كما أنه لا يظن به أن يتعصب على أبيه وأمه ولكن يمحض لهم النصح ويوضح لهم السبيل ويبين لهم وجه الصواب ويقيم الحجة بالتي هي أحسن فذلك هو أدب القرآن والسنة ودأب الأنبياء والسلف ولكن : ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ (*)

وقد ظهر لي أن تخوفي كان في محله حيث إن مجلس القسم وافق على الموضوع مبدئيا ولكن تباينت الآراء في خطته فرأي يريد أن تقتصر الخطة على العقائد والسلوكيات التي تختص بها الصوفية فقط وآخر يريد أن تتناول الخطة العقائد الموجودة في البيئة المدروسة على العموم لذا أعيدت لي الخطة لصياغتها من جديد على ضوء معطيات تلك الآراء وما يمكن أن يحقق في ميدان البحث فقمت بصياغتها

(*) سورة التوبة الآية ١١٤ .

حسب المطلوب والإمكان وعرضت ثانية ووفق عليها ولله الحمد في شكلها الآتي إن شاء الله ٠

وأما خوفي من صعوبته فلأنه عن عالم لا يكاد يعرف عنه شيىء ، ولأن المكتوب عنه من علماء البلاد ما زال مخطوطاً وفي أحضان المكتبات الخاصة في غالبه ، وأهل المكتبات الخاصة في موريتانيا يعدونه من نفائس مدخراتهم لذا فلا يعيرونه إلا نادراً ولأهل الثقة والخاصة ، وإن أعاروه فالتصوير مفقود أو ضعيف في المدن أحرى البوادي والأرياف ٠

ثم إنه لابد في تحصيل هذه الكتب والمراجع من مقابلة أهلها إذ لا تفيد المراسلة في ذلك ٠ ولابد كذلك من محاورة الشيوخ الموجودين لأخذ دراسة ميدانية تربط بين ما في الكتب وبين ما في العقول والافكار والواقع المعيش وهذا كله يكلف مجهودابدنيا وجهودا مادية ولكن العلم لا ينال براحة البدن ، وأما المال فهذا أبرك أوجه إنفاقه ٠

فالمهم حصول القناعة بأهمية الموضوع وقيمته العلمية والعقدية ثم الموافقة عليه رسمياً وقد تحققت هذه الأساسيات ولله الحمد ٠

وبعد ما تقدم من شرح لقصة الأختيار ، فهذه هي محصورة في نقاط باختصار :

أولاً : أن اختياري للألتحاق بقسم العقيدة نابع من إحساسي بحاجة بلادي موريتانيا إلى مراجعة وغربلة للمناهج العقدية والاتجاهات السلوكية والفكرية لما في هذه المجالات من خلط ظاهر، وموريتانيا غنية في المجالات العلمية الأخرى لذا اخترت هذا المجال الذي تحتاجه بلادي وكنت بذلك أول طالب من موريتانيا يلتحق في الدراسات العليا بقسم العقيدة . هذا حسب علمي واطلاعي . وهذا الأختيار قائد إلى الأختيار الآتي :

ثانياً : أخترت الكتابة عن الصوفية لأنها طائفة من المسلمين يلتبس أمرها على الكثيرين فينضم إليها طالب الآخرة لمايرى عندهم من زهد واقبال على العبادات والأذكار وينضم إليها طالب الدنيا لما فيها أيضا من مكاسب مادية ولهو ومجون ودعة وراحة ٠

ثالثاً : اخترت الكتابة عن القادرية لأنها أم الطرق الصوفية ولأنها تنسب إلى إمام وفقيه زاهد هو الشيخ عبد القادر الجيلي . وبانتسابهم إليه نسبوا إليه من الطامات والبدع والخرافات ما شكك في أمره حتى اتخذ دليلاً على غيره ثم هي طريقة واسعة الأنتشار في العالم كله وحية غير منقرضة .

رابعاً : اقتصرت في العنوان على : القادرية في موريتانيا : عرض ونقد . لأنه ولقرون عديدة ماضية ارتبطت بها الحياة العلمية في البلاد الموريتانية والبلاد الافريقية المجاورة ذلك أنها كانت طريقة لها نشاط في العلم والدعوة وكل شيخ يطبع محيطه وعصره بطابعه سلباً أو إيجاباً وهذه أمور تحتاج إلى إيضاح حيث إن الحركة العلمية والعقدية كانت تدور عليهم في الغالب ولهم مؤلفات في تلك المجالات أكثر من غيرهم وما كان من تأليف في الرد عليهم فمرتبط بهم وما كان من تأليف في الدفاع عنهم فإنه يعد من نتاجهم .

خامساً : أن بعض شيوخي في العلم في موريتانيا وزملائي من طلاب العلم الدعاة إلى الله تعالى ينتفعون إن شاء الله بهذا البحث لما فيه من توضيح لمسير الدعوة إلى الله في السابق وتعريف ببعض العلماء المجاهدين ونتاجهم وخبراتهم ، ثم أيضا لما سيشتمل عليه البحث إن شاء الله من تشخيص للداء ووصف للدواء الأمر الذي يوفر جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً وهذا أقل ما يمكن أن أساعدهم به بعد غياب طويل في هذه الرحلة العلمية .

سادساً : أن بعض الطرق الصوفية قد بدأ أتباعها في إنشاء الزوايا والرباطات لينطلق منها داعيا إلى ما عنده وأخذ بعضهم في طبع بعض مؤلفات شيوخهم ونشرها على الناس بدون تحقيق ولا تعليق فخشيت من عاقبة ذلك فأردت أن يكون هذا البحث بمثابة التعليق عليها قبل نشرها وتداولها .

المحتويات

ولهذه الأهمية وتلك المزايا كان اختياري لهذا الموضوع . وهذه خطته التي انتهى إليها بحثه علما أنه حوفظ على خطة البحث وعناوينها الرئيسية وزيد عليها فصل الولاية حيث كان إدخاله ضرورياً للبحث وكذلك تقسيم الفصول إلى مباحث والمباحث إلى مطالب .

الخطة ومحتويات الرسالة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الفصل الثاني

الموضوع **الصفحة**

الفصل الثالث

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الباب الثاني

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

فصل الختام

المادة والمنهج

جمع المادة :

إنه من اليوم الذي فكرت في الكتابة في هذا الموضوع وأنا أعتبر نفسي في رحلة علمية شاقة تحتاج جهداً فوق الطاقة . وفتحت لهذه الرحلة العلمية سجلاً خاصا بها وعلى مدى عام كامل تقريباً وأنا لم أترك يوماً أو ليلة إلا وأنا في مقابلة مع أحد العلماء أو الشيوخ أو طلبة العلم النابهين بحثاً عن مصادر هذا البحث أو مظان وجودها أو الوسائل التي يمكن تحصيلها بها ، وكنت أثناء ذلك أكتب عنهم من محفوظاتهم وأدون رواياتهم وأسجل مشاهداتهم التي يمكن أن تفيد البحث من قريب أو بعيد حتى تكون عندي مجلد من ذلك استخرجت منه ما يزيد على الخمسين من عناوين الكتب في العقيدة والتصوف منسوبة نسبة صحيحة إلى مؤلفيها مع توضيحات كاملة لأقوى مظان وجودها . ولو وجدت في هذه الفترة كتاب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور أو كتاب كنتة الشرقيون للفرنسي بول مارتي أو كتاب بلاد شنقيط المنارة والرباط لكفتني كثيراً من العناء والبحث والسؤال ، ولكن ما وجدتها إلا بعد حصول ذلك وقد أفدت منها مع ذلك كما هو واضح في أثناء الرسالة .

ولما عرفت عناوين ذلك العدد المذكور من المصادر بدأت في البحث عنه في المكتبات العامة والخاصة في الحرمين الشريفين ووجدت بضعة كتب منها عند بعض إخواني من أحفاد الشيخ سيدي المختار الكنتي والشيخ محمد فاضل فأعارونيها وأذنوا لي في تصويرها أحسن الله إليهم وأثابهم على حسن تعاونهم كما وجدت بضعة رسائل وأنظام وقصائد مفيدة في الموضوع عند أفراد من أهل العلم والطلاب فأعارونيها وأذنوا لي أيضا بتصويرها أثاب الله الجميع على تشجيعهم لي ومسعاهم معي .

الرحلة إلى المغرب وموريتانيا :

ومع تلك النتائج المفيدة فإنه لابد من طلب المصادر من مصدرها لذا عقدت العزم على الرحلة إلى المغرب وموريتانيا فوفقت لها والحمد لله . وفتحت أيضا سجلاً خاصاً بها دونت فيه الكثير مما كان له أثر كبير في إثراء البحث .

وصلت إلى الرباط وسكنت قريبا من الخزانة العامة للكتب والوثائق حيث قضيت أسبوعين في قسم المخطوطات بها نرد مع الموظفين فيه في الصباح والمساء ونصدر معهم إذا صدروا .

وقد وجدت في هذا القسم كتب البكائية والفاضلية وغير ذلك فصورت ما سمح لي بتصويره وقرأت واقتبست ما وجدت أنه ضروري لنقله بنصه مما لم يؤذن لي باصطحابه . فجزى الله القائمين على تلك الخزانة على حسن تعاملهم وسرعة خدمتهم . وتجولت في المكتبات وأشتريت منها بعض المصادر العامة في التصوف وما وجدته من مطبوعات موريتانية خصوصا كتب الشيخ ماء العينيين الذي وجدت أحد أحفاده في إحدى هذه المكتبات في زيارة خاصة للمغرب . وهو الاستاذ الطالب اخيار بن مامين . فعرفته بثوبه الموريتاني ولم أكن أعرف شخصه من قبل . فتقدمت إليه وسلمت عليه مصافحة وتبادلنا الترحيب وسألته عن ضالتي فقال لم هذه الكتب خاصة ؟ فقلت : أكتب بحثا له صلة بها . فغضب الرجل فجأة . وقال كلمة لا عيب فيها ولا تعيير ولكنه قصد ذلك وكنت هادئا لأن الرجل لا يعرفني ولا أعرفه ولم أقل له بعدما يغضبه فلعل هدوىء وما أظهرته من استغراب هدأه ثم تعارفنا . وذكر هو رحما بيننا وأنا مسرور بها . ثم حكى لي أنه قدم إلى المغرب لطباعة كتاب ألفه بعنوان : عقيدة أهل الايمان والدفاع عن بعض الأعيان . ففهمت من ذلك سبب غضبه المفاجىء ، ثم وعدني بالمقابلة والإفادة في أنواكشوط فزرته في بيته في انواكشوط ثلاث مرات ولم تتمكن مع الأسف من الاستفادة منه حتى سافرت من موريتانيا وكان هو أول من رأيت وآخر

العلمية وما عنده من الكتب التي لها صلة بالموضوع فنسيتها عنده ولم نتذكرها حتى قابلته في مطار انواكشوط يودع مسافرا في نفس الرحلة التي غادرت انواكشوط فيها .

وإن كنت لم استفد من هذا الأستاذ المذكور فإنني ولله الحمد استفدت في انواكشوط من غيره وقام معي في مهمتي أساتذة فضلاء وطلاب علم نبلاء في دار الثقافة والمعهد العالي ومعهد ابن عباس علاوة على المدارس الأهلية والمكتبات الخاصة حيث قرأت واقتبست وصورت وأعرت حتى خرجت من انواكشوط بمكتبة من المخطوطات التي تعد أهم مصادر هذه الرسالة .

هذا بالإضافة إلى المقابلات العديدة الحافة بالترحيب والمعلومات المفيدة التي سيرد في أثناء الرسالة ما له صلة بها إن شاء الله تعالى بارك في جميع أولئك العلماء والشيوخ والأساتذة والطلاب الذين اعتبروا من واجبهم التعاون معي والنيابة عني في التصوير والإعارة .

ها نحن جمعنا مصادر الرسالة من المؤلفات الثابتة النسبة إلى مؤلفيها من شيوخ القادرية وغيرها من علماء موريتانيا وغيرهم وبأقلام علماء أجلاء أو نساخين مشهورين قد أثبتوا على حواشيها التصويبات والتصحيحات وأثبتوا كذلك في ذيولها أيضا أسانيدهم فيها إلي نسخة المؤلف نفسه ولكن أين ضالتنا في هذه المصادر المخطوطة التي يصل بعضها إلى خمسمائة صفحة وتنزل إلى صفحة واحدة محشوة من طرفيها بعد امتلاء وجهيها ، لا فهارس ، وأحيانا لا أبواب ولا فصول إنما هي كتابة متواصلة من بداية الصفحات إلى نهايتها ؟

إن استخراج معلومة ولو قليلة القيمة يحتاج إلى قراءة الكتاب من أوله إلى آخره أو العثور عليها في الطريق لذا فقد جلست ولله الحمد طويلا لقراءة هذه المصادر وفهرستها حتى يسهل الأخذ منها أو يقل العناء في مصاحبتها فكم فركت عيني وحككت رأسي ومسكت لحيتي لطول السهر والقراءة واختلاف الخطوط وتقارب السطور . ولكن الله تعالى أعان ولطف وأذهب آثار العناء وخفف فله الحمد والمنة فلا رب سواه ولا معين إلا إياه .

ما هو المنهج :

لقد جمعت المصادر والمراجع وقرئت وفهرست وجمعت المادة العلمية وانتخبت فما هو المنهج العلمي الذي اتبع في تأليفها ؟

إنه منهج العرض والنقد والتحليل والتدليل ذلك هو مقتضى العنوان وهو الذي تدل عليه الفاظه والمطلوب مَن وضعه هكذا ، فالعرض يدل على الإظهار والاختبار شيئاً فشيئاً وواحداً واحداً والنقد يدل على التدقيق والمقارنة بل والمحاكمة والمخاصمة . فهذه العبارات وما بين من دلالتها كانت هي المنهج المتبع في هذا البحث حيث تعرض النصوص عرضا متتابعا بما لها وماعليها ثم تنقد العقيدة أو الفكرة الأساسية التي عرضت من أجلها بعد أن يقدم لها بما يدل على المراد منها أو يوضح ما فيها من إجمال أو غموض ويخرج ما اشتملت عليه من آية أو حديث أو أثر أو نص منقول كل ذلك حسب الإمكان ثم يحال إلى مظان مناقشة أو نقد العقائد والأفكار الأخرى التي قد يتضمنها نص من النصوص المعروضة فهذا هو المنهج الغالب ولكن هنا تنبيهات لابد منها :

التنبيه الأول : أن العنوان : القادرية في موريتانيا عرض ونقد . مشتمل على أربع كلمات ولكل كلمة مكانتها ومنزلتها وحقها بجوار الكلمات الأخرى من بيان وتوضيح وعرض ونقد . يضاف إلى هذا الحق الثابت لها بوضعها في العنوان أن تاريخ القادرية الأولى ابتداء بالشيخ عبد القادر وأنتهاء بإمام القادرية الأولى في موريتانيا يكاد يكون مجهولا للموريتانين وغيرهم نظرا لتفرقة في الكتب وطول العهد به وهو تاريخ تتوقف على معرفته أمور كثيرة وحقائق علمية كبيرة فكان لابد من عرض تاريخي لتلك الحقب والترجمة لأبرز أعلامها وهذا يقتضي استخدام المهنج التاريخي السردي التحليلي ولكن أريد أن أنبه إلى أن هذا المنهج قد ألبس ثوباً نقديا يميزه عن التاريخ فقط هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن موريتانيا نفسها تكاد تكون منسية تاريخيا أو على الأقل لقرون عديدة حتى إن الموريتانين لا يعرفون عن تاريخهم الذاتي على وجه التحقيق إلا نتف متفرقة وفي حقب متباعدة فكان

لابد من تناول (موريتانيا) تاريخيا والتعريف بها تدريجيا ويترجم لرواد العلم والعقيدة والتصوف فيها حتى تخرج من غابر المجهول إلى الواقع المعلوم وهنا استخدم أيضا المنهج التاريخي ولكن لهذا الغرض المهم في حد ذاته للبحث بما ينبني عليه من توضيح أرضية صالحة للبحث والعرض والنقد يضاف إلى ذلك أن شيوخ القادرية الموجودين لا يعرف أكثرهم بعد شيخه المباشر شيئا له قيمة علمية أو تاريخيه عن شيوخ سلسلتهم فكان تعريفهم وتعريف غيرهم بأبرز شيوخهم من الأمور المساعدة على تفهم البحث وإثرائه أكثر • علما أن المنهج التاريخي هنا إنما هو قالب مسخر للمنهج الأساسي لذا فلا لوم على البحث فيما سيلاحظ من الإطالة بعض الشيىء في الباب الأول قبل الوصول للهدف الأساسي الذي هو العقيدة •

التنبية الثاني : أنني في باب العقيدة لم أدخر جهدا في عرض أكبر عدد من النصوص القادرية حتى تتضح الفكرة الأساسية أو العقيدة المقصودة من خلال نصوصهم فقط وقد سلكت في ذلك أيضا تسلسلا تاريخيا حيث أعرض النص الأول من أول كتبهم وهكذا تصاعديا حتى آخر كتبهم عن آخر مؤلفيهم ولا أحيد عن هذا المنهج إلا نادرا ولأن النص في غير ذلك الكتاب لغير ذلك الشيخ الأول أوضح دلالة وأقرب عبارة فلذلك أقدمه • وإذا لم يتضح المطلوب تماما من نصوصهم المعروضة لإجمال فيها أولإيهام أو غموض في عبارتها حاولت توضيح المراد منها قبل نقدها حسب جهدي ومراسي •

التنبيه الثالث : أن كلمة نقد في هذه الرسالة ليس المراد منها ما يفهمه كثير من الناس من أن المراد بها العيب والتعيير فهذا المعنى وإن كان من معاني الكلمة فإنها ليست قاصرة عليه لذا فإن كلامي كان مع الكلام والبادىء أظلم •

التنبيه الرابع : أنني أعتنيت عناية خاصة ببابي العقيدة والسلوكيات وبفصلي الولاية والعبادات فيهما لما وجدت من ارتباط العقائد الفاسدة أو البدع بهما ولذا كانت لي فيهما أحكام واضحة إن شاء الله وصائبة وما لم نجزم بحكم فيه

فإنه يظهر من الأدلة والنصوص التي أورد وأناقش بها ترجيحي لحكم معين ويرجع عدم التصريح بالحكم إلى احتمالات في النصوص المنقودة ولأن الحكم الجازم فيها يقتضي معرفة نية أصحابها أو القول بلازم المذهب وهذه أمور منها ما لا سبيل إليه ومنها ما هو مخالف لمنهج السلف وجمهور الخلف لذا اكتفيت بما قلت ولكنني ربما استخرج لهم ولغيرهم الدليل وربما أستدل بدليل أقوى من المستدل به .

التنبيه الخامس : أنني بذلت جهدي في ترقيم الآيات الواردة في النصوص المعروضة أو التي أستدل بها وخرجت الأحاديث والآثار وجلبت أقوال العلماء في الحكم عليها بالصحة أو الضعف أو الوضع .

وما كان من حديث في الصحيحين والسنن ذكرت الكتاب والباب ورقمه حسب نسختي التي أعتمدها هذا مع الإضاحات والتعليقات والتراجم باختصار للأعلام الورادة في النصوص أو التعريف بالشعوب والقبائل والفرق والطوائف والأماكن كل ذلك حسب الجهد والمطلوب وأعددت فهرسا بالمراجع والمصادر والموضوعات .

وصدق الله العظيم : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ (*)

أي تناقضا وتفاوتا إذ ما (من متكلم يتكلم كثيراً إلا وجد في كلامه اختلاف كثير إما في الوصف واللفظ وإما في جودة المعنى وإما في التناقض وإما في الكذب) ** .

وإذا كان الإمام الشافعي . لله أبوه . ورحمة الله عليه : استشهد بذلك على نفسه وما عساه أن يكون منه في (رسالته) فماذا أقول أنا ؟

(*) سورة النساء الآية ٨٢ .

(**) القرطبي ، جـ ٥ ص ٢٩٠ .

إنما أقول : أستغفروا الله العظيم وأتوب إليه ، من الدخول فيما لم أصل بعلمي وعقلي إليه ٠

وأسأله جل وعلا أن يجعل هذا الجهد مقبولا عنده وخالصا لوجهه الكريم ونافعا لكاتبه وقارئه ومن ألف فيه ٠ إنه ولي ذلك والقادر عليه ٠ والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم ٠

وكتبه الفقير إلى ربه وأسير ذنبه / محمد الداه أحمد ٠ ليلة العيد السعيد من عام ١٤١٢ هـ ٠

التمهيد : وفيه مطالب

الأول : التعريف بالتصوف .

الثاني : حد التصوف .

الثالث : ظهور هذه النسبة .

الرابع : أقسام الصوفية .

الخامس : نشأة الطرق الصوفية الأولى .

(٢)

المطلب الاول

فى اشتقاق التصوف

إن أول مسألة تواجه الباحث فى التصوف هذه اللفظة ماهو الأصل الذى اشتقت منه ، وهل لها اشتقاق قياسى فى اللغة العربية أو لا ؟ وكيف صارت علما على هؤلاء · وما هو السبب فى ذلك ؟

هذه احتمالات واردة فى بيان هذا الإسم وأول من اعتنى ببيانه هم الصوفية أنفسهم ونبدأ أولا بعرض آراء بعض أئمتهم فى أول مؤلفاتهم في الصوفية ·

يقول صاحب اللمع ، أبو نصر الطوسي (١) تحت عنوان : (باب الكشف عن اسم الصوفية ولم سموا بهذا الإسم ولم نسبوا إلى هذه اللفظة : إن سأل سائل فقال قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث ونسبت الفقهاء إلى الفقه ، فلم قلت : الصوفية ولم تنسبهم إلى حال ولا إلى علم ، ولم أضفت الزهد إلى الزهاد والتوكل إلى المتوكلين والصبر إلى الصابرين ؟

فيقال له : لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع ، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم ···

فلذا لم يكونوا مستحقين اسما دون اسم ···

وإن أضفتهم إلى الأغلب من الأحوال عليهم لكان يلزم أن أسميهم ، فى كل وقت بإسم آخر على حسب مايغلب عليهم من الأحوال ···

فلما لم يكن ذلك ، نسبتهم إلى ظاهر اللبسة (لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام ، وشعار الأولياء والأصفياء ، فلما أضفتهم إلى ظاهر اللبسة كان ذلك اسما مجملا عاما ··) (٢) قلت : ليس هذا على اطلاقه وإن كانت ورد آثار واخبار عن بعض زهاد السلف في تفضيل لبس الصوف للمتواضعين في اللباس (٣)

---

(١) هو ابو نصر ، عبد الله بن علي الطوسي ، الملقب : بطاوس الفقراء ، قال الذهبى عنه : كان المنظور إليه فى ناحيته ، فى الفتوة ولسان القوم ، مع الاستظهار بعلوم الشريعة وقال عنه السخاوي : كان على طريقة أهل السنة ·

واعتبره الدكتور عبد الحليم محمود فى مقدمة تحقيقه لكتابه «اللمع » صاحب ثانى مدرسة اعتنت بنشر التصوف عن طريق التأليف ، حيث تأثر بالطوسى الهجويري وعبد الرحمن السلمي والقشيري - المقدمة : - ص ٧ و ١٢ط ١٣٨٠ هـ .

(٢) اللمع ، تحقيق عبد الحليم محمود وزميله ، نشر لجنة التراث الصوفي ، دار الكتب الحديثه - مصر ، ط ١٣٨٠ هـ .

(٣) انظر شعب الايمان للإمام البيهقي ، فصل فيمن اختار التواضع في اللباس جـ٥ ص٥٠ أو ما بعدها

قلت : ويتلخص رأي السراج فى محاولته للكشف عن اسم الصوفية فيما يأتى : -

١ - إن الصوفية لم ينسبوا إلى حال معينة ، أو علم معين ·

٢ - إن إسم الصوفية مشتق من لبس الصوف ، بوصفه اللبسة الغالبة عليهم · وانما قلت : الغالبة - لأن السراج نفسه لا يحكم بأنهم اختصوا بهذه اللبسة لما يرونه حكاية عن يحيي بن معاذ الرازي المتوفى سنة ٢٥٨ هـ أنه كان يلبس الصوف والخلقان في ابتداء أمره ، ثم كان فى آخرعمره يلبس الخز واللين · (١)

ويعقد أبو بكر محمد الكلاباذى المتوفي سنه ٣٨٠ هـ الباب الأول من كتابه التعرف لمذهب أهل التصوف لبيان هذه التسمية يقوله : (قولهم بالصوفية لم سميت الصوفية صوفية : -

قالت طائفة : - إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها ، وقال قوم : - إنما سموا صوفية لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله جل وعز · وقال قوم إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة ، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قوم : إنما سموا صوفية للبسهم الصوف) · (٢)

وقال مبينا لهذه الأقوال : (وأما من نسبهم إلى الصفة والصوف فإنه عبر عن ظاهر أحوالهم · ومن نسبهم إلى الصفاء والصف الأول فإنه عبر عن أسرار هم وبواطنهم) ·

قال :(وإن كانت هذه الألفاظ متغيرة بالظاهر ، فإن المعانى متفقة ، لأنها إن أخذت من الصفاء والصفوة كانت صفوية ·

وإن أضيفت الى الصف أو الصفة كانت صفية أو صفية ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء فى لفظ الصوفية ، وزيادتها فى لفظ الصفية والصفية إنما كانت من تداول الألسن ·

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٩ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف · تحقيق : عبدالحليم محمود ، وطه عبد الباقي ، ط ، القاهرة ، ١٩٦٠ م ·

وإن جعــل مأخـذه من الصوف : استقام اللفظ ، وصحت العبارة من حيث اللغة) ٠(١)

قلت : خلاصة رأى الكلاباذي أن مأخذ الصوفية من الصفاء أو الصف أو الصفة يستقيم عنده معنى لا لغة ٠ وإن مأخذه من الصوف مستقيم لغة ٠

وقد جاء بعد هذين - السراج والكلاباذى - صاحب الرسالة القشيرية عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفي سنة ٤٦٥ هـ (٢) قال فى رسالتة (هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال (رجل صوفي) وللجماعة (المتصوفة) ٠

وليس يشهد لهذا الإسم من حيث العربية قياس ولا اشقاق ، والأظهـر فيه : أنه كاللقب فأما قول من قال : إنه من الصوف ، ولهذا يقال تصوف إذا لبس الصوف كما يقال: تقمص إذا لبس القميص ، فذلك وجه ولكن القوم لم يختصوا بلبس: الصوف.

ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالنسبة إلى الصفة لاتجيء على نحو الصوفي ٠

ومن قال : إنه مشتق من الصفاء ، فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة ٠ ومـن قال إنة مشتــق من الصف فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم ، فالمعنى

صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف) (٣)

قلت : وخلاصة رأى القشيرى أنه اسم بالغلبة على هذه الطائفة - وهو أشبه باللقب وأن الذى تشهد له اللغة هو القول بأنه مشتق من لبس الصوف ، مع أنهـم لم يختصوا بلبسه ، ويفهم من سياق كلامه أنه يفضل أن يكون مأخذ اسم الصوفية من الصفاء ، حيث انه بدأ كلامه هكذا : (الصفاء محمود بكل لسان ، وضده : الكدورة وهى مذمومة ٠) (٤)

---

(١) المرجع السابق ٠

(٢) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيرى النيسابورى ، ولد فى بلدة (استوا) فى شهر ربيع الأول سنة ٣٧٦ هـ وتوفى في نيسابور في ربيع الآخر سنة ٤٦٥ هـ (مقدمة الرسالة تحقيق د ٠ عبد الحليم محمود وزميله مطبعة حسان ٠ جـ ١ ص ١٤) ٠

(٣) نفسه جـ ٢ ص ٥٥٠ - ص ٥٥١ .

(٤) نفسه جـ ٢ ص ٥٥٠ .

وأما صاحب عوارف المعارف فإنه عقد الباب السادس فى ذكر تسميتهم بهذا الاسم فأورد فيه خبرا عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف) (١) قال : (فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سموا صوفية نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة) (٢) وبعد أن قرأ هذا القول قال : (وقيل : سموا صوفية لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل ... وقيل : كان هذا الاسم فى الأصل صفوى ، فاستثقل ذلك وجعل صوفيا . وقيل : سموا صوفية نسبة إلى الصفة .) (٣)

قلت : إيراد السهروردى للخبر المتقدم ، يدل على ترجيحه للقول الأول ، مع موافقته للقياس اللغوي .

ويرى ابن الجوزى أنهم رأوا أول من انفرد بالعبادة والتنسك وخدمة الحجاج والقيام بخدمة الكعبة رجلا يقال له صوف واسمه الغوث بن مر ، فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه فى الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى فسموا صوفية .

وحكى الروايات الأخرى فى نسبة الصوفية الى أهل الصفة أو الصوفانة البقلة الرعناء لاجتزائهم بها أو بنبات الصحراء ، وبين أن ذلك كله غلط .

وقال : (وقيل : هم منسوبون إلى صوفة القفا أو الصوف ، وهذا يحتمل والصحيح الأول) (٤)

---

(١) عوارف المعارف ص ٥٩ تأليف أبوي النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد السهرودى ط ٢ ١٤٠٣ هـ دار الكتاب العربى بيروت . وانظر فى الحديث المذكور : شعب الايمان للإمام البيهقي فصل : فيمن اختار التواضع فى اللباس . فأنه أورده عن أبي موسى وقال : (وهو بهذا الاسناد غير محفوظ) . شعب الايمان ، تحقيق ، أبي هاجر محمد السعيد . ط ١ دار الكتب العلمية سنة ١٤١٠ هـ جـ ٥ ص ١٥١ وما بعدها .

(٢) عوارف المعارف ص ٦١ .

(٣) نفسه .

(٤) تلبيس إبليس لابى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى البغدادى ، تحقيق السيد الجميلى دار الكتاب العربى - بيروت ط ١ ١٤٠٥ هـ ص ١٩٩ - ٢٠١ .

قلت : وقد استوعب شيخ الإسلام ابن تيمية ما يصح من هذه الأقوال وما لا يصح في مقتضى اللغة ، فقال : (وتنازعوا في المعنى الذى أضيف إليه الصوفي فإنه من أسماء النسب : كالقرشي ، والمدني وأمثال ذلك . وقيل إنه نسبة إلى أهل الصفة وقيل : إنه نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله وقيل : إنه نسبة إلى الصفوة من خلق الله ، وقيل إنه نسبة إلى صوفة ابن بشر ابن أد بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ...)

قلت : وهذه النسب لا يوافق شيخ الإسلام ابن تيميه على شيء منها ويوضح ذلك بقوله : (إنه لو كانت النسبة لأهل الصفة لقيل صفي .... ولذا فالنسبة إليهم غلط . ولو كانت النسبة إلى الصف لقيل : صفى ..... ولو كانت النسبه إلى الصفوة لقيل : صفوي) .

وأما النسبة إلى القبيلة العربية التى كانت ينسب إليها النساك فهى ضعيفة وإن كانت موافقة من جهة اللفظ وذلك لأمور : منها : - أنهم غير معروفين ولا مشهورين عند أكثر النساك ، ولو كان نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب فى زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى ولأن غالب من تكلم باسم الصوفى لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافا إلى قبيلة في الجاهلية لاوجود لها في الإســلام والمعروف أنة نسبة إلى لبس الصوف) . (١)

قلت : الذى يترجح عندى من كلام هؤلاء العلماء أن الصوفية مشتقة من لبس الصوف حتى صار لباس شهرة لهم يعرفون به وإن لم يخصوا به فهو لقب بالغلبة . (٢)

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام - أحمد ا بن تيمية ، - جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاســم بمساعدة ابنه محمد ، مكتبة المعارف - الرباط - المغرب . جـ ١١ ص٥ -٦ بتصرف .

(٢) أنظر مقدمة ابن خلدون دار الكتاب اللبنانى - بيروت ط ١٩٨٢ ص ٨٦٣ .

المطلب الثاني : حد التصوف

عند الرجوع إلى كتب الصوفية للبحث عن تعريف جامع للتصوف يجد الباحث عبارات كثيرة مختلفة الألفاظ والمعاني ، فالقشيري والسهروردي يقولان : إن كل من تكلم فى حد التصوف إنما يعبر على حسب ماوقع له ، وإن أقوال المشايخ تتنوع معانيها ، فالتصوف عند معروف الكرخي هو : (الاخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الخلائق • وعند الهجويري هو : (الدخول فى كل خلق سني ، والجروج عن كل خلق دنى) (١) •

ويلخص السهروردي عباراتهم فى حد التصوف فيقول : (التصوف اسم جامع لمعاني الفقر ، ومعانى الزهد ، مع مزيد أوصاف وإضافات لايكون بدونها الرجل صوفيا و إن كان زاهدا وفقيرا) • (٢) وقد عرفه بعض أصحاب المعاجم فى هذا العصر بأنة : (طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل ، لتزكو النفس وتسمو الروح ، وأن علم التصوف : مجموعة المبادىء التى يعتقدها المتصوفة والآداب التى يتأدبون بها فى مجتمعاتهم وخلواتهم) (٣)

قلت : ومن المعلوم أن الكتاب والسنة كفيلان لمن التزم واتبع نهجهما أن تزكو نفسه وتسمو روحه بدون إضافة من أحد ، أو استنباطات بعيدة لايدرك الناس مأخذها • وننتهي إلى النتيجة التى انتهى إليها كثير من الباحثين وهى أن تعريف التصوف بتعريف جامع مانع أمر عسير إن لم يكن مستحيلا • ذلك أن التصوف طريقة أو مذهب متغير - كانت بدايتة عند المسلمين الورع والزهد ، ثم تطور بمرور الزمن حتى دخلته عقائد الحلول والاتحاد ووحدة الوجود • وقال أهله (الطرق إلى الله بعدد انفاس الخلائق) وهكذا بقي التصوف بلا تعريف • (٤)

---

(١) الرسالة القصيرية ص ٥٥١ .

(٢) عوارف المعارف ص ٥٤ ويقارن بما فى تلبيس إبليس ص ١٩٩ - ٢٠٢ .

(٣) المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية ط قطر جـ الأول ص ٥٢٩ .

(٤) تلبيس إبليس ص ١٩٩ - ص ٢٠٣ ، وقواعد التصوف لزروق ص ٣٥ ، وتاريخ التصوف فى الإسلام للدكتور قاسم ص ٢٦٩ وما بعدها •

المطلب الثالث : ظهور هذه النسبة

قال : صاحب اللمع : (باب الرد على من قال : لم نسمع بذكر الصوفية فى القديم وهو اسم محدث ... وأما قول القائل : إنة اسم محدث أحدثه البغداديون فمحال ، لأن فى وقت الحسن البصرى رحمه الله كان يعرف هذا الاسم وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضي الله عنهم ، وقد روي عنه أنه قال : رأيت صوفيا فى الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال : معي أربعة دوانيق يكفينى ما معي . وروى عن سفيان الثوري أنة قال لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء ، وقد ذكر فى الكتاب الذى جمع فيه أخبار مكة عن محمد بن إسحاق بن يسار ، وعن غيره يذكر فيه حديثا : أنة قبل الإسلام قد خلت مكة فى وقت من الأوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد ، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفى فيطوف بالبيت وينصرف ، فان صح ذلك يدل على أنة قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم وكان ينسب إلية أهل الفضل والصلاح .) (١) قلت هذا جواب الطوسى لمن ادعى أن إسم الصوفية محدث وحاصل جوابه إن هذا الإسم كان معروفا فى عهد التابعين وأنه إن صحت رواية محمد بن اسحاق بن يسار فإنها تدل على أنة قبل الإسلام كان يعرف هذا الإسم . ويرى القشيرى أن هذا الإسم أشتهر قبل المائتين من الهجرة (٢) كما يرى ابن الجوزي أنه ظهر لهم هذا الإسم قبل سنة مائتين من الهجرة . (٣)

أما ابن تيمية فيرى أن هذا الإسم : الصوفية لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة الأولى وأما التكلم به فإنه منقول عن غير واحد من الأئمة والشيوخ ، وذكر ممن نقل عنهم ذلك : الإمام أحمد وأبو سليمان الداراني وسفيان الثورى ، والحسن البصري (٤) .

---

(١) اللمع ص٤٢ ويقارن بما فى تلبس إبليس ص ٢٠٠ ونشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للنشار دار المعارف ط ٧ ١٩٧٨ م جـ ٣ ص ٤٠ وما بعدهما .

(٢) الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٣٧٩ .

(٣) تلبس إبليس ص ٢٠١ .

(٤) مجموع الفتاوى : جـ ١١ ص ٥ .

قلت : ويؤيد ماذهب إليه ابن تيمية رحمه الله تعالى من أن اسم الصوفية فى

القرون الثلاثة الأولى مذكور وليس بمشهور مافى ترتيب المدارك للقاضي عياض ، من أن مالكا رحمه الله تعالى سئل عن قوم يقال لهم : الصوفية يأكلون كثيرا ثم يأخذون فى القصائد ثم يقومون فيرقصون • فقال مالك : أصبيان هم ؟ قال السائل : لا ، قال : أمجانين ؟ قال : لا ، قوم مشايخ وغير ذلك عقلاء • قال مالك : (ماسمعت أن أحد ا من أهل الإسلام يفعل هذا) • (١)

قلت : وهذا يدل على أنه لا يعرفهم • ويقول القشيرى فى الرسالة : (وأشتهر هذا الإسم لهؤلاء الا كابر قبل المائتين من الهجرة) • (٢) بينما نجد الكلاباذى بعد على بن الحسين زين العابدين أول من نطق بعلوم الصوفية وأظهر ماواجيدهم بعد على ، والحسن والحسين ، وذكر الحسن البصرى ومن جاء بعدة من الزهاد والعباد بالقرن الأول والثانى من الهجرة ضمن الصوفية • (٣)

وهذا ما نقد به ابن الجوزى كثيرا من أوائل مؤلفي الصوفية • (٤)

قلت : والذى يعرف أن هؤلاء الأوائل من العباد والزهاد لم يطلق عليهم أحد من المؤلفين الأقدمين إسم الصوفية ، وانما كان هذا الإسم ينسب إليه أفراد قلائل ، زادوا على أهل الزهد بأقوال وسمات معينة كما ذكر ذلك السهروردى (٥) وابن الجوزى (٦) وغيرهما •

ويفرق ابن الجوزى بين الزهد والتصوف فيقول :(فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد وقد ذموا التصوف) (٧)

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك تحقيق عبد القادر الصحراوى ط ١٤٠٣٢ هـ جـ ٢ ص٥٣ - ٥٤ •

(٢) القشيرية جـ ١ ص ٥٣ • (٣) التعرف ص ٢٧ وما بعدها •

(٤) تلبيس إبليس ص ٢٠٤ - ٢٠٥ وما بعدها •(٥) عوارف المعارف ص ٦٥ وما بعدها •

(٦) تلبيس إبليس ص ٢٠٤ •

(٧) نفسه •

قلت : صحيح أن الصوفية كانوا يحسبون من جملة الزهاد والنساك ولذا من أراد من المؤلفين - بعد إشتهار هذا الإسم لهم - إفرادهم بشيء إختصوا به قال : ومن جملة الزهاد الصوفية ٠ وظل الأمر هكذا حتى ألف الصوفية أنفسهم كتبا ذكروا فيها أسماء رجالهم وأحوالهم وسماتهم التى تميزوا بها عن غيرهم من المسلمين ٠ وأول مؤلف يذكرهم - حسب علمى - فى كتاب ويسمى بعض رجالهم الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٠ هـ ٠ قال فى كتابه البيان والتبيين : (وأسماء الصوفية من النساك ممن كان يجيد الكلام كلاب ، وكليب ، وهاشم الأوقصى وأبو هاشم الصوفى ، وصالح بن عبد الجليل ٠) (١)

قلت : وورد لفظ الصوفية لقبا مفردا لأول مرة فى التاريخ فى النصف الأول من القرن الثاني الهجري ، إذ نعت به جابر بن حيان صاحب الكيمياء الشيعى وهو من أهل الكوفة وله فى الزهد مذهب خاص ٠ وابو هاشم الكوفى الصوفى المشهور الذى تقدم ذكره (٢) أما لفظ (الصوفية) التى تقدم أنها ظهرت فى ءآخر القرن الثانى الهجرى تقريبا ، فإنه جاء فى خبر فتنة قامت بالإسكندرية ما يدل على أن التصوف الإسلامى يكاد يكون رؤساؤه من قادة الشيعة فى الكوفة وكان عبدك الصوفى من آخر أئمة هؤلاء وهو من القائلين بأن الإمامة بالتعيين ، وكان لا يأكل اللحم ، وقد توفى ببغداد سنة ٢١٠ هـ (٣) ٠

قلت : ويظهر أن بغداد أصبحت فيما بعد مركزا لشيوخ التصوف على مختلف مشاربهم ٠

حيث ظهــر منهم من يجلس فى المساجد ويلقى الدرس فى التصوف ومعارف الصوفية علنا بعد أن كان ذلك سرا (ولم يعرف على وجه التحديد أول من ألقى الدرس فى التصوف علنا فى المساجد ٠ (٤)

---

(١) البيان والتبين للجاحظ دار الفكر للجميع ١٩٦٨ م جـ ٢ ص ٩ ٠

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ط - العربية مجلد الخامس ٠٠ ص ٦٥ ٢ - ٦٦٢ ٠

(٣) المرجع السابق ، ونشأة الفكر الفلسفى الإسلامى جـ ٣ ص ٢٦٥ وما بعدها ٠

(٤) انظر دائره المعارف الإسلامية جـ ٥ ص ٢٥٨ ٠

المطلب الرابع : أقسام الصوفية

كان التصوف فى بداياتة الأولى على شكل فردى ، وكان المجتهدون في العبادة ، يعرفون بالقراء أو النساك أو الزهاد ، ولذا لم نجد من عدهم صوفية ولا من عد الصوفية فرقة مستقلة ، والذين ذكروهم من كتاب الفرق الأولين إنما يذكرونهم فى جملة أصحاب الروحانيات كما فعل الملطى (١) أو فى جملة النساك كما فعل ابو الحسن الأشعرى (٢) وتقدم ذلك عن الجاحظ وابن الجوزى (٣) أو فى جملة المجتهدين فى الطاعة كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية (٤) إلا أن كلا من هؤلاء وغيرهم ممن ذكر الصوفية فيما بعد بدأوا يذكرون انفراد الصوفية بصفات إتصفوا بها وسمات إمتازوا بها عن غيرهم وأحوال وأقوال ذكروها عنهم لم تكن معروفة عن القراء والنساك والعباد .

وهذه الأمور فيها مايدل على أنهم أقسام وطوائف متعددة المشارب والأذواق مختلفة المقاصد والإتجاهات ولذلك إختلف الناس فيهم إختلافا كثيرا ، فمن رافض لهم ، ومن داخل معهم ومسلم لهم ومفضل لهم على جميع الناس حتى الصحابة رضوان الله عليهم . (٥)

وبناءا على هذا الإختلاف ينبغى أن نذكر من عدهم فرقة من فرق المسلمين :
- أولا : ثم نورد تقسيم بعض المؤلفين لهم ، لنرى هذه الأقسام هل يمكن أن تجتمع تحت ظل فرقة واحدة ومبادىء متفقة أم لا ؟

إننا نجد الرازى بعدهم فرقة من فرق المسلمين ويعيب على كتاب الفرق

---

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع تأليف محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى الشافعى المتوفى ٣٧٧ هـ قدم له وعلق عليه محمد زاهد بن الحسن الكوثرى ط بغداد ١٣٨٨ هـ ص ٩٣ - ٩٥ .

(٢) مقالات الإسلاميين وإختلاف المصلين ط ١٤٠٠ ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٣) أنظر ص ١٠ - ١١ من هذا البحث .

(٤) الفتاوى مجلد ١١ ص ١٤ .

(٥) تلبيس إبليس ص ٢٠٢ - ٢٠٥ ومجموع الفتاوى ج ٣ ص ١٧ وما بعدها .

الإسلامية قبله عدم إفرادهم الصوفية فرقة مستقلة ، ويرى أن حاصل قول الصوفية هو : أن الطريق إلى معرفة الله تعالى هى : التصفية والتجرد من العلائق البدنية ، وأن هذا طريق حسن (١) ٠

ويرى الغزالى أن الصوفية من الأصناف الأربعة الطالبة للحق ويقول عنهم (وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة) (٢)

ويرى ابن السبكى فى شرحه لعقيدة ابن الحاجب أن الصوفية طائفة من أهل السنة وذلك عند عرضه لطوائف أهل السنة - قال والثالثة : (أهل الوجدان والكشف ، وهم الصوفية ، ومبادئ أهل النظر والحديث فى البداية ، والكشف والإلهام فى النهاية) ٠ (٣)

ونجد من الكتاب المتأخرين المهتمين بتاريخ الفرق الإسلامية من لا يوافق على أن الصوفية فرقة مستقلة ، ولذا يقول أحمد أمين فى كتابه ظهر الإسلام فى مجال بيانه لنشأة التصوف : (التصوف نزعة من النزعات لافرقة مستقلة كالمعتزلة ، ٠ والشيعة ، وأهل السنة ، ولذلك يمكن أن يكون الرجل معتزليا وصوفيا ، أو شيعيا وصوفيا ، أو سنيا وصوفيا ، بل قد يكون نصرانيا أو يهوديا أو بوذيا وهو متصوف) ٠ (٤)

قلت : وقد علق الكاتب فى الهامش أنه وجدت فى العصر الحديث جمعية صوفية برئاسة عناية الله خان تجمع بين أديان مختلفة وتصدر مجلة صوفية كل ثلاثة شهور ٠ (٥)

قلت : فالتصوف إذا ميدان واسع ينسب إليه المسلمون وغيرهم وأهل الحق

---

(١) اعتقادة فرق المسلمين والمشركين للإمام الرازى - ط للكليات الأزهرية ص ١١٥ ٠

(٢) المنقذ من الضلال للغزالى ، - تحقيق عبد الحليم محمود - دار الكتب الحديثة ط ٨ ١٣٩٤ هـ ص ٩٣ ٠

(٣) نقلا عن ظهر الإسلام لأحمد أمين دار الكتاب العربى - بيروت جـ ٤ ص ١٤٩ ٠

(٤) ظهر الإسلام جـ ٤ ص ١٤٩ ٠

(٥) نفسه ٠

والباطل ، وعليه فلا يتعين على كتاب الفرق الإسلامية إفراد المتسببين له كفرقة مستقلة وبالتالى فلا يتوجه عندى نقد الرازى لمن سبقه لعدم ابراز هم الصوفية كفرقة مستقلة ، وأن كان بين أن الصوفية الذين يقصدهم ، هم القائلون بأن التجرد والتصفية للنفس من العلائق هى الطريق لمعرفة الله ، وليس هذا مذهب كل الصوفية كما يتبين إن شاء الله من ذكر أقسامهم ، وأوصافهم .

أول من ذكر أقوال الصوفية وأحوالهم - حسب علمى - ولم يسمهم الصوفية هو الملطى ، إذ يقول : فى معرض رده على أصحاب البدع . (ومنهم الروحانية وهم أصناف فمنهم الفكرية القائلون بأن الفكر هو منتهى لذتهم وغاية عبادتهم ، وأنهم ينظرون بفكرهم وأرواحهم فى ملكوت الله تعالى وينعمون بالجنان ، ويتلذذون لمخاطبة الله لهم ومصافحته إياهم .

ومنهم أصحاب المحبة القائلون بالخلة من الله تعالى وذلك أنهم زعموا أن حب الله يغلب عليهم ، وعند ذلك يجعل الله لهم السرقة ونموها من فعل الفواحش والكبائر لأجل خلته لهم لا على سبيل الاباحة ، وانما على سبيل أن الخليل يباح له الاكل والأخذ من مال خليله ، ومنهم رباح وكليب .

ومنهم المضمرية ومعناها عندهم أن يحمل الواحد منهم على نفسه بالمجاهدات والجوع حتى يستوى عنده الخل والعسل والصبر والخميص فعند ذلك حل له كل شيء ، وأتبع نفسه ما أشتهت ، ومنهم ابن حيان .

ومنهم القائلون أن الزهد فى الحرام فقط ، وللمرء أن يتمتع بماشاء من الدنيا وفضلوا الأغنياء على الفقراء .) (١)

قلت : ويؤكد أبو الحسن الاشعرى فى مقالات الإسلاميين وجود هذه الأوصاف فى النساك من الصوفية فيقول : (وفى النساك من الصوفية من يقول بالحلول واطراح الشرائع) .

---

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص ٩٣ - ٩٥ بتصرف .

وأن الانسان ليس عليه فرض ولا تلزمه عبادة ، إذا وصل إلى معبوده وأتى بمجمل ماوصفهم به الملطى قبله . (١)

ويرى ابن الجوزى أنه بفعل زيادات المشايخ وبمرور الزمن ظهرت إنحرافات شديدة فى حياه الصوفية ، وعقائدهم حيث ظهرت فيهم طوائف تقول بعشق الحق والهيمان فى الله وطوائف تقول بالحلول والاتحاد ، ويرجع ذلك الى كثرة الجوع والمجاهدات الشاقة التى أخذ بها المشايخ مريديهم مع البعد عن العلم . (٢)

ويرى الهجويرى أن الصوفية ثلاثة أقسام : هى : -

القسم الأول : الصوفى: وهو الفانى عن نفسه ، والباقى بالحق ، قد تحرر من قبضه الطبائع .

القسم الثانى : المتصوف : وهو من يطلب درجة الصوفى بالمجاهدات ويقوم نفسه فى طلب المعاملات .

القسم الثالث : المستوصف وهو من تشبه بالصوفية من أجل المنال والجاه ، وحظ الدنيا ، ... إلى حد أن قيل فى المستصوف : أنه عند الصوفية كالذباب ، وعند غيرهم كالذئاب ، إلى أن قال : فالصوفى هو صاحب الوصول والمتصوف صاحب الأصول ، والمستصوف هو صاحب الفضول) .(٣)

ويتفق شيخ الاسلام ابن تيمية مع الهجويرى على هذا التقسيم ويشرحه قائلا : (إن الصنف الأول : هم أصحاب الحقائق وأن أهم صفاتهم التفرغ للعبادة ،

---

(١) مقالات الإسلاميين ص ٢٨٨ بإختصار.

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣) كشف المحجوب للهجويرى - على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجويرى الغزنوى ابي الحسين المتوفى سنة ٤٥٦ هـ تقريبا ، ترجمة الدكتوره : إسعاد عبد الهادى قنديل ، مراجعة : أمين عبد المجيد بدوى ، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلاميه بمصر سنة ١٣٩٤ هـ جـ ١ ص ٢٣١ بتصرف .)

والذكر مع الزهد فى الدنيا وأن الصنف الثانى عنده هم صوفية الأرزاق الملازمون للخانقات . والاربطة ، وأن الصنف الثالث : هم صوفية الرسم الذين يظنهم الجاهل أنهم منهم ، وهم ليسوا منهم فى الحقيقة ، لإقتصارهم على المظاهر على الزى كاللباس والوقار ، ولا نصيب لهم فى العمل .) (١)

ويوسع الرازى هذا التقسيم ويزيد فيه وبشرحه قائلا : (إن طوائف المنتسبين إلى الصوفية سته هم : -

أولا : أصحاب العادات : وهم قوم منتهى أمرهم وغايته تزيين الظاهر كلبس الخرقة (٢) وتسوية السجادة .

ثانيا : أصحاب العبادات : وهم قوم يشتغلون بالزهد والعبادة مع ترك سائر الأشغال.

ثالثا : أصحاب الحقائق : وهم الذين يشتغلون بالفكر وتجريد النفس عن العلائق بعد أدائهم للفرائض ... قال : وهم خير فرق الآدميين .) (٣)

قلت والله ولى التوفيق وإلى هنا يكون الهجويرى والرازى وابن تيمية رحمهم الله متفقين على وجود هذه الأقسام الثلاثة ضمن الطائفة الصوفية ، وزاد الرازى عليها الحلولية ، والمباحية ، والنورية .

وقد صرح الهجويرى وابن تيمية أن المحققين من أهل الصوفية يخرجونهم من زمرتهم ولا يرضون بنسبتهم إليهم (٤) والرازى ايضا لايعدهم من جملة المقبولين فى الصوفية ، وإنما يذكرهم بانتسابهم إليهم ، فيقول بعد الاقسام السابقة :

---

(١) الفتاوى جـ ١١ ص ١٩ و ص ٢٠ .

(٢) (هى خرقة التصوف التى يلبسها المريد من يد شيخة الذى يدخل فى إرادتة ويتوب على يده ..) إصطلاحات الصوفية ، لكمال الدين عبد الرزاق القاشانى تحقيق محمد كمال ابراهيم جعفر ط مصر ١٩٨١ م ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٣) إعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١١٥ .

(٤) كشف المحجوب جـ ٢ ص ٥٠١ والفتاوى جـ ١١ ص ١٨ .

رابعا : الحلولية : وهم طائفه من هؤلاء القوم الذين ذكرناهم يرون فى أنفسهم أحوالا عجيبة ، وليس لهم من العلوم العقلية نصيب وافر ، فيتوهمون أنّه قد حصل لهم ، الحلول أو الاتحاد فيدعون دعاوى عظيمة ، وأول من أظهر هذه المقالة فى الإسلام الروافض ، فإنهم إدعوا الحلول فى أئمتهم ٠

خامسا : المباحية : وهم قوم يحفظون طامات لا أصل لها ، وتلبيسات فى الحقيقه وهم يدعون محبة الله تعالى ، وليس لهم نصيب من شىء من الحقائق بل يخالفون الشريعة ، ويقولون : إن الحبيب رفع عنهم التكليف وهم الأشر من الطوائف ، وهم على الحقيقة على دين مزدك ٠ (١)

سادسا: النورية : وهم طائفة يقولون : إن الحجاب حجابان نورى ، ونارى أما النورى فالإشتغال بإكتساب الصفات المحموده كالتوكل والشوق والمراقبة والأنس والوحدة والحالة ٠

وأما النارى فالإشتغال بالشهوة ، والغضب والحرص ، والأمل لأن هذه الصفات صفات نارية كما أن إبليس لما كان ناريا ، فلا جرم وقع فى الحسد ٠ (٢)

قلت : وفى وصف الرازى لهذه الطوائف الثلاثة الأخيرة مايتفق مع ماقدمناه عن الملطى فى أصحاب أهل الخلة والمحبة ، والفكرية والمضمرية من القول بالحلول والاتحاد وإطراح الشرائع ، وأتباع النفس ماتشتهى من الملذات ٠

فهذه أقسام الصوفية عند هؤلاء العلماء ، وقد إخترناهم من بين المؤلفين فى هذا الميدان لما عرف عنهم من شدة العناية بأمر العقائد مع الانصاف والدقة ٠

وهناك تقسيمات للصوفية ذكرها زروق فى قواعد التصوف - تدخل ضمن هذا التقسيم ٠ (٣) ٠

---

(١) هو مزدك الحزمي المانوي ٠ انظر أخباره وعقائده فى : الملل والنحل للشهرستاني ، ٢٥٠ -٢٥١ وقارن بما فى نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام للدكتور سامي النشار ، ط ٧ دار المعارف سنة ١٩٧٧ م ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ٠

(٢) إعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٥٥ إلى ص ١١٧ مع شىء من التحوير ٠

(٣) قواعد التصوف ص ٣٤ و ص ٣٥ ٠

المطلب الخامس : نشأة الطرق الصوفية الأولى

بحثنا فيما سبق عن إشتقاق كلمة الصوفية وعن نشأة الصوفية ، وذكرنا شيئا من تعريفات الصوفية للتصوف ، وبينا أقسام الصوفية ، ونود أن نبحث تحت هذا العنوان مرحله مهمة من مراحل التصوف وهى مرحلة تكوين الطرق الصوفية وذلك أننا عرفنا ، أن التصوف أشتهر بهذا الإسم وأصبحت لة مدارس معلنة تلقى فيها الدروس وتؤلف لها المؤلفات ، ويأخذ فيها المريد زاده الروحى ونمط حياتة المتميز بشكل يكاد يكون منظما فى أواخر القرن الثالث الهجرى •

وإننا نجد فى كتب الطبقات والتراجم أسماء شيوخ أشتهروا بالتفرغ لتربية المريدين ، وأخذ الطلاب بسلوك معين من المجاهدات والرياضات والاوراد والمعارف الخاصة ومن هؤلاء الشيوخ من عاش مابين القرنين الثانى والثالث من الهجره فمن دونهم ، وكثير منهم جاء بآراء جديدة فى الطريق والمعاملات قد تتوافق وقد تختلف (١) •

ومن هنا نشأت طرق صوفية يجتمع مريدوها حول هذا الشيخ أو ذاك ، لما أشتهر به عندهم من العلم او الزهد او الكرامات والمكاشفات ، وأحدث ذلك للطرق شكلا جماعيا بعد أن كانت مقصوره على أفراد لا يجمعهم تنظيم ولا تعاليم مقدسة يتعصبون لها •

ونظرا لكثرة المشايخ والمربين فإننا نكتفى ببعض من أشتهر منهم بالأمامة فى الطريق فى تلك المرحلة وبقى له أتباع حتى اليوم سواء كان من أهل الحق أم من أهل الانحراف عن الطريق المستقيم كما نكتفى بتعريف موجز عن شيخ الطريق وأهم ميزات طريقته ، وفقرة مما ينسب إليه ليتبين بذلك حاله •

---

(١) أحمد زروق والزروقية ، دار مكتبة الفكر طرابلس - ليبيا ط ١ سنة١٣٩٥ هـ تأليف : الدكتور على فهمى حسين ، ص ١٤٠ ص ١٤١ •

كثرة الطرق وتعددها

(الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلق) (١) . هذه كلمة يعتذر بها الصوفية عن ذلك التباين والاختلاف الكبير بين طريق وطريق وشيخ وشيخ حتى قالوا : لكل شيخ طريق ، وسواء كان هذا الإعتذار مقبولا أو غير مقبول فإن الطرق الصوفية كثيرة جـدا ، وما زالت تولد مع كل مصدر جديد طريقه تنسب إليه أو إلى أهله أو بلدته .

ولعل من المناسب أن نشير إلى أن بعض المصنفين من الصوفية يذكرون طرقا لاوجود لها حقيقة أصلا وذلك مثل :

* الطريقة المحمدية :

ويزعمـون أن الخضر عليه السـلام أخـذها عن النبى صلى الله عليه وسلـم (٢) وليس للنبى صلى الله عليه وسلم طريقة غير الكتاب والسنة ، وهما وحى لم يخص بهما أحد دون آخر من الناس لا الخضر ولا غيره .

* والصديقية :

وهى نسبة إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنة .

* والاويسية :

وهى نسبة إلى أويس ابن عامر بن جرير بن مالك القرنى الذى ورد أنه خير التابعين بإحسـان فقالوا : بأنه أخذها عن روحانية النبـى صـلى اللـه عليـه وسلـم .(٣)

وإنما نبهت عليها قبل البدء فى ذكر بعض أمهات الطرق الصوفية ليعلم أننى لاأرى أنها طرق صوفية لها وجود ، وإن كانت عند من ذكرها سابقة فى الزمن على ماسنذكره إن شاء الله .

---

(١) دائرة معارف المعلم بطرس البستانى ، دار المعرفة ، لبنان جـ ١١ ص ٢٩٧ .

(٢) المنهل الروى الرائق فى أسانيد العلوم وأصول الطرايق ، ط ١ ليبيا ص ٤٩ و ٥١ .

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزى ، ط ٢ الركن الهند ، ١٣٨٧٩ هـ ، جـ٣ ، ص ٢٨ - ٢٩ .

١ - الجنيدية

وتنسب الى إبى القاسم الخزار القواريرى ، الجنيد بن محمد بن الجنيد .

أصله من نهاوند (١) إلا أن مولده ومنشأه ببغداد ، ومبنى طريقته كمال المتابعه للسنة المحمدية ، ويلقب بطاوس العلماء ، ومذهبة أكثر المذاهب الصوفية معرفة وشهرة ، وكان سيد الطائفة الصوفية ، وإمام أئمتهم .(٢) ويفضل الصحو(٣) على السكر ، لقى خلقا من العلماء ودرس الفقه على أبى ثور ، وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة .

وأشتهر بصحبة خاله السرى (٤) والحارث المحاسبى (٥) ومحمد بن على أبو جعفر القصاب الصوفى البغدادى (٦) قال الجنيد : (الناس ينسبوننى إلى السرى ، وكان أستاذى محمد القصاب) (٧)

وساق ابن الجوزى بسنده حديثا إلى الجنيد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتقوا فراسة المؤمن فإنة ينظر

---

(١) نهاوند - مثلثة النون ، مع فتح الهاء والواو ، بينهما الف ، وإسكان النون الثانية - بلدة من بلاد الجبل قديمة - فتحت فى خلافه عمر بن الخطاب رضى الله عنه - معجم البلدان ط..ج ٨ ص ٣٢٩ - ٣٣٢ .

(٢) طبقات الصوفية ، لأبى عبد الرحمن السلمى ، تحقيق نور الدين شريبة ، ط الخانجى بالقاهرة ط ٣ سنة ١٤٠٦ هـ ص ١٥٥ وصفه الصفوة مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٣٥ وكشف المحجوب مصدر سابق جـ ٢ ص ٤١٩ وتاريخ التصوف فى الإسلام ٤٣٣.

(٣) الصحو : (هو رجوع العارف إلى الاحساس بعد غيبتة وزوال إحساسة) التعريفات للجرجانى ط ١ الكتب العلمية ١٤٠٣ هـ ١٣٢ .

(٤) هو السرى السقطى ابن الغلس ، كنيتة أبو الحسن توفى سنة ٢٥١ هـ طبقات الصوفية ص ٤٨ .

(٥) تأتى ترجمته ان شاء الله بعد هذا .

(٦) والقصاب مات سنة ٢٧٥ هـ طبقات الصوفية ١٥٥ .

(٧) تاريخ بغداد جـ٣ ، ص ٦٢ .

بنور الله - ثم قرأ (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) (١) ثم قال : قال أبو بكر الخطيب : لا يعرف للجنيد غير هذا الحديث • (٢)

وقد وضع الجنيد لطريقته ثمانية شروط هى : دوام الوضوء ، ودوام الخلوة، ودوام الذكر ، ودوام الصوم ، ودوام السكوت إلا عن الذكر ، ودوام نفى الخواطر خيرا كانت أو شرا ، دوام ربط القلب بالشيخ ، وترك الإعتراض على الله تعالى ثم على الشيخ •

وغالب الطرق راجعه إليه ومن كلامه سئل كيف الطريق إلى الله ؟

فقال : (توبة تحل الإصرار ، وخوف يزيل الغرة ، ورجاء مزعج إلى طريق الخيرات ومراقبة الله فى خواطر القلوب •) (٣)

توفى رحمه الله تعالى يوم السبت فى شوال سنه ٢٩٨ هـ قيل ٢٩٧ هـ (٤)

٢ - المحاسبيه :

نسبه إلى أبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى رحمه الله ، وكنيتة أبو عبد الله قال فيه السلمى : (من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر ، وعلوم المعاملات والإشارات) (٥) •

ويقول الهجويرى عنه : (ويجرى كلامه فى تجريد التوحيد بصحة المعاملة الظاهرة والباطنة ويذهب إلى أن الرضا من جملة الأحوال ، وقال بقول أهل خراسان ، وخالف بذلك أهل العراق الذين يرونه من جملة المقامات ، وأنه نهاية التوكل ، وظل الخلاف بين أهل الإقليمين باقيا ، ويتفق معهم فى المعاملات •

---

(١) الآيه من سوره الحجر ٧٥ •

(٢) والحديث مختلف فيه بين الوضع والضعف تخريج الاربعين السلمية فى التصوف للحافظ السخاوى ، تحقيق على حسن على عبد الحميد • المكتب الإسلامى ط ١ ١٤٠٨ هـ ص ١٣٣ - ١٣٥ والطبقات ص ١٥٦ •

(٣) المنهل الروي الرائق ص ٦٢ - ٦٣ •

(٤) طبقات الصوفية ص ١٥٦ •

(٥) نفسه ص ٥٦ •

وكان يزجر المريدين عن العبارات التى يتوهم فيها الخطأ مهما كان أصلها صحيحا) . (١) وهو أستاذ أكثر البغداديين ، وأصله من البصرة .

وعنده أن الرضا نوعان : -

١ - رضا الله عن العبد ، وحقيقتة عنده إرادة التواب والنعمة للعبد .

وفى هذا دلالة واضحة على الأخذ بالتأويل فى الأسماء والصفات .

٢ - رضا العبد عن الله ، وحقيقته عنده إستواء المنع والعطاء عنده . (٢)

ونقل الجنيد عنه قوله : (ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن الخلق مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الأمانة) (٣) توفى رحمه الله تعالى سنة ٢٤٣ هـ . (٤)

٢ - الحكيمية :

وهى طريقة تنسب إلى أبى عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى وصفة الهجويرى فقال : كان واحدا من أئمة وقته فى جميع علوم الظاهر والباطن ، وكانت قاعدة كلامه وطريقه على الولاية ، وهى كما كشفها : أن لله عز وجل أولياء قد خصهم بمحبته وولايته ، وهم ولاة ملكه الذين إصطفاهم ، وجعلهم آية إظهار فعله ، وخصهم بأنواع الكرامات) (٥) .

ولعله هو أول من أدخل فى الصوفية فكرة الولاية والأقطاب والابدال والنقباء(٦) .

---

(١) كشف المحجوب جـ ٢ ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٢) صفة الصفوة جـ ٢ ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٣) نفسه .

(٤) طبقات الصوفية ص ٥٦ .

(٥) كشف المحجوب جـ ٢ ، ص ٤٤٢ .

(٦) كتاب الصفدية : تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم ط ٢ ١٤٠٦ هـ ص ٢٤٨ .

ومن كلامه : (من جهل أوصاف العبودية فهو بنعت الربوبية أجهل) . (١)

توفى الحكيم الترمذى رحمه الله سنة ٢٥٥ هـ (٢) .

٤ - الحلولية (أو الحلاجية)

وتنسب إلى أبى مغيث الحسين بن منصور الحلاج المقتول بباب الطاق ببغداد يوم الثلاثاء لست بقين من ذى القعدة سنة ٣٠٩ هـ .

قال السلمى : (والمشايخ في أمره مختلفون ، رده أكثر المشايخ ، ونفوه ، وأبوا أن يكون له قدم فى التصوف ...) (٣)

قال الهجويرى : وتنسب أيضا الحلولية إلى ابى حلمان الدمشقى ، وأصلة من فارس ، وعاش فى حلب وأظهر دعوته فى دمشق ، وكان كفره من وجهين .

أحدهما : القول بالحلول - أى بحلول الإله فى الأشخاص الحسنة .

ثانيا : قوله بالإباحة ، وأن من عرف الإله على الوصف الذى يعتقده هو زال عنة الحظر والتحريم . (٤) قال الهجويرى : (وأنا على بن عثمان الجلابى أقول : إنى لاأعرف من كان فارس هذا وابو حلمان ، وماذا قالا ، ولكنى أقول : إن كل قائل مقالة تخالف التوحيد والتحقيق ليس له من الدين نصيب ، وحين يكون أصل الدين ، غير مستحكم ، فالأولى أن يكون التصوف - وهو نتيجة وفرع - مختلا) (٥) .

---

(١) صفة الصفوة جـ ٤ ، ص ١٤٠ .

(٢) طبقات الصوفية جـ ٢١٧ ، ص ٢٢٠ .

(٣) نفسه ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٤) كشف المحجوب جـ٢ص ٥٠١ والفرق بين الفرق ، لعبد القاهرين طاهر البغدادى ص٢٤٥

(٥) كشف المحجوب جـ ٢ ، ص ٥٠١ .

٥ - الخفيفيه :

وتنسب هذه الطريقة إلى أبى عبد الله محمد ابن خفيف بن أسفكشاذ الضبى. وكان من كبراء سادات هذه الطائفة كما يقول السلمى (١) .

وطراز مذهبه فى التصوف هو الغيبة والحضور ، وتعرف الغيبة بأنها غيبة القلب عما دون الحق إلى حد أن يغيب حتى عن نفسه (٢) .

ويعرف الحضور بأنه حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصير الحكم الغيبى مثل الحكم العينى وهو ممن يقدم الغيبة على الحضور ، ولذا كان يقول : (الحسين بن منصور عالم ربانى) يقصد الحلاج مما يدل على موافقته له (٣) وتوفى سنة ٣٧١ هـ (٤) .

٦ - الخرازية :

وتنسب إلى أبى سعيد الحزاز ، وإسمه أحمد بن عيسى من أهل بغداد ، صاحب بشر بن الحارث الحافى ، وسري السقطى ، وذى النون ... (٥) ومن كلامه (العافية تأتى القلوب من جهتين : من جهة عين الجود ، ومن بذل المجهود) (٦) وقيل بأنه كان من أول المعبرين عن حال الفناء والبقاء (٧) وتوفى سنة ٢٧٩ هـ(٨) .

---

(١) طبقات الصوفية ص ٤٦٢ .

(٢) كشف المحجوب جـ ٢ ص ٤٨٨ - ٤٩٠ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٣٠٨ .

(٤) نفسه ص ٤٦٢ .

(٥) نفسه ص ٢٢٨ .

(٦) تاريخ التصوف فى الإسلام ص ٦٤٠ وكشف المحجوب جـ ٢ ص ٤٨٠ .

(٧) طبقات الصوفية ص ٢٢٨ .

(٨) وفى الرسالة القشيرية أنة مات سنه ٢٧٧ هـ ، جـ ١ ، ص ١٤٠ .

٧ - السهلية :

وتنسب الى سهل بن عبد الله بن يونس التسترى ويكنى أبا محمد (١) قال الهجويرى عنه : (كان من محتشمى أهل التصوف وكبارهم) (٢) ووصفه السلمى فقال : (أحد أئمة القوم وعلمائهم ، والمتكلمين فى علوم الرياضات ، والإخلاص ، وعيوب الافعال) (٣) .

وطريقتة الاجتهاد ، ومجاهدة النفس والرياضة ، (وكان يوصل المريدين بالمجاهدة إلى درجات الكمال) (٤) قلت : هذا التعبير واسع ولعله يريد ما في مقدور البشر .

ومن كلامه : (ليس كل من عمل بطاعة الله صار حبيب الله ، ولكن من أجتنب مانهى الله عنه صار حبيب الله ، ولا يجتنب الآثام إلا صديق مقرب ، وأما أعمال البر فيفعلها البر والفاجر) (٥) وتوفى رحمه الله سنة ٢٨٣ هـ وقيل ٢٩٣ والاول يظن السلمى أنه الأصح (٦) .

٨ - السيارية :

وتنسب إلى أبى العباس القاسم بن القاسم بن مهدى بن بنت أحمد بن سيار . (كان أمام أهل مرو في كل العلوم) (٧) قال الهجويرى : (ولم يبق أى مذهب من مذاهب أهل التصوف على حاله إلا مذهبة ... وكان أحسن المشايخ لسانا فى وقته يتكلم في علوم التوحيد على لسان الجبر) (٨) وتوفى أبو العباس السيارى سنة ٣٤٢ هـ (٩) .

---

(١) طبقا ت الصوفية ص ٢٠٦ وكشف المحجوب جـ ٢ ص ٤٢٦ .

(٢) كشف المحجوب جـ ٢ ص ٤٢٦ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٢٠٦ .

(٤) كشف المحجوب جـ٢ ص ٤٢٦ .

(٥) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٤٥ - ٤٦ .

(٦) طبقات الصوفية ص ٢٠٦

(٧) نفسه ص٤٤٠ .

(٨) كشف المحجوب جـ ٢ ص ٤٩٣

(٩) طبقات الصوفية ص ٤٤٠ .

٩ - الطيفورية

وتنسب إلى ابى يزيد طيفور بن عيسى إبن سروشان البسطامي (وكان من رؤساء المتصوفة) (١) وطريقته الغلبة والسكر عكس الجنيد (٢) وتوفى سنه ٢٦١هـ وقيل ٢٣٤ هـ (٣) .

١٠ - القصارية (الحمدونية - الملامتية)

وتنسب إلى أبى صالح حمدون بن عمارة القصار النيسابورى - شيخ الملامتية بنيسابور ، ومنه أنتشر مذهبها (٤) قال الهجويرى : (وكان من العلماء الكبار وسادات هذه الطريقة) وتوفى سنة ٢٧١ هـ (٥) .

١١ - النورية

وتنسب إلى أبى الحسين - وقيل الحسن - وهو : أحمد بن محمد وقيل محمد بن محمد وأحمد . النورى البغدادى المولد والمنشأ الخراسانى الاصل (٦)

قال ابن الجوزى :(وقد سئل أبو الحسين عن الرضى ، فقال : عن وجدى تسألون أو عن وجد الخلق ؟ فقيل عن وجدك ، فقال : لو كنت فى الدرك الأسفل من النار لكنت أرضى ممن هو فى الفردوس) (٧) وتوفى النورى قبل الجنيد سنة ٢٩٥ هـ .

فهؤلاء من مشاهير طبقات الصوفية الخمس التى ذكرها السلمى فى طبقاته عرفنا بهم كنماذج أولية لتكوين الطرق الصوفية حيث أنة صدر عن كل واحد من هؤلاء ، وأمثالهم طوائف من الشيوخ الذين أخذوا بمسلكه ومعتقده، ونظموا الطرق الصوفية فى شكلها المتوارث ، ومن أبرز الشيوخ المتأخرين الشيخ عبد القادر الجيلى الذى تنسب إليه القادرية باسمها وتتفرع عنه طرق أخرى كثيرة تصل إلى الخمسين أو أكثر (٨) . وفيما يلى ترجمة الشيخ عبد القادر .

---

(١) كشف المحجوب جـ ٢ ص ٤١٣ وما بعدها .

(٢) نفسه . قال الجرجانى : (السكر عند أهل الحق : هو غيبة بوارد قوى وهو يعطي الطرب والألتذاذ وهو أقوى من الغيبة وأتم منها) التعريفات ص ١٢٠ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٦٧ .

(٤) طبقات الصوفية ١٢٣ ومذهب الملامية أو الملامتية مختلف فى حال أهله فالجرجانى يقول عنهم (هم الذين لم يظهروا مما فى بواطنهم على ظواهرهم ، وهم يجتهدون فى تحقيق كمال الاخلاص ...) التعريفات للجرجانى ص ٢٣٠ ويمتدحهم صاحب عوارف المعارف بمثل هذا ص ٧١ وما بعدها .

(٥) كشف المحجوب جـ٢ ص ٤١٢ .

(٦) طبقات الصوفية ص ١٦٤ .

(٧) صفة الصفوة جـ ٢ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٨) دائرة المعارف الإسلامية ط العربية جـ ١٥ - ص ١٧٦ - ١٨٥ ودائرة معارف المعلم بطرس البستاني جـ ١١ ص ٢٩٧ .

الباب الأول

نشأة القادرية

تمهيد : في عصر الشيخ عبد القادر الجيلي .

وفيه : - الأحوال السياسية .

- الأحوال العلمية .

- الأحوال الإجتماعية .

الاحوال السياسية عند ظهور الشيخ عبد القادر الجيلي في بغداد

دخل الشيخ عبد القادر بغداد بعد إنتهاء دولة بنى بويه الشيعية ، ووصول سلاطين السلاجقة إلى الحكم فى بغداد ، وقيام دولتهم السنية .

وكانت الاوضاع السياسية متأزمة إلى حد كبير بين الخلافة العباسية ، والحكام الجدد من جهة ، وبين السلاجقة فيما بينهم من جهة أخرى .

فقد عاش الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى فى بغداد من عام ٤٨٨ هـ إلى عام ٥٦١ هـ وعاصر خمسة خلفاء من بنى العباس هم المستظهر بالله - وهو أبو العباس أحمد بن عبد الله المقتدى - ينتهى نسبه إلى هارون الرشيد ولد عام ٤٧٠ هـ وبويع له بالخلافة عام ٤٨٧ هـ ومات عام ٥١٢ هـ وكانت مدة خلافته ٢٤ عاما .

والمستظهر هذا جاء بعده إبنه : المسترشد بالله وهو : أبو منصور الفضل بن أحمد بن عبد الله المقتدى . بويع له بالخلافة عام ٥١٢ هـ وكانت خلافته خلافة سنة حيث قام ضد الباطنية ، والمفسدين وإعداء الدين ، حتى قتلته الباطنية عام ٥٢٩هـ وهو آخر خليفة رئى خطيبا وكانت مدة خلافته ١٧ عاما رحمه الله

ثم جاء بعده إبنه الراشد بالله وهو : أبو جعفر منصور بن الفضل المسترشد بالله ، بويع له بالخلافة بعد وصول نعي أبيه عام ٥٢٩ هـ

وأنفذ خادما وحاجبا لكل مسجد ، وخطب له بالخلافة فى جميع جوامع مدينة السلام وبعد عام من توليته الخلافة خلعة السلطان السلجوقى مسعود بن محمد ابن ملكشاه ، وكان خارجا عن بغداد فى زيارة للموصل ، وظل متمسكا بالخلافة حتى قتله جماعة من الباطنية سنة ٥٣٢ هـ .

ثم جاء بعده ابن أخيه المقتفيى لأمر الله ، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد المستظهر بالله بن عبد الله المقتدى ، بويع له بالخلافة بعد خلع عمه الراشد بالله عام ٥٣٠ هـ وكان عابدا قبل الخلافة وأستمر على ذلك ، وكانت له مبرات ورأفة بالرعية ، ورغب الناس فى عهده بالأشتغال بالعلم ، وقد أخذ

الحديث وحدث ، وتوفي عام ٥٥٥ هـ وكانت مدة خلافته ٢٤ عاما (١) .

ثم جاء بعده إبنه المستنجد بالله ، وهو أبو المظفر يوسف بن محمد المقتفى بن أحمد المستظهر بويع له بالخلافة بعد موت أبيه بعهده إليه سنة ٥٥٥ هـ وكانت مدة خلافته ١١ عاما حيث إنه توفى سنة ٥٦٦ هـ (٢) .

فهؤلاء الخلفاء الذين عاصرهم الشيخ عبد القادر ، وكانت البلاد فى عهدهم تعيش فى قلق سياسى بسبب كثرة الحروب والمنازعات والخصام على السلطة .

فعندما توفى السلطان محمود السلجوقى فى شوال سنة ٥٢٥ هـ ظهر نزاع شديد بين إبنه داوود وعمه مسعود ، وتم الصلح بينهما بعد حرب شديدة عام ٥٢٦ هـ وفى نفس العام تدخل السلطان سنجر السلجوقى وحارب مسعود ا و هزمه وطرده وعين مكانه على سلاجقة العراق السلطان طغر بن محمد ولكن مسعود ظل يقاتل حتى إستعاد عرش سلاجقة العراق ، ولم يكد يصفو له الجو سياسيا حتى نشأ خلاف بينه وبين الخليفة فدارت بينهما الحرب عام ٥٢٩ هـ .فهزم الخليفة وأخذ أسيرا وسجن مع أعيان رجاله ، ولما قتله الباطنية فى سجنه وعين الراشد بالله خليفة بعده دارت حرب بينة وبين مسعود عام ٥٣٠ هـ فحوصرت بغداد نيفا وخمسين يوما ففر الخليفة الى الموصل فعزله مسعود وعين مكانه ابن أخيه المقتفيى لأمر الله (٣) .

ونتجت عن هذه الأوضاع السياسية السيئة المتردية ءآثار كبيرة في أحوال الناس العلمية والدينية والاجتماعية .

---

(١) مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بنى العباس ، تأليف الشيخ ظهر الدين على بن محمد البغدادى المعروف بإبن الكازروني المتوفى سنة ٦٩٧ هـ ط ١ وزاره الاعلام بالعراق، بغداد ، تحقيق مصطفى جواد سنة ١٣٩٠ هـ ص ٢١٥ -٢٣٦.

(٢) نفسة ص ٢٣٦ .

(٣) دولة السلاجقة، تأليف عبد المنعم محمد حسنين ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط عام ١٩٧٥م ص ١٠٦ - ١٠٩ .

الأحوال العلمية

وهكذا أثرت هذه الأوضاع السياسية فى الحياة العلمية فأثرتها وأثرت فيها فأهتزت الثقة وراج التعصب الدينى والمذهبى والعقدى والفكرى ، وأنتشرت الخرافات وأزداد ميل الناس إلى العزلة والانزواد والإعتكاف للعبادة ، وصاحب ذلك كثرة الطوائف والفرق ٠

فأنشأت المدارس ، وألفت الكتب وعقدت المجالس لترويج المذاهب وكسب النـاس ضد الخصوم ونتجت عن هذه الاحوال أمور كانت خطيرة على الأمة منها : -

(١) عداوة بعض أهل العلم لبعض ٠

(٢) إستخدام العلم والفلسفة أداة للمجادلات المذهبية ٠

(٣) غلبة الجفاف والجفاء على المباحث العلمية والفلسفية (١) ٠

الأحوال الإجتماعيه

تأثرت الأوضاع الإجتماعية بهذه الاحوال السياسية والعلمية فأشاعت فى الناس روح الفوضى والإضطراب الفكري والنفسي ، والقلق السياسي ، والخوف على الحياة والمستقبل من القتل أو الأسرأو الإهانة أو الجوع ٠

فمال الناس نتيجة لذلك إلى الوعاظ وشيوخ الصوفية رغبة فى تهدئة النفوس ، وهروبا من معترك الحياة المضطربة ، فازداد بذلك نسبة الوعاظ والمزهدين ورجال الصوفية الذين أخذوا من مراكز تجمع الناس منابر لهم ، كالمساجد ، والأسواق ، والمقابر ، أو المناسبات العامة ٠

وهكذا وجد الناس فى خطب الوعاظ والمتصوفة تسلية روحية وراحة فكرية وبدنية ، وإزداد إقبال المريدين على المساجد والأربطة التى قامت الخلافة بإنشائها وتشجيع الناس على تعمير ها حيث أصبح الوعاظ وشيوخ الصوفيـــة

---

(١) نفسه ص ١٥٥ - ١٥٧ وما بعد ذلك ٠

يرتبون من قبل الخلافة ، ويكونون تحت إشرافها ومراقبتها (١) .

فإزدادت بذلك مكانة الصوفية عند الناس وقويت الثقة فى شيوخها فى الجهة الرسمية والشعبية ، فأنتشرت الأربطة ، وكثر المعتكفون فأجريت عليهم النفقات والإعطيات من الخلافة والأغنياء (٢) .

والناس كما قال ابن الجوزى : إما طالب دين أو طالب دنيا . فطلاب الدين مالوا إلى الصوفية لما يظهرونه من التزهد ، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرونه عندهم من الراحة واللعب حيث إنهم ترخصوا فى السماع والرقص (٣) .

وهكذا شملت هذه الأوضاع الخلفاء والوزراء والسلاطين والأغنياء والتجار والعسكر وعوام الناس وكان تأثير الصوفية طاغيا فى هذة الأيام على الناس جميعا فازداد تقديس الناس لهم وتفضيلهم على العلماء .

فنشروا أخبارهم فى مجالسهم الخاصة ومناماتهم وكراماتهم وأحوالهم فى سياحتهم وتطوافهم فى البلاد الإسلامية شرقا وغربا (٤) .

وكان لظهور ثلاثة أقطاب من الصوفية - كما وصفوهم - فى زمن متقارب فى العراق أثر بالغ على الناس فى حياتهم الاجتماعية ، وإعتقاداتهم الدينية .

وذلك بسبب دروسهم ومؤلفاتهم التى تركوها لأتباعهم كبرامج للمريدين من بعدهم وهم : الشيخ عبد القادر الجيلى الذى ستأتى إن شاء الله ترجمتة مفضلة فى الفصل الأول من هذا الباب .

والثانى : الشيخ أحمد الرفاعى - وهو محيي الدين أبو العباس أحمد بن على الرفاعى من سواد العراق من واسط .

---

(١) تاريخ العراق الأخير ، بدرى محمد فهد (بدون) ص ٣٩٣ و ٤١٩ .

(٢) دولة السلاجقة ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٣) تلبس إبليس ص ١٩٩ .

(٤) تاريخ العراق الأخير ص ٤٩٤.

وكان كما قيل رجلا صالحا فقيها شافعى المذهب علوي النسب ، أعتقد الناس فيه لزهده ووعظه ونسبوا له أشياء كبيرة على أنها كرامات • توفي سنة ٥٧٨ هـ (١) •

الثالث : الشيخ عمر السهروردى وهو : أبو حفص عمر بن محمد السهروردى الملقب بشهاب الدين ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنه • أخذ العلم عن علماء بغداد وسلك فى التصوف على خاله أبى النجيب السهروردي والشيخ عبد القادر الجيلي ، ولد السهروردي سنة ٥٣٩ هـ وتوفي سنة ٦٣٢ هـ •

---

(١) نفسه ص ٤٩٤ وما بعدها •

الفصل الأول

الفصل الأول

ترجمة الشيخ عبد القادر

وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول : في نسبه ·

المبحث الثاني : في مولده واسرته ونشأته ·

المبحث الثالث : في رحلته العلمية وشيوخه وتلاميذه

المبحث الرابع : أقوال العلماء فيه - مكانته العلمية والإجتماعية ·

المبحث الخامس : آثاره ومؤلفاته ·

المبحث السادس : عقيدته وسلوكه ·

المبحث الأول : نسبه

* **تقديم :**

إن المترجم لأي شخص عليه أن يبحث اولا هل ترجم ذلك الشخص لنفسه ، وأثبت نسبه بنفسه أولا ؟ أو ترجم له أحد المقربين منه كأولاده المباشرين وتلاميذه المعروفين أولا ؟ .

وعند البحث فى هذه الخطوه الأولى نجد أن الشيخ عبد القادر لم يكتب ترجمه لنفسه ، ولا كتبها له أحد من أبنائه أو تلاميذه المعروفين بصحبته وملازمته ، ولكن نجد بعض المعاصرين له أو القريبين من عصره ترجموا له تراجم متفاوته فى الدقه والقصـــر والطول ، وهى مع ذلك خاليه من ذكر نسبه الذى هو المقصود فى هذا المبحـث .

وقد ذكر محمد بن عزوز المكى فى كتابه : السيف الربانى فى عنق المعترض على الغوث الجيلانى أن مفتى العراق أبا بكر عبد الله بن نصر بن حمزه اليكرى البغدادى من أصحاب الشيخ عبد القادر نفسه ألف فى مناقب الشيخ عبد القادر كتابا سماه : أنوار الناظر .

وأن أبا محمد عبد اللطيف بن هبة الله الهاشمى البغدادى ألف فى مناقبه أيضا كتابا سماه : نزهه الناظر (١) وقد اطلعت على أحد هذين الكتابين المذكورين فلم أجد فيه أيضا عمود نسب للشيخ عبد القادر (٢) .

ويظهر أن أول من ساق عمود نسبه يسنده هو الشيخ على بن يوسف الشطنوفى فى كتاب بهجه الأسرار . وعنه أخذ من ساق عمود النسب مــن المؤلفيـــن بعـده في

---

(١) رسائل بن عزوز المكى ، تحقيق / على الرضا التونسى ، ط ١ سنة ١٤٠٤ هـ ص ١٤٢ .

(٢) قلت : والذى وقفت عليه فى الخزانة العامة بالرباط تحت رقم (٨٩٩) : بهجة الناظر فى فضائل الشيخ عبد القادر ، بدون ذكر أسم مؤلفها . إلا أن الشطنوفى صاحبه بهجة الأسرارالآتى ذكره إن شاء الله : نسبها الى الهاشمى المذكور وهو شيخه وقال بأن مفتى العراق المذكور قبله ألف : أنوار الناظر فى أخبار الشيخ عبد القادر انظر بهجة الأسرار ومعدن الأنوا ، بتحقيق : محمد محرم العمروسى ط١ البابي الحلبي سنة ١٣٠٤ هـ ص ١٠٩.

التاريخ والتراجم ممن ترجم للشيخ عبد القادر إلا أن معظم المؤلفين يقتصر على القول بأنه حسنى من ذريه الحسن بن على رضى الله عنهما وذكر بن عزوز أثنين وستين مؤلفا نص مؤلفوها بالجزم على صحه نسبته للحسن بن على رضى الله عنهما • وقال : (أما البعض من تلك الكتب فقد صرحت بأتصاله بالحسن السبط من غير تعيين لسلسلته المباركه وأما ما ينيف على الثلاثين مؤلفا منها فهى التى عينت أسماء أجداده إلى الحسن) (١)

قلت : وواضح بالنظر إلى التاريخ أن بعض هؤلاء أخذ عن بعض، ولم يكن هدفهم النقد والتمحيص • (٢)

عمود نسبه كما فى بهجه الأسرار :

قال الشطنوفي : (أخبرنا الفقيه العالم أبو المعالى أحمد بن الشيخ المحقق أبي الحسن على ابن أحمد ابن عبد الرزاق عيسى الهلالي البغدادي ، قال : أخبرنا قاضي القضاه أبو صالح نصر قال : أخبرنا والدي عبد الرزاق قال : سألت والدى الشيخ محي الدين عن نسبه قال :

عبد القادر بن أبى صالح موسى جنكى دوست بن أبي عبد الله بن يحي الزاهد بن محمد بن داوود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض ويلقب أيضا بالمجل بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم) • (٣)

وقد تبع الشطنوفي ونقل عنه هذا النسب اليافعي (٤) والتادفي(٥) والحافظ ابن حجـرالعسقلاني (٦) قال الحافظ ابن حجر بعد ذكره لروايه الشطنوي لعمود هذا النسب :

---

(١) رسائل ابن عزوز ص ١٥٦ •

(٢) نفسه ص ١٤٧ - ١٥٤ •

(٣) بهجه الأسرار ص ٨٨ •

(٤) مرآه الجنان وعبره اليقظان فى معرفة مايعتبر من حوادث الزمان لأبي محمد عبد الله بن سعدبن على اليافعى اليمني، ط الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ط٢سنة ١٣٩٠هـ جـ٣ ص٣٥٠

(٥)قلائد الجواهر فى مناقب الشيخ عبد القادر، تأليف : محمد بن يحى التادفى(بدون) ص٣

(٦) غبطه الناظر فى ترجمه مولاي الشخ عبد القادر ، تأليف : أحمد بن على العسقلانى ، مخطوط بالخزانه العامة بالرباط (د / ١٦١٧) ص ٢ •

(عبد الرزاق ولد الشيخ من الثقات وولده أبو صالح نصر من الثقات المسندين ، وقد وقعت لنا الروايه عنه بعلو) • (١)

فلو أن روايه الشطنوفى لعمود هذا النسب سلمت من الطعن لكان لنا أن نجزم بأن الشيخ عبد القادر شريف النسب من ذريه الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم، ولكن هذه الروايه قد طعن فيها قديما وحديثا ، فتحتاج إلى مناقشه حتى يتبين وجه الحق فيها ، إن شاء الله - وسيكون ذلك بعد عرض آراء الطاعنين في نسب هذا الشيخ •

* الاختلاف في نسب الشيخ عبد القادر الجيلي

يتفاوت نقد النسابين والمؤرخين لعمود نسب الشيخ عبد القادر ، فمنهم من يأتي بعبارة داله على عدم جزمه بصحته (٢) ومنهم من جزم بنفى صحه نسبه إلى آل البيت ، ويستدل على ذلك بأدلة نعرضها فيما يلى بإيجاز :

١ - أن سلسله النسب التى تصله بأمير المؤمنين علي رضي الله عنه عن طريق عبد الله بن محمد بن يحي بن محمد بن الرومية ، وعبد الله المذكور رجل حجازي لم يخرج من الحجاز •

٢ - وأن الشيخ عبد القادر لم يدع هذا النسب ولا أحد من أولاده، وإنما ابتدأ هذه الدعوى ولد ولده القاضي أبو صالح نصربن عبد الرزاق •

---

(١) نفسه •

(٢) مثل صاحب الذيل على طبقات الحنابلة فإنه قال فى ترجمته للشيخ عبد القادر : (وبعض الناس يذكر نسبه إلى علي رضى الله عنه) وساق النسب وهو فيه : (عبد القادر ابن أبي صالح بن عبد الله ••) المصدر المذكور ، دار المعرفـه جـ ١ ، ص ٢٩٠ •

ومثله فى ذلك الذهبي فإنه قال في تاريخ الإسلام عند ترجمته له : (وزاد بعض الناس فى نسبه إلى أن أوصله بالحسن رضي الله عنه) مخطوط (مكروفيلم) بمركز البحث العلمي بجامعه أم القرى رقم جـ١٢ / ٢٩١٧ •

٣ - وأن هذا الإسم أعنى (جنكى دوست) أعجمي • (١)

٤ - وأن النسابه بن ميمون عندما طلب منه القاضى نصر إدخاله فى مشجره بين آل الحسن السبط رضي الله عنهم أجابه بأن يتقي الله ويترك الهاشمية لأهلها ، وأن جده عبد القادر بشتيري ينتهى نسبه الى بشتير بطن من الهرامزة بفارس • (٢)

٥ - ومن أكبر المطاعن فى هذا النسب الطعن فى (بهجه الأسرار) التى ذكر فيها هذا النسب بالسند إلى الشيخ عبد القادر •

فصاحب الذيل على طبقات الحنابله ينقل عن الكمال جعفر الأدفوي أن الشطنوفى نفسه كان متهما فيما يحكيه فى هذا الكتاب ثم قال : (ولا يطيب على قلبى أن أعتمد على شيء مما فيه) • (٣)

قلت : ولعل الأدفوي قال هذا الكلام فى الشطنوفى فى كتابه : (البدر السافر فى تحفه المسافر) وهو كتاب فى التاريخ والتراجم وما زال مخطوطا بدار الكتب المصريه • (٤)

والشطنوفي هو : على بن يوسف بن حريز (أو ابن حرز) اللخمى الشطنوفى المقرىء النحوى قال فيه الذهبى : (هو الأمام الأوحد نور الدين شيخ الإقراء بالديار المصرية ، أبو الحسن •• وكان ذا غرام بالشيخ عبد القادر الجيلى ، جمع أخباره ومناقبه فى نحـو ثلاث مجلدات ، وكتب فيها عمن أقبل وأدبر ، فراج عليه فيها حكايـات

---

(١) عمدة الطالب في أنساب آل أبى طالب ، لأحمد بن على الحسنى المعروف بابن عنبة المتوفى سنة ٨٢٨ هـ ضمن مجموعه رسائل الكمالية فى الأنساب ، دار الشعب بالقاهره (بدون) ص ٢٢٩ •

(٢) رسائل ابن عزوز ص ١٦١ •

(٣) الذيل جـ ١ ، ص ٢٩٣ •

(٤) ومنه نسخه فى مكتبه الفاتح بأسطنبول رقم ٤٢٠١ - الموفى بمعرفه التصوف والصوفى ، تحقيق / محمد عيسى صالحية ، ط١ الكويت سنة ١٤٠٨ هـ ص ٢٦ - ٢٧ •

كثيرة مكذوبة) (١) .

ويوافق الحافظ بن حجر الذهبى على القول بأن الشطنوفى راجت عليه فى كتابه (بهجة الأسرار) روايات وحكايات إلا أنه يقول عنه : (وكان عالما تقيا مشكور السيرة) (٢) .

وقد ختم ابن عنبة المتقدم ذكره (٣) طعنة في نسب الشيخ عبد القادر الجيلي بقوله :

(ومع ذلك كله فلا طريق إلى أثبات هذا النسب إلا بالبينه الصريحه العادلة ، وقد أعجزت القاضي أبا صالح ، وأقترن بها عدم موافقة جده عبد القادر وأولاده له) (٤) .

وتبع ابن عنبة ي الطعن فى نسب الشيخ عبد القادرالجيلي ، ابن حماد الموصلى عند ترجمته لعبد الله بن محمد بن يحي الحسني الذي نسبوا إليه الشيخ عبد القادر(٥) وتبعه على ذلك علي بن محمد الفرماني الحنفي في رسالته : (الحق الظاهر فى شرح حال الشيخ عبد القادر) (٦) .

قلت : وقد أثار صاحب الرساله المذكوره قضايا كثيره يؤيد بها طعنه منها : إثارته لاختلاف المؤرخين فى اسم والد الشيخ عبد القادر ، ومنها ماذكرناه عن ابن عنبة ، وغيره (٧) .

---

(١) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، للذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الحافظ ، تحقيق : بشار عواد معروف ، وشعيب الأرناؤط ، مؤسسه الرسالة ط ١ سنة ١٤٠٤ هـ ص ٧٤٢ - ٧٤٣ .

(٢) الدرر الكامنه في أعيان المائه الثامنة ، تحقيق : محمد سيد جاد الحق دار الكتب الحديثه، جـ ٣ ، ص ٢١٦ .

(٣) أنظر هامش ص ٣٦ .

(٤) عمده الطالب ص ٢٢٩ .

(٥) رسائل بن عزوز ص ١٤٥ -١٥٥ .

(٦) رسائل بن عزوز ص ١٣٨ .

(٧) نفسه ص ١٦٥ .

وقد حوكم فى العراق الأستاذ : محمد بهجت الأثرى لنفيه النسب الحسنى عن الأسره القادريه ، كما نوقشت فى المغرب مسألة نسبة الأسر القادرية الى النسب الحسني .

يقول الأستاذ هاشم العلوى : (إن عمود نسب عبد القادر الجيلى لم يسلم من الأنتقاد والطعن فيه ، بحيث أعتبر الجيلى فى بعض الدراسات شخصيه فارسيه انتحلت (١) النسب الحسنى العلوى (٢) وقد أكد هذا الكلام الدكتور كامل الشيبى فى كتابة: الصلة بين التصوف والتشيع. (٣) ولننظر فى أدلة الطاعنين هذه لنرى هل الصواب مع من أثبت أو مع من نفى وطعن ؟

---

(١) قلت : و نسبة الأنتحال للشيخ عبد القادر ليست عندى من الصواب لعدم ثبوت شىء من ذلك عنه ، ولما عرف عنه من التواضع ونكران الذات . والله أعلم .

(٢) أنظر هامش : التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائه الحادية والثانيه عشر ، لمحمد بن الطيب القادرى المتوفى سنه ١١٨٧ هـ تحقيق هاشم العلوى ، منشورات دار الأوقاف الجديدة ، بيروت (بدون) ص ٤٨٣ .

(٣) المصدر المذكور ط٢ دار المعارف بمصر ص ٤٤٧ .

المناقشة والترجيح

يمكن أن يكون لهذه المطاعن التى ذكرها المعترضون أو الناقون لنسب الشيخ عبد القادر إلى آل البيت وجاهه ، حيث إنه عاش فتره طويله من الزمن فى بغداد وخلف بعده أولاده وتلاميذه ، ولم ينسبوه إلى الحسنيه حتى عهد حفيده القاضى أبى صالح نصر ٠

ولكن إذا أخذنا فى الأعتبار أن الشيخ عبد القادر وفد إلى بغداد من بلاد العجم يطلب العلم ، ويصحب المشايخ ويميل إلى الزهد والخمول ٠ نجد أنه لو ذكر نسبه وأنه حسني لكان في ذلك بعض المنافاة مع ماهو قائم عليه حيث كان يقول عندما يعرف نفسه : (متفقه من جيلان) (١) ٠

ثم أنه لما أصبح شيخا مشهورا أغنته شهرته عن ذكر نسبه الحسنى ، وكذا سار على نهجه في الزهد والبعد عن دواعى الظهور أولاده حتى أظهر نسبه حفيده القاضى أبو صالح نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي ، الذي أتفق العلماء على عدالته وتوثيقه ، ذكر ذلك عنهم الذهبي وابن حجر وابن الفوطي وغيرهم (٢) ٠

قال الذهبي عنه : (جمع الأربعين حديثا لنفسه وألف في التصوف ٠٠ وروى الكثير وكان ثقه متحريا) (٣) ٠

وتقدم توثيق ابن حجر له وتنويهه بوقوع الروايةْ له عنه بعلو (٤) ٠

وللأحفاد الحق فى إظهار نسب أبيهم وإثباته ، وعلى هذا فيمكن

---

(١) سير أعلام النبلاء تأليف : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى المتوفى سنه ٧٤٨ هـ ط١ ١٤٠٥ هـ مؤسسه الرسالة ، حـ٢٠ ص ٤٤٤ وما بعدها ٠

(٢) تاريخ الاسلام للذهبى خ جـ ١٧ ص ٢٩١٧ مصدر سابق ٠ والمختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثى ، للذهبى المجمع العلمى العراقي بتحقيق : مصطفى جواد وناجي معروف ط ١٣٩٧ هـ ، جـ ٣ ، ص ٢١١ - ٢١٢ وتلخيص مجمع الآداب فى معجم الألقاب لابن الفوطى ، تحقيق مصطفى جواد ، وزاره الثقافة و الارشاد ، و إحياء التراث القديم جـ٤ القسم الثانى جـ ١ ص ٨٧٣ - ٨٧٤ ٠ وغبطه الناظر لابن حجر مصدر سابق ص ٢ ٠

(٣) سير اعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٢٩٨ ٠

(٤) انظر ص ٣٦ من هذا البحث ٠

مناقشة حجج النافين أو الطاعنين في نسب الشيخ عبد القادر فى نقاط محصورة ، وهي :

أولا : أن سلسلة نسب الشيخ عبد القادر ليس فيها من إسمه : عبد الله بن محمد بن يحى الذى قيل بأنه رجل حجازي ، على ماجاء فى نسبه عند بن عنبة في (عمدة الطالب) عندما أراد نفي الحسنية عنه حيث قال :

(وقد نسبوا إلى عبد الله بن محمد بن يحى بن محمد بن الرومية : الشيخ الجليل الباز الأشهب محى الدين عبد القادر الكيلانى ، فقالوا : هو عبد القادر بن محمد جنكى دوست بن عبد الله المذكور) (١) ٠

وليس فى عمود نسبه المذكور سابقا هذا النسب المذكور هنا ٠

ثانيا : أن الشطنوفي وغيره قد نقلوا عن الشيخ عبد القادر قوله : إن كل ولي على قدم نبي وإنه هو على قدم جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ (٢)

ثالثا : وأما كون الشيخ عبد القادر لقب (بالأعجمى) أو أن أباه كان يلقب (بجنكى دوست) فهذا لايؤخذ منه دليل لنفى نسبه الى آل البيت ٠

إذ أن كل من سكن بلدا ول للتجاره صح أن ينسب إليه ، والشيخ عبد القادر سبقه فى سكنى جيلان من بلاد العجم جدان أو أكثر ٠ (٣)

وقد جاء فى دليل خارطة بغداد المفصل : أن فى بغداد برجا يسمى برج (العجمى) كان الشيخ عبد القادر يختلف اليه ، ويأوى إليه لفقره واشتغاله بالمجاهدات والرياضات الصوفية ، وأن أهل بغداد كانوا يسمونه قبل نبوغه وإشتهاره (بالعجمى) ٠ (٤)

---

(١) عمدة الطالب ص ٢٢٩ ٠

(٢) السيف الربانى ص ٢٤٦ قلت : إن اريد بهذه العباره المتابعه للنبى صلى الله عليه وسلم فنعم ولا ولاية بدون ذلك ، وان أريد بها أمر آخر من دعاوى الصوفية فلا وسيأتى بيان ذلك فى فصل الولاية ٠

(٣) السيف الربانى ص ١٦٠ ٠

(٤) دليل خارطة بغداد المفصل ، مصطفى جواد ، وأحمد شوشه ، نشر المجمع العلمى العراقى سنة ١٣٧٥ هـ ص ١٦٢ ٠

فهو حمل هذا اللقب (العجمي) فى بلاد العرب وبقى هذا الإسم على البرج وأزيل عن الشيخ عبد القادر كما هو واضح من الفقرة السابقة .

ثم إن ابن عنبه نفسه ذكر أسماء عجمية ونسبها للنسب الحسني وهي من بلاد جيلان التى منها الشيخ عبد القادر فقال بأن من أبناء على بن أبى طالب من ولد له بجيلان . (١)

رابعا : وعلى القول بأن القاضى أبا صالح نصر بن عبد الرزاق هو أول من أدعى هذا النسب الحسنى من ذرية الشيخ عبد القادر وهو ثقة عدل (٢) مقابل النافى أو الطاعن فيكون عدلا مقابل عدل على تقدير عدالة النافي (٣) ، فيقدم المثبت على النافى حيث إن النظر إلى أدله كل منهما لا يترجح به بعضها على بعض ألا بذلك ، وقد عرضنا إدلة النافي وناقشناها بما يناسبها .

خامسا : وأما الطعن فى (بهجة الأسرار) فإنه منصب فى الغالب على الروايات الغريبة فيها أو المستحيلة ، فيرد منها ماكان مستحيلا في العقل أو مخالفا للشرع ، ولا يعمم الطعن فيها بما فيها .

ومفهوم من كلام الذهبى فى وصفه للشطنوفى بأنه كان ذا غرام بالشيخ عبد القادر أنه لاحظ عليه قبول الغرائب والتحديث عمن أقبل وأدبر في كتابه وأن الغرام هو الذى جره الى هذا الصنيع . (٤) ولكن لم ينص أحد ممن وقفت على كلامه من الأئمة المعروفين بالإنصاف على طعن صريح فى عدالة الشطنوفي في نفسه أو غرابة واضحة فى عمود النسب الذى خرجه ، وأما طعن الأدفوى فيه أو في بهجته فيقلل من وجاهته ماعــرف عنه من التشــدد على صوفية زمانه الذين كــان مــن أئمتهم الشطنــوفي وذلــك واضح فى كتابه (الموفى بمعرفة التصوف والصوفي) (٥) هذا بالإضافه إلى المعاصرة .

---

(١) عمده الطالب ، تحقيق نزار رضا ، نشر مكتبة الحياة - بيروت (بدون) ص٧١ -٧٥ .

(٢) انظر ص ٤٠ من هذا البحث .

(٣) لم نجدذكرا في كتب المجروحين وهومؤرخ نسابة . توفي ببلدة (كرمان) بالعراق سنة٨٢٨هـ

(٤) انظر ص ٣٨ من هذا البحث .

(٥) تقدم ذكره فى ص ٤٨ من هذا البحث في الهامش (٢) .

التي هي من موانع المناصرة حيث إن الشطنــوفى كانت وفاته فى ذي الحجة سنــة ٧١٣هـ (١) والأدفوى توفي بعده سنة ٧٤٨ هـ (٢) ٠

وعندى أنه لوكان الشطنوفي نفسه متهما في عدالته ، أو أن كتابه غير معتبر على العموم لما عدله الحافظان الذهبي وابن حجر (٣) ولما أعتمد الحافظ بن حجر على بهجه الأسرار فى تأليفه لكتابه غبطة الناظر حتى كأنه أحتصار لها وقد قال فى مقدمتها أعني الغبطة : -

(أما بعد فهذا تعليق موجز في ترجمة شيخ مشايخ الزمان أبى محمد مولانا عبد القادر بن موسى الحسنى الجيلي) وواضح أنه جزم بنسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وساق النسب المذكور في البهجة نقلا عنها (٤) ٠

الترجيح

إنطلاقا من المناقشة السابقة لأدلة وحجج الطاعنين أو النافين لنسبة الشيخ عبد القادر إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما ، فإنه يمكن ترجيح صحة نسبته إليه وخصوصا إذا أخذنا فى الأعتبار المسوغات الآتيــة بالإضافة إلى ماتقدم في المناقشة ٠

أولا :أنه لايصح أعتبارما أحتجوا به أدلة كافية لنفي أي نسب عن أحد من الناس ٠

ثانيا : أنه في العهد المكتوب لنقيب العلوين في ربيع الأول سنة ٦٠٣ هـ في حياة القاضـــى نصر بن عبد الرزاق الذى قيل بأنه هو أول من أظهر أو أدعى نسبة أبيـــه إلى الحســـن بن على رضى الله عنهما أن من مهام النقيب صيانه هذا النسب الكريم ، وأن من أنتحله من الأدعياء عليه أن يتأكد من نسبه ببرهان ، ويتثبت من ذلك بإستــشارة

---

(١) معرفه القراء الكبار مصدر سابق ص ٧٤٣ ٠

(٢) الموفى بمعرفة التصوف والصوفى المذكور سابقا ص ١ ٠

(٣-٤) غبطه الناظر مصدر سابق ص ١ - ٢ ٠

الشيوخ ، فإن وجده ماكرا وجب تأديبه وردعه) (١) ٠

والشاهد فيه أن نصر بن عبد الرزاق لم ينقل رغم كثرة تراجمه في كتب الحوادث والتاريخ أنه أصابه أذى فى إدعائه هذا النسب ٠

وقد تتبع ابن الفوطى حياته ومناصبه فى الدولة ، وفى ماذكره أنه ظل فى علو مستمر حتى توفى فى سادس عشر شوال سنة ٦٣٣ هـ ٠

وقد نقل مصطفى جواد عن ابن الفوطى أنه نسب له هذه الابيات التى يبين فيها نسب جده ويوضح سبب كتمانه لنسبه الحسنى وهى : ((من بحر الرمل))

(نحن من أولاد خير الحسنين — من به أصلح بين الفئتين

يشبه المختار فى أعـــلاه إن — كان أدناه شبيها بالحسين

سركتمان أبينا أصـــــله — أنه قال بأن الفقر زين) ٠(٢)

وقد ذكر الأستاذ مصطفى جواد رحمه الله أن ابن الفوطي ذكر عند ترجمته للشيخ عبد القادر نسبه وأنه من بنى الحسن فى الجزء الخامس من هذا الكتاب - كتاب حرف الميم - فى لقب : (محيي الدين) ٠ (٣)

ثالثا : أن النافين قلة والمثبتون كثير وبعض الطاعنين أو النافين يلبس نفسه ماجرد منه الشيخ عبد القادر من النسب الحسني وهذا فيه تهمة طاعنة في دعـواه ٠ (٤)

---

(١) تاريخ العراق الأخير - تأليف : بدرى محمد فهد ، مطبعه الرشاد ، ببغداد سنه ١٩٧٣ م ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ٠

(٢) تلخيص معجم الآداب لابن الفوطى مصدر سابق القسم الرابع هامش ص ٨٧٤ - ٨٧٥ ٠

(٣) نفسه ص ٣٨٢ ٠ قلت : وهذا الجزء المذكور غير موجود (فى المكتبات العامه التى وقفت عليها في مكة المكرمة والمدينة المنورة ٠

(٤) عمده الطالب ٢٢٩ وروضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات ، لميرزا محمد بن باقر الموسوى ، الخوانسارى ، الأصبهاني ، مكتبة اسماعيليان (طهران - قم) ط ١٣٩٢هـ ، جـ ٥ ص ٨٥ - ٨٩ والسـيف الربانــى ص ١٤٧ - ١٥٤ ٠

رابعا : أنه في عام ٩٤١ هـ عين السلطان سليمان خان (١) نقيبا للعلويين من ذرية الشيخ عبد القادر وهو زين الدين بن الشيخ محمد شرف الدين ، وكان أول نقيب للأشراف في عهد الدولة العثمانية في العراق ٠ (٢)

ولم نجد من طعن في تعيينه نقيبا بكونه غيرحسني أو غير ذلك وقيام ذرية الشيخ عبد القادر في وجه الطاعنين في نسبه دال على شدة ثقتهم وتمسكهم بهذا النسب الشريف ٠

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من الطعن في الأنساب وأعتبره من الكفر في هذه الأمه ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب والنياحه على الميت)٠(٣)

قال النووي : في بيان الحديث : -

(واختلف فيه على أقوال : أصحها أن معناه هما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية ٠٠٠ وفيه تغليظ تحريم الطعن في النسب ٠)(٤)

وأتفق العلماء على أن النسب يثبت بأضعف الأدله إذا أحتفت بالقرائن المصدقة لها وهي الدعوى والحيازة ٠ (٥)

وقد رأينا قوة مرجحات ثبوت نسب الشيخ عبد القادر الى الحسن بن علي رضي الله عنهما ٠

والله أعلم ٠٠٠

---

(١) هو : سليمان القانوني أحد عظماء سلاطين العثمانيين ٠

(٢) تاريخ جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ومدرسته العلمية تأليف الشيخ هاشم الأعظمي بغداد ط١ سنة ١٣٩١ هـ ص ١٠٠ ٠

(٣) ٠٠ صحيح مسلم، كتاب الإيمان ن باب إخلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة.

(٣) شرح النووي ، على صحيح مسلم ، دار الفكر ، المجلد الأول جـ٢ ص ٥٧ ٠

(٤) ثبوت النسب (دراسه مقارنة) تأليف ياسين بن ناصر بن محمود الخطيب ، دار البيان العربي ، جده ط ١ سنة ١٤٠٧ هـ ص ١٥٠ - ١٥٦ ٠

المبحث الثاني : مولده وأسرته ونشاته

تقديم :

لم يعتن المؤرخون كثيرا بحياة الشيخ عبد القادر قبل وصوله إلى بغداد ، ولذا نجد أن المعلومات الحقيقية عن أسرته ومولده ونشأته قليلة جدا ، ويرجع ذلك الى أن الشيخ عبد القادر ولد في جيلان من بلاد الديلم (١) ، وهي عبارة عن قرى متفرقة لاتوجد فيها مدينة كبيرة تكون حاضرة للعلم وطلابه حتى يعرف الناشيء النابغ أو الذكي ، فتحفظ نشأته العلمية وتسجل مواهبه ، فيعرف بذلك ويعرف به أهله إذا كانوا من الأسر الخاملة الذكر قبله ٠

ومع ذلك فإننا نجد متفرقات في بعض المراجع عن مولده وأسرته ونشأته ٠

وهذه المراجع متفقة على أنه ولد في جيلان (٢) ولكن فيها خلاف في المكان الذي ولد فيه من تلك البلاد ٠

وجيلان ينسب إليها بجيلاني ، وجيلي وكيلي وكيلاني ، والخلاف في النسبة إليها على أنها بلد أو اسم رجل واقع ٠

يقول ياقوت الحموي : (وينسب الجيلي إليها جيلاني أيضا على غير هذا اللفظ لأنهم يقولون لهذه الناحية جيلان) ٠(٣)

ويقول السمعاني : (الجيلي بكسر الجيم وسكون الياء المنقوطة باثنتين من تحتها : هذه النسبة إلى بلاد متفرقة وراء طبرستان ، ويقال لها كيل وكيلان معرب ونسب إليها وقيل : - جيلي وجيلاني ، والمنتسبون إليها كثيرمنهم : أبو محمد عبد القادر ٠) (٤)

---

(١) المشترك وضعا والمفترق صقعا ، تأليف : أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦) هـ مكتبه المتنبي ببغداد ، ص ١١٧ ٠

(٢) الأنساب للسمعاني ، أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت ٥٦٢) هـ ط١ الركن جـ ٣ ص ٤٦٤ ٠

(٣) المشترك وضعا والمفترق صقعا ، ص ١١٧ ٠

(٤) الأنساب للسمعاني جـ ٣ ص ٤٦٤ ٠

وبعد هذا بياض في الأصل المخطوط والمطبوع ويقول ابن الأثير : (الجيلاني نسبة إلى بلاد ورجل محمد الجيلاني الفارسي) .(١)

وقد نسب الشيخ عبد القادر إلى (بشتير) وإلى (نيف) وكلاهما من بلاد الديلم ، فياقوت الحموي في معجم البلدان ينسبه إلى (بشتير) بالضم والتاء المثناة المكسورة وياء ساكنة (٢) وذكر الشطنوفي في بهجة الأسرار أنه ولد في نيف قصبة من بلاد جيلان . (٣)

ويجمع رشيد رضا بين هذين الرأيين أو هاتين النسبتين ، بأنه يجوز أنه ولد في مكان وتربى في غيره . (٤)

وقد تابع ياقوتا الحموي على هذه النسبة محمد مرتضى الزبيدي ، في تاج العروس من جواهر القاموس ، ناقلا هذه النسبة عن خط الذهبي - وأنه قال - أعني الذهبي :

(هكذا نسبه حفيده الإمام المحدث عماد الدين القاضي أبو صالح نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي ..) وقال الزبيدي بعد هذا النقل : قلت : (ولم يذكر أن المنسوب إليه قرية أو موضع والذي يظهر لي أنه تصحيف عن النشتبري نسبة إلى نشبتيري بألف القصر قرية قرب شهر بان من نواحي بغداد .) (٥)

وقد استغرب رشيد رضا هذا الاستدراك من الزبيدي قائلا :

(ومن الغريب أن شارح القاموس زعم أن لفظ بشتير ربما كان محرفا عن لفظ (نشتبرى) وهي كما في مراصد الاطلاع قرية كبيرة ذات نخل وبساتين تختلط ببساتين شهرابان من طريق خراسان في نواحي بغداد وصاحب الترجمة جيلاني الأصل بالإجماع ، ولو نسب إلى غير بلاده الأصلية لكان أولى البلاد به

---

(١) اللباب في تهذيب الأنساب ، لعز الدين ابن الأثير الجزري ، دار صادر جـ ١ ص ٣٢٤ .

(٢) معجم البلدان ، دار صادر - بيروت ، ط ١٣٨٨هـ المجلد الأول ص ٤٢٦ .

(٣) بهجة الأسرار ص ٨٨ .

(٤) دائرة معارف المعلم بطرس البستاني جـ ١١ ص ٦٢١ .

(٥) تاج العروس ، مكتبة الحياة ، جـ ٣ ص ٤٤ .

بغداد موضع هجرته وضريحه (١) واستغرابه في محله و ابن عزوز يرفض نهائيا أن يكون الشيخ عبد القادر منسوبا إلى بشتير ، ويجزم بأن البشتيري شيخ للجيلي (٢) ولكن تقدم لنا أن النسابة ابن ميمون نسب الشيخ عبد القادر إلى بطن من الهرامزة بفارس يسمي بشتير وينسب إليه بالبشتيري (٣) فإذا صح كلام ابن عزوز في أن هذا البشتيري هو شيخ لعبد القادر فإننا نستفيد الأمور التالية : -

١ - أن الشيخ عبد القادر درس في بشتير في بلاده قبل هجرته إلى بغداد .

٢ - وأن نسبته إليها لأنه سكنها لا أن له فيها نسبا .

٣ - وأن بشتير سميت بأسم البطن الذِي يسكنها من الهرامزة الفرس .

٤ - وبالتالي يصح جمع رشيد رضا من كونه ولد في بلدة وتربى في أخرى .

مولده :

اختلف في تاريخ مولد الشيخ عبد القادر على روايتين متقاربتين .

الأولى : أنه ولد سنة سبعين وأربعمائة من الهجرة النبوية .

وأخذت هذه الرواية من قوله لما سئل عن مولده : (لاأعلمه حقيقة لكني قدمت بغداد في السنة التي مات فيها التميمي وعمري أذ ذاك ثماني عشـرة سنة) .(٤) والتميمي هو : أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحرث بن أسد وتوفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . (٥)

الثانية : أنه ولد سنة إحدى وسبعين وأربعمائة . (٦)

---

(١) دائرة معارف بطرس جـ ١١ ص ٦٢١ .

(٢) السيف الرباني ص ١٦٢ .

(٣) انظر ص ٣٤ من هذا البحث .

(٤) بهجة الأسرار ص ٨٨ .

(٥) نفسه ص ٨٨ .

(٦) سيرأعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٣٩ ورواية فى بهجة الأسرارص ٨٨ وتاج العروس جـ٣ ص ٤٤

أســـــرتـه

الذي يذكره المؤرخون وكتب المناقب عن أسرة الشيخ عبد القادر في جيلان يدل على أنها أسرة تتكون من أفراد قلائل ، وأنها أسرة تتصف بالزهد والصلاح وأن ذلك من الأمور المعروفة عنها في محيطها الاجتماعى ٠

والـده :

يذكر بعض المؤرخين والنسابين من باب الطعن في نسبة الشيخ عبد القادر إلى الحسنيـة أن والده مختلف فيه ، هل اسمه أبو صالح أو عبد الله أو يحي أو جنكي دوست ؟ ٠

والواقع أن الإحتلاف فى اسم شخص أو والده على التعيين يجعل الشك يتطرق إلى صحة نسبه حيث إنه جهلت عينه وبالتالي جهل حاله على التحقيـق ٠

ولكن تقدم في عمود نسب الشيخ عبد القادر (١) أن أباه يسمى موسى ويكنى بأبي صالح ، ويلقب بجنكي دوست أي عظيم القدر ٠ (٢)

ولم نقف على أكثر من هذا من المعلومات عن والده ، ويفهم من لقبه جنكي دوست أنه ولد في بلاد العجم بجيلان ، وانه كان ذا مكانة وقدر عظيم كما فسربه هذا اللقب ٠ ولا تسعف المراجع بشيء من تفاصيل حياته ولا أثره في ولده ، ويظهر أن والدته كان لها أثر كبير في حياته ٠

---

(١) انظر ص ٣٢ و ٣٨ من هذا المبحث ٠

(٢) السيف الريانى ١٦٥ والاعلام ، لخير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ط٢ سنة ١٩٨٩ م المجلد الرابع ص ٤٧ هامش ٠

والدته

اسمها فاطمة بنت أبي عبد الله الصومعي وكنيتها أم الخير ، وتلقب بأمة الجبار • (١)

قال الشطنوفي : (كان لها خط وافر من الخير والصلاح) (٢) وينتهى نسبها إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما •(٣) وحملت بالشيخ عبد القادر وهي بنت ستين سنة ، ويقال : (لاتحمل لستين سنة إلا قرشية ، ولا لحمسين إلا عربية) • (٤)

ويحكي الشطنوفي في رواياته عنها : (أنها أخبرت أن الشيخ عبد القادر كان لايرضع ثديها اذا دخل شهر رمضان في النهار •) (٥)

ويفهم من رواية عند الذهبي زيادة على ماذكر من صلاحها أنها كانت سندا لأبنها الشيخ عبد القادر في طلب العلم ، حيث أورد أنها تبعث له النقود من جيلان ليستعين بها على طلب العلم وهو في بغداد (٦) وهذا بلا شك من عمل الأمهات الصالحات الرفيعات ، وواضح من رواية حملها به وعمرها ستون سنة أنها عمرت كثيرا ، ذلك أن الشيخ عبد القادر رحل إلى بغداد وعمره كما تقدم ثماني عشرة سنة فتكون بهذا قد قاربت الثمانين سنة أو أكثر وقد حملت بأخيه عبد الله بعده على ماسيأتي إن شاء الله ولم نجد من ذكر تاريخ وفاتها •

قلت : وواضح في كثير من روايات الشطنوفي عنها المبالغات التي قد تنسب بها إذا صحت عنها إلى الخرافات •

ومن ذلك حكاية أن الشيخ عبد القادر كان يمسك وهو طفل رضيع عن

---

(١) بهجة الأسرار ص ٨٩ •
(٢) نفسه ص ٨٩ •
(٣) فتوح الغيب للشيخ عبد القادر ، طبعه ووثقه محمد سالم البواب ، ط دار الألباب ص١٢٤
(٤) بهجة الأسرار ص ٨٩ •
(٥) نفسه ص ٨٩ •
(٦) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٤ - ٤٤٥ •

رضاعة ثديها إذا دخل رمضان وأنهم بذلك يعرفون دخول الشهر وهذا لايثبت به شهر رمضان ولا يؤخذ منه صلاح للطفل الرضيع في المستقبل لأنه غير مكلف ولا متعبد بالصيام ولا غيره حتى يمسك عن الرضاعة • والله أعلم •

* بقية أسرته :

جده من أمه :

جده أبو عبد الله الصومعى الزاهد ابن أبي جمال الدين محمد ••• ينتهى نسبه - حسب مافي فتوح الغيب وبهجة الأسرار - إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما من طريق الأئمة السبعة عند الشيعة • (١)

قال الشطنوفي : (أبو عبد الله الصومعي من جملة مشايخ جيلان ورؤساء زهادهم له الأحوال السنية والكرامات الجلية ، لقي جماعة من عظماء مشايخ العجم (وكان الشيخ عبد القادر يعرف بسبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد حيث كان بجيلان) (٢)

وذكر ابن عزوز أن الشطنوفي قال : (أبو عبد الله الصومعي من جلة مشايخ جيلان) (٣)

قلت : والذي في المطبوعة من بهجة الأسرار هو ما أثبتناه ، وهو كاف في الدلالة على أنه كانت له بين مشايخ جيلان مكانة عظيمة إلا أن الصومعي ليست من أوصاف العباد في الإسلام كما هو معروف •

أخوه :

وهو : (أبو أحمد عبد الله ، وسنه دون سنه ، نشأ نشأة صالحة في العلم والخير ومات بجيلان شابا) (٤) فإذا كانت سن عبد الله هذا دون سن أخيه الشيخ

---

(١) فتوح الغيب ص ١٢٤ وبهجة الأسرار ص ٨٨ •

(٢) بهجة الأسرار ص ٨٨ وانظرسير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٤•

(٣) السيف الرباني ص ١٤١ •

(٤) بهجة الأسرار ص ٨٩ •

عبد القادر على ما قال الشطنوفي فمعنى ذلك أن أمه حملت به وهي في أوائل السبعين تقريبا وهو أمر نادر إن لم يكن مستحيلا عادة .

عمته :

قال الشطنوفي : (وعمته المرأه الصالحة أم محمد عائشة بنت عبد الله ، ذات الكرامات الظاهرة ، وكان أهل جيلان يستسقون بها فيسقون .) (١) فإن قصد بدعائها في حال حياتها فلا مانع ، وإن قصد غير ذلك من ادعاء بعض المتصوفة أن القبور تنفع أو تضر فلا كما سيأتي بيانه فى فصل الولاية .

فهذا ما أمكننا معرفته عن أفراد أسرة الشيخ عبد القادر بجيلان ، وفي هذا المحيط الأسري الصالح نشأ الشيخ عبد القادر .

*** نشأته :**

في هذه البيئة الصالحة نشأ الشيخ عبد القادر ، وأخذ في طلب العلم منذ الصغر كما يدل عليه الجو الأسري ، الذي عاش فيه ، إذ ان وصف عائلته بالزهد والعلم ، وشهرة ذلك عند الناس عنها دال على أن أولادها نشأوا على طلب العلم والتحلي بالأخلاق الفاضلة الحميدة . (٢)

وأول العلوم التى تغرس في الناشيء المسلم هي القرآن الكريم وعلومه وآدابه ، والتوجه بالطفل وجهة علمية ، وهذه أمور نلمسها من استقراء حياة الشيخ عبد القادر، حيث إننا نجده توجه إلى عاصمة الخلافة الإسلامية بغداد ، وهي حاضرة العلم والعلماء في ذلك الوقت ، وقصد إلى جلة العلماء بها . (٣) فلم يقنع بطلب العلم بما دونها من الحواضر الزاخرة بالعلماء ، ولم يقنع بالتلمذة لأحد من المتعلمين وأنصافهم ، بل تتلمذ لرؤساء العلماء في بغداد ، وذلك فور وصوله إليها ، مما يدلنا على أنه أخذ قسطا كبيرا من العلم قبل رحلته إلى بغداد .

---

(١) نفسه ص ٨٩ .

(٢) بهجة الأسرار ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٣) فوات الوفيات ، تأليف : محمد شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ) ط دار صادر ، بتحقيق إحسان عباس ص ٣٧٦ .

فعن نشأته العلمية نجد ابن العماد الحنبلي يقول : (ولما ترعرع وعلم أن طلب العلم فريضة شمر عن ساق الاجتهاد في تحصيله ، وسارع في تحقيق فروعه وأصوله بعد أن اشتغل بالقرآن حتى أتقنه ثم تفقه في مذهب الإمام أحمد) (١) ٠

وهذا مايؤكده صاحب بهجة الأسرار إذ يقول : (فاشتغل بالقرآن العظيم حتى أتقنه ، وعم بدرايته سره وعلنه ٠) (٢)

وفيها روايات دالة على أنه كان من المتقنين للقرآن الكريم سيأتي ذكر بعضها إن شاء الله في وصف مكانته العلمية وآثاره ٠

والغالب أن الإتقان في القرآن الكريم لايتم إلا لمن اشتغل به من الصغر كما دلت عليه نصوص كثير من العلماء ٠ (٣) والله أعلم ،،،

---

(١) شذرات الذهب ، تأليف : عبد الحي بن العماد الحنبلي ت (١٠٨٩هـ) مكتبة القدس القاهرة جـ ٣ ص ١٩٩ ٠

(٢) بهجة الأسرار ص ١٠٦ ٠

(٣) جامع بيان العلم وفضله ، تأليف : أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي ، دار الكتب العلميه جـ ١ ص ٨١ وما بعدها ٠
وكتاب الفقيه والمتفقه ، تأليف : ابي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ، دار الكتب العلمية جـ ٢ ص٨٩ وما بعدها ٠

المبحث الثالث

رحلته العلمية ، وشيوخه ، وتلاميذه

* رحلته العلمية :

يورد الذين كتبوا في مناقب الشيخ عبد القادر روايات عديدة لاتخلو من الغرابة أو الخرافة في الأسباب التي دفعت به إلى التوجه إلى بغداد والرحله في طلب العلم .

ومن هذه الروايات : أنه حصلت له أحوال صار يشاهد معها الأماكن البعيدة حتى أنه رأى أهل الموقف في عرفة .

وخاطبته بقرة من أبقار الحرث بأنه لم يخلق لمثل ماكان يشتغل به في ذلك الوقت من العمل في الزراعة وتتبع المحراث . (١)

والذي يهمنا أن الشيخ عبد القادر وجد نفسه متشوقة ومتعطشة إلى طلب العلم ورأى فيها أهلية للتحصيل ، وكانت بغداد في ذلك الوقت هي أعظم مراكز العلم .

والرحله في طلب العلم سنة متبعة وفائدتها أشهر من أن تذكر (٢) ولا يحتاج طالب العلم إلى حصول أحوال وغرائب لتدفعه إلى الرحلة في طلب العلم أو يرتب عليها رحلته أو يبنى عليها ابتداء أمره .

ولئن كان بعض هؤلاء المؤلفين ذكروا لابتداء أمر الشيخ عبد القادر هذه الأمور فإن بعضهم ذكر له أمورا حسنة دالة على صدق التوجه المؤذن بنجاح الطلب إذا افتتح الطالب بها والتزمها ومما ذكروه : أنه استأذن والدته في الرحلة ، فأذنت له قائلة : (اذهب فقد خرجت عنا لله عز وجل ، وزودته بأربعين دينارا هي نصف المبلغ الذي ورثة هو وأخوه من أبيهما ، وودعته وعاهدته على الصدق في كل الأحوال

---

(١) الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد ، تأليف الشيخ سيدي محمد الكنتي المتوفى سنة ١٢٤٦ هـ مخطوط بدار الثقافة بانو أكشوط تحت رقم ٣٥١ ص١٤٨ - ١٤٩

(٢) أنظرجامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ٩٢ وما بعدها .

وقالوا : إنه التزم بعهدها ابتداء من رحلته وحتى وفاته (١) .

شيوخه في بغداد

دخل الشيخ عبد القادر بغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وهو شاب في الثامنة عشر من عمره متعطشا إلى العلم ومصادره باحثا عن أهل النباهة والإتقان فيه .

فجلس إلى جلة علماء بغداد ، وأهل الرئاسة فيها ينهل من علومهم ومعارفهم قرابة ثلاثين سنة . (٢) حتى عقد أول مجلس له سنة إحدى وعشرين وخمسمائة . (٣)

ويتفاوت المؤرخون في ذكر شيوخه عند ترجمتهم له ، فمنهم من يقتصر على ذكر الذين لزمهم كثيرا ، وكان لهم الأثر الكبير في تكوين شخصيته العلمية والدينية والأدبية والسلوكية كابن الجوزى (٤) فإنه ذكر له أربعة شيوخ في العلم وهم : -

١ - أبو بكر أحمد بن المظفر بن سوسن التمار المتوفى سنة ٥٠٣ هـ قال فيه الكتبى: (هو الشيخ المعمر قال الأنماطي : شيخ مقارب ، مات وله اثنتان وتسعون سنه .) (٥) .

٢- وأبو القاسم علي بن أحمد بن محمد بن بيان الرزاز البغدادي راوي جزء ابن عرفة ، قال الذهبي : (الشيخ الصدوق المسند ، رحلة الآفاق ، توفي سنة ٥١٠ هـ) (٦) .

---

(١) الطرائف والتلائد ص ١٤٩ .

(٢) بهجة الأسرار ص ١٠٥ .

(٣) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم تأليف : ابن الجوزي ، ط١ دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد الركن سنة ١٣٥٨ هـ ، جـ ١٠ ص ٢١٩ .

(٤) نفسه .

(٥) فوات الوفيات ص ٣٧٤ وذيل طبقات الحنابلة ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٦) سير أعلام النبلاء جـ ١٩ ص ٢٤٩ ٠

٣ - وأبو طالب اليوسفي عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف البغدادى ، قال السمعاني : (شيخ صالح ثقة دين ، متحر في الرواية كثير السمـاع) (١) وقال الذهبي (الشيخ الأمين ، الثقة العالم المسند توفـي ٥١٦ هـ ٠) (٢) ٠

٤- المبارك بن علي بن الحسين بن بندار البغدادي المخرمي ، أبو سعد قاضي الأزج ، كان حسن السيرة جميل الطريقة سديد الأقضية ، أفتى ودرس وناظر وجمع كتبا كثيرة لم يسبق إلى جمع مثلها وخلفه عبد القادر في مدرسته ، وللمخرمي ذرية فيهم شيوخ تصوف ٠(٣)

وزاد الذهبي في سير أعلام النبلاء ، وتاريخ الإسلام جماعة آخرين نقلا عن ابن النجار وابن السمعاني الذين فقدت ترجمة الشيخ عبد القادر فى كتابيهما ٠(٤)

وقد أوصل الشطنوفي شيوخ الشيخ عبد القادر في بغداد إلى ثلاثة وعشرين (٥) منهم من تفقه به ، ومنهم من سمع منه الحديث ، ومنهم من قرأ عليه اللغة والأدب، ومنهم من صحبه للوعظ والزهد وأخذ السلوك ٠

ولمعرفة جوانب حياة الشيخ عبد القادر كاملة نضيف أربعة من أعلام شيوخه إلى ماذكره ابن الجوزي سابقا وترجمنا لهم باختصار ٠

٥ - أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن أحمد البغدادي ، الظفري المقرىء الفقيه ، الأصولي الواعظ المتكلم أحد الأئمة الأعلام ، وشيخ الإسلام٠

---

(١) نفسه جـ ١٩ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ٠

(٢) نفسه جـ ١٩ ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ ٠

(٣) نفسه جـ ١٩ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ ٠

(٤) نفسه ص ٢٤١-٢٤٢ والأنساب للسمعاني جـ٣ ص٤٦٤وذيل تاريخ بغدادللحافظ محب الدين ابي عبد الله محمد بن محمود بن الحسن المعروف بابن النجار البغدادي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ط١ دائرة المعارف العثمانية ، الركن الهندسنة ١٣٩٨ هـ جـ١ ترجمه رقم ٢١٤ ص ٢٤٧ ٠

(٥) بهجة الأسرار ص ١٠٦ ٠

ولد سنة ٤٣١ هـ وكان يعتقد أن الحلاج من أهل الدين والزهد والكرامات وألف فيه جزءا ، وتاب منه ٠

وكان جريئا مقداما يواجه الأكابر بالانكار ، بلفظه وخطه (١) هدد حمادا الدباس بضرب عنقه إذا عاد الى شيء بلغه عنه ٠ (وهو أنه كان يعطي من يشكو إليه الحمى لوزة وزبيبة ليأكلها فيبرأ)٠(٢)

٦ - أبو غالب محمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن الباقلاني توفي سنة (٥٠٠) هـ عن ثمانين سنة ٠

قال الذهبي : (الشيخ الصالح المحدث ، كان كثير البكاء من خشية الله تعالى) ٠ (٣)

وقال عنه ابن الجوزي : (وكان شيخنا صالحا كثير البكاء من خشية الله تعالى صبورا على أسماع الحديث) ٠ (٤)

٧ - أبو زكريا يحي بن علي التبريزي ، إمام اللغة ، ولي تدريس الأدب بالنظامية وخزانة الكتب ، وكان ثقة في علمه ، مخلطا في دينه ، ولعبة بلسانه ، وقيل إنه تاب ، توفي سنة ٥٠٢ هـ ٠(٥)

٨ - أبو الخير حماد بن مسلم الدباس الرحبي - ابو عبد الله ، قال عنه الذهبي :

(نشأ ببغداد ، وكان من أولياء الله تعالى أولى الكرامات ، انتفع بصحبته خلق وكان يتكلم على الأحوال ، وكان قليل العلم أميا) ٠ (٦)

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ص ١٤٢ - ١٤٧ ٠

(٢) المنتظم جـ ٩ ص ١٥٤ ٠

(٣) سير أعلام النبلاء جـ ١٩ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ٠

(٤) المنتظم جـ ١٠ ص ٢٢ ٠

(٥) سير اعلام النبلاء جـ ١٩ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ ٠

(٦) سير أعلام النبلاء جـ ١٩ ص ٥٩٤ ٠

وقال ابن الجوزي عنه : (كان عاريا عن علم الشرع ، سمع الحديث من ابن الفضل وغيره إلا أنه كان على طريقة التصوف يدعى المعرفة والمكاشفة ، وعلوم الباطن، وكان يقبل النذر ثم تركه وصار يأكل بالمنامات وينفق على الجهال) .(١)
قلت : في هذين النصين مبالغة في نفي العلم عن حماد الدباس وأنه أمي أو عربي من العلم مع أنه سمع الحديث :

إلا أن سبط ابن الجوزي يعظم حمادا ويقول : (لو لم يكن لحماد من الفضائل التى اتصف بها من زهادته وطريقته ومكاشفته إلا أن الشيخ عبد القادر أحد تلاميذه (٢) قلت : وهنا نقص جواب الشرط من النص في المطبوعة - ولعله - لكفاه ذلك) .

تخرج الشيخ عبد القادر في حلق هؤلاء العلماء ومدارسهم ، وقد استوعب ما أخذه عنهم من علم وتطبيق وسلوك ، والتحق بمدرسة شيخه المخرمي يدرس فيها ويعيد للطلاب حتى ورثها بعد وفاة شيخه ، حيث وسعها وعمرها وتكاثف الناس معه على ذلك ، فمنهم من يمده بالمال ، ومنهم من يعمل معه بيده حتى اكتملت المدرسة بعد أن كانت مدرسة لطيفة ضاقت على حلقته حتى كان يجلس عند سور بغداد في الهواء .

قال ابن الجوزي في وصفه لحاله بعد جلوسه للتدريس والوعظ : (وأقام في مدرسته يدرس ويعظ إلى أن توفي ليلة السبت ثامن ربيع الآخر ودفن في الليل بمدرسته وقد بلغ تسعين سنة) (٣)

وقال الكتبي : (جلس للتدريس والفتوى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة) (٤) فرحمه الله تعالى .

ولنصل الحديث عنه بالكلام على تلاميذه بعد أن صار شيخا له مدرسة خاصة به بعدما تحدثنا عن أكابر شيوخه في العلم والعمل لنرى أثرهم فيه وأثره هو في تلاميذه .

---

(١) المنتظم جـ ١٠ ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) مرآه الزمان المجلد الأول والثانى ، القسم الأول من الجزء الثامن ص ١٣٩ .

(٣) المنتظم جـ ١٠ ص ٢١٩ .

(٤) فوات الوفيات ص ٣٧٤ .

* **تلاميذه :**

الذي يظهر من المراجع التي ذكرت بعض أسماء تلاميذ الشيخ عبد القادر أنهم كثيرون جدا ، وذلك أن الشيخ عبد القادر جلس في مدرسته لا يخرج منها إلا يوم الجمعة (١) وهذا الاستقرار يمكن العالم المربي من أن يخرج أفواجا متتابعه في ميادين العلوم والمعارف المتعددة والمتنوعة .

وهذا ماحصل للشيخ عبد القادر ، فإنه أجاز في الحديث ، والفقه والتصوف ودرس القرآن بالقراءات (٢) .

وقد اكتفى ابن الجوزي في ترجمته للشيخ عبد القادر بذكر كثرة إقبال الناس عليه والتائبين على يديه مع طول مكثه مدرسا وواعظا حتى مات ، ولم يذكر من تلاميذه أحدا . (٣)

ولكن ذكر الشطنوفي مائة وسبعة عشر اسما ممن تتلمذوا له بعد أن قال : (وانتمى إليه جمع عظيم من العلماء ، وتتلمذ له خلق كثير من الفقهاء ... ولو شرعنا نذكر كل الأعيان ممن انتمى إليه وأخذ عنه العلم أو سمع منه ومن ذريته وغيرهم لكثر العدد) .(٤)

وأورد الذهبي في كتابيه تاريخ الإسلام (٥) وسير أعلام النبلاء (٦) وغيرهما عددا كبيرا ممن تتلمذ للشيخ عبد القادر ، وأجاز له ، حتى ذكر آخر من حدث عنه بالإجازة والسماع كالرشيد بن مسلمة وأبي العباس أحمد بن المفرج بن علي الدمشقي ناظر الأيتام المولود سنة ٥٥٥ هـ والمتوفي سنة ٦٥٠ هـ .(٧)

---

(١) معجم البلدان جـ ١ ص ٤٢٦ .

(٢) بهجة الأسرار ص ١١٨ .

(٣) المنتظم جـ ١٠ ص ٢١٩ .

(٤) بهجة الأسرار ص ١٠٦ و ١٧٧ .

(٥) تاريخ الإسلام ، مخطوط بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ص ٢٧٦ .

(٦) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٠ .

(٧) العبر في خبر من غبر ، للحافظ الذهبي ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، مطبعة حكومة الكويت ، سنة ١٣٨٦هـ جـ ٥ ص ـ٢٠٥ .

ونقتصر على ترجمة لبعض من صارت لهم الامامة في العلم والطريقة القادرية بعد الشيخ عبد القادر لنعرف مدى انتشار أثره العلمي وطريقته وسلوكه في أنحاء الأقطار الإسلامية ٠

١ - الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي (١) وكان عالما فاضلا ، وتخرج على يد الشيخ عبد القادر (٢) ، وتوفي في بغداد سنة ٦٣٢ هـ وتقدمت ترجمته باختصار، وسيأتي مزيد بيان لطريقته السهروردية عند الكلام على سند القادرية المذكور هو فيه إن شاء الله ٠

٢ - الشيخ قضيب البان : لازم الشيخ عبد القادر عشرين سنة ، وأجاز له بالطريقه القادرية ، وألبسه الخرقة بيده ، وكان يصلي إماما بالشيخ عبد القادر وزوجه ابنته ، وأوصى أن يتولى غسله وأن يصلي عليه ، توفي سنة ٥٧٠ هـ ٠(٣)

٣ - الشيخ أحمد بن أبي بكر بن المبارك أبو السعود بن الشبل العطار الزاهد ٠

قال عنه ابن الفوطي : (كان شيخا مشهورا بالصلاح والمعرفة ، وله حسنة، صحب الشيخ عبد القادر الجيلي ، وكان طريقه الفناء (٤) لايأكل حتى يطعم ولا يشرب حتى يسقى ولايلبس ثوبا حتى يحصل على بدنه ، وغلب عليه الرفق وحسن الخلق والانبساط ، سمع شيئا من الحديث وحدث باليسير ٠

توفى سنة ٥٨٢ هـ ودفن بباب حرب وبنوا عليه قبة عالية ٠) (٥)

٤ - الشيـــخ أبـــو الحسن علي بن إبراهيم بن الحداد اليمني ، أستاذ مشايخ اليمن ٠(٦)

---

(١) الإستقامه لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، مؤسسة قرطبة ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ جـ ١ ص ٨٦ - ٨٧ وسير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٣ ٠

(٢) تاريخ جامع الشيخ عبد القادر ومدرسته العلميه ص ٥٤ وبهجة الأسرار ص ١١٧ ٠

(٣) بهجة الأسرار ص ١١٧ ٠

(٤) الفناء هو : الإستغراق في عظمة الباري ٠ وسيأتي إن شاء الله في باب السلوكيات عند القادرية الحديث عنه أنظر ص ٠ كتاب التعريفات للشريف الجرجاني دار الكتب العلمية ، ط ١ سنة ١٤٠٣ هـ ص ١٦٩ ٠

(٥) تلخيص مجمع الآداب جـ ٤ ص ٤٤٦ - ٤٤٧ ٠

(٦) بهجة الأسرار ص ١٠٩ ٠

الخرقة والعلم وألبس مشايخ الشام لـــه • أى للشيـــخ عبد القادر بالنيابه عنـــه • (١)

٦ - أولاد الشيخ عبد القادر :

(قال عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر : ولد لأبي تسعة وأربعون ولدا ، سبعة وعشرون ذكرا والباقي إناث) (وكان الشيخ عبد القادر يقول : إذا ولد لي ولد أخذته على يدي وأقول : هذا ميت ، فأخرجه من قلبي ، فإذا مات لم يؤثر عندي موته شيئا) •(٢)

وقد عاش الكثير منهم وأخذوا عن والدهم العلم والسلوك ، وتفرقوا في البلاد وطافوا بالمدارس والنوادي ، ودعوا إلى طريقة والدهم ونشروا أسانيده •

فمن المتجولين في البلاد من أبناء الشيخ عبد القادر : عيسى فإنه رحل إلى مصر والشام ودرس فيها ووعظ وأفتى وصنف الكتاب المسمى (بجواهر الأسرار ولطائف الأنوار في علوم الصوفية) • (٣)

وتوفي بمصر سنة ٥٧٣ هـ (٤) •

وكذلك رحل إلى مصر يحي وهو أصغر أولاد الشيخ عبد القادر حيث إنه ولد سنة : ٥٥٠هـ وتوفي في بغداد سنة ٦٠٠ هـ •

ومنهم : كذلك عبد العزيز الذي رحل إلى الجبال وتوفي سنة ٦٠٢ هـ •

ومنهم كـذلك : عبد الجبار الموصوف بحسن الخط والاشتغال بالتصوف توفي سنـــة ٥٧٥ هـ •

---

(١) نفسه ص ١٠٩ •

(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٧ •

(٣) تاريخ جامع الشيخ عبد القادر ص ٥٨ وقلائد الجواهر للتادفى ص ٦٣ •

(٤) نفسه •

ومنهم : إبراهيم الذي رحل إلى واسط وتوفي بها سنة ٥٩٢ هـ . (١)

ومن أهم أولاد الشيخ عبد القادر أثرا في العلم والطريقة اثنان هما :

٧ - الشيخ عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر ، قرأ على والده حتى برع ، ورحل إلى بلاد العجم في طلب العلم ، وناب عن والده في التدريس بمدرسته وهو حي ، ودرس بعده فيها ، وتولى مسئولية المظالم للإمام الناصر لدين الله (٢) وقد أثنى عليه ابن النجار في تاريخه ثناء حسنا حتى اعتبره أميز أولاد الشيخ عبد القادر علما وذكاء ، وسخاء ومروءة . (٣)

قال عنه مؤلف تاريخ جامع الشيخ عبد القادر : إنه بدر الطريقة القادرية ، تولى مشيخة مدرسة والده بعد وفاته .

وتوفي ببغداد سنة ٥٩٣ هـ وورث مكانته ابنه : الركن عبد السلام (٤) وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان لحالهما .

٨ - الشيخ عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلي ، وثقه علماء الجرح والتعديل (٥) ووصف بأنه حافظ ثقة عابد زاهد فقيه عالم . (٦)

قال الحافظ الضياء : (لم أر في بغداد في تفطنه وتحريه مثله) (٧) وقال عنه

---

(١) قلائد الجواهر ص ٥٥ .

(٢) هو الناصر لدين الله ابو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد يوسف المقتفي الهاشمي العباسي .

(٣) ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ط ١ سنة ١٣٩٨ هـ ص ٣٤٧ .

(٤) تاريخ جامع الشيخ عبد القادر ومدرسته العلمية ص ٥٨ وما بعدها .

(٥) المختصر المحتاج إليه جـ ٣ ص ٦٢ وابن حجر في غبطه الناظر ص٢ وتقدم في ص ٣٣ من هذا البحث .

(٦) ذيل الروضتين في تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، لشهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي المتوفى سنة ٦٦٥ هـ ص ٥٨.

(٧) نفسه ص ٥٨ حوادث سنة ٦٠٠ ستمائة .

أبو شامة المقدسي : (وكان صالحا ثقة لم يدخل فيما دخل فيه غيره من إخوانه) (١) وتوفي سنة ٦٠٣ هـ •

وقد وردت هذه الصفات الحميدة لولده القاضي أبي صالح نصر بن عبد الرزاق الذي تقدمت ترجمته (٢) •

وذكر الشطنوفي أن أبا مدين شعيبا الملقب الغوث (٣) لقي الشيخ عبد القادر الجيلي بعرفات في الحج ولبس منه الخرقة ، وسمع منه جزءا من مروياته • (٤)

فعلى هذا تكون القادرية دخلت بلاد المغرب في حياة الشيخ عبد القادر •

ولعل خرقة الصوفية غير مخيطة حتى يمكن المحرم الواقف بعرفة لبسها إذا لم يصح اجتماع آخر بينهما • (٥)

---

(١) نفسه ص ٥٨ والمختصر المحتاج إليه جـ٢ ص ٢١١ - ٢١٢ •

(٢) في هذا البحث ص ٣٣ و ٣٧ •

(٣) هو : أبو مدين شعيب ابن حسين الأنصاري المتوفي سنة ٥٩٤ هـ • انظر : التشوف إلى رجال التصوف ص ٣١٩ •

(٤) بهجة الأسرار ص ١٠٦ - ١٠٧ •

(٥) انظر : شجرة النور الزكية ص ١٦٤ •

المبحث الرابع : أقوال العلماء فيه

فيما مضى رأينا الشيخ عبد القادر طالبا ثم شيخا له تلاميذه ومدرسته التي عرفت به وعرف بها وإذا اشتهر الانسان في هذه الحياة ، فإن الناس يتحدثون عنه سلبا أو إيجابا على حسب اجتهاداتهم واتجاهاتهم في الحياة (ولابد من مثن عليك وقادح) ٠(١)

وهذا ماوقع للشيخ عبد القادر ، فإن الذين كتبوا عنه كثيرون جدا ومختلفون فيه جدا ، فمنهم من يخصص له كتابا كاملا في الثناء عليه ، ومنهم من يترجمه في أسطر قليلة ويتنقصه فيها ومنهم من يؤلف في الثناء عليه والطعن في الطريقة المنسوبة إليه أو إلى أحفاده ٠

ومقصودنا هنا أن ننتقي من أقوال العلماء فيه ثم نحكم على ضوء ذلك ، وأول ما نجد من ذلك أوصاف عامة لجسمه وهيئاته ٠

قال ابن العماد الحنبلي (كان شيخ الشيوخ عبد القادر : نحيف الجسم عريض الصدر عريض اللحية ، أسمر مدور الحاجبين ، ذا صوت جهوري وسمت بـه) ٠ (٢)

وهذه أوصاف لاكسب للمرء فيها وإن كانت تدل على الرجولة والذكاء والسكينة الدالة على العلم والعقل ٠

وقال صاحب القلائد ناقلا عن إبراهيم بن سعد الداري : (كان شيخنا عبد القادر رضي الله عنه يلبس لباس العلماء ويتطيلس ، ويركب البغلة وترفع الغاشية (٣) بين يديه ويتكلم على كرسي عال ، وكان في كلامه سرعة وجهر ، وله كلمة مسموعة اذا أنصت له ، وإذا أمر ابتدر لأمره ، وإذا رءآه القلب القاسي خشع ٠) (٤)

---

(١) هذا شطربيت ((من الطويل)) جار مجرى المثل ٠

(٢) شذرات الذهب جـ ٣ ص ١٩٨ - ١٩٩ ٠

(٣) الغاشية : مظلة ترفع فوق الرأس تظلله ٠

(٤) القلائد ص ٢ وما بعدها ٠

وتحسين الهيئه دون أبهة زائدة من الأمور المرغب فيها شرعا وأدبا وخصوصا لأهل العلم والفضل الذين يؤخذ عنهم الخير من كتاب وسنة وعبادة وفقه وأمر بمعروف و نهي عن منكر ·

وأما خشوع القلب القاسي عند رؤيته فهذا من علامة إخلاصه واستقامة سريرته، والتزامه لما أمر به شرعا ، وإلا فإن أهل البدع مهما تزهدوا لاهيبة لهم في القلوب إلا بسلطان الدجل والشعوذة وقد اشتهر عن الشيخ عبد القادر من الزهـد والتواضع ، ماهو معروف · ولكن ألفت في مناقبه كتب كثيرة (١) ونسبت إليه أمورا لاتنطبق على ماعرف من سيرته ، ولذا فإن النقاد لايحفلون كثيرا بأسانيد معظم الروايات الواقعة في هذه الكتب التي ذكرها جامع تاريخ جامع الشيخ عبد القـادر(٢) ·

وقد أثبت الحفاظ له من الثناء الحسن والمقبول مايكفى عن التلفيق له ومن ذلك اتفاق كثيرين منهم على تحلية ترجمته بشيخ الإسلام وقدوة مشايخ الزمان بلا مدافعة ·

قال الذهبي : (الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوه ، شيخ الإسلام علم الأولياء محي الدين أبو محمد عبد القادر) · (٣)

وكل لقب في هذا النص له دلالة تحتاج إلى تحليل حسب مقتضاه بنصوص العلماء وقد قام العلماء بذلك رحمهم الله في مؤلفاتهم الكثيرة · (٤)

يقول الشيخ رشيد رضا : (وقد ألف في مناقبه - يعني الشيخ عبد القادر - كتب كثيرة أعرف منها نحوا من عشرين مصنفا لم يطبع منها إلا القليل) ·(٥)

والمقصود هنا في ترجمته هو بيان مكانته العلمية والاجتماعية بين العلماء وما يتصل بذلك من احترام الناس له ·

---

(١) دائرة معارف البستاني جـ ١١ ص ٦٢٤ ·

(٢) تاريخ جامع الشيخ عبد القادر ص ٥١ - ٥٢ ·

(٣) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٣٩ ·

(٤) فوات الوفيات ص ٣٧٤ والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٧١ ·

(٥) دائرة معارف البستاني جـ ١١ ص ٦٢٤ ·

مكانته العلمية :

إنه مع كثرة العلماء في بغداد أيام الشيخ عبد القادر ، فإننا نجد كثيرا ممن كتبوا عنه يحكمون له بالإمامة في علوم شتى وبالانتهاء في الفقه وصواب الفتوى إلى الغاية القصوى . قال الذهبي عنه : (إنه طلب العلم حتى أحكم الأصول والفروع والخلاف ، وسمع الحديث وقرأ الأدب واشتغل بالوعظ إلى أن برز فيه) .(١)

ويراد من اشتغاله بالوعظ الجمع بينه وبين التدريس على ما قاله ابن الجوزي وغيره (وأقام في مدرسته يدرس ويعظ إلى أن توفي ..) (٢) (وكان يتكلم في ثلاثة عشر علما وكان يذكر في مدرسته درسا من التفسير ، ودرسا من الحديث ، ودرسا من المذهب ، ودرسا من الخلاف ، وكان يقرأ عليه طرفي النهار التفسير وعلوم الحديث والمذهب والخلاف والأصول والنحو ، وكان يقرئي القرآن بالقراءآن بعد الظهر) .(٣)

فهذه فنون كثيرة لايسع الوقت تدريسها كلها إلا بالتفرغ التام لها مع البركة في الوقت ، ولذا فإن الشيخ عبد القادر كان لايخرج من مدرسته إلا يوم الجمعة أو إلى الرباط الداخل فيها .(٤)

ويبدو أنه ظل على هذه الحالة حتى مات كما يفهم من كلام ابن الجوزي السابق ، ووصف ابن قدامة المقدسي له في آخر حياته حيث إنه تتلمذ عليه وكان يقرأ عليه غدوة من حفظه من كتاب الخرقي .(٥)

فيقول : (دخلنا بغداد سنة احدى وستين وخمسمائة فإذا الشيخ الإمام محي الدين عبد القادر رضي الله عنه :

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ٢٠ ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

(٢) المنتظم جـ ١٠ ص ٢١٩ .

(٣) بهجة الأسرار ص ١١٨ .

(٤) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٩ .

(٥) هو أبو القاسم عمر بن حسين بن عبد الله بن أحمد الخرقي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ طبقات الحنابلة جـ ٢ ص ٧٥ .

ممن انتهت إليه الرئاسة بها علما وعملا وحالا وإفتاء ، وكان يكفي طالب العلم عن قصد غيره من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم ، والصبر على المشتغلين وسعة الصدر ، وكـان ملء العين ، وجمع الله فيه أوصافا جميـلة وأحوالا عزيـزة وما رأيت بعده مثله) ٠ (١)

وفي هذا النص مايكفي في بيان حال الشيخ عبد القادر إلا أننا نورد مثالا واحدا لندلل به على انتهاء الفتوى إليه في بغداد حيث مجمع الفقهاء والقضاة آن ذلك ، ومنه تعرف أنه ما كان زاهدا فقط أو متصوفا واعظا فقط روي من طريق نصر بن عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر عن أبيه قال : (جاءت فتيا من العجم الى بغداد ، بعد أن عرضت على علماء العراقين ، فلم يتضح لأحد فيها جواب شاف ٠

وصورتها : مايقول السادة العلماء في رجل حلف بالطلاق الثلاث : أنه لابد أن يعبد الله عز وجل عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها ، فما يفعل من العبادات ؟ قال : فأتي بها إلى والدي ، فكتب عليها على الفور يأتي مكة ، ويخلى له المطاف ، ويطوف اسبوعا وحده وتنحل يمينه ٠

قال : فما بات المستفتي ببغداد ٠) (٢)

---

(١) نقل هذا عن صاحب بهجة الأسرار ص ١٨٨ وتبعه على نقله ابن رجب الحنبلي في ذيل طبقات الحنابله جـ ١ ص ٢٩٤ ٠

(٢) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٤ ٠

مكانته الاجتماعية واحترام الناس له :

إذا تصدى العالم للوعظ والإرشاد ، وكان مقداما جريئا لاتأخذه في الله لومة لائم ، وجه الناس إليه سهام النقد وحملوه أمورا قد لايكون مسؤلا عنها أو متصفا بها كلها • فإذا انضاف إلى الوعظ والإرشاد والجرأة في الحق الانتصاب لمهمة التعليم والتربية كان ذلك عبئا زائدا على كاهل ذلك الشيخ •

ولكن في هذه المجالات نجد أن الراضين عن الشيخ عبد القادر فيها أكثر من الناقمين عليه فيها •

فإن السمعاني مثلا يصفه بأوصاف حميدة تدل على علو مكانته عنده وإجلاله له، ولكنه يذيلها بما يدل على عدم رضاه بما هو عليه كاملا إذ يقول : (كان عبد القادر من أهل جيلان إمام الحنابلة وشيخهم في عصره ، فقيه صالح دين خير ، كثير الذكر دائم الفكر سريع الدمعة ••• مضينا لزيارته ، فخرج وقعد بين أصحابه ، وختموا القرآن ، فألقى درسا مافهمت منه شيئا ، وأعجب من ذا أن أصحابه قاموا وأعادوا الدرس ، فلعلهم فهموا لإ لفهم بكلامه وعباراته) • (١)

ويسند الذهبى أنه كان يقرأ بحضرة الشيخ عبد القادر القرآن الكريم بالألحان (٢) ولم ينكر ذلك بل انه رد جوابا على خاطر من استشكل من الحاضرين لماذا الشيخ لم ينكر هذا ؟ رد عليه قائلا :(يجيء واحدقد قرأ أبوابا من الفقه ينكر) • (٣)

ويقول ابن الجوزي إن ابن السمعانى ربما طعن فى بعض أصحاب الامام أحمد بما لايوجب الطعن مثل أن قال : (إن عبد القادر كان يلقي الدرس المشستكه) • (٤)

---

(١) نقل هذا عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤١ •

(٢) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩١ وسير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤١ •

(٣) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٢ •

(٤) كذا في مطبوعة المنتظم ولعل الكلمة في الأصل : (المستشكلة) أو : (المشتبكة) يؤيد ذلك أن صاحب النص ناقل عن ابن السمعان الذي قال بأن الشيخ عبدالقادر القى درسا بحضوره وأنه لم يفهم منه شيئا أو تكون عبارة عن هيئة تعرف عند أهل بغداد آن ذاك كما يفهم من اعتذار ابن الجوزي الآتي •

واعتذر ابن الجوزي عن الشيخ عبد القادر بأنه كان مريض العين ٠) (١) ومع اعتذار ابن الجوزي هذا فإنه هو نفسه اعتبره بعض المؤلفين كالذهبي وابن رجب والقرمانى غير راض عن الشيخ عبد القادر ٠

فالذهبى قال فى تاريخ الاسلام بعد نقله لترجمة ابن الجوزي للشيخ عبد القادر : (لم تسع مرارة ابن الجوزي بأن يترجمه بأكثر من هذا لما في قلبه له من البغض) ٠ (٢)

وأما ابن رجب والقرمانى فإنهما ذكرا أن ابن الجوزي ألف كتابا ينقم فيه على الشيخ عبد القادر أشياء كثيرة (٣) وهذا الكتاب المذكور معارض بكتاب آخر منسوب لابن الجوزى اسمه : درر الجواهر من كلام الشيخ عبد القادر جمعه من كلامه ومناقبه، وقد ذكر سبط ابن الجوزي في محنة جده بيتين منسوبين لجده وهما :

(يابيت عبد القادر كنتم نتيجى فى القضا

مامثلهم يحسدنـــى ولاهــم أمثالى ٠) (٤)

وظاهر في هذين البيتين التعبير عن حصول المنافسة والحسد ، وإذا دخل الحسد والمنافسة بين الناس فإنه لا يصدق منهم أحد على أحد ٠ والله يغفر للجميع ٠

والواقع أن ابن الجوزي كما يقول ابن رجب : حاول أن يزن شيوخ عصره بما كان عليه السلف الصالح ، فلم يجد فيهم من يلتزم التزاما كليا بما كانوا عليه ولذا أزدراهـــم ٠ (٥)

---

(١) المنتظم جـ ١٠ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ٠

(٢) تاريخ الإسلام - مخطوط ـ مصدر سابق ص ٢٧٦ ٠

(٣) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٥ والسيف الرباني ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ٠

(٤) مرآه الزمان جـ ٨ ص ٤٤٠ ٠ ولا يخفى عدم استقامة البيتين وزنا وقافية ومعنى مما يشكك في نسبتهما لابن الجوزي ٠

(٥) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٥ ٠

والأولى كما قال ابن رجب : تنزيل الناس منازلهم ، وتوفيتهم حقوقهم ، ومعرفة مقاديرهم وإقامة معاذيرهم . (١)

وهذا مارأيناه عند الشيخ ابن تيمية في عموم الناس وخصوصا المشايخ فإنه يزن كل واحد منهم بما يناسبه علما وعملا وحالا . (٢)

ومن هنا فإننا نجده كثيرالثناء على الشيخ عبد القادر ويوجه كلامه إذا كان فيه غموض ، ويصفه بالإمامه ورسوخ القدم ، وأن له لسان صدق في الأمة . (٣)

وقال ابن رجب في وصفه لمكانة الشيخ عبد القادر العلمية وقبوله لدى الناس وجرء ته في قول الحق :(ظهر الشيخ عبد القادر للناس وجلس للوعظ ، وحصل له القبول التام من الناس واعتقدوا ديانته وصلاحه ، وانتفعوا به وبكلامه ووعظه ، وكان في عصره معظما ، يعظمه أكثر مشايخ الوقت من العلماء والزهاد وله مناقب وكرامات كثيرة .) (٤)

وقال ابن قدامة : (ولا رأيت أحدا يعظم من أجل الدين أكثر منه) (٥) (وكان يصدع بالحق على المنبر.) (٦) (وربما عرض بالخليفة أو صرح .) (٧)

والفحولة في الحق من شيم السلف الصالح رضوان الله عليهم .

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٥ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ١٠ ص ٤٥٥ وما بعدها .

(٣) نفسه جـ ١٠ ص ٥٢٠ .

(٤) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٥) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٩ .

(٦ -٧) الذيل جـ ١ ص ٢٩٢ .

المبحث الخامس : آثاره

إن الشيخ عبد القادر اشتغل بالتدريس والوعظ والإرشاد عن التأليف لولا ذلك لترك ثروة كبيرة من المؤلفات النافعة في العلوم التي مر بنا أنه كان من أهل الاتقان فيها ، مع أن المؤلفات ليست هي المقصودة دائما بالآثار ، فقد يترك العالم آثارا نافعة ، ويغرس غرسا مستمرا يكون أفضل من مجرد المؤلفات ، وهذا ماحصل للشيخ عبد القادر ٠

فإنه بجانب ما سنذكره له من المؤلفات ترك مدرسة كبيره ببغداد عامره ورباطا للاعتكاف والتربية الروحية ، وظل هذا المركز العلمي مستمر العطاء حتى يومنا هذا ٠ (١)

ومما ساعد هذه المدرسة وذلك الرباط على الاستمرار في العطاء أن الشيخ عبد القادر ترك من ذريته وتلاميذه علماء نشطين في نشر العلم والتربية والسلوك ظهرت لهم بعده مشاركات فى الدولة (٢) ساعدتهم على التوسع فى انشاء المدارس والأربطة الجديدة ٠ رغم التطورات التي قد لايتماشى كثير منها مع أصل الطريقة ٠

هذا بالإضافة الى من ذكر أنهم انتشروا في البلاد وأنشأوا المعاهد والأربطة وقاموا على تنظيمها قياما حسنا كفل لها البقاء والاستمرار حتى يومنا هذا ٠ (٣)

فهذا جانب من آثار الشيخ عبد القادر والجانب الآخر هو المؤلفات التي تلي إن شاء الله حسب الجهد والميسور :

مؤلفاته :

عند الرجوع إلى الكتب والمعاجم التى اهتمت بذكر أسامي الكتب المؤلفة

---

(١) تاريخ جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ومدرسته العلمية ص ٥١ - ٥٢ ٠

(٢) تلخيص معجم الآداب لابن الفوطي جـ ٤ ص ٨٧٣ - ٨٧٤ ٠

(٣) الدعوة الى الإسلام ، تأليف : السير توماسي وأرنولد ، ترجمة الدكتور / حسن إبراهيم وزملائه ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ م ص ٣٠٤ وما بعدها ٠

ككشف الظنون (١) وهدية العارفين (٢) ومعجم المؤلفين (٣) والأعلام (٤) نجدها تذكرمؤلفات الشيخ عبد القادر ونجدها كذلك متفاوته في حصرها ومختلفه في عناوين البعض منها ، وبعضها متردد في نسبة بعض منها إليه (٥) .

ومع كثرة المطبوعات واهتمام أتباع الشيخ عبد القادر بكتبه وآثاره فإننا نجد المطبوع له من الكتب لايتجاوز أربعة كتب أو خمسة ، ولكن عدم طباعتها لايمنعنا من ذكرها معزوة الى من ذكرها من المصنفين ، مع بيان حالها حسب ما أتيح لنا من المعلومات عنها فمنها :

(١) تحفة المتقين وسبيل العارفين . (٦)

(٢) حزب الرجاء والانتهاء . (٧)

(٣) الفيوضات الربانية في الأوراد القادرية (٨) وهو كتاب مطبوع بجمع وترتيب الحاج إسماعيل ابن السيد محمد القادري ، جمع فيه الأحزاب والأوراد والقصائد المنسوبة للشيخ عبد القادر (٩) .

(٤) الرسالة الغوثية .(١٠)

---

(١) ذيل كشف الظنون ص٦٦٢ .

(٢) هدية العارفين إلى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين : تأليف إسماعيل باشا البغدادي ط وكالة العارف باستانبول ١٩٥١ م المجلد الأول جـ ٥ص ٥٩٦ .

(٣) معجم المؤلفين تأليف : عمر رضاكمالة بيروت جـ ٥ ص ٢٠٧ - ٣٠٨ .

(٤) الأعلام للزركلي جـ ٤ ص ٤٧ .

(٥) دائرة معارف بطرس جـ ١١ ص ٦٢٢ .

(٦) هدية العارفين جـ ١ ص ٥٩٦ .

(٧) نفسه وذيل كشف الظنون ص ٦٦٢ .

(٨) هدية العارفين جـ ١ ص ٥٩٦ .

(٩) ط بيروت ١٤٠٨ هـ .

(١٠) وهي مذكورة في المرجع قبله . قصيدة . وهدية العارفين جـ ١ ص٥٩٦ .

(٥) السفينة القادرية (١) : وهي كتاب مجلد طبع بالمطبعة الرسمية في ليبيا سنة ١٣٠٤ هـ ويشتمل على أحزاب وقصائد منها ماهو منسوب للشيخ عبد القادر ومنها ماهو منسوب إلى غيره •

(٦) وقد ذكر له البغدادي في هدية العارفين : الكبريت في الصلاه على النبي صلى الله عليه وسلم ومعراج لطيف المعاني ، ومراتب الوجود ، ويواقيت الحكم • (٢)

(٧) جلاء الخاطر في الباطن والظاهر •

(٨) وسر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار •

(٩) وآداب السلوك والتوصل إلى منازل الملوك • (٣)

قال رشيد رضا : (وينسب إليه - يعني الشيخ عبد القادر - من الأوراد والأحزاب مالايصح نسبته كله إلى مثله)• (٤)

(١٠) وكتاب في التفسير يقال . كما قال رشيد رضا . : (إنه نفيس جدا •) ويوجد في مكتبة مفتي طرابلس بالشام ، لبنان • (٥)

(١١) فتوح الغيب (٦) وهو كتاب مطبوع ولشيخ الإسلام رسالة في توجيه وتوضيح بعض جمله ومعانيه •(٧)

وقد نسبه له ابن رجب (٨) ويرى رشيد رضا أنه والذي يذكر بعده من جمع بعض تلاميذه من المواعظ التي كان يمليها في مدرسته ورباطه • (٩)

---

(١) انظر ص ٩٦ - ١٦٢ منه •
(٢) هدية العارفين جـ ١ ص ٥٩٦ •
(٣) معجم المؤلفين جـ ٥ ص ٣٠٧ - ٣٠٨ •
(٤) دائرة معارف جـ ١١ ص ٦٢٢ •
(٥) نفسه •
(٦) هدية العارفين ص ٥٩٦ وذيل كشف الظنون ص ١٢٤٠ •
(٧) مجموع الفتاوى جـ ١٠ ص ٤٥٥ وما بعدها •
(٨) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٦ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ١٢ ص ٢٥٢ •
(٩) دائرة المعارف للبستاني جـ ١١ ص ٦٢٢ •

وهذا واضح من سياقهما ، حيث إن المقالات في كل منهما تبدأ هكـذا (قال رضي الله عنه بتاريخ كذا في المدرسه أوفي الرباط) ٠ (١)

(١٢) الفتـح الرباني (٢) وهـو كتاب مطبوع يشتمل على توجيهـات ومواعـظ حسنـة ٠ (٣) وقد أنكر نسبة هذا الكتاب والذي قبله للشيخ عبد القادر علي بن محمد القرماني الحنفي وقال : بأنهما من تأليف العفيف على لسان الشيخ عبد القادر ، وإن مافيهما أشبه بأساطير الأولين ولقالق المتخيلين ، وحاشا للشيخ عبد القادر وأمثاله من القول بمثل مافيهما) (٤)

قلت : ولعل العفيف المذكور هو : أبو الربيع سليمان بن علي بن عبد الله الكوفي العفيف التلمساني ٠ قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية : (وقد نسب هذا الرجل إلى العظائم في الأقوال والاعتقاد في الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض٠ عمل أربعين خلوة كل خلوة أربعين يوما ٠) (٥) توفي سنة ٦٩٠ هـ٠(٦)

(١٣) الغنية لطالب طريق الحق في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية ٠ وهو كتاب مطبوع عدة طبعات في جزئين في مجلد واحد ، وثابت النسبة إلى مؤلفه ومشهور عنه في حياته ٠ قال ابن رجب : (وله كتاب الغنية وهـو معروف) ٠(٧)

وقال ابن كثير : (وقد صنف كتاب الغنية وفتوح الغيب وفيهمـا أشياء حسنة ، وذكر فيهما أحاديث ضعيفة وموضوعة) (٨) ٠

---

(١) المراجع المذكورة ٠

(٢) معجم المؤلفين جـ ٥ ص ٣٠٧ والأعلام جـ ٤ ص ٤٧ ٠

(٣) دار الكتب العلمية ط ١٤٠٣ هـ وكان المجلس الأول منه في الرباط ثالث شوال سنة ٥٤٥ هـ والمجلس الثاني والستون منه كان بكرة الجمعة في المدرسة سلخ شهر رجب سنة ٥٤٦ هـ ص ٣ و ٢٢٧ ٠

(٤) السيف الرباني ص ١٤٣ و ١٧٢ و ١٧٨ و ١٧٩ ٠

(٥-٦) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٢ ص ٣٢٦ ٠

(٧) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٦ ٠

(٨) البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٥٢ ٠

وتقدم لنا أن الشيخ عبد القادر سمع الحديث وأنه كانت له إجازة عالية في الحديث وهو أول ما ذكر ابن كثير نفسه أنه اشتغل به ، وهذا ماتؤيده نسبة الكتاب الآتي إليه .

(١٤) الجزء القادري في الحديث ينتهي إسناده إلى الشيخ عبد القادر .

وبه نختم الحديث عن آثاره لنصلها بالحديث عن عقيدته وسلوكه .

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٥٢ .

المبحث السادس : عقيدته وسلوكه

جاء الشيخ عبد القادر إلى بغداد إثر أفول نجم المعتزلة وادبار دولة بني بويه الشيعية ، وكانت بغداد ميدانا للصراعات العقائدية بأنواعها ، الموغلة منها في الانحراف والفساد والمتوسطة فيه . ولا شك أنه أخذ عن علماء المذاهب والفرق كلها ، أثناء طلبه للعلم (١) وله في بعض أساتذته أسوة حيث أخذوا العلم عن كل من عنده علم دون نظر إلى انتمائه العقدي (٢) ومن هنا نجد أن الشيخ عبد القادر قد نسب إلى طوائف متعددة في معتقده ومذهبه الفقهي(٣) ولا عجب في هذا فكثير من أمثاله من العلماء وقع له مثل ذلك ولكن بالبحث العلمي والنظرفي مؤلفاته يتبين حاله ومعتقده ، وتتضح الدعاوي التي لابينة عليها ، فترد على أصحابها بالدليل والبرهان.

فقد قيل : إنه كان شافعي المذهب فرأى في النوم الإمام أحمد يقول له : أدرك المذهب ياعبد القادر .(٤)

وهذه الرؤيا لايصدقها الواقع فإن المذهب الحنبلي كان قويا في ذلك الوقت ، ويشهد لذلك أن شيوخ الشيخ عبد القادر نفسه جلهم من الحنابلة ، ثم إن المذهب الحنبلي كان بجيلان التي جاء منها الشيخ عبد القادر .

ذكر ابن عنبة أن الحنابلة كانوا بالديلم نحو خمسين ألفا يعرفون بأصحاب أبي جعفر الثري الحنبلي . (٥)

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٣٠ وما بعدها وذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٠ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة جـ١ ص ١٤٣ .

(٣) دائرة المعارف البستاني جـ ١١ ص ٦٢٢ .

(٤) دائرة المعارف للبستاني جـ ١١ ص ٦٢٢ .

(٥) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ص ٦٩ - ٧٠ .

وقال الخوانساري : (إنه كان في الفروع على مذهب المالكية) (١)

وهذه دعوى لانجد لها مستندا ، والاتفاق بين المؤلفين أنه شيخ الحنابلة في زمنه قال ابن رجب والذهبي : إنه برع في المذهب والخلاف بعد أن أحكم الأصول والفروع (٢) ولا عبرة بمجرد الفتوى على مذهب لأن العالم يفتي كل مستفت متمذهب على مقتضى مذهبه هذا عن مذهبه الفقهي .

وأما عن مذهبه العقدي فإننا نبدأ أولا بعرض آراء من نسبه لغير مذهب السلف في الاعتقاد ، ثم نثني بالقائلين بأنه سلفي المعتقد ، ونسوق من كتبه مايناسب ذلك.

إننا نجد في بعض المراجع أن الشيخ عبد القادر كان أشعري المعتقد أو أنه كان على مذهب السلف في عدم القول بالتأويل ، وأن العز بن عبد السلام يأخذ عليه عدم القول بمذهب الخلف في تأويل بعض الصفات مثل الاستواء وذلك أن العز بن عبد السلام أثنى على الشيخ عبد القادر بتواتر كراماته فقيل له : هذا مع أعتقاده كيف هذا ؟ فقال لازم المذهب ليس بمذهب . قال الذهبي : (قلت : يشير إلى إثبات صفة العلو ونحو ذلك ، ومذهب الحنابلة فى ذلك معلوم يمشـون خلف ماثبت عن إمامهم رحمه الله إلا من شذ منهم ، وتوسع في العبارة) (٣) وقال الخوانساري : (إنه كان له في الأصول مشرب الأشعرية) (٤) وذكر اليافعي بسنده أن الشيخ عبد القادر رجع آخرا عما كان يعتقده في مسألة الجهة ، لما بلغه تعجب ابن دقيق العيد من عدم موافقته للجمهور في تأويلها .) (٥) .

ووجه ابن عزوز كلام اليافعي هذا بأن هذا يعتبر من الشيخ عبد القادر رجوعا

---

(١) روضات الجنات جـ ٥ ص ٨٥ - ٨٩ .

(٢) طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٠ وسير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٣ إلى ٤٤٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٣ .

(٤) روضات الجنات جـ ٥ ص ٨٥ .

(٥) مرآة الجنان ص ٣٦٢ .

عن مذهب التفويض الذى هو مذهب السلف (١) إلى التأويل الذي هو مذهب الأشاعرة • قال : (ولعله ظهر له رجحان ذلك لظهور فتن أهل الأهواء ، ثم نقل عن الشعراني (٢) قوله : (ولعل كلام الغنية مدسوس على الشيخ رأسا) (٣) ، وجاء هذا التوجيه من ابن عزوز المكى في معرض رده على علي بن محمد القرماني الحنفي الذي قال في رسالته : الحق الظاهر في شرح حال الشيخ عبد القادر : (وما بقي تحت رين الشبهة ، إلا ماجاء في الغنية عن الشيخ عبد القادر أنه يقول بالجهة •) (٤) وذكر ابن عزوز أن محمد المسناوي المغربي ألف رسالة بها نحو تسعين صفحة سماها : جهد المقل القاصر ، في نصرة الشيخ عبد القادر ينفي عنه فيها ماذكره هو في كتابه الغنية من القول بإثبات جهة العلو لله تعالى • (٥) هذا مجمل أقوال القائلين بخلفية الشيخ عبد القادر أو أشعريته ، وليس فيها مايحتاج إلى دراسة كبيرة ، إذ إنه لامستند فيها يمكن الاعتماد عليه في الحكم ، على أن الشيخ عبد القادر كان أوصار الى ماذكروه عنه من المعتقد المخالف لمذهب السلف • فابن دقيق العيد والعز بن عبد السلام لم ينقل عنهما أنه رجع عن معتقده الذي كان عليه ، وانتقادهما عليه عدم موافقته جمهور الخلف في التأويل دال على بقائه على عقيدة السلف، ولو صح فرضا أن أحدا من علماء عصره انتقده وبلغه نقده له ، فإن ذلك لايرد عالما مثله عما كان يعتقده •

وأما الخوانساري فإنه في أغلب ظني ترجم للشيخ عبد القادر دون الاعتماد على مرجع يعتمد عليه ، هذا مع العداوة الظاهرة في أسلوبه نحوه ، ويعلم ذلك من طعنه في نسبه وطريقته ومقارنته بابن عربي الحاتمي الطائي ، (٦) ونسبته جزما إلى

---

(١) وسيأتي إن شاء الله الكلام عن التفويض والمرادبه •

(٢) هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني أبو محمد من العلماء المتصوفين توفي سنة ٩٧٣ هـ •

(٣) السيف الرباني ص ١٤٠ - ٢٣٩ وما بعدها •

(٤) السيف الرباني ص ٢٣٩ •

(٥) نفسه ص ٢٤١ - ٢٤٣ •

(٦) ستأتي ترجمته في سلاسل القادرية في موريتانيا •

الاعتقاد الأشعري والمذهب المالكي (١) وهذه أمور لم نجدها في غيره مع كثرة الذين كتبوا عن الشيخ عبد القادر .

وأما من جاء بعد هؤلاء فنقلهم عن الغنية قول الشيخ عبد القادر فيها بإثبات جهة العلو لله تعالى ، وردهم له بعد النقل له ، من أظهر دلائل التعصب المبطل لحجة صاحبه .

وعقيدة المرء المسلم لايجوز التحكم فيها بمثل هذه النقول ، والالتماسات البعيدة وإنما تؤخذ من أقواله عن نفسه ومؤلفاته وتلامذته أو من نقل أهل الثقة والإنصاف .

ولذا فسنعرض بعض نقول أهل العلم عنه في الاعتقاد ، ثم نأخذ من كتبه مايدل على صحة تلك النقول عنه . وأول ذلك موقفه من علم الكلام ، فإنه كان يحذر منه جدا ، نقل ذلك عنه شيخ الإسلام ابن تيمية (٢) والذهبي (٣) وابن رجب الحنبلي (٤) قال ابن تيمية : (من نظر في عقائد المشهورين مثل الشيخ عبد القادر وجد في كثير منها النهي عن اعتقاد المتكلمين من الأشعرية والكلابية) (٥) وقد نقلوا خبر مكاشفته لمن قرأ شيئا من أصول الدين على طريقة المتكلمين فأوقع عنده شكا ، وقال له الشيخ عبد القادر جوابا على خاطره : (اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة) وكذلك مكاشفته لشهاب الديـن عمر السهروردي عن نيته الاشتغال بعلم الكلام ، وأنه قال له : قبل أن ينطق ليستشيره في قراءته : (ياعمر ماهو من عدة القبر ياعمر ، ماهو من عدة القبر) .(٦)

---

(١) روضات الجنات جـ ٥ ص ٨٥ - ٨٩ .
(٢) الاستقامة جـ ١ ص ٨٨ .
(٣) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .
(٤) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .
(٥) الاستقامة جـ ١ ص ٨٨ .
(٦) الاستقامة ج ١ ص ٨٦ - ٨٧ وسير أعلام النبلاء ص ٢٠ جـ ٤٤٣ وذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن معتقد المتأخرين من الأشاعرة ، ينقص معتقده عن كمال الولاية ، وهو أمر يجل عنه الشيخ عبد القادر إذ يقول : (إن الشيخ عبد القادر من المشايخ الذين لهم لسان صدق في الأمة وأنه من المعتمدين منهم).(١)

وبين شيخ الإسلام في رده ، على القشيري في قوله : إن مشايخ الصوفية كانوا يوافقون اعتقاد كثيرمن المتكلمين الأشعرية (٢) قال : (والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ماكان عليه السلف وهذا هو الذي كان يجب أن يذكر) .(٣)

ولما سئل الشيخ عبد القادر هل كان لله ولي على غيراعتقاد الإمام أحمد ابن حنبل ؟ قال : ماكان ولايكون . (٤) .

وكان يرى أن المشتغل بعلم الكلام لايفلح (٥) ومن هنا قال ابن رجب : (وانتصر أهل السنة بظهوره) (٦) وأنه له (كلام حسن في التوحيد ، والصفات والقدر ، وفي علوم المعرفة موافق للسنة) (٧) (وكان متمسكا في مسائل الصفات ، والقدر ونحوهما بالسنة بالغا في الرد على من خالفها) (٨) وهذه هي الأمور التي عظمه من أجلها الشيخ ابن تيمية حيث يقول : (ماعظمت الشيخ عبد القادر إلا

---

(١) الاستقامة جـ ١ ص ٨٥ - ١٤٢ .

(٢) الرسالة القشيرية ، للإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري ، تحقيق عبد الحليم محمود بن الشريف . دار الكتب الحديثة جـ١ ص ٢٧ - ٥١ .

(٣) الاستقامة جـ١ ص ٨٢ .

(٤) الاستقامة جـ ١ ص ٨٦ .

(٥) ذيل طبقات الحنابلة جـ١ ص ٢٩٧ .

(٦) نفسه جـ ١ ص ٢٩٢ .

(٧) نفسه جـ ١ ص ٢٩٦ .

(٨) نفسه جـ ١ ص ٢٩٦ .

بكلامه في القدر وحكايته مع الشيطان) . (١)

ونجد كلام شيخ الإسلام في توضيح وتوجيه كلام الشيخ عبد القادر في فتوح الغيب لاينقد عليه فيه شيئا من المسائل العقدية أو السلوكية بل يوجه مشكلاته ويوضح غوامضه . (٢)

وتوجد في آخر كتاب فتوح الغيب عقيدة مختصرة فيها ردود على بعض الفرق المخالفه في العقيدة من أهل الملة وغيرها من أصحاب الملل والنحل الأخرى . (٣)

وفي آخر هذه العقيدة (هذه عقيدة سنية ، على أصول مذاهب الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية) . (٤)

ويبعد عندي أن تكون هذه العبارة صادرة من الشيخ عبد القادر لأن العقيدة لاتخرج على أصول المذاهب الفقهية كالمسائل والنوازل .

وعلى كل حال فهذه العقيدة المذكورة فيها كثير من تنويع العبارة في طلب التنزيه والنفي المفصل وهو أمر لم يعهد عن السلف الجري وراءه لما فيه من التكلف وطلب مالا يعرف .

وفي كتاب (الفتح الرباني والفيض الرحماني) كلام مبثوث في المجالس التي يتضمنها الكتاب ، وقد خصص المجلس الثاني والستون وما بعده للكلام على التوحيد وحقيقته ، وبيان مايناقضه .(٥)

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٢ص ١٧٢ والتصوف في تراث ابن تيمية الطبلاوى محمود سعد الهيئة المصرية العامه للكتاب ط ١٩٨٤ م ص ١٦٢ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ١٠ ص ٤٥٥ وما بعدها .

(٣) فتوح الغيب ص ١٢٦ - ١٢٩ .

(٤) نفسه ص ١٢٩ .

(٥) الفتح الرباني ص ٢٢٧ وما بعدها .

وليست العمده في الحكم على عقيدة الشيخ عبد القادر على هذين الكتابين وإنما العمدة على ماكتبه بنفسه في كتابه (الغنية) التي أشتهرت في حياته (١) وكتبها لتكون مرجعا لتلاميذه وطلب من بعض مريديه • (٢)

وقد بدأ رحمه الله الغنية بقوله : (الذي يجب على من يريد الدخول في ديننا :

أولا : أن يتلفظ بالشهادتين : لاإله إلا الله محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويتبرأ من كل دين غير دين الإسلام ، ويعتقد بقلبه وحدانية الله) • (٣)

فلم يبدأ كما يبدأ المتكلمون بالقول بالشك أو بالنظر أو القصد إلى النظر ، وهذا نموذج لاتباعه لمنهج السلف • وقد أخر شرح مايتعلق بهذا النطق المصحوب بالاعتقاد حتى يبين باقي أركان الإسلام من صلاه وزكاه وصوم وحج وما يتعلق بذلك كله من آداب •

ثم قال : (ويبقى عليه - يعني الداخل في دين الإسلام - حقيقة معرفة الصانع وهي من أعمال القلب فأخرناها ليسهل عليه الدخول في ديننا ، فإذا تقمص بنور الإسلام ظاهرا قلنا له تقمص بنور الايمان باطنا) • (٤)

ثم بدأ في شرح العقائد على وجه الاختصار كما قال ويرد على الفرق الضالة التي جانت الحق • (٥)

ولنقتصر هنا على ما يعرف به أنه على عقيدة السلف في الصفات المتنازع فيها غالبا مع الأشعرية المعتزلة ، وإن كان ربما زاد بعض العبارات التي لم تكن معروفة عن السلف لقصد توضيح وجه الرد على المخالف أو الدخول فيما يعرف في

---

(١) الغنية جـ ١١ص ١ والمنتخب المختار تأليف التقي الفارسي ص ٢٠٥ - ٢٠٧ - ٢٢٢ •

(٢) الغنية جـ ١ص ٣ •

(٣) نفسه جـ ١ ص ٢ •

(٤) نفسه جـ ١ص ٥٤ ويقارن بما فى مقدمات ابن رشد دار صادر جـ ١ ص ٣٧ وما بعدها•

(٥) نفسه جـ ١ ص ٥٤ . ٩٤ •

زمنه من علم الكلام الذي يمكن أن يربط بالأدلة الشرعية وهذه نبذ من كلامه في الأسماء والصفات ٠

قال : (قال أحمد ابن حنبل رحمه الله قبل موته بقريب : أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل) ٠ (١)

ثم قال في صفة الاستواء : (وهو بجهة العلو مستو على عرشه ، محتو على الملك محيط علمه بالأشياء وكونه عز وجل على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل بلا كيف ٠٠٠ وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل ، وأنه استواء الذات على العرش لاعلى معنى القعود والمماسة كما قالت المجسمة والكرامية ، ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت : الأشعرية ، ولا على معنى الاستيلاء والغلبة كما قالت المعتزله) ٠ (٢)

فهذا النص يوضح أن الشيخ عبد القادر يذهب مذهب الإمام أحمد في أخبار الصفات من إجرائها على ظواهرها بلا تشبيه ولا تعطيل ويوضح كذلك أن استواء الله تعالى على العرش ثابت في كتب الله تعالى جميعا ، ويرجح أن الاستواء من صفات الذات التي ينبغي إطلاقها والإمساك عن تأويلها على ماتأولها عليه المجسمة والكرامية والأشعرية والمعتزلة ٠

فالشيخ عبد القادر يوافق السلف في أثبات هذه الصفات إلا أنه في رده على تأويل المتأولين لها يمكن أن يقال بأنه دخل فيما لم يكن من منهج السلف الذين نقل عنهم بالتواتر أن قرائتها هي تفسيرها وامرارها هو عدم طلب الكيف فيها فلم يكن السلف يخوضون في شيء من بيان معنى الاستواء فلا يقولــون (مستو على العرش بذاته) مثلا ولا أن استواءه على الحقيقة أوعلى معنى كذا على أنه من الصواب نقل الاجماع في الايمان بها على الحقيقة نفيا للمجاز أو التأويل (٣) ومن أدى به الرد ٠

---

(١) الغنية جـ ١ص ٥٤ - ٥٧ ٠

(٢) نفسه ويقارن بما في مقدمات ابن رشد جـ ١ ص ١٠ ٠

(٣) كتاب الصفات وكتاب النزول كلاهما تأليف : علي بن عمر الدارقطنى - أبي الحسن الامام الحافظ ٠ سلسلة عقائد السلف (٢ - ٣) تحقيق الدكتور علي بن محمد بن ناصر الفقيهي ط ١ سنة ١٤٠٣ هـ ص ٢٦ وما بعدها وص ٦٨ - ٧٦ ٠

على أهل الزندقة والالحاد من الجهمية والمعتزلة الى تنويع العبارة وتقريب المراد فإنه يلاحظ في كلامه التخرج والتحفظ في الألفاظ وتقديم الألفاظ الواردة في الوحي فــرار من الوقوع فيما وقعوا فيه أو النعت بما نعتوا به من إحداث ألفاظ مجملة أو موهمة ٠ (١)

فهذا منهج السلف ، وتلك مذاهب أهل التأويل وفي بيان الشيخ عبد القادر لمذهبه في الاعتقاد في الأسماء والصفات أن أدلة الكتاب والسنة هي التى جعلتة يقول بهذا القول ويتبع هذا المذهب فيقول في رده على المتأويلين السابقين لصفــة الاستواء : (لأن الشرع لم يرد بذلك ، ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث ذلك ، بل المنقول عنهم حمله على الإطــلاق) ٠(٢)

ثم ينقل عن أم سلمة رضى الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن الإمام أحمد وغيره مايشهد لما ذكر من أنه ينبغي إطلاق هذه الصفات الواردة في الأخبار والنصوص القرآنية (٣) وأخذ يناقش عبارات أهل التأويل ويردها ثم قال :

(فالاستواء من صفات الذات بعدما أخبرنا الله به ونص عليه وأكده في سبع آيات من كتابه والسنة المأثورة به وهو صفة لازمة له ولائقة به ، كاليد والوجه والعين والسمع والبصر والحياة والقدرة) ٠(٤)

وفي كون الاستواء من صفات الذات أو الأفعال خلاف قال ابن رشد :

---

(١) الرد على الجهيمة والزنادقة للإمام أحمدا بن حنبل ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة ط ٢ دار اللواء ، ١٤٠٢ هـ ص ١٣٥ وما بعدها والتحفة المهدية ، شرح الرسالة التدمرية تأليف: فالح بن مهدي آل مهدي، ط٢ الجامعة الإسلاميه ١٤٠٦ هـ جـ١ ص١٣٦ وما بعدها٠

(٢) الغنية جـ ١ص ٥٦ ٠

(٣) نفسه جـ ١ص ٥٦ - ٥٧ ويقارن بما في الرساله التدمرية مع شرحها : التحفة المهدية جـ ١ ص ٨٨ وما بعدها ٠

(٤) الغنية جـ ١ ص ٥٧ ٠

(ولا يمتنـع أن يكون صفة ذات وإن لم يصح وصفه تعالى بها إلا بعد وجود العـرش ٠٠) (١) ٠

فهذا مجمل الكلام في الصفات المختلف فيها بين السلف والخلف أو بعض الخلف حيث إن السلف ذهبوا إلى إثباتها وإمرارها كما جاءت على ماتقدم وذهب الخلف أو بعضهم إلى تأويلها أو تفويض معناها على خلاف بينهم في المراد بالتفويض والتأويل (٢)

والشيخ عبد القـادر يجملها ويثبتها ولا يفرق بينها كما يفعل الكثير من الخلــف (٣) ويضيف لما سبق صفة نزول الرب جل وعلا فيقول : (وإنه تعالى ينزل في كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء وكما شاء لابمعنى نزول الرحمة وثوابه على ماادعته المعتزلة والأشعرية) ٠ (٤)

ويسوق حديث النزول برواياته مدللا على إثبات هذه الصفة لله تعالى ناقلا عن سفيان ين عينية وإسحاق بن راهويه ، ويحيي بن معين والفضيل بن عياض وشريك ابن عبد الله منهج السلف في مثل هذه الصفات والأحاديث الواردة بها رادا على من أنكرها أوتأولها قائلا : (ولا نخرج من الكتاب والسنة نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيها ، ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل) (٥) فعلى هذا يمكن الجزم بأن الشيخ عبد القادر سلفي العقيدة في باب الأسماء والصفات متبع للإمام أحمد في ذلك كله فعلى من يدعي الانتساب إليه أن يكون على عقيدته ويتبعه في سلفيته ٠

والله أعلم ٠

---

(١) مقدمات ابن رشد جـ ١ ص ١٠ ٠

(٢) التحفة المهدية جـ ١ ص ٩٣ - ٩٤ ٠

(٣) نفسه جـ ١ص ٩٥ - وما بعدها ٠

(٤) الغنية جـ ١ ص ٥٧ - ٥٨ ٠

(٥) نفسه ويقارن بما في كتاب النزول : ص ٨٩ وما بعدها ٠

سلوكه وطريقته

رأينا فيما مضى أن الشيخ عبد القادر صحب جلة من العلماء والمشايخ والعباد والزهاد واستفاد منهم العلم والعمل معا ٠

ورأينا أن من بين هؤلاء شيخين جليلين كان لهما أثر بارز في حياته العلمية والعملية وهذان الشيخان : الدباس ، والمخرمي ٠

ومع أن الدباس لم يكن معدودا في أهل العلم فإنه كان له أصحاب ومريدون يتأدبون بأدبه ، ويلازمونه في رباطه ، وينفق عليهم مما يجتمع له من النذور والمنامات فصار بذلك شيخا كبيرا معظما في بغداد لدى الفقراء والعامة (١) ٠

وكانت أول صلة الشيخ عبد القادر به بعد أن طلب العلم وتفقه ، ولازم الخلوة والمجاهدة والسياحة ، والمقام في الخراب والصحراء (٢) أن طرقته الأحوال كما يقول (٣) : وأنه تمنى من يكشفها له ، وإذا برجل فتح عليه الباب وهو سائر في الطريق ، وقال له : (يا عبد القادر ويش طلبت البارحة) (٤) ٠

وكان ذلك الرجل هو حماد الدباس ، فتعرف إليه فيما بعد وصحبه ، وحدث الشيخ عبد القادر نفسه عن موقف شيخه الدباس وأصحابه منه حيث إنهم كانوا ينظرون إليه أنه شخص غريب بينهم ، فإذا غاب لطلب العلم وجاءهم قال له حماد : (أيش جاء بك إلينا أنت فقيه ، مر إلى الفقهاء ، وأنه كان يؤذيه ويضربه ، وكان هذا حال أصحابه معه فإنهم يقولون له : (أنت فقيه أيش تعمل معنا) (٥) حتى انتصر له حماد مرة لما رآهم أكثروا عليه فنهرهم عنه ، وأثنى عليه لثباته ونجاحه في امتحانه له (٦) ٠

---

(١) تقدمت ترجمته - وانظر الذيل على طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٤٧ ٠

(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٤ ٠

(٣) نفسه جـ ٢٠ص ٤٤٦ ٠

(٤) نفسه جـ ٢٠ ص ٤٤٦ ٠

(٥) نفسه ٠

(٦) نفسه ٠

وهذا بلا شك مما شجع الشيخ عبد القادر في الاستمرار في هذا الطريق ٠ وقد ذكر الذهبي وابن رجب في نقولهما عن ابن السمعاني وابن النجار مالا قاه الشيخ عبد القادر من الجهد والعناء وطرق الأحوال له حتى يظن أنه مات أو لحقه الجنون والاغماء ، والخروج في البراري والصياح إلى غير ذلك من الأشياء المنافية لاعتدال العقل ولزوم الشرع ، كما نقلوا عنه أنه كان يقول :-

(بأنه يؤمر وينهى في النوم واليقظة ، وأنه كان يغلبه الكلام ، ويزدحم على قلبه حتى يكاد يخنقه ، ولا يقدر على السكوت (١) ٠

ولعل هذه الأحوال التي كانت تطرقه ازدادت بعد صحبته لحماد الدباس ٠

وعلى كل فالميزان فيها ما كتبه الشيخ عبد القادر نفسه مما يوافق الكتاب والسنة ٠

أما الشيخ الثاني فهو المخرمي الذي تفقه عليه وأضافه إلى مدرسته حتى خلفه عليها ، وقال بعضهم إنه لبس منه خرقة الصوفية (٢) ٠ ولكن سلوك الشيخ عبد القادر وطريقته في التصوف لا ينبغي نقلها أو التعبير عنها إلا بما كتبه هو في كتبه ، وأصدق كتاب له في هذا الموضوع هو كتاب : (الغنية لطالبي طريق الحق) وهو الذي سنعتمد عليه إن شاء الله كأساس لبيان ما انتهى إليه سلوكه وطريقته بعدما عرضنا مراحل حياته وذكرنا أهم من صحبهم وأبرز من صحبوه ٠

وإذا نقلنا عن بعض العلماء أهل الإنصاف كلاما في حاله عموما وطريقته خصوصا فإنما المراد منه توضيح الصورة أكثر وحتى يكون حاله إن كان صالحا ميزان يوزن به من بعده من الشيوخ الذين ينتسبون إليه ، ويدعون التزام طريقته وسلوكه ٠

إننا نجد في الغنية فصولا عن أنواع القرب التي حث عليها الكتاب والسنة في أسلوب فقهي مقرون بالدليل غالبا ، كما نجد فيها أوراد الليل والنهار من صلاة وذكر ، وما يتخلل ذلك من أقوال وأدعية وهيئات ٠

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٧ - ٢٩٩ ٠

(٢) بهجة الأسرار ص ١٠٦ ٠

وقد لا يجد الباحث في ذلك كله ما يستحق النقد لوضوح دليله في الكتاب والسنة ، وإن وجد فيه ما يستحق النقد فإنه في الغالب يكون بسبب الاعتماد فيه على دليل من النقل تختلف أحكام النقاد فيه بين القول بوضعه أو ضعفه إن كان حديثا أو عدم دلالته على المطلوب إن كان آية أو مسألة فقهية مأخوذة منهما . ويحكم بما في الغنية من الأوراد والأحزاب على ما جاء منسوبا للشيخ عبد القادر في كتب أخرى سواء كانت ثابتة النسبة له أو غير ثابتة النسبة أو غير منسوبة له أصلا .

وبما أن الغنية لطالبي طريق الحق ألفت لتكون عمدة لسالكي طريق الصوفية أساساً فإنه من الواضح أنها ستخاطبهم بآداب اختصوا بها ، وتعرفهم بأمور يسلكون عليها ، وتصف لهم معارف يتشوقون لحصولها .

وهذا هو المجال الذي ينبغي أن نستقي منه معلوماتناعن طريقة الشيخ عبد القادر وسلوكه الصوفي . فلنستعرض بعض هذه الأمور في الغنية .

قال الشيخ عبد القادر : (كتاب آداب المريدين) (١) .

‹ فصل : في الإرادة والمريد والمراد ...... › (٢) قال : (أما الإرادة : فترك ما جرت عليه العادة) وشرح ذلك ، وأورد الآيات الآتية : قال الله تعالى لنبيه ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدواة والعشي يريدون وجهه ﴾ (٣) ﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ (٤) ثم قال : (وصفهم بأنهم يريدون وجهه فبان بذلك أن حقيقة الإرادة إرادة وجه الله فحسب ، ذلك زينة الحياة الدنيا والأخرى) (٥) .

---

(١) الغنية جـ ٢ ص ١٥٨ .

(٢) نفسه .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٥٢ قلت لا يفيد هذا التعريف معنى الإرادة لغة أو شرعا . وأنظر مجموعة الرسائل الكبرى مراتب الارادة جـ ٢ ص ٧٦ وما بعدها وانظر من هذا البحث ص ٤٠٩ و ص ٧٦١ .

(٤) سورة الكهف ، الآية ٢٨ .

(٥) الغنية جـ ٢ ص ١٥٨ .

وبين المراد من المريد والمراد : قال : (فالمريد من كانت فيه هذه الجملة واتصف بهذه الصفة من الإقبال على الله وطاعته والعمل بالكتاب والسنة والإعراض عما سوى ذلك) (١) وهنا يقول بأن على المريد القناعة بالخمول والاختفاء مع الاشتغال بمحاب الله عز وجل (٢) • وأنه بذلك يصير مرادا وتحط عنه أثقال سالكي طريق الله ، ويشرح هذه العبارة بإيراد الحديث القدسي : « لا يزال عبدي المؤمن يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ••• » (٣) وهنا يأتي الشيخ عبد القادر بعبارات مجملة تحتاج إلى بيان المراد منها إلا أن عبارته السابقة والتي شرح مراده منها بإيراد الحديث القدسي بعدها لا يريد منها القول بسقوط التكاليف عن السالك إذا وصل إلى درجة اليقين كما يقول بعض الصوفية على ما سيأتي إن شاء الله تعالى إلا أن هذا لا يرفع الابهام عن نفس العبارة (٤) •

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (والشيخ عبد القادر : ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمرا بالتزام الشرع ، والأمر والنهي ، وتقديمه على الذوق والقدر •••) (٥).

وتحدث عن المتصوف والصوفي ، فقال : (أما المتصوف : فهو الذي يتكلف أن يكون صوفيا ، وهو المتبدئ ، والصوفي المنتهي ، الذي قطع الطريق ووصل إلى من إليه القطع والوصل) (٦) •

وهنا نصل إلى صلب الموضوع وهو : ما يجب على المبتدئ في الطريقة من الاعتقاد والآداب ، وما يجب على الشيخ في تأديب المريد فيقول :

---

(١) نفسه •

(٢) نفسه •

(٣) نفسه ١٥٩ والحديث في الصحيحين وسيأتي تخريجه ان شاء الله تعالى •

(٤) الغنية جـ٢ ص ١٥٨ - ١٥٩ •

(٥) مجموع الفتاوي جـ ١٠ ص ٤٤٨ وما بعدها •

(٦) الغنية جـ٢ ص ١٦٠ •

(فأول ما يجب على المبتدىء في هذه الطريقة الاعتقاد الصحيح الذي هو الأساس ، فيكون على عقيدة السلف الصالح أهل السنة القديمة ، سنة الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين والأولياء والصديقيين) (١) • ثم أخذ في الحث على التمسك بالكتاب والسنة ، والعمل بهما أمرا ونهيا ، أصلا وفرعا فقال : (فبالاعتقاد يحصل له علم الحقيقة ، وبالاجتهاد - يعني في العمل - يتفق له سلوك الحقيقة) (وأما آداب المريد مع الشيخ ، فالواجب عليه ترك مخالفة الشيخ في الظاهر ، وترك الاعتراض عليه في الباطن (٢) •

إلى أن قال : (وإذا ظهر له من الشيخ ما يكره في الشرع استخبر عن ذلك بضرب المثل والإشارة) (٣) ويؤكد في شرحه لهذه الفقرة على مكانة الشيخ ، ويطالب بعذره ، وعند عدم وجود عذر له في الشرع أن يتأول له ، ويستغفر له ، ويدعو له ، وأن لا يعتقد فيه العصمة •

وأنه لابد لكل مريد لله عز وجل من شيخ إلا على الندور والشذوذ إذ المشايخ هم الطريق إلى الله عز وجل ، وأنه على المريد أن يلتزم الصمت والوقار في مجالسهم ، وأن يعتقد أنه ليس أحد أولى من شيخه الذي يريد التأدب عليه منه بمنصب الشيوخة (٤) •

ويتحدث الشيخ عبد القادر عما يجب على الشيخ في تأديب المريد من الرفق والنصح وكتمان السر من الطرفين (٥) •

والسر هنا يحتمل أن يكون عاما وخاصا وإلا فإن حفظ السر من الواجب بين المسلمين عموما ويتأكد في حق الأستاذ والشيخ ليلا يتكدر خاطره وتسوء العلاقة بينه وبين الطالب فيكون ذلك من أسباب قطع الفائدة •

ويخصص الشيخ عبد القادر بابا من الغنية لآداب صحبة الأخوان يعني المريدين

---

(١) نفسه جـ ٢ ص ١٦٠ •

(٢) نفسه جـ٢ ص ١٦٣ •

(٣) نفسه جـ ٢ ص ١٥٦ - ١٦٨ إنه لابد من إنكار المنكر وإن اختلفت الأساليب في ذلك لحديث : (من رآى منكم منكرا فاليغيره •••)

(٤) نفسه جـ٢ ص ١٦٧ •

(٥) نفسه جـ ٢ ص ١٦٨ •

فيما بينهم ، وصحبة الأجانب ، والأغنياء والفقراء ٠ وعن العادة في السماع وإن كان يكرهه ، وعن الخرقة وإن كانت عنده أيضا بالعادة ولا أصل لما يقع فيها (لا في العلم والشريعة (١) ٠

ويقول إنه ترك أشياء وضعوها وسموها فيما بينهم ٠

وشرح في ختام الكتاب سبعة أصول قال إنها هي أساس الطريقة وهي :

١- المجاهدة ٠

٢- التوكل ٠

٣- حسن الخلق ٠

٤- الشكر ٠

٥- الصدق ٠

٦- الرضا ٠

٧- الصبر (٢) فهذه هي في الواقع أسس طريقة الشيخ عبد القادر كما قال هو نفسه بأنها أصول الطريقة ، واعتنى بها وشرح المقصود منها ، فمن ذكر له أصولا غيرها كانت مردودة عليه ٠

ونستخلص من هذا العرض الأمور الآتية :

١- أن الشيخ عبد القادر لم يذكر لنا وردا خاصا به يلتزمه أتباعه ، في أوقات معينة، يؤدونه على هيئات خاصة سوى ما ورد به الكتاب والسنة ٠

٢- أنه لم يحكم على ورد مما ذكر على أن المواظب عليه يموت على حسن الخاتمة أو على أحسن حال ولابد ٠

٣- ولم نجد له حكما على أن من اتبعه واستعمل أوراده يكون ناجيا من كل سوء في الدنيا والأخرى ٠

---

(١) نفسه جـ ٢ ص ١٨٠ - ١٨١ وسيأتي بيان مراد الصوفية في العلم والشريعة ٠

(٢) نفسه جـ ٢ ص ١٨٢- ٢٠٠ ٠

٤- ولم يحدد لنا شيخا معينا تلقى عنه الورد أو لبس منه خرقة التصوف ، بل إن غالب إسناده فيما ذكر من أوراد نبوية هي عن طريق شيخه في الحديث : أبي نصر السراج عن والده (١) لا عن الدباس الذي صحبه من أجل الرياضات والمجاهدات ، ولا المخرمي الذي تفقه عليه وقيل إنه أخذ منه خرقة الصوفية . والله أعلم .

وما دام الناس قد نسبوا إليه هذه الأمور وأكثر منها (٢) فإن من شأن البحث العلمي تتبع هذه المنسوبات حسب الوسع لإعطاء الرأي الصحيح فيها .

ولكي يكون في ذلك التتبع شيء من التسلسل والوضوح ينبغي أن يعرض ما نسب إلى طريقته من المباني والآداب بإيجاز ، ثم عرض رجال سند الخرقة المنسوبة إليه والتي يدعى أنها سلسلة متصلة السند بالنبي صلى الله عليه وسلم .

قال الشطنوفي : (ذكر طريقه : سئل سيدي الشيخ أبو الحسن علي بن الهيتي رضي الله عنه وأنا أسمع عن طريق الشيخ محي الدين عبد القادر رضي الله عنه فقال: كان طريقه التفويض والموافقة مع التبري من الحول والقوة وتجريد التوحيد وتوحيد التفريد مع الحضور في موقف العبودية بسر قائم في مقام العبودية لا بشيء ولا لشيء ، وكانت عبوديته صحيحة مستمدة من لحظ كمال الربوبية ، فهو عبد سما عن مصاحبة التفرقة إلى مطالعة الجمع مع لزوم أحكام الشريعة ..) (٣) .

---

(١) قلت لعله : جعفر بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن جعفر السراج ، المقرئ المحدث الأديب أبي محمد المتوفي سنة (٥٠٠) هـ في بغداد . ذيل طبقات الحنابلة جـ١ ص ١٠٠ وما بعدها . وسير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٠ ، ولكن الشيخ عبد القادر أحيانا يقول : حدثنا أبو نصر بن البناء عن والده ولم نعرف من هو . الغنية جـ ٢ ص ١٤٧ .

(٢) فاتق الرتق على راتق الفتق ، تأليف : محمد المصطفى بن محمد فاضل (ماء العينين) ط . دار الفكر بهامش نعت البدايات وتوصيف النهايات لنفس المؤلف ص ١٥٨ . والفتح الباطني والظاهري في نثر ونظم الورد القادري ، تأليف : محمد حبيب الله بن مايأبي ، مطبعة العلوم المصرية ، بمصر ١٣٤٥هـ ص ٩ - ٩٦ .

(٣) بهجة الأسرار ص ٨٤ وراجع الكلام في التفرقة والجمع في الفتاوى جـ ١٠ ص ٤٩٧ .

فهذا النص مشتمل على بيان أن طريقة الشيخ عبد القادر مبنية على تجريد التوحيد والتفويض لله تعالى في الأمر والنهي والقضاء والقدر. وهذا موافق لما في الغنية ولما في فتوح الغيب حيث يقول الشيخ عبد القادر نفسه : (لابد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء : أمر يمتثله ، ونهي يجتنبه ، وقدر يرضى به) (١) . وقد شرح شيخ الإسلام كلام الشيخ عبد القادر هذا مستحسنا له (٢) .

وقد لخص السنوسي مباني الطريقة القادرية فيما بعد حسب استقرائه الخاص فيما نجمله في المسائل الآتية إن شاء الله تعالى :-

قال : (قال أتباعه إن مبنى طريقته على الأمور الآتية :-

١- الذكر الجهري في حلقة الاجتماع .

٢- الرياضة الشاقة في العكفة (٣) .

٣- التدرج في تقليل الأكل .

٤- الفرار من الخلق .

٥- استحضار جلال الله تعالى وعظمته في البداية (فبذلك تنقمع النفس وتتهذب لأن التربية بالجلال أسرع للتخلص من الرعونات) .

٦- وأن يجلس الذاكر لله تعالى متربعا ماسكا بإبهام الرجل اليمنى .

٧- وأن يضع يديه على ركبته فاتحا أصابعها بنفس لفظ الجلالة (الله) .

٨- ثم يشتغل بذكر (أورد برداي) أي ذكر الفناء والبقاء المنسوب للشيخ عبد القادر وهو : أن يجلس كما مر ويدير وجهه جانب الكتف الأيمن قائلا (ها) ويدير وجهه إلى الجانب الأيسر قائلا (هو) ، ويخفض رأسه ضاربا في نفسه بقوله (حي) ويعود إلى العمل هكذا بلا توان) (٤) .

---

(١) فتوح الغيب ص ٩ .

(٢) مجموع الفتاوي ١٠-٤٥٥ وما بعدها ٤٩٦ - ٤٩٧ .

(٣) لعل المراد بالعكفة مكان الخلوة أو الاعتكاف .

(٤) السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين ، تأليف : محمد بن على السنوسي الخطابي ط . ١٣٨٨هـ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

هذه الأمور منهاما يصح أن ينسب للشيخ عبد القادر لوجوده في كتبه ولنقل الثقات عنه له مثل الاجتماع للذكر والفرار من الخلق وأنواع المجاهدات والرياضات الأخرى • ومنها ما لا يصح أن ينسب إليه ، ولا يمكن العثور عليه بسند مقبول إليه حسب علمي وتتبعي - ومن ذلك هذا الورد المسمى بورد الفناء والبقاء بهيئاته وألفاظه ، فهو غير مشتمل على ذكر مشروع ، وهيئاته وحركاته منكرة وغير وارد منها شيء في الشرع ، ولم نجد للشيخ عبد القادر في كتبه ولا من جهة يمكن قبولها هذا الورد أو ما يماثله ، ومجرد وضعه عليه لاتثبت به نسبته إليه ، ولذا فإن الرأي الصحيح هو ما ذهب إليه الذهبي (١) وابن كثير (٢) والقرماني (٣) ورشيد رضا (٤) من القول بأن هذه الأوراد وهيئاتها وما في معناها لا تقبل نسبته للشيخ عبد القادر ولايمكن إثباتها •

وفي غالب ظن القرماني أن هذه الأمور من وضع أحفاده وأتباعه فقد قال :-

(أجمع أهل الصدق من أصحاب الخرقة ورجال الطريقة على أن الشيخ عبد القادر رحمه الله من كمل صوفية عصره ومن أهل المجاهدات ، إلا أنه ابتلى بجماعة من أحفاده وأتباعه فكدروا مشرب طريقته ، ودسوا عليه ، ونقلوا عنه مالا ينقل من الكلمات المكفرة ، وكل الظن أنه بريء الساحة منها ، لما شاع عنه من صلاح الحال وصحة المقال) (٥) •

وهذا ما ترجح عندي لما ظهر من الإنحراف على بعض الوارثين لطريقة الشيخ عبد القادر من أحفاده وأتباعه وغيرهم من تلامذته ، كما هو واضح في ترجمته بعض من ذكرناهم ، ولعله لم يقع منهم في حياته ما يستوجب النكير من الشيخ عبد القادر حتى ينقل عنه فيما أحدثوه إنكار أو موقف يوضح الأمر أكثر • علما بأن الشيـــخ

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٠٥ - ٤٥١ •

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٢ ص ٢٥٢ •

(٣) السيف الرباني ص ١٨٧ •

(٤) دائرة معارف البستاني جـ ١١ ص ٦٢٢ •

(٥) السيف الرباني ص ١٨٧ •

عبد القادر نقل عنه بعض المؤلفين شيئا من التساهل في القراءة بالألحان (١) وأنشأ هو نفسه أدعية في الغنية فيها كلمات مجملة (٢) .

وقد مر أن عبد الوهاب من أبناء الشيخ عبد القادر كان الوارث الأول لطريقة والده ، وأنه رحل إلى بلاد العجم لطلب العلم ، ويدخل في ذلك علوم الأفلاك والنجوم والطبيعة وغير ذلك مما قد يدخل في علوم السحر والدجل من وجه فمن هنا يمكن أن يقال إنه أضاف إلى مشرب والده مشارب أخرى عكر بها مشرب والده كما قال القرماني .

ومما يؤكد هذا الاحتمال أن الركن عبد السلام بن عبد الوهاب المذكور كانت عنده كتب والده وقد درسها وبرع فيها كما يقول عنه القفطي : (فدرس علوم الفلاسفة وأهل الملل الكافرة والمعتقدات الفاسدة في الكواكب والنجوم حتى برع فيها وأجادها واقتنى كثيراً من كتب هذا النوع ، واشتهر بهذا الشأن شهرة تامة حتى اتهم باعتقاد ما في كتبه) (٣) .

هذا مع ما ذكر من عدم استقامته ، فأحرقت كتبه بمحضر الجمع الجم من الناس وحكم بتفسيقه (٤) .. إلا أن ابن القفطي يرى أن الركن عبد السلام (٥) كان له تقدم في الإمامية الناصرية .

ولذا حسد واتهم بهذه التهمة ، يؤيد ذلك أنه لما سئل عن أمور فيها التوسل بالكواكب وتسخيرها كتبها بخطه قال : (إنما كتبتها تعجبا لا اعتقادا ، وكتبتها لأرد عليها) .

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٢ .

(٢) الغنية جـ ٢ ص ٩٣ وما بعدها .

(٣) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، للوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي المتوفي سنة ٦٤٦هـ ، مطبعة السعادة ط ١ سنة ١٣٦٢هـ ص ١٥٤ وقد توفي الركن عبد السلام سنة ٦١١هـ نفس المرجع .

(٤) ذيل الروضتين ص ٨٨ .

(٥) نفسه .

ومهما يكن فإن هذه أمور دالة على أن الطريقة دخلتها أمور مشبوهة من علوم أهل الكفر والزندقة ومعتقدات فاسدة لا يسوغ إطلاق نسبتها للشيخ عبد القادر ولا لطريقته التي كان عليها ، ولئن كان الركن عبد السلام عرف بما ذكر وحكم عليه بإحراق كتبه والتشهير به وتفسيقه فإن لطريقة الشيخ عبد القادر وارثين آخرين عرفوا بالعلم ورواية الحديث والعدالة ، منهم عبد الرزاق وابنه نصر اللذان تقدمت ترجمتهما . فأما عبد الرزاق فإنه ظل مدرسا في مدرسة والده ، ولم يشتهر عنه ما يذكر من أحوال الصوفية .

وأما ابنه نصرا فإنه رتب مع تدريسه في مدرسة جده والمدرسة الشاطئية شيخا للصوفية في الرباط المجاور لدير الروم (١) ، وكانت له أشعار في الزهد(٢) وله كلام حسن كما يقول الذهبي في إشارات الصوفية ، وصنف في التصوف وتكلم في الوعظ على ما تقدم (٣) .

ونجد ذكره في بعض سلاسل الطرق الصوفية كالزروقية مثلا (٤) .

وهذا الترتيب في الأربطة الصوفية والانتساب للعلوية وادعاء السلاسل الصوفية على طريقة الشيعة في تسلسل الأئمة أخذ منه بعض الباحثين المعاصرين منطلقا للمقارنة بين عقيدة الوراثة عند الشيعة في الإمامة والطرق الصوفية في وراثة المشيخة فقارن بين الطائفتين في الوراثة والألقاب والأنظمة فخرج بأن الصلة بين التصوف والتشيع كبيرة ووطيدة للغاية .

---

(١) تلخيص مجمع الآداب جـ٤ ص ٨٧٤ .

(٢) نفسه .

(٣) المختصر المحتاج إليه جـ ٣ ص ٢١١-٢١٢ وتاريخ الإسلام للذهبي مخطوط جـ ١٧ رقم ٢٩١٧ ص ٨١ مصدر سابق .

(٤) زورق والزروقية ص ١٠ .

وعندي أن هذا أظهر من إجراء المقارنات إذ سبق أن أوضحه العلماء كابن خلدون في المقدمه (١) وشيخ الإسلام ابن تيمية في الصفدية (٢) وغيرهما إلا أن منطلقات مقارنات الدكتور كامل الشيبي بين التصوف والتشيع مقبولة إلى حد كبير ولكن الحكم بها على شخص معين بالجزم فيه نظر ٠ وهذه هي منطلقاته التي اعتمد عليها في المقارنة :

١- أن صاحب الطريقة لابد أن يكون علويا ٠

٢- أو مهديا يدعى العصمة كالامام عند الشيعة ٠

٣- أو يجعل طريقته وراثية على نسق الإمامة عند الشيعة (٣) ٠

قال : (وعند التطبيق تجد أن عبد القادر ينتظم في النسب العلوي وكذلك الطريقة القادرية يتوارثها خلف مؤسسها) (٤) ويجزم بأن الشيخ عبد القادر هو الذي ابتدأ هذا النظام فيقول :

(لقد جعل عبد القادر الجيلي المشيخة وراثة كالامامة ، فورث شأنه وطريقته أبناءه عبد الوهاب وعبد العزيز وعبد الجبار) (٥) وهو بهذا صدر عن الإمامة الشيعية وراثتها الروحية بأجلى مظاهرها (٦) ٠

---

(١) المقدمة ص ٨٧٥ ٠

(٢) الصفدية جـ ١ ص ٢٢٨ - ٢٦٢ وما بعدها ٠

(٣) الصلة بين التصوف والتشيع ، تأليف : كامل مصطفى الشيبي ، مكتبة النهضة بغداد ، ١٣٨٦هـ ص ٤٢٦ - ٤٢٧ ٠

(٤) نفسه ص ٤٢٧ ٠

(٥) الصلة ين التصوف والتشيع ص ٨٠ ٠

(٦) نفسه ص ٣٩٤ ٠

وأنه من القائلين بالتقية حيث يقول في معرض ذكره للحلاج :-

(ترنم بلحن غير معهود من البشر ، صفر في روضة الوجود صفيرا لا يليق بني آدم ، لحن بصوته لحناً عرضه لحتفه) (١) ، ويعقب كامل الشيبي على هذا الاتصال بين التشيع والتصوف في هذه المجالات قائلا :-

(ومن المعروف أن التصوف والوراثة الدموية أمران متناقضان ، لأن المشيخة محصول المجاهدة والسلوك ، فلا يعقل أن يكون ولد الشيخ ولي عهد الطريقة) (٢) .

ولعل لهذه المقارنة شيئا من القبول والوجاهة خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار قوة تأثير الشيعة على الساحة الإسلامية أيام وجود الشيخ عبد القادر وبعده ، ولكن هذا التشابه لا يجعل الباحث المتحري يجزم بأن هذه مظاهر صلة حقيقية وتصدير لأنظمة شيعية متعمدة من الشيخ عبد القادر وأمثاله ممن لهم مكانة في العلم واتباع السلف الصالح في العقيدة والسلوك ، خصوصا أن المعلومات الموجودة عن الشيخ عبد القادر لاتعطى أنه عهد إلى أبنائه بوراثته شأنا وطريقة أو التوارث المنظم للطريقة .

فلذا لا نحمله تبعة هذا التنظيم المعمول به عند الشيوخ المنتسبين لطريقته ، ونكتفي بالقول بأنه ورث أبناءه مدرسته التي ورثها من شيخه المخرمي بعدما تلقوا على يديه العلم والعمل والآداب التي تخولهم تناوب المشيخة العلمية والصوفية فيما بعد ، على أن العيب يوجه بعد ذلك على من نهج هذا التنظيم حتى يورث ابنه الجاهل أو الفاسق مشيخة الطريقة أو الحضرة (٣) وراثة دموية لا تتخلف .

---

(١) نفسه ٤٠٦ .

(٢) نفسه ٤٢٦ .

(٣) الحضرة مصطلح صوفي شائع في المغرب يطلق على مقر الشيخ ومكان تجمع مريديه .

ويضاف إلى هذا أن الشيخ عبد القادر تصدر عنه في الطريقة كثيرون غير أبنائه ، ولهؤلاء المصدرين قسط كبير من تبعة ما يمكن أن يكون حصل في الطريقة من تقارب أو صلة بالشيعة إذ إن الشيخ عبد القادر عد الشيعة في الفرق الضالة في كتابه الغنية وفصل القول فيهم وذكر أماكن تجمعهم في الغالب وما فيهم من غلو مذموم عقيدة وشرعا (١) .

فلا يعقل أنه يتعمد التشبه أو الاستفادة من منهج قوم بهذه الصورة التي ذكرها عنهم ، أضف إلى ذلك أن النصيرية مازالوا يسبون الشيخ عبد القادر في بعض أعيادهم من عهد الدولة الصفوية كما ذكر كامل الشيبي نفسه (٢) ولم يوضح السبب في ذلك ولعلهم وجدوا في كتابه الغنية حكمه على الغالبية منهم بالكفر وأدخل في الغالبية منهم طوائف كثيرة ممن يقول بإلهية علي رضي الله عنه أو ببقائه أو برجعته أو أن جبريل عليه السلام غلط في الرسالة فإنه بعد ما حكى أقوالهم هذه قال : (عليهم لعنة الله وملائكته وسائر خلقه إلى يوم الدين ، وقلع آثارهم وأباد خضراءهم ، ولا جعل منهم في الأرض ديارا لأنهم بالغوا في غلوهم ومردوا على الكفر ، وتركوا الإسلام وفارقوا الإيمان، وجحدوا الإله والرسل والتنزيل ، فنعوذ بالله ممن ذهب إلى هذه المقالة)، وأضاف بعد سرد بعض طوائفهم وهذا (هو الكفر الذي لا يشوبه شيء ..... تباً لهم) (٣) .

فهذه مرجحات دالة على أن الشيخ عبد القادر لا صلة له بالشيعة وأنه لم يتعمد تصدير منهجهم في الإمامه .

---

(١) الغنية جـ١ ص ٨٦ وما بعدها .

(٢) الصلة بين التصوف والتشيع ص ٤١٥ هـ .

(٣) الغنية جـ١ ص ٨٨ .

دراسة سند الخرقة الصوفية المنسوبة للشيخ عبد القادر

وما دمنا عرضنا بعض الكلام في معرض صلة التصوف بالتشيع أو العلوية ، فإنه من المناسب أيضا أن نعرض سلسلة رجال الخرقة المنسوبة للشيخ عبد القادر ، وندرسها حسب الإمكان لنرى مدى صحة نسبتها إلى علي رضي الله عنه ، ثم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولنرى كذلك مدى صحة الصحبة بين رجال هذه السلسة .

فمن المعلوم مما تقدم من ترجمة الشيخ عبد القادر أنه صحب الدباس وتفقه على المخرمي ، ولكن تقدم أيضا أنه كان صحب بجيلان أبا عبد الله الصومعي الزاهد ، وأنه كان يعرف في بلاده جيلان بسبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد ، فهلا كان أخذ عنه الخرقة الصوفية والطريقة ؟ .

إنه احتمال وارد خصوصا إذا علمنا ما كان عليه الصومعي من الزهد والأحوال الصوفية مع الانتساب أيضا للعلوية (١) .

ولكن الذين ذكروا سلسلة رجال سنده في الطريقة لم يذكروه ضمنهم ، وقد ذكر بعضهم أنه أخذ التصوف عن الشيخ أبي يعقوب : يوسف بن أيوب ين الحسين بن وهرة الهمذاني الزاهد (٢) .

ونقل الذهبي صلة الشيخ عبد القادر بالهمذاني هذا قائلا على لسان الشيخ عبد القادر بعد ذكره لصحبته لحماد الدباس : (ثم بعد مدة قدم رجل من همذان يقال له: يوسف الهمذاني ، وكان يقال : إنه القطب ، ونزل في رباط ، فمشيت إليه ، فلم أره ، وقيل لي : هو في السرداب ، فنزلت إليه ، فلما رآني قام وأجلسني ، ففرشني ، وذكر لي جميع أحوالي ، وحل لي المشكل علي ، ثم قال لي : تكلم على الناس : فقلت : يا سيدي ، أنا رجل أعجمي قح أخرس ، أتكلم على فصحاء بغداد ؟ فقال لي : أنت

---

(١) بهجة الأسرار ص ٨٨ - ٨٩ .

(٢) شيخ الإسلام سيدنا عبد القادر الكيلاني وأولاده ، تأليف : إبراهيم عبد الغني الدروبي . ط . كراجي - نقلا عن مجالس بغداد ص ١٩ - ٢٠ .

حفظت الفقه وأصوله ، والخلاف والنحو واللغة وتفسير القرآن لا يصلح لك أن تتكلم ؟ اصعد على الكرسي ، فإني أرى فيك عذقا سيصير نخلة) (١) •

فالشيخ عبد القادر هنا أراد أن يقول إن تتويجه واعظا وخطيبا وشيخا لأهل بغداد كان على يد رجل كبير وشيخ عظيم هو (القطب) وموقف هذا الشيخ معه يعتبر مشجعا له وحافزا كبيرا على التصدر ، وإن لم يعتبر شيخا له بمعنى الشيوخة • لا في العلم ولا في غيره ، ولذا لم يعتبره المترجمون له من شيوخه بل لا يوجد في سلسلة رجال الطريق بعده من شيوخه إلا المخرمي الذي قيل إنه لبس منه الخرقة • فهل الخرقة أعظم أثرا من الفقه والعلم والخلافة على المدرسة ؟ وكل ذلك ناله من المحرمي • أو من الصحبة التي حظي بها من حماد الدباس ؟ أو من حل الإشكالات والتشجيع والتصدير الذي حظي به من الهمذاني ؟ •

السلسلة

هذه سلسلة سند الشيخ عبد القادر الجيلي في الطريقة فقد أخذها . كما قالوا . عن :

١- الشيخ أبي سعد المبارك بن علي بن الحسين بن بندار البغدادي المخرمي • عن :

٢- الشيخ أبي الحسن علي بن أحمد بن يوسف الهكاري القرشي • عن :

٣- الشيخ أبي الفرج محمد بن عبد الله الطرطوشي • عن :

٤- الشيخ أبي الفضل عبد الواحد بن أحمد بن عبد العزيز بن الحارث التميمي عن:

٥- والده عبد العزيز بن الحارث التميمي (٢) • عن :

٦- الأستاذ أبي بكر محمد بن دلف بن خلف بن محمد بن جحدر الشبلي : المتوفى ٣٣٤ هـ (٣) عن :

٧- سيد الطائفة أبي القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد القواريري المتوفى سنة ٢٩٧هـ (٤) عن •

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٦ - ٤٤٧ •

(٢) تقدمت ترجمته •

(٣) الطبقات ص ٣٣٧ •

(٤) نفسه ص ١٥٥ - ١٦٣ •

٨- خاله أبي الحسن السري بن المغلس السقطي • المتوفى سنة ٢٥١ هـ (١) عن :

٩- الشيخ أبي محفوظ معروف بن فيروز الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠ وقيل ٢٠١هـ (٢) عن :

١٠- سيدنا علي الرضا بن موسى الكاظم المتوفى سنة ٢٠٣هـ عن :

١١- أبيه سيدنا موسى الكاظم • المتوفى سنة ١٣٣ هـ • عن :

١٢- أبيه سيدنا جعفر الصادق • المتوفى سنة ١٤٨ هـ عن :

١٣- أبيه سيدنا محمد الباقر المتوفى سنة ١١٧ هـ عن :

١٤- أبيه سيدنا زين العابدين علي بن الحسين المتوفى سنة ٩٤ هـ عن :

١٥- أبيه سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما المتوفى سنة ٦١ عن:

١٦- أبيه سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه المتوفى سنة ٤٠ هـ (٣) عن :

١٧- سيدنا سيد الأولين والآخرين محمد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم •

هذا سند من الأئمة المعروفين على الترتيب عند الشيعة الإمامية (من ١٠ إلى ١٦) وهناك سند آخر ذكره محمد بن علي السنوسي للطريقة القادرية وهو يختلف مع هذا من :

معروف الكرخي المتقدم الذكر فيأتي بسلسلة الأئمة المتقدمة وهو كما يقول السنوسي : (ولمعروف الكرخي نسبة أخرى وهي أنه أخذ الطريقة عن :

١٠- الشيخ سليمان بن داوود بن نصير الطائي الكوفي المتوفى سنة ١٦٥ هـ (٤) عن:

١١- أبي محمد حبيب بن محمد العجمي الفارسي (٥) عن :

---

(١) نفسه ص ٤٤٨ •

(٢) القشرية جـ ١ ص ٦٥ - ٦٨ •

(٣) تراجع تراجمهم في الملل والنحل للشهرستاني ، دار الفكر ص ١٦٢ وما بعدها•

(٤) راجع الطبقات ص ٨٥ والرسالة القسيرية جـ ١ ص ٨١ - ٨٤ •

(٥) حلية الأولياء دار الفكر جـ ٦ ص ١٤٩ - ١٥٥ •

١٢- سيد التابعين الحسن ابن أبي الحسن يسار البصري المتوفي سنة ١١٠ هـ (١) عن:

١٣- أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي عنه عن :

١٤- النبي صلى الله عليه وسلم) ثم قال السنوسي : (وهاتان الطريقتان هما المشهورتان عند أهل الطريقة القادرية المتداولتان فيما بينهم) (٢) .

وهذا الاسناد الأخير هو أعلا الإسنادين وقيل إنه هو المتصل ، وأن الآخر لا يثبت متصلا (٣) .

وهذا الذي قيل إنه متصل الإسناد حكم الحفاظ بانقطاعه في ثلاثة مواضع ، وذلك أنه يدور على معروف الكرخي ، على أنه صحب داوود الطائي - وقد قال الحفاظ إن هذا لا أصل له .

وفيه أيضا أن داوود الطائي صحب حبيبا العجمي ، وهذا أيضا قالوا : لم تعرف له حقيقة ، وفيه أن الحسن صحب عليا رضي الله عنه ، وهذا أيضا : باطل باتفاق أهل المعرفة ، فإنهم متفقون على أن الحسن البصري لم يجتمع بعلي رضي الله عنه ، وإنما أخذ عن أصحاب علي رضي الله عنه .

وما دام الحفاظ وأئمة الحديث لم يثبتوا للحسن سماعا من علي رضي الله عنه فإنه من الكذب المفترى قول من قال : إن عليا ألبس الحسن خرقة الصوفية المتعارف عليها عندهم .

قال هذا شيخ الإسلام ابن تيمية (٤) ، والذهبي ، وابن حجر ، والسخاوي ،

---

(١) راجع ترجمته في حملية الأولياء جـ ٢ ص ١٣١ وميزان الاعتدال جـ ١ ص ٢٥٤.

(٢) المنهل الروي الرايق في أسانيد العلوم وأصول الطرايق ص ٦٥ - ٧٧ .

(٣) الضياء المستبين مخطوطة خاصة تأليف الشيخ محمد فاضل بن الحبيب ص١٩٠ والفتح الباطني والظاهري في نثر ونظم الورد القادري ، تأليف الشيخ محمد حبيب الله بن مايأبى ، ط مطبعة العلوم العصرية بخان جعفر سيدنا الحسين ، بمصر سنة ١٣٤٥هـ ص ١٥٥ . والصلة بين التصوف والتشيع ص ٤٢٦ وما بعدها .

(٤) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، ط جامعة الإمام جـ ٨ ص ٤٤ - ٤٥ .

وغيرهم • فقد نقل علي بن سلطان القارى (عن ابن دحية وابن الصلاح وابن حجر والسخاوي أنه لم يرد في خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أن النبي صلى الله عليه وسلم ألبس الخرقة المتعارف عليها بين الصوفية لأحد من أصحابه ولا أمر أحدا من أصحابه بفعل ذلك ، وكل ما يروى صريحا فباطل) (١) •

وقال السخاوي مؤكدا كلام ابن حجر ومن معه في نفي ثبوت شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخرقة : (ولم ينفرد بذلك شيخنا بل سبقه إليه جماعة حتى ممن لبسها وألبسها كالدمياطي والذهبي وابن حيان والعلائي والعراقي وابن الملقن والبرهان المحلي وغيرهم ، وإنما لبسوها لثبوت الصحبة المتصلة إلى كميل بن زياد وهو صحب عليا كرم الله وجهه بالاتفاق) (٢) •

وقال علي القارى : (وكذا نسبة المصافحة المتصلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليس له أصل عند العلماء الأعلام) (٣) •

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (وقد كتبت أسانيد الخرقة ، لأنه كان لنا فيها أسانيد ، فبينتها ليعرف الحق من الباطل) (٤) •

ومادام الأمر مرجعه والمعول عليه فيه هو الصحبة ، فإن الصحابة والتابعين كما قال شيخ الإسلام : (لم يكن أحد منهم يجعل شيخه ربا يستغيث به ، كالإله الذي يسأله ويرغب إليه ، ويعبده ويتوكل عليه ، ويستغيث به حيا وميتا ، ولا كالنبي الذي تجب طاعته في كل ما أمر ، فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه ، فإن هذا ونحوه دين النصارى الذين قال الله فيهم : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ (٥) •

---

(١) الموضوعات ، تأليف : علي بن سلطان القارى ، ط القسطنطينية ١٣٤٩هـ ص ٦٢ •

(٢) نفسه ، وكتاب الحسين عليه السلام ، تأليف : علي جلال الحسيني ، المطبعة السلفية بالقاهرة ص ١٥٤ - ١٥٥ •

(٣) نفسه ص ١٥٤ - ١٥٥ •

(٤) منهاج السنة جـ ٨ ص ٤٧ •

(٥) سورة التوبة ، الآية ٣١ •

وقد ذكر شيخ الإسلام الخرقة تحت هذا العنوان : (قال الرافضي : وأما علم الطريقة فإليه منسوب ، فإن الصوفية كلهم يسندون الخرقة إليه) فبين أن الخرقة لا تدل على الحقائق الايمانية ثم ذكر أن الخرق متعددة وأشهرها خرقتان : خرقة إلى عمر وخرقة إلى علي ثم قال : (وأما الخرقة المنسوبة إلى علي فإسنادها إلى الحسن البصري، والمتأخرون يصلونها بمعروف الكرخي ، فإن الجنيد صحب السري السقطي والسري صحب معروفا الكرخي بلا ريب) (١) ثم أخذ في بيان ما في هذا الاسناد من الانقطاع المتفق عليه بين أهل المعرفة بعلم الرواية إلا أنه قال : (وفيها أن حبيبا صحب الحسن البصري ، وهذا صحيح) (٢) ٠

وفي هذا إثبات الصحبة ، وقد أثبتها أبو نعيم في الحلية بين حبيب العجمي والحسن البصري (٣) ولكنه نفى الإسناد فقال : (قيل إنه أسند عن الحسن ، وابن سيرين وهو وهم من قائله فإن حبيبا الذي أسند عن الحسن وابن سيرين حبيب المعلم) (٤) ٠ وقد رجح السيوطي والغماري سماع الحسن البصري من علي رضي الله عنه ، وأدلتهم في ذلك ليست قاطعة حتى يحكم بها ٠ ولكنها تعطي احتمالا قويا - في تطري - لو سلمت من معارضتها لكلام الحفاظ الأقدمين ٠ وما عرف عن الحسن رحمه الله من التدليس يضعف هذا الاحتمال (٥) ٠

وحيث تبين أن هذين الإسنادين لا يثبت بهما شيء من اتصال الطريقة ولا من لبس الخرقة فإنه ينبغي لنا أن نختم هذا الفصل بما يتضح به أن الشيخ عبد القادر ، وإن كان شيخ صوفية ورباط ومدرسة فإنه كان شيخ علم وأثر وسلوك مرضي عند المحققين ٠

---

(١) منهاج السنة جـ ٨ ص ٤٤ - ٤٥ ٠

(٢) نفسه جـ ٨ ص ٤٣ وما بعدها ٠

(٣) حلية الأولياء جـ ٦ ص ١٤٩ - ١٥٥ ٠

(٤) نفسه جـ ٦ ص ١٥٤ - ١٥٥ ٠

(٥) الحاوي للفتاوي ، دار الكتب العلمية ط ١٤٠٣هـ جـ ٢ ص ٢ وما بعدها ٠ والبرهان الجلي في تحقيق انتساب الصوفية إلى علي تأليف : أحمد بن محمد الصديق الغماري الحسيني ، ط السعادة ، سنة ١٣٨٩هـ ص ١٧٥ وما بعدها ، وطبقات المدلسين ، تأليف : ابن حجر ، علي بن احمد ، مكتبة المنار ، ط ١ ص ٢٩ ، وميزان الاعتدال للذهبي ، تحقيق علي محمد النجادي ، دار المعرفة جـ ١ ص ٥٢٧ ٠

من ذلك أن شيخ الإسلام ابن تيمية أدرجه فيمن يسوغ الانتساب إليهم كالحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي والقادري (١) .

وأنه كما قال : (لا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بها - أي بهذه النسبة - ولا يوالي بهذه الأسماء ولا يعادي عليها ، بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان) (٢) ، وهذا الموقف الإسلامي المعتدل هو ما جعل شيخ الإسلام يستحسن كثيرا من كلام الشيخ عبد القادر ويشرحه مبتدئا كلامه فيه بألقاب حسنة دالة على التقدير والتوقير .

كقوله : (قال الشيخ أبو محمد عبد القادر) و (قال الشيخ عبد القادر قدس الله روحه) وكقوله مستحسنا وشارحا قول الشيخ عبد القادر :

(لابد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء : أمر يمتثله ، ونهي يجتنبه، وقدر يرضى به) (٣) (هذا كلام شريف ، جامع ، يحتاج إليه كل أحد) (٤) .

وقال عند كلامه على السلوك : إنه سلوكان : سلوك الأبرار أهل اليمين ، وسلوك المقربين السابقين ، ثم قال (وكلام الشيوخ الكبار : كالشيخ عبد القادر وغيره يشير إلى هذا السلوك) (٥) . ثم قال : (قال الشيخ عبد القار قدس الله روحه : افن عن الخلق بحكم الله ، وعن هواك بأمره ، وعن إرادتك بفعله ، فيحنئذ يصلح أن تكون وعاء لعلم الله) (٦) .

ويشرح هذه العبارة وأمثالها من كلام الشيخ عبد القادر إلى أن يقول :

(فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة رضي الله عنهم : بأنه لا يريد السالك مرادا قط ، وأنه لا يريد مع إرادة الله عز وجل

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ، ط إحياء التراث العربي جـ١ ص ٣٠٩-٣١٠ .

(٢) نفسه .

(٣) سبق في ص ٤٩ .

(٤) مجموع الفتاوى جـ ١٠ ص ٤٥٥ .

(٥) نفسه جـ ١٠ ص ٤٦٣ .

(٦) نفسه جـ ١٠ ص ٤٩٠ وفتوح الغيب ص ١٣ - ١٤ .

سواها ، بل يجري فعله فيه ، فيكون هو مراد الحق) (١) ويشرح مرادهم بهذا الكلام ويحكم بأنهم أعظم مشايخ زمانهم أمرا بالتزام الشرع ، والأمر والنهي (١) ٠

وأما تلاميذ شيخ الاسلام كابن كثير والذهبي فإنهما يريان أن الشيخ عبد القادر من سادات المشايخ ٠ فالذهبي يقول فيه : (ليس في كبار المشايخ من له أحوال وكرامات أكثر من الشيخ عبد القادر ، لكن كثيرا منها لا يصح ، وفي بعض ذلك أشياء مستحيلة) ، ويختتم ترجمته له بقوله : (وفي الجملة الشيخ عبد القادر كبير الشأن ، وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاوية ، والله الموعد ، وبعض ذلك مكذوب عليه) (٢)٠

ويقول ابن كثير فيه : (وله أحوال صالحة ومكاشفات أكثرها مغالاة وقد كان صالحا ورعا ٠٠٠ وبالجملة كان في سادات المشايخ) (٣) ٠

والغلو مذموم شرعا وعقلا وذوقا ، ويكفينا هذا من نقل كلام أهل الانصاف في بيان حال الشيخ عبد القادر عقيدة وسلوكا ٠ وبهذا نختم هذا الفصل الذي خصصناه لترجمة الشيخ عبد القادر وما يرتبط بذلك من عقيدته وطريقته المنسوبة إليه والتي منها القادرية في موريتانيا حيث نصل الكلام عنه بالكلام عنها في الفصل الآتي إن شاء الله تعالى ٠

---

(١) مجموع الفتاوي جـ ١٠ ـ ص ٤٥٥ - ٥١٦ ٠

(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٥٠ ٠

(٣) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٢ ص ٢٥٢

الفصل الثاني

الفصل الثاني

نشأة القادرية في موريتانيا

وفيه : مدخل عام ومبحثين

المدخل العام ويشتمل على المقاصد التالية

المقصد الأول : التعريف بموريتانيا ·

المقصد الثاني : دخول الإسلام إلى موريتانيا ·

المقصد الثالث : العقيدة في موريتانيا قبل دخول القادرية ·

المقصد الرابع : العقيدة في موريتانيا بعد دخول القادريه ·

المبحث الأول : دخول القادرية إلى موريتانيا ومراكزها الأولى ·

المبحث الثاني : الطرق الصوفية الأخرى في موريتانيا وصلتها بالقادرية ·

المدخل العام

المقصد الأول : التعريف ببلاد موريتانيا

لم يكن هذا الإسم معروفا في المغرب العربي كعلم على منطقة معينة لها حدود جغرافية وسكان معروفون منذ دخل الإسلام إلى هذه البلاد المغربية حتى قام الاستعمار الفرنسي بتطويق بلاد المغرب عموما ، وكانت بلاد (موريتانيا) آخر بلد يحاول احتلاله في المنطقة ، ومهد لاحتلاله بأن بعث بخبرائه إلى البلاد المذكورة وكلف كل واحد ممن أرسلهم إليها بكتابة تقارير عن أحوال الناس وعاداتهم وأجناسهم وأعمالهم إلى غير ذلك مما تعرف به المنطقة وسكانها وقد وردت أسماء بعض البلاد والمناطق في تقاريرهم مسماه باسمائها عند أهلها المقيمين فيها أو مضافة إلى من يسكنها من القبائل (١) .

وكان المكلف من هؤلاء الخبراء والرحالين يؤمر من قبل وزارة المستعمرات الفرنسية باجتياز جنوب الصحراء الكبرى بين المغرب الأقصى (والسينغال) (٢) ولم يرد فيها اسم (موريتانيا) .

والقبائل التي ورد ذكرها ضمن القبائل التي كان لها شأن في الاسلام لايعرف لها ولا لبلادها هذا الاسم (موريتانيا) .

وقد جاء في وصفهم ووصف بلادهم عند ابن خلدون : (الطبقة الثانية من صنهاجة وهم الملثمون ، وماكان لهم بالمغرب من الملك والدولة : - هذه الطبقة من

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ، تأليف : لوثروب أستورد الآمريكى ، نقله إلى العربية : الأستاذ عجاج نويهض مع تعليق الأمير شكيب أرسلان ، دار الفكر ط ٤ المجلد الثانى ، جـ ٣ ص ٥١ ومابعدها .

(٢) وبلاد سينغال مأخوذ اسمها من نهر السنغال ، والنهر منسوب إلى صنهاجة ، أنظر كلام ابن خلدون بعد هذا الرقم فوق لتعرف مالحق بالكلمة المنسوب إليها من تحريف - وأنظر المصدر السابق جـ ٣ ص ٥١ - ٥٢ .

صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب أبعدوا في المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لايعرف أولها ...) وبعد الإسلام : (اتصل بنيانهم على بلاد السودان إلى المشرق) (١) .

قال : (وأما ذكر نسبهم فإنهم من ولد صنهاج وهو صناك بالصاد المشمة بالزاي والكاف القريبة من الجيم إلا أن العرب عربته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج) ثم ذكر أنسابهم وأنها راجعة إلى حمير ثم قال : (وكانت مواطنهم مابين المغرب الأوسط وإفريقية) (٢) .

وقد عرفت هذه البلاد بعد الإسلام بالمغرب الأقصى أو الغرب أو أهل الصحراء الغربية وحدود إطلاق هذه الأسماء من سجلماسة وأغمات إلى أعماق أرض السودان (٣) ثم عبر العصور عرفت البلاد أوجهات منها بأسماء متعددة من أشهرها (شنقيط) وتفسيرها عيون الخيل وهو في الأصل علم مدينة ثم أطلق على سائر البلاد. وقد تكلم الأديب أحمد بن الأمين الشنقيطي على مغربية شنقيط وكتابة لفظها وموقعها الجغرافي وما يتبعها وما يحيط بها من البلاد التي سميت باسمها حتى عرف الكل باسم البعض . وإنما ذلك لما عرفت به في القرون الماضية من انطلاق ركب الحجاج منها كل عام وما اشتهرت به من العلماء

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، كتاب العبر ، وديوان المبيدإ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ط مؤسسة جمال للطباعة والنشر - بيروت ، سنة ١٣٩٩هـ ، جـ ٦ ص ١٨١و١٩٨ .

(٢) نفسه جـ ٦ ص ١٥٢ .

(٣) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تأليف : ابن عذارى المراكشي ، دار الثقافة - بيروت تحقيق ومراجعة الدكتور/ إحسان عباس ، ط ٣ سنة ١٩٨٣ م جـ ٤ ص١٢ - ٣٠ . وقيام دولة المرابطين تأليف : الدكتور حسن أحمد محمود ، دار الفكر العربى ص ٤٤ ومابعدها .

الأجلاء والمكتبات العامرة (١) ٠

ومنهـا : بلاد التكرور : وهي منسوبة عند ابن خلدون إلى أمة من أمم السـودان (٢) وهي عند الطالب محمد البرتلي الولاتي تعتبر إقليما له حدوده المعروفة، ويفهم من ذلك أنه لايعمم إطلاقه على البلاد كلها ولا ينسبه لقبيلة أو أمة معينة بعد الإسلام وقال : (والتكرور إقليم واسع ممتد شرقا إلى (إدغاغ) ، ومغربا إلى (بحربني زناقية) ، وجنوبا إلى (بيط) ، وشمالا إلى (آدرار) (٣) ٠

وكانت تعرف بعض مناطقها باسم أصحاب النفوذ فيها ، وربما سماها بعض المؤلفين اخذا من المحيط والبيئة بأسماء أخرى لاتعرف بها خارج حدودهـا (٤) ٠

وقد استخدم المستعمر الفرنسي هذه الأسماء التي وجدها فترة من الزمن ، ثم ظهر له أن بعض الأسماء اشتهرت في الإسلام وعرفت خارج البلاد بالعلم والشعر والاتصال بالمقدسات الإسلامية لانطلاق الحجاج منها مثل (شنقيط) (وولاته) (وتنبكتو) فيما بعد ، وهذه أسماء تدل على الخير ولا يحبها المستعمر ، وبقية الأسماء قد تصدق على مناطق محددة أو تكون منسوبة إلى زعامات محلية أو تكون دالة على عروبة أو جنس أبيض وهذه أمور كلها لايرغب المستعمر في استعمالها لقصورها على المحلية أو الشخصية أو غير ذلك مما له دلالة خاصة ٠

---

(١) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، تأليف : أحمد بن الأمين الشنقيطى ، بعناية فؤاد سيد ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ومؤسسة منير في موريتانيا ط ٤ سنة ١٤٠٩ هـ وطبعة المدني ص ٤٢٢ ومابعدها ٠

(٢) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص٢٠٠

(٣) فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ، تأليف : الطالب محمد بن أبي بكر الصديق بن عبدالله بن محمد بن الطالب علي بنان البرتلي الولاتي المالكي الأشعري اعتقادا ٠ تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ، ومحمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ط ١سنة ١٩٨١م ص ٢٦ ٠

(٤) تاريخ إدوعيش ومشظوف تأليف : الشيخ سيديا مخطوط خاص ص ٢ ومابعدها ٠

لذا أخذ يبحث عن الجاهليات التي مرت بالبلاد في جاهليتها فوجد أن المملكة الرومانية كان نفوذها واصلا إلى بعض المناطق المغربية فبادر بإصدار أمر يحدد فيه اسما وحيدا للبلاد التي احتلها وهو : (موريتانيا) وهذه الكلمة مؤلفة من (مور) وتعني في الاسبانية (الأسمر) (وتان) وتعني في اللاتينية : بلاد أو أرض • فيكون الاسم كاملا معناه : (أرض السمر أو بلاد السمر) (١)

وبعث هذا الاسم الروماني الجاهلي وإطلاقه على بلاد مسلمة بكاملها مستغرب وساذج ولم يؤد الغرض منه ، والذي من أبرزه الإيحاء للناس بأن هذه البلاد كانت لها حضارة رومانية جاهلية وقد نبش المستعمر مثل هذه الحضارات والقوميات في بلاد كثيرة من بلاد المسلمين •

ومن أهداف هذا الاسم التجهيل والتعمية على الأسماء المعروفة في الإسلام وفي كتب المسلمين والتعمية كذلك على السكان حتى لايعرف عنهم إلا أنهم (أناس سمر) أو أن هذه البلاد هي بلاد السمر ، فلا يستفاد من هذا الاسم عند الإطلاق شيء له معنى إلا أنه لفظ روماني جاهلي •

ولذا تفطن الواضعون لشعار الدولة عند الاستقلال فأضافوا إلى هذا الاسم وصفا مباركا وهو الإسلام فقالوا : الجمهورية الإسلامية الموريتانية • وقد شاع هذا الاسم بين الناس وعرف المراد منه وأنه أطلق على بلاد إسلامية بكاملها •

فلاشتهاره وارتباط الإسلام به عند الناس سواء قدم عليه أو أخر - موريتانيا الإسلامية - جمهورية موريتانيا الإسلامية - الجمهورية الإسلامية الموريتانية - اخترته في عنوان رسالتي لهذه الأسباب ولأن بحثي في العقيدة والتصوف والغالب أن الشيوخ في هذه البلاد هم الذين صدروهما للبلاد المجاورة لها على ماسيتضح إن شاء الله تعالى •

---

(١) بلاد شنقيط، المنارة والرباط، تأليف : الخليل النحوي ، تونس ١٩٨٧ م ص ١٨ - ٢٦ •

المقصد الثاني : دخول الاسلام إلى بلاد موريتانيا

دخل الإسلام إلى بلاد صنهاجة سنة ٦٣هـ على يد القائد الفاتح عقبة بن نافع الفهري ، في آخر فتوحـاته هناك ، حيث جال في بلاد المغرب ثلاثة أعوام يجاهد في سبيل الله تعالى (١) .

قال الحافظ بن عبد البر : (فتح عقبة عامة بلاد البربر حتى فتح كورة من كور السودان) (٢) .

وقال ابن عذارى المراكشي : (إنه فتح بلاد السوس الأقصى وبنى مسجدا هناك، وعاد عن طريق بلاد (دكالة وهسكورة) (٣) إلى موضع يقال له (أطار) (٤) .

و(أطار الآن مدينة عظيمة في شمال القطر الموريتاني ، تقع في الجنوب الغربي من مدينة شنقيط (٥) .

ويؤيد الشيخ سيدي محمد الكنتي في الغلاوية وصول عقبة بن نافع إلى تلك البلاد حتى إنه بني مسجدا في (بسير) المدعوة الأن (بولاتة) ، وأنه واصل فتحه لقطر التكرورحتي وصل (صقع فور) الذي كان فيه يومئذ الأوربيون الذين منهم كسيلة الغادر بالفاتح عقبة سنة ٦٣ هـ (٦) .

---

(١) البيان المغرب ، مصدر سابق جـ ١ص ٢٧ و ٣٠ .

(٢) نقلا عن المصدر السابق ص ٢٨ .

(٣) قبائل من البربر المرجع السابق .

(٤) نفسه ص ٢٨ .

(٥) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص٤٣٤ .

(٦) الغلاوية ، تأليف : الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي الأزوادي ، وهي في الأصل رسالة موجهة إلى عامة المؤمنين . وبالأخص الأخوين الغلاويين - ولم يسمهما - الـرسالة الغـلاوية مخطـوط خـاص يقـع في ٢٣٩ صفحـة متوسطة . ص ٦٢ - ٦٣ .

ولعل المراد بـ (سير) الواردة في رواية الشيخ سيدي محمد الكنتي (آبير) القرية من شنقيط (١) نبهت على هذا الاحتمال لغرابة في رواية الشيخ سيدي محمد ، ولموافقة هذا الاحتمال لنصوص المؤرخين التي تذكر أن عقبة مر في عودته من السوس الأقصى ببلاد القبائل البربرية التي عرف أنها تسكن في هذه الناحية من البلاد . والله أعلم .

ووصول الإسلام ووقوع الجهاد من أجل نشره في هذه البلاد وبناء المساجد فيها يدل على أنه أصبح له قدم فيها ، وإن لم يستقر نهائيا إلا بعد ذلك ، حيث فتحت الطريق أمام التجار والدعاة لنشر الإسلام ، وتتابعت الغزوات بعد ذلك حتى قامت دولة الملثمين المتحدة على أساس من العقيدة الإسلامية وأواصر القربى ، وقد أفاض المؤرخون في وصف ماكان لهذه الدولة من قوة وجهاد حتى تفرقت كلمتهم وذهبت ريحهم سنة ٣٠٦ هـ تقريبا (٢) .

وظل الإسلام في تقدم وانتشار حتى استقر في غانة (٣) ولكن بقي مع ذلك أقوام على جاهليتهم وطوائف على وثنيتهم أو مجوسيتهم أو ماكانوا يدينون به من الديانات المحرفة والمنسوخة (٤) وكان أكثر الذين آمنوا ليس عندهم غير الشهادتين ، ولايعرفون من وظائف الإسلام سواهما (٥) .

ولما حج زعيم هذه القبائل يحيي بن إبراهيم الكدالي عام ٤٢٧ أو ٤٢٩ هـ وصفهم لأبي عمران الفاسي وصفا دقيقا حيث قال له : (إننا في الصحراء منقطعون لايصل إلينا إلا بعض التجار الجهال حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء وفينا أقوام

---

(١) يراجع الوسيط ص ٤٢٥ .

(٢) يرجع فيه إلى كتابي : حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، دار الفكر العربي ط ٣ ص٢٠٧-٢١١ وقيام دولة المرابطين مصدر سابق ص ٣٩ - ٧٤ و ١٠٧ .

(٣) الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، مصدر سابق ، ص ٢١١ .

(٤) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٣ وترتيب المدارك للقاضي عياض جـ ٨ ص ٨١ .

(٥) يرجع فيه إلى ترتيب المدارك جـ ٨ ص ٨١ ومابعدها .

يحرصون على تعلم القرآن وطلب العلم ويرغبون في الفقه والدين لو وجدوا إلى ذلك سبيلا) (١) .

فهذا الزعيم الذي وصف بأنه حريص على التعلم صحيح النية والعقيدة جاهل بمايصلح دينه (٢) يصف قومه بعموم الجهل عليهم وحبهم للخير ويطلب لهم معلما .

وحج هذا الزعيم ورفقته إلى بيت الله الحرام من تلك الصحراء القاحلة من العلم وطلبه لمعلم يعلم قومه القرآن والفقه والدين ويطلبون عنده العلم ووصفه لهم بأنهم حريصون على ذلك كل ذلك دال على تمكن الاسلام في نفوس الكثيرين منهم ولو أن الذين زرعوا فيهم ماعندهم من الدين تجار جهال .

ويكفينا من هذا المقصد أن وضح لنا دخول الإسلام إلى تلك الديار والتطلع الجاد إلى معرفة عقيدة التوحيد خالصة من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والتفقه في دين الله وهذا ماسنحاول بيان مساره في المقصد الآتي إن شاء الله .

---

(١) قيام دولة المرابطين ، مصدر سابق ص١٠٧ ويقارن بما في البيان المغرب جـ ٤ ص ٧ - ٨

(٢) الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ، تأليف : الفرد بل الفرنسي ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، ط دار الغرب الإسلامي ص ٢٢٩ .

المقصد الثالث :

العقيدة في موريتانيا قبل دخول القادرية

كانت المرحلة السابقة مرحلة انتشار الإسلام الأولى التي لايبحث فيها إلاعن النطق بالشهادتين ومايترتب على ذلك من فرائض الإسلام كالصلاة والزكاة والحج والصوم ، وعرفنا من كلام القاضي عياض السابق ومن كلام زعيم (كداله) يحي بن إبرهيم أن حظهم من معرفة هذه الأركان كان ضئيلا لعدم من يعلم ٠

وواضح أن هذه المرحلة لايبحث فيها عن العقائد وعلم الكلام والجدل الذي كان مشهورا في الشرق وبعض المدن الأخرى ٠

وإنما يبحث عن هذه الأمور في المرحلة التي تليها وهي فترة قيام الدولة المرابطية وما صاحبها انطلاقا من طلب يحيي بن إبراهيم الكدالي من الفقيه أبي عمران الفاسي شيخ القيروان في ذلك الزمن أن يرسل معه من يثق بعلمه وديانته من طلبته إلى بلاده ليعلمهم أمور دينهم فوجه الشيخ أبو عمران الفاسي رسالة إلى تلميذه (وكاك) بن زلو اللمطي ببلد نفيس من بلاد المصامدة يطلب منه فيها أن يبعث مع يحيي بن إبراهيم الكدالى من طلبته من يثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ، ليقرئهم القرآن ويعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم في دين الله (١) ٠

وهذه رسالة وصفت المعلم المطلوب والمنهج المقترح ، ولايفهم من هذه الرسالة اقتراح تدريس مذهب معين في العقيدة أو غيرها ٠

---

(١) البيان المغرب جـ ٤ ص ٧ - ٨ ٠

ولكن لما كان هذا الفقيه الفاسى قد درس في العراق على الباقلاني (١) إمام الأشعرية في عصره وكان وكاك بن زلو اللمطي (٢) من طلبته في المغرب الذين درسوا عليه ماحصله في المشرق ، وكان عبد الله بن ياسين الذي وقع عليه الاختيار ليكون مدرسا ومعلما لهذه البلاد من طلبة •وجاج ومن المقيمين معه في داره التي بناها بالسوس للعلم والخيرأخذ بعض الكتاب من هذا أن الأشعرية وصلت إلى البلاد - موريتانيا - في وقت مبكر (٣) •

مستند هذا الحكم أن أبا عمران الفاسي كما يقولون : برع في علم الكلام والمناظرة وبث هذه التعاليم فيمن قصده من تلاميذ المغرب (٤) •

وهكذا جعلوا للأشعرية شبه سند متصل سلسلته في بلاد موريتانيا خاصة يمكن أن تذكر هكذا : عن عبد الله بن ياسين عن وجاج بن زلـو عـــن أبي عمـــران

---

(١) الباقلاني هو : القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ • وقد عرف بأنه سيف السنة ولسان الأمة ، المتكلم على لسان أهل الحديث وطريق أبي الحسن الأشعري • تراجع ترجمته في مقدمة تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل • تأليف : الباقلاني ، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر ، ط مؤسسة الكتب الثقافية ، ط ١ سنة ١٤٠٧ هـ ص ٩ وأما أبو عمران فهو : موسى بن عيسى أبن أبي حاج الفاسي أبو عمران • أصله من مدينة فاس ونزل القيروان ثم رحل إلى بغداد فحضر مجلس القاضي أبى بكر بن الطيب الباقلاني - راجع : التشوف إلى رجال التصوف ، وأخبار أبي العباس السبتي ، تأليف : أبي يعقوب يوسف بن يحيي التادلي عرف بابن الزيات (ت٦١٧ هـ) تحقيق : أحمد التوفيق ط ١ المغرب ١٤٠٤ هـ ص ٨٧ ومابعدها وتوفي أبو عمران سنة ٤٣٠ هـ •

(٢) هو : (وجاج أو وكاك بن زلو اللمطي ، من أهل السوس الأقصى ، رحل إلى القيروان فأخذ عن أبي عمران القاسي ثم عاد إلى السوس فبنى داراً سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقرأء القرآن • راجع ترتيب المدارك جـ ٨ ص ٨١ والتشوف إلى رجال التصوف ص ٨٩ وتوفى سنة ٤٤٥ هـ نفسه هامش •

(٣) بلاد شنقيط المنارة والرباط ص ١٩٧ •

(٤) قيام دولة المرابطين ص ١١١

الفاسي عن الإمام الباقلاني عـن أبى عبد الله بن مجاهد الطائي صاحب الأشعـري (١) ٠ وقد أيد هذا السند وأضاف إليه الدكتور علي سامي النشار في مقدمة تحقيقه لكتاب الإشارة في تدبير الإمارة للإمام أبي بكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي القروي المتوفى سنه ٤٨٩ أو ٤٨٨ هـ في أزكي قرب مدينة أطار بالشمال الموريتاني ٠

قائلا إن المرادي هذا يحتمل أن يكون درس في أيام شبابه على أبي عمران الفاسي في القيروان حيث إنه منسوب إليها (القروي) (٢) ٠

والذي يهمنا في هذا السند هو العالمان الأخيران فيه وهما :

الإمام عبد الله بن ياسين ٠ والإمام أبو بكر الحضرمي حيث إنهما اللذان أوصلاعلما إلى هذه البلاد التي تتناولها الدراسة ٠

ولذا فلابد من النظر في دراستهما ، ومعرفة أثرهما في هذه البلاد المغربية من حيث العقيدة ٠

وذلك بالنظر إلى أن كلا منهما يحتمل أن يكون هو الذي أوصل الأشعرية إلى بلاد المغرب عموما وبلاد موريتانيا خصوصا ٠ ومع أن هذا احتمال فقط فإننا سميناه سندا ٠

وسيتبين بالعرض والدراسة النقدية إن شاء الله تعالى هل يصلح أن يكون أحدهما أو كلاهما أصلا لسند صحيح تعتمد عليه الأشعرية وطريقتها في العقائد وعلم الكلام والجدل أم لا ؟

ومع أن سند كل منهما يتصل الباقلاني عن طريق الفاسي فإننا سندرس حياة كل منهما على حدة لنعرف مدى مصداقية الاحتمالين أو السندين ٠

---

(١) يراجع في ترجمه شذرات الذهب جـ ٣ ص ١٦٩ والأشعري هو الإمام علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق ابن سالم الأشعري من ذرية أبي موسى الصحابي رضي الله عنه ٠ أبو الحسن المتوفى سنة ٣٢٤ هـ ببغداد ٠ مقدمة تحقيق الابانة عن أصول الديانة ، لأبي الحسن الأشعري ، تحقيق الدكتورة فوقية حسين محمود ط ١ دار الأنصار ١٣٩٧ هـ ص٩ -٣٧ ٠

(٢) المصدر المذكور ط ١ الدار البيضاء ١٩٧٥ م المقدمة ص ٢٨ ومابعدها ٠

السند الأول: وهو سند عبد الله بن ياسين رحمه الله تعالى

التعريف بعبد الله بن ياسين : نسبه

هو عبد الله بن ياسين بن ومكو أو (مكوك) بن سير علي الجزولي التامانارتي (١) قال محمد المختار السوسي : (وقفت على نسبة ابن ياسين في عداد السملاليي، والبيت الياسيني المنقرض في فاس إليه ينسب ٠) (٢)

وكانت تامانارت التي ينسب إليها قاعدة جزولة (٣) ويرجح الدكتور حسن أحمد محمود كون الامام عبد الله بن ياسين من كدالة ، وأن ذهابه مع يحيي بن إبراهيم الكدالي يؤيد ذلك حيث إن الأمر يكون أسهل عليه من غيره ، وأن تحريف الكدالي من الجزولى من السهل على النساخ وغير المحققين من الرواة (٤) وماقاله ليس بظاهر عندي لتواتر نسبته إلى جزولة في كثير من المراجع ومجرد احتمال التحريف لايغير شيئا وخصوصا في الأنساب الثابتة ٠

طلبه للعلم وجهوده في نشره :

قال القاضي عياض : (إنه كان أولاً من طلبة وجاج بن زلو اللمطي (٥) ٠

---

(١) المعسول ، تأليف : المختار السوسي جـ ٨ ص ٣٢٤ و ٤١٤ وهو في تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٢ (عبد الله بن ياسين بن يك الجزولي) ٠

(٢) نفسه جـ ٨ ص ٣٢٤ وذكرها في هامش ص ٤١٤ منه (أنه وقف للإمام عبد الله بن ياسين على سلسة نسبين في الأحكاكين والسملاليين ٠)

(٣) قيام دولة المرابطين ص ١٤٤ ويقارن بما في البيان المغرب جـ ٤ ص ١٠ ٠

(٤) نفسه ص ١١٤ ٠

(٥) ترتيب المدارك جـ ٨ص ٨١ ٠

وهذا يدل على أنه ترك مسقط رأسه مبكرا في طلب العلم وما يذكره صاحب قيام دولة المرابطين من أنه فارقه في الرحلة إلى الأندلس حيث مكث فيها سبعة أعوام يطلب العلم ، وذلك في عهد ملوك الطوائف •

حوالي سنة ٤٠٠ هـ (١) وقد حصل هناك علما كثيرا حتى عده ابن بشكوال في كتابه الصلة ممن روي عنهم الحديث (٢) وعاد من الأندلس فقيها مشاركا في العلوم ، تنطبق عليه الأوصاف التى طلب الفقيه أبو عمران الفاسي في المعلم الذي يرسل مع يحيي بن إبراهيم الكدالي •

حيث يقول القاضى عياض عنه : (وكان موصوفا بعلم وخير) (٣) •

وقال ابن أبي زرع : (كان من حذاق الطلبة الأذكياء النبهاء والنبلاء من أهل الدين والفضل والتقى والفقه والأدب موصوفا بالورع وحسن التدبير والسياسة ، وشهامة النفس وسداد الرأي والحزم) (٤) •

ويبدو أن عبد الله بن ياسين بعد توجهه مع يحيي بن إبراهيم الكدالي إلى بلاده في أعماق الصحراء ظل ملتزما بما هو موصوف به عند هؤلاء المؤرخين ، وزاد عليه أنه التزم بالمنهج العلمي الذي رسم له في توجيهات الفاسي واللمطي •

وهكذا كانت سياسة الدعوة إلى الله في تلك البيئه تقتضي الاقتصار على التبليغ أولا وتدريس الضروري من علوم الدين ثانيا • ولذا فإنه لم ينقل أن الإمام عبد الله ابن ياسين اشتغل بتدريس غير القرآن الكريم والحديث الشريف ، والفقه ولو كان يعرف علوما أخرى غيرها •

---

(١) قيام دولة المرابطين ص ١١٦ •

(٢) نفسه •

(٣) ترتيب المدارك جـ ٨ ص ٨١ •

(٤) قيام دولة المرابطين ص١١٦ - ١١٧ ويقارن بما في : الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ص ٢٣٠ •

قال القاضي عياض : (وسيرته في أموره هناك وتقريراته معروفة محفوظة يتأثر عليها مشيخة المرابطين ، ويحفظون من فتاويه وأجوبته ، مالايعدلون عنه) • (١)

ومن رباطه الذي كان مدرسة ومسجدا ونواة دولة خرج عبد الله شيوخ المرابطين وقد طبعهم بطابع الالتزام بالكتاب والسنة والجهاد في سبيل الله (ودخلوا في دعوته والتزموا السنة به) (٢) وسرت فيهم تعاليمه حتى آخر لحظة من دولتهم ، وبقيت عقيدتهم فيمن بقي من فقهائهم وكثير من القبائل السائرة على منهجهم (٣) •

(إن عبد الله بن ياسين لم يكن من علماء الكلام ، بل كان فقيها مالكيا لايدرس إلا القرآن والشريعة والعبادات) (٤) فعمله في الدعوة (أن يعلمهم القرآن ، ويقيم لهم الدين ••• حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة •••) (٥) •

وقد التزم المرابطون بما تعلموه من إمامهم الإمام عبد الله بن ياسين حتى كانت (لمتونه لاتقدم أحدا منهم للصلاة إلا من صلي خلف عبد الله بن ياسين) (٦) •

ومن تلاميذه المشهورين بالتزام منهجه في الدعوة والتدريس والجهاد :

سليمان بن عدو أو حرو الذي خلفه الامام عبد الله بن ياسين عندما أحس بدنو أجله إثرجراح أصابته في أثناء معاركه مع البرغواطيين في أوائل سنة ٤٥١ هـ (٧) •

قال ابن خلدون : (وقد أم المرابطين بعد عبد الله ابن ياسين سليمان بن عدو ليرجعوا إليه في قضايا دينهم) وقد استشهد سليمان في قتال برغواطة في نفس السنة ٤٥١ هـ (٨) •

---

(١) ترتيب المدارك جـ ٨ ص ٨٢ •

(٢) البيان المغرب جـ ٤ ص ٩ •

(٣) يرجع فيه إلى كتاب : الامام عبدالله بن ياسين ، تأليف : إبراهيم الجمل ص ٧٩ -٨٣ •

(٤) الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ص ٢٣١ •

(٥) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٢ - ١٨٣ •

(٦ - ٧) البيان المغرب جـ ٤ ص ١٦ •

(٨) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٣ - ١٨٤ . ١٢٣ •

ومن تلاميذه : أيضا لمتاد بن نصير اللمتوني الذي يقول عنه القاضي عياض:

(كان من عبادهم وفقهائهم) (والمثل يضرب بفتياه في بلاد الصحراء ، وتعظيم أمرها إلى الآن) (١) •

ومن تلاميذه أيضا : أبو بكر بن عمر أمير الحق صاحب الفتوحات في بلاد المغرب والسودان ، المتوفى في صحراء موريتانيا سنه ٤٨٠ هـ (٢) •

ومن تلاميذه أيضا : أبو عمران بن عبد الملك المصمودي • (٣) وميمون الصنهاجي الذي وصف بأنه كان محدثا راوية (٤) •

فهذا عبد الله بن ياسين وبعض نبهاء أصحابه وتلاميذه ولم ينقل عن أحد منهم مهما كان تبحره في العلوم الاشتغال بعلم الكلام والجدل ، أو بث العقائد الأشعرية وإذا تبين ذلك فإنني أغلب - وهذا ظن منى - أن الأمام عبد الله بن ياسين قد التقى في الأندلس بالإمام الحافظ ابن عبد البر وتأثر بعقيدته وفقهه ، المأخوذ من الكتاب والسنه وفقه أهل المدينة النبوية •

وهذا أمروارد وممكن جدا حيث إن الإمام عبد الله بن ياسين دخل الأندلس حوالى سنة ٤٠٠ هـ على ماتقدم في بيان طلبه للعلم • وقد قامت فتنة البربر قي نفس الأيام وأخذ كثير من العلماء في الخروج والتجوال في مدن الأندلس العامرة الأخرى ، وكان من بين هولاء العلماء ابن عبد البر الذي أخذ يتجول ولمدة عشر سنوات في مدن الأندلس يأخذ العلم ويؤخذ عنه حتى ألقى عصا التسيار في مدينة (دانية) من

---

(١) ترتيب المدارك جـ ٨ ص ٨٠ وهو فيه لمتاد بن بلين اللمتوني ، وهو في غيره : المناد بن نصير اللمتوني ، أو لمناد بن بلين المرابطي • نفسه هامش •

(٢) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٤ •

(٣-٤) كتاب الإمام عبد الله بن ياسين ، تأليف : إبراهيم الجمل • (ذكرهما ولم نعثر على تاريخ وفاتهما) ص ١٦٠ •

بلاد الأندلس حوالي سنة ٤١٢ هـ (١) وكانت هذه السنوات التي قضاها هذا الحافظ في التجوال موافقة لدخول الإمام عبد الله بن ياسين إلى الأندلس لطلب العلم حيث مكث فيها سبعة أعوام (وحصل فيها على علوم كثيرة) (٢) ولم نجد تفصيلا لعلومه التي حصلها ولا لشيوخه الذين أخذها عنهم ولكن ذكره من بين المحدثين والقراء والفقهاء والمتمسكين بالسنة يدل على أنه كان جل علومه وعمله في هذا المجال وأنه مانال ذلك إلابصحبة جلة العلماء المشتغلين بهذه العلوم ونشرها دون المشتغلين بعلم الكلام المعروفين عندهم في ذلك الوقت بأهل الأهواء سواء كانوا أشاعرة أو غير أشاعرة (٣) .

فإذا كان احتمال أخذ الإمام عبد الله بن ياسين عن الحافظ بن عبد البر وتأثره به عقيدة وفقها وعملا واردا وراجحا لما تبين كان الاحتمال الآخر. وهو القول بأنه أدخل الأشعرية بالسند عن وجاج عن أبى عمران الفاسي إلى آخر السند المتقدم - كان مرجوحا لعدم مايدل عليه ويؤيده .

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ، تأليف : الحافظ ابن عبد البر ، تحقيق : محمد مرسى الخولى ، دار الكتب العلمية ، ط ١سنة ١٩٨١ م القاهرة ، جـ ١ ص ١٣٨ .

(٢) البيان المغرب جـ ٤ ص ١٠ .

(٣) جامع بيان العلم وفضله جـ ٢ ص ٩٦ .

السند الثاني :

أما السند الثاني للأشعرية في البلاد فهو عن طريق الامام القاضي أبي بكر محمد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي القروي .

نزل بأغمات وريكة (١) ثم تعرف عليه أبو بكر بن عمر أمير الحق اللمتوبي مع جماعة من العلماء فحملهم معه إلى الصحراء فيمن دخل معه هناك للجهاد ، وولى المرادي القضاء والفتيا حيث إن المرادي كان إماما في علوم كثيرة ويدل على ذلك كتابه الذى وضعه للأمير المذكور أو لـــولده إبراهيم الذي تولى الأمر من بعده وهو : أبراهيم بن الأمير أبي بكر بن عمر لم تعرف أمه وكان أسود الجلد (٢) والكتاب المذكور هو: كتاب السياسة أو (الاشارة في تدبير الامارة) .

وظل هذا الامام مع الأمير المذكور حتى مات سنه ٤٦٨ هـ بسبب سهم أصابه في الجهاد ضد الوثنية المنتشرة في السودان آن ذاك (٣) ثم بقي هذا الامام مع الأمير إبراهيم الذي خلف والده على حكم البلاد المفتوحة التي تبدأ من سجلماسة إلى أعماق الصحراء وما حول ذلك (٤) إلى أن استشهد هذا الامام على أيدي اليهود في إحدى المعارك الفاصلة معهم قرب مدينة أطار ، عند أزكي أوأزقي أو أزكي (٥) .

---

(١) أغمات مدينة من مدن الصحراء منسوبة إلى إحدى قبائل المصامدة أسمها (وريكة .) ، راجع التشوف ص ٨٤ .

(٢) يرجع فيه إلى البيان المغربي جـ ٤ ص ١٧ - ٢١ .

(٣) نفسه جـ ٤ ص ١٧ - ٢١ .

(٤) يرجع في هذا إلى : الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٥) وردت هذه الأسماء لمكان واحد ففي البيان المغرب جـ ٤ ص ١٤ أن أزكى حصن في جبل لمتونة حوله نحو من عشرين ألف نخلة . وفي كتاب قيام دولة المرابطين ص٦٢ أزقي من بلاد مسوفة ولمطة وهي أول مراقى الصحراء ومنها إلى سجلماسة ١٣ مرحلة ومنها إلى تول ٧ مراحل ، وفيه ص ٤٥ أركى مدينة تقع على سبعه أيام من وادى نون . قلت : يعرف مكان قبر الإمام الحضرمي الآن بأزوقي وهو قريب من مدينة أطار ذات الواحات الكبرى في شمال موريتانيا .

طلبه للعلم

لم نقف على من ذكر لهذا الامام شيوخا إلا أن نسبته إلى القيروان تؤكد أنه درس العلم على علمائها . ويحتمل كما يرى النشار (١) أنه درس في شبابه على الفقيه أبي عمران الفاسي ، وأنه دخل الأندلس وهي حاضرة العلم آن ذاك ، ثم رحل إلى المغرب الأقصى وتردد بينه وبين الأندلس . وصار له تلامذة نابهون نقلوا عنه بالأسانيد علوما كثيرة من بينها العقيدة (٢) . يقول التادلي : (وكان المرادي أول من أدخل علوم الاعتقادات بالمغرب الأقصى فنزل بأغمات وريكة ، فلما توجه أبو بكر بن عمر إلى الصحراء حمله وولاه القضاء فمات بأزكى (٣) من صحراء المغرب سنه تسع وثمانين وأربعمائة فخلفه أبو الحجاج (٤) في علوم الاعتقادات ، وكان آخر أئمة المغرب فيما أخذه عن شيخه المرادي) (٥) .

وأبو الحجاج المذكور هو : يوسف بن موسى الكلبي ، المتكلم النحوي أبو الحجاج الضرير المتوفى سنة ٥٢٠ هـ بمراكش . كان غلب عليه الزهد في الدنيا وأهلها ، وكان لباسه الخشن من الصوف ، وكان يختلف من مراكش إلى أغمات ، قال عنه القاضي عياض :(كان من المشتغلين بعلم الكلام على مذهب الأشعرية ونظار أهل

---

(١) أنظر كتاب السياسة ، مصدر سابق ، المقدمة ص ٣٠ - ٣١

(٢) يرجع فيه إ لى أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تأليف : شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني ، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المغرب والإمارت جـ ٣ ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٣) تقدم التعريف بأزكى وقد أضاف محقق كتاب التسوق في الهامش ص ١٠٦ : (ونطقها أزكى بجيم مصرية بين ضم وكسر ، ومعناه : إناء الفخار أو شقفه .) وراجع الروض المطار للحميري ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط بيروت ١٩٧٥ م .

(٤) أنظر ترجمته في الغنية ، فهرست شيوخ القاضي عياض ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم ، دار العربية للكتاب ، ليبيا - وتونس ط ١٣٩٨ هـ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٥) التشوف إلى رجال التصوف ص ١٠٥ - ١٠٦ .

السنة ، وقرأت عليه أرجوزته (الصغرى) التي ألف في الاعتقاد ، وحدثنى (بالكبرى) ، وبكتاب شيخه المرادي (التحرير أو التجريد) وكان آخر المشتغلين بعلم الكلام بالمغرب) (١) • ويظهر من كلام الباحثين أن هذه الكتب المذكورة هنا مفقودة كما قال النشار : (ولعل الابحاث العلمية تكشف لنا عن كتبه) (٢) يعني المرادي قلت : ومما يضعف هذا السند أنه مبني على احتمال أخذ الحضرمي عن أبي عمران الفاسي وهو مجرد احتمال لا دليل عليه • وأما كونه معدودا في علماء الكلام وله فيه مؤلفات فغير مانع من أن يكون قد أنخرط في سلك المرابطين وحاول السير في منهج ابن ياسين كما قال صاحب الذخيرة : (ثم كر إلى أمراء المرابطين بالمغرب فانخرط في أسلاكهم ••• وانما أراد أن يسلك في حمل دول المرابطين مسلك عبد الله بن ياسين) • (٣) وبهذا يعلم أنه لايمكن الاعتماد على هذين الإسنادين في الحكم بدخول الأشعرية إلى بلاد موريتانيا أيام دولة المرابطين •

وقد جزم القاضي عياض بأن شيخه أبا الحجاج (كان آخر المشتغلين بعلم الكلام في المغرب) وهو بهذا يشير إلى ماعرف وصدر عن الدولة المرابطية من التشدد ضد علم الكلام وأهله ، حيث إن تاريخ وفاة أبي الحجاج الضرير سنة ٥٢٠ هـ •

وقد سبق هذا إحراق الفقهاء في المغرب والأندلس لكتاب إحياء علوم الدين للغزالي ، وصدور الفتاوى والأوامر السلطانية بالتحذير من علم الكلام وأهله (٤)

النزاع العقدي بين المرابطين والموحدين :

كان المهدي بن تومرت (٥) قد تجول في بلاد المغرب ودخل أغمات وريكة بعد مناظرة بعض الفقهاء في مراكش بين يدي علي بن يوسف بن تاشفين ، وبدأ في دعوته لمذهب الأشعرية والعقائد الكلامية (٦) •

---

(١) الغنية ص ٢٨٢ - ٢٨٣ •

(٢) كتاب السياسة للمرادي ، مصدر سابق ص ٢٣ والغنية للقاضى عياض ، مصدر سابق ص ٢٨٢ - ٢٨٣ •

(٣) الذخيرة لابن بسام ، القسم الرابع ، المجلد الأول ص ٣٦٤ •

(٤) التشــوف ص ٩٦ •

(٥) هو محمد بن عبد الله ين وجيله ابن بامصال المتوفى سنة ٥٢٢ هـ أو ٥٢٤ هـ أو ٥٢٥ هـ صاحب - انظر اختلاف المؤرخين في نسبه في تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ •

(٦) يراجع فيه تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٨ • وشجرة النور الزكية جـ ١ ص ١٤٠ •

يقول ابن خلدون واصفا حال المهدي بن تومرت ، ومبينا ماكان عليه أهل المغرب من اعتقاد السلف وحماية الدولة المرابطة لهذه العقيدة :

(وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذعنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفيـة والذب عنها بالحجج العقلية الدامغة في صدر أهل البدعة ، وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث ، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وامرار المتشابهات كما جاءت) (١) .

وكان ابن تومرت بدأدعوته هذه قبل سنة خمسة عشر وخمسمائة حيث اتهم المرابطين بالتجسيم وكفرهم (وأنكر عليهم جمودهم على مذهب السلف في إمرار المتشابه كما جاء ويرى أن الجمهور لقنوه - (كذا ولعلها لقيوه) تجسيما ويذهب إلى تكفيرهم بذلك على أحد قولي الأشعرية في التكفير) (٢) قلت : ولعله يريد بأحد قولي الأشعرية في التكفير أن لازم المذهب يعتبر مذهبا فيكفر معتقد كون البارى جل وعلا جسما ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (٣) . ولايخفى أن هذا القول لاأصل لنسبته للسلف ، ولاينسبهم إلى القول به إلا مبتدع معطل لأنهم أثبتوا ما أثبته القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من صفات الباري جل جلاله .

فابن تومرت عند ابن خلدون وغيره هو الذي حمل الناس في المغرب على القول بالتأويل ، والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم ، وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة في التوحيد (٤) .

وقد رد شيخ الإسلام بن تيمية على كتاب المرشدة المذكور وشرح مافيه كلمة كلمة وبين ما فيه من صواب وخطأ ولفظ مجمل ، ولما سئل عنها وعن أصلها وهل تجوز قراءتها ؟ أجاب بما يتضح به حال صاحب المرشدة .

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٧ .

(٢) نفس المرجع جـ ٦ ص ٢٢٦ .

(٣) يرجع في بيان قولي الأشعرية إلى فتح المنعم ببيان ما احتيج لبيانه من زاد المسلم ، تأليف إبن محمد حبيب الله ابن مأبا ، دار الفكرسنة ١٤٠١ هـ جـ ٤ ص ٣٢٦ ومابعدها . وجـ ٥ منه ص ١٩٠ ومابعدها .

(٤) يراجع تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٦ .

وأنه تعلم طرفا من العلم ، وكان فيه طرف من الزهد والعبادة ، وأنه أرتكب في سبيل نشر دعوته أمورا عظيمة في هدر الدماء والحيل والمخرقة الظاهرة ٠

وأن المرشدة اشتملت على عقائد الرافضة القرامطة الباطنية ، والجهمية الاتحادية والمتفلسفة والشيعة (١) (فلم يذكر في مرشدته الاعتقاد الذي يذكره أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة أهل الحديث والفقة والتصوف والكلام وغيرهم من أتباع الائمة الأربعة وغيرهم ٠٠٠) (٢) ٠ فلم ينسبه ابن تيمية إلى الأشعرية ، خلافا لما سبق نقله عن ابن خلدون وغيره ٠

وقد كانت للدولة المرابطية مع ابن تومرت مواقف جليلة لحماية الناس من عقائده، وحماية عقيدة السلف في المجتمع المغربى حيث أحر قواكتب الغزالي وحاكموا من يحمل الناس على قرائتها أو يرغب في مطالعتها ، وناظروا ابن تومرت في محيط المعتقد الصحيح المستمد من الكتاب والسنة ، ولم يستطع الإفلات إلا بالحيل والمخرقة وإثارة المطاعن البعيدة التي أخذها معه من المشرق حيث كان الصراع بين أهل البدع وأهل السنة (٣) ٠

يقول المراكشي في وصفه لما كان عليه أهل المغرب في عهد الدولة المرابطية من التزام عقيدة السلف : (دان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام ، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدين ربما أدى كثيره إلى اختلال في العقائد) (٤)

وقد قرر المراكشي هذه الأوصاف لأهل ذلك العصر في أماكن من كتابه معتبرا هذا هو مذهب السلف في علم الكلام وأهله (٥) ٠

---

(١) يراجع مجموع الفتاوى ج ١١ ص ٤٧٦ ومابعدها ٠

(٢) نفس المرجع ج ١١ ص ٤٨٥ ٠

(٣) يرجع فيه إلى المرجع السابق والتشوف ص ٩٦ و ١١٨ والفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ص ٣٨٠ ومابعدها ٠

(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تأليف: عبد الواحد المراكشي، تحقيق ، محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب الدار البيضاء ط٧ سنة ١٩٧٨ م ص٢٦٤ ٠

(٥) نفس المرجع ص ٢٦٤ - ٢٦٥ و ٢٧٠ ٠

هذه شهادات علماء المغرب على ماكان عليه المرابطون من التزام عقيدة السلف والتنفير من عقائد علم الكلام .

وأكد ذلك من علماء المشرق غير واحد منهم شيخ الإسلام ابن تيمية حيث وصف منهجهم في العلم والإعتقاد وصور منهج المتكلمين من أمثال ابن تومرت المخاصم ان ذاك للمرابطين والمتهم لهم ، بالجمود والتجسيم وغير ذلك من الدعاوي والدعاية المغرضة فيقول شيخ الأسلام ابن تيمية : (واستحل - يعنى ابن تومرت - دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية ، الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة على مذهب الإمام مالك وأهل المدينة ، يقرؤون القرآن والحديث كالصحيحين والموطإ وغير ذلك والفقه على مذهب أهل المدينة ، فزعم أنهم مشبهة مجسمة ، ولم يكونوا من أهل هذه المقالة، ولايعرف عن أحد من أصحاب مالك إظهار القول بالتشبيه والتجسيم) (١) .

ولايعكر على سلفية المرابطين وجود بعض الراحلين إلى المشرق أو الآخذين منهم طريقة أبي الحسن الأشعري في مناصب عالية في الدولة مثل ابن رشد الجد المتوفى سنة ٥٢٠ هـ أي سنة وفاة أبي الحجاج الضرير المتكلم الذي تقدمت ترجمته ، والقاضي أبي الوليد الباجي المتوفى سنة ٤٧٤ هـ والقاضي أبي بكر بن العربي المتوفى سنة ٥٤٣ هـ وابن رشد الحفيد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ وأبي عمرو عثمان ابن عبد الله السلالجي الأصولي الموصوف بأنه إمام أهل المغرب في علم الإعتقاد المتوفى سنة ٥٦٤ هـ (٢) .

فهؤلاء وغيرهم من المتبحرين في علوم كثيرة منها علم الكلام لايؤثر وجودهم ضمن علماء وفقهاء الدولة المرابطية يحملون علوم الجدل وآداب المناظرات ، ويستخدمونها عند الضرورة لقمع من يحملها أو يدعو إليها علما أن من هؤلاء من صرح باختياره واعتقاده مذهب السلف كابن رشد الجد . (٣)

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١١ ص ٤٧٨ .

(٢) التشوف ص ١٩٨ .

(٣) المقدمات جـ ١ ص ١٠ .

ولكن الدكتور علي سامي النشار يرى أن وجودهم في مراكز السلطة أيام الدولة المرابطية دال على انتشار المذهب الأشعري وازدهاره في المغرب وعدم محاربة الدولة المرابطية له (١) ·

وإطلاق هذا الكلام يخالف ماعرف عن الدولة المرابطية من تبديع أصحاب الكلام والتحذير منهم على العموم وهذا ماقدمنا فيه نصوصا كافية في تقريره ، ولكن لعل هؤلاء العلماء لم يظهر عليهم شيء من علم الكلام الذي تقصده الدولة المرابطية ويرى فقهاؤها أن حامله يهجر أو يكفر أو يبدع ، إما لأنهم لايدعون إليه ولا ينشرونه وإن ذكروه فإنما على سبيل النقد له أو النقل لكلام القائلين به ، وعلى كل فمذهب هؤلاء في الاعتقاد وعلم الكلام يختلف عما جاء به ابن تومرت مهدي الموحدين حيث إن مذهبهم قد يوصف بما وصف به شيخ الأسلام ابن تيمية مذهب الأشعرية (بأن غالبه موافق لأصول السلف وأهل السنه والجماعة ، لكنه مقصر عن ذلك ، ومتضمن ترك بعض ماكانوا عليه ، وزيادة تحالف ماكانوا عليه) (٢) ·

أما ابن تومرت ومن تابعه في بلاد المغرب فإن كثيرا من أهل العلم حاربو ه بوسائل شتى ووقفوا في وجه ماأدخله من عقائد غريبة رغم سفكه هو وخلفائه للدماء فمنهم من ألف في بيان مايناقض بعض الدعاوي المهدوية ، ومنهم من ألف في وصف حياة السلف وماكانوا عليه من الاعتقاد الصحيح والسلوك القويم ، ومنهم من خرج وقاد الناس ضد الموحدين ودعوتهم حتى بعد تغلبهم على السلطة الشرعية ·

ومن المحاربين لما جاء به مهدي الموحدين ابن تومرت من المعتقدات المختلفة القاضي عياض حيث ألف كتاب ترتيب المدارك مبينا فيه فضائل علماء مذهب الإمام

---

(١) يرجع إلى مقدمة كتاب السياسة ٢٨ ومابعدها ·

(٢) كتاب الأستقامة جـ ١ ص ٨١ - ٨٢ ·

مالك الذي حاربه الموحدون ، وألف كتابه الشفا ردا ضمنيا على معتقدات وادعاءات الموحدين المهدية والعصمة للإمامهم ، ووضح أن كثيرامن تلك المعتقدات يفضى بمعتقده إلى الزندقة وخرج على الموحدين يقود ثورة أهل سبتة ٠

ولذا تخلص منه عبد المؤمن الموحدي شنقا سنة ٥٤٤ هـ (١) ٠

ولم يكن موقف القاضي عياض هذا دفاعا عن المالكية فقط أو الأشعرية وانما كان دفاعا عن عقيدة الإمام مالك نفسه السلفية التي كان أهل المغرب يتمسكون بها ويزودون عنها هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن القاضي عياضا من المحدثين الناشرين للعلم المأخوذ من الكتاب والسنة وإذا به يجد طلابه وأصحابه يدعون إلى الايمان بعقائد ملفقة كما تقدم عن شيخ الإسلام ابن تيمية.وكما انتهى إليه الدكتور النشار حيث يقول : (ولم يكن ماأدخله ابن تومرت مذهبا أشعريا خالصا بل كان مذهبا موفقا بين مختلف المذاهب) (٢) وهذا مايستخلص من كتب الموحدين أنفسهم وكتب المؤرخين في عهدهم (٣) وهكذا رأى القاضي عياض أن الوضع العقدي في المغرب أخذ يهوي إلى جانب الأنحراف عن منهج السلف أهل السنة والجماعة فألف للأطفال كتابا سماه : الاعلام بحدود قواعد الإسلام (٤) شرح فيه باختصار شديد قواعد الإسلام وكأنه يرد به على ابن تومرت في مرشدته التي أخذ يلقنها للأطفال والجهال (٥) ٠

---

(١) ترتيب المدارك مقدمة المحقق جـ ١ ص ١٣ ومابعدها ٠

(٢) كتاب السياسة ، المقدمة ص ٢٨ ٠

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص٢٦٥ -٢٦٦ و٢٧٥ وقيام دولة المرابطين ص ١٧٧-١٨٤

(٤) طبع بتحقيق محمد بن تاويت الطنجي في المطبعة الملكية الرباط ١٣٨٨ هـ ط٢ انظر مقدمة المحقق ٠

(٥) الإعلام بحدود قواعد الإسلام ط ٢ ص ٥ ومابعدها ٠ وحركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر تأليف : روجى لي تورنو ، ترجمة الدكتور أمين الطيبي ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٨٢ م ص ٢٦ ٠

والقاضي عياض إذ يقف هذه المواقف دفاعا عن عقيدة الامام مالك التي كانت عليها الدولة المرابطية يعتبر أن آخر المشتغلين بعلم الكلام في المغرب هو شيخه أبو الحجاج الضرير كما تقدم وهو بهذا التعبير ينفي عن نفسه الاشتغال بعلم الكلام ويصنف نفسه ضمن فقهاء وعلماء ومحدثي الدولة المرابطية السلفية ٠

وعن القاضي عياض الآخذ علوم الاعتقاد عن أبي الحجاج الضرير عن الإمام أبي بكر بن الحسن المرادي المرابطي أخذ أعلام من موريتانيا (الشطر الجنوبي لدولة المرابطين) وأسسوا المدارس وأدخلوا الكتب المؤلفة في عهد الدولة المرابطية وخصوصا كتب القاضي عياض ومن على شاكلته ٠

فمن الآخذين عن القاضي عياض المؤسسين للمدارس : الشريف عبد المؤمن التشيتي، مؤسس مدينة تشيت ومدرستها سنة ٥٤٤ هـ والحاج عثمان الوداني الذي أسس مدينة ودان ومدرستها في حدود سنة ٥٣٦ هـ ثم التحق بزميله في الدراسة المذكور قبله ٠

وبعدهما تتابع إنشاء المدارس في المدن والقرى والأرياف والبوادي على أيدي أحفاد المرابطين فأنشئت مدينة شنقيط التي عرف بها القطر ، واشتهر من علمائها في المشرق والمغرب عدد كثير ، وكانت مدرستها معروفة في حدود سنة ٦٦٠ هـ ٠

وكانت الشهرة قبلها لتنيكي ومدارسها العامرة من بداية القرن الخامس منذ عهد قيام الدولة المرابطية ، ثم أنشئت مدارس أخرى في ولاتة وغيرها ٠

وكان اعتماد هذه المدارس في دراساتها على حفظ الكتاب والسنة ، والاشتغال بما تحته عمل كالكتب الفقهية ومايعرف به المكلف ما طلب منه من عبادات ومعاملات (١) ٠

فعقيدة المرابطين السلفية كانت انطلاقتها من بلاد موريتانيا حيث كان رباط المعلم الأول لتلك البلاد بعدما عرفنا ماكانوفيه من الجهل أو ربما الكفر حتى أنقذهم

---

(١) يرجع في هذا إلى الغلاوية ص ٥٨ - ٥٩ والوسيط ص ٤٢٤ - ٤٢٧ و ٤٣٠ و٤٣٣ و٤٥٩ وموسوعة ابن حامد - المختار أبن حامد الموسوعة الموريتانية ، جـ ١ ص ١٤ - ٣٨ ٠

الله منه بذلك المعلم المجدد عبد الله بن ياسين وانطلقت دولتهم من جزيرة (تيدرة) بين انواذيبو في الشمال الموريتاني وانواكشوط العاصمة الحالية وفتحوا البلاد في جميع الاتجاهات ، وكانت عقيدتهم سلفية كما رأينا وعقيدة خصومهم ملفقة كما علمنا •

ولكن الله من على هذه البلاد الصحراوية الموريتانية فاشتغل الموحدون عنها بالأندلس فاستمر الشطر الجنوبي من دولة المرابطين تحت قيادة أحفاد أبي بكر بن عمر ما شاء الله لها أن تستمر إلى أن دب إليها داء الدول فانقسمت إلى إمارات مستقلة لا تتبع لأي دولة ، منها ما يقوى إلى أن يتجاوز حدود قبيلته ومنها مالا يتجاوز ذلك ، ومنها ما هو من أصل لمتوني وما هو من القبائل العربية المهاجرة ومنها ما هو من أصل زنجي وكان الطابع العام لها منهج المرابطين وشملها التعريب منذ هجرة قبائل بني معقل وغيرهم إلى هذه الإمارات إلى وقتنا هذا • وظلت البلاد من درعة إلى الجنوب في منأى عن الموحدين ومن جاء بعدهم حتى آخر دولة المرينيين الذين يعتبرون امتداد الدولة المرابطين ، حيث اتصلوا بأهل الصحراء ، وأقاموا علاقات مع بعض الإمراء فيها • (٢) وقد وصف بن خلدون أحوال المرابطين بعد تمزق دولتهم فقال : (وبقي من أقام بالصحراء منهم على حالهم الأول من افتراق الكلمة ، واختلاف البين ، وهم الآن يعطون طاعة لملوك السودان يجبون إليهم خراجهم ، وينفرون في معسكرهم ، واتصل بنيانهم على بلاد السودان) (٣) •

وهكذا رأينا أن بلاد موريتانيا دخلها الإسلام شيئا فشيئا ابتداء من فتوح عقبة ابن نافع إلى فتوح المرابطين بقيادة الإمام عبد الله بن ياسين الذي غرس عقيدة السلف في البلاد واعتمد في بيانها على نصوص الكتاب والسنة ، وأرسى دعائم مذهب الإمام مالك رحمه الله وعاشت البلاد المغربية عموما على عقيدة السلف كما رأينا في عهد المرابطين ، وازداد المذهب المالكى رسوخا ووضوحا •

---

(١) يرجع في هذا للغلاوية ص ٥٩ و٦٤ - ٦٦ وحركة الموحدين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، مصدر سابق ص ٦٣ - ٦٤ والفرق الإسلامية في الشمال الافريقى ص ٣١٤ ومابعدها • وبداية الحكم المغربي في السودان الغربي ، تأليف : محمد الغربي ص ٤٦ وما بعدها وتاريخ إدوعيش ومشظوف ص ١٠ وما بعدها وبلاد شنقيط ص ٢٨ وما بعدها •

(٢) يرجع فيه إلى : كتاب الساقية الحمراء ، تأليف : محمد الغربي ص ٢٠٦ -٢٠٧ •

(٣) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٩٧ . ١٩٨ •

ولما قامت الدولة الموحدية على يد المهدي بن تومرت وخلفائه وحاولوا نبذ مذهب الامام مالك في الفقه وأخذوا في نشر عقائد ملفقة كما رأينا ، قام علماء السلف المرابطون بمحاربتها ومعارضتها حتى أن الموحدين لم يتمكنوا من تلقينها للأطفال والجهال من البربر إلا بلغتهم الخاصة ، ولم يتمكنوا كذلك من السيطرة من حيث بسط السلطة إلا في حدود المدن المعروفة ، أما الصحراء وماوراءها إلى بلاد السودان فإن أيديهم لم تطلها ، وعقائدهم لم تنفذ إليها للبعد أولا ولاستحكام

العداوة ثانيا ولتمسك أهل هذه البلاد الموريتانية بما صادف قلوبهم خالية من عقيدة المرابطين السلفية ومذهب أهل المدينة النبوية في الفقه والحديث كما ذكرناه سابقا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية .

وبعد انفرادهم في الصحراء هناك واستقلالهم بمدارسهم التي ذكرنا بعضها لم نجد من وصف منهجهم في العلم بأنه أشعري أو معتزلي أو غير ذلك من المناهج الكلامية ، ولا كننا نجد واصفيها يصفونها بأنها مدارس أنشأها أحفاد المرابطين تأخذ عقائدهامن نصوص الكتاب والسنة ويحفظون طلابها الموطأ والمدونة فيها ويؤخذ الصبيان فيها بذلك ويحفظون رسالة ابن أبي زيد القيرواني وعقيدتها السلفية .

كذلك لم نجد من وصف مجالس علمائهم وأمرائهم بالتعصب لمذهب عقدي أو مذهب فقهي غير الانتماء لمذهب الإمام مالك على ماكان في عهد الدولة المرابطية (١)

وهذه مدرسة ولاته التى أسست في مطلع القرن الثامن تقريبا يمر عليها الرحالة ابن بطوطة فيصف أهلها بأنهم : (مسلمون ، محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن) (٢) .

ولم يتعرض للعقائد بذكر مع مجالسته لعلمائهم وأمرائهم مما يدل على أنه لم ينتقد عليهم فيها شيئا يخالف ماعليه الدولة المرينية التي كانت لها بعض الصلات بالمناطق الشمالية والشرقية من موريتانيا على مايفيده الشيخ سيدي محمدالكنتي في الغلاوية (٣) .

---

(١) يرجع في وصفها إلى : الغلاوية ص ٦٣ - ٦٥ وندوة الإمام مالك ، إمام دار الهجرة ، فاس سنة ١٤٠٠ هـ ١ جـ ص ٢٢٥ ومابعدها ، علماء شنقيط والمذهب المالكي ، بحث شارك به في الندوة الأستاذ محمد عبد الكبير العلوي .

(٢) رحلة ابن بطوطة ، المسماة : تحفة النظار في غرائب الأمصار ، شرحه وكتب هوامشه : طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، ط ١سنة ١٤٠٧ هـ ص ٦٨٨ .

(٣) الغلاوية ص ٦٤ ومابعدها .

المقصد الرابع :

العقيدة في موريتانيا بعد دخول القادرية

وظل الأمر في بلاد المرابطين في الصحراء الموريتانية على ماوصفنا من الاقتصار على الكتاب والسنة في باب العقائد حتى كان القرن التاسع الهجري حيث بدأوا الاتصال بالعالم الخارجي عن حدود صحرائهم فنشطت الرحلة في طلب العلم والحج إلى مكة المكرمة وزيارة الأماكن المقدسة ، والحواضر العلمية كالقاهرة وفاس وغيرهما من المدن التي يمر بها الحجيج في رحلة الذهاب والعودة ونشطت كذلك الهجرات من المغرب والأندلس وغيرهما إلى داخل أعماق الصحراء الموريتانية ، فدخلت البلاد عقائد وكتب لم تكن موجودة من قبل وظهرت انحرافات في العقيدة ، وتصورات خاطئة لبعض مفاهيم الدين ، وشاع أيضا الظلم والجور ، وتسلط القوي على الضعيف ، وانتشرت بينهم الحروب القبلية ، والتعصبات العرقية (١) .

هذا ماصورهم به أحد علمائهم وهو : شمس الدين محمد بن محمد بن علي اللمتوني في رسالة مطولة أرسالها إلا الإمام السيوطي يستفتيه في هذا الواقع المؤلم الذي لايهمنا منه في هذا المجال إلا العقيدة وما يتصل بها من قريب .

يصف صاحب هذه الرسالة المطولة التي وصلت إلى السيوطي في شوال سنة ٨٩٨ هـ أهل بلاده في زمنه بأن فيهم من يعمر المساجد ، ويتلو القرآن والعلوم ومع ذلك يعبدون الأصنام ويذبحون لها .

وأن فيهم من توحيده بالفم ولايعرف حقيقة التوحيد . وأنه قد شاع بينهم التكسب بالطلسمات ، وادعاء المكانة عند الله ، وجلب النفع ودفع الضر ، وأن من بينهم من الفقهاء من عادته ترك القرآن والسنة وأخذ الرسالة (٢) حتى عادوا من

---

(١) يرجع إلى الحاوي للفتاوي ، تأليف : جلال الدين السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي ، دار الكتب العلمي ، بيروت ط٢ ١٤٠٢ هـ جـ ١ص ٢٨٤ - ٢٩٠ .

(٢) يريد رسالة ابن أبي زيد القيرواني .

يفســـر القرآن ، وإذا سمعوا آية تتلى لتفسير نفروا عنها نفرة الحمر الوحشية (١) ويقول : (وفي بلادنا كتب يذكرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقاويل ليست في الموطإ ولا في الصحيحين وليس عندنا من يعلم ذلك فما يفعل فيها) (٢) • ؟

إن هذه الرسالة مع شمولها ودقة وصفها لجميع مناحي الحياة العلمية والفكرية والاجتماعية ، والسياسية لايوجد فيها ذكر للمسائل العقدية التي تصنف أو تنسب إلى مذهب كلامي أو منهج فكري معين معروف ، الأمر الذي يؤكد أن هذه البلاد الموريتانية وإلى نهاية القرن التاسع الهجري لاتعرف هذه المذاهب الكلامية لا الأشعرية ولاغيرها ، وإنما يعتمدون على الكتاب والسنة كالصحيحين والموطإ ، أو الرسالة لابن أبي زيد لقيرواني •

فلو كانت عندهم كتب تؤخذ منها العقيدة غير هذه لذكرها صاحب هذه الرسالة ، حيث إنه ذكر كتبا أخرى فقهية وغير فقهية وسأل عنها وعن حكم العمل بمالم يتأكد من صحته من الأحاديث المنسوبة للنبى صلي الله عليه وسلم ككتاب الشهاب (٣) •

وسأل عن أحكام فقهية في وقائع معيشة • ووضح ماعليه بعض الناس من الانحراف والدجل والخرافة والشعوذة التي من أهم أسباب انتشارها ماكانت عليه البلاد آن ذاك من الفوضى والتسيب (٤) •

وبعد هذه الفترة الزمنية التي وصفتها هذه الرسالة نجد كتبا عقدية دخلت البلاد ، وزاحمت الكتاب والسنة ثم رسالة ابن أبي زيد القيرواني في مشرب العقيدة الإسلامية الصافيــة في هذه البلاد ، وظهــر في بعض المدارس علمــاء يوصفـــون بأنهـــم

---

(١) يرجع الحاوى للفتاوي جـ ١ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ •

(٢) الحاوى للفتاوى ١ / ٢٩٠ •

(٣) كتاب الشهاب أو مسند الشهاب ، تأليف : القاضي أبي عبد الله بن سلامة القضاعي ، حققه وخرج أحاديثه : حمدي عبد المجيد السلفي مؤسسة الرسالة ط ١ سنة ١٤٠٥ هـ انظر ترجمة القضاعي في الجزء الاول ص ٧ ومابعدها •

(٤) يرجع إلى الرسالة المذكورة وجواب السيوطي عليها المسمى : فتح المطلب المبرور وبرد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور ، الحاوي للفتاوي جـ١ ص٢٨٤-٢٩٤ •

أشاعرة أو متكلمون وخاصة في جهة القبلة (١) حيث العناية بعقائد السنوسي وهو : محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني ، ترجمه الشيخ أحمد بابا التينبكتي في نيل الابتهاج ترجمة مطولة وأثنى عليه كثيرا وذكر (أنه ألبسه إبراهيم التازي الخرقة وحدثه بها عن شيوخه وبصق في فمه) وذكر مؤلفاته التي منها عقائده الثلاثة الصغرى والوسطى والكبرى وبالغ في نقل الثناء عليها (٢) • وكانت وفاة السنوسي سنة ٨٩٥ هـ •يذكر صاحب الوسيط أن أهل القبلة منهم من يدرس العقائد الأشعرية ، وبمضى سنين عديدة في إتقان تاليف السنوسي حتى لايبقى عليه منطوق ولامفهوم ليصير عندهم مؤمنا حقيقة وإلا فإنه إذا كان لايقدر على معرفة أنواع الصفات وتعيينها (٣) بالألفاظ المتداولة عندهم فهو عرضة للكفر (٤) •

---

(١) هذه تسمية معروفة الآن للناحية الغربية من بلاد موريتانيا مما يلي المحيط الأطلسي ، وقد رأيت القاضي عياضا أطلقها على تلك الناحية أيضا فقال في ترتيب المدارك جـ ٨ ص ٨٢ (واستقامت للمرابطين بلاد الصحراء بجملتها وماوراءها من بلاد المصامدة و القبلة و السوس ••) وأطلقها صاحب الوسيط حسب المعروف أيضا - الوسيط ص ٥١٨ •

(٢) يرجع إلى كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، تأليف : أبي العباس سيدي أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت عرف ببابا التينبكتي • ط بهامش : كتاب الديباج لابن فرحون المالكي • دار الكتب العلمية • ص ٣٢٥ - ٣٢٩ •

(٣) وأنواع الصفات على التقسيم المشار إليه هي :

الصفة النفسية : وسميت نفسية لأن الوصف بها دل على نفس الذات دون معنى زائد عليها • وهي : الوجود والصفات السلبية وسميت سلبية لأنها لا وجود لها في الخارج وإنما هي نفي محض نفى بها أضدادها عن الله تعالى وهي : القدم والبقاء ومخالفته تعالى للحوادث، وقيامه تعالى بنفسه والوحدانية • وتمسى صفات تخلية • وتذكر بعدها صفات التحلية وتسمى صفات المعاني وهي : القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام • وحقيقة صفات المعاني هي الصفات الوجودية فهي كل صفة موجودة في نفسها قائمة بموجود أوجبت له حكما • وتذكر معها صفات تتعلق بها عند بعضهم أو ملازمة لها وهى الصفات المعنوية وهي كونه تعالى قادرا ومريدا وعالما وحيا وسميعا وبصيرا ومتكلما ، فتلك عشرون صفة •

يرجع في تقسيمها إلى : عقيدة أم البراهين للسنوسي ، وشرحها لأحمد بن عيسى الأنصاري ، المكتبة الثقافية بيروت ، ص ١٠ ومابعدها • وشرح الداه محمدبن أحمد الشنقيطي لإضاءة الدجنة للمقري ، مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة ص ٢٠ و ٢٤ . ٤٣ •

(٤) الوسيط ص ٥١٨ •

وقد نقلت عن الأستاذ حمدا ابن اتاه - وهو من أهل هذه المنطقة (القبلة) ومن مدرسة أحمد بن العاقل التي تخرج منها الشيخ المختار بن بون (١) ودرس على أخت مؤسسهاخديجة بنت محمد العاقل العقائد والمنطق حتى وصف بعد مجادلة اليعقوبيين له بأنه إمام المدرسة الأشعرية • (٢)

نقلت عن الأستاذ المذكور : أنهم يقولون : عقيدتنا (تنطق الرسالة) يريدون قول ابن أبي زيد القيرواني في الباب الأول من الرسالة

(باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات) (٣)

وأضاف الأستاذ حمدا في مقابلتي معه في انواكشوط في ٢٣ / ٨ / ١٤١٠ هـ أنه لا بأس عندهم في هذه المنطقة بالتوسع والتبحر في دراسة العقائد الأشعرية ، وبين أن هذا خاص بالدراسة للمتعلم في المحاضر حيث إن المنهج المحضري له السيطرة في هذا المجال •

أماغير الدارسين المتعمقين فلن عقيدتهم الموروثة هي : (الايمان والتسليم) وأكد ذلك بأن مدرسة أهل حبيب الرحمن من أهل القبلة يحرمون قراءة هذه العقائدالأشعرية من القديم وحى الآن •(٤) وأما المناطق الموريتانية الأخرى فإن أهلها

---

(١) هو المختار بن السعيدالمعروف بابن بون المتوفى سنة ١٢٢٠هـ في مكان بتكانت يسمى بالتيبراتن - انظر ترجمته في فتح الشكور ص ١٤١ والوسيط ٢٧٧ وما بعدها •
وخديجة بنت محمد العاقل الديمانية عالمة جليلة وشيخة محضرة عاشت في القرن الثاني عشر الهجري • انظر : بلاد شنقيط المنارة والرباط ص ٥١٢ •

(٢) يرجع فيه إلى المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني ، رسالة ماجستير من جامعة الملك سعود بالرياض أعدها : محمد الصوفي بن محمد الأمين ، نوقشت في ١٦-٩-١٤٠٦ هـ ص ٨٤ - ٨٥ •

(٣) الرسالة الفقهية للشيخ أبي محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني المتوفى سنة ٣٨٦ هـ تحقيق الهادي حمد وزميله - دار الغرب الاسلامي ط ١ - ١٤٠٦ هـ ص ٧٥ •

(٤) ملف الرحلة العلمية •

كما قال صاحب الوسيط يبدؤون بكتاب الأخضري : (وهو عبدالرحمن ابن سعيد الأخضري المتوفى سنة ٩٥٣ هـ وكتابه : مختصر في العبادات قدم له بمقدمة مهمة في الآداب الإسلامية الواجبة ، ويعتبرمن دعاة الإصلاح في الجزائر ، وقد انتشرت كتبه في النواحي الوسطى والشرقية من موريتانيا وأفاد الناس منها كثيرا (١) .

يقول صاحب الوسيط : (أما أهل آدرار وتكانت ومن حذا حذوهم ، فإنهم يبدأون بالأخضري وابن عاشر (٢) والرسالة) (ولكل جهة اعتناء ببعض العلوم أكثر من غيرها) (٣) .

وقد نقلت عن كثير من مشايخ العلم أنهم يتركون تدريس مقدمة ابن عاشر للمبتدئين لما اشتملت عليه من القضايا المنطقية والعقائد الأشعرية ، وهم بهذا يعملون بالنصيحة التي أوردها التشيتي في كتابه (منن العلي الكبير) يقول في النصيحة المذكورة:

(وبعد فأقول لمن سيقف عليه من الإخوان والتلاميذ وأنصحهم وأحذرهم أن يخوضوا في براهين علم الكلام حتى يمارسوا العربية والقرآن والحديث ليكونوا على أمن من الاضطراب في متسع آفاق تلك الشبهات) (٤) .

ومع هذا فإن الذي يجزم به أكثر الكتاب المعاصرين عن موريتانيا هو أنها أشعرية المعتقد على العموم أو على الغالب كغيرها من معظم أقطار البلاد الإسلامية .

---

(١) تراجع ترجمته في ندوة الحركة السلفية في المغرب العربي ط المغرب ص ١٥٠ وما بعدها .

(٢) ابن عاشر هو أبو محمد عبدالواحد بن عاشر المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ وكتابه هو المرشد المعين على الضروري من علوم الدين نثر ونظم وقد شرح النظم منه ميارة وهو محمد بن أحمد مياره المالكي . انظر الدر الثمين والمورد المعين - وهو الشرح المذكور ، دار الفكر ص ٢ - ٥ والشارح من تلاميذ أحمدالمقري أنظرص ٥٠ - ٥١ .

(٣) الوسيط ص ٥١٨ .

(٤) نقلا عن : بلاد شنقيط المنارة والرباط ص ١٩٥ .

وهم في ذلك منطلقون من المقررات المحضرية ، والكتب الأشعرية المعتمدة لدى بعض عمداء المحاضر ، وكذلك مؤلفات شيوخ علم كبار في موريتانيا صرحوا في مقدماتها أنهم أشاعرة أو أنهم جمعوا فيها مؤلفات أشعرية معروفة (١) ٠

فمن هذه المؤلفات التي صرح أصحابها بأشعريتهم إضاءة الدجنة لأحمد المقري وهي نظم لعقائد السنوسي الآنفة الذكر ، صرح في أول بيت منها أنه أشعري فقال: (يقول أحمد الفقير المقري المغربي المالكي الأشعري) (٢)

وقد نظم عقائد السنوسي وأضاف إليها من علماء موريتانيا الشيخ المختار ابن بون وسمى نظمه : وسيلة السعادة حيث قال :

(سميتـــه وسيلة السعاده في نشر ماتضمن الشهاده
نظما حوى عقائد الشريف محمد السنوسي الظريف) (٣)

وبهذا النظم اعتبر ابن بون من شيوخ المدرسة الأشعرية الكلامية وبدفاعه عن منهج المتكلمين كذلك (٤) ٠

ويأتي نظم ابن عاشر في المرتبة الثالثة في الأثر بعد هذين الكتابين المذكورين ، وابن عاشر يبدأ نظمه بقوله بعد الحمد والثناء على الله تعالى : -

(وبعد فالعون من الله المجيد في نظم أبيات للامي تفيد

---

(١) يرجع إلى : كتاب شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون ، تأليف يوسف مقلد ، الدار البيضاء ، بيروت - ط ١ سنة ١٩٦٢ م ص ٣٣٧ - ٣٣٨ ٠ وفتح الشكور ص ١٠ والمحاضر الموريتانية ص ٨٤ - ٨٥ وبلاد شنقيط ص ١٩٥ ٠

(٢) إضاءة الدجنة - مرجع سابق ص ٢ و ١٠٢ ٠

(٣) وسيلة السعادة مخطوط خاص ص ٦ المقدمة ٠

(٤) يرجع إلى جذوة الأنوار في الذب عن أولياء الله الأخيار ، تأليف : الشيخ سيدي المختار الكنتي- مخطوط خاص ص١-٢ و٢٠ وما بعدها ٠ والمحاضر الموريتانية ص ٨٤ - ٨٥ ٠

في عقد الاشعري وفقه مالك   وفي طريقة الجنيد السالك) (١)

فمن اعتماد هذه المؤلفات في المدارس والمحاضر الموريتانية أخذ من عمم الأشعرية على البلاد تعميمه ، وأخذ من غلبها تغليبه .

ولكن إذا نظرنا إلى هذه المؤلفات وغيرها من الأنظام والمختصرات الموجودة الأخرى نجد أنها ألفت في أواخر القرن التاسع الهجري إلى القرن الثاني عشر الهجري ومابعد ذلك والعقيدة في موريتانيا كما رأينا في العصور المتقدمة منذ دخول الإسلام كانت سلفية حتى وردت كتب السنوسي وما نظمت به من أنظام داخل البلاد وخارجها . لذا فأثرها العقدي مقصور على من درسها ، على أن الإمام محمد بن البوصيري (بداه) أخذ من الكتابين الذين يعتبرهما بعض عمداء المحاضر الموريتانية عمدة للمنهج العقدي الأشعري للنابهين من الطلاب - وهما : إضاءة الدجنة . ووسيلة السعادة - أخذ منهما ما استدل به على أن ناظميهما يذمان علم الكلام وذلك من قول الأول : وهو المقري :

(وذو احتياط في أمور الدين   من فر من شك إلى يقين) (٢)

ومن قول الثاني وهو ابن بون :

(وأن الاورع الذي يخرج من   خلافهم ولو ضعيفا فاستبن)(٣)

وهذا نص كلام الإمام بداه : (ومما حملني على الاحجام عن تعاطي علم الكلام العمل بموجب قول أحمد المقري في إضاءته التي عليها الاعتماد في بوادي وحواضر هذه البلاد :

(وذو احتياط في أمور الدين   من فر من شك إلى يقين)

لأن من فر إلى هدي أهل القرون المحمودة عمل بالاحتياط في الدين في رأي تبعا لرأي أجلاء العلماء ، والعمل أيضا بموجب قول الشيخ ابن بون في الوسيلة :

---

(١) الدر الثمين والمورد المعين ص ١١ .

(٢) إضاءة الدجنة ص ١٥ .

(٣) الوسيلة ص ٧ .

(وأن الاورع الذي يخرج من خلافهم ولو ضعيفا فاستبن)

فكيف إذا كان هدي أهل القرون المحمودة الموافق لهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠) (١) ٠

فالتحذير من علم الكلام أو النصيحة بتأخيره في المنهج الدراسي يدل على اعتباره أمرا زائدا على الاعتقاد المطلوب ، إذ قد يتخرج الطالب ولم يدرس شيئا من الكتب التي اشتملت على علم الكلام ٠

ونخلص من هذا إلى أنه ليس من الصواب - حسب هذه الدراسة - إطلاق القول بأن الأشعرية دخلت المغرب بكثرة وانتشرت أكثر في القرن الخامس الهجري قرن المرابطين ، وأنهم لم يحاربوها كما قال الدكتور علي سامي النشار(٢) ٠

وليس من الصواب أيضا إطلاق القول بأن الأشعرية فرضها المهدي بن تومرت مشربا عقديا في المغرب وبقي الناس عليها إلى اليوم كما قال الأستاذ الخليل النحوي (٣) ٠

وأقل صوابا منهما القول بسيادة العقيدة الأشعرية في موريتانيا (٤) للأمور الآتية :

١ - أما قديما فلما تبين من تمسك البلاد بعقيدة السلف الصالح في عهد المرابطين ، ولأن صاحب القول نفسه قال : (والغريب أن المرابطين لم يأخذوا في المغرب بالمذهب الأشعري حتى إنه كان أداة في أيدي خصومهم) (٥) ٠

٢- وأما في عهد الموحدين فإنه تبين كذلك أن الذي نشروه هوخليط من عقائد الفرق الإسلامية المتصارعة في الشرق ، ومن الخطأ نسبته للأشعرية فإن نسبته

---

(١) الدر النضيد في علم الكلام وحقيقة التوحيد ، تأليف : محمد بن البوصيري ، الملقب ببداه ٠ مخطوط خاص ص ٣ ٠

(٢) مقدمة كتاب السياسة ص ٢٨ ٠

(٣) بلاد شنقيط ص١٩٧ ٠

(٤) نفسه ٠

(٥) نفسه ٠

إليها على مافيها يعد ظلما لها • وعليه فمن أخذ به على أنه هو المذهب الأشعري وطريقة أبي الحسن في الكلام سيتبين له أنه مخلط ولا يستقر على شيء أو على قول ثابت ، وانما سيجد نفسه يحكي أقوالا كثيرة لا ترجع إلى أصل واحد قال قوم، وقال آخرون وقد لاحظ الأستاذ إحسان عباس أن المقري صاحب إضاءة الدجنة : يميل إلى المهدي ابن تومرت في مؤلفه : الجمان من مختصر أخبار الزمان (١) • وكان يقال لسنوسي : شيخ الموحدين

٣- أنه تبين أنه لايوجد أثر في بلاد موريتانيا للموحدين حيث إنه لم تكن لهم سلطة أو احتكاك بالمنطقة •

٤- أنه من المعروف أن موريتانيا بعيدة من الصراعات والتعصبات العقدية والمذهبية التي تساندها السلطة أو تتعصب لها الدول ، لذا فلم يعرف في البلاد من الصراعات مايذكر في جانب العقائد إلا ماحصل بين أفراد من الفقهاء لادافع وراءه إلا الدفاع عن المعلومات الشخصية •

٥- وأما قيام الصراع العنيف بين الشيخ المختار بن بون والشيخ سيدي المختار الكنتي من جهة وبينه وبين اليعقوبيين من جهة أخرى واتهامهم جميعا له بالعمل على توهين الدين والابتداع فيه بنشره لعلم الكلام والمنطق في البلاد ، فإن ذلك دال على أن هذه العقائد التي نظمها المختارجديدة على البيئة ولا أصل لها فيها (٢)، وإن كان بعض العلماء يرى أن الحق كان مع ابن بون في المسائل التي خالفه فيها المجيدري (٣) وأن ابن بون واليعقوبيين اصطلحوا وتسامحوا فإن ذلك لاينافي . إن كان صحيحا. اعتراضهم على مانشره من علم الكلام وقولهم له :

---

(١) تحقيق إحسان عباس لنفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تأليف : الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني - دار صادر بيروت ج ٨ ص ١٣ •

(٢) جذوة الأنوار ص ١ ، ٢٠ و ٣٩ •

(٣) تأتي ترجمته إن شاء الله - وهو محمد بن حبيب الله المجيدري • انظر الوسيط ص٢١٤ وما بعدها •

(ماالدين إلا الذي تسعى لتوهنه | آي النبي وآثار الهدي العتـــق
لاكل خبط عن اليونان مبتــدع | قد دس بين أصول الدين مختلق
تحمي قواعد رسطا ليس تحسبها | دينا لك الويل نبهناك فاستفق) (١)

ولعل الصلح المذكور بينهم حصل بعد موت المجيدري لأنه مات في حياة ابن بون وظل يذكره بالسوء بعد موته (٢) • وكذلك ماذكر من صلح بينه وبين الشيخ سيدي المختار الكنتي على ماسيأتي تفصيله عند ترجمة الأخير • والذي يظهر لي أن رسالة المجيدري التي ضمنها مجموعة من الأسئلة موجهة إلى المتكلمين المعتمدين على العقول في أصول العقائد بقيت بلا جواب وحتى الآن (٣) •

٦- أنه من المعروف عدم تساوى المتعلمين من أهل البلاد في دراسة العقائد وغيرها ، فكيف يعمم على من لم يدرس العقائد الأشعرية أنه أشعري المعتقد ؟ أم كيف يعمم على عوام الناس أنهم أشاعرة وهم لم يدرسوا هذه العقائد ؟ وكذلك كيف يعمم هذا الحكم على طلاب العلم الصغار الذين يكتفون بمقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني في العقيدة ، أو بعض الأنظام القصيرة في مجرد عقيدة التوحيد •

---

(١) الوسيط ص ٢١٧ •

(٢) الوسيط ص ٢١٥ •

(٣) انظرها في آخر الدر النضيد ص ٤٦ وما بعدها •

التفصيل هو الأولى

إنه يمكن أن يقال بشيء من التفصيل أنه وجد في موريتانيا جماعة من العلماء أتقنوا علم الكلام ودافعوا عن معلوماتهم أو عن علماء ينتسبون إلى المذهب المالكي أو الإمام أبي الحسن الأشعري أو الباقلاني ، وأمثالهم - ويظهر لي والله أعلم - أن حبهم لهم ودفاعهم عنهم إنما هو بسبب حبهم وتعصبهم للمذهب المالكي الذي ينتمون اليه جميعا لا للمذهب الأشعري الكلامي أساسا (١) .

كما وجدت هذه الجماعة فإنه كان في البلاد وظل حتى اليوم علماء يدافعون عن مذهب السلف ، ويلتزمونه ، سواء قلناإنهم بقايا المرابطين أو سميناهم أهل الحديث والأثر كما سمى بعضهم نفسه بذلك .

وفيهم أيضا حفظة قرآن كثيرون لايعرفون عقيدة زائدة على تلاوته والإيمان بما فيه حيث إنه (من بين خمسة أفراد من أهل موريتانيا أربعة يحفظون القرآن الكريم) (٢)

وفيهم أيضا عامة الناس وهم الكثرة لايحكم لهم بالأشعرية ولا بغيرها من المذاهب الكلامية الأخرى : وإنما يحكم لهم بالفطرة الإسلامية والإيمان بالكتاب والسنة والتصديق لما جاء به النبي صلى الله عيه وسلم جملة .

وفي هذا التفصيل مزيد بيان لما استخلصه الأستاذ الخليل النحوي عن مشارب الشناقطة في العقيدة حيث يرى أنهم ذهبوا في مشاربهم الفكرية في اتجاهات ثلاث هي باختصار :

---

(١) يمكن أن يرجع إلى : ندوة الإمام مالك ، إمام دار الهجرة ، علماء شنقيط والمذهب المالكي - الجزء الأول ص ٢٢٥ - ٢٥٥ . ومقدمة تحقيق قانون التأويل ، تأليف القاضي أبي بكر بن العربي - تحقيق محمد السليماني ص٣٩ - ٤٠ ومابعدها . ط١ جدة سنة ١٤٠٦ هـ .

(٢) انتشار الإسلام ، وأشهر مساجد المسلمين في العالم ، تأليف : محمد كمال حسين ط ١سنة ١٩٧٦ م ص ٩٠ .

١- اتجاه أشعري عقلاني متوسع في مذهبه يؤمن بالمنطق الصوري ، وعلم الكلام المنطقي ، وتمثله مدرسة المختار بن بون ٠

٢- اتجاه سلفي نصاني يعادي علم الكلام والمنطق اليوناني ، متأثرا بالوهابية والظاهرية يمثله المجيدري اليعقوبي ٠

٣- اتجاه صوفي قوامه التبحر في العلم والاستقامة في السلوك ، ويمثله الشيخ سيدي المختار الكنتي (١) ٠ قلت : ومع أن استخلاص الأستاذ الخليل غير دقيق من جهة فإنه يقتصر على أفراد من علماء القرن الحادي عشر والثاني عشر والخلافات بينهم مشهورة ومذكورة وسيتبين إن شاء الله فيما يأتي من البحث مدى صحة حكمه على الصوفية ٠

---

(١) بلاد شنقيط ص ١٩٦ - ١٩٧ ٠

المبحث الأول

دخول القادرية إلى موريتانيا ومراكزها الأولى

لقد عرف المغرب بصفة عامة منذ عهد التابعين عبادا وزهادا ، ومرابطين في الثغور ، ونسبت إليهم الكرامات والخوارق .

وساحوا في الأرض ناشرين للإسلام وداعين للزهد والصلاح بحالهم ومقالهم ، وقد تولت كتب الطبقات والتراجم تسجيل أخبارهم وأحوالهم وأقوالهم مما أبقى صور حياتهم يتأسى الناس بها ، ويعملون جاهدين ليصلوا إلى ماوصلوا إليه من الزهد والصلاح أو لطلب الخوارق والكرامات التي نسبت إلى أولئك .

وظل الأمر قاصرا على ذلك حتى جاءت الإسماعيلية إلى المغرب فأدخلت في عقول هؤلاء العباد والزهاد أفكارا وعقائد لم تكن من قبل من مقصودهم ، ولا من علومهم وكان ذلك تطورا خطيرا في هذا الاتجاه (١) .

وتعاقبت على المغرب دول كثيرة ووقعت فيه صراعات زادت من ميل الناس إلى العزلة والاعتكاف في الكهوف والأربطة والزوايا ، وانتشرت هذه المراكز شيئا فشيئا حتى وصلت إلى الأرياف والبوادي البعيدة .

وقد دخل الفقهاء في صراع مع كل من يظهر منه غلو في ذلك الاتجاه سواء بالفعل أو بالقول (٢) ولم يعرف المغرب الطرق الصوفية إلا في أواخر القرن السادس الهجري ، في عهد الدولة الموحدية ، حيث انتشرت كتب الغزالي وغيره من شيوخ التصوف في الشرق فنشأ عليها شيوخ في المغرب والأندلس ، وعملوا على شرحها ،

---

(١) يرجع إلى : الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال افريقياحتى قيام دولة المرابطين ، تأليف : السيد محمد أبو العزم داوود ، المكتبة الفيصلية ، ١٤٠٥ هـ ص ٣٤٧ - ٣٥١ ومقدمة ابن خلدون ص ٥٧٦ - و ٨٧٥ .

(٢) الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

والدعوة إلى مافيها وتدريسها لطلابهم فتكون على ذلك طوائف من الناس تأثرت بالطرق الصوفية في المشرق الإسلامي ، فأنشأت على غرارها زوايا في المدن والأرياف ٠

واعتقد الناس في شيوخ تلك الزوايا والحضرات اعتقادات مغالية ، فيها الكثير من الانحراف والبعد عن المنهج الإسلامي في العقيدة والسلوك ، وذلك لقلة علم القائمين عليها من جهة ولبعدهم واعتزالهم للعلماء من جهة أخرى ٠

ثم لاكتفاء مريديهم بالأوراد والوظائف التي وضعها لهم الشيوخ ، ولغناهم بما تدر عليهم به العامة من الهدايا والأعطيات والقرابين ، وبما يجبونه هم أنفسهم من الناس حتى صارت لهم ثروات ومكانة في نفوس الناس ، وهيبة أضعفت في المقابل من مكانة العلماء وهيبتهم وقللت من قيمة ماعندهم من العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فزاد ذلك كله من إقبال الناس على تلك الأربطة والزوايا حتى اعتقد فيهم أفراد من أهل العلم فاتبعوهم وظهر فيهم علماء يعتقدون فيهم فأخذوا يضعون لهم كتبا في طبقات شيوخهم ومناقبهم وينسبون لهم من الأمور مالايصح جله شرعا ولا عقلا ٠

واستمرت هذه الموجة عبر الأرياف والصحراء التي كانت مفتوحة لدخول أي مذهب أو دعـوة (١) ٠

ومادامت الصحراء مفتوحة والطرق الصوفية منتشرة وشيوخها متنافسون في نشرها فإنه من العسير جدا تحديد دخولها إلى بلاد موريتانيا تحديدا دقيقا وتحديد أول تلك الطرق دخولا ٠ ولكن قد نقترب بالبحث والتتبع الى أوائل ظهورها ومعالم انتشارها رغم ندرة المصادر التي تورخ لهذه البلاد (٢) ٠

---

(١) يرجع إلى : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ص ٣٧٨ - ٣٩٤ ٠

(٢) نفسه ص ٤٠٥ وما بعدها ٠

لقد دخل الصحراء الموريتانية دعاة إلى الاسلام وسواح من العباد والزهاد ومهاجرون من فتن في بلاد المغرب (١) . وقد تتبع سيدي محمد الكنتي (الخليفة) في كتاب الغلاوية هجرات أجداده من إفريقية (بتونس) منذ قيام دولة العبيديين بها ، حيث ذكرأنهم ظلوا يعيشون بين ارتحال وإقامة حتى وصلوا إلى (اتوات) ثم الصحراء الغربية فولاتة فتنبكتوفأ زواد (٢) .

وأنه كان فيهم دائما عالم ومرب ينشر الاسلام ويوزع تلاميذه من أجل ذلك في الأرياف والبوادي (٣) .

ومن أشهرهم في ذلك سيدي يحي بن سيدي عثمان الذي قال عنه : (إنه كان عالما حافظا ورعا زاهدا مربيا تخرج على يده جماعة ففرقهم في القرى والمدن للارشاد والتربية) (٤) .

قال :(ثم خلفه ابنه سيدي علي وكان قطبا علامة مربيا قدوة يهتدي بهديه .. وأنه كان يخرج إلى المرابطين يأخذون عنه الأوراد ويستمدون منه الأمداد) (٥) .
قلت: وفي هذا النص عبارات صوفية ظاهرة مثل القطب والأوراد والاستمداد

وهذا لايعني أن ذلك بداية عصر إنشاء الطرق الصوفية في موريتانيا لأنها من كلام سيدي محمد الذي هو من مشايخ الطرق لامن كلام سيدي علي المتقدم . قال : (ثم إن سيدي محمد الكنتي الكبير بن سيدي علي المذكور سابقا تربى في أخواله من

---

(١) فتح الشكور في أعيان العلماء التكرور ص ٣٠ و ١٠٠ وغير ذلك مما ذكر فيه ورود صلحاء على البلاد .

(٢) الغلاوية ص ٦٣ - ٦٤ .

(٣) نفسه ص ٦٢ - ٧٣ .

(٤) نفسه ص ٦٢ - ٧٣ والمنة في اعتقاد أهل السنة للمختار الكنتي ص ٤٦ وما بعدها .

(٥) نفس المرجع ص ٦٤ .

المرابطين في الصحراء حيث حفظ القرآن ومهر في سائر الفنون وتربى على أيدي جماعة منهم الإمام أبو العباس السبتي حيث صحبه في سبتة وتخرج على يديه ودعاه بالقطبية ورجع إلى الصحراء فأقام مابين (تيرس) إلى الساقية الحمراء فاستوطنها بمن معه من تلاميذه .) (١) ... ثم خلفه ابنه الشيخ سيدي أحمد البكاي الذي قال عنه : (الغوث العلامة النحرير الفهامة المربي المجدد المسلك المسدد) (٢) .

وذكرأنه خرج في السياحة حتى وصل إلى (ولاتة) مع بعض تلاميذه حيث ذكرت له فيها كرامات ومناقب كثيرة ، من أعظمها (عندي) أنه أخذ عليهم العهد بالحجاب والاستئذان واتباع السنة وعدم مخالفته في ذلك (٣) .

فاستقاموا له على ذلك وصار لهم عادة حسنة إلى يومنا هذا .

ومن المعلوم أن ولاته كانت قبل ذلك مدينة فاسدة لايقدر الرجل على منع زوجته من اتخاذ أخدان السوء فيها ، كما قال سيدي المختار الكنتي (٤) وابن بطوطة قبله في رحلته (٥) .

ونجد في أيام الشيخ سيدي أحمد البكاي المتوفى في ولاته في حدود سنة ٩٢٠هـ (٦) رسالة مطولة من محمد بن محمد بن علي اللمتوني موجهة إلى السيوطي يصف له فيها أوضاع قطره موريتانيا (بلاد التكرور) ويسأله عن بعض المسائل المتعلقة بما في بلاده . ويفهم من هذه الرسالة وجود نوع من السلوك والصوفية وإن كنا

---

(١) نفسه ص ٦٥ وقال : (وهو خاتمة السلف وعين أعيان الخلف .)

(٢) نفسه ص ٦٧ وما بعدها .

(٣) المنة في طريقة واعتقاد أهل السنة ، تأليف : المختار الكنتي ، مخطوط خاص ص٤٦-٤٧.

(٤) نفسه .

(٥) رحلة ابن بطوطة ، تحقيق طلال حرب ، دار الكتب العلمية ط ١ ، ١٤٠٧ هـ ص٦٨- ٦٨٨.

(٦) الغلاوية ص ٧٠ وذكر في الطرائف والتلائد ص ١٢٥ انه توفي جزما في عام ٩١١ هـ .

لانجد لهم ذكرا بهذا الاسم ولا نسبة إلى شخص معين كشيخ قادري أو شاذلي مثلا في هذه الرسالة ٠

ومما جاء فيها أن في البلاد من عادته بناء المساجد وتلاوة القرآن والعلوم والمدائح والحج ومع ذلك يعبدون الأصنام ويذبحون لها وعندهم طلسمات للنكاح ، ويزعمون أنهم ملوك الدنيا وأبناء الأنبياء ومنهم من اكتسابه بالطلسمات والرقى لباب المحبة والعين والعزائم للكشف عن السارق واللصوص ٠

ومنهم من ليس له عمل إلا تلاوة القرآن والحديث والعبادة ولزوم الخلوة وقراءة الرسالة والشهاب وأمثال ذلك ٠ ومنهم من يدعي أنه عالم أو ولي أو عابد ليخدم وليس كذلك (١) ٠ وفي هذا بعض مظاهر الصوفية من ادعاء المكانة عندالله والاشتغال بالغوامض والطلسمات ٠

وعلاقة الموريتانيين بالسيوطي علاقة وطيدة إذ كثيرمن أسانيدهم في العلوم عن طريقه وكذلك بعض أسانيدهم في التصوف كما سنرى فيما بعد إن شاء الله ٠

وهنا يمكننا القول بأن الصوفية وعلومها بدأت في الدخول إلى بلاد موريتانيا مع مطلع القرن العاشر الهجري ٠

ولكن من شيخ موريتانيا المباشر في التصوف ؟

أهو الشيخ سيدي أحمد البكاي أو أبوه محمد الكنتي الذي صحب في سبتة الإمام أبا العباس السبتي ؟ (٢) ٠

---

(١) الحاوي للفتاوي جـ ١ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ٠

(٢) الغلاوية ص ٦٥ إلا أننا لم نجد له ذكرا في أصحاب السبتي الذين ذكرهم صاحب التشوف ص٤٥١-٤٧٧ ٠ رغم أن الكتاب عند المختار الكنتي بدليل نقله منه في كتابه المنة ص ٣٨ ٠

أم أجداد محمد فاضل مثل سيدي يحي الصغير الذي ذكر أنه صحب الامام زروقا ؟ (١) ٠

أم الامام محمد بن عبدالكريم المغيلي الذي ذكر أنه لقي الإمام السيوطي في (مصراة) وأخذ عنه الورد القادري ؟ وقد ذكر السيوطي عن نفسه أنه وصل إلى بلاد التكرور ونشر علما هناك فيمكن أن يكون أخذ عنه غير واحد وقد قيل إن السيوطي والمغيلي تبادلا الأوراد القادرية على جهة التبرك ٠(٢)

إن عمدتنا في بيان أي هذه الاحتمالات أقرب إلى الصحة والواقع هي كتب المختار الكنتي وابنه سيدي محمد وبعض كتب التراجم مثل كتاب فتح الشكور أو الكتب الأجنبية التي ترجمت إلى اللغة العربية والتي اعتمد أصحابها على هذه المصادر السابقة أو المشاهدة والمشافهة ٠

وعند البحث في هذه المصادر نجد أن المختار الكنتي وابنه سيدي محمد يذكران ماكان عليه آباؤهما من صلاح وتربية ولا يسندان لهم سندا في الصوفية إلا عن طريق محمد بن عبدالكريم المغيلي التلمساني التواتي المتوفى سنة (٩٠٩ هـ) (٣)

ويذكرون أن الشيخ سيدي عمر الشيخ بن الشيخ سيدي أحمد البكاي صحب المغيلي ثلاثين سنة ، وسافر معه إلى الحج ، وأن أول لقاء بينهما تم عندما كان المغيلي داخلا إلى بلاد التكرور والمغرب الأقصى مقبلا من بلاد هوصى ٠ (٤)

---

(١) الضياء المستبين مخطوط ص ١٩٠ ٠

(٢) المنة في اعتقاد أهل السنة للمختار الكنتي ص ٤١ - ٤٢ ونظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي ، آدم عبدالله الالوري ، دار العربية بيروت ط ٣ - ١٤٠١ هـ ص ١٤٥ ٠

(٣) أنظر المنة ص ٤١ - ٤٢ ٠

(٤) يرجع إلى نفس المرجع ٤١ ٠

وعند الرجوع إلى ترجمة الامام محمد بن عبدالكريم المغيلي في نيل الابتهاج نجده يصفه بالإمامة والتحقيق واتباع السنة ، ومحاربة أعداء الدين ، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنه نشر العلم في أثناء تجواله في بلاد الهوسى وبلاد التكرور ، وأنه صاحب تآليف نافعة مفيدة في الدعوة إلى الله والفقه والحديث والتفسير والسياسة الشرعية والمنطق وغير ذلك (١) ٠

وأن من شيوخه الامام عبدالرحمن الثعالبي - وهو : عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المتوفى سنة ٨٧٥ هـ ٠

وأنه وقعت بين المغيلي والسيوطي مراسلة ومشادة شعرية في علم المنطق ، فالمغيلي يجيزه والسيوطي يحرمه ٠ (٢)

ومجرد المراسلة على رواية صاحب نيل الابتهاج لاتؤخذ منها الصحبة ، وأخذ الأوراد حسب المنهج الصوفي المعروف في السلوك والتسليك ٠

ثم إن المغيلي أستاذ المنطق في معاهد افريقيا ٠ والسيوطي يعيب المنطق ويحرمه وهذا تباين مرجح للقول بعدم أخذ أحد منهما عن الآخر لعدم اتفاقهما في المنهج ٠

ولكن هذا التباين لايمنع أنه حصل بينهما لقاء واتفاق في المنهج الصوفي ، وتبادل أخذ الأوراد القادرية ، وليس بعيدا اجتماع هذين الإمامين في بلدة مصراة بليبيا كما صرح الشيخ سيدي المختار الكنتي ، أو في بلاد التكرور كما عرف أن كلا منهما زارها (٣) ٠ وإذا أمكن اللقاء بينهما أو ثبت فلا يستبعد الأخذ إلا أنه من الأقرب إثبات أخذ المغيلي للأوراد عن عبدالرحمن الثعالبي ووضعه في السند القادري الذي

---

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج - مرجع سابق ص ٣٣٠ - ٣٣٢ ٠

(٢) نفسه ص ١٧٣ - ١٧٤ ٠

(٣) انظر مقدمة حسن المحاضرة للامام السيوطي جـ ١ ص ١٠ ونظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي ص ١٤٥ والإسلام والثقافة العربية في افريقيا ص ٢٥١ - ٢٥٢ ٠

أوردته كتب القادرية في موريتانيا ثم يكون السيوطي من الشيوخ الذين تبادل المغيلي معهم الأوراد القادرية على سبيل التبرك حسب المنهج الصوفي .

وهذا أمر مفهوم من نصوص الشيخ سيدي المختار الكنتي في المنة (١) والشيخ سيدي محمد الكنتي في الطرائف (٢) .

وتقديمهم للسيوطي في السند القادري على الثعالبي يؤخذ منه عدم الضبط الذي ينشأ عنه الحكم بضعف السند المذكور ، ثم إن الثعالبي رغم رحلته الطويلة في الشرق لم نجد في ترجمته ذكرا للسيوطي أو حصول لقاء أو تلمذة بينهما أثناء تلك الرحلة أو بعدها ، بينما نجد أن المغيلي تتلمذ عليه وأخذ عنه .

ولم نجد مصدرا خارجا عن مصادر شيوخ القادرية يذكر علاقة بين المغيلي والشيخ سيدي أحمد البكاي وابنه الشيخ سيدي عمر الشيخ .

والذين ذكرهم الشيخ أحمد بابا التنبكتي من الآخذين عنه بالإسم (٣) ليس فيهم من يشبه اسمه اسم أحد منهما ، ومع ذلك فإننا نغلب على الظن صدق الرواية القادرية ، ونقول بأن الشيخ سيدي أحمد البكاي هو أول من أدخل الورد القادري إلى بلاد موريتانيا ، ولكنه لم يعمل على نشره كثيرا حيث إنه ترك الأمر لابنه الشيخ سيدي عمر الشيخ الذي صحب المغيلي على ماتقدم ثلاثين سنة حتى مات المغيلي (٤)

وتذكر المصادر أن المغيلي أوصى عند موته تلاميذه بالتحول إلى هذا المريد الصادق الشيخ سيدي عمر الشيخ ، قائلا لهم : (إن كل ماكان معي من النفع والبركة قد

---

(١) المنة ص ٤١ .

(٢) الطرائف ص ١٣١ .

(٣) نيل الابتهاج ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٤) المنة ص ٤١ - ٤٢ .

تحول إليه ••• فلما مات الشيخ المغيلي استن بسنته سيدي عمر الشيخ في الدعوة إلى الله تعالى ، وإرشاد الضال وتعليم الجاهل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحيطة على الضعفاء والمساكين وزجر الطغاة •••) (١) •

ويضيف الشيخ سيدي المختار الكنتي (أنه عاش ١٤٠ عاما و ٤٤ يوما ومامات حتى بلغ القطبانية العظمى ، وتواتر عنه أنه كان ينظر إلى مابين العرش والفرش كما ينظر إلى الدرهم في كفه •) (٢)

وبهذه العبارات الصوفية الغالية التي ينسبها هذا الشيخ إلى جده نجد أننا دخلنا في عصر مـــن النشاط الصوفي المتنافس على إظهار المكانة عند الله أو ادعائها على الأقل (٣) •

ولاشك أن هذا الشيخ . الذي عمر كثيرا ووصف بالنشاط في نشر الطريقة القادرية - لاشك أنه كان من أول شيوخ القادرية في موريتانيا إن لم نقل بأنه أولهم مراعاة للروايات القائلة بأن والده الشيخ سيدي أحمد البكاي كان قادريا ، وأن الجد الرابع للشيخ محمد فاضل خرج من المغرب إلى الصحراء ، وأنه استقر في ولاتة في القرن العاشر الهجري (٤) • وأن سبب نزوله إلى البلاد كما يقول صاحب الضياء المستبين ، هو : تعلق قبيلة أولاد امبارك به وطلبهم منه العون يالحكم والأسرار في محاربة عدو لهم (٥) •

---

(١) المنة ص ٤١ - ٤٢ •

(٢) نفسه •

(٣) سيأتي إن شاء الله في فصل الولاية من باب العقائد نقد هذه العبارات وأمثالها •

(٤) يرجع إلى كتاب : كنتة الشرقيون ، تأليف : بول مارتي ، تعريب : محمد محمود ودادي ، ط دمشق ص ١٤٢ - ١٤٣ • وموسوعة التاريخ الإسلامي ، تأليف أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٣ - ١٩٧٨ م - ج ٦ ص ٢١٢ - ٢١٣ • والساقية الحمراء - محمد الغربي مصدر سابق • ص ٣١٣ - ١٣٢ •

(٥) المرجع المذكور ص١٨٩- ١٩٠ - وانظر خبر اولاد امبارك في الوسيط ص ٤٨٦ وما بعدها •

وعلى هذا يكون دخول هذين الشيخين القادريين إلى بلاد موريتانيا متقاربا أومتزامنا ، على أنه لم يعرف على وجه التحقيق مدى عناية أجداد الشيخ محمد فاضل بنشر الطريقة القادرية ، إلا أن صاحب الضياء المستبين على ما سيأتي في سلسلة الفاضلية ذكر أنهم كانوا شيوخ صوفية ٠

وبهذا العرض نكون قد اقتربنا من بيان ذلك الإجمال الذي نجده عند بعض الكتاب عن دخول القادرية إلى بلاد موريتانيا ثم افريقيا الغربية حيث إن (السير توماس و ارنولد) يقول في كتابه الدعوة إلى الإسلام : إنها دخلت البلاد على أيدي مهاجرين من توات (١) ، وتبعه على ذلك مع شيء من التفصيل كل من (الوثروب ستودارد) الأمريكي في حاضر العالم الاسلامي (٢) و(بول مارت) الفرنسي (٣) وأحمد شلبي في موسوعة التاريخ الإسلامي ٠ (٤)

وبهذا أيضا نكون توصلنا إلى أن القادرية دخلت البلاد الموريتانية في حدود مطلع القرن العاشر الهجري ، ونمت ببطء وخفاء ، كما تدل عليه المراجع التي تحت أيدينا عنها حتى تكونت لها مراكز انتشرت منها ، وبرز لها شيوخ دعوا إليها (٥) ٠

---

(١) المصدر المذكور ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وزملائه ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ ص ٣٦٥ ٠

(٢) المصدر المذكورجـ ٢ ص ٣٩٥ ٠

(٣) كنتة الشرقيون مصدر سابق ص ١٤١ وما بعدها ٠

(٤) المصدر المذكور جـ ٦ ص ٢١٢ - ٢١٣ ٠

(٥) الغلاوية ص ٧١ - ٧٢ ٠

مراكز القادرية الأولى

يحدد الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي المراكز الأولى لجانب كبير من القادرية الكنتية حيث يقول إن الشيخ سيدي أحمد البكاي : خرج من الساقية الحمراء مع بعض تلاميذه حتى وصل إلى ولاتة ، وأن ابنه الشيخ سيدي عمر الشيخ بعد وفاة شيخه الإمام المغيلي في توات ظل يعيش بطلابه ومريديه بين الساقية الحمراء وأزبار إلى الحمادة إلى أركشاش ، إلى واد الشب شرقي توات .

وأن متجرهم ومكيلهم سوس الأدنى إلى درعة وسجلماسة إلى توات ، فإذا كانوا بأركشاش وماوالاه سافروا إلى السودان فريق إلى قرية تينبكتوا ، وفريق إلى السودان الأكحل : كاشنة وكوبر وهوص (١) .

وكانت مراكز الفاضلية منطلقة من المغرب عبر الصحراء الكبرى إلى مدينة ولاته فالحوض الشرقي فبلاد السودان ، ثم أخذت في الانتشار بعد ذلك في شكل مراكز متعددة سيأتي ذكرها إن شاء الله (٢) .

ولا يخفي أنهم كانوا ينشرون طريقتهم في هذه الأماكن التي يسكنونها ، أو يتاجرون معها (٣) . ويذكر الشيخ سيدي المختار الكنتي عددا من الشيوخ العاملين على نشر القادرية من أجداده انطلاقا من المراكز المذكورة ابتداء من الشيخ .

---

(١) الغلاوية ص ٧٢ - ٧٣ والاماكن المذكورة موزعة الآن بين المغرب وموريتانيا والجزائر ومالي ونيجيريا - راجع الوسيط ص ٤٣٣ - ٤٣٤ و ٤٣٨ و ٥٦٩ - ٤٥٩ ، والدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني ، لحسن عيسى عبدالظاهر ط جامعة الامام محمد بن سعود بالرياض ١٤٠١ هـ ص ٩٧ و ١٣٢ وما بعدها .

(٢) الضياء المستبين ص ١٨٩ - ومابعدها . والساقية الحمراء ص ١٣١ وما بعدها .

(٣) الدعوة إلى الاسلام ص ٣٦٥ - ٣٦٦ وحاضر العالم الاسلامي ج ٢ ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .

سيدي أحمد البكاي المتوفى في ولاتة سنة ٩١١ أو ٩٢٠هـ وانتهاء بالشيخ سيدي الأمين الملقب بذي النقاب الذي خرجت بموته رئاسة المشيخة القادرية البكائية عن بيت الكنتي إلى أحد مريديه وهو : الشيخ سيدي علي بن النجيب بن محمد بن شعيب الشريف التكروري ، والذي منه أخذها الشيخ سيدي المختار الكنتي ، فكان ذلك امتدادا للبكائية (المختارية) فيما بعد .

وكان من أبرز هؤلاء المشايخ الذين ذكرهم الشيخ سيدي المختار الكنتي ، الشيخ سيدي أحمد بن الشيخ سيدي محمد الرقاد الذي بنى زاوية كنتة في توات .

ويذكر الشيخ سيدي المختار الكنتي أن أجداده من شيوخ القادرية في هذه الحقبة كانوا على جانب كبير من العلم والدعوة إلى الله ، مع امتلاك خزائن كتب كبيرة (١) .

---

(١) المنة ص٤٣ - ٤٦ وكنتة الشرقيون ص ١٤٩ - ١٥٤ .

المبحث الثاني :

الطرق الصوفية في موريتانيا عموما

تقديم :

عرفنا في المبحث السابق أن البلاد دخلتها الصوفية القادرية ، ورأينا مراكزها الأولى التي كانت تنطلق منها داعية لما عندها في تلك الصحراء المترامية الأطراف ، ولندرة المصادر عن هذه الحقبة من الزمن التي كانت بمثابة مرحلة نمو بطيء لايظهر فيها التنافس والتدافع الذي نشأ بعد ذلك فإنه من الأفيد للبحث العلمي أن يركز على دراســة من كان لهم الأثر الملموس في حياة الناس في حدود البلاد أولا وما جاورها ثانيا .

ومع قولنا إن مرحلة النمو كانت بطيئة ، وأن أثرها كان محدودا ، وأن المصادر عنها نادرة فإن نموها وأثرها ومصادرها كانت أسسا لانطلاقة كبيرة أثرت في حياة الناس بوجه عام وفتحت المجال أمام إنشاء طرق صوفية جديدة ابتداء من المختارية وما صاحبها أو تلاها من ولادة طرق جديدة متفرعة عنها أو مستفيدة منها فائدة ملموســة .

وفي موريتانيا حاليا طرق صوفية كثيرة أهمها : -

(١) المختارية : وسيأتي الكلام عنها بشيء من التفصيل إن شاء الله تعالى .

(٢) الفاضلية : وسيأتي أيضا الكلام عنها بشيء من التفصيل إن شاء الله تعالى .

(٣) الشاذلية : وهي من الطرق القادرية ، ولها في موريتانيا فروع أهمها : -

أ) المتالية . ب) الأغظفية .

(٤) التجانية : وهي أيضا تتصل بالقادرية وتتفق معها في كثير من الأمور ، وأهم فروعها في موريتانيا .

أ) الحافظية . ب) الحموية . (١) .

أما المختارية والفاضلية فالكلام عليهما يأتي إن شاء الله في الفصل الثالث الآتي بعد هذا الفصل .

وأما الطرق المذكورة بعدهما فإنها هي المقصودة أساسا بهذا المبحث حيث نتناولها بشيء من العرض والنقد بعد تمهيد حتى تتضح صورة النشاط الصوفي في محيط الدراسة بصفة عامة .

---

(١) يرجع إلى : بلاد شنقيط ص ١٢٢ - ١٢٤ وكنتة الشرقيون ص ١٥٣ - ١٥٤ .

التمهيد :

من القرن العاشر الهجري أخذ التصوف ينتشر في موريتانيا ، ويتوسع من خلال شيوخها إلى البلاد الافريقية المجاورة ، ومن أبرز انطلاقات التصوف في غرب إفريقيا ما حققته القادرية ، حيث يقول صاحب حاضر العالم الاسلامي : (ونجد القادرية في السودان أقساما منها القادرية البكائية والقادرية المختارية ، والقادرية أتباع زين العابدين ابن سيدي أحمد ، والقادرية أتباع الشيخ سيديا ، والقادرية الفاضلية جماعة الشيخ سعد بوه • فالسواد الأعظم من مسلمي السينغال وغامبيه وغينية والنيجر الأعلى هم قادرية من أتباع هؤلاء ، ثم في بلاد ولاتة : القادرية الرقانية أتباع الشيخ أحمد الرقاني ، وهم ثلاث فرق •) (١) •والثلاثة الأولى عبارة عن فرع واحد •

وتعتبر المختارية والفاضلية من أهم أصول هذه الطرق ، ولكل من هذين الأصلين فروع كثيرة استقلت أو كادت ، وإلى جوار هذين الأصلين وفروعهما طرق صوفية أخرى متصلة بهما اتصالا وثيقا في السند والأوراد والوظائف والمظاهر الصوفية الأخرى (٢) •

فمن هذه الطرق زيادة على ماذكر في موريتانيا : الشاذلية بفروعها والتجانية بفروعها والصديقية ، والخضرية والنقشبندية (٣) ، والثلاثة الأخيرة ليس لها وجود قوي يذكر •

---

(١) حاضر العالم الاسلامي جـ ٣ ص ٤٥-٤٦ قلت : والرقانية منسوبة إلى عبدالمالك بن عبدالله الركاني كذا اسماه صاحب فتح الشكور ، فلعل صاحب حاضر العالم الإسلامي وهم في اسمه • ، وهي ترجع إلى الشيخ محمد بن ناصر الدرعي فهي فرع من الشاذلية • ، وأول من أوصلها الى ولاته : سيدي مولاي زيدان بن سيدي محمد المتوفى سنة ١٢٠٢ هـ • انظر فتح الشكور ص ٩٧ - ١٠١ •

(٢) يرجع إلى : دائرة المعارف الاسلامية جـ ١٥ص ١٧٩ وحياة موريتانيا للمختار بن حامد ، مكتوب على الآلة الكاتبة جـ ١ ص ٨٠ وما بعدها • ونعت البدايات ص ٢٠١ - ٢٠٢ وندوة الحركة السلفية في المغرب العربي ص ٢٠٠ •

(٣) انظر بلاد شنقيط ص ١٢٢ - ١٢٤ •

ولذا فلا نزيد البحث بها أكثر من ذكرها لعدم وجودها أو اشتهارها في شكل طرق منظمة ينتسب إليها الناس ، وإن كانت موجودة عند بعض الأسر والأفراد ، أقلها النقشبندية وقد وقفت على سندها في دار الثقافة في انواكشوط ، قسم المخطوطات رقم ٢٨٢ .

ويبدو أن المجيدري هو الذي أدخلها إلى البلاد إثر عودته من الحج وأخذها عنه العلامة محمد بن محمد سالم المجلسين ولكنها كما قلت لم تشتهر ولم تنتشر .

يضاف إلى هذه الطرق التي تعرف في شكل طرق منظمة نوع آخر من التصوف المنتشر بين بعض الزوايا . أي أهل العناية بالعلم والدين حسب المصطلح العرفي في البلاد . هذا التصوف المأخوذ من بطون الكتب أو بالاحتكاك والمعايشة للطرق الصوفية المجاورة إلا أن الفقهاء الحاملين لهذا النوع من التصوف لايترددون في

مهاجمة المظاهر الصوفية المخالفة للشريعة الإسلامية ، بل إن بعضهم يهجو من عرف عنه شيء من الانحراف بالشعر ويجهلهم ويرد عليهم حتى إن الأمر وصل في بعض الأحيان إلى المقاتلة (١) .

وسيتبين ذلك إن شاء الله تعالى عندما نخصص الدراسة الآتية لأهم الطرق الصوفية غير المختارية والفاضلية ، ونعرض لأهم ماجرى بينهاوبين الطرق الصوفية الأخرى ، وماجرى بينها بين الفقهاء من جهة ثانية .

---

(١) الوسيط ص ٢٨٢ و ٣٦١ . وكتاب : الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ، تأليف : فيليب فونداس ، تعريب : محي الدين القليبي ، دار الفكر الاسلامي ، ط ١٩٧٠ م ص ١٣٦-١٣٧. وحياة موريتانيا ، الحياة الصوفية ، للمختار بن حامد ج ١ ص٨٠ وما بعدها .

الشاذلية

تنسب هذه الطريقة للإمام أبي الحسن الشاذلي وهو : علي بن عبدالله الشاذلي ولد سنة ٥٧١ هـ وتوفي بحميثرة من صعيد مصر قاصدا للحج في شوال سنة ٦٥٦ هـ . وقيل ميلاده سنة ٥٩١ هـ . (١)

وقد دخلت طريقته بلاد موريتانيا عن طريق شيخين مغربيين : أحمد زروق المتوفى سنة ٩٦٣ هـ ، ومحمد بن ناصر الدرعي المتوفى سنة ١٠٣٦ هـ .

وقد عرفت في موريتانيا في مناطق متعددة في غرب البلاد وشرقها ، وظهر فيها شيوخ متعددون ، اشتهروا بالعلم والصلاح .

وقد ذكر صاحب فتح الشكور (٢) وصاحب الوسيط (٣) وصاحب الموسوعة الموريتانية (٤) وصاحب بلاد شنقيط (٥) منهم عددا كبيرا ، بل إن جميع الطرق الصوفية بما فيها البكائية المختارية والفاضلية تمر سلاسلهم في السند القادري على ماسيأتي بيانه إن شاء الله - بالإمام أبي الحسن الشاذلي ، ولذا فقد ترجم له الشيخ سيدي محمد الكنتي في الطرائف والتلائد ترجمة ضافية ، وقال إنه : الأستاذ الثاني للطائفة بعد الشيخ عبدالقادر الجيلي (٦) .

ومن هنا يمكن اعتبار القادرية في موريتانيا كلها شاذلية ، كما أن كل الشاذلية تعتبر قادرية ، ولكن القادرية لايقولون إنهم شاذلية عند الانتساب ، وإنما يقولون

---

(١) شجرة النور الزكية ص ١٨٦ - ١٨٧ والأعلام للزركلي جـ ٤ ص ٢٠٥ وستأتي ترجمته في السلاسل القادرية إن شاء الله .

(٢) فتح الشكور ص ١٠١ - ١٠٦ وغيرها .

(٣) الوسيط ص ٢٢٢ و ٣٤٣ وغير ذلك .

(٤) الموسوعة ، الحياة الصوفية ص ٨٠ - ٨١ .

(٥) بلاد شنقيط ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٦) الطرائف ص ١٣٨ - ١٤٠ ويقارن بما في الضياء المستبين ص١٩٠ .

إنهم قادريون أو جنيديون (١) ولكن بالاستناد إلى الأسانيد التي بحوزتهم فإنه لايخطىء من نسبهم إيضا إلى الشاذلية (٢) ٠

وقد تشعبت الشاذلية في موريتانيا إلى فروع كثيرة ارتبط بعض فروعها بشيوخ محاضر وعلم فغلب على مريديهم طلب العلم وارتبط بعض فروعها بالحياة الصوفية الخالصة فدخلها كثير من العوام المتجردين لخدمة المشايخ والاشتغال بالأوراد والوظائف من غير أساس من الفقه في الدين أو علم بالشريعة وآدابها ، وحرمتهم خدمة الشيوخ برعي الحيوان والتجارة والزراعة وجمع حطام الدنيا عن السلوك الصحيح ، فكان لذلك آثار سلبية بل وسيئة على البيئة العلمية والأخلاقية العامة ، وعلى الطريقة بصفة خاصة عرضتها وبعض شيوخها إلى النقد الصريح من الفقهاء من شيوخها أو من شيوخ العلم خارجها وسيأتي مزيد بيان لذلك في باب السلوكيات ٠

ويوجد في موريتانيا فرعان كبيران للشاذلية ، أحدهما في غرب البلاد والآخر في شرقها ، مع أنه ليست هناك حدود معروفة يتوقف عندها مد أحدهما دون الآخر ، وانما بحسب شهرة الشيخ وانتشار علمه وأوراده ونظامه فإن أثر كل منهما مازال محدودا في المناطق التي اشتهر فيها ٠

---

(١) مقدمة هداية الطلاب ، تأليف الشيخ سيدي المختار الكنتي ، مخطوط بزاويته في انواكشوط ص ٢ ٠

(٢) أحمد زروق والزروقية مصدر سابق ص ١٤٢ - ١٤٣ وكنتة الشرقيون ص ١٤١ ٠

الفرع الأول : المتالية

التعريف بشيخها المنسوبة إليه : المتالية نسبة إلى الشيخ محمذ فال بن متالي التندغي و (محمذ) بالذال المعجمة المنونة المكسورة معناه بالبربرية محمد نا بقصد إضافته إلى ضمير المتكلمين . وأما (فال) فالمقصود بها فأل أي تيمن بهذا الاسم .

قال عنه صاحب الوسيط : (علامة جليل ، وصالح نبيل ، أذعنت العلماء لعلمه ، وتضلع كثير من الزوايا من معينه ، وصار حرما آمنا يفر الخائف إليه فيؤمنه ... فتح الله عليه دفعة واحدة ورجع إلى أهله ، وشاع خبره ، وانثالت إليه الناس ، وأقبلت عليه الدنيا ، وكان كريما صالحا يتبرك به) (١) .

ويظهر من أنظامه وقصائده أنه كان متواضعا متوجها إلى الله تعالى ، ومن شعره: (من البسيط)

(أنا الفقير وفقر المرء ذا ضرع   بالله صدق إلى مولاه محض غنى
ومن رآى أنه بالمال حاز غنى   قدمان في زعمه ماحاز غير عنا)

وكان يحث على طلب العلم كثيرا ويفضل الاشتغال به على التفرغ للنوافل قال :

(عليك بالتعليم والتعلم   ذا رغبة في أجره المعظم)

من أرجوزة له يحث فيها على طلب العلم وفضل التعليم ، ويحذر فيها من طلبه لغير وجه الله تعالى .

(ومات صاحب الترجمة في عجز القرن الثالث عشر ، وقد عمر) (٢) . وقد جزم الخليل النحوي بأنه ولد سنة ١٢٠٥ هـ وتوفي سنة ١٢٨٧ هـ فعمره على هذا اثنتان وثمانون سنة . (٣) ومن مشاهير تلاميذه : المختار بن ألما الديماني ويحظيه بن عبد الودود . (٤)

وقد استفاد من مؤلفاته وأنظامه الكثيرة في الأخلاق والآداب العامة وسار على نهجه في طريقته الشيخ محمد مولود بن أحمد فال اليعقوبي ا لموسوي المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ حيث يعتبر صاحب مدرسة فقهية وأخلاقية لكثرة أنظامه ومؤلفاته في هذا المجال .

---

(١) الوسيط ص ٢٤٣ - ٢٤٤ بتصرف يسير .
(٢) نفسه ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .
(٣) بلاد شنقيط ص ٥٣٠ .
(٤) الوسيط ص ٢٣٩ و ص ٣٧٧ .

فمن مؤلفاته الفقهية : الكفاف ، نظمه وشرحه شرحا موجزا وقد طبع عدة مرات ، ومن مؤلفاته • في الآداب والسلوك : مطهرة القلوب نظمها وشرحها وقد طبعت أيضا •

ويظهر أنه يعتمد فيها على عوارف المعارف للسهروردي ، وقد ذيلها الإمام محمد بن البوصيري بنظم سماه : إسعاف المهرة في تذييل المطهرة (١) •

منهج المتالية وميزاتها :

نقلت عن غير واحد من شيوخ العلم في موريتانيا أن الشيخ محمذ فال : كان شديد الحماية لجانب الشريعة عاملا بسد الذريعة •

وقد قابلت من أجل استيفاء معلومات واضحة عن المتالية ومنهجها وميزاتها أساتذة وشيوخ علم في موريتانيا وفي مكة المكرمة أثناء الحج عام ١٤١٠ هـ •

فمن شيوخ العلم الذين قابلتهم في مكة الشيخ محمد المصطفى بن عبدالرحمن حيث رويت عنه الأبيات التالية في العقيدة وهو يرويها سنده إلى قائلها الشيخ محمد فال بن متالي• وهي :

(وموقن وجود رب واعترف — بالعجز عن إدراكه فقد عرف
وليس ذنب فوق ذنب الخائض — بالفكر في ذات العلي الخافض
غاية علم العلما ومنتهى — إدراك أرباب العلوم والنهى
أن يعلموا أن لهذا الخلق — مخترعا أوجده بالحق
متصفا بصفة الكمال — منزها عن ضدها المحال
وطرق المعرفة الكبار — عيان أو مثال أو آثار
فأول منعه الجبار — إذ قال لاتدركه الأبصار
والثاني أيضا منتف بالنقل — لأنه ليس له من مثل
لم يبق بعد ذا سوى آثار — قدرته في العالم السيار) (٢)

---

(١) ملف الرحلة العلمية ، مقابلة مع الإمام بداه : محمد بن البوصيري بتاريخ ٢٧-٨-١٤١٠ هـ •

(٢) ملف الرحلة العلمية ص ١٣ •

والشيخ الذي نقلت عنه هذا النظم يرى أنه مشتمل على عقيدة السلف من الايمان مع التنزيه والتسليم وعدم الخوض فيما لايدرك بالعقول .

ومن أهم مؤلفات ابن متالي : فتح الحق . الحميل بصلاح الدارين . وشرح مختصر خليل . وقرة عين الضعيف (١) . وقد قابلت الأستاذ القاضي : أبين بن بيانا في انواكشوط بتاريخ ٢٨-٨-١٤١٠هـ وقصدته لصلته بمنطقة الشيخ محمذ فال بن متالي ، ومعرفته بفرعه من الشاذلية ، واطلاعه على مايجري في الزاوية المتالية بانواكشوط ، فأفادني بأن اعتمادهم على الكتاب والسنة وطلب العلم في المقام الأول ، ثم ماهو مذكور من الأوراد الشاذلية في الكتب، على أن المطلوب عندهم أن تكون أوقات المسلم كلها عامرة بعبادة قولية أو عملية (٢) .

وممن قابلتهم في مكة المكرمة في حج عام ١٤١٠ هـ الأستاذ محمد الحسن بن أددو: فحدثني وكتب لي بخط يده مايأتي : أن من ما يشترطه شيوخ المتالية على مريدهم :

(١) عدم التدخين أو الإعانة على تعاطيه أو الصلاة خلف متعاطيه .

(٢) وعدم نوم الصبيحة .

(٣) وعدم الإكثار من الهذر في القول والعمل مع الحيطة في الورع من المحرمات والمكروهات .

ورد المتالية :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، ‹ استغفروا ربكم إنه كان غفارا › ثلاثا . لبيك اللهم وسعديك ، ثلاثا . أستغفر الله مائة .

‹ إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما› ثلاثا . لبيك اللهم وسعديك ، ثلاثا . اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، مائة .

‹ اذكروا الله ذكرا كثيرا › ثلاثا . لبيك اللهم وسعديك ، ثلاثا . لا إله إلا الله ، ألفا . كلما أتم مائة قال : سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) لا تزال مخطوطة كلها وهي بزاويته بانواكشوط .

(٢) أجريت المقابلة في المكتب بالتاريخ المذكور ، وهذا هو ملخص كلامه .

هذا صلب الورد . ولازمه هو في الصباح من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس .

وأما زوائد الورد ومندوباته فهي :

لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهوعلى كل شيء قدير ، مائة . سبحان الله وبحمده مائة ، لاحول ولا قوة إلا بالله ، مائة .

لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، مائة ، يالطيف ، مائة وتسعة وعشرين . (وهو قدر رمز حروف لطيف) . ياباقي ، مائة . ووطيفة الشيخ زروق ، وهي مطبوعة وأكثرها أذكار مروية عنه صلى الله عليه وسلم (١) .

والذي عرف عن هذا الفرع من الشاذلية أنه يعتمد طلب العلم في المقام الأول ، ولذا لم يشتهر عنهم انحراف يذكر بين الفقهاء ، حتى يحتاج إلى الرد عليه . ولكن ذكر لي أحد شيوخ العلم أنه حصلت بين الشيخ ابن متالي - وبين مولود بن أحمد الجواد تلميذ المجيدري الشاعر نفرة وخلاف ، ولكنه لم يوضح لي السبب لعدم معرفته بما وراءه (٢) .

وقد رجعت إلى ترجمة مولود المذكور في الوسيط فلم تجد ذكرا للخلاف المشار إليه، وإنما قال فيه أحمد بن الأمين بعد ثناء حسن وإيراد مايحفظه من أشعاره : (وله قصائد فيما وقع بينه وبين ابن بون ، ومع اديبج الكمليلي وغيرهما) (٣) . قلت : ولعل محدثي اختلط عليه مولود المتقدم الذكر بمولود بن اغشممت المجلسي الذي (كان يشرب الدخان كثيرا على علمه وصلاحه) (٤) ، وتقدم تشدد المتالية في الدخان وموقفهم من شاربيه ، فيمكن أن يكون تباين المواقف من هذه العادة السيئة مثار نزاع كما حصل ذلك بين جماعة من أتباع محمد بن

---

(١) هذا ماكتبه لي الأستاذ محمد الحسن .

(٢) ملف الرحلة العلمية ص ٣ .

(٣) الوسيط ص ٢١٤ وانظر بداية ترجمته فيه ص ١٩٠ وما بعدها .

(٤) الوسيط ص ٢٥٦ .

ناصر الدرعي وبين جد الشيخ سيدي المختار الكنتي لأمه بسبب أنهم هم يحرمون الدخان وينكرون على من يتعاطاه (١) وهذا الموقف من الدخان سائد بين أتباع الشاذلية ومن يتعاطف معهم من الزوايا ، ولهم في ذلك أشعار وأنظام وأحكام .

وقد ذكر المختار بن حامد سلاسل الشاذلية الواردة إلى موريتانيا (٢) ، ولكنني لم أجد من ذكر سند الشيخ ابن متالي فيها ومن الشيخ المباشر الذي أخذ عنه ؟ علماأنهم قالوا (بأنه فتح عليه دفعة واحدة) (٣) . ويكفي في رد الورد أنه وضع هكذا بدون نص من الشارع والتخصيص أو القصد إليه بدون مخصص تحكم ومردود شرعا وعقلا وخصوصا في باب العبادات . والله اعلم .

---

(١) الطرائف ص ٨٩ .

(٢) المختار بن حامد ، الحياة الصوفية ص ٨٠ - ٨١ .

(٣) الوسيط ص٣٤٣ .

الفرع الثاني : الأغظفية

التعريف بشيوخ هذا الفرع :

وينسب هذا الفرع الشاذلي إلى الشيخ محمد الأغظف الداودي ، الجعفري المتوفى سنة ١٢١٨ هـ (١) ولم نتمكن من معرفة شيىء عن تفاصيل حياة هذا الشيخ ولا عن مكانته العلميه ، إلا أن الناقدين لطريقه لا يصبون نقدهم على ذات الشيخ وانما يوجهونه إلى (الغظف) أو (الأغظفية) فلم يذكره الشيخ سيدي المختار الكنتي الذي كان معاصرا له بسوء خاص به ، ولم يوجه له الشيخ سيدي محمد الكنتي لوما على وجه الخصوص ولم يسمه الشيخ محمد يحيي الولاتي فيمن سماهم بزنادقة القظف (٢) وما كتبه الفرنسيون منصب على أتباعه الذين عايشوهم .

ولم نتمكن من الحصول على ما كتبه عنه المختار بن حامد في موسوعته في أجزاءالبيوتات ، ووقفت على رسائل موجهة من الشيخ محمد بن أبي مدين إلى الشيخ المحفوظ بن بيه يطلب منه في واحدة منها أن يكتب له شيئا عن الشيخ الأغظف ، فإن كان أجابه بالمطلوب فإن من مظان وجوده مكتبة آل الشيخ أحمد في (بوتيلميت) (٣)

وقد ورد ذكر الشيخ محمد الأغظف في كتب الفاضلية كثيرا وبإعجاب وتوقير حتى اعتبر بسبب ذلك شيخا لهم في الطريقة على ما سيأتي بيانه إن شاء الله ، ولكنهم هم أيضا لم يكتبوا شيئا عن حياته وعلمه وزهده وورعه وسلوكه وغير ذلك من الأمور التي أهلته لأن يكون شيخ طريقة صوفية .

وكذلك لم نجد في كتبهم من شيخ أو شيوخ الشيخ محمد الأغظف فى الصوفية ؟ ولكني نقلت عن الشيخ عبد الله بن بيه أن الشيخ محمد الأغظف أخذ عن مولاي زيدأن ومولاي زيدان هذا ترجمه الولاتي في فتح الشكور وساق نسبه إلى علي رضي

---

(١) الحياة الصوفية ، المختار بن حامد ص ٨١

(٢) الأغظف والغظف المنسوبون إليه والأغظفية التي هي طريقتهم كلها تنطق بالغين والقاف . والأغظف تحريف الأغضف بالضاد وهو العيش الناعم . القاموس ج ٣ص ١٨٠ . ١٨١ .

(٣) بوتيلميت بئر مشهورة لأهل الشيخ سيدي . الوسيط ص ٤٦٤ . وهي الآن مدينة تبعد عن العاصمة انواكشوط بحوالي ١٥٠ كيلو .

الله عنه وقال عنه : (أحد الأولياء العاملين ، والصلحاء المتقين ، ذو جد واجتهاد ، ولزوم أذكار وأوراد ...) .

ثم قال : (وهو الذي أوصل ورد الشيخ مولاي عبد المالك لنا ولأهل بلادنا ، فجزاه الله تعالى بأحسن الجزاء قدم بلاد التكرور أربع مرات) .. وساق بسنده في الطريقة إلى محمد ابن ناصر الدرعي ثم قال :

(توفي رحمه الله في آخر شعبان عام اثنين ومائتين وألف ، في موضع يقال له إيوالن عند مسجد ابن عبد الكريم بينه وبين اتوات نحو أربع رحلات .) (١)

وعلى هذا فالفرع الشاذلي من القادرية في موريتانيا يرجع بفروعه إلى الدرعية الناصرية وعليه فلا يستقيم على الاطلاق ما أطلقه الأستاذ الخليل النحوي من قوله :

(الغظفية : وهي مزيج من الطريقتين القادرية والشاذلية ...) (٢) حيث إننا عرفنا سندها إلى محمد بن ناصر الدرعي الشاذلي .

أتباع الأغظفية :

صحب الشيخ محمد الأغظف جماعة منهم سيدي محمد بن أحمد الأسود ، ومحمد الأمين بن عبد الوهاب وولد الشيخ محمد الأغظف زروق وهؤلاء شيوخ الشيخ محمد فاضل بن مامين شيخ الفاضلية (٣) ولذا قال الخليل : (واليه تنسب الشعبة الفاضلية من القادرية) (٤) يعني الشيخ محمد الأغظف وقد أخذ عن الشيخ محمد الأغظف أيضا الشيخ علي بن عبد الله بن علي بن آفة الدليمي المتوفى في حدود ١٩١٧ م وكان في بداية أمره

---

(١) انظر فتح الشكور ص٩٧ . ١٠١ .

(٢) بلاد شنقيط ص ١٢٤ .

(٣) الضياء الستين ص ٨ . ٩ و ٢٢٠ . ٢٢٢ وغيرها .

(٤) بلاد شنقيط ص١٢٤ .

قارئا ومقرئا للقرآن ثم صحب الشيخ محمد الأغظف حتى صدره وكان يصاب بالجذب الأمــر الذي كان من أسباب نقد الطريقة الأغظفية على ما سيأتي إن شاء الله (١) .

يقول الأستاذ الخليل النحوي في وصف هذه الطريقة أو الفرع الأغظفي :

(ازدهـرت في عهد الشيخ سيدي المختار بن الطالب بن نوح البصادي وخلفائه : خاصة الشيخ محمد محمود الخلف المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ والشيخ الغزواني ومن مشايخها الشيخ محمد المحفوظ ابن بيه) (٢)

قلت : أما الشيخ الغزواني فهو بصادي لم تتمكن من معرفة الكثير عن حياته وأثره ، أما خليفته الشيخ محمد أحمد ابن الغزواني المتوفى سنة ١٤٠٨ هـ فقد زرت منطقته (بومديد) وهي قرية زراعية رعوية تقع بين تكانت ولعصابة ، ورأيت من المتجردين والمتجردات من عموم الناس يخدمونه في الزراعة وتنمية المواشي وجمع الأموال وغير ذلك وهم مع ذلك في حالة من الجهل والبؤس يرثى لها ، وقد بلغني أنه توقف في آخر حياته عن استقبال الداخلين الجدد وتفسير ذلك إن لم يكن توبة مما كان فيه هو الخوف من أن يكون هؤلاء عالة عليه لتغير الأوضاع المعيشية . وأعظم إثم يرتكبه هؤلاء هو الاختلاط والتبرج هذا من مشاهداتي الشخصية ، أما العلم والكتب فلم أجد لهم فيها نصيبا ، وأظن أن الأحوال المذكورة هنا يمكن أن تعمم على مريدي الأغظفية ، أما الشيوخ فيخلتفون في أنفسهم وأحوالهم حسب بيئتهم العلمية وصيانتهم لمكانتهم الدينية والاجتماعية .

وأما الشيخ المحفوظ ابن بيه فإنه أخذ التصوف عن ابن عمه الشيخ محمد محمود ومحمد محمود أخذ عن علي بن عبد الله بن آفه المتقدم الذكر .

فالشيخ المحفوظ قال عنه الشيخ الأمين صاحب أضواء البيان عندما نزل عنده ضيفا اثناء خروجه من البلاد إلى البلاد المقدسة قال : (ورفع تجارتا الذين هـم في

---

(١) ملف الرحلة العلمية ص ١١

(٢) بلاد شنقيط ص ١٢٤

قريـة العيـون إلى قاضي (تنبدقة) برقية بتوجهنا إلى (تنبدقة) وأنا سننزل في ضيافته ..) :

(وهوالعالم الأديب واللوذعي الأريب المحفوظ ابن بيه المسومي ، فأقمنا عنده أيامنا في غاية التبجيل والإعظام والإحسان والإكرام ، وكثرت بيننا المذاكرات في كثير من فنون العلم) (١)

ويصف الشيخ المحفوظ وشيخه محمد محمود مؤرخ موريتانيا المختارين حامد فيقول : (أما الشيخ المحفوظ فإنه وحيد العصر علما وورعا وأدبا وأخلاقا ورواية وتركها (كلمة باقية في عقبة) (أخذ عن الشيخ المحفوظ العلم وطريق التصوف ، وهو عن ابن عمه الشيخ محمد محمود الصوفي المربي العلامة المصنف السخي المنفق الورع ، كان يحتجب عن النصارى (٢) ولم يتقابل قط معهم ، أخذ التصوف عن الشيخ علي ابن آفه ، وتوفي حول ١٣١٧ هـ) (٣) .

وقد وقفت على رسائل علمية تتضمن أسئله مهمة في قضايا مختلفة متبادلة بين الشيخ المحفوظ والشيخ محمد بن أبي مدين المتوفى سنة ١٣٩٦ هـ صاحب كتاب الصوارم والأسنة في الذب عن السنة (٤) تدل من جهة على علومكانة الرجلين في العلم وتدل كذلك على رضى الشيخ محمد بن أبي مدين . الذي عرف أنه من مدرسة الشيخ بابه بن الشيخ سيدي القائمة على الكتاب والسنة ومحاربة البدعة والدعوة إلى التخلص من التقليد الأعمى سواء في المسائل العقدية و الفقهية (٥) كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى في فصل الصحوة السلفية في الطريقة القادرية . عن الشيخ المحفوظ .

---

(١) رحلة الحج إلى بيت الله الحرام ، بقلم العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي الجكني ، دار الشروق ، جدة ، ط ١ سنة ١٤٠٣ هـ ص ٥٧

(٢) يريد أن الاستعمار الفرنسي دخل عليه البلاد وهو حيى فكان من شدة بغضه لهم يحتجب عنهم .

(٣) موسوعة ابن حامد . جزء مسومة ، مسومة الحوض ص ٨ . ٩

(٤) طبع هذا الكتاب بدار الكتب العلمية . بيروت ط ١ سنة ١٤٠٧ هـ

(٥) نفسه انظرص ٣ . ٢٤

وفي الرسائل المشار إليها يصف الشيخ محمد بن أبي مدين الشيخ المحفوظ (يسني الصوفية وصوفي أهل السنة) ، هذه المكانة لدى العلماء التي حصل عليها الشيخ المحفوظ مع ما عرف لدى الناس من جرأته في الحق ، وقيامه ضد أساليب العلمنة والتغريب أيام عمله في القضاء مع الدولة الفرنسية وما بعدها رشحه ذلك كله لانتخاب العلماء له رئيسا لمؤتمرهم الأول في انواكشوط سنه ١٩٦٧ م .

وقد حدثنى ولده العلامة الشيخ عبد الله بن الشيخ المحفوظ في جدة حيث هو أستاذ في جامعة الملك عبد العزيز أن والده لما حج أمسك عن إعطاء الورد القادري والشاذلي حيث كان شيخا فيهما وقال : لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما كنت شيخا لأحد . ويؤكد الشيخ عبد الله موقف والده المذكور من الطريقة بأنه لم يعهد لأحد من أبنائه من بعده بالمشيخة مع صلاحهم لها ولم يلزم غيرهم بشيء بعد ذلك (١)

نقد الأغظفية :

رأينا أن الأغظفية شاذلية قادرية ولذلك اعتبرها بعض الباحثين مزيجا من الطريقتين كما تقدم ، وسبب ذلك عندي أن كل شيخ أراد الاستقلال عن عموم الطريقة التي ينتسب إليها ، عليه أن يضيف لأوراد الطريقة أو نمط سلوكها جديدا ، أو يختار في وظائفها اختيارات تنسب إليه ، ويعرف بها دون غيره (٢)

ولكن ما الذي زاده الشيخ محمد الأغظف أو غيره من مشايخ الأغظفية حتى نعتبرهم أضافوا جديدا استقلوا به عن الطريقة الشاذلية الأم ؟

إنني لم أتمكن حتى الآن من الحصول على معلومات تؤكد انفرادهم بشيء جديد أو إضافة أوراد جديدة على الطريقة الشاذلية (٣) ولعلهم أظهروا هذه الأوراد المنسوبة للناصرية والزروقية وأضافوها إلى الأوراد القادرية

---

(١) تعددت مقابلاتي للشيخ المذكور ونقلت عنه ما أوردته هنا مرتين أو ثلاثا

(٢) يرجع إلى : زروق و الزروقية مصدر سابق ص ١٤٢ . ١٤٧

(٣) وقد ذكر لي الشيخ عبد الله ابن بيه أنه وقف على إضافات جديدة لهم في الورود الشاذلي، ولكني لم أتمكن من الحصول عليها لعدم وجودها مكتوبة ، ولتحفظ الشيخ من نشر هذه الأوراد إن كان حافظا لها ، إلا أنني لم أحاول التأكد من ذلك والأغلب عندي أنه يحفظها وتقدم نقل ورد المتالية ، والأغظفية مثلها في المصدر الأساسي .

الأوراد المنسوبه للناصرية الدرعية والزروقية ، وأضافوها إلى الاوراد القادرية الأصل ، واستعملوا ذلك كله ، وبذلك اعتبروا طائفة مستقلة ، مزجت نتاج من سبقها ، وأنشأت عليه طريقة محلية ، استقلت بهذا الاسم (الغظف) أو (الأغظفية) على أنهم لا يذكرون إلا أنهم شاذلية .

إن عدم بروز شيخ أو شيوخ محليين معروفين صحبهم الشيخ محمد الأغظف وأخذ عنهم العلم والتصوف جر على طريقته نقدا محرجا من مشايخ الطرق الصوفية المجاورة له واتهموه بأنه خالف سنة التصوف القائمة على الصحبة والسلوك (١)

ويختلف الناقدون المعترضون على الأغظفية من حيث حدة النقد ووجاهته ، ومن حيث التصريح باسمها أو تحديد مسلكها ، أو التلويح بما يفهم منه أنها هي المرادة بذلك النقد . فالشيخ سيدي المختار الكنتي يشدد النكير على أصحاب ، الحضرات، موضحا أن البلاد قد ظهر فيها طوائف من أصحاب الدعوى الكاذبة أهل الرقص والشطح (٢)

وتبعه على هذا النقد المجمل ابنه الشيخ سيدي محمد وزاد عليه أن من بين هؤلاء الطوائف البدعية الطائفة الأغظفية ، فيقول :

(وأن نحو ما بلغنا عن بعض من يتشبه بالقوم ، ويدعى سلوك طريقتهم في الدعوة إلى الدخول إلى ما هم فيه بحكاية كلمات في أذن المدعو أو الضرب في صدره فيصعق لحينه ، ثم يفيق وقد أخذ إلى نحو ما هم عليه ، وربما جن وتدله كحال سكارى المجاذيب ، مع دؤوبهم على العبادة والذكر . بدعة شنيعة في وجه الدعوة ، قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الغلاوية ص ١٩٤ ويقارن بما في كتاب : فيليب فونداس ، رئيس مصلحة التجسس الفرنسية ، الاستعمار الفرنسي في إفريقيا السوداء ، دراسة عن الاسلام في أفريقيا السوداء الفرنسية ، صدر في باريس سنة ١٩٥١ م ، وعربه : محيي الدين القليبي ، نشر دار الفكر الإسلامي ص ١١٩ وما بعدها .

(٢) جذوة الأنوار في الذب عن مناصب أولياء الله الأخيار ، مخطوط ، مكتبة كلية القرويين ، بفاس (٨٩٥) ص ٩٧ .

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ (١) وليس ما تعاطى هؤلاء القوم المسمون بالغظف بإرشاد ولا تربية ولا ترقية بل هو باب الدعوة الفاسدة .. وشأن العارفين من المشايخ والناصحين إعطاء كل وارد عليهم ما يحتمل ويقبل ، وكتم ما زاد عملا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (حدثوا الناس بما تحتمله عقولهم) (٢) ولا شك أن هـؤلاء على تقدير صدق دعواهم قد خالفوا هذا الحديث الصحيح ، وصادموا ما عليه مشايخ الطرق) (٣)

ويفصل نقده لهم هذا في كتابه الغلاوية حيث يحكم عليهم بأنهم أتوا ببدعة صريحة في الدين لأن : (مبنى طريقهم الاسرار إلى المريد بكلام أو رمز يضعف السمع من أجله ، فيصير السامع لا يحس ولا يعقل ، وهذا ما لم ينقل مثله عن مسلم فيما سلف . وأنهم أماتوا سنة الرياضة التي مضى عليها الأمر سلفا وخلفا . وأنهم يلقنون الوارد عليهم بعد صعقه ذكر الهيللة مفردا.) وهو يأخذ عليهم في هذا عدم التدرج في السلوك ، وعدم إضافة الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بالرسالة مع كلمة الشهادة لله تعالى بالوحدانية ، لأنهما أحد جزئي الكلمة الشريفة التي لا يكون الايمان بالاقتصار على أحد شطريها.

وأنه لا عناية لهم بالوارد عليهم بعد صعقه وتلقينه الذكر المفرد لا بتعليم ولا بأداء عمل (بل يوهمونه أن صعقته تلك موصلة إلى أرقى المقامات) (٤) .

---

(١) سورة النمل (الآية ١٢٦)

(٢) ورد هذا الاثر موقوفا على علي رضي الله عنه ، في صحيح البخاري : (٤٩ . باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا . وقال علي : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله وسوله ؟) البخاري كتاب العلم ، الباب المذكور رقم الحديث (١٢٧) وورد معناه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في صحيح مسلم : (المقدمة باب النهي عن الحديث بكل ما سمع .

(٣) الطرائف والتلائد ص ٣١٣ . ٣١٤ .

(٤) الغلاوية ١٦٤ . ١٧١ و ١٨٣ . ١٨٦ و ١٩٤ بإختصار غير مغير .

قلت : إن نقد الشيخ سيدي محمد الكنتي هذا للأغظفية وجيه وصائب إذا صح هذا عنهم حيث إن الإسرار أو الإعلان بما يذهب العقل الذي هو مناط التكليف وبه يحصل التمييز حرام في الأديان السماوية كلها ، ولا تحصل عبادة أو عبودية صحيحة إلا بسلامة العقل ، واعتدالة هذا من الناحية السلوكية المرتبطة بالميزان الشرعي دائما • وأيضا فإن تلقين كلمة الشهادة فقط والاقتصار على شطرها الأول فقط دون استعمال الأذكار الأخرى الثابتة في الكتاب والسنة يعد نقصا وانحرافا عن الاتباع ، خصوصا إذا ثبت أنهم يقولون : (إنما تبلغ الغاية وينال الوصول بذكر الله ، وذكر النبي . صلى الله عليه وسلم . حجاب عن الغاية •) (١) فالأولى والأفضل الجمع بين شطري الكلمة الشريفة ، أما : (من أنف عن الشهادة للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة حالة الذكر . واستخف بها فإنه يكون شبيها بإبليس ومن نهى عنها أحرى في ذلك ، ومن أهملها فقد أخطأ الطريق الحق) (٢) •

وهو أيضا صائب في أنه لا يجوز من الناحية الشرعية ولا في الآداب السلوكية والتربية إهمال المريدين دون تعليم ومتابعتهم في الأعمال التي كلفوا بها من الشارع حتى يعتادوها ويستقيموا عليها • ومع صحة ووجاهة نقد الشيخ سيدى محمد الكنتى للطائفة الأغظفية . إن صح ما ذكر عنهم فإننا لا ننسى أن شيوخ التصوف في عهده يتنافسون في كسب أكبر عدد ممكن من المريدين ، ولذا فلا يرضون بظهور منافس جديد ، ربما قلل من إقبال الناس عليهم ، أو ربما قعد في طريقهم لاجتذابهم نحوه (٣) وهذا ما نلاحظه ونفهمه من أسلوب الشيخ سيدي محمد الكنتي ، ويفرضه عليه واقع المشيخة حيث إنه يهاجم ويدافع من أجل المحافظة على مكانته كشيخ مورود ، ولذا فهو يرى أن من ادعى المشيخة في الطريقة دونه ، فإنما هو مبتدع صاحب دعوى باطلة يحب الرئاسة وصرف وجوه العامة إليه ، وقد أمات سنة الرياضة والأخذ عن وارث النبوة والولاية • (٤)

---

(١) الغلاوية ص ١٩٢ •

(٢) نفسه ص ١٨٦ •

(٣) الاستعمار الفرنسي في أفريقيا السوداء ص ١١٩ •

(٤) الغلاوية ص١٩٤ . ١٩٥ •

وقد زاد من حدة نقد العلماء للطائفة الأغظفية كثرة المتجردين فيها من العوام للخدمة على ما تقدم ، وكذلك مظاهر الجذب التي قد تستمر مع أحدهم وقتا طويلا يضيع عليه خلاله من الواجبات والفرائض ما لا يمكنه تداركه من أجل هذا حمل عليهم الشيخ محمد يحي الولاتي وكفرهم واتهمهم بالزندقة في رسالتين أو مؤلفين يقع أحدهما في مائة وثمانية وخمسين صفحة (١) ويقع الثاني في مائة وستة وثلاثين صفحة (٢) .

والواقــع أن الأغظفيــة رد عليها من طرف الفقهاء ردا عنيفا وصل إلى المحاكمــة (٣) علاوة على الاتهام بالزندقة وادعاء الجذب الكاذب لتضيع الصلاة (٤) وارتكاب المحظورات وكان الذي حوكم من شيوخ الأغظفية الشيخ علي بن آفة الذي تقدمت ترجمته حيث اتهمه أحد الفقهاء بالزندقة والجذب الكاذب والكلام بالمتشابه من القول أو ما لايعرف معناه ، ولعله لم يثبت عليه شيء مما نسب إليه حيث إنه لم يصدر عن المحاكمين له حكم بثبوت التهمة عليه .

ولهذ الشيخ المحاكم نظم في التصوف يقع في ثلاثمائة بيت تقريبا سماه : نصيحة المغتر وكفاية المعتر . بين في هذا النظم منهجه في السلوك الصوفي ورد فيه على الناقدين له عموما . ومما تكلم عليه في هذا النظم الواردات التى ترد على قلب الذاكر فتقضي به إذا لم يكن قويا متماسكا إلى الجذب الذي هو أهم أسباب نقد هذه الطريقة .

قال : (فالواردات كالرياح والقلوب مثل الغصون والثمار والحبوب

فالرجل الضعيف غصنا يفزع لكــل وارد عليـــه يقع) (٥)

قلت : يعرف من هذا أنه يرى أن حالة الجذب والذهول صفة ضعف غير ممدوحة ، ولا مطلوبــه لذاتها . وممن خصصهم صاحب هذا النظم بالرد ، الشيخ

---

(١) انظر نصيحة أولاد الزوايا والطلبة عن الدخول في طريق زنادقة المتصوفة ، مخطوط خاص ص ٢. ٤ .

(٢) الرد على الحسن القظفي ، مخطوط خاص ص ٢ . ٣ .

(٣) المحاضر الموريتانية ، مصدر سابق ص ٨٧ .

(٤) انظر الرد على الحسن القظفي ص ٣ وما بعدها .

(٥) الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ص ١٣٩ وملف الرحلة العلمية ص ٩ . ١ .

محمد يحيي الولاتي ، حيث أنكر عليهم كما هو مفهوم من الرد الاجتماع للذكر وتوظيف الوظائف ، وما يصحب أداء ذلك من القيام والرقص والجذب ، فيقول :

(فانظر لذا أجوبة التجانـــي عن شيخه التجاني في ذا الشان
قبل غروبها اجتماع ذا الملا فيرقصـــــون جلســـاء أولا
من بعدما يتلون بعض وردهم ثم يقومون من اجـل جدهـــم
فيرقصون قائميـــن أيضـــا ومنشد ينشد شوقا فيضـــا
وذا بكل جمعة قد يفعل يا عجبا من منكر ويفعـــل) (١)

قلت : وليس فيما يرتكبه الناس من البدع المصاحبه للذكر حجة لأحد على أحد ، كما أنه ليس لمن يفعلها حجة عليها .

ويؤخذ من البيت الأخير أن المردود عليه ينكر ما يفعله هو وأصحابه ، كما أن فيه إشارة واضحة إلى أن الشيخ محمد يحيي الولاتي من أتباع التجانية ، وهذا عندى بعيد لما عرف عنه من الفقه والحديث ومقاومة أهل البدع عموما تشهد بذلك رحلته التي كتبها عن حجته (٢) والرسالتين اللتين ذكرناهما في ردوده على الأغظفية ومن يدخل في مسمى زنادقة المتصوفة عنده . إلا أنه يفهم من رواية لمحمد المختار السوسي في كتابه المعسول أنه أخذت عنه فى المغرب الطريقة (الأحمدية) (٣) ولم أعرف ما مراده بالأحمدية إذ إن هذا الاسم يطلق على فرق وطرق صوفية ولا يعرف علما على التجانية (٤) هذا مع أن التيجانية انتشرت في ولاتة مسقط رأس الشيخ الذي توفي فيه سنة ١٣٣٠ هـ ، ولولده الفقيه محمد عبد الله رد على مشتهى الخارف الجاني للشيخ محمد الخضر بن ما يأبى وقفت عليه مخطوطا في مجلد يزيد على المائة والخمسين صفحة فلعل التجانية تمكنت في ذريته من بعده والله أعلم .

---

(١) ملف الرحلة العلمية ص ١١ .

(٢) انظر الأسئلة الواردة عليه وهو بالأسكندرية وحواره مع الصوفى الصحرواي في نفس الرحلة وهي مخطوطة غير مرقمة .

(٣) انظر ترجمته في المعسول جـ ٨ . ٢٨٢ والأعلام للزركلي جـ ٤ ص ١٤٢ . ١٤٣

(٤) نعم سماها الشيخ عمر بن سعيد الفوتي في كتابه رماح حزب الرحيم ، المطبوع على هامش، كتاب جواهر المعاني ، بأسماء عديدة : الأحمدية والمحمدية والابراهمية والحنيفية والتجانية فدلت هذه الأسماء الكثيرة على عدم اشتهار الأحمدية علما عليها ولكن التجانية هي العلم المعروفـة به . انظر المرجع المذكور وتوجيه مؤلفه لكثرة أسمائها (دار الكتاب العربي . بيروت ط ٢ سنة ١٣٩٣ هـ ص ١٦١ .)

أثرها وواقعها :

بعد أن عرفنا بالأغظفية وترجمنا لأبرز شيوخها حسب الإمكان واستعرضنا بعض النقد والرد الموجه ضدها من بعض أهل العلم والتصوف ، يجدر بنا أن نعرف شيئا عن أثرها في الحياة وواقعها المعيشر .

يجمل الأستاذ الخليل النحوي أبرز سمات الأغظفية بعد أن ذكرها تحت عنوان طرق أخرى : إلى جانب الطرق الثلاث الرئيسية : القادرية ، الشاذلية ، التجانية ، ظهرت طرق أخرى في بلاد شنقيط سادت في فترات محدودة أو في مناطق محدودة ولكنها أدت أداورا هامة . ومن هذه : الطريقة الغظفية : (.. وهى طريقة محكمة التنظيم وقد شغلت الفرنسيين وأهمتهم فصدرت عنها أبحاث وكتب ، ورغم تركيزهم على مظاهـــر الجذب فى هذه الطريقة فإن منشأ اهتمامهم بها قد يكون تميزها بثــلاث سمات :

١) أنها شنقيطية المنشأ (١)

٢) أن الشريف سيدى بن مولاي الزين قاتل (كابولاني) ينسب إليها ، (٢)

٣) أنها نظمت حركة هجرة جماعية إبان دخول الفرنسيين . ففي سنة ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤ م توجهت ٥٠ أسرة من الغظف إلى الحج بقيادة الشريف القلقمى محمد الأمين بن زيني . وفي الطريق حملهم الأتراك إلى القسطنطينية حيث استقبلهم السطان عبد الحميد استقبالا حسنا ، واستقروا بعد الحج في الأناضول) (٣)

---

(١) سبق قول صاحب هذا النص أن الغظفية : مزيج من الطريقتين القادرية والشاذلية وقد تبين بشيىء من التتبع أنها ناصرية درعية ، والدرعية زروقية شاذلية والشاذلية قادرية . وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان لهذا عند عرض سلاسل القادرية في موريتانيا .

(٢) سيأتـي الكلام عنه في مبحث : موقف القادرية من الجهاد ، وانظر المحاضر الموريتانية ص١٣٠

(٣) بلاد شنقيط ص ١٢٤

كان للأغظفية أثر بارز في نواحي عديدة فهي من ناحية أثارت بعض شيوخ الطرق الصوفية كما رأنيا حتى كتبوا فى نقدهم والرد عليهم ، وقام بعض الفقهاء في مناطق متعددة بنقدها والرد عليها ، وكان لها هي أيضا شيوخ كتبوا في الرد عنها والدفاع عن مسلكها ، وفي ذلك كله إثراء للناحية العلمية والأدبية ٠

وكانت لها مواقف من (التبغ) واستعمالاته وهي بهذا الموقف حمت كثيرا من أتباعها ومحيطها من هذه العادات السيئة التى غزت البلاد الإسلامية مع دخول الكفار إليها ، ولها مواقف جهادية مشهورة ضد المستعمر الفرنسي وغيره داخل موريتانيا وخارجها (١)

وأشتهر عنها من البغض للكفار ورؤيتهم أشياء عديدة منها أن شيوخها الأوائل كالشيخ محمد محمود الخلف مثلا كان يحتجب عن النصارى حتى مات ولم ير منهم أحدا قط ٠

ويظهر أن الكفار كانوا يبادلونهم نفس البغض ويراقبون تحركاتهم ، ويضيقون عليهم قدر المستطاع ، لذا كانت كتابات المخابرات الاستعمارية عنهم شديدة حيث تصفهم بالتحلل الديني والأخلاقي والإصابة بالهستيريا والوقوع في المحارم ، والفوضى في أثناء الصلاة والاشتغال بالدسائس والمكايد (٢) ٠

وعندما أحست الأغظفية بتشديد الحملات عليها من جهة بعض الفقهاء والاستعمار نظمت الرحلات المذكورة سابقا للحج والانضمام إلى الخلافة الإسلامية في ذلك الوقت وهي الدولة العثمانية (٣) ٠

وقد أثرت هذه الهجرة التي نظمتها الأغظفية ميادين علمية وثقافية حيث أنشأ العلماء رسائل وقصائد وأنظاما في حكم الهجرة من بلاد الكفر أو دار الحرب عند العجز عن الجهاد (٤) ٠

---

(١) المصدر السابق والمحاضر الموريتانية ص ١٧٠ وما بعدها ٠

(٢) الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ، مصدر سابق ص ١٣٩ . ١٤٠ ٠

(٣) بلاد شنقيط ص ١٢٤ ٠

(٤) المحاضر الموريتانية ص ١٣٨ وما بعدها ٠

وقد كونت الأغظفية مراكز زراعية وانمائية ساعدتها على البقاء فى وجه الضربات الموجهة إليها من جهة ، وأثرت الاقتصاد المحلي من جهة أخرى وكان بعض هذه المراكز مأوى لكثير من طلبة العلم ولو لم يكونوا من أتباع الطريقة الأغظفية .

وبهذا يكون قول الأستاذ الخليل النحوي : إنها سادت في فترات محدودة ، أو في مناطق محدودة ، وأنها أدت أدوارا هامة في محله .

ولكنها اجتمعت عليها أمور عديدة كادت تقضي عليها ، فمن هذه الأمور أن الفقهاء من جهة والاستعمار من جهة أخرى متفقون على مقاومة انتشارها ، ومحاربتها فمن الفقهاء وشيوخ الطرق الصوفية التي هي أقدم منها من يكفرها كما رأينا ومنهم من يبدعها ، والاستعمار من جهه أخرى يشتد عليها ويفتش ويصادر الداخل إلى مراكزها (١) فاجتمع عليها بسبب ذلك أن انحصر انتشارها في الداخل وفتح باب الهجرة لخروج معظم شيوخها وأتباعها إلى الخارج ، يضاف إلى ذلك اكتساح التجانية للمنطقة التي كانت تتمركز فيها . واستيعابها لأعداد كبيرة من الداخلين الجدد كما سنرى فيما بعد إن شاء الله تعالى .

يضاف إلى هذا توقف شيوخها أو بعضهم عن إعطاء الورد للوافدين الجدد كما تقدم ، وتغير أحوال المعيشة في البلاد بسبب توالي سنوات الجفاف الأمر الذي هلك بسببه الحرث والنسل وهذان هما مصدرا استمرار الحياة في هذه المراكز الأغظفية وغيرها حيث إن عمل المريدين المتجردين في الغالب في الزراعة ورعي المواشي وقد اجتث ذلك كله .

ولم تكن التجارة والعمل في المدن من شأنهم في السابق خصوصا أن معظمهم قد طعن في السن ولم يكن له اولاد بسبب نظام التجرد والعزوبة التي يفرضها ذلك النظام ، وبالتالى أصبح هؤلاء عالة على الشيوخ وأحفادهم ، وانحسرت الطريقة وبقي من كانت حضرته في الأصل لها دور علمي تبني عليه مستمرة فيه ، ومن لم يكن له في السابق مثل ذلك الدور استولى الجهل على أتباعه ، وبقي هو وهم يعيشون على ذلك الانتساب الغابر حيث يجنون من ورائه شيئا من حطام الدنيا .

والله أعلم .

---

(١) نبل المراد - المقدمة ج . د .

التجانيـــة :

ظهرت هذه الطريقة على يد أبي العباس أحمد بن محمد المختار بن أحمد ابن محمد سالم التجاني المضاوى ، المولود سنة ١١٥٠ هـ المتوفى على الأرجح سنة ١٢٣٠هـ (١) .

وتلقى عنه طريقته في فاس عدد من الموريتانيين ، كان من أشهرهم فيها ، وأكثرهم نشرا لها الشيخ محمد الحافظ ابن المختار بن حبيب العلوي المتوفى سنة ١٢٤٧هـ .

حيث عاد من فاس إلى بلاد موريتانيا في حدود سنة ١٢٢٠ هـ ، فنشر هذه الطريقة في قبيلته التي هي من أكثر قبائل موريتانيا علما . ومن أشهر من حمل هذه الطريقة عن الشيخ محمد الحافظ من الموريتانيين الموصوفين بالعلم : محمد بن سيدي عبد الله بن الفغ (الفقيه) سيدي أحمد ، الذي لقب (بالخليفة) لخلافته لشيخه محمد الحافظ المذكور (٢) (وكان المعتمد عنده الكتاب والسنة) . (٣) وسيدي أحمد بن محمد الصغير ، المعروف بابن التشيتي (٤) وسيدى عبيدة بن محمد الصغير التشيتي (٥) وسيدي عبد الله بن أحمد دام (٦) وسيدي مولود فال (٧) .

فعن هؤلاء انتشرت الطريقة التجانية في مناطق من موريتانيا وما جا ورها من بلاد افريقيا (٨) .

---

(١) يرجع في ترجمته إلى كتاب جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني ، تأليف : علي حرازم بن العربي براده المغربي الفاسي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٢ سنة١٣٩٣ هـ ج ١ ص ١٩ وما بعدها . وبغية المستفيد لشرح منية المريد ، تأليف سيـــدي محمد العربي السايح الشرقي العمري التجاني ، ط دار الجيل ، بيروت (بدون) ص ١٣٥ وما بعدها .

(٢) يرجع في تراجمهم إلى بغية المستفيد ، مرجع سابق ص ١٠ ، ٢٥٧ وما بعدها .

(٣) الوسيط ص ٣٠ .

(٤) نفسه ص ٨٩ .

(٥) نفسه ص ٢٨٨ .

(٦) بلاد شنقيط ص ١٢٣ .

(٧) الحياة الصوفية . المختار بن حامد ص ١٨ . ٨٢ وحاضر العالم الإسلامى جـ ٢ ص ٣٩٦ وما بعدها وبغية المستفيد ص ٢٥٩ ، ٢٦٥ .

(٨) الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ص ٢٧١ - ٢٧٣

وتعتبر التجانية من الطوائف التي عملت على نشر الإسلام ، وتكوين الدول ، ومحاربة الاستعمار في بعض المناطق ولكن هذا لم يشفع لها عند الطرق الصوفية التي هي أقدم في البلاد ، بسبب المنافسة ، ولا عند الفقهاء عندما أظهر أتباعها من الأمر ما يراه الفقهاء مخالفا للاعتقاد الإسلامي الصحيح والسلوك الشرعي المألوف .

فكان الشيخ سيدي المختار الكنتي من أول المهاجمين للتجانية وسلوكها العام حيث اعتبرها من الطوائف البدعية التي ظهرت في البلاد (.. ومنهم أصحاب الحضرات والرقص) ثم يوجه كلامه للشيخ المختارين بون في قوله في معرض الرد عليه بسبب تكفيره من اعتقد وجوب تصديق الأولياء . يعني الصوفية . فيما يخبرون به من الإلهامات والمنامات وغيرها فيقول له :

(ولو أن هذه المقالة الشنيعة كانت في أهل الدعوى الكاذبة الذين قد عموا البلاد ، وأكثروا الفساد وأعموا العباد لكان لقوله وجه) . ثم يضيف . (ومن ذلك ما ظهر في أقطار الأرض من دعوى طوائف شهوانية غوغاء شيطانية ... لو جاءهم إنسان فقال لهم إني نبي أرسلني الله بعد نبيكم لاستمعوا إليه ولم يظهروا النكير عليه ، ولو قال لهم إنه يتحدث مع الله ويأكل من ثمار الجنة ، ويعانق الحور لصدقوه ، لشدة جهلهم وغباوتهم ، وعدم عنايتهم بأمر دينهم ، فالتشديد على هؤلاء بالتنكيل التنديد والابعاد والتطريد آكد منه على الكفار.) (١)

قلت : وهذا من وصفه لحالهم وحكمه عليهم يدلنا علي أن ما ذكره التجانية من أن الشيخ سيدي المختار الكنتي حمد الله أن جعله في قرن خاتم الأولياء ، وأنه أراد بذلك الشيخ أحمد التجاني(٢) غير صحيح ، والذي ورد عنه في ذلك سنوضحه إن شاء الله في ختم النبوة والولاية في الفصل الخامس من باب العقيدة .

وقد تبع الشيخ سيدي المختار الكنتي في نقده للطوائف البدعية الشهوانية كما يقول ـ ولده وخليفته الشيخ سيدي محمد الكنتي ، حيث شدد النكير على أصحاب

---

(١) جذوة الأنوار ، مرجع سابق ص ٩٧ ، ١٠٨ ، ١٢٢ .

(٢) مجلة العربي ، الكويتية ، ربيع ثاني ، ١٤٠٢ هـ ص ١٤٢ .

الدعوى عموما وذكر أن من أصولهم الجهر بالذكر ، والاجتماع له ، والتغاشي فيه، والتشطح وإظهار التهالك والتساكر ، وبرأمن ذلك طريقته وحكم على ذلك كله أنه من البدع ، وأن أصحابه تؤثر فيهم الأبيات المنشودة ولا تؤثر فيهم الآيات المنزلة .

وأكد أنها حضرات مبتدعة ، وأن ذكر أصحابها لا ينير القلب ولا ينشر الرحمة (وأقبح من فعلهم التعامي عن الرد عليهم وافتضاح يا طلهم اذ لاحجة لهم ولا دليل ولا برهان ولا تأويل) (١) وقد عناهم الشيخ المختار بن بون فيمن عنى من الصوفية الذين قال فيهم : << من الطويل >>

(لئين كنتم استظهرتمو أن جعلتمـــوا أمور ا علينا في الشريعة لم تكن

فلا تنكروا أن كنت الكتب عنكـمو سرائر عنا حالة البحث لم تكن) (٢)

فواضح أنه يتهمهم بالابتداع في الدين ، وإحداث أمور في الشريعة لم تكن . وأن جهلهم بما في الكتب هو الذي أدى إلى ارتكاب هذه البدع .

وواضح جدا أن الشيخ سيديا بابه يعني التجانية فيمن عناهم بقوله : << من الرجز >>

(آمن أخي واستقم ونهج أحمد التـــزم

واجتنبت الطرق لا تغررك أضغاث الحلم

لا خير في دين لدى خير القرون منعـــدم

أحدثه من لم يجيء قطع بأنه عصـــــــم

من بعد ما قد أنزلت << أليوم أكملت لكم . >> (٣)

وإياهم يعني محمد بن أبن الحسني بقوله معرضا : << من الخفيف >>

<< غير أني والحمد للــه بالإيمـــــــــــان مستمسك وذاك أمان

جازم أن الأنبياء الطهـــــارى مستحيل عليهم الكتمان

بلغوا كل مـــا به أمـــروا مـــا كتموه وما نسوا ما خانوا

لست أحجو وردا وان جل عندي قاصرا عن إدراكه القرآن . >>

---

(١) الغلاوية ص ١٦٦ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ .

(٢) الوسيط ص ٢٨٢ .

(٣) حياة الشيخ سيديا بابه ، بقلم محمد بن أبي مدين ، على الآلة الكاتبة ص ٥ .

(٤) ديوانه ، مخطوط ص ٣ .

أما الشيخ سيدي أحمد البكاي الكنتي المعاصر للشيخ سيديابابه واللذان قارن بينهما بول مارتي الفرنسي في حدة الذهن وحب المعرفه (١) فإنه حارب التجانية نظما ونثرا ودخل معهم في معارك مسلحة حتى مات إمامهم الشيخ عمر الفوتي ٠

فقد نظم قصائد وأراجيز كثيرة ينفر الناس فيها من التجاني وأصحابه ، ويحمل خاصة على أتباع الحاج عمر الفوتي ٠ (٢)

ووجه رسالة في شوال عام ١٢٧٠ هـ إلى أهل مراكش يحثهم فيها على التمسك بالطريقة القادرية ، ويحذرهم فيها من الاختلاف ، ومن الطريقة التجانية موضحا لهم تناقضها وابتداعها في الدين، وما قامت عليه من الغلو والمبالغات في رفع مكانة شيخها التجاني (٣) ٠

أما الشعر الذي هجيت به التجانية في موريتانيا فصيحا وعاميا فإنه لو جمع لكان في عشرات الدواوين ، وما زال الناس يحفظونه وينشدونه في مجالسهم الخاصة والعامة ، ويستدلون به على ما يريدون في دراساتهم ومحاضراتهم ٠ ومن أشهر من تصدى للتجانية في بداية أمرها من وصفه صاحب الوسيط بنابغة قطره وجريرعصره (٤) اد ييج بن عبد الله الكمليلي (٥) وكان شعراء التجانية لا يجيبونه لأمر الشيخ محمد الحافـظ المتقدم الذكر ، فلما مات هاجموه واقذعوا له فازداد عليهم جرءة وشراسـة ٠ (٦)

قلت : وأمر الشيخ محمد الحافظ بن المختار بن الحبيب العلوي بعدم الرد على منتقديهم يمكن أن يكون سبب سكوتهم عن الشيخ سيدي محمد الكنتي وأمثاله لـمـا

(١) كنتة الشرقيون ص ١٠٠ ٠
(٢) انظر كنتة الشرقيون ص ١٠٣ - ١٠٤ ٠
(٣) انظر الرسالة المذكورة في الخزانة العامة بالرباط ، رقم (د ١٠٧١) ص ١ ـ ٢٢
(٤) الوسيط ص ٣١ ٠
(٥) نفسه ص ٣٦٨ ٠
(٦) يراجع بلاد شنقيط ص ٥١٦ ـ ٥١٧

علم من تصاممهم عن الرد عليهم وعدم إجابتهم للناقد لهم والهاجي لطريقتهم ، على الاقل فى حياة الشيخ محمد الحافظ المتوفى سنة ١٢٤٧ هـ وقد مات الشيخ سيدي محمد الكنتي قبله سنة ١٢٤١ هـ ولما أطلقوا ألسنتهم بالرد والهجاء ، وأقلامهم بالتأليف ، ازداد أهل العلم في نقدهم والرد عليهم ، وشددوا في النكير عليهم ، حتى اتهموهم بالردة والزندقة ، الأمر الذي نتجت عنه معارك مسلحة ، زادت ضحاياها على الثلاثمائة نفس (١) .

ونتجت عنها سجون ومحاكمات ، ونفي وتشريد . (٢)

وأثار كذلك موجة من المؤلفات وزوبعة من المهاجاة (٣) فألف الشيخ محمد الخضرين ما يأبى الذي قال فيه صاحب الوسيط : (الإمام الدراكة الفهامة مالك زمانه) (٤) . ألف كتابه (مشتهى الخارف الجاني في رد زلقات التجاني الجاني) (٥) .

وألف الفقيه سيدي بن عبد الجليل الملقب بسيدي بن حين رسالة في تضليل التجانية ومن يشاكلها وقال فيهم إنهم : (أكفر من فرعون والشيطان) (٦) .

---

(١) يرجع إلى : الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ، مرجع سابق ص ١٣٥ . ١٣٧ .

(٢) نفسه ص ١٣٦ . ١٣٧ .

(٣) الوسيط ص ٣٠ . ٣١ و ٨٩ . ٩٠ و ٣٦٨ . ١٦٩

(٤) الوسيط ص ٣٨ . ٨٩ قلت : والعجيب أنه يثنى عليه هذا الثناء الحسن وهو يعرف أنه ألف مشتهى الخارف الجاني المذكور ثم هو يرد على النبهاني بكتاب سماه : درء النبهاني عن حرم سيدي أحمد التجاني ، طبع بمصر سنة ١٣٣٠ هـ أي قبل وفاته بعام حيث إنه توفي سنة ١٣٣١ هـ بالقاهرة ، علما أنه لم يذكر شيئا مما هجيت به التجانية ، وادعى عند ترجمته لاديبج أنه لم يحفظ شيئا من شعره قال : (وما أحفظ شيئا من شعر إديبج) ولكنه حفظ مارد عليه به . انظر الوسيط : ص ١٧ . ١٨من المقدمة و ص ٣٦٨ وانظر اعتذارالدكتور محمد المختار ولد اباه عنه في مقدمته للوسيط ص ٩ .

(٥) طبع الكتاب في دار البشير بعمان الاردن سنة ١٤٠٥ هـ .

(٦) مخطوط خاص ص٤

وبدخول الاستعمار الفرنسي افريقيا ومقاومته لانتشار التجانية أخذت التجانية في تضاؤل بالنسبة إلى ما كانت عليه في السابق في عهد الشيخ عمر الفوتي وخليفته في السياسة والحكم (١) .

ومع ضعف التجانية كدولة تنشر العقائد التجانية والسلوك الصوفي بالقوة والجهاد والسياسة فإنها بقيت طريقة منتشرة في مساحة كبيرة في أفريقيا ، وهي وإن لم تكن في الواقع أكثر أتباعا من الطرق الصوفية الأخرى فإن أتباعها أكثر حركة ونشاطا وترويجا لما عندهم ودفاعا عنه بالحق أو الباطل (٢) ولا شك أن المعارك العلمية والعسكرية التي خاضتها التجانية حدت من قوتها ونشاطها ، ويتوقع بعد موت شيوخها الكبار وعدم وجود ما كان عندهم من علم وقناعة ونشاط عند خلفائهم أن يخمد الحماس في الأتباع ، ويكتفي الشيوخ الحاليون منهم بإظهار الولاء وتقديم الهدايا والأعطيات وانشاد المدايح ، والإتيان بما تيسر من أوراد الطريقة ، وفي الاكتفاء بهذا الحد من العوامل ما يكفي للقضاء مع مرور الزمن على الطريقة التجانية ، إلا إن حولت منهجها إلى الدعوة بالسلم والتساهل والسماحة ، وهذه أمور كانت تنتقدها التجانية فور نشأتها الأولى على الطرق الصوفية التي كانت قبلها في أفريقيا (٣) .

---

(١) الاسلام والثقافة العربية في افريقيا ص٢٧٣ وحاضر العالم الإسلامى جـ٢ ص ٣٩٧ . ٣٩٨ .

(٢) انظر التجانية ، تأليف : علي بن محمد الدخيل الله ، ط الرياض دار طيبه سنة ١٤٠١هـ وإبراهيم انيس وآراؤه ، تأليف محمد الطاهري ميغري الفلاني البرناوي ، ط دار العربية ، بيروت ط ١ سنة ١٤٠١ هـ .

(٣) انظر استطلاع مجلة العربي الكويتية ، ربيع ثانى سنة ١٤٠٢ هـ ص١٤٢-١٥٢ والاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ص ١٣٢ وما بعدها ، و الإسلام والثقافة العربية في افريقيا ص ٢٧٢ .

فروع التجانية :

تشعبت التجانية في الآونة الأخيرة إلى شيوخ وشعب كثيرة كل يرى أنه هو الشيخ الذي ينبغي للجميع اتباعه ، لكن من أهم هذه الفروع التي تعد الآن أصولا فرعين هما :

الحافظية والحموية •

الحافظية :

وهي منسوبة للشيخ محمد الحافظ السابق الذكر ، وقد انتشرت في موريتانيا وفي سينغال ومالي وما جاورهما على يد كل من الحاج عمر تال المتوفى سنة ١٢٨٠ هـ ، والحاج مالك المتوفى سنة ١٣٤٠ هـ والحاج عبد الله انياس المتوفى ١٣٤٠ هـ ثم ابنه إبراهيم المتوفى سنة ١٣٩٥هـ ومنه انتشرت الطريقة التجانية إلى أفريقيا الوسطى وخصوصا في نجيريا (١) •

الحموية :

الحموية تنسب إلى الشيخ حماه الله الشريف التشيتي المتوفى في المنفى الفرنسي بفرنسا سنة ١٣٦٣ هـ •

انتشرت عنه الطريقة التجانية الحموية ، ولاسيما في شرقي موريتانيا ومالي وقد ترجم له رئيس المخابرات الفرنسية أيام الاحتلال الفرنسي لموريتانيا ترجمة كاملة ، وتابع تطور حياته ، ونشأة طريقته ، وما سببته للمستعمر من إزعاج ، وللقبائل المجاورة لها من زعزعة الأمن والحروب ، وما آل إليه أمرها ، وقد كتب هذا الفرنسي عن معايشته لهذه الطريقة ونقل عن مخابر قبله وهو بول مارتي (٢) •

وقد أقتصرت في الحديث عن التجانية فلم اتعرض لوردها وغلوها وشطحها واكتفيت بالاحالة على المراجع التي تخصصت في دراسة عقائدهم وأورادهم وآرائهم فذلك أفضل للقارىء في تكراري أنا له هنا • والله أعلم •

---

(١) رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم للشيخ عمر بن سعيد الفوتي ، مرجع سابق بهامش جواهر المعاني جـ ١ ص ٢٠١ وما بعدها • وبغية المستفيد على منية المريد ص٢٥٩ ، والحياة الصوفية ، المختار بن حامد ص ٨١ . ٨٢ •

(٢) الاستعمار الفرنسي في إفريقيا السوداء ص ١٣٢ وما بعدها •

الفصل الثالث

الفصل الثالث

فروع القادرية ومراكز انتشارها .

وفيه المباحث الآتية بعد التمهيد :

المبحث الأول : البكائيه (المختارية) وفروعها

المبحث الثاني : الفاضلية وفروعها: سلاسل القادرية في موريتانيا

المبحث الثالث : وفيه مطلبان :

المطلب الأول : سلسلة البكائية (المختارية)

المطلب الثاني : سلسلة الفاضلية

التمهيـــد :

تناولت المباحث السابقة النشأة الأولى للقادرية في موريتانيا ، وأهم مراكزها ووسائلها في نشر واستقرار طريقتها في ذلك المجتمع البدوي المتنقل ، والقبلي المتصارع، الذي لا تجمعه دولة أو سلطة ، ولا تحده حدود جغرافية .

وتناولت كذلك مظاهر ذلك الانتشار وذلك الصراع الذي أخذ أشكالا مختلفة علمية تارة ، وحربية أخرى ، قبلية مرة وطرقية عصبية في أشكال أخرى .

ولئن أسهمت تلك المنازعات في الحد من انتشار الطرق الصوفية في موريتانيا في بعض المناطق أو بين بعض البيئات العلمية المختلفة ، فإنها ظلت تنتشر وتؤثر في بعض الأفراد الذين كان لهم فيما بعد أثر كبير فى الحياة العلمية والأدبية ، الأمر الذي جعل منهم قدوات تحتذى ، وأضفى عليهم قداسة روحية تمنع من نقدهم أو حتى توجيه اللوم لهم ، فازداد بذلك اعتقاد الناس فيهم ، وتجمعهم حول حضراتهم .

هذا مع ما عرف عنهم عند الناس من رعاية طالب العلم أو الطريقة ، والقيام على الجار والمسكين ، ونشر روح المسالمة والمحبة بين المجاورين لهم ، مقابل ما عرف من القسوة والسلب والنهب ، والحروب بين المجتمعات البعيدة منهم والتي لا تأخذ بطريق أهل العلم ولا بطريق أهل التصوف ، وكان الذى يمن الله عليه بالتوبة من حياة السلب والنهب والخروج من تلك المجتمعات الجاهلية يجد أمامه طريقين للخلاص :

أ) طريقة طلب العلم على أيدي الفقهاء والقراء ، وهي طريقة شاقة ، وليس كل الناس مؤهلالها أو للدخول فيها أو التحصيل النافع إذا هو غامر ودخل فيها .

ب) طريقة أهل التصوف التي عرف عنها التساهل في قبول المريدين ، واكتفاء كثير من شيوخها من المريدين بقدر قليل من فروض العيـن ، واستعمال الأوراد والوظائف اليومية ، والعكوف على خدمة الشيخ وذويه ، وأنه بذلك يحقق في وقت قصير مالا يحققه لو قضى عمره في طلب العلم . فيختار بعض الناس التوجه إلى زوايا وحضرات الطرق الصوفية لهذه السهولة والحصيلة الموعودة ،

وبذلك عظمت مراكزها وانتشرت فروعها ، وتولت قيادة قبائل بكاملها ، وأثرت في مناطق كثيرة لانتشار أتباعها فيها عبادا أو سواحا وتجارا (١) وقد اشتهرت في بلاد موريتانيا طريقتان قادريتان هما :

البكائية (المختارية) (٢) والفاضلية (٣)

وتفرعت عن كل منها فروع كثيرة في موريتانيا وخارجها ، ولكن مع مظاهر هذا الانتشار للطرق الصوفية فإن المنتظمين فيها فعلا لايتجاوزوه ٣ ٪ من عدد السكان في أي بلد من البلاد الإسلامية (٤)

والمقصود هنا تحديد مسير كل من هذين الأصلين وما تفرع عنهما ، وعرض سلسلتيهما في الطريقة القادرية ، وبيان ما بينهما من علاقات أو ميزات حتى يتضح مشرب كل منهما ، ومدى تعمقه في الفكر الصوفي ، وأثر ذلك على العقيدة التي هي مقصد البحث الأول .

---

(١) يرجع إلى : الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي ص ٣٨٤ ـ ٣٨٨ و ٤٠٩ وما بعدها . والدعوة إلى الاسلام ، لسير توماس ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٢) حاضر العالم الإسلامي جـ ٢ ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦ و ٣ ، ٤٥ ـ ٤٦ و ٥٣ ـ ٥٤ .

(٣) الاستعمار الفرنسي في افريقيا ص ١٠٨ ـ ١١٠ .

(٤) انظر دائرة المعارف الإسلامية جـ ١٥ ص ١٧٦

أولا : البكائية (المختارية)

تنسب هذه الطريقة إلى اثنين من شيوخها ٠

أولهما : الشيخ سيدي أحمد البكاي (١) وإن كان ابنه الشيخ سيدي عمر الشيخ هو المجتهد في نشرها (٢) كما عرفنا في السابق ٠

ثانيهما : الشيخ سيدي المختار الكنتي من أحفاد المتقدم ، ومن الذين تصدروا في الطريقة القادرية وعملوا على نشرها ، وبنوا عليها مكانة دينية في موريتانيا وخارجها (٣) ٠

وصل أجداد الشيخ سيدي المختار الكنتي كما يقول ابنه الشيخ سيدى محمد الكنتي في الغلاوية إلى أزواد بالصحراء شرق موريتانيا حاليا سنة ١١٣٠ هـ (٤) ٠

وانتشرت هذه الطريقة من مراكزها الأولى التي ذكرناها سابقا ، ثم من أزواد مقرها الرئيسي الجديد حيث كان الشيخ سيدي المختار الكنتي يصدر مريديه ويعين منهم مقدمين ونوابا عنه في المناطق النائية عنه (٥) ثم انتشرت هذه الطريقة إلى البلاد الافريقية المجاورة (٦) وتأسست فيها مراكز على نهج المركز الرئيسي في أزواد ، ثم عملت هذه المراكز الفرعية على نشر الطريقة المختارية فأنشأت المدارس والزوايا حتى كاد بعضها يستقل دون المركز الرئيسي الأمر الذي اعتبره الشيخ سيدي المختار الكنتي وابنه سيدي محمد من بعده مروقا أو خروجا عن الطاعة أو

---

(١) انظر ترجمته في فتح الشكور ص ٣٠ . ٣١ ٠

(٢) تقدم الكلام عن صحبته للمغيلي وخلافته له ٠

(٣) وستأتي ترجمته مستوفاة إن شاء الله في أول تراجم أعلام القادرية ٠

(٤) الغلاوية ص ٧١ وانظر الوسيط ص ٤٥٨ ٠

(٥) جنة المريد ص ١٩٩ . ٢٠٠ ٠

(٦) حاضر العالم الإسلامي جـ٢ ص ٣٩٥ والمدرسة الكنتية القادرية لمحمد المديوني . مخطوط خاص ٠ ص ٢ . ٣ ٠

حبا للرئاسة والوجاهة وجمع حطام الدنيا (١) ٠

ويمكن الحديث عن توزيع مراكزها الرئيسة على النحو الآتي :

أ) المركز الرئيسي بأزواد وشيوخه :

- الشيخ سيدي المختار الكنتي (١٢٢٦ هـ)
- ابنه الشيخ سيدى محمد (الخليفة) (١٢٤١هـ أو ١٢٤٥هـ)
- ابنه الشيخ سيدي المختار (الحفيد) (١٢٦٣هـ) (٢)
- أخوه : الشيخ سيدي أحمد البكاي بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي الكبير (١٢٨١ هـ) وفي عهد هذا الأخير دخل الاستعمار الفرنسي البلاد ووقعت بسببه فتن كثيرة ، داخلية ، وظهرت أطماع خبيثة أجنبية استعمارية ٠ (٣)

ولذا قال (بول مارتي) : إن السلطة الروحية لهذا المركز تناثرت بين شخصيات مختلفة أكثرها نفوذا وسلطة في عهد الاستعمار الفرنسي للمنطقة علواته بن حمادي وبابي ولد سيدي عمر : (أما اليوم فليس هناك من زعيم روحي وحيد ٠ فالسطة المعنوية تقسمت بين شخصيات مختلفة ، كان نفوذها محسوسا في القبائل التي تحيط بها) (٤) ٠

قلت : وكان الاستعمار بدسائسه وراء ما حصل للنطقة من نزاعات وتوزيع الزعامات والمكائد حتى بين الإخوة ، حيث إن من أطاع الكفار المستعمرين وتعاون معهم سلطوه على إخوانه الآخرين الذين أخذوا بواجب الجهاد فتشتت بذلك وحدة

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١٦٤ وجنة المريد ص ١٩٧ . ١٩٩ ٠
(٢) المدرسة الكنتية القادرية بأزواد وغرب افريقيا ص ٢ ٠
(٣) كنتة الشرقيون ص ١٥٠ - ١٥١ ٠
(٤) نفسه ص ١٥٠ ٠

المسلمين وتمكنت منهم في النهاية الدولة الكافرة فرنسا (١) ٠

ب) أما الزوايا والمراكز التي انبثقت عن هذا المركز فهي كثيرة نقتصر على أكثرها شهرة وأعظمها أثرا في موريتانيا وما جاورها من الدول ٠

لقد عد بعض الكتاب الغربيين الذين كانوا بمثابة أقلام للاستعمار ودرسوا من أجل مهمتهم جميع مظاهر الحياة في تلك البلاد . عدوا مراكز كثيرة لهذا الفرع القادري البكائي (المختاري) فعد لوثروب الآمريكي المراكز الآتية في قوله : (والقادرية كثيرون جدا في المغرب وزاويتهم الكبرى في (عزوات) . (يعني أزواد) . أسسها الشيخ مختار الكبير ٠ وبعد وفاته انقسمت القادرية إلى ثلاث فرق : الأولى : القادرية البكائية الذين مركزهم الزاوية المذكورة ، وقد انتشروا إلى (تمبكتو) ٠ الثانية : القادرية الذين في (آدرار) ٠ (٢)

الثالثة : القادرية الذين في (والاته) وقد انتشروا إلى السودان الغربي فلهم مراكز في (كانكان) و(تيمبو) ، من بلاد (فوتا جالون) (٣) وفي مورسارد من بلاد الماندنيق (٤) ومن هذه النقطة امتدوا إلى الجهات المجاورة فعمروا ديار بلال الله ، وذكير الله ومدينة ، وما زالوا حتى وصلوا مقاطعة سيراليون) ٠ (٥)

---

(١) انظر نفس المرجع ص١١٣ وما بعدها ٠ وسيأتي مزيد بيان لذلك في مبحث الجهاد

(٢) آدرار . بالبربرية معناه الجبل وهو إقليم كبير في الشمال الموريتاني وهو عبارة عن جبال وأودية ٠ انظر الوسيط ص ٤٢٨ ٠

(٣) بلاد تقع بين غينية والسينغال ، وهي بلاد جبلية وسكانها من جنس الجالونقة والبله والتريقولور وكلهم مسلمون وأمراؤهم يلقبون بالمامي بمعنى الإمام من جنس البله ، وعاصمتهم في السابق هي تيميو المذكورة في النص ٠

(٤) جيل من الزنج يضم الباقبارة ، والمالينكه ، والسوتيكه ٠

(٥) حاضر العالم الإسلامي ج ٢ ص ٣٩٥ - ٣٩٦ والبلاد المذكورة من ساحل غينية ومنها سيراليون ليبرية جمهوريتان افريقيتان ٠

ومن أشهر مصدري هذه الطريقة المختارية في موريتانيا السفلى (القبلة) الشيخ القاضي بن الحاج بن أشفق احمد بابا الاجيجبي ، الذي ستاتي ترجمته إن شاء الله والشيخ سيدي الكبير ، وستأتي ترجمته أيضا ..

وقد انتشرت المختارية في المغرب واشتهرت لها زوايا عديدة وأوقاف كثيرة ، فمن هذه الزوايا المغربية المختارية :

- زاوية الحاج محمد بن دح الزموري المختاري . قال عنه صاحب الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام : (وكان له إذن في إعطاء الطرق الثلاثه المختارية وبها اشتهر بل هو عمودها في المغرب ... أما المختارية فشد الرحلة من آزمور إلى بلاد الصحراء بقصد أخذها عن القطب سيدي المختار الكنتي فوجده توفي ولعله في العشرة الخامسة (١) فأخذ عن الشيخ سيدي المختار الخليفة .) (٢) ثم ذكر صلات وثيقة بينه وبين الشيخ سيدي أحمد البكاي وقال : (وغالب الظن أنه أخذها عنه أيضا ووقع لبعض المتأخرين الجزم بذلك ورجع إلى آزمور فشدت له الرحال من أقطار المغرب وشيدبها الزاوية المختارية هو والمقدم الطاهر.) (٣) توفي الحاج محمد بن دح الزمورى في المدينة المنورة سنة ١٢٨٤ هـ وأخذت عنه المختارية في الحرمين وزاوية فاس (٤) وزاوية مكناس (٥) وزاوية مراكش (٦) .

قلت : وقد تبلغ زوايا المختارية في المغرب والصحراء نحوا من عشر زوايا خاطب الشيخ سيدي أحمد البكاي في رسالته إلى أهل مراكش شيوخها بأسمائهم وحثهم

---

(١) لعله يقصد ابنه الشيخ سيدي محمد وقد توفي الشيخ سيدى محمد سنة ١٢٤١ هـ وقيل سنة ١٢٤٥ هـ .

(٢) هو الحفيد المذكور في الصفحة ١٩٨ .

(٣) الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ، للعباس بن إبراهيم ، ط الرباط جـ ٨ ص ٣٢٣ وما بعدها .

(٤) الإعلام ، المرجع السابق جـ ٨ ص ٣٢٤ .

(٥) نفسه .

(٦) نفسه .

فيها على ما تقدم من التزام الطريقة القادرية ، وخاطبهم مخاطبة الشيخ لأتباعه مصرحا بذلك (١) .

وقد أخذت المختارية عن ابن دح المتقدم في الحجاز فأخذها عنه في مكة المكرمة سيدي عمر بن المكي بن المعطي ابن الصالح صاحب الذخيرة (٢) .

وأخذها عنه خلق آخرون منهم : ابن طاهر - أبو الحسن على بن ظاهر الوتري المدني الحنفي المولود سنة ١٢٦١ هـ والمتوفى في المدينة المنورة سنة ١٣٢٢ هـ قال الكتاني في معرض بيانه لشيوخ المذكور : (وبالجملة فشيوخه كثيرون ، ومن أغربهم روايته للطريقة المختارية عن (باشا) فاس : عبد بن أحمد بن موسى البخاري عن ابن دح دفين المدينة) (٣) ويظهر الشيخ سيدي محمد الكنتي في الطرائف والتلائد مدى انتشار مراكز القادرية المختارية فيقول : (... وكذلك الشيخ رضي الله عنه ، فإن الله تعالى لم يتوفه إليه حتى لم يبق موضع مما بين برق الأكراد إلى برك الغماد إلا وله فيه أتباع وأشياع يكونون أعيان ذلك الصقع الذي هم به ، فإن العدال محمد الباقر الذي هو أمير برن وماولاها كاتب الشيخ رضي الله عنه وأهدى إليه ، ودخل تحت طاعته ، وكذلك أمراء فلان وعلماؤهم عموما وخصوصا العلامة القائم بالدعوة إلى الله عثمان بن محمد ابن عثمان ابن فودى وأخوه المريد الفقيه عبد الله ، وابنه العالم الوزير محمد بل(٤) وسائر متغلبي الطوارق من : (أهير ودنك ولمدن وهكار وتدمكت) (٥) وعامتهم

---

(١) الرسالة المذكورة ، الخزانة العامة بالرباط (د ١٠٧١) ص ١ - ٢ والمدرسة الكنتية القادرية ص ٤ - ٥

(٢) الإعلام جـ ٨ ص ٣٢٣ .

(٣) فهرس الفهارس والأثبات ، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، عبد الحي عبد الكبير الكتاني ، دار الغرب الإسلامي ، ج ١ ص ١٠٨ .

(٤) يرجع في التعريف بالمذكورين إلى كتاب : الدعوة الإسلامية في غرب افريقيا وقيام دولة الفلاني ، مصدر سابق ص ١٥٨ وما بعدها .

(٥) هذه أسماء قبائل من الطوارق ورد ذكرها كثيرا في النزاعات القبلية التي أرخ لها صاحب الطرائف ، وانظر كنتة الشرقيون ص ١٥٥ وما بعدها .

فى ذلك كخاصتهم ثـم رؤساء السودان والبنابرة وفلان والرماة مابين (ابدحل) و(كاشن) ، قبل تغلب فلان واستيلائهم على البلاد السودانية (١) ثم رؤساء المغافرة من أولاد عبد الله والترارزة إلى أولاد داوود بن محمد من بقي منهم ، وأولاد الفحفاح ، وادوعيش ، وأولاد الناصر وأولاد أحمد أكيد وغيرهم ممن تحت أيديهم من القبائل اللمتونية المتغلبين هم عليها ، وكذلك عرب الصحراء من بني أدليم اسنانيهم ومعرفيهم واعريب وأدي امنيع وعرب توات ابناء أعمر بن ملوك وأولاد زنان، وابناء احريز وأولاد الحاج وأولاد محمد ومن تحت أيديهم من بقايا زناتة .) (٢)

---

(١) يشير بذلك إلى ظهور الشيخ عمر بن سعيد التجاني ، الذي أقام امبراطورية كبيرة في غرب افريقيا وظل يتوسع حتى حاربه الشيخ سيدي أحمد اليكاي خليفة صاحب النص . حيث ماتا في شهر واحد تقريبا . واستولى الاستعمار الفرنسي بعدهما على البلاد كما تقدم بيانـــه .

(٢) الطرائف والتلائد ص٥١٨ وقد وافق بول مارتي على صحة هذا الانتشار الواسع للقادرية المختارية حسب معلومات وتتبعات خبراء الاستعمار انظركتتة الشرقيون ص ٧٤ . ٧٥ و ص ١٥٣ . ١٥٤ والقبائل المذكورة قبائل موريتانية تعمها (اللهجة الحسانية) راجع : حاضر العالم الاسلامي جـ ٢ ص ٣٦٠ . ٣٦٩ .

ثانيا : الفاضيلية وفروعها

تنسب هذه الطريقة إلى الشيخ محمد فاضل بن مامين (محمد الأمين) المتوفى سنة ١٢٨١هـ وقد اعتبرت هذه الطريقة فرعا من الطريقة الأغظفية ، التي تقدم الحديث عنها • ويؤيد هذه النسبة التي ذكرها بعض الباحثين وجود الطريقتين في منطقة واحدة هي الحوض الشرقي الموريتاني ، وكثرة ذكر الشيخ محمد فاضل للشيخ محمد الأغظف وثنائه عليه ثناء المريد على شيخه ، ومجاورته لقبره بعد موته ، واعتباره أن الفتح الذي جاءه إنما هو ببركة هداياه للشيخ محمد الأغظف ، ومجاورته عند قبره • (١)

يضاف إلى ذلك صحبته الفعلية لأهم وأعظم تلاميذ الشيخ محمد الأغظف ومصدريه كمحمد الأمين بن عبد الوهاب ، وسيدي محمد بن أحمد الأسود ، وأحمد زروق بن محمد الأغظف (٢) وإظهاره أيضا لما كان يدعو إليه الشيخ محمد الأغظف من الانفتاح على جميع الطرق الصوفية وإعطائه الأوراد القادرية والشاذلية لكل الناس (٣) •

وقد كتب الاستعمار الفرنسي عن هذه الطريقة ، واهتم بها لبروز شيوخ كبار فيها ، ولانتشارها في جل مستعمراتهم الإفريقية ، ثم لقيام الشيخ ماء العينين في الشمال الموريتاني والمغرب بواجب الجهاد ضد أطماعهم •

فمن الكتاب الفرنسيين الذين كتبوا عن هذه الطريقة رئيس المكتب الخامس أي مصلحة التجسس الفرنسية حيث قال:(الطريقة الفاضلية : نشأت في قبائل

---

(١) الضياء المستبين - أنظر منه ص ٨ و ٢١٧ - ٢٢٢ و ٣١٧ و ٣٤٥ •

(٢) نفسه ص ٣١٧ - ٣٢٠ •

(٣) أنظر القادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ، حامد بن محفوظ بن بو بكر سيره، انواكشوط ١٩٨٤م ص ١٠ •

زناقة (١) في منطقة (الحوض) - الذين عرفوا بأهل طالب المختار - وقد نشأت في حجر الطريقة القادرية ، وهي عبارة عن رد فعل منطقي من قبل الشيوخ الذين هم رؤساء الطرق المعارضين للمحسنين ضد النفوذ السياسي والديني اللذين تتمتع بهما قبيلة (كنتة) التي لم ترد كما رأينا سابقا بالرغم من أصلها الزناتي أن تنفصل عن القبائل (الصنهاجية) وأن تدعم التفوق العربي في موريتانيا ٠

ومؤسس هذه الطريقة هو الشيخ محمد فاضل (عاش من ١٧٨٠ - ١٧٦٩م كذا وخطؤه واضح والمعروف أنه توفي سنة ١٢٨٧هـ) واستند في تأسيس طريقته على أن كل الطرق التي حسب مفهوم الإسلام السني تقيم أسس الشريعة ، كل هذه الطرق مرغوب فيها ، وقد جعل طريقته كأنها مركز التقاء وقطب جاذبية لكل هذه الطرق لتي تعمل ضمن نطاق الشريعة الإسلامية وبفضل بركته الخاصة - فهو يعلم الورود (٢) كل الطرق الأخرى لا القادرية فحسب - تمكنت هذه الطريقة بمثل هذه الانتهازية أن تؤسس لها أتباعا روحيين انتزعوا من شيوخ الطرق القريبة ومن مقدميها - على حساب بقية الطرق لا سيما وأن تعاليمها تنص على جواز الانتساب في آن واحد إلى عدة طرق كما أنها مفوضة لإعطاء أي ورد من أوراد جميع الطرق الأخرى) (٣) ٠

ويرجع الإدراي الفرنسي (بيري) - كما يقول الأستاذ حامد بن محفوظ - هذا الانفتاح الذي أخذت به الفاضلية كمنهج لها تجاه أهل التصوف عموما إلى أنه من سياسة الشيخ محمد الأغظف الذي تنسب إليه الطريقة الغظفية (إلا أنها لم تطبق إلا مع الشيخ محمد فاضل) (٤) ٠

وهذا ما يؤكد أن الفاضلية فرع من الأغظفية التي تبين في السابق أنها ناصرية درعية كما قال به بعض الباحثين ، ولكن إذا وافقنا هؤلاء الباحثين فيما

---

(١) سيأتي بيان مراد المؤلف بهذه النسبة ٠

(٢) يريد : أنه يعلم أوراد كل الطرق الأخرى ٠

(٣) الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ص ١١٩ - ١٢٠ انظر من هذا البحث ص ٢٨٠ ٠

(٤) القادرية بين قبول الاستعمار ورفضه ص ١٠ ٠

ذهبوا إليه من اعتبار الفاضلية فرعا من الأغظفية فإننا نجد لها مصادر أخرى ساهمت في تكوينها ، وتغذية مشربها الصوفي العام ٠

من ذلك أن صاحب الضياء المستبين يذكر صحبة لجد الشيخ محمد فاضل لأمه مع الشيخ سيدي المختار الكنتي وأنه أعطاه حكمة يبلغها للشيخ محمد فاضل وذلك قبل أن يولد ، وبشره بأنه سيولد (١) ٠

وذكر مثل ذلك عن شيوخ آخرين (٢) وذكر غيره صحبة للشيخ محمد فاضل مع خليفة الشيخ سيدي المختار الكنتي ، الشيخ سيدي محمد الذي انتشرت البكائية (المختارية) في عهده بتوسع كبير (٣) ولكن نجد (بول مارتي) بعد أن ذكر فروع البكائية المختارية يقول :

(وسنذكر أخيرا الفاضلية في السودان وسنغال والصحراء الغربية ، والذين - والحق يقال - يرفضون أن يكونوا تلامذة المدرسة الكنتية ، ولكنهم استفادوا بالتأكيد من الإصلاح الطاريء على الدراسات الصوفية ، والتقوى الإسلامية التي تعود للشيخ سيدي المختار الكبير وتبدو الرواية مهما كان موقفها ، صريحة في هذا المجال ، ويبدو الأمر في الواقع مقبولا إلى حد كبير) (٤) ويؤكد هذه الاستفادة المذكورة هنا كثرة ذكر الفاضلية في كتبها للشيخ سيدي المختار الكنتي وابنه وخليفته الشيخ سيدي محمد ، والاعتماد على كتبهما في كثير من الروايات ، والسلوك الصوفي ، والثناء عليهما وعلى مؤلفاتهما (٥) ٠

---

(١) سيأتي إن شاء الله في باب العقائد عند الكلام على ادعاء علم الغيب الكلام على هذا وأمثاله ٠

(٢) الضياء المستبين ص ٢١٦٦ - ٢١٧ وانظر : فاتق الرتق على راتق الفتق : تأليف ماء العينين بهامش نعت البدايات وتوصيف النهايات ، دار الفكر ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ ٠

(٣) مساهمة في إبراز الأدوار الفكرية والسياسية للشيخ ماء العينين ، عبد الله بن محمد الأمين ، أنواكشوط ١٩٨٤م ص ١٦ ٠

(٤) كنتة الشرقيون ص ١٥٤ ٠

(٥) انظر الضياء المستبين ص ٣٠ وغيرها نعت البدايات ص ٢١٨ ٠

ولكن الشيخ محمد فاضل حاول الجمع بين المختارية والأغظفية مع ما نجده من نقد حاد من الشيخ سيدي المختار الكنتي وابنه الشيخ سيدي محمد للأغظفية ، التي تعتبر الفاضلية على ما تبين فرعا منها ، حيث يصفهم بالإخلال بسنة الرياضة ، والصحبة ، والحسد والتكبر من أن ينسبوا إلى فلان أو فلان ، واعتبارهما لهم من أصحاب دعاوى التصوف في البلاد الغربية ويعرضان بهم تارة قائلين بأن بلادهم سائبة مما سلط أهل الظلم والجور على الناس ، الأمر الذي تسبب في البحث عن الأمور الوازعة للظلمة والقطاع من علوم الشر والمخرقة والشعوذة بدعوى الولاية (١) .

ومع ذلك فالشيخ محمد فاضل لا يعترف لأحد بمشيخة عليه إلا لوالده وأجداده ، وأن مشيخة والده عليه محدودة في أنه علمه الورد القادري ، وأعطاه حكمة وعممه ، وصدره - على ما سيأتي إن شاء الله عند ترجمته ، وذكر سلسلته في الطريقة (٢) .

فروع الفاضيلية :

الذي يظهر عند البحث عن مصدري الشيخ محمد فاضل المباشرين أنهم قليل بالنسبة إلى كثرة المنتسبين لطريقتة ، وخلو الساحة له نوعا ما(٣) وفتحه الباب أمام الداخلين غلى جميع المستويات العلمية والطريقة على مدى عمره الطويل (٤) .

وقد يعزى ذلك إلى نوع من السياسة الطرقية حيث تظل المشيخة في الطريقة حكرا على الشيخ وأبنائه ، والمقدمين من المخلصين له من أقاربه (٥) .

---

(١) انظر جذوة الأنوار ص ٩٧ . والغلاوية ص ١٨٧ ، ٢٠٩ ، ٢٧٢-٢٧٣ .

(٢) أنظر الضياء المستبين ص ٢٣٣ - ٢٣٥ .

(٣) الاستعمار الفرنسي في غرب افريقيا - انظر ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٤) الساقيه الحمراء مرجع سابق ص ١٣٣ .

(٥) أنظر الضياء المستبين ص ٢٥٥ وما بعدها .

وقد يعزى أيضا إلى كثرة الجذب المستمر القاطع عن الوصول إلى درجة التصدير والمشيخة حسب نظام الصوفية • وقد عرفت طريقته بمظاهر الجذب والشطح وغير ذلك مما يدل على عدم اعتدال العقل والاستقامة المطلوبة في المصدرين للمشيخة (١) •

ومع هذا كله فقد صدر عن الشيخ محمد فاضل شيوخ كان لهم أثر بالغ في الحياة العامة في موريتانيا وخارجها •

وكان من أشهر هؤلاء الشيوخ أبناؤه الثلاثة الذين وزعهم على البلاد الموريتانية غربا وشمالا وجنوبا مع الاحتفاظ بالمركز الرئيسي •

وهم : الشيخ ماء العينين ، والشيخ سعد أبيه ، والشيخ الحضرمي ، هذا مع ترك الباب مفتوحا للمتجولين من أبنائه الآخرين ومريديه المخلصين (٢) •

ولنورد هنا نصا ولو كان طويلا نوعا ما لأحد الكتاب الفرنسيين العاملين في موريتانيا يصور فيه توزيع أبناء الشيخ محمد فاضل وأهدافهم في اختيار هذه المراكز التي استقروا فيها ، وأثر كل مركز في محيطه واهتماماته - فيقول :

(وقد توزع أبناء الشيخ محمد فاضل هذا وعددهم ٤٨ توزعوا في كل الصحراء الكبرى الغربية ، واختاروا أماكن إقامة لها نقاط التقاء الطرق الكبرى التي تمر منها القوافل وأماكن تجمع البداة ومناطق التبادل بين الرعاة الصحراويين والزراع السود ، وأصبحوا يؤلفون حاليا أربع زمر هامة :

---

(١) انظر نفس المراجع ص ١٦٣ •

(٢) انظر الساقية الحمراء ١٢٣ •

١) زمرة أهل الشيخ سعد بوه - في منطقة طراره (١) الغربية في (موريتانيا) ، ورئيسها الحالي هو الشيخ طالب بويه (٢) ونفوذ هؤلاء في المقام الأول في البلاد السوداء : السنغال ، وغامبيا ، وغينيا الفرنسية ، وغينيه البرتغالية - وفي كازا عانس التي يوجد فيها زواية فرعية ومقدم من (الديولا) (٣) وهذه الزاوية توجد على مقربة من (ديولولو) (٤) وحركة الشيخ طالب بويه لزيارة أتباعه السود تشبه حركة سيرك (٥) متنقل لما فيها من الخيام والمظاهر ومن كل نوع أكثر مما تشبه جولة الصوفيين •

ولدى أهل سعد بوه نجد أن (القدر) المترعة قد حلت مكان كل روحية صوفية وكل سمو في القلب (٦) •

تعقيب : هذا النص حدد مناطق نفوذ هذا المركز الفاضلي الذي يقع في غرب موريتانيا ، وواضح أن صاحب النص يلاحظ أن هدف هذا المركز في عهد الطالب بويه هو التجول بين الأتباع في الأماكن المذكورة وجباية الأموال منهم • والله أعلم •

٢) (زمرة أهل الشيخ ماء العينين : وقد اختار هؤلاء منطقة (الريود والا) (٧) مجالا لعملهم - والشيخ ماء العينين هو أشهر أبناء محمد فاضل وقد أنشأ

---

(١) يريد « الترارزة » •

(٢) الطالب بويه : أحد أبناء الشيخ سعد أبيه هو ثالث خلفائه ، وقد استوفى الكلام عليه وعلى مصدري الشيخ سعد أبيه داخل موريتانيا وخارجها ، الاستاذ محمد يصلح بن الأمانه ، في بحثه : دراسة حياة الشيخ سعد أبيه • انواكشوط ، سنة ١٩٨٨م ص ٤٣-٤٥ •

(٣) قبيلة من الزنوج •

(٤) موضع •

(٥) نوع من الالعاب •

(٦) الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ص ١٢٠ •

(٧) هذه لفظة اسبانية تعني منطقة الصحراء في الشمال الموريتاني •

رباطه عام ١٨٨٠م في سمارة (١) في هذا الوادي الشهير بأوليائه ، والمعروف بالساقية الحمراء ، وقد كانت همته عظيمة جداً عل البدو الرحل (الرقيبات) (٢) حتى على سائر الشعوب البربرية القاطنة في منطقة الذراع والسوس ·

وهو الذي حرض على مذابح الدار البيضاء في عام ١٩٠٧م وقد أعلن نفسه سلطانا عام ١٩١٠م ودعا إلى الحرب المقدسة (الجهاد) وغزا مراكش برجاله (الزرق) (٣) واحتل مدينة مراكش وكاد يجدد بعد فترة ألف عام حركة المرابطين لولا أن وجودنا في مراكش في هذا التاريخ وضع حدا لجولته هذه فقد هزمت الحملة الفرنسية التي كان يقودها (مانجان) - في موقعة سيدي أبو عثمان عام ١٩١٢م (الهيبة) ولدماء العينين ·

وأما جماعة القادرية الذين أظهروا وحدهم موقفا عدائيا صريحا لتغلغل فرنسا في المغرب فقد ظلوا إلى عام ١٩٣٤ م (وهو تاريخ انتهاء فرنسا من إخضاع المناطق المراكشية الجنوبية تحت قيادة الجنرال جيرو) - رجال دين ومحاربين حقيقيين يلهبون بخطبهم قبائل الرقيبات البدوية ويدفعونها إلى حرب عصابات مستمرة ضد أفواج جنودنا البداة الموريتانيين ·

ولا يزال نفوذ القادرية هاما في منطقة الذراع وفي (الريو أورو) بسبب وجود أبناء ماء العينين ، الشيخ محمد ليمان ، والشيخ محمد الاغدف (٤) ولكن نفوذها يكاد لا يذكر في إفريقيا الغربية الفرنسية حيث لها بعض الأتباع في (أطار) (٥) يجتمعون على الشيخ بو نعمه) (٦) ·

---

(١) يريد منطقة السمارة ·

(٢) من القبائل الموريتانية الشماليه ·

(٣) قبيلة من قبائل الزوايا في الصحراء الغربية ·

(٤) يريد الشيخ محمد الإمام والشيخ محمد الأغظف ابنا الشيخ ماء العينين ·

(٥) أطار مدينة في الشمال الموريتاني سبق ذكرها ·

(٦) الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ص ١٢١-١٢٢ ويريد بـ (بونعمة) بوننه بن الشيخ ماء العينين ·

تعقيب :

هذا النص يعطينا علاوة على تحديد مراكز هذا الفرع الفاضلي وانطلاقاته - ما كان لشيخه الأول : ماء العينين من نفوذ ديني سياسي وجهادي ضد الاستعمار الفرنسي الكافر ، وسيأتي في ترجمته في الأعلام القادرية مزيد بيان لما قام به في المنطقة من أعمال كثيرة أجلها الجهاد في سبيل الله بنشر العلم أولا في منطقة كانت قاحلة منه ثم مقاومة الكفار الغزاة ٠

٣) (زمرة أهل الشيخ الحضرمي - يقيمون قرب نيمه (١) في منطقة الحصن (٢)، وانقسموا تحت تأثير (التجانية السنية) إلى طوائف عديدة وكثر الاختلاف بينهم - وأثرهم محلي محدود ولهم في ذلك أتباع لدى السود (الساراكوليه) ولدى (البامبارا) وفي قرى الحراتين (٣) في المثلث عيون العتروس - نعمة - نارة) (٤) ٠

---

(١) يريد : النعمة وهي مدينة في شرقي موريتانيا ٠

(٢) يريد الحوض ٠

(٣) هذا جمع لمن تقدم عليهم رق من الموالي وتجمعت منهم مجموعة للعمل في الزراعة واستصلاح الأودية والواحات إلا أن الناس ينطقون هذه التسمية هكذا (حرطاني للفرد وحراطين للجمع) وقد نقلت عن بعض أهل المعرفة أن أصل التسمية هو : حر ثاني أي حر من الدرجة الثانية ٠ أو أن أصل الكلمة حر طارئ فأبدلت الراء نونا لكثرة الاستعمال ٠

(٤) نفس المراجع ص ١٢٢ (ونارة) يريد بها النوارة ، ويقصد بالمثلث ما بين هذه المدن ٠

تعقيب :

فمع أن هذا الشيخ بقي على رأس حضرة والده ومركز طريقته الكبير فإن أثره كما يقول هذا الفرنسي محلي ومحدود ٠ وذلك لأسباب :

منها : اشتغال هذا الشيخ بسياسة قبيلته ، حتى ظهر أنه أصلح لشيخ قبيلة منه لشيخ طريقة ٠

ومنها : ظهور منافس جديد يستهوي العوام ، والجهال المحبين لأنواع الشطح والرقص والغناء والبذخ ٠

ومنها : قربه نسبيا من مركز البكائية المختارية في تيميكتو وأزواد ، وقد برز فيها شيوخ رحل إليهم الناس لطلب العلم خاصة ٠

هذا بالإضافة إلى ظهور شيوخ في الأغظفية أيضا اعتبروا مجددين فيها قرب هذا المركز ، أضف إلى ذلك التغيرات السياسية والاجتماعية التي أحدثها المستعمر ، وكانت من أهم أسباب كثرة الطوائف والخلافات ٠

ولكن جاء بعد فترة من الزمن إلى هذه المنطقة الشيخ التراد بن العباس بن الحضرمي فأحيا هذا المركز (الأم) ، وجدد فيه الفاضلية (١) ٠

٤) (زمرة أهل الشيخ محمد فاضل ولد عبيدي ، ويقيمون في الأدرار (٢) في منطقة حصن غورو ويفضلون العمل في تجارة القوافل بين أطار قوليمين - بيرمقرين (٣) على نشر الدعوة ، وكانوادوما يبدون تحفظا تجاهنا ٠) (٤) ٠

---

(١) انظر : نيل المراد ، المقدمة ج - ز ٠

(٢) يريد آدرار ، ومعناه بالبربرية : الجبل العظيم ، وهو عبارة عن جبال شاهقة تنتهي إلى أرض مستوية - أنظر الوسيط فإنه تكلم عليها بالتفصيل ص ٤٢٨ ٠

(٣) يريد : اقليم بئر أم قرين ، في الشمال الموريتاني ٠

(٤) الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ص ١٢٢ ٠

تعقيب :

الشيخ محمد فاضل بن اعبيدي وبنوه من أبناء عمومة الشيخ محمد فاضل بن مامين شيخ الفاضلية ، ويظهر من النص المنقول هنا عنهم أنهم يشتغلون بالتجارة ، والتنمية أكثر من اشتغالهم بالطريقة ، ولذا فأثرهم الصوفي محدود ٠

أما النفوذ السياسي فيظهر أنه كان لهم فيه ضلع بحكم ارتباط بالتجارة من جهة وبحكم قرابتهم من الشيخ ماء العينين الذي تقدم أنه كان قائد الجهاد وسياسة المنطقة الصحراوية حتى ربط سلاطين المغرب بالمنطقة حبا منه لكسبهم ضد المستعمر الفرنسي وغيره من الطامعين الغربيين (١) ٠

وللشيخ محمد فاضل مصدرون بارزون غير أبنائه وأهل قراباته المعدودين في طريقته وهم كثير حسب الروايات الشفهية ، ولكن نقتصر على ذكر أهم من ذكر لنا مشافهة أنه من مصدريه ثم وجدنا ذلك مكتوبا في حياة الشيخ محمد فاضل نفسه ، فمن هؤلاء :

(٥) الشيخ سيدي عبد الله بن سيدي أحمد الملقب بما يأبى الجكني :

(أدخله الشيخ محمد فاضل الخلوة مرتين وأعطاه علوما يحفظها في أثنائها ، وكان يدخل عليه في خلوته يعارضه القرآن ويحاوره في العلوم ٠) (٢) ٠

وقد اشتهر أولاده بالعلم عموما وعلم الحديث خصوصا ، فكان منهم العلامة الشيخ محمد الخضر صاحب:كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري (٣)

---

(١) انظر : القادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ص ٥٥ وما بعدها ٠

(٢) الضياء المستبين ص ٢٢٧ ٠

(٣) طبع من الكتاب ثلاثة أجزاء - وانتهى الجزء الثالث بباب كتابة العلم ، دار البشير عمان الأردن ط ١ سنة ١٤١٠ هـ وانظر ترجمة الشيخ في الجزء الأول منه ص ٧ - ١٠ وانظر الأعلام للزركلي جـ ٦ ص ١١٣ ٠

ومشتهى الخارف الجاني في رد زلقات التجاني المتقدم الذكر ومؤلفات أخرى بعضها مطبوع وبعضها مخطوط ، توفى في المدينة المنورة سنة ١٣٥٤هـ ومنهم أيضا العلامة الشيخ محمد حبيب الله بن الشيخ سيدي عبد الله مؤلف زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم ، وما عليه من تقييدات وتعليقات وغير ذلك من المؤلفات توفي بالقاهرة بمصر سنة ١٣٦٣هـ (١) .

ومنهم الشيخ محمد العاقب (أكثر إخوته العلماء الاثني عشر علما) توفي في فاس مهاجرا في سبيل الله بعد العجز عن مقاومة الاستعمار الفرنسي في بلاده موريتانيا ، وكانت وفاته في حدود سنة ١٣٢٧هـ له مؤلفات وأنظام وأشعار نافعة (٢) .

وقد كان لهؤلاء العلماء وذريتهم من بعدهم أثر كبير في الشام ومصر والحجاز وبلاد إسلامية أخرى كثيرة (٣) .

وهناك شيوخ آخرون مصدرون من الشيخ محمد فاضل ولكن لم نتمكن من التعريف بهم أكثر مما ذكره عنهم صاحب الضياء المستبين ، وهم :

محمد نعمة بن الإمام بن حكي صحب الشيخ محمد فاضل مدة أربع سنين فصدره للمشيخة ، (وأمره أن يتزيا بزي المشايخ) .

وسيدي عبد الله ابن أبي بكر البشير (الذي جاء إلى الشيخ على نية التجرد للخدمة فصدره في ثلاث ليال ، وكان له تلاميذ كثيرون) .

ومحمد المختار بن البشير بن الطالب صالح ، والطالب جد بن الرايس ، ومحمد الصغير بن محمد بن عبد الله) (٤) .

---

(١) أنظر : مقدمة زاد المسلم ، دار الفكر سنة ١٤٠١هـ ج١ ص١ - والاعلام للزركلي ٦-٧٩ .

(٢) انظر : بلاد شنقيط ص ٥٤٢ - ٥٢٥ .

(٣) يرجع إلى مؤلفاتهم وتراجمهم المطولة في مقدمات كتبهم .

(٤) انظر : الضياء المستبين ص ٣٢٧ .

المبحث الثالث : سلاسل القادرية

المطلب الأول : سلسلة البكائية (المختارية)

تقديم :

لقد تحمل الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي في كتابه : الطرائف والتلائد سرد سلسلة فرعه من القادرية ، والترجمة لشيوخها ترجمة متفاوتة في الدقة والإسهاب حسب معلوماته عن كل شيخ ٠

وفي هذه السلسلة ، التي نوه هو بصحتها وأثنى كثيرا على إسنادها عدد من الشيوخ الذين اعترض العلماء قديما على عقائدهم ، ومناهجهم في التربية والسلوك والتأليف والأحزاب والأوراد (١) ٠

ولكن المقصود هنا عرض هذه السلسلة المذكورة مع التعليق على ما يتضح فيها من ثغرات أو صلات موهومة بين بعض شيوخها ، أو موضوعة أصلا حتى لا يكون ذكرها سردا لا فائدة فيه ٠

ونبدأ السلسلة من الشيخ الذي أظهرها ونسبت إليه ، وهو :

١) الشيخ سيدي المختار الكنتي . وهذه هي البداية التي ابتدأ بها الشيخ سيدي محمد الكنتي هذه السلسلة فقال : (فأقول مبتدئا بختام سلك السلسلة ورأس نظام السادة المسلسلة المفترع له التأليف والمبتدع من أجله التصنيف والدنا الشيخ العلم والطود الشامخ الأشم أبو الأنوار والأسرار سيدنا وسيلتنا الى ربنا سيدي المختار) (٢) ٠

---

(١) سيأتي التعريف بها إن شاء الله في باب السلوكيات والعبادات ٠

(٢) الطرايف ص ١١٥ وستأتي ترجمة المذكور كاملة إن شاء الله ٠

٢) وهو عن الشيخ : سيدي علي بن النجيب بن محمد بن شعيب الشريف التكروري المتوفى في حدود سنة ١١٧٠ هـ عن نيف وثمانين سنة ٠ وقد خرجت إليه رئاسة القادرية البكائية عن قبيلة كنتة بموت شيخه الآتي . من الرقاقدة من كنتة ، ومنه رجعت إلى كنتة للمختار المتقدم وهو من أبناء سيد الوافي من كنتة ٠

٣) وهو عن : الشيخ سيدي الأمين الملقب بذي النقاب المتوفى سنة ١١١٦ هـ ٠

٤) وهو عن : سيدي أحمد بن سيدي محمد الرقاد (الخليفة) (١) ٠

٥) وهو عن : سيدي علي بن الشيخ سيدي أحمد الملقب (بقطب الوقت) (٢) ٠

٦) وهو عن : الشيخ سيدي أحمد بن الشيخ سيدي محمد الرقاد ، باني زاوية البكائية في (توات) المتوفى سنة ١١١٩ هـ (٣) ٠

٧) وهو عن : الشيخ الرقاد بن الفيرم المتوفى في حدود سنة ١٠٦٣ هـ (٤) ٠

٨) وهو عن : الشيخ أحمد الفيرم بن الشيخ سيدي عمر الشيخ المتوفى في حدود سنة ٩٥٠ هـ (٥) ٠

٩) وهو عن : الشيخ سيدي المختارين سيدي عمر الشيخ (٦) ٠

---

(١) انظر الطرائف ص ١١٥ . ١٢٤ و ١٢٨٠

(٢) نفسه وكنتة الشرقيون ص ١٤٦ ٠

(٣) الطرايف ص ١٢٤ . ١٢٨ ويظهر أن رسم تواريخ الوفيات ليس بدقيق وقد يكون ذلك من الناسخ حيث إن تاريخ وفاة ذي النقاب المذكور قبل هذا هو سنة ١١١٦ هـ وبينه وبين هذا شيخان ولم يذكر المؤلف تاريخ وفاتهما إلا أنه حكم هو ووالده من قبله على هؤلاء الشيوخ أنهم في الغالب عمروا كثيرا ٠

(٤) الطرائف ص ١٢٨ . ١٢٩ ٠

(٥) نفسه ص ١٢٩ ٠

(٦) المنة في اعتقاد أهل السنة للشيخ سيدي المختار الكنتي ، مخطوط خاص ص ٤٣ والطرائف ص ١٢٩٠

١٠) وهو عن : الشيخ سيدي عمر الشيخ بن الشيخ سيدي أحمد البكاي المتوفى في حدود سنة ٩٦٠ هـ (١) .

١١) وهو عن : الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني اتواتي المتوفي سنة (٩٠٩ هـ) (٢) .

١٢) وهو عن : الإمام السيوطي ، عبد الرحمن جلال الدين ، المتوفى سنة (٩١١ هـ) (٣) كذا قال : وقد سبق أن أخذ المغيلي إنما كان عن الثعالبي مباشرة ، ولا أعلم صلة بين السيوطى والثعالبي ، والموجود إنما هو ثبوت مراسلة بين السيوطي والمغيلي في شأن تحريم المنطق وقول بحصول اللقيا بينهما . وذلك أمر ممكن .

١٣) وهو عن : الشيخ الإمام عبد الرحمن الثعالبي ، الحافظ أبي العباس ولد سنة ٧٨٦ أو ٧٨٧ هـ وتوفي سنة ٨٧٥ عن نحو تسعين سنة (٤) .

وفي ترجمته : (أخذ عنه جماعة كالشيخ العالم محمد بن محمد بن مرزوق الكفيف ، والإمام السنوسي ، وأخيه لأمه علي التالون والإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي) (٥) .

١٤) وهو عن : القاضي أبي بكر ابن العربي ، وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد المعافري المعروف بـ (ابن العربي) المتوفى في شهر ربيع الأول من سنة (٥٤٣ هـ) (٦) .

---

(١) المنه ص٤٣ والطرائف ص ١٢٩ . ١٣٢ وينظر تاريخ وفاته مع تاريخ وفاة تلميذ تلميذه أحمد الفيرم السابق .

(٢) المنه ص ٤١ . ٤٣ والطرائف ص ١٣٢ . ١٣٣ .

(٣) الطرائف ص ١٣٣ . ١٣٤ .

(٤) الطرائف ص ١٣٤ ، ويظهر أن تاريخ الوفاة انقلب عليه من ٨٧٥ هـ إلى ٨٥٧ هـ والصواب ما أثبتناه . انظر ترجمته فى نيل الابتهاج . مرجع سابق ص ١٧٣ . ١٧٤ .

(٥) نيل الابتهاج ص ١٧٤

(٦) انظر ترجمته في : الغنية ، فهرست شيوخ القاضي عياض ، تحقيق . محمد بن عبد الكريم ، الدار العربية للكتاب تونس ١٣٩٨ هـ ص ١٣٣ وما بعدها .

قلت : قول الشيخ سيدي محمد في الطرائف : (أخذ عن القاضي أبي بكر بن العربي في اجتيازه بسبتة القاضي عياض وأبو العباس سيدي عبد الرحمن الثعالبي) (١) فيه نظر حيث إن القاضي توفي كما ذكرت نقلا عن القاضي عياض سنة(٥٤٣ هـ) وأخذ القاضي عياض ثابت عنه .

وأما الثعالبي فإنه كما تقدم ولد سنة ٧٦٨ وقيل ٧٨٧ هـ وتوفي جزما سنة ٨٧٥هـ فبين ميلاده ووفاة القاضي نحو من قرنين من الزمان .

وقد ظهر بالتاريخ انقطاع هذا السند هنا ، علاوة على أن القاضي بن العربي صحب الإمام أبا بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ وقال : (إن الله نفعه به في العلم والعمل) (٢) فلو نسب إليه لكان أليق ، يضاف إلى ذلك أن القاضي كان شديد النقد للصوفية ، ولم تزده صحبته للإمام الغزالي إلا حدة في نقدهم . وقد شكى إلى شيخه الطرطوشي ما يجده من قسوه جبلية في قلبه (٣) .

١٥) وهو عن : سيدي محمد بن أحمد بن أبي بكر بن مرزوق التجيبي التلمساني . (٤)

ثم قال : (وعمدته في الطريقة أبو علي ناصر الدين المشذالي) (٥) كذا قال : ولا يمكن أن يكون ابن مرزوق شيخا لابن العربي لأن ابن العربي كما تقدم توفي سنة ٥٤٣ هـ ، وقد ولد ابن مرزوق سنة (٧١٠ هـ) كما ذكر صاحب نفح الطيب ، وتوفي سنة ٧٨١ هـ كما نقل أيضا عن ابن حجر (٦) .

---

(١) الطرايف ص ١٣٤ - ١٣٦ .

(٢) انظر مقدمة تحقيق : قانون التأويل للقاضي أبي بكر بن العربي ، تحقيق محمد السليماني وانظر منه ص ٤٣٥ .

(٣) انظر : آراء القاضي أبي بكر بن العربي الكلامية ، تحقيق : عمار الطالب الجزائر ص ٢٠٩ وما بعدها .

(٤) الطرئف ص ١٣٦ . ١٣٧ .

(٥) نفسه .

(٦) راجع نفح الطيب ، مرجع سابق جـ ٥ ص ٤١٢ . ٤١٤ .

قلت : وقد ترجم له ابن فرحون في الديباج المذهب وذكر شيوخه ومنهم : (وببجاية الإمام العلامة أبو علي ناصر الدين المشذالى) (١) وفيه أنه بعد الثمانين وسبعمائة (٢) .

١٦) وهو عن : الشيخ ناصر الدين أبي موسى عمر ان بن موسى بن يوسف المشذالي (٣) توفي عن سن عالية سنة (٧٢٠ هـ) (٤) .

قال في شجرة النور الزكية : أبو موسى عمر ان ابن موسى صهر الناصر المشـذالي أخذ عن أئمة منهم صهره المذكور مولده سنة ٦٧٠ هـ وتوفي سنة ٧٤٥ هـ) (٥). وليس هو بالناصر بل ناصر الدين صهره . فهذا خلط .

١٧) وهو عن : الشيخ الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي نسبة إلى بلد لا إلى عمل (٦) قلت : ووضع الغزالي في هذه السلسلة فيه تظر حيث إنه دخل بغداد سنة (٤٨٤ هـ) أي قبل قدوم الشيخ عبد القادر إليها طالبا سنة (٤٨٨ هـ) كما سبق ، وكان الغزالي شيخا ومدرسا ، وترك أخاه أحمد الغزالي الذي ينتسب إليه في الطريقة الصوفية نائبا عنه في التدريس بالمدرسة النظامية المعروفة ، وعاد الغزالي إلى بغداد سنة (٤٩٩ هـ) وخرج منها سنة (٥٠٣ هـ) ولم يعد إليها حتى مات سنة (٥٠٥ هـ) (٧) .

ولا يخفى أن الغزالى توفي قبل ميلاد عمران المشذالي بمائة سنة تقريبا .

---

(١) الديباج المذهب في معرفه أعيان علماء المذهب لابن فرحون المالكي ، تحقيق . محمد الأحمدي أبو النور دار التراث جـ ٢ ص ٢٩٤ .

(٢) نفسه جـ ٢ ص ٢٩٦ .

(٣) الطرائف ص ١٣٧ . ١٣٨ .

(٤) نفسه ص ١٣٨ .

(٥) شجرة النور الزكية ، محمد بن محمد مخلوف ، دار الفكر ص ٢٢٠ .

(٦) الطرائف ص ١٣٧ . ١٣٨ .

(٧) انظر : أبو حامد الغزالي والتصوف ، عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية ، الرياض ص ٢٩ . ٢٣ .

١٨) وهو عن : الشيخ علي أبي الحسن الشاذلي ، قال : (ولما سئل عن شيخه قال: كنت أنتسب الى الشيخ عبد السلام بن مشيش) (١) .

قال في شجرة النور الزكية (أخذ عن الشيخين العارفين أبي عبد الله محمد بن حرزهم ، وأبي محمد عبد السلام بن مشيش بسنده المشهورعند أهل الطريقة).

وميلادالشاذلي سنة (٥٧١ هـ) ووفاتة سنة (٦٥٦ هـ) (٢) وعلى هذا فلا يمكن أن يكون شيخا للغزالي الذي توفي قبل ميلاده بأكثر من ستين سنة .

١٩) وهو عن : الشيخ عبد السلام بن مشيش أو بشيش بن أبي بكر منصور بن علي الإدريسي الحسنـي أبي محمد ، المتوفى سنة (٦٢٢ هـ) بجبل العلم بثغر تطوان (٣) .

٢٠) وهو عن : محيي الدين بن العربي . محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن العربي الطائي الحاتمي ، قال : (وهو أحد أركان هذه الطائفة) (٤) .

قال المقرى : ولد سنة (٥٦٠ هـ) بمرسية وتوفي في دمشق سنة (٦٣٨ هـ) (٥) قلت : دخل بغداد سنة (٦٠١ هـ) فأقام بها اثنا عشر يوما ثم دخلها ثانيا حاجا مع الركب سنة (٦٠٨ هـ) (٦) ويبعد أن يكون الحاتمي شيخا لابن مشيش يروي عنه بواسطته لأن الحاتمي عاش بعد ابن مشيش (١٤) سنة .

---

(١) الطرائف ص ١٣٨ . ١٤٣ .

(٢) انظر ترجمته في المرجع المذكور ص ١٨٦ . ١٨٧ .

(٣) الطرائف ص ١٤٣ . ١٤٤ والأعلام للزركلي جـ ٤ ص ٩ .

(٤) الطرائف ص ١٤٤ . ١٤٦ .

(٥) نفح الطيب جـ ٢ ص ١٦٢ وما بعدها .

(٦) انظر المراجع السابقة .

٢١) وهو عن الشيخ ضياء الدين أبي النجيب عبد القاهربن عبد الله السهروردى المتوفى سنة (٥٦٣ هـ) قال : (صحب الشيخ علي بن هيتا واجتمع بالشيخ عبد القادر) (١) قلت : قد أثبت شيخ الإسلام ابن تيمية والذهبي وغيرهما اجتماع السهروردي بالشيخ عبد القادر ، وقد توفي قبل علي بن هيتا فيبعد أن يكون تلميذا له يروى عنه بواسطته (٢) ويتضح من تاريخ وفاته ، وميلاد الذي قبله أنه لا يصح أخذه عنه ، ولكن لعله أخذ عن خليفته : شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله ابن حفص المتوفى سنة ٦٣٢ هـ •

٢٢) وهو عن : الشيخ علي بن هيتا (٣) ، المتوفى سنة (٥٨٠ هـ) ولم يذكره صاحب بهجة الأسرار فيمن صحب الشيخ عبد القادر أو أخذ عنه مع أنه ذكر ما يزيد على المائه والعشرين من تلاميذه •

وقال الشيخ سيدي محمد : (صحب الشيخ عبد القادر الجيلى ، وانتفع به وتخرج علي يديه) (٤) •

وقد تمت دراسة السلسلة بعد الشيخ عبد القادر ، وظهر أنه لا يعتمد عليها في إثبات أي شيىء كما تبين ذلك من دراسة هذه السلسلة •

---

(١) الطرائف ص ١٤٦ . ١٤٧ والبداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٥٤ •

(٢) الاستقامة جـ ١ ص ٨٦ . ٨٧ و سير أعلام النبلاء جـ ٢ ص ٤٤٨ •

(٣) الطرائف ص ١٤٧ •

(٤) نفسه •

المطلب الثانـــي

السلسلة الفاضلية :

ونبدؤها بمن نسبت إليه هذه الطريقة وهو الشيخ محمد فاضل فنقول :

١) الشيخ محمد فاضل بن مامين (١) • عن والده : محمد الأمين

٢) مامين (الطالب الأمين) بن الطالب اخيار ، قال صاحب الضياء المستبين (أجازه والده في الطريقة قبل البلوغ • وانه صحب بعده شيوخا آخرين) (٢) •

عن والده :

٣) الطالب اخيار بن الطالب محمد ، قال : صاحب الضياء المستبين أيضا (إن الطالب اخيار كان ولياكاملا مربيا غزير العلم يحفظ مائة مصنف عن ظهر قلب) (٣) • عن والده :

٤) الطالب محمد بن (الجيه) أبي الأنوار قال : (وهو ولي كامل مكث في الصوفية والسياحة خمسة عشر عاما بعدما تمت ذريته) (٤) عن والده :

٥) الطالب اجيه (المختار) بن الحبيب ، قال : (وهو ولي عارف بالله تعالى له مناقب جمة كثيرة) وعد منها : أنه كان سبب نزول أولاد امبارك حيث تعلقوا به) (٥)

عن والده :

٦) الطالب الحبيب بن الطالب اعل • عن والده :

---

(١) الضياء المستبين ص ١٨٦ •

(٢) نفسه ص ١٨٦ •

(٣) نفسه ص ١٨٦ . ١٨٨ •

(٤) نفسه ص ١٨٨ . ١٨٩ •

(٥) نفسه ص ١٨٩ . ١٩٠ – لعله يريد تحولهم من تكانت إلى الحوض الشرقي في موريتانيا •

٧) الطالب اعل بن سيدي محمد • عن والده :

٨) سيدي محمد بن يحيي الصغير . عن والده :

٩) سيدى يحي الصغير (١) وكل هؤلاء آباء الشيخ محمد فاضل صاحب الطريقة، فهذا البيت على رأى صاحب الضياء ، هو ثالث بيت فى الأمة يتسلسل فيه هذا العدد من الكمل بعد بيت الحسين بن علي رضي الله عنهما وبيت الإمام السبكي (٢) •

١٠) عن الشيخ أحمد زروق وهو أبو الفضل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بزروق ولد في محرم سنة ٨٤٦ هـ وتوفي سنة ٨٩٩ هـ (٣) وقد أخذ زروق عن الإمام عبد الرحمن الثعالبى فتجتمع البكائية مع الفاضلية فيه وإن كان المذكور في هذا السند غيره •

١١) عن أحمد بن عقبه الحضرمي قال عنه الدكتور فهمي خشيم إنه كان قادريا يمنيا هاجر من بلده واستوطن مصر ، والتقى به زروق في القاهرة عند عودته من الحجاز سنة ٨٧٦ هـ (٤) •

١٢) قال في الضياء عن شيخه . ويبدو أنه لم يحضره اسمه : وهو كما ذكر في كتاب زروق والزروقية يحيي الشريف القادري (٥) •

---

(١) نفسه ص ١٩٠ قلت : لعل الآخذ عن زروق ابنه محمد لا هو كما يشهد له ما في شجرة النور الزكية أن محمد الشنقيطي أخذ عن زروق ص ٢٨٦ مع أن الكتاني ذكر في فهرس الفهارس جـ٢ ص ١٠٢١ أن يحي الصغير هذا أخذ عن أبيه محمد عن شيخه الشيخ العلي عن الحافظ الأسيوطي •)

(٢) نفسه ص ١٩٠ . ١٩١

(٣) أحمد زروق والزروقية ص ٢١ . ٦٣ ونيل الابتهاج ص ٨٥

(٤) زروق والزروقية ص ٤٠ . ٤٢

(٥) نفسة ص ١٥٣

١٣) عن علي بن وفا وهو : الخطيب أبو الحسن علي ابن محمد وفا مولده سنة ٧٦١ . وتوفي سنة ٨٠٧ هـ (١) .

١٤) عن محمد بن وفا وهو : محمد أبو الأشراف ابن وفا ، وهو الذي أخذ عنه داورد ما خلا (١) .

١٥) عن داورد الباجلي والذي في نيل الابتهاج أنه أخذ عن ابن عطاء الله : داورد بن عمر بن إبراهيم الشاذلي الأسكندري توفي سنة ٧٣٢ هـ وفي شجرة النور الزكية : أن الشيخ داورد الكبير ابن ما خلا الشاذلي أخذ ابن عطاء الله وانتفع به وعنه الشيخ محمد وفا (٣) .

١٦) عن أحمد بن عطاء الله وهو : أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله أبو العباس وأبو الفضل بن أبي عبد الله بن محمد الجذامي الأسكندري الإمام المتكلم الشاذلي توفي بالقاهرة سنة ٧٠٩ هـ (٤) .

١٧) عن أبي العباس المرسى وهو : أحمد بن عمر بن محمد ، أبو العباس شهاب الدين الأنصاري المرسي . توفي عام ٦٨٥ هـ . (٥)

١٨) عن أبي الحسن الشاذلي (٦) الذي تقدمت ترجمته وعنده تجتمع الفاضلية مع البكائية فيما يأتي من الشيوخ إلا أني لم أجد في أسانيد زروق الذي هو عمدتهم في الطريقة ابن العربي والغزالي (٧) .

---

(١) شجرة النور ص ٢٤٠

(٢) نفسه ص ٣٣٧٠ . ٣٣٨ . ٢٠٤

(٣) نيل الابتهاج ص ١١٦ وشجرة النور ص ٢٠٤ وترجمة الثلاثة في نفس الصفحة منه ولا تعرف أيهم هو الباجلي المذكور في السند وفي سند زروق من هذا اسمه راجع زروق والزروقية ص١٥٣ .

(٤) الديباج المذهب ص ٧٠

(٥) نفح الطيب جـ ٢ ص ١٩٠ ونيل الابتهاج مصدر سابق ص ٦٤

(٦) تقدمت ترجمته ومن بعده في السند .

(٧) أحمد زروق والزروقية ص ١٥٣ .

١٩) عن عبد السلام بن مشيش الذي تقدمت ترجمته .

٢٠) عن ابن العربي وأظنه يريد ابن عربي الطائي . وقد تقدم الكلام على موضعه من السند البكائي وسبق أنه لا يمكن أن يكون تلميذا للسهروردي مباشرة .

٢١) عن أبي النجيب السهروردي .

٢٢) عن علي بن هيتا .

٢٣) عن الشيخ عبد القادر (١) .

هذا ما ذكره صاحب الضياء المستبين ، وقد قال الكتابي في كتابة فهرس الفهارس في ترجمة السيوطي :(ولنذكر هنا سندا غريبا إاليه من طريق أهل الصحراء الإفريقية ، وهو مسلسل بالآباء عن الشيخ العارف محمد مصطفى ماء العينيين الشنقيطي دفين (قيزنيت) رحمه الله ونعمه ، عن أبيه الشيخ محمد فاضل عن أبيه مامين عن أبيه الطالب اخيار عن أبيه الطالب محمد أبي الأنوار عن والده الجيه المختار عن والده محمد الحبيب عن أبيه محمد علي عن أبيه سيدي محمد ، عن أبيه يحي الصغير عن أبيه محمد عن شيخه الشيخ العلي ، عن الحافظ الأسيوطي بأسانيده) (٢) .

ومع أنه يمكن أن يكون هذا الاسناد متصلا إلى زروق لأن آباء الشيخ محمد فاضل كل واحد منهم يمكن أن يكون أخذ عن أبيه . رغم أنه لا تتوفر لدينا عنهم معلومات غير ما ذكر صاحب الضياء . ومن زروق إلى عبد القادر الجيلاني توجد فيه ثغرات فإننا نلاحظ أنه يبعد من الناحية التاريخية أن يكون سيدي يحي الصغير أو ابنه محمد تلميذ الزروق ، ويكون في نفس الوقت بينه وبين السيوطي واسطتان أو ثلاث ، لأن زروقا توفي قبل وفاة السيوطي بعشرة سنين وعلى هذا فهذا السند كسابقه لا يثبت به شيء

والله أعلم .

---

(١) الضياء المستبين ص ١٩٠ .

(٢) فهرس الفهارس جـ ٢ ص ١٠٢١ .

الفصل الرابع

أعلام من القادرية وأهم مؤلفاتهم في التصوف

تقديم : أعلام القادرية في موريتانيا :

يقصد من هذا الفصل دراسة لأهم الشخصيات التي تصدرت المشيخة في الطريقة القادرية للوقوف على جوانب من حياتهم العلمية والاجتماعية حتى يتمكن البحث من سبر أثرهم العقدي والفكري الصوفي الأمر الذي يساعد على دراسة نتاجهم العقدي في الأبواب التالية إن شاء الله • . المبحث الأول :

الشيخ سيدي المختار الكنتي شيخ البكائية (المختارية) ، وتحته ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : نسبه ومولده ونشأته :

هو المختار بن أحمد بن أبي بكر بن محمد بن محمد حبيب الله بن الوافى بن عمر الشيخ بن الشيخ سيدى احمد البكاي بن محمد الكنتي بن علي بن يحيي بن عثمان بن يهس (١) بن دومان (٢) بن ورد (٣) بن العاقب (٤) بن عقبة المجاب (٥) •

---

(١) في الغلاوية ص ٦٣ : (يهس الملقب عبد الله •)

(٢) في الغلاوية ص ٦٣ : (دومان الملقب عمر •)

(٣) ورد في الطرائف ص ٩١ وليس في الغلاوية وفيها شاكر بن يعقوب ص ٦٣ وفي جذوة الأنوار ص٢ : (وريد الملقب بشاكر) وفي البيان المغرب : أن شاكرا صاحب لعقبة وأنه تركه في الموضع الذي يسمى الآن باسمه (سيدي شاكر) البيان المغرب جـ ١ ص ٢٧ قلت : لعله سمى ابنه باسم صاحبه هذا قال الشيخ سيدي محمد : (وعنده تجتمع كنتة والمحاجيب •) الغلاوية ص ٦٣ •

(٤) زاد في الغلاوية ص ٦٣ يعقوب بن العاقب • وقال : (هو الذي تجتمع عنده كنتة مع اد يعقوب من ادو الحاج ومن تجكانت •)

(٥) الطرائف والتلائدص ٩١ والمنة في اعتقاد أهل السنة ص ٤١ ـ ٥١ والغلاوية ص ٦٢ ـ ٧١

قال الشيخ سيدي المختار الكنتي في (المنة) في نسب عقبة بن نافع : (عقبه بن نافع صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عقبة المستجاب ابن نافع ابن عبد الله أبن عمر ابن عبد مناف ابن ضبة ابن زيد أبن عبد مناف ابن سعيد ابن عبد الله ابن فهر ابن مالك .) (١) .

نسب عقبة عند النسابين :

قال الحافظ ابن عبد البرفي الاستيعاب :

(عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تصح له صحبة) (٢) .

وتبعه على ذلك الحافظ بن الأثير في أسد الغابة فقال : عقبه بن نافع بن عبد القيسى بن أميه بن الظرب ابن الحارث بن عامر بن فهر القرشي الفهري ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تصح له صحبة) (٣) .

ويتفق الحافظ ابن حزم مع ابن عبد البرو ابن الأثير فيقول : من ولد أمية بن الظرب : نافع بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية ابن الظرب بن الحارث بن فهرنخس بزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع هبار بن الأسود ، وابنه عقبة بن نافع الذي بنى قيروان افريقية) (٤) .

---

(١) المنه ص ٥١ .

(٢) الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر على هامش الإصابة في تمييز الصحابة ، دار الكتاب العربى جـ ٣ ص ١٠٩ . ١١٠ قال ابن عبد البر (ويقولون إن عقبة بن نافع كان مستجاب الدعوة فالله أعلم) ص ١١٠ .

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة لعــز الدين بن الأثير أ بي الحسن علي بن محمد الجزري (٥٥٥ . ٦٣٠ هـ) دار الشعب جـ ٤ ص ٥٩ .

(٤) جمهرة أنساب العرب لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، دار المعارف بمصر ١٣٩١ هـ ص ١٧٧ . ١٧٨ زاد ابن الأثير (عامر) ابن فهر جـ ٤ ص ٥٩ .

والنسب الذي ذكر المختار الكنتي لعقبة بن نافع يختلف تماما عن هذه الأنساب التي ذكرها هؤلاء الحفاظ علاوة على أنه لا تصح له صحبة عندهم .

وقد عده صاحب الاستقصاء صحابيا بالمولد (١) وأدخله فيمن دخل افريقيا من الصحابه رضوان الله عليهم (٢) .

ويؤخذ على عمود النسب الذي ذكره الشيخ سيدي المختار . وعلاوة على ما تقدم من اختلاف في نسب عقبة مع ما ذكره المترجمون لعقبة - أن محمد بن المختار ذكر في أبناء عقبة وأحفاده من لم نجد لهم ذكرا في كتب التراجم والأنساب فهو يقول إن عقبة ترك العاقب وترك العاقب يعقوب وترك يعقوب وردا أو وريدا أو شاكرا .) على اختلاف النسخ والكتب التي ذكرت ذلك كما تقدم (٣) والذي ذكره ابن حزم وغيره ممن وقفت على مؤلفاتهم أن ولد عقبة : أبو عبيدة وان ولد أبي عبيدة هم :

حبيب قاتل عبد العزيز بن موسى بن نصير . وعبد الرحمن بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع .وناقع بن أبى عبيدة .

وذكر أن حبيب أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ولد عبد الرحمن الذي ولي إفريقية .وإلياسا .وعبد الوارث (وأن لهم بافريقية عقب كثير (٤) .

ويعبد أن يكون لعقبة بن نافع أولاد آخرون استخلفهم على بعض المناطق كما ذكر في الغلاوية (٥) ولم يذكرهم المؤرخون ، وإن كنا لا ندعي لهم الإحاطة ، ولكن

---

(١) الاستقصاء الأخبار دول المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصري السلاوي جـ ١ ص ٣٦

(٢) نفسه جـ ١ ص ٤٠ .

(٣) يرجع إلى الصفحة من هذا البحث والغلاوية ص ٦٣ .

(٤) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٧٨ وابن خلدون جـ ٦ ص ١١١ .

(٥) الغلاويه ص٦٣ وما بعدها . قلت : وقريب من رواية الشيخ سيدي المختار الكنتي في ادعاء الانتساب إلى عقبة على ما رأنيا ، رواية يتمسك بها . (الفلان) تقول : إن عقبة تزوج بنت ملك : (التوردب) بعدما أسلموا على يديه في جنوب المغرب ، واسمها (بج مغ) (وولدله منها أربعة أولاد إليهم ترجع كل قبائل الفلان ثم تزوجوا وأنجبوا وتكاثروا فكان ذراريهم الفلان .) انظر تفاصيل الرواية في كتاب الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني . مرجع سابق ، ص ٥٢ . ٥٥ .

ما دموا ذكروا لنا أولاده وبعض أحفاده وما كان لهم من أثر بارز في الحياة السياسية والعلمية ولم نجد من بينهم هذه الأسماء التي ذكرها محمد الكنتي في الغلاوية ، ولم يذكر لنا مصدرا أخذها منه حتى نرجع إليه ونقارن ما فيه بما ذكر هؤلاء النسابون ، وكانت الكتابة أيضا في الصحراء التي تعيش فيها القبائل الموريتانية قليلة والنقول الشفهية عرضة لسوء الحفظ والخلط مهما كانت شدة المحافظة على الأنساب . لماكان ذلك كله : رجحنا عمود نسب عقبة الذي ذكره النسابون قبله ، وتوقفنا عن الإقدام على موافقته على الأسماء التي خالفه فيها من تقدمه أولم يذكرها غيره ٠

وليس ذلك شكافي الثقة بنقله أو موافقة لمن نسب كنتة إلى غير ما نسبوا إليه أنفسهم وإنما لترك عهدته عليه هو ، ولا شك أن في تتبعه لهجرات أجداده من القيروان حتى أوصلهم إلى بلاد موريتانيا كثير من الثقة وحكاية الإجماع على ذلك عند أهل التواريخ الذين لم يذكر لنا منهم واحدا ٠ ولكن لعله اعتمد بعد كتابات والده المختار في كتبه التى لم تحصل عليها على كتاب : تاريخ كنتة الذي ذكره هو مرات في كتابه الطرائف (١) ولكنه لا شك أيضا أنه يؤرخ لحقبة مجهولة للبداوة والترحال وكثرة الخوف والفتن والاضطرابات . وما ذكره فيه أمور قد لا يقبلها باحث يطلب الحق والصواب (٢) ٠

وقد سمى بول مارتي هذه الحقبة التي أرخها محمد الكنتي بالفترة الأسطورية ٠ (٣)

بقي أن صاحب الوسيط عند ما ترجم للمختار الكنتي قال إنه وقف على سلسلة نسبه متصلة بعقبة بن نافع الفهري الصحابي ثم قال : (وهذا يعارضه ما ثبت عند النسابين في أرض الصحراء من أن كنتة من بني أمية) قال (وكقبيلة كنتة والمدلش، فلا

---

(١) الطرائف والتلائد ص ٥٠٣ و ٥٠٧ (ومؤلف الكتاب هو : سيدي محمد التمناوي ، وعنوانه : السيرة الكنتية)

(٢) انظر الغلاوية ص ٦٣ . والطرائف والتلائد ص ٩١ وما بعدها ٠

(٣) كنتة الشرقيون ص ١٢ وما بعدها ٠

خلاف أنهما من بني أمية ، مع تباين مشاربهما) (١) ولم يذكر لنا مرجعا معروفا لنقف على مستنده في ذلك ، والمشهور من كتب الأنساب في بلاد موريتانيا نظم عمود النسب لشيخ أحمد بن محمدا الشهير بالبدوي المجلسي وشرحه تحفة الألباب للعلامة حماد بن الأمين (ابن أخي الناظم) وقد اتفق الناظم والشارح على ان عقبة بن نافع من بني الحارث بن فهر (٢) ٠

قال الناظم :

(وعقبة بن نافع الذقالا ... يأأهل ذا الوادي اظعنوا فسالا

واديه بالمعروف والمنكور ... من كل مايضر في العصور ٠)

وقال الشارح : (أي ومن بني الحاث بن فهرعقبة بن نافع بن عبدقيس ٠) (٣) وذكر أنه لا تصح له صحبة ، وهو تابعي كبير (٤)

وأما قول عبد الله بن سيدي محمود (٥) في معرض التأليب على أعدائه من كنتة إنهم من بقايا أحلاف اليزيد (٦) فلا يؤخذ منه كونهم من بني أمية ، ثم إن أمية ليس من متحد الأنساب بل يوجد أمية بن وانمالي الصنهاجي ثم اللمتوني أحد جدود أمراء المرابطين و أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي ، وأمية بن الظرب بن الحارث بن فهر (٧) الذي تقدم أنه من أجداد عقبة الذي تنتسب إليه كنتة هذا مع احتمال أن يكون من نسبهم إلى بني أمية يريد أنهم كانوا من ذرية عقبة الذي هو من أمرائهم في افريقية (٨) وقد صاهر سيدي علي بن سيدى يحي أحد أجداد المختار الكنتي

---

(١) الوسيط ص ٣٦١ و ٤٧٧ ٠

(٢) تحفة الالباب بشرح الأنساب ٠ ط قطر سنة ١٤٠٥ هـ ج ٢ ص ٧٨ ٠

(٣) نفسه ج ٢ ص ٧٨ ٠

(٤) نفسه ص ٧٩ ٠

(٥) هو العلامة الحاجي المعروف ، راجع ترجمته في الوسيط ص ٣٦١ . ٣٦٤ ٠

(٦) الوسيط ص ٣٦٤ ويقصد باليزيد : يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي ٠

(٧) الأعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ج ٢ ص ٢٤٣ ٠

(٨) ابن خلدون ج ٦ ص ١١١ و ١٤٧ والبيان المغرب ج ٤ ص ١٧٠

رئيس (أبدوكل) محمد آلم بن كنت بن زم المرابطي عندما كان يخرج إلى المرابطين في الصحراء وجبل حسان حيث أنجبت له بنت ذلك المرابطي الصنهاجي ولده محمد الذي تربى في أخواله ونسب إلى جده لأمه (محمد كنت) على عادتهم في ذلك (١) ٠

ومن هذه الصلة والنسبة أخذ بعض المستشرقين ولأغراض أخرى من أهداف الاستعمارنسبة كنته إلى زناتة من البربره كما فعل (فيليب فونداس) الفرنسي (٢) ولم نجده ذكر سندا تاريخيا يعتمد عليه أوحتى يمكن أن يدرس ، وانما هو حكم مجرد كما علق عليه معرب الكتاب في الهامش (٣) مع أن فيليب ذكر ما يناقض ما حكم به حيث قال إن كنتة اصطفت في صف بني حسان الذين حاربوا قبائل زناتة حربا مستمية حتى عام ١٦٧٤ م (٤) وأنها أيضا تمكنت برجاحة عقولها وتواضعها ، أن تغدو في أكثر الأحيان حكما بين القبائل الصحراوية ٠٠ (٥) ٠

والذي يظهر لي بعد هذا البحث أن الناس مصدقون في أنسابهم ما لم يدعوا أمرا مستحيلا ، وأن أهل الصحراء الموريتانية حريصون جدا على حفظ أنسابهم مع قلة الكتابة عندهم وإذا لم يصدق بعضهم بعضا فيما يدعيه من نسب فإن النافي سوف يطالب بدليل نفيه وليس في وسعه حسب علمي إحضار دليل أكثر من الطعن في الأنساب المذموم شرعا وعرفا ، وأما واقع كنتة فإنهم كما قال محمد الكنتي في الغلاوية : (إن كنتة قبيلة من قبائل الزوايا المتقادمة ٠٠) (٦) ٠

والزوايا تطلق في موريتانيا على مجموع القبائل المهتمة بالعلم ونشره أيا كانت نسبتها (٧) ثم إن الانساب ليست من كسب الناس حتى يتعلق بها ذم أو مدح ولكن لما كان أهل الصحراء يتعلقون ويعتقدون فيمن ينتسب إلى آل البيت النبوي الشريف أو أحد من الصحابة الأعلام أو العلماء والصلحاء المشهورين كان لابد للباحث من دراسة أنساب المترجم لهم في هذا البحث على قدر الحاجة ، مع التوسط بين الإيجاز والإطالة ٠

---

(١) الغلاوية ص ٦٤ . ٦٥ ٠

(٢) دراسات عن الإسلام في افريقيا السوداء الفرنسية ص ١٠٨ . ١٠٩ ٠

(٣) نفسه ص ١٠٩ ومثله ما ذكر صاحب حاضر العالم الإسلامي المجلد الثاني ص ٤٥ ٠

(٤) نفسه ص ١٠٩ ولعله يشير إلى ما ذكر محمد الكنتي عن جده سيدي محمد الكنتي من تأليب أولا الناصر على أخواله من المرابطين لمغاضبة غامضة وقعت له معهم ، الغلاوية ص ٦٥ وما بعدها ٠

(٥) دراسات عن الإسلام ص ١٠٩ وحاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ٤٥ . ٤٦ ٠

(٦) الغلاوية ص ٨٥ ٠

(٧) بلاد شنقط ص ٣٤ وما بعدها ٠

مولده ونشاته وأسرته :

ولد المختار رحمه الله عام ١١٤٢ هـ وقيل عام ١١٣٥ هـ بموضع يدعى (كثيب أغاله) في شمال أزواد من أحواز تينبكتو (١) .

(نشأته وأسرته)

ونشأ (المختار الكنتي) في المنطقة التي ولد فيها حيث نشأ يتيما في كفالة أخويه لأبيه وجده (٢) وذلك أن أمه امباركة بنت بادي (٣) توفيت عنه في الرابعة من عمره ، وفقد والده أيضا وهو في سن العاشرة (٤) .

ولعل والده أحسن رعايته في هذه السنين العشر التي عاشها معه قبل أن يصبح يتيم الأبوين ، ثم عاش بعدهما في عائلة تتكون من الإخوة والأخوات والإخوة لأب وكان الكل يحفه بالرعاية والمحبة ، وإن كانت مسؤولية كفالته على أخيه الأكبر سيدي محمد أبي حامية (٥) .

ومع ما ذكرصاحب الطرائف من حسن عناية أهله به وإحساسهم بنبوغه وما ذكر عنه من الكرامات التي صاحبت ميلاده وما عرف عنه من الكشف والنطق بأنواع الحكم من صغره مع ذلك كله فإنه ذكر عنه روايات تدل على أنه عاش طفولة صحراوية غير مستقرة ولا متميزة بشيء عن حياة أبناء عمومته ومجتمعه من رعي الإبل والأغنام والركض بين الأودية والجبال وتسلق الأشجار وشقوق الصخور ، الأمر الذي جعل (بول مارتي) يستخلص من ترجمته له أنه عاش طفولة تائهة غير مستقره (٦) .

---

(١) الطرائف والتلائد ص ٨٩ .

(٢) هم سيدي محمد بن أحمد بن أبي بكر أبو حامية عاش ٨٤ عاما وسيدى بو بكر أخوه وقد اشتهر بأنه من الشيوخ الأولياء . وجده سيدي بادي بن الحبيب الذي كان يحبه كثيرا ويبشره بمستقبل زاهر الطرائف ص ٩٠ . ٩١ . ٩٢ .

(٣) لال مباركه بنت سيدي بادي بن الحبيب الطرائف ص ٩١ .

(٤) الطرائف ص ٩٢ .

(٥) نفسه ص ٩٢ . ٩٤ وفيه (أنه كان ذا أنفة وكرم وعزة نفس وديانة وصيانة)

(٦) الطرائف والتلائد ص ٨٨ وما بعدها وص ٩٤ وكنته الشرقيون ص ٤٠ وما بعدها .

وهذا نص الطرائف في وصفه لنشأته :

(فإنه كان نشأ بين صبيان قومه من كناتة نشأة أهل الصحراء يقرأ القرآن بالكتاب وربما رعى وربما تعطل لعارض وهكذا نشأ حتى بلغ سن الثالثه عشرة من عمره حيث بدأ يعمل الفكرة فى كيفية الخروج لطلب العلم والتغرب في تحصيله والتجرد للارتباض وتهذيب النفس .) (١) .

(١) الطرائف ص ٩٤ .

المطلب الثانى :

طلبه للعلم ورحلته فيه وشيوخه :

رأينا نشاة المختار الكنتي وأنه ليس فيها مزيد على نشأة غيره من أبناء البادية ، وأنه بلغ الثالثة عشرة ولم يتقن المادة الأولى في منهج أهل تلك البلاد وهي القرآن الكريم وأن قراءته للقرآن تقطعها عوارض الرعي والترحال وغير ذلك ٠

ولكن على عادة كثير من المريدين وكتاب المناقب عندما يؤلفون عن مشايخهم فإنهم لابد أن يذكروا لبداية أمورهم حادثا خارقا أو مستغربا هذا الأمر لم يخرج عنه محمد الكنتي فقد قال إن والده وقف ذات يوم مع بعض لداته من صبيان قومه على معابد (عبيد) يفتلون الحلفاء فتناول كل صبي من أولئك الصبيان حبلا من يد عبد يقتله لهوا ، فتناول الشيخ رضوان الله عليه حبلا من عبد نوبي لا يفهم كلا ما ، ولا يحسن جوابا ، فأفصح العبد وقال : ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت) (١) ٠

وأنه بدأ يفكر في الرحلة لطلب العلم وترك ما هو عليه من رعي الإبل واللعب (مع قلة المساعد على جمائل المقاصد) (٢) ٠

وبعد أيام قليلة وعندما كان في رعي الابل إذ جزم بالخروج والتوجه إلى جهة المشرق ، فأخذ جملا من الابل وسأل الله أن يرد الابل إلى أهلها وأن يصحبه بعينه وعنايته (٣) ٠

---

(١) الطرائف ص ٩٤ ٠

(٢) نفسه ص ٩٤ ٠

(٣) نفسه ص ٩٤ - ٩٥ ٠

شيوخـــه

بعـــدما ذكر من مشـاق السفر التي تعرض لها أول خروجه من ديار أهله (١) وصل إلى حي من أحيـاء السوقييـن الذين هم طلبة علم ووعاظ في الطوارق (٢) ٠

ويدعى ذلك الحي أو الفحذ بـ(كل أنلبوس) فأقام بين ظهر انيهم يطلب العلم ويلعب مع فتيانهم (٣) ٠ ويذكر أنه أصابته حيرة بسبب اللعب معهم فأخذ على نفسه أن لا يلعـب وأن يجتهـد في التحصيل ولا يسبقه أحد إلى أخذ لوحه أو كتابه (٤) ولكي يتفرغ لذلك أكثر أرسل الجمل ليرجع إلى منهله (٥) ٠

كانت هذه بداية لم يحدد لنا فيها معلما معينا تلقي عنه وهذا يدل على أن في الحي الذي طلب فيه العلم شيوخا متعددين تلقى عنهم العلم ، كما أنه لم يذكر فنا بعينه أخذه عنهم ٠ وهو أمر يؤخذ منه أنه مازال مبتدئا فى الفنون حيث يأخذ القرآن وكتب الفقه الصغار كابن عاشرو الأخضري وغيرهما من المختصرات الفقهية في العبادات ٠

يؤكد هذا أنه لما خرج من هذا الحي إلى حي آخر من الطوارق التحق بشيخ يدعـى آح الكلحرومى (٦) وهو من حيي في زوايا الطوراق حيث يذكر أنه أقام (عنده زمنا يتعلم الفقه (٧) ٠ ولعله أخذ عنه مختصر خليل بن اسحاق (٨) ٠

---

(١) الطرائف ص ٩٥ ٠

(٢) كنتى الشرقيون ص ٤٣ ـ ٤٤ ٠

(٣) الطرائف ص ٩٥ ٠

(٤) نفسه ص ٩٥ ٠

(٥) نفسه ص ٩٥ ٠

(٦) نفسه ص ٥ ـ ٩٦ ٠

(٧) نفسه ص ٩٥ ـ ٩٦٠

(٨) كنته الشرقيون ص ٤٤ ٠

فيما أخذ حيث يذكر أنه كان يكتب مدة إقامته عنده سبعة ألواح كل لوح في فن، وأنه يحفظها ويفسرها ويدرسها للطلاب ويشارك غيره من الطـلاب في الفنون التي يدرسونها ، وأنه بسبب هذا الذكاء المفرط والحفظ النادر تعرض لإصابة بالعين (١) ذلك أنه من النادر أن يكتب الطالب مختصر خليل بقفين أو ثلاثة وأربعة كما ذكر هو عن نفسه (٢) والقف مقدار يومي اصطلح عليه قراء مختصرخليل حتى صار كالأثمان في القرآن • وقد يعترض على ما ذكر عن نفسه من معرفة الكتاب أو الفن بمجرد كتابة شطره أو ثلثيه ، ذلك أن الكتاب الواحد يكون مختلف الموضوعات متباين الأبواب فلا يعقل عادة في مجال طلب العلم معرفة ما في الكتاب بمعرفة بعضه مع اختلاف موضوعاته إلا إن كان يريد أنه يسهل عليه إتمامه بدون كثير تكرار (٣) •

وفي أثناء طلبه للعلم عند آح الكلحررومي كان يتعرض لأذى الطلاب وينتصر له شيخه ويـدافع الله عنه بابتلاء من ظلمه أو أهانه بأن يسلط عليه من هو أقوى منه •• (٤) • وهو في ذلك صابر على الأذى والعري والغربة (٥) •

وهذا لا يشك أنه من تحمل طلاب العلم أولى العزم ولكنه غير خارج عن إرادة البشر بل توجد صور كثره من التحمل أقسى من مثل هذا الذي كان يتعرض إليه المختار الكنتي •

ويبدو أن شيخه آح هذا كان ناصحا له حيث خشي عليه من البرد عند حلول فصل الشتاء وهم في أثناء هذا الفصل يكونون قرب النهر فأمره بالنزول إلى مدينة تينبكتو حيث البيوت والدفء والاستقرار فامتثل لأمره ورحل إليها ، إلا أنه عندما

---

(١) الطرائف ص ٩٦ •

(٢) نفسه ص ٩٦ •

(٣) نفسه ص ٩٦ •

(٤) نفسه ص ٩٦ •

(٥) نفسه ص ٩٦ •

وصلها خيبت ظنه علميا وماديا فلم يجد بها من يستفيد منه لفقد العلماء والمدارس بها ولم يكن بها من أهل الكرم والضيافة من يؤويه وهو غريب لا يعرف بها أحدا واستمرت به هذه الحالة التي تعد فترة حيرة وانقطاع عن التحصيل حتى وقف على أصحاب هيئات وعمائم في جامع المدينه فأنصت لهم ، فإذا بهم يخوضون في أنواع من العبث والمجون والغيبة فمقتهم وأغلظ لهم القول ثم انصرف عنهم ٠

فهيأ الله له . ولعله بسبب أمره بالمعـروف ونهيه عـن المنكر . رجلا يدعـى (الكويهينى) فأسكنه ومكنه مما بيده من الكتب وأقام يطالعهـا ثم خرج ذات يوم وإذا بأحـد أقربائـه في رفقة ، قال (فأبنني وشنع علي في الإقامه بشظف العيش والعـري) (١) ٠

وتحت الحاح هذا القريب خرج معه هو رفقته من تينبكتو ولكنه تخلف عنهم في الطريق واختفى عنهم حتى فاتوه ، ثم أخذ في البحث عن الشيخ سيدي علي بن النجيب . ولعله كان عنده علم بوجود ه في تلك المنطقة وبمكانته العلمية ٠

فعثر على الشيخ الذي كان له الأثر الكبير في حياته العلمية والعملية (٢) ٠

قال : (ثم قدمت على الشيخ المربي سيدي علي بن النجيب :

وكان عارفا بالله ناسكا متعبدا عالما متفننا صاحب أحوال سنية وأعمال زكية سنية فصحبته وأخذت عنه الأوراد القادرية وعملت في الرياضة) (٣) ٠

وهذا النص يعطينا علاوة على مكانة هذا الشيخ الذي وقع عليه المختار الكنتي أنه هو لم يكن قد دخل في الطريقة القادرية رغم ما كان عليه أجداده من القيام عليها والعمل على نشرها على ما تقدم بيانه ٠

ويصف الشيخ المختار الكنتي مجاهداته ورياضاته الصوفية وما لاقاه من معاناه من النفس والهوى والشيطان (٤) ٠

---

(١) الطرائف ص ٩٦ ٠

(٢) نفسه ص ٩٦ . ٩٧ ٠

(٣) الطرائف ص ٩٧ ٠

(٤) نفسه ص ٩٧ سيأتي نصه في هذا الموضوع عند الكلام على المجاهدات في الطريقة القادرية

وهو في وصفه هذا إنما يكرر ما سبقته به الصوفية من إظهار صعوبة المجاهدات والرياضات ، ووصف البدايات والنهايات وما ينتهي إليه الصادق في سلوكه ، وما يؤل إليه أمر المنافق أو الضعيف في إيمانه من الوقوع في حبائل الشيطان أو الانقطاع عن السلوك والتربية بالكلية (١) ٠

ولم يكن المختار الكنتي سالكا مرتاضا على طريقة القادرية فقط بل إنه كما يقول : اتخذ من الخلوه والعزلة عن الخلق فرصة لحفظ العلوم وفهمها وأخذ الأسانيد عن شيخه فيها (٢) ٠

وهذا نموذج من دراسته : العلوم التي أخذها بالسند عن الشيخ سيدي علي هي :

تفسير القرآن الكريم :

أخذ فيه الكتب التالية بالسند عن شيخه إلى مؤلفيها ٠

١) تفسير الجلالين ٠

٢) تفسير البغوي ٠

٣) لباب التأويل لابن الخازن ٠

٤) تفسيربن عطية ٠

٥) تفسير النسفي ٠

٦) تفسير البيضاوي (٣) ٠

الحديث والعلومه بالسند عن شيخه :

---

(١) نفسه ص ٩٧ ٠

(٢) نفسه ص ٩٧ . ١١٢ ٠

(٣) الطرائف ص ٩٩ ، ١٠٥ ٠

١) الصحاح الستة . (١)

٢) جامع الأصول لابن الأثير .

٣) وجامعي الاسيوطي . الكبير والصغير .

٤) شفاء القاضي عياض .

٥) كشف الغمة عن جميع الأمة للشعراني .

٦) والترغيب والترهيب للمنذري (٢) .

علوم الفقه بالسند عن شيخه وغيره إلى المؤلفين :

١) مختصر خليل ومنظومة بن عاصم أخذهما على محمد أحمد البلتماتيحي بالسند إلى مؤلفيهما (٣) .

٢) جامع الأصول لابن الحاجب .

٣) كتاب ابن عرفة .

٤) رسالة ابن أبي زيد القيرواني عن الشيخ سيدي علي بن النجيب إلى مؤلفيها (٤) .

---

(١) الظاهر أنه يريد بها : الموطأ والصحيحين البخاري ومسلم ، وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وفي إطلاق الصحة عليها جملة كلام للعلماء . انظره في الباعث الحثيث على معرفة علوم الحديث ، تحقيق محمد عبد الرازق حمزة ، دار مصر للطباعة ص ٢٤ . ٢٧

(٢) الطرائف ص ٩٩ . ١٠٥ .

(٣) الطرائف ص ١٠٤ . ١٠٥ .

(٤) نفسه ص ١٠٥ قلت : ولابن الحاجب مختصران أحدهما في الفروع الفقهية اسمه : جامع الأمهات . ولعله هو المراد هنا ، والثاني : في الأصول اختصر به كتابه : منتهى السول والأمل من علمي الأصول والجدل . ولا أعرف له كتابا بهذا الأسم : جامع الأصول .

أما علوم الأصول : فقرأها على أحمد غعبد الله الولاتي :

وبسنده أخذ عنه الكتب التالية :

١) ورقات إمام الحرمين أبي المعالي الجويني ٠

٢) جمع الجوامع لابن السبكي ٠

٣) كافية ابن الحاجب ٠ قلت : كافية ابن الحاجب في النحو ٠

٤) تنقيح الفصول ٠

٥) قواعد المنجوري (١) قلت : لعله يقصد شرح المنجور على المنهج للزقاق وهو في القواعد الفقهية لا الأصول ٠

اللغة العربية وعلومها :

يقول : إنه كان زاهدا في أول أمره في علوم اللسان ويرى أنها تصده عما هو بصدده حتى لحن في قراءته أمام شيخه الذي كان يحثه في السابق على تعلم النحو فعزم على قراءته فأخذ في قراءة الكتب التالية التي ذكر أنه فاق فيها من سبقه إليها ممن كان معه من الطلاب وهي:

١) مقدمة بن آجروم ٠

٢) الخلاصة لابن مالك ٠

٣) والفريدة للسيوطي (٢) قال: (وبرعت في الفن ثم اشتغلت بفنون البيان) (٣) ٠

وهي : علوم المعاني :

١) ألفية السيوطي : عقود الجمان ٠

٢) التلخيص الذي هو أصل الفية السيوطي ٠ (٤) قال الشيخ سيدي محمد عن والده : وكان يقول في إفتتاحيات إجازته منوها بأهمية الإسناد :

(أما بعد فإن السند هو العروة الوثقى للعلماء والصلة المتصلة الموصلة بمددها للأولياء اتخذه العلماء مغنما والأولياء سلما ‥) (٥) ٠

---

(١) نفسه ص ١٠٥ ٠

(٢) الطرائف ص ٩٩ ـ ١٠٠ و ١٠٥ ٠

(٣) نفسه ص ١٠٠ ٠

(٤) نفسه ص ١٠٥ ٠

(٥) نفسه ص ١١١ ٠

قلت : وبالمقياس البشري العادي فإنه يصعب أو يكاد يكون مستحيلا مهما أوتي الإنسان من ذكاء وفراغ ، تحصيل هذه الفنون كلها بإتقان في مدة تنحصر في خمس سنوات إلى أربع ، وهي مدة غياب المختار الكنتي عن أهلـه في رحلته لطلب العلم حيث قضى عاما منها بين شيوخه من الطوارق كل أنليوس (١) وآح الكلحرومى (٢) وتينبكتو (٣) ٠

وأربعة أعوام عند شيخه علي بن النجيب حيث أمره بعدها بزيارة أهله فيما يفهم منه انه تصدير وإذن بالمشيخة (٤) ٠

وقد زار المختار الكنتي بعد ذلك مراكز في البلاد ، مشهورة بعطائها العلمي كولاته وتشيت (٥) ٠

وكان المختار الكنتي فيما يرويه عنه ابنه محمد (الخليفة) في أثناء طلبه للعلم محفوفا بالعناية من الله حيث فتح عليه في العلوم كلها وكان الخضر عليه السلام يرشـده (٦) وربما أتاه رجال يعلمونه حتى يعلم هو شيخه (٧) ٠ وأن من أكرمه الله ومن أعرض عنه أو اعترض عليه أو ناظره نصره الله عليه (٨) ٠

ومن القديم والصوفية يظهرون مكانتهم عند الله التي قد لا يوافقهم العلماء على كثير مما يدعونه منهما إما لاستحالته عقلا أو لمخالفته للشريعه الاسلامية ، وإذا كانت هذه المبالغات التي يذكرها الصوفية عن أنفسهم قد تصل إلى حد الغلو وادعاء

---

(١) الطرائف ص ٩٥ ٠

(٢) نفسه ص ٩٥ ٠

(٣) نفسـه ص ٩٦ ٠

(٤) نفسه ص ٩٧ . وما بعدها ٠

(٥) نفسة ص ٣٨ و٩١ و١٦٤ و١٩٥ ٠

(٦) نفسه ص ٩٩ . ١٠٠ وهو الذي أشار عليه بقراءة رسالة ابن أبي زيد القيرواني حسب الرواية

(٧) نفسـه ص ٩٩ ٠

(٨) نفسـه ص ١٠٠ . ١٠١ ٠

ما لا يجوز ادعاؤه فإنه لا مدح في نسبتها لشخص ما ، والأولى أن يدرج في سلم طلاب العلم المجتهدين والعباد الملتزمين والعلماء العاملين بدلا من أن يؤخذ عليه ما في الغلو وحب العلو فلا يسلم له ولا يسلم من الناقدين له . (١)

وإذا ثبت ما نسب إلى المختار الكنتي من الاجتهاد والانقطاع في طلب العلم واتباع السلوك الشرعي كفانا ذلك في معرفة ما أنعم الله عليه به ، وما اثمر له ذلك من مكانة علمية كبيرة - سنتحدث عنها إن شاء الله فى المبحث الآتي وزهد (٢) وتواضع (٣) وورع (٤) وصبر (٥) وسياسة حكيمة (٦) مكنته من نشر طريقته بين العلماء وطلاب العلم والشيوخ والأمراء (٧) .

وأغنانا ذلك عن تتبع ما نسب إليه على لسانه هو أو نقله عنه من واقع حياته ابنه سيدي محمد الذي نعتمد على كتاباته في ترجمته له . من عبارات صوفية غامضة أو غالببة .

على أنه لابد من عرض ونقد ما هو داخل في خطة هذا البحث من ذلك إن شاء الله .

---

(١) نفسه ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٢) الطرائف ص ١٦١ .

(٣) نفسه ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٤) نفسه ص ١٧٦ - ١٧٧ وما بعدهما .

(٥) نفسه ص ١٧٠ .

(٦) نفسه ص ٢١٣ .

(٧) نفسه ص ٤٠٢ و ٤١٧ و ٤٢٠ و ٤٢٢ و ٤٢٣ و ٤٢٨ وما بعدها .

المطلب الثالث : مكانته العلمية وآثاره

المقصد الأول : مكانته العلمية :

لقد حظي المختار الكنتي من بين علماء بلاده بتراجم متعدده كلها تحاول إبراز مكانته وقوة أثره ٠

فقد ترجم له صاحب فتح الشكور من جهة كونه عالما فقيها (١) ، وترجم له صاحب الوسيط من جهة كونه شاعرا وأديبا (٢) وترجم له صاحب شجرة النور الزكية من جهة كونه أحد أعلام المالكية (٣) وترجم له بول مارتي ترجمة عامة معتمدا في ترجمته له على المصادر المكتوبة والأحاديث الشفهية (٤) ٠

ويظل أكبر مترجم له ولده وخليفته محمد الكنتي حيث خصص لترجمته وكل ما يتصـــل به كتابا ضخما سماه : الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالـــدة والوال (٥) ٠

وخصص له أحد أتباعه وهو محمد الأمين بن عبد الله الجعفري الحجاجي الصحراوي المتوفي سنة ١٢٩٦ هـ كتابا سماه :

المنهـج المختار والكوثر المدرار في مناقب الشيخ المختار واشياخه الاخيار الأبـــرار (٦) ٠

وإذا تركنـــا ما في هذه التراجم من الاطراء والاطناب فإننا نجدها في غير ذلك

---

(١) فتح الشكورص ١٢٥ الترجمه رقم : ١٤٧ ٠

(٢) الوسيط ص ٣١٦ ٠

(٣) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٣٧٧ ٠

(٤) كنتة الشرقيون ص ٣٩ وما بعدها ٠

(٥) الطرائف والتلائد ص ١ ـ ٥ وهو الكتاب الذي نعتمد عليه كثيرا في تراجم المختارية وما يتصل بها ٠

(٦) الاعلام للزركلي جـ ٦ ص ٤٣ ، والإعلام بمن حل بمراكش وأعمـــات من الاعلام لابن سوده جـ ١ ص ٣٣١ ٠

مجمعة على وسمه بسمات العلماء الاجلاء و المجددين النبلاء • فالشيخ محمد بن محمد مخلوف يصفه قائلا : (كان من أعلام العلماء والآئمة الفضلاء ، وأحد الأساتذه المشهورين والجهابذة المعروفين) (١) •

ويقول فيه صاحب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور : بأنه شيخ الأشياخ السادات ، ساقي المريد وعمدة أهل التوحيد ، شيخ المحققين : (كان رحمه الله تعالى وليا عابدا زاهدا ، يأتونه المريدون من كل فج ومكان) (٢) •

ويقول فيه صاحب الوسيط (كان الشيخ المذكور ، من أفراد عصره علما وصلاحا ولم نر أحدا يطعن في ولايته) ويقول : (ومن نظر في كتبه تبين له فضله ، سواء كانت في الحقائق أو غيرها) (٣) • ويعتمد بول مارتي في ترجمته له على ما كتبه ابنه عنه ويتخلص منه ومن الروايات الشفهية التى جمعها عن حياته (أنه كان قبل كل شيىء مصلحا ، وفاتحا إسلاميا حقيقيا ، اجتذب علمه إلى خيمته زوايا البيضان الذين منهم انتشر دعاته فى كل الأقطار السوداء في إفريقيه الغربية وبالتالي تدين لهم الصحراء الكبرى وبلاد السودان في الوقت الحالي ، باعتناقها الاسلام مؤخرا) • إلى أن قال : (وأنه في الوقت ذاته هو السيد الذي وطد وأنار للمشايخ طريق إيمانهم ، والزعيم الديني الذي أدخل في الاسلام الأقوام الوثنية) (٤) •

وقد لا يجد الباحث غضاضة في التسليم لما وصف به هذا الشيخ من المكانة العلمية والاجتماعية إلا أنه لابد من القول بأن أمثاله كثير في تلك المنطقة ممن عاصروه أو جاؤا بعـــده بقليل ولو أنهم لم يكتب لهم تاريخ يبرز حياتهم ويسلط الضوء على آثارهم • (٥)

---

(١) شجرة النور ص ٣٧٧ •

(٢) فتح الشكور ص١٥٢ (يأتونه) : كذا في النسخة المطبوعة من فتح الشكور وهو على لغة : أكلوني البراغيث •

(٣) الوسيط ص ٣٦١ •

(٤) كتبه الشرقيون ص ٣٩ •

(٥) الوسيط . أنظر خاتمته ص ٥٧٨ . ٥٨٠ •

هل كان الشيخ سيدي المختار الكنتي مجددا ؟

إنه لابد من مناقشة القول بأن هذا الشيخ هو مجدد القرن الثاني عشركما وصفه به ابنه (١) والتعرض كذلك لبيان عقيدته ليتضح مدى صحة منهجه من خطئه .

ينطلق محمد الكنتي في وسمه لوالده بهذه المكانة العالية من الأمور التالية :

١) سعة باعه في جميع الفنون (٢) .

٢) وأنه آيه في علوم الباطن من تصوف وعلم منازله وأسرار الباطن (٣) .

٣) اعتماده في ذلك على الكتاب والسنة لغلبتهما عليه حيث إنه كان يفسر القرآن إلى آخره عن ظهر قلب كما يقول (٤) .

٤) وأنه كان مرجحا للاتباع كارها للابتداع والخروج عن سنن السلف الصالحين وما اجتمع عليه صدر العلماء العاملين .(٥)

يضاف إلى هذه الأمور أنه هو صرح بما يقتضي حكمه لنفسه بهذه المنزله فى مناسبات كثيره منها قوله في قصيدة بائة له :

وإياك ترضى باقتناص فروعها	بدون ارتشاف من مشارعها العذب
فمن لم يقيد بالكتاب علومــه	طغى وبغى واستبذل البسر بالرطب
ولا تقتصر إن الحديث بيانه	وتفسيره فقه الائمة لا الشغــب

---

(١) الطرائف والتلائد ص ٢٦٩ - ٢٧٠ . ٢٧٣ ومحمد المديوني المدرسة الكنتيه : نموذج للدعوة والارشاد ص ١ .

(٢) نفسه .

(٣) انظر : جنة المريد ص ٢٩ . ٣١ والطرائف ص ٢٨٠ . ١٨٥ .

(٤ـ ٥) الطرائف والتلائد ص ٢٦٨ سيأتي إن شاء الله في مبحث العلم عند القادرية بيان المراد بعلم الظا هر والباطن .

وثق بكتاب الله والسنة التي أتت عن رسول الله والعكس فاجتنب

ودع عنك أقوال الرجال ورأيهم لقول رسول الله فهو الذي يطب

ولا تبتدع قولا تخاف عقابه فمن يبتدع في النار مع قوله يغب) (١)

ومن قوله في افتتاحية كتاب هداية الطلاب :

(الحمد لله الذي خص هذه الأمة المحمدية بأن جعل لها في كل قرن وارثا يجدد لها دينها يفيض عليه العلوم من لدنه ليحقق تمكنها) (٢) ٠

وهذا الكتاب اعتمد فيه على فقه الصحابة والسلف الأول كما يقول ولده ولذا فإنه مشتمل على مسائل في الفروع خالف فيها مختصر خليل وأصله (٣) ويؤكد ذلك برؤية من النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول في منازلة له :

(رأيت المصطفى في النوم حقا فبشرني وأدناني إليه

وقال بأنك المبعوث صدقا تجدد سنتي فاصبر عليه

فعلمني علوما زاخرات وحقق نسبتي فيما لديه) (٤)

من هذه النصوص وغيرها جزم محمد الكنتي قائلا : (بل كان رضي الله عنه المجدد في القرن الثاني عشر) (٥) ٠

---

(١) الطرائف ص ٢٦٩ في الأصل : (وثق بكتاب والسنه التى) وأظن أن الصواب ما أثبتناه والابيات مختارة وليست متتالية وتأتي إن شاء الله في فصل الصحوة السلفية في الطريقة القادرية متتالية ٠

(٢) نفسه ص ٢٦٩ ٠

(٣) نفسه ص ٢٦٦ ٠

(٤) نفسه ص ٢٦٩ ٠

(٥) نفسه ص ٢٦٩ في الأصل : (بتجديد سنتى فاصبرعليه)

قلت : ومع ميله فيما تقدم إلى تعميم الحكم له بالتجديد في جميع الميادين فإنه يصرح بما يقيد مجال تجديده ، حيث يقول بأنه وإن ادعى أحد مشاركته في بعض العلوم الرسمية ألقى القياد إليه في غيرها من العلوم الوهبية اللدنية . فيقول : (بل وافر رضي الله عنه على حين انقطاع من التربية بالرسم المألوف على السنن المعروف فأحيا مواتها ونشر رفاتها غربي وعلم وهذب وقوم ٠٠) (١) ٠

ويوضح ذلك بكثرة مجالات التجديد ليؤكد مجال تجديد والده (٢) فيقول : (ثم لما كان الأهم الأولى تربية المريدين وتهذيب أخلاقهم كانت عنايته رضي الله عنه بذلك أشد وعمله في تقرير قواعد الصوفية أتم وآكد) (٣) ٠

وأنه كان يحيل المشتغلين من طلبته بالفروع والنحو على غيره ممن له خبرة بذلك الفن ٠ (وليس هو كذلك مع المشتغل بعلم التفسير والحـديث والتصوف) (٤) (ولذا كان غالب تآليفه في فن التصوف ، وما كان منها في غيره يظهر لك بديهة منه معنى الميل إليه وغلبته على كلامه ودورانه عليه) (٥) ٠

---

(١) الطرائف ص ٢٧٠ ٠

(٢) نفسه ص ٢٧١ ٠

(٣) نفسه ص ٢٧١ ٠

(٤) نفسه ص ٢٧٢ ٠

(٥) نفسه ص ٢٨٠ ٠

المناقشة والنقد :

الواقع أنه لا يكفي بالمقياس التجديدي أن يدعو عالم أو شيخ في قصيدة إلى العناية بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو العمل على تحرير المسائل العلمية أو يؤلف كتابا يخالف في بعض مسائله مختصرا كان موجودا قبلة ٠ أو يذكر في مناماته أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بتجديد سنته ، أو يؤكد على العناية بعلوم الصوفية وتدريسها وتسليك المريدين على منهجها ٠

ذلك أن التجديد أعم من هذه الأمور وأشمل حيث لابد أن يجتمع فيمن يوصف بالتجديد العلم والعمل والدين وسياسة الدنيا من أخذ الناس بالشريعة وإقامة حدود الدين وفق المنهج الذي كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وتغير مسيرالحياة الفاسدة إلى حياة صالحة باللين في موضعه والشدة في مكانها كما كان عليه الخلفاء والراشدون ومن تبعهم على نهجهم في سياسة الدين وحمل الرعية على ذلك بما يناسب٠

وهذا ما لم يدعه محمد الكنتي لوالده حيث يقرر أن غالب الأحكام السياسة يجري فيها المجرى اللائق بالحال لفقد شروط القيام بها على الوجه المقرر شرعا من إقامة الحدود وتنفيذ الأحكام بالوظائف السلطانية ، وأنه مع ما أفرغ عليه من القبول ونفوذ الكلمة وعظمة الهيبة عند الأمراء والمتغلبين والرؤساء والمتعصبين في سائر الأقطار ركان يتوصل إلى تنفيذ ما تعين من ذلك بالمجاملة والمداراة والعطاء (١)

قلت : ومن كان على هذا الجانب الكبير من المكانة عند الناس وفي أرض سائبة يسودها الظلم والجور والفوضى فلن مجال تجديده هو العمل على جمع الناس على إمام عادل وحملهم على التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتطبيق أحكام الله في جميع شؤنهم ٠

---

(١) الطرائف ص ٢٧١٠

وهذا ما لم يكن عليه المختار الكنتي بل إنه دعي إلى ذلك فامتنع مكتفيا بما هو فيه من السلامة مع الجاه العريض بل إنه تولى القضاء في تمبكتو فعدل حتى لمس الناس آثار العدل أثناء قضائه وعرف ما عليه القضاة في عهده من الظلم والجور في الاحكام وأخذ الرشاوى ثم تركه لمجرد رؤيا (١) ٠

أما العلوم فكانت كثيرة والعلماء متوافرون في تلك المنطقة والداعون إلى الله وإلى تحكيم شرعه كثيرون ولكن لم يدع أحد منهم التجديد بمجرد ذلك (٢) ٠

وإذا نظرنا إلى موقفه من المجددين داخل البلاد وخارجها نجد أفقه لا يتسع في بعض الأحيان للتحقيق الذي دعى إليه في بائيته ٠ فمثلا نجده يرد على المختار ين بونه والمجيدري بتأليف كتاب كبير قائلا في سبب تأليفه له :

(والسبب في ذلك ما بلغني مستفيضا من خروج رجلين متقولين من تلقاء أنفسهما لا بنص صريح ولا تبين أحدهما يقال له ابن بون : أعلن بتكفير من يقطع بقول الأولياء الصالحين بغير نص معه ولا حجة من رب العالمين) (٣) وأخذ يؤلف ويرد ويشنع بأمور بعيدة عن موضع النزاع على ما يستبين إن شاء الله في الصفحات الآتية ذلك أن ابن بون وهو الرجل الأول الذي كان من الموصوفين بالتجديد وهو : إنما يبين في نظمه : (الوسيلة) منهجا وسطا في الأولياء والفرق بينهم وبين الأنبياء حيث يقول :

(وإن فرقة الجنيدهم على ... هدى ومن لنهجهم توصلا (٤)

وإنما الإقساط في النبـــي ... وجوب عصمة وفي الـــولي

تجويز أن يؤتيهم الكرامــه ... من قد هداهم للأستقامــه

---

(١) انظر تفصيل ذلك في الطرائف ص ١٧٦ - ١٧٧ و ٣٨٥ . ٣٨٧ و ٣٨٩ و ٤٢٠ و ٤٩٩ ٠

(٢) يراجع في ذلك : فتح الشكور والوسيط وبلاد شنقيط ٠

(٣) جذوة الأنوار ص ١ وما بعدها ٠

(٤) وسيلة السعادة ص ٧ و ٨ ، و ٩ ٠

كرامة الولي حق وظهر منها كثير كرسالة عمر
لنيل مصر وسماع ساريه كلامه من البلاد النائيه
إلى أن قال : لكن من أوجب هذا أفرطا في حقهم ومن أباه فرطا
وقطعه بما به الولي أخبر كفر عكسه النبي) (١)

وحكى المختار الكنتي أن حجة ابن بون في ذلك مخافة أن تثبت العصمة لغير الأنبياء (٢) ٠

وحكى أن السبكي قال : (أقوال غير الأنبياء لا يقطع بصحتها ولا يجب العمل بها لفقد العصمة من الخطإ في حق غير الأنبياء) (٣) ٠ وقد رد الكنتي على ابن بون وشنع عليه ، ورمى صاحب هذا القول بالبدعة الشنيعة والزندقة ، والخروج والرفض (٤) إلى غير ذلك من الألقاب التي لم يكن ابن بون من أهلها حتى إنه اعتبر قوله تنقيصا من مكانة أولياء الله وتوعده بسوء الخاتمة وسلب الإيمان (٥) والعياذ بالله ٠

وقد ردا بن بون ودافع عن نفسه في أبيات منها :

(أسيدنا المختار لا تك مفرطا وإياك والتفريط واعدل وأقسطا
فكونك ذا مال وجاه ورتبة علت في قلوب الناس لم يمنع الخطا
وكوني لم أذكر كذكرك لم يكن ليمنع التوفيق من ما نح العطا
أتسلبني والله ماشاء مثبت إذاً أنت في تعظيم نفسك مفرطا) (٦)

وقد اعتبر صاحب الوسيط هذه الأبيات من النكير الشديد على ولي لله تعالى(٧)

---

(١) نفسه ص ٩ ٠
(٢) جذوة الانوار ص ٢٨ ٠
(٣) نفسه ص ٢٨ ٠
(٤) نفسه ص ١٥ . ٢٨ و ٥٩ . ٧٢ و ٨٨ وغيرها ٠
(٥) نفسه ص ٩ . ١٠ و ١٨ . ٢٠ و ٩٧ و ١١٩ . ١٢ ٠
(٦) الوسيط ٢٨٢
(٧) نفسه ص ٢٨٢ ٠

لم يجد أحدا يطعن في ولايته (١) وجزم بأن ابن بون رجع عن ذلك النكير مع أنه . كما يرى . لا يوجد ولي إلا وله من ينكر عليه من العلماء (٢) وظاهر من كلامه أنه يريد وليا با لمعنى الصوفي ، وإلا فالعلماء المسلمون العاملون كثيرون ولا ينكر عليهم أحد ولايتهم لله تعالى ويؤخذ من هذه العبارة الأخيرة أن مراده بالأولياء : شيوخ الصوفية وهم الذين ألف المختار الكنتي كتابه جذوة الأنوار في الذب عنهم مع أنه ذكر معهم غيرهم من الصحابة والتابعين والزهاد والعباد منوها بكراماتهم ، وهذا مما لا يخالفه فيه ابن بون ولا غيره حيث يقول ابن بون في الوسيلة :

والأولياء المؤمنون الأتقيا فالعلماء العاملون أوليا (٣)

وما ذكر من رجوع كل من المختاريين عما وقع بينهما من خلاف لم نعثر له على دليل بل الموجود يخالفه حيث إن ابن بون توفى سنة ١٢٢٠ هـ (٤) وقد فرغ المختار الكنتي من الرد عليه في مؤلفه جذوة الأنوار عشية يوم الاثنين تاسع عشر رمضان عام ١٢٢٥هـ (٥) أي قبل وفاته أعني المختار الكنتي بأشهر قليلة وبعد وفاة ابن بون بخمس سنين ثم إنه من المعروف أن الكنتي امتنع من مقابلة ابن بون في (تكانت) بعد ما ذكر من اتفاقهما على ذلك اللقاء وذلك يؤكد عدم الاتفاق المذكور . يقول أحمد بن الأمين في ترجمته للمختار بن بون : (وكان يشدد النكير على ولي الله الشيخ المختار الكنتي، وله فى ذلك ، وقد بلغه أن الشيخ قال إنه يسلبه . ثم ذكر له الأبيات السابقة . إلى أن قال : ثم إنه رجع عن ذلك ، وصارت بينهما مكاتبات وملاطفات ، واتفقا على أن يجتمعا في تكانت ، بأن يقوم ابن بون من أرض القبلة ، ويتوجه الشيخ من أزواد ثم إن المختار رحل من القبلة كما قال ، ولما بلغ أول طرق تكانت ، بلغه أن الشيخ عدل عن عزمه ، وسأل عن ذلك المحل ، فقيل له : يقال له التيبراتن اسم طريق من طرق تكانت فقالهم : بلدة طيبة ورب غفور ، وأخبرهم أن ذلك المحل تربته ، وكان كما قال ، هكذا تقول الناس ، والله أعلم (٦) .

---

(١) نفسه ص ٢٦١ .

(٢) نفسه ص ٢٦١ .

(٣) نفسه وسلية السعاده ص ٩ .

(٤) بلاد شنقيط ص ٥٣ .

(٥) جذوه الأنوار ص ١٢٢ .

(٦) الوسيط ص ٨٢ .

الرجل الثاني وموقف الكنتي من دعوته إلى التجديد :

وممن وصف فى بلاد موريتانيا بالميل إلى التجديد فى العلم والعقيدة محمد المجيدري بن حبيب الله اليعقوبي الذي أعتبر رابع ثلاثة لم يبلغ أحد مبلغهم فى القطر الموريتانى فى العلم والفهم (١) وعندما انتقد ما عليه فقهاء قطره من الجمود على الفروع بما يكاد يصل إلى اعتقاد العصمة لمقلديهم والتعصب المقيت للأشخاص والحذر من الاعتراض على الفقهاء ضلله بعضهم وبدعه آخرون بدون تفهم لما ذهب إليه من قول وما دعا إليه من الاعتماد على نصوص الكتاب والسنة ، وأخذوا يشنعون عليه القول لأنه قال : بإن الامام مالكا مثل سائر المجتهدين من علماء الأمة يؤخذ من قوله ويرد عليه كما قال هو رحمه الله دون النبى صلى الله عليه وسلم .

وأخذوا عليه أنه قال إن فى الموطإ أقوالا لبعض العلماء المجتهدين من السلف وبعض الروايات الظنية (٢) فكان المختار الكنتي مع ما تقدم من دعوته لاعتماد الكتاب والسنه والأخذ بالتحقيق والتحرير وعدم الأغترار بأقوال الرجال من بين الرادين عليه المشنعين لقوله . فهو ثاني الرجلين اللذين وصفهما بالتقول بدون دليل كما سبق، فاتهمه بالطعن على الإمام مالك فقال : (وقد بلغني أن بن حب الله (٣) طعن فى مالك بن أنس إمام الائمه ..) (٤) وقال : (... وأن حب الله كأنه يريد الطعن على ظاهر الشرع وأهله) (٥) .

وغاية ما قاله المجيدري أن الإمام مالكا يأتي بالأقوال الظنية ليبين أنه لا معنى للجمود عليها إذا خالفت نصا أقوى منها ، ومعلوم أن الأحاديث التى لم تتواتر لا تفيد إلا الظن فكيف بالأقوال المنسوبة للمجتهدين (٦) . وقدبين المجيدري رحمه الله ما يريد من كلامه في العقيدة وغيرها .

---

(١) الوسيط ص ٢١٤ . ٢١٥ والدر النضيد مصدر سابق ص ٤٦ . ٤٧ . والأربعة هم كما ذكرهم صاحب الوسيط هم : ابن رازكه ثم ابن الحاج ابراهيم ومحمد اليدالى . وقال صاحب الوسيط : ابن ابن بون أحق في المجيدري بأن يكون هو رابع الأربعة.نفس الصفحة .

(٢) ندوة الإمام مالك فاس ص ٢٣٧ .

(٣) هو الاسم الشائع الذى يطلق على محمد بن حبيب الله المجيدرى .

(٤) جذوة الانوار ص ١ و ٢٣ .

(٥) نفسه ص ٢٥ .

(٦) انظر : ندوة الامام مالك جـ١ ص ١٣٧ . ١٣٨ .

وقد نظم قصيدة يناقش فيها القائلين بتحكيم العقول من المتكلمين ، ويستدل فيها لعقيدة السلف ، وشرحها الشيخ محمد المامي بقصيدة سماها الزعفرانية حيث يقول المجيدري :

عقولكم فيما ادعيتم محيطـــة ... بإدراك ما عن قدرة الله يصدر

فإن عجزت عن دركه قلتم إنه ... محال وليست فيه قطعا تؤثـــر

(ويخلق مالا تعلمون) مقطـع ... بها من دعاويكم وتين وأبهـــر

إذ العقل نفس العلم حقا وقاله ... علي الذي حازت به المجد أشعر

فعقدي بحمد الله إمكان كل ما ... به الله أو خير البريـــة يخبـــر

وما قـد نفى هو المحال حقيقـة ... لدي ولابالتعداد لم يك يحصـر

وذلك كابـــن والشريك وزوجـة ... فدعواك إلزام التحكم تهـــدر (١)

ونقل بداه بن البصير اسئله له ومناقشات في نفس المجال (٢) .

وقال هو عن نفسه :

لو كنت بدعيا لما كان الصواب ... عندي الاحاديث الصحاح والكتاب (٣)

والمختار الكنتي يوافق ابن حبيب الله فيما ذهب إليه من الاعتراض على علم الكلام وأهله ، في نفس الكتاب الذي ذكر فيه الرد عليه ، وغيره من كتبه (٤) ولكن عدم دقة النقل أو عدم صواب الفهم للمنقول كثيراً ما توقع المرء في أغلاط ، فيرد ما يؤيد ويصدق ما يكذب ويحكم على الناس بما لم يعرفوا به وينسب إليهم ما لم يتلبسوا به . وقانا الله وإخواننا الوقوع فى ذلك .

---

(١) ديوان شعر الشيخ محمد المامي ، نشر زواية علمه فى انواكشوط ص ٨١ . ٨٤ .

(٢) انظر : الدار النفيد ص ٤٦ . ٤٨ .

(٣) المحاضر الموريتانية ص ٨٢ .

(٤) جذوة الانوار ص ٢١ . ٢٥ وما بعدها و ص ٣٩ .

الموقف الثاني : للمختار الكنتي من دعوات التجديد

وما وقع للمختار الكنتى رحمه الله : مع من وصفوا فى بلاده بالتجديد وقع له مع الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية حيث صدق روايات الحجاج وعوام أهل التعصب ، فنسب أهل الدعوة السلفية المجددة إلى أمور شنيعة قبل أن يقرأ عنها كتابا أو يقف لها على حقيقة •

حيث يقول لولده محمد فى جواب رسالة يستأذنه فيها في الحج إلى بيت الله الحرام : (إن الحج لا يجب عليك لفقدان شروطه لكثرة الفتن وثوران الخوارج وأستيلائهم على الحجاز) (١)

ووصفهم بالرفض والاعتزال وغير ذلك من الأمور التى صد بها غفر الله لناوله من استشاره في الحج فقال : (فقد قال صلى الله عليه وسلم حجوا هذا البيت قبل أن تضرب العرب على أذناب أوديتها فتحول بين الناس وبين حج البيت) (٢) •

ولا أرى ذلك إلا قد أظل زمنه فإن عرب الحجاز ونجد وأطراف العراق قد أصفقو ا(٣) على حمل الناس على ما هم عليه من الرفض والاعتزال ، وقد استولوا

---

(١) الطرائف ٢٥٧ . ٢٥٨ . ٢٥٩ . (يراجع حاضر العالم الاسلامى ٣ . ٤ . ١٦٤ وكان استلاؤهم على الحجاز سنة ١٢٢٠ هـ حده منه •

(٢) خرجه البهيقى فى السنن الكبرى بلفظ : (حجوا قبل أن لا تحجوا ، قيل فما شأن الحج ، قال : : تقعد أعرابها على أذناب أوديتها فلا يصل إلى الحج أحد) . وهو من حديث أبي هريرة رضى الله عنه وفى سنده عبد الله بن عيسى وشيخه محمد بن أبى محمد قال الذهبى : (عبد الله بن عيسى الجندي ، شيخ لعبد الرازق ، لا يعرف • والحديث منكر) (محمد بن أبي محمد عن أبيه ، عن أبى هريره : ((حجوا قبل أن لا تحجوا)) منكر) . انظر فى أصول الحديث : السنن الكبرى للبيهقى ، باب ما يستحب من تعجيل الحج ، إذا قدر عليه • ط باكستان ٤ . ٣٤١ • وانظر فى التخريج : المغني فى الضعفاء للذهبى ط ١ قطر ج ١ ص ٤٤٩ ترجمة رقم (٣٢٩٦) وجـ ٢ ص ٢٦١ ترجمة رقم (٥٩٥٣) وانظر رقم (٥٤٣) من سلسلة الاحاديث الضعيفة والموضوعة للألبانى جـ ٢ ص ٢٣ والحديث أن كانت فيه حجة فهي تعجيل الحج لاتأخيره كما يفهم من سياق الشيخ له ، وينطبق على الوضع فى الحجاز قبل الدعوة السلفية •

٣) (أصفقوا) كذا فى الأصل الذى عندي ، ولعله تصحيف والمراد : أطبقوا : أي على الأمر أتفقوا عليه وكذلك أصفقوا أيضا •

على الحرمين والطائف وجميع من بتهامة والحجاز من حرب وعنزة وعرب الينبوع وأروا الناس العدل والتدين على حين فساد من الدين وقلة من العلماء ووهن من الاسلام وضعف من دولته فأقل ما يخاف على الحاج تحت ولايتهم الافتنان بهم عن دينه أو تغرير بنفسه بالتعرض لفضيحته أو حينه وهم لم يزا لوا فى إقبال من دولتهم وقوة من صولتهم فالله تعالى يلطف بالاسلام وأهله فالأهم بك والأليق أن تقبل على تهذيب نفسك والتميز عن أبناء جنسك بإخماد نار حسك حتى تفوز بدوام أنسك بتجليات جمال ربك بمرايا قدسك) (١) •

قلت :

في هذا النص من عدم التحقيق الذى ينافي الحكم لصاحبه بالتجديد مالا يخفى حيث إن الدعوه السلفية إنما جاءت لتكون مطهرة لبلادالاسلام من أنواع الانحرافات والبدع فكيف توصف بما عليه الخوارج والروافض والمعتزلة - رغم تناقضه - وهي حرب على هؤلاء الفرق وأمثالهم •

وكيف ينفر المسلم من أداء واجب الحج عليه لمظنة فتنة متوهمة لا دليل على حصولها ؟

وكيف توصف الحجاز وما حولها بقلة العلماء مع وصف الدولة التى قامت على أساس من العلم وعلى أكتاف العلماء بالاقبال والقوة ؟

إن سوء النقل وتحريف الأمور بلا شك هو الذي أوقع هذا الشيخ في مثل إصدار هذه الأحكام التى تفتقر إلى تحقيق يليق بمكانتة العلمية وما عرف عنه من فهم وإنصاف وورع •

ونفس هذا الجواب والوصف لهذه الدعوة السلفية أخذ به المجاب ، ووصف به أهلها ،

---

(١) الطرائف ص ٢٥٩ •

بأنهم من الخوارج الوهبية (١) •

معتمدا كذلك على أخبار الحجاج العائدين حوالى عام ١٢٢٩ هـ مبديا ارتباحه بما ارتكبه محمد على باشا فى أهل هذه الدعوة ، واصفا عمله بأنه ، عمل جاء من قبل أهل السنه على الخوارج (٢) •

قلت : وقد التبست الوهبية من الخوارج الاباضية على الشيخ سيدي محمد فاختلطت عليه بالدعوة السلفية فى الجزيرة العربية التى قام بها الإمام محمد عبد الوهاب ، وسماها بعض أعدائها بالوهابية ولا يخفى ما فى ذلك من عدم التحقيق والدقة •

والخلاف واقع بين المؤرخين فيمن تنسب له الوهبية ، فقيل عبد الله بن وهب الراسبى المتوفى سنة ٣٨ في وقعة النهروان ، وهذا احتمال بعيد لأن عبد الله هذا من المحكمة الأولى لم تنسب له فرقة من فرق الخوارج •

وقيل الوهبية منسوبة إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ثانى أئمة الرستميين فى الجزائر (بتاهرت) قيل توفي سنة (١٩٠هـ) وقيل بعد ذلك وهذا هو الذي رجح مؤرخوا الإباضية نسبتها إليه (٣) •والشيخ سيدي محمد يعرف أن الوهبية من إباضية الجزائر بدليل تتبعه لهجرات أجداده عبر الصحراء وسكناهم شرقي الجريد حيث كانت الدولة للرمستميين ، ثم إنه نقل فتاوى فيهم وفي معاملتهم (٤) •

---

(١) الصوارم الهندية فى حسم دعاوى المهدية لمحمد بن المختار الكنتى مخطوط شخصي ص١٣•
ويراجع فى الوقائع التى أشار اليها فى حاضر العالم الاسلامي المجلد ٢ ـ ٤ ص ١٦٥ ـ ١٦٧

(٢) أنظر عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها فى العالم الاسلامى تأليف الدكتور/ صالح بن عبد الله بن عبد الرحمن العبود ، الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ط ١ سنة ١٠٤٨ هـ الكتاب كله وخصوصاالصفحات ص ٥٤٦ و ٦٣١ ، ٦٩٠ •

(٣) أنظر : الإباضية بالجريد فى العصور الإسلامية الأولى ، بحث تاريخي مذهبي ، تأليف صالح باجيه ط ١ تونس ص ٣٦ ـ ٣٧ ••

(٤) أنظر : الغلاوية ص ٦٣ ، ١٢٠•

المقصد الثاني : آثاره

آثاره :

لقد رأينا ما وصف به المختار الكنتي من العلم والتجديد والتصوف وما جلب ذلك من إقبال الناس عليه وهو في موقع مناسب بين أقاليم مختلفه وبين شعوب متعددة في دول متعددة وفي طريق الحج والطرق التجارية والرعوية (١) .

هذا بالاضافة إلى أن الله من عليه بالتعمير حتى بلغ التسعين تقريبا مع ما ذكر عنه من تحمل الطلاب والنفقه عليهم ، والضيافة وحفر الآبار وما قام به من صلات سياسية وإصلاحات قبلية (٢) .

وكان له أثر كبير على أمراء البلاد المجاورة له يكاتبونه ويقدمون عليه وكأنهم من أتباعه وخدام حضرته كما يقول ابنه الشيخ سيدي (محمد من أمراء الطوارق)في الطرائف عن كاوي ابن أم أك (٣) وأن جميع الطوارق عبيده وطوع يده (٤) وأن سلاطين أولاد التدمكي يوليهم ويعزلهم (٥) مع أعتقاد جميع القبائل فيه والتسليم له (٦) .

---

(١) أزواد يقع ما بين الجزائر ومالي وموريتانيا والنيجر ويقترب من حدود المناطق الاستراتيجية والمراكز العلمية والتجارية ، كنتة الشرقيون ص ٢٨ وغيرها ، والوسط ٤٥٨ .

(٢) الطرائف ص ١٩ و ٢٠٨ و ٢١١ و ٢١٢ و ٣٥٥ و ٢٨٩ و ٣٩١ . ٣٩٢ . ٣٩٣ و ٤١٧ . ٤٢٣ و ٥٢٣ . ٥٢٥ و ٥٨١ .

(٣) نفسه ص ٤٢٠ .

(٤) نفسه ص ٤٢٠ وهو ايضا من أحسن أمراء الطوارق .

(٥) نفسه ص ٣٨٥ .

(٦) نفسه ص ٤٢٢ . وما بعدها .

بل إن محمد الكنتي بعد أن ينص على دخول أمراء الفلان وعلمائهم تحت طاعة والده وخصوصا كما يقول : (العلامة القائم بالدعوة إلى الله عثمان بن محمد بن عثمان ابن فودي وأخوه المريد الفقيه عبد الله وابنه العالم الوزير محمد بل (١) بعد أن نص على ذلك كما تقدم قال : (فإنه لم يتوفه الله إليه حتى لم يبق موضع مما بين برق الاكـــراد إلى برك الغماد إلا وله فيه أتباع وأشياع يكونون أعيان ذلك الصقع الذي هم به) (٢) • ولعل هذا يكفي من الحديث عن آثاره السياسية والاجتماعية ونصله بالحديث عن آثاره العلمية بذكر بعض مشاهير تلاميذه ومؤلفاته •

تلاميذه :

سبق أن جاء في هذا الفصل في بداية ترجمة هذا الشيخ ما تلقاه من علوم شرعية ولغوية ، وأنه عاد إلى أهله في فترة زمنية قليلة نسبيا بالنظر إلى ما ذكر عن الكم الذى أخذه وقد اتفق الذين كتبوا عن المختار الكنتي أنه كان المريدون وطلاب العلم يأتونه من كل فج ومكان (٣) •

وقد قدموا عليه من مسيرة شهر تقريبا متعدين مراكز علم كثرة قصدا له دون غيره (٤) •

ولم نعثر على من أحصى تلاميذه على وجه الدقة ولكن بالاستقراء فى كتب ابنه سيدي محمد وكتب تلاميذه يمكن حصر الكثير منهم أو أهمهم على الأقل •

يقول : الاستاذ محمد محمود ولد ودادي فى ملحقاته التي أعدها عند ترجمته ونشره لكتاب كنته الشرقيون حيث ذكر خمسة عشر شخصا قائلا : (أما من صدر عن الشيخ من العلماء والمشايخ فهم أعداد كبيرة سنذكر منهم فقط من كان له شأن في وسط موريتانيا وغربها وشمالها (٥) •

---

(١) نفسه ص ٥١٨ والاسلام والثقافة العربية فى افريقيا الدكتور/ حسن احمد محمود ص ٢٧٠

(٢) الطرائف ص ٥١٨ •

(٣) فتح الشكور ص ١٥٢ •

(٤) بالوسيط ص ٢٤١ و ٣٦١ •

(٥) كنته الشرقيون ص ٢١٢ •

واعتمد هذا العدد الأستاذ الخليل النحوي في كتابه بلاد شنقيط (١) وزاد عليه شخصا واحدا سنذكره إن شاء الله فيهم :

١) الشيخ القاضي بن الحاج الفغ (الفقيه) الاجيجى المتوفى ١٢٢٤ هـ وستأتى ترجمته إن شاء الله .

٢) الشيخ محمد الأمين بن عبد الوهاب القلقمي . يأتي الحديث عنه إن شاء الله في ترجمة الشيخ محمد فاضل .

٣) الشيخ بن أمني المجلسي الزينبي المتوفى سنة .

٤) الشيخ سيدي أحمد بن عويس التاقاطي المتوفي سنة .

٥) الشيخ بابا الحي بن محمود بن الشيخ عمر البدوكلي المتوفى سنة .

٦) الشيخ ابات بن الطالب عبد الله ادفجملي المتوفى سنة .

٧) الشيخ الكوري بن المختار السالم (من أهل سيدي أحمد بوحجار المتوفى سنة .

٨) الشيخ المختار السباعي الدميس المتوفى سنة .

٩) الشيخ ويف بن سيدي الأمين اليوسفي المتوفى سنة .

١٠) الشيخ شماد المتغنيري الكنتي المتوفى سنة (٢) .

١١) الشيخ عبدي ولد سيدي أحمد البوبكري المتوفى سنة

١٢) الشيخ أحمد ولد أمينوه البو بكري المتوفى سنة

١٣) الشيخ المصطفى بن العربي الايبري المتوفى سنة

---

(١) بلاد شنقيط

(٢) لم نتمكن من التعريف بهم أكثر من هذا وكثير ممن ذكرناهم لا تعرف على وجه التحديد وفياتهم ولكنهم جميعا من أهل القرن الثاني عشر والثالث عشر الهجريين .

١٤) الشيخ المصطفى بن المختار بن الهيبة الابيري المتوفى سنة

١٥) الشيخ سيديا الكبير بن المختار بن الهيبة الابيري المتوفى سنة ١٢٨٣ هـ لازم المختار الكنتي ستة أشهر تقريبا ثم توفي عنه وتركه عند ابنه سيدى محمد الذي تصدر عليه فيما بعد ٠

قال صاحب الوسيط : (إنه حنسة من حسنات المختار الكنتي) (١) وستأتي ترجمته إن شاء الله في أعلام القادرية ٠

وهذا هو العدد الذى ذكره ولد ودادي ، وزاد عليه الخليل النحوى ٠

١٦) سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي المتوفى ينة ١٢٣٣ هـ ٠

قال صاحب الوسيط فى ترجمته للمختار الكنتي في معرض الثناء عليه ٠

(ويكفيه أن ابن الحاج إبراهيم كان يعتقده ويثني عليه) (٢) وذكر سيدي محمد في الطرائف وجنة المريد بعض مريدي والده منهم :

١٧) سيدي الأمين بن سيدي محمد بن الصديق (٣) ٠

١٨) سيدي ابراهيم بن سيدي المختار البصادى (٤) ٠

١٩) (المريد الصادق) سيدي أحمد ين محمد مولود بن حبيب الله بن يارك الله بن أبى زيد اليعقوبي (٥) ٠

٢٠) سيدي عبد الرحمن بن أحمد التنواجيوى (٦) ٠

---

(١) الوسيط ص ٢٤١ و ٣٦١ ٠

(٢) نفسه ص ٣٦١ ولا يفهم من هذا حصول لقاء أو تلمذة لابن الحاج ابراهيم على الكنتي ٠

(٣) الطرائف ص ١٧١ ٠

(٤) الطرائف ص ٢١١ ٠

(٥) نفسه ص ٢٦٦ ٠

(٦) نفسه ص ٤٢٩ ٠

٢١) المصطفى بن محمد الحبيب الابييري نسباً اليعقوبي وطنا •

قال (وكان من خواص أصحاب الشيخ) (١) •

٢٢) المصطفى بن محمد حبيب الله يثني عليه كثيرا (٢) •

ولعل من أهم مصدري الشيخ سيدي المختار الكنتي أبناوءه الثمانية : زين العابدين ، وسيدي أحمد البكاي ، وسيدي حمه الأمين ، وسيدي بابا أحمد ، وسيدي حسيب لله وسيدي عمر ، وسيدي محمد . ولعل أهمهم أثرا في الطريقة بعده :

٢٣) سيدي محمد الذي لقب فيما بعد (الخليفة) لخلافته لأبيه في المكانة العلمية والسياسية والصوفية (٣) وستأتي ترجمته إن شاء الله وقد سبق أن الشيخ عثمان فودي كان هو وذووه من تلامذته • فإذا أضفنا اسمه واسم أخيه عبدالله وابنه محمد (٤) وصل العدد إلى ستة وعشرين • وهذا العدد من التلاميذ والمصدرين وإن كنا نجزم بأن العدد الحقيقي يفوق هذا بكثير فإنه هو الذي تيسر الآن ولعله من أهم تلاميذه الذين كان لهم أثر بارز فى الحياة العلمية والاجتماعية ، وإن كنا لا نجد عن الكثير منهم شيئا مكتوبا يمكن الاعتماد عليه لكتابة ترجمة له ولو قليلة ، فإن ذكره فى الكتب ونسبته لذلك الشيخ ونقل الناس في رواياتهم الشفهية ، لأخباره ، يؤكد ذلك كله . على أنه كانت لهم مكانة علية بين الناس •

ونصل الحديث عن آثاره بالكلام على مؤلفاته •

---

(١) نفسه ٥١٥ •

(٢) جنة المريد ١٦٧ وقد يكون هو نفسه الذى قبله •

(٣) كنته الشرقيون ٧٨ . ٧٩ •

(٤) راجع الصفحة ص ٢٥٩ من هذا البحث •

مؤلفاته :

يذكر ولده محمد الكنتي عنه في الطرائف : (أنه اشتغل غاية الشغل بالتصنيف أواخر عمره بنحو سبع وعشرين سنة وهي التي صنف فيها غالب مصنفاته بوجه خارق للعادة) (١) ويوضح ذلك بقوله : (فإن من مصنفاته ما يمكث الماهر بالتصنيف في مثله ما ينيف على العشرين عاما تسويدا وهو رضي الله عنه لم يستوف عاما كاملا في تسويد مصنف من مصنافاته وفيها ما هو أربعة أسفار ضخام) (٢)

إن سبعة وعشرين عاما من عالم قليل الخروج من البيت (٣) بين طلابه وكتبه فترة كافية لتأليف كتب نافعة محققة في مجالات متعددة ، وعند استعراض واقع مؤلفات الشيخ المختار الكنتي وما قيل فيها تجد أنها ليست واصلة إلى ذلك المستوى المطلوب من الاتقان والموضوعية وإن وجد فيها مؤلفات ضخمة وأسفار عظيمة الحجم ذلك أن أكبرها على ما قيل كتابه : نزهة الراوي وبعية الحاوي . صنفه في واحد وعشرين بابا على شكل موسوعي نثر فيه مسائل في التوحيد والهيئة ، والسيرة النبوية والتصوف والوعظ ، والحديث ، والنباتات والمعادن والأحجار والتاريخ (٣) وقد أثار اهتمام الشيخ رفاعة الطهطاوي فأثنى عليه في رحلته وقال بأنه ذكر فيه كروية الأرض (٤) وقال عنه صاحب فتح الشكور إنه يقع في جزئين على القالب الكبير في غاية النبل لم يسبق بمثله (٥) ومن كتبه المهمة : هداية الطلاب وشرحه فتح الوهاب (٦) .

---

(١) الطرائف ص ٢٧٢ و ٢٠٣ .

(٢) نفسه ص ٢٧٢ .

(٣) الطرائف والتلائد ص ٢٦٣ . ٢٦٤ والمدرسة الكنتية .

(٤) المدرسة الكنتية ص ١ . ٢ وشجره النور الزكية ص ٣٧٧ .

(٥) فتح الشكور ص ١٥٢ .

(٦) الطرائف ص ٦٦ ٢ .

قال ابنه سيدي محمد إنه اعتمد فيه فقه الصحابه (١) وخالف فيه بعض ما جاء في مختصر خليل بن اسحاق (وقد تميز كتابه هداية الطلاب بتتبع خليل في كل ما خالف فيه المشهور أو الراجح في المذهب وزاد عليه بمسائل كثيره) .

وأنه مات ولم يبيضه وأذن له هو في تبيضه مع شرحه (٢) .

وقد صنف كتبا ورسائل متوسطة وصغيرة ، وقد ذكر المأمون بن محمد أحمد أنه ألف أكثر من ثلاثمائة كتاب عرف منها ما يقارب الثمانين ، والموجود منها الأن أقل من الأربعين (٣) ولكن ابن ودادي أوصل المتداول بين الناس من كتبه - حتى اليوم كما يقول إلى واحد وأربعين مؤلفا (٤) وقد ذكر الخليل النحوي منها خمسة وعشرين كتابا (٥) . ولا شك أن صاحب الوسيط وقف على بعضها لحسن ثنائه عليها ولكنه لم يذكر منها ولا واحداً (٦) بخلاف صاحب فتح الشكور الذي توفي قبل الشيخ المختار الكنتي بنحو سبعة أعوام فإنه يذكر من مؤلفاته مع الثناء عليها والوصف الموجز لبعضها أثنين وعشرين مصنفا (٧) وسنعتمد هذا العدد أولا ثم نكمله بما وقفنا عليه منسوبا إليه مع وجوده أو بإحالته هو عليه أو ابنه سيدي محمد ، مع العلم بأن الزركلي ذكر عند ترجمته لسيدي محمد الكنتي أنه نسب إليه بعض كتب والده (٨) مما يدل على أن الأمر يحتاج إلى قدر من التبصر .

---

(١) نفسه ص ٢٦٦ .

(٢) نفسه ص ٢٢٦ وشجرة النور الزكية ص ٣٧٧ وندوة الإمام مالك جـ ١ ص ٢٣٩ .

(٣) مقدمة تحقيق : فتح الودود شرح المقصور والممدود ص م .

(٤) كنتة الشرقيون ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٥) بلاد شنقيط ص ٥٦١ . ٥٦٢ .

(٦) الوسيط ص ٣٦١ .

(٧) فتح الشكور ص ١٧ . ٢٢ و ١٥٢ . ١٥٢ .

(٨) الاعلام جـ ٧ ص ٩٢ .

قال صاحب فتح للشكور : (وله تآليف كثيرة منها :

١) تفسير البسملة في نحو كراسة ٠

٢) وتفسير الفاتحة في جزء أتى فيه بالعجب العجاب ، بحيث يمكث نحوالسبعة أيام أو أكثر يكتب على آيه واحدة ٠

٣) بلوغ الوسع على الآيات التسع (١) ٠

٤) نضار الذهب في كل فن منتخب في ثلاثة أجزاء (٢) ٠

٥) نزهة الراوي وبعية الحاوي ٠

٦) هداية الطلاب (٢) ٠

٧) فتح الوهاب على شرح هداية الطلاب في أربعة أجزاء ضخام جدا ، بحيث لو وسط لأتى في سبعة ونحوها (٣) ٠

٨) الشموس الأحمدية في العقائد المحمدية (٤) ٠

٩) الجرعة الصافية والنفحة الكافية (٥) ٠

١٠) الرسالة في التصوف ٠

١١) شرح المقصور والممدود لابن مالك (٦) ٠

١٢) كشف اللبس فيما بين الروح والنفس (٧) ٠

١٣) تصحية المنصف المبصر المتعطف في خمسة كراريس ٠

١٤) الأجوبة المهمة لمن له بأمر الدين همة (٨) ٠

١٥) زوال الالباس في طرد الشيطان الخناس (٩) ٠

---

(١) طبع في دمشق بتحقيق محمد محمود ولد ودادي في مائة ورقة من الحجم الصغير ١٤٠٥هـ

(٢) توجد منه نسخة كاملة مضبوطة بالشكل في زاوية الشيخ بانواكشوط ٠

(٣) يوجد منه الجزء الثالث بالخزانه العامه بالرباط تحت رقم (١٦٣١) ٠

(٤) توجد منه نسخة ناقصة في زاوية الشيخ بانواكشوط ٠

(٥) توجد منها نسخ كثيرة كاملة ٠

(٦) حققه مأمون محمد أحمد ونشره سنة ١٠٤٥ هـ ٠

(٧) أحال عليه في كتابه الكوكب الوقاد ونقل عنه انظر ص ٩٧ ـ ٩٨ ٠

(٨) مخطوط بالخزانه العامه بالرباط تحت رقم (٢٥٤١ ك) ٠

(٩) حقق وطبع على الآله الكاتبة بالمعهد العالي في أنواكشوط حققه الشيخ ابن باب أحمد رقمه (٤١٣)

١٦) والبرد الموشى في قطع المطامع والرشي في جزئين في الأنكار على القضاة ومن يأخذ الرشوة من العمال • (١)

١٧) وألفية في العربية . قال محمد بن محمد مخلوف نقلا عن رفاعة الطهطاوي في رحلته . بأنها تضاهي ألفية بن مالك (٢) •

١٨) جذوة الأنوار في الذب عن أولياء الله الأخيار . طبعت على الآلة الكاتبة برعاية أحد أحفاد المؤلف (٣) •

قلت : وذكر البرتلي الولاتي لهذا التأليف غريب حيث إنه توفى سنة ١٢١٩ هـ وكتابه فتح الشكور ألفه عام ١٢١٣ هـ وفي آخر جذوة الانوار أن تمام جمعه كان عام ١٢٢٥ هـ فما أدري من أين جاء الخطأ ؟

١٩) الممزوج وهو تأليف جمع فيه بين الحقيقة والشريعة •

٢٠) وشرح قصيدة له في التصوف مطلعها :

شغف الفؤاد بحب ذات الواحد والسر أنبأ عن مقر جاحد

٢١) نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب (٤) •

٢٢) يتمية الليالي في إفحام علماء تنبالي (٥) وإلى هنا تنتهي القائمة التي ذكرها له صاحب فتح الشكور •

٢٣) ومن كتبه أيضا الإرشاد ذكره في الطرائف . ولعله في الانساب (٦) •

---

(١) توجد صورة منه بزاوية الشيخ بانواكشط •

(٢) شجرة النور ص ٣٧٧ •

(٣) وهو يادي بن باي بن باب ص أ مقدمة الكتاب المذكور وانظر فتح الشكور ص ١٧ و ٦٢ والمصدر المذكور ص ١٢٢ جذوة الأنوار •

(٤) وقد طبع في دمشق ١٠٤٥ هـ برعاية محمد محمود بن ودادي •

(٥) فتح الشكور ص ١٥١ . ١٥٢ •

(٦) الطرائف ص ١٢٩ •

٢٤) المنة في اعتقاد أهل السنة في جزئين (١) .

٢٥) الكوكب الوقاد في فضائل المشايخ وأصول الأوراد (٢) .

٢٦) الروض الخصيب في شرح نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب (٣) .

٢٧) شذور الأذكار (٤) .

وفي هذا العدد من التآليف الذي تأكد عندي صحة نسبته إليه ما يدل على مكانته العلمية وتوسعه واقتداره على التأليف ، هذا وبالاضافة إلى القوائم التي تقدمت الاشارة إليها فإنه يتعين القول بأن هذا الشيخ ترك كتبه في مناطق تصعب المحافظة على الكتب فيها لظروفها البيئية والاجتماعية ، ولما تعرضت له بعد موته هو بقليل من هجمات استعمارية وفتن داخلية استغلها المستعمر فنهب المكتبات ورحلها إلى دياره وأحــرق البعض منها كما قام بعض الشيوخ بتخبية كتبهم خوفا عليها وتلفت بسبب ذلك .

على أن المختار الكنتي نقل عنه طلابه كتبه بأقلامهم وحملوها معهم إلى ديارهم وتعــرف الناس عليها وتعددت نسخهــا الأمر الذي صان الكثير منها عن الضياع والتلف .

---

(١) توجد منه نسخ مخطوطة .

(٢) طبع في دكار سنة ١٣٩٢ . ويكون ان شاء الله موضع دراسة آتية .

(٣) توجد منه نسخه في الخزانة العامة بالرباط (١٢٤٠) (١٣٠) وفيه أنه تأليف لأحد تلاميذه فرع من تأليفه يوم الاثنين الموافق ٢٨ شوال ١٢٢٥ هـ وهو في جزءين .

(٤) نسبه له الشيخ أحمد بنبه في مجمع النورين في فوائد الدارين ، الدار السينغاليه للنشر ص ٢٢ ونسبه له صاحب شجرة النور وهو أحزاب وأوراد كاحزاب الامام الشاذلي ص ٣٧٧ وقال صاحب فتح الشكور ص ١٥٣ : بأن أحزابه وأدعيته ورسائله لأصحابه لو جمعت لجاءت في مجلد . وقد جمعها ابنه محمد في الطرائف فكونت بابا كبيرا . قلت : وشذور الاذكار مطبوع على الآلة الكاتبة في زوايته بانواكشوط .

ويمكن القول كذلك أن أهم مراكز وجودها المكتبات التالية :

١) مكتبة آل الشيخ سيديا بتلميت موريتانيا وعنها نقلت زواية الشيخ في انواكشوط .
٢) دار الثقافة في انواكشوط .
٣) الزاوية الكنتية في توات بالجزائر .
٤) المكتبات الخاصة في أزواد وغيرها من الدول المجاورة .
٥) مركز أحمد بابا التنبكتي بما لي .
٦) المكتبات المغربية .
٧) .... الفرنسية .
٨) مكتبات الحرمين الشريفين .
٩) ومكتبات سنغال .
١٠) المكتبات التركية (١) .

---

(١) ملف الرحلة العلمية ومقدمة جذوة الانوار المطبوعة على الالة الكاتبة لا المخطوطة التى اعتمدناها في هذا البحث ص ١٧ . ١٨ .

وفاته رحمه الله تعالى :

يذكر صاحب الطرائف : (أنه حدث بركبته في آخر عمره مرض من البرد واستعمال الماء زمنة فثقل عليه القيام والمشي من أجله) (١) .

ويفهم من ذلك أنه ضعف في آخر عمره وإن لم يصل إلى أن يكون مقعدا ، كما يفهم من استمراره في التأليف أنه مات وهو يتمتع ببصره .

وتوفي على ما جزم به ابنه سيدي محمد زوال يوم الاربعاء خامس عشر جمادى الاولي سنة ست وعشرين بعد المائتين والألف (٢) فيكون عمره على الرواية التى قدمها سيدي محمد وهي أنه ولد سنة اثنين وأربعين بعد المائة والالف (٣) أربعة وثمانين سنة (٤) وعلى الرواية الثانية المرجوحة يكون عمره حين وفاته واحد وتسعين سنة بناء على أنه ولد سنة خمس وثلاثين بعد المائة والألف (٥) ويذكر ابنه محمد أنه عندما ثقل تناول السبحة ليناوله إياها قياما بوظائف الطريقة من العهد للخليفة إلا أنه لم يتمكن من ذلك لعارض ..) (٦) ودفن عند بئر أبي المرجان التي حفرها في حياته، كما دفنت زوجه عندها (٧) ونصل الحديث عنه بالحديث عن ترجمة شيخ الفاضليـــة .

---

(١) الطرائف ص ٢٠٣ فيكون ما جاء في شجرة النور من أنه توفي سنه ١٢٢٩ هـ خطأ .

(٢) نفسه ص ٨٧ .

(٣) نفسه ص ٨٧ .

(٤) نفسه ص ٨٧ .

(٥) نفسه ص ٨٧ .

(٦) نفسه ص ١٥٩ . ١٦٠ .

(٧) الطرائف ص٥٨١ . ٥٨٢ ولعل المنطقة كلها تسمى بو الانوار أنظر : كنته الشرقيون ص٨٢ .

ترجمة الشيخ محمد فاضل

نسبه ومولده ونشأته :

نسبه :

تسبه كما هو في أكثر الكتب التي ترجمت له : هو محمد فاضل بن مامين (محمد الأمين) ابن الطالب اخيار بن محمد بو الانوار بن اجيه المختار ابن الحبيب بن علي ابن سيدي محمد بن يحيى الصغير بن علي بن شمس الدين بن يحيي الكبير القلقمي (١) ابن محمد بن عثمان بن أبي بكر بن يحيي بن عبد الرحمن بن أران بن جملان بن إبراهيم ابن مسعود بن عيسى بن عثمان بن اسماعيل بن عبد الوهاب بن يوسف بن عمر بن يحيي بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن إدريس الأصغر ابن إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن المثنى بن السبط بن علي رضي الله عنهم جميعاً . (٢)

وقد ذكر الشيخ التراد فى رسالته كشف الأستار أن هذا النسب ثابت بالحيازة والكشف ، ونقل مرائي تدل على ذلك ، كما قال ، ونقل عن شيخه وعمه الشيخ سعد أبيه أبياتاً من الرجز يرد فيها على منكر شرفهم بالانتساب لآل البيت ، كما اعتذر عن اختلاف السلاسل في الزيادة والنقص والتقديم والتأخير بأنه كثير في سلاسل الأنساب ، وشل لذلك بالاضطراب في نسب الشاذلي وأحمد البدوي .

والاختلاف الذي أشار إليه هو أن الكتانى أضاف في هذه السلسلة محمد بين يحيى الصغير وعلي ، كما أنه جعل اسم الحبيب السادس في السلسة مركبا فسماه محمد الحبيب وسمى والده أيضا محمد علي (٣) وقد ذكر أن الشيخ محمد فاضل

---

(١) القلقمى نسبة إلى بلدة بالمغرب كما أفادنيه الأستاذ الطالب اخيار ابن مامين من نفس الأسرة . في أحد لقاءاتي معه في انواكشوط بتاريخ ٢٩ شعبان ١٤١٠ هـ .

(٢) هذه السلسة منظومة في(٥٥) بيتا ونظمها : أحمد بن عبدالمولى العلمي اليملاجي الفاسي ، وتوجدمنها نسخة بالخزانة العامة بالرباط ، مجموع (١٥٦٠ د) من ورقه ١ب إلى ٢ ب .

(٣) انظر في الاختلاف المذكور : فهرس الفهارس للكتاني ، مرجع سابق جـ ٢ ص ١٠٢١ حيث قال في ترجمة السيوطى : (ولنذكر هنا سندا غريبا إليه من طريق أهل الصحراء الإفريقية ، وهو مسلسل بالآباء عن الشيخ العارف محمد مصطفى ماء العينين الشنقيطى ..) .

كتب نسبه إلى شمس الدين ثم قال هذا ما كان عندي ، ثم ذكر عن أوائله نسبة شمس الدين إلى يحيى الكبير إلى إدريس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

وقد ذكر الباحث : عبد الله بن محمد الأمين في بحثه الذي أعده في معهد الأساتذة بانواكشوط عام ١٩٨٤ م تحت عنوان :

مساهمة في إبراز الأدوار الفكرية والسياسية للشيخ : ماء العينين : أن بعض أتباع المختارية أثارت سرعة انتشار الفاضلية بين الناس لديهم غيرة وحسدا فبدؤا يطعنون في نسب صاحب الطريقة الشيخ محمد فاضل ، ويشككون في صحة نسبه لآل البيت . (٢)

وهذا الانتشار الذي ساءهم لا شك أن من أحد أسبابه الانتساب لآل البيت النبوي حيث إن أهل الصحراء يكنون حبا شديدا لمن يدعى الانتساب إليه حقا أو أدعاء .

ولذا كثر ادعاؤه في تلك البلاد ، وكثر الطعن فيه بدون دليل والذي يرجح دائما صحة نسب الناس المتمسكين به مهما كانت الثمار التي يجنونها من ورائه ، ما لم يكن هناك طعن يعتمد على دليل .

ثم إن هذا الطاعن في صحة نسب هذه العائلة إلى آل البيت النبوي لم يقف على كلام الشيخ سيدي المختار الكنتي الذي هو منتسب إليه حيث يقول . بعد أن ذكر أن القلاقمة المنتسب إليهم الشيخ محمد فاضل من الشرفاء (٤) الذين أخفوا شرفهم لأول مقدمهم على البلاد . قال : (ولا يطعن فيهم إلا من يخبط خبط عشواء في ظلمة الجهل) (٣) .

---

(١) كشف الأستار عن نسب آل اجيه المختار ، تأليف التراد ، مخطوط ص ٢ ، ٥ و ١٢ .
(٢) المصدر المذكور ص ١٦ .
(٣) ذكر السيوطي في الحاوي للفتاوي : جـ ٢ ص ٣٢ . (أن اسم الشريف كان يطلق في الصدر الاول على كل من كان من أهل البيت سواء كان حسنيا أم حسينيا .....) انظره
(٤) موسوعة المختار بن حامد ، جزء القلاقمة ص ٢٦ . قلت : ولعل المصدر الذي أخذ عنه ابن حامد هو : كتاب الأنساب للشيخ سيدي المختار . فلعله يعثر عليه في مركز أحمد بابا التنبكي في مالي .

وإذا رغبنا في التعرف على رجال هذه السلسة فإن المراجع التي توفرت لدي لا تساعد على ذلك بسبب تشابه الأسماء في المراجع القديمة ، وعدم توضيح كاتبي هذا النسب من المتأخرين للمصادر التي استقوا منها هذا النسب ، على أن السيد محمد بن علي السنونسي الادريسي قال في كتابه الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية : (كان الأدارسة لما أجلاهم الحكم عن العدوة إلى الشرق وسائر بلاد المغرب ، واستقامت غمارة على طاعة المروانية ، وأذعنوا لجند الأندلسين ، ورجع الحسن بن كنون لطلب أمرهم فهلك على يد المنصور بن أبي عامر فانقرض أمرهم ، وافترق الأدارسة في القبائل ولاذوا بالاختفاء إلى أن خلعوا إشارة النسب واستحالت صفتهم منه إلى البداوة) (١) على أن أول من يصلنا خبره من أجداد الشيخ محمد فاضل على التحقيق هو : اجيه المختار على ما في الضياء المستبين من أنه أول النازلين من أجداده من الصحراء بسبب تعلق قبيلة أولاد امبارك (٢) به وقد شاع فى المغرب عموما بين القبائل استقدام أو إيواء من ينتسب لآل البيت التماسا للبركة واعتقاداً أن ذلك من أسباب النصر على الأعداء ، ويعظم فيه الاعتقاد إذا كان صاحب تصوف أو علم ولذا وجد ارتباط كبير بين التصوف وادعاء الشرف بالحق أو بالكذب (٣) .

قال محمد الغربي : (وإذا أردنا أن ندقق في تواريخ الاحداث فإننا نجد الجد الأكبر الطالب المختار رابع أجداد محمد الفاضل ينتقل من المغرب إلى قرية (تاغا) عند القرن العاشر الهجري ويستقر في العمود إلى أن يدركه الموت في آخر القرن المذكور، فيقيم أبناؤه ذكراه وينصبون فوقه قبة للمزار ثم يتوجهون إلى الحوض حيث يستقرون في بلد ولاته (٤) ، والواقع أنه قبل هذا الاستقرار في ولاته لا يعرف

---

(١) المصدر المذكور ص ١١١ .

(٢) الضياء المستبين ص ١٨٩ . ١٩٠ .

(٣) انظر الفرق الاسلامية في الشمال الافريقى ص ٤٢٢ ، وما بعدها وص ٤٣٢ . ٤٣٣ .

(٤) الساقية الحمراء ١٣٢ ويذكر في صفحة ص ٣٤٠ أن شريفا ادرسيا جليلا غادر مراكش قبل أربعة قرون وأنتقل أحد أحفاده إلى الحوض الموريتانى وهو الشيخ محمد فاضل ليؤسس طريقة الفاضلية) .

الكثير على وجه الدقة عن أجداد هذا الشيخ إلا أن الجد الكبير لهذه الاسرة وهو يحيي الكبير القلقمي نزح من بلدة قلقم في المغرب إلى صحراء موريتانيا بصحبة جماعة من أصحابه في ظروف غامضة من تاريخ تلك المنطقة المجهول كثيرا ، وقد يكون من أسباب نزوحهم سقوط الدولة الادريسية في القرن العاشر حيث استقروا في اقليميم بالصحراء فترة من الزمن حيث بقيت له ذرية في تلك المنطقة (١) وانتقل بعض أبنائه متوغلين في البلاد الموريتانية حتى وصلوا ولاته ، سواء كان دخولهم للبلاد بطلب من أولاد امبارك أو بسبب آخر •

وكان من الداخلين إلى بلاد موريتانيا اجية المختار الآنف الذكر حيث تكونت قبيلة أهل الطالب مختار من أبنائه وأحفاده ومن انضم إليهم من المجاورين لتلك المنطقة (٢) •

وفي ولاته من الحوض حيث تكونت قبيلة أهل الطالب مختار كان مولد ونشأة صاحب الترجمة محمد فاضل •

---

(١) الوسيط ص ٤٣٤ حيث ذكر أملاكا منسوبة إليهم في تلك المنطقة منها (المنفقع وجريف) من أودية النخيل وغيرها هناك •

(٢) السافية الحمراء ص ١٣٢ والمساهمة في إبراز الأدوار الفكرية للشيخ ماء العينين ص ١٧ وقال بأن شرف هذه الاسرة وصل إلى حد التواتر) قلت : ومشهور عند الناس هنا(ومن صح أنه قلقمي صح أنه شريف)

مولده ونشأته :

لقد كتب عن الشيخ محمد فاضل بعض مريديه مثل محمد فاضل بن الحبيب والطالب بو بكر المحجوبي الولاتي وكانت عناية من كتب عنه التماس الكرامات أولا ، ولذا لم يوردوا معلومات واقعية حتى فى ميلاده ، ذلك أن أحدهم وهو محمد فاضل بن الحبيب صاحب كتاب الضياء المستبين الذي هو العمدة فى ترجمة هذا الشيخ حيث إنه هو الذي استطعت الحصول عليه من الكتب المخصصة لبيان أحواله وكراماته وعلومه . يقدم لميلاده بارهاصات وبشارات من الأولياء عن ميلاده واسمه وما ادخره الله له واشتغل بذلك عن ذكر تاريخ ميلاده أومكانه ولكن ذكره غيره فقال بأن ميلاده كان في ولاته من عام : ١١٩٤ هـ (١) وهذا التاريخ تخالفه رواية أخرى تقول بأنه ولد عام ١١٩٧ هـ (٢) ولا يمكن التحقق من أي التاريخين أصوب وإن كانت الشقة بينهما غير كبيرة خصوصا إذا أخذنا في الاعتبار عدم عناية أهل الصحراء بكتابة مثل هذه الأمور ٠

نشأته وطلبه للعلم :

إذا أخذنا بالوسط فيما ذكره من ألف عن حياة الشيخ محمد فاضل عن ولادته ونشأته وطلبه للعلم نجد أنه مثل أبناء بئته عموما من أبناء الزوايا ولدوا في الغالب في وسط علمي يتفاوت من منطقة إلى أخرى ومن أسرة إلى أسرة ٠

وإذا أقتصرنا في الدراسة على حقيقة ما ذكروه عن نشأته العلمية لا نجد فيها أمرا زائدا على أحوال الناشئين من أبناء عصره ٠

فيقول صاحب الضياء المستبين : إنه أدخل الكتاتيب عندما بلغ العام الخامس من عمره (٣) وهذا ما عليه النظام العلمي في تلك البلاد (٤) ٠

---

(١) الساقية الحمراء ص ١٣٢ ٠

(٢) بلاد شنقيط ص ٥١٨ ٠

(٣) الضياء المستبين ص ٢٣٢ ٠

(٤) الوسيط ص ٥١٧ ٠

ولكن يمكن أن يؤخذ من كلام صاحب الضياء على ما فيه من مبالغة أنه كان على جانب كبير من الذكاء وسرعة الحفظ فيقول : بأنه حفظ القرآن في أقل مدة حيث كان يكتب حزبا أول النهار وحزبا آخره مع الإتقان والضبط .

وأن أحد شيوخه في التحفيظ وهو محمد المختار بن الاحبوس قال : بأنه لا يجوز أخذ أجرة على تحفيظه القرآن . (١)

وإذا وافق باحث على قبول مثل هذه الرواية فإنه يكون من الذين يسلمون بالمبالغات والنوادر إذ إنه على أساس هذه الرواية يكون حفظ القرآن بإتقان في شهر واحد وهذا لغرابته لابد أن يكون نقل بالتواتر وشاع شيوع النوادر والنوابغ .

قال : وحفظ في هذه المدة . يعني ما بين خمس سنوات إلى سبع سنوات : الكتب الصغار وقصص الأنبياء وسيرهم وسير الصالحين (٢) ولما بلغ سبع سنين تتلمذ على أبيه على أن يوصله إلى الله تعالى ويبلغ على يديه مبلغ الأولياء الكمل (٣) فعلمه والده الإسم الأعظم والأسرار والحكم (٤) .

وأشتغل بالذكر (بلا إله الا الله) ملتزما ببيعة والده حيث عممه وصدره وعمره خمس عشرة سنة ، وقال له : (اذهب حيث شئت أو امكث إن شئت فما لي عليك اليوم من حق) (٥) .

يؤخذ من هذا أنه مكث في سلوك الطريقة على يد والده نحو من ثمانية أعوام ولم يكلفه القرآن وما قرأه معه من كتب إلا مدة قليلة من شهر واحد إلى عامين إذا خرجنا عن رواية صاحب الضياء وقلنا بأنه بدأ في التعلم من خمس سنوات إلى سبع سنوات ثم دخل في سلوك الطريقة .

ومع ما يأتي من تنقلاته في طلب العلم فإن صاحب الضياء ينقل عنه قوله : (والله ما أخذت شيئا إلا عن الله تعالى بلا واسطة غير أن أبي علمني كتاب الله تعالى وما يعلم من علوم الأسرار) (٦) .

---

(١) الضياء المستبين ص ٢٣٢ .
(٢) نفسه ص ٢٣٣ .
(٣) نفسه ص ٢٣٣
(٤) نفسه ص ٢٣٣ - ٢٣٤
(٥) الضياء المستبين ص ٢٣٧ .
(٦) نفسه ص ٢٩٩ وسيأتي الكلام على هذا في مبحث موقف القادرية من العلم . إلا أن كل مدع أخذ علم عن الله بلا واسطة يكذبه أن الرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا يأخذون عن الله تعالى بواسطة الملك فلا يحل لمسلم أن يدعي هذه الدعوى العريضة .

رحلاته في طلب العلم :

إن الشيخ محمد فاضل في هذه المرحلة أصبح شيخا صوفيا مصدرا يرافقه تلاميذه ومريدوه ، والكرامات والخوارق تحل حيثما حل وشيوخه الذين يدرس عليهم ينتهى بهم الأمر إلى أن يصبحوا تلامذه عنده ، ومن كان منهم يشترط على تلاميذه منهجا فإن الشيخ محمد فاضل لا يخضع لذلك الشرط والمنهج وإذا لم يستجب الشيخ لرغبته فإنه حرفي الانتقال عنه إلى غيره (١) ٠

إلى غير ذلك من الأمور التي يصورها صاحب الضياء المستبين مما يخالف إن كان النقل صحيحا سيرة طالب العلم المتواضع المتأدب مع شيوخه ، الحريص على التحصيل ٠

وعلى كل نجده يذكر أنه عزم على دراسة الفقه على أحد شيوخ العلم المجاورين له ويدعى : أحمد عم بن عيني ٠

وأن عمه محمد فال بن زروق صرفه عن ذلك لأن لا تكون لذلك الشيخ عليهم منة الشيوخة العلمية قائلا له : (إنما يريد هذا الشيخ أن يجعلنا تحت قدمه وأنت سلمنا ومرمى عزنا) (٢) فتركه وأخذ في قراءة رسالة ابن أبى زيد القيروانى على ابن عمته الطالب بن الحسن (٣) الذي أصبح مريدا عنده رغم كبر سنه ووفور علمه (٤) ٠

وبعد أن أنهى رسالة ابن أبي زيد القيروانى ذهب لدراسة مختصر خليل على : محمد بن الطالب ابراهيم ٠

---

(١) الضياء المستبين ص ٢٣٧ . ٢٤٣ و ٢٤٦ . ٢٥٠ ٠ هذا مع أنه تقدم قريباً أنه لم يأخذ شيئا إلا عن الله بلا واسطة ص ٢٦٧ من هذا البحث ٠

(٢) نفسه ص ٢٣٧ ٠

(٣) نفسه ص ٢٣٧ ٠

(٤) نفسه ص ٢٣٧ ٠

وكـان هذا الشيخ يشترط على تلاميذه أن لا يكتب أحد منهم أزيد من نصف قف (١) من المختصر ، ورفض محمد فاضل هذا الشرط وعزم على الرحيل إلى سيدى عبد الله بن الحاج ابراهيم الذي صده عن مواصلة السير إليه شخصان جاءاه في النوم وأخبراه بقرب أجله واقترحا عليه الذهاب إلى : سيدي المصطفى بن عثمان بن محمد الكيحل فاتجه إليه واخذ يكتب المختصر بستين قفا ويحفظها عن ظهر قلب ويشترك مع أبناء الزوايا من طلاب ذلك الشيخ في الفنون التي يدرسونها (٢) وهكذا أتم المختصر في شهر واحد (٣) .

وهذه مبالغة أخرى نذكرها لصاحب هذا الكتاب الذى نعتمده في ترجمة هذا الشيخ نظرا لعدم وجود غيره عنه وهو في ترجمته له يريد أن تكون أموره كلها خوارق وكرامات غير عادية ، ومع ذلك يجب على الناس قبولها والتصديق بها (٤) .

وطلب الشيخ محمد فاضل من الشيخ أحمد بن الطالب محمود بن عمر إدوعيش أن يقدم عليه ليأخذ عنه علم النحو ، ولكن تعلل بعذر . مختلف فيه فقيل بأنه رد عليه بأن العلم يؤتى ولا يأتي ، وقيل بأنه اعتذر بمرض يتعالج منه على ما ذكره صاحب الضياء في القول الأخير له (٥) .

---

(١) القف : مقدار درس يومي ينبغي للتلميذ أو الطالب أن لا يزيد عليه وهكذا اصطلحوا عليه .

(٢) الضياء المستبين ص ٢٣٩ - ٢٤٢ والساقيه الحمراء ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٣) نفسه ص٢٤٢ .

(٤) نفسه ص ٢٣٥ - ٢٣٧ .

(٥) نفسه ص ٢٥٠ .

شيوخه وتلاميذه :

تبين من خلال العرض السابق لطلبه للعلم أنه أخذ عن الشيوخ الآتين :

١) والده مامين . أخذ عنه القرآن والطريقة القادرية أو الشاذلية ولعل من شيوخة في القرآن ومختصرات الكتب محمد المختار بن الأحبوس (١)

٢) ابن عمته الطالب بن الحسن أخذ عليه رسالة بن أبي زيد القيرواني (٢)

٣) محمد بن الطالب ابراهيم أخذ عنه مختصر خليل بن إسحاق أو بعضه قبل أن يتحول عنه إلى :

٤) سيدي المصطفى بن عثمان بن محمد الكيحل الذي أخذ عنه المختصر أيضا وشارك طلابه في علوم أخرى (٣) .

وقد ذكر أنه درس أو صحب كل من :

٥) محمد الأمين بن الطالب عبد الوهاب . وهو معدود في مصدري الشيخ سيدي المختار الكنتي (٤) .

٦) سيدي محمد بن سيدي المختار الكنتي (٥) .

٧) سيدي محمد بن أحمد الأسود (٦) .

ولا يمكن حصر أساتذته وشيوخه في هذا العدد القليل حيث إنه عاش في منطقة يكثر فيها العلماء وفي فتره من إقبال الناس في تلك البلاد على العلم والتحصيل

---

(١) الضياء المستبين ص ٢٣٢ . ٢٣٣ .

(٢) نفسه ص ٢٣٧ .

(٣) نفسه ص ٢٣٩ . ٢٤٢ .

(٤) نفسه ص ٩ . ١٠ و ٢١١ . ١١٢ و ٢٦٣ . ٢٦٤ وبلاد شنقيط .

(٥) الأدوار الفكرية للشيخ ماء العينين ص ١٦ .

(٦) الضياء المستبين ص ٩ . ١٠ و ٢١٢ و ٢١٧ ، ٢١٨ .

وقد ذكر صاحب الضياء وغيره أسماء شيوخ كثيرين التقى بهم وجاورهم وأخذ عنهم وأخذوا عنه (١) .

تلاميذه :

إنه نظرا العدم الضبط بالكتابة في تلك الصحراء التي عاش فيها الشيخ محمد فاضل يكون من العسير حصر الذين أخذوا عنه أو تصدروا تحت يده .

وقد سبق في ذكر فروع الفاضلية ذكر أبرز تلاميذه من أبنائه ومن غيرهم على أن صاحب الضياء يعتبر من لقيه من الناس عموما تلاميذ له ، وأن مدارس بكاملها انتقلت إليه من شيوخها ، وأن شيوخه تتلمذوا عليه ، وأن المريدين يسيرون معه أينما توجه وهو يتنقل في طلب العلم (٢) .

هذا علاوة على أنه ترك من صلبه ثمانية وأربعين ذكرا وخمسين أنثي وكل أخذ عنه العلم والطريقة وساحوا في الأرض ينشرون عنه ما أخذوه (٣) .

---

(١) نفسه في الصفحات السابقة وغيرها والساقية الحمراء ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٢) الساقية الحمراء ص ١٣٣ .

(٣) ويرجع إلى فروع الفاضلية ص

مكانته العلمية والاجتماعية

عرضنا في المطلب الماضي العلوم التى أخذها الشيخ محمد فاضل ٠ والمقتصر في علمه على ما ذكر سابقا لايعده عالما بالمعنى الصحيح أحرى أن يحكم له بالإمامة والتجديد والاجتهاد وكثرة التأليف ، وهذه الأمور كلها وأكثر منها نسبه صاحب الضياء للشيخ محمد فاضل حيث يقول بأنه حامل لواء علوم القرآن من قراءات وتفسير (وهذا الشيخ حامل لواء هذا الفن وآكل أزهار روض المن من كل فن) (١) ٠

أما الحديث وعلومه :(فمبلغ الشيخ في هذه العلوم لا تحوم حوله حوائم الرسوم فله في علم الرواية من الحفظ والخبرة ما عجز عنه كل الحفاظ ولا تحصره الألفاظ ، وله في علم الرجال ومعرفة طرقهم وأحوالهم مالا تكيفة العقول ولا يمكن حصره بالقول حتى لا يمكن عقلا أن يكون له سابق في هذا الفن ولا أن يلحقه لاحق) (٢) ٠

(وأما علم النحو والخط والكتابة وما يلحق ذلك فله فيه من التمكين ما أمكنه به أن يطويه في أنظام تصل إلى الثلاثمائة أو وخمسمائة) (٣) تأتي في ذكر مؤلفاته إن شاء الله ٠

وله في علم اللغه : (من السبق ما قصر عنه شأو السابقين ولا أرى أن يبلغه مدى جري اللآحقين) (٤) ٠

(أما علم أصول الفقه فهو من أجل العلوم لديه وأحبها عليه (٥) وهو أحسن عنده من علم فروع الفقه (وله في كليهما من الخبرة مالا سبيل إلى غيره عليه) (٦) ٠

---

(١) الضياء المستبين ص ١٩٣ ـ ١٩٨ ٠

(٢) نفسه ص ٢٠٢ ٠

(٣) نفسه ص٢٠٢ ـ ٢٠٥ ٠

(٤) نفسه ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ ٠

(٥) نفسه ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ٠

وقال : (أما علم المنطق فله به من الخبرة مالا يعلمه إلا علام الغيوب) (١) وله فى علم الطب والحساب الخبرة الكاملة (٢) ٠

أما :(علوم أسرار أسماء الله تعالى وخواصها وخواص الآيى وأسرار الحروف والأدعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأحزاب القوم وأدعياتهم فكل هذه العلوم هو قطب رحاها بل شمس ضحاها) (٣) ٠

(فهو البالغ مبلغ الاجتهاد لجمعه العلوم المشروطة فيه وليس من فنون العلم إلا وهو بالغ فيه مبلغ الاجتهاد . وإذا اندرست علوم الشرع لا يقدر على إحيائها غيره) (٤)٠

هذا عرض موجز لما أفاض فيه صاحب الضياء المستبين في بيانه لما وصل إليه شيخه وخاله من مكانة علمية ٠ والمريد إذا كتب عن شيخه يتوقع منه المبالغات الزائدة التى لا يوافقه عليها حتى شيخه الذى يكتب عنه ، ولكن هذا المريد كتب كتابه في حياة شيخه وهذامفهوم من كثرة دعائه له في أثناء الكتاب بطول العمر والعافية ، وما فيه من حكايات وقعت للمؤلف قصها على شيخه وأثبت ذلك في كتابه (٥) الامر الذي يجعل الشيخ مشاركا في هذه الحالة لمريده هذا في نشرهذه المبالغات التي تخالف ما يذكر عنه من التواضع وإنكار الذات (٦) ٠

ولكنه عند مالم يذكر لهذا الشيخ شيوخا في هذه الفنون الكثيرة والعلوم النادرة أحال إلى أن شيخه أخذها وهبامن الله تعالى ووراثة نبوية لا سبيل للعقل فيها (١) إذ إنها من العلم الذي يخص الله به من شاء من عباده وأوليائه (٢) ٠ وعند توضيحه

---

(١) الضياء المستبين ص ٢٠٩ ٠
(٢) نفسه ص ٢١١ ٠
(٣) نفسه ص ٢١١ ٠
(٤) نفسه ص ٢١١ . ١١٢ ٠
(٥) نفسه ص ٢٢٣ ٠
(٦) نفسه ٠٠٠
(٧) الضياء المستبين ص ١٩١ . ٢٠٢ ٠
(٨) نفسه ص ٢١٣ . ٢٠٨ ٠

لكيفية حصول هذا العلم اللدني لشيخه يقول : بأن سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم كانت بيده مفاتيح العلوم ومفاتيح الغيب وعندما حضر أجله انعقد مؤتمر للأولياء لاختيار من تعطى له هذه المفاتيح ٠

فقال بعضهم : اعطوها للشيخ المصطفى . وكان الشيخ محمد فاضل من ضمن تلاميذه في هذه الفتره . فقال بعضهم هو لها أهل لولا أنه قد حضر أجله ٠

وقال آخرون : أعطوها للشيخ محمد فاضل : (فأخذوها فى مجمع من الأولياء والملائكة وسلموها له ٠وقالوا : هذه مفاتيح الغيب فأخذها واختص بها دون غيره فعلم كل علم بلا كد ولا كدح بمحض التخصيص الالهى) (١) ، (وكان بعد ذلك لا يجلس تحت شجرة ولا ينظر فى حجر ولا غيره إلا تعلم منه علما ٠ إما أن يراه مكتوبا فيه ، وإما أن يخاطبه به ، فكانت العلوم تحيش عليه جيشان الريح العاصف والبحر ففاض عليه الكشف والعلوم الإلهية) (٢) ٠

وفي هذه النقول من المبالغات مالا يخفى ، أما ما فيها من الأمور العقدية فسيأتى الكلام عنها إن شاء الله في باب العقيدة عندهم ٠

---

(١) نفسه ص ٢٤٢ . ٢٤٣ قلت : ومن ادعى أن بيده مفاتيح الغيب فقد كذب القرآن وتكذيب القرآن كفر ٠

(٢) نفسه ص ٢٤٣ ٠

مؤلفاته وطريقته :

يذكر محمد الغربى فى كتابه الساقية الحمراء (١) أن للشيخ محمد فاضل كتبا عديدة أتخذ منها مؤسس الطريقة السنوسية منبعا ومصدرا لطريقته واستفاد منها عند وضع كتبه ، والذي يذكره الشيخ ماء العينين (محمد المصطفى) ومحمد فاضل ابن الحبيب من كتبه إنما هو أنظام وقصائد مديحية أو توسلية لا يحكم لصاحبها بالتأليف ولا بالشاعرية ، ولذا لم نجد للشيخ محمد فاضل ذكرا في الوسيط مثلا كشاعر ولا في فتح الشكور أو غيرهما من المؤلفات التى عنيت بذكر أسامي المؤلفات والترجمة لأصحابها (٢) .

وهذه مؤلفاته :

١) بدر التم (٣) فى التصوف وعلومه .

٢) مطية المجد (٤) نظم في التصوف أيضا .

٣) التيسير (٥) نظمه فى بحر المتقارب ، قريب من ثلاثمائة بيت في علوم اللغه العربية .

٤) فقه المنن (٦) رجز في نيف وخمسمائة بيت في البيان والبديع .

---

(١) المصدر المذكور ص ١٣٣ .

(٢) راجع الكتابين المذكورين ، وانظر مقدمة تحقيق فتح الشكور خاصة ص ٧ .

(٣) الضياء المستبين ص ١٨ .

(٤) نفسه ص ١٤٠ وذكرها وأكثر الاستشهاد بها الشيخ ماء العينين في نعت البدايات وتوجد منها نسخة كاملة في دارالثقافة بانواكشوط تحت رقم ٢٠٨٦ المخطوطات .

(٥) نفسه ص ٢٠٥ .

(٦) نفسه ص ٢٠٦ .

٥) منظومة الأحوال (١) في السلوك ·

٦) كشف الحجاب (٢) في السلوك ·

٧) النور الساطع أو الستر المسبول أوحسن الطريد (٣) : أنظام لأسماء الله الحسنى مخلوطه بيعض الأسماء الأعجمية على حسب روايات الصحاح ، وابن ماجه ، وابن مردوية والحاكم وابى نعيم وأبى الشيخ لأسماء الله الحسني ·

٨) وله معين على الألفية (٤) لابن مالك ·

٩) وله معين على نظم الأخضري : الجوهر المكنون (٥) ·

١٠) التوصيح فى علم العروض (٦) يبلغ مائة وعشرين بيتا ·

١١) قصائد تتضمن أدعية لطرد الجن والاستسقاء وغير ذلك (٧) ·

١٢) النير الدائم (٨) ·

١٣) منبع الارتجال في التوسل بالصالحين من الرجال (٩) ·

هذا ما أمكنني الوقوف عليه مما ينسب للشيخ محمد فاضل من المؤلفات ·

ويعرف من عناوينه وما اشتمل عليه من مادة أنه لا جديد فيه يستحق ما ذكر عنه من المبالغات الزائدة فمعظمه أنظام مستقاة من كتب متأخري الصوفية الذين اختلطت عليهم السبل فخلطوا بين السلوك الشرعي المستمد من الكتاب والسنه وبين تجاربهم الخاصة وميولهم البيئة ·

---

(١) الضياء المستبين ص ١٦٤ ·

(٢) نفسه ص ١٤ ·

(٣) نفسه ص ١١ ٢ ·

(٤) نفسه ص ٢٠٨ ·

(٥) نفسه ص ٢٠٨ ·

(٦) نفسه ص ٢١١ ·

(٧) نفسه ٢١١ ·

(٨ - ٩) ذكرهما له صاحب إبراز الأدوار الفكرية للشيخ ماء العينين ص ١٥ ·

طريقته ومكانته الاجتماعية :

اتضحت مكانة الشيخ محمد فاضل العلمية بما تقدم من ذكر طلبه للعلم ومشايخه وتلاميذه ومؤلفاته وغير ذلك مما بين انتسابه للطريقة القادرية وإما متة للفرع الذي ينسب إليه (الفاضلية) ٠

وهو إن لم يكن مذكورا في الشيوخ الذين جمعوا بين تدريس العلم والطريقة الذين ذكرهم الخليل النحوي من أهل بلادشنقيط فإنه معدود من بين كبار المتضلعين بالعلم الذين أسسوا في حضراتهم مدارس يأوي إليها العالم والمتعلم وهذا ما ضاعف من مكانته عند أهل بئته (١)

وللوصول إلى معرفة نهجه في الطريقة وما نتج عن ذلك وغيره من مكانة اجتماعية مرموقه خلفها لأبنائه والمنتسبين له يجدر أن نبدأ أولا بعرض موجز عن حياته في السلوك والتربية الطرقية ٠

يذكر صاحب الضياء المستبين أنه اشتغل بالذكر (بلا اله الا الله) وهوصبي مع الصبيان حتى لقبوه بصاحب (لا إله الا الله)وأنه ظل ثابتا في ربقة البيعة لأبيه حتى صدره وعمره إذ ذاك خمس عشرة سنة (٢) ٠

وأنه تعلم من أبيه وغيره الأسرار والحكم إلى غير ذلك من أسماء الله الحسنى ومدلولاتها ، والأسماء الأعجمية وآثارها (٣) ٠

والناس يعتقدون فيمن ينسب إليه شيىء من هذه الأمور ويخافونه خوفا زائدا يمكنه من السيطرة على عقولهم ويحول بينهم وبين عرضه على معارفهم هذا من ناحية ٠

---

(١) بلاد شنقيط ص ١٢٣ . ١٢٥ ٠

(٢) نفسه ص ١٢٥ . ٠

(٣) الساقية الحمراء ١٣٣ ٠

ومن ناحية أخرى يذكر عنه أنه كان على درجة كبيرة من الخشوع والعبادة والزهد والصيام ، والتوسعة على العيال ورعاية الأرامل والايتام والضيافة مع البشر الدائم والتواضع الكبير والرفق بالصغير(١) فكان إذا صلى الصبح جلس في المسجد متوجها إلى القبلة عاطفاعلى الأذكار لا يكلم أحدا ولا يكلمه أحد حتى تطلع الشمس ويتنفل فحينئذ يسوغ تكليمه .. وإذا صلى العصر جلس في بيت خلوته فلم يأته أحد ويبقى هناك فارغا لأوراده حتى تغرب الشمس) (٢) .

قال : وأسس طريقته المقامات التالية :

١) الاسلام .

٢) الايمان .

٣) الصلاح الذي هو مرام العبادة .

٤) الاحسان .

٥) الشهادة .

٦) الصديقية .

٧) العبودية (٣) . قال : وهذه الطريقة القرآنية هى طريقة الشيخ (٤) . قلت : وهذا التقسم لم نجده لغير هذا المؤلف من شيوخ القادرية على أن عمدة التقسيم عنده : الاسلام والايمان والاحسان حسب حديث جبريل عليه السلام وغير هذه الثلاث داخل تحتها .

---

(١) الضياء المستبين ص ٣٦ ـ ٨٤ .

(٢) نفسه ص ٣٧ يعني (عاكفا) .

(٣) نفسه ص ١٠٥ ـ ١٢٢ وسيأتي الكلام عن المقامات في باب السلوكيات والعبادات

(٤) نفسه ص ١٣٣ .

قال (وكان يربي مريديه بمقتضى الكتاب العزيز والسنة المحمدية) (١) . ويجوز رفع الصوت بالذكر في المساجد ويأمر تلاميذه بذلك ويذكرون بكلمة لا إله إلاالله دون الشطر الثاني من الكلمة الشريفة وهو الشهادة بالرسالة للنبي صلى الله عليه وسلم ولا يرى وجوب اقترانها بها) (٢) .

ويرجح جواز الذكر بلفظة الجلالة (الله) مفردا وجواز الذكر بهو هو (وكان مريدوه كثيرا ما يذكـــرون بحضرته بهو هو وكثير ما أسمعه يذكر بنفسه الشريفة ويقـول : هو هو ..) .

(وكثيرا ماكان يذكر مريدوا الشيخ بأنت أنت وكثيرا ما سمعته يقل أنت أنت) (٣)

(وكان الشيخ كثير التأوه بمعنى أنه كثيرا ما يقول أه أه) (٤) .

(وأعلم أن تلاميذ الشيخ كثيرا ما يأخذهم الجذب والشطح والرقص والسكر والوجد .. وأن الشيخ كان في ابتداء أمره كثيرا الوجد) .

(ولم أره يستعمل السماع بل ولا يأمر به بل قد سمعته ينهى عن صورته ويزجر عنها) (٥) .

(وكان بعض تلاميذ الشيخ ربما ركبوا إلى العامة لأخذ الأموال ، وربما يقبلون الهدايا ممن أتى بها من الخاصة وهو لا ينهاهم عن ذلك) (٦) .

فهذه النقول توضح ما كان عليه هذا الشيخ من السلـوك الصوفية ونشره لعلومهم وآدابهم وعباراتهم بالإضافة إلى جمعهم للأمـــــوال واستحلالهم لذلك وهو أمر ساعدهـــم على نوع من السلطة والنفوذ وزاد من مكانتهـم عند العامة وبعض الخاصة .

---

(١) الضياء المستبين ص ١٤٠ .

(٢) نفسه ص ١٤١ .

(٣) نفسه ص ١٥٠ . ١٥٥ و ١٥٦ . ١٥٨ .

(٤) نفسه ص ١٥٩ . ١٦٢ .

(٥) نفسه ص ١٦٩ .

(٦) نفسه ص ١٧٠ . ١٦٧ قلت : وما تضمنته هذه النقول سيأتى نقده في باب السلوكيات

يضاف إلى هذه المكانة العامة المكتسبة من أمور متعددة بالنسبة لهذا الشيخ ٠مكانته سائسا لقبيلته ورئيسا لأهل منطقته (١) وهي مكانة كما يذكر ورثها من أبيه (٢) ودعمها بدوام الاستقرار (٣) والسخاء وكثرة مصاهرة الناس (٤) مع امتداد العمر به حتي بلغ التسعين تقريبا (٥) ٠

وفاته رحمه الله : قال محمد الغربي ولم تختمره المنية . يعني الشيخ محمد فاضل . إلا بعد أن أصبح له ذكر وصيت في سائر البقاع الصحراوية والسودانية فكان ذا كرامات وصلاح ، وعالما لا يشق له غبار في ميدان الحديث وعلوم القرآن والانساب والأدب ، وتوفي بعد عمل طويل قضاه في خدمة طريقته ، بعد عمر يناهز التسعين عاما (١٢٨٧) هـ الموافق ابريل ١٨٦٩ م (٦) وقال صاحب الوسيط مبينا موضع مدفنه :

(أدياده) تامورت عظيمة ، وبها ماء لا يغور ، وبها قبر الصالح الشيخ محمد فاضل ، والد الشيخ ماء العينين) (٧) وشيدت على قبره قبة على ما ذكره محمد الغربى حيث يقول :

(وشيدت على قبره قبة آية في الصنعة والابداع وألحقت بها زاوية للذكر ودار لإيواء القصاد وأبناء السبيل ٠٠) (٨)

قلت : وقد نقلت عن أحد أحفاد الشيخ التراد أن جده الشيخ التراد كان يريد هدم هذه القبة ولكنه خشي فتنة أكبر فتركهامتأسيا بالنبي صلى الله عليه وسلم في تركه لهدم الكعبـــة الشريفة وإعادتها على قواعد إبراهيم عليه السلام خوفا من فتنة في الديـن ٠

---

(١) ابراز الادوار الفكرية للشيخ ماء العينين ص ١٥ . ١٦ ٠

(٢) الساقية الحمراء ص ١٣٣ والمعسول جـ ٤ ص ٨٣ ٠

(٣) الساقية الحمراء ص ١٣٣ ٠

(٤) المساهمة فى إبراز الادوار للشيخ ماء العينين ص١٥ . ١٦ ٠

(٥) الساقية الحمراء ص ١٣٣ ٠

(٦) الساقية الحمراء ص ١٣٣ ٠

(٧) الوسيط ٤٥٧ واتامورت : غيضه تجتمع فيها مياه الأمطار وتدوم أكثر العام ٠

(٨) هو محمد بن الشيخ سعد أبيه بن الشيخ التراد ، قاضي في انواكشوط ، أنظر ملف الرحلة العلمية ، المقابلة في تاريخ ٢٧ / ٨ / ١٤١٠ هـ ٠

ترجمة الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي

حصل توسع مقصود في ترجمه العلمين السابقين في هذا الفصل المخصص لتراجم أعلام القادرية في موريتانيا وذلك لأنهما إماما الطائفتين الرئسيتن في البلاد ومن يأتى بعدهما وإن كان علما في الطريقة وكون له فرعا مستقلا فإنه يظل تابعالهما سواء أكان من أبنائهما أو من مصدريهما ٠

والشيخ سيدي محمد كما عرف نسه هو : محمد بن المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي تجارا الأزوادي دارا) (١) ٠

قال الزركلي في ترجمته (وأبو عبد الله الكنتي فقيه مالكي مؤرخ من شنقيط له تصانيف) (٢) ٠

ويقول فيه الخليل النحوي : (عالم صوفي جليل) (٣) ٠

وقد اعتنى بول مارتي به عناية خاصة فترجم له ترجمة جيدة في كتابه كنتة الشرقيون (٤) مع أنه قال بأنه لا يملك الكثير عن حياته إلا أن ورعه (٥) وعلمه اجتذبا إليه انتباه والده فاصطفاه خليفة له وهو خامس أولاده ٠

ميلاده ونشأته :

ولد الشيخ سيدي محمد الكنتي حوالي ١٧٦٥ م ٠ وعاش ثلاثا وستين سنة تقريبا حيث ظل في كنف والده منها ما يزيد على الأربعين عاما ٠

---

(١) الطرائف والتلائد ص ١ ٠

(٢) الاعلام للزركلى جـ ٧ ص ٩٢ ٠

(٣) بلاد شنقيط ص٥١٦ ٠

(٤) كنته الشرقيون ص ٧٧ ـ ٨٣ ٠

(٥) نفسه ص ٧٩ ٠

ويقول هو عن نشأته :(لقد تعلقت بالشيخ (يعني والده) على رسم الإراده من الصبوة على حين انقطاع من رسم الطريقة وفترة من طالبيها بل غاية ما يتعلق به هممهم وتنتهى إليه رغباتهم أخذ الأوراد مجردة عن إستعمال السلوك والأخذ في الارتباض ، فأخـذت الأوراد قبل أمد البلوغ وكان والدي يروضني بساسة عجيبة وتدريـب غريـب) (١) .

والواقع أن الشيخ سيدي محمد نشأ في رعاية علميه وصوفية خاصة حتى إن والده لم يمت إلا وهو نسخة منه طبق الأصل ولم نجد فى ذكر ترجمته أنه خرج من حضرة والده حتى أنه عندما استأذنه في الحج كما تقدم صده قائلا له : الأولى بك أن تعنى بإزالة رعونات نفسك ولا تعرض نفسك للفتن وقد قال عنه صاحب المدرسة الكنتية إنه لا يقصر عن والده علما وتأليفا (٢) .

مكانته العلمية

لم تطل مدة حياة الشيخ سيدي محمد الكنتي بعد وفاة والده حيث إنه عاش بعده نحوا من عشرين سنة تقريبا أو أقل من ذلك كما في كنتة الشرقيون أنه عاش بعده خمسة عشر عاما فقط (٣) ولم يكن له ظهور كبير في حياة والده للآداب العلمية والصوفية إلا أنه في هذه المدة ظهر للناس أنه لم يتغير شيء في مسيرة مدرسة والده التي استخلفه عليها لا من الناحية العلمية ولا الصوفية (٤) وإن كان الباحث يجد فى طيات كلامه مرارة من تصرف بعض أتباع والده ومقدميه من الصوفية حيث يظهر من كلامه عنهم عدم تقدير لخلافته (٥) .

---

(١) جنة المريد له ص ١٦٧ .

(٢) المدرسة الكنتيه ص ٢ .

(٣) كنته الشرقيون ص ٧٩ .

(٤) نفسه ص ٧٩ ـ ٨٠ .

(٥) جنة المريد ص ١٢ ـ و ٢٤ ٩٧ . ٢٠٠ .

أثاره :

واصل الشيخ سيدي محمد الكنتي مسيرة والده في التدريس وتربية المريدين والتأليف والاتصال بأصحاب السلطة المحلين وعمل على إصلاح ذات البين بين القبائل المتصارعة (١) • فمن مؤلفاته :

١) الطرائف والتلائد وهو الكتاب الذي أعتمدنا عليه في كثيرمن نواحي هذا البحث أو ما يتعلق بالمختارية خاصة وهو موسوعة ضخمة تضم العديد من المناظرات الدينية والمعالجات الصوفية والأخبار التاريخية والرسائل العلمية والأدبية •

وقد اعتبره بول مارتى من أهم أعماله الجليلة لما فيه من التاريخ لتلك المنطقة إلا إنه وصفه بأنه كتاب مشوش للغاية ومعالجاته للأمور تبعث على السآمة لأنه كما يقول يعالج مواضيع شتى من حيث التنويع (٢) •

وهو كما قال من حيث الموضوعية أما من حيث العرض والأسلوب فإنه مؤلف ماهر في الأساليب العربية سهل العبارة كأنه نشأ في الأندلس كثير الاستطراد ويمكن الاعتذار عنه فيما يؤخذ عليه في تآليفه كلها بأنه عاجلته المنية وهو مشتغل في مؤلفات عديدة وأطفاء فتن كثيرة •

٢) الغلاوية سميت بذلك لمخاطبته فيها لأخوين له في الاسلام كما يقول من قبيلة الاغلال (٣) وهي في بدايتها رسالة وفي واقعها كتاب كبير يعالج كثيرا من الأمور التاريخية والصوفية والفقهية والاجتماعية وأبرز مقاصدها مهاجمة عبد الله بن سيدي محمود الحاجي (٤) كما هاجم فيها كثيـــرا من انحرافـــات الصوفيــه (٥) •

---

(١) كنته الشرقيون ص ٧٩ . ٨١ •

(٢) نفسه ص ٧٩ . ٨٠ •

(٣) الغلاويه ص ٢ •

(٤) الوسيط ص ٣٦١ . ٣٦٢ •

(٥) كما تقدم عند الحديث عن الأغظفية وغيرها من الطرق الصوفية •

٣) جنة المريددون المريد : كتبها جوابا على رسالة تلميذه الصادق كما يقول : سيديا بن المختار وهي كتاب كبير في مائتين وخمسين صفحة على الآله الكاتبة تشتمل على ثلاثة مباحث في الحث على طلب العلم والتصوف ، وعلوم الصوفية وآداب سيرهم وبعض العقائد والآداب العامة . (١) .

٤) الصوارم الهندية في حسم الدعاوى المهدية . مخطوط في نحو مائة صفحة.

ألفه ناصحا لعموم المسلمين ومحذرا إياهم من الاغترار بأصحاب الدعاوى المهدوية وخصوصا القاضي الشهير . كما يقول : .

(الصالح بن محمد البشير والسلطان كوى بن أم بن أك الشيخ ، والسبب المباشر لتأليف هذا الكتاب هو ظهور مدع للمهدية في الطوارق يدعى محمد الجيلانى البركوري) (٢)

هذه هي الكتب التي وقفت عليها مما صحت عندي نسبته له وقد ذكر له محمد محمود بن ودادي . في الملحق الذي أعده لكتاب بول مارتى (كنته الشرقيون) سبعة وعشرين كتابا قال بأنها متداولة بين الناس (٣)

والواقع أنه يذكر في أثناء كتبه التي ذكرت سابقا أنه خص هذا الموضوع الفلاني بكتاب أو أنه إن أمد الله في عمره سيفرده بتأليف (٤) .

قال الزركلي : (وله كتب قد يكون بعضها لأبيه ، كلها في خزانة الرباط) (٥)

---

(١) جنة المريد ص ١ ـ ٢٥٠ .

(٢) الصوارم الهندية ص ١ ـ ٣ .

(٣) كنته الشرقيون ٢١٣ . ٢١٤ وبذل الوسع في تفسير الآيات التسع ص ١٠٣ . ١٠٤ .

(٤) مثلا في الطرائف ص ١٥٩ والغلاويه ص ١٨٤ .

(٥) الاعلام جـ ٧ ص ٩٢ .

وقد أعتبره محمد يوسف مقلد : شارحا لطريقة والده المختارية (١) وقد أصاب في ذلك إلا أنه يعتمد كثيرا فيما يكتب عنها على كتب والده ومما ذكره في شرحه لتاريخها وسلاسلها ولم تجده بالنص لوالده قوله : (ومن خصائص طريقتنا خلوها عما فى غيرها من الطرق من الشطح والتماوت والتغاشي والرقص ورفع الصوت بأذكار المستغرقين كهو ويا هو هو وياه ياه والله الله ونحو ذلك من الانشادات والسماع وليس فيها لبس الخرقة والدلق ٠٠) (٢) ٠

وذكر بول مارتى في ترجمته أنه كان نافعا لذريته ومفيد لمعاصريه فقد أنقذ بوساطته تينبكتو من التخريب المنظم من قبل (فلان) واستضاف بعض الرحالة الغربيين وحماهم وساعدهم على أبحاثهم (٣) ٠

وأنه كان له الشرف في أنه كان في عداد تلاميذته الشيخ سيديا الكبير الذي أصبح فيما بعد زعيم القادرية في موريتانيا السفلي (٤) وللشيخ سيدي محمد مصدرون كثيرون من أهمهم إخوانه (٥) وأولاده العشرة (٦) الذين واصلوا مسيرة الطريقة العلمية والصوفية (٧) ٠

---

(١) شعراء موريتانيا القدماء والمحدوفون ص ٣٣٩ ٠

(٢) الطرائف ١٥٩ . ١٦٠ وسيأتى هذا النص والكلام عليه في باب السلوكيات . والدلق : نوع من اللباس يجعل تحت العباءة الفوقانية ، وقد يكون كالمعطف واسعا بدون فتحة ، سوى فتحة الكتفين ، ويحاك من حرير الطرح الازرق اللون أو من الصوف الأسود ٠ أنظر : هامش : الموفي بمعرفة التصوف والصوفي . مصدر سابق ٠

(٣) كنته الشرقيون ص ٨١ ٠

(٤) نفسه ص ٨٢ ٠

(٥) نفسه ص ٧٧ . ٨٩ . ٩١ . ١٤٠ . ١٥٠

(٦) نفسه ص ٨٩ . ١٤٠ ٠

(٧) نفسه ص ١٤١ . ١٥٤ ٠

وفاته رحمه الله :

يظهر من تعدد الأقوال في تاريخ وفاة الشيخ سيدي محمد أن تاريخ وفاته غير مضبوط حيث يذكر الزركلي أنه توفي سنة ١٢٧٠هـ - ١٨٥٤م (١) بينما يذكر غيره أنه توفي سنة ١٢٤٤ هـ (٢) أو ١٢١٢ هـ وهو نفس التاريخ الذي تذكره رسالة المدرسة الكنتية (٣) .

ويظهـــر أن أدق هـــذه التواريـــخ ما ذكره بول مارتى وهو أنه توفي في ١٠ ميه ١٨٢٦م (٤) .

ثم قال : (انتشرت جائحة من حمى سارية في القبيلة مات على إثرها موتا مفاجئا ودفن إلى جانب والده في (بور الأنوار) المقبرة المفضلة لدى كنته (٥) .

---

(١) الاعلام جـ ٧ ص ٩٢ .

(٢) بلاد شنقيط ص ٥١٦ و ٥٢٦ .

(٣) نفسه ص ٨١ - ٨٣ .

(٤) المدرسه الكنتيه .

(٥) كنته الشرقيون ص ٨١ .

ترجمة الشيخ القاضي الاجيجى :

هو الشيخ القاضي بن الحاج بن اشفق أحمد بابا بن حبيب الله بن المختار بل بن أبي بكر الملقب (أويك) بن أحمد محمود (بياني) ابن اشفق البكاي الجد الجامع لقبيلة (اجيجة) وهي قبيلة من قبائل الزوايا الحاملين لواء العلم والدعوة إلى الله تعالى.

وكان فقيها ومدرسا للفقه مستقر الحال حتى رآى رؤيا بأنه سينتشر ذكره فأخذ يبحث عن مشايخ الصوفية ويصحبهم حتى وصل في ناهية المطاف إلى الشيخ سيدي المختار الكنتي فى أزواد مسيرة شهر من بلاده فصحبه وبالغ في خدمته واتباع طريقته حتى صدره في الطريقة القادرية (المختارية) .

وعاد إلى بلاده ومكث زعيما دينيا وسياسيا إلى أن توفي سنة ١٢٤٠ هـ (١) وترك فى بئته آثار احسنة في المجال العلمي حيث كانت مدرسة (الكحلاء) التى عاشت إلى مجيء المستعمر الفرنسي وكذلك أختها (الصفراء) تلك المدارس التي خرجت أجيالا من العلماء والمجاهدين والقضاة ، كما أنه كان لأبنائه السبعة أثر كبير في المنطقة إلى يومنا هذا حيث نقلت عن ثقات أنهم مازلوا محافظين على منهجهم المحضري الأصيل في الدراسة العلمية ، وأنهم كذلك مازالت حضرتهم الصوفية على ماكان عليه أجدادهم من الاستقامة والحذر من البدع الطارئة على السلوك التربوي ، وأن المختار بن بون الذي كان شديد الإنكار على أهل الطرق الصوفية أثنى عليهم قائلا : إنه لم يرمندوبامتروكا ولا مكروها مفعولا) (٢) .

---

(١) دراسة شخصية : الشيخ المصطفى بن الشيخ القاضي ، المعهد العالى للدراسات والبحوث ، محمد مصطفى بن أحمد ومبارك ١٤٠٥ هـ ص ٧٠ . ٧٧ .

(٢) نفسه ص ٧٧ .

الشيخ سيديا الكبير :

هو سيديا بن المختار بن الهيبة بن أحمد دولة بن أبابك بن انتشايت الابيرى وطنا (١) وكان ميلاده ١١٩٠ هـ (٢) .

اشتغل في شبابه بالعلوم وبرع فيها ثم رحل إلى الشيخ سيدي المختار الكنتي بأزواد مسيرة شهر فلازمه ستة أشهر ، ثم مات الشيخ المختار فلازم ابنه سيدى محمد الخليفه عشرين سنه . على أنه عاشها بعد أبيه (٣) .

وكان في هذه المدة يخدمه خدمة العبد لسيده أو أكثر كما كان معروفا عنه ذلك أيام طلبه للعلم عند حرم بن عبد الجليل (٤) .

قال صاحب الوسيط (فلما برع في معرفة الطريق وعلم الأسرار رجع إلى بلاده فاعترف الناس بفضله ولم تزل فضائله تبدو حتى أذعنت له الزوايا وحسان وصار مثل الملك بينهم فلا يعقب أمره وكان أهلا لذلك ، كرما وحلما وعلما) . إلى أن قال :

(وكان يبلغه أن الطريق منقطع في الجهة الفلانية لعدم عمارتها فيحفر فيها الآبار ويبعث المؤن الطائلة لقرى المارين ، وفضائله أكثر من أن تذكر) .

قال : (وماذا أقول في رجل أتفق على أنه لم يظهر مثله في تلك البلاد) (٥) . قلت : هذا مجمل ما ترجمه به صاحب الوسيط وهو أقرب إلى زمانه ممن كتبوا عنه فيما بعد(٦)

وما قاله عنه يكاد يكون متفقا عليه بين الناس يشهد له به العدو قبل الصديق وما ذكره عنه من إتقان للطريق وعلم الأسرار سيأتى إن شاء الله التعليق عليه في باب العقائد عند المقارنه بين المختارية والفاضلية .

---

(١) الوسيط ص ٢٤٠ .

(٢) بلاد شنقيط ص ٥١٦ .

(٣) الوسيط ص ٢٤١ .

(٤) نفسه ص ٢٤٠ . ٢٤١ .

(٥) نفسه ص ٢٤٠ . ٢٤١ .

(٦) نفسه ص ٢٤٠ . ٢٤٣ .

ولو استعمل هذا الشيخ ما عرف عنه من قوة النفوذ والسلطان على الأمراء والمتغلبين وشيوخ القبائل وعامة الناس حيث كانوا يجعلون منطقته حرما آمنا (١) أقول لو استعمل ذلك كله في الدعوة الجادة لنصب إمام عادل جامع لكان نافعا جدا لنفسه وأهل بلاده عموما وكان الاتفاق المحكي على أنه لم يظهر مثله في تلك البلاد صحيحا ٠

وقد نقل أنه دعا لنصب الإمام إلا أن الأوضاع كانت فيما يروى قد وصلت إلى درجـــة من الفوضى والفرقة يستكثر من الرجل الحازم أن يعمل على التخفيف من آثارها ٠

وكان ابنه وخليفته سيدي محمد جاد في الدعوه إلى نصب إمام عام بما هيئه له أبوه ولما كان له من اطلاع كبير على سوء أوضاع مجتمعه وما يراه من مستقبل تسلط النصارى على البلاد حيث ظهر الاستعمار الفرنسي بعد مماته بمدة قليلة وهو لم يعش بعد والده الا عاما واحدا (١)

---

(١) الوسيط ص ٢٤٣ . ٢٧٦ وبلاد شنقيط ص ٣٢٠ وما بعدها ٠

آثاره :

مما تقدم يتضح أن الشيخ سيديا كان على جانب كبير من العلم والجد في تحصيله ويجزم بذلك من عرف ما كان عليه من الذكاء والفطنة والتواضع لشيوخه (١) يضاف إلى ذلك أنه وفق للدراسة على جلة من أئمه العلم كحرم بن عبد الجليل وهو من أجل تلاميذ الشيخ المختار بن بون (٢) .

ثم أتبعه بعد أن تضلع من علمه بصحبة المختار الكنتي الذي قال عنه إنه جاءه وقد انتهى من تحصيل العلوم فرده مبتديا (٤) وهذه الأمور من أهم أسباب العون على التحصيل والانتاج العلمي والأدبي .

وقد جمع الشيخ سيديا الكبير بنفسه مكتبة ضخمة حيث استنسخ مكتبة الشيخ سيدبي المختار في أزواد (٤) وجمع ما في منطقته من الكتب سواء من تآليف شيوخه أو من المؤلفات الواردة إلى البلاد واشترى من المغرب كتبا كثيرة (٥) .

واستجلب العلماء والأدباء إلى حضرته فازدهرت بذلك في حياته (٦) واستمرت فى ذلك الاتجاه العلمي المقرون بالتصوف حتى نبلغ فيها حفيده الشيخ سيديا بابه الذي أخذ هو الآخر في نفس الاتجاه من جمع الكتب واستنساخها واستجلابها واستقدام العلماء والاحسان إليهم حتى غلب الاتجاه العلمي الوجهة الصوفية إذ كان هذا الشيخ شديد الانكار على المتصوفة وما ابتدعوه ، صريح الدعوة إلى الالتزام بالكتاب والسنة (٧) .

---

(١) الوسيط ص ٢٤٠ . ٢٤١ .

(٢) نفسه ص ٢٤ . ٢٥ و ٢٧٧ وجنة المريد ص ٢٥٠ .

(٣) الوسيط ص ٢٤١ و ٢٦١ وبول مارتي ص ٨٠ . ٨٢ و ١٥٤ .

(٤) يوضح ذلك ما بأيدى الناس وما فى مكتبة أهل الشيخ سيديا فى بلميت ، من المخطوطات التي يوضح النساخ في نهايتها أنها عين نسخته التي قابلها بنفسه ونقلها بخطه في أزواد .

(٥) الوسيط ٢٤١ .

(٦) نفسه ص٢٤٣ .

(٧) رسالة في حياته بقلم تلميذه محمد بن أبى مدين . وما بعدها وسيأتي إن شاء الله مزيد عن حياته في فصل الصحوة السلفية في الطريقة القادرية .

تلاميذه ومولفاته :

لايمكن أن ندعى لأحد أنه حصر تلاميذ الشيخ سيديا نظرا لأنه رحل إلى أزواد ومكث في حضره الشيخ سيدي المختار الكنتي نحو عشرين عاما ، ومن عادة شيوخ هذه الحضرات أن يسندوا المسائل العلمية من تدريس واستنساخ الكتب وحتى الفتيا والقضاء إلى من يرونه من مريديهم أهلا لذلك وقد رأينا أن الشيخ سيدي ما جاءهم إلا وقد تضلع من العلوم وبرع فيها فلا شك أنه كان له تلامذة في العلم في أزواد .

ثم إنه لما عاد إلى بلاده في القبلة اشتهر أمره في العلم والتصوف وقصده الناس ، وكل أخذ فيما هو ميسر له ، وقد ساعده على كثرة العطاء العلمي أنه أمتد به العمر بعد رجوعه من أزواد نحوا من أربعين عاما أو أكثر.

وقد عد خليل النحوي ستة من أعيان تلاميذه وهم

١) ابنه سيدي محمد المتوفى سنة ١٢٨٦ هـ (١) .
٢) الشيخ أحمد بن سليمان الديماني المتوفى سنه ١٢٩٩ هـ .
٣) الشيخ أحمد بن الفاضل الديماني المتوفى سنة ١٣١٩ هـ .
٤) الشيخ محسن الحسني .
٥) الشيخ حمدي مولود .
٦) محمد مبارك اللمتوني (٢) .

ويذكر صاحب الوسيط من الروايات ما يدل على كثرة ما اجتمع عنده من التلاميذ ذاكرا من كان منهم على شرطه في الأدب والشعر (٣) كما يزيد ذلك بيانا انتشار القادرية في غرب إفريقيا في وسط أئمتها وأمرائها (٤) .

---

(١) بلاد شنقيط ص ٤٩٥ وأظن أن تاريخ الوفاة غير صحيح حيث إنه من المعروف أن الشيخ سيدي محمد لم يعش بعد والده سنه كاملة حيث يقول الناس :
(إنه الشيخ الذي لم يُزَكِ) وذلك أنه ما ملك النصاب في حياة والده ولم يَحُلْ عليه الحول بعده

(٢) نفسه ص ٤٩٥ .

(٣) الوسيط ص ٢٤١ . ٢٤٢ و ٢٤٣ و ٣١١ وما بعدها .

(٤) بلاد شنقيط ص ٢٦٧ .

مؤلفاته ووفاته رحمه الله :

لا نجد للشيخ سيديا مؤلفات كبيرة أو كثيرة بالنظر إلى علمه وعمره وما أتيح له من كتب وطلاب علم مطعيين ٠

ولعل السبب في ذلك راجع إلى اشتغاله بالتدريس والسياسة والوجاهة إذ كل هذه أمور شاغلة للداخل فيها عن التأليف الذي يحتاج إلى تفرغ كامل ، هذا مع ما عرف عن أهل تلك البلاد من حب الخمول والتواضع ، ولذا فلا يؤلفون إلا في أمر تبينت عندهم الحاجة الماسة إلى التأليف فيه ، فيؤلقون فيه أو يشتغلون به خوفا من المسؤلية أمام الله في ذلك (١) ٠

وهذا ما يظهر في مؤلفات الشيخ سسيديا الآتية حيث إن معظمها أجوبة ورسائل في مسائل واقعة ٠ وقد أبلغها الخليل النحوي ثلاثة وعشرين مؤلفا وهي :

١) أجوبة عامة ٠

٢) بغية الخائض فى حكم المتمتع بالحائض ٠

٣) تحفة الاطفال بحل لامية الافعال ٠ ذكرها له صاحب الوسيط (٢) ٠

٤) جواب المختار حبيب الله الديماني ٠

٥) خلاص النفس من الحبس ٠

٦) ديوان شعر ٠ وقد قال صاحب الوسيط (بأنه كان مجيد في الشعر) (٣)

٧) رسالة في امتناع تمثل الشيطان بالنبي صلى الله عليه وسلم ٠

---

(١) بلاد شنقيط ص ٢٢٤ وما بعدها ٠

(٢) نفسه ص ٥٦٣ . ٥٦٤ ٠

(٣) نفسه ص ٢٤٢ و ٢٤٣ وسيأتي إن شاء الله في باب السلوكيات شيىء من شعره ٠

٨) رسالة إلى إجيجبه (القبيلة المعروفة) .

٨) رسالة في جواز التنفل بالخبث .

١٠) رسالة في حكم تعليم النساء ، وقد حققت في معهد ابن عباس في انواكشوط .

١١) رسالة في النكاح وفوائده .

١٢) رسالة في خواص البسمله والفاتحة .

١٣) رسالة في رقية السحر والسوام .

١٤) رسالة في القبض والبسط . يعنى وضع اليمنى على اليسرى فى الصلاة .

١٥) رسالة في المال المدفوع للأكابر والمداراة للظلمة .

١٦) شذور الأذكار الماحية للأوزار .

١٧) شرح باب الفرائض من مختصر خليل .

١٨) شرح الصغرى للسنوسي .

١٩) شرح مقصورة ابن دريد ، قال صاحب الوسيط إن بعض الثقاة أخبره بذلك(١)

٢٠) شرح المقصور والمدود لابن مالك ولعله أختصره من شرح شيخه المختار الكنتي الذى طبع بتحقيق المأمون كما تقدم .

٢١) الفرق السديد والتميم المفيد في التصوف .

٢٢) هداية الطلاب في الفقه وشرحها (اجزاء) ولعله غير ثابت النسبه له حيث إن هذا العنوان كما تقدم ثابت النسبة للمختار الكنتي شيخه .

---

(١) الوسيط ص٢٤٣ .

٢٣) يتيمة الليالي في إفحام علماء تتبالي . ويقال في هذا الكتاب ما قيل في سابقه .

٢٤) ونسب له : العلق النفيس في التصوف .

٢٥) وله عقيدة في ورقة صغيره وهي عبارة عن شرح حديث جبريل عليه السلام

وهي في دار الثقافة في انواكشوط تحت رقم (٤٠٨) .

هذا هو العدد المنسوب إليه المتداول بين الناس وقد ذكر الخليل النحوى أنه من المؤلفين الذين وصلت مؤلفاتهم العشرات وذكر له بالرقم (٣٠) مؤلفا (١) .

ويكتفي صاحب الوسيط زيادة على ما تقدم بقوله :

(وقد رأيت من تأليفه) وذكر اثنين تقدمت الإشاره إليهما هذا علاوة على القصائد التي تكون ديوانا على ما تقدم وذكر منها نماذج (٢) .

وفاته رحمه الله :

الخلاف في تحديد تاريخ الوفاة لا يستغرب في تلك البلاد لعدم العناية في عهدهذا الشيخ بالكتابة .

ولذا فقد ذكر في تحديد وفاته ما يأتي .

يقول صاحب الوسيط :(وأخبرني بعض الثقاة : أنه مات سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف أو نحو ذلك رحمه الله رحمة واسعة) (٣) .

ويذكر الخليل النحوي أنه توفي في آخر يوم من عام ١٢٨٤ هـ (٤) .

ونصل ترجمته بترجمة الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل الذي قيل بأنه لم يأت بعده مثله في البلاد إلا هو .

---

(١) بلاد شنقيط ص ٢٤٦ .

(٢) الوسيط ص ٢٤٢ .

(٣) نفسه ص ٢٤٣ .

(٤) بلاد شنقيط ص ٥١٦ و ٥٦٣ . .

ترجمة الشيخ ماء العينين

إسمه ومولده ونشأته :

هو الشيخ ماء العينين وهذا علم اشتهر به (١) واسمه محمد المصطفى بن محمد فاضل بن مامين (٢) إلى آخر سلسلة النسب المتقدمة المعروفة .

مولده :

ولد في يوم الثلاثاء ٢٧شعبان من عام ١٢٤٦ هـ في الحوض الشرقي في منطقة (مدارة) بقبيلة (صنهيس) (٤) الموافق لعام ١٨٣٨ م .

نشأته :

يؤخذ من كلام صاحب الضياء المستبين وابن المترجم الشيخ أحمد الهيبة أن الشيخ ماء العينين نشأ في رعاية تامة من والده وكانت تلوح عليه أمارات النجابة والنبوغ (٥) من الصغر .

فقال صاحب الضياء فيه : إن والده قال فيه (لقدرفع الله صيت الشيخ سيدي المختار الكنتي بابنه الشيخ سيدي محمد الخليفه وجعل الله رفع صيتي في ابني ماء العينين) (٦) .

وينقل صاحب المعسول عن كتاب لأحد أبناء الشيخ ماء العينيين في ترجمته لـه : (أنه لازم والده ملازمة المريد لشيخه لا ملازمة الولد لأبيه ولا التلميذ لأستاذه) (٧) .

---

(١) الوسيط ص ٣٦٥ .

(٢) المعسول جـ ٤ ص ٨٣ .

(٣) نفسه ص ٩٦ .

(٤) الساقيه الحمراء ص ١٣٤ .

(٥) الضياء المستبين ص ٢٦٤ .

(٦) الضياء المستبين ص٢٦٤ .

(٧) المعسول جـ ٤ ص ٩٦ .

وبهذا نعرف أن نشأته كانت صوفيه علمية تحت إشراف والده ، ولا شك أنه منحه المزيد من العنايه لما لمس فيه من الرغبه فى العلم ٠

رحالاته ومكانته :

يقول محمد الغربى : (بينما كان محمد فاضل يميل إلى حياة الاستقرار ، فإن ابنه محمد المصطفى المعروف بماء العينيين كان على النقيض منه يهوى الأسفار) (١) ٠

وقد قادته هذه الهواية أن يفارق أباه وموطنه الأول ، وله من العمر ثمانية وعشرون عاما في رحلة طويلة إلى حج بيت الله الحرام مر خلالها بمناطق كثيره ومدن عديدة موريتانية ومغربيه وغيرها من المدن الشرقيه غير الحجاز حيث دون ذلك كله في رحلة الحج التي كتبها بدقة (٢) ٠

وقد استفاد من هذه الرحلات علما كثيرا وخبرة وصلات وطيدة مع السلاطين والقواد وشيوخ القبائل ، كانت من أهم الأسباب التي وجهته إلى أن يتخذ لنفسه مراكز معينة ومواقف معروفة أثمرت له شهرة واسعة (٣) وبعد سبعة أعوام من الرحلات والاتصالات عاد الشيخ ماء العينين إلى موطنه حيث صدره أبوه في الطريقة القادرية وفتح أمامه الباب لاستقبال الداخلين من أتباع الطرق الصوفية الأخرى وأذن له في الخروج إلى الوجهة التى يريدها ٠ (٤) قائلا له : (إن فحلين لا يهدان في دوله) والدولة هنا يراد بها قطيع يصل إلى مائه من الابل فما دون ذلك . والشيخ محمد فاضل يقول له هذا بعد أن كان ناويا ابقاءه معه ، فعاد إلى شمال البلاد حيث استقر في الساقية الحمراء وأخذ فيما بعد ينتشر صيته في المغرب بصفه عامة وبين قبائل الصحراء بصفة خاصة ٠

---

(١) الساقية الحمراء ص ٣٤٠ ٠

(٢) المعسول جـ ٤ ص ٩٦ ، ٩٧ ٠

(٣) المعسول جـ ٤ ص ٨٣ . ٩٧ ٠

(٤) نفسه ص ٩٦ . ٩٧ والساقيه الحمراء ص ٣٤٠ ٠

فبقي مدة يدرس ويؤلف ويدعو أهل تلك المنطقه المعروفة يبعد أهلها من العلم وآدابه فانكبوا عليه وأطاعوه حيث اجتمع عنده ما يقدر بعشرة آلاف ما بين ذكر وأنثى من التلاميذ والمريدين •

ويظل هذا العدد يزداد كلما ازدادت شهرته وتيسرت وسائل النقل وأمنت الطرق ، وقد بلغ إقبال الناس عليه ذروته عندما هاجرت طوائف كبيرة من العلماء وغيرهم بعوائلهم وأتباعهم فرارا بدينهم من هجوم النصارى على البلاد ورغبه في الجهاد الذى تواتر لديهم أنه هو حامل لوائه (١) •

قال فيه صاحب الوسيط (هو العلامه الوحيد ، له معرفة بعلوم الشرائع من الحديث والتفسير والفقه وغير ذلك ••• وما جاء بعد الشيخ سيديا مثله في اقبال الناس عليه وانفاقه) (٢) •

وقال فيه المختار السوسي: (هذا الشيخ من الشيوخ العظام الذين تمت لهم شهرة فائقة عظيمة فقد أسعده الحظ فنال ما ربما إذا سمعه من لا يعرفه يستغرب به أو يعده من البهتان) (٣) •

وأوضح أن شهرته ترتكز على أمور هي : كما يقول المختار السوسي :

١) أن ذلك وراثة عن آبائه الشم الغطاريف الذين تسلسل فيهم العلم والصلاح أبا عن جد ، منذ أجيال متعددة) •

٢) (أنه أدرك من المشاركة في العلوم إدراكا عظيما تدل عليه تآليفه ••)

٣) أنه شيخ من شيوخ الصوفية الذين لهم يد عليا في ذلك الفن علما وعملا ••) (٤)

---

(١) أنظر الوسيط ص ٣٦٥ . ٣٦٦ •

(٢) نفسه ص ٣٦٥ . ٣٦٨ •

(٣) المعسول ج ٤ ص ٨٣ •

(٤) نفسه ص ٨٣ . ٨٤ •

٤) (أنه أتصل من قديم بملوك المغرب فكان يفد إليهم بأصحابه من الصحراء) (١)

٥) (تطاول سنه وتعميره عقوداً كثيرة من السنين (٢) فكان من ثمار هذا كله أن اعتقدت فيه العامة بعد الخاصة وتنافس الجميع في الانتساب إليه والإهداء له فنال بذلك ثراء عظيما ، وأنشأ مدينة كاملة مجهزة ، هي مدينه الصمارة (٣) وبنت له الحكومة عدة زوايا في المدن المغربيه الرئيسية) (٤) .

قال المختار السوسي فيه : (أمضى رضي الله عنه حياته كلها في العلم وفي تدريسه والتأليف وعالم الفنون حتى نظم . المزهر . يريد المزهر فى اللغة للسيوطي . وحتى تعالى إلى جميع ما اتفق عليه الفقهاء فانتشرت به علوم جمة ، وتخرج به فطاحل عظام من الصحراويين . وتجمعت به أعظم خزانة صحراوية فكان مثواه المتنقل في الصحراء مدرسة حافلة ، وزاوية متنقلة بها دوي بالذكر يسمع من بعيد كما لعلمائهـا اشتغال بالمباحثة في العلـوم تتعطربه السنـه المحدثين ، وتطير به الركبـان) (٤) .

ويقول صاحب الوسيط عن مشاهدته لأحواله عندما كان ضيفا عليه (.. ومتى بلغ الانسان قريبا منه يسمع دوي مريديه يذكرون الله وينشدون الأدعيه ، ورأيته في تلك الأيام التي أقمت عنده ، لا تفوته صلاة الجماعة ، مع كبر سنه ، وضعف جسمه ، وبعد صلاة العصر ، يسر دون له الحديث ، وهويسمع ، ثم يشرح لهم بعض المواضيع منه) (٥) . وهذه من المحاسن التي تركها في عقبه والصادرين من حضرته من العنياية بالسنة والصلاة في أول الوقت .

---

(١) المعسول ص ٨٤ . ٩٦ .

(٢) نفسه ص ٨٤ .

(٣) الساقيه الحمراء ص ٣٥٣ . والمعسول ص ٩١ .

(٤) المعسول ص ٨٥ وبلاد شنقيط ص١٢٤ . ١٢٥ .

(٥) الوسيط ص٣٣٦ .

جهاده :

ومن مناقبه الحسنة التي لم يصل إليها كثير من شيوخ وقته العداوة الظاهرة للكفار والمنافقين وقيادة الجهاد ضدهم ومقاومتهم بجميع الأسلحة المتوفرة (١) ٠

وقد كتبت كتابات كثيرة عن موقفه من المستعمرين توضح أنه مات وهو قائم على ثغر من ثغور المسلمين لم يتستطع المتستعمر الدخول منه إلا بعد وفاته ووفاة خليفته من بعده ٠

قال المختار السوسي عنه في ذلك :

(وأعظم ما سيعرفه به المستقبل أنفته الإسلامية من الانضواء إلى الأجانب) (٢) ٠

ويقول الفرنسي فيليب : (وكاد يعني الشيخ ماء العينيين . يجدد بعد فترة ألف عام حركة المرابطين) (٣) ٠ وللمرابطين رعب كبير في نفوس النصارى ٠

(وأنه أعلن نفسه سلطانا على المغرب عام ١٩١٠ م ودعا إلى الجهاد المقدس) (٤) ٠

(وأن أتباعه ظلوا بعده رجال دين ومحاربين حقيقيين يلهبون بخطبهم قبائل الصحراء) (٥) ٠

وعندما كتب له أخوه سعد أبيه رسالة سماها : (النصيحة العامة والخاصة في التحذيرمن محاربة الافرانصه) (٦) رد عليه برساله سماها : (هداية من حارا في أمر النصاري) (٧) ٠

وقد أستوعب هذا الموضوع الأستاذ حامد بن محفوظ في رسالة تخرجه من معهد الاساتذة في أنواكشوط ١٩٨٤ م تحت عنوان القادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه (٨) ٠

---

(١) الوسيط ص ٣٦٦ . ٣٦٨ وإبراز الادوار الفكريه والسياسية للشيخ ماء العينين ص٥٩ . ٨٦

(٢) المعسول جـ ٤ ص ٩٢ والساقيه الحمراء ص ١٣١ و ٣٤١ . وما بعدها ٠

(٣) دراسه عن الاسلام في إفريقيا السوداء الفرنسية ص ١٢١ . ١٢٢ ٠

(٤) نفسه ص ١٢١ ٠

(٥) نفسه ص ١٢١ . ١٢٢ ٠

(٦) حياة الشيخ سعد أبيه / محمد يصلح بن الامانة ص ٤٩ وما بعدها

(٧) الخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٤٧٧ (مخطوط في ١٢ ورقة)

(٨) ص ٣٢ و ٥٣ وما بعدها ٠

من تلاميذه وانجازاته :

ومن مناقبه الحسنة أيضا أنه تخرج على يديه آلاف من الرجال والنساء فى العلم الشرعي (١) وتكونت تحت رعايته عناية شديدة وجادة بالتدريب على أساليب الجهاد وأنواع الأسلحة (٢) .

ومن مناقبه الحسنة كذلك أنه بنى مدينه الصمارة فأحيا بها بلدة كانت ميتة من العلم والحياة الأخرى ومن أهم ما كان في هذه المدينة :

١) مدرسة تحفيظ القرآن الكريم وعلومه .

٢) والحديث وعلومه إلى غير ذلك من العلوم الأخرى .

٣) وكذلك خزانة الكتب الكبيرة التي أحرق المستعمر ونهب كثيرا من جواهر الكتب فيها (٣)

أما مؤلفاته فهي تتراوح ما بين ١٤٠ إلى ٣١٤ عدد الرسل على ما ذكر (٤) ونكتفي بالاحالة على القوائم المذكورة في مقدمة كتابه دليل الرفاق على شمس الاتفاق ، المطبوع (٤) ويمكن أن يؤخذ على الشيخ ماء العينيين رحمه الله أنه لما حج لم يظهر أنه حاول الاستفادة من الدعوة السلفية القائمة في هذه البلاد المطهرة وما جاورها ، وبدلا من ذلك اتصل بأحد مشايخ الصوفية يدعى عبد الرحمن أفندي في مكة المكرمة وحكى عنه حكايات يستغرب صدورها من مثله في المكانة العلمية لما فيها من ادعاء علم سر الحروف وأن حرف الحاء منها له سر قامت به السموات والارض وأنه هو علمه لذلك الشيخ (٥) .

---

(١) مساهمه فابراز الادوار الفكرية للشيخ ماء العينين ص٢٨ وما بعدها .

(٢) الساقيه الحمراء ص ٣٦٠ وما بعدها .

(٣) نفسه ص٣٥٣ . ٣٦٣ .

(٤) المصدر المذكور ص هـ ح ومساهمة في إبراز الأدوار الفكرية ص ٤ . ٤٩ وبلاد شنقيط ص ٢٤٦ و ٥٦٤ - ٥٦٩

(٥) نعت البدايات ص١٩٨ . ٢٠٠ وما بعد ذلك . وسيأتى إن شاء الله نقد ذلك في مبحث التصرف في الكون .

ويستغرب كذلك أنه ظل يؤلف في هذا الفن ويخط في جداوله وأحرازه ويبين للعالم والجاهل والتقي والفاجر ما فيها من النفع والضر وهو مع ذلك يحذر من أستعمالها أو إطلاع غير التقي عليها ولا أظن أن هذا التحذير يكفي في إبراء ذمته مع الاستمرار في التأليف في هذا العلم الذي أقل ما يقال فيه أنه من باب الرقيا الغامضه التي حذر منها السلف (١) ٠

وقد أعتبر بعض الباحثين تمسك الشيخ ماء العينيين بهذا الفن واعتباره سلاحاً ما ناله من اعتقاد العامة فيه (وتصريفه فى الارواح) (٢) والوجاهة عند الخاصة بكتابته لها الاحراز والجداول (٣) ٠

وقد طبعت مؤلفاته في هذا الفن أكثر من غيرها من المؤلفات النافعة لما يجد فيها أهل الصوفية وكتاب التمائم من أنواع أسلحتهم التي يصطادون بها (٤) ٠

وعندي أنه لولا هذا الخلط عند هذا الشيخ لظل منتصرا على الأعداء ، ولتحقق له ما كانوا يخشونه من قيام دولة مرابطية ثانية بعد ألف عام على ما تقدم ٠ ومع هذا كله فإن هذا الشيخ قد اعتبره البعض من المحسوبين في العلماء الذين جددوا دعوة السلف بالرجوع إلى الكتاب والسنه ونبذ ما خالفهما فى العقيدة والسلوك والسياسه (٥) ٠

وفاته : توفي الشيخ ماء العينيين رحمه الله في تيزنيت بالمغرب سنة ١٣٢٨ هـ (٦)

---

(١) نعت البدايات وفاتق الرتق على رائق الفتق المطبوع بحاشيته ص ٢٤٠ و ٢٦٤ ٠

(٢) المعسول ص ٩١٤ . ٩٢ والمساهمة فى إبراز الادوار الفكرية ص ٥٢ وما بعدها ٠

(٣) المعسول نفسه ص ٨٧ . وما بعدها ٠

(٤) مساهمة في إبراز الاداور الفكريه ص ٥٣ . ٥٤ والدعوة إلى الاسلام الأرنولدص ٣٦٥ ٠

(٥) الفكر السلفى عند الشيخ ماء العينيين وأثره في مواجهة المستعمر بحث ضمن كتاب ندوة الحركه السلفية في المغرب ٠

(٦) المعسول جـ ٤ ص ٩٨ . ٩٩ ٠

ترجمة الشيخ سعد أبيه :

هو : (سعد بوه) بن محمد فاضل بن مامين القلقمي إلى آخر النسب المتقدم ولد في الحوض الشرقي الموريتاني •

وأرسله والده بعد تصديره إلى منطقة القبلة وهي منطقة علم ، ولما لم يكن معروفا عن الشيخ سعد أبيه أنه صاحب علم كبير يرسل إلى بئة علمية ليعلمها قال :

والده ردا على هذه الملاحظة بقوله ليتعلم منهم (١)

ويقول عنه كاتب سيرته وحياته إنه هاجر من مسقط رأسه الحوض برسم التربيه للقلوب وهداية الناس •••) (٢)

وأنه لما ظهرت على يديه بعض الخوارق اعتبرها علماء المنطقة من باب الدجل والشعوذة وكلموا الأمير في إحضاره لمحاكمته أو قتله فاعتذر عن قتله لأنه ابن ولي مشهور ، ثم أحضره لهم وناظروه (٣) وأنه أظهرلهم أن ما عنده من العلوم لاصلة له بالسحر والدجل (٤) • والواقع أنه يفتخر بمعرفة علوم وأسرار الأسماء الحسنى وغيرها وأنها لو تليت على جبل لذاب أو على ظالم لمات من حينه أوزال عقله أو أبتلعته الارض••• والذي يمنعه من تسجيلها في مؤلف إنما هو حفاظا على السر وكتما له (٥) •

وهو في هذا أكثر امتثالا لتعاليم الصوفية من أخيه الشيخ ماء العينيين الذي نشركما تقدم عنه علوم الجداول والأسرار •

وقد أثنى (المسيوغا سطون دونه) (٦) الفرنسي في رحلته إلى جنوب الصحراء على الشيخ سعد أبيه فقال :

---

(١) بلاد شنقيط ص ١٢٢ •

(٢) حياة الشيخ سعد أبيه محمد يصلح بن الامانة ص ٣٨ ـ ٣٩ •

(٣) المحاضر الموريتانية الصوفى بن محمد ص ٨٧ •

(٤) حياة الشيخ سعد ابيه ص ٤٠ •

(٥) كشف اللبس عن المسائل الخمس مخطوط للشيخ سعد ابيه ص ١٢ ـ ١٣ •

(٦) حاضر العالم الاسلامى ج ٣ ص ٥١ و ٥٣ ـ ٥٤ •

(والشيخ سعد أبيه أصله من الحوض ، لكنه من ثلاثين سنة مقيم في تاسيست وهو رجل محمود السيرة وكان قد أنقذ الفرنسي (بول سليليه) من أولاد دليم ولذلك كسب اسما حسنا عند الافرنج ٠ وهو يسكن في بيت من الحجر لا في مضارب وبركغيره ، ويجلس على كرسي لا على الأرض ويقرأ القرآن ويفسره) (١) ٠

وقد استغل المستعمر نفوذه وميله إلى المسالمة (٢) فاستدعوه إلى مركزهم وأروه أنهم لا محالة داخلون إلى بلاد موريتانيا وأقنعوه بتوقيع شروط الدخول وكانت في الظاهر شروطا منه عليهم لصالح أهل البلاد (٣)

وقد لقيت موافقته هذه معارضة كبيرة من الفقهاء فشنعوا عليه (٤) حتى اتهم بالميل إلى الكفار ، الامر الذي أغضبه كثيرا وتبرأ منه ودعا على من اتهمه بذلك بالوقوع في نفس ماظنه به (٥) ٠

وقد وصلت حصرته من بعده إلى نوع من العناية بجباية الأموال والزيارات لمراكز الأتباع في غرب إفريقيا مما جعل أحد المشاهدين الفرنسيين لواقعها أن يقول فيها : (ولدى أهل سعد بوه نجد أن القدر المترعة قد حلت مكان كل روحية صوفية وكل سمو في القلب (٦) ٠

وقد ذكر له تلاميذ ومصدرون كثيرون في البلاد وخارجها (٧) قال عنه الخليل النحوي : (إنه من أعيان البلد وأحد مشايخ الطريقة القادرية البارزين) (٨) وتوفي سنة ١٣٣٥ هـ رحمه الله ٠

---

(١) حاضر العالم الاسلامى جـ ٣ ص ٥١ و ٥٣ . ٥٤ ٠

(٢) نفسه جـ ١ ، ٢ ص ٣٢٠ ٠

(٣) حياة الشيخ سعد أبيه ص ٤٩ . ٥٤ ٠

(٤) بلاد شنقيط ص ٣٣١ ٠

(٥) حياة الشيخ سعد ابيه ص ٥١ ٠

(٦) دراسات عن الاسلام في غرب إفريقيا ص ١٢٠ . ١٢١ ٠

(٧) حياة الشيخ سعد أبيه ص ٤٥ . ٤٩ ٠

(٨) بلاد شنقيط ٥١٥ ٠

ترجمة الشيخ التراد بن العباس القلقمي :

هو الشيخ التراد (محمد فاضل) بن العباس بن الحضرامي بن الشيخ محمد فاضل ابن ما مين (١) إلى آخر سلسلة النسب المتقدمة .

ولد حوالى ١٣٠٦ هـ بموضع يسمى (أرى) في الحوض الشرقي قرب النعمة .

وأخذ كثيرا من العلم عن أخواله (أهل امبالة) حتى قرأ القرآن الكريم بالسبع .

يقول كاتب سيرته : (حفظ الشيخ التراد القرآن الكريم في سن مبكرة على خاله محمد المختار بن امباله ، كما درس عليه ما شاء الله من العلوم الأخرى كالفقه والعقائد والسنة والأصول والنحو والبيان والبديع والمعاني) (٢) فهو في واقع حاله ومن خلال إنتاجه الشعري والنثري يمكن أن يحكم له أنه شخصية موسوعية (٣) .

وكانت له رحلة في دول إفريقيا تعرف من خلالها على كثير من الشيوخ والمراكز الاستعمارية الفرنسية ، واعتقلته السلطات الفرنسية في ظروف أمنية في غنيا (٤) .

ثم عاد إلى بلاده وصحب عمه الشيخ سعد ابيه المترجم قبله وأكثر عليه من الأوراد والخدمة إلى أن صدره في الطريقة القادرية الفاضلية وأثنى عليه حتى رفعه فوق نفسه وفوق أخيه الشيخ ماء العينيين وكانت مدة صحبته له ثلاث سنوات (٥) .

وقد طاف الشيخ التراد في بلاد موريتانيا وتمركز في ثلاث مناطق منها وحصل له قبول كبير عند الناس وتبعه كثير من الزوايا (أهل العلم) وتاب على يديه كثير من أهل الحرابة والفجور (٦) وانتشرت طريقته وأتباعه خارج حدود موريتانيا ونافست ما كان قبلها من الطرق .

---

(١) نيل المراد من كلام الشيخ التراد المقدمة بقلم الاساذ : محمدبن احمدناه ط٢ انواكشوط (ص ج) .

(٢) نفسه حرف (ص ج) .

(٣) نفسه (ص ج . د) .

(٤) نفسه (ص ج . د) .

(٥) نفسه (ص د . و) .

(٦) بلاد شنقيط ص ٢٦٧ ونيل المراد (ص ز . ح) .

فمن المناطق التي استقر فيها الشيخ التراد منطقة الرقيبة ومميل وآفوينيت وقد غلب على أصحابه في منطقة الرقيبة كثرة الذكر الجهري والشطح والذهول حتى إنه مات منهم في يوم واحد مأتان وسبعون شخصا في مكان يسمى (بالحراج) في الجنوب الموريتاني .

وغلب على أصحابه في مميل الانقطاع والزهد وكثرة العبادة حيث إنه لاصلة لهم بالناس .

أما أصحابه في آفوينيت فإنهم يوصفون بالاعتدال (١) . ويرجع ذلك فيما يؤخذ من أحوال هذا الشيخ وهذه المناطق أن المنطقة الأولى لم تكن بيئة علم وكان الشيخ نفسه مصدرا حديثا فارهقهم بكثيرة الذكر والعبادة والأوراد حتى هلكوا فلم يقووا على تحمل مكابدة المجاهدات والرياضيات .

أما أصحابه في المنطقة التي استقر فيها أخيرا فإن غالبية من صحبه فيها كان من طلاب العلم كما يعرف من خلال أسماء المصدرين عنه في هذه الفترة (٢) يضاف إلى ذلك ازديادخبرة هذا الشيخ بالسياسة السلوكية وإقباله على مراجعة العلوم الشرعية وعرض ما يعن له عليها كما يؤخذ من رسائله وأوراده التي كتبها لأصحابه (٣) .

وينقل عنه بالتواترأنه مامات حتى أصبح ينكر كثيرا مما كانت عليه الصوفية في بلاده ويحث على اتباع السنة ويناقش مريديه في ذلك حتى يعقلوا عنه ، وله في ذلك قصيدة سماها تصفية الطريق (٤) منها :

(ولا تقل في شدة وكربه ياسيدي وشيخنا وحزبه) (٥) .

---

(١) نيل المراد (ص ز . ح) .

(٢) نفسه (ص ح) .

(٣) نفسه ص ١ . ٢ .

(٤) مقابلات أجريتها في انواكشوط يوم الاحد ٢٨ / ٨ / ١٤١٠ هـ .

(٥) نيل المراد ص ٤٩ وما بعدها .

ولذا وصفه احد الباحثين : (بأنه كان من المصلحين للطرق الصوفية والداعين إلى التمسك بالكتاب والسنه) (١) ٠

على أنه في بعض فترات جاءه جذب وشطح صدر منه أثناء ذلك بيتان من الشعر جلبا عليه ردا عنيفا وصل ببعضهم إلى أن حكم على طريقته بالكفر مساويا لها بالتيجانية ٠

والبيتان هما :

أحطت بعرش الله والكون مشهدا وشاهدت ما قد كان من ذاك أبعدا

وإياك لا تنكر مقالة صادق تبدت له الأسماء لما تجردا (٢)

وممن رد عليه في ذلك من الفقهاء سيدي بن عبد الجليل الملقب سيدي بن حين فقال :

(طائفة التراد والتجاني أكفر من فرعون والشيطان

وغيرهم من فرق الأوراد طوائف البلع والازدراد) (٣)

وقد رد هو على هذا الفقيه بأبيات من الدعاء له بالهداية والصلاح والتعفف عن شتمه أو شتم غيره الأمر الذي جعل الفقيه يرجع ثانية ويثنى عليه خيرا ٠ قلت : ولا يفهم من هذا ان التشنيع على أهل البدع يعتبر شتما أو غيبة ٠ وكتب رسالة على سبيل التوضيح لما قصد فى البيتين سماها :

إزالة الرين عن معنى البيتين (٤) ٠

ويفهم من بعض النصوص أنه كان له صلة وثيقة بالمستعمر الفرنسي حيث كانوا يتلقون منه بعض النصح والارشاد في سياسة البلاد ، وردا على ذلك الجميل فقد نظموا له رحلة إلى الديار المقدسة للحج سنة ١٣٦٤ هـ (٥) ٠

---

(١) نفسه ص ٥٠ وسيأتي عنه فى فصل الصحوة السلفية في الطريقة القادرية ما يدل على المذكور عنه هنا ٠

(٢) المحاضر الموريتانية محمد الصوفى ص ٢٤٨ ٠

(٣) رسالة في الرد على محمد عبد الله بن آد مخطوطة ص٤ ونيل المراد (ص ح . ط) ٠

(٤) نيل المراد ص ٣٩ ٠

(٥) نيل المراد (ص ي) ٠

آثاره ووفاته رحمه الله

واقع أمر الشيخ التراد هو أنه مامات حتى أصبح سنيا متبعا وكذا حال غالب المصدرين عنه في آخر عمره .

وهذه من أهم الآثار - يضاف إلى ذلك أنه ترك حضرة كبيرة قد وفر لها وسائل الاستمرار بتكوين الرجال وغرس النخيل واستصلاح الاراضى .

هذا بالاضافه إلى محضرة علمية متكاملة تدعمها مكتبة كبيرة .

وقد صدر عنه كثير من شيوخ العلم والصوفية وكان لمعظمهم محاضر علم أثرت

المسيرة العلمية في البلاد ، ذكر منهم كاتب سيرته أحد عشر شخصا كما ذكر من مؤلفاته ثلاثة عشر مؤلفا معظمها في التصوف والذى اعتبره الخليل النحوى من أبرز أئمة التأليف فيه وذكر له خمسة عشر مؤلفا .

وتـــوفي إثر عودته من الحج في دكار ودفن فيه يوم السبت ١٧ من محرم سنه ١٣٦٥ هـ عن ستين عاما وبضعة أشهر .

ترجمة الشيخ أحمد أبو المعالي

هو الشيخ أحمد أبو المعالي ابن الشيخ الحضرمي التقاطي (١) ٠

عرفه ضمن الصادرين عن الشيخ سعد أبيه محمد يصلح بن الامانة فقال : هو كوكب أهل بلدته عالم نحرير وولي كامل صدر عنه الكثير من المشايخ وهدى الله على يده الكثير من خلقه (٢) ٠

وقد درس شخصيته محمد يحيى بن الشيخ محمد الحابوس في رسالة تخرج بها من المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية في أنواكشوط عام ١٤٠٤ هـ (٣) ٠

ويعد بحثه مثل بحوث كثيرين كتبو عن شيوخهم في نفس المعهد وغيره من المراكز العلمية في انواكشوط ضمن كتب المناقب وكتابات المريدين عن شيوخهم إلا أنهم بجمعهم الكثير من المعلومات وترتيبها وتدوينها أفادوا الباحثين حيث إنه كانت في البلاد شخصيات مهمة لها أثر كبير في المجتمع كانوا منسبيين لولا كتاباتهم إذ قام طلاب المعهد بمهمة التعريف بهم في شكل بحوث تخرجوا بها من المعهد المذكور ومعهد ابن عباس ومدرسة الأساتذة وجامعة انواكشوط فيما بعد ٠ ولعل الكثير منهم على مكانتهم العلمية العالية لم يدرس شيئا عن مناهج البحث والنقد والتقويم ، يضاف إلى ذلك غلبة البيئة والمجاملات عليهم ٠

ولعله يأتي بعدهم من له خبرة بالعرض والدراسة فيقوم ما جمعوه إذا تخلى عن بعض المجاملات الزايدة وطلب الحق بإنصاف ٠

ولا نقصد بهذا القدح في مكانة هذا الشيخ فإنه عالم جليل وقائد لمنطقته في السياسة والتوجيه ، وقد أحيا الله به تلك المنطقة التي كاد العلم أن ينحسر عنها وقد صدر عنه الكثير من الناس (٤) وله مؤلفات عديدة (ولم تزل حضرته قائمة بقيادة خليفته محمد المصطفى) (٥) وفاته رحمه الله :

---

(١) بلاد شنقيط ص ١٢٢ ٠

(٢) حياة الشيخ سعد أبيه ص ٤٥ ٠

(٣) شخصية الشيخ أحمد ابن المعالي رقم ٦٩ ٠

(٤) نفسه ص ١٩ -٢٢ ٠

(٥) نفسه ص ٢٣ - ٣٢

ترجمة الشيخ عبد الله بن داداه :

ولد الشيخ عبد الله بن داداه سنه ١٣٢٤ هـ (١) .

ونشأ في وسط علمي وكان موصوفا بالذكاء فأخذ عن أبيه علوما كثيرة (٢) وأخذ عن العلامة يحظيه بن عبد الودود علوم اللغة (٣) ثم جلس للتدريس فى محضرة أبيه (٤) ثم رحل إلى الشيخ التراد السالف الذكر وصحبه ثلاثة أشهر فصدره في الطريقة القادريــة آمرا له بالاكثار من ذكــر الله جهــــرا وسرا وخاصة الهيللة : (لا إله إلا اللـــه) (٥) .

ولعله في سفره وصحبته له لم يستشر أباه حيث إنه أرسل رسالة يطلب من الشيخ التراد أن يسمح له بالتوجه إليه فبادر باجابته لذلك (٦) .

وكانت صحبة الشيخ عبد الله للشيخ التراد في آخر زمنه الذي ذكرسابقا أنه تحول فيه إلى اعتماد الكتاب والسنة في الدعوة والسلوك وترك ما خالفهما وإن كان عليه الآباء والاشياخ فأخذ عنه عبد الله هذه الميزة ودعمها بالعلم وأخذ في محاربة البدع في محيطه ، وحصلت له بسبب ذلك عداوات ، لم تثنه فيمايبدوعن منهجه (٧) ولما حج جالس الشيخ محمد الامين الشنقطي صاحب أضواء البيان ، ورجع راضيا عنه وعن منهجه في العقيدة (٨) .

---

(١) حياة الداعية إلى الله في موريتانيا ، الشيخ عبدالله بن داداه ، بحث أعده عبد الله سراج في المعهد العالي لاعداد الائمة والدعاة في مكة المكرمة عام ١٤٠٨ هـ

(٢) نفسه ص ١ .

(٣) نفسه ص ١ .

(٤) نفسه ص٣ .

(٥) نفسه ص ٣ . ٤ .

(٦) ملف الرحلة ص١٦ .

(٧) حياته ص ٤ ، ٦ ، ٨

(٨) نفسه ص ٦ والرحله ص ١٥ .

ويظهر لي مما سمعته وقرأته عن حياته أنه كان يسير في طريق الدعوة إلى الله على منهج السلف الصالح ولم يمنعه من التشدد في ذلك إلا ما ظهر له من بوادر الفتن التى يبعثها شيوخ الصوفية في جهتة ٠ (١)

وللشيخ عبد الله مؤلفات صغيرة أهمها نظم في الذكر يرجح فيه حواز الذكر بالجهر بشروط (٢) ٠ وفتاوى مخطوطة في مسائل متفرقة يجنح فيها غالبا إلى الدليل، وله اتباع يشهد الناس لهم بالتقيد بالسنة ٠

ومـن قابلتـه منهـم لا أحسبه من الصوفية الحالية (٣) وتوفي سنـة ١٣٩٤هـ

---

(١) الرحلة ص ١٥ ـ ١٧ ٠

(٢) نفسه وحياته ص ١٤ ـ ١٦ ٠

(٣) والرحلة ص ١٧ وحياته ص ٢٠ ٠

المبحث الثالث

أهم مؤلفات : القادرية في التصوف

تمهيد : جاء التأليف في بلاد موريتانيا متأخرا تسبيا بالمقارنة والنظر إلى البلاد المغربية المجاورة وبالنظر إلى انتشار العلم وكثرة العلماء في البلاد والعناية باستجلاب الكتب واستنساخها .

ولذلك التأخر أسباب عديدة منها كما يقول صاحب الوسيط : (عدم عجبهم بأنفسهم ، وعدم احتقارهم لمن قبلهم) (١) ومنها البعد عن الحواضر المنتجة للورق (٢) وكثرة الترحال والاعتماد على الحفظ واعتباره هو العلم الذي يسعف صاحبه أينما حل ولذا كان التأليف في بداية أمره لا يقدم عليه الافطاحلة العلماء ، وعندما تظهر حاجة ماسة له كالنوازل الكبيرة أو ظهور دعوات بدعية ظاهرة أوورود أسئلة على العالم من جهة مهمة فهذه من أهم مصوغات الشروع في التأليف عندهم .

وكان لشيوخ الطرق الصوفية السبق في مجال التأليف نشرا لما عندهم أو ردا على من اعترض عليهم ، فكتبوا في التصوف والاخلاق والآداب الاجتماعية .

وقد ذكر الخليل النحوى أن جل نتاجهم كان في القرن الرابع عشر الهجري وأن لهم في هذه الميادين بنحوا من ٣٠٠ مصنف (٣) .

ويتناول هذا المبحث كتابين لأهم مشايخ الطرق الصوفية في موريتانيا أحدهما للمختار الكنتي ، وقد اختير لما لصاحبه من مكانة لدى الصوفيه في إفريقيا عموما . والثانى للشيخ ماء العينيين وقد اختير أيضا لما لصاحبه من مكانه كبيرة لدى الصوفية في موريتانيا والمغرب ، ولاعتباره أيضا أهم شارح للفاضلية (٤) .

---

(١) الوسيط ص ٥٧٨ .

(٢) بلاد شنقيط ص ٢٣٤ . وما بعدها .

(٣) نفسه ص ٢٤١ .

(٤) شعراء مورتنيا القدماء والمحدثون ص ٣٣٩ .

الكتاب الاول

الكوكب الوقاد في فضائل المشايخ وأصول الأوراد (١) أو الكوكب الوقاد في ذكر فضائل المشايخ وحقائق الأوراد (٢) ٠

ألف الشيخ المختار الكنتي هذا الكتاب جوابا لأسئلة وردت عليه من شخص يظهر من خلال أسئلته أنه على جانب من العلم ، ولكن لعلة سأل مختبرا للشيخ وطالبا منه بيان موقفه في بعض المسائل المتعلقه بالبيعة للمشايخ والأوراد وأوقات أدائها وقضائها والتيمم لها وقصرها في حالة السفر وغيره من الاشغال الأخرى وتوجيه المراد من بعض الألفاظ في أدعية بعض المشايخ ٠ وتزيد الأسئلة على العشرة وهي :

١) ما هو أصل الورود ؟ وهل هو متلقى من تلقاء الإلهام الذي تلهمه الأولياء أوله مستند إلى الوحي الذي يختص به الأنبياء ؟ (٣) ٠

٢) ما الاصل في تسمية المشايخ أدعيتهم وتوجهاتهم بالاحزاب ؟ (٤) ٠

٣) وما الحكمة في الوقف على قوله سبحانه وتعالى ﴿ وكذلك زين ٠٠ ﴾ قبل تمام الآية ؟

٤) وهل للمسافر إذا جد به السير أن يقصر الأوراد المذكورة ٠ (٦) ؟

٥) وهل لمن عدم الماء وكان حاضرا صحيحا التيمم لركعات الورد كالفرائض ٠ (٧)

---

(١) هذا هو عنوان غلاف الكتاب الذى طبع به في دكار سنة ١٣٩٢ هـ ٠

(٢) وهذا هو العنوان الذي وضعه له مؤلفه المختار الكنتي . ص ١٧٠ من نفس الطبعة ويقول عنه ناشره إن من حقة أن يسمى بأسماء عديدة ص ١٧١ منه ٠

(٣) نفسه ص ١ ٠

(٤) نفسه ص ٣٠ ٠

(٥) ﴿ وكذلك زين ﴾ نفسه ص ١٢٧ وهذا جزء من الآية ١٢٢ من سورة الأنعام ٠ وسيأتي إن شاء الله مناقشة هذا الوقف في مبحث : دعاء سيف الحكماء في الورد القادري في باب السلوكيات والعبادات ٠

(٦) نفسه ٠

(٧) نفسه ٠

٦) وهل لمن خاف إن أخر تهجده إلى آخر الليل أن تغلبه عيناه أن يقدم تهجده في أول الليل ؟ (١)

٧) وهل على من فاته وقت الورد إعادته أم لا ؟ (٢)

٨) وهل من زاد على العدد المعروف كقراءة سورة الكوثر مثلا سبعا أو نحوها أو نقص قراءتها خمسا ونحوها ناسيا الاعادة في الصلاة إن تذكر قبل الفراغ منها ؟ (٣) ٠

٩) وهل ما عمت به البلوى من صلاة الصلوات الخمس آخر يوم الجمعة من رمضان له أصل أم لا ؟ (٤)

١٠) وهل الاحاديث التي قد اعتاد الناس سردها على العام والخاص يذكرون فيها أنه صلى الله عليه وسلم قال : (من صلى في كل يوم من رمضان أو في كل ليلة منه إلى آخره كذا من الركعات كان له كذا وكذا من الأجر موضوعة أم لا ؟ (٥) ٠

هذه نصوص أسئلة السائل التي بنى المختار الكنتي عليها تأليفه لهذا الكتاب الذي شرح فيه البيعة ومأخذها والأوراد ومصادرها (٦) وخصائصها وأوقاتها (٧) وما يتصل بذلك من آداب مع المشايخ وذويهم ٠ (٨)

ومحل عرض ذلك ونقده في الباب المخصص له إن شاء الله تعالى وسيتبين هناك إن شاء الله مدى صحة أجوبة الشيخ على هذه الأسئلة وغيرها مماله صلة بموضوع النقد من البحث ، ولم نعثر على تاريخ تأليف هذا الكتاب حتى نبحث هل رجع المؤلف عن بعض ما فيه من الأقوال والآداب الصوفية على أنه يكفي في عدم رجوعه عما فيه ماتقدم من عرض موجز لكتابه جذوة الأنوار الذي ألفه للدفاع عن الصوفية وآدابها وهو من آخر مؤلفاته ٠

(١-٢) نفسه ٠

(٣) نفسه ص ١٢٧ . ١٢٨ ٠

(٤-٥) نفسه ص١٣٩ - ١٤٠ ٠

(٦) نفسه ص٢٣ . ٢٥ ٠

(٧) نفسه ص ١ ، ١١ . ٢٨ ٠

(٨) نفسه ص ٣٠ . ١٢٧ و ١٥٠ . ١٢٦ ٠

الكتاب الثانى :

عنوانه : نعت البدايات وتوصيف النهايات (١)

هذا هو العنوان العام للكتاب الذي وضعه له مؤلفه وطبع به ٠

وقد يبين المؤلف في خطته أنه يتألف من كتابين هما :

١) نعت البدايات وما يصلح لأهلها إلى النهايات (٢)

٢) توصيف النهايات وما يصلح لأهلها إلى الممات (٣) وفى كل كتاب أربعة أبواب

قال المؤلف : (فصارت كأبواب الجنه الثمانية ٠٠) (٤)

وقد أخذ الكتاب الاول بابوابه الأربعة ما يزيد على ستين صفحة (٥)

الباب الاول منه : آداب المريد مع شيخه وما يصلح له معه إلى تمام رسخه (٦)

الباب الثاني منه : في آدابه مع عبادة ربه (٧) ويلاحظ تقديم آدابه مع شيخه في الكتاب على آدابه مع عبادة ربه ٠

الباب الثالث : في آدابه مع إخوانه الذين هم على مراده من أعوانه (٨) ٠

الباب الرابع : فيما من الأقوال والافعال ينتفع به ٠ (٩)

---

(١) طبع الكتاب في المطبعة الجديدة بفاس سنة ١٣١٢ ونشرته دار الفكر بعد ذلك ٠

(٢) نفسه ص ٤ ٠

(٣) نفسه ص ٤ و ٦٩ وما بعدها ٠

(٤) نفسه ص ٤ ٠

(٥) نفسه ص ٤ . ٦٩ ٠

(٦) نفسه ص ٤ . ١٤ ٠

(٧) نفسه ص ١٤ . ٢٠ ٠

(٨) نفسه ص٢١ . ٣٨ ٠

(٩) نفسه ص ٣٨ . ٦٩ ٠

أما الكتاب الثاني : فقد أخذ جزء كبيرا من الكتاب يصل إلى مائة صفحة (١)

الباب الاول : في آداب المربي مع ربه (٢)

البا ب الثاني : في آدابه مع تلامذته (٣)

الباب الثالث : في آدابه مع غيرهم من الخلق (٤)

الباب الرابع : فيما من الأقوال والافعال ينتفع به (٥)

وقد استخدم المؤلف في كتابه هذا ما يزيد على أربعين مرجعا مما يؤكد ما سبـق أنه كان يملك خزانة كبيرة من الكتب . ومن هذه المراجع كتب العزالي والبوني (٦) وغيرهما من مؤلفات الصوفيه التس تتضمن كثيرا من غرائب العلوم والاسرار وشحن المؤلف كتابه بمثل هذه الأمور .

فأخذ عن البوني كلامه في أسماء الله الحسنى وخصائص كل اسم منها (٧) وضم إلى ذلك بعض التجارب والأدعية والصلوات للحفظ أو الرزق أو غير ذلك ما يزين به بعض الصوفية كتبهم لدى العامة من الناس وكأن الهدف من عبادة الله هو جلب الأرزاق والحفظ من العين والوجاهة عند الناس . (٨)

---

(١) نفسه ص ٦٩ . ١٧٥ .

(٢) نفسه ص ٦٩ . ٨٦ .

(٣) نفسه ص ٨٦ . ١٢٢ .

(٤) نفسه ص ١٢٢ . ١٤٥ .

(٥) نفسه ص ١٤٥ . ٢٨٦ .

(٦) البنوي نسبة إلى بونة بإفريقية ، على الساحل . وهو أحمد بن علي بن يوسف ، أبو العباس الونبي المتوفي في القاهرة سنة ٦٢٢ هـ له مصنفات في الحروف واسرارها والتصوف وغايته . اعلام جـ ١ ص ١٤٧ .

(٧) نعت البدايات وتوصيف النهايات ص ١٧٥ . ١٨١ .

(٨) نفسه ص ١٢٨ . ٢٠٨ .

وكتب من الأحراز والرقى التي قال بأنها من وسائل خير الدنيا والآخرة ، وأن اعتماده فيها على حروف القرآن (١) واتبع ذلك بخصائص لسور القرآن الكريم (٢) .

ومع ما تضمنه الكتاب من أمور لا يليق بالعلماء ذكرها ونشرها مما ذكر فإن في الكتاب من الآيات والأحاديث والآداب النبوية والسلوك الشرعي السنيى الكثير الذي لو أخذه ناصح لهذا الشيخ وأفرده عما حذر الشيخ نفسه من تعليمه للسفهاء أو استخدامه فيما لا يجوز لجاء كتابا نافعا بإذن الله تعالى .

قال المؤلف : وكان الفراغ من تأليفه عند أذان العصر من يوم الثالث والعشرين من شهر الله ربيع الثاني الذي هو أحد شهور سنة ثلاثمائة من بعد الألف) (٣) .

قلت : وقد عاش المؤلف رحمه الله تعالى بعد هذا التاريخ بنحو ثمانية وعشرين عاما فيا ليته رجع فيها عما نشره في هذا الكتاب .

والله أعلم .

---

(١) نفسه ص٢٠٨ . ٢٨٨ .

(٢) نفسه ص ٢٧٧ . ٢٧٨

(٣) نفسه ص ٢٧٨ .

الباب الثاني

الباب الثاني

عقائدهم

ويشتمل على خمسة فصول بعد تمهيد

الفصل الأول

منهجهم الفكري وفيه مباحث

المبحث الأول : موقفهم من التأويل

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : موقفهم من تأويل المتكلمين

المطلب الثاني : موقفهم من تأويل الباطنيين

المبحث الثاني : موقفهم من العقل والعلم

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : موقفهم من العقل

المطلب الثاني : موقفهم من العلم

المبحث الثالث : موقفهم من الجهاد في سبيل الله

وفيه مطلبان بعد تمهيد يبن الموقف العام للقادرية من الجهاد عموما ٠

المطلب الأول : موقف القادرية من الجهاد قبل الاستعمار الفرنسي سنة ١٩٠٠ م ٠

المطللب الثانى : موقف القادرية من جهاد المستعمرين النصارى ٠

تمهيد :

المستعرض لكلام القادرية في باب العقائد لا يجد لهم كلاما كثيرا ، ويجدهم في باب الاسماء والصفات إذا تكلموا فيها كانوا أقرب إلى منهج السلف من غالبية الأشاعرة الذين يفرقون بين صفات الله تعالى (١) ٠

وقد تقدم بيان شيخ الاسلام ابن تيمية لعقائد أئمة الصوفية كالشيخ عبد القادر في رده على القشيري وشيخه ابن فورك فوضح أنهم ليسوا بأشاعرة ولا كلابية كما ذهب إليه القشيري في رسالته (٢) ٠

ولكن هؤلاء ينتسبون للأشعرية ويدافعون عنها ويمجدون كلام المتأخرين منهم ، ويدرسون عقائد السنوسي ويثنون عليها ويدرسون نظم المقري لها ، وكل من المؤلف والناظم قسم صفات الباري جل وعلا إلى صفات نفسية وسلبية ، ومعاني ومعنوية وما بينا فيهما ، وتكلما عن التعلق ، وبحثا في الأمر والارادة والرضا والمحبة (٣) على ما تقدم ومذهب المتأخرين من الأشعرية في هذا التقسيم والقول بالتأويل أو التفويض في قسم دون قسم مخالف لمذهب السلف الصالح ٠ (٤)

---

* سيأتي إن شاء الله عرض ونقد ما جاء في هذا التمهيد في الفصول الآتية ٠

(١) الكوكب الوقاد ص ٥٠ - ٥٨ وما بعدها ، والطرائف ص ١٠٥ - ١٠٦ وما بعدها ، والشموس الاحمدية ص ٢ - ٣ وجنة المريدص٣٠ - ٣١ والضياء المستبين ص ٢٨١ وغيرها ٠ ومجموع الفتاوى جـ ٦ / ص ٥١ وما بعدها ٠

(٢) الاستقامة جـ ١ / ص ٨١ وما بعدها ٠

(٣) إضاءة الدجنة - مصدر سابق ص ٢٠ - ٤٥ وأم البراهين للسنوسي - بيروت ص ١٠ - ٢٠ وسبق بيان معانيها ٠ وجذوة الأنوارص ٢٠ وما بعدها ، وهداية الطلاب المقدمة ص ٢ ونيل المراد ص ٤٧ ٠

(٤) مجموع الفتاوى جـ ٤ / ص ٦ وما بعدها ٠

وقد نشأ شيوخ القادرية على مثل هذه الكتب وألف بعضهم على منوالها (١) مع تصريحهم بذم طريقة أهل الكلام وذم علومهم (٢) •

والمستعرض كذلك لكتبهم في باب علوم الصوفية ومعتقداتها يجد أنهم مسلمون بتراث الصوفية ويدعون إلى أن يسلم لهم حالهم •

ويعتذرون عن أئمة غلاة الصوفية كالحلاج وابن عربي ويلتمسون لهم المخارج (٣) مع أن صاحب الاضاءة حكى أقوال الناس في الحكم عليهم ومنها : أن أمثال المذكورين لايقرون على شطحاتهم ، وأنهم يحملون على ظاهر الشرع ، ولا يقتدى بهم في شيء من كلامهم ذلك • (٤)

وقد غرسوا في أتباعهم ونشروا في مجتمعهم تقديس الأضرحة وأصحاب القبور بالمجاورة عندها والذبح والاهداء إلى أصحابها والاشعار والاخبار عن الاعتقاد فيها وطلب جلب النفع ودفع الضر من أصحابها (٥) •

وأدخلوا في علومهم وعلى بيئتهم علوم أسرار الحروف والاوفاق والاسماء الأعجمية والطلسمات الأخرى مع إدعاء التصرف في الكون وغير ذلك مما يقوى الاعتقاد في المخلوق دون الخالق (٦) • والذي يريد حكما عاما جاز ما فلا شك أن الأدلة واضحة في الحكم بالكفر على معتقد هذه العقائد ولكن من رام التفصيل مثلي فله ذلك على ما سيأتي إن شاء الله •

---

(١) الشموس الاحمدية ص ٢ . ٣ •

(٢) جذوة الأنوار ص ٢٠ . ٢٧ والطرائف ص ٢٨٠ . ٢٨٢ وغيرها منه والضياء ص ٢١٠ وجنة المريد ص ٣١ •

(٣) جذوة الأنوار بكاملها فإنها ما ألفت إلا من أجل ذلك •

جذوة الانوار ص ٣٢ . وما بعدها والطرائف ص ٦٩ . ١٥٨ والضياء ص ١٣٣ . ١٣٧ وغيرها وجنة المريد ص ١٤٨ وغيرها •

(٤) إضاء الدجنة ص ٢٨ . ٢٩ •

(٥) الكوكب الوقاد ص٤١ وغيرها والمنة ص٢٩ . ٥٠ والضياء ص ٢٨١ . ٢٨٢ و ٣٣٢ وغيرها .

(٦) جنة المريد ص و ١٥٢ . ١٥٣ وغيرها والطرائف ص ٢٨٤ . ٣٠١ وكشف اللبس عن المسائل الخمس ص ١٢ . ١٣ وشرح رشد الغافل للشيخ سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم ط ١ مصر ١٣٥٥ هـ ص ٧ . ٣١ •

المبحث الأول

موقفهم من التأويل : ويتناول إن شاء الله موقفهم من التأويل في مطلبين أحدهما موقفهم من تأويل المتكلمين وثانيهما : موقفهم من تأويل الصوفية ٠

المطلب الأول : موقفهم من تأويل المتكلمين والمراد بالتأويل هنا هو ما اصطلح عليه أكثر المتأخرين من المتكلمين (١) الذي هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح ، لدليل يقترن به (٢) ٠

ونتج عن هذا المنهج في التأويل عند المتأخرين منهم التفريق بين نصوص الصفات فكان منهم من قال بتعين هذا النوع من التأويل في بعضها أو التفويض فيه وأن التفويض هو مذهب السلف ٠

ولكن معنى التفويض أيضا مختلف فيه ، فمنهم من يجزم بأن المعنى الظاهر من النص غير مراد ، وأن المقصود معنى آخر لانعلمه والواجب التفويض فيه ٠ ومنهم من قال تحمل على ظاهرها وهذا الظاهر لايعلمه إلا الله ٠

وقد اعتبر شيخ الاسلام ابن تيمية هذا منهم تناقضا ورد كون التفويض بهذا المعنى المتقدم منهج السلف واعتبره من باب التجهيل للسلف رضوان الله عليهم (٣) ٠

والسبب في هذا التناقض هو التفريق بين نصوص الوحي في أمر لايعرف إلا بالوحي ، وخلط المشكل والمتشابه بما ليس بمشكل ولا بمتشابه وبما أن القادرية يعتبرون كما تقدم من الاشاعرة ويدافعون عن متأخريهم وينقلون كلامهم مسلمين به في باب الاسماء والصفات (٤) فإنني سأستعرض هناإن شاء الله ما وجدته من النصوص المعتمدة عندهم، وأصحابها يؤولون فيها أو يقولون بتعين التأويل ثم أتبعها بما وقفت عليه من نصوصهم التي جزموا فيها بتعين التأويل حتى يتبين موقفهم من التأويل ٠

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٣ / ص ٥٥ وما بعدها ٠

(٢) نفسه ص ٥٥ ٠

(٣) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لابن تيمية ط ١ دار الكتب التعلمية ٠ بيروت جـ ١/ ص ٣٥ ـ ٣٧ ٠

(٤) المنة في اعتقاد أهل السنة ص ٢٧ وما بعدها ٠ وجذوة الأنوارص ١٠ ـ ١١ ٠

عـــــرض

فمن النصوص المعتمدة عندهم نظم المقري وابن بون لعقائد السنوسي ، وانما قلت المعتمدة عندهم لما ذكر المختار الكنتي من الاعجاب بها والتسليم لما فيها حتى قال بأنه روي له أن الموتى يسألون في قبورهم عنها (١) والذي يسأل عنه الموتى في قبورهم معروف بالنص (٢) فالمقري يقول :

(والنص إن أوهم غير اللائــق … بالله كالتشبية بالخلائـــق
فاصرفه عن ظاهره إجماعـــا … واقطع عن الممتنع الأطماعا
وماله من ذاك تأويـــل فقـط … تعين الحمل عليه وانضبـط
كمثل وهـو معكـــم فـــأول … بالعلم والرعـــى ولا تطـــول
إذ لا تصح ههنـــا المصاحبـه … بالذات فاعرف أوجه المناسبة
وماله محامـــل الرأي أختلـف … فيه وبالتفويض قد قال السلف
من بعـــد تنزيـــه وهذا أسلـم … واللـــه بالمـــراد منها أعلـــم
لذاك قال مالـــك إذ سئـــلا … في الاستوا والكيف منه جهلا
وصار للتأويـل قـــوم عينـــوا … مما يليق راجحـــا وبينـــوا
إذ فسروا الوجـــه بذات واليدا … بقدرة وذا الإمـــــام أيـــدا

---

(١) جذوة الأنوار ص ١٠ . ١١ قلت : لعله أعتمد في هذا على ما ذكر صاحب نيل الابتهاج عند ترجمته للإمام السنوسي ص ٣٢٨ : (حدثني بعضهم أنه مات قريبه وكان صالحا فرآه في النوم فسأله عن حاله ، فقال : (دخلت الجنة فرأيت إبراهيم الخليل عليه السلام يقرىء صبيانا عقيدة السنوسي يدرسونها في الألواح يجهرون بقراءتها) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الميت يسمع خفق النعال الحديث رقم : (١٣٣٨) .

وقوله سبحانــــه من في السما   معناه بالأمر وسلطان سما

وقس على هذا جميع ما اشتبه   في الذكر والحديث وادر المرتبه) (١)

إلى أن قال :

(جل عن الجهات والاعراض   فيما يشا والوصف بالاعراض (٢)

ويوافقه ابن بون فيما حكى من أقوال ، وما رجح عند البعض من تعين التأويل فيما ذكر من صفات خبرية (٣) .

فيقول :

(ليس له جهة أولــون ولا   رائحـــة أو طعم أو لمس عـــلا

وواجب تنزيهه عــن استـوى   يوجب أن له بخلقـــــه استـــوى

وواجب إيماننا أن استــــوى   جل على العرش على الملك أحتوى

بل صرفه لما على الكمـــال   قـد دل واجــب بلا إشكـــال

فالسلف الصالح معنى ما مضى   لعالم الغيـــب الخبيــر فـــوض

وبعضهـــم مـــال إلى تأويـــل   مشتبــه الحديـــث والتنزيـــل

فبالوجود الوجـــه أو بالذات   أيـــدى وما لاق من الصفـات

واليـــد بالقدرة أو بنعمتـــه   والاستوى بالقهـــر أو غلبتـــه

وبحضور الامر أول المجـــيء   وقس على ذا ما ممـــاثلا يجـــى

---

(١) إضاءة الدجنة ص ٨٨ . ٩٠ .

(٢) نفسه ص ٢٥ .

(٣) وسيلة السعادة ص ٣٥ وما بعدها .

وكل تأويل بمعنى قد صدق فاقبل فما دل على حق فحق) (١)

فهذه نصوص واضحة في قول أهلها بمذهب الخلفية مع حكايتهم لمذهب السلف وأعتباره أسلم من غيره •

ولنستعرض نصوصا من كتب أئمة القادرية في نفس الموضوع •

قال المختار الكنتي في تأويل الجهة ما يأتي :

فقد نقل عن ابن سيد الناس (٢) على سبيل التسليم والرضى أخذه نفي الجهة والمكـــان من حديث النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تفضلوني على يونس بن متـــى) (٣) قائلا : إن المراد من الحديث أن المكان الذي سمع فيه النبي صلى الله عليه وسلم صريف الاقلام ليس بأقرب إلى الله من مكان يونس بن متى وهو في بطن الحوت . وإن الفضل والتفضيل باقيان ولكن المنفي عن الله هو الجهة والمكان والقرب والبعد بسببهما • (٤) • ونفاها في عدد من كتبــه مؤلا لها أو قائلا بأن نسبتها إليه تعالي شرك أو كفر (٥) •

---

(١) الوسيلة ص ٢٧ . ٢٨ •

(٢) هو أبو العباس أحمد بن عبد الله اليعمرى الاشبيلى المعروف بابن سيد الناس المتوفى سنة ٦١٨ هـ ومولده سنة ٥٦١ هـ أنظر : شجرة النور الزكية ص ١٧٦ •

(٣) قلت : أورد ابن أبى العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية : القصة التي أوردها الشيخ المختار الكنتي في هذا الحديث : (لا تفضلوني على يونس بن متى) ثم قال . في التأويل المشار إليه : (وهذا يدل على جهلهم بكلام الله وبكلام رسوله لفظا ومعنى ، فلإن هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التي يعتمد عليها) وفي تحريج الألبانى لاحاديث الطحاوية : (لا أعرف له أصلا بهذا اللفظ أنظر المصدر المذكور ص ١١٢ •

(٤) الكوكب الوقاد ص ١٢ . ١٣ •

(٥) الشموس الاحمدية ص٣ . ٤ والمنة ص٢٧ والطرائف ص ١٠٥ وجنة المريد ص٣٠ . ٣١ •

وقد اتبعوا من سبقهم من المؤلين في تأويل اليد والقدم والوجه والأصابع والمجيء والنزول والاستواء (١) ٠

قال المختار الكنتي : (ومن الواجب اعتقاده أن الله تعالى فوق عرشه قهرا وغلبة وخلقا وإنما خص العرش بالذكر ولو كان كذلك على جميع خلقه لأنه أعظم المخلوقات فإذا كان تحت قهره وفي قبضة ملكـه فغيره من مخلوقاته من باب أحرى) (٢) ٠
ونقل عن الامام البهيقي تضعيف الآثار الواردة في معنى الاستواء عن السلف (٣) ٠

ونقل عن الامام فخر الدين الرازي : أن للعلماء في هذا وما في معناه مذهبين :

الأول : القطع بكونه متعاليا عن المكان والجهة ولا تخوض فى تأويل الآية على التفصيل بل نفوض علمها إلى الله عز وجل ٠

الثاني : الخوض فى تأويله على التفصيل ٠ ويكون ذلك بتأويل استوى على العرش كناية عن عظم ملكه ، أو استوى بمعنى استولى وقـال بأن المـراد بالحديـث : (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على الايمان) (٤) ٠ أن المراد بالأصبعين القدرة والأرادة ، قال : وقال بعضهم (الأصابع يراد بها النعمة ٠ فالقلوب بين نعمتين وقيل الأصبع يكنى بها عن القوة أيضا كاليد يكنى بها عن النعم ٠٠) (٥) ٠

---

(١) الضياء المستبين ص ٢٨١ ٠

(٢) قلت : وقد بوب الإمام البهيقي في آخر كتبه وهو كتاب الاعتقاد : باب القول في الاستواء ٠ أورد فيه من الآيات والاحاديث وأقوال السلف ما يدل على إثباته لهذه الصفة ورفضه للتأويل الذى ذكره الكنتي أنظر المصدر المذكور ص ١٤ وما بعدها ، وقارن بما في كتاب البيهقي وموقفه من الإلهيات ، أحمد عطية الغامدي ط ٢ ص ٢٧٢ ٠

(٣) المنة في أعتقاد أهل السنة ص ٥٣ ، ٥٦ وانظر التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي جـ ١٤ / ص ١١٥ وما بعدها سنة ١٤٠٢ هـ ٠

(٤) روي هذا الحديث بألفاظ ، منها : يا مصرف القلوب ، ويا مثبت القلوب ، وفيه : على طاعتك وعلى دينك أنظر مستدرك الحاكم جـ ٤ ص ٣٢١ وعمل اليوم للنسائى ص٢٧١ ومسند أحمد مع الفتح الربانى جـ ١٤ ص ٢٨٨ . ٢٨٩ ٠

(٥) الكوكب الوقاد ص ٥١ . ٧٩ وقد رد ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث هذه التأويلات فأنظر: ص ١٩٥ . ١٩٦ ٠

نقد : يتناول هذا الموضوع بالنقد من وجهين

أولهما : توهم أن الله تعالى وصف نفسه الكريمة أو وصفه رسوله صلى الله عليه وسلم بما ظاهره المتبادر منه كفر حيث إن اعتقاد مشابهة الله للخلق كفر وضلال

•

ثانيهما : التفريق بين نصوص الصفات بالعقل بناء على ذلك الوهم ثم البحث عن تأويل لها •

أما الوجه الأول : وهو توهم أن في ظاهر النصوص مشابهة للخالق بالمخلوق : إن المتتبع لنصوص الكتاب والسنة يجد أن الله وصف نفسه العليه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بصفات كريمة مقرونه بما يميزها عن صفات المخلوقين

إما بإضافتها إلى الذات الكريمة التى تخالف الذوات جميعا بالاتفاق •

وإما أن تكون مقرونة بنفي المماثلة أو المشابهة كقوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (١) والسمع والبصر مما يتصف بهما المخلوق وهكذا فى غير ذلك من الصفات التي وصف الله بها نفسه أو وصف بها المخلوق في كتابه الكريم (٢) ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله تعالى : وصف الله تعالى فى أحاديث صحاح بصفات يوصف المخلوق بها ، ولم يذكر عنه أنه فرق بين نصوص الصفات أو احتاج إلى نفي احتمال أو توهم إذ إنه من المستقر في عقول أهل الايمان أن الصفة تابعة للموصوف بها فصفات الخالق لا تشبه صفات المخلوق عند الاطلاق وصفات المخلوقين لا تلتبس بصفات الخالق حتى يحتاج إلى الخوض فى جلب براهين من العقل تخالف ظاهر النص للفصل بين هذه وهذه •

---

(١) الشورى (الآية ١١)

(٢) انظر : مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ١٢ - ١٥ •

ثم إن من فرق بين صفات الله بدعوى أن العقل يثبت بعضها ويعطل باقى الصفات أو يؤوله بما يخالف ظاهر معناه إلى معنى معينا أو متوقفا فيه فإنه يكون فرمن محذور متوهم توهما لا محل له إلى محاذير محققه ، منها :

طلب الدليل من العقل بناء على وهم لا دليل عليه • ومنها التأويل الذى لا يرتكبه فى هذا الباب إلا من جهل السلف أولا وتوهم التشبيه ثانيا وطلب الحق من غير الوحي في أمر لا يعرف الا بالوحى • (١)

وهذه بعض نصوص السلف فى بيان أنه لا فرق بين نصوص الصفات وأن المفوض فيها هو علم الكيفية إذ إن الموصوف بها لا يعلم كيفية ذاته إلا هو جل وعلا • فهذا الامام الدار قطنى يروي فى كتاب الصفات الأحاديث التي تتضمن وصف الباري تعالى بأن له قدما ، ويدين ، وأنه يغضب ، ويضحك ، وأنه يحمل الخلائق يوم القيامة على أصبع ، وأنه له وجها ، وغير ذلك من الاحاديث التى اشتغل المتأولون بصرفها عن ظاهرها بما يؤل إلى التعطيل بسبب هذا الوهم المنفي بمجرد أنها وصف لله تعالى .

ثم قال الحافظ الدار قطنى رحمه الله تعالى:(حدثنا محمد بن مخلد ، ثنا العباس بن محمد الدوري قال سمعت أبا عبيدة القاسم بن سلام ، وذكر الباب الذي يروي في الرؤية والكرسى وموضع القدمين ، وضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيثه ، وأين كان ربنا قبل أن يخلق السماء ، وأن جهنم لا تمتلىء حتى يضع ربك عز وجل قدمه فيها فتقول قط قط ، وأشباه هذه الاحاديث فقال : هذه الاحاديث صحاح حملها أصحاب الحديث والفقهاء بعضهم عن بعض ، وهي عندنا حق لا نشك فيها ، ولكن إذا قيل كيف وضع قدمه ؟ وكيف ضحك ؟ قلنا لا يفسر هذا ولا سمعنا أحدا يفسره) (٢) •

---

(١) نفسه جـ ٥ ص ٣٩ . ١٠٣ ونفسه جـ ٣ ص ٦٧ وأضواء البيان للشيخ محمد الامين الشنقطي ، عالم الكتب . بيروت جـ ٢ ص ٣١٨ . وما بعدها •

(٢) سلسة عقائد السلف كتاب النزول وكتاب الصفات وكلاهما للحافظ ابن الحسن على بن عمر الدار قطنى ٣٨٥ هـ تحقيق : على بن محمد بن ناصرالفقهي ط ١ ١٤٠٣ ص ٢٦ . ٦٩ •

وذكر بسنده إلى وكيع أنه قال : (من رأيتموه ينكر هذه الاحاديث فاحسبوه من الجهمية) (١) • ويسنده إلى سفيان بن عيينة أنه كان يقول : (كل شيء وصف الله به نفسه فى القرآن فقراءته تفسيره لا كيف ولا مثل) (٢) • وبمثل هذا قال الأشعري في مواضع من كتبه مثل مقالات الأسلاميين ، والإبانة عن أصول الديانه •

فمما قال في الإبانة (قولنا الذي تقول به ، وديانتنا التى ندين بها : التمسك بكتاب الله ربنا عز وجل ، وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته قائلون •••) (٣) •

وأثبت مع التنزيـه التام كل ما رواه الثقاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : (لانرد من ذلك شيئا) (٤) وسرد الآيات التى اعتبرها المتكملون من متشابه القرآن فبين رحمه الله وجه دلالتها على الصفات الظاهرة من نصها ، رادا على المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية ، والرافضية والمرجئية قائلا إن ما قاله هو قول : أهل الحق والسنة (٥) •

ذلك أن طريقة السلف تتضمن إثباتا مفصلا ونفيا مجملا تبعا للقرآن الكريم حيث جاء فيه من الأسماء والصفات ما يكفي ويشفي في تفصيل ما يسمى الله به أو يوصف وكذلك السنة المطهرة •

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في وصف أعتقاد السلف رحمهم الله تعالى : (فمن سبيلهم في الإعتقاد والايمان بصفات الله تعالى وأسمائه التي وصف بها نفسه ، وسمي بها نفسه في كتابه وتنزيله ، أو على لسان رسوله من غير زيادة عليها ولا نقص منها ، ولا تجاوز لهـا ولا تفسيرلها ، ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها ، ولا

---

(١) نفسه ص ٧٠ •

(٢) نفسه ص ٧٠ . ٧٦ •

(٣) الابانة عن أصول الديانة ، لأبى الحسن الاشعرى ٣٢٤ هـ تحقيق : قوقية حسن محمود ، مكتبة دار الانصار ص ٢٩٠ . ٢٩٧ •

(٤) الابانة ص ٢١ . ٣٢ وما بعد ذلك ومجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٥٢ . ٥٥ وما بعدها •

(٥) مجموع الفتاوى جـ ٣ ص ٥ . ٧ •

تشبيه لها بصفات المخلوقين ، ولا سمات المحدثين ، بل أمروها كما جاءت وردوا علمها إلى قائلها ، ومعناها إلى المتكلم بها) (١) وقد يفهم من هذه الألفاظ الأخيرة القول بالتفويض على الاطلاق ولكن يتبين مراد الشيخ بهذه الكلمات فى نصوص له أخرى حيث قال فى معرض رده على ظنون المتفلسفة من المتكلمين المفضلين لطريقة الخلف على طريقة السلف فى باب الأسماء والصفات . (إنما أتوا من حيث ظنوا : أن طريقة السلف هي مجرد الايمان بالفاظ القرآن والحديث ، من غير فقه لذلك ...) (٢) ورد ذلك الظن الفاسد قائلا (إن هؤلاء يجهلون السلف وكذبوا عليهم ، وسبب ذلك أيضا أنهم أعتقدوا انتقاء الصفات فى نفس الأمر ، وكان مع ذلك لابد للنصوص من معنى ، فبقوا مترددين بين الايمان باللفظ وتفويض المعنى . وهي التى يسمونها طريقة السلف . وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع تكلف . وهي التى يسمونها طريقة الخلف ...) (٣) .

ومؤدى هذا القول تجهيل الملك الذى نزل بالوحي والرسول المنزل عليه والسلف الصالحين الذى جاءنا علم الوحي عن طريقهم ، ولذا فلا يجوز نسبة هذا التفويض إليهم بهذا المعنى (٤) . وفي تأويل مختلف الحديث لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة أن التفويض من سماة المرجئة (٥) .

بقي أن القول في الصفات كالقول في الذات فمن فرق بين ذلك بعقله وتأول بعضا وفوض في البعض الآخر كان يلزمه في المعنى المؤول إليه أو المفوض فيه ما يلزمه في المعنى المصروف عنه ، ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية : بأن مرتكب مثل هـذا العمل لا يستقيم لـه قانـون (٦) إلا أن من أراد بقوله بأن الظاهر المؤول عنه ما يختـص

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٤ ص ٢ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٢٥ . ٢٧ .

(٣) نفسه ص ٩١ . وما بعدها .

(٤) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول جـ ١ ص ٣٥ . ٣٧ و جـ ٣ ص ٦٨ .

(٥) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة . دار الكتب العلمية . بيروت ط١١ ١٤٠٥هـ ١٣

(٦) مجموع الفتاوى جـ ٣ ص ٢٥ . ٢٧ .

بالخلـق كان مصيبا فيما قصـد وإن كـان ذلك الظاهـر منفيا في جانب صفات الله تعالى (١) .

قال صاحب أضواء البيان : (والجاهل المفترى الذي يزعم أن ظاهر آيات الصفات ، لايليق بالله ، لأنه كفر وتشبيه ، إنما جر إليه ذلك تنجيس قلبه ، بقذر التشبيه بين الخالق والمخلوق فأداه شؤم التشبيه إلى نفي صفات الله جل وعلا وعدم الايمان بها مع أنه جل وعلا ، هو الذى وصف بها نفسه فكان هذا الجاهل مشبها أولا ، ومعطلا ثانيا ، فارتكب ما لايليق بالله ابتداء وانتهاء ...) (٢) .

إلى أن قال رحمه الله تعالى: (فتحصل من جميع هذا البحث أن الصفات من باب واحد ، وأن الحق فيها مركب من أمرين :

الأول : تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة الخلق .

والثانى : الإيمان بكل ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم إثباتا ، أو نفيا ، وهذا هو معنى قوله تعالى : (ليس كمثله شيىء وهو السميع البصير) والسلف الصالح ، رضي الله عنهم ماكانوا يشكون في شيىء من ذلك ، ولا كان يشكل عليهم) (٣) .

ثم بين رحمه الله تعالى أن هؤلاء المتكلمين ومن تبعهم من الخلفيين ارتكبوا هذه الأمور التـى وضحها هذا البحث (من تلقاء أنفسهم من غير اعتماد على كتاب أو سنة) (٤) .

ومن قال من تلقاء نفسه وبلا دليل من كتاب أو سنة كان الواجب رد قوله عليه ، وتحذير الناس من معتقده وما ذهب إليه .

---

(١) نفسه . ص ٦٨ .
(٢) أضواء البيان جـ ٢ ص ٣٢٠ .
(٣) نفسه جـ ٢ ص ٣٢١ .
(٤) نفسه جـ ٢ ص ٣١٩

وكان المنتسب إليه أو المدافع عنه مخطئا ويعامـل معاملته فى رد قوله ونبذ معتقده • على أنه لا يجوز أن تنسب أقوال ابن فورك والرازي والآمدى وإمام الحرمين والغزالى (١) للإمام أبي الحسن الاشعري لما تقدم عنه من التمسك بمنهج السلف ونبذ ما سلف في سابق حياته من نهج مذاهب المتكلمين ، وكانت جهودة في الرد على أهل الاهـواء والبدع مما يحمد له ويتبع عليه وكذلك ما وضحه من أدلة أهل السنة والجماعة • (٢)

ولم ينتسب إليه من انتسب إليه من معاصريه ومن جاء بعدهم من العلماء إلا لهذه الخصال الحميدة دون ما ينسب إليه من أقوال لا توافق منهج السلف الصالح (٣) •

قال شيخ الاسلام ابـن تيمية فى بيانه لما يحمد عليه الاشعري ومن انتسـب إليــه : (فحسناتهم نوعان :

إما موافقة أهل السنة • وإما الرد على من خالف السنة والحديث بيان تناقض حججهم) (٤) •

وعلى هذا فمن اتبع من أئمة القادرية ما كتبه هؤلاء المتأخرون من علماء علم الكلام المنتسبين لأبى الحسن الاشعري لا يمكن لباحث أن يعدهم من أتباع منهج السلف الصالح فى الايمان بالاسماء والصفات ، ولا من أتباع أبى الحسن الاشعري لما تقدم عنه ، ولا من أتباع الشيخ عبد القادر وأئمة مشايخ الصوفية الذين اعتذر شيخ الاسلام ابن تيمية عنهم فيما نسبه إليهم القشيري من اعتقاد الكلابيـــة والأشعرية ومتأخري المتكلمين • ولكن يحمد لهم إعلانهم ذم علم الكلام والتحذير من الفرق الضالة على العموم •

ونصل الحديث عن موقفهم من التأويل في باب الاسماء والصفات بموقفهم من التأويل في التصوف وعلوم الصوفية •

---

(١) مجموع الفتاوى و جـ ٦ ص ٥٢ ـ ٥٥ •

(٢) نفسه جـ ٤ ص ١٢ ـ ١٣ •

(٣) أنظر : مجموع الفتاوى جـ ٤ ص ١٤ ـ ٢٨

(٤) نفسه ص ١٢ ـ ١٣ •

المطلب الثاني : موقفهم من التأويل الصوفي الباطني

عــــــرض

إن التأويل منهج يلجأ إليه كثير من الناس عندما يحس خللا في منطقة العقدي والفكري أو غير ذلك وهو نمط من المبررات والتمادي على الخطأ ، ونقصد التأويل الذي لا يسوغه الشرع والعقل واللغة أو كانت الحاجة إليه مفقودة لسلامة المنهج أو بيان الخطإ ، أو إنه يجوز أن ينسب الخطأ إلى المنهج والقائمين عليه حيث إن العصمة منتفية عن الطرفين ، ثم إن الخطأ لا يمنع إظهاره من التماس العذر لصاحبه فيكون ذلك كافيا من ارتكاب التعمية على الحق بالتأويل . ولم تكن الصوفية بمنئاعن استعمال هذا المنهج في علومها أو الدفاع عن مشايخها وشطحات مجاديبها ، وللعلماء في تأويل كلام غير المعصوم خلاف (١) .

ونورد هنا بعض النصوص المعتبرة في البيئة التي ينتاولها البحث ثم نتبعها بنصوص من كتب أئمة القادرية ونتبعها بما يناسب من دراسة نقدية إن شاء الله .

قال المقري :

(وموهم المجـذور من كلام ... قوم من الصوفية الاعلام
جريا على عرفهم المخصوص ... يرجع بالتأويل للمنصوص
وما يفوهـون به في الشطـح ... فقيل غير مقتض للقدح
وهو إلى التأويـل ذو انتحال ... وأنهم قد غلبوا بالحـــال
وقيل بل يناط حكم الظاهر ... بهم صيانة لشرع طاهـر
فلا يقـــر ظاهر في الميـــل ... منهم وذا أمر طويل الذيل
وليس يقتدى بهم في ذلك ... لكونه من أصعب المسالك) (٢) .

---

(١) انظر : البدعة تحديدها ، وموقف الاسلام منها ، تأليف الدكتور عزت على عيد عطية ، دار الكتب الحديثة (بدون) ص ٢٩١ وما بعدها .

(٢) إضاءة الدجنة ص ٢٨ . ٢٩ .

هذا بيان المقري لاختلاف العلماء فيما يصدر من كلام يوهم محذورا كالقول بالحلول أو الاتحاد أو غير ذلك مما يخالف الشريعة الاسلامية • وقد تبعه في سرد هذه الأقوال المختار بن بون في الوسيلة (١) •

ومن نصوصهم ما : تقدم أن القادرية يسلمون بما نسب إلى مشايخ الصوفية من عبارات ومذاهب تخالف نصوص الكتاب والسنة ويعتذرون عنهم بتوجيه عباراتهم بما يجعلها مقبولة المعنى بذلك التأويل ، أو يجعلون من نقدهم قاصرا عن فهم عباراتهم وهذا نوع من التأويل تضيع به الحقيقة وهذه بعض نصوصهم :

فهذا المختار الكنتي ينقل من شعر الصوفية مسلما بما فيه ومستدلا به على أن كلام الصوفية في حال خمرتهم وسكرهم معفو عنه وأنه ينبغي الستر عليهم لأنه غلب على عقولهم لكثافة الانوار عليها : (فيظهر تخليط في أفعاله فيظنه من لاذوق له مجنونا وما هو بمجنون ويتوهم من لاذوق له أنه زنديق وما هو إلا صديق ولكنه شرب فسكر ••) (٢) •

إلى أن قال : وقال بعضهم في وصف الحال :

(وقل للذي ينهى عن الوجد أهله — إذا لم تذق معنى شراب الهوى دعنا

فإنا إذا طبنا وطابـت عقولنـا — وخامرنـا خمـر الغرام تهتكنـا

فلا تلم السكر ان في حال سكره — فقد رفع التكليف في سكرنـا عنـا

إلى أن يقول :

وصن سرنا في سكرنا عن حسودنا — وان أبصرت عيناك شيئا فسامحنا) (٣)

وينقل من نظم الحلاج مسترضيا له في سر لفظ الجلالة (الله) كما يقول :

---

(١) الوسيلة ص ٣٨ •

(٢) الكوكب الوقاد ص ٥٥ - ٥٦ •

(٣) نفسه ص ٥٦ •

(ألف قد تألف الكون منه ثم لام إلى الحقيقة تسرى

ثم لام مخصوصة بالمعاني ثم هاءبها مدامي وسكرى (١)

ويعتذر عن قول بعضهم : (الرب عبد والعبد رب) أنه بسبب غلبة الشهود وأنه لا ينكره إلا من لا يعرف إشارات القوم ناقلا عن الشرازي وأبي تراب والغزالي والنووي وغيرهم : (لأنه يحرم على كل عاقل أن يسيء ظنه بأولياء الله بل يجب عليه تأويل أقوالهم وأفعالهم ما لم يلحق بهم ويشرب من مشاربهم) • (٢)

وقد تبع المختار الكنتي في القول بالتسليم للصوفية حالهم ومقالهم ابنه وخليفته محمد في كتابيه الطرائف والتلائد (٣) وجنة المريد (٤) • ومما قال في الطرئف فى الاعتذار عن ابن عربى والتنويه بكتبه :

(أجمع المحققون من أهل الله عز وجل على جلالته في سائر العلوم كما تشهد لذلك كتبه التي بأيدينا وإنما أنكر عليه من أنكر لدقة كلامه لا غير ، فأنكروا على من يطالع كلامه من غير سلوك طريق الرياضة ومتانة عقيدته وأستفحال عارضته خوفا من حصول شبهة في معتقده يموت عليها لم يهتد إلى تأويلها على مراد الشيخ) (٥) •

هذا ما كتبه بعض أئمة المختارية عن تعين تأويل كلام الصوفية والاعتذار عنهم والتسليم لما يصدر عنهم •

وتبعهم شيوخ الفاضليـة في ذلك فنقلوا عن كتب غلاة الصوفية من أمثال المذكورين من أصحاب وحدة الوجود والاتحاد ، فنجد في الضياء المستبين نصوصـا

---

(١) نفسه ص ١١٣ •

(٢) جذوة الانوار ص ٨٧ وما بعدها •

(٣) الطرائف ص ٨١ . ٨٧ •

(٤) جنة المريدص ٨٩ . ٩٠ •

(٥) الطرائف ص ١٤٤ •

من كتاب الفتوحات لابن عربى (١) ونصوصا من كتاب عبد الكريم الجيلي الانسان الكامل (٢) قال الشيخ ماء العينين . وهو من أكبر علماء القادرية في موريتانيا :

(وقول الحسين بن منصور الحلاج رحمه الله تعالى : أنا الحق إشارة إلى فنائه عن مشاهدته لا أنه أراد الاتحاد وهذا التأويل لأجل حسن الظن به) (٢) وقد عولت الفاضلية على شيوخ كثيرين لا يسلمون من الطعن بسبب علومهم أو ما أثر عنهم من شطحات لا يمكن تأويلها الا بتعسف ظاهر (٣) وقد نشرت القادرية في البيئة العامة ميلا كبيرا إلى الارجاء وعدم الرد على الناس والتماس الاعذار لهم بما ظهر أنه لا تحمد عقباه ، حيث استغله كثير من الجهال والمتصوفة ، والمتشبهون بهم والفساق في الأقوال والأفعال حتى أنتشر بين الناس أنه لا يمكن لك أن تعرف ما عليه فلان ، ويمطرك المجادلون منهم بأسئلة قد لا يكون هو يصدق نتائجها ، فمنها مثلا :

من قال لك أنه ليس قطبا في الباطن ؟ وهل أنت تعرف نفسك ؟ وهل اطلعت على ما في قلبه ؟ . إنه يمكن أن يكون هو قطب الزمان ؟ . وخصوصا إذا كان المدافع عنه من ذرية قوم صالحين ، فالنصالح له أو المظهر للناس بعض أخطائه يعتبر في نظر العامة بما نشرته القادرية من حماية لها وللمنتسبين لها . أدخل نفسه في محاذير كثيرة أقلها أنه أكـل غيبة ولي لله ومن سلالة الأولياء وأعظمها أن يحكم عليه والعياذ بالله . بالحرمان والحجاب وسوء الخاتمة .

وهذه التأويلات والتبريرات أدت إلى خلط الأمور وحجب الحق الذي تشهد له الادلة بعبارات معممة دون نظر من الصادرة منه أنه يرتكب بها خطأ كبيرا ويساعد على نشر الفساديين العباد ، ويفتح لهم بابا من الإرجاء المذموم شرعا وعقلا ، ويجرىء عوام الناس على التسليم بالخرافات والاخطاء في العقيدة والفكر (٤)

---

(١) الضياء المستبين ص ١٤ . ١٥ .
(٢) نعت البدايات ص ٧٣ . ٧٤ و ٩٨ . ٩٩ .
(٣) أنظر : مجموع الفتاوى ٤ / ٧٦ .
(٤) مصرع التصوف . أوتنبيه الغبى إلى تكفير ابن عربى ، تأليف / برهان الدين البقاعى ، المتوفي ٨٨٥ هـ تحقيق . عبد الرحمن الوكيل ط ١٤٠٠ هـ ص ٦٧ والرحلة العلمية : محاضرة الشيخ محمد بن محمد المصطفى بن سيدي يحي : سياسة الشيطان .

نقد :

إنه لا بأس من إقالة عثرة ذوي الهيئات لحديث أبي داود والنسائي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : (أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود) (١) .

ولكن لا يلزم من إقالة عثرة أحد عدم بيان خطئه ، أو القول بالتسليم له ، أو طلب التأويلات البعيدة له وتحسين الظن به أكثر من اللازم .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد) وفي رواية بلفظ : (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) (٢) ومعلوم أن الأقوال من الأعمال فلا يسلم لمن أحدث فيها ولا يؤل له مع النص الواضح إذا خالفه قوله .

قال الإمام النووي : (قال أهل العربية الرد هنا بمعني المردود ومعناه فهو باطل غير معتد به . وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الاسلام وهو من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات ، وفي الرواية الثانية زيادة وهي أنه قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سبق إليها فإذا احتج عليه بالرواية الاولى يقول أنا ما أحدثت شئيا فيحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات سواء أحدثها الفاعل أو سبق باحداثه ..) (٣) .

وقد جاء في الأحاديث والآثار عن عمر رضي الله عنه قال : (تركتكم على الواضحة ليلها كنهارها ..) وعن علي رضي الله عنه قال : (تركتكم على الجادة ومنهج عليه أم الكتاب) ومن حديث أبي الدرداء رضي الله عنه يرفعه : (وأيم الله

---

(١) سنن أبي داود ، سليمان بن الأشعث السجتانى ، إعداد وتعليق . عزت عبيد الدعاس وعادل السيد ، ط ١ دار الحديث بيروت ١٣٩٣ هـ كتاب الحدود ، باب في الحد يشفع فيه جـ ٤ ص ٥٤٠ رقم ٤٣٧٥ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الصلح ، دار المعرفة بيروت الحديث رقم : (٢٦٩٧) .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الأقضية ، باب نقض الاحكام الباطلة ورد محدثات الأمور . ط دار الفكر ١٤٠١ هـ ص ١٦ .

لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء) (١) ٠

وروي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في التحذير من الكلام المشتبه الذي لا يعرف منه مراد صاحبه قوله : (حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله رسوله) ٠

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في ذلك قوله : (ما من رجل يحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم) (٢) ونقل عن الامام مالك رحمه الله تعالى قوله :

كل يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر ٠ يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن عبد البر : (وقال أشهب سمعت مالكا يقول : ما الحق إلا واحد قولان مختلفان لا يكونان صوابا جميعا ما الحق والصواب إلا واحد) (٣) ٠

وقوله : (إنما أهلك الناس تأويل ما لا يعلمون) (٤) ٠

والذي يصدر عنه الكلام المشتمل على محذور لا يخلو حاله من أن يكون في وعي وعقل أو يكون في سكر وغياب ٠

فمن كان في وعيه وتمام عقله وقال كلاما فيه محذور في العقيدة أو مخالفة للشريعة المحمدية فقد خالف هذه النصوص والآثار وارتكب عن قصد من المحاذير التي ينزه الفساق عنها أنفسهم لما معهم من حياء الإيمان ، ولا يليق بمثل هذا أن يؤل له كلامه أو يسلم له انحرافه ٠

---

(١) جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد . محمد بن محمد بن سليمان ٠ المجلد الاول والثاني ط ١٣٤٥هـ الجزء الأول ص١٧ والاولان لرزين ، والاخير للقزويني مطولا ٠

(٢) صحيح مسلم ، المقدمة ، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء جـ ١ ص ٧٦ وقارن بروايات ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ١٢٤ ٠

(٣) جامع بيان العلم وفضله جـ٢ ص ٨٨ . ٨٩ ٠ قلت : اللفظة التي ذكرتها قبل هذا النص مشهورة عن الامام مالك ولكن لم نجدها بسند إليه ، وإنما هي مروية عن مجاهد : (ليس أحد من خلق الله إلا وهو يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي صلى الله عليه وسلم المرجع المذكور ص ٩١ ٠

(٤) المدارك جـ ١ ص ١٨٥ ٠

بل نقل القاضي عياض وغيره من علماء المسلمين الاجماع على أن غلاة الصوفية وغيرهم إذا تكلم أحدهم بكلمة ردة أو كلام يدل علي القول بوحدة الوجود أو الحلول فإنه كافر ولا يعتذر عنه ولا يؤل كلامه وإن قال أردت به كذا أو أضمرت كـذا (١) .

وقال : علاء الدين علي بن إسماعيل الفوتوى : (إنما تؤول كلام من ثبتت عصمته حتى نجمع بين كلاميه لعدم جواز الخطإ عليه وأما من لم تثبت عصمته ، فجائز عليه الخطأ والمعصية والكفر فيؤاخذ بظاهر كلامه ، ولا يقبل منه ما أول كلامه عليه مما لا يحتمله ، أو مما يخالف الظاهر ، وهذا هو الحق) (٢) .

وقد بين الإمام الغزالي والقاضي ابن العربى أن القول بالعصمة للأئمة هو الذي أدى بالشيعة ومن تبعها بالقول بالتسليم أو التأويل لما يصدر عن مشايخهم من الكلام المخالف لنصوص الكتاب والسنة (٣) .

أما من صدر عنه الكلام المحذور في حالة جذبه وغيابه فلا يعقل أن يقال بأنه يسلم له حاله أو يؤل له كلامه أو يتبع في مقاله ، ذلك أنه خارج عن مقام التكليف الشرعي ، وإنما يكون البحث في أسباب سكره وإذها به لمناط التكليف الذي هو عقله . (٤) فهل بأمر مشروع أو بغير ذلك ؟ على ما سيأتي بيانه إن شاء الله في مبحث الجذب من باب السلوكيات .

قال الشيخ محمد بن أحمد الملقب بالداه الشنقيطي في تعليقه على أبيات الإضاءة التي تقدمت : (يحكم بظاهر الشرع ولا يؤل كلامهم فمن تكلم منهم بما يوهم الاتحاد والحلول حكم عليه بالكفر والقتل ، ومن تكلم منهم بما لا يكفر به ولكنه ممنوع أدب) (٥) .

وبهذا يتضح خطأ القادرية في أعتبار الحلاج وابن عربي وأمثالهم من غلاة الصوفية من شيوخ المسلمين الذين يقتدى بهم أو يسلم لهم كلامهم أو يؤل لهم لما عرف عنهم من القول بالحلول ووحدة الوجود .

---

(١) مصرع التصوف ٢٦ . ٢٩ و ٦٦ . ٦٧ . ٦٨ قلت : ويأتي نص كلام القاضي عياض في الشفا .

(٢) نفسه ٦٦ . ٦٧ .

(٣) البدعة تحديدها وموقف الاسلام منها ، عزت علي عيد عطية ، دار الكتاب الحديثة القاهرة ص ٢٩١ . ٢٩٩ .

(٤) أنظر أضاءة الدجنه ص ٢٨ .

(٥) نفسه ٢٩ .

المبحث الثاني : موقفهم من العقل والعلم

المطلب الاول : موقفهم من العقل

لم يرد لفظ العقل في القرآن الكريم ولكن وردت الأفعال الدالة عليه والتي يفهم منها مكانة العقل والتعقل والتفكر • وتصرح بذم الذين لا يعقلون أو لا يتدبرون •

والذي ورد في السنه من الاحاديث التي ورد فيها لفظ العقل تتبعه أهل العلم وأثبتوا أنه لا يصح في العقل حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) وعلى هذا فإن الاحاديث التي أوردها المختار الكنتي عن العقل في فتح الودود (٢) وغيره من كتبه وكتب غيره غيرصحيحة (٣) •

وقد تعرض مشايخ القادرية إلي دراسة العقل ومظاهره مما يدل على اعتبارهم له، وردوا كذلك على من أطلق له العنان وحكمه في كل ميدان (٤) •

فقد ألف المختار الكنتي كتابا سماه : كشف اللبس عن حقيقة الروح والنفس • ولم نتمكن من الحصول عليه ، وأحال عليه قائلا إنه استوفى فيه الكلام على العقل • (٥)

وقد عرف مشايخ القادرية العقل بتعريفات متعددة منها : (أنه مأخوذ من العقال لأنه يعقل صاحبه عن ارتكاب ما لا يليق في العاجل والآجل) (٦) •

---

(١) ابن الجوزى وتربية العقل . تأليف عبد الرحمن صالح عبد الله ط ١ ١٤٠٦ هـ مكة المكرمة ص ١٨ . ٢١ وتخريج الاربعين السلمية في التصوف . للسخاوي . تحقيق علي حسن علي عبد الحميد دار عمان ط ١٤٠٨ هـ ص ١٤٣ •

(٢) فتح الودود شرح المقصور والممدود • ص ١٣٣ وقددرس هذه الاحاديث المحقق للكتاب وتوصل إلى أنها ما بين موضوع وضعيف جدا • وكشف اللبس عن المسائل الخمس ص ٨٩

(٣) الكوكب الوقاد ص٩٥ . وما بعدها •

(٤) أنظر : المنة في أعتقاد أهل السنة ص ١٢٠ وما بعدها •

(٥) الكوكب الوقاد ص ٩٧ •

(٦) فتح الودود ص ١٣٣ •

وقال المختار الكنتي : (وحقيقة العقل نور إلهي على شكل لا يحيط به إلا الله تعالى) • (١) • وفي كتب القادرية الشيىء الكثير من تمجيد العقل ولزومه للعلم (٢) وأن قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام •••)

يراد فيه بالصدر : العقل لأنه محل الإدراك وإنما عبر عن الصدر بالعقل لأن ذلك من باب تسمية الشيىء باسم محله • (٣) •

وتنحصر مهمة العقل عندهم فيما يحدده المختار الكنتي قائلا :

(ومعلوم أن أحكام العقل ثلاثة واجب ومستحيل وجائز ومن القسم الجائز عقلا أن يبعث الله الرسل إلى الخلق ، وأنه تعالى قادر على ذلك وعلى تعريفه إياهم صدقهم بالمعجزات ثم يصل العبد بعقله إلى هذا الجائز المذكور فعند ذلك ينقطع الكلام وينتهى تصرف العقل ••) (٤) •

ويقول محمد الكنتي : (فإنه لا استقلال للعقل في الأحكام الشرعية) (٥) .

قلت : ويمكن اعتبار منهجهم في العقل منهجا صائبا إلى حد كبير لولا أن ذلك لا يتعدى الجانب النظري ، ويعطلونه عندما يدخلون في علوم الصوفية وآدابها فنجدهم يقولون للمريد أن يعطل عقله ويتبع شيخه ولو رآى الخطأ وعرفه • (٦) ويأمرونه بتقديم ذوقه على عقله لأن علوم الأسرار فوق العقل والذوق لا يدرك بالعقل • ونقلون في كتبهم من الحكايات والاخبار المستحيلة عقلا ويسلمون بها (٧) •

---

(١) الكوكب الوقاد ص ٩٧ وكشف اللبس عن المسائل الخمس ص ٨٩ •

(٢) الشموس الاحمدية ص ٣٣ ونعت البدايات ص ١٢٩ و ١٤٧ •

(٣) الكوكب الوقاد ص ٩٥. ٩٩ والآية من سورة الانعام (١٢٥) •

(٤) جذوة الانوار ص ٢٢ •

(٥) جنة المريد ص ٤٤ . ٤٥ •

(٦) نفسه ص ١٤٨ . ١٥٣ •

(٧) نفس المصدر السابق ونعت البدايات ص ٢١٧ وكشف اللبس عن المسائل الخمس ص ٣٧

المطلب الثاني : موقفهم من العلم

إنه يمكن أن يعرف مما تقدم من التعريف بالقادرية وشيوخها ومراكزها وانتشار مريديهم في إفريقيا اعتماد الكثير منهم العلم في منهجه الصوفي ٠

فقد تقدم أن تتبع البحث أئمة القادرية في موريتانيا في رحلتهم في طلب العلم وعرض ونقد ما نقل عنهم في ذلك من مبالغات ٠ كما تعرض البحث إلى مؤلفاتهم وقيمتها في المحيط العلمي وأثرها على البيئة الثقافية ٠

وقبل أن نعرض نصوصا من كتبهم توضح موقفهم من العلم ٠ وتبين منهجهم في تحصيل العلم المطلوب عندهم يجدر أن نذكر بعض النصوص المكتوبة من بعض المؤلفين خارج منطقتهم تكشف عن نشاطهم العلمي ٠

فهناك بعض المستشرقين الذين اعتنوا بالمنطقة فكتبوا عنها لأغراض مختلفه وكان من بينهم : السير توماس و أرنولد ولو ثروب استودار الامريكي ، فنأخذ عن كل واحد منهما معلومة في الموضوع ٠

يقول السرتوماس بعد ذكر مراكز القادرية في موريتانيا وانطلاقتهم في إفريقيا : (وفي مستهل القرن التاسع عشر نجد النهضة الروحية الكبيرة التي كانت تؤثر في العالم الإسلامي تأثيرا عميقا تدفع بالقادرية الذين كانوا يقيمون في الصحراء الكبري وفي السودان الغربي إلى حياة ونشاط جديدين ، ولم يمض زمن حتى وجدنا فقهاء مثقفين، وجماعات صغيرة من المريدين قد انتشروا في أرجاء السودان الغربي من السينغال إلي مصب النيجر ٠٠ وسط شعب وثني رحب بالقادرية باعتبارهم كتابا وفقهاء وكتاب تمائم ومعلمين) (١) ثم أخذ يفصل رحلاتهم في طلب العلم في مراكزه الرئسية في العالم الاسلامي ويصف عودتهم وتأسيسهم المدارس وخططهم في ذلك وإنفاق الزوايا عليهم (٢) ٠

وتبعه صاحب حاضر العالم الإسلامي ، فبعد أن وصف مراكزهم وانطلاقاتهم منها في دعوتهم أو سياحتهم يقول :

---

(١) الدعوة إلى الاسلام ص ٣٦٥ ٠

(٢) نفسه ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ ٠

(ومن مريديهم من يخدمون في مهنة الكتابة والتعليم ويفتحون كتاتيب ليس في زوايا الطريقة فقط ، بل في كل القرى فيلقنون صغار الزنج الدين الإسلامي أثناء التعليم ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا إلى مدارس طرابلس والقيروان وجامع القرويين بقاس ، والجامع الازهر بمصر فيتخرجون من هناك طلبة مجازين أي أساتذة ، ويعودون إلى تلك البلاد) (١) .

والواقع أن أئمة القادرية الأولين كانوا على جانب كبير من التحصيل العلمي وأشتهر عنهم الجلوس للتدريس (٢) وكان بعضهم لا يعطى الورد القادري الا لمن تفقه ولو كانوا يكتفون منه بحفظ مختصرفي العبادات أو قريبا من ذلك . (٣)

وسجلوا في كتبهم انتقادات لاذعة لبعض العلماء الذين لم يشتغلوا بالتدريس معتبرين ذلك علامة على الحرمان (٤) .

عـــــرض :

وهذه نصوص من كتبهم توضح موقفهم ، من العلم ، يبين المختار الكنتي الفرق بين العلم ، والمعرفة قائلا : (فالعلم ما تضمن معنى إحاطة الإدراك ، والتعبيرعنه بالمعرفة يزيله عن درجته ، فالعلم أعم من المعرفة وقد استعملت المعرفة فيما سبق بجهل وأن العبد يعلم ربه ولا يحيط به وأن علم العبد مخالف لعلم المعبود ولو كان دالا عليه وأن من خواص علم الله تعالى عدم تناهي معلوماته ، والكشف عن المعلوم بما لا غاية بعده ، وأن علمه تعالى بالاشياء غير مستفاد منها بل خلقها بعلمه .(٥)

ثم يقول : (واعلم أن شرف العلم من حيث كونه من صفات الله ولكن العلم الأشرف ما كان معلومه أشرف المعلومات وهو الله تعالى فلذلك كانت معرفته أشرف المعارف) (٦) . فهذا بيان للفرق بين علم الله تعالى وعلم المخلوق ، وتوضيح للسبب الذي يشرف به العلم .

---

(١) حاضر العالم الاسلامي ص ٣٩٥ . ٣٩٦ .
(٢) بلاد شنقيط ص ١٢٤ . ١٢٥ و ٢٦٥ . ٢٨٢ و ٢٨٧ . ٢٨٩ .
(٣) نفسه ص ١٢٢ وملف الرحلة .
(٤) الغلاوية ص ٥٠
(٥) الكوكب الوقاد ص ١٢١ . ١٢٣ .
(٦) الكوكب ص الوقاد ١٢٣

ويوضح من مكانة العلم عنده قوله : (بأن الجهل هو الموت الأكبر والعلم هو الإحياء الأشرف) (١) ويروي الأحاديث في فضله وفضل العمل بموجبه قائلا : وتشهد لذلك حديث النبي صلي الله عليه وسلم : (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) (٢) .

ويشرح ذلك بقوله : (وقد ذكر الله سبحانه العلم والجهل في كتابه فسماهما حياة وموتا فمن رفعه الله من هوة الجهل إلي رتبة العلم فقد أنشأه نشأة أخرى وأحياه حياة طيبة ...) (٣) .

وأخذ يوضح أن مرتبة الأنبياء إفادة الخلق ، ودعاؤهم إلى الحق وأن ذلك مرتبة من الاحياء وأن ذلك سبيل من يرث الأنبياء . (٤) ويؤكد أن العلم لا يؤخذ بالعقل ولامن الكتب ، ويحذر من الاشتغال بما لا عمل تحته ، والاشتغال بالجدل والمناظرات فيما لا يدرك من المغيبات (٥) ويخوف من طلب العلم لأجل الرئاسة (٦) وقد رتب سيدي محمد الكنتي العلوم حسب أهميتها مبينا حد العلم النافع والمطلوب قائلا : (وحسبك من العلم العلم بالوحدانية ومن العمل العمل بمحبة الله ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ومحبة الصحابة واعتقاد الحق للجماعة) (٧) .

ورتب العلوم هكذا : (علم العقائد وعلم الفروع وعلم التصوف وعلم ما يتوصل به إلى أخذ هذه من أصلها الكتاب والسنة) (٨) .

---

(١) نفسه ص ١٣٣ .

(٢) نفسه ص ١٣٤ قلت لم نجد هذا الحديث بهذا اللفظ في مظانه وتوجد آثار في جامع بيان العلم وفضله تؤيد معناه : جـ ١ ص ٤ . ١١ ومنها : (قال ابن مسعود : تعلموا تعلموا فاذا علمتم فاعملوا) وقال سفيان التورى : (يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل) وفيه عن عيسى عليه السلام بعض الآثار الدالة على أن الحديث المذكور من كلامه . أنظر ص ٥ . ووجدت الألباني حكم أنه موضوع وأنه خرجه أبو نعيم . انظر السلسلة رقم (٤٢٢)

(٣) نفسه ص ١٣٣ .

(٤) انظر نفسه ص ١٣٣ .

(٥) جذوة الانوار ص ٢٤ . ٢٦ .

(٦) نفسه ص ٣٢ و ٤٣ و ٤٩ . ٥٠ .

(٧) جنة المريد ص ٢٦ .

(٨) نفسه ص ٢٩ .

نقد

ومع ما ظهر من اشتغال القادرية بالعلم ونشره ، وما رووه في كتبهم من فضله من آثار وأشعار (١) فإنه بقي معظم أتباعهم في جهل كبير بأحكام دينهم مع اشتغالهم بأورادهم واكتفائهم بمدائح مشايخهم وأحزابهم واختياراتهم . ويمكن إرجاع أهم أسباب ذلك إلى المشايخ أنفسهم كما سيتضح إن شاء الله بعرض أهم تلك الأسباب في النقاط الآتيه مع مناقشتها بما يوضح وجه النقد فيها .

أولا : إظهار العداوة أمام المريدين لأهل العلم من غير المنتسبين للطريقة أولشيخ بعينـه . (٢)

وهذا يؤدي بلا شك إلى التنفير من الأخذ عنهم بل ويؤدى إلى الابتعاد عنهم .

ثانيا : التشنيع على الفقهاء وإن كانوا أعبد أهل زمانهم ، واتهامهم بتهم لا يمكن حسب علمي إثباتها وخصوصا في موريتانيا . وهي أنهم ما طلبوا العلم إلا من أجـل الرئاسة والرغبة في الدنيا ، وأن قلوبهم قاسية ، ووصفهم بعلماء والسـوء (٣) إلى غير ذلك من الأوصاف التي تنفر المريد من طلب العلم لدى هؤلاء الفقهاء وإن كانوا أقرب إليه من ذلك الشيخ في النسب أو الدار . (٤)

ثالثا : نعتهم للفقهاء والعلماء من غير المنتسبين لهم بألقاب محدثة منها أنهم علماء الرسوم وعلماء الظاهر (٥) . ومعظم الداخلين في الطريقة القادرية وغيرهم من أهل البيئة العامة لا يـدرك معـنى هذه الألقاب إلا أنه يفهم منها استخفافـا

---

(١) فتح الودود ص٢٤٧ . ٢٥٨ ونعت البدايات ص ١٩ و ١٢٧ . ١٣٥ و ٢١٥ و ٢٢٨ و ٢٣٦ .

(٢) جذوة الانوارص ١ . ٢ و ٧ و ٩ و ٢٥ و ٣٧ و ٤٣ و ٩٧ ونعت البدايات ص ٢١ . ٣٠ .

(٣) نفس المرجع السابق والضياء المستبين ص ١١٦ وجنة المريد ص ١٢ . ١٤ و ١٦٣ .

(٤) الغلاوية ص ٣٠ و ١٦٠ و ١٧١ والكوكب الوقاد ص ١٦٤ . ١٦٥ ونعت البدايات ص ١٩ وزاد المسلم جـ ٢ ص ٣٣٧ .

(٥) الطرائف ص٥١ . ٦٢ وجنة المريد ص١٢ ـ ١٧ ونعت البدايات ص٢٠ والضياء ص١١٦ . ١١٧

وخصوصا إذا أضيف إلى تلك الألقاب تحذير المريدين أن يجعلوا للمنكرين عليهم من علماء الظاهر . كما يسمونهم حجة أو سبيلا وأن عليهم أن يجعلوا ما يحتج به عليهم وينكر عليهم به حجة لهم (١)

رابعا : وفي مقابل ذلك أخذوا ينشرون الأدلة على صحة منهجهم ويذكرون من تاريخ الصحابة والسلف الصالح علاوة على نصوص الكتاب والسنة التي يرون أنها تشهد لهـم من قريب أو بعيد مع إظهار ذم التقليد والتنفير من أصحاب البدع والأهـواء (٢)

خامسا : وجعلوا أنفسهم في مقابل ما تقدم من وصفهم للعلماء والفقهاء والقراء هم أصحاب التربية والتزكية وعلم الباطن وعلم الحقيقة وعلماء السر وأهل العلم اللدني والكشف الالهي الذين يجب لهم التسليم في الظاهر والباطن إذ علمهم علم وهب من الله بلا واسطة (٣) .

إلى غير ذلك من الألقاب الحسنة التي تميل إليها نفوس العوام فتظل تطلبها وتتمنى الوصول إلى حقيقتها حتى ينتهي عمر المرء وهو لم يشتغل بطلب العلم ولم يكن ما يحصل منه من عبادة وأوراد وغير ذلك من قرب على بصيرة وفقه في الدين .

وهذا أمر زعج العلماء في البلاد فأخذوا يناقشونه فقها وشعرا ونثرا فأخذوا في الأسئلة عن المفاضلة بين طلب العلم والاشتغال بالعبادة ، وبين الفقيه وشيخ الصوفية والاشتغال بالتدريس للعالم أو التفرغ للعبادة (٤)

---

(١) انظر نعت البدايات ص ١١ و ٢٠ .

(٢) انظر جذوة الانوار ص ٥ و ٧ . ٩ و ١٥ . ١٨ والكوكب الوقاد ص ٢ . ١٨ وغيرها منه . ونعت البديات ص ٢٠ والضياء ص ١٠٥ . ١١٦ وجنة المريد ص ١٢ و ١١٦ . ١٢٦ .

(٣) انظر الضياء المستبين ص١١٣ و١٣٥ . ١٤٠ و٢١١ و٢٣٣ . ٢٥٠ .٢٥٢ والطرائف ص١١٣-١١٧ وجنـة المريد ص١١ . ٢٤ و١١٦ و١٣٧ و١٥١ . ١٦١ ونعت البدايات ص١٩ و ٨٦ و ٢٤٤ .

(٤) الطرائف ص ١٦٠ وزاد المسلم جـ ٣ ص ٣٢٥ . ٣٥٢ وجذوة الانوار ص ٤٩ . ٥٢ .

فمما قالوه في ذلك : قول محمد بن حنبل الحسني الشنقيطي :

ياخائضين بحور العلم مسـألة   عنها أجيبوا بأفهام ذكيـات

عن اشتغال شباب العصر قاطبة عن العلوم بأوراد سنيـات

أهذه نعمة في الدين نشكرها   أم هي في ديننا إحدى المصيبات) (٢) ٠

ثم قال محمد حبيب الله بعد نقله للأبيات السابقة (وقد أجابه بعض العلماء نظما وفضل الاشتغال بالعلم بعد أن أثنى على الأوراد فقال : ومما قال :

(لكن الأغلب في ذي الورد أزمننا   ترك التعلم مع تضييع الأوقات

يؤخر الفرض عمدا والتعلم لا يراه من مذهب الهادي للبريات) ٠

وأجابه الشيخ ماء العينيين والعلامة محمد العاقب وغيرهما وكل منهم رام التفصيل والفرق بين الناس في تعين طلب العلم ، مع أنهم يفضلون لمن لم يتضلع من العلم عدم الإكثار من الأوراد ، وأنه يتعين على من غلب على قلبه الفساد أن يشتغل بالأوراد ٠

وقد ناقش هذا الموضوع العلامة محمد حبيب الله وجلب فيه نصوص العلماء مبينا أنه لابد لطالب العلم من تصحيح النية والإخلاص فيه لله تعالى وأن علم التصوف داخل دخولا أوليا . عنده . في الفقه في الدين ، وأنه : (لادليل لمفضل علماء الظاهر على علماء التصوف) مع تشنيعه الشديد على متصوفة زمانه موضحا أن درجة العالم العامل لا درجة فوقها إلا النبوة (٣)

وموقف الصوفية من العلم معلوم من قديم الزمان وهو أنهم لا يرونه إلا مضعية للوقت وتعطيلا عن الوصول كما يقولون ٠

---

(١) انظر ترجمته فى الوسيط ص ٢١١ . ٢٣٥ ٠

(٢) زاد المسلم جـ ٣ ص ٢٣٦ ٠

(٣) نفسه جـ ٣ ص ٣٢٥ . ٣٥٣ ٠

قال ابن الجوزي : ذكر تلبيس إبليس على الصوفية في ترك التشاغل بالعلم :
(اعلم أن أول تلبيس إبليس على الناس . يعنى الصوفية . صدهم عن العلم لأن العلم نور فإذا أطفأ مصابيحهم خبطهم في الظلم كيف شاء) (١) . قلت : وبقي من فروع هذا المطلب مناقشة بعض الألقاب التي يصرفون الناس بها عن طلب العلم المأخوذ من نصوص الكتاب والسنة وفقه الصحابة والائمة . من القول بالعلم الظاهر والباطن أو الحقيقة والشريعة ليتضح وجه النقد العقدي من إطلاقها واطماع الناس في تحصيل علم من ورائها ، على أنه يتبين من قراءة كتب مشايخ القادرية أنهم أصحاب نقل وتسليم لا أصحاب نقد وتحقيق ، ولذا فإنهم ينقلون من القشيرى والغزالي وابن عربي وغيرهم ممن يحتاج كثير من كلامهم إلى توضيح أو تحقيق ، ولكن لا نجد منهم اشتغالا بذلك إثر ذلك النقل وإن كانوا يردونه في مواضع أخرى من كتبهم أو يبطلون ما يماثله من الكلام وهذا ما وقع لهم في مثل هذه الموضوعات ولكن لابد من عرض كلامهم فيها ونقده وتوضيح وجه الحق فيه إن شاء الله تعالى .

وسنبدأ بتعريف هذه الألفاظ أولا ، ثم نتبعها بما يوضح المراد منها عند العلماء المشتغلين بعلوم الصوفية وغيرهم ، ثم نعرض نصوصا من كتب القادرية توضح مذهبهم في القول بهذه الألفاظ مشفوعة بما يناسبها من نقد لتكون النتيجة واضحة بإذن الله تعالى .

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٨٩ وما بعدها .

التعريف والتوضيح : الظاهر والباطن والحقيقة والشريعة.

قال في القاموس المحيط : (والظاهر خلاف الباطن ومن أسماء الله تعالى وظهر ظهورا تبين) والظهر (لفظ القرآن والباطن تأويله والحـــديث والخبروما غـــاب عنـــك) (١)

قال : (وبطن خفي فهو باطن) والباطن (داخل كل شيىء) (٢) ٠ وقد وردت في الكتاب والسنة هذه الالفاظ وبين النبى صلى الله عليه وسلم والعلماء من بعده المراد منها .

فمن الكتاب قوله تعالى : (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) الايه (٣) قال القرطبي : (للعلماء فيه أقوال كثيرة وحاصلها راجع إلى أن الظاهر ما كان عملا بالبدن مما نهى الله عنه ، وباطنه عقدما بالقلب من مخالفة أمر الله فيما أمر ونهى) (٤) وقوله تعالى : (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) الآية (٥) وقوله تعالى : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) (٦) وقد بينت السنة معنى هذه الاسماء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم في كتاب الأدعية حيث روى من حديث أبي هريرة رضى الله عنه من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم عند النوم قوله صلى الله عليه وسلم : (٠٠ اللهم أنت الأول فليس قبلك شيىء وأنت الآخر فليس بعدك شيىء وأنت الظاهرفليس فوقك شيىء وأنت الباطن فليس دونك شيىء أقض عنا الدين وأغننا من الفقر) (٧) ٠

---

(١) القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز أبادي دار المعرفه . بيروت جـ ٢ / ص ٨٢

(٢) نفسه جـ ٤ / ص ٢٠٢

(٣) سورة الانعام الآية ١٢٠ ٠

(٤) القرطبي . بيروت سنة ١٩٦٥ م جـ ٧ ص ٧٤ ٠

(٥) سورة الانعام ص ١٥١ ٠ القرطبي نفسه ص ١٣٣ ٠

(٦) سورة الحديد الآية ٣ ٠

(٧) صحيح الإمام مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار ، باب الدعاء عند النوم ٠

قال النووي رحمه الله : (وأما معنى الظاهر من أسماء الله فقيل هو من الظهور بمعنى القهر والغلبة وكمال القدرة وفيه ظهر فلان على فلان وقيل الظاهر بالدلائل القطعيه والباطن المحتجب عن خلقه وقيل العالم بالخفيات) (١) • قلت : وفي نقل النووي هذا مايدل على مذهب أهل التأويـــل ، وقد قال القرطبي إن حديث النبي صلى الله عليه وسلـم هذا شرح المراد من الظاهر والباطن في الآيه بما يغني عن قول كل قائل) • (٢)

وقد أكثر الغزالى من الحديث عن علم الباطن والظاهر والفرق بينهما ومن ذلك قوله (•• ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر ، أعني العلم بأعمال الجوارح • وإلى علم باطن أعني العلم بأعمال القلوب) (٣) •

ويوضح ابن تيمية المراد بعلم الظاهر والباطن أيضا قائلا : (إن علم الباطن الذى هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأصولها هو علم بحقائق الايمان الباطنة ، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الاسلام الظاهرة) (٤) •

وأما الحقيقة والشريعة فهما من الالفاظ التي وضعتها الصوفية من القديم وشرحوا مرادهم من هاتين العبارتين بما لا يفهم منه حقيقة شرعية واضحة ولكن شيخ الاسلام إبن تيمية وضح في كتاب الاستقامة وغيره أنهم يطلقون العلم ويريدون به الشريعة (٥) وقال : (وسبب تعبيرهم عن الشريعة بالعلم أن القوم أصحاب إرادة وقصد وعمل وحال •••) (٦) •

ويعرف القشيري الشريعة والحقيقه فيقول :

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٧ ص ٣٦ •

(٢) القرطبي جـ ١٧ ص ٢٣٦ والكوكب الوقاد ص ٩٥ ـ ٦٠ •

(٣) إحياء علوم الدين دار العلم ـ بيروت ط ٣ ـ جـ ١ ص ١١ •

(٤) مجموع الفتاوى جـ ١١ ص ٢٢٥ •

(٥) الاستقامة جـ ١ ص ٩٤ وما بعدها •

(٦) نفسه جـ ١ ص ٩٩ •

(الشريعة : أمر بالتزام العبودية ٠

والحقيقة : مشاهدة الربوبية) ٠ (١)

ويعرفها الجرجاني قائلا : (الحقيقة : كل لفظ يبقى على موضوعه أو الشيء الثابت قطعا ويقينا ، وحقيقة الشيء : ما به الشيء هو هو) ٠

(**والشريعة**: هى الائتمار بالتزام العبوديه ، وقيل الشريعة هى الطريق في الدين) (٢)

ويعرفها شيخ الاسلام ابن تيمية قائلا :

(**والحقيقة** : حقيقة الدين : دين رب العالمين هي ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون ، وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاج ٠ فالشرعة هي الشريعة قال الله تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) (٣) وقال تعالى : (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ٠٠) (٤) إلى أن قال : والغاية المقصودة هي حقيقة الدين ، وهي عبادة الله وحده لاشريك له ، وهي حقيقة دين الاسلام ، وهو أن يستسلم العبد لله رب العالمين ، لايستسلم لغيره ، فمن استسلم له ولغيره كان مشركا ، والله : (لايغفر أن يشرك به) (٥) ٠

عرض : نصوص تبين موقف القادرية من القول بالظاهر والباطن والشريعة والحقيقة في كتبهم ٠ قال المختار الكنتي : (في وصف الرجل الذي يوصف بالحكمة :

(إنه هو الذي قد اتخذ الشريعة دثارا ، والحقيقة شعارا ، ويستحيل أن يوصف الرجل بالحكمة وهو لم يجمع بين الحقيقة والشريعة إذ الشريعة قشر والحقيقة لبها فلا يتوصل للب الابعدمجاوزة القشر) (٦) ٠ وقال في رده على ابن بون وابن حبيب الله :

---

(١) الرسالة جـ ١١ ص ٢٦١ ٠

(٢) كتاب التعريفات للشريف على بن محمد الرجاجاني ، دار الكتب العلمية - بيروت ط ١١ سنة ١٤٠٣ هـ ص ٩٠ و ١٢٧ ٠

(٣) سورة المائدة الآية ٤٨ ٠

(٤) سورة الجاثية الآية ١٨ ٠

(٥) مجموع الفتاوى جـ ١١ ص ٢١٨ - ٢١٩ ، اقتباس من قوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ الآية ١١٦ النساء ٠

(٦) جذوة الأنوار ص ١٧ ٠

(إنه . يعني ابن بون . أراد الطعن على علم الحقيقة وأهله ، وعلى علم الباطن وأهله وإن ابن حب الله كأنه يريد الطعن على ظاهر الشرع وأهله ، إذ لاشريعة بدون حقيقة ولا حقيقة بدون شريعة إذ كل حقيقة ظاهرها شريعة وكل شريعة باطنها حقيقة فالحقيقة ثمرة الشريعة والشريعة عنوان الحقيقة ٠٠) (١) ٠

وقال في الكوكب الوقاد : (واعلم أن علوم الحقيقة نتائج علوم الشريعة فمتى عمل العبد بموجبات أوامر الشرع واجتناب المنهيات وخلاف الأولى مخلصا صادقا فتح الله له روزنة (٢) في قلبه فشاهد بها علوم الحقيقة ٠٠٠) (٣) ٠

ويتا بعه ابنه على مثل هذا الكلام فيقول :

(إن مبنى هذه الطريقة على مسايرة الشريعة فكل حقيقة لاتشهد لها شريعة فليست بحقيقة وكل باطن لاتظهر له صورة في الظاهر لاعبرة به لأن الحق واحد والحق لاينافي الحق . وما ضل كثير من الناس إلا من اعتقاد الفرق بين المذهبين والتباين بين الطريقتين حتى خالف الحق في ذلك المعتقد والمنتقد ، فتمسك بظاهر الشريعة وافهم به باطن الحقيقة ٠٠) (٤) ٠

وقال بأن من مبادىء الزندقة اعتقاد أن الشريعه خلاف الحقيقة) (٥) ووافقهما على هذه النصوص أئمة الفاضلية كالشيخ ماء العينين والشيخ سعدأبيه ومحمد فاضل بن الحبيب ٠

فقال الشيخ ماء العينين في معرض رده على الفقهاء المنكرين لطريقة الصوفيـــــة

---

(١) نفسه ص ٢٥ ٠

(٢) الروزنة : الكوة : القاموس المحيط جـ ٤ ص ٢٢٧ ٠

(٣) الكوكب الوقاد ص ١٢٣ ٠

(٤) الطرائف ص ٦٠ . ٦١ ٠

(٥) الغلاوية ص ١٧٠ وما بعدها ٠

(إن الفقيه يدعى العلم الظاهر ولو كان يعلمه على الحقيقة ما انكر على أهل الطريقة) (١) .

وقال مخاطبا المريدين : (ولا تجعلوا لأحد من أهل الظاهر حجة علي أهل الباطن ...) (٢) .

وقد نظم الشيخ محمد فاضل القول في الحقيقة والشريعة فقال

حقيقة ليست لها شريعة   باطلة قد أفلت سريعة

وإن خلا التشريع عن تحقيق   صاحبه زاغ عن التصديق) (٣)

وقد نقل كل من الشيخ سعد أبيه ومحمد فاضل بن الحبيب وغيرهما من تعريفات وبيان الحقيقة والشريعة والباطن والظاهر والتلازم بينهما أشياء كثيرة تؤكد ما ذكر (٤) .

نقد : ويتلخص من هذه النصوص الأمور الآتية :

(١) أن القادريه في موريتانيا يقولون بما تقول به الصوفية من الالفاظ المحدثة المشتبهة.

(٢) ويفهم من شرحهم لهذه الألفاظ أنهم يريدون بالعلم أو الظاهر الشريعة بنصوصها ويريدون بالباطن أو الحقيقة أعمال القلوب أو ما يفهم من دقائق المعانى من النصوص أو ما يترتب من ثمار على العمل بمقتضى الشرع الحنيف .

---

(١) نعت البدايات ص ١١ .

(٢) نفسه ص ٢٠ .

(٣) نقلا عن الكشف عن المسائل الخمس ص ٤٩ والضياء ص ١٣٢ .

(٤) نفس المصدرين ص٤٨ . ٤٩ والضياء ص١٣٠ . ١٣٣ وجذوة الأنوار ص١٧ . ١٨ و٢٥ و٤٨ .

(٣) ويفهم أيضا من نصوصهم أن المعول عليه عندهم في العلم هو العلم اللدني أو الكشف • (١)وأنه لابد في تحصيل هذه المكانة التي بها ينال العلم اللدني من اجتهاد في تحصيل العلوم الشرعية ، والمجاهدة على العمل بموجبها حتى ترتاض النفس على ذلك •

ثم إذا حصل شيء من الكشف أو العلوم التي تقع في النفس لابد من عرضها علي نصوص الكتاب والسنة إذ إن كل حقيقة كما يقولون . تخالف الشريعة كفر• (٢)

(٤) ويمكن أن نقول بأن كبار شيوخهم الذين تقدمت ترجمتهم حصلوا مثل هذه الشروط ، ولكن غالبية أتباعهم الذين تروى كشوفاتهم وإشاراتهم و تنشر بين الناس لم يحصلوا علوم الكتاب والسنة حتى يعرضوها عليهما ، وهم يعملون بما يقع في نفوسهم ، ويصدقون بما يحكى لهم عن غيرهم مما يحتمل أن يكون مخالفا للكتاب والسنة والاجماع وهم غير عالمين بذلك•

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية في وصف حالهم المذكور وأمثالهم : (لكن قد يعمل أحدهم تارة بغير العلم الشرعي، بل بما يدركه ، ويجد إرادته في قلبه وإن لم يكن ذلك مشروعا مأمورا به • وهكذا كثيرا ما يبتلى به كثير منهم من تقديم علمهم بالذوق والوجد على موجب العلم المشروع ومن العمل بذوق ليس معه فيه علم مشروع)• (٣)

(٥) ثم ما فائدة إطلاق هذه العبارات ، وهي لاتعطي علما بذاتها ، ولا يعمل بالعلم اللدني أو الكشف أو الفيض إلا بعد موافقته للكتاب والسنة، حيث يكون العمل في هذه الحالة أو التصديق للكتاب والسنة أومدلولهما أو ما يشهدان له وفي هذه

---

(١) أنظر:جذوة الأنوار ص١٢ و٢٠ و٤١ ، الضياء المستبين ص١١٣ . ١١٦ و٣٤٨ •

(٢) أنظر : جذوة الأنوار ص ٥٥ . ٥٦ •

(٣) الاستقامة ، مرجع سابق ج ١ ص ٩٩ •

الحالة لايجوز أن يقول مسلم إنه عمل بما وقع في نفسه فقط .(١) لذا قال سيدي المختار الكنتي : (كل علم لايصدقه الكتاب والسنة فاضرب به وجه صاحبه) (٢) .

(٦) إن العلم اللدني إنما احتاج إلى العرض على نصوص الكتاب والسنة ليتميز الفرق بين اللدني الرباني واللدني الشيطاني ..

وهم معترفون بذلك . فمن لم يعرف الشريعة بنصوصها ودلالتها لا يعرف هل علمه لدني رباني أو لدني شيطاني ، فكيف يقال بأن عنده علم حقيقة الشريعة أو باطنها (٣)

(٧) قال شيخ الاسلام إبن تيميه : (ومن ادعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من له طريق إلى الله لايحتاج فيه إلى محمد فهذا كافر ملحد ، وإذا قال أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر دون علم الباطن ، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة ، فهو شر من اليهود والنصارى الذين قالوا : إن محمدا رسول إلي الأميين دون أهل الكتاب . فإن أولئك آمنوا ببعض وكفروا ببعض فكانوا كفارا بذلك ، وكذلك هذا الذي يقول إ ن محمدا بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر..) (٤)

ومع أن القادرية قائلة بعلم الظاهر والباطن وأن الشريعة قشر والباطن لبها إلا أنه يبعد عندي أنهم أرادوا بهذه الألفاظ موافقة الباطنية وغلاة الشيعة الآخرين في القول بمثل ما تضمنه هذا النص .

---

(١) أنظر : نشر البنود على مراقي السعود ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط ١ سنة ١٤٠٩ ج ٢ ص ٢٦١ . ٢٦٣ وقارن بما في نعت البدايات ص ٧٣ .

(٢) جذوة الأنوار ص ١١٥ .

(٣) نفسه ص ٢٠ وما بعدها ، وقارن بما في الصفدية ج ١ ص ٢٥٣ . ٢٥٤ .

(٤) مجموع الفتاوى ج ١١ ص ٢٢٥ .

والسبب في ذلك أنهم أهل بادية لاتعمق لهم في الفكر والفلسفات الغامضة ٠

ثم إنه لم تكن بالمغرب بصفة عامة وصحراء موريتانيا بصفة خاصة مراكز لمثل هؤلاء الملاحدة وإن كانت كتبهم لا شك في وصول بعضها إليهم ٠ ويشهد لذلك أنهم ليسوا بأصحاب تحقيق كما تقدم ولذا يجد الباحث في كتبهم تكرارا لمثل هذه العبارات وكأن معناها ليس واضحا عندهم وهم نقلة في الغالب ، ويمكن أن يشهد النص التالي لمثل هذا كما يوضح مرادهم الحقيقي بها :

(وأما من أدرك الشريعة غير مبال بإدراك الحقيقة وليست عنده بذلك المحل يزعم أنه مستغنن عنها وعن أربابها بما أداه فذلك فاسق في ظلمات الحيرة ، ليس له نصيب من أنوار الغيرة ، لكنه يبقى في سواد الاسلام لتمسكه بظاهر الشرع العزيز ، وأما من لا شريعة معه ولا حقيقة فهو من جملة الهمج ورعاء الغوغاء تقلبه رياح الأهواء) (١) ٠

إلي أن قال صاحب النص : (فمن صدق بالشريعة دون الحقيقة فهو منافق ، ومن صدق بالحقيقة دون الشريعة فهو كافر محضا) (٢) ٠

قلت : فهذا النص موافق لما ذكر قبله من حيث إن التصديق بظاهر الشرع دون الايمان والعمل بموجبه أو فهم دلائله التي لها ارتباط بأعمال القلوب فإنه يكون حاله دائر بين الفسق أو الكفر أو الايمان ببعض دون بعض وهو كفر ، أو أنه باق في سواد الاسلام بجهله (٣) ٠

على أن الباحـــث لايمكن أن يستبعد تأثر القادرية بكتب الشيعة أو غلاة الصوفية ذلك أنه يوجد في كتبهم ما يدل على حيازتهم لكتبهم وترديد لأفكارهم مـــن

---

(١) جذوة الأنوار ص ١٨ ٠

(٢) نفسه ص ١٨ ٠

(٣) أنظرجذوة الأنوار ص ١١٢ . ١١٣ وأنظر جنة المريدص ١٧١ . ١٨٥ والضياء ص ١٢ . ١٣ و ١١٣ و ١٣٩ ٠

القـــول بوراثـة الخلافة الباطنـــة وأن النبوة وراثة (١) وأن للقرآن الكريم معاني باطنـــة (٢) ٠

قال الشيخ سيدي محمد الكنتي : (وبقيت الخلافة الباطنة التي هي عين إرث النبوة على حالها عند أهل بيت النبوة المطهرين ٠٠٠ فظهر منه أن إرث النبوة باق فيهم إلى آخر الأبد يرثه عنهم من حقق الولادة النبوية بمقتضى قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم (أنا أبو كل تقي ولو كان عبدا حبشيا وبريء من كل شقي ولو كان حرا قرشيا) (٣) وقال صاحب الضياء في أماكن عديدة منها : (ومما أوجب الشرع تخصيص أحد الأولياء بالغوثية الباطنية) (٤) ٠

وقال المختار الكنتي نقلا عن غيره : (قال بعض العلماء ما من آية من القرآن إلاولها سبع معاني ظاهرة وباطنية) (٥) ٠

فهذه الألفاظ وأمثالها مما يشابه كلام الشيعة الباطنة في كتب القادرية كاف في إثبات نوع من الصلة بينهما علاوة علي ما تقدم عند ترجمة الشيخ عبد القادر ٠ وهذه الالفاظ وما يترتب عليها من اعتقادات فاسدة قد حذر منها العلماء قديما وحديثا واعتبروها من دسائس الباطنية والزنادقة لهدم قواعد الشريعة ٠

---

(١) جذوة الأنوار ص ٤٨ ـ ٤٩ والضياء ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ ٠

(٢) جذوة الأنوار ص ١١٢ ـ ١١٣ ٠

(٣) جنة المريد : قلت : هذا اللفظ لم أجده وإنما وجدت الشيخ الألباني ذكر لفظ : (أناجد كل تقي) ثم قال : (لا أصل له ٠ سئل عنه الحافظ السيوطي فقال : (لا أعرفه) ذكره في كتابه (الحاوى للفتاوى) (جـ ٢ ص ٨٩ السلسة رقم (٩) ولم أجده في المكان المذكور وراجع المقاصد الحسنة ص ٥-٦ ٠

(٤) الضياء ص ١٢ ـ ١٣ و ١٢٩ ٠

(٥) جذوة الأنوار ص ١١٢ ـ ١١٣ ٠

قال الغزالي : (وأما الطامات فيدخلها ما ذكرناه في الشطح ، وأمر آخر يخصها وهو صرف الفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الافهام فائـــدة كدأب الباطنية في التأويلات ، فهذا حرام وضرره عظيم ••• وبهذا الطريق توصل الباطنة إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم••) (١)

ووافقه على ذلك ابن عقيل كما نقله عنه ابن الجوزي فقال : (ولم يتجاسر الزنادقة أن ترفض الشريعة حتى جاءت المتصوفة فجاؤا بوضع أهل الخلاعة • فأول ما وضعوا أسماء وقالوا : حقيقة وشريعة •وهذا قبيح لأن الشريعة ما وضعه الحق لمصالح الخلق •فما الحقيقة بعدها سوى ما وقع في النفوس من القاء الشياطين • وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع) (٢) • وقد تابعه على مثل ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية (٣) وابن خلدون (٤) •

ويذهب المستشرق الفردبل إلى أنه قد شاع في المغرب بين صفوف الصوفية القول (بتأويل القرآن وأسماء الله والأحاديث تأويلا باطنيا وتفسيرات أهل الطريق•) (٥) •

وما دامت هذه الالفاظ مبتدعة من قبل الزنادقة والباطنية فإنه يحرم استعمالها ونشرها بين الناس أو اعتقاد مدلولها وإلا كان صاحب ذلك معرضا للحكم عليه بالزندقة والكفر ، ولذا ورد عن الامام مالك بن أنس رحمه الله قولة : (شر العلم الغريب وخير العلم الظاهر الذي قد رواه الناس) (٦) •

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٤٠ •

(٢) تلبيس إبليس ص ٤٥٠

(٣) الصفدية جـ ١ ص ٢٣٦ وما بعدها وص ٢٦٧ -٢٦٩ •

(٤) مقدمة بن خلدون ص ٨٧٥ وما بعدها •

(٥) الفرق الاسلامية في شمال إفريقيا ص ٣٨٥ •

(٦) ترتيب المدارك جـ ١ ص ١٨٤ •

وروي عنه أنه سأله رجل عن الشيء من علم الباطن ، فغضب وقال : (علم الباطن لا يعرفه الا من عرف علم الظاهر فمتى عرف علم الظاهر وعمل به فتح عليه علم الباطن) (١) ومما تستدل به القادرية على علم الباطن بالمعنى الدي تقصده الباطنية • حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : (حفظت من رسول الله صلي الله عليه وسلم وعائين : فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم) (٢)•

قال الحافظ بن حجر : (وحمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الأحاديث التي تبين أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم) وقد كان أبو هريره يكني عن بعضه ولا يصرح به خوفا على نفسه منهم) •

وقال ابن المنير: (جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهرا و باطنا ، وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين ٠٠) (٣) والعياذ بالله •

---

(١) نفسه جـ ١ ص ١٢٧ •

(٢) صحيح مسلم ، كتاب العلم ، باب حفظ العلم ، الحديث رقم : (١٢٠) وأنظر : جذوة الأنوار ص ١٠١ وبذل الوسع ص ٧١ والضياء المستبين ص ١٩٢ . ١٩٣ •

(٣) فتح الباري جـ ١ ص ٢١٦ . ٢١٧ •

المبحث الثالث : موقفهم من الجهاد

تقديم :

الجهاد في سبيل الله تعالى ثابت في الكتاب والسنة والاجماع ، ومن ينكره أو يفسر المراد منه بما يخالف النصوص الواردة فيه يكون حكمه حكم المرتد على الغالب كما هو حال الدعوات الهدامة التي أنشأها الاستعمار في البلاد الاسلامية (١) ولكن لسعه دائرة الجهاد وتعدد جوانبه وميادينه تفاوت الناس بعد العصور المفضلة في العناية به فمن مقتصر على الجهاد بالسنان ، ومن قائم على الجهاد بالقلم والبيان ، والقليل من جمع بين الميادين الجهادية كلها (٢) .

مدخل عام :

وإذا أخذنا كمدخل لهذا المبحث في الحديث عن الجهاد عند القادرية ابتداء من الشيخ عبد القادر نجد أن المترجمين له يجمعون على أنه كان طالب علم ثم شيخ رباط لا يخرج من رباطه إلا يوم الجمعة ، فعلى هذا لا يمكن اعتباره في المجاهدين بالسلاح ، ولكن يعد من المجاهدين بالدعوة إلى الله والوعظ والارشاد والبلاغ حتى قالوا عنه إنه أسلم على يديه أكثر من خمسمائة ، وتاب على يديه أكثر من مائة ألف (٣) ولكن لم يجعل هو في الغنية ولا السهروردي في العوارف ولا الغزالي في الاحياء كتابا أو بابا للحديث عن الجهاد في سبيل الله ، ويفهم من ذلك أنهم يقدمون عليه المرابطة الصوفية في الاربطه (٤) . وهكذا لم نعثر على من له جهود بارزة في ميدان

---

(١) عقدية ختم النبوة بالنبوة المحمدية . عثمان عبد المنعم عيش ط ١ سنة ١٣٩٦ هـ مكتبة الأزهر ص ٨١ . ١٨٦ والبريلوية عقائد وتاريخ ، إحسان إلهي ظهير ، ط ٦ سنة ١٤١٠هـ الناشر : إدارة ترجمان السنة لا هور باكستان ص ٣٦ . ٤٤ .

(٢) من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية .

(٣) اعلام النبلاء جـ ٢٠ ص ٤٤٧ و ٤٤٩ .

(٤) الغنية جـ ٢ ص ١٥٨ وما بعدها . عوارف المعارف ط ٢ لنبان سنة ١٤٠٣ هـ ص ١٠٣ وما بعدها وإحياء علوم الدين ، المقدمة جـ ١ ص ١٠ . ١١ وأبو حامد الغزالي والتصوف عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية دار طيبة الرياض ط ٢ ١٤٠٩ هـ ص ٢٣٩ وما بعدها .

الجهاد بالسيف للكفار في عامة شيوخ القادرية الذين تقدمت ترجمتهم في السلسلة القادرية الموريتانية وحتى القرن التاسع الهجري حيث كان الشيخ المباشر للقادرية الموريتانية الامام عبد الكريم المغيلي الذي أجمع الكتاب عن المنطقة على أمامته وجهاده في جميع ميادين الجهاد حتى قارنه النشار في ذلك بشيخ الاسلام إبن تيمية (١) قال عنه أحمد بابا التنكي : (متمكن المحبة في السنه وبعض أعداء الدين وقع له بسبب ذلك أمور مع فقهاء وقته حين قام على يهود (توات) والزمهم الذل بل قتلهم وهدم كنائسهم) (٢) ، ونازعه في ذلك بعض الفقهاء وانتصر له معظمهم ، وقد جمع صاحب المعيار المغرب ما حصل في تلك الوقائع من الفتاوى والمنازعات (٣) وقد جال هذا الامام في بلاد إفريقية ونشر العلم ودعى إلى الله وألف الكتب العلمية ودون الأحكام السلطانية وجاهد في الله حق جهاده حتى مات في (توات) منطقتة بعد أن قتل اليهود ابنه فيها .(٤)

ولكن المغيلي يعد بجهاده بالسيف لليهود وغيرهم خارجا عن منهج القادرية الذي يصفه كتاب غربيون بأنه منهج متسامح يقوم على الدعوة والارشاد فقط.

يقول بول مارتي عن المغيلي (إنه أبرز وجه ديني في ذلك العصر ... وكان داعية كبيرا للاسلام ، وجاء ليحمل الهداية للبلاد السوداء وحتى في بلاط آسكيا في فاوو ، وقد أدت محاولاته في الاصلاح ونشر الاسلام إلى انتفاضات في (توات) ، ولا سيما من جانب اليهود ، هلك أحد أبنائه خلالها .

وذلك (عندما شرع في مطاردة اليهود ، وهم كثير للغاية في الواحات الصحراوية وخرب قراهم وشرد سكانها سواء في إفريقيا الشمالية أو في الصحراء السودانية) .

---

(١) مقدمة تحقيق كتاب السياسة ص ٢٧ .

(٢) نيل الابتهاج ص ٣٣٠ .

(٣) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقيه والاندلس والمغرب . تأليف ابى العباس أحمد بن يحيى الونشريس . نشر وزارة الاوقاف المغربية ١٤٠١ هـ ج ٢ ص ٢١٤ - ٢٦٦

(٤) العلاقات بين المغرب الاقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتيين الإسلاميتين مالي وسنغي الشيخ الأمين عوض الله . دار المجتمع العلمي بجدة سنة ١٣٣٩ هـ ص ١٨٥ . وما بعدها . والملحق (١٠) ص ٢٤٣ وما بعدها .

(وكان المغيلي هذا ، الرئيس الأعلى للطريقة القادرية في الغرب الإفريقي) (١)٠

قلت : هذا تصوير هذا الغربي لجهاد هذا الامام القادري الذي وصفه أيضا بأنه : (داعية إسلامي لا يقهر) (٢) ٠

ولكن يخالفه بعض الكتاب الآخرين الذين يرغبون أن تظل الساحة الاسلامية مسالمة ومهادنة لينعموا هم بنشر ما يريدون ، ويمتدحون من عاصرهم من القادرية بالتسامح الديني إذ إن الجهاد بالسيف يرعبهم كثيرا فيقول السيرتوماسى في كتاب الدعوة إلي الاسلام عن القادرية ونظامها في نشر الاسلام : (وكان نشاط هذه الجماعة في الدعوة ذا طابع سلمي للغاية يعتمد كل الاعتماد على الارشاد وعلى أن يكون الواحد منهم قدوة لغيره كما كان يعتمد على مبلغ تأثير المعلم منهم في تلاميذه كما كان يعتمد على انتشار التعليم ٠

وبهذه الخطة برهن دعاة القادرية في السودان على أنهم أوفياء لمبادىء مؤسس الجماعة ولتقاليدها العامة ٠ ذلك لأن أهم المبادىء التي كانت تسيطر على حياة عبد القادر هي حب الجار والتسامح ولا نجد في كتبه ولا في مواعظه ما يدل على سوء نية أو عداوة نحو المسيحين وكان كلما تكلم عن أهل الكتاب ، لم يزد على أن يعبر عن أسفه على ما هم فيه من باطل ويدعو الله أن ينير لهم السبيل وقد أوصى تلاميذه بهذا السلوك السمح الذي كان صفة بارزة في أتباعه في جميع العصور) (٣)

ويتابعه في نظرته لهم من خلال تعرفه على واقعهم (لوثروب الامريكي) : فيقول بعد تعريفه للشيخ عبد القادر : (وكان له حرمة حقيقية للسيد المسيح وكان يقول : (يلزم أن ندعو لا لأنفسنا فقط ، بل لكل من خلقه الله مثلنا ٠ فلذلك امتاز أتباعه بروح التسامح مع النصارى واليهود)٠

ويأتي بمعلومات عن نظامهم في التعليم والدعوة ويقول إنهم يصنعون ذلك : (لأجل مقاومة التبشير المسيحي في السودان) ثم يقول : (وبالاجمال فالقادرية هم

---

(١) يول مارتي كنتة الشرقيون ص ٣٣ ٠

(٢) نفسه ص ١٤٢ ٠

(٣) الدعوة في الاسلام ص ٣٦٦ ٠

أحمس مبشرى الدين الاسلامي في غرب إفريقية من السنيغال إلى بنين التي تقرب من مصب النيجر ، وهم ينشرون الاسلام بطريقة سلمية أي الإستعمار والتجارة والتعليم ..) (١) . ولا شك أن نشر الاسلام بأي طريقة كانت من أعظم القربات ، والتسامح بصفة عامة من خلق المسلم ما لم يؤدي إلي فساد ، ولكن لو قام هؤلاء الموفصـــون عند هؤلاء الكتاب بالتسامح الديني بواجب الجهاد في إفريقيا لكان الاسلام عمها كلها ، ولكانت روحه عالية تصد هجمات الغرب الاستعمارية والصليبية البائرة وما امتدحوهم إلا لما رأوا فيهم من الليونة معهم في باطلهم وتغاضيهم عنهم في تدخلاتهم .

والحاصل أن الجهاد بالسيف لم ينتظم في تلك البلاد بصفة عامة بعد الدولة المرابطية وإن ظل الإسلام في انتشار وازدياد إلى اليوم بحمد الله .

على أن كثيرا من الكتاب المسلمين يظهرون أثر الطرق الصوفية في ذلك بمزيد من المبالغة وإن سلم من نسبة كل ذلك الفضل للطرق الصوفية فلن الواقع يؤيده إلى حد كبير وقد شهد بذلك الكفار على ما مرفي النصوص السابقة .

ويبقي أن يقال بأن الاسلام الذي نشرته الطرق الصوفية لم يكن في نفوس الشعوب بذلك المستوى الذي يعطي ثمارا إيمانية تميز الحق من الباطل وترفض الخلط بين الايمان والشرك ومظاهره هذا علاوة على ما عرف عن الطرق الصوفية من بث روح الإرجاء وإهمال أسباب القوة والاقتصار على السلوكيات والأوراد التي قد لاتكون ذات أثر كبير لبعدها من نور الوحي واعتمادها صياغات الشيوخ الذين تقدم أن معظم أتباعهم والصادرين عنهم يعيشون في جهل مطبق (٢)

ولا شك أن القادرية في إفريقيا في مجال الدعوة والتعليم ونشر الاسلام كان لها أثر كبير جدا غير أنه كان معها غيرها من تجار المسلمين ودعاتهم وعدم ذكرهم وإعطاء فضلهم لغيرهم لايليق بالبحث العلمي الذي يتحتم فيه الإنصاف ، على أنه من

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٣٩٦ .

(٢) أنظر : واقعنا المعاصر محمد قطب ط ٢ سنة ١٤٠٨هـ مؤسسة المدنية ص١٣٩ - ١٦٤ و ١٦٥ . ١٧٩ .

الاتصاف أيضا أن يقال بأن شيوخ القادرية والصادرين عنهم كانوا أكثر تركيزا على نشر الاسلام لطلب المزيد من الأتباع ، ولذا كانو أكثر استقرارامن غيرهم في بعض المناطق النائية الوثنية والتي لم يعد يوجد فيها الآن إلا المسلمون (١)

قال الخليل النحوي في وصفه لخطط الطرق الصوفية في نشر الاسلام :

(لم تكن الخطة التي حقق بها الزوايا ما عجزوا عن تحقيقيه بالسلاح خطة إقليمية ، قاصرة على مضارب خيامهم ومنتجعات مواشيهم . بل كانت خطة عامة ذات بعد إنساني . لقد توقفت الفتوحات التي تعضدها قوة السلاح) (٢) .

ويعلل الخليل ذلك التوقف بقوله : (أصبحت دار الإسلام ديارا متصدعة الجذر، وكان في الوهن الذى أصاب المسلمين ما ينذر باحتمال توقف انتشار الإسلام خارج دياره) (٣) . إلى أن يقول : (ومن ذلك الحين لم تتوفر للعرب ولا للمسلمين القوة التي تمكنهم من أن يفتحوا البلاد الأخرى ويصدعوا فيها بما أمروا ويبرزوا في حياتهم وسلوكهم نموذج الإنسان المسلم ليقتدى بهم الناس عن بينة أو يعرضوا وقد قامت عليهم الحجة) (٤) .

وفي هذا النص تصوير كامل لواقع المسلمين الجهادي وهو في نظري يوافق الواقع في البلاد المذكورة تماما إلا أن النص التالي وإن كان صوابا في مجمله ففيه من نسبة الفضل الكامل للطرق الصوفية ما لا يخفى ، قال الخليل النحوي : (هنا كان تدخل الطرق الصوفية رائعا . لقد حملت لواء الفتوحات الذي وضعه المجاهدون واستمرت في نشر الإسلام في أنحاء المعمورة ، فحققت بالسبحة والكتاب واللوح ما لم يتحقق في

---

(١) أنظر : بلاد شنقيط ص ١٢٥ . ١٢٦ .

(٢) بلاد شنقيط ص ١٢٦ .

(٣) نفسه ص ١٢٦ .

(٤) نفسه ص ١٢٦ .

عهدها بالسيف والترس والرماح وفي إفريقيا بالذات أبلت هذه الطرق بلاء حسنا • إن الطرق الصوفية على الخصوص ومنذ القرن الثامن عشر هي التي حملت رسالة الإسلام للشعوب السوداء) (١) •

على أن صاحب النص لم يقصد بكلامه حيازة كل الفضل لهذه الطرق الصوفية بدليل أنه سجل لشيوخ المحضرة الموريتانية أثرهم الكبير في نشر الإسلام والتحرك في البلاد للدعوة إلى الله ، وليس كلهم شيوخ طرق أو أتباعا لها (٢) •

وبما تقدم من الحديث عن موقف القادرية من العلم ونشره وتحصيله وإقامة المراكز والمدن وتوفير وسائل الاستقرار مع كثرة الحركة التجارية والرحلات والسياحات والزيارات المتبادلة بينهم وبين أتباعهم يمكن أن يقال بأنهم في هذه الجوانب كانوا مجاهدين في سبيل الله وكل على نيته في ذلك والله يضاعف لمن يشاء (٣) •

وإذا أردنا أن نخرج بنتيجة واضحة عن موقف القادرية من الجهاد بالسيف فإنه يمكن تناول ذلك الموقف في هذين المطلبين الآتيين :

المطلب الأول : موقف شيوخ القادرية من الجهاد قبل الإستعمار الفرنسي •

المطلب الثاني : موقف شيوخ القادرية من الجهاد إبان ظهور المستعمر •

---

(١) نفسه ص ١٢٦ •

(٢) أنظره ص ١٢٥ •

(٣) أنظر : كنتة الشرقيون ٣٩ وما بعدها • والدعوة الإسلامية في غرب افريقيا وقيام دولة الفولاني . حسن عيسي عبد الظاهر ، جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية المجلس العلمي سنة ١٤٠١ هـ ص ١٦ وبلادشنقيط ص ١٢٤ . ١٢٥ . ١٢٦ •

المطلب الأول :

موقف القادرية من الجهاد قبل الاستعمار

قال ابن خلدون بعد ذكره لنشر المرابطين للإسلام بالجهاد في أفريقيا (وبقي من أقام بالصحراء منهم على حالهم الأول من إفتراق الكلمة واختلاف البين وهم الآن يعطون طاعة لملوك السودان ويحبون إليهم خراجهم وينفرون في معسكرهم وأتصل بنيانهم على بلاد السودان ‥) (١)

وقد أنتشر الاسلام في مالي وغانه وما جاورهما في عهد المرابطين ودخله أمراء البلاد وفتحوا المجال للدعاة والتجار فانساخوا في البلاد ينشرون الدين بالدعوة والقدوة الحسنة ، وكان منهم ملوك عملوا على نشر الاسلام بالقوة وإدخال مساحات كبيرة من البلاد الوثنية في ممالكهم (٢) إلا أنه بعد دخول القادرية على يد المغيلى في أواخر القرن التاسع واوائل القرن العاشر لم نجد بعده من يذكر عنه الجهاد بالسيف للكفار الباقين في البلاد المجاورة بل إن المذكور عن اصحابه من بعده الاقتصار على الدعوة ونشر الاسلام بالقدوة على ما تقدم في النصوص الماضية من خطتهم في ذلك ٠

وإذا أخذنا في الحديث عن جهاد المختارية والفاضلية بعد أن عرفنا بهما في القرن الثاني عشر الهجرى نجد أن المؤلفين منهم في المجال الفقهي بوبوا للجهاد في مؤلفاتهم ودرسوا نظريا في كتبهم وفتاواهم جهاد الكفار والبغاة والمحاربين ، والقتال للعصبية والحكم فيه ، وردوا على دعوات المهدوية وساعدوا من حارب مدعيها ، وشاركوا مشاركة ظاهرة فى توطيد سلطة بعض الأمراء التابعين لهم في الطريقة ولو أدى ذلك إلى تشجيعهم لقتال قوم آخرين ، وسفك دمائهم وأخذ أموالهم ، بالاضافة إلى أن بعض شيوخهم عاش في بيئة قبلية متناحرة لا يسلم المرء وإن احترس من شرها من الاشتراك أو المشاركة فيها بقصد أو بدون قصد ٠ (٣)

---

(١) ابن خلدون . التاريخ جـ ٦ / ص ١٩٨ ٠

(٢) أنظر نفسه ص ٦ . ١٩٨ . ٢٠٢ ٠

(٣) الطرائف ص ١٦٩ و ٥١٨ والغلاوية ص ٩٧ . ١١٨ و ١٥١ وكفاية الطلاب كتاب الجهاد (خ) والصوارم الهندية في حسم دعاوى المهدية (خ) والوسيط ص ٤٩٢ ٥١١ وبلاد شنقيط ص ٢٦٧ ودليل الرفاق على شمس الاتفاق جـ ١ / ص ٣٥١ ٠

بهذا يعرف أن القادرية كانت مشاركة فعلا في كثير من الصراعات التي تشهدها البلاد بغض النظر عن كون ذلك جهاد أو تدخلا لحفظ المكانة والمصلحة أو للدفاع عن الحمية والمنفعة ٠

على أن بعض الكتاب يرفع من مكانة القادرية وأثرها في البلاد حتى يوصل شيوخها إلى مكانة تقارب مكانة الخلفاء والسلاطين ، وهذا ما يزيد من مسؤليتها ويبعث على نقدها نقدا يوازى ذلك المستوى الذى أعطي لها ٠

فالشيخ سيدي محمد الكنتي يرى أن والده : (تهيأت له سائر الولايات) (١) وأنه (كان يصلح بين الناس ويولي ويعزل) ٠(٢)

أما الشيخ سيدي (فإن العرب في أرض شنقيط تجعله حرما آمنا ٠٠) (٣) وكان الشيخ محمد فاضل له جانب كبير من السلطة والتوقير (٤) وكان للشيخ القاضي وأبنائه من بعده الكلمة النافذة في محيطهم (٥) ويلخص هذه المكانة الخليل النحوى من وجهة نظره فيقول : (فقد تحقق للزوايا بالطرق الصوفية من السلطة ما لم يكن ليتحقق لهم بقوة السلاح ٠ وقد استطاعت الطرق أن تقيم (دولا) وأشباه دول غير معلنه أساسها شعبية عارمة تدعمها دبلوماسية حصيفة وروح سلمية تتحلل في مواجهتها قوة الرجال المسلحين) (٦) ٠

وإذا سلم الباحث ببعض ما ذكر في هذه النصوص فإنه لابد من القول بأن أصحابها لم يستثمروها إلا في حدود ضيقة تعود على زواياهم بالنفع العاجل ٠

---

(١) الطرائف ص ١٦٦ ـ ١٦٩ ٠

(٢) نفسه ص ٣٨٣ ـ ٣٩٢ وما بعد ذلك وكنتة الشرقيون ص ٦٦ وما بعدها ٠ وكنتة الشرقيون ص ٧٩ ـ ٨٢ ٠

(٣) الوسيط ص ٢٤١ ٠

(٤) الضياء المستبين ص ٢٧١ و ٢٨٢ وجنة المريد ص ٢٤ ٠

(٥) دراسة شخصية الشيخ المصطفى بن الشيخ القاضي ص ٨٠٠ ـ ٨٩ ٠

(٦) بلاد شنقيط ص ١٢٥ ٠

بدليل أنه لم تصدر منهم دعوة منظمة لإقامة خلافة إسلامية أو سلطة مركزية عامة تنظر في أحوال الناس ومصالحهم وهم ينظرون إلى الدماء تسفك في غيرحق ، والأموال تنهب وتتلف في غير وجه شرعي ، والاعراض تغتصب ، والاحكام معطلة . (١)

والا فما فائدة المكانة والسلطة والاحترام ، إذا لم يسخر للجهاد في سبيل الله وتحكيم شرعه ، وإقامة الأمن في ربوع البلاد . ومع ذلك فإنه لا ينكر أنه قامت دعوات متفرقة لإقامة خلافة راشدة أو سلطة معتبرة (٢) ولكن لم تلق من الاطراف جميعا ذلك التعاون الذي يساعد على إخراجها في واقع الناس .

ثم إذا نظرنا إلى ما ذكر عن إتخاذ حضرات الطرق الصوفية حرما آمنا نجد فيه من المبالغة ما يكفى للحد من إطلاقه أن يقال بأنه ثبت في التاريخ ومن كتب القادرية أنفسهم تسلط اللصوص على أموالهم وتجارتهم ، وغزوهم في عقر دارهم .

فهذا الشيخ على بن النجيب شيخ القادرية في عهده يسوق السراق إبله فينبعث تلميذه المختار الكنتي معه لاستردادها منهم (٣) كما تعرض المختار الكنتي نفسه فيما بعد لغزو وسطو من هؤلاء اللصوص والظلمة الذين لا تقف في وجههم سلطة ولا يعرفون دينا يرتدعون به من أنفسهم (٤) .

وحصلت نفس المعاناة من الظلم والتسلط لكل من الشيخ سيدي محمد (٥) والشيخ سيديا (٦) وولده الشيخ سيدي محمد (٧) ، والشيخ محمد فاضل وأبنائه (٨) .

---

(١) أنظر: الموسوعة الموريتانية المختار بن حامد جزء القلاقمة نقلا عن :

دور المحاضر الموريتانية في الجهاد محمد المصطفى الندى ص ٨٠ . ٨١ .

(٢) بلاد شنقيط ص ٣١١ وما بعدها . وكتاب طرد الضوال والهمل عن الكروع في حياض مسائل العمل . ط ١ سنة ١٩٨٥ هـ نواكشوط ٤ وما بعدها .

(٣) الطرائف ص ١٠٥ . ١٠٦

(٤) نفسه ص ٣٨٣ . ٣٢٤ .

(٥) الغلاوية والصوار الهندية فأن فيهما بيان لما كان يتعرض له من أذى جبرانه ومعاصريه .

(٦) موسوعة المختار بن حامد . حياة موريتانيا . محمد المصطفى بن الندى ص ٨٠

(٧) الوسيط ص ٢٦٤ . ٢٦٦ .

(٨) الضياء المستبين ص ٢٣٩ . ٢٤٠ و ٢٤٣ و ٢٨٢ .

فالحق أن يقال إنهم كانوا من بين المستضعفين في تلك البلاد السائبه (١) التي لم يتفقوا على إنقاذها مما هي فيه ، وكل منهم أكتفى بتعلم بعض الأسرار والعزائم والرقي والتمائم التي قد تصل بصاحبها إلى حد الشرك والكفر كما صرح بذلك أئمة المشايخ في الطريقة القادرية نفسها فضلا عن غيرهم من الفقهاء الآخرين (٢) .

عـــــــرض :

وهذه نصوصهم التي تبين حالهم ، وتركهم لمظاهرالقوة ودخولهم في سلك المستضعفين في تلك البلاد .

يقول الشيخ سيدي محمد بن المختار الكنتي معتذرا عن قومه الذين هم حملة لواء القادرية البكائة : (إن كنته قبيلة من قبائل الزوايا المتقادمة التي لا نسبة لها في التلصص ولا في البغي ولا في الحرابة وإذا ثبت أنه لا أصل لها في الحرابة والبغي وليسوا ممن عرف بذلك وأتسم به متقدما دخلوا لا محالة في غمار الزوايا الذين هم على أنحاء منهم الذين لا يحملون السلاح ولا يتخذون الاتباع ولا يواسون لصا وهم زوايا القبلة ، ومنهم الذين يحملون السلاح وتأوي إليهم الأتباع ويواسون اللصوص وهم مع ذلك متسيرون بسيرة الزوايا متدينون يتعلمون العلم ويعلمونه وفيهم العلماء والأولياء ثم من تعدى إليهم مدفوع المواساه من لص ومحارب دفعوه عن أنفسهم وأموالهم وحرمهم بما بأيديهم حاليا ذلك عليهم ما هو جالبا وهؤلاء زوايا تكانت والحوض ، ومن خلفهم من الزوايا إلى منتهى المعمورة فإن وقع بين القبيلتين منهم نزاع وتشاجر في نائرة ردوها إلى الله ورسوله ثم رجعوا إلى ما حكم به الشرع العزيز في النائرة فإن اعتدى معتد منهم لم يجـــد مساعدا من حزبه بل تناصروا فيه فردوه إلى الحق ولم يجد ناصراً ولا مظاهـــرا) (٣)

---

(١) بلاد شنقيط ص ١٠١ وما بعدها

(٢) الشموس الاحمدية ٢٠ . ٢١ وجنة المريد ص ٢٤ . ٢٥ والضياء المستبين ص٢٤٣ وغيرها . ورشد الغافل ، وكتاب مذهب المخوف على دعوات الرحروف ص ١١ وغيرها .

(٣) الغلاوية ص ٨٥ . ٨٦ .

وأما الفاضلية فإن الشيخ سعد أبيه ينقل موقف والده من حمل السلاح ويوضح ما كان عليه من الابتعاد والفرار من مواطن القتال التي يبدو أنه يصورها كلها بأنها فتن لاجهاد ٠ وعندي أنه مصيب في كثير من ذلك دون تعميم ، ويتلخص ذلك الموقف فيما يأتي :

(١) التحذير من الفتن وأن الصبر زمن الفتن أجمل ٠

(٢) وحث الزوايا على عدم حمل السلاح ، وأن حمله مفسدة للدين ٠

(٣) وأن السلــف كانــوا يختارون درجات الصبر على ما عسى ينال من شهــادة القتــل ٠ (١)

هذا موقفهم من السلاح وأسباب القوة والله تعالى يقول ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ٠٠ ﴾ (٢) ٠

ويقول تعالي ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ٠٠ ﴾ (٣)

وهم يقولون بأن التعرض للأمور العامة كالجهاد عاقبته سيئة (٤) ويقولون بأن (أول واجب في طريق السير عند أرباب السلوك دفن النفس في أرض الخمول وإيثار الأدنى من كل شيىء ٠٠) (٥) بل إنهم يجمعون على أن الجهاد الاكبر هو جهاد النفس

---

(١) نقلا عن دور المحاضر الموريتانية في الجهاد محمد المصطفى الندى ص ٨١ ٠

(٢) الانفال الآية (٦٠) ٠

(٣) التوبة الآية (١١١) ٠

(٤) الغلاوية ص ١٥١ ٠

(٥) نفسه ص ٥١ ٠ وإبراز الأدوار الفكرية للشيخ ماء العينين ص ١٥ ٠

على رسم الصوفية وينقلون في ذلك حديثا يبدو أنه لا أصل له بهذا اللفظ من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وهو : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الاكبر) فقالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله قال : (جهاد النفس) (١) قال الشيخ ماء العينين في تعريف الجهاد : (ويطلق أيضا على جهاد النفس والشيطان وهو من أعظم الجهاد قال شيخنا رضي الله عنه وأرضاه في نظمه (مطية المجد) مرجعا للضمير على النفـس :

جهادها هو الجهاد الاكبر　　　　سلاحها هيلله تكرر (٢)

وهكذا أرادوا أن تكون غير ذات الشوكة لهم (٣) حتى جاءهم المستعمر وغزتهم النصارى في عقر دارهم كما غزى التتار أهل بغداد وهم في أربطتهم يذكرون والذكر مأمور به في الكتاب والسنة على كل حال ويتأكد في حال القتال والمسايفة جهاداً في سبيل الله . علما أنه لا أحد يعترض على جهاد النفس ولا يقلل من قدره ، ولكن من جهادها حملها على الجهاد في سبيل الله تعالى وإقامة شرعه والذود عن حياضه حتى لا يطمع في أهله ودياره الطامعون كما حصل لكثير من بلاد المسلمين كما يتضح إن شاء الله في المطلب الاتي :

---

(١) انظر : فتح الودود ص ١٦٩ والصوارم الهندية في حسم دعاوي المهدية ص ٨٩ . ٩٠ والطرائف ص ٢٥٩ و٣٥٥ . ٣٥٦ . وهو في عوارف المعارف ، مرجع سابق ص ١٠٥ قلت : وذلك لحديث أحمد وغيره عن فضالة بن عبيد قال : (.. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المجاهد من جاهد نفسه لله أو قال في الله عز وجل) وهو حديث حسن . المسند جـ ١٣ / ص ١٠ . ١١ والترمذى باب ما جاء في فضل من مات مرابطا ، جـ ٥ ص ٢٠٦ وقد بين ابن العربي أن الصوفية أخذت من هذا الحديث أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر أنظر : عارضة الاحوذى دار الفكر جـ ٤ / ص١٢٢ .

(٢) دليل الرفاق جـ ١ / ص ٣٥٢ والضياء المتسبين ص ٣٦٧ . ٣٦٨ .

(٣) الطرائف ص ٣٨٥ . ٣٨٦ . والضياء المستبين ص ١٧١ . ١٧٦ .

المطلب الثاني : موقفهم من جهاد النصارى أو (الأستعمار الفرنسي)

لقد وجد المستعمر في البلاد الاسلامية بصفة عامة من يقاومه ، ووجد أيضا من يناصره ويتعاون معه ، وكان للقاديانية والبهائة من خدمة الاستعمار الانجليزي وغيره الاثر الكبير في تحطيم جدار المناعة الاسلامية ضد الغزوات الخارجية وذلك بنشر دعاوى فتح باب النبوة وتعطيل الجهاد ، والحج ووجوب طاعة المستعمر .

وقد كان من غلام أحمد بن غلام مرتضى القادياني المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ .(١)

والمبرزا علي محمد الملقب بالباب المتوفى سنة ١٢٦٥ هـ (٢) .

والمبرزا حسين علي الملقب بالبهاء المتوفى سنة ١٣٠٩ هـ (٣) .

من أتباع الطرق الصوفية الذين لهم سطلة روحية على عوام الناس وأتباعهم ، وزد ذلك وقد استغل المستعمر فيهم ميزات المكانة وحب الجاه والمال والغلو مع الغباوة والتغفيل وعدم الورع فأغدق عليهم من الاموال وهيأ لهم من الأسباب ما مكنهم من الاستمرار في مساعدته على تطويق البلاد الاسلامية . (٤) وقد أشتهر في المغرب الإسلامي أن الاستعمار الفرنسي وجد من يساعده من بعض الطرق الصوفية (٥) .

وإذا أقتصرنا على المحيط الذى يتناوله البحث فإننا نجد أن المستعمر بث عيونه وخبراءه ورحالاته ليتعرف على طبيعة البلاد وحال أهلها (٦) .

---

(١) انظر : عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ص ١٥٧ وما بعدها .

(٢) نفسه ص ٩٨ وما بعدها .

(٣) نفسه ص ١٢٠ وما بعدها .

(٤) نفسه ص ٩٨ . ١٢٠ . و ١٢٠ . ١٥٧ و ١٥٧ . وما بعدها .

(٥) مستنهى الخارف الجانى ص ٦١٦ وما بعدها .

(٦) حاضر العالم الإسلامي ج ٢ / ص ٥١ .

(وقال : غاسطون دونه الفرنسي الذي كلفته وزارة المستعمرات سنة ١٨٩٣ م أن يجوب البلاد التالية ويقدم لها عنها تقريرا) قال في وصفه لمهمته المشار إليها :

(كلفت اختراق البلاد المسماه (الترازه) و (أولاد أبو سبع) و (أولاد دليم) و (بلادالآدرار) والاقامة مدة من الزمن فى مستعمرة (ريودو اورو) الاسبانية ثم التقدم من جهة الشمال الشرقي إلى حد (تيدوف ثم رأس (جوبي) أي وادي درعة) (١). وقد قدم هذا الخبير لوزارة المستعمرات معلومات وافية عن حال البلاد وتقسيماتها التنظيمية والاجتماعية ، وأوضح ما تعيشه البلاد من فوضى وكسل • وهذه أمور مغرية للمستعمر ، كما قال صاحب الوسيط : (وكان هذا من الاسباب الداعية لتوجه فرانسه إلى أرض شنقيط لكثرة القلق والنهب فيها) (٢) ونجد أن هؤلاء الكتاب ركزوا أهتمامهم على أصحاب النفوذ بصفة عامة •

وعلى مشايخ الطرق بصفة خاصة ، وقد نال شيوخ القادرية المعاصرين لهؤلاء الجواسيس مكانة خاصة •

فهذا السيواندرى راسين يقول عن القادرية (وأما القاردية فهي أعظم من الجميع . يعنى الطرق الصوفية الاخرى . وقد اشتهرت بالتسامح والتساهل) (٣) ويصف (غاسطون دونه الشيخ سعد ابيه بأنه : (رجل محمود السيرة) (٤) ونوه بانقاذه لبول سليله الفرنسي من أيدى أولاد دليم (٥) كما نوه باخيه الشيخ ماء العينين قائلا وله أخ اسمه ماء العينين له اسم كبير) (٦) ويقول مارتى : (ويحتفظ الشيخ سيدي محمد في التاريخ بشرف منحه الضيافه للميجر فوردن وليف ، وبذلك

---

(١) نفسه ص ٥١ وما بعدها •

(٢) حاضر العالم الإسلامي ج ٢ / ص ٥٢ . ٥٤ والوسيط ص ٤٨٢ . ٥١١ •

(٣) نفسه ص ٤٥ •

(٤) نفسه ص ٥٤ •

(٥) نفسه ص ٥٤ •

(٦) نفسه ص ٥٤ •

دشن عادة التسامح الديني الذي احتفظ به شيوخ كنته خلال القرن التاسع عشر) (١) وأستمـر خليفته الشيخ سيدي أحمد البكايي كما يقول بول مارتي معهم في ذلك التسامح • (٢)

ويجمع بينه وبين الشيخ سيديا بابا في الثناء قائلا :

(واستنادا إلى تقارير بارث الذي أتيحت له فرصة ملازمة الشيخ في العديد من المرات ، والتحدث معه ، يتمثل لنا الشيخ بكل وضوح في مظهر صاحب الذهن المتفتح اللطيف المحب للمعرفة تماما كالشيخ سيديا • فقد كان متسامحا قدر المستطاع، لدرجة لا نجدها في كثير من الحالات لدى كبار شيوخ الاسلام) (٣) هذا بوضوح هو موقف القادرية من طلائع الاستعمار ، وجواسسه وهو يتلخص في التسامح والتساهل ، بل والمساعدة على انجاز الاعمال والحماية لفترات زمنية واعطاء جوزات تأمين (٤) •

وقد قدر المستعمر هذه المواقف وأثنى على أصحابها ووضع لهم مكانة كبيرة وعلق عليهم المهام وأمدهم بالهدايا ولكي يكون الأمر أوضح مما سبق نستعرض إن شاء الله الموقف العام من دخول المستعمر إلى البلاد ، ثم نعرض الموقف العلمي لشيوخ القادرية ودوافعهم وأدلتهم في أتخاذ تلك المواقف ، ويكون ذلك بشيء من الإيجاز لأن هذه الفقرة من هذا المطلب بحثت في موريتانيا حديثا ، وتباينت فيها وجهات النظر حتى وصل الأمر إلى حد التكفير أو الاتهام بحب النصارى والعمالة للمستعمر • (٥)

ظهرت دعوات صادقة من بعض العلمـاء الغيارى على الدين والبلاد تنادي بنصب الإمام والجهاد ضـد الكفر والفساد حيث إنهم رأوا فوضى منتشـرة وأرضـا

---

(١) كنتة الشرقيون ص ٨١ . ٨٢ •

(٢) نفسه ص ٨١ و ٩٩ وما بعدها •

(٣) نفسه ص ١٠٠ •

(٤) نفسه ص ١٨ و ١٠٠ . ١٠٤ •

(٥) القادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ص ٢٤ •

سائبة وأعداء متربصين قد أظهروا طمعهم في البلاد وبدؤا يطوقونها من الشرق والغرب، ويحاولون إيجاد من يعتمد عليه في البلاد ليكون ذلك سببا وغطاء لدخولهم أو حتى يكون سبب لزيادة تفريق الكلمة وشتات الرأي الواقع في القطر آنذاك .

وكان من بين هؤلاء العلماء الشيخ محمد المامى حيث يقول من قصيدة له في ذلك من أبياتها :

(ويقرأ كلكم كيما تكونوا ... سواء للجهاد معطلينا

وقلتم لا جهاد بلا إمام ... نبايعه فهلا تنصبونا

إلى كم قولكم مستضعفونا ... وأنتم للمعاصي فارغونا

لتمتثلن أولاً كفرنكم ... كحسان الألاء تكفرونا) (١)

ويقول الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا من قصيدة يحرض الناس على الاستعداد للنصارى ، ويأمرهم بمحاربة أهل البغي من قبائل حسان :

(ولو في المسلمين اليوم حر ... يفك الأسر أو يحمي الذمارا

لفكوا دينهم وحموه لما ... أراد الكافرون به الصغارا

حماة الدين إن صارا ... أسيراً للصوص وللنصارا

فإن بادرتموه تداركوه ... وإلا يسبق السيف البدارا) (٢)

وظهرت محاولات لإخراج هذه الأفكار في حيز الواقع ولكن فشلت لكثرة الاختلاف ، وعدم ظهور بوادر الإئتلاف (٣) وكان الخوف من استمرارها أو نموها

---

(١) ديوان الشيخ محمد المامى ص ١٩٩ . ٢٠٧ .

(٢) الوسيط ص ٢٤٦ وما بعدها . وبلاد شنقيط ص ٢٨٠ وما بعدها .

(٣) أنظر : بلاد شنقيط ص ٣٠٣ وما بعدها . ودور المحاضر الموريتانية في الجهاد ٨٤

من أهم الأسباب التي عجلت نفرسنا إلى احتلال البلاد فوجهت أسئلة لبعض الفقهاء مثل : هل ينبغي للمسلمين أن يجاهدوا النصارى في أرض هم بها غير متعرضين لهم في شيىء من دينهم بل يساعدونهم على اتباع الدين بنصب القضاة وما أشبه ذلك ، وهذا مع أن المسلمين لا قوة لهم على الجهاد ·· ؟

وكان الجواب : أن على المسلمين والحالة هذه أن يهادنوا النصاري ومن خلال هذه الفتاوى ظهر خلاف بين العلماء ازدادت به الشقه بينهم (١) ثم عمل المستعمر على تكوين مرتزقة من اللصوص مقاتلين وأدلاء ومخابر بين (٢) واستدعت إلى مركزها بسينغال بعض الشيوخ والوجهاء وأظهرت لهم مالديها من قوة غلبت بها الجزائر وسينغال ومالي وغيرهم من دول افريقيا ، وأفهمتهم أنها داخلة إلى موريتانيا لا محالة فان شاؤا بالمعاهدات وان شاؤا فبالسلاح ، وما كان من هؤلاء المخاطبين إلا أن اختاروا أخف الضررين على حسب تقديرهم هم للأمور داخل البلاد وانبهارهم بما رأوه من امكانيات المستعمر العسكرية والمالية التى لم يسبق لهم وهم أهل صحراء وبادية أن رأوا مثلها ، هذا بالاضافة إلى التزام المستعمر لهم بشروط معينة رأوا أنها إذا نفذت تصون البلاد وتفيد ولا تضر فقرروا معاهدتهم على ذلك (٣) وعندما شاعت هذه المعاهدة ثارت ثائرة معظم الفقهاء وأعلنوا رفضهم وحذروا مما يترتب عليها في رسائلهم وفتاواهم ودخلوا في صراع مع أصحاب هذا الرأي وكانت عامة الأمراء وشيوخ القبائل والشعب بصفة عامة مع رفض هذه المعاهدة ووجوب الجهاد وتعينه بما يستطاع أو الهجرة عن بلاد يحكمها الكفار عند العجز عن الجهاد ·

قال الاستاذ محمد مصطفى الندى: (لقد قال بالهجرة والجهاد معظم علماء موريتانيا والساحة ·· وأقل العلماء تشددا من قال بوجوب الهجرة بعد العجز عن الجهاد) (٤)

---

(١) دور المحاضر الموريتانية ص ٨٦ و ٨٠ ·

(٢) المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني ص ٢٦٢ وما بعدها·

(٣) حياة الشيخ سعد ابيه ص ٥٣ وما بعدها · ودور المحاضر الموريتانية في الجهاد ص ٢ ـ ٨٥ والمحاضر الموريتانية وآثارها الربوية ص ٢٦٧ نص المعاهدة ·

(٤) نفسه ·

ويؤيد ذلك محمد الصوفي قائلا : (إن الجهاد اشترك فيه كافة أفراد الشعب) (١) وان العلماء وعمداء بعض المحاضر خاضوا المعارك ضد المستعمر (٢) ٠

وبهذا تبين أن البلاد انقسمت حيال مقاومة المستعمر وجهاده إلى معسكرين غير متكافئين عددا كما يقول محمد مصطفى الندى ٠ (٣) ونظرا لأن كلا من المعسكرين أو القطبين كما سماهما الأستاذ حامد بن محفوظ : يقوده جله من العلماء ذوى المكانة أخذ كل واحد يفتي ويراسل ويستدل لما ذهب إليه بنصوص الكتاب والسنة والنقول الفقهية (٤) التي نستخلص فحواها في الأرقام الآتية ونعلق عليها بنقد يناسب المقام ٠

ونبدأ بمسوغات القسم الأول :

قطب قبول الاستعمار ومعاهدته والانطواء تحت رعايته ويمثل هذا القطب كل من :

الشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد فاضل المتوفي سنة ١٣٣٥ هـ ٠

والشيخ سيدي بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا الكبير المتوفي سنة ١٣٢٤ هـ ٠ ويذكر معهما من المشايخ الشيخ التراد فيما بعد (٥) ٠

يذهب هؤلاء المشايخ في قبولهم دخول البلاد تحت الحماية الفرنسية انطلاقا من نظرة سياسية واجتماعية ونظرة شرعية تدعمهما ٠

فمن الناحية السياسية والاجتماعية :

---

(١) المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية ١٣٦ص ٠

(٢) نفسه ص ١٢٩ ٠

(٣) دور المحاضر الموريتانية في الجهاد ص ٨٠ ٠

(٤) القادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ص ٢١ . ٢٤ ٠

(٥) نفسه ص ٢٥ ٠

قالوا :

١) إن البلاد تعيش في ذلك الوقت ألوانا من الفرقة والنزاع والحروب الداخلية مما يجعلها ضعيفة عن الجهاد والمقاومة .

٢) وأن فرنسا دولة قوية وغنية وقد أحاطت بالقطر من كل جانب .

٣) وأن فرنسا من الدول التي توفي بالعهود والمواثيق وقد أخذوا عليها العهد بالأمور الآتية :

أ) عدم أخذ مغرم من الزوايا .

ب) وعدم إفساد عبيدهم عليهم .

جـ) وعدم التعرض للناس في دينهم .

د) وعدم اتخاذ جنود من الزوايا .

٤) وأن الجهاد الشرعي قد تعذر منذ أزمان (١)

٥) التحذير من عواقب حمل السلاح .

٦) وخوف الشيخ سعد أبيه على أخيه ماء العينين ومن معه وذويه من خطر محاربة فرنسا حيث إنه ليس من قوم يحملون السلاح ولا يعرفونه وليس في عشرته وفي بلاد كالصحراء نائية فإذا تمكن منه العدوفإنه قد يغر به أو يسفك دمه ويسبى حريمه ويصادر أمواله (٢) ويستخلص من حججهم التي أوردوها في رسائلهم المؤلفة تدعيما لما ذهبوا إليه وردا على المخالف والمنتقد لهم ما يأتى :

---

(١) حياة الشيخ سعد ابيه ص ٤٩ وما بعدها . والقادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ٢٥ وما بعدها .

(٢) دور المحاضر الموريتانية في الجهاد ص ٨١ . ٨٧ .

١) إنه إذا لم يمكن العدل إلا بالسلطان المخالف في الدين فالدخول في طاعته أولى .

٢) وأن ما ورد في موالات المخالف ومواددته إنما هو في الدين .

٣) وأن فرنسا نشرت العدل وأصلحت الأحوال في الدول التي استعمرتها ، (فوجب شكر الله على هذه النعمة العظيمة ثم شكر هذه الدولة المصلحة) (١)
ومن هذا الموقف الذي نجد له أوجه شبه كبيرة مع موقف البهائة والقاديانية مع المستعمر سار هذا القطب مع المستعمر الفرنسي فألف الشيخ سعد أبيه رسالة سماها : (النصيحة العامة والخاصة في التحذير من محاربة افرائصه) (٢) وألف الشيخ سيدي بابه أجوبة منها ما هو أجوبة لبعض العلماء الموريتانين ومنها ما هو أجوبة وتوجيهات لبعض القواد الفرنسيين . (٣)

وهكذا نجد أن هذا القطب أعطى المستعمر حججا وأعذارا لاحتلال البلاد وفرض سيطرته عليها ومحاربة من ناوأه من أهلها ، وساعدوه في مهامه في ذلك حيث تعاملوا معه سياسيا واداريا وأمنيا واقتصاديا وعسكريا وثقافيا حتى صار المستعمر يعد الخارج ضده للجهاد من قطاع الطرق واللصوص .(٤)

قلت : واضح أن هذا المعسكر كان مصابا مع ما ذكرمن مسوعات . بداء الانبهار بالغرب وقوة المستعمر بالمقارنة مع ما يعرفه شيوخه من قوة .

وواضح كذلك أن فرنسا خيبت آمالهم وثقتهم التي طرحوها فيها ، فنكثت العهود ولم تقم العدل ولم تبن المدارس ولا المدن ... فحسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) دور المحاضر في الجهاد ص ٨٤ . ٨٦ والقادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ص ٢٥ . ٣٠ .

(٢) توجد منها نسخ خطية في موريتانيا وسينغال .

(٣) القادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ص ٢٣ وما بعدها .

(٤) نفسه ص ٤٠ . ٥٢ وبلاد شنقيط ٣٢٩ وما بعدها .

القسم الثاني الذين رفضوا الاحتلال وأعلنوا الجهاد والمقاطعة

وتتكون هذه الطائفة من جمهور الفقهاء وعامة الناس ويبدو أن معظم هؤلاء الفقهاء من القادرية أيضا أو من المتعاطفين معها ، وكان من أبرز هؤلاء الشيخ ماء العينين الذي تمت بيعته على الجهاد بعد رحلاته وجولاته في البلاد داعيا إلى القيام بواجب الجهاد في سبيل الله ، ووطد علاقات وثيقة مع الأمراء داخل موريتانيا كما وطد علاقته بملك الغرب الذي أخذ منه عهدا بمده بالسلاح والعتاد (١) .

ويمكن حصر مجهود هؤلاء في الجهاد في النقاط الآتية :

١) اصدار الفتاوى المدعمة بالأدلة على وجوب الجهاد وتعينه ، كرسالة الشيخ ماء العينين التى يظهر أنها إجابة لأخيه الشيخ سعد أبيه وهي :

(هداية من حارا في أمر النصارى) (٢)

وفتوى العلامة الفقيه سيدى المختار بن محمد عينين بن أحمد بن الهادي وعنوانها : (إرشاد الضال عن وجوب جهاد كيلانى وحرمة مساكنته الموجبة للفسق والعصيان) (٣) وغير هذه من الفتاوى والقصائد المتضمنه لمثلها كثير جدا (٤) .

(٢) حرب العصابات وإرسال الفرق الفدائية ، مثل الفرقة التى قتلت القائد الأول للمستعمر في موريتانيا سنة ١٩٠٥م بقيادة سيدي بن مولاي الزين . (٥)

---

(١) الوسيط ص ٣٦٦ . ٣٦٨ .

(٢) الخزانة العامة في الرباط . في أثني عشرة ورقة تحت رقم (١٤٧٧ د) .

(٣) دور المحاضر الموريتانية في الجهاد ص ٨٨ . ٨٩ وكيلانى هو القائد الفرنسي الاول في موريتانيا ولد عام ١٨٦٦ م وقتل في تجكجه سنة ١٩٠٥ م .

(٤) بلاد شنقيط ص ٣٢٩ وما بعدها والقادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه ص ٢٣ . ٢٥ والملحق منه رقم (٢) ص ٩٣ . ١١٥ .

(٥) الوسيط ص ٣٦٦ والمساهمة في إبراز الادوار الفكرية والسياسية للشيخ ماء العينين ص . ٧٠

(٣) خوض المعارك المسلحة فى مواجهات عديدة (١)

وظلت هذه الطائفة مجاهدة ويهاجر الناس إليها من نواحى القطرحتى استولى المستعمر على المغرب وتوفي الشيخ ماء العينين فتمكن المستعمر من خنقها بقطع الامدادات عنها • واجتاح الجفاف البلاد لسنوات عديده أضعفت من قدرة الناس على الاستمرار فى حمل السلاح فهاجر الكثير من أصحاب الشيخ ماء العنين إلى الحرمين الشريفين ، مع بقاء أبنائة من بعده في ميدان الجهاد في الصحراء والمغرب ، ودخل كثير من القبائل في الجبال والوديان فرارا بدينهم ومقاطعة للمستعمر حتى لا تكون بينهم وبينه صلة رغم تتبعه لهم • (٢)

---

(١) المصادر نفسها ص ٣٦٦ والمساهمة نفسه ص ٣٦٦ . ٣٦٨ ووالدن بعده ص ٦٧ وما بعدها • وبلاد شنقيط ص ٣٣٤ وما بعدها •

(٢) الوسيط ٣٦٧ وكنتة الشرقيون ص ١١٣ . ١٢٥ وبلاد شنقيط ص ٣٣٢ . ٣٣٦ والاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء ص ١٢١ . ١٢٢ •

الفصل الثاني

الفصل الثاني

موقفهم من الحلول ووحدة الوجود .

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الاول : موقفهم من الحلول .

المبحث الثاني : موقفهم من وحدة الوجود .

المبحث الاول : موقفهم من الحلول :

التعريف : (الحلول : اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر .

ومذهب الحلول : القول بأن الله حال في كل شيىء .

(والحلولية : فرقة من المتصوفة تعتقد مذهب الحلول) (١)

ويضيف الجرجاني بأن الحلول نوعان :

١) الحلول السرياني : كحلول ماء الورد في الورد ، ، فيسمى الساري حالا والمسري فيه محلا .

٢) والحلول الجواري : وهو عبارة عن كون أحد الجمسين ظرفا للآخر ، كحلول الماء في الكوز . (٢) ويوضح ابن تيمية معاني الحلول ناسبا كل قول إلى أصحابه فيقول بأنه يمكن تقسيمه حسب إيمان القائلين به إلى أربعة أقسام هي :

١) الحلول الخاص : وهو قول النسطورية من النصارى ونحوهم ممن يقول : إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به كحلول الماء في الإناء .

٢) الاتحاد الخاص : وهو قول يعقوبية النصارى الذين يقولون : إن اللاهوت والناسوت اختلطا ، وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء .

٣) الحلول العام وهو المنسوب إلى طائفة من الجهمية المتقدمين .

---

(١) المعجم الوسيط جـ ١ ص ١٩٤ .

(٢) التعريفات للجرجانى ص ٩٢ .

٤) الاتحاد العام وهو قول الملاحدة الذين يزعمون أن الله هو عين الوجود (١) وقد اتبعت كل طائفة من هؤلاء طائفة من المنتسبين للإسلام .

والذي نريد الكلام عنه الحلول بالمعنى الأول الذي قال شيخ الإسلام إنه :

(قول من وافق هؤلاء النصارى من غالية هذه الأمة ، كغالية الرافضة الذين يقولون : إنه حل بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وأئمة أهل بيته ، وغالية النساك الذين يقولون بالحلول في الأولياء ومن يعتقدون فيه الولاية ، أو في بعضهم كالحلاج ويونس والحاكم ونحو هؤلاء) (٢) . وقبل أن نورد نصوصا من كتب القادرية توضح موقفهم من عقيدة الحلول نجد أن النصوص المتداولة بين الناس في البيئه القادرية تحذر دائما متنا وشرحا من عقيدة الحلول :

ومن هذه النصوص نص الإضاءة التي من نصها قول المقري فيها :

(ولا تصخ لمذهب النصارى	أو من إلى دعوى حلول صار
فذاك كالقـــول بالاتحـاد	نحلة أهل الزيـغ والإلحاد) (٣)

إلى أن يقول في معرض بيانه لمذاهب العلماء في المتشابه في باب الاسماء والصفات:

(وماله من ذاك تأويل فقـط	تعين الحمل عليه وانضبـط
كمثــل وهو معكم فــأول	بالعلم والرعي ولا تطـــول
إذ لا تصح ها هنا المصحابه	بالذات فاعرف أوجه المناسبه) (٤)

وتبعه على ذلك الشيخ ابن بون في الوسيلة مبينا استحالة هذه العقيدة . أعني

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى جـ ٢ / ص ١٧١ . ١٧٢ .

(٢) نفسه : ص ١٧١ . ١٧٢ .

(٣) اضاءة الدجنة ص ٢٧ .

(٤) نفسه ص ٨٨ . ٨٩ .

الحلول عقلا وشرعا فيقول :

(ومستحيل أن يكون ذا ولد … أو والد أو زوجة أو اتحد

بغيره حكما على اللاهوت … بأنه اتحد بالناسوت

أي قولهم أن الإله بجسد … عيسى نبيه وعبده اتحد

وباطل قولهم اذ متى بقي … كل على وجوده يحقق

كونهما اثنين إذا وإلا … بل عدما فلا اتحاد أصلا

لأن ذا الموجود ثالث وإن … واحدا الموجود منهما يكن

فإن ما وجد بالمعدوم … لم يتحدو ذا من المعلوم

وجعلوه مع ذا ليس بذات … بل من أقانيم الوجود والحياة

والعلم وهو عندهم بكلمه … يدعي فبالناسوت تلك الكلمه

إتحدت بالامتزاج أو محل … كان لها أو انطباع في المحل

ويقتضي وجود أوصاف بلا … متصف وكون معنى جعلا

منطبعا بحسد وهو أثر … لا نفسه ولا اتحاد بالاثر

أو مزجه بجسد أو جعلا … بالغير جزء الشيء قائما فلا

يعقل ذا وبعض أهل الباطن … من أهل سوءظاهر وباطن

يزعم أن قد حل بالأجساد … منهم تعالى باريء العباد

عما ادعوا من المحال الباطل … من كل ما يأباه عقل العاقل

فافتضحت مذاهب النصارى … وما ادعوا للانتقاض صارا) (١)

---

(١) الوسيلة ص ٣٥ . ٣٦ .

كثير من عقائدهم وغيرها ، وقد تصدى الغزالي لعقيدة الحلول منزها الباري حل وعلا عنها ورادا على القائلين بها مبينا أنها من الإلحاد والزندقة والدعاوي التي يتشبه أصحابها بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ويستشهدون بقوله أنا الحق ...) (١)

ولو أن الغزالي ظل على نقده وتكفيره لأهل الحلول والاتحاد ولم يأخذ في التماس الأعذار لهم والتأويلات البعيدة لأشعارهم وكلماتهم لكان قدوة حسنة لمن جاء بعده من الصوفية ، ولكنه صدرت منه في كتب له عديدة تأويلات واعتذارات لهؤلاء الملاحدة وأمثالهم فهدم بذلك ماقرره وخلط فخلط من جاء بعده (٢)

وقد أنتشرت كتب الغزالي في الصحراء الموريتانية (٣) وإن كانت الكتب التي تضمنتها رسالة الشيخ : محمد بن محمد بن علي اللمتوني إلى السيوطي لم يرد فيها ذكر لشيىء من كتب الغزالي وقد تضمنت كتبا عديدة يسأل صاحب الرسالة عن قيمتها وضرر الأخذ بالحديث الشريف الوارد في مثل هذه الكتب لمن لا يعرف صحته (٤) . ويمكن أن يفسر ذلك بأن كتب الغزالي مثل إحياء علوم الدين لم تصل إلى البلاد إلا في القرن الثاني عشر أو نحو ذلك ، يؤيده أن البرنامج الذي ذكره الشيخ أحمد بابا التنبكتي أنه أخذه على شيخه العلامة محمد بن أبي بكر الونكري التنبكتي المعروف ببغيغ المتوفي سنة ١٠٠٢ هـ لم يرد فيه ذكر للغزالي ولا لكتبه مع أنه ذكر أنهم كانوا يدرسون في التصوف حكم ابن عطاء الله مع شرحها لزروق (٥) ولكن يرد كثيرا ذكر كتب القاضي عياض مثل المدارك والشفا حيث ذكرت إجازاته والعناية به ، (٦)

---

(١) الإحياء جـ ١ ص ٣٩ و ٨٥ .

(٢) انظر : الصوفية في نظر الإسلام دارسة وتحليل سميح عاطف الزين ، دار الكتاب البناني ط ٣٥ سنة ١٤٠٥ هـ ص ٤١٠ . ٤١٣ وكتاب . أبوحامد الغزالي والتصوف ص ٢٩٥ وما بعدها .

(٣) انظر : الفرق الإسلامية في شمال إفريقيا ص ٣٨٠ وما بعدها .

(٤) الحاوي للفتاوي / السيوطي جـ ٢ ص ٢٨٤ وما بعدها .

(٥) نيل الابتهاج بهامش الديباج المذهب ص ٣٤١ . ٣٤٢ مرجع سابق .

(٦) فتح الشكور ص ١٧١ و ١٩٣ وغيرهما .

وقد عقد القاضي عياض في كتابه الشفا فصلا يوضح فيه عقيدة أهل السنة ويحذر من التشبيه والحلول أو ما يخالف قول الله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ (١) وتتمثل أهمية هذا الفصل في أنه نقل فيه من كلام أئمة الصوفية في التوحيد والتنزيه والفرار من التشبيه وما يؤدي إليه (٢) علاوة على كلامه هو في هذا الموضوع • ومن بين من نقل كلامهم شيوخ دافع شيخ الإسلام ابن تيمية عن سلفية عقيدتهم وبعدهم من عقائد الإلحاد والزندقة (٣) •

والمقصود أنه وحتى القرن الثاني عشر الهجري أو أواخر القرن الحادى عشرالهجري لم تكن في البلاد أرضية صالحة لمثل هذه العقائد الالحادية فلا نجد في البيئة القديمة أديانا كالنصرانية أو الإشراقية التي قد ترجع إليها هذه العقائد وكذلك لم تصل الكتب التي تنشر هذه العقائد إلا نحو القرنين المذكورين حيث راجت الكتب وانتشرت الوراقة ، ونزل بعض العلماء إلى بلاد المغرب فاشتروا الكتب واستنسخوها ، وحج فريق آخر ومر بالقاهرة أوغيرها من الحواضر فأدخل إلى البلاد كتب الغزالي وابن عربي والشاذلي والجيلي . عبد الكريم الجيلي وغيرهم فتلقاها الناس على أنها من كتب الأولياء والصالحين وأهل العلم والعرفان فقرؤها بدون تمحيص وسلموا بما فيها (٤) إلا ما رحم ربي • وعندما ألفوا نقلوا منها في مؤلفاتهم مستحسنين لها ثانين على أصحابها (٥) • ولنعرض بعضامن نصوصهم ليتضح موقفهم عمليا من عقيدة الحلول •

---

(١) الشورى (الآية ١١) شرح الشفا في شمائل صاحب الاصطفا صلى الله عليه وسلم لنور الدين ملا على القارى ط ١ المدني . القاهرة بتحقيق حسنين محمد مخلوف الجزء الثاني . ص ٦٩٩ وما بعدها •

(٢) نفسه جـ ٢ ص ٧٠٢ وما بعدها • والفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ٥٥ وما بعدها • والاثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين ص ٣٧٣ •

(٣) الاستقامة جـ ١ / ص ١٠٣ وما بعدها •

(٤) انظر الوسيط ص ٣٨ و ٢٤١ وغيرها •

(٥) الضياء المستبين ص ١٤ . ١٨ والطرائف ص ١١٣ . ١٥٣ • وكشف اللبس ص ١٤ . ١٥

عـــــــــــرض :

قال المختار الكنتي :

(فمن آمن بصفات الله وأسمائة كلها مجملة ومفصلة إيمانا اطمأن إليه قلبه فهو من المؤمنين أصحاب اليمين ، فلئن أثبته على الايمان مولاه إلى أن يتوفاه أنجاه وأعطاه من فضله أضعاف ما رجاه ثم أعلم أن العوالم بأسرها ممسكة بإمساك الواحد الأحد لها بلا مماسة كما أنها مقدوراته ومعلوماته يحيط بها من غير مماسة فمن حرج صدره عن عقـــد مـــن هذه العقود فهـو ذو شبهة وجمود متقاصر عن التوحيد معتقد للحـــدود) (١) ٠

وقال :(وفي حديث قدسي يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه أنه قال : لا تسعني أرضي ولا سمائى ولا عرشي ولا كرسي ولكن يسعنى قلب عبد المؤمن) (٢) ولذلك يقال له بيت الله ، والذي يسع قلب عبده المؤمن إنماهو معرفته وكملاته وأسرار غيبه وحقائق حكمته وأما ذاته فمنزهة عن الحلول والاتصال والانفصال فهو أقرب من حبل الوريد وأبعد بالنسبة إلى المماسة من العرش المجيد) (٣) ٠

وقال : (تنزه عن الاتصال وتعالى عن الاتصال إلى أن قال : (ومنزه عن الحلول والمثل ٠٠) (٤) (فالوصول إلى الله تعالي الذي يشير إليه أهل هذه الطريقة هو العلم الحقيقي وهو غاية السالكين) وقال فى معرض ذكر درجات السالكين ومنتهى سير السائرين وأما الوصول إلى الذات فيتعالى عنه إذ متى يتصل من لاشبيه له ولا

---

(١) الكوكب الوقاد ص ٥٣ ـ ٥٤ ٠

(٢) لم نجد هذا الحديث مسندا وقد ذكره شيخ الإسلام بن تيمية في كتابه علم الحديث وقال : (هذا مذكور في الإسرائليات ليس له إسناد معروف عن النبى صلى الله عليه وسلم) المرجع المذكور ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥ ٠ وقد نقل المحقق عن العراقي والزركشي والسخاوي والسيوطى : (أنه لا أصل له) انظره ٠

(٣) الكوكب الوقاد ص ١٠٠ ٠

(٤) الشموس الاحمدية ص ٢ ـ ٣ وغيرها منه ٠

بمن أدرك الحقائق والتحقيق) (١) ويضيف ابنه الشيخ سيدي محمد موضحا عقيدته وعقيدة والده قائلا بأنها هي محصل عقيدة السلف فيقول :

(فالعقد الأهم هو ما درج عليه السلف من الصحابة وأعيان التابعين مما أخذوه من نصوص الكتاب والسنة كسورة الإخلاص وآية الكرسي وآية ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ وغير ذلك ... ومحصل عيقدتهم أنه تعالى الموجود خالق الوجود المنزه عن مماثلة العالم في نسبة التكيف والتحديد والاتصال والجهة والحلول وسائرمحامل التقيد) (٢). وقد تقدم الكلام على إطلاق الجهة وتبين بالأدلة من الكتاب والسنة أنه تعلى مباين لحلقه .

نقد :

فهذا من نصوصهم المصرحة بنفي عقيدة الحلول عنهم ، وتنفيرهم منها وما يؤدى إليها ، وعلى العموم فإن المستقرى لكتبهم لا يجد إلا رد هذه العقيدة إماتصريحا أو تلويحا . (٣)

قال الشيخ سعد أبيه : (.. وكذلك الرب سبحانه إذا تجلى على عبده بعد صفائه من الأكدار شاهده بعين قلبه وبصر بصيرته من غير حلول ولا اتصال .) (٤)

وقال الشيخ التراد في الرسالة المسماة بالتخلص والنجاة : قال محذرا من سوء الاعتقاد وأنه أقسام كثيرة : (وما من قسم إلا وهلكت به طائفة كثيرة فمنهم من سوء اعتقاده في ذات الله تبارك وتعالى فينسب إليه الحدوث والتجسيم والتعدد والحلول والمماثلة وغير ذلك إلى غير ذلك من سوء الاعتقادات في ذاته فتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ..) (٥) .

---

(١) جذوة الانوار ص ٥٤ ـ ٥٥ .

(٢) جنة المريد ص ٣٠ . ٣١ .

(٣) الضياء ص ١٩١ و ٢٨١ وتنبية المريدين على ما نحن عليه من أمور الدين للشيخ التراد ص٤ وما بعدها ونيل المراد ص ٤٠ .

(٤) كشف اللبس ص ٩٠ .

(٥) التخلص والنجاه للشيخ التراد مخطوط خاص ص ٢ .

وقال الشيخ أحمد أبو المعالي (الحمد لله المتفرد بالعظمة والجلال المتوحد باستحقاق نعوت الكمال والجمال المتقدس عن الشركاء والاشباه والامثال المتعالى عن الاتحاد والحلول ...) (١) .

ويوجد في نصوصهم التصريح بتكفير معتقدها أو ما ماثلها من العقائد كالتجسيم والتحيز في مكان معين . (٢) قال المختار الكنتي مبينا ما يعذر به في باب العقائد وما لا يعذر قائله أو معتقده :

(وإنما لا يعذر من أدعى الحلول أو التجسيم وأكون الذات الشريفة معنى أو صفـة لأن هذا يشمل جميع الصفات ويوجب النقص والمماثلة المناقضين لقوله تعالى ﴿ ليس كمثله شيىء وهو السميع البصير ﴾ وقوله ﴿ والله هو الغني الحميد ﴾ وقوله ﴿ الله لا إله الا هو الحي القيوم ﴾ (٣) .

وقد حكم بكفر أصحاب الحضرات والرقص والدعاوى الباطلة وطالب بالتنكيل بهم واستتابتهم فإن تابوا تركوا والا قتلوا . (٤) .

وما دامت القادرية في موريتانيا لا تؤمن بالحلول فما معنى اعتذارهم عن الحلاج الذي هو إمام أهل هذا المعتقد الالحادي ، ونقل كلامه والثناء عليه (٥) وهو إنما قتل على تصريحه بهذه العقيدة شعرا ونثرا واستقرأمر أكثر الفقهاء من الصوفية وغيرهم على زندقته : (وأبوا أن يكون له قدم في التصوف) (٦) .

---

(١) الادلة الشافية الكافية في ابطال حجج مدع المعية الذاتية للشيخ أحمد ابى المعالى مخطوط بدار الثقافة بانواكشوط رقم (١٨٠٩) ص ١ .

(٢) الطرائف ص ١٠٥ .

(٣) جذوة الانوار ص ٢٢ .

(٤) نفسه ص٩٧ .

(٥) كشف اللبس ص١٩ وجنة المريد ص ٨٩ ونعت البدايات ص ٧٤ والكوكب الوقاد ص ١١٣ .

(٦) طبقات الصوفية ص ٣٠٧ .

وبعض من اعتقد فيه الخيـر رجع عن ذلك وتاب منه ورجع كابن عقيل الحنبلي (١) وما ذكره عنه القشيري في الرسالة من نصوص تدل على أنه لا يقول بالحلول والاتحاد (٢) طعن شيخ الإسلام ابن تيمية في سنده إليه بعد أن بين أنه لا شك وضع عليه كثير من الزنادقة ما يريدون وضعه (٣) وقال : (وليس أحد من مشايخ الطريقة لا أولهم ولا آخرهم . يصوب الحلاج في جميع ما قاله • بل اتفقت الأمة على أنه إما متخطىء ، وإما عاص ، وإما فاسق ، وإما كافر • ومن قال : إنه مصيب في جميع هذه الأقوال المأثورة عنه ، فهو ضال ، بل كافر بإجماع المسلمين •••) (٤) •

وهم لم يصوبوه في جميع ما قال لما تقدم من النصوص الصريحة في تكفيرهم لمعتقد الحلول في ذات الله تعالى ولكن بتأويلهم له وتحسينهم للظن فيه كانوا كالمصوبين لبعض ما أثر عنه وفي ذلك من الخطوره ما تقدم بيانه في مبحث التأويل وبناء على الخلاف المشهور في أعتبار أن لازم المذهب مذهبا نقول بأن العلامة الشيخ محمد يحي الولاتي قال بعد نقل الخلاف وأن جمهور السلف يعتبرونه مذهبا ولذا كفروا أهل الأهواء (٥) قال : (قلت : ففي هذه النقول تصريح بأن من قال قولا ليس صريحا في الكفر ولكنه يلزم منه الكفر لزوما خفيا لا يشعر به القائل لذلك القول أن قائل ذلك القول مختلف فيه بين الكفر والفسق وأن جمهور السلف كفروه بناء على أن لازم القول يعد قولا ، وكثير من القهاء قالوا بأنه فاسق لا كافر) (٦) •

والله أعلم •

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ / ص ١٤٤ . ١٤٥ •

(٢) الرسالة جـ ١ / ص ٣٢ . ٣٣ •

(٣) الاستقامة جـ ١ / ص ١١٩ •

(٤) نفسه جـ ١ / ص ١١٦ . ١١٧ •

(٥) الرد على الحسن القظفى للشيخ محمد يحي الولاتي مخطوط خاص ص ٢١ وما بعدها •

(٦) نفسه ص ٢٥ •

المبحث الثاني : موقفهم من وحدة الوجود

التعريف: يعرف هذا المذهب بأنه الاتحاد العام ، والوجود المطلق والاتحاد المطلق (١)

ومعنى ذلك : أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق (٢)

يقول ابن خلدون في المقدمة في سرده لكلام أهل العقائد في ذات الله تعالى : (ويقع للمتأخرين من المتصوفة أنه متحد بالمخلوقات ، إما بمعنى الحلول فيها ، أو بمعنى أنه هو عينها ، وليس هناك غيره جملة ولا تفصيلا) (٣) ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن بين أن أصل قول هؤلاء قول الباطنية من الفلاسفة والقرامطة وأمثالهم : (وأما هؤلاء فإنهم عند أنفسهم مقرون بالصانع مثبتون له ، لكن لم يثبتوه مباينا للعالم ، بل جعلوا وجوده وجود العالم ، أو جعلوه حالا في العالم ، وقولهم مضطرب متناقض ، فإنهم مترد دون بين الاتحاد والحلول) (٤) ووصفهم بهذا الوصف هو ما يؤيده ابن خلدون (٥) وغيره من العلماء (٦) والباحثين الذين أثبتوا أنه مذهب ملفق من ديانات سماوية وأرضية ، وأنه يستحيل عقلا وشرعا وأن ابن عربي الطائي الحاتمي هو المؤسس الحقيقي له والداعي إليه بعد أن وجدت جذوره متفرقه الاركان الفلسفية والعقدية قبله في كتب الصوفية المتفلسفة والباطينة (٧) • ولمعرفة موقف القادرية من هذا المذهب يجدر أن ننظر أولا في النصوص العقدية المعتمدة في البلاد ، والتي قدمنا منها نصا من الاضاءة ، ونصا من الوسيلة ، وكلا النصيين المتقدمين يبطل بهمامؤلفه هذا المذهب وما يشابهه كما اتضح أيضا من نصوص القادرية التي أوردناها أنهم لا يؤمنون بعقيدة الحلول والاتحاد الذين تنطلق

---

(١) الفتاوى جـ ٢ / ص ١٧٢ و ١٧٥ •

(٢) نفسه جـ ١٠ / ص ٥٩ •

(٣) المقدمة ص ٨٦٨ •

(٤) الصفدية جـ ١ / ص ٢٦٢ . ٢٦٣ يريد ابن عربي ومن قال بقوله •

(٥) المقدمة ٨٧٠ •

(٦) إظهار الحق ، رحمة الله بن خليل الرحمن العثماني الكيرانوي ط الدوحة سنة ١٤٠٠ هـ ص ٣٣٧ وما بعدها •

(٧) الصوفية في نظر الإسلام ص ٤٥٩ وما بعدها ، والصوفية معتقدا ومسلكاص ٢٠٥ . ٢٣٩

منهما عقيدة وحدة الوجود ولكن بما أن في كتبهم نصوصا منقولة من كتب القائلين بوجدة الوجود كان لابد من عرضها ونقدها حسب الامكان ليتضح ما يتوهم فيها من هذا المعتقد ٠

ومن الكتب المعتمدة في العقيدة والتصوف نظم ابن عاشر وشرحه لميارة (١) وصاحب النظم يقول في نظمه لما يجب لله تعالى من صفات الكمال :

(وخلفه لخلقه بلا مثال ووحدة الذات ووصف والفعال)

قال الشارح : (الخامسة : مخالفته تعالى للحوادث أي لا يماثله تعالى شيىء منها مطلقا لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال ، قال تعالى : ﴿ ليس كمثله شيىءوهو السميع البصير ﴾ فأول هذه الآية تنزيه ، وآخرها إثبات ، فصدرها يرد على المجسمة وأضرابهم ، وعجزها يرد على المعطلة النافين لجميع (٢) الصفات ٠

السادسة : الوحدانية : أي لا ثاني له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فأوجه الوحدانية ثلاثة وحدانية الذات ووحدانية الصفات ووحدانية الأفعال ، فوحدانية الذات تنفي التركيب في ذاته تعالى ووجود ذات أخرى تماثل الذات العلية فتنفي التعدد في حقيقتها متصلا كان أو منفصلا ، ووحدانية الصفات تنفي التعدد في حقيقة كل واحد منها متصلا كان أو منفصلا) (٣) إلى أن قال : (مسألة : سئل الامام العالم أبو عبد الله سيدي محمد بن جلال (٤) هل يقال المولى تبارك وتعالى لا داخل العالم ولا خارج العالم فأجاب السائل : هكذا نسمعه من بعض شيوخنا ، واعترضه بعضهم بأن هذا رفع للنقيضين وقال بعض فقهائنـــا في هذه المسألة : هو الكل أي الذي قام به كـــل شيء وزعم أنه للإمام الغزالي (٥) ، ووجه كون هذا القول رفعا للنقيضين هو مـــا

---

(١) تقدم التعريف به ٠

(٢) هو بهذا يستثني بعض الأشاعرة وخصوصا المتأخرين منهم حيث يثبتون عشرين صفة لله تعالى ويؤولون أو يفوضون في الصفات الخبرية كما يقولون ، وتقدم بيان ما يلزم في هذا التفريق ٠

(٣) ابن عاشر بشرح ميارة ص ٢١ و ٢٣

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني مفتي فاس وشيخ الجماعة به ، مولده سنة ٩٠٨ وتوفي سنة ٩٨١ هـ انظر شجرة النور ٢٨٥ ٠

بينه شيخ الإسلام ابن تيمية حيث إن حقيقة قولهم (ليس بموجود ولا معدوم) (١) وهذا رفع للنقيضين ٠

قال ميارة بعد أن نقل جواب ابن مقلاس (٢) على هذا السؤال وورفضه كون هذا القول فيه رفع للنقيضين : (وقول من قال إنه الكل زاعما أنه للغزالي فقضية تنحو منحى الفلسفة أخذ بها بعض المتصوفة وذلك بعيد من اللفظ) (٣) وقلت : وعبارة الغزالي كما أوردها في الباب الثالث من آداب تلاوة القرآن الكريم هي : (فمن عرف الحق رآه في كل شيىء فهو منه وإليه وبه وله فهو الكل على التحقيق ٠٠٠) وشرح مراده بهذا النص ٠ وقال : (وهذا مبدأ من مبادئى علم المكاشفة) (٤) وفي هذه النصوص نفي صريح للقول بوحدة الوجود وما شاكلها ، ونقل لعبارات موهمة وهذه العبارات الموهمة التي تقدم القول فيها . لا يخلو منها كتاب من كتب الصوفية تقريبا مع أن الغزالي نفسه حذر منها وسماها : (من باب الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله والوصول المغني عن الاعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا وقلنا كذا) ٠ (٥)

وعند استقراء كثير من كتب القادرية يجد الباحث كثيرا من العبارات الصوفية الموهمة مثل ما ذكره الغزالي منقولة من كتب العزالي نفسه أو ابن عربي أو غيرهما من الصوفية المعترض على كثير من كلامهم (٦) وسنقتصر إن شاء الله على ما يمكن توضيح المراد منه من نصوصهم الموهمة ٠

---

(١) الصفدية جـ ١ ص ٣٠٠ وما بعدها ٠

(٢) لم نتمكن من التعريف به ٠

(٣) شرح ميارة ص ٣٠

(٤) الاحياء جـ ١ ص ٢٥٢ ٠

(٥) الاحياء جـ ١ ص ٣٩ ٠

(٦) كشف اللبس ص ١٦ . ١٩ و ٩٠ دار الكوكب الوقاد ص ٥٤ و ١١٣ و ١٢٣ ونعت البدايات ص ٥٠ . ٥٥ والضياء المستبين ص ١٦ . ١٩ و ٢٩٩ ٠ وجنة المريد ص ٢١٧ . ٢٣٥ وجذوة الأنوار ص ٣٠ . ٣١ و ٥٥ والطرائف ص٣٨٣ ٠

عـــــــرض :

يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي في بيان درجات السلوك :

(... فإذا ارتقى إلى درجة الشهادة اكتفى بقوله الله الله لغيبته عما سوى الله واستغراقه في ذات الله فلا يسمع إلابه ولا يبصرإلا به ولا ينطق الا به ولا يبطش إلا به ولا يمشي إلا إليه فصار عبدا محضا لرب محض قال الله تعالى ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو ﴾ (١) .

وقال في معرض بيانه لدرجات الوصول وأقسام الناس فيه ومراتب التجليات : (ومنهم من يرقى إلى مقام الفنا مشتملا على قلبه نور اليقين والمشاهدة مغمور في شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين وهذه رتبة في الوصول وفوق هذا رتبة حق اليقين ويكون ذلك في محوو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى تحظى بها روحه وقلبه ونفسه وقالبه وهذا من أعلى مراتب الوصول . إلى أن قال : وحقيقة القرب منه تعالى شهودك لقربه فالقرب منه إذ لا مسافة ثم ولا مكان ولا أين ولا زمان قال الله تعـالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾ وقال : ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾ وقال : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ وحظه ـ يعني السالك ـ من ذلك إنما هو مشاهدة قربه فقط فتثمر تلك المشاهدة شدة المراقبة والهيبة والتأدب بآداب الحضرة) (٢) .

قلت : ويوجد في مناقشة شيخ الإسلام ابن تيمية للقرب واختلاف الناس فيه كلام قريب مما ورد في هذا النص (٣) ويضيف المختار الكنتي في بيانه للذكر الذي يكاشف صاحبه بالحقائق . فيقول : (فيكاشف بما لا تستطيع الأقلام حكايته ولا البحار الإحاطة به لو كانت مداد الأقلام . إلى أن قال : فيفنى في الصفات ثم يفنى في

---

(١) الكوكب الوقاد ص ٥٤ .

(٢) جذوة الأنوار ص ٥٥ وما بعدها والآيات من : سورة البقرة الآية (١٨٦) وسورة ق (الآية ١٦) والواقعة الآية (٨٥) .

(٣) انظر : الفتاوى جـ ٦ ص ١٢ـ ٢٢ .

الاسماء ثم يفنى في الذات فيغيب عما سوى الله تعالى ...) (١) ولعل المراد بهذا الفناء ما سماه شيخ الاسلام ابن تيمية بالفناء عن إرادة ما سوى الله) (٢) .

ويقول الشيخ ماء العينين : (قال بعضهم معنى لا اله الاالله للعوام لا معبود إلا الله ومعناها للخواص لا محبوب ولا مقصود إلا الله ومعناها لأخص الخواص لا موجود إلا الله فإنه يكون في تلك الحالة مستهلكا في بحر الشهود فلا يشعر بشيىء سوى الله ولا يرى موجودا) (٣) .

وعند ذكره لفوائد الذكر (بهو) (٤) ودرجات الذكر ، وأنه يكون باللسان والقلب والروح ... قال : (وسابعها الذكر ب (الله) ولا وراء ذلك لأنه الكمال لا للأنام وهو المطلوب عند المشايخ بالتمام ، وإذا وصل المرء لهذا المقام شاهد ما لا تبغي عنه العبارة) إلى أن قال :

(ولا يزال يذكر حتى يتجلى له الحق من وراء أستار غيوبه فيتنور باطن العبد بحكم : (وأشرقت الأرض بنور ربها) (٥) وبعده إلى التجليات الصفاتية والأسمائية ثم الذاتية ، فيفنى العبد في الحق ، فيذكر الحق نفسه بما يليق بجلاله وجماله فيكون الحق ذاكرا ومذكورا) (٦) .

قلت : وقد ذكراستدلالا على ذلك طرفا من الحديث القدسي : (إذا ذكرني عبدي

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١٣٣ .

(٢) الفتاوى جـ ١٠ ص ٢١٨ وما بعدها .

(٣) نعت البدايات ص ٤٦ .

(٤) سيأتي إن شاء الله مناقشة الذكر بالمفرد والضمير في فصل الأدعية والأذكار .

(٥) سورة الزمر الآية ٦٩ .

(٦) نعت البدايات ص ٥٤ ـ ٥٥ .

في نفسه ذكرته في نفسي ، وإذا ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خيرمن ملائه) (١) .

وقد يفهم من النص أن صاحبه متأثر بعقيدة وحدة الوجود التي عبر عنها ابن عربي الطائي في كتبه وأشعاره وخصوصا قوله :

(فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبده) (٢)

وقوله (فأنت عبد وأنت رب لمن له فيه أنت عبد

وأنت رب ، وأنت عبد لمن له في الخطاب عهد) (٣)

قلت : بالنظر في هذه النصوص نجد أنها موهمة لثلاثة أمور ، وبعضها أكثر إيهاما من بعض ، وهذه الأمور هي : وحدة الوجود ، والاتحاد المقيد ، ومذهب أهل التجلي .

فإن قصد بها وحدة الوجود كان ذلك كفرا صريحا كما تقدم (٤) وظاهر أن هذه النصوص التي تدل على هذه العقيده الإلحادية ، منقولة من كتب ابن عربي وأمثاله الذين تعتبرهم القادرية من الأئمة الذين لا يجوز عندهم الاعتراض عليهم فكيف ينقدهم ورد كلامهم عليهم ، على أنه تقدم عنهم أنهم لا يؤمنون بهذه العقيدة .

---

(١) نفسه ص ٥٤ قلت : هذا طرف من حديث متفق عليه ولفظ مسلم الذى ذكر صاحب النص قريبا منه هو : (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإهم خيرمنهم ...) الحديث . صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب الحث على ذكر الله عز وجل) وصحيح البخارى ، كتاب الرقاق باب التواضع ، الحديث رقم (٦٥٠٢) .

(٢) نقلا عن : الصوفية معتقد ومسلكا ، مصدر سابق ص ٢٢٧ .

(٣) نقلا عن : مصرع التصوف ، مصدر سابق ص ٧٤ .

(٤) انظر : كتاب الصفدية جـ١ ص ٢٤٤ وما بعدها .

وحملة على الاتحاد المقيد يمنع منه ما تقدم من تكفيرهم لمعتقد الحلول والاتحاد بصفة عامة في المبحث السابق • ويمنع منه كذلك ما يأتي عنهم من ردود على أصحاب عقيدة (المعية بالذات) التي هي داخلة في هذا المبحث وعلى هذا فالأقرب عندي حمل هذه النصوص على مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات كما سماه ابن خلدون في المقدمة (١) •

والتجلي كما عرفه الجرجانى هو : (ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب) قال وهو أنواع :

١) التجلي الذاتي وهو ما يكون مبدؤه الذات من غير اعتبار صفة من الصفات معه •

٢) والتجلي الصفاتي : وهو ما يكون مبدؤه صفة من الصفات من حيث تعينها وامتيازها عن الذات (٢) •

وفي بيان ابن خلدون لهذا المذهب ما يوضح أنه مذهب غامض وأن المعبرين عنه المحاولين للكشف عن حقيقته لا يأتون إلا بالأغمض فالأغمض (٣) ويوضح السبب في ذلك قائلا : (وهو كلام لا يقدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه ، وبعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل ، وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب . يعني ترتيبهم للتجليات والظهور . فإنه لا يعرف في شيىء من مناحيه) (٤) •

قلت : ولعل سبب هذا الغموض راجع إلى أنها أحوال نفسية عبر عنها بأساليب فلسفية ، فلم يزدها ذلك إلا غموضا • (٥) •

---

(١) المقدمة ص ٨٧٢ •

(٢) التعريفات للجرجان ص ٥١ . ٢٥ •

(٣) المقدمة ص ٨٧١ •

(٤) نفسه ص ٨٧٢ •

(٥) وانظر نفس المصدر ص ٨٧١ . ٨٧٢ •

وانما رجحت نسبتهم لهذا المذهب لكثرة ورود العبارات التي شرح بها في كتبهم (١) وقناعتي أن أكثرهم لا يعرفون ما ينقلون كما هو حال عامة القائلين بهذه المذاهب الالحادية لما تشتمل عليه من المتناقضات (٢) •

والقادرية بنقلها لهذه النصوص الموهمة بين أمور أخطرها أن توصف هذه الاقوال بالكفر لقربها من مذهب وحدة الوجود وخصوصا نصوص نعت البدايات حيث صرح أنه نقلها من شرح الفصوص لداود القيصرى (٣) وأدنى هذه الأمور أن يوصف هؤلاء الناقلون بعدم التمييز أو تعمد التضليل ونشر العقائد الالحادية بين الناس ، ويؤيد هذا الأخير . مع عدم استبعاد الاحتمال الأول . ما تقدم من وضعهم لمؤسس هذا المذهب الكفري . وهو ابن عربي بين سلسلة شيوخهم ، واعتبارهم له من الأولياء والصالحين ، وتأويل كلامه الصريح في الكفر والموهم على حد سواء ، والاعتذار عن كلام العلماء فيه وتحذيرهم من كتبه (٤) وتصريح الكثيرين منهم بكفره وزندقته (٥) يضاف إلى ذلك ما يوجد في فروع القادرية من الطرق القائلة بوحدة الوجود (٦) واعطاء بعض شيوخ القادرية لأوراد هذه الطرق (٧) •

على أن هذه الاحكام والاحتمالات قد تندفع عن بعض شيوخ القادرية إذا رأينا دفاعهم عن وحدانية الله تعالى ، وردهم على من ادعى معية الله بذاته مع خلقه

---

(١) انظر جنة المريد ص٢١٦.٢٢٢ وجذوة الأنوار ص٥٥ .٥٦ وكشف اللبس ص١٦. ١٧ و٤٠ .٤٧ •

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٨٦٣ وما بعدها • والصفدية جـ ١ ص ٢٤٤ وما بعدها . والصوفية معتقد ومسلكا ص ٢٢٠ وما بعدها •

(٣) نعت البدايات ص ٥٦ قلت : والقيصري ، هو داود بن محمود بن محمد شرف الدين القيصري المتوفى سنة ٧٥١ هـ والكتاب المذكورهو : (خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم) • انظر الاعلام للزركلي جـ ٢ / ص ٣٣٥ •

(٤) انظر : الطرائف ص ١٤٤ . ١٤٦ •

(٥) مصرع التصوف ص ٦٢ . ٧٠ •

(٦) انظر كتاب : التجانية على بن محمد الدخيل الله ص ٨٣ . ٩٤ •

(٧) انظر : نعت البدايات ص ٢٠٥ . ٢٠٦ •

ومعية الذات مسألة اشتهر بها بعض شيوخ التصوف في فترة من الزمن في موريتانيا .

وملخص هذه المسألة أنه ظهر في البلاد رجل يدعى : سيدي المختار بن عبد الجليل يقول بمعية الله تعالى بذاته مع كل ذرة من ذرات العالم .

وكتب رسالة في ذلك أوجب فيها اعتقاد ما ذهب إليه وأن من يعتقد غير ذلك فاسد الاعتقاد . وكان له أتباع ومريدون قاموا بنشر رسالته المذكورة وأنظامه في ذلك بين الناس حتى عرفوا بين الناس بأسماء ، منها : (أهل عبد الجليل) و (أهل معية الذات وأهل الشمعة) ولم نقف على معنى لهذا الأخير .

وقد تصدى علماء البلاد شرقا وغربا للرد على هذا المعتقد الفاسد نثرا ونظما ، ومن أهم الردود التى وقفت عليها : رد للشيخ : محمد الخضر بن مايأبى ، ورد للشيخ : أحمد أبي المعالي ، ورد للشيخ : المحفوظ بن بيه ، وقطعة شعر للشيخ المختار السالم الحسني من مصدري الشيخ أحمد أبو المعالي وكل هؤلاء من القادرية .

وتصويرقول هؤلاء حسب ما ورد في نقول الرادين عليهم . إذ لم نجد نص كلامهم في كتاباتهم . هو ما يأتي :

قال الشيخ المحفوظ نقلا من ورقات مريد ابن عبد الجليل أن نصه فيها هو : (إن معية ذات الله تعالى لخلقه ثابته بالنص الصريح من الكتاب والسنة المعصومين من ظاهر الخطإ ومحتمله . أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ والله معكم ﴾ (١) وما في معناه من القرآن .

وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم : (أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان) (٢) ومعلوم أن (مع) لا تحتمل معنى غير المصاحبة فهي صريحة فيها) (٣)

---

(١) سورة محمد الآية (٣٥) (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعملكم) .

(٢) رواه البهيقي في شعب الايمان ، باب في الخوف من الله تعالى جـ ١ ص ٤٧٠ بلفظ : (إن من أفضل إيمان ...) إلى آخر اللفظ .

(٣) رد الشيخ المحفوظ بن بيه على القائلين بمعية الذات مخوطوط خاص ص ١ .

ويسوق الشيخ أحمد أبو المعالى مضمون عقيدة هؤلاء وفحوى دعواهم في مقدمة رده عليهم وبيان سبب تأليفه فيقول : (أما بعد فإنه لما كثر السؤال عن رجل يقول إن الله تعالى عمايقول الظالمون علوا كبيرا مع كل ذرة من ذرات العالم بذاته جاعلا هذا عقيدة، ومن لم يقل به فهو فاسد الاعتقاد عنده ويدعى مع ذلك جواز رؤيته تعلى بالبصر في دار الدنيا لجميع آحـــاد المسلمين شرعا وربما أدعى وقوع ذلك لنفسه ··) (١) إلى آخر مقدمته · وقال أحد القائلين بالمعيه الذاتية :

(هل ذات ربي مع الأكوان حاضرة ... أم هي غائبة حـــدث ولا تـــزد

إن قلت غائبة ووصفهـــا معنـــا ... قد رمت حصرا لذات الواحد الصمد

ورمت ابعاد من بالقرب متصفـــا ... هيهات ما رمته بالواحد الأحـد) (٢)

وكتب آل موسان في غرب البلاد إلى الشيخ محمد الخضر بن مايأبى في الحجاز يسألونه عن المعية الذاتية هل تمكن في حقه تعالى أو تستحيل ؟ (٣) فأجابهم في كتابه المذكور باستقصاء تام ، وأفاد فيه إفادة جيدة جدا في هذه المسألة وهي أنه أعطانا مصدر هذه الشبهة حيث ذكر أن أول من ذكر عنه هذا القول رجل يدعى الشيخ إبراهيم المواهبي الشاذلى (٤) نقله عنه الشيخ عليش في شرح إضاءة الدجنة (٥) وهو شرح معتبر في البلاد فلا غرابة أن يتلقى منه سيدي المختار بن عبد الجليل هذه العقيدة أو الشبهة ، ولعل هذا ماجعل الشيخ محمد الخضر ينبه إليه في رده الـــذي كان يمكـــن أن يصــــدر بـــدون إشارة إلى هذا الرجل المذكور ، القائل بهذه العقيدة (٦) فهــــذه

---

(١) الادلة الشافية الكافية في إبطال حجج مدع المعية الذاتية ص ٢ ·

(٢) ملف الرحلة عن المختار السالم الحسني ·

(٣) استحالة المعية بالذات وما يضاهيها من متشابه الصفات ط ١ المحمودية بالقاهرة ص ٢ ·

(٤) هو ابراهيم بن محمود بن أحمد المواهبي ، أبو الطيب برهان الدين ، مولده ووفاته بالقاهرة ، أخذ التصوف عن الشيخ محمد أبي المواهب التونسي فنسب إليه . ولعله قال بهذا المعتقد في شرحه لعقيدة السنوسي ، انظر الاعلام جـ ١ ص ٧٣ ·

(٥) شرح إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة ، مطبعة مصر ، القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ ·

(٦) استحالة المعية بالذات ص ٩١ ·

العقيدة حوصرت في البلاد ، وعلى وجه الخصوص حاصرها القادرية حيث ردوا على القائل بها بأنه خالف الاجماع سلفا عن خلف وأن ذلك ضلال عظيم وكفر من معتقده لنسبتــه لله ما يستحيل في حقه تعالى وبينوا أن إطلاقات المعية في اللغة تأتي على معــان (١) وأنها جاءت في القرآن الكريم بمعنى عام ومعنى خاص ، وأن المعية بمعنى المصاحبة للأكوان محال في حقه تعالى ونقلوا إجماع أهل العلم بالتفسير على حمل الآيات التـي أشار إليها ابن عبد الجليل وحملها على المعية بالذات من قوله تعالى : ﴿والله معكم ﴾ ﴿ وهو معكم ﴾ وغيرها إلى أن للعلماء فيها مذهبين :

التفويض ، أو التأويل بالعلم أو ما هو أخص منه كالنصر والحفظ ٠ قال الشيخ محمد الخضر : (أما المعية بالذات فلم يقل بها أحد من أهل السنة بل ولا من المشبهة المجسمة ٠٠٠) (٢) ٠

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (وأما قوله تعالى ﴿ وهو معكم ﴾ فلفظ (مع) لا تقتضي في لغة العرب أن يكون أحد الشيئين مختلطا بالآخر ، كقوله تعالى : ﴿ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ إلى أن قال : (مع) جاءت في القرآ ن عامة وخاصة فالعامة قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم ولاخمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ٠٠ ﴾ (٣) فافتتح الكلام بالعلم وختمة بالعلم (٤) قال الإمام أحمد (يفتح الخبر بعلمه ويختم الخبر بعلمه) (٥) ٠ وأمـا المعية الخاصة ففي قوله تعالى ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ (٦) فالله تعالى مع أوليائه دون أعدائه ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين والمعتدين ٠

---

(١) الأدلة الشافية الكافية ص ٣ وما بعدها ٠ ورد الشيخ محمد المحفوظ ص ٢ ومابعدها ٠

(٢) نفس المراجع و استحالة المعية بالذات ص ٩٠ وما بعدها ٠

(٣) الآية الأولى من سورة التوبه (١١٩) والثانية من سورة المجادلة الآية (٧) ٠

(٤) الفتاوى ج ١١ ص ٢٤٩ ٠

(٥) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد بن حنبل ص ١٣٨ ٠

(٦) سورة النحل الآية (١٢٨) ٠

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (فلو كان معنى (المعية) أنه بذاته في كل مكان تناقض الخبر الخاص والعام ، بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك) (١)

قال الإمام أحمد رحمه الله : بيان ما ذكر الله في القرآن : ﴿ وهو معكم ﴾ قال : وهذا على وجوه ثم بين الأوجه على وفق ما تقدم من حكاية الإجماع والنقل (٢)

قال المختار السالم الحسني في رده على أبيات (أهل المعية بالذات) المتقدمة :

(إن المعية حق والمـــراد بهـــا ... ما قد يليق بذات الواحد الصمد

نزهه عن جهة حاشاه من جهة ... والكيـــف فانف فذا أداء للرشـــد

فالله سبحانه معنــــا بنصرتـــه ... وعلمـــه في جميع القرب والبعـد

من كان منا بنون البحر في لجج ... تحويه فهـــو له أدنى من العضـد

كذاك لو كان فوق السبع فهو له ... أدنى من الحبـــل واللجين والكتد

وإن ترد غير ذا للحق يأمـلي ... هيهات ما رمته بالواحد الصمد) (٣)

وقد يفهم من بعض النصوص التي أوردناها من كتب القادرية الاشارة إلى الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قال : (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصـــــره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينـه ، ولإن استعاذ بي لأعيذنه وما ترددت

---

(١) الفتاوى جـ ١١ ص ٢٥٠ .

(٢) انظر: الرد على الجهمية والزنادقة ص١٤٠ وما بعدها ومجموع الفتاوى جـ ٦ / ص٢٢ . ٢٣

(٣) ملف الرحلة نقلا عن نفس الناظم . قلت : الحبل : يريدبه حبل الوريد (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد .) واللجين جاء مصغرا : الفضة ، ولم يفهم مراد الناظم به هنا ، ولعله يريد أن الفضة وهي في أعماق الأرض لا يخفى على الله مكانها لقربه وعلمه المحيط بكل شيء . انظر : القاموس المحيط جـ ٤ ص ٢٦٦ . والكتد: محركة نجم وجبل بمكة ومجتمع الكتفين من الإنسان والفرس . القاموس المحيط جـ ١ ص ٣٣٢ والأولى عندي : أن الناظم أراد النجم للمقابلة . والله أعلم .

عن شيىء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته) (١)

قال الحافظ بن حجر بعد أن ذكر توجيهات العلماء لألفاظ هذا الحديث قال : (وحمله بعض أهل الزيغ على ما يدعونه من أن العبد إذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة حتى يصفى من الكدورات أنه يصير في معنى الحق ، تعالى الله عن ذلك وأنه يفنى عن نفسه جملة حتى يشهد أن الله هو الذاكر لنفسه الموحد لنفسه وأن هذه الأسباب والرسوم تصير عدما صرفا في شهوده وإن لم تعدم في الخارج ، وعلى الأوجه كلها فلا متمسك فيه للأتحادية ولا القائلين بالوحدة المطلقة لقوله في بقية الحديث : (ولئن سألني ولئن استعاذني) فإنه كالصريح في الرد عليهم (٢) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (وأجمع سلف الأمة وأئمتها على أن الرب تعالى بائن من مخلوقاته) (٣) • فمن خالف هذا الاجماع كالطوائف الأربعة التي تقدم التعريف بها في بداية هذا الفصل فإن العلماء أجمعوا على أن عقائدها كفرية الحادية لا صلة لها بالإسلام •

قال القاضي عياض : (فصل في بيان ما هو من المقالات كفر وما يتوقف أو يختلف فيه وما ليس بكفر) (٤) وذكر من أقوال هؤلاء الطوائف ناصا على كفرهم (٥) وتبعه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية (٦) والحافظ السيوطي (٧) والشيخ محمد يحي الولاتي (٨) قال في الرحلة ، أي رحلة الحج له :(وأما السؤال عن ما قاله الفقهاء في الفاظهم المذكورة فجوابه والله أعلم : أنهم قالوا إنها كفر أعاذنا الله منه) (٩)

---

(١) صحيح البخار كتاب الرقاق ، باب التواضع الحديث رقم (٦٥٠٢) وقد تقدم أنه متفق عليه والآية ١٦ من سورة ق • انظر تفسيرها في القرطبي ج ١٧ ص ٩ •

(٢) فتح الباري ج ١١ / ص ٣٤٤ . ٣٤٥ •

(٣) الفتاوى ج ١١ ص ٢٥٠ •

(٤) انظر ص ٣٤٠ من هذا البحث •

(٥) الشفا مع شرح على القارلى ملا ج ٥ ص ٤٠١ •

(٦) نفسه ج ٥ / ص ٤١٢ وما بعدها •

(٧) الفتاوى ج ٢ / ص ١٧٥ وما بعدها • و ص ٤٣٥ •

(٨) الفتاوى ج ٢ / ص ١٢٩ . ١٣٧ •

(٩) نصيحة أولاد الزوايا والطلبة عن الدخول في طريق زنادقة المتصوفة ص ٣٢ وما بعدها • وكتابه الرد على الحسن القظفى ص ٧ وما بعدها • وأجوبته في رحلته على أسئلة وردت عليه في الاسكندرية ، والرحلة غير مرقمة •

الفصل الثالث

الفصل الثالث

عقيدتهم في القضاء والقدر

الفصل الثالث : عقيدتهم في القضاء والقدر

التعريف اللغوي :

قال في الصحاح (القضاء الحكم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ (١) أي حكم · ومنه قوله تعالى : ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين﴾ (٢) ومنه : القضاء والقدر (٣) وقال في القاموس : (والقدر محركة : القضاء والحكم ومبلغ الشيء . والجمع أقدار ، والقدرية جاحدوا القدر ٠٠) (٤)

وقال القرطبي : (وأصل كل قضاء أمر : الاحكام ، والفراغ منه · قال الله تعالى : ﴿ وإذا قضي أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (٥) يعني جل ثناؤه : وإذا أحكم أمرا وحتمه) (٦) وقال ابن عطية : (وقضى) : معناه : قدر) (٧) ·

وقال القرطبي : (قال علماؤنا : (قضى) لفظ مشترك . وساق المعاني المشتركة إلى أن قال في المعنى المراد هنا : (أي إذا أراد إحكامه واتقانه . كما سبق في علمه قال له كن · قال ابن عرفة : قضاء الشيىء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه) (٨)

---

(١) سورة الإسراء (الآية ٢٣) ·

(٢) سورة فصلت (الآية ١٢) ·

(٣) الصحاح للجوهري ، تأليف : اسماعيل بن حماد الجوهري : تحقيق عبد الغفور عطار ط ٣ سنة ١٤٠٤ هـ ج ٦ ص ٢٤٦٣ . ٢٤٦٤ ·

(٤) القاموس المحيط ، مصدر سابق ج ٢ / ص ١٤٤ ·

(٥) سورة البقرة (الآية ١١٧) ·

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبى جعفر محمدجرير بن الطبري ، تحقيق : محمود محمد شاكر وأحمد شاكر ، ط ٢ دار المعارف بمصر ج ٢ ص ٥٤٢ ·

(٧) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ، تحقيق الرحالي الفاروقي وعبد الله إبراهيم الأنصاري ط ١ سنة ١٣٩٨ هـ ج ١ ص٤٦٢ ·

(٨) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن الكريم المجلد الاول ج ٢ ص ٨٧ . ٨٩ ·

وقال البيهقي عند قول الله تعالى : ﴿ إنا كل شيىء خلقناه بقدر ﴾ (١) والقدر اسم لما صدر مقدرا عن فعل القادر ، يقال : قدرت الشيىء وقدرته بالتشديد والتخفيف فهو قدر أي مقدور ومقدر ...) (٢) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (والقدر ، هو قدرة الله ، كما قال الإمام أحمد ، وهو المقدر لكل ما هو كائن .) (٣)

قلت : والقضاء كوني وشرعي ، أما الكوني فمن أمثلته قوله تعالى : ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ الآية السابقة .

والقضاء الشرعي الديني من أمثلته قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبد إلا إياه ﴾ وقد يجتمعان وقد يتخلف الشرعي (٤) .

---

(١) سورة القمر الآية (٤٩) .

(٢) الاعتقاد للإمام البهيقي مصدر سابق ص ٥٣ .

(٣) مجموعة الرسائل جـ ٢ / ص ١٠٢ .

(٤) انظر شرح الطحاوية ص ٤٤٥ .

الفرق بين القضاء والقدر

قال الحافظ بن حجر في بيان المراد بالقدر : (والمراد أن الله تعالى علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد ، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته ، هذا هو المعلوم من الدين بالبراهين القطعية ، وعليه كان السلف من الصحابة وخيار التابعين ، إلى أن حدثت بدعة القدر في أواخر زمن الصحابة) (١) ٠

وقال الخطابي في بيانه لمعنى القضاء : (وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه وتعالى العبد وقهره على ما قدره وقضاه وليس الأمر كما يتوهمونه وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه وتعالى بما يكون من اكتساب العبد وصدورها عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها) (٢) ٠

قلت : الذي يظهر أن كثيرا من العلماء يجعلون القضاء والقدر مترادفين كما هو واضح من التعريفات السابقة ٠

والقضاء هو الإمضاء والاتقان والفراغ من الشيىء ولكن يكون ذلك على قدر أو تقدير معين لا يتجاوزه وكل ذلك عن علم محيط بكل شيىء : (فالذي أوجد وأفنى ، وأفقر وأغنى وأمات وأحيا وأضل وهدى) (٣) لا شك أن كل شيىء بقضائه وقدره سبحانه ٠

النزاع في القدر : قال النووي في بيانه :

(عند أهل السنة أن الله تعالى قدر الأشياء في القدم وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى ،

---

(١) فتح الباري جـ ١ / ص ١١٨ ٠

(٢) النووي على مسلم جـ ١ / ص ٢١٧ ٠

(٣) شرح الطحاوية ص ٢١٧ ٠

وأنكرت القدرية هذا وزعمت أنه سبحانه وتعالى يقدرها ولم يتقدم علمه سبحانه وتعالى بها وأنها مستأنفة العلم أي إنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها ...) (١) .

وبمثل ما قالت القدرية قالت المعتزلة ، وقد رد العلماء على الطائفيتن بما أبطل ما معهم من شبه (٢) وكان من أول الرادين على منكري القدر عبد الله بن عمررضي الله عنهما كما في صحيح مسلم (٣) ودل رده وتبرؤه منهم على تكفيره لهم (٤) .

ولنستعـرض بعض النصوص المعتمدة في البئة العلمية عن القضاء والقدر لنرى مدى اقتفاء القادرية لهذه النصوص عندما نعرض بعضا من نصوصهم في هذه العقيدة .

قال أحمد المقري :

(وواجب إيماننا بالقـــــدر   خير وضده كما في الخيــر

وذو السعادة السعـيد في الأزل   وضده الشقي حيثما نــزل

وكلهــــم ميسر لما خلـــق   له فداج أمره ومؤتلـــق

والكل لايخرج عن حكم القضا   وليس ما أظلم مثل ماأضـا) (٥)

ويقول ابن عاشر في نظمه لحديث جبريل المتقدم مبينا قواعد الاسلام وأركان الايمان : (وقدر كذا صراط ميزان   حوض النبي جنة ونيران) (٦)

---

(١) النووي على مسلم جـ ١ / ص ١٥٤ .

(٢) انظر الابانة عن أصول الديانة ص ٧٠ وما بعدها . وشرح الطحاوية ص ٢١٧ وما بعدها .

(٣) صحيح مسلم ، المقدمة ـ حديث جبريل عليه السلام ، باب إثبات القدر .

(٤) النووي على مسلم جـ ١ / ص ١٥٦ .

(٥) الاضاءة ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٦) ابن عاشر بشرح ميارة ص ٥٨ .

وقال الشارح : (والقضاء عند الأشعرية إرادته الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال ، والقدر إيجاده إياهاعلى قدر مخصوص وتقدير معين في ذواتها أو أفعاله ، أو القضاء علمه أزلا بالأشياء على ما هي عليه ، والقدر إيجاده إياها على ما يطابق العلم) (١)

وتبعه على هذا البيان ابن بون في الوسيلة .

فقال : (ولا خلاف أن من قد أنكرا   قدره في كل قول كفرا)

إلا أن ابن بون يؤكد على القول بالكسب وهومن أهم مسائل القدر لتعلقه بالمشيئة والقول بخلق أفعال العباد فيقول :

ويكسب العبد بقول وعمـــل   وباعتقاد القلب خير أو زلل

والكسب والمكسوب مخلوقاني   كالعبد للمهيمن المنـــان) (٢)

ويعد القول بالكسب ميلا إلى الجبر كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية

وأقرب تعريف للكسب هو أنه : عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة .

وبما أن الكسب محاولة للتوسط بين نقيضين أو للرد على متعارضين هما مذهب الجبرية القائل بأن العبد مجبور لا اختيار له . ومذهب المعتزله القائل بأن العبد يخلق فعله لذا لم يكن واضحا لكثير من الناس ، ولأنه كذلك ينفي تأثير العبد في حدوث فعله مكتفيا بالقول بالمقارنة التي يخلقلها الله عند إرادة العبد للفعل (٣) لهذا وغيره اعترض عليه حتى قيل بأنه لا يعقل ، وأن فعل العبد فعل له حقيقة (٤)

---

(١) نفسه ص ٦٩

(٢) نظم الوسيلة ص ٣٤ . ٣٥ .

(٣) مجموعة الرسائل الكبرى الرسالة الثامنة الارداة والامر ص ٣٥٧ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٣٧ و٤٤٢ .

على أن العبارات والردود الورادة عن أبي الحسن الاشعري وخصوصا في رده على الجبرية والقدرية في الإبانة ، وحكايته لجملة ما عليه أهل الحديث والسنة في كتاب المقالات والتي قال بأنه يقول بكل ما قالوه فيها ويذهب إلى ما ذهبوا إليه (١) لم نجد في نصوصه هذه ما يدل على هذا الكسب الموصوف بالغموض وعدم المعقولية .

قال في المقالات : (وأقروا أنه لا خالق إلا الله وأن سيئات العباد يخلقها الله ، وأن أعمال العباد يخلقها الله عز وجل وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئا ، وأن الله سبحانه وفق المؤمنين لطاعته وخذل الكافرين ... إلى أن قال . وأن الخير والشربقضاء الله وقدره ويؤمنون بقضاء الله وقدره خيره وشره حلوه ومره ، ويؤمنون أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله كما قال ...) (٢)

قلت : وأولى عندي أن يفهم من كلامه في هذين الكتابين في هذا الموضوع القول بالجبل لا بالجبر أو الميل إليه ، والجبل يشهد له الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح (٣) ولكن قريب من القول بالكسب قول الطحاوي في عقيدته :

(وأفعال العباد هي خلق الله وكسب من العباد) (٤) على أن ابن أبي العز الحنفي بين مراد المؤلف من هذه العبارة ورد على الطوائف المخالفة في هذه المسألة (٥) وقال : (فالحاصل : أن فعل العبد فعل (له حقيقة) ، ولكنه مخلوق لله تعالى ، ومفعول لله تعالى ، ليس هو نفس فعل الله ففرق بين الفعل والمفعول ، والخلق والمخلوق . وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله : وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد أثبت للعباد فعلا وكسبا ، وأضاف الخلق لله تعالى . والكسب هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع أو ضركما قال تعالى : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (٦)

---

(١) الإبانه عن أصول الديانة ص ١٤ . ١٩ و ٢٣ . ٢٥ و ١٩٦ وما بعدها . كتاب مقالات الإسلاميين ص ٢٩٠ . ٢٩٧ .

(٢) مقالات الإسلاميين ص ٢٩١ . ٢٩٢ .

(٣) انظر : مجموعة الرسائل الكبري ص ٣٤٤ . ٣٤٦ .

(٤) نص العقيدة الطحاوية بتعليق عبد العزيز بن باز . مكتبة الطرفين ص٢٤ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٣٣ . ٤٤٢ .

(٦) نفسه ص ٤٤٢ والآية من سورة البقرة ٢٨٦ .

عـــــــــــرض

وعلى ضوء هذا العرض يمكن أن تفهم النصوص الآتية من كتب القادرية : قال المختار الكنتي : (ومن الأمور التى لا يتم الايمان إلا بها اعتقاد صحة قدرة الله تعالى والتسليم له في إمضاء قدره خيره وشره حلوه ومره) (١) ٠

وقال في شرحه لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) : (٠٠ فهو كما وصف نفسه لا كما يقول الجاهلون (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) (٢) علم كل شيىء قبل كونه فجرى على قدره لا كما يقول الملحدون ، خلق الخلائق وأفعالهم وقدر حركاتهم وآجالهم لا كما تقولته عليه القدرية الضالون وجعل لنا قدرة مجازية كسبية وإرادة مجازية وعلما مجاريا كسبيا ليركب على ذلك التكاليف الشرعية والثوا ب والعقاب فقدرته تعالى الحقيقة التأثيرية قاهرة لقدرتنا المجازية الكسبية وإرادته الحقيقة التاثيرية قاهرة لإرادتنا وعلمه القديم الذي لا يتناها محيط بعلمنا ٠ قال الله تعالى :﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ وما تشأون إلا أن يشاء الله﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) (٥) ، (٦)

وقال صاحب الضياء في وصفة لمقام الولي وترقيه في الشهود . على طريقة الصوفية .:

(٠٠٠ فيرى الأفعال مخلوقة لله تعالى شاربا من تحقيق حقيقة : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ (٧) فينتج له هذا الشهود عدم التسخط على الأقدار كائنة ما كانت ٠٠ والتسليم لله فيما يريده والرضى بالقضاء إن نزل) (٨) ٠

---

(١) المنة ص ١٠٧ ٠
(٢) سورة الأنعام الآية (١٠٣) ٠
(٣) سورة الانعام (آية ٦١) ٠
(٤) التكوير آية ٢٩ ٠
(٥) البقرة آية ٢٥٥ ٠
(٦) الكوكب الوقاد ص ٧٩ . ٨٠ ٠
(٧) سورة فصلت (الآية ٩٦) ٠
(٨) الضياء المستبين ص ١٢٦ ٠

ويقول صاحب نعت البدايات في نفس الموضوع عند الكلام على الشهود (... فأوله شهود الأفعال وذلك أن تشهد أن الأفعال كلها صادرة من الله ..) (١) .

ويقول صاحب جنة المريد : (وهو المتصرف في خلقة بمقتضى حكمته وقدرته وارادته وجميع ما يصدر في العالم من حركات وسكنات وخواطر وهمات ولمات وأدق من ذلك وأجل خلقا من خلقه ، وتصرفات العباد فيها كسب لهم ، فالخلق له جل وعز من جهة الاختراع ، والكسب للعبيد من جهة الاقتران والاختيار ...) (٢) ويقول صاحب نعت البدايات عند الكلام على التوكل والتكسب :

(يعني أن صاحب التوكل وصاحب التكسب كلاهما مدفوع فيما هو فيه من حيث لا يعلم ، وذلك أن كلا منهما مجبورا على ما هو عليه لقولهم : العبد مجبور في قالب الاختيار) (٣) .

نقد :

هذه بعض نصوصهم التي توضح إيمانهم بالقضاء والقدر والتسليم لله في ذلك وينصون فيها على أن قدرة الله تعالى هي الحقيقية وقدرة العبد مجازية وأنه ليس للعبد إلا الكسب الذي يترتب عليه الثواب والعقاب ، وقد تقدم الكلام على الكسب وكلام المحققين فيه (٤)

وبهذا يعرف أن القادرية لم تخرج عن مذهب الأشاعرة في مسألة القضاء والقدر حيث يميل أكثرهم إلى مذهب الجبرية كما تقدم على أنه في نصوصهم من الالفاظ المجملة كالكسب والتأثير والجبر مالا يعرف مرادهم به (٥) على أنه يفهم من ردودهم

---

(١) نعت البدايات ص ٧١ .

(٢) جنة المريد ص ٣٠

(٣) فاتق الرتق على راتق الفتق بهامش نعت البدايات ص ١٣

(٤) انظر الفتاوى جـ ٨ / ص ١٢٨ .

(٥) نفسه جـ ٨ / ص ١٢٩ . ١٣٧ .

على القدرية والجبرية والمرجئة والمعتزلة والخوارج وغيرهم من الفرق أنهم لا يوافقونهم في مذاهبهم وما استدلوا به في باب العقائد ٠

من ذلك ما قاله المختار الكنتي في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فأما من أعطى وأتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسني فنيسره للعسرى ٠٠) (١) قال : (وفي الآية دليل واضح لأهل السنة على صحة قولهم في القدر وأن التوفيق والخذلان والسعادة بيد الله تعالى ووجوب العمل مع ما سبق له في الأزل) (٢) ورد عليهم في عدد من كتبه ناقلا كلام السلف في تكفيرهم واصفالهم بأهل البدع والزيغ والاهواء ٠ (٣) وتبعه على ذلك ابنه الشيخ سيدي محمد (٤) والشيخ ماء العينين حيث عدهم في أصناف الهالكين (٥) على أنني لم نجد لهم نصا يمكن أن يفهم منه الاحتجاج بالقدر أو القول بالاباحة أو سقوط التكاليف والله أعلم

---

(١) سورة الليل (الآية ٧) ٠

(٢) الكوكب الوقاد ص ٩٦ ٠

(٣) فتح الودود ص ٦٧ وما بعدها . والمنه ص ١٠٧ وما بعدها وجذوة الانوار ص ٢٠ . ٢٥ و ٨٢ . ٨٣ والشموس الاحمدية ص ٣٧ . ٤٠ ٠

(٤) الغلاوية ص ١٢٠ و ٢٣٥ والصوارم الهندية في حسم الدعاوي المهدية ص ١٠ . ١٥ ٠

(٥) فاتق الرتق على راتق الفتق ص ٣٧ . ٣٨ ٠

الفصل الرابع

الفصل الرابع

عقيدتهم في الملائكة والنبوة

ويشتمل على مبحثين

المبحث الأول : عقيدتهم في الملائكة

المبحث الثاني : عقيدتهم في النبوة

المبحث الأول : عقيدتهم في الملائكة .

التعريف : الملائكة واحدها ملك أصله .. ملأك على وزن مفعل ، من لأك إذا أرسل ، وجمعه ملائكة على وزن مفاعلة) (١)

قال ابن جرير الطبري : (واصل الملأك : الرسالة ، كما قال عدي بن زيد العباد :

أبلغ النعمان عنى ملأكا إنه قد طال حبسي وانتظاري

إلى أن قال : (فسمت الملائكة ملائكة بالرسالة لأنها رسل الله بينه وبين أنبيائه ومن أرسلت إليه من عباده) (٢) .

وقد ورد الكتاب والسنة بوجودهم ووجوب الايمان بهم كما جاء في حديث جبريل عليه السلام وسؤاله للنبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان وفيه : (فقال : ما الإيمان ؟ قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته) (٣)

قال الحافظ بن حجر : (قوله (وملائكته) الإيمان بالملائكة هو التصديق بوجودهم وأنهم كما وصفهم الله تعالى (عباد مكرمون) (٤)

وقال الألوسي في روح المعاني مبينا اختلاف الناس في حقيقة الملائكة : (واختلف الناس في حقيقتها بعد اتفاقهم على أنها موجودة سمعا وعقلا ، فذهب أكثر المسلمين إلى أنها أجسام نورانية ، وقيل هوائية قادرة على التشكل والظهور بأشكال مختلفة بإذن الله تعالى) (٥)

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ص ٤٤٤ـ ٤٤٧ .
والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ـ تفسير ابن عطية جـ ١ص ٢٢٦ .
والقاموس المحيط جـ ٣ص ٣١٧ و ٣٢١ .

(٢) تفسير الطبري جـ ١ ص ٤٤٥ ـ ٤٤٧ .

(٣) فتح الباري جـ ١١ ص ١١٤ .

(٤) نفسه ص ١١٧ والآية من سورة الأنبياء ٢٧ وانظر أضواء البيان جـ ٤ ص ٥٦٠ ـ ٥٦١ .

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني محمود الألوسي البغدادي إحياء التراث العربي ببيروت جـ ١ ص ٢١٨ .

عـــــــــرض

أما عقيدة القادرية في الملائكة فإليك نصوصهم التي يعرف منها اعتقادهم فيهم عليهم السلام .

عند استعراض ماكتبه القادرية عن الملائكة يجد الباحث نقولا كثيرة من كتب التفسير والسنة وشراحها ، وآثار عن السلف الصالح في عظم خلقتهم وشدة خوفهم وعدم انقطاع عبادتهم ، وقوة إيمانهم ونصحهم للمؤمنين بالاستغفار (١) . وميزة ما كتبوه عن الملائكة أنهم ربطوه بنصوص الكتاب والسنة إذ لايمكن أن يعرف شيء عن الملائكة إلا عن طريق الوحي المعصوم (٢)

يقول المختار الكنتي : (ومن شرف الإيمان أن الله تعالى مدح به حملة عرشه ومع عظم أجسادهم وقوتهم يرجفون من مخافة الله عزوجل لاينطقون إلا بذكر الله وهم من أشرف الملائكة ، قال الله تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ﴾ الآية (٣) ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ (٤) . وهم من أشرف الملائكة وأفضلهم لقربهم من الله عزوجل وهم على صورة الأوعال) (٥) (وأن إيمان الملائكة لايزيد ولا ينقص (٦) وبعدما فسر قول الله تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) (٧) .

---

(١) المنة ١٥٣ _ ١٥٧ .

(٢) انظر : التمهيد لابن عبد البرج ٧ ص ٢٤٥ .

(٣) الآية من سورة غافر (آية ٧) .

(٤) الآية من سورة الحاقة (آية ١٧).

(٥) المنة ص ١٥٣ . وحديث الأوعال المشار إليه ضعفه بعض العلماء وهو حديث رواه أبو داود في كتاب السنة رقم (٤٧٢٣) ورواه الترمذي في التفسير عند سورة الحاقة ولكن قال بأنه حسن غريب طعن فيه بالاضطراب والانقطاع . راجع عارضة الاحوذي جـ ١٢ ص ٢١٨ وقارن بما في تهذيب ابن القيم لمعالم السنن للخطابي عن الحديث المذكور رقم (٤٥٥٨) انظر التمهيد لابن عبد البر جـ ٧ ص ١٤٠ وشرح الطحاوية بتعليق الألباني ص ٢٥٠ .

(٦) الكوكب الوقاد ص ١٠٨ .

(٧) البقرة (الآية ٢٨٥) .

إلى أن قال :(وأما الايمان بالملائكة فهو أن تؤمن بوجودهم وأنهم معصومون مطهرون وأنهم السفرة الكرام البررة وأنهم الوسائط بين الله تعالى وبين رسله) (١)

وأن أجسامهم لطيفة نورانية (٢) وأن جبريل وميكائيل أفضل الملائكة بدليل عطفهما بالذكر في قوله تعالى : ﴿ من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ (٣) .

إلى أن قال : (وأن الايمان بهم من الإيمان بالغيب الذي لا إيمان بدونه

عصمتهم : وقال في عصمتهم : (وأما عصمة الملائكة فقد جاء بها نص الكتاب والسنة قال الله تعالى :(لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) . (٤)

كما يدل على ذلك حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عصمة الملائكة فقال : إن الله فطرهم على الطاعة وجبلهم عليها فهم يذكرون الله لا يفترون ويعبدونه لا يسأمون ، اقرؤا إن شئتم (إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته (٥) . ومع ثبوتها بالنص فإنها لا تجب لهم على الله وانما هي مجرد فضل منه .

المفاضلة بين الملائكة والبشر :

ولا تقتضي عصمتهم تفضيلهم على البشر بل البشر أفضل من الملائكة كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ﴾ - إلى قوله : ﴿ على كثير ﴾ الآية (٦) قال جمهور أهل

---

(١) الشموس الأحمدية ص ٤ .
(٢) المنة ص ٥٦ والآية من سورة البقرة (آية ٩٨) .
(٣) المنة ص ١٤٥ .
(٤) الآية من سورة التحريم (آية ٦) .
(٥) سورة الأعراف (الآية ٢٠٦) جذوة الأنوارص ٨١ .
(٦) سورة الإسراء (آية ٧٠) .

السنة والجماعة خواص بني آدم وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل (يعني ملك الموت) وحملة العرش والكروبيون والحافون والروحانيون ، وخواص الملائكة أفضل من عوام بني آدم قال التفتزاني (١) وعليه الاجماع ، وعوام بني آدم أفضل من عوام الملائكة ، والمسجود له أفضل من الساجد فإذا ثبت تفضيل العوام لعوام الملائكة فلِن عوام الملائكة خدم عمال الخير من بني آدم والمخدوم له فضل على الخادم ولأن المؤمنين ركب فيهم الهوى مع تسليط الشيطان عليهم بوسوسته ، والملائكة ركب فيهم العقل دون الهوى ولا سبيل للشيطان عليهم فالإنسان يحصل الفضائل والكمالات العلمية والعملية مع وجود العوائق والموانع والشهوة والغضب ، وسنوح الحاجات الضرورية الشاغلة عن اكتساب الكمالات ولا شك أن العبادة وكسب المال مع الشواغل والطوارىء أشق وأدخل في الاخلال فيكون الإنسان بهذا الاعتبار أفضل) (٢) ٠

قلت : هذه حكاية صاحب هذا النص لمذهب جمهور أهل السنة في العقيدة في الملائكة وحكم المفاضلة بينهم وبين بني آدم ثم قال : (والمراد بعوام بني آدم هنا الصلحاء لا الفسقة كما نبه عليه العلامة ابن أبي شريف المقدس وكما نص عليه البيهقي في شعب الايمان) (٣) ٠

---

(١) هو السعد التفتازاني : مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني ، سعد الدين ٠ وقال في الحديث رواه ابن ماجه ورجاله رجال الصحيح . قلت : لم أهتد لمكانه في ابن ماجه ، ولم نجده في كتب التفسير عند الآية المذكورة أو غيرها مما تذكر عند المفاضلة بين الأنبياء والملائكة ـ انظر القرطبي ج ٣ ص ٢٦١ وما بعدها ج ١١ ص ٢٧٧ وما بعدها . وذكر البيهقي آثارا عن ابن عباس في المفاضلة ليس فيها هذا اللفظ ـ انظر: شعب الإيمان ج ١ ص ١٧١ وما بعدها ٠ له مقاصد الطالبين في علم الكلام وشرحه انظر الأعلام للزركلي ج ٧ ص ٢١٩ .

(٢) نفس المصدر من ص ٨١ ـ ٨٢ ٠

(٣) جذورة الانوار ص ٨٢ قارن بما في شعب الإيمان ج ١ ص ١٧١ ٠

ثم نقل نص عبارة الإمام البيهقي فقال :

(وعبارته : قد تكلم قديما وحديثا في الملائكة والبشر فذهب ذاهبون إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة (١) فإن احتج محتج لفضل الملائكة على البشر بثبوت عصمتهم بالنص دون البشر رد عليه بأن القاعدة بأنه قد يختص المفضول بخصائص وكرامات لم يحظ بها الفاضل ولا يقتضي رفعة رتبة عنه كمشي زيد أمام (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة ، لإدمانه على صلاة الركعتين ولا يقتضي ذلك أفضليته على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن عصمة الملائكة ولو ثبتت بالنص فإن ذلك لايخرجها عن كونها فضلا من الله عليهم ، وإلا لما استوجبوها لذواتهم ولما كانت واجبة على الله لهم لأنه لايجب عليه شيء لخلقه ، وإنما يوجب ماشاء على نفسه وجوب جزم لاوجوب تحتم قال الله تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) (٣) .

وقال : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) (٤) وقال في حق البعث : (يوم نطوى السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) (٥)

---

(١) إلى هنا موافق لعبارة البيهقي ، شعب الايمان جـ ١ ص ١٧١ .

(٢) قلت : هذا وهم والرواية ثابتة في الصحاح والسنن لبلال بن رباح رضي الله عنه وهذا لفظها في البخاري ، كتاب التهجد باب فضل الطهور بالليل والنهار ، وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار (رقم ١١٤٩) (عن أبى هريرة رضي الله عنه : (أن البني صلى الله عليه وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر : يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة . قال : ماعملت عملا أرجى عندي أني لم أتطهر طهورا في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصليه) قال أبو عبدالله ـ البخارى : دف نعليك يعني تحريك .) قلت: وفي روايات الحديث ألفاظ وزيادات أخرى

(٣) الأنعام الآية ٥٤ .

(٤) المجادلة الآية ٢١ .

(٥) الأنبياء الآية ١٠٤.

ويتابع نقولاته ومناقشاته مبينا المذاهب الأخرى فيقول : (فذهب طائفة المعتزلة والفلاسفة وبعض الأشاعرة إلى تفضيل الملائكة وهو اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني وأبي عبد الله الحليمى ، أما المعتزلة والفلاسفة فقد تمسكوا بوجوه ، منها : أن الملائكة أرواح مجردة كاملة بالفضل مبرأة عن الشرور والآفات كالشهوة والغضب ، وعن ظلمات الهيولى والصورة قادرة على الأفعال العجيبة عالمة بالكوائين ماضيها وآتيها من غير تخليط) .

ثم أخذ في رد أقوالهم هذه قائلا :

(ولا حجة فيما قالوه لأنهم إنما نطقوا بألفاظ تخمينية وزخارف أقوال شيطانية مبناها أحوال فلسفية لاحقائق إسلامية ، قال الله تعالى : ﴿ شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾ (١) • فإنه لا يلتفت إليها ولا يعول عليها إلا جاهل مستدرج أو (قال) مبهرج ـ قلت : لم يعين القائل ثم قال : وأما القاضي أبي بكر الباقلاني وأبو عبد الله الحليمي ومن نحا منحاهما من الأشاعرة فقد استدلوا على فضل الملائكة على البشر بدلائل : منها : (أولا : أن الأنبياء مع كونهم أفضل البشر ، إنما يتعلمون ويستمدون من الملائكة بدليل قوله تعالى : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ (٢) وقوله : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾ (٣) الثاني : أنه اطرد في الكتاب والسنة تقديم ذكرهم على ذكر الأنبياء ، وما ذلك إلا لتقدمهم في الشرف في الرتبة الثالث : قوله تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون﴾ (٤) لأن أهل اللسان يفهمون من ذلك أفضلية الملائكة على عيسى إذ القياس

---

(١) سورة الأنعام (آية ١١٢) •

(٢) سورة النجم (الآية ٥) •

(٣) الشعراء (الآية ١٩٣ ـ ١٩٤)•

(٤) النساء (الآية ١٧٢) قلت : هكذا بالنص (فكلما) والاملاء يقتضى فصل كل عن ما الموصولية ـ (فكل ما) ص ٤٢٦ •

في مثله الترقي من الأدنى إلى الأعلى يقال : لا يستنكف من هذا الأمر الوزير ولا السلطان ، ولا يقال : السلطان ولا الوزير .

ثم إن ماجاز على عيسى يجوز على سائر الأنبياء لأن منصب النبوة واحد (فكلما) جاز على البعض يجوز على الكل ، وإنما يتفاضلون بعد ذلك فى المزايا) ثم قال : قلت : (وليس فيما ذكره هؤلاء دليل صريح على أفضلية الملائكة على البشر . فإن الجواب عن الأول : أن التعليم من الله تعالى ، والملائكة إنما هم مبلغون وسفراء بين الله وبين رسله من البشر . وعن الثاني : إن تقديمهم في الكتاب والسنة لم يكن عن فضل ولا شرف وإنما ذلك لتقدمهم في الوجود أو لأن وجودهم أخفى فالايمان بهم أقوى وبالتقديم أولى ونظيره قوله تعالى : ﴿ يامعشر الجن والإنس ﴾ (١) وقوله وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (٢) .

ومعلوم ضرورة أن الإنس أفضل من الجن وإنما قدمهم لتقدم وجودهم أو لخفيتهم لا لفضل ثمه .

وعن الثالث : أن النصارى لما استعظموا المسيح بأن يرتفع عن أن يكون عبدا من عباد الله بل ينبغي أن يكون ابنا له لأنه مجرد لا أبا له وكان يبرىء الأكمه والأبرص ويحي الموتى بخلاف سائر العباد من بني آدم ، فرد عليهم لأنه لا يستنكف من ذلك المسيح ولا من هو أعلى منه في المعنى وهم الملائكة الذين لا أب لهم ، ولا آم . ويقدرون بإذن الله على أفعال أعجب وأقوى من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، والترقي والعلو إنما هو في أمر التجرد وإظهار الآثار القوية لا مطلق الشرف والكمال ، فلا دلالة حينئذ على أفضلية الملائكة على البشر باعتبار ما يقتضيه ظاهر هذه الآية الشريفة إلا أن الملائكة بعضهم أفضل من بعض .) (٣) .

---

(١) الرحمن (الآية ٣٣).

(٢) سورة الذاريات (الآية ٥٦) .

(٢) جذوة الأنوار ص ٨١ _ ٨٣ .

وقد توسع صاحب هذا النص في مسألة عصمة الملائكة بالنص والمفاضلة بينهم وبين بني آدم في غير ماكتاب له (١) وكلامه متفق ونقوله عن علماء أهل السنة في هذه العقيدة كثيرة وعندي أن كلامه في توضيح عقيدة القادرية في الملائكة موافق لعقيدة أهل السنة والجماعة بالمقارنة بما في شرح العقيدة الطحاوية (٢) وصيد الخاطر لابن الجوزي (٣)، ولا يوجد الكثير عن الملائكة في كتب القادرية غير ما ذكر إلا عبارات قليلة يقتصر أصحابها فيها على أنه يجب الإيمان بهم ، وأنهم عباد الله مكرمون، لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأنهم فيما بينهم متفاضلون ، وأنهم بالوحى وكتابة أعمال العبد والحفظ وغير ذلك من أعمالهم المذكورة في القرآن الكريم والسنة على أكمل وجه قائمون ، وأنهم لايعلمون إلا ما علمهم الله ، وعن عبادته تعالى لا يفترون (٤) .

وعلى هذا فيمكن الجزم بأن عقيدتهم في الملائكة لا غلو فيها وأنها مستمدة من نصوص الكتاب والسنة وعقيدة أهل السنة والجماعة . والله اعلم .

---

(١) المنة ص ٨٤ و ١٥٢ ـ ١٥٧ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٤٩ ـ ٢٦٧ و ٢٧٢ ـ ٢٨٨ .

(٣) صيد الخاطر ، لعبد الرحمن بن الجوزي ، دار الكتب العلمية ببيروت ص ٧٣ ـ ٧٥ .

(٤) أنظر : المنة ص ١٤٦ و ١٤٨ و ١٥١ ـ ١٥٤ وبذل الوسع في تفسير الآيات التسع ص ٧٢ ـ ٨٠ والضيـاء المستبين ص ٢٨٦ ، ونعت البدايات ص ١٠٢ وجنة المريد ص ٣١ .

المبحث الثاني : عقيدتهم في النبوة

التعريف : قال صاحب القاموس : (والنبي كغني الطريق ، والنباوة ما ارتفع من الأرض كالنبوة والنبي وبالكسر النبوة) (١) ٠

وقال في الصحاح : (والنبوة والنباوة : ما ارتفع من الأرض ٠ فإن جعلت النبي مأخوذا منه ، أي أنه شرف على سائر الخلق فأصله غير الهمز ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وتصغيره نبي والجمع أنبياء) (٢) ٠

وقال في المعجم الوسيط : (النبوءة : سفارة بين الله عز وجل وبين ذوي العقول لإزاحة عللها) (٣) قلت : وفي هذا التعليل نقص ظاهر إذ مهمة الرسل أعم من ذلك فالنبوة في اللغة مأخوذة من الرفعة وعلو المكان وشرفه وهو (جبل النبوة) كما يسمية الندوي (٤) ٠

وفي الاصطلاح : سفارة والسفارة يصطفى لها ويختار (الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير) (٥) قال ابن كثير : (يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلا فيما يشاء من شرعه وقدره ومن الناس لإبلاغ رسالاته (٦) ٠

وعمدة الدين الإيمان بالنبوة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولذا فلا ينكرها إلا البراهمة أو من له شبهة تقليد واتباع لآبائه ، وقد سجل القرآن الكريم تلك الشبه عموما ورد عليها الردود التي لا تقوم بعدها شبهة (٧) ٠

وعند استعراض ما كتبته القادرية عن النبوة نجده يدور حول المسائل الآتية : الإيمان بالنبوة وأنها اصطفاء من الله تعالى ، وأنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء إجمالا ، وتفصيلا المذكورين في القرآن الكريم ، وأنه يجب في حقهم الأمانة والصدق والتبليغ ٠

---

(١) القاموس المحيط ج ٤ / ٣٩٣ ٠
(٢) الصحاح ج ٦ ص ٢٥٠٠ ٠
(٣) المعجم الوسيط ج ٢ ص ٨٩٦ ٠
(٤) النبوة والانبياء في ضوء القرآن ، أبوا الحسن علي الحسني الندوى ، دار القلم دمشق ط ٦ سنة ١٤٠٤ هـ ص ٢٥ ٠
(٥) سورة الحج الآية ٧٥ ٠
(٦) تفسير ابن كثير ج ٣ص ٢٣٥ والشفا ج ٢ ص ٧٢٦ وما بعدها ٠
(٧) العقيدة في ضوء القرآن الكريم ، صلاح عبد العليم ابراهيم ، مكتبة الازهر ط ١ سنة ١٤٠٢ هـ ص ٢٥٥ وما بعدها ٠

ويستحيل في حقهم ما يخالف ذلك ، ويجوز في حقهم من الأعراض البشرية ما لا يؤدي إلى التنفير منهم ، مع عصمتهم من الصغائر والكبائر وجميع الرذائل وأنهم ختموا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وبما أن نصوصهم في هذه العقيدة تأتي مشتتة وفي صور استطرادات ونقول من كتب أخرى فلبن على الباحث أن يختار أكثرها صلة بالعقيدة الصحيحة سلبا أو إيجابا . وأقواها ضررا بها عند الانحراف عن الصواب مثل علم الغيب أو كتم شيىء من الوحي أو كون شيىء من أمور النبوة يورث ، وما المراد بالوراثه عند القادرية ؟ وستكون دارسة ونقد هذه النقاط بعد عرض النصوص الآتية إن شاء الله تعالى

عـــــرض :

قال المختار الكنتي : (واعلم أن صدق الرسل هو الأصل الذي يفتقر إليه جميع الأصول فبذلك ينبغي إفراغ الجهد في تعينه) (١) . وأخذ يعدد ويأتي بالبراهين العقلية والنقلية في وجوب صدقهم وأمانتهم وتبليغهم فقال : (والدليل على وجوب صدقهم قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيىء .. ﴾ إذ الرسل هم السفراء بين الله وبين خلقه ومظهر عظمته ويؤدي كذبهم إلى كذب ما أتوا به عن الله من جميع كتبه وذلك يؤدي إلى بطلان الأحكام ومحو الشرايع وذلك باطل وكل ما أدى إلى الباطل فهو باطل) ثم قال : (وأما الدليل العقلي فهو أن كذب الرسل يؤدي إلى كذب المرسل وكذب المرسل يؤدي إلى أحد أمرين كل منها باطـل) ووجوب صدق الرسل يقتضي وجوب أمانتهم .

فبرهان وجوب أمانتهم من المنقول قوله تعالى : (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) (٣) ووجوب الاقتداء بهم هو عين الائتمان ولا يأمن العليم الخبير إلا أمينا أي أمين ..

---

(١) الشموس الأحمدية ص ١٣ .

(٢) الانعام الآية ٩١ .

(٣) سورة الحشر الآية ٧ .

وأما برهان أمانتهم عقلا فهو أنهم لو خانوا في فعل من الأفعال لوجب أن يكون المنهي عنه مأمورا به ، والمأمور به منهيا عنه فيؤدي ذلك إلى أمر الله بمحرم أو مكروه وذلك باطل ...)

وأما دليل التبليغ نقلا فهو قوله تعالى : ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته .. ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى .. ﴾ وقوله : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك وأتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس ﴾ (٣) وعقلا هو : أنهم لو جاز عليهم أن يكتموا البعض لجاز عليهم أن يكتموا الكل فيؤدي إلى قلب أعيان الحقائق ويكون ذلك قادحا في أصل رسالتهم الثابة بالدليل . والبرهان وكل ذلك باطل وكل ما أدى إلى الباطل فهو باطل) (٤) . فهذه هي الأمور التي تجب للأنبياء جميعا ويستحيل عليهم ضدها : (وكما يجب للنبي عليه الصلاة والسلام الصدق والأمانة والتبليغ ويستحيل عليه ضد ذلك يجب لسائر الرسل لعلو منصبهم) (٥) . ثم يكمل مجمل اعتقادهم في الأنبياء فيقول :

(واعتقاد كون الإيمان فضلا لا كسبا كالنبوة وأن الأنبياء عليهم السلام أفضل من الأولياء وأن للأولياء كرامات فيما دون تجديد شرع محدث وأن للنبي صلى الله عليه وسلم خصائص وجوب وحلية (٦) دون سائر الأمة وأن الأنبياء عليهم السلام يشاركونه في كونهم ،

---

(١) المائدة الآية ٦٧ .

(٢) عبس الآيتان ١ . ٢ .

(٣) الأحزاب الآية ٣٧ .

(٤) الشموس الأحمدية ص ١٢ . ١٣ .

(٥) نفسه ١٢ .

(٦) كذا بالاصل : (وحلية) ولم تتبين المراد منها إلا أن حلية الرجل : صفته . فلعل صاحب النص أراد ما يتحلى به النبي صلى الله عليه وسلم من الشمائل والصفات الحميدة . والله أعلم .

لايورثون وفي حرمة نكاح أزواجهم من بعدهم وأن منهم أولي العزم يوحى إليهم يقظة ، وأن فضلهم على الجملة ، وأنه يجوز عليهم ما يجوز على سائر البشر مما لا يؤدي إلى نقص كالعمى والجذام والبرص ٠٠) (١) وكتب القادرية أيضا عن عصمة الأنبياء وتناولت آراء الناس فيها فقال المختار الكنتي في كتابه المنة (٢) (فصل في بيان عصمة الأنبياء وما قيل في ذلك ٠٠ قال الإمام فخر الدين الرازي : (اختلف الناس في عصمة الأنبياء وضبط القول فيها يرجع إلى أقسام أربعة :

أحدها : ما يقع في باب الاعتقاد وهو اعتقاد الكفر والضلال فإن ذلك غير جائز عليهم ٠

الثاني : ما يتعلق بالتبليغ فقد أجتمعت الأمة على كونهم معصومين من الكذب وتعمد المعاصي وإلا الارتفع الوثوق بالأداء ، واتفقوا على أن ذلك لا يجوز منهم عمدا ولا سهوا ومن الناس من يجوز ذلك عنده سهوا لأن الاحتراز منه غير ممكن ٠

الثالث : ما يتعلق بالفتيا وأجمعوا على أنه لا يجوز خطؤهم فيه على سبيل العمد وأجازه بعضهم على سبيل السهو ٠

الرابع : ما يقع في أفعالهم ٠٠٠) (٣) ٠

ونقل أقوال الناس في جواز الكبائر والصغائر في حقهم ، ومتى تكون عصمتهم ؟

وأن بعض الناس قال بأنها من يوم ولادتهم ، وبعضهم قال من يوم بلوغهم وبعضهم قال من حين جاءتهم النبوة (٤) ثم قال :

---

(١) الشموس الأحمدية ص ٤٦ ـ ٤٧ قلت : وإذا قورنت نصوصهم بما في إضاءة الدجنة وجد متطابقا ٠ انظرها ص ٥٥ ـ ٣٦ ٠

(٢) المنة في اعتقاد أهل السنة ص ٨٣ وما بعدها ٠

(٣) نفسه ص ٨٣ ٠

(٤) نفسه ص ٨٣ ـ ٨٤ ٠ قلت : لعله نقل كلام الرازي من رسالته : (عصمة الأنبياء) وهي موجودة مخطوطة في أول مجموع في الخزانة العامة بالرباط (١١٨٠) وانظر الاعلام للزركلي جـ ٦ ص ٣١٣ ٠

(ومن الواجب اعتقاده والذي لايكمل الايمان إلا به أعتقاد براءة الرسل من تعمد الكبائر والاصرار على الصغائر ولو لم يرد ذلك بنص القرآن وانما جاء في نصوص الأصوليين حتى كاد ينعقد عليه إجماعهم) (١) ٠ وما أشار إليه هنا من إجماع الأصوليين وغيرهم على عصمة الأنبياء قال فيه الامام الشوكاني ما يأتي : (ذهب الأكثرمن أهل العلم إلى عصمة الأنبياء بعد النبوة من الكبائر وقد حكى القاضي أبو بكر إجماع المسلمين على ذلك وكذا حكاه ابن الحاجب وغيره من متاخري الأصوليين وكذا حكوا الاجماع على عصمتهم بعد النبوة مما يزري بمناصبهم كرذائل الأخلاق والدناءات وسائر ما ينفر عنهم ٠٠٠) (٢)

ثم قال المختار الكنتي : (وعصمة الأنبياء إنما هي تفضل عليهم بعد نشأتهم في أصل فطرتهم فصار اعتقادنا كتبرئتهم من ذلك الجائز عليهم واجبة لتحصل الطمأنية للمتقتدي بهم ٠٠) (٢) وأخذ المختار الكنتي في مناقشة وتفسير نصوص الآيات والأحاديث المصرحة بلفظ وقوع المعصية والذنب من بعض الأنبياء (٤) ٠

وقال : (فهذا مذهب الحق لموافقته لنصوص الكتاب والسنة وما عليه سواد الأمة بعيدا عن إفراط المعتزلة وغلاة أهل الكلام القائلين بأن عصمة الأنبياء واجبة ذاتا وأنها حق لازم لله تعالى فخرجوا بذلك عن الاسلام والاستلام حتى أفضى بهم إلى العناد وهو أن يستوجبوا على الله مالا يستوجبه لنفسه لأنه تعالى يقضي ولا يقضى عليه ويوجب ولا يوجب عليه (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) ، وعن تفريط جهلة القصاص والمؤرخين وبعض من لا علم له من المفسرين لأنهم ينسبون إلى أولياء الله وصفوته من خلقه من ارتكاب الكبائر والخوض فيما لايليق بآحاد المؤمنين فضلا عن أنبيائه وأوليائه الصالحين ، فشد على ما ذكرته لك يد الضنين وحافظ

---

(١) المنة ص ٨٤ ٠

(٢) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني دار المعرفة بيروت ص ٢٩ ٠

(٣) المنة ص ٨٤ ٠

(٤) جذوة الأنوار ص ٧٣ . ٨١ والمنة ص ٨٤ . ٨٥ ٠

عليه محافظة الخازن الأمين ، فإنه الحق القويم ، والصراط المستقيم) (١)

ويقول الشيخ سيدي محمد الكنتي في حق الأنبياء والرسل : (والإيمان بالرسل وأنهم أفضل خلق الله • وأفضلهم أولوا العزم وأفضل أولوا (٢) العزم نبينا ومولانا محمد الكريم (صلى الله عليه وسلم) عليه وعليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وأنه مما يجب لهم الصدق على كل حال والأمانة وتبليغ ما أمروا بتبليغه ويستحيل في حقهم ما نافى ذلك ، ويجوز في حقهم ما لا يؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية أو غض مناصبهم الرفيعة الجليلة) •

ويجمع مؤلفوهم على هذه العقيد في الأنبياء عموما (٣) ، وعلى ختم النبوة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وتخلتف عباراتهـم في الحكم بختم النبوة به صلى الله عليه وسلم : (لايجوز أن يبعث الله بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بنبياً بشرع جديد يبين أحكاما مخالفة لما جاء به صلى الله عليه وسلم فإنه لا يقبل ولا يعول عليه ••) (٤) •

ويقول محمد الكنتي في معرض رده لقول غير المعصوم : (والخبر إما أن يكون من معصوم فما كان منه عن معصوم أفاد علما ملحقا بالمشاهدة ••• والرسول صلى الله عليه وسلم هو خاتمة الرسل وقد قال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (٥) ويروي محمد الكنتي حديثا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبين لا نبي بعدي) (٦) •

---

(١) جذوة الأنوار ص ٨١ يقان بما في أحكام القرآن لابن العربي عند قول الله تعالى : من سورة ص : (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة •) الآية جـ ٤ ص ١٦٢٣ وما بعدها •

(٢) جنة المريد ص ٣١ هكذا في النص (أولوا) والصواب : (أولي) هنا •

(٣) المنة ص ١٥٧ . ١٥٨ ودقائق الحقائق في حقائق الدقائق للشيخ التراد في ص ٣ •

(٤) جذوة الأنوار ص ٤ •

(٥) الصوارم الهندية ص ٢٣ والآية من سورة الحشر آية (٧) •

(٦) الغلاوية ص ٣٨ •

قلت : ومحل الشاهد من هذا الحديث قوله (وأنا خاتم النبين لا نبي بعدي) وقد وردت هذه اللفظة في أحاديث صحاح في البخاري ومسلم (١) إلا أنها لم ترد في حديث بهذا السياق الذي ساقه صاحب كتاب الغلاوية فلعله نقله من كتاب غير الذي وقفت عليه ، ولكن جاء في المسند وأبي داوود أحاديث فيها هذه الألفاظ عن أبي هريرة وغيره ، منها : (وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله) و (لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذابا دجالا كلهم يكذب على الله وعلى رسوله) (٢)

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة تبوك الحديث رقم (٤٤١٦) وصحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب ذكر أنه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢٤ ص ٣١ ، ٤٢ . وسنن أبي داود ، كتاب الملاحم ، باب في خبرابن صائد ج ٤ ص ٥٠٧ أرقام : (٤٣٣٣ و ٤٣٣٤) .

نقـــــد :

وعلى ضوء هذا العرض وبمقارنته مع عقيدة أهل السنة والجماعة يمكن أن يقال بأن القادرية التزمت منهجا صحيحا في العقيدة في النبوة من كونها اصطفاء من الله تعالى: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) (١) وكذلك فيما يجب للرسل الكرام من الأمانة والصدق والتبليغ وما يستحيل عليهم مما يخالف هذه الواجبات ، وكذلك في تفضل الله تعالى عليهم بالعصمة في البلاغ والحفظ والصيانة على كل حال وأنهم لا ينطقون عن الهوى ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ وأنهم صلوات الله وسلامه عليهم ختموا بنوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك يوافق استدلالهم على إثبات هذه العقيدة بالعقل والنقل ما عليه أهل السنة والجماعة (٣) وهم معتمدون في غالب نقولهم واعتقادهم في هذه العقيدة بعدنصوص الكتاب والسنة على كتاب الشفا للقاضي عياض بدليل كثرة نقولهم عنه تصريحا (٤) وموافقة بعض نصوصهم لنصوصه (٥) ٠

قلت : ولا ينبغي لمسلم أن يخل بشييء من هذه العقائد على أي وجه كان من تأويل أو شبهة إلا أن الباحث يجد بعض النصوص التي يؤخذ منها أن القادرية أخلت ببعض هذه العقائد التي صرحت بإيمانها بها ابتداء من وحدانية الله وانفراده بالتصرف في الكون والتدبير وإحاطته بالغيب وإخلاص العبادة له وحده وأنتهاء بأمانة أنبيائه ووجوب تبليغهم لرسالاته وعصمته لهم دون غيرهم من الإنس ، وكان هذا الإخلال تحت غطاء دعوى الولاية الذي أدخلت من بابه الشيعة ومن أخذ عنهم من الصوفية في أبواب العقائد الإسلامية ما لايستقيم معه إيمان ولا يصح معه إسلام ٠ ولذا فقد كانت الولاية وختمها في خطة البحث تأخذ شكل المبحث الصغير ولكن نظرا لأهميتها وخطورة العقائد التي أدخلت في القادرية بسببها أقتضت مصلحة البحث أن يخصص لها فصل يشتمل على مباحث حتى يعرف مدى أثرها على عقائد القادرية وبثها وهو الفصل الخامس ٠

---

(١) الآية من سورة الأنعام ١٢٤ ٠

(٢) الآية من سورة النجم آية ٤ ٠

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٩٧ . ١١٩ وعقيدة ختم بالنبوة المحمدية ص ٩ . ٢٩ ٠

(٤) الكوكب الوقاد ص ١٠٢ . ١٠٤ وبذل الوسع في تفسير الآيات التسع ص ٦١ . ٦٢ ٠

(٥) الشفا ج ٣ ص ٩٠٠ وما بعدها والجزء الثالث ج ٣ ص ٣٩٧ وبذل الوسع ص ٤٤ و ٥٦ ٠

لقد أجرى الطالب التعديلات المطلوبة
د/ أحمد محمد بناني

لقد أجرى الطالب التعديلات المطلوبة
د/ محمد الحبيب

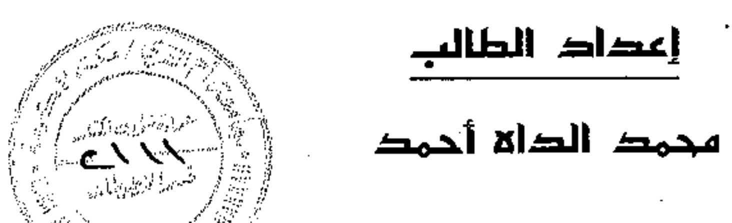
د/ عبد الشكور العروسي

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
بمكة المكرمة
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة
الدراسات العليا

القادرية في موريتانيا

عرض ونقد

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير



إعداد الطالب

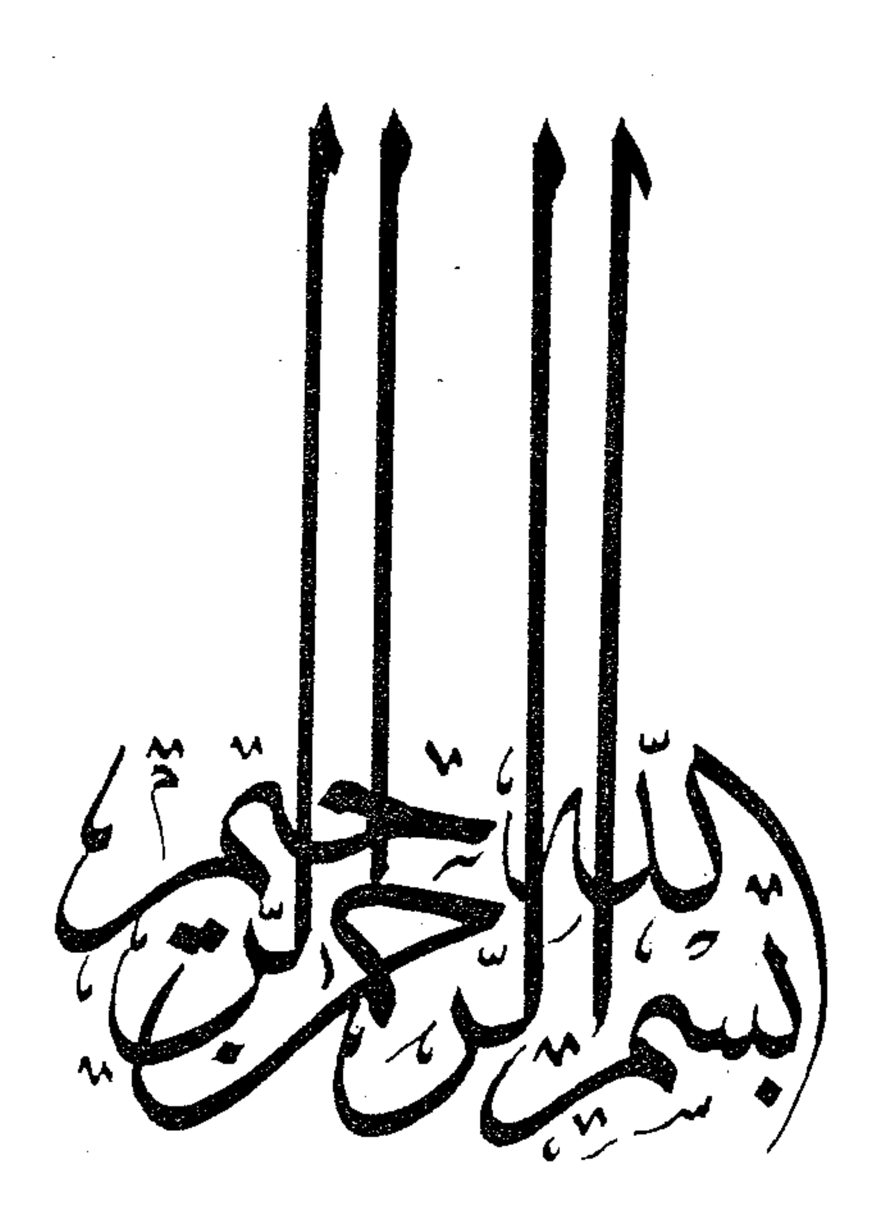
محمد الداه أحمد

إشراف الدكتور

عبد الشكور محمد أمان العروسي

الجزء الثاني

عام ١٤١٢هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

الفصـــل الخامس

الفصل الخامس

عقيدتهم في الولاية وختمها

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث ٠

التمهيد ٠ مكانة الولى عند القادرية ٠

المبحث الأول: الولاية والعصمة وعلم الغيب وختم الولاية٠ وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الولاية لغة وشرعاً ، وعرفا عند الصوفية ٠

المطلب الثاني : العصمة ٠

المطلب الثالث : علم الغيب ٠

المطلب الرابع : ختم الولاية ٠

المبحث الثاني : التصرف في الكون ٠

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : التصرف لغة واصطلاحا عند الصوفية ٠

المطلب الثاني : عرض نصوص القادرية في التصرف في الكون

ونقدها ٠

المطلب الثالث : التصرف في الكون بمعنى الحيل والاسباب .

المبحث الثالث : التوسل ٠

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : التوسل إلى الله بالبيعة لمشايخ الطريق ٠

المطلب الثاني : المدد والإستمداد ٠

المطلب الثالث : طلب الحوائج بالمخلوق ٠

التمهيد :

القاريء لكتب القادرية والمحاور لهم يجدهم يرددون كثيرا القول بعصمة الأولياء ووجوب تصديقهم والتسليم لهم ، وأن الأولياء يعلمون الغيب إما علما بلا واسطة أوبواسطة وأن سبيلهم في ذلك سبيل الأنبياء ، وفي هذا من عقيدة مساواة الأولياء بالأنبياء في العصمة ، وفي الوحي ووجوب طاعتهم واتباعهم والتسليم لهم ، دون من سواهم من البشر ما لا يخفى ٠ وفيه كذلك من ادعاء الوحي بأي صورة كان ما يخدش عقيدة اختصاص الأنبياء بالوحي التشريعي الذي يجب اتباعه والتسليم له ٠ ويجد الباحث كذلك من العقائد المبثوثة في كتبهم أو الدائرة بينهم أن الأولياء الذين هم عندهم الأقطاب والأوتاد والنجباء والأبدال يعلمون الغيب ويدبرون الكون ويتصرفون فيه ويولون ويعزلون ويمنعون ويعطون ويسلبون (١) ٠ وفي هذا المعتقد من التعدي على الربوبية ما لا يمكن لباحث مسلم إهماله في بحث في العقيدة ٠

ثم إنه ما دام هؤلاء الأولياء بهذه المكانة عندهم فيجب أو يجوز التوسل بهم وقصد زيارتهم والمجاورة عند قبورهم لطلب الحاجات والإهداء إليهم للفتح والحظوة وغير ذلك مما يعد صرفا للعبادة لغير الله تعالى وتعد على تفرده بالألوهية ٠

فلو كان هؤلاء من الشيعة لقيل هذه الأمور من معتقدات الشيعة من قديم الزمان، وقد رد عليهم العلماء فيها وبينوا لهم ما تنطوي عليه من الكفر والإلحاد وكان من أول الرادين عليهم الإمام علي رضي الله عنه (٢) ولكن هؤلاء يتبرؤون من معتقدات الشيعة والرافضة وغيرهم من طوائف أهل الأهواء (٣) فما هي علة انتشار هذه العقائد في كتبهم وبين أتباعهم ؟ إن لانتشار هذه العقائد أسباباً عامة للصوفية وخاصة بالقادرية التي يتناولها هذا البحث ٠

---

(١) سبق التعريف بهذه الألقاب ٠

(٢) انظر : العواصم من القواصم تأليف : القاضي أبو بكر بن العربي ، تحقيق وتعليق : محب الدين الخطيب ، ط مكتبه أسامة بن زيد ١٣٩٩ هـ ص ١٢٧ وما بعدها بهوامشه ٠

(٣) الكوكب الوقاد ص ١٥ و ١٣١ . ١٣٢ ٠

أما الأسباب العامة فهي أن الصوفية المنحرفين قد أخذوا عن الاسماعيلية والرافضة الدائنين بالحلول والهية الأئمة وغيرها من القول بالقطب وتوارث الأئمة ، وترتيب الأبدال فسرت فيهم هذه العقائد وانتشرت في البيئة الصوفية (١) •

وأما الخاصة :

ولما كانت القادرية كما تقدم تنقل مسلمة لما يصدر عن مشايخ الصوفية مهما كانت درجة انحرافهم دخلت إلى ساحتها هذه العقائد ولم تجد محررا ولا محققا ينبههم على خطورتها على العقيدة •

قال ابن خلدون بعد توضيحه لصلة الصوفية بالاسماعيلية والرافضة قال : (واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم) ثم نقل كلام ابن سيناء في كتاب الاشارات في وصف القطب • وهو قوله : (جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد ، أو يطلع عليه إلا واحد بعد واحد) إلى أن قال : (وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي ، وانما هو من الخطابة ، وهو بعينه ما تقوله الرافضة في توارث الأئمة عندهم) (٢) •

---

(١) التصوف المنشأ والمصدر ، إحسان الهي ظهير ، ترجمان السنة ط ١ ١٤٠٦ هـ ص ١٥٩ وما بعدها • و ١٢٨ . ٢٢٢ •

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٨٧٥ •

المبحث الاول : الولاية والعصمة وعلم الغيب وختم الولاية وفيه أربعة مطالب

المطلب الاول : تعريف الولاية لغة وشرعا وعرفا عند الصوفية .

الولايـة لغة : قال في القاموس (الولي : القرب والدنو والمطر بعد المطر وليت الأرض بالضم والولي الاسم منه والمحب والصديق والنصير) (وتولاه اتخذه وليا) (وتوالى تتابع) (١) . ومثله في الصحاح وفيه قوله : (والولي ضد العدو يقال منه : تولاه . والولاية : النصرة) (٢) وفي الفروق :(الفرق) بين العداوة والبغضة أن العداوة البعاد من حال النصرة ، ونقيضها الولاية وهي القرب من حال النصرة .) (٣)

هذه بعض تعاريف علماء اللغة للولاية واقتصرت على نقل ما يمكن فهم الولاية التي نريد تعريفها منه .

وعباراتهم دائرة على أنها القرب والدنو والحب والصداقة والنصرة (وليه) (يليه) وليا : دنامنه وقرب) (٤) .

---

(١) القاموس المحيط جـ ٤ ص ٤٠١ . ٤٠٢ .

(٢) الصحاح الجوهري جـ ٦ ص ٢٥٢٨ . ٢٥٣١ .

(٣) الفروق اللغوية للعسكري . وهو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحي بن مهران اللغوي العسكري . تحقيق / حسام الدين القدسي . دار الكتاب العلمية . بيروت ص ١٠٦ و ١٥٦ .

(٤) المعجم الوسيط جـ ٢ ص ١٠٥٧ .

شروط الولاية عند أهل السنة والجماعة

الولي والولاية شرعا : ورد لفظ الولي والنصير في الكتاب والسنة كثيرا ، وجاءت الولاية على معان منها الخاص ومنها العام ، ومنها ما هو بين الأبرار ومنها ما هو بين الفجار ومنها ما هو للرحمن ومنها ما هو للشيطان (١)

والذي نقصد بيانه ولاية الله لعباده وتوليهم له جل وعلا .

قال الله تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله مولي الذين آمنوا ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ قل أغير الله أتخذ وليا ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ (٦) .

وقد وردت أحاديث شريفة في وصف الولي والأولياء فمنها ما جاء فيه لفظ الولي مثل : (من عادى لي وليافقد آذنته بالحرب ..) (٧) وقد اشتمل هذا الحديث برواياته على معاني الولاية كلها من النصرة والقرب والمحبة وغيرها وقال ابن حجر (المراد بولى الله العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته) (٨) وقال تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين ءامنوا وكانوا يتقون ﴾ (٩)

---

(١) انظر : الشرك ومظاهره ، مبارك بن محمد الميلى . الجامعة الإسلامية ط ٢ سنة ١٤٠٨ هـ ص ١١٢ وما بعدها .

(٢) البقرة الآية ٢٥٧ .

(٣) سورة محمد الآية ١١ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٤ .

(٥) سورة هود الآية ١١٣ .

(٦) سورة المائده الآية ٥٥ .

(٧) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب التواضع ، الحديث رقم ٦٥٠٢ .

(٨) فتح الباري جـ ١١ ص ٣٤٢ .

(٩) سورة يونس الآيتين ٦٢ . ٦٣ .

قال ابن جرير في بيان من يستحق هذا الإسم : (قال بعضهم : هم قوم يذكر الله لرؤيتهم ، لما عليهم من سيما الخير والإخبات) وساق الآثار الدالة على هذا القول بأسنيده • ثم قال : وقال آخرون في ذلك وساق بسنده عن أبي هريرة وعمر بن الخطاب وأبي موسى الاشعري رضي الله عنهم الأحاديث الشريفة التي منها :

(عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من عباد الله لأناسا ماهم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله : قالوا : يا رسول الله أخبرنامن هم وما أعمالهم ؟ فإنا نحبهم لذلك ؟ قال : هم قوم تحابوا في الله بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس • وقرأ هذه الآية : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) •

ثم قـال ابن حرير : (قال أبوجعفر : والصواب من القول في ذلك أن يقال : (الولي) . أعني (ولي الله) هو من كان بالصفة التي وصفه الله بها ، وهو الذي آمن وأتقى كما قال تعالى : ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (١) •وتبعه على ما صوبه ابن عطية وزاد تحذيرا من الحاد بعض الصوفية في الولي فقال عند تفسير الآية المذكورة : (وأولياء الله هم المؤمنون الذين والوه بالطاعة والعبادة ، وهذه الآية يعطي ظاهرها أن من آمن وأتقي فهو داخل في أولياء الله وهذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الولي ، وإنما نبهنا هذا التنبيه حذرا من بعض الصوفية وبعض الملحدين في الولي) (٢) • وما حذر منه يأتي إن شاء الله بيانه • وقريب من كلام هؤلاء الائمة ما عرف به القشيري في رسالته الولي تحت باب الولاية فقال : (الولي له معنيان : أحدهما : فعيل بمعنى مفعـول ، وهو من يتولى الله سبحانه أمره ، قال الله تعالى ﴿ وهـو يتـولي الصالحيـن﴾ (٣) فلا يكله إلي نفسه لحظة بل يتولي الحق ، سبحانه ، رعايته •

---

(١) تفسير الطبري جـ ١٥ ص ١١٨ . ١٢٣ قال محمود شاكر في سند هذا الحديث : (فهو اسناد جيد إلا أنه منقطع •

(٢) تفسير ابن عطية جـ ٧ ص ١٧٤ . ١٧٥ •

(٣) سورة الأعراف آية ١٦٦ •

والثاني : فعيل مبالغة من الفاعل ، وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته فعبادته تجري على التوالي ، من غير أن يتخللها عصيان) (١)

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية : (أولياء الله) هم (الذين آمنوا وكانوا يتقون) كما ذكر الله في كتابه وهم : (قسمان) : المقتصدون أصحاب اليمن والمقربون السابقون والولي : مشتق من الولاء وهو القرب ، كما أن العدو من العدو وهو البعد فولي الله من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضياته ، وتقرب إليه بما أمر به من طاعاته) (٢) ثم قال : (والولي المطلق : هو من مات على ذلك) (٣) ٠

وبهذه النصوص يتضح أن نصوص الكتاب والسنة وما أخذه العلماء من دلالتها فى معنى الولي والمولى تبين أن ولي الله عبد مطيع لله ناصرلدينه وأهل طاعته ، وأن المولى جل وعلا يعين أولياءه وينصرهم ويوفقهم لطاعته ٠

يقول العسكري : (الفرق) بين المولى والولي أن الولي يجرى في الصفة على المعان والمعين ، تقول : الله ولي المؤمنين أي معينهم والمؤمن ولي الله أي المعان بنصرالله عز وجل ، ويقال أيضا المؤمن ولي الله والمراد أنه ناصر لأوليائه ودينه ، ويجوز أن يقال : الله ولي المؤمنين بمعنى أنه يلي حفظهم وكلاءتهم ٠٠٠ ويجوز أن يقال معنى الولي أنه يحب الخير لوليه كما أن معنى العدو أنه يريد الضرر لعدوه ٠ والمولى على وجوه : هو السيد والمملوك والحليف وابن العم والأولى بالشيء والصاحب ، وتقول : الله مولى المؤمنين بمعنى أنه معينهم ولا يقال إنهم مواليه بمعنى أنهم معينو أوليائه كما تقول بأنهم أولياؤه بهذا المعنى) (٤) ٠ وقد بحث الألوسي المراد بالولي لغة وشرعا وعرفا ثم قال : (وأحسن ما يعتمد عليه في معرفة الولي اتباع الشريعة الغراء وسلوك

---

(١) الرسالة جـ ٢ ص ٥٢٠ ٠

(٢) الفتاوي جـ ١ ص ٦١ ـ ٦٢ ٠

(٣) نفسه ص ٦٢ ٠

(٤) الفروق لابن هلال العسكري ص ٢٣٥ ٠

المحجة البيضاء فمن خرج عنها قيد شبر بعد عن الولاية بمراحل ، فلا ينبغي أن يطلق عليه إسم الولي ولو أتى بألف خارق ، فالولي الشرعي اليوم أعز من الكبريت الأحمر ولا حول ولا قوة إلا بالله) (١) .

وعلى هذا يكون الولي شرعا من آمن إيمانا صحيحا خالصا وواظب على الطاعات واستقام على ذلك مع صحة العقيدة حتى يتوفاه الله ، وإن وقع منه ذنب في حياته بادر بالتوبة والإنابة .

صفات الولي عند القادرية : لا يخفى أن الغلو في الدين والاعتقاد الفاسد في المخلوقات أو ادعاء علم الغيب والعصمة للأولياء من الأمور المبعده عن الولاية بمراحل كما قال الألوسي ، ولنستعرض الولاية والولي في مفهوم الصوفية من خلال كتب القادرية . يقول المختار الكنتي : (الأولياء جمع ولي فعيل بمعنى فاعل لأنه ولي لله ورسوله فلم يخرج عن أمرهما ونهيهما إلى ما يغضبهما ويكون اسم مفعول لأن الله تعالى والاه بخوارق نعمه ورسوله والاه بمزيد إمداده وكرمه .

وضابط الولي أنه المداوم على فعل الطاعة واجتناب المعاصي ، المعرض عن الانهماك في اللذات ويتجه هذا الضابط للولي الكامل .) إلى أن قال : (ومن علاماتهم رضي الله عنهم التي هي شرط في تحقيق ولا يتهم لزوم الأصول الثلاثة وهي : أداء الفرائض عسيرها ويسيرها واجتناب المحارم كبيرها وصغيرها وترك الدنيا على أهلها قليلها وكثيرها إلا ما لابد للمؤمن منه ..) (٢)

ويقول محمد فاضل بن الحبيب : (الولي وزنه فعيل من الولاية أي التولي وهي تحتمل أن تكون بمعنى فاعل فيكون بمعنى متول وأن تكون بمعنى مفعول فتكون بمعنى متولى . فعلى الأول يكون المعنى أن هذا الشخص تولى الله تعالى فكانت همته إليه واشتغال قلبه في شهوده وجوارحه في خدمته فكان الله له في مصالحه .

---

(١) روح المعاني ج ١١ . ١٢ ص ١٤٦ . ١٧٩

(٢) نفسه ص ١٧٩ .

(٣) جذوة الأنوار ص ١٠٨ .

وعلى الثاني : (يكون المعنى أن هذا الشخص أعنى الولي تولاه الله تعالى أي كان متوليا لأمره قائما في مصالحه لا يكله إلى نفسه ولا إلى غيره ٠٠) (١) ٠

ثم نقل من الآيات والأحاديث الموضحة لمن يستحق هذا الإسم وقد تقدم ذلك ، ثم قال : (الولي في عرف الصوفية من فنى في شهود ذات الله تعالى عن شهود غيره من خلقه وتأدب بالآداب الشرعية ٠٠) (٢) ٠

فهذه النصوص تفيد بأن الولي عند القادرية هو من تولى الله بالإيمان وإتيان الأوامر واجتناب النواهي وأنه بزيادة التقرب إلى الله تعالى بالنوافل يتولاه الله تعالى ويمنحه مزيدا من التوفيق يخرق له العادات إظهارا لمكانته ولكن عليه أن يزداد خوفاوعملاو إن خوطب بأنه ولي لله حتى يتيقن ذلك خوفا من أن يكون مستدرجا ٠

وليس من شرط الولاية عندهم حصول الخارق إذ إن الخارق يحصل للساحر والمشعوذ والدجال ، ولذا فالكرامة الحقيقية هي دوام الاستقامة ويرجح بعضهم أن الكرامة لا تصل إلى مثل معجزة النبي كإحياء الموتى أو الإتيان بقرآن ٠

ويكفرون من يدعي من الصوفية وغيرهم أن الولاية أفضل من النبوة ٠ ولنورد نماذج من نصوصهم في هذه الأمور باختصار إذ إنها من المكمل لهذا المطلب ٠ قال الشيخ سيدي المختار الكنتي : (وحقيقة الكرامات ظهور أمر خارق للعادات غير مقارن بدعوى النبوءة على يد من عرفت ديانته واشتهرت ولايته ، باتباع نبيه فيما جاء به وإلا فهي استدراج أو سحر أو إذلال ٠٠٠) (٣) إلى أن قال :

---

(١) الضياء المستبين ص ٣ ٠

(٢) نفسه ص ٤ ٠

(٣) جذوة الأنوار ص ١٠٨ ويؤيده ما في الكوكب الوقاد لنفس المؤلف ص ١٢٣ ٠

(.. إلا أنها لم تنته إلى إحياء ميت أو إلى وجود ولد من غير أب) (١)
ويضيف الشيخ سيدي محمد : قائلا : (... وبالجملة فالولاية متابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أحكامه إذ هي الطريق الموصله إلى الحق ...) (٢) ويقول الشيخ محمد فاضل :

(كرامة الرجال الاستقامه — أجلها أعظمها استقامه

والاستقامة بأن لا تختار — غير إله واحد وقهار) (٣)

وفي معرض رد وبيان يضيف الشيخ سيدي المختار الكنتي :

(واعلم أن من الكفر الصريح ما حكي عن بعض الكرامية (٤) أن الولي غير النبي قد يبلغ درجة النبوءة بل ربما زاد عليها مستدلين بما وقع لموسي عليه السلام. مع الخضر رضي الله عنه : (لأن الولاية جزء من أجزاء النبوءة فهي داخلة في النبوءة إذ كل نبي ولي ولا ينعكس ... إلى أن قال : (ولقد جازف بعض المتصوفة الجهلة فقال : إن رتبة الولاية أعلى من رتبة النبوءة وأن الولي قد يبلغ حالة يسقط عنه فيها التكليف محتجين بقوله تعالى : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ (٥) فقد حرفوا كتاب الله وكذبوا على أنبيائه وأوليائه جهلا منهم وتحريفا للكلم من بعد مواضعه وزيغا عن الحق والحادا في الدين ، فإن اليقين في هذه الآية إنما المراد به الموت فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعبده حتى يأتيه الموت وهو على ذلك بل لم يزل صلى الله عليه وسلم في زيادة من عبادته واجتهاده حتى قبض صلى الله عليه وسلم وهو على ذلك) (٦)

---

(١) نفسه ص ١٠٨ .
(٢) الغلاوية ص ٣٦ و ٤١ . ٤٢ .
(٣) الضياء المستبين ص ٢٤٥ .
(٤) الكرامية : نسبة إلى محمد بن كرام المتوفي سنة ٢٢٥ هـ ومع ضلالاتهم وجهالاتهم وتشنيع المتكلمين في الفرق عليهم لم تجد لهم مثل ما ذكر عنهم هذا الشيخ إلا أنهم يوجبون على الله أن يرسل من اتصف بصفات معينة عندهم وهذا يكفي في إخراجهم من الفرق الإسلامية كما فعل الشهرستاني في الملل ص ١٠٨ وما بعدها والبغدادي في الفرق بين الفرق ص ٢٠٢ وما بعدها .
(٥) سورة الحجر الآية ٩٩ .
(٦) نفس المرجع .

ثم يعتذر المختار الكنتي عن الشيخ عبد القادر الجيلي في كلام منسوب إليه يفهم منه أن الأولياء أفضل من الأنبياء فيقول :

(وليس من ذلك ما طالعته في مناقب الشيخ الجيلاني أنه لما مر بمقابر الأنبياء قال : معاشر الأنبياء لقد خضنا بحورا من العلم وقفتم بساحلها . فليس في ذلك ما يدل على تنقيصه إياهم ولا الغض من مناصبهم ولا إغماض قدرهم ، ولا ما يدل على أنه في ذلك مثلهم أو فوقهم لأنه قد يحصل للمفضول من العلوم ما لم يحط به الفاضل وليس ذلك قادحاً في منصب الفاضل ولا بزائد في رتبة المفضول لأنه معلوم ضرورة أن الأولياء أتباع الأنبياء وعيالهم وتحت سوط ولا يتهم وفي قبضة توليهم فكيف يظن بهم أن (يثلج) في أذهانهم عندما يغيبون عن شهودهم أنهم يخلون بأدب من آداب الأنبياء أو يعتقدون المساواة فضلا عن الرجحان) (١) ثم أخذ في توجيه الكلام المنسوب للشيخ عبد القادر فقال : (بل لم يقصد بقوله رضي الله عنه خضنا بحارا من العلم وقفتم بساحلها أنهم اختصوا بأمور ربانية أو فتوحات قدسية أو مقامات من النور والقرب من الله لم يحظ بها الأنبياء حاشاه من ذلك . وإنما أراد أن الأنبياء عليهم السلام شغلوا بمكابدات الأمم الكافرة ومقاساتهم ، وسياسة المسلمين ومعاناتهم ، والقيام بمصالحهم ، وإقامة أودهم ، عن أمور من مكايد النفس ومعانات الشيطان والكشف عن عيوب الدنيا ودسائس الأهواء ، وإنما ترك الأنبياء الاشتغال بمثل ما تقدم لتمام العصمة وكلاءة الله إياهم . فكيف يظن به ذلك وهو قطب أقطاب الوجود المشتهر بالمكافحة والشهود ، بل ينبغي أن يكون معنى قوله : خضنا بحورا وقفتم بساحلها أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد سبقوهم إلى خوضها قبلهم حتى وقفوا بساحلها قبل خوض الأولياء لها فضلا عن أن يقفوا بساحلها لأن إشاراتهم رضي الله عنهم لا يفهمها غيرهم لكثرة غوصهم وعلو مقامهم وهو الأليق بهذا المحل الشريف) (٢) .

---

(١) جذوة الأنوار ص١١٠ . ١١١ يثلج : من ثلجت نفسه اطمأنت أنظر المختار الصحاح ص٨٦ .

(٢) جذوة الأنوار ص ١١١ . ١١٢ .

نقـــــــــد :

قلت : تقدم في ترجمة الشيخ عبد القادر أن أصحابه وأتباعه كتبوا في مناقبه الكثير ونسبوا إليه ما يعتذر عنه إلا أن هذه الكلمة لم نقف عليها في واحد من كتبه المنسوبة إليه نسبة صحيحة ، ولا في شرح شيخ الإسلام ابن تيمية لما ورد في كتاب فتوح الغيب للشيخ عبد القادر من كلمات تحتاج إلى شرح (١) ولا في اعتذرات ابن عزوز عنه في كتابه السيف الرباني (٢) .

ولذا فالأولى عندي الطعن في صحة نسبة هذا الكلام لمن عرف بالفقه والاستقامة بدلا من الاعتذار عنه ، خصوصا أنه ورد في هذه الكلمة ما يعرف به أنها موضوعة وهو عبارة : (لما مرعلى مقابر الأنبياء) وكأن للأنبياء مقابر معروفة يوقف عليها وتزار ، والمعروف أنه لا يعرف على وجه الصحة قبر نبي غير النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم . ثم إن الاعتذار عن الأنبياء باشتغالهم بمكابدات الأمم عن توضيح مكايد النفس والشيطان والكشف عن عيوب الدنيا غير صحيح إذ إن هذا من مهامهم الرئيسة ولا يعرف كثير منه إلا عن طريقهم .

والمقتصر على هذه النصوص يمكن أن يحكم بأن عقيدة القادرية في الولاية عقيدة صحيحة إلا أن الباحث يجد معها نصوصا أخرى وعقائد منحرفة عن المنهج العقدي الصحيح تصرفه عن ذلك الحكم تولى القادرية الترويج لها وتعميقها في البيئه العامة . أماالنصوص المشار إليها فتأتي إن شاء الله في المطالب الآتية : وأما العقائد المنحرفة فإن منها ما يلي :

أن الولي عندهم هو الصوفي الذي يسلم له بجميع ما هو فيه ، ودليل ذلك أن كتبهم ملئية بتفضيل الصوفية على وجه العموم ، وعلومهم الوهبية واللدنية على العلوم الكسبية كما يقولون (٣) .

---

(١) انظرمجموع الفتاوى جـ ١٠ ص ٤٤٥ . ٥٤٩ .

(٢) رسائل ابن عزوز ص ١٧٨ وما بعدها .

(٣) الضياء المستبين ص ٢٤٣ - ٢٥١ .

ولا يخفى ما في ذلك من غمط العلم الشرعي وأهله وما يذكرونه من العلماء فإنما هو على سبيل تأيد كلامهم أو التغطية على ذلك المسلك المذكور وإلا فالعالم العابد عند الغالبية منهم إذا لم يأخذ أورادهم فهو إما زنديق أو محروم (١) .

ثم إنهم يحكمون للمنتسب إليهم بالولاية المطلقة التي لا يحكم بها إلا لمن مات على الإيمان التام أو بنص من المعصوم إذ إنها في حكم الشهادة بالجنة لمعين وليس ذلك من قول أهل السنة .

قال القرطبي : (قال علماؤنا رحمة الله عليهم ومن أظهر الله تعالى على يديه ممن ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالا على ولايته ، خلافا لبعض الصوفية والرافضة حيث قالوا إن ذلك يدل على أنه ولي ، إذ لولم يكن وليا ما أظهر الله على يديه ما أظهر .

ودليلنا أن العلم بأن الواحد منا ولي لله تعالى لا يصح إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمنا ، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمنا لم يمكننا أن نقطع على أنه ولي لله تعالى ، لأن الولي لله تعالى من علم الله تعالى أنه لايوافي إلا بالإيمان ولما اتفقنا على أننا لا يمكننا أن نقطع على أن ذلك الرجل يوافي بالإيمان ، ولا الرجل نفسه يقطع على أنه يوافي بالإيمان ، علم أن ذلك ليس يدل على ولايته) (٢) .

وما دام الحكم بالولاية المطلقة يتوقف على معرفة الخاتمة . ختم الله لنا ولإخواننا المسلمين بأحسن ختام . وهي غير معروفة للجميع فلا ينبغي الحكم بها لمعين . كما يفعل أهل الصوفية . إلا على سبيل حسن الظن لمن اتصف بالإيمان الصحيح والعمل الصالح الموافق للسنة ، على أن شيخ الإسلام ابن تيمية أوضح عند مناقشته لهذه المسألة : أن للعلماء والصوفية فيها قولين وأن الأولى بالتحقيق الجمع بين القولين

---

(١) جذوة الأنوار ص ٧ . ١٠ والغلاوية ص ٢٤ . ٢٩ والضياء المستبين ص ١١٦ وما بعدها .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١ ص ٢٩٧ ٢٩٨ .

فيحكم لمن قام به الايمان والعمل الصالح بالولاية لله تعالى لمحبة الله تعالى لما قام به من الخير وإن كان في علم الله أنه يوافي كافرا مرتدا ، كما أنه يحكم لمن قام به الكفر والفسوق بعدم الولاية لله تعالى لبغض الله تعالى لما قام به وإن كان في علم الله أنه يوافي مؤمنا • وأن من كوشف بعاقبته من المكاشفين أو عاقبة غيره لا يجوز له القطع على ذلك : (لأن كثيرا ممن يظن به أنه حصل له هذا الكشف يكون ظانا في ذلك ظنا لا يغني من الحق شئيا) (١) •

ويتأكد عدم القطع إذا علمنا ما يترتب عليه من أمور عقدية لها أثر كبير في حياة الناس الدينية والدنيوية من الغلو في بعض الأولياء أو الذين تدعى لهم الولاية وهم في جانب العداوة لما هم قائمون عليه من تضييع أوامر الله والجهل به مع أكل أموال الناس واستخدامهم أسوأ استخدام هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن القادرية أنفسهم ينصون على أن الولاية أمر خفي لا يعلمه إلا الله ولهذا قد ظهر للناس تخليط كبير بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان من المشعوذين والدجالين وأصحاب علوم الشر بأنواعها ، ثم إن المعرفة أن فلانا بعينه ولي لله لا يترتب عليها أمر كبير في الاعتقاد أو العمل في الشريعة الإسلامية حيث إنه بمجرد الإيمان يجب موالاته ومناصرته وقبول نصحه وإرشاده والتعلم على يديه إن كان من أهل العلم إلى غير ذلك من الأمور التي أوضحها الكتاب والسنة وعلماء الأمة (٢) •

اللهم إلا إذا كانت الولاية عند القادرية لها معنى خاص كما هو المفهوم من كتبهم والمنقول عن شيوخهم على ماسيأتي تفصيله إن شاء الله ولكن قد بين مبارك بن محمد الميلي الجزائري . وما عندنا من القادرية فرع عما عندهم . بين معنى الولي عند الناس وخصوصا في محيط المجتمعات الطرقية فقال : (أما الولي عند الناس اليوم ، فهو إما من انتصب للإذن بالأوراد الطرقية ولو كان في جهله بدينه مساويا لحماره •

---

(١) الفتاوى جـ ١١ ص ٦٥ ونفس المرجع قبله ص ٢٩٨ •

(٢) جذوة الأنوار ص ٩٧ . ٩٨ والكوكب الوقاد ص ١٦٤ . ١٦٥ والطرائف ص ٨١ . ٨٢ والغلاوية ص٣٤ . ٣٥ و١٩ وما بعدها وجنة المريد ص ٢٤ . ٢٥ والضياء المسبتين ص ٢٨٢ . ٢٨٦ •

واما من اشتهر بالكهانة وسموه حسب اصطلاحهم (مرابطا) (١) ولو تجاهر بترك الصلاة وأعلن شرب المسكرات .

وإما من انتمى إلى مشهور بالولاية ولوكان إباحيا لا يحرم حراما) (٢) .

قلت : ولا يخفى أن هؤلاء لا يستحقون الذكر ضمن عوام الناس فكيف بخواصهم فكيف بأولياء الله الذين هم خاصته من خلقه ، فكيف إذا عرف أن إثبات هذا الحكم لهم أو تسجيل هذا اللقب الشريف لأمثالهم يترتب عليه عند العامة وبعض الخاصة أمور خطيرة في العقيدة والشريعة من وجوب الطاعة في المعصية ، والميل الشديد للعصمة ، واعتقاد علمهم للغيب وتدبيرهم للكون على ما يتصل بيانه إن شاء الله .

---

(١) وفي بلاد موريتانيا لا يرغب أهل الصوفية أن يقال لأحد شيوخهم هذا اللقب مرابط لاشتراك غيره معه فيه ولكن يفضلون عليه الشيخ .

(٢) رسالة الشرك ومظاهره ص ١٢٢ . ١٢٣ .

المطلب الثاني : العصمة

التعريف : عصم : يعصم اكتسب ومنع ووقى وإليه اعتصم به

واعتصم بالله امتنع بلطفه من المعصية ، وقد عصم كفرح والإسم العصمة بالضم فالعصمـــة على هذا لغة المنع مطلقا ٠ (وأصل العصم) المنع ، فكل مانع شئيافهو (عاصمه) والممتنع به (معتصم به) (١) والعصمة في لسان الشرع الحنيف هي من الله وقاية ولطف بعبده الذي اعتصم به من الوقوع في المعاصي وهي كذلك تفضل منه تعالى على عباده المكرمين من الملائكة والأنبياء المرسلين ، على أنه تقدم الحديث عن عصمة الملائكة وفيه قول بأن عصمتهم ذاتية بمعنى أنهم مضطرون للطاعة إلا أن قوله تعالى : ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾ (٢) يدل على ما قاله القرطبي : (أنهم وإن أكرموا بالعصمة فهم متعبدون ، وليسوا مضطرين كما ظنه بعض الجهال) (٣) ٠

وتقدم كذلك الحديث عن عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأن عصمتهم في التبليغ فضل من الله تعالى ، واتضح بالمقارنة أن مذهب القادرية في ذلك كله موافق حسب نصوصهم لمذهب أهل السنة والجماعة وأنهم يعتمدون في ذلك كله أو غالبه على القاضي عياض في الشفا (٤) ٠

عرض : ولم نجد للقادرية نصا يدل دلالة واضحة على أنهم يساوون بين الولي والنبي لا في العصمة ولا في غيرها كما تقدم بل الذي وجدتهم يقولونه : (إنه بين مرتبة النبوة ومرتبة الولاية بون ٠٠) (٥) ٠

---

(١) القاموس المحيط جـ ٤ ص ١٥١ والصحاح جـ ٥ ص ١٩٨٦ . ١٩٨٧ والطبري جـ ٧ ص٦٢ ٠

(٢) الأنبياء الآية ص ٢٩ ٠

(٣) القرطبي جـ ١١ ص ٢٨٢ وشرح الشفا جـ ٤ ص ٣٩٧ وما بعدها ٠

(٤) الشفا جـ ٤ ص ٧٠ وما بعدها ٠

(٥) جنة المريد ص ٦٩ ٠

ويقولون : (وليحذر المريد غاية الحذر من ظن العصمة في الأشياخ . والأشياخ تعني الأولياء عندهم - لأن العصمة ليست إلا للأنبياء بعد النبوة إلا أن الغالب فيهم ولله الحمد الحفظ) (١) ومذهبهم في هذا هو مذهب القشيري حيث قال في رسالته : (فصل) فإن قيل : فهل يكون الولي معصوما ؟ قيل : أما وجوبا ، كما يقال في الأنبياء فلا ، وأما أن يكون محفوظا حتى لايصر على الذنوب إن حصلت هنات أو آفات أو زلات فلا يمتنع ذلك في وصفهم) (٢) . فإطلاق لفظ العصمة على أهل العلم والورع والتوفيق والسداد في القول والعمل على معنى الحفظ والصيانة لا محذور فيه (٣) إن كان على سبيل القول بجوازها في حقهم لا على الوجوب .

ما لم يقترن بما يفهم منه خلاف ذلك كالقول بوجوب أخذ قوله على كل حال ، وطاعته في كل ما أمر والانتهاء عن كل ما عنه زجر ، وأن له الوراثة من جميع الوجوه لخاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن من خالف أمره من الناس أو قال بأنه لا تجب طاعته كان من المحرومين أو من الزنادقة المارقين أو من أصحاب الأهواء والبدع الناكرين للأولياء وكراماتهم .

إلا أن القادرية وإن أطلقت لفظ العصمة على الأولياء بمعنى جواز عصمة الله لهم فإنها كما يأتى في نصوصهم أرادت ضمنا وتطبيقا المعاني السابقة الذكر (٤) هذا مع تجويزهم على الولي المعصية والكفر والأمر بذلك وتصريحهم بكثرة أهل الدعاوى والدجل والشعوذة وناشري الخرافات والإنحرافات مع كثرة الجهل بين صفوف المصدرين وقلة الورع الظاهر من المتصوفين الذين هم خاصة الأولياء عندهم (٥) .

---

(١) راتق الفتق على هامش نعت البدايات ص ٢١٥ . ٢١٦ .

(٢) الرسالة جـ ٢ ص ٦٦٥ .

(٣) المدارك جـ ١ ص ١٧٨ .

(٤) جذوة الأنوار ص ٢ و ٩ . ١٠ والكوكب الوقاد ص ٢ و ٢٣ . ٢٤ وكشف اللبس ص ١ . ٢ وهامش نعت البدايات ص ٢١٦ . ٢١٧ وغيرها .

(٥) جذوة الأنوار ص ٣٥ و ٦٦ و ٦٩ ونعت البدايات ص ٢١٥ وما بعدها والغلاوية ص ١٩٦ وما بعدها .

ولا يخفى أن في هذا مساواة بين أمر الله ورسوله وطاعة الله ورسوله وبين أمر غير المعصوم وطاعة من لا تعرف ولايته لله تعالى إذ إنه لا تجب الطاعة المطلقة إلا لله ورسوله فيما بلغ عن الله تعالى أو أولياء الأمور فيما أمر الله تعالى به ورسوله ٠

قال الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم٠٠) (١) ٠

قال القرطبي بعد أن بين معنى طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في الآية قال في المعاني المذكورة في طاعة أولي الأمر هل المراد السلطان أم العلماء ؟ قال : (قال : ابن خويز منداد : وأما طاعة السلطان فتجب فيما كان لله فيه طاعة ، ولا تجب فيما كان لله فيه معصية) إلي أن قال وقال جابر بن عبد الله ومجاهد (أولو الأمر) : أهل القرآن الكريم ، وهو اختيار مالك رحمه الله ، ونحوه قول الضحاك قال : يعني الفقهاء والعلماء في الدين) (٢) وقوى القرطبي هذا القول بدليل قوله تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيىء فردوه إلى الله والرسول ﴾ فأمر تعالى برد المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وليس لغير العلماء معرفة كيفية الرد إلى الكتاب والسنة ، ويدل هذا على صحة كون سؤال العلماء واجبا ، وامتثال فتواهم لازما) (٣) ٠

إلى أن قال : (وزعم قوم أن المراد بأولي الأمر علي والأئمة المعصومون ولو كان كذلك ماكان لقوله : ﴿ فردوه إلى الله والرسول ﴾ معنى بل كان فردوه إلى الإمام وأولي الأمرفإن قوله عند هؤلاء هو المحكم على الكتاب والسنة وهذا قول مهجور مخالف لما عليه الجمهور(٤) ٠ وتقدم بيان الصلة بين الشيعة القائلين بعصمة أئمتهم والصوفية القائلين بعصمة شيوخهم بمعنى وجوب طاعتهم وتصديقهم في أقوالهم وعدم الأخذ عليهم في أفعالهم وإن كانت مخالفة للشريعة ومعصية

---

(١) النساء الآية ٥٩ ٠

(٢) القرطبي جـ ٥ ص ٢٥٩ . ٢٦٠ ٠

(٣) القرطبي جـ ٥ ص ٢٥٩ . ٢٦٠ ٠

(٤) نفسه جـ ٥ ص ٢٦١ ويقارن بما في فتح البارى جـ ٨ ص ٢٥٣ . ٢٥٤ ٠

ظاهرة كبيرة كانت أو صغيرة (١) وهذه بعض نصوصهم : قال المختار الكنتي في نقله عن الفضيل بن عياض في بيان حقيقة الولي ووجوب طاعته : (... فأيما رجل تيقن خصوصيته ولم يتبعه ولم يوافقه على أقواله وأفعاله وأحواله فلا حجة له عند الله يوم القيامة) (٢) .

قال ويشهد لذلك ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الولي في قومه كالنبي في أمته) (٣) فكما يجب تصديق النبي كذلك يجب تصديقه والاقتداء به ..) إلى أن قال : (فالانبياء معصومون والأولياء محفوظون) (فالأنبياء حجج الله والأولياء أنصار الله) .

ويقول بعد مناقشته لمن يعارض القطع بصحة أقوال الأولياء كما يقول هو : (فيجب بذلك تصديق أولياء الله واعتقاد علو منصبهم وبراءتهم من جميع النقايص إذ هم لذلك أهل ...) ويستدرك بعد ضرب المثال بتصديق الله تعالى للخضر وإحالة الله تعالى لكليمه عليه السلام فيقول : (وقد ثبت وتقرر تصديق الله ورسوله للخضر رضي الله عنه وقد ثبتت وتقررت ولايته وكل ما جاز على المثل يجوز على مماثله فيجب حيئنذ تصديقهم إلا فيما خالف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وحاشاهم من أن يأتوا بما يخالف كتاب الله وسنة رسوله ...) (٤) ثم يعرض تراجم بعض العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ويقول : (فالعالم الرباني هو الذي ورث النبي صلى الله عليه وسلم علما وحالا ومقالاومعرفة واعتقادا وهداية وإرشادا

---

(١) نعت البدايات الهامش ص ٢١٦ .

(٢) جذوة الأنوار ص ٢ .

(٣) ورد هذا الحديث بألفاظ منها : الشيخ في أهله والشيخ في بيته . ولم نجد فيه هذا اللفظ الذي ذكره الشيخ سيدي المختار : الولي وهو عند أهل العلم بين الضعف والوضع انظر: إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٧٩ وعلم الحديث لابن تيمية ص ٥٢٨ وهامش المحقق ص ٥٢٨ . ٥٢٩ والمغني في الضعفاء للذهبي جـ ١ ص ٤٩٦ .

(٤) جذوة الأنوار ص ٩ ـ ١٠ .

وموافقة وانقيادا وتسليما واعتمادا وأخذا وتركا وحبا وبغضا ورغبة وزهدا) (١) وأن العالم الشيطاني بضده تماما ويأتي بخلاصة في الموضوع فيقول : (والحاصل أن اعتقاد تكذيب الأولياء وعدم وجوب الاقتداء بهم يجر مفاسد عظيمة تكاد تنقض الإسلام من قواعده .) (٣) إلى أن قال : (فالقوم ورثة الأنبياء في جميع مقاماتهم وحالاتهم وأحكامهم الشرعية والحقيقة لوراثتهم إياهم الوراثة التامة) (٤) .

وفي ختام بحثه لعصمة الأنبياء وأنها فضل من الله تعالى لاذاتية ولا واجبة عليه سبحانه وتعالى . قال : (وسبيل الأولياء في ذلك سبيل الأنبياء إلا أن عصمة الأولياء يقال لها حفظ ، وعصمة الأنبياء عصمة مراعاة لتفاوت ما بين الرتبتين وتباين ما بين المرتبتين ، وليس بقادح في عصمة الأنبياء ثبوت عصمة الأولياء بل هي مثبتة لها ومؤكدة لشأنها ودليل صريح على ثبوتها كما أن كرامات الأولياء التي قد بلغت حد التواتر دليل على ثبوت معجزات الأنبياء ومؤكدة لها فالعصمة والكرامات للأولياء دلالتان مصرحتان بصدق الرسل ..) (٥)

ويزيد رأيه بيانا في كتابه الكوكب الوقاد فيقول :

(لأن الولي إنما هو نتيجة النبي فكراماته دلائل على معجزات نبيه المتشبث بأذياله حتى قيل : كل ما صح أن يكون معجزة لنبي يجوز أن يكون كرامة لولي لأن الأولياء ورثة الأنبياء فالأنبياء حجج الله على خلقه والأولياء أدلة على تصحيح ملته وصدقه فالأنبياء معصومون والأولياء محفوظون وقد اشتركوا في العصمة لأن عصمة الأنبياء واجبة وعصمة الأولياء جائزة) (٦)

---

(١) جذوة الأنوار ص ٤١ وما بعدها .

(٢) نفسه والصفحة .

(٣) نفسه ص ١٠ .

(٤) نفسه ٣٥ .

(٥) نفسه ٨١ .

(٦) الكوكب الوقاد ص ١ - ٢ .

وقد تبع المختار الكنتي على هذا المنحى في الاعتقاد في الولي الذي هو شيخ الصوفية عندهم كل المؤلفين المتمسكين بطريقته والمتأثرين بمسلكه من القادرية فهذا ولده الشيخ سيدي محمد يقول في أثناء حثه على صحبة المشايخ الطرقيين يقول :

(.. فمن لم يأخذ آدابه عن ارتياض على يدي مرتاض برياضات مشايخ الطائفة الصوفية على النحو المتوارث بينهم خلفا عن سلف إلى قرن الصحابة وهم عن المخصوص بالنبوة والنجابة صلى الله عليه وسلم ولم يرتضع من ثدي تربيتهم البان الحكم والأسرار فلاحظ له في الآدمية المعتبرة ..) (١) .

ويوضحه قوله في بيان كون الولاية التي يريد هي طريق الصوفية وأنهم هم الأولياء الذين تجب طاعتهم لأنها وراثة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(... فعلم مما مر تعين الخلافة وكونها إرث النبوة وأنها لا تنقطع مادام حبل الاسلام ممتدا وأن القائم بها لايزال موجودا بنسبة الوارث خلفا عن سلف ثم لما كانت النبوة التي هي الأصل موهبة ربنانية ومنزلة صمدانية كانت خلافة الولاية كذلك ..) وأنه لما أنتهت الخلافة الراشدة انقسمت الخلافه إلى قسمين وكان من قسم (المتصوفة الكرامة والحال والسمت والمقام والعلوم اللدنية والفتح والإلهام) (٢) .

وهذا الشيخ ماء العينين يقول : (ويقال إن من حسن اعتقاد المريد أن يعلم أن الشيخ غير معصوم فلا يسقط من عينه بزلة ولا يزدريه بمعصية لكن الشيخ لايكون مصرا بل هو تواب والله يحب التوابين ومن حسن اعتقاد المريد أيضا أن يعلم أن الأولياء ورثة الأنبياء والأنبياء خطؤهم أن لو كان فهو صورة لا حقيقة لها وللوارث ما للموروث ، ومن حسن اعتقاده أن يظن بشيخه الخير في جميع المواطن ..) (٣)

---

(١) جنة المريد ٦٣ .

(٢) نفسه ٢٩ .

(٣) راتق الفتق هامش نعت البدايات ص ٢١٦ قلت : وراثة الأولياء للأنبياء لم نجدها في لفظ حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي السنن حديث في الحث على طلب العلم جاء فيه : (وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر) حسنه بعضهم وضعفه آخرون . انظر : سنن أبي داود ، كتاب العلم ، الحديث رقم (٣٦٤١) . وهو تعليق في صحيح البخاري كتاب العلم ، باب العلم قبل القول والعمل .

ويقول الشيخ محمد فاضل في مطية المجد في بيانه لوجوب التسليم للولي :

(وإن رأيته على خلاف ... علمك فالزم نفسك التلاف

بالاستغفار والتعوذ وقل ... لعلني لحد هذا لم تصل) إلى أن قال :

ومنكرا عليهم فدعه ... فسوء خاتمة قد يحطه) (١) ٠

وتبعهم على هذه الاعتقادات محمد فاضل بن الحبيب فنقل من كتب الصوفية نصوصا كثيرة في وجوب طاعتهم والتسليم لهم (٢) ٠

ومن نصوصه التي يجزم هو بها قوله :

(وأن خبر الأولياء يجب تصديقهم فيه فيما تبلغه عقول أهل زمنهم مما لم يكن مستحيلا عقلا ولا عادة وإلا وجب التسليم لهم فيه يشير إلى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : (الولي في قومه كالنبي في أمته) قال في نزهة الراوي وبغية الحاوي ما معناه: أنه كما يجب تصديق النبي يجب تصديق الولي فيما تبلغه عقول أهل زمنه والتسليم فيما لا تبلغه) (٣) ٠

نقد : هذا عرض لبعض نصوصهم في أن الولي الذي يريدون به الصوفي يجب على الناس قبول كلامه والقطع بأنه معصوم من الخطإ والمعاصي والذنوب وإن وقع منه شيىء فهو تواب ولذا يجب علينا اعتبار ذلك منه صورة لا حقيقة ، فتعين حسن الظن به ولو رأيناه يرتكب الكبائر وإن تجرأ عالم وأنكر عليه فهو متوعد بالسلب وسوء الخاتمة ، إذ كيف ينكر على وارث النبوة والعلم اللدني والفتح والإلهامات ٠

---

(١) الضياء المستبين ص ١٤٠ ٠

(٢) نفسه ص ١٤ ٠

(٣) الضياء المستبين ١٢ وما بعدها ٠ وتقدم قريبا أن هذا حديث موضوع ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم والكتاب المذكور للشيخ سيدي المختار الكنتي وتقدم بيان قيمته العلمية ٠ وسبق كذلك أن نقلنا عنه هذا النص من جذوة الأنوار ٠

وظاهر في هذه النصوص أنها مستمدة من نصوص كبار غلاة الصوفية الذين أشربوا حب المكانة والاستظهار بالمظهر الزائد على الناس وهو داء مبطل للعمل ، ومعتقد فاسد يجر إلى مثل هذا أو أكثر منه ثم إنه تقدم أن القادرية كغيرهم من الصوفية متأثرون بعقائد الشيعة الموجبين للأخذ بأقوال وتعاليم أئمتهم إذ يدعون لهم العصمة كالنبي أو الحلول ٠

ولكن تقدم أن القادرية لا يوجبون العصمة كالأنبياء لمشايخهم ولا يقولون بالحلول ومع ذلك فهذه النصوص تعطي مقاصد القائلين بهذه العقائد ، والطاعة المطلقة لا تجب إلا لله ورسوله فيما هو نص صريح بالأمر والنهي أما غير النبي من البشر فإن طاعته بحسب المعروف وما يؤخذ من الكتاب والسنة وحسب الأمر والنهي والمصلحة والعرف فلا يقال تجب طاعة أولياء الأمور مطلقا ولا العلماء مطلقا ، ثم إن من أطاعهم من الناس إنما هو متبع ومطيع لمن له الطاعة المطلقة والأمر والنهي لا لذواتهم أو مناصبهم أو مكانتهم عند الناس ٠

فهذا علي رضي الله عنه الذي يعتبرونه رأس سلسلة الصوفية يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث فيقول :

(بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية فاستعمل رجلا من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه ٠ فغضب فقال : أليس أمركم النبي صلى الله عليه وسلم أن تطيعوني ؟ قالوا : بلى قال فأجمعوا لي حطبا فجمعوا فقال : أوقدوا نارا ، فأقدوها ٠ فقال : ادخلوها فهموا وجعل بعضهم يمسك بعضا ويقولون فررنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من النار ٠ فمازالوا حتى خمدت النار ، فسكن غضبه ٠ فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لو دخلوها ماخرجوا منها إلى يوم القيامة ٠ والطاعة في المعروف) (١) ٠

وعن نافع عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله علية وسلم قال : (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) (٢) ٠

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب المغازي ، باب سرية عبد الله بن حذافة السهمي ٠ الحديث رقم (٤٣٤٠) ٠

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأحكام ، باب السمع والطاعة للإمام ، ما لم تكن معصية ، الحديث رقم : (٧١٤٤) ٠

فهذه نصوص من المعصوم صلى الله عليه وسلم تفيد بأن من وجبت طاعته من الناس لنص أو مصلحة تكون طاعته في المعروف • وانه من غير المعروف إيجاب القطع بصحة قول غير المعصوم سواء كان صالحا تحقق الناس من صلاحه وديانته فيما لا نص فيه أو غيره من أهل العلم والإمارة • يقول الحافظ بن حجر مبينا بعض فوائد هذه الأحاديث الشريفة : (وفيه . يعني الحديث الأول : (أن الأمر المطلق لايعم الأحوال لأنه صلى الله عليه وسلم أمرهم أن يطيعوا الأمير ، فحملوا ذلك على عموم الأحوال حتى في حال الغضب وفي حال الأمر بالمعصية فبين لهم النبي صلى الله عليه وسلم أن الأمر بطاعته مقصور على ما كان منه في غير معصية) (١) •

ومن هنا كان حكم القاضي وهو غضبان أو حكمه بعلمه غير جائزين عند المحققين لأنه غير معصوم وغير المعصوم عرضة للجور والتهمة (٢) •

والولي لا يخرج عن كونه عالما بين الحق فيجب اتباع الحق المبين ، أو قائلا من نفسه بكشفه أو إلهامه وقد تقدم أنه لا استقلال لمثل هذه الأمور بإثبات أمر من أمور الدين ، وأنه لابد لصاحبها من عرضها على نصوص الكتاب والسنة وهنا يكون الاعتبار للنصوص المعصومة لا لكشف الولي أو إلهاماته وكانت هذه سيرة من ثبتت له صفه الإلهام والحفظ ، ولزوم الحق بالنص من المعصوم صلى الله عليه وسلم (٣) •

وأما الوراثة التي يشير إليها القادرية فتقدم أن سندهم إلى الشيخ عبد القادر في الطريقة لا يثبت به شيىء لاضطرا به وظهور وضعه ، وأن السند من عبد القادر إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا يثبت به أيضا شيىء لما فيه من الانقطاع فتبقى وراثة العلم التي يشير إليها الحديث الذي علقه الإمام البخاري في صحيحه وخرجه أصحاب السنن أو فيما في معناه ونصه :

---

(١) فتح الباري جـ ٨ ص ٦٠ •

(٢) انظر فتح الباري جـ ١٣ ص ١٣٦ . ١٣٩ •

(٣) انظر الفتاوى جـ ١١ ص ٦٥ . ٦٧ •

(وأن العلماء هم ورثة الانبياء ورثوا العلم ، من أخذه أخذ بحظ وافر ، ومن سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة) (١)

قال الحافظ بن حجر : (ومناسبته للترجمة . وهي باب العلم قبل القول والعمل . من جهة أن الوارث قائم مقام الموروث ، فله حكمه فيما قام مقامه فيه) (٢) وظاهر من قوله فيما قام مقامه فيه أن حكم العلماء الوارثين للعلم في حدود تعليم ذلك العلم الذي ورثوه والدعوة إليه بالبيان لا في وجوب العصمة ووجوب القطع بصحة أقوالهم وإلا لما قال الإمام مالك : (ما منا إلا من رد ورد عليه الإصاحب هذا القبر) يعني بذلك النبي صلى الله عليه وسلم بسبب عصمته) (٣) ولما قال ابن حجر أيضا في معنى الحديث المشار إليه آنفا : (والمعنى ليس العلم المعتبر إلا المأخوذ من الأنبياء وورثتهم على سبيل التعلم) (٤) وتقدم بيان موقف القادرية من العلم وطلبه ، وأن عمدتهم فيما يوجبون على الناس الأخذ به هو علوم الخواطر والواردات والإلهامات والمكاشفات وغير ذلك مما يسمى عند بعضهم بالعلم اللدني .

وهذه هي الأمور التي قال ابن بون أن القائل بالقطع بصحتها ووجوب الأخذ بها كافر وذلك في قوله :

(وقطعنا بما به الولي أخبر كفر عكسه النبي) (٥) .

هذا مع قوله بجواز العصمة للأولياء وظهور الكرامات على أيديهم والكشف والعلم بلا تعلم ، ووجوب حبهم والرغبة في طلب الدعاء منهم إلى غير ذلك مما هو في بعضه أقرب إلى قول شيوخ الصوفية منه إلى قول المحققين من علماء أهل السنة (٦) .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب العلم قبل القول والعمل : وتقدم تخريجة من سنن أبي داود . وانظر كلام الحافظ ابن حجر فيه في فتح الباري جـ ١ ص١٦٠ .

(٢) فتح الباري جـ ١ ص ١٦٠ .

(٣) سبق وانظر المدارك جـ ١ ص ١٨٩ . ١٩٠ .

(٤) فتح الباري جـ ١ ص ١٦١ .

(٥) الوسيلة ص ٩ .

(٦) فتح الباري جـ ٨ ص ٦٠ .

ومع ذلك فالصواب معه فيما ذكر في البيت لما هو ظاهر من أن ادعاء وجوب القطع بما صدر عنهم هو كالصريح في إثبات العصمة لهم كالنبي صلى الله عليه وسلم ، ونفي هذه العصمة عنهم بهذا المعنى هي التى يؤيدها الكتاب والسنة ولا يجوز القول بأن العلماء الذين صدر عنهم هذا النفي يحاولون الطعن في أولياء الله أو أنهم خالفوا الكتاب والسنة أو أنهم بذلك كفروا أو جاؤوا بما يمكن أن يكون هدما للشريعة ، أو أنهم أتوا ببدعة شنيعة تشابه بدع المعتزلة أو الخوارج أو الروافض إلا إذا كان واصفهم بذلك يريد إثبات عصمة الأولياء على سبيل الوجوب وإثبات تشريع جديد للناس يجب عليهم قبوله • وهذا في قربه للكفر أظهر من قول من أراد سد الباب الذي فتح في ختم النبوة بالنبوة المحمدية صلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم (١) ومن هنا قال شيخ الإسلام ابن تيمية سادا لهذا الباب في وصفه لحال السلف مع شيوخهم مع حفظ الله لهم بالعلم والورع وصحبة النبي صلى الله عليه وسلم . قال : (ولم يكن أحد منهم يجعل شيخه ربا يستغيث به كالإله الذي يسأله ويرغب إليه ويعبده ويتوكل عليه ، ويستغيث به حيا وميتا ، ولا كالنبي الذي تجب طاعته في كل ما أمر ، فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه) (٢) • ولكن القادرية إذا لم نقل إنهم أرادوا تأليه شيوخهم أو إثبات عصمتهم كالنبي لوجود نصوص لهم تخالف هذا المنزع فإنهم أرادوا عمليا مساواتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ويظهر ذلك جليا بما عرض من نصوصهم وبما أشاعوه في بئتهم وخصوصا ما تضمنه كتاب الطرائف والتلائد وكتاب الضياء المستبين من عرض سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله وأقواله وإثبات نفس السيره و والأحوال والأقوال للمترجمين في الكتابين المذكورين (٣) •

وهذا عمل إذا قيل بأنه لقصد التأسي والتحقق بإثبات الاقتداء بالمصطفى صلى الله عليه وسلم فإن ذينك المؤلفين بالغا ورفعا من قدر شيوخهم إلى مقام يصعب معه الاعتذار عنهما بل إن عملهما ذلك يمكن إدخاله في الوجه الخامس وما بعده من

---

(١) مشتهى الخارف ص ٤٨٥ وما بعدها •

(٢) منهاج السنة جـ ٨ ص ٤٨ •

(٣) الكتابين المذكورين أنظر جذوة الأنوار ص ٧ - ١٠ و ١٥ - ١٦ و ٢٧ - ٢٩ •

الأوجه التي ذكرها القاضي عياض في الشفا فيما يأتى في بيان حكم الساب للنبي صلى الله عليه وسلم وما يلحق بذلك مما يدخل بوجه فى هذا الباب من كثرة ذكره صلى الله عليه وسلم للقياس عليه ومقارنة عمل أحد من الناس بعمله صلى الله عليه وسلم ولو كان ذلك العمل ليس داخلا في خصائصه صلى الله عليه وسلم وجائز في حقه وإنما أراد المرتكب لذلك الاحتجاج لنفسه وإظهار رفعة قدره حقا أو ادعاء قال القاضي عياض : (الوجه الخامس : أن لا يقصد نقصا ولا يذكر عيبا ولا سبا لكنه ينزع بذكر بعض أوصافه أو يستشهد ببعض أحواله صلى الله عليه وسلم الجائزة عليه في الدنيا على طريق ضرب المثل والحجة لنفسه أو لغيره أو على التشبه به أو عند هضيمة نالته أو غضاضة لحقته ليس على طريق التأسي وطريق التحقق بل على قصد الترفيع لنفسه أو لغيره ..) إلى أن قال بعد ضرب الأمثله : (.. فإن هذه كلها وإن لم تتضمن سبا ولا أضافت إلى الملائكة والأنبياء نقصا .. ولا قصد قائلها إزراء وغضا فما وقر النبوة ولا عظم الرسالة ولا عزز حرمة الاصطفاء ولا عزز حظوة الكرامة حتى شبه من شبه فى كرامة نالها أو معرة قصد الانتفاء منها ...) (١) .

وهم وإن صرحوا بأنهم قصدوا بتدوين تراجم مشايخهم وذكر كراماتهم التأسي بالقرآن الكريم والسلف الصالح في ذكر قصص الأنبياء والأخيار لما في ذلك من العبر والموعظة (٢) فإنهم أخرجوا تدوينهم عن حد ما قصدوه بالمبالغات وذكرالمستحيلات والمتناقضات والحكايات المتضمنة لصريح الشركيات مما لا يقصد مسلم ذكره إلا للرد عليه وبيان ما فيه من العيوب ، يضاف إلى هذا أن الذاكر لمثل ما ذكروه لا يعمل على إفشائه بين العوام وسذج الأتباع الذين يكون لهم فتنة وضلالاً في العقيدة والسلوك وإن كان ولابد من ذكره يكون بين أهل العلم وأذكياء الطلاب الذين يميزون بين الحق والباطل وما يصح وما لا يصح ولذا فقد قال القاضي عياض في توضيحه لما يلزم الراوي لمثل هذه الأخبار والقياسات التي ارتكبها بعض القادرية في

---

(١) الشفا جـ ٥ ص ٢١٠ . ٢١١ و ٢٢٢ . ٢٢٣ منه .

(٢) انظر الطرائف مثلا ص ٥٠٩ .

شيوخهم قال : (فإن كان ذلك ممن تصدى لأن يؤخذعنه العلم أو رواية الحديث أو يقطع بحكمه أو شهادته أو فتياه في الحقوق وجب على سامعه الإشادة بما سمع منه والتنفير للناس عنه والشهادة عليه بما قاله ووجب على من يلغه ذلك من أئمة المسلمين إنكاره وبيان كفره وفساد قوله لقطع ضرره عن المسلمين ، وقياما بحق سيد المرسلين وكذلك إن كان ممن يعظ العامة أو يؤدب الصبيان فإن من هذه سريرته لا يؤمن على القاء ذلك في قلوبهم فيتأكد في هؤلاء الايجاب لحق النبي صلى الله عليه وسلم ولحق شريعته ...) (١) .

وإذا أخرجنا هم عن حد قصد الكفر لتصريحهم بأنهم أرادوا التأسي ولم يكن عندهم من التحقيق مايمنعهم من الوقوع فيما وقعوا فيه من المبالغات والطلب لشيوخهم المساواة بالمعصوم صلى الله عليه وسلم (٢) فإنه لا يمكن على منهج التحقيق إخراجهم ممن قال فيه القاضي عياض بأنه يتعين عليه إن أراد خيرا بما يحكيه في جانب النبوة وتدريس العلم والاعتبار : (أنه يجب أن يكون الكلام فيه مع أهل العلم وفهماء طلبة الدين ممن يفهم مقاصده ويحقق فوائده ويجنب ذلك ما عساه لا يفقه أو يخشي به فتنته) (٣) وهذا ما تجاوزته القادرية أيضا فإنه قد انتشر بين أتباعها ومحيطها ما يصعب معه مجرد إنكار مثل ما تضمنه الكتابان المذكوران ، ولو وجد من يقول عند حكاية شيء مما نسبوه إلى مشايخهم من المبالغات أو المستحيلات : (هذا مما لا يجب الإيمان به) وهي عبارة مشهورة بين الناس تطلق عادة عند ذكر ما يخشى على الأطفال والعوام من الاعتقاد فيه . وإن وجد هذا القائل لوجد من يدافع ويجادل محتجا بأن الله على كل شيء قدير ولا يحتج على هذا بقدرة الله تعالى .

والله أعلم .

---

(١) الشفا جـ ٥ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤ .

(٢) ترتيب المدارك جـ ١ ص ١٣٧ .

(٣) الشفاء جـ ٥ ص ٢٦٣ .

المطلب الثالث : علم الغيب

التعريف : (الغيب الشك والجمع غياب وغيوب وكل ماغاب عنك).

وغيابة كل شيىء ماسترك منه ، ومنه غيابات الجب (١)

وقال القاضي ابن العربي في قوله تعالى : (الذين يؤمنون بالغيب) (٢) وحقيقته ماغاب عن الحواس مما لا يوصل إليه إلا بالخبردون النظر) (٣)

وقال القرطبي : (فالله تعالى عنده علم الغيب ، وبيده الطرق الموصلة إليه ، ولايملكها إلا هو ، فمن شاء إطلاعه عليها أطلعه ومن شاء حجبه عنها حجبه ، ولا يكون ذلك من إفاضته إلا على رسله ، بدليل قوله تعالى : (وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء) (٤) (وقال : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول) (٥)

حكم ادعاء علم الغيب :

وقد جاء الكتاب والسنة بأنه لايعلم الغيب الا الله تعالى وأن الرسل لايعلمون منه إلا ما علمهم الله تعالى .

ولذا فقد كفر الصحابة فمن بعدهم من العلماء مدعى علم الغيب على الاطلاق سواء كان متنبأ أو منجما أو عرافا أو كاهنا وما روي عنهم في ذلك كثير .

---

(١) القاموس المحيط جـ ١ ص ١١٢ قال : (الشك : خلاف اليقين ج شكوك وشك في الأمر وتشكك وشككه غيره ..) قلت : ولا يكون الغيب بمعنى الشك إلا إذا كان رجما بالغيب ، وإلا لما كان الإيمان به نفسه : مدحا كما هو ظاهر من الآيات المذكورة .

(٢) البقرة الآية ٣ .

(٣) أحكام القرآن الكريم جـ ١ ص ٨ .

(٤) آل عمران الآية ١٧٩ .

(٥) سورة الجن ٢٦ و ٢٧ . القرطبي جـ ٧ ص ٢ .

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لمن طلب منه مالا يقدر عليه إلا الله تعالى : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى الى ﴾ (١) ٠

وقال تعالى : ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ﴾ (٢)

وقد قالت عائشة رضي الله عنها لمسروق (من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد كذب ، وهو يقول (لا تدركه الأبصار) (٣) ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب وهويقول ﴿ لايعلم الغيب إلا الله ﴾ (٤) (٥)

وقد دأبت الصوفية على طلب التميز عن الناس في العلوم والمعارف والأحوال حتى قالوا بنزول الملائكة عليهم ومحادثة الخضر عليه السلام لهم وأخذهم عن أرواح الأنبياء واطلاعهم على ما في الضمائر والكلام على الخواطر وأن إلهاماتهم ومكاشفاتهم حق يجب الأخذ به إذ إن ذلك من علم الغيب الذي خصهم الله به لولايتهم له ، وأنهم ينظرون إلى ما في اللوح المحفوظ ومابين الفرش إلى العرش (٦)

وبما قالت الصوفية تقول القادرية إلا أنه لم يدع أحد منهم أنه نبي أو أنه هو المهدي المنتظر (٧) بل إن بعضهم يشنع على من يأتي بالكلام الموهم لذلك (٨)

---

(١) الأنعام الآية ٥٠ ٠

(٢) هود الآية ١٢٣ ٠

(٣) الانعام الآية ١٠٣ ٠

(٤) ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ الآية من سورة النمل الآية ٦٥ ٠

(٥) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ﴾ الحديث رقم ٧٣٨٠ ٠

(٦) التصوف المنشأ والمصادر ص١٥٩ وما بعدها والصوفية معتقدا ومسلكا ص ٩٢ وما بعدها .

(٧) انظر الصوارم الهندية في حسم الدعاوى المهدوية ٠

(٨) الغلاوية ص ٣٨ ٠

وبعضهم يؤكد أن الوحي للأنبياء فقط وأنهم لايعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله تعالى (١) ومع ذلك يزعمون أنهم يتلقون من الملائكة ويلهمون العلوم بل ويعلمون الغيب ويتلقون عن الله بلا واسطة .

ولنورد إن شاء الله هنا بعض نصوصهم المصرحة بذلك ثم نتبعها بما يناسبها من نقد ودراسة :

عرض : قال المختار الكنتي في ترجمته لجده وهو الشيخ سيدي عمر الشيخ الذي يعتبر أول شيوخ القادرية في البلاد : (وما مات حتى بلغ القطبانية العظمى تواتر عنه أنه كان ينظر إلى ما بين العرش والفرش كما ينظر إلى الدرهم في كفه) (٢) .

وقال الشيخ سيدي محمد الكنتي في مجال الحث على الخوف من الخاتمة - نسأل الله لنا وللمسلمين حسنها - (وانظر إلى بلعام ابن باعوراء الذي كان إذا نظر نحو السماء أبصر العرش) وأن إبليس اللعين :(قيل إنه كان ينظر في اللوح المحفوظ) (٣)

ويقول في سيرة والده إنه قال له إنه كان إذا أشكل على شيخه الذي يدرسه العلوم شئ يخلو بنفسه . قال : (فيأتيني رجلان كأحسن ما أنت راء من الرجال صورة وسمتا فيفسران لي ويقرآني) (٤) وأن الخضر عليه السلام قال له إن بركة العلم إنما تحصل بقراءة الرسالة (٥) يعني رسالة ابن أبي زيد القيرواني كما تقدم في ترجمته إلى أن قال : (وأخبرني الشيخ الوالد رضوان الله عليه قال : اشتغلت بالنظر في علم الأوفاق فأتاني ملكان فقالا إن ربك يقرئيك السلام ويقول لك إن شئت ألهمتك من علم الجدول مالم أفتحه على أحد قبلك ثم وكلتك إليه وإن شئت أغنيتك عنه بمجرد ذكري والحضور معي) (٦) .

---

(١) بذل الوسع في تفسير الآيات التسع ص ٣٠ - ٤٧ .

(٢) المنة ص ٤٣ .

(٣) الغلاوية ص ٢٦٩ انظر خبر بلعام في تفسيرالقرطبي جـ ٧ ص ٣٢١ عند قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها .. ﴾ الآية ١٧٥ من سورة الاعراف .

(٤) الطرائف ص ٩٩ .

(٥) نفسه ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٦) نفسه ص ٣٠١ .

ويقول الشيخ سيدي محمد الكنتي : (فعلم القلب هو العلم اللدني الذي لم يسطر في الطروس ولم يحفظ بالدروس ، وإنما تلقين من الله بغير واسطة ملك ولا سمسرة رسول) (١) وقال ناقلا عن كتاب لطائف المنن على وجه الاستدلال والتسليم : (وأن الحق بحكمته جعل الطاعة الجارية على العباد مستقرعة لباب الغيب فمن قام بالطاعة والمعاملة بشرط الأدب لم يحتجب الغيب عنه ، والتطهير من العيب يفتح لك باب الغيب) (٢) وقال صاحب الضياء المستبين : (لما توفي سيدي عبدالله بن الحاج ابراهيم كانت بيده مفاتيح العلوم اجتمع الاولياء عنده وقالوا اطلبوا منكم رجلا نجعل هذه المفاتيح بيده فقال بعضهم : اجعلوها بيد الشيخ سيدي المصطف .

فقال بعضهم هو لها أهل لولا أن أجله قد دنا فقال قائل اجعلوها بيدالشيخ محمد فاضل بن مامين فهو أهلها وهو الحائز قصب السبق فيكم فلا يجاريه المجاري ولا يباريه المباري فأخذها كافة أهل تلك الحضرة من الأولياء والملائكة وأتوه بها وقالوا هذه مفاتيح كانت بيد هذا الرجل وليس لها بعده من أهل غيرك فأخذها واختص بها دون غيره فعلم كل علم بلا كد ولا نكد بل بتخصيص إلهي وعناية ربانية) (٣) ٠

ويحكي أيضا أن الشيخ محمد فاضل قال : (لما توفي ابني أبو الفتح حزنت عليه فقيل أتحزن عليه وقد ولد لك سيدي عثمان واحمد الهيبه : إلى أن قال فقيل لي إنه سيظهر فيه بروري) (٤) قلت : أظنه يقصد بذلك سيدي عثمان ٠ ويستدل صاحب الضياء على ولاية أبناء الشيخ بمعرفتهم علم الغيب ومكنون الضمائر فيقول : (وفيهم من الكشف بأنواعه ، فما من نوع إلا وقد أظهره الله تعالى في بعضهم فلقد كان القوم يقولون الكشف أقسام فيه ماهو في المغيبات وخفايا الضمائر وأسرار النيات ومنه ماهو في علوم التحقيق وحقائق الأشياء محسوسة كانت أو معقولة إلى أن قال :

---

(١) جنة المريد ص ١٣٣ ٠

(٢) نفسه ص ١٣٥ ٠

(٣) الضياء ص ٢٤٣ ٠

(٤) نفسه ص ٢٥٩ ٠

(ومنه ماهو في التحقيق الالهي وهو أكمل أنواعه وأتمها وقد شاهدت هذه الأنواع بأسرها فيهم) (١) ثم أخذ يسمى لكل واحد نوعا من أنواع الكشف والاطلاع على المغيبات وكثرة لقاء النبي صلى الله عليه وسلم (٢) إلى أن قال : وكذلك زوجاته فمنهن المكاشفات بحقائق الغيب (٣) ويضيف صاحب الضياء بعد إيراده لطرق الوحي قائلا :

(وهى طرق وهب العلم لأولياء الله) وقال : قال الشيخ : (والله ما أخذت شيئا إلا عن الله تعالى بلا واسطة غير أن أبي علمني كتاب الله تعالى وما يعلم من علوم الأسرار ، وأما غير ذلك فوالله ما أخذته إلا عن الله بلا واسطة) (٤) . وأن الشيخ محمد فاضل عندما قرىء عليه كتاب الشيخ عبد الكريم الجيلي الذي يقول فيه إنه أسري به وأنه له معراج كمعراج النبي صلى الله عليه وسلم فقال الشيخ : (كلنا ولله الحمد أسري به) (٥) ويضيف هذا المؤلف ليوضح مايدعيه لشيخه على وجه العموم فيقول : (فرع : ومما منح الله تعالى هذا الولي مما يدل على تحقيق كونه الوارث للرسول صلى الله عليه وسلم المخصص بما يرجوه من ربه من كل سؤل ما أعطاه الله من كشف عالم الغيب فكان لا يخبر بأمر إلا رئي كما أخبر به فلقد كان يخبر بالأمر السماوى من مطر أو ريح أو ظهور غيم أو طلوع هلال في اليوم الفلاني فينزل كما أخبر ، ولقد كان يخبر عن الأمر الأرضي من حدوث مسرة أو دفع مضرة أو ضدهما أو ولادة مولود أو موت أو قدوم مسافر أو خصب يقع في العام أو عافية أو ضدهما ونرى ما أخبر به كما أخبر .

وأما ضمائر النفوس وخواطر القلوب وخفايا السر فلهو أعلم بها من الظواهر حتى كنا نرى أن لاستر بينه وبين شيء من الغيب قط ... وأنواع مكاشفاته وإخباراته بالغيب عجب لايوصف وأمر لاينشر كان أكثر ذلك منه في البدء وأما الآن فإنما إخباره بالغيب على وجه الإشارة) (٦) .

(١ ـ ٢) نفسه ص ٢٧٩ وما بعدها .

(٣) نفسه ٢٩١ .

(٤) نفسه ص ٢٩٩ .

(٥) نفسه .

(٦) نفسه ص ٣٤٨ .

نقد : هذه بعض نصوصهم في ادعاء علم الغيب بواسطة الولاية والباحث يجد في بعض هذه النصوص تجاوزا كبيرا لحدود الولي والولاية إلى حدود الربوبية والألوهية أو الرسالة والاصطفاء ذلك أن فيها ادعاء حيازة مفاتيح علم الغيب الذي استأثر الله تعالى بها ، ولم يطلع عليها لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا وفيها ادعاء الإحاطة بكل العلوم والأخذ عن الله تعالى بلا واسطة والإخبار بالأمور المستقبلية من نزول المطر والموت والولادة والاطلاع على مكنون الضمائر زيادة على الأخذ عن الملائكة . وأصحاب هذه النصوص عند الفحص تتراوح أحوالهم بين الأمور الآتية :

أولا : ادعاء الألوهية خصائص وهذا كفر بالإجماع ، قال تعالى في وصف عباده المقربين من الملائكة الكرام :(ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك تجزي جهنم كذلك تجزي الظالمين) (١) قال الحافظ بن كثير :(أي من أدعى منهم أنه إله من دون الله أي مع الله (فذلك تجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) أي كل من قال ذلك) (٢)

ثانيا: ادعاء النبوة والرسالة وهذا أيضا لاخلاف في كفر صاحبه .

ثالثا: دجل وطلب مكانة عند الناس مع الغفلة الزائدة في العلم والجهل وعدم المراقبة لله تعالى وهذه أمور كلها تخالف مقاصد الولاية وحقيقتها .

قال القاضي عياض : (وأما مفتري الكذب عليه تبارك وتعالى بادعاء الإلهية أو الرسالة - فلا خلاف في كفر قائل ذلك ومدعيه مع سلامة عقله - لكن تقبل توبته على المشهور وتنفعه إنابته) (٣) وسواء ادعى ذلك لنفسه أو لغيره .

قال الله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم مافي البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) (٤) .

---

(١) الانبياء الآية ٢٩ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٧٦ .

(٣) الشفا جـ ٥ ص ٤٧٠ - ٤٧١ نفسه مع شرحه لعلي القاري .

(٤) الأنعام الآية ٥٩ .

وقال تعالى : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام وما تـــدري نفس ماذا تكسـب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليــم خبيـــر ﴾ (١) (وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(مفاتيح الغيب خمس لايعلمها إلا الله : لايعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم مافي غد إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله) (٢) .

وعن مسروق رضي الله عنه قال : (قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أمتاه ، هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت ، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم رآى ربه فقد كذب ثم قرأت :(لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أومن وراء حجاب) ومن حدثك أنه يعلم مافي غد فقد كذب ، ثم قرأت : (وما تدري نفس ماذا تكسب غدا) ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ، ثم قرأت : (ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك) الآية ولكن رآى جبريل عليه السلام في صورته مرتين) (٣) .

وفي خبر المنافق الذي قال عندما ضلت ناقة النبى صلى الله عليه وسلم في طريق عودته من غزوة تبوك كما ذكرها ابن اسحاق في السيرة بسنده قال : (فقال زيد بن اللصيت وهو في رحل عمارة وعمارة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لايدري أين ناقته ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمارة عنده :(إن رجلا قال هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لايدري أين ناقته وانى والله ما أعلم إلا ما علمني الله .

---

(١) سورة لقمان الآية ٣٤ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، ...) الحديث رقم : ٧٣٧٩ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، تفسير سورة النجم الحديث رقم : ٤٨٥٥ .

وقد دلني الله عليها ، وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها) (١) .

قال الحافظ بن حجر :(فأعلم النبي صلى الله عليه وسلم أنه لايعلم من الغيب إلا ما علمه الله ، وهو مطابق لقوله تعالى : ﴿ فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول) (٢) الآية وقد اختلف في المراد بالغيب فيها فقيل هو على عمومه وقيل ما يتعلق بالوحي خاصة وقيل مايتعلق بعلم الساعة وهو ضعيف) (٣) .

وقال ناقلا عن الطيبي : (وأما الكرامات فهي من قبيل التلويح واللمحات ، وليسوا في ذلك كالانبياء وقد جزم الاستاذ ابو اسحاق بأن كرامات الاولياء لاتضاهي ماهو معجزة للأنبياء وقال أبو بكر بن فورك : الأنبياء مأمورون بإظهارها ، والولي يجب عليه إخفاؤها والنبي يدعي ذلك بما يقطع به بخلاف الولي فإنه لايأمن الاستدراج . وفي الآية رد على المنجمين وعلى كل من يدعي أنه يطلع على ما سيكون من حياة أو موت أو غير ذلك لأنه مكذب للقرآن وهم أبعد شيىء من الارتضاء مع سلب صفة الرسلية عنهم) (٤) وقد جاء أثر في مسند الطيالسي عن الزهري بلفظ : (أوتي نبيكم مفاتيح الغيب إلا الخمس) ثم تلا الآية . يعنى :(إن الله عنده علم الساعة) قال الحافظ بن حجر : وأظنه دخل عليه متن في متن ، فإن هذا اللفظ أخرجه بن مردويه عن طريق عبد الله ابن سلمة عن ابن مسعود نحوه) ثم قال : (وأما ما ثبت بنص القرآن أن عيسى عليه السلام قال بأنه يخبرهم بما يأكلون وما يدخرون ، وأن يوسف عليه السلام قال إنه ينبئهم بتأويل الطعام قبل أن يأتي إلى غير ذلك مما ظهر من المعجزات والكرامات فكل ذلك يمكن أن يستفاد من الاستثناء في قوله تعالى :(إلا من ارتضى من رسول) فإنه يقتضي إطلاع الرسول على بعض الغيب والولي التابع للرسول عن الرسول يأخذو به يكرم ، والفرق بينهما

---

(١) السيرة النبوية ، لأبي محمد عبد الملك بن هشام جـ ١ ص ١٣٧٥ . ١٣٧٦ .

(٢) سورة الجن الآيتين ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) فتح الباري جـ ١٣ ص ٣٦٤ .

(٤) فتح الباري جـ ١٣ ص ٣٦٤ . ٣٦٥ .

أن الرســول يطلع على ذلك بأنواع الوحي كلها والولي لايطلع على ذلك إلا بمنام أو إلهام) (١) .

وقال القاضي البيضاوي : (يخصص الرسول بالملك في إطلاعه على الغيب ، والأولياء يقع لهم ذلك بالإلهام) (٢) قال الحافظ بن حجر :(ولم أقف في شيء من الأخبار على كون الإلهام جزءا من أجزاء النبوة مع أنه من أنواع الوحي) (٣)

وقال القاضي عياض في فصل خصصه من كتابه الشفا لتلخيص بعض ما أطلع الله نبيه عليه من الغيب : (ومن ذلك ما أطلع عليه من الغيوب ، وما يكون من الأحاديث في هذا الباب بحر لايدرك قعره ولا ينزف غمره وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر لكثرة رواتها واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب) (٤) وساق الأحاديث والآثار الدالة على ذلك ثم قال في فصل آخر خصصه للكلام على أن الله تعالى قادر على خلق المعرفة في قلوب عباده : (اعلم أن الله جل اسمه قادر على خلق المعرفة في قلوب عباده والعلم بذاته وأسمائه وصفاته وجميع تكليفاته ابتداء دون واسطة لو شاء كما حكى عن سنته في بعض الأنبياء وذكره بعض أهل التفسير في قوله تعالى :

(وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا) (٥) وجائز أن يوصل إليهم جميع ذلك بواسطة تبلغهم كلامه وتكون تلك الواسطة إما من غير البشر كالملائكة مع الأنبياء أو من جنسهم كالأنبياء مع الأمم ولا مانع لهذا من دليل العقل) (٦) .

وقال الحافظ ابن حجر معقبا على مانقله عن ابن التين عن الداودي في قوله في أحد طرق الحديث الذي قدمناه عن عائشة رضي الله عنها والذي هو :

---

(١) فتح الباري جـ ٨ص ٥١٤ .

(٢) نفسه جـ ٨ ص ٥١٤ .

(٣) نفسه جـ ١٣ ص ٣٦٤ .

(٤) الشفا جـ ٣ ص ٢٤٠ وما بعدها .

(٥) سورة الشورى الآية ٥١ .

(٦) الشفا جـ ٢ ص ٧٢٣ ـ ٧٢٥ .

(من حدثك أن محمدا يعلم الغيب) أنه قال : (ما أظنه محفوظا وما أحد يدعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم من الغيب إلا ما علم .)

قال الحافظ ابن حجر : (ما ادعاه من النفي متعقب . فلن بعض من لم يرسخ في الايمان كان يظن ذلك حتى كان يرى أن صحة النبوة تستلزم إطلاع النبي صلى الله عليه وسلم على جميع المغيبات) (١) . وقد اخذ ذلك رحمه الله من قصة المنافق التي ذكرناها سابقا في خبر ناقة النبى صلى الله عليه وسلم التى ضلت .

قلت : هذه نصوص من الكتاب والسنة الصحيحة وأقوال أهل العلم تنفي عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم علم الغيب على الإطلاق وتثبت لهم بدليل : (إلا من ارتضى من رسول) إطلاع الله لهم على بعض الغيوب لتبليغها وجعلها حجة وتكليفا من الله لخلقه .

وأن غيرهم من الخلق مهما كان صلاحه وتقواه واشراق روحه وذكاء فؤاده وصدق فراسته لايعتد بما صدر منه ولاما وقع له إلا بدليل من الكتاب والسنة .

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح بأنه لاسبيل للشيطان عليه وأنه محدث ومع ذلك لم يدع علم الغيب ولا معرفة مافي غد لأن ذلك من الكفر الصريح إطلاقه بل كان رضي الله عنه يعرض كل أموره على الكتاب والسنة وأهل مشورته من علماء الصحابة (٢) .

قال صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه : (والذي نفسي بيده مالقيك الشيطان قط سالكا فجا إلاسلك فجا غير فجك) (٣) قال النووي قال القاضي عياض : (يحتمل أنه ضرب مثلا لبعد الشيطان واغوائه منه وأن عمر في جميع أموره سالك طريق السداد خلاف ما يأمر به الشيطان .

---

(١) فتح الباري جـ ١٣ ص ٣٤٦ .

(٢) انظر الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، أو الفراسة المرضية في أحكام السياسة الشرعية لابن القيم . تحقيق : محمد حامد الفقهي ، دار الكتب العلمية ص ١٦ . ١٨ و ٢٨ . ٣٠ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر رضي الله عنه .

إلى أن قال النووي : (ويحتمل أن الحديث محمول على ظاهره وأن الشيطان متى رأى عمر سالكا فجا هرب هيبة من عمر وفارق ذلك الفج وذهب في فج آخر لشدة خوفه من بأس عمر أن يفعل به شيئا) (١) قلت : وصحح النووي هذا الاحتمال على الأول ، فكيف بمن يشهد على نفسه بصحبة الجن والشياطين واستخدامها وأن رجال الغيب يحدثونه هم في الواقع رجال من الجن يتشكلون لمن يريد الله تعالى إضلاله بسببهم ولم يكن عنده من العلم ما يعصمه الله به لشدة اعتقاده في نفسه أو في شيخه وترقبه للخوارق والكرامات والتميز أو التمويه على خلق الله (٢) .

وكذلك من يدعي إتيان الخضر عليه السلام له وإطلاعه على أمور غيبيه فإنه لايخرج عن كونه جنيا تشكل لصاحب هوى ليضله ويغويه والا فالخضر على ما رجحه الحافظ بن حجر ـ بعد البحث وذكر الآراء والآثار وأقوال من يدعي أنه رآه وأخذ عنه وأنه حي باق إلى الابد . رجح رحمه الله أنه نبي وأنه لاينبغي (التوقف في الجزم بنبوته) (٣) واستدل على نبوته بقوله تعالى على لسانه : ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ (٤)

قال : (وهذا ظاهره أنه فعله بأمر من الله والأصل عدم الواسطة ويحتمل أن يكون بواسطة نبي آخر لم يذكره وهو بعيد ولا سبيل إلى القول بأنه الهام لأن ذلك لايكون من غير النبي وحيا حتى يعمل به ماعمل من قتل النفس وتعريض الأنفس للغرق : فإن قلنا بأنه نبي فلا إنكار في ذلك إلى أن قال وقال الثعلبى (٥)

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، المجلد الثامن ج ١٥ ص ١٦٥ . ١٦٦ .

(٢) انظر : مجموعة الرسائل الكبرى ج ٢ ص ٦٦ .

(٣) الزهر النضرفي نبأ الخضر ، لحافظ ابن حجر ، مجموعة الرسائل المنيرية ج ١ ص ٢٣٤ .

(٤) سورة الكهف الآية ٨٢ .

(٥) قلت : لعل الثعلبي هذا هو : أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ، أبو إسحاق المفسر صاحب كتاب : (عرائس المجالس) في قصص الأنبياء وبهذا الكتاب وبما أثنى العلماء عليه به من الثقة والحفظ رجحت كونه الذي نقل الحافظ كلامه . انظر : البداية والنهاية ، ج ١٢ ص ٤٠ . وفيه أنه توفي سنة ٤٢٧ هـ .

(هو نبي في جميع الأقوال وكان بعض أكابر العلماء يقول : أول عقدة تحل من الزندقه اعتقاد كون الخضر نبيا لأن الزنادقة يتذرعون بكونه غير نبي إلى أن الولي أفضل من النبي) (١) وقال الحافظ : بأن جميع الآثار الواردة في استمرار حياته ضعيفة واهية وأضاف : (والذى تميل إليه النفس من حيث الأدلة القوية خلاف ما تعتقده العوام من استمرار حياته ... وأقوى الأدلة على عدم بقائه عدم مجيئه للنبي صلى الله عليه وسلم وانفراده بالتعمير من بين أهل الأعصار المتقدمة بغير دليل شرعي) (٢) .

فالملائكة تختص بالنزول على الرسل بالرسالات على ما تقدم ، والخضر على هذا قد مات عليه السلام وهو نبي من أنبياء الله على ما ظهر رجحانه .

فبقيت من طرق معرفة الغيب والتي يظن أنها طرق لمعرفته علوم السر والأوفاق وخصائص الحروف والأسماء الأعجمية وغير ذلك مما هو داخل في علوم العرافة والكهانة والدجل والشعوذة ـ ويأتي الكلام عنها في المبحث الذي يأتي بعد هذا ثم الكشف والمنامات والإلهامات والفراسة .

أما الكشف فقد تقدم أنه لايصح إدعاء علم الغيب به أو الاحتجاج به لعدم الوثوق باخبار غير المعصوم من الشياطين ويلحق به المنامات والمرائي وإن كانت جزءا من النبوة يراها الرجل الصالح أو ترى له إلا أن الشيطان أيضا قد يتسلط عليها (٣) .

قال الله تعالى لنبيه المعصوم صلى الله عليه وسلم : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ﴾ (٤) .

---

(١) مجموعة الرسائل المنيرية جـ ١ ص ١٩٧ . ١٩٨ ولم نتمكن من معرفة هذا العالم الكبير الذي نسب إليه الثعلبي هذا القول النبيه .

(٢) نفسه ص ٢٣٤ .

(٣) انظر فتح الباري جـ ١٢ ص ٣٦١ وما بعدها .

(٤) الحج الآية ٥٢ .

قوله تعالى : ﴿ تمنى ﴾ أي قرأ أو تلا قال القرطبي قال ابن عطية : (وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث) ثم قال : قال مسلمة ابن القاسم : وهو الراوي : (فوجدنا المحدثين معتصمين بالنبوة ـ على قرءاة ابن عباس رضي الله عنهما ـ لأنهم تكلموا بأمور عالية من أنباء الغيب خطرات ، ونطقوا بالحكمة الباطنة ، فأصابوا فيما تكلموا وعصموا فيما نطقوا ، كعمر بن الخطاب في قصة سارية وما تكلم به من البراهين العالية) إلى أن قال القرطبي بعد أن ساق بسنده في هذه القراءة ـ قال أبو بكر الأنباري : (فهذا حديث لا يؤخذ به على أن ذلك قرآن ، والمحدث هو الذي يوحى إليه في نومه لأن رؤيا الأنبياء وحي) (١) قلت : وكأنه يريد قصر وصف المحدث على الأنبياء ولكنه ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم إثبات هذه الصفة في الأمم السابقة على الإطلاق وإثبتها لعمر رضي الله عنه على شرط أنها في أمته صلى الله عليه وسلم أو على أنه أراد التأكيد على وجودها فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلـــم : (أنه كان يقول قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتـي منهـــم أحد فان عمر بن الخطاب منهم . قال ابن وهب : تفسير محدثون ملهمون) (٢) قال الإمام النووي (واختلف تفسير العلماء للمرادبمحدثون فقال ابن وهب : ملهمون وقيل مصيبون وإذا ظنوا فكأنهم حدثوا بشيىء فظنوا وقيل تكلمهم الملائكة وجاء في رواية متكلـمون وقال البخاري يجري الصواب على ألسنتهم وفيه إثبات كرامات الاولياء) (٣) .

قال الأبي : (قلت قال ابن العـربي : وقيل إن قولهم محدثين من صفاء القلب لما يتجلى فيه من اللوح المحفوظ وإنهـا لدعوى عريضة وخرافة باردة ولو كـــان ذلــك بالتجلى عند المقابلة بين القلب الصافي واللوح المحفوظ لكان مطلعا على جملة المعـــارف أو على جملة عظيمة لا عــلى كلمة واحدة وإنما طريق ذلك أن الله تعالى

---

(١) القرطبي جـ ١٢ ص ٧٩ . ٨٠ وفتح الباري جـ ٧ ص ٤٢ و ٥٠ . ٥١ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب من فضائل عمر رضي الله عنه . وصحيح البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ٣٦٨٩ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٥ ص ١٦٦ وأنظر فتح الباري جـ ٧ ص ٥٠ .

يخلق في القلب الصافي بواسطة الملك الكلمة التي يلقيها الشيطان إلى الكاهن وقد ينتهي إلى أن يسمع الصوت ويرى الملك ولم أعرف ذلك الآن وضرب مثالا لحادثة عمر مع سارية : وقال : وهي كرامة ظاهرة في الصالحين إلى يوم القيامة) (١) .

وبعد أن أثبت شيخ الإسلام ابن تيمية كون عمر بن الخطاب رضي الله عنه أفضل الأولياء المحدثين من هذه الأمة قال : (وليس في أولياء هذه الأمة من يأخذ عن الله سبحانه شيئا بلا واسطة نبي أفضل من عمر ومع هذا فكل ما يرد عليه بدون واسطة النبي ، عليه أن يعتبره بماجاء به النبي صلى الله عليه وسلم فإن وافقه قبله وإن خالفه رده كما كان عمر بن الخطاب يفعل ... وأما ما يرد على قلوب الأولياء فليس معصوما وليس عليهم تصديقه بل وليس لهم العمل بشيء منه إذا خالف الكتاب والسنة) (٢) .

قلت : ولما اعتبرنا ماصدر عن القادرية من دعوى أخذ العلم عن الله بلا واسطة أو بواسطة ـ اعتبرناه بالكتاب والسنة وجدنا فيه من مخالفة الكتاب والسنة ولازم الولاية مالا يخفى حيث إن فيه ادعاء علم الغيب على الاطلاق والاخذ عن الله تعالى بواسطة الملك أو الخضر أو بلا واسطة وفي ذلك كله من ادعاء الربوبية والنبوة ما كفر العلماء مرتكبه .

قال القاضي بن العربي في تفسيره لآيات الأحكام :

(المسألة السابعة : مقامات الغيب الخمسة التي لايعلمها إلا الله لا أمارة عليها ولا علامة عليها إلا ما أخبر به الصادق المجتبى لاطلاع الغيب من أمارات الساعة والأربعة سواها لا أمارة عليها فكل من قال : إنه ينزل الغيث غدا فهو كافر ، أخبر عنه بأمارات ادعاها ، أو بقول مطلق . ومن قال : إنه يعلم مافي الرحم فهو كافر فأما الامارة على هذا فتختلف فمنها ماهو كفر ومنها تجربة... وأما من ادعى علم الكسب في مستقبل العمر فهو كافر ، أو أخبر عن الكوائن الجملية أو المفصليـة فيما يكون قبل أن يكون فلا ريب في كفره أيضا فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر فقد قال علماؤنا : يؤدب ويسجن ولا يكفر ، أما عدم تكفيره فلأن جماعة قالوا :

---

(١) إكمال إكمال المعلم ، تأليف محمد بن خلفة الوشتاني الأبي . دار الكتب العلمية . بيروت جـ ٦ ص ٢٠٤ .

(٢) كتاب الصفدية جـ ١ ص ٢٥٣ .

إنه أمر يدرك بالحساب وتقدير المنازل حسبما أخبر سبحانه وتعالى في قوله جل وعلا : (والقمر قدرناه منازل) (١) فلحسابهم له وإخبارهم عنه وصدقهم فيه توقف علماؤنا عن الحكم بتكفيرهم .

وأما أدبهم فلأنهم يدخلون الشك على العامة في تعليق العلم بالغيب المستأنف ولا يدرون قدر الفرق بين هذا وغيره فتشوش عقائدهم في الدين وتزلزل قواعدهم في اليقين فأدبوا حتى يسروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به) (٢) وتبعه على ما حكم به القرطبي في تفسيره لنفس الآية من سورة الانعام : (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) (٣) وقال الأبي في شرحه لاحاديث الفتن من صحيح مسلم وظهور الدجاجلة والمتنبئين والمدعين للألوهية (٤) قال : (قلت : دعوى النبوة لفظا أو معنى يدخل فيه ما يتفق من كثير أن يقول قد قيل لي أو أذن لي وكان الشيخ (٥) ينكر هذه المقالة كثيرا ويقول لا أقبلها ولا من المرجاني (٦) الذي صحت ولايته قال وقد اختلف بم يعرف النبي أن الذي يخاطبه ملك فكيف يصح لغيره أن يأتي بكلام فيه تعميه توهم أن الذي يقول له ذلك ملك) ٧) .

وبهذا يتضح أن مدعى علم الغيب طلبا للمكانة عند الناس يعامله الشرع بخلاف مراده متنبئا كان أو متدجلا أو متصلحا .

ولولا انتشار هذه العقيدة بين اتباع المشايخ من هذه الطريقة إلى حد أنها تحرمهم من بعض أمورهم وهم في غيبة عن الشيخ خوفا من اطلاع الشيخ عليها كما تحرمهم من أن يطلبوا منه لأنفسهم صالح الدعاء ادعاء بأنه يعلم حالهم وحاجتهم وأنه غير خاف عليه أمرهم لولا أن هذه الأمور وأمثالها من هوادم أصول الدين لكان للباحث أن يكتفي بطرح سؤال واحد وهو : أين هذه العلوم التي استفادوها من الأطلاع على غيب الله تعالى ؟

والجواب تقدم فى عرض علومهم ومعارفهم وفي تراجمهم . والله أعلم .

---

(١) سورة يس الآية ٣٩ .
(٢) أحكام القرآن جـ ٢ ص ٧٣٨ . ٧٣٩ .
(٣) القرطبي جـ ٧ ص ١ . ٤ .
(٤) إكمال إكمال المعلم جـ ٧ ص ٢٣٧ وما بعدها .
(٥) قلت : لعله يريد الإمام محمد بن عرفة الورغمي التونسي حيث لازمه وأخذ عنه كثيرا . انظر شجرة النور ص ٢٢٧ و ٢٤٤ .
(٦) لم نجد له ترجمة تميزه ولعله : محمد بن أبي بكر المرجاني المتوفي سنة ٨٢٧ هـ انظر : الاعلام للزركلي جـ ٧ ص ٢٠١ .
(٧) إكمال إكمال المعلم جـ ٧ ص ٢٥٨ .

المطلب الرابع : ختم الولاية

التعريف : يقول القاضي عياض في المشارق في بيانه لقوله صلى الله عليه وسلم : (وأنا خاتم النبيين) (١) قال ابن الأعرابي : الخاتم والخاتم من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم قال ثعلب : فالخاتم الذي ختم به الأنبياء ، والخاتم أحسن الأنبياء خلقا وخلقا) (٢) ويقول العسكري في فروقه : (والأصل في الختم ختم الكتاب لأنه يقع بعد الفراغ منه) ، (والفرق بين الرسم والختم أن الختم ينبىء عن إتمام الشيىء وقطع فعله وعمله ، تقول ختمت القرآن أي أتممت حفظه وقرأته وقطعت قراءته ...) (٣)

ومن هذا التعريف يعرف أن خاتم الأنبياء هو أفضل الأولياء إذ لاولاية أعظم من ولايته صلى الله عليه وسلم ولا من ولاية أصحابه بعده والقرون المفضلة . ولكن بعض الصوفية الناشئن على الأفكار الفلسفية أرادوا المساواة بين الأنبياء والفلاسفة في فلسفتهم الإشراقية ، وارتفعوا بشيوخهم وكبارهم عن مستوى النبوة وقالوا بأن النبي يأخذ عن الله بواسطة الملك وأنهم يأخذون عن الله بلا واسطة من هنا قالوا بتفضيل أوليائهم على أنبياء الله تعالى (٤) وكان من أول الخائضين في هذه الفكرة محمد بن علي المعروف بالحكيم الترمذي المتوفى سنة ٣٢٠ هـ على الراجح ، وألف في ذلك كتابه خاتم الأولياء أو ختم الولاية الذي يعتبر عمدة مؤلفاته (٥) وأخرج من بلده بسبب تأليفه له وكفر بما ضمنه كتابه هذا من تفضيل بعض الأولياء على الأنبياء يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (وفي هذا الكتاب من الكلام الباطل ما يعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام ، والذي فتح الكلام في ختم الأولياء ، حتى جاء هؤلاء

---

(١) تقدم الحديث ، وهو متفق عليه .

(٢) مشارق الأنوار ، للقاضي عياض ، نشر المكتبة العتقية بتونس جـ ١ ص ٢٣٠ .

(٣) الفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري ص ٥٦ .

(٤) انظر : كتاب الصفدية جـ ١ ص ٢٤٧ وما بعدها .

(٥) المنهيات للحكيم الترمذي ، دراسة وتحقيق / محمد عثمان الخشت ، مكتبة القرآن ، القاهرة . المقدمة ص ١٣ وطبقات الصوفية ص ١٢٧ وما بعدها .

المتأخرون الذين يدعي كل منهم أنه خاتم الأولياء كابن عربي وابن حموية . وهو سعد الدين محمد بن عبد الله بن حمويه الحموي المتوفي سنة ٦٥٢ هـ وغيرهما وأتى بالعظائم التي لم يسبق إليها الترمذي ولا غيره ، وفي كلام هؤلاء ونحوهم تفضيل بعض الأولياء على الأنبياء أو بعضهم ، وشيوخ الصوفية متفقون على تفضيل الأنبياء على الأولياء ، كما اتفق على ذلك سائر علماء المسلمين) (١) .

والقادرية يتفقون مع شيوخ الصوفية وعلماء المسلمين على تفضيل الأنبياء على الأولياء عموما بل ويكفرون ويجهلون من يقول غير ذلك من الصوفية ، ويردون عليه في استدلاله بقصة الخضر مع موسى عليهما السلام ويقولون بأن أقصى ماتدل عليه تأديب من الله لعبده ورسوله موسى (٢) .

يقول المختار الكنتي : (وغاية ما تدل عليه القضية أن الله تعالى أدب موسى عله السلام حين ادعى ما ليس له وهو الإحاطة بالعلم دون أن يضيفه إلى الله فأحاله إلى من هو دونه رتبة وهو ولي الله تعالى الخضرليريه سعة علم عبد من عباده فضلا عن علمه تعالى ...) (٣) وقد تقدم بعض نصوصهم في هذه المسألة في مبحث ختم النبوة، وكلامهم فيها متفق إلى حد كبير مع مذهب أهل السنة (٤) إلا أنهم يرون كغيرهم من الصوفية أن الخضر ولي غير نبي ، خلاف ما تقدم عن ابن حجرمن أنه لا ينبغي أن يرتاب أحد في نبوته لوضوح القرآن في ذلك ، ومع أن القادرية لا يقرون صراحة بعقيدة ختم الولاية بمعنى تفضيل ولي على نبي إذ الولاية كما يقولون جزء من النبوة وأن كل نبي ولي ولا ينعكس (٥) فإنهم يضعون أكبر أصحاب هذه العقيدة

---

(١) الصفدية جـ ١ ص ٢٤٨ .

(٢) جذوة الأنوار ص ١١٠ وما بعدها .

(٣) نفسه ص ١١ .

(٤) انظر صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب ما ذكر من ذهاب موسى عليه السلام في البحر إلى الخضر رقم (٧٤) .

(٥) الصفدية جـ ١ ص ٢٥٢ ومابعدها . وعقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ص ٩ وما بعدها . وفتح الباري جـ ١ ص ١٦٨ .

في سلسلتهم في الطريقة القادرية ويدافعون عنه ويرون أنه الشيخ الأكبر . وهو ابن عربي ثم إن عقيدة التسليم بمعارف الصوفية التي هي في الغالب تدور على ابن عربي والغزالي تلزمهم بكثيرمن العقائد المنافية لنصوص الكتاب والسنة بل وروح الشريعة الإسلامية وإن صرحوا في مواضع من كتبهم بردها فيمكن اعتبار ذلك تناقضا في المنهج يجب تصحيحه . هذا من جهة .

ومن جهة أخرى فإنه توجدلهم نصوص متعارضة في هذه العقيدة ، فبينما توجد لهم نصوص يؤخذ منها أدعاء أن بعض شيوخهم هو خاتم الأولياء وأن قرنه خير القرون من بعد القرون الثلاثة المفضلة وأن أصحابه أفضل من جاء من الصوفية بعد أهل الصفة ، وأن الله أعطاهم وخصهم بما لم يعطه لأحد من الناس . بينما يوجد لهم مثل هذا الكلام الذي هو في واقعه طلب للمكانة العالية عند الناس التي هي الفكرة الأساسية لدعوى ختم الولاية . يجد الباحث لهم نصوصا يردون فيها على من يذهب من الصوفية وغيرهم إلى انقطاع التربية الصوفية منذ عصور لقلة الشيوخ الصالحين للتسليك وهو أمر في حقيقته . إن أقروا به كان قولا بختم الولاية وذلك يؤدي إلى حرمان أحفادهم والناشرين لطريقتهم من مصدريهم من الاستمرار في وظيفة إيصال الناس إلى الولاية على طريقتهم في طلبها . ومن هنا جاء التعارض المشار إليه . ولنستعرض أولا النصوص التي تفيد الميل إلى القول بختم الولاية ببعض شيوخهم ثم نتبعها إن شاء الله بما يدل على فتح باب الولاية على طريقة الصوفية في التربية ، والوراثة الصوفية عندهم .

عرض :

يورد الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي في الطرائف والتلائد بعض أجوبة والده ورسائله لبعض مقدميه ومريديه الصادقين كما يقول ويذكر أنه جاءته رؤيا من أحدهم وهو : الصالح بن محمد الشيخ السوقي يقول فيها أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال له : (أرأيتكم ليلتكم هذه فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد ...) فأجابه الشيخ : فتأويله والله أعلم : أن هذا القرن الذي نحن فيه يشاكل قرنه عليه الصلاة والسلام من وجوه :

أحدها : أن فيه خاتم الأولياء كما أن قرنه عليه الصلاة والسلام فيه خاتم الأنبياء .

الثاني : أن أتباع هذا الولي المجدد الخاتم يدعون إلى الخير ..

الثالث : أن هذا القرن أفضل من جميع ما تقدمه من القرون السالفة سوى القرون الثلاثة لورود النص بأفضليتها ...) (١) .

قلت : وقد اتخذ التيجانية كما تقدم في الحديث عن نشأة الطرق الصوفية في موريتانيا حديث المختار الكنتي عن خاتم الأولياء شاهدا لهم على القول بأن التجاني خاتم الأولياء . وهو استدلال يناقضه ما يأتي من أمور :

أحدها : أن المختار الكنتي يعتبر نفسه ويعتبره أتباعه هو مجدد القرن الثاني عشر ، علما وتربية صوفية على ما تقدم في ترجمته ، وعلى هذا فهو يريد نفسه بهذا التأويل .

الثاني : أن هذا الكلام صدر منه في تعبير رؤيا لأحد المقربين لديه من مريديه ولا يظن أنه يؤوله على غير نفسه كما هو واضح من إيراد ابنه له في فضائله ومناقبه الحسنة .

ثالثا : أن المختارية لم يكن لها وفاق في المنهج والطريقة مع التجانية حتى يحصل منها ثناء على شيخها بل إن المختار الكنتي وصف من الأحوال ما ينطبق على بعض التيجانيـة ومن يقاربها في الشطح والرقص والعقائد وكفر أصحاب تلك الأحوال . (٢)

رابعا : استمرار المختارية في محاربة التيجانية بالقلم واللسان ، والمدفع والستان . (٣) وكل هذا يدل على عدم شهادتهم لهم بخير .

---

(١) الطرائف ص ٣٥٥ . ٣٥٦ .

(٢) انظر جذوة الأنوار ص ٩٧ وما بعدها .

(٣) انظر كنتة الشرقيون ص ١٠٢ . ١٠٦ .

ويقول صاحب الضياء : (فرع : ومما أكرم الله تعالى به هذا الولي من شواهد اختصاصه بهذا المقام أعني مقام الختام الذي ما مثله من مقام وهو تراث سيد الأنام) (١) .

فعقيدة ختم الولاية منتشرة في المحيط الصوفي لانتشارها عن ابن عربي وهو الشيخ الأعظم عندهم وهي عند القادرية تحتمل ثلاثة معان :

أولها : وهو الذي يريده ابن عربي أن النبوة ختمت برسالة محمد صلى الله عليه وسلم من حيث التشريع ونزول الأحكام والعقائد ، ولكن بقيت مفتوحة للأولياء الواصلين من حيث الإلهامات والخواطر حتى يأتي خاتمهم الذي هو عند ابن عربي ابن عربي ولكن عند غيره من الصوفية كل يدعيها لنفسه أو لشيخه ، وبقي الباب الذي فتحه بهذا المعنى مفتوحا ودخلت منه القادرية كما رأينا في المباحث السالفة .

ثانيها : وهو المعنى الاصطلاحي في عرف العلماء إذا أرادوا وصف عالم بالانتهاء في فن معين قالوا : إنه خاتمة عصره أوفريد قرنه أو ما يؤدي هذا المعنى من عبارات السبق والتقدم على الأقران ، ولا يبعد أن يكون القادرية يريدون هذا المعنى عندما يصفون أحد علمائهم بأنه خاتم الأولياء ويؤيد هذا الاحتمال أن الموصوفين به عندهم غالبا ما يوصفون بالتجديد في العلم والطريقة ، وأن كل واحد منهم انتهت إليه الرئاسة في عصره على الأقل في بيئته ومحيطه . (٢)

ثالثها : ما فهمه بعض العلماء في محيط القادرية من أن المراد بالختم في الولاية انقطاع التربية الصوفية لعدم وجود من يصلح في الشيوخة السنبة للأخذ عنه وهذا الاحتمال ترفضه القادرية لأنها مبنية في الواقع على التوارث النسبي أولا والسلوكي ثانيا ، وأي دعوى تحرمهم من هذا التوارث يكون ردهم لها وجيها في منطق الدفاع عن النفس والاستمرار في الوجود .

---

(١) الضياء المستبين ص ٣٣٢ .

(٢) انظر الطرائف ص ٢٦٩ والضياء ص ٢١٢ .

ولنذكر أولا بعض كلام من وقفت على كلامه من علماء موريتانيا في القول بانقطاع التربية الصوفية ، ثم نتبعه بما يوضح رده من جانب شيوخ القادرية . يقول الشيخ محمد الخضر بن مايأبى في مشتهى الخارف الجاني بعد بحث ونقول عن الولي ومن يستحق وصف الولاية (أن ابن دهاق قال : إن من شرط الولي أن يكون بحيث لو أذهب الله علماء أهل الأرض لوجد عنده ما كان عندهم ..)

ثم قال :(قلت : ما ذكره ابن دهاق ومن وافقه يقل عليه أن يوجد ولي على وجه الأرض ولا سيما في زمننا هذا ، فإن رتبته في العلم على هذا أعلى من رتبة المجتهد المطلق ، وقد نص العلماء على انقطاعه في القرن الثامن كما حررناه في رسالتنا على الإمامة والفئة الباغية ، كما أن علماء الصوفية نصوا أيضا على انقطاع التربية في القرن التاسع وقد حررنا ذلك غاية التحرير في رسالتنا على التصوف) (١) .

ويوكدما ذهب إليه محمد الخضر ، الفقيه سيدي بن حين فيقول في نظمه (دمغ المريد) :

(قد حكمت مشايخ التصوف في دكظ (٢) بقطع سيرهم قف
إذ كثر ادعاء أصحاب البدع لها ولبسوا على أهل الورع
من يدعيها بعد ذاد جـال طريقه لديهم ضلال) (٣)

وفي هذا المنظوم شبه كبير بما نظمه الأخضري في قد سيته حيث يقول في نفس المعنى بعد أن ذكر الطريقة الصحيحة حسب ما يراه :

---

(١) مشتهى الخارف الجاني ص ٤٨٣ ولعل الرسالة المحال عليها هي التي عنوانها : تصوف السادة والنجاح والرد على متصوفة الرقص والصياح . انظر كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري لنفس المؤلف الذي هو قادري من الفاضلية ، راجع المصدر المذكور جـ ١ ص ٩ وقد طلبت الرسالة المذكورة من ابن المؤلف محمد الأمين قبل وفاته في المدينة المنورة بشهر تقريبا وذكر أن الموجود منها نشخة واحدة وقد أعطاها لمن يفكر في نشرها في الأردن فرحم الله المؤلف وابنه .

(٢) المقصود به رمز هذه الحروف بالحساب الجملي والدال أربعة والكاف عشرون والظاء ثمانمائة. أي بهذا التاريخ ٨٢٤ من الهجرة .

(٣) ملف الرحلة العلمية ص ٢٢ .

(فهذه طريقة الرجـــال   وآل أمرها إلى الـــزوال

وكثـــر الملبسون فيهـــا   وصار ذو البدعة يدعيها

وأسفا على الطريق السابلة   أفسدها الطائفة الدجاجلـــه) (١)

وليس التحسر على انقطاع الطريق ودخول الانحراف عليها بحديث في مؤلفات الصوفية بل إن القشيري يقول في رسالته التي ألفها قبل ميلاد الشيخ عبد القادر بنحو ثلاثين عاما (٢) يقول فيها :

(ثم اعلموا ، رحمكم الله ، أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ، ولم يبق في زمننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم ، كما قيل :

أما الخيام فإنها كخيامهم   وأرى نساء الحي غير نسائها

حصلت الفتره في هذه الطريقة ، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة ...) (٣)
وهذه النصوص وأمثالها تنقلها القادرية في كتبها وتؤكد اختلاط أمر الطريقه الصحيحه بأحوال أصحاب الحضرات والرقص والدجل (٤) ثم تصر على استمرار الطريقة وأن القادرية ستبقى إلى الأبد ، وأن التربية لا تنقطع وأن على المريد أن يصدق مع الله في طلبه للمربي فييسره الله له إذ إن الأرض لا تخلو من قائم لله بحجته وذلك هو شيخ التربية عندهم .

---

(١) الطريقة الشرعية وبراءتها من الطرق المنحرفة وضلالتها (القدسية) نشر الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السعودية . بتحقيق رئيسها الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ ص ٤٢ و ٥٦ .

(٢) الرسالة القشيرية جـ ١ ص ١٦ .

(٣) نفسه ص ٢٢ وما بعدها .

(٤) جـذوة الأنوار ص ٩٧ و ١٠٨ و ١١٣ والضياء ص ٢٨٦ والطرائف ص ٨٦ . ٨٧ والغلاوية ص ١٦٤ .

يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي ناقلا عن غيره على سبيل الاستدلال والتمسـك : (وفي كتاب السهر وردي أن من قال من غلاة المتفقهة وأهل الكلام والمعتزلة أن الولاية قد انقرضت أو أن عدد الأولياء قد نقص أو أن علم الباطن قد فقد فإنه يوجع أدبا وينفى من الأرض فإن كف عن ذلك وإلا قتل لأنه كذب الكتاب والسنة وما انعقد عليه الإجماع • ولقد قدمت كثرا من ذلك صدر هذا الكتاب (هذا كلامـه) • ثم قال : أما الاجماع فإجماع أهل السنة والجماعة على أن العلماء ورثة الأنبياء وأنهم أبدال الرسل ••) (١) وعندي أن نص القشيري الذي قبل هذا يدل على أنه يقول بما نسب هنا إلى غلاة المتفقهة وأهل الكلام والاعتزال ، ثم إن استدلال الشيخ عام ودعواه خاصة إذ لم ينازع أحد في كون العلماء ورثة الأنبياء ، وإنما النزاع في الوراثة الخاصة التى أشار إليها بعلم الباطن •

هذا مع أن ولده الشيخ سيدي محمد الذي ينادي باستمرار الولاية بالمعنى الخاص الذي قصده يوافق القشيري ومن جاء بعده في أن الأمر في الطريقة الصوفية أصبح مختلطا إلى حد يصعب معه التمييز بين الصادق والمدعي ويقول بعد وصف لمن سماهم بالمتشيخين والمتصدرين للتربية طلبا للحظوظ النفسية .: (وأما الصديقون فقلوا وغابوا فلا ظهور لهم إلا بعناية مع أنه لم يخل مكان من أهل الولاية إذ لم ينقص لهم عدد ولم ينضب لهم مدد بل والله ماخاب صادق الطلب لهم) (٢)

ويضيف في جنة المريد رادا على من سماهم بقراء الزمن في إنكارهم لطريقه الصوفية فيقول : (ولعمري لمن أعجب العجاب وموجب الحيرة للألباب التفات السالك إلى مثل هؤلاء من قراء الزمن المنكرين لهذه الطائفة ومن لم ينكرها منهم رأسا أنكر وجودها في هذا العصـر وشنع على سالكيها ورآى أن الاشتغال بعلم الرسوم أولى من

---

(١) جذوة الأنوار ص١١٢ ويراجع كما أشار صاحب النص في نفس المرجع ص٢. ٥ و ٧ ، ٣٨ •

(٢) الغلاوية ص ١٧٤ •

الاشتغال بعلم الصوفية) (١) ويؤكد هذا المعنى في نفس الكتاب عدة مرات(٢) وفي غيره من كتبه (٣) وتبعه من جاء بعده من شيوخ القادرية حيث ينقل صاحب الضياء في عدة مناسبات توارث الطريقة والتربية إلى آخر الأبد ومن ذلك ما نقله : أن الشيخ محمد فاضل قال :

(قد أعطاني الله في أبنائي أن جعلهم خلفاء أولياء الله في هذه الأرض وأن لا تخرج منهم الخصوصية إلى منتهى الدنيا) (٤) ويقول الشيخ التراد موجها كلام من قال بأن التسليك على الطريقة الصوفية توقف ورادا لقوله ذلك على الإطلاق :

(فما التصوف يري منقطعا ولم يخب داع إليه قد دعا

ومن بدا له انقطاعه بما يقوله بعض فحول العلماء

فما درى خطا به الذي اصطفي فإنه حث على التصوف

قد قال ذا توجعا ورحمه لما رأى قلة من قدأمه

إلى أن يقول :

(فما إلى انقطاعه سبيل لوكان لا يقبل ذا التأويل

لأن ما قطع ليس يستحيل تجديده من فضل مولانا الجليل) (٥)

---

(١) جنة المريد ص ١٢ .

(٢) نفسه ص ١١٦ و ١٢٩ و ١٧٤ . ١٨٥ .

(٣) الطرائف ص ٥١ . ٥٧ و ١١٧ . و ١٥٣ .

(٤) الضياء ص ٢٥٥ .

(٥) نيل المراد ص ٣٠ .

نقـــــــــــــد

فهذه بعض نصوصهم الدالة على تمسكهم بعدم ختم الولاية بالمعنى الذي أراده بعض العلماء وهو انقطاع التربية الصوفية منذ قرون وأنه إن حصلت فترة في التسليك والتربية الصوفية فإنه لا يمنع ذلك ظهور مجددين في هذا المجال وهم المجددون كما تقدم بيانه حسب دعواهم ثم إنهم لا يوافقون ابن عربي في اعتباره لنفسه خاتم الأولياء بالمعنى الذي تقدم أيضا توضيحه إذ إنهم هم ومن دخل في طريقهم وسلك مسالكهم سيصل بالجذب أو التسليك إلى الولاية وبالتالي يكون ملهما ومكاشفا ومطلعا على الغيب ٠ وعليه فما قصده ابن عربي وغيره من الفوز بمنصب خاتم الأولياء لم يحصل لهم لكثرة المطالبين بهذا المنصب ، على أن بعض العلماء اعتبر هذه الدعوى وما ترتب عليها من باب الزندقة والتحايل على فتح باب النبوة بل وإلى تفضيل هذا المدعى على الأنبياء (١) ٠

ويضيف بعض الباحثين في ختم النبوة بعد أن وصف أصحاب هؤلاء الداعين لعقيدة ختم الولاية وفتح باب الوحي بأي صورة بأنهم من الغلاة وأن فكرتهم التي صوروها لا تكاد تستقيم من الوجهة الدينية النظرية أو العقلية فيقول : (والواقع أن لا وجه لتسمية ما يؤتاه الأولياء من الإلهامات والخواطر وحيا ، فمع ما فيه من الخلط بين مفهوم الولاية والنبوة فإن فيه مخالفة للواقع فوحي الأنبياء كان ينزل به ملك خاص لا مطلق الملائكه وكان للصحابة أحوال مع الملائكة في لقائهم والحديث معهم (٢) دون أن يسموا ذلك وحيا أو يسمو أنفسهم أنبياء على أي معنى حملت هذه التسمية وتنتهي المسألة كما قلنا إلى أن تكون مجرد تلاعب بالاسماء فتسمى الأولياء أنبياء وتسمى إلهاماتهم وحيا وكم في مثل ذلك من إيهامات لا مبرر لها وعلى هذا

---

(١) الصفدية جـ ١ ص ٢٤٩ وما بعدها ٠ ومجموع الفتاوى جـ ١١ ص ٢٢٦ وما بعدها٠

(٢) ختم النبوة بالبنوة المحمدية ص ٩٦ . ٩٧ وانظر في الأحوال المذكورة للصحابة مع الملائكة ولقائهم والحديث معهم ٠

من المجاز لا حقيقة فيه ولا مبرر له ولا يقبله العقل لما فيه من الخروج عن الحقائق على ضرب والخلط بينها ولا يقبله الدين لما فيه من المخالفة الصريحة لصريح الكتاب والسنة في ختم الأنبياء مطلقا بالنبي صلى الله عليه وسلم) (١) وقد أدى فشو هذه العقيده في المحيط الصوفي إلى مخاطر كثيرة وأضرار جسيمة في الدين والأنفس والبلاد حيث قامت عليها البابية والبهائية والقاديانية وفروعها من عباد المادة وخدام الاستعمار والكفار بأنواع الأساليب والحيل على حساب هدم الشريعة الإسلامية من أصولها • لذا ينبغي للمسلم التوقف والحذر من كل ما تشم منه رائحة هذه العقيدة الفاسدة من الأقوال والأعمال والله أعلم •

(١) نفس المرجع عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ص ٩٨ وما بعدها •

المبحث الثاني : التصرف في الكون ·

ويشتمل على تمهيد ومطلبين ·

التمهيـــد : في تعريف التصرف لغة ، واصطلاحا عند الصوفية

المطلب الأول : عقيدة القادرية في التصرف في الكون ·

المطلب الثاني : التصرف في الكون بالحيل والأسباب ·

التمهيـــــــــد

التصرف لغة :

قال في القاموس المحيط : (وصرفته في الأمر تصريفا فتصرف قلبته فتقلب) (١)
وقال في الصحاح : (الصرف : التوبة • يقال : لا يقبل منه صرف ولا عدل • قال يونس : فالصرف الحيلة • ومنه قولهم إنه يتصرف في الأمور وقال تعالى ﴿ فما يستطيعون صرفا ولا نصرا) (٢) وقال الألوسي في تفسير الآية - بعد أن بين أوجه الإعراب فيها وأنها تتضمن تهكما بعبدة الأوثان الذين كانوا يظنون أنها تغني عنهم من الله شيئا بأن تصرف عنهم العذاب أو تنصرهم . قال : (فإن أصل الصرف رد الشيء من حالة إلى أخرى وإطلاقه على الحيلة أو التوبة مجاز ، والمراد : فما تملكون دفعا للعذاب قبل حلوله ، (ولا نصرا) أي فردا من أفراد النصر أي العون لا من جهة أنفسكم ولا من جهة غيركم بعد حلوله) (٣) •

وأضاف صاحب الصحاح : (وصرفت الرجل في أمري تصريفا فتصرف فيه) • فالتصريف بالنسبة للخلق نوع من التدبير والحيل التي في مقدور المخلوقات جبلة أو كسبا •

التصرف في اصطلاح الصوفية :

والتصرف في الكون عند الصوفية قد يشمل المعنيين المذكورين سواء ادعوا واسطـــة أو لم يذكروا واسطة ، وسواء نسبوا التأثير إلى أنفسهم أو إلى الله تعالى بوسائط • ومن أعظم وسائطهم في دعوى التصرف في الكون القول بالقطبية أو القطبية الكبرى وقـد تقـدم تأثرهـم بغلاة الشيعة في هـذه العقيـدة • ويعـرف القطب كمـا في

---

(١) القاموس المحيط جـ ٣ ص ١٦١ . ١٦٢ •
(٢) الفرقان الآية ١٩ •
(٣) روح المعانى جـ ١٨ ص ٢٥٣ •
(٤) الصحاح للجوهري جـ ٤ ص ١٣٨٥ . ١٣٨٦ •

التعريفات للجرجاني بما يأتي : قال : (القطب : وقد يسمى غوثا باعتبار التجاء الملهوف (١) إليه وهو عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله في كل زمان أعطاه الطلسم الأعظم من لدنه وهو يسري في الكون وأعيانه الباطنه والظاهرة سريان الروح في الجسد بيده قسطاس الفيض الأعم ، وزنه يتبع علمه ، وعمله يتبع علم الحق ، وعلم الحق يتبع الماهيات الغير المجعولة ، فهو يفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل ...)

إلى أن قال : (وأما القطبية الكبرى فهي مرتبه قطب الأقطاب وهو باطن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلا يكون إلا لورثته لاختصاصه عليه الصلاة والسلام بالأكملية ، فلا يكون خاتم الولاية وقطب الأقطاب إلاعلى باطن خاتم النبوة) (١)

تعقيب : هذا التعريف مع ما فيه من الألفاظ الغامضة والمجملة فإنه يجعل الغوث الذي هو القطب عند الاستغاثة به واحدا على خلاف عندهم في كونهما أعني القطب والغوث مترادفين أو متغايرين . ثم يقول بأنه يوجد قطب الأقطاب وهذا يعني وجود أقطاب آخرين غير القطب فبطل كونه واحدا . والذي يظهر من التعريف أنه يريد إعطاء عقيدة وحدة الوجود تعريفا معميا فلم يفلح . وهي فكرة كما تقدم عن ابن خلدون : لا تستقيم عقلا ولا حجة عليهاشرعا ، وللسيوطي رسالة سماها : الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال أورد فيها آثارا في مسند الإمام أحمد والطبراني وتاريخ ابن عساكر والخلال في كتاب كرامات الأولياء وغير هؤلاء من الجامعين للأخبار الذين لم يلتزموا الصحة فيما ينقلونه ، وما لم يتكلموا هم فيه بما يضعف روايته في أثناء سياقهم لروايته لم يسلم من إشارة من السيوطي نفسة تدل على ضعفه (٢) ونقل السيوطي أيضا في كتابه مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة فيما نقله من كتاب السنة للألكائي قال : (وأخرج عن أحمد بن حنبل أنه قيل له هل لله أبدال في الأرض ؟ قال نعم ، قيل من هم قال : إن لم يكن أصحاب الحديث هم الأبدال فلا أعرف لله أبدالا) (٣) .

---

(١) كتاب التعريفات لمحمد الجرجاني ص ١٧٧ . ١٨٨ وسيأتي في هذا الفصل إن شاء الله الكلام على هذه الاستغاثة وما في معناها .

(٢) انظر : الحاوي للفتاوي جـ ٢ ص ٢٤١ . ٢٥٥ .

(٣) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ، للحافظ السيوطي ، نشر الجامعه الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٤٠٩ هـ ط ٣ ص ٦٨ .

وهؤلاء الأبدال الذين أرادهم الإمام أحمد ليسوا هم الأبدال الذين تقصدهم الصوفية ولذا يبقى قول الإمام ابن الجوزي إنه لا يصح شيىء من أحاديث الأبدال بدون معارض يساويه حيث إنه جمع الروايات الورادة فيهم وبين أن طرقها لا تخلو من وضاع متروك أو متهم ضعيف أو مجهول لا يعرف (١) ٠

وقال الشيخ محمد الخضر : (وفي الزرقاني : قال الحافظ بن حجر في (فتاواه) الأبدال وردت في عدة أخبار ، منها ما يصح وما لا فلا ، وأما القطب فورد في بعض الآثار ، وأما الغوث بالوصف المشتهرين الصوفية فلم يثبت) . إلى أن قال الشيخ محمد الخضر : (وما ذكر من كون القطب ورد في بعض الآثار دون وصفه المشتهر لم أر التصريح به في أثر مرفوع ولا موقوف ، إلا ما رواه الخطيب في تاريخ بغداد وابن عساكر في تاريخ دمشق ٠٠٠) ثم ذكر كلامهما المشتمل على ذكرالنقباء والنجباء ٠٠ وفيه : (ومسكن الغوث مكة) ثم قال بعد نقل ما قيل في القطب من أوصافه وتجواله ومسكنه وتصرفه . إلى أن قال : (قلت : وبما ذكر من صفاته وعزة الاطلاع عليه وانفراده تعلم بطلان دعوي المدعين للقطبانية في هذه العصور ، فإن الواحد منهم يكون ظهوره في الناس كالشمس ، وعنده أموال الملوك وسراريهم ، ويدعى القطبانية ويدعيها عشرون وأكثر في عصره ، كل واحد مثله في الصفة أو قريب منه ، وكل واحد من الجميع في مقر واحد يعلم مقره الجائي والماشي ، وهذا ليس فيه شيىء من صفة القطب الذي قال أهل الصوفية ، وقد مر عن الحافظ بن حجر أنه لم يرد فيه أثر وأن أوصافه إنما هي عند أهل الصوفية فلا تمكن دعوى أحد من هؤلاء المدعين اللهم إلا أن يكذبوا الأقدمين من علماء الصوفية المنشئين لهذه الاصطلاحات ، وإذا كذبوهم بطلت القطبانية بالمرة ، لأنها لم تثبت أو صافها إلا عنهم ، وبالله تعالى التوفيق) (٢) ٠ وما دامت القطبانية وما شاكلها من الألقاب التي

---

(١) انظر كتاب الموضوعات لابن الجوزي تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان نشر المكتبة السلفية في المدينة المنورة ط ١ سنة ١٣٨٦ هـ جـ ٢ ص ١٥٠ . ١٥٢ ٠

(٢) مشتهى الخارف الجاني ص ٥٠٥ . ٥٠٩ ٠

بها تدعى الصوفية التصرف في الكون بإنابة من الله تعالى للقطب أو الأقطاب باطلة فكذلك ما أثمرته من دعوى يكون باطلا أيضا ٠

ولكن نجد شيوخ القادرية القدماء والمحدثين كلا يدعى أو يدعى له أنه هو القطب بل إن بعضهم يأتي بالأسانيد ليبطل قطبانية غيره لتسلم له (١) ولم تسلم لأحد كما قال الشيخ محمد الخضر آنفا ٠

والذي يفهم من كلام الصوفية كما سيتضح إن شاء الله بنصوص من كتب القادرية في الآتي : أنهم يعتقدون أن الأولياء أعزاء على الله تعالى ومأمونون عنده على غيبه وأمره وملكه ، (ولذا فقد فوض إليهم التصرف وأنابهم عنه فيه فما قضوه للناس وافقهم الله عليه) (٢) وهذا أمر ظاهر في تعريف القطب ومن تحته من الالقاب المحدثة في الملة بأسمائها ونظامها ٠

---

(١) انظر الكوكب الوقاد ص ١٥ ـ ١٨ والضياء المستبين ص ٨ ـ ١٠ والطرائف ص ١٧٤ و ٣٥٥ و ٣٧٧ و ٤٢٥ وجنة المريد ص ٩٠ ـ ٩١ ٠

(٢) رسالة الشرك ومظاهره ص ١٣٤ ٠

المطلب الأول : عقيدة القادرية في التصرف في الكون

عرض : يقول محمد بن محمد ابن أحمد العلوي متوسلا بأربعين من أبناء الكنتي :

(فكم فيكم من سيد ذي تصرف لديه كأن الكون في قبضة اليد) (١)

وقال المختار الكنتي : (من أراد الله له الخير طوى عنه الصورة البشرية للولي وأشهده الحقيقة الربانية) (٢) ٠

ويقول صاحب الضياء في تعريفه بالشيخ محمد فاضل ومكانته : (ومن ذلك ما أخبرني الثقة العدل المأمون سيدي عيسى بن سيدي المختار بن سيدي محمد من أنه كان في زمن غائبا بأرض لادم (٣) فوجد فيهم الشيخ سيدي محمد بن أحمد الأسود فأتاه في جماعة من الناس فلما رآه الشيخ قادما قام إليه وهو يكرر الترحيب فلما وصل مجلسه أخذ سجادته وأرسلها معه هدية للشيخ حفظه الله ورعاه وقال له بمحضر الجم الغفير : ليس على ظهر الأرض اليوم من يعمر ويدمر إلا شيخك فسأله شيخ لادم جد بن الشين ، قال له : ما معنى يعمر ويدمر فقال : إن شاء أخذ تلك الأمة الحاملة لذلك الحطب وجعلها في مكاني هذا أو في مكانك أنت فصلحت لما تحن فيه وإن شاء أخذني أو أخذك فجعل من شاء منا في مكانها فلا يصلح بعد ذلك إلا لما تصلح له فتعجب جد بن الشين رحمه الله من ذلك وقال له : لقد أخفتنى منه) (٤) إلى أن قال (وكان يهب من يشاء من مريديه العلم ويعلمه له بلا مشقة وكان كثيرا ما يقول لأحد المريديـن قـد أعطيتك الفن الفلاني من فنون العلم فيهبه الله له بلا تعب ولا نصـب) (٥) وأنه أحيا الله على يديه من الأموات من صحت موته حتى إن بعض شيوخه يقوم له من قبره ويعانقه ، ومن بين من أحياهم الله على يديه من عاش وأنجب الأولاد ، وكما أحيا فإنه أمات الله بدعوته الكثير من الجبابرة وسلب من كان يطعن عليه ثم قبل توبته بعد أن ذكر له أنه يسمتثل أمره ٠ (٦) ٠

---

(١) المنة ص ٤٨ ٠

(٢) الكوكب الوقاد ص ١١٤ ٠

(٣) قبيلة من قبائل موريتانيا ٠

(٤) الضياء ص ٩ ٠

(٥) نفسه ص ٣٢٧ . ٣٢٨ ٠

(٦) نفسه ص ٢٤٣ و ٣٣٢ . ٣٤١ ٠

ويقول الشيخ سيدي محمد الكنتي فيما نقله من سماعه عن والده في وصف الشيخ المربي الكامل : (أنه المحكم في الأكوان) (١) ٠

وأن والده الشيخ سيدي المختار الكنتي يعز ويذل وتقلب له الأعيان ويسلب صفة العلم عن العالم وصفة التدريس عن المدرس ٠ إلى أن قال في نقله عن والده معبرا عن جميل عباراته وقوة غوصه على المعاني قال : (٠٠٠ بل يجيء ذلك في غير الألفاظ والمعاني من إعزاز الذليل من الأشخاص باعتنائه به ونظره إليه وإقباله عليه بهمة عاملة وعناية كاملة كما هو مشهور لا يحتاج إلى تمثيل منصور لا يحتاج عليه لدليل ، وإذلال العزيز من أولي المراتب والأقدار والولايات بصرف العناية عنه والإعراض ونفض يد الإقبال منه فينحط ذو المرتبة من مرتبته ويذل ذو العزة بعد عزته ويسلب ذو الأحوال بعد ولايته) ٠ إلى أن قال : (كما شوهد ذلك كثيرا من أمثاله رضي الله عنه) . وضرب أمثلة من قلب الأعيان له وتذليل الأسد واللص كرامة له ٠٠٠ إلى أن قال : (قال شيخ مشايخنا الشيخ عبد القادر الجيلي :

وأمري بأمر الله إن قلت كن يكن وكل بأمر الله فاحكم بقدرتي

وقال بعض المشايخ : بسم الله منك بمنزلة كن منه) (٢) يعنى من الله ويضيف في معرض التحذير من الاعتراض على الشيخ ظاهرا أو باطنا فيقول : (وقد كان لشيخنا مريد من بعض الأصحاب ممن له باع في العربية فاتفق أن أنشأ الشيخ قصيدة منها قولـــه :

أيا غارة المولى أجيبى وهلمي بنصر الإله ثم بالخيل والرجل ٠

فأعترض على لفظة (هلمي) وراجع فيها الشيخ رضوان الله عليه على سبيل الانتقاد وكنت أيا مئذ صبيا بالمكتب فغدا علينا الصاحب فزعا مذعورا وجعل يتصفح الألواح ولا يهتدي إلى كلمة بل لا يميز الحروف وجعل يبكي بكاء الثكلى ويتحرق

---

(١) الطرائف ص ٤٥٧ ٠

(٢) نفسه ص ٤٥٩ . ٤٦٠ ٠

تحرق الحبة في المقلى وتوجه إلى البيت مستشفعا بالشيخة إلى الشيخ في رد ما سلب منه فلزم كسرالبيت أياما فشفعت له عند الشيخ فرد ما كان عنده وحجر عليه التعليم فكان لايعلم طلبته فأقام على ذلك زمانا ثم صدق في عقد التوبة وأهدى واستشفع فرد عليه الإقراء ..) (١) . وقد تقدم عند ذكر الخلاف بين المختار بن بون والمختار الكنتي في الولاية وحدها وما يجب عند الكنتي من القطع بصدق الأولياء في إلهاماتهم وغيرها مما لا يخالف الكتاب والسنة كما بين في جذوة الأنوار (٢) في رده على ابن بون في تكفير القاطع بصحة كلامهم في ذلك إذ إنه يفضي إلى الحكم لهم بالعصمة كالأنبياء . تقدم أن المختار الكنتي توعد ابن بون بالسلب ولعله سلب عام من إيمان وعلم وعمر ومال كما تشهد لذلك الروايات المتواترة عن ابن بون عند وفاته أنه أشهد من كان معه من التلاميذ على أنه لم يحصل له شيء مما توعده به الكنتي فقال لهم :

إنه توعدني بسلب العمر وقد نيفت على المائة .

وتوعدني بسلب المال وتعلمون أن أموالي طائلة .

وتوعدني بسلب الإيمان فاسمعوا مني كلمة الشهادة التي سأموت عليها إن شاء الله .

ويشهد لما نقل متواترا في هذا السياق إطلاق ابن بون نفسه للفظ السلب في قوله يخاطب الشيخ سيدي المختار الكنتي :

(وكوني لم أذكر كذكرك لم يكن ليمنعني التوفيق من مانح لعطا

أتسلبني والله ما شـــاء مثبت إذا كنت في تعظيم نفسك مفرطا) (٣)

---

(١) جنة المريد ص ١٥٣ .

(٢) جذوة الأنوار ص ١٠ .

(٣) الوسيط ص ٢٨٢ .

ويفهم من كلام الكنتي في حذوة الأنوار أنه أراد سلب الايمان حيث إنه يقول : (يروى أنه من الذنوب ذنوب لا عقوبة لها إلا سوء الخاتمة . والعياذ بالله . : التكذيب بالولاية والطعن في المشايخ وادعاء الولاية) (١)

ويقول الشيخ ماء العينين بعد نقله لأدعية وتوسولات سماها: سر عبد القادر الجيلي (٢) .

قال : (وكتب لي شيخنا رضي الله عنه هذه الأبيات لما كمله لي وهي :

ولتقر سر الجيلي في المساء — وفي الصباح تكف من أعداء

وإن تكن عليه قد سرمدتا — صرفت في الكون بما أردتا) (٣) .

نقد :

هذه النصوص مصرحة بادعاء التصرف في الكون ، ومنها المطلق الذي ينسب التأثير في الفعل لنفس الشيخ دون ذكر لله تعالى ، ومنها ما ينسب التفويض من الله لذلك المدعي للتصرف بحكم ولايته وتسليط الله له ، ومنها ما ينسب ادعاء التصرف بالاستمرار على أدعية وأذكار زعم المدعي أنه جربها ولو لم تكن من الوارد عن الشارع .

وكل هذ الأقسام الثلاثة يشتمل على محاذير كبيرة تتراوح ما بين الكفر إلى سوء الأدب الذي يستحق صاحبه التأديب والتعزيز ذلك أنها أشتملت على التعدي على مقام الربوبية بادعاء الإحياء والإماتة وسلب ما هو هبة من الله لعبده من الإيمان والعلم والصفات الحميدة الأخرى ثم إنها اشتملت على ظلم ينزه الله أن يسلط صاحبه على شيء من كونه ومخلوقاته بتصرف إذ كيف يتصور في ميدان

---

(١) جذوة الانوار ص ١٠ .

(٢) مذهب المخوف على دعوات الحروف ص ٨١ وما بعدها .

(٣) نفسه ص ٨٤ .

الولاية والإنصاف التسبب في قتل رجل على أنه سرق بقرة أو ناقة ، أو سلبه الإيمان والعلم وصفة التدريس على أنه اعترض على لحن في اللغة أو حتى اغتاب شخصا ما .

الواقع أنها نصوص تسيء إلى من نسبت إليهم ومن نسبها إليهم عكس ما قصد منها ولا يرد كون جنس المذكور في هذه النصوص وقع بعضه لبعض الأنبياء إظهارا لمعجزته الواجب عليه إظهارها إبلاغا لرسالته ذلك أن أئمة الصوفية كما تقدم عن المختار الكنتي على خلاف قول القائل : ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي ، إذ عندهم أن الكرامة لا تصل إلى إحياء ميت أو وجود ولد من غير أب (١)

قال القشيري : (واعلم أن كثيرا من المقدورات يعلم اليوم قطعا أنه لا يجوز أن يظهر كرامة للأولياء ، وبضرورة أو شبه ضرورة يعلم ذلك ، فمنها حصول إنسان لا من أبوين ، قلب جماد بهيمة أو حيوانا ، وأمثال هذا كثير) (٢) ولننظر في كتاب الله تعالى وسنة رسوله المجتبى صلى الله عليه وسلم لنرى هل التصرف خاص بالله تعالى أم أنه يمكن أن يوجد من يتصرف في كون الله من دون الله أو مع الله أو بتفويض من الله تعالى ؟

التصرف في الكون على ضوء الكتاب والسنة :

يقول الله عز وجل آمرا نبيه وصفيه من خلقه أن يقول للناس على سبيل التقرير والرد على من استبعد أن يذل الله العزيز بقدرته وتصرفه في خلقه والرد كذلك على من ظن أن أحدا من الخلق مهما أعطي من المعجزات والخوارق يكون له تصرف مع الله تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ (٣)

---

(١) جذوة الانوار ص ١٠٨ والرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٦٦٠ وما بعدها .

(٢) الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٦٦٤ .

(٣) سورة ال عمران الآية (٢٦) .

ورد في سبب نزولها روايتان :

أولاهما : أنها رد على المنافقين الذين استبعدوا فتح الروم وفارس على يد المسلمين المجاهدين استعظاما لقوتهما المادية ٠

ثانيهما : أنها نزلت ردا على نصارى نجران ٠ قال القرطبي :

(وقيل : نزلت دامغة لباطل نصارى أهل نجران في قولهم إن عيسى هو الله ، وذلك أن هذه الأوصاف تبين لكل صحيح الفطرة أن عيسى ليس في شيء منها ، قال ابن اسحاق : أعلم الله عز وجل في هذه الآية بعنادهم وكفرهم وأن عيسى صلى الله عليه وسلم وإن كان الله تعالى أعطاه آيات تدل على نبوته من إحياء الموتى وغير ذلك فإن الله عز وجل هو المتفرد بهذه الأشياء) (١) ٠

---

(١) القرطبي جـ ٤ ص ٥٢ - ٥٣ ٠

وقال الطبري في تفسيره لنفس الآية قال أبو جعفر : (يعني بذلك يا مالك الملك ، يا من له ملك الدنيا والآخرة خالصا دون غيره (بيدك الخير) أي كل ذلك بيدك وإليك ، لا يقدر على ذلك أحد ، لأنك على كل شيء قديردون سائر خلقك) (١) .

وقال ابن كثير في نفس الآية : ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ الآية أي لك الملك كله أي أنت المعطي وأنت المانع الذي ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن ٠٠ أي أنت المتصرف في خلقك الفعال لما تريد كما رد تعالى على من يحكم عليه في أمر حيث قال : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ قال الله ردا عليهم ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ الآية أي نحن نتصرف فيما خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا مدافع ٠٠) (٢)

وقال الألوسي : (تؤتي الملك من تشاء) جملة مستأنفة مبينة لبعض وجوه التصرف الذي يستدعيه عليه مالكية الملك) ٠

وقال :(بيدك الخير) جملة مستأنفة ٠٠٠وتعريف الخير للتعميم وتقديم الخبر للتخصيص أي (بيدن) التي لا يكتنه كنهها وبقدرتك التي لا يقدر قدرها الخير كله تتصرف به أنت وحدك حسب مشيئتك لايتصرف به أحد غيرك ولا يملكه أحد سواك) (٣) ٠

وهذا رسول الله وأعز خلق الله على الله أوذي وهو يجاهد في سبيل الله فصدر منه ما يدل على استبعاد فلاح المشركين لقبح صنيعهم به صلى الله عليه وسلم فبين الله تعالى له أن ذلك المستبعد ليس لأحد سواه : (فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد وشج في رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله فأنزل الله عز وجل : (ليس لك من الأمر شيء) (٤)

قال ابن جرير الطبري في تأويل هذه الآية : (ليس إليك يا محمد من أمر خلقي

---

(١) تفسير الطبري جـ ٦ ص ٢٩٩ و ٣٠١ ٠
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٥٦ ٠
(٣) روح المعاني جـ ٣ ص ١١٤ . ١١٥ ٠
(٤) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة أحد والآية من سورة آل عمران ١٢٨ ٠

إلا أن تنفذ فيهم أمري وتنتهي فيهم إلى طاعتي ، وانما أمرهم إلي والقضاء فيهم بيدى دون غيري ...) (١) قيل ذلك لمن يمسح الدم عن وجهه ويقول : (رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) (٢) فماذا يمكن أن يقال لمن يدعى سلب إيمان مسلم أو يهدد بذلك من يخالفه في مسألة أو طريقة في الحياة والسلوك ؟

وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتلو على من طلب منه آية أو برهانا لا يقدر عليه إلا الله : ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى قل هل يستوى الأعمى والبصير﴾ (٣) .

قال القرطبي : (هذا جواب لقولهم : ﴿ لولا نزل عليه آية من ربه ﴾ فالمعنى : ليس عندي خزائن قدرته فأنزل ما اقترحتموه من الآيات ولا أعلم الغيب فأخبركم به ... وخزائن الله مقدوراته ، أي لا أملك أن أفعل كل ما أريد مما تقترحون فيها (٤)) وقال ابن كثير : (يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ أي لست أملكها) (٥) وقال تعالى لنبيه وصفيه من خلقه في شأن عمه أبي طالب : (إنك لا تهتدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) (٦) بل وقيل أمر صلى الله عليه وسلم أن يتبرأ من أي حول لنفسه لا جلبا لخير ولا دفعا لضر أو علم ما لم يعلمه الله تعالى ، جاء ذلك في آيات عديدة منها قوله تعالى : ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) (٧) .

فإذا كان هذا الخطاب لأقرب الأولياء وأعزهم على الله تعالى فإن غيره أولى أن لا يقدر على هداية أحد أو جلب نفع أو دفع ضر عن نفسه أو غيره من دون الله تعالى إلا إن أراد الكفر والكذب وما يشابه هاتين الخصلتين الذميمتين مما يتنافى

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ١٩٤ .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير .
(٣) الأنعام الآية ٥٠ .
(٤) القرطبي جـ ٦ ص ٤٣٠ .
(٥) ابن كثير جـ ٢ ص ١٣٤ .
(٦) القصص الآية ٥٦ .
(٧) الاعراف الآية ١٨٨ .

مع الولاية والقرب من الله تعالى • ثم إن نصوص الشريعة المحمدية مصرحة بكفر من نسب تأثيرا لمخلوق من دون الله تعالى أو مع الله تعالى إذ إن اعتقاد ذلك فيه من الشرك ما لا يخفى • وبيانه عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنه قال (صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال بنوء كذا وكذا فذلك كافربي مؤمن بالكوكب) (١) .

قال الحافظ بن حجر : (وهذا من الأحاديث الإلهية وهي تحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أخذها عن الله بلا واسطة أو بواسطة • وقوله : (مؤمن بي وكافر) يحتمل أن يكون المراد بالكفر هنا كفر الشرك بقرينة مقابلته بالإيمان ••• ويحتمل أن يكون المراد به كفر النعمة ••• وعلى الأول حمله كثير من أهل العلم ، وأعلى ما وقفت عليه من ذلك كلام الإمام الشافعي ، قال في (الام) (٢) : من قال مطرنا بنوء كذا وكذا على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من إضافة المطر إلى أنه مطر نوءكذا فذلك كفر كما قال رسول صلى الله عليه وسلم لأن النوء وقت والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا ، ومن قال مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا في وقت كذا فلا يكون كفرا ، وغيره من الكلام أحب إلي منه ، يعنى حسما للمادة ، وعلى ذلك يحمل إطلاق الحديث) (٣) .

وقال بن العربي : (••• من انتظر المطر من الأنواء على أنها فاعلة له دون الله فهو كفر ومن اعتقد أنها فاعلة بما جعل الله فيها فهو كافر لأنه لا يصح الخلق والأمر إلا لله كما قال : (ألا له الخلق والأمر) (٤) ومن انتظرها وتوكف المطر منها

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الاستسقاء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ الواقعة الآية ٨٢ الحديث رقم : ١٠٣٨ •

(٢) الأم للإمام الشافعي •

(٣) فتح الباري جـ ٢ ص ٥٢٣ •

(٤) سورة الأعراف الآية ٥٤ •

على أنه عادة أجراها الله تعالى فلا شيء عليه ...) (١) فهذه ثلاث حالات لمن نسب التصرف للمخلوق في كون الله تعالى بما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فالكفر لمن اعتقد ذلك فيه من دون الله أو مع الله والثالثة من لم يعتقد ذلك وإنما أطلق اللفظ وأراد به عادة أو سببا من الأسباب المحصلة غالبا لأمرما فهذه الحالة أقل ما يقال فيها إنها سوء أدب منعه الشرع لما فيه من الإيهام (٢) ويجوز إطلاق الشرك والكفر على صاحبها تبعا للحديث (٣) . وهذا الحديث وحديث المتألى على الله تعالى المخرج في صحيح مسلم وغيره وما في معناهما مما تقدم من الآيات المفسرة بالسنة وكلام الائمة نصوص واضحة في إبطال أي دعوى في تصرف في الكون من دون الله أو مع الله أو مع سبب وعادة على الأطلاق لكثرة تخلف ذلك تبعا لمشيئة الله وإرادته وهي كذلك نصوص واضحة في اختصاص الله تعالى وحده بالتصرف في الكون وهي نصوص كذلك دالة على كفر معتقد خلافها ومشابهته لمعتقدات أهل الجاهلية (٤) وأن مدعى ذلك لنفسه أو لغيره أظهر جهله بالكتاب والسنة أو تعمد الكذب والافتراء على الله تعالى . ونسأل الله تعالى أن يتوب علينا وعلى المسلمين حتى نصحح عقائدنا ومقاصدنا وخاصة في مثل هذه الأمور المتعلقه بجانب الربوبية والألوهية حيث إن كثيرا من خواص الناس الداخلين في حكم العوام بافسادهم لعقائد الناس وعدم تحرزهم من التلبيس والايهام يعتقدون لأنفسهم أو لشيوخهم ما يمكن الحكم عليهم به بالخروج من الملة . والخواتيم بيد الله تعالى .

قال الميلى : (ومن وقف على مقاصد الكثير من عوامنا في نسبة الأفعال إلى الأولياء ، وتصرفهم في الكون ، لم يشك في انطباق الحالة الثانية عليهم (٥) ... بل منهم من ينتهي به الأمر إلى الحالة الأولى ، فيعتقد في الولي أنه يفعل بقوته لا بقوة الله ، وتجد من المخذولين من يدعى ذلك لنفسه) (٦) .

---

(١) شرح الزرقاني على موطإ الإمام مالك جـ ١ ص ٣٨٩ .

(٢) انظر نفس المرجع .

(٣) أنظر فتح البارى ، جـ ٢ ص ٥٢٤ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ٥٩ . ٦١ .

(٥) الحالة الثانية : وهي نسبة التأثير إلى المخلوق لكن بجعل الله وتفويضه لذلك الولي .

(٦) رسالة الشرك ومظاهره ص ١٣٤ .

المطلب الثاني : التصرف في الكون بالحيل والأسباب

وقد جاء في التعريف اللغوي السابق للتصرف أنه يأتي بمعنى الحيلة ، والحيل كثيرة ومنها الجائز شرعا ومنها ما يحرم ومنها ما هو من الكبائر ، ومنها ما هو شرك وكفر ، اعتقادا وعملا واكتسابا ومنها ما هو ادعاء مستحيل عقلا وشرعا ٠

والذي يهم في هذا المطلب بيان موقف القادرية من اكتساب العلوم التي بها تكون دعوى التصرف واستعمالها ونشرها ٠ ونقد مذاهبهم في ذلك على ضوء الكتاب والسنة وكلام أعلام الائمة ٠

يؤخذ من رسالة اللمتوني إلى السيوطي في أواخر القرن التاسع الهجري أن هذه العلوم التي يدعى بها معرفة الأمور الغائبة والتصرف في القلوب بالعزائم والرقيا وغير ذلك كانت موجودة في البيئة التي يتناولها هذا البحث حيث يقول صاحب الرسالة : (ومنهم من اكتسابه بالطلسمات والرقي لباب المحبة والنكاح والوجاهة عند العامة والخاصة ، ومن غضبوا عليه يفعلون به ما يقدرون من مكائد السوء فمرة يوافق فعلهم بالقدر ويقولون هذا فعلنا) (١) وذكر من حيلهم في الكشف عن السارق وغيره ثم قال : (ومنهم من يمشي بين العوام ويناجي كل من يلقاه : ألا أريك رقبة العين والنكاح ودخلة القلوب والوجه عند السلاطين ؟ وأمثال ذلك) (٢) .

قلت : وهذه المعارف لا تخلو أن تكون رقي مشروعة أو محرمة لما اشتملت عليه من الوسائل والعزائم والألفاظ المجهولة المعنى ٠ أو أن تكون من باب السحر والدجل والكهانة والعرافة وغير ذلك من معارف الجاهلية التي حرمها الإسلام وأبطلها وكفر معتقدها وجعل حده ضربة بالسيف (٣) أو أبطلها وأبطل عمل من جاء إلى متعاطيها ولو لم يصدقه إلى أن يتوب (٤) .

---

(١) الحاوي للفتاوي جـ ١ ص ٢٨٨ بالقدر (والصواب . القدر)

(٢) نفسه ص ٢٨٩ ٠

(٣) إشارة إلى حديث الترمذي في كتاب الحدود ، باب ما جاء في حد الساحر ، عن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ (حد الساحر ضربة بالسيف) أنظر الكلام عليه في تحفة الاحوذي شرح جامع الترمذي جـ ٥ ص ٢٣ ٠

(٤) إشارة إلى حديث مسلم المخرج في كتاب السلام ، باب تحريم الكهانة واتيان الكهان ، وهو عن نافع عن صفية عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من أتي عرافا فسأله عن شيىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة) .

أما الرقية المشروعة بشروطها المعروفة وهي أن تكون بكتاب الله أو بما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بكلام عربي طيب مفهوم المعنى لا شرك فيه فهذه لا يعترض عليها وليست داخلة في صميم هذا المطلب لأن النبي صلى الله عليه وسلم رقي ورقي وأقر عليها (١) وقال صلى الله عليه وسلم كما فى حديث عوف بن مالك الاشجعي قال : (كنا نرقي في الجاهلية فقلنا يا رسول الله كيف تري في ذلك فقال : أعرضوا علي رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك) (٢) .

قال المازري : (جميع الرقي جائزة إذا كانت بكتاب الله أو بذكر ومنهي عنها إذا كانت باللغة العجمية أو بما لا يدرى معناه لجواز أن يكون فيه كفر) (٣) وقال الحافظ بن عبد البر : (وكما أنه من أعطي الدعاء وفتح عليه فلم يكد يحرم الإجابة ، كذلك الرقى والتداوي من ألهم شيئا من ذلك وفعله ربما كان ذلك سببا لفرجه) (٤) هذا مع اعتقاد أنها لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى ، كما هو واضح من كلام العلماء (٥) .

عـــــــرض

وهذه نصوص القادرية الموضحة لموقفهم من هذه العلوم التي يسمونها علوم السر.
يقول المختار الكنتي في الشموس الأحمدية : (فصل في العاديات وما والاها وأن العين كسائر العادات وأن السحر تخيل ولا حقيقة له ، وأما علم التراكيب والأوفاق فليس من الدين في شيء وينبغي النظر فيه بعد الفراغ بشرط الشيخ والتقوى وتمام القريحة مع تجنب أسماء الجن والطوالع والفاظ العجمية وإلا فشرك . والكيمياء والاسطرلاب واستخراج الكنوز حرام وآلات الوقت وبيت القطب عمل من لاخلاق له كالتصوير ، وقنية الكلاب لم يكن من عمل السلف والميسر والأزلام والأنصاب أمر جاهلي مستحله كافر) (٦) قلت : لعل العبارة (أن السحر تخيل ولا حقيقة له) نمله على صاحب النص .

---

(١) صحيح مسلم ، بشرح النووي جـ ١٤ ص ١٦٩ . وما بعدها . والتمهيد لابن عبد البر جـ ٢ ص ٢٦٦ وما بعدها و جـ ٨ ص ١٢٩ وما بعدها .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب السلام ، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٤ ص ١٦٩ .

(٤) التمهيد جـ٢ ٨ ص ٢٧٠ .

(٥) انظر شرح الزرقاني على موطإ مالك جـ ٤ ص ٣٢٣ .

(٦) الشموس الأحمدية ص ٢٠ . ٢١ قلت : هذه العلوم المذكورة في هذا النص شرحها ابن خلدون في المقدمة وأبطل الكيمياء وما في معناها إلا أن التجارب المادية في هذا العصر غيرت الكثير مما كان الناس يعتقدون استحالته أو قصره على الروحانيات فقط ، انظر : مقدمة ابن خلدون ص ٩٢٣ وما بعدها ، ويختلف المقصود بالكيمياء عندهم عن الكيمياء في عصرنا الحديث .

ولعل ما ذكر في ال تحريف النساخ من كون السمر للحقيقة له من إنه توجد له نصوص واضحة في كونه يذهب مذهب أهل السنة في كون السحر له حقيقة وأن ذلك مما صح شرعا ولا يستحيل عقلا إلا إن كان رجع عن أحد القولين إلى الآخر فمن نصوصه في ذلك قوله في الكوكب الوقا د : .

(واختلف علماء السلف في ثبوت السحر ونفيه فمذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على ثبوت السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة خلافا لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقيقة لها وقد ذكره الله تعالى في كتابه وذكر أنه مما يتعلم وذكر فيه أن مستعمله يكفر بارتكابه وأنه يفرق بين المرء وزوجه وهذا كله لا يمكن أن يكون مما لا حقيقة له ... ولا يستنكر في العقل أن الله تعالى يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو المزج بين أقوال لا يعرفها إلا الساحر وأنه لا فاعل إلا الله تعالى وما يقع من ذلك فهو عادة أجراها على يد من يشاء من عباده) (١) .

ويقول في جواب لسؤال عن بعض صور الدجل المنتشر بين الناس : (وأما (البوتيات (٢) التي أولها أبادخي أبادخت فهذيان من العوام لا يلتفت إليه فإنما ذلك مختص بالأسماء الحسنى فإنه قد ورد وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن لله تسعة وتسعين . اسما . من أحصاها دخل الجنة وفي رواية من حفظها دخل الجنة) (٣) .

وأما هذه الأسماء المنظومة في (البونيات) فقد كانت اليهود والنصاري تحفظها ، وكلما لم يرد عن الله ورسوله وسلف الأمة فهو باطل لا يلتفت إليه ولا يعول عليه لقوله صلى الله عليه وسلم العلوم ثلاثة : آية محكمة وسنة قائمة وفريضة عادلة وما سوى ذلك فضل) (٤) وقد ذكر الشيخ سيدي محمد الكنتي أن والده الشيخ

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١٠٣ . ١٠٤ .

(٢) لم تتضح لي هذه الكلمه هل هي نسبة إلى البوني صاحب أسرار الحروف أم إلى البيوتات .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب إن لله مائة اسم إلا واحد . الحديث رقم : ٧٣٢٩ وفي كتاب الدعوات ٦٤١٠ .

(٤) الكوكب الوقاد ص ١٤٠ والحديث خرجه الحاكم في أول كتاب الفرائض من مستدركه . وضعفه الذهبي ج ٤ ص ٣٣٢ .

سيدي المختار اشتغل بالنظر في علم الأوفاق وأن الله خيره بين الفتح عليه في علم الجدول والفتح عليه في الذكر والدعاء فاختار الذكر والدعاء بحضور (١) .

ويقول الشيخ سيدي محمد الكنتي عن نفسه : (وقد أدركت أنا بفتح الله وإلهامه من علم الأوفاق والأشكال ما لم يدركه إلا من أمد بفتح من الله وإلهام تام ...) (٢) .

والذي يطالع كتاباته في هذه الفنون يجد أنه فائق فيها ويدافع كثيرا عنها ويفصل القول في بعضها ويعترض على من تقدمه في التأليف فيها تصويبا أو توضيحا (٣) .

فيقول بعد نقله لموقف والده منها : إن الأخ الفاضل (سيدي طلب منه تفصيل القول فيها فقال : اعلم أن هذه الأشياء تلتبس بالسحر من حيث فعلها في خرق العوائد وجزئياتها التراكيب المعبر عنها بالسيما والهيميا والطلسمات والأوفاق والخواص المنسوبة للحقائق والخواص المنسوبة للنفس والرقى والعزائم والاستخدامات فهذه عشرة حقائق ثلاث منها سحر) (٤) وفصل القول فيه قائلا :

(وليس الكلام في التكفير بالسحر من جهة ما يترتب عليه وإلا لوجب التفصيل فقد يكون كفرا في صورة واجبا في صورة أخرى ... وللسحرة فصول كثيرة في كتبهم يقطع من جهة الشرع أنها ليست معاصي ولا كفرا كما أن لهم ما يقطع بأنه كفر فيجب حينئذ التفصيل كما قاله الشافعي رضي الله عنه) (٥) .

وشرح الطلسمات وقال بأن (حقيقتها نفس أسماء خاصة لها تعلق بالافلاك والكواكب أنزلت على نبى الله إدريس عليه السلام ...) (٦) .

---

(١) الطرائف ص ٣٠١ .

(٢) نفسه ص ٣٠١ . ٣٠٢ .

(٣) الطرائف ص ٢٨٥ . ٣١٩ .

(٤) نفسه ص ٢٨٥ . ٢٨٦ .

(٥) نفسه ص ٢٨٨ وانظر في التفصيل المشار إليه ، صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٤ ص ١٩٦ وما بعدها .

(٦) نفسه ص ٢٩٠ . ٢٩١ ، وقارن بما في الحاوي للفتاوي جـ ١ ص ٣٦٧ . ٣٦٨ .

وشرح الأوفاق وقال بأنها ترجع إلى مناسبات الأعداد وجعلها على شكل مخصوص ، قال : (أخبرني الشيخ أبو الفيض الوالد رضوان الله عليه قال الأصل في الأوفاق هو أن الله جلت قدرته ربط التدبيرات الكونية بأسمائه القدسيه فأثبت لها في عالم الملكوت حقائق عاملة في عالم الكون والفساد بالارتباط العادي إذ الاسماء عنوان الصفات ..) وشرح ذلك مبينا أن للأسماء ثلاث قوى : (القوة الحقيقية والقوة العددية والقوة الرقمية) ثم شرح أنواع التطلع الى معرفة علم الغيب من كهانة وعرافة وزجر للطير والتنجيم والخط في الرمل (١) .

وهكذا يفتخر الشيخ سيدي محمد الكنتي بمعرفته بهذه العلوم ويفرد لها المؤلفات (٢) وتعتمد الفاضلية أيضا على كتبه (٣) فنجد الشيخ محمد فاضل يؤلف وينشرعلوم أسرار أسماء الله تعالى وخواصها وخواص آي الكتاب العزيز وأسرار الحروف والأدعية ويخلط ذلك بالأسماء الأعجمية وينظمها في أوراد وأدعية لمريديه (٤) .

قال صاحب الضياء : (وله في علم أسرار المناسبة في الحروف من العلم وما يقدر به على تخريج كل علم من أشكال هذه الحروف الهجائية) (٥) .

وهذا الشيخ ماء العينيين ينص على أنه تعلم هذه العلوم من والده ، وينشرها في كتبه جازما بآثارها وتأثيرها في أماكن كثيرة من مؤلفاته عازما على من وقف على شيىء منها أن لا يستعمله إلا فيما يرضى الله تبارك وتعالى (٦) .

---

(١) نفسه ص ٢٩٤ . ٢٩٦ .

(٢) نعت البديات ص ٢١٨ وكشف اللبس ص ٢٤ . ٣١ .

(٣) الضياء ص ٢١١ . ٢١٢ ونعت البدايات ص ٦٢ و ١٤٦ و ٢٤٤ .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه ص ٢١٢ ولعل المقصود : ما يقدر به .

(٦) مذهب الخوف على دعوات الحروف ص ٢ وما بعدها و ٦٤ . ٦٥ ونعت البدايات ص ٢٠٠ وهامشة فاتق الرتق ص ٢٦٤ .

وكذلك نجد الشيخ سعد أبيه يفتخر بحيازتها وإتقانها منزها أهل العلم عن الجهل بها أو القول بتحريمها ، ذاكرا نسبة الأسماء الأعجمية إلى النبي صلى الله عليه وسلم تارة وإلى غيره من الأنبياء والفلاسفة تارة أخرى في أسانيد منقطعة لايليق بأهل العلم ذكرها وأحرى أدعاء تواتر ما روي بها (١) .

ويقول الشيخ ماء العينين إنه قابل في حجته الشيخ عبد الرحمن أفندي في مكة المكرمة وأنه قال له فيما قال له : (إن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنى أن عندك السر الذى به قامت السموات والأرضون وقال لي اني أقول لك إنك تعطينيه وتعطيني سر الحاء ...) (٢) ثم ذكر أنه امتثل تلك الرؤيا التي ذكر له ذلك الشيخ وأعطاه ما أمره به النبي صلى الله عليه وسلم ثم ذكر أدعية وأسماء حسنى قال بأنها مشتملة على سر الحاء (٣) الذي أمر بإعطائه للشيخ عبد الرحمن أفندي في زعم رؤياه المشار إليها ويقول الشيخ سعد أبيه : (قلت : ولولا ما وجب من كتم الأسرار لكتبت ها هنا من الأسماء الحسنى ومن الآيات المحكمة والأدعية المأثورة مالوتلي على جبل لذاب أو على ظالم لمات من حينه أوزال عقله أو ابتلعته الأرض أو وقع فيه غير ذلك مما أراده التالي من المهلكات والمصائب في النفس والأهل والمال والولد لكن أنشدوا :

من سارروه فأبدى السرمنكشفا لم يأمنوه على الأسرار ماعاشا) (٤) .

---

(١) كشف اللبس ص ٢٤ ومابعدها وانظر جواب الإمام السيوطي عن هذه الأسماء وما رواه فيها ، الحاوي جـ ١ ص ٣٦٧ .

(٢) نعت البدايات ص ١٩٩ - ٢٠٠ - ولم نجد لعبد الرحمن أفندي هذا ترجمة في الأعلام .

(٣) نفسه ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٤) كشف اللبس عن المسائل الخمس ص ١٢ - ١٣ .

نقــــــــــد :

هذه بعض نصوصهم التي يفهم منها ادعاؤهم للتصرف في الكون بهذه العلوم وما ادعوه بها داخل في مقدور المخلوقات ، على أنها منافية للولاية إذ هي تتراوح بين الكفر أو الكبيرة أو الحرمة أو الكراهة على خلاف في ذلك ، وقد جمعها الشيخ سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم وسماها بعلوم الشر بدل علوم السر على أنه يوافقهم على وجود علوم السر وحصرها في أسماء الله الحسنى وعدم جواز استعمالها في غير مرضاة الله تعالى (١)

قال : (وبشرن ذوي علوم الشر بميتة السوء وذل الفقر) (٢)

وقال رحمه الله :(اعلم أن الباطل علوم الشر وهو ما فيه إيصال نفع أو ضر إلى من لا يستحقهما في الشرع أوالتشوف إلى الغيب أو التصرف باسم من أسماء الله تعالى في أمر دنيوي ••• وكل اسم من أسماء الله تعالى له سر يخصه دون غيره فمنها ما يستنزل به المطر ، ومنها ما تسكن به الريح ، ومنها ما يمشى به فوق الماء ، ومنها ما يطار به في الهواء ، ومنها ما يبرأ به الأكمه والأبرص وهذا هو معنى قولهم : باسم الله منك بمنزلة كن من الله ••• فاستعمال أسمائه سبحانه وتعالى في الحق يكون من علوم السر ولو في دنيوي دعت إليه الضرورة ، واستعمالها في غير الحق يكون من علوم الشر كما يفعله بعض الناس لنصر الظالمين في الحروب مع أنه ربما لم يحصل المراد منه ويفتضح عند الفئتين المتقاتلين) (٣) .

وقد اعترض الشيخ سيدي محمد بن الشيخ المختار الكنتي على تعريف الشيخ سيدي عبد الله لعلوم الشر هذا ، ووصفه بأنه غير جامع وغير مانع وحاول إخراج بعض السحر وبعض التشوف إلى علم الغيب من الحد المذكور (٤) . ويمكن إبطال هذه النصوص بالنقد الذاتي لها من خلال الأمور الآتية •

---

(١) رشد الغافل ص ٧ ـ ٤٢ •

(٢) نفسه ص ٩ •

(٣) نفسه ص ٧ ـ ٩ •

(٤) الطرائف ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ •

(١) أنهم عدوها بأسمائها أعني علوم السر أو الشر وقالوا بأنها ليست من الدين وليست من علوم السلف ولا يعول على ما خالف علوم السلف .

وعليه فلا معنى لتجويز النظر فيها بعد الفراغ بشرط الشيخ أو التقوى ، ذلك أن هذه العلوم منافية للتقوى فلا يعقل اشتراط المنافى للشيىء فيه .

(٢) أنهم بعد عدهم لها بأسمائها وشرحهم لها نصوا على أنها تلتبس بالسحر وحيث لا مفرق إلا ادعاء التقوى ، وقد انتفت التقوى بمجرد الاشتغال بهذه العلوم وبقي اللبس ، والشبهة قائمة وقد أمرنا من الشارع باتقاء الشبه في الكتاب والسنة (الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات ...) (١) الحديث وهذه العلوم بما تبين دائرة بين الحرام والشبهة .

(٣) أنه وقعت لهم صور حكموا بكفر مرتكبها أو أن معتقد ما تضمنه ذلك العمل كافر لما اشتمل عليه من التوسل بأسماء الجن والأفلاك وكتابة القرآن الكريم بالنجاسات وغير ذلك مما ذكره الشيخ سيدي محمد الكنتي عمن وصفه بأنه على جانب من العلم والتقوى وأنه أخذ ذلك العمل المذكور عمن اشتهر وأقبل الناس عليه بالهدايا والعطايا (٢) .

(٤) أنهم أشترطوا للاشتغال بها ولتأثيرها شروطا نادرا ما تتفق لأحد من الناس ، لذا فهم مضطرون لتسميتها أسرارا ومنعوها عن غير أهلها على حد قول بعضهم فبطل كونها من العلوم النافعة التي يجب نشرها ويحرم كتمها ، ثم إنهم لم يفوا بعهدة هذا السر فخاطبوا بها العوام الذين دخلوا في طريقتهم ونشروها في كتبهم بجداولها ومنافعها وأضرارها على حد عرضهم لها .

---

(١) متفق عليه ، خرجه البخاري في كتاب الايمان ، باب فضل من استبرأ لدينه رقم ٥٢ ومسلم في المساقاة ، باب لعن آكل الربا وموكله ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات . ولا شك أنه يعم الشبه المادية في المكاسب والعقديه والعلمية لأن الكل يفسد القلب الذي به صلاح الدنيا والآخره انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١١ ص ٢٧ وما بعدها .

(٢) جنة المريد ص ٢٤ - ٢٥ و ١٦٢ والطرائف ص ٣٠٤ وما بعدها .

(٥) وهم كذلك مصرحون بأن أثرها ومفعولها قد لا يقع لتخلف شرط أو وجود مانع وأنه إن وقع بها شيىء فلا يرقى لدعوى التصرف في الكون حتى في استخدام أسماء الله تعالى إذ هي لا تخرج في المنهج المستقيم عن كونها دعاء قد يعجل الله الإجابة عليه وقد يؤخرها أو يدفع بها ماشاء عن الداعي أو يدخر له من الأجر ما شاء سبحانه وتعالى (١) ومن اعتقد في عموم هذه العلوم أثرا من دون الله تعالى فلا خلاف عند العلماء في كفره (٢) .

قال الله تعالى في اليهود ومن شابههم وأخذ بعلومهم : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ (٣) قال القرطبي : (من السحر ما يكون كفرا من فاعله ، مثل ما يدعون من تغير صور الناس وإخراجهم في هيئة بهيمة ، وقطع مسافة شهر في ليلة ، والطيران في الهواء ، فكل من فعل هذا ليوهم الناس أنه محق فذلك كفر منه) (٤) .

وقد جاء في بعض النصوص التي أوردناها من كتب القادرية شيىء كثير من ذلك سواء ادعـوا استخدام الجن في ذلك أو لم يدعوه فهو كفر من مدعيه عند العلماء (٥) ولعل في كلام بعض القادرية كالشيخ سيدي المختار وابنه والشيخ ماء العينين على ما تقدم عنـه ما يـدل على توبتهـم من هـذه العلوم والاشتغال بها أو ادعاء الولاية بواسطتها (٦) .

يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي لمن ورد عليه في آخرعمره يريد هذه العلوم :

(يا طالبا سر الحروف ورمزه   والشكل والأوفاق والتركيبا

دع كل شيىء غير ربك واستكن   واخضع فإن جلاله محجوبا) (٧)

والله أعلم .

---

(١) الطرائف ص ٣٠٩ .
(٢) نفسه ص ٢٩٤ .
(٣) البقرة الآية ١٠٢ .
(٤) القرطبي جـ ٢ ص ٤٥ .
(٥) رشد الغافل ص ١٧ . ١٨ .
(٦) الطرائف ص ٣٠١ و ٣١٧ ص ٣١٣ وما بعدها .
(٧) جنة المريد ص ١٦٢ . وفيه نصب الجزئين بإن وهو مسموع في لغة العرب .

المبحث الثالث : التوسل

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب :

التمهيد : في تعريف التوسل لغة واصطلاحا .

المطلب الأول : التوسل بالبيعة للمشايخ لحصول الولاية .

المطلب الثاني : التوسل بالاستمداد من المشايخ .

المطلب الثالث : التوسل في قضاء الحوائج بالمشايخ أحياء وأمواتا

تمهيد في تعريف التوسل لغة واصطلاحا مع بيان مقاصد بعض الصوفية به .

قال في القاموس المحيط : (الوسيلة) والواسلة المنزلة عند الملك والدرجة والقربة ووسل إلى الله تعالى توسيلا عمل عملا تقرب به إليه كتوسل والواسل الواجب والراغب إلى الله تعالى) (١) .

وقال القرطبي (والوسيلة القربة التي ينبغي أن يطلب بها) (٢) .

وقال الألوسي : (وابتغوا اليه) أي أطلبوا لأنفسكم إلى ثوابه والزلفى منه (الوسيلة) وهي فعيلة بمعنى ما يتوسل به ويتقرب إلى الله عز وجل من فعل الطاعات وترك المعاصي) (٣) .

فهذه المعاني اللغوية في تفسير الآية دالة على أن من اتقى الله تعالى وابتغى إليه الوسيلة بالأعمال الصالحة وترك المعاصي كانت وسيلته صحيحة وقربته مقبولة وله أن يطلب حاجته من المولى جل وعلا إذ ذلك من تمام الوسيلة إذ سؤاله تعالى ودعاؤه من أعظم العبادات وأجل القربات بل هوالعبادة قال ابن عطية عند تفسيره لهذه (اللفظة) من آية المائدة : ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾ (٤) قال : (هذه الآية وعظ من الله تعالى بعقب ذكر العقوبات النازلة بالمحاربين ، وهذا من أبلغ الوعظ ، لأنه يرد على النفوس وهي خائفة وجلة ، وعادة البشر إذا رآي وسمع أمر ممتحن ببشيع المكاره . أن يرق ويخشع ، فجاء الوعظ في هذه الحال) (٥) . ويظهر لي أن التوسل إلى الله تعالى بما لم يشرع التوسل به نوع محاربة ينبغي الاتعاظ عنه وتركه ومن ذلك أن بعض أهل التصوف يرى

---

(١) القاموس جـ ٤ ص ٦٤ .

(٢) القرطبي جـ ٦ ص ١٥٩ .

(٣) روح المعاني جـ ٦ ص ١٢٤ .

(٤) المائدة الآية ٣٥ .

(٥) تفسير ابن عطية جـ ٤ ص ٤٣١ .

أن الشيخ بذاته وسيلة إلى الله تعالى كما يفهم من بعض نصوصهم ونصوص العلماء الرادين ذلك عليهم قال الألوسي : (واستدل بعض الناس بهذه الآية على مشروعية الاستغاثة بالصالحين وجعلهم وسيلة بين الله تعالى وبين العباد ...) (١) ويقول الشيخ محمد الامين الشنقيطي في أضواء البيان : عند تفسير الآية المذكورة : (اعلم أن جمهور العلماء على أن المراد بالوسيلة هنا هو القربة إلى الله تعالى بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه على وفق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بإخلاص في ذلك لله تعالى ، لأن هذا وحده هو الطريق الموصلة إلى رضى الله تعالى ونيل ما عنده من خير الدنيا والآخره) (٢) .

وأخذ في تحقيق معاني الوسيلة ثم قال(... وبهذا التحقيق تعلم أن ما يزعمه كثير من ملاحدة أتباع الجهال المدعين للتصوف من أن المراد بالوسيلة في الآية الشيخ الذي يكون له واسطة بينه وبين ربه ، أنه تخبط في الجهل والعمى وضلال مبين وتلاعب بكتاب الله تعالى . واتخاذ الوسائط من دون الله من أصول كفر الكفار ...) (٣) .

ويقول الشيخ محمد بن أبي مدين تحت عنوان : الوسيلة . وبعد أن حصل أقوال أهل اللغه والتفسير في معانيها ودلالاتها قال : (فإذا تحصل عندك هذا علمت أن ما يزعمه بعض المتصوفة من أن المراد بالوسيلة المذكورة في القرآن الكريم الشيخ الذي يكون واسطة بين المريد وبين ربه جهل باللغة العربية وخروج عنها وعدول عن أقوال جميع المفسرين وقول في القرآن العظيم بمجرد الرأي) هـ (٤) .

والتوسل والوسيلة من الألفاظ المشتركة التي يختلف فيها عند الإطلاق وخصوصا بعد أن حصل في المقصود بها الخلاف واستدل بعض المجوزين للتوسل بالمخلوقات بظواهر آيات وأحاديث ، وقد ظهر بما تقدم أن استدلالهم بالقرآن محض رأي لامستند لهم فيه من دلائل اللغة وأقوال المفسرين .

---

(١) روح المعاني جـ ١٦ ص ١٢٤ .
(٢) أضواء البيان جـ ٢ ص ٩٧ .
(٣) نفسه ص ٩٨ .
(٤) الوسيلة لمحمد بن أبي مدين مخطوط خاص ص ٢ .

وأما الأحاديث والآثار فإن ما استدل به في هذا الباب يتروح أمره عند المحدثين بين حديث موضوع أولا أصل له أو ضعيف (١) فالتوسل منه ما هو أصل الدين الذي لا يصح إيمان أحد إلا به وهو التوسل إلى الله تعالى بالايمان به والإيمان بنبيه صلى الله عليه وسلم ومتابعته فيما جاء به عن ربه ٠

ومنه ما هو جائز وفضيلة لمن فاز به وأدركه وهو التوسل إلى الله تعالى بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم في حياته وشفاعته والتماس بركته في كل ما يتصل به صلى الله عليه وسلم ٠

ومنه ما هو محرم لعدم ثبوت شيىء يجوز به ولعظم الإقدام عليه ولما فيه من مخالفة ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته والسلف الصالح (٢) قال شيخ الإسلام بن تيمية : (فلفظ التوسل يعنى بالنبي صلى الله عليه وسلم يراد به ثلاث معان :

أحدها : التوسل بطاعته ، فهذا فرض لايتم الايمان إلابه ٠

والثاني : التوسل بدعائه وشفاعته ، وهذا كان في حياته ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته ٠

والثالث : التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته ، فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه لا في حياته ولا بعد مماته ولا عند قبره وغير قبره ، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم ، وإنما ينقل شيىء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة أو عن من ليس قوله حجة) (٣) .

وبهذا التمهيد يكون من الواضح أن حمل التوسل على الشيخ أو أي مخلوق آخر لا يسانده الكتاب والسنة ولا يفهم أيضا من لغتهما على ما في هذه النصوص وعلى ما سيتبين وبهذه النتيجة يمكن الربط بين هذا التمهيد وبين المطلب الأول من هذا المبحث وهو التوسل إلى الله بالبيعة للمشايخ علما أن ما تضمنته النصوص المذكورة في هذا التمهيد من طعن وتجهيل لمن يقول من الصوفية بأن الشيخ بذاته هو الوسيلة المذكورة في الآية . غير مراد هنا لما يأتي من نتائج البحث ٠

---

(١) سلسلة الاحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيىء على الامة ، محمد ناصر الدين الألباني المجلد الاول . المكتب الإسلامي ط ٥ سنة ١٤٠٥ هـ ص ٣٠ . ٤٧ ٠

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة . الرياض سنة ١٤٠٤ هـ ص ٤٨ وما بعدها ٠

(٣) نفسه ص ٥٠ ٠

المطلب الأول : التوسل إلى الله بالبيعة للمشايخ

تقدم أن الأسانيد التي ذكرتها القادرية لاتصال طريقتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وأخذها عنه لا تصح في شيىء من طرقها عند البحث ولذا يبقى البحث في قيمة البيعة ابتداء لغير النبي صلى الله عليه وسلم أو الخلفاء والأمراء من بعده في الأمور العامة إلا أن ذلك لا يتضح إلا بالتعريف بالبيعة لغة وشرعا وبيان أنواعها ، فنعرفها :

.التعريف : قال في القاموس (باعه) يبيعه بيعا ومبيعا ••• والتبايع المبايعة) (١) وقال الحافظ بن حجر : (والمبايعة عبارة عن المعاهدة ، سميت بذلك تشبيها بالمعاوضة المالية) إلى أن قال و (بايع السلطان : إذا تضمن بذلك الطاعة له ، بما رضخ له • ويقال لذلك بيعة ومبايعة) (٢) •

البيعة شرعا : والبيعة في الشرع تكون على الايمان والسمع والطاعة ، وعلى الهجرة والجهاد وعلى الصبروعدم الفرار وتكون عامة للناس وخاصة وعلى أمور عامة أيضا وخاصة كما تشهد لذلك الأحاديث والأخبار والسير المتفق عليها(٣) ففي صحيح البخاري رحمه الله تعالى : (أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وكان شهد بدرا ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه : (بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله : إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه • فبا يعناه على ذلك) (٤) فالبيعة المخرجة من الكفر إلى الإيمان واجبة ولازمة لكل أحد ولا يجوز الرجوع عنها ولا إعطاء الإقالة فيها كما يؤخذ من قصة الأعرابي في صحيح البخاري (٥) فبيعة النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام والطاعه

---

(١) القاموس المحيط جـ ٣ ص ٨ •

(٢) فتح الباري جـ ١ ص ٦٤ •

(٣) أنظر صحيح البخاري ، كتاب الأحكام ، باب كيف يبايع الإمام الناس • وانظر : فتح الباري جـ ١٣ / منه / ص ١٩٢ وما بعدها وصحيح مسلم مع النووي جـ ٢ص٣٩

(٤) صحيح البخاري كتاب الايمان ، باب حدثنا أبو اليمان ، رقم الحديث : (١٨)

(٥) صحيح البخاري ، كتاب الاحكام ، باب بيعة الاعراب . إلى باب من نكث بيعة •

المطلقة في المنشط والمكره وفي اليسر والعسر (١) •وقد بايع صلى الله عليه وسلم بعض الناس على أمور خاصة فكانت واجبة عليهم فيما يستطيعون كما كان صلى الله عليه وسلم يلقنهم عند مبايعته لهم كما في حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم وغيره قال : (بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فلقنني فيما استطعت والنصح لكل مسلم) (٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : (كنا إذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة يقول لنا : فيما استطعتم) (٣) .

وقد أجمع العلماء على وجوب نصب خليفة مستدلين بالشرع والعقل وأوردوا من وجوب طاعته بعد تمام الأمر له من النصوص الواضحة من الكتاب والسنة وأنه لايجوز الخروج عليه ما دام لم يظهركفرا بواحا • وأوردوا من النصوص في الوعيد على مخالفة أمره ما لم يأمر بمعصية الشيء الكثير •

أما بيعة غير النبي صلى الله عليه وسلم وبيعة الولاية العامة فلم نعثرفيها على نص صحيح صريح يوجبها لأحد من الناس مهما كان علمه وصلاحه ، ولا على نص مثل ذلك يوجبها على أحد من الناس له •

فعلى هذا يمكن حصر البيعة في : البيعة العامة على الإسلام والبيعة على أعمال الإسلام يقول الحافظ بن حجر عند قول الإمام البخاري : باب كيف يبايع الإمام الناس (٤) (المراد بالكيفية : الصيغ القولية لا الفعلية ، بدليل ما ذكر فيه من الاحاديث الستة (وهي البيعة على السمع والطاعة وعلى الهجرة وعلى الجهاد وعلى الصبر وعلى عدم الفرار ولو وقع الموت وعلى بيعة النساء وعلى الإسلام) (٥) فأي هذه البيعات تتوسل القادرية بها ؟

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب وفود الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة وبيعة العقبة

(٢) صحيح مسلم كتاب الايمان ، باب بيان أن الدين النصحية •

(٣) صحيح البخاري كتاب الأحكام الحديث رقم (٧٢٠٢)

(٤) فتح الباري وانظر : أضواء البيان مرجع سابق ، ج ١ ص ٥٩ وما بعدها • ج ١٣ ص ١٩٢ وما بعدها •

(٥) نفسه ج ١٣ ص ١٩٤ •

عـــــرض :

بعض نصوص القادرية في البيعة للمشايخ :

يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي : (وسبيل مشايخ الأوراد سبيل الصحابة لأنهم وارثوهم والآخذون عنهم والمقتفون آثارهم المهتدون بهديهم وليس هم إلا مشايخ هذه الأمة المربون النجباء ... فهم الأولياء ورثة الأنبياء) (١) .

وقال (وأما حقيقة الأوراد فإنها عقود وعهود أخذها الله على عباده بواسطة المشايخ ... وأصل الأوراد البيعة الإسلامية التى أخذها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وكانوا يبايعونه على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكسل والأثرة على النفس والمال والولد ...) ثم ذكر أن هذه بيعة الرجال ثم ذكر صيغة بيعة النساء وأورد بعض ماأثنى الله به على أصحاب هذه البيعات ثم قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم : (من لم يمت تحت بيعة مات ميتة جاهلية) (٢) وأن المشايخ استنبطوا من هذا الحديث قولهم : (من لا شيخ له فالشيطان شيخه) (٣) .

وقال : (ولا ريب أن الشيخ أعظم حقا من الوالد لأنه المتسبب في الحياة الباقية والوسيلة إلى الله والواسطة بينكم وبين الرسول ومن عظيم حقهم أنه لا جزاء لعقوقهم إلا سوء الخاتمة والعياذ بالله) (٤) .

ويقول الشيخ سيدي محمد الكنتي (فالشيخ باب فتحه الله تعالى إلى جناب كرمه ، منه يدخل واليه يرجع فلينزل به سوانحه ومهماته الدينية والدنيوية ، إذهو الوسيلة بينه وبين ربه) (٥) .

ويقول يعد بحث في انقسام الولاية إلى ظاهرة وباطنة بعد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين (... فجرت البيعة فيما بينهم على نحو ما جرت بين

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١٥ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الأمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتجريم الخروج من الطاعة ومفارقة الجماعة . بألفاظ مختلفة عن أبي هريرة .

(٣) الكوكب الوقاد ص ٢٤ .

(٤) نفسه ص ١٦٤ .

(٥) جنة المريد ص ١٥٣ .

الصحابة والنبي الخاتم صلى الله عليه وسلم الوارث فأول بيعة بيعة العقبة ثم بيعة الرضوان بالحديبية ثم بيعة العامة بمكة ثم بيعة الخاصة وهي بيعة جعفر رضي الله عنه بالحبشة للنجاشي وقومه ثم لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم وفشا الإسلام وانقطعت النبوءة ورثه خواص أمته وهم العلماء الأولياء فورثوا بعد الخلفاء الأربعة التربية وإعطاء الأوراد وأخذ العهود ، فهي مستمرة إلى يوم القيامة والكل بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ...) (١) ويضيف في شرحه لأنواع الولايات وأنها تورث مع سابق العنايه من الله تعالى . قائلا : (وأما البيعة الباطنية ففائدتها ثلاثة أمور :

(١) هي أنها عمدة الطريقة ...

(٢) ولما فيها من التعاون على البر والتقوى .

لما فيها من إشادة عماد الدين برسم الاجتماع على سائس خلفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) ولما يحصل بها من الاجتماع الذي به تعود بركة الكامل على الناقص والمودود على المطرود . وقد انقسم الناس في أخذ البيعة إلى أقسام منها :

(أن منهم من يأخذ البيعة على الرسم المتعارف من المصافحة وتقبيل اليد والتزام العهود وتقرير الشروط القادرية والشاذلية ، ومنهم من تعقد له البيعة بلفظ الولاية والرقبة وتمليك النفس والمال مع التأكيد بمؤكدات يعينها مشايخ الطريقة) (٢) .

وهم في هذا الباب من التوسل يقيسون أمور الآخرة والعبادات على أمورالدنيا وما يحصل فيها من طلب الشفاعات والوسائط التي هي في مقدور البشر (٣) وهكذا نجد من جاء بعد هذين الشيخين من علماء القادرية ومؤلفيهم وشيوخهم يسيرون على نفس المنهج في كون البيعة للمشايخ وسيلة للولاية وأن الشيخ واسطة ووسيلة إلى الله تعالى ، وأن المريد محجوب عن الوصول إلى الحق إلا عن طريقه أعني الشيخ إلى غير ذلك من الاقوال المرسخة لهذا المعتقد (٤) فيقول الشيخ ماء العينين بعد

---

(١) جنة المريد ص ١٧٤ .

(٢) نفسه ص ١٩٦ . ١٩٧ .

(٣) جذوة الأنوار ص ١١٤ . ١١٥ وجنة المريد ص ٦٢ .

(٤) نعت البدايات ص ٤ وما بعدها وفاتق الرتق بهامشه ص ٢١٠ . ٢١٣ وكشف اللبس ص ٨١ وما بعدها والضياء المستبين ص ٢ و ١١٣ والغلاوية ص ٢٤ . ٢٦ .

عرضه لبعض واجبات الشيخ على المريد (... إذ هو الوسيلة بينه وبين ربه) (١)

ويقول صاحب الضياء المستبين في المشايخ :(إنهم الوسيلة الكبرى) (٢) ويقول : (وهذه الطائفة هم أولياء الله وأهل وداده وخاصته من خلقه لأنهم إما التلاميذ المجتمعون عند الشيخ على رسم المباعية للشيخ على السمع والطاعة وحسن الأخوة مع الإخوان ... وإما مشايخ كمل وهم حقيقة الأولياء) (٣) .

نقد : هذه بعض نصوصهم المبينة لمرادهم من البيعة ، ويمكن للباحث الجزم من خلالها بالأمور الآتية ٠

١) أنهم يعتقدون أنها بيعة على الإسلام لما رتبوا عليها من وجوب الطاعة المطلقة للمشايخ وتقديم البر بهم على الوالدين ٠ ويؤكد هذا بالإضافة إلى ما تضمنته النصوص السابقة أن بعضهم يقول للمريد عند البيعة أن عليه استحضار نية أداء الواجب من النطق بالشهادتين ٠

فيقول الشيخ سيدي المختار الكنتي (فكما يجب على المريدين الاقتداء بالسلف الصالح في تعظيم المشايخ واحترامهم ظاهرا وباطنا يجب استحضار النية حالة تلقيه من شيخه وسمعه عنه أنه إنما يتلقى ويسمع من الله ورسوله إذ الشيخ وارث الرسول ونائبه والله تعالى يقول له (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) (٤) ويقول محمد الكنتي أيضا (... وكذلك اعطاء التلقين وهو أن ينوى الملقن يعني بالفتح أخذ كلمة الجلالة على الوجه الواجب ناويا أداء الفريضة من نية تخصها وإلا بقي الوجوب متعلقا بذمته ...) (٥) وهذا وإن صح في الكفار والمشركين فإنه

---

(١) نعت البدايات ص ٧ ٠

(٢) الضياء المستبين ص ٢

(٣) نفسه ص ١٣٤ . ١٣٥ ٠

(٤) سورة التوبة الآية ٦ الكوكب الوقاد ص ١٦٨ ٠

(٥) جنة المريد ص ٢٠١ ٠

لا يصح أن يشترط فيمن نشأ في الاسلام وتعلم الضروري من أحكام دينه أو حتى وان كان بقي على جهله مع سلامة فطرته في بيئه إسلامية فإن مثل هذا الشرط والاستدلال بالآية لا يصح في مثله ، والمسلمون هم أكثر الداخلين في الطرق الصوفية هذا مع أن بعضهم يرى أن الكافر والمسلم الجاهل والمقلد في اعتقاده يمكن أن يدعوهم ويفيدهم كل مسلم لديه علم بالاسلام أماالمسلم أو المؤمن أو الصالح فإنه لا يفيدهم إلا واصل مقرب (١) فكيف يستقيم هذا مع ماقبله من اشتراط استحضار نية الدخول في الإسلام عند البيعة للشيخ الذي يمكن أن يكون المبايع له أعلم منه بالاسلام وأعماله ؟

فإن أراد بعبارة التلقين أو البيعة لفظ الكلمة الشريفة بطرفيها فان المؤمن بالاصالة لا يجب عليه استحضار نية أدائها عند البيعة كما يجب على الكافر عند آدائها للدخول في الإسلام إذ إنه قد أدى واجب ذكرها في العمر مرة كما شرطه العلماء وصلى وأدى الواجبات عليه غيرها فلا يسوى بالكافر (٢) .

٢) أن هذه النصوص مسوية بين الشيخ والرسول صلى الله عليه وسلم في التوسل إلى الله بمبايعته على الإسلام وأعماله وغير ذلك من الأمور المقربة إلى الله تعالى .

وقد تقدم أن تصوص الكتاب والسنة ترد دعوى أي أحد ينسب لنفسه أو لغيره المساواة مع الرسول صلى الله عليه وسلم في أمور الدين من وجوب بيعته ولزومها ، وسوء خاتمة من مات مشاققا له أو كافرا به أو وجوب طاعته المطلقة .

٣) أنهم يسوون بين البيعة للشيخ وبين ما وقع من الصحابة رضوان الله عليهم من بيعات للرسول صلى الله عليه وسلم ومبايعات الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة وإن كان بعضها لازما لجميع المسلمين وفي عنق كل مسلم بيعة لله ورسوله من جهاد في سبيل الله وطاعة تامة فإن بعضها قد وقع على أمور محددة ولأشخاص بأعيانهم فلا يؤخذ من تلك العامة للمسلمين إيجاب المبايعة لشيخ ، ولا يؤخذ من تلك الخاصة

---

(١) الضياء ص ١١٨ . ١١٩ .

(٢) ميارة على ابن عاشر ص ٥٢ .

أيضا لتعلقها بأمور خاصة ٠ ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يبايع أصحابه على الجهاد في سبيل الله تعالى وضامن لمن قتل منهم في ذلك الجنة لما أوحى الله إليه في كتابه تعالى من قوله : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (١)

فهذه الآية عامة في المؤمنين يقول ابن جرير(إن الله ابتاع من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة) (٢) وعنه أيضا وعن القرطبي ما يدل على أن سبب نزولها بيعة العقبة الثانية قال القرطبي : (ثم هي بعد ذلك عامة في كل مجاهد في سبيل الله من أمة محمد صلى الله عليه وسلم) (٣) وقال الحسن : (والله ما على الأرض مؤمن الا يدخل في هذه البيعة) (٤) ويقول جل وعلا في حق أصحاب بيعة الرضوان بالحديبية : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) (٥)

ويقول جل وعلا في الترضى عنهم في نفس السورة : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذيبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا (٦) .

فهذه البيعات للنبي صلى الله عليه وسلم إما على الجهاد العام الذي يدخل فيه كل مؤمن واما على جهاد خاص فاز به أصحاب بيعة الرضوان ، ثم إن من تقدم من القادرية للجهاد في سبيل الله وقيادة جند الله نشرا لدين الله وأطاعه الناس كانت

---

(١) سورة التوبه الآية ١١٢ ٠

(٢) تفسير القرطبي جـ ١٤ ص ٤٩٨ ٠

(٣) نفسه جـ ١٤ ص ٤٩٩ ٠

(٤) تفسير القرطبي جـ ٨ ص ٢٦٧ و ٢٦٩ ٠

(٥) سورة الفتح الآية ١٠ .

(٦) الآية ١٨ من نفس السورة ٠

طاعته ومبايعته لأجل الجهاد لا أنه شيخ أو ولي على المعنى الخاص ، وليس له أن يوجب طاعته على أحد إلا في حدود صالح الجهاد المبايع عليه وليس له أن يعد أحدا الجنة أو يوعده سوء الخاتمة إذا خالفه في أمر ولكن يبين له ما في الكتاب والسنة مما أوجبه الله على نفسه للمطيع من ثواب وما توعد به جل وعلا الكفار والمنافقين والعصاة من عقاب .

فتبين بهذا أن ما استدلوا به على وجوب التوسل إلى الله بالبيعة مع ما فيه من الفاظ مشتركة موهمة كالواسطة والوسيلة الكبرى لا يصح به الاستدلال ولا يجب لأحد به طاعة مطلقة ولا مقيدة إلا في حدود واجب الصحبة والعشرة بين المسلمين جميعا ، وقد تتأكد بسبب شرعي كبر الوالدين الذي قدموا عليه طاعة وخدمة الشيوخ وهم في ذلك مخالفون لنصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة .

فمن الكتاب قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ... ﴾ (١)

قال القرطبي وغيره بأن الله قرن بتوحيده وعبادته البر بالوالدين كما قرن شكرهما بشكره ، وقدم برهما على الجهاد في سبيله ، وجعلهم أحق الناس بحسن صحابته ولو في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وجعل عقوقهم أو التسبب فيه من الكبائر القبيحة . (٢)

وهذا ما تؤيده الأحاديث المتفق عليها(٣) كحديث عبدالله بن عمررضى الله عنهما(قال:سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال الصلاة على وقتها . قال : ثم أي ؟ قال : ثم بر الوالدين . قال : ثم أي ؟ قال الجهاد في

---

(١) الآيتان من سوؤة الإسراء ٢٣ . ٢٤ .

(٢) القرطبي جـ ١٠ ص ٢٣٧ . ٢٤٦ وابن كثير جـ ٣ ص ٣٤ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب البر والصلة . وصحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب .

سبيل الله قال حدثني بهن ولو استزدته لزادني) (١) (وعن عبد الله بن عمرو قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد فقال : أحي والداك ٠ قال : نعم قال : ففيهما فجاهد) (٢)

ومن الاجماع ما حكاه الاما م النووي عن غير واحد من العلماء على وجوب تقديم برهما وإحسان صحبتها على الجهاد الذي هو ذروة سنام الدين ما لم يتعين فما دونه من القربات والنوافل بدليل هذه الأحاديث المذكورة وحديث جريج الراهب المخرج في الصحيح (٣) وعلى هذا فما حكاه بعضهم من إجماع على تقديم حق الشيخ على حق الوالدين مردود بهذه النصوص الواضحة والإجماع المتسند عليها مع أن صحتها تغني في الرد على من ادعى خلافها ٠ ثم إنهم عللوا تقديم حق الشيخ على حقوق الوالدين بأنه : (هو المتسبب في الحياة الباقية) (٤) وهذا التعليل مع عدم صواب إطلاقه هكذا فإنه لا تعارض به تصوص الكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة ٠

والهداية إلى الإيمان والعمل الصالح بيد الله تعالى ، فمن أراد الله تعالى هدايته الهداية التوفيقية التي لا يملكها أحد سواه هيأ له الأسباب ويسر له من يهديه إلى الخير والعلم والعمل هداية دلالة وإرشاد وهذه عند كثير من المسلمين ممن ليسوا من الصوفية ولا من القادرية ، ومع ذلك فإن هذا الدال والمرشد إلى الحق والخير لا تكون له طاعة أو حقوق أكثر مما نص عليها الكتاب والسنة وعلماء الأمة من تعين التزام الأدب والاحترام للعالم من المتلعم أولا ومن احترام عام من الناس لما أعطاه الله من علم وورع ونفع للناس ٠

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب البر والصلة ، الحديث رقم (٥٩٧٠) ٠

(٢) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب ، باب بر الوالدين وأنهما أحق به ٠

(٣) صحيح مسلم نفسه : باب تقديم الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها ٠

(٤) الكوكب الوقاد ص ١٦٤ ٠

ولذا لاينبغي لأحد من المريدين أو غيرهم أن يطيعوا أحدا في معصية الله تعالى بمفارقة الوالدين والأهل الذين تجب عليهم رعايتهم ونفقتهم بدعوى التزام البيعة للشيخ الذي ينقذه بدعواه أو المتسبب في نجاته في الحياة الباقية .

وإن أخذ عليه العهود والمواثيق التى عرضناها في نصوصهم من تمليك الرقبة والمال والنفس وغير ذلك مما هو مذكور آنفا ذلك أنه : (لا وفاء لنذر في معيصة ولا فيما لا يملك العبد) (١)

٤) أنهم يشترطون على المريد ما لا يملك من عدم الاعتراض على الشيخ المبايع ولو بقلبه وإن رآه على معصية ظاهرة .

والقلوب والخواطر بيد الله لا يملك أحد التحكم فيها ، وعندهم أنه إذا لم يتحكم فيها فهو هالك ولا يشم رائحة القرب من الله إلى غير ذلك من عباراتهم التي تقدم نقلها وهذا الذي اشترطوه لشيوخهم تجاوز الله تعالى عن مثله لعباده في حقه يوضح ذلك أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ شق ذلك على الصحابه رضوان الله عليهم ، ورأوا أنه من باب التكليف بما لا يطاق . فراجعوا النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فأمرهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ولا يكونوا مثل اليهود الذين قالوا سمعنا وعصينا فلما قالوها راضية بها نفوسهم نزل قول الله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطانا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لاطاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا عل القوم الكافرين ﴾ (٢)

قال الله تعالى كما في الحديث ﴿ قد فعلت ﴾ (٣)

---

(١) صحيح مسلم كتاب النذر .

(٢) سورة البقرة الآية ص ٢٨٦ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الايمان ، باب بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر وبيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق .

وعن أبي هريرة رضـي اللـه عنه قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به) (١) وقد تقدم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يبايع الناس يقول لهم فيما تستطيعون ٠

٥) ثم إن السيوطي الذي هو إمام السلسلة القادرية المذكورة في كتب القادرية كما تقدم عندما سئل عن لزوم هذه العهود ٠ قال

(إذا المريد أخذ العهد عـلى — شيخ له ورام أن ينتقــلا

لغيره هل عهد الاول تــراه — أحق باللزوم أم عهد سواه

جوابه لا يلزم العهــد ان — لاذاك الأول ولاذا الثاني

وانما ذا منكر من البـدع — فالتزم السنة والبدع دع) (٢)

وقد قاس الشيخ التراد هذه البيعة على التزام شخص بمذهب من مذاهب أئمة الاجتهاد وأنه يجوز الانتقال عنه إلى مذهب آخر وذكر كثيرا من العلماء انتقلوا من الانتساب إلى مذهب عرفوا به إلى مذهب آخر (٣)

ولا يخفى أن الانتساب إلى المذاهب الفقهية ليس في حكم البيعة ولا يساوي بيعة النبي صلى الله عليه وسلم كما رأينا في نصوص القادرية ، ولا يعطى لإمام حقوقا لم تكن له على المسلمين ، مع أنه لا حرج في الانتساب لأهل الخير والعلم والصلاح كمذهب السلف الصالح في الاعتقاد ومذاهب الأئمة الأربعة في الفروع مع البعد عن التعصب الصاد لصاحبه عن تجريد المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم وتقديم الدليل على كلام البشر ، وانما يقتدى بهم كلهم لحسن اقتدائهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ٠

---

(١) نفسه جـ ٢ ص ١٤٧ ٠

(٢) الرحلة العلمية . نقلا عن الشيخ بيه بن السالك ٠

(٣) جواز الانتقال من طريقة شيخ إلى آخر . مخطوط خاص . في خمس صفحات كتبه الشيخ التراد جوابا لمحمد فال بن محمد محمود ص ١ . ٤ ٠

المطلب الثاني : المدد والاستمداد من المشايخ

تعريف المدد والاستمداد :

قال في القاموس (المد) السيل وارتفاع النهار والاستمداد من الدواة وكثرة الماء والبسط وطموح البصر إلى الشيء ··· ومد النهار ارتفع وزيد القوم صارلهم مددا ··· وما مددت به السراج من زيت ونحوه ··· والإمداد تأخير الأجل وأن تنصر الأجناد بجماعة غيرك والإعطاء والإغاثة أو في الشر مددته وفي الخير أمددته وأن تعطي الكاتب مدة قلم ··· والمادة الزيادة المتصلة ·· والاستمداد طلب المدد) (١) وكل هذه المعاني جاءت في آيات من كتاب الله تعالى ·

يقول القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة : (ويمدهم) (٢) أي يطيل لهم المدة ويمهلهم ويملي لهم ، كما قال : (إنما نملي لهم ليزدادوا إثما) (٣) وأصله الزيادة · قال يونس بن حبيب : يقال مدلهم في الشر ، وأمد في الخير ، قال الله تعالى : ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين) (٤) وقال : ﴿ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ﴾ (٥) وحكي عن الأخفش : مددت له إذا تركته ، وأمددته إذا أعطيته · وعن الفراء واللحياني : مددت ، فيما كانت زيادته من مثله ، يقال : مد النهر ، وفي التنزيل : (والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) (٦) وأمددت ، فيما كانت زيادته من غيره ، كقولك : أمددت الجيش بمدد ، ومنه : ﴿ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة) (٧) وأمد الجرح ، لأن المدة من غيره ، أي صارت فيه مدة) (٨) والمدد نوعان : حسي ومعنوي ·

---

(١) القاموس المحيط جـ ١ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ ·

(٢) سورة البقرة ﴿ الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) الآية ١٥ ·

(٣) من سورة آل عمران الآية ١٧٨ ·

(٤) من سورة الاسراء الآية ٦ ·

(٥) من سورة الطور الآية ٢٢ ·

(٦) من سورة لقمان الآية ٢٧ ·

(٧) من سورة آل عمران الآية ١٢٥ ·

(٨) القرطبي جـ ١ ص ٢٠٩ ·

فالمدد على هذا يكون في الأمور الحسية والمعنوية وفيه ما لا يقدر عليه الا الله تعالى ، والذي يعنيه القائلون من الصوفية وغيرهم بالمدد من النبي صلى الله عليه وسلم والأولياء في حياتهم وبعد مماتهم قد يشمل الأمور الحسية والأمور المعنوية ، ويظهر أن هذه العقيدة المتضمنة للاعتداء على حقوق الربوبية من عطاء ومنع وجلب نفع ودفع شر وتقسيم رزق وفيض علم قد انتشرت بين الصوفية انتشارا واسعا (١) ومن بين من قال بها منهم القادرية وهذه العقيدة مرتبطة بدعوى التصرف في الكون وأخذ العلم عن الله تعالى بلا واسطة وغير ذلك مما تقدم في هذا الفصل ، غير أن الباحث وجد للقادرية نصوصا صريحة في القول بهذه العقيدة في المعاني خاصة وقد يفهم من إطلاقاتهم للعبارة القول بأن الولي يملك مددا حسيا كتقسيم الأرزاق والمعارف وغير ذلك مما تقدم بيانه في الكلام على الغوثية والقطبية والتصرف في الكون

عرض : وهذه بعض نصوصهم في هذه العقيدة

يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي في سياق ترجمته للمغيلي وخبر لقائه بالسيوطي أن المغيلي اختبر السيوطي ليعرف مكانته في حفظ السنة وأنه كان إذا حدثه بالحديث (يقول له لم يبلغني ثم يقوم حتى يجاور سارية من سوار مسجده ثم يقبل إليه ويقول صدقت حتى أفاده خمسمائة حديث فقال سيدي عمر الشيخ للمغيلي ما له لا يصدقك في الحديث حتى يطوف بالسارية فقال له : إنه لا يقدر على رؤية النبي صلى الله عليه وسلم . يعني حتى يفعل ذلك فيرى النبي صلى الله عليه وسلم فيسأله عن الحديث فيقول له عني ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم يغيب عني طرفة عين لما عددت نفسي من المسلمين) (٢)

ويلاحظ على هذه الرواية أمور :

١) أنه قد تقدم ضعف رواية لقاء المغيلي مع السيوطي في ترجمة المغيلي في الباب الأول .

---

(١) انظر : السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني ص ١٩٠ . ٢٠١ و ٢٣٤ وما بعدها

(٢) المنة في اعتقاد أهل السنة ص ٤١ .

٢) أن السيوطي اشتهر بالحفظ ومعرفة أسباب ضعف الحديث من علوم الحديث التي هي عمدة العلماء في الحكم على الأحاديث .

٣) أن الحكم على الحديث بمثل هذه الحكاية يساوي التقول على النبي صلى الله عليه وسلم وهذا لا يخفي بطلانه وحرمة قوله وحكايته إلا لإبطاله (١)

٤) أنه يؤخذ من حكاية الراوي لها وسكوته عليها جواز الاستمداد عنده من النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته العلوم وهو المقصود من إيراد النص أصلا ويقول المختار الكنتي أيضا : (واعلم أنه لا تثبت لعبد محبة الله حتى يحب أولياءه حبا زائدا على المعتاد مقرونا بالطاعة والتبجيل وحسن الطوية والتبتل حتى تنطبع روحانية الشيخ مع روحانيتك بحيث تستهلك الكل في الكل ...) (٢)

ويقول : (ويبلغ بالمريد من الاستغراق في ذات الشيخ حتى لا يعرف غيره بعد الله ورسوله وتلك غاية الانتفاع فما دخله بعد ذلك دخله لا بنفسه بل بربه وواسطة شيخه فأعانه الله عليه سواء كان ذلك من أمور الدنيا أو من أمر الآخره) (٣)

ويقول الشيخ سيدي محمد الكنتي في معرض بيانه لأصول تلقي الأوراد والمعارف : (ومن القوم طائفة إذا لم يجدوا لذلك العمل دليلا من السنة الثابتة في كتب الشريعة يتوجهون بقلوبهم وهممهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا حضروا بين يديه سألوه عن ذلك وعملوا بما قاله لهم) (٤)

ويقول في الكلام على الخلافة ومرتبة الغوثية الباطنية :

(وهذه الخلافة هي المعبر عنها في اصطلاح القوم بالغوثية إذا الغوث هو الذي يصل منه المدد الروحاني إلى دوائر الأولياء من نجيب ونقيب وبدل ووتد) (٥)

---

(١) مشتهي الخارف الجاني ص ٩١ وما بعدها .

(٢) الكوكب الوقاد ص ١٦٣ .

(٣) نفسه ص ١٦٦ .

(٤) جنة المريد ص ٦٧ .

(٥) نفسه ص ١٧١ .

ويؤيد هذا النص بنص آخر يقول فيه بعد أن ذكر : (أن الشيخ مرآة المريد ووسيلة المزيد) قال في أثناء الحديث عن آداب الذكر (... ثم الإستمداد بقلبه عند شروعه في الذكر همة شيخه إذ في استحضاره صورة شيخه في قلبه عند ابتداء ذكره استمداد منه اذ قلب شيخه يحاذى قلب شيخ الشيخ إلى الحضرة النبوية وقلب النبي صلى الله عليه وسلم دائم التوجه إلى الحضرة الإلهية فالذاكر إذا تصور شيخه واستمد منه فاضت الأمداد من الحضرة الإلهية إلى قلب سيد المرسلين ومن قلب سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم إلى قلوب المشايخ على الترتيب حتى تنتهي إلى شيخه ومن قلب شيخه إلى قلبه ...) (١)

وله في نشر هذه العقيدة نصوص أخرى (٢) وتبعه عليها من جاء بعده من المؤلفين القادرين .

فيقول الشيخ ماء العينيين (... ثم لتعلم أنه ينبغي للمريد قبل هذه الشروط كلها والآداب ومعها أن يتصور صورة شيخه في ذهنه ويجعله في جميع ذلك نصب عينه وسلما لقربه من ربه عن بينة لأنه إذا استمد بقلبه عند شروعه في الذكر همة شيخه ناله المدد على قدر الاستمداد .. ثم نقل نص الشيخ سيدي محمد الكنتي السابق . وقال : (فإذا استمد من شيخه جاءه المدد لا محالة ، قال الله تعالى : (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر) (٣) ثم يرى أن استمداده من شيخه هو استمداد من نبيه صلى الله عليه وسلم) (٤) .

وعن هؤلاء انتشرت هذه العقيدة بين أتباعهم وعوام مجتمعاتهم .

---

(١) نفسه ص ٢٠٣ . ٢٠٤ .

(٢) انظر الغلاوية ص ١٨٨ ومابعدها .

(٣) سورة الأنفال الآية ٧٢ .

(٤) نعت البدايات ص ١٨ . ١٩ .

نقـــــــــــد :

وهذه النصوص صريحة في الأمور الآتية :

١) الإيمان بعقيدة الإستمداد من المخلوقات كالأنبياء والأولياء والمشايخ ويأتي نقده إن شاء الله ٠

٢) القول بالفيوضات المتسلسلة إلى الآخذ عن الله تعالى وقد تقدم أن الصوفية تأثرت في هذا القول بالإسماعيلية وأشباههم : (وقد دخل في كثير من أقوالهم في العلوم ، أو في العلوم والأعمال ، طائفه من المنتسبين إلى التصوف والكلام) (١)

٣) إطلاق لفظ المدد والاستمداد من المخلوقات وهذا من باب القول بالتصرف في الكون للأولياء وقد تقدم الكلام فيه ٠

٤) حث الذاكر من الصوفية على استحضار صورة شيخه ليصل إليه المدد بتلك المراقبة ويأتي نقده إن شاء الله ٠

٥) أنه لا استدلال على ما ذكر بكتاب ولا سنة ، وما استدل به إما أن يكون لا دليل فيه لصدوره ممن لا حجة في كلامه كالفلاسفة القائلين بالعقل الفياض وترتيب العقول وإما خارجا عن محل الاستدلال المطلوب في المحل (٢) كما سيأتي نقد ما يحتاج إلى نقد منه ٠

٦) أن هذا الاستمداد والمدد يكون من الحي حال اليقظة منه ومن الحي حال يقظته ونومه ، ومن الميت أيضا ٠ ويأتي نقده إن شاء الله ٠

هذه أبرز دلالات هذه النصوص الواضحة منها ٠ ولتعلق هذه العقيدة بالأرواح والتوجه بها إلى أرواح أخرى يكون البحث فيها من الأمور الصعبة لأن الله تعالى يقول

---

(١) الصفدية جـ ١ ص ٥ ٠

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٨٧٥ وما بعدها وكتاب الصفدية جـ ١ ص ٦٢ وما بعدها ٠

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ (١) ولكن يسهله أن البحث لا يتناول حقيقتها أي الأرواح وانما يتناول أحد متعلقاتها ، وهو الاستدلال بما يقع فيها من علوم ومعارف نتيجة صفائها بالمجاهدات والرياضات ونسبة ذلك إلى طريق معين لا يشهد له الكتاب والسنة بل إن فيه ما يخالف ظاهرهما على ما سيأتي بيانه إن شاء الله ٠

أولا : الإيمان بعقيدة الاستمداد من المخلوق الميت : إما أن يكون بتصرف منه وحركة وهذا باطل لمخالفته لنصوص الكتاب والسنة والاجماع والواقع ٠

أما الكتاب فلقوله تعالى : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ (٢) وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لألا يختلف في موته ٠ (٣)

وفي سنن ابن ماجه عن أبي موسى قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم متى تنقطع معرفة العبد من الناس ؟ قال : إذا عاين) (٤)

قال القرطبي : قوله (إذا عاين يريد إذا عاين ملك الموت أو الملائكة والله أعلم) (٥) وقال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ (٦) وإذا مات المخلوق انقطع بدنه عن الحركة والانتقال وبقي على من يخضره من الناس تجهيزه هو نفسه إذ لا حول له ولا قوة حتى لنفسه (٧) وإذا دفن أخذت الأرض في أكل بدنه إن لم يكن نبيا أو شهيدا أو من ورد النص باستثنائه من غيرهما تذكر النصوص ٠

---

(١) سورة الاسراء الآية ٨٥ ٠

(٢) سورة الزمر الآية ٣٠ ٠

(٣) القرطبي جـ ١٥ ص ٢٥٤ ٠

(٤) سنن ابن ماجه ، محمد بن يزيد الغزويني ، دار الفكر ، جـ ١ص ٤٤٤ ٠

(٥) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخره . دار الكتب العلمية ط ٢ سنة ١٤٠٧ ص ٥٢ ٠

(٦) سورة آل عمران الآية ١٨٥ ٠

(٧) القرطبي جـ ٤ ص ٢٢٢ وما بعدها ٠

قال صلى الله عليه وسلم : (ليس من الإنسان شيىء إلا يبلى إلاعظم واحد وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامه) وفي رواية (كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب) (١)

ومما يؤكد توقف الحس والحركة عن بدن الميت ما ورد في الصحيح من انقطاع عمله وتوقف الزيادة والنقصان في سجل اعماله حسنة أو قبيحه إلا ما كان عمله في حياته أو تسبب فيه فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا مات الانسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقه جارية او علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) (٢)

قال الإمام النووي : (قال العلماء معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته وينقطع تجدد التواب له إلا من هذه الاشياء الثلاثة لكونه كان سببها فإن الولد من كسبه وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف وكذلك الصدقة ...) (٣)

هذا من الكتاب والسنة والواقع الذي لا يحتاج إلى دليل كاف في توضيح انقطاع أي كسب بدني للانسان بنفسه بعد موته ، ويبقي الحديث عن كسبه بروحه التي تحصل الوفاة والموت بمفارقتها لبدنه .

والأرواح بعد فراقها للأبدان مختلف في مستقرها باستثناء أرواح الأنبياء والشهداء حيث وردت نصوص تخصصها وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون في الجنة على أن الخلاف وارد في كيفية تلك الحياة ، وحتى لو عرفت حياتهم فإنه لا دليل على تخصيص الأخذ عن أرواحهم في الجنة من الأخذ عن أرواح غيرهم ممن روحه محبوسة أو ملقاة على شفير قبره وحتى لو قيل بأن الأخذ يحصل من الأرواح المطلقة السياحة ، فإنه لا يكون فيما أخذ عنها دليل على عمل من أعمال الإسلام سواء قلنا

---

(١) سنن ابن ماجه باب ذكر القبر والبلى ، رقم (٤٣٣٤) واللفظ الآخر لمسلم في صحيحه كتاب الفتن ، باب ما بين النفختين .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الوصية ، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي جـ ١١ ص ٨٥ .

بأن ذلك الأخذ أو المد حصل يقظه أو مناما (١) قال ابن أبي العز الحنفي (إن الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت فمنها : أرواح في أعلى علين ، في الملا الأعلى ، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وهم متفاوتون في منازلهم ، ومنها أرواح في حواصل طير خضر ، تسرح في الجنة حيث شاءت وهي أرواح بعض الشهداء لا كلهم ، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه ... ومن الأرواح من يكون محبوسا على باب الجنة ، ومنهم من يكون محبوسا في قبره ومنهم من يكون في الأرض ..) (٢) فأي هذه الأرواح على تفاوت درجاتها يستمد منه القائل من القادرية بالاستمداد من الأنبياء وغيرهم فيما لم يجد فيه نصا من كتاب أو سنة ، وما الذي يستمد منها زايدا على الكتاب والسنة ؟ وإن ادعى الاستمداد من بعضها فما الدليل على الاختصاص ؟ وقد كمل الدين وختمت الرسالات بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم .

قال الله تعالى: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ...) (٣) وبعد أن قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته) (٤)

قال الزهري (من الله عز وجل الرسالة ، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاغ وعلينا التسليم) (٥)

وجاء في حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها في صحيح البخاري وغيره :

(ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ، ثم قرأت : ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ الآية فما الذي يطلبه المسلم من علوم ومعارف من أرواح المخلوقات بعد هذا ؟ ثم انه اذاكان القائل بالاستمداد من الأرواح من القادرية يكتفى بأنه يحصل فى

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٣ .

(٢) نفسه ص ٣٩٤ . ٣٩٥ .

(٣) سورة المائدة الآية ٣ .

نفسه شيىء لا يعرف مصدره ولا سببه وبدون قصد منه أو أنه تحصل له منامات ومراء تلتقي فيها روحه مع روح فلان أو فلان من الأحياء أو الأموات لكان الأمر في هذه سهلا (١) حيث تقدم أن مثل هذه الأمور يعرض على الكتاب والسنة وبذلك لا يكون العمل أو الحجة في شيىء بعد الكتاب والسنة ، ولكن نصوصهم دالة على أنهم يقصدون التوجه وطلب المدد من النبي صلى الله عليه وسلم أو من الشيخ فلان مثلا في حال اليقظة منهم وأن هذا العمل لا يكون إلا من كبار الرجال ٠ ولا يخفى أن كبار الرجال من عهد الصحابة إلى آخر الزمن لا يطلبون المدد إلا من الله تعالى لا في الأمور الحسية ولا المعنوية وحتى عند الخلاف والتنازع وعدم ظهور الدليل والاحتياج إلى الاجتهاد والاستنباط لإقامة الحدود وغيرها من الأمور العظيمة ٠

قال الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فلإن تنازعتم في شيىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ (٢) قال ابن كثير : (قال مجاهد وغير واحد من السلف أي إلى كتاب الله وسنة رسوله ٠٠٠ يعني بعد أن لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى . وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيىء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة ٠٠٠) (٣)

وعند رد هذا المعتقد المتنازع فيه إلى الكتاب والسنة وشهادة الواقع لم نجد له مستندا في ذلك كله ، ومعتقده واقع لا محالة في موافقة الفلاسفة وغلاة الشيعة في عقائدهم الفاسدة ومنازع لله تعالى في خصائص ربوبيته ٠ والله أعلم ٠

ثانيا : حث المريد على استحضار صورة شيخه حال الذكر طلبا للمدد منه والقوة على التلقي من روحه إلى غير ذلك مما ذكر في النصوص السابقة من القول بمحاذاة روح شيخه إلى روح شيخ شيخه ٠٠٠

---

(١) الروح لابن القيم دار في العلوم الحديثة ص ٢٠ . ٣٤ ٠

(٢) سورة النساء الآية ٥٩ ٠

ففي هذا الارشاد من المحاذير العقدية ما لا يخفى علاوة على أنه مناف لما تقدم عن صاحب المنهل الروي الرائق من أن القادرية يقوم سلوكهم في البداية على استحضار جلال الله تعالى وعظمته ٠ (١)

وهذه النصوص التي نقلت عنهم ترشد المريد أن يستحضر صورة شيخه وهذا الذي أمروه به هو مقام المراقبة الذي هو من أعلا درجات الإحسان ، ويؤيد ذلك أنهم أمروه به حال العبادة وهذا المقام لا يصرفه لغير الله إلا منافق أو مراء بعمله ، وخصوصا فيما يتعلق بالقلب وأعماله من إيمان ومراقبة ٠

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) (٢)

وقال تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ﴾ (٣)

قال القرطبي : (اعلم أن علماءنا رضي الله عنهم قالوا : الشرك على ثلاث مراتب وكله محرم ٠ وأصله أعتقاد شريك لله في ألوهيته ، وهو الشرك الأعظم وهو شرك الجاهلية ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ٠٠٠) (٤) ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل ، وهو قول من قال : إن موجودا غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده وإن لم يعتقد كونه إلها ٠٠٠ ويلي هذه الرتبة الإشراك في العبادة وهو الرياء ، وهو أن يفعل شيئا من العبادات التي أمر الله بفعلها له لغيره) (٥)

والآيات والأحاديث في أن الشرك بأنواعه كلها محبط للعمل كثيرة جدا ٠

---

(١) المصدر المذكور ص٦٤ ٠

(٢) سورة الكهف الآية ١١٠ ٠

(٣) سورة النساء الآية ٣٦ ٠

(٤) سورة النساء الآية ٤٨

(٥) القرطبي جـ ٥ ص ١٨١ ٠

والذي يراقب في العبادات والأعمال كلها هو المعبود المطلع على الإنسان في جميع الأحوال ولا يكون ذلك إلا الله تعالى الذي يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين إنه هو السمع العليم ﴾ (١)

وفي حديث سؤال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والايمان والاحسان وعلم الساعة ما يدل دلالة واضحة على أن هذه الأمور لا يجوز صرفها لأي أحد كائنا من كان وهو حديث متفق عليه (٢) وجاء في هذا الحديث (قال : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) هذه رواية البخاري وراوية مسلم : (قال : أخبرني عن الاحسان • قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) (٣)

قال الإمام النووي : (هذا من جوامع الكلم التي أوتيها صلى الله عليه وسلم لأنا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه لظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به فقال صلى الله عليه وسلم اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للأطلاع عليه وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد فينبغي أن يعمل بمقتضاه) (٤)

قال الحافظ بن حجر: (وإحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع وفراغ البال حال التلبس بها ومراقبة المعبود) (٥)

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٢١٧ ـ ٢٢٠ •

(٢) صحيح البخاري كتاب الايمان ، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والاحسان وعلم الساعة • الحديث رقم (٥٠) •

(٣) نفس الكتاب والباب في صحيح مسلم •

(٤) النووي على مسلم جـ ١ ص ١٥٧ ـ ١٥٨ •

(٥) فتح الباري جـ ١ ص ١٢٠ •

ومراقبة المريد حال الذكر للشيخ بتخيل صورته أو استحضاره تعظيما له أو استمدادا من روحانيته ينافي هذه المراقبة والفراغ المطلوب من المؤمن حال العبادة من كل شاغل لتتم له لذة المناجاة وحلاوة العبادة فلا يجوز لمسلم أن يعمل على إبطال عمل مسلم آخر مهما كان الدافع لذلك .

يقول صاحب أضواء البيان عند قوله تعالى : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك تجزيه جهنم ... ﴾ (١) الآية دليل قاطع على أن حقوق الله الخالصة له من جميع أنواع العبادة لا يجوز أن يصرف شيىء منها لأحد ولوملكا مقربا أو نبيا مرسلا) (٢)

ومقام المراقبة أجل مقامات الاحسان وتأول ماأرشدوا إليه على ما قاله النووي ونقله عنه ابن حجر قائلا : إن القاضي عياض سبقه إليه من قوله : (وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعا من تلبسه بشيىء من النقائص احتراما لهم واستحياء منهم فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلعا عليه في سره وعلانيته) (٣) بعيد عندي لأن النووي قصد المجالسة الحسية بالاجتماع والاشتغال بالخير والعلم عما يناقضه مما يخالف حال المجالس ولا يرضى به ، وهذا من باب صحبة الأخيار المطلوبة شرعا ، وما أرشدوا إليه من باب طلب مراقبة المخلوق الغائب واستحضاره في الذهن طلبا على ما يظهر من نصوصهم إلى مزيد القرب من الله تعالى ، ولا يخفى أنما ذكروه مناف لمقصد الذكر لما فيه من رائحة الإشراك بالله في العبادة وما ينافي الشيء لا يكون من أسباب تحصيله . والله أعلم .

---

(١) سورة الانبياء الآية ٢٩ .

(٢) أضواء البيان جـ ٤ ص ٥٦١ . ٥٦٢ .

(٣) النووي جـ ١ ص ١٥٨ والفتح جـ ١ ص ١٢٠ .

ثالثا : والآية التي ذكرت في النصوص السابقة وهي قوله تعالى :

﴿ وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلاعلى قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير ﴾ (١) استدلالاً على أن المريد إذا استحضر صورة الشيخ حال الذكر مستمدا منه ومستنصرا به أن المدد يأتيه بواسطته لا محالة . لا دليل فيها على المقصود من إيرادها لاجماع المفسرين وأئمة التأويل على أنها فيمن آمن وبقي بين المشركين ولم يهاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين في دار الهجرة والجهاد .

يقول الطبري : (وإن استنصركم هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا في الدين) يعني : بأنهم من أهل دينكم على أعدائكم وأعدائهم من المشركين (فعليكم) أيها المؤمنين من المهاجرين والانصار (النصر) (إلا) إن استنصروكم (على قوم بينكم وبينهم ميثاق) يعني عهد قد وثق به بعضكم على بعض أن لايحاربه) (٢)

رابعا : أن هذه العقيدة مع أنها لم تصدر ممن في كلامه حجة ولا دليل عليها من الكتاب والسنة بل تبين بما تقدم أنها تخالف عقائد المتمسكين بهما فإن نصوص القادرية التي ذكرت تشتمل في طياتها على ما يبطل الاستدلال بها على المراد لعدم قناعة المستدل بها على كونها من الحق الذي يعتمد عليه مما سبب تناقضا في كلامهم

من ذلك أننا نجد نصا يقول فيه صاحبه : (ومن القوم طائفة إذا لم يجدوا لذلك العمل دليلا من السنة الثابتة في كتب الشريعة يتوجهون بقلوبهم وهممهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا حضروا بين يديه سألوه عن ذلك وعملوا بما قاله لهم لكن مثل ذلك خاص بأكابر الرجال وإلا فمبنى أمرهم فيما يكاشفون به ويفاتحون على العرض لذلك على الكتاب والسنة وعمل السلف فما وافق من ذلك اعتمدوه وشكروا الله تعالى ومالا رفضوه وعملوا بمقتضى الشريعة مما لم يتناوله مطلق الإذن) (٣)

---

(١) سورة الانفال الآية ٧٢ .

(٢) تفسير الطبري جـ ١٤ ص ٨٢ .

(٣) جنة المريد ص ٦٧ ـ ٦٨ .

ففي هذا النص الامور الآتية :

١) توجه لطلب أمر غير موجود في الكتاب والسنة أو لم يعرف مكانه فيهما .

٢) عرض هذا العلم الزائد عل الكتاب والسنة عليهما .

٣) قبول ما شهدا له ورفض ماخالفهما وقد سبق أن هذا التوجه المذكور غير جائز

ويكفي من هذه الأمور كلها الاقتصار على ما نص عليه الشارع أو فهم من نصه وسد باب طلب ما زاد عن ذلك لأن طلب ما ليس في الكتاب والسنة أول عمليات الخروج عنهما ، وعرضه عليهما والعمل به إن شهدا له ، أو رفضه إن لم يشهدا له عملية لا يقدر عليها كل الصوفية القائلين بهذه العقيدة والمدعين لحصول المعارف عن طريقها ، ثم إن العمل يكون بالكتاب والسنة على ما قاله صاحب النص ، والكتاب والسنة كانا موجودين ومعصومين قبل هذا التوجه المذكور وما ينتج عنه ، فبقي أنه عمل لا فائدة منه وجهد معطل عن النظر في الكتاب ، والسنة وأقوال الائمة من أول مرحلة البحث . ويؤكد أنه لا فائدة منه ما قاله صاحب النص نفسه :

(فإن قيل ألصاحب هذا المقام أن يأمر الناس بما أمره به رسول الله صلى عليه وسلم بفعله أو قوله ؟

فالجواب : لا ينبغي له ذلك لأنه زائد على السنة الصحيحة الثابته من طرق النقل ومن أمر الناس بشيىء زائد على ما ثبت بالنقل فقد كلف الناس شططا وأشبه الناصب لنفسه مشرعا) (١)

ولا يرتكب مثل هذه الأمور الغامضة إلا من يحاول أن ينصب نفسه مشرعا . والله أعلم . وقد نقلت عن ثقات من تلاميذ الشيخ عبد الله بن داداه أنه كان يقول لهم : (إنمايريد بعض المشايخ والفقهاء المتعصبين لبعض الأقوال من غير دليل أن ينصبوا أنفسهم حجابا بين الله ورسوله وبين الخلق حتى لا يرى الناس إلاهم) (٢)

---

(١) جنة المريد ص ٦٨ .

(٢) الرحلة العلمية . مقابلات مع محمد الحسن بن عمر ومحمد عبد الله بن عمار.

المطلب الثالث : طلب قضاء الحوائج بالمخلوق

تقديم :

من الواضح أن عقيدة التوسل إلى الله تعالى بالمخلوق مصدرها الحقيقي كما ظهر فيما تقدم من مباحث هذا الفصل هو تعظيمه وإعطاؤه مكانة فوق مكانة البشر العادين من المؤمنين ، وهذه المكانة الرفيعة تتدرج بمعتقدها إلى أمور كثيرة منها محبته محبة زائدة والدفاع عنه بدون شعور والتعصب له بدون دليل ، واعتبار أي لون من ألوان النصح أو الارشاد أو التوجيه له أو النقد البناء . حطا من قدره وتعديا على حرمته وطعنا في مقامه العالي ، ولا يزال الأمربمعتقد هذه المكانة للمخلوق حتى يسوغ لنفسه التبرك والتمسح بذات ذلك المخلوق أو ما تيسر من أشيائه الخاصة إن فقد هو أو بقراباته أو خواص أتباعه أو حتى تربته وبلاده فإذا صارت هذه الأمور عقيدة جاء دور الشيطان وأوحى لذلك المحب المتبرك بعقيدة التوجه إلى ذلك المخلوق لمكانته عند الله . في نفسه هو . أن يتوسط به عند الله تعالى في قضاء حوايجه وتفريج كرباته والتوسعة على عياله ونشر البركة على بلاده • وهو في توسله بهذا المخلوق لتحصيل ذلك المطلوب لا يفرق بين ما يقدر عليه المخلوق وبين ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، وما يطلب من الحي الحاضر وما لا يجوز طلبه منه في حال غيبته حيا كان أو ميتا وما ذلك الا بسبب ما استقر في عقله من زيادة التعظيم لذلك المخلوق • ثم هو في توسله هذا يغفل أمورا مهمة ويرتكب محاذير عديدة • فمما يغفله أنه طلب حاجاته ممن لا يملكها ، ونسي الأدلة على ذلك ، ونسي أيضا أسباب قضاء الحوائج ، وفاته أن أولها توحيد الله تعالى والإيمان بأنه وحده النافع الضار ومما يرتكبه كثرة النداء للمخلوقات من الأحياء والأموات وصرف الأموال في غير وجوهها على حساب الواجبات الشرعية والفروض الذاتية •

ثم استعمال عبارات غير مشروعة في الدعاء مثل بجاه فلان، أو يا رسول الله ، أو ياصالحوه مكان كذا وكذا يا شيخنا وتلاميذك إلى غير ذلك من التوسل الذي لا يذكر الله فيه وإن ذكر فمع غيره والمستغاث به ذلك الغير لا الله تعالى • وهذه أمور اعتبرها القرآن الكريم والسنة النبوية ومن تمسك بهما من علماء الأمة دائرة بين الشرك الأكبر أو الذريعة إليه أو أنها من الكبائر والمحرمات الصارفة عن ذكر الله وعن الصلاة ، وأن المسلم غني عنها بما فتح له من أبواب الخير والتوسل

المشروع (١) وقد كتب العلماء في مسألة التوسل قديما وحديثا وبينوا مايجوز منه وما لا يجوز ومع ذلك بقي في الأمة من يخالف المنهج الصحيح في هذه العقيدة ويجوز منها ما لا دليل على جوازه أو ما لا دليل له فيه إلا بقياسات بعيده وتكلفات لا ترتكب في ميدان العقائد : (فاضطرب الناس في مسألة التوسل ، وحكمها في الدين اضطرابا كبيرا ، واختلفوا فيها اختلافا عظيما ، بين محلل ومحرم ، ومغال ومتساهل ، وقد اعتاد جمهور المسلمين منذ قرون طويلة أن يقولوا في دعائهم مثلا :

(اللهم بحق نبيك أو بجاهه أو بقدره عندك عافني واعف عنى) أو (اللهم إني أسالك بحق البيت الحرام أن تغفر لي) أو (اللهم بجاه الأولياء والصالحين ، ومثل فلان وفلان) أو (اللهم بكرامة رجال الله عندك ، وبجاه من نحن بحضرته ، وتحت مدده فرج اللهم عنا وعن المهمومين) أو (اللهم إنا قد بسطنا إليك أكف الضراعة، متوسلين إليك بصاحب الوسيلة والشفاعة أن تنصر الإسلام والمسلمين ...) (٢)

هذه بعض الأمثلة على توسل جمهور المسلمين (ويدعون أنه يعني . هذا التوسل . سائغ ومشروع ، وأنه قد ورد فيه بعض الآيات والأحاديث التي تقره وتشرعه ، بل تأمر به وتحض عليه ، وبعضهم غلا في إباحة هذا حتى أجاز التوسل إلى الله تعالى ببعض مخلوقاته التي لم تبلغ من المكانة ما يؤهلها لرفعة الشأن ، كقبور الأولياء ، والحديد المبني على أضرحتهم ، والتراب والحجارة والشجر القريبة منها ، زاعمين أن ما جاور العظيم فهو عظيم ، وأن إكرام الله لساكن القبر يتعدى إلى القبر نفسه حتى يصح أن يكون وسيلة إلى الله، بل قد أجاز بعض المتأخرين الاستغاثه بغير الله) (٣) ولا حجة في قول أحد ما لم يعتمد على الكتاب والسنة فيما يقول ويفعل ، وقد تقدم بيان وجه الحجة في الوسيلة وأنه لا حجة فيما احتج به المحتجون على التوسل بالشيخ أو غيره من ذوات الأشخاص . ولنورد هنا بعض نصوص القادرية في التوسل بذوات الاشخاص الأحياء منهم والأموات لنرى مذهبهم في التوسل وطلب الحوائج من المخلوق من خلال عباراتهم وندرس إن شاء الله تعالى ما يصح ممانصواعليه مما لايصح .

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية والتبرك المشروع والتبرك الممنوع على بن نفيع العلياني دار الوطن . الرياض ط ١١ سنة ١٤١١ هـ ورسالة الشرك ومظاهره للميلى والتوسل انواعه وأحكامه، محمد ناصر الدين الالباني . المكتب الإسلامي ط ١١ سنة ١٤٠٦ هـ .

(٢) التوسل أنواعه وأحكامه ص ٩ .

(٣) نفسه ص ٩ . ١٠ .

عـــــــرض

بعض نصوص القادرية في التوسل بالمخلوق في قضاء الحوائج :

يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي في أثناء ترجمته لأحد أجداده وهو الشيخ سيدي عمر الشيخ أنه جاء إلى الروضة الشريفة وأنشد قصيدة منها :

(فطب وغب عن هموم كنت تحملها ... وسل تنل كل ما ترجوه مـن كرم

يا سيدي يا رسول الله خذ بيـدى ... يا مـن لقاصده أمن من النقـم

إني فقير إلى عفو ومكرمـة ... وأنت أدرى بما في القلب مـن ألم

وقد أتيتك أرجو منك مكرمـة ... فأنت أهل التقى والوجود والكـرم

فالحال يغني عن الشكوى إليك وقد ... عرفت حالي وإن لم أحكه بفـمي

فاشفع لعبدك واجبر كسـره فلقد ... أودي به الكسر مما نال من جرم

يارب يارب يا مولاي عبـدك في ... بـاب الرجا يرتجى أمنا من النقم

فجد عليه بما يرجوه من كـرم ... فقد توسل في الدنيا بحقهـم) (١)

وواضح تأثر هذا النص ببردة البوصبرى الشاذلي المتوفى سنة ٦٩٦ هـ (٢) وخصوصا في قول البوصيرى :

(إن آت ذنبا فما عهدي بمنتقض ... من النبي ولا حبلي بمنصـرم

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ بـه ... سواك عند حلول الحادث العمـم

ولن يضيق رسول الله جاهـك بي ... إذا الكريم تجلى باسم منتقـم) (٣)

---

(١) المنة ص ٤٢ وضمير الحمع يريد به النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه وأهل بقيع الغرقد .

(٢) البوصيرى المادح الأعظم للرسول ، عبد العال الحماطي ، دار المعارف كتابك عدد ٣٤ ص ٣٧ . ٣٨ .

(٣) نفسه .

ويقول الشيخ سيدي المختار الكنتي أيضا ناقلا عمن توسل بالأربعين وليا من ذرية الكنتي :

(ولذ بحمى المختار إن كنت خائفا	تجده حمى في حرز سور مقرمد
كذلـــك سل بالشيخ أمنا فكـــم به	يفرج حقـــا كل أمـــر معقـــد
إلى أحمد وجهت كـــل مـــآربي	وأحمد لا يرضى بحرمان مجتد
ألا يا بني الكنتي إني بجاهكـــم	توسلت للمولى فهل من تـــزود
ليقضي تباعتي ويذهب فاقتـــي	ويصلح أحوالي وينجح مقصـــد
فكم فيكم من سيد ذي تصـــرف	لديه كأن الكون في قبضة اليد) (١)

ويحكى المختار الكنتي عن نفسه أنه زار جده الشيخ سيدي أحمد البكاي بولاته يريد قضاء حاجة لهم ملحة وهي إخبارهم عن قافلة لهم فيها جميع أهل حلهم وعقدهم قال : (فأتوني بجماعتهم فقالوا : إنا نعتقد فيك ما نعتقده في جدك هذا) وأنه ذهب إليه وجاءهم بالخبر عنها ، ثم إنه حكى من مشاهداته في ذهابه إليه ما يوحى بالقول بالرجعة وقيام الموتى من قبورهم ، وختم تلك الحكايات متمثلا بقول القائل :

(فكان ما كان مما لست أذكره — فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر)

ثم (قال : يروى أنه أرى أصحابه يعني جده حجرا كان يجالس عليه الخضر فحملها أصحابــه إلى بيوتهم فاقتسموهــا فــلا يبلع أحد منها قليلا إلا أكرمه الله بالفهم والذكاء ...) (٢)

ويقــول صــاحب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور • وهو شاذلي ركاني (٣) يقــول في ترجمــة الشيخ سيدي أحمـــد البكـــاي : (إنه مشهور متبرك به

---

(١) المنة ص ٤٧ . ٤٨ •

(٢) المنة ص ٤٨ . ٥٠ •

(٣) المصدر المذكور ٢١ و ١٠٠ . ١٠١ •

يزوره الناس من كل فج في كل ساعة وأنهم رأوا من بركاته كثيرا ويأتون بالفتوحات وينحرون عند قبره ويتصدقون به على الفقراء والمساكين) (١)

وقد ذكر صاحب هذا الكتاب تراجم لمن ليسوا من الأعيان في العلم والفقه ولكن ذكرهم ليقول بأنهم صلحاء ويتبرك بهم ويستجاب الدعاء عند قبورهم وينتفع أهل البلد المدفونون فيه بهم ثم ليسأل الله تعالى بجاههم وبكل جاه من له جاه عند الله تعالى (٢)

وللشيخ سيدي المختار قصائد فيها الدعاء والتوسل بالايمان والعمل الصالح وفيها كذلك التوسل بالمخلوقات ومن ذلك :

(وبالمشرف بالاضافة من لوح — ومن قلم وعرش مجيـــد
وبرسلـــك بالملائكة الغـــر — وبالأوليـــا بكل شهيـــد
وجمال الأعيان حيـــا وميتـــا — ووسيط العقود بيت القصيد
وبطه الأمين من لان في اللـــه — وأرغم فيه أنف الحســود) (٣)

ولابنه الشيخ سيدي محمد أدعية وتوسلات شعرية في حال اشتعال بعض الفتن في منطقته دعا فيها بالدعاء الحسن كالتوسل بأسماء الله الحسنى وتوسل فيها بالمخلوقات كثيرا من ذلك قوله فى التوسل بالمخلوقات :

(يا مصطفى الله من الأكوان — غوثا أبـــا القاســم في الأوان
يا عصبة الآل الكرام الخيـره — والخلفاء الراشديـــن البـــرره
يا أهل بيعة الرضى والعقبـــة — وأهل بدر شيبهم والشببـــــه
يأهل أحد يا رجال الصفـــه — من كل ندب ذي صفا وعفه

---

(١) فتح الشكور ٣٠ . ٣١ .
(٢) نفسه ص ٦٨ ، ١٢٨ وغيرها كثير .
(٣) الطرائف ص ٥٧٠ .

إلى أن يقول :

يا غوث يا أقطاب حزب الله　　　يا بـدلا ياعصمة التـلاه

يا جملة الاخيار والاوتـاد　　　من ذي ارتياض زين بارتياد

يا ذا المزايا الجمة الجميلـه　　　وواسط السلسلـة الجليلـه

غوثا عوثاه رجال السلسه　　　من كل دائم الهيام والولـه

يا حاملا لواء هايا جيـلي　　　ومن نحا طريقة من جيـل) (١)

ويقول الشيخ ماء العينين في أثناء كلامه على آداب زيارة المريد للشيخ ناقلا ومستدلا (... يعنى وإذا زرته بحسن هذا القصد وبحسن الأدب والتوسل به إلى ربك إن كان من الموتى فإنه لابد لك من المدد الأوفر فإن الله تعالى قد وكل بقبور الأكابر ملائكـة يقضون حوائج الزائريـن لا سيما وأهل اللـه محل الكرم والسخاء أحياء وأمواتا ...) (٢)

وتبعه على ذلك أبناؤه في أنظامهم وأشعارهم فقد ، نظم (محمد المصطفى مربيه ربه) أسماء الرسل متوسلا بجاههم فقال فيها :

(وبمحمـد رسول الله أتمم لنـا الخير بلا تناه

رب بجاههم وجاه من له　　　جاه أنلني الشكر منك كله) (٣)

وللشيخ التراد من القصائد والمدائح التي يتوسل بها لقضاء حوائجة شيء كثير منها :

---

(١) نفسه ص ٥٧٣ .

(٢) نعت البدايات ص ١١١ . قلت : لم نجد مايدل على ما حكاه صاحب هذا النص إلا حكايات أهل الصوفية التي نقلها هو مصدقا بها .

(٣) منظومة عدد الرسل مربيه ربه مكتبة الشيخ ماء العينيين الساقية الحمراء . المغرب ص ٤ .

(كقطب الورى سعد السعود ملاذنا   أيا حبذا القطب المعظم والسعد
ووالده جدى المؤمـــل فضلـــــه   فلا والد حاكاه فضلا ولا جد
وأشياخنا الســـادات غر أفاضـل   بدا منهم الجيلى هل مثله يبـدو
ألا إنه قطب الوجـــود وفـــرده   ولا قطب إلا في حماه ولا فرد
ومن في حمى الجنيد راح مؤمنـــا   يطلعته تهدى المشيخة والمـــرد
أبو حسن حلف السماحة والندى   وسيلتنا من فضله ذاع والمجد
ألم أذكر الكرخي وهـــو وسيلتـــي   فكم أمه يرجو مواهبه وفد) (١)

ويقول في مديحية له :

(يا خير من أمسى بطيبة ثاويا   ومقامه فوق السماء الأبعد
هذى حوايج مادح قـد أسندت   لجنا بكم ولغيركم لم تسند(٢)

ويقول في غيرها :

(يارب بالمختار كن لي راحما   وقني عذابك لا أراه متى يرى)

ويقول في غيرها :

(تشفعت بالمختار أعظم شافع   وماخاب من يدعو بأحمد في أمر) (٣)

وهو أكثر الشيوخ توسلا بالنبي صلى الله عليه وسلم وشيوخه في الطريقة (٤)

نقد :

وما زال الناس يرددون هذه التوسلات ويدعون بها عند أعظم البليات ولهم في ذلك من النظم الدارج والنثـرما لا يحصى يرددونـه عند زيارة القبور والحضرات الصوفية ، ويتكسبون به .

---

(١) نيل المراد ص ٦ .

(٢) نفسه ص ٦ .

(٣) نفسه ص ١٤ .

(٤) نفسه ص ٢١ و ٣٦ .

ويظهر جليا من هذه النصوص الأمور الآتية :

١) الخلط بين دعاء الله تعالى والاستشفاع بخلقه عليه ٠

٢) إطلاق عبارة التوسل وطلب الحوائج من المخلوق الميت والاسغاثة به ٠

٣) مخاطبة الموتى ونداؤهم لطلب أمور لا يقدر عليهاإلا الله تعالى كالعفو عن الذنوب والزلات والحماية من الشرور ٠

٤) نسبة علم ما في الضمائر للأموات ٠

٥) الحث على الأحتماء واللياذة والسؤال بهم ٠

٦) اعتقاد تفريج الكربات بهم وبزيارتهم والذبح والتصدق عند قبورهم ٠

٧) تجويز شد الرحال إلى القبور وأن أهل البلدة ينتفعون بالصالحين المدفونين عندهم ٠

وتتبع كل فقرة من هذه المسائل يطول جدا ويمكن الاكتفاء عنه بنقد عام يشملها جميعا ثم بيان التوسل المطلوب والمباح والتوسل الممنوع المفضي بصاحبه للشرك الصراح ٠

نقد عام

تقدم أن الله تعالى أمر نبيه صلي الله عليه وسلم أن يقرأ على الناس نصوصا تتلى إلى الأبد وهو أكرم الخلق على الله تعالى أنه لا يملك لنفسه نفعا ولاضرا وأنه ليس له من الأمر شيىء ، هذا في حياته صلى الله عليه وسلم وهو قادر على الدعاء وعلى ما يقدر عليه البشر من أمور هو أكملهم فيها صلى الله عليه وسلم وقد دعى لقوم ونهي عن الدعاء لهم وصلى على آخرين ونهي عن الصلاة عليهم وقال لأقرب الناس منه وأحبهم إليه : (يا فاطمة سليني من مالي ما شئت فإني لا أغني عنك من الله شيئا ٠٠) (١) وخصوصا فيما يتعلق بأمور الآخرة وعفو الذنوب وتكفير السيئات

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب التفسير(وأنذر عشيرتك الأقربين) ، الحديث رقم : (٤٧٧١)

والأمن والحماية من ارتكاب المنهيات أو تسليط الآفات (١) قال الله تعالى :﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ (٢) قال القرطبي : (يقول : وهل يغفر الذنوب أي يعفو عن راكبها فيسترها عليه إلا الله) (٣)

ويقول بن كثير في تفسير هذه الآية : (أي لا يغفرها أحد سواه كما قال الإمام أحمد . وروى بسنده عنه عن الاسود بن سريع أن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بأسير فقال : اللهم أني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال النبي صلى الله عليه وسلم (عرف الحق لأهله) (٤)

ويؤيد هذا قصة الإفك بكاملها وقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فيها لأمها عندما قالت لها قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما بشرها بالبراءة من الله تعالى قالت:(لا والله لا أقوم إليه ، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل) (٥) ثم إن الدعاء من أعظم العبادات وأجل القربات فلا يجوز صرف شيىء منه لغير الله تعالى . قال الله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ (٦)

قال القرطبي : (نقلا عن أكثر المفسرين أن المعنى وحدوني واعبدونى أتقبل عبادتكم وأغفر لكم) (٧)

وجاء في الحديث المخرج في السنن عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الدعاء هو العبادة) (٨)

---

(١) أنظرفتح الباري جـ ٨ ص ٢٢٥ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٥ .
(٣) تفسير الطبراني جـ ٧ ص ٢١٩ .
(٤) تفسير بن كثير جـ ١ ص ٤٠٧ .
(٥) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب حديث الإفك ، الحديث رقم : (٤١٤١) .
(٦) سورة غافر الآية ٦٠ .
(٧) القرطبي جـ ١٥ ص ٣٢٦ . ٣٢٧ .
(٨) أبو داود جـ ٢ ص ١٤١ .

وقال في الأدب المفرد للإمام البخاري في فضل الدعاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ليس شيء أكرم على الله من الدعاء) وفي رواية عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أشرف العبادة الدعاء) (١) وما دام الدعاء بهذه المكانة من العبادة كان صرفه لغير الله تعالى من أي أحد من باب الشرك الذي أرسلت الرسل لمحاربته ودعوة الناس لاجتنابه وتوحيد الله تعالى وحده في العبادة والمسألة التي لا يقدر عليها إلا هو جل جلاله .

قال صاحب الرد على القبورين : (فدعاء العبادة ودعاء المسألة كلاهما عبادة لله لا يجوز صرفها إلى غيره فلا يجوز أن يطلب من مخلوق ميت أو غائب قضاء حاجة أو تفريج كربة ، بل ما لا يقدر عليه إلا الله لا يجوز أن يطلب إلا من الله . فمن دعى ميتا أو غائبا فقال : يا سيدي فلان أغثني أو انصرني أو ارحمني أو اكشف عني شدتي ونحو ذلك فهو كافر مشرك يستتاب فإن تاب وإلا قتل وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء فإن هذا هو شرك المشركين الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم ...) (٢)

فالتوسل على هذا يمكن أن يكون قسمين اثنين :

- توسل مشروع ومرغب فيه بأنواعه .
- وتوسل ممنوع لأنه إما شرك أو يفضي إليه .

أما التوسل المشروع فإنه يشمل الايمان والأعمال الصالحة كلها . فمن القرب التي يتوسل بها وحث الشارع عليها بعد الايمان بالله تعالى وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به عن الله تعالى . ما تقدم في تفسير آية المائدة ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون ﴾ (٣)

---

(١) الادب المفرد ، عالم الكتب ط ١ سنة ١٤٠٤ هـ تقديم كمال يوسف الحوت ص ٢٤١

(٢) النبذة الشريفة النفيسة في الرد على القبورين ، حمد بن ناصر بن عثمان آل معمر تحقيق عبد السلام بن برجس بن ناصر آل عبد الكريم ، دار العاصمة الرياض ط ١ سنة ١٤٠٩ ص ٢٦ .

(٣) المائدة الآية ٣٥ .

وقال الله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ (١) وفي سبب نزولها ما بين معناها : فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : (كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن ، فأسلم الجن ، وتمسك هؤلاء بدينهم) (٢) . فالمتقرب إليهم صاروا مؤمنين يتقربون إلى الله تعالى بالإيمان والطاعات .

قال الحافظ بن حجر : (أي استمر الإنس الذين كانوا يعبدون الجن على عبادة الجن والجن لا يرضون بذلك لكونهم أسلموا ، وهم الذين يبتغون إلى ربهم الوسيلة) (٣) ويدخل في هذه القرب التي شرع التوسل بها إلى الله تعالى العبادات الواجبة والمندوبة والأدعية المأثورة والأعمال الصالحة وطلب الدعاء من الرجل الصالح (٤) وهذه بعض النصوص الدالة على مشروعية ذلك وأنه من أعظم الوسائل نفعا فمن الكتاب قوله تعالى : ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامه إنك لا تخلف الميعاد فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ... ﴾ (٥) وفي الكتاب والسنة من الأدعية والتعوذات مايغنى المسلم عن طلب غيرها من التوسلات ، وقد خصص العلماء كتبا للأدعية الصحيحة وبينوا معانيها وما ورد في خصائصها وفضائلها وأوقاتها (٦) .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٥٧ .

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير ، باب (وآتينا داود زبورا) الحديث رقم : (٤٧١٤) .

(٣) فتح الباري جـ ٨ ص ٣٩٧ .

(٤) التوسل أنواعه وأحكامه ص ٣١ وما بعدها .

(٥) سورة آل عمران الآيات ١٩١ . ١٩٥ .

(٦) أنظرفتح الباري جـ ١١ ص ٩٤ . ٢٢٨ .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه قال : لله تسعة وتسعون اسما . مائة إلا واحدة . لايحفظها أحد إلا دخل الجنة وهو وتريحب الوتر) (١) وفي رواية له أيضا رضي الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنه) أحصيناه : حفظناه (٢)

وعنه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إذا جاء أحدكم فراشه فلينفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات وليقل بإسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فاغفر لها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين (٣)

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول : اللهم إني إسالك أني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، فقال : لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب) (٤) ويقول تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ (٥) ويقول تعالى : (الله لا إله إلا هو له الاسماء الحسنى) (٦) .

فهذه نصوص صحاح مصرحة بأن لله تعالى اسماء وأن له تعالى اسما أعظم إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب وهو تعالى يدعو عباده إلى التوسل بهذه الأسماء المباركة والاستعاذة بها مما أخذ العلماء منه أنها غيرمخلوقة وأن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق (إذ لو كان مخلوقا لم يستعذ بها إذ لا يستعاذ بمخلوق) (٧)

---

(١) صحيح البخاري كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحدة ، الحديث رقم :(٦٤١٠)

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد ، باب إن لله مائة اسم إلا واحدة الحديث رقم :(٧٣٩٢)

(٣) نفسه باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها ، الحديث رقم : (٧٣٩٣)

(٤) سنن أبي داود كتاب الصلاة ، باب الدعاء ، الحديث رقم : (١٤٩٣) .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٨٠ .

(٦) سورة طه الآية ٨ .

(٧) فتح الباري جـ ١٣ ص ٣٨١ .

ومن التوسل المشروع توسل المؤمن بصالح عمل أخلص فيه لله تعالى كقصه الرهط الثلاثه الذين سدت الصخره عليهم الغار الذي أووا إليه ·

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخره إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم · فقال رجل منهم : اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بي في طلب شيء يوما فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، فاستيقظا ، فشربا غبوقهما ·

اللهم إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخره ، فانفرجت شيئا لايستطيعون الخروج · قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الآخر : اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي ، فأردتها عن نفسها فامتنعت مني ، حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ، ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه ، فتحرجت من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي ، وتركت الذهب الذي أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخره غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها · قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الثالث : اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم ، غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءني بعد حين فقال : يا عبد الله أد إلي أجري ، فقلت له : كل ما ترى من أجلك ، أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال : يا عبد الله لا تستهزيء بي · فقلت : إني لا أستهزيء بك ، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك شيئا · اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه· فانفرجت الصخره فخرجوا يمشون) (١)

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الاجارة ، باب من استأجر أجيرا فترك أجره فعمل فيه المستأجر فزاد أو من عمل في مال غيره فاستفضل ، الحديث رقم (٢٢٧٢) ·

وهكذا نجاهم الله تعالى لأنهم توسلوا إليه بقرب شرع التوسل بها ويحب الإخلاص فيها ابتغاء وجهه تعالى ، ومن عرف الله في الرخاء نجاه في الشدة وعرف له إخلاصه ٠

فأول هؤلاء الرهط توسل إلى الله تعالى ببره وعطفه على والديه ابتغاء وجه الله تعالى ، وبر الوالدين واجب في كل دين منزل ومقرون بعبادة الله في الكتاب الكريم ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا) (١) ومرغب فيه ومرهب من ضده في الكتاب والسنة ٠

والثاني : توسل إلى الله تعالى بإخلاصه في ترك شهوته في مرغوب له ابتغاء وجهه تعالى مع توفر الدواعي ٠

والثالث : توسل إلى المولى تعالى بمراعاته ومحافظته على حق الأجير الذي لايملك دليلا على أن هذه الأموال كلها من أصل أجرته الزهيدة فكان إخلاصه لله تعالى في مراعاة أصل الأجرة وإتقان الرعاية لها وتنميتها ثم الصدق والتسليم لنمائها في أنواع الأموال مع أنه لا يلزمه إلا أصل الأجرة (٢) فمن توسل إلى الله تعالى بمثل أعمال هؤلاء وإخلاصهم ، فالله تعالى أكرم من أن يخيب رجاءه ومن التوسل المشروع طلب الدعاء من الرجل الصالح لرفع بلاء أو كشف غمة أو استنزال خيرأو نصرة مظلوم أو دفع ظالم إلى غير ذلك مما هو مشروع لا إثم فيه ولا قطيعة رحم ويشهد لمشروعية ذلك والترغيب فيه الكتاب والسنة وعمل الصالحين من السلف الصالح ومن بعدهم ٠

قال الله تعالى عن قول قوم موسى لموسى : ﴿ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ٠٠) (٣) أي (بما أوصاك وأمرك) (٤) وقال القرطبي : (ما) بمعنى الذي ، أي بما استودعك من العلم ، أو بما اختصك به فنبأك) (٥)

(١) سورة النساء الآية ٣٦ ٠
(٢) فتح الباري جـ ٤ ص ٤٥٠ والتوسل أنواعه وأحكامه ص ٣٥ ـ ٤١ ٠
(٣) سورة االأعراف الآية ١٣٤ ٠
(٤) الطبري جـ ١٣ ص ٧٢ ٠
(٥) القرطبي جـ ٧ ص ٢٧١ ٠

وقــال القرطبــي أيضــا عند قـول الله تعالى : ﴿ وقال ربكم أدعوني أستجب لكم ﴾ (١) . بعد أن بين بما نقل من آثار عن كعب الأحبار ما اختصت به هذه الأمة من أمور لم تعط إلا للأنبياء من كون النبي يقال له وحده دون أمته : (ادعني أستجب لك) (وما جعل عليك فى الدين من حرج) (وكان الله إذا بعث النبي جعله شهيدا على قومه) وقد خوطبت هذه الأمة على العموم بمثل ما كان يخاطب به النبي خاصة في الكتاب الكريم . قال بعد ذلك : (وكانت الأمة تفزع إلى أنبيائها في حوائجها حتى تسأل الأنبياء لهم ذلك) (٢) وكان الصحابة رضوان الله عليهم يتوسلون بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم في أمورهم العامة والخاصة وكان صلى الله عليه وسلم يدعو لهم ويشفع لهم ويدلهم على الأسباب الموجبة للإجابة له ولهم ومن أوضح توسلهم بدعائه صلى الله عليه وسلم في أمورهم العامة أحاديث الاستسقاء الصحاح (٣) ومن أصرح ذلك ما جاء عن أنس رضي الله عنه : (أن رجلا دخل المسجد يوم جمعة من باب كان نحو باب دار القضاء . ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب . فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما ثم قال : يا رسول الله هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغيثنا • فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم أغثنا • قال أنس : ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة ، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار • قال فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء انتشرت ، ثم أمطرت ، فلا والله ما رأينا الشمس ستا ، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة ورسول الله قائم يخطب فاستقبله قائما فقال : يا رسول الله هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يمسكها عنا قال فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر • قال فأقلعت وخرجنا نمشي فى الشمس قال شريك سألت أنس بن مالك : أهو الرجل الأول فقال : ما أدري) (٤)

---

(١) سورة غافر الآية ٦٠ •

(٢) القرطبي ج ١٥ ص ٣٢٧ •

(٣) صحيح البخاري كتاب الاستسقاء •

(٤) صحيـح البخـاري كتاب الاستسقاء باب الإستسقاء في خطبـة الجمعة عير مستقبل القبلة ، الحديث رقم : (١٠١٤) •

قال الحافظ بن حجر في فوائد هذا الحديث : (وسؤال الدعاء من أهل الخير ومن يرجى منه القبول وإجابتهم لذلك ، ومن أدبه بث الحال لهم قبل الطلب لتحصيل الرقة المقتضية لصحة التوجه فترجى الإجابة عنده) (١) وهو ما سلكه هذا الرجل هنا وسلكه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما في حديث أنس رضي الله عنه (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا إستسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . قال فيسقون) (٢) .

وهكذا لما توسل الصحابة بالعباس رضي الله عنه قام وقدم بين يدي دعائه واستسقائه ما ترجى الإجابة به من الاعتراف بالذنوب وإعلان التوبة لله تعالى (٣) .

ولاتعد الأمثلة على مثل هذا النوع من التوسل في الأمور العامة بدعاء الرجل الصالح وكذا لا تعد الأمثلة على توسل الصحابة بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم في أمورهم الخاصة . ويجمع ما تقدم جميعا توسل الأعمى بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم في رد بصره كما في الحديث المخرج في السنن والمرموز له بالحسن والصحة ونصه كما في سنن ابن ماجه : (عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله لي أن يعافيني ، فقال : إن شيئت أخرت لك وهو خير وإن شئت دعوت فقال أدعه ، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بمحمد نبي الرحمة ، يا محمد إني قد توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى ، اللهم فشفعه في ، قال أبو إسحاق : هذا حديث صحيح) (٤) .

---

(١) فتح الباري جـ ٢ ص ٥٠٦ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الاستسقاء ، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا أقحطوا ، الحديث رقم : (١٠١٠) .

(٣) انظر : فتح الباري جـ ٢ ص ٤٩٧ .

(٤) سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٤١٨ . ٤١٩ وعمل اليوم والليلة للنسائي . أحمد بن شعيب النسائي دراسة وتحقيق فاروق حمادة ط ١ سنة ١٤٠١ هـ الرباط ص ٤١٧ . ٤١٨ .

وقد تتبع طرق هذا الحديث وزياداته شيخ الإسلام ابن تيمية في القاعدة الجليلة في التوسل والوسيلة وبين توجيهات أهل العلم له (١) وتبعه على ذلك الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في التوسل أنواعه وأحكامه . (٢)

ومحصل الكلام في هذا الحديث الذي صححه الألباني تبعا لمن سبقه (٣) أن هذا الضرير جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يريد الدعاء منه كما كان يأتيه أمثاله فيدعو لهم فيكشف الله ما بهم من ضر أو يخيرهم بين الدعاء لهم والصبر مبينا أن الصبر أفضل لهم في الآخرة كما خير هذا الرجل في ذلك ففضل أن يدعى له فأرشده صلى الله عليه وسلم لأمور مشروعة ترجى بركتها وقبول الدعاء إثرها من طهارة وصلاة وهيئة استرحام ، ثم علمه دعاءً ايدعوبه فدعابه مع شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم له فرد الله له بصره وعاد إلى المجلس الذي كان فيه كأن لم يكن به ضر . وهذه أمور واضحة في نص الحديث برواياته المختلفة المشار إليها .

وبهذا يتبين أن التوسل إلى الله تعالى إنما يكون بعد الإيمان بالله تعالى بالأعمال الصالحة الخالصة الموافقة لنصوص الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح من الصحابة وتابعيهم من أهل القرون المفضلة .

---

(١) المصدر المذكور ص ٩٢ . ١٠٥ .
(٢) المصدر المذكور ص ٧٥ . ٨٣ .
(٣) التوسل أنواعه وأحكامه ص ٧٥ .

أما التوسل الممنوع فهو ما خالف التوسل المشروع الذي سبق بيانه بنصوص من كتاب الله تعالى وسنة النبي صلى الله عليه وسلم وذلك بأن يتوسل بذوات العباد وجاههم أو دعائهم أو ندائهم أحياء أو أمواتا .

واعتقاد أن ذلك ينفع أو يدفع ، أو شد الرحال إلى القبور والمزارات تعظيما لها أو اعتقاد حصول خير أو دفع ضر بجاه المقبورين فيها . لا من أجل زيارتها والتذكر والدعاء لأهلها . والله لا يتوسل إليه بذوات الأشخاص مهما كان فيهم من خير وصلاح ، وحفظ لكتاب الله وحدود الله تعالى . وبما أن هذه المعتقدات وما يتفرع عنها من تصرفات من باب الشرك الذي لا يغفره الله تعالى حرص العلماء على سد هذه الأبواب ، والتمسوا لمن يدخل في بعضها لشبهة كالتوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم وجاهه العظيم عند الله تعالى وكذا من قاس عليه غيره في ذلك من الصالحين فقالوا :

١) إنه لا يصح حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم يأمر أو يجوز التوسل بذاته الشريفه (١)

قال الشيخ ناصر الدين الألباني عند الكلام على قولهم : (توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم) قال . لا أصل له . ثم قال : (ومما لا شك فيه أن جاهه صلى الله عليه وسلم ومقامه عند الله عظيم ، فقد وصف الله تعالى موسى بقوله : (وكان عند الله وجيها ..) (٢) ومن المعلوم أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من موسى ، فهو بلا شك أوجه منه عند ربه سبحانه وتعالى ، ولكن هذا شيىء والتوسل بجاهه صلى الله عليه وسلم شيء آخر ، فلا يليق الخلط بينهما كما يفعل البعض ، إذ إن التوسل بجاهه صلى الله عليه وسلم يقصد به من يفعله أنه أرجى لقبول دعائه وهذا أمر لايمكن معرفته بالعقل إذ بأنه من الأمور الغيبية التي لا مجال للعقل في إدراكها ، فلابد فيه من النقل الصحيح الذي تقوم به الحجة ، وهذا مما لا سبيل إليه البتة ، فإن الأحاديث الواردة في التوسل به صلى الله عليه وسلم تنقسم إلى

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ١٢٩ وما بعدها .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٦٩ .

قسمين ، صحيح وضعيف أما الصحيح فلا دليل فيه البتة على المدعى مثل توسلهم به صلى الله عليه وسلم وتوسل الأعمى به صلى الله عليه وسلم فإنه توسل بدعائه صلى الله عليه وسلم لا بجاهه ولا ذاته صلى الله عليه وسلم ، ولما كان التوسل بدعائه صلى الله عليه وسلم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى غير ممكن كان بالتالي التوسل به صلى الله عليه وسلم بعد وفاته غير ممكن وغير جائز ..) (١)

ومادام أهل العلم حققوا أن الاحاديث التي ورد فيها التوسل بذات الرسول صلى الله عليه وسلم باطلة أو لا أصل لها وما صح كحديث الضرير لا حجة فيه على المدعي كان كلام الفقيه أبي محمد العز بن عبد السلام : (أنه لا يجوز أن يتوسل إلى الله بأحد من خلقه إلا برسول الله صلى الله عليه وسلم إن صح حديث الأعمى) (٢) لا حجة فيه أيضا لما تقدم أن الضرير جاء يطلب الدعاء والاستشفاع وأن النبي صلى الله عليه وسلم علمه الدعاء وأسلوب التوجه المطلوب ولو أشتمل على مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم والتوجه به (٣)

مع أنه مسموع كما قال شيخ الاسلام عن طائفة من السلف منهم الإمام أحمد تجويز السؤال بالنبي صلى الله عليه وسلم وأن ذلك إن حمل على أن قائله أراد بقوله أسألك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم أي بإيمانه به أو محبته له أو غير ذلك من المعاني الصحيحة كان ذلك جائزا ولا نزاع فيه (٤) . ثم قال : (ولكنّ كثيراً من العوام يطلقون هذا اللفظ ولا يريدون هذا المعنى ، فهؤلاء الذين أنكر عليهم من أنكر) (٥) أنه لا يقاس أحد من الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما بلغ من الصلاح والبركة . ويشهد لذلك الاحاديث الصحاح والحسان وتحقيقات أهل التحقيق فلم يعرف عن أحد من الصحابة أنه يسوى بين أحد منهم ولو أبا بكر

---

(١) سلسلة الاحاديث الضعيفة جـ ١ ص ٣٠ .

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ١٤٧ .

(٣) سنن ابن ماجه مع حاشية السندي جـ ١ ص ٤١٩ .

(٤) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٦٢ و ١٤٤ .

(٥) نفسه ص ٦٢ .

الصديق رضي الله عنه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم في عظيم بركته وتعظيم شأنه والتبرك بكل ماله صلة به والتوسل بدعائه ، فهذا عروة بن مسعود يقول لقريش (أي قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إن رأيت ملكاقط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم محمدا والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيما له ...) (١) رواه البخاري . وأحاديث رقيته ودعائه صلى الله عليه وسلم ومسحه بيده الشريفة الطاهرة لنفسه ولمن طلب منه ذلك أو تفضل هو عليه بذلك كثير جدا (٢) ومنها ما خرجه البخاري في باب المرأه ترقي الرجل . قال (عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفث على نفسه في مرضه الذي قبض فيه بالمعوذات ، فلما ثقل كنت أنا أنفث عليه بهن ، فأمسح بيد نفسه لبركتها) (٣)

والظاهر أنها رضي الله عنها فعلت ذلك لمكانتها في الفقه وأنه لا يقاس أحد على الرسول صلى الله عليه وسلم في البركة والطهارة وهي الطاهرة المباركة رضي الله عنها وعن أبيها .

وهذا الفهم يؤيده قول القاضي عياض في الشفا فصل (وأما نظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد فكان قد خصه الله تعالى في ذلك بخصائص لم توجد في غيره) (٤) ومع ذلك فإن تقوية منع التوسل بجاهه صلى الله عليه وسلم أحوط كما قال الميلي : (التوسل بالجاه شرك أو ذريعة إليه : والذي نقوله : إن هذا الضرب من التوسل إن لم يكن شركا فهو ذريعة إليه) (٥)

---

(١) صحيح البخاري كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد ، والمصالحة مع أهل الحرب ، وكتابة الشروط من الحديث رقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

(٢) صحيح البخاري كتاب الطب ، أبواب الرقيا .

(٣) صحيح البخـاري ، كتاب الطب ، باب المرأة ترقي الرجل . الحديث رقم : (٥٧٥١)

(٤) الشفا مع شرح القاري جـ ١ ص ٣٧٣ وما بعدها .

(٥) رسالة الشرك ومظاهره ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (فالتوسل بالأنبياء والصالحين : يكون بأمرين ، إما بطاعتهم واتباعهم ، وإما بدعائهم وشفاعتهم .) (١) وما ذهب إليه الإمام الشوكاني من التوسع في التوسل والحاق أهل الفضل والعلم كما قال بالنبي صلى الله عليه وسلم وأن المتوسل بهم إنما يتوسل بأعمالهم الصالحة وأن من قال : (اللهم إني أتوسل إليك بالعالم الفلاني فهو باعتبار ما قام به من العلم . وأن من فعل ذلك لم يدع إلا الله وإنما وقع منه التوسل إليه بعمل صالح عمله بعض عباده) (٢) فله كلام آخر في الاستغاثة يدل على منعه وتشديده في ذلك حيث قال في بيان مقاصد الناس في توسلاتهم ، واعتقاداتهم في مقبوريهم وشيوخهم قال :(وإذا تقرر هذا فلا شك أن من اعتقد في ميت من الأموات أوحي من الأحياء أنه يضره أو ينفعه إما استقلالا أو مع الله تعالى أو ناداه أو توجه إليه أو استغاث به في أمر من الأمور التي لا يقدر عليها المخلوق فلم يخلص التوحيد لله ولا أفرده بالعبادة ..) (٣) وأما التوسل إلى الله بعمل الغير فهو : (غير مقبول في الطبع ولا منقول في الشرع) (٤)

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا في هامش كتاب صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان مانصه : (إن من المعلوم من حال هؤلاء المتوسلين بالأشخاص أنهم يتوسلون بذواتهم الممتازة بصفاتهم وأعمالهم المعروفة عنهم ، لاعتقاد أن لهم تأثيرا في حصول المطلوب بالتوسل . إما بفعل الله تعالى لأجلهم ، وإما بفعلهم أنفسهم ، مما يعدونه كرامة لهم ..) (٥)

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ، دار الفكر ص ٤٢٢

(٢) الرسائل السلفية في احياء سنة خير البرية دار الكتب العلمية سنة ١٣٤٨ هـ كتاب الدر النضيرضمن الرسائل المذكورة ص ٥ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه ص ٦ وما بعدها .

(٤) رسالة الشرك ومظاهره ص ٢١٢ .

(٥) المصدر المذكور ص ٢٠٨ .

وانطلاقا من هذا الاعتقاد والتعظيم يكون شد الرحال إلى القبور والمزارات وتقديم الذبائح عندها وإظهار الخشوع والسكينة إجلالالها . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : (فالزيارة للقبور التي شرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي من جنس الصلاة على الجنائز ، سواء كان الداعي فاضلا أو مفضولا ، فليس المقصود بها الخضوع للميت والتواضع له كما يقصد بتصديق الأنبياء وطاعتهم ، ولا شرعت لكون المزور ذا جاه عند الله ومنزلة ، بل هي مشروعة في كل مؤمن ...) (١) . ويتأكد النهي عن شد الرحال إلى القبور عند اعتقاد التعظيم وارتكاب الأمور المنافية لمقاصد الزيارة التي قد تصل إلي نداء الأموات والاستغاثة بهم وطلب قضاء الحوائج منهم مما هو من عمل الجاهلية وأهل الشرك (٢) .

ولذا قال صلى الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم : (لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الاقصى) (٣) (بصيغة النهي) (٤) كما هي مضبوطة في الصحيح .

وفي الموطإ عن أبي هريرة رضي اللـه عنه : (.. لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد : إلى المسجد الحرام ، وإلى مسجدي هذا وإلى مسجد إيلياء ، أو بيت المقدس (٥)

---

(١) كتاب الرد على الاخنائي واستحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية ط ١ الرياض سنة ١٤٠٤ هـ ص ٥٣ .

(٢) الدر النضير ص ١٩ وما بعدها .

(٣) صحيح مسلم كتاب الحج ، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره متفق عليه .

(٤) كتاب الرد على الأخنائي ص ١٥٨ .

(٥) الموطأ دار أحياء العلوم ط ١ سنة ١٤٠٨ ه بتحقيق: سعيد محمداللحام وزملائه ص ٩٤ . ٩٥

قال الإمام النووي : (واختلف العلماء في شد الرحال وإعمال المطي إلى غير المساجد الثلاثة كالذهاب إلى قبور الصالحين وإلى المواضع الفاضلة ونحو ذلك فقال الشيخ أبو محمد الجويتى من أصحابنا : هو حرام ٠ وهو الذى أشار القاضي عياض إلى اختياره ٠٠) ٠ (١) وعلى رواية النهي التى ضبطت عليه لفظة (لا تشدوا الرحال) لا يسع أهل العلم إلا ترجيح التحريم خصوصابعدما ما ظهر من انتهاك عقيدة التوحيد وآداب الشريعة في الزيارة المشروعة من كثير من الناس ٠

والله أعلم ٠ وبهذا نختم باب العقائد لنصله بباب السلوكيات والعبادات عند القادرية حيث إن العمل في هذا مبني على العقائد في ذاك ٠

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٩ ص ١٠٦ ٠

الباب الثالث

الباب الثالث

السلوكيات والعبادات عند القادرية

ويشتمل على تمهيد وأربعة فصول :

التمهيد :

الفصل الأول : مكانة الشيخ وأداب الطريق .

الفصل الثاني : العبادات والأوراد عند القادرية على ضوء الكتاب والسنة والمأثور .

الفصل الثالث : المقامات والأحوال .

فصل الختام : الصحوة السلفية في الطريقة القادرية .

التمهيد :

يعتبر كثير من العلماء من الصوفية وغيرهم كالسلمي (١) والقشيري (٢) والغزالي (٣) وابن الجوزي (٤) وابن تيمية (٥) أن التصوف كان امتدادا للسلوك الشرعي وأن أوائل الصوفية صحبوا العباد والزهاد من التابعين ومن بعدهم وأخذوا عنهم العلم والعمل ، ثم إن الصوفية بمرور الزمن وتطاول السنين أحدثوا لأنفسهم سننا وآدابا تميزوا بهاعن غيرهم وصنفوا في ذلك المصنفات المشهورة ، وبما أحدثوه من سنن وآداب تختص بهم وبما ضمنوه كتبهم من علوم وعبارات غامضة أو موهمة كان ذم العلماء لهم من قديم ، وما زالوا يطعنون في كثير من مسالكهم وعلومهم حتى تكلم فيهم بعض من يشاركهم في أذواقهم وأحوالهم (٦) .

قال ابن الجوزي : (فالتصوف مذهب معروف يزيدعلى الزهد ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد وقد ذموا التصوف) (٧) . وما زال التصوف سننا وآدابا خاصة تقترب من السنة والسلوك الشرعي تارة وتبتعد عنهما تارة أخرى حتى دخلته عقائد كثيرة واختلطت فيه ديانات عديدة منزلة وغير منزلة غيرته تماما وانحرفت به عن المنهج الإسلامي بعيدا إلا من رحم الله (٨) . وكان الباب السابق مخصصا لبحث العقائد والتعرف على ما وقع فيها من انحرافات ، ويأتي هذا الباب للبحث في السلوكيات والعبادات وعرض نصوص القادرية في هذا الباب على الكتاب

---

(١) انظر: طبقات الصوفية المقدمة ص ١ وما بعدها .

(٢) انظر: الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٢٧ ـ ٥٣ .

(٣) انظر: الإحياء جـ ٤ ص ٢٠٣ وما بعدها .

(٤) أنظر: تلبيس إبليس ص ٢٠١ وما بعدها .

(٥) انظر: الفتاوى جـ ١١ ص ١٦ وما بعدها .

(٦) أنظر: طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٩٥ .

(٧) انظر: تلبس إبليس ص ٢٠٤ .

(٨) أنظر: التصوف المنشأ والمصادر ص ٤٩ وما بعدها .

والسنة ومنهج السلف الصالح في السلوك والتربية والتعبد إذ لا ميزان للمسلم يعتبر به الحق من الباطل إلا هذان الميزانان المعصومان وما استنبط منهما أو شهدا له بالصحة ، على أن ميدان التخصص يقتضي الاقتصار في هذا الباب على ما له صلة واضحة بالعقيدة أو البدع المفضية بصاحبها إلى الانحراف عن المنهج القويم ، ولذا لا نعترض على أصل الصحبة للمشايخ إذ إنه من المتفق عليه تعين الصحبة وطلب العلم والتأدب ، وإنما نقتصر على نقد مازيد منَ القول بوجوب صحبة شيخ مخصوص أو ادعاء مزية لمعين بدون دليل ، ومازيد في آداب الصحبة مما لم يكن عليه السلف الصالح (١)

وكذلك لا نعترض على الانتساب إلى المشايخ على الإطلاق حيث إنه يجوز الانتساب إلى من ثبتت سنيته واستقامته كالشيخ عبد القادر مثلا (٢)

ولا نعترض كذلك على ما شرع أصله من العبادات بالبحث وإنما نقتصر على الزيادات التي هي من البدع في أصلها أو وصفها بما يصاحبها (٣)

---

(١) أدب الاملاء والاستملاء ، لأبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني ، دار الكتب العلمية ط ١ سنة ١٤٠١ هـ ص ٣ وما بعدها و ص ١١١ ـ ١٤٦
وكتاب الفقيه والمتفقه لأبي بكر بن ثابت الخطيب البغدادي ، دار الكتب العلمية ، ط ٢ سنة ١٤٠٠ هـ جزءين في مجلد واحد ج ١ ص ٤٣ و ج ٢ ص ٧٦ ـ ١١٤ .
وجامع بيان العلم لأبي عمر يوسف ابن عبد البر ، دار الكتب العلمية ج ١ ص ٧ و ٢١ و ٤٤ و ١٢٥ .

(٢) أنظر: مجموعة الرسائل الكبرى ـ الوصية الكبرى ج ١ ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ .

(٣) انظر: الغلاوية ص ١٨٣ وما بعدها .

الفصـــل الأول

الفصل الأول

مكانة الشيخ وآداب الطريق

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الشيخ ومكانته في الطريق وما يجب على المريدين له ولما ينسب إليه .

المبحث الثاني : آداب الشيخ مع المريدين .

المبحث الثالث : آداب المريدين فيما بينهم .

المبحث الأول : الشيخ ومكانته في الطريقة وواجب المريدين نحوه وما ينسب إليه . وفيه مطالب :

المطلب الأول : تعريف الشيخ في عرف الصوفية .

المطلب الثاني : مكانته .

المطلب الثالث : واجب المريدين نحوه .

المطلب الرابع : واجبهم نحو ما ينسب إليه .

المطلب الأول : تعريف الشيخ في عرف الصوفية

عندما يبحث الباحث في مراجع الصوفية عن تعريف للشيخ في اصطلاحهم يجد أقوالا كثيرة متعددة قد يغني بعضها عن بعض في تقريب مرادهم بالشيخ في الطريق إلا أنه لا يجد تعريفا جامعا مانعا ، وهذا واقع في تعريف التصوف نفسه كما تقدم ولذا فإن اختيار الأمثل والأقرب للمطلوب يكون أنفع من تتبع الآراء الكثيرة ، فتختار بعضا ممارسموه :

قال الشيخ عبد القادر في الغنية : (وأما الفرق بين المتصوف والصوفي ، فالمتصوف المبتديء ، والصوفي المنتهي ، المتصوف الشارع في طريق الوصل ، والصوفي من قطع الطريق ووصل إلى من إليه القطع والوصل ...) (١) فالمنتهي الواصل إلى منتهى الطريق هو الشيخ على هذا التعريف .

وقال ميارة : (الشيخ العارف بالمسالك) (٢) وقال الشيخ محمد الخضر : (هذا اللفظ من مصطلح القوم ، والذي يظهر من كلامهم أنه أخص من الولي المطلق فهو الواصل إلى مقام الفناء ...) (٣) قال في عوارف المعارف في شرح رتبة المشيخة :(ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذي نفس محمد صلى الله عليه وسلم بيده لئن شئتم لأقسمن لكم ، إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحببون الله الى عباده ، ويحببون عباد الله الى الله ويمشون على الارض بالنصيحة) (٤) وهـذا الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله تعالى ، لأن الشيخ يحبب الله إلى عباده حقيقة ، ويحبب عباد الله إلى الله) (٥) . وقد نقل شيوخ القادرية عمن سبقهم تعريفات كثيرة للشيخ منها هذا التعريف (٦) ومنها : (الشيخ من هذبك باخلاقه ، وأدبك بإطراقه ، وأنار باطنك بإشراقه ..) (٧)

ويقول الشيخ ماء العينين : (اعلم أن المربي في اصطلاح القوم هو الشيخ وهو الاستاذ ، ويعرفون كلا بتعاريــف مختلفة فمن تعاريفهم للمربي قولهم : المربي هو من

---

(١) الغنية جـ ٢ ص ١٦٠ .
(٢) شرح ميارة لابن عاشر ص ٤١٩
(٣) مشتهي الخارف الجاني ص ٥٠١ .
(٤) لم يذكر له سندا وبدأه بصيغة التمريض : (ورد في الخبر) وأقرب خبر للفظه ما خرجه البيهقي في شعب الايمان عن أبي سنان القسملي قال : (وجدت في بعض الكتب : أن أحب عبادي إلي من حببني إلى عبادي ، وأخبرهم بسعة رحمتي ...) شعب الايمان جـ ٢ ص ٢٢ . وأبو سنان هو : عيسى بن سنان أبو سنان القسملي الفلسطيني : (ضعيف الحديث . وقواه بعضهم) المغني في الضعفاء للذهبي جـ ٢ ص ٨٤ رقم (٤٨٠٠ . ت ق) .
(٥) عوارف المعارف للسهرودي ص ٨٣ .
(٦) جنة المريد ص ٦١ .
(٧) جذوة الأنوار ص ٣٢ .

انكشف له طرق النجاة فسلك عليها ، ثم أذن له بالتسليك والدعاء إليها ... وفي تعاريفهم للشيخ قولهم : من علمك بقاله ، ونهضك بحاله ، الشيخ من أفاد الطالب ، وفتح المطالب ، الشيخ من كمل في ذاته وكمل في صفاته ..) (١)

هذه التعريفات يؤخذ منها أن الشيخ في عرف الصوفية هو العالم الذي فرغ من تعليم نفسه وتهذيبها بمصاحبة المشايخ وسلوك طريق المجاهدة والرياضة حتى صار قدوة صالحة وأسوة حسنة ، وهذه التعريفات وغيرها كثير ، مقبولة نظريا ولكنها مفقودة عمليا على الغالب مع أنهم لم ينصوا على تحصيله لعلوم الكتاب والسنة حتى يصير شيخا في العلم والتربية السنية .

فالواقع لا يؤيد وجودها عند التطبيق إذ إن الطرق الصوفية تسير على نظام الوراثة للأبناء أولا إن وجدوا أو من أخلص في خدمة الشيخ والتجرد لأموره الخاصة والعامة حتى يفوز برضى الشيخ فيأذن له بالتصدر وإعطاء الأوراد الطرقية وغالبا ما يكون أبناء المشايخ مغمورين بالأموال والخدم والترف وغير ذلك مما لا يترك طريقا لطلب العلم حقيقة أو سلوك طريق الرياضة والمجاهدة واقعا ولذا فلا ينطبق على هذا المترف تعريفات الصوفية المتقدمة ولا يمكن أن يدخل فيها أيضا ذلك المتجرد الذى شغلته مكابدة مهام الحضرة عن تحصيل أي منفعة ، وبهذا ضاعت مرتبة المشيخة بين وارث مترف وكادح لا يفقه .

يقول الميلي في وصف مرتبة المشيخة التي تساوي عند أصحاب الطرق الصوفية درجة الولاية : (أما الولي عند الناس اليوم ، فهو إما من انتصب للإذن بالأوراد الطرقية ولو كان في جهله بدينه مساويا لحماره . وإما من اشتهر بالكهانة وسموه حسب اصطلاحهم (مرابطا) ولو تجاهر بترك الصلاة ، وأعلن شرب المسكرات . وإما من انتمى إلى مشهور بالولاية ولو كان إباحيا لا يحرم حراما .) (٢) ولا يرضى مسلم صادق بصحبة أحد من هؤلاء أو اعطائه صفة المشيخة عليه . فبان من هذا أن أوصاف الشيخ المطلوب لا توجد في واقع الطرقين بما وضع من نظام الوراثة أولا وعدم وجود المسلك الذي يقتدى به في الحق ثانيا .

وتعترف القادرية بأن الولاية أو المشيخة لا تنال إلا بالاكتساب والعمل مهما كان المدعي لها ، وعلى ذلك فإنه لا معنى للقول بالوراثة فيها كما تقدم بيانه في ترجمة الشيخ عبد القادر وذريته .

---

(١) نعت البدايات ص ٦٩ وما بعدها : ولم أفهم المراد بكمال الذات في هذا التعريف إذ إن كمال الذات والصفات لله وحده . والذات بالنسبة للبشر لا يملكون كمالها .

(٢) رسالة الشرك ومظاهره ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

المطلب الثاني : مكانة الشيخ في الطريقة

تقدم في باب العقائد عرض ما ينسب إلى الشيخ من أمور كونية مخلة بالتوحيد ونقده ويراد هنا دراسة مكانة الشيخ من حيث اعتباره قدوة يحتذى أثره وتطاع أوامره وتجتنب نواهيه ومكروهاته .

وتوجد نصوص كثيرة في الكتاب والسنة وكتب العلماء تأمر بإكرام وتوقير الشيوخ وتعظيم شأن أهل العلم والفضل خصوصا من كان منهم في منزلة الأستاذية ومنصب التربية . وأول كبير يجب توقيره ، وإكرامه وطاعته هو النبي صلى الله عليه وسلم إذ هو أول شيخ يجب تعظيمه وأعظم مرب يجب اتباع هديه .

قال الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ (١) قال القاضي أبو بكر بن العربي بأن الآية الأولى : (أصل في ترك التعرض لأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وإيجاب اتباعه والاقتداء به) (٢)

وقال القرطبي في معنى الآية الثانية : (معنى الآية الأمر بتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره ، وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته ...) (٣)

وقال ابن العربي :(وحرمة النبي صلى الله وسلم ميتا كحرمته حيا وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه ، وإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ولا يعرض عنه ، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به ...) (٤) . ولعظم قدره وكفر من اعترض على أمره قصدا أو استهان بشيء مما جاء به نص القرآن والسنة على ذلك ليحذر المؤمن ويجتنب ما يمكن أن يفسر على شيء من أوجه عدم التعظيم والتوقير والطاعة وليس كذلك غيره صلى الله عليه وسلم (٥) وقد ألحق العلماء من باب الأدب والصيانة للعلم ومجالسه وأهله تعين توقيرهم وتوقير مجالس العلم وخصوصا التفسير والحديث الشريف وهذا ما كان عليه السلف وما عليه أهل التوفيق والصلاح من الخلف (٦)

---

(١) سورة الحجرات الآيتان الأوليان ١ . ٢ .

(٢) أحكام القرآن ج ٤ ص ١٧١٣ . ١٧١٤ .

(٣) القرطبي ج ١٦ ص ٣٠٦ .

(٤) أحكام القرآن ج ٤ ص ١٧١٤ . ١٧١٥ .

(٥) الشفا ج ١ ص ١٧ وما بعدها . و ج ٢ ص ٣٠٨ وابن كثير تفسير ج ٤ ص ٢٠٥ . ٢٠٧ .

(٦) ترتيب المدارك ج ٢ ص ١٣ وما بعدها .

ومع ما خص الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم في هذا الباب من المكانة فإن الصوفية من قديم ألحقوا به شيوخهم في وجوب طاعة الأمر والتسليم وحفظ الخواطر ، والأدب الزائد والتعظيم ، وحملوا ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من الحث على إكرام المشايخ على مشايخهم خاصة ، وقاسوا مريديهم على الصحابة تارة وعلى قصة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام حيث اعتبروا موسى مريدا (١) وهكذا سارت القادرية على هذا المنهج كما سيتضح من نصوصهم الآتية :

عرض :

يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي في معرض بيانه لمكانة المشايخ أهل العلم عند السلف وتقدير الخلفاء لهم وما أمرنا به من الدعاء لمن سبقنا من أهل الإيمان : (.. إذ على قدر التعظيم تكون البركة) ، (ولأنه تعالى أمر بالدعاء لمن سبقنا بالإيمان والترضي عنهم بأي لفظ شئنا خصوصا المشايخ) (٢)

ويقول : (ومن نظر الولي إليه نظرة واحدة بعين التحقيق والتخصيص لا يشقى بعدها أبدا) (٣) ويقول : (ولا يفلح المريد ما دام له مع شيخه اختيار) (٤) ، (ومتى أمرك بأمر ترى العطب فيه فاقتحمه فإن فيه النجاة ..) (٥)

قال : (وأجمع السلف وإجماعهم حجة أنه لا يجوز الاقتداء بمن لم يلازم المشايخ ويمارسهم ويمارسونه وتطول صحبته لهم حتى يجربوه فيجيزوه وعليه درج السلف من لدن آدم إلى يومنا إذلولا الإسناد لقال كل إنسان ما شاء ومن لا شيخ له فالشيطان شيخه ..) (٦)

---

(١) انظر الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٦٣٣ وما بعدها والغنية جـ ٢ ص ١٦٤ . ١٦٥ .

(٢) الكوكب الوقاد ص ١٤ .

(٣) نفسه ص ١١٤ .

(٤) نفسه ص ١٦٣ .

(٥) نفسه ص ١٦٧ .

(٦) جذوة الأنوار ص ٢٥ .

وقال : (فكل من زعم أنه غني عن هذه الطائفة المحمدية بعلوم يدعيها أو رسوم يقتنيها ، فاعلم أنه شيطان مضل أو فاسق بما معه من العلوم مدل فإن مالكا والشافعي وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم مع وفور فضلهم وغزارة علمهم وثبوت ولايتهم ، كانوا لا يستغنون ولا يأنفون عن الجثو بين يدي المشايخ المنقطعين لله تعالى على وجه التبرك بهم وأخذ الحكم الربانية مثل شيبان الراعي ٠٠) (١) ٠ وتبعه على هذا المنهج ابنه سيدي محمد ومن جاء بعدهما من مؤلفي القادرية (٢)

قال الشيخ سيدي محمد : (ففي الخبر الشيخ في قومه كالنبي في أمته) (٣) (ومن لم ير شيخه نائبا عن الحق فيما يأمره به لا يصل إلى الحق) (٤)

نقد :

وتوجد لهم نصوص كثيرة عندهم تؤكد طاعة الشيخ في الطريقة وعظيم مكانته فيها حتى قالوا : بأنه يجب تعظيمه والتسليم له وأن من أسباب سوء الخاتمة الاعتراض عليه ظاهرا وباطنا ، وأنه يجب اعتقاد أن طريقة الشيخ هي أفضل الطرق وأنه هو أعظم المشايخ الموجودين ٠٠) (٥) قال ابن تيمية : (ومما يروونه (سب أصحابي ذنب لا يغفر) وهذا كذب على النبي صلى الله عليه وسلم وقد قال الله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (٦) والثابت في الصحاح والسنن : (لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل

---

(١) نفسه ص ٣٨ وشيبان الراعي : -

(٢) جنة المريد ١٤٨ وما بعدها ٠

(٣) الغلاوية ص ٢٥ قال شيخ الإسلام بن تيمية :(ومما يروونه أيضا (الشيخ في قومه كالنبي في أمته) ليس هذا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وإنما يقوله بعض الناس) علم الحديث ، ص ٥٢٨ وقال المحقق : (وقال في المقاصد : رواه ابن حبان ص ٥٢٨ . ٥٢٩ ٠ وتقدم تخريجه ٠

(٤) الطرائف ص ٣٨٣ ٠

(٥) الضياء ص ١٣٥ . ١٤٠ والطرائف ص ٨٤ . ٨٥ و ٣٥٧ ومابعدها ٠ ونعت البدايات ٨٦ وما بعدها والغلاوية ص ١٥ و ٢٤ . ٢٦ و ١٩٢ وما بعدها ٠ وجنة المريد ٢ و ١٠ و ٩٠

(٦) سورة النساء الآية ٢٤٨ ٠

أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه) (١) ·

ويؤخذ على هذه النصوص عدة أمور منها :

١) الاحتجاج بما لاحجة فيه من أقوال البشر ·

٢) ايراد أدلة لا يعرف لها سند ·

٣) القول بوجوب الطاعة والتسليم لغير المعصوم ·

٤) الاستدلال بأدلة عامة مع أن الدعوى خاصة على ما سيأتي توضيحه إن شاء الله ·

٥) اتباع أقوال الصوفية والتسليم بها كالقشيري والغزالي والسهروردي وغيرهم دون نظر إلى مستنداتهم إن كانت لهم مستندات غير تجاربهم الخاصة ·

٦) نسبة صحبة الائمة المقتدى بهم لشيوخ الصوفية للتبرك بهم وأخذ الحكم منهم ، مع أن المعروف عنهم عدم الرضى بحال الصوفية وما احدثوه ، ومن لقي منهم أحدا ممن عاصره من أهل الزهد والعباد فإنه لا يكون ممن ينتسب إلى الصوفية وما عرف عنهم في ذلك العصرمن التميز بالسماع والبعد عن العلم والعلماء ·

وقد تقدم نقد هذه المسالك التي هي صبغة عامة في أهل التصوف على مايبدو ويبقى عرض النصوص التي يمكن أن تكون القادرية أخذت منها بعض ما تنشره في كتبها وبيئتها من الحث على تعظيم وتبجيل المشايخ وهي آثار بعضها غير صحيح وبعضها عام في أهل العلم أو كبيري السن ولا يفهم منها تخصيص لمشايخ معينين كما دل عليه إيراد القادرية لتلك الآثار أو الآراء أو لمعانيها ·

٧) ادعاء أن نظر الشيخ إلى المريد يجلب له سعادة ومع أن صاحب هذا القول وجهه بأن النافع للمريد الذي أراد الله سعادته هو : (أن نظر العقل والتوفيق لمن أراد الله به الخير هما اللذان ينفعان ··) فإن فيه اجمالا أستند عليه بعض الناس وأطلق القول وقد نظر النبي صلى اللـــه عليــه وسلم لكثيرمن الناس كانت عاقبتهم الشقاوة والعياذ بالله - والمعول عليه هو صحبة أهل الخير كما في صحيح

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لو كنت متخذا خليلا) الحديث رقم ٣٦٧٣

كاعقبتهم الشقاوة واليعاذ بالله والمعول عليه هو صحبة أهل الخير (كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفس محمد في يده ليأتين على أحدكم يوم ولا يراني ثم لأن يراني أحب إليه من أهله وماله معهم ٠٠) (١) قال النووي (ومقصود الحديث حثهم على ملازمة مجلسه الكريم ومشاهدته حضرا وسفرا للتأدب بآدابه وتعلم الشرائع وحفظها ليبلغوها وإعلامهم أنهم سيندمون على ما فرطوا فيه من الزيادة من مشاهدته وملازمته ومنه قول عمر رضي الله عنه ألهاني عنه الصفق بالاسواق) (٢) ٠ فهذا هو الذي ينفع صاحبه لامجرد نظر الشيخ ولاهمته العاملة كما يقول بعضهم ٠

قال الخطيب البغدادي : باب تعظيم المتفقه الفقيه وهيبته إياه وتواضعه له وساق بسنده إلى البراء بن عازب رضي الله عنه قال : (لقد كنت أريد أن أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأمر ، فأؤخره سنتين من هيبته ولقد كنت ألقاه كل يوم) وقال بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال (مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فلا أستطيع أن أسأله هيبة) (٣)

وقال السمعاني (ويبالغ في تعظيم المملي وتبجيله - وساق بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بجلوا المشايخ فإن تبجيل المشايخ من إجلال الله عز وجل) (٤)

وخرج أبو داود عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن من إجلال الله : إكرام ذي الشيبه المسلم ، وحامل القرآن غير الغالى فيه ولا الجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط) (٥) وخرج السمعاني بسنده عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أكرم ذا شيبة فكأنما أكرم نوحا في قومه ومن أكرم نوحا في قومه فكأنما اكرم الله عز وجل) (٦)

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضل النظر إليه صلى الله عليه وسلم وتمنيه ٠

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٥ ص ١١٨ . ١١٩ ٠

(٣) كتاب الفقيه والمتفقه جـ ٢ ص ٩٨ . ٩٩ ٠

(٤) أدب الإملاء والاستملاء ص ١٣٤ موضوع سلسلة الاحاديث الضعيفة : (٨٢٤) جـ ٢ ص ٢٢٦

(٥) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب في تنزيل الناس منازلهم رقم : (٤٨٤٣)

(٦) أدب الاملاء والاستملاء ص ١٣٤ . ١٣٥ سلسلة الاحاديث الضعيفة الحديث رقم (٨٢٤) ٠

وخرج الخطيب عن الشعبى قال ذهب زيد بن ثابت ليركب ووضع رجليه في الركاب فأمسك ابن عباس بالركاب ، فقال : تنح يا ابن عم رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قال : لا . هكذا نفعل بالعلماء والكبراء) (١) قال الحافظ بن عبد البر : (وزاد بعضهم في هذا الحديث أن زيد بن ثابت كافأ ابن عباس على أخذه بركابه أن قبل يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا . وهذه الزيادة من أهل العلم من ينكرها) (٢) .

وبسنده إلى أبى بكر محمد بن على الأدموني النحوي قال : (إذا تعلم الإنسان من العالم واستفاد منه الفوائد فهو له عبد قال الله تعالى:(وإذ قال موسى لفتاه) (٣) وهو يوشع ابن نون ولم يكن مملوكا له وإن كان متلمذا له متبعا له فجعله الله فتاه لذلك) (٤) وفي أحاديث القصاص التى يرونها بسند وبغير سند (من علم أخاه آية من كتاب الله فقد ملك رقه) قال ابن تيمية هذا كذب ليس في شيىء من كتب أهل العلم)

قال المحقق (ولكن ذكر نحوه صاحب كشف الخفا ولفظه : (من علم عبدا آية من كتاب الله تعالى فهو له عبد) ثم قال : رواه الطبراني عن أبي أمامة مرفوعا ، لكن بلفظ (فهو مولاه) ونحوه ما جاء عن شعبة أنه قال : (من كتبت عنه أربعة أحاديث أو خمسة فأنا عبده حتى أموت) والمشهور على الألسنة (من علمني حرفا كنت له عبدا) (٥) .

فالمراد بالشيوخ هنا في هذه النصوص أهل العلم المقتدى بهم في لزوم السنة ونشر العلم والصبر على طلابه . وموقف الصوفية عموما من أهل العلم لا يشجع على

---

(١) كتاب الفقيه والمتفقه جـ ٢ ص ٩٩ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ١٢٨ .

(٣) سورة الكهف الآية ٦٠ .

(٤) كتاب الفقية والمتفقه جـ ٢ ص ٩٩ قال ابن العربي (مظاهر القرآن يقتضي أنه عبد ، وفي الحديث أنه كان يونسع بن نون ، وفي التفسير أنه ابن اخته . وهذا كله ما لا يقطع به ، فالوقف فيه أسلم) أحكام القرآن جـ ٣ ص ١٢٤٤

(٥) علم الحديث تأليف شيخ الاسلام ابن تيمية بتحقيق موسى محمد ، نشر عالم الكتب ط ٢ ١٤٠٥هـ . ص ٤٧٧ . ٤٧٨ و ص ٥٣١ .

أن القادرية أرادت بالشيوخ شيوخ العلم لما تقدم من بيان موقفهامن أهل العلم وتنفير اتباعها من مصاحبتهم على أن من كان منهم ملتزما بالكتاب والسنة حاملا لاتباعه على هديهما وكان على جانب من العلم يلحقه بالعلماء كان توقيره وتبجيله متعينا على المسلمين عموما وعلى طلاب العلم خصوصا وعلى المستفيدين منه على وجه أخص ولا يغمط حقه ما دام على الصفة المذكورة ولا يرفع عن درجة أهل العلم في التعظيم المفضي إلى الغلو المذموم شرعا كما هو صريح مقاصد الصوفية في عباراتهم قال السمعاني :

(أنشد أبو محمد عبد الله بن نصر الأزدي من لفظه لنفسه برزيق :

وقر مشايخ أهل العلم قاطبة   حتى توقر إن أفضى بك الكبر

واخدم أكابرهم حتى تنال به   مثلا بمثل إذا ما شارف العمر) (١)

ومن السنة توقير العالم (٢) وذي الشيبه من المسلمين كما هو واضح من هذه النصوص وغيرها كحديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما أكرم شاب شيخا من أجل سنه إلا قيض الله له عند سنه من يكرمه) (٣) وهذا الحديث وإن كان ضعيفا فإنه توجد أحاديث شريفه صحيحة في موضوعه ٠

وقد أورد مشايخ القادرية بعض هذه الآداب المشيرة إلى هذه الآثار وذكروا بعضا منها في كتبهم وأجمعهم لها الشيخ ماء العينين في كتابه نعت البدايات (٤) ويكفي في نهاية هذا المطلب أن يقال بأنه لا دليل لهم يخصهم بالتوقير والتبجيل في هذه الأحاديث والآثار الشريفة ٠ فمشايخهم ليسوا أهل علم في الغالب ، وليسوا كبارا في السن دائما ، ومريدوهم ليسوا طلاب علم إلا على النادر ٠ والله أعلم ٠

---

(١) أدب الاملاء والاستملاء ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ٠ ورزيق كأمير أو زبير نهر بمرو . انظر القاموس جـ٣ ص ٢٣٥ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ١٢٩ ٠

(٣) شرح السنة لإمام البغوى جـ ١٣ ص ٤٠ قال المحققون للكتاب : إسناده ضعيف

(٤) نعت البدايات ص ١٢٧ ـ ١٧٠ ٠

المطلب الثالث : واجب المريدين نحو الشيخ

تمهيد :

من طبيعة الانسان الدالة على نقصانه حبه لأن يكون آمرا ناهيا مطاعا وهو مع ذلك يرى هذه الطبيعة من صفات الكمال ولذا يرتكب في سبيلها أمورا كثيرة بدون دليل واضح في كثير من الأحيان ٠

فمرة يدعي أنه وارث لمن تجب طاعته بالشرع وتارة يدعي أن له بيعة في عنق الناس توجب عليهم طاعته وغيرهما كثير من الادعاءات ٠

إلا أن القادرية اقتصرت في الغالب في إيجاب طاعة شيوخها على هذين الادعاءين وما تفرع عنهما من قريب ٠

وقد تقدم نقد مسالكهم في البيعة والوراثة بما يوضح أنه لا يعتمد على شيء من ذلك في الشرع الحنيف إلا أنهم بنوا على ذينك الأدعاءين مع ما ذكر أنه يجب على المريد إذا سلم نفسه لشيخ وبايعه على اتباعه في طريقته واتخاذ أوراده أن يطيعه طاعة مطلقة ويخدمه بنفسه وماله ويجند نفسه للدعاية له ، ويحب فيه ويبغض فيه ، ولو والديه وذوي قراباته وأرحامه ومن أوجبهم الله عليه من زوجة وأولاد ويهجر في سبيل خدمة الشيخ الأهل والأوطان ويقدم له الهدايا ولو على حساب الفروض المتعلقة به من نفقة الزوجة والأولاد إن كان ممن تقدم له أن تزوج قبل صحبة الشيخ ، أو كان شيخه من الذين يسمحون لأتباعهم باتخاذ الزوجات أو لم يكن هو نفسه قد نوى التجرد والانقطاع لخدمة الشيخ ٠

ونصوصهم في هذه الأموركثيرة وتطبيقهم لها ظاهر وماعلى المريد الصادق الذي قيل له وهو غير مزود بشيء من سلاح العلم ليدافع عن نفسه ، ولا يؤذن له حتى في الاستشكال أو الاستيضاح لبعض الأوامر أو النواهي الغامضة أو المجملة إلا أن يطيع وإلا فإنه غير صادق يخدع نفسه ويسير في طريق الهلاك ولا يأتي منه شيء ولا يبلغ مبلغ الرجال ويخشى عليه من السلب وسوء الخاتمة لأنه بعدم تقديمه لمثل هذه

الأمورخرج عن الطاعة ونكث عهد البيعة (ومن نكث فانما ينكث على نفسه) (١) وتتبع هذه المسائل واحدة واحدة يطول كثيرا وخصوصا أن مصدر إيجابها وهو البيعة والوراثة قد تبين عدم ثبوتهما أصلا فكيف بإيجاب أمور كبيرة عليهما فالمبني على الباطل باطل ولذا فالاقتصار على مسألتين عظيمتين من هذه المسائل يعظم ارتكابهما بدعوى الدين دينا ودنيا وهما : الحب في الشيخ والبغض فيه والهدية وجمع الأموال (٢) ٠

---

(١) الفتح الآية ١٠ ٠

(٢) الكوكب الوقاد ص ١٣٢ . ١٤٣ و ١٦٣ . ١٦٧ والضياء ص ١٧١ . ١٧٦ و ص ٣٣٠ . ٣٣٢ وجنة المريد ص ١٥١ . ١٦١ و ص ١٩٣ . ١٩٩ ٠ ونعت البدايات ص ١٠٧ . ١١٢ وهامشه فاتق الرتق ص ٨ . ١٤ و ص ١٢١ . ١٢٧ ٠

المسألة الاولي : الحب في الشيخ والبغض فيه

عرض نصوص القادرية الدالة على ذلك ونقدها :

يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي (ومن الآداب النافعة احترام كل ما ينسب إليه يعني الشيخ ولو طلبا ، وحب مريديه وقرابته وأحبابه بل ومحبوباته حتى من المطاعم والمشارب ...) (١) ويقول الشيخ سيدي محمد (وإذا عرف له عدوا فليهجره في الله ولا يجالسه ولا يعاشره وإذا رآى من يثني عليه ويحبه فليحبه وليقض حوائجه ويتابع ويخدم ويحترم كل من قومه عليه وإن كان أقل علما وعملا ...) (٢)

تعقيب قلت : ومما ورد في السنة من حب محبوبات النبي صلى الله وسلم في الطعام حديث أنس رضي الله عنه . عند البخاري في الأطعمة باب الدباء ومسلم في باب الأشربة باب أكل اليقطين . والترمذي وأبي داوود والنسائي قال أنس رضي الله عنه : (إن خياطا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لطعام صنعه . قال أنس فذهبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الطعام ، فقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبزا من شعير ومرقا فيه دباء وقديد ، قال أنس فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتتبع الدباء حوالي القصعة ، فلم أزل أحب الدباء من يومئذ) . (٣)

قال الحافظ بن عبد البر (ومن صريح الإيمان ، حب ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه ، واتباع ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله ، ألا ترى إلى قول أنس ، فلم أزل أحب الدباء بعد ذلك اليوم) (٤) ويقول صاحب الضياء (ولا يسير لأمر إلا بإذنه ولا يقضي لأحد حاجة حتى يشاوره ... ولا يغاضب أحدا بحضرته إلا إذا كانت مغاضبته مناقشة عن جانب الشيخ) (٥) ونقل الشيخ ماء العينيين هذه النصوص وغيرها في باب آداب المريد مع شيخه (٦) وما نقلته عن

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١٦٨ .
(٢) جنة المريد ص ١٥٤ .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب الأطعمة ، باب المرق ، الحديث رقم : (٥٤٣٦) .
(٤) التمهيد جـ ١ ص ١٧٧ .
(٥) الضياء المستبين ص ٣٢٥ .
(٦) نعت البدايات ص ٤ وما بعدها .

الثقات لتطبيق الشيوخ والمريدين لهذه النصوص كثير ويدل على عدم تمكن نفوس كثير من الشيوخ واتباعهم من الكتاب والسنة وعلومهما .

ولذا فإن المريد يطيع شيخه ويسافر في خدمته ومصالحه حبا له ولوكان عاصيا ومخالفاً لأبيه وأمه ويمكث الأعوام مهاجرا لمن تجب عليه طاعته كالوالدين لعدم رضاهما بما هو فيه . وقد تقدم بيان أن أولى الناس بالطاعة والبر هما الوالدان وأن حبهما واجب في الله تعالى قبل كل شيخ إن كانا مسلمين ..

وتقدم كذلك أن هذا الحب للشيخ قد يصل بصاحبه إلى حد الغلو والتعصب الأعمى وكل ذلك مخالف للكتاب والسنة ودلائلهما .

فقد يجر إلى العقوق المتوعد عليه في الدنيا والأخرى وقد يؤدي إلى تضيع الحقوق الواجبة :(وكفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت) (١)

وقد يؤدي إلى التفرقة والنزاع بين الأهل والإخوان فيفضي إلى قطع الأرحام وكذلك مقاطعة أهل العلم الذين قد ينصحون مرتكب هذه المحذورات فيبقى على جهله فيزداد تعصبا وعنادا بل وغلوا وبعدا من الخير وهو يحسب أنه على شيء وكل هذه الأمور مخالفة للمنهج الإسلامي الصحيح في الحب والبغض والموالاة والمعاداة .

يضاف إلى هذا أن الشيخ غير معصوم على ما تقدم ، فقد يأمر المريدين بمثل هذه الأمور التي هي من الكبائر القبيحة وخصوصا إن كان جاهلا وليس أمامه إلا كتب الصوفية التي يتعصب لها ويمنعه تسويده من التعلم والاستماع لغيره ، هذا إذا

---

(١) هذا لفظ من حديث عن عبد الله بن عمر وعند أبي داود ، كتاب الزكاة ، باب في صلة الرحم رقم (١٦٩٢) وهو عند مسلم في كتاب الزكاة ، باب فضل النفقه على العيال ، بلفظ : (كفى بالمرء إثما أن يحبس عمن يملك قوته) وسببه كما في المسند عن وهب بن جابر قال : إن مولى لعبد الله بن عمرو بن العاص قال له إني أريد أن أقيم هذا الشهر ها هنا ببيت المقدس فقال له تركت لأهلك ما يقوتهم هذا الشهر ؟ قال لا ، قال فأرجع إلى أهلك فاترك لهم ما يقوتهم فإني سمعت رسول الله صى الله عليه وسلم : (يقول : كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت) الفتح الرباني ج ١٧ ص ٥٧ .

كان جاهلا فقط . أما إذا انضاف إلى الجهل الفسق وحب الرئاسة وتكثير الخدام والمتجردين فإن الأمر يكون أعظم والإثم يكون أكبر .

والحب والبغض بين الكتاب والسنة من يستحقهما على الإطلاق ومن يستحقهما على التقيد ولم يتركهما الشرع الحكيم لتشريع أحد من الناس أولهواه قال الله تعالى : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (١)

ولما كان الميزان الإسلامي للحب والتقديم والموالاه هو التقوى وكان النبي صلى الله عليه وسلم هو أتقى الناس وأعلمهم بالله تعالى لحديث البخاري عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول (... إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا) (٢) لما كان ذلك كان حبه صلى الله عليه وسلم من أعظم الايمان ، فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث من كن فيه وجد طعم الايمان من كان يحب المرء لايحبه إلا لله ومن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه) (٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده) وفي رواية أنس . (والناس أجمعين) (٤)

وعن أبي معقل زهرة بن معبد أنه سمع جده عبد الله بن هشام قال :

(كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الايمان ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (انا أعلمكم بالله ، وأن المعرفة فعل القلب ، الحديث رقم : (٢٠) .

(٣) صحيح مسلم النووي كتاب الايمان ، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الايمان وصحيح البخاري ، كتاب الايمان ، باب حلاوة الايمان ، الحديث رقم (١٦)

(٤) نفسهما .

فقال له عمر : يارسول الله ، لأنت أحب إلى من كل شيىء إلا نفسي • فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك • فقال له عمر : فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي • فقال النبي صلى الله عليه وسلم الآن يا عمر) (١) وخرج الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما (قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أوثق عرى الايمان : الموالاة في الله ، والحب في الله ، والبغض في الله)

هذه نصوص من الكتاب والسنة نصت على أن الحب في الله تعالى والبغض فيه ، وأن أولى الناس بالحب والمتابعة والتقديم على النفس والمال والولد والناس أجمعين هو النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله تعالى ثم من كان بالتقوى ملتزما بعده صلى الله عليه وسلم الأتقى فالأتقى ومن خالف ذلك وقدم هواه وأحب الرجال وأحب لهم فقد جاء بما يخالف هذه النصوص واتخذ لنفسه ميزانا غير ميزان الكتاب والسنة ، وإن ادعى أنه إنما يحبهم في الله تعالى كان عليه أن يلتزم بميزان الكتاب والسنة ولا يفرق بين أهل التقوى والصلاح في المحبة ولا يقدم محبة أحد منهم على محبة آخر حتى يعاديه فيه فيجب في غير الله ويبغض لغير الله تعالى (٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعته ويعادي على ذلك ، بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الايمان ، ومن عرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم ، ولا يخص أحدا بمزيد موالاة ، إلا إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه ويقدم من قدم الله تعالى ورسوله عليه ويفضل من فضله الله ورسوله) (٣) ثم قال : (وما أكثر من يدعي حب مشايخ لله ، ولو كان يحبهم لله لأطاع الله الذي أحبهم لأجله ، فإن المحبوب لأجل غيره تكون محبته تابعة لمحبة

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الايمان ، باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم الحديث رقم (٦٦٣٢)

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ٢ ص ١٣ . ١٧ وفتح الباري ج ١ ص ٥٦ . ٦٣ وعلم الحديث لابن تيمية ص ٤١٣ وما بعدها •

(٣) الفتاوى ج ١١ ص ٥١٢ •

ذلك الغير) (١) • فمن حكم هذا القانون الشرعي لا يقدم محبة شيخ جاهل على محبة عالم تقي أو حتى محبة شيخ على شيخ مثله لأنه هو أخذ عليه الأوراد أو صحبه فإن هذا مما تبينت مخالفته للكتاب والسنة وعمل سلف الأمة خصوصا إذا علم أن التعصب يكاد يكون الصبغة العامة لمشايخ الطرق الصوفية ، ويحملون عليه من أطاعهم •

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا في الليلة الظلماء وأدناه أن تحب على شيىء من الجور وتبغض على شيىء من العدل وهل الدين إلا الحب والبغض • قال الله عز وجل : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) (٢)

خرجه الحاكم في المستدرك ، وقال : (هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه) (٣)

وبهذا نختم الكلام على مسألة الحب والبغض لنصلها بمسألة الهدية والمسألة من أجل الشيخ وحضرته • والله أعلم •

---

(١) نفسه ص ٥٢٠ . ٥٢١ •

(٢) سورة آل عمران الآية ٣١ •

(٣) المستدرك جـ ٢ ص ٢٩١ • قال الذهبي ، قلت : (فيه عبد الأعلى قال الدراقطني : ليس بثقة) •

المسالة الثانية : الهدية وجمع الاموال للشيخ

تقديم : الهدية مرغب فيها شرعا وعرفا وهي من الدين ومكارم الأخلاق وخصوصا الهدية للأهل والأرحام والجار ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها (١) .

وقد ورد في الحث عليها ما رواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (تهادوا تحابوا) وأن أنساً رضي الله عنه كان يقول : (يا بني تباذلوا بينكم فإنه أود لما بينكم) (٢) وروى البزار عنه رضي الله عنه (تهادوا ، فإن الهدية تسل السخيمة) •

قال الصنعاني : وله طرق كلها لا تخلو عن مقال وفي بعض الفاظه تذهب وحرالصدر بفتح الواو والحاء المهمله وهو الحقد ، والأحاديث وإن لم تخل عن مقال فإن للهدية في القلوب وقعا لا يخفى) (٣) وقد روى البيهقي في شعب الإيمان هذه الآثار وغيرها موضحا أن المواصلة والمهاداة بين الناس مرغب فيها جدا وأن عاقبتها حسنة (٤) • ولكن من رفعها فوق المشروع منها وفيها بحيث يوجبها لنفسه على الناس حتى يضيع الناس من أجل الإهداء له أعراضهم وعيالهم أوفرائضهم وجمعهم وجماعاتهم فإنه يكون بذلك قد اختار للهدية مذهبا من عنده لصالح حضرته وعائلته وبذلك يكون فوت على نفسه وعلى الناس المقصود من الهدية والأصل فيها وهو أن تكون اختيارية تفضلا من المهدي إلى المهدى إليه وأن لا يحصل بها ضرر على أحد من المتهاديين كأن تفقره حتى يضيع من يعولهم ، أو يذهب في البلاد متسولا وباذلا ماء وجهه للعباد لتحصيل ما يهديه إلى شيخه مضيعا في أسفاره الفرائض والجمع والجماعات وهذه بعض النصوص التي تبين مكانة الهدية وجمع الأموال في سبيل خدمة الحضرة .

---

(١) فتح الباري جـ ٥ ص ١٩٧ وما بعدها •

(٢) الادب المفرد الباب (٢٦٩) ص ٢٠٥ •

(٣) سبل السلام شرح بلوغ المرام جـ ٣ ص ٩٤٤ •

(٤) شعب الايمان للإمام البيهقي . بتحقيق أبي مهاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول دار الكتب العلمية ط ١ سنة ١٤١٠ هـ جـ ٦ص٤٧٩ . ٤٨٠ •

عـــــرض

إنهم يقولون كما تقدم (١) أن الشيخ أعظم حقا من الوالدين وعلى هذا يكون الشيخ أولى بمال الرجل من أبيه الذي يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيه : (أنت ومالك لابيك) (٢) يقول الشيخ سيدي المختار : (ولقد بلغني أن عطايا المشايخ هلاك المريدين بخلاف المريد فإن عطاياه دليل صدقه ما لم يستعظمها فإذا استعظمها صارت عليه وبالا) (٣) • ويشتكي الشيخ سيدي المختار وابنه الشيخ سيدي محمد من بعض المريدين أو المصدرين الذين صار لهم قبول بين الناس وأخذوا في جمع الأموال لأنفسهم وأكلوا (ربعة القادرية) وهذا يعني أنه يعيب عليهم عدم إيثارهم له على أنفسهم (٤) وللقادرية سنة في التجوال وجمع الأموال معروفة لدى الناس عموما وصرحوا في كتبهم بأن ذلك العمل من شأن أهل بثتهم ، والذي يظهر أنه من سننهم التي نشروها في البلاد وما زال بعضهم مستمرا عليها ويستخدم فيها الرجال الأقوياء حتى انتهزها من لا يعرفه فصار يسأل الناس باسمه وينفق ما جمعه في غير ما وجه شرعي (٥) فخرجت كما دخلت •

قال في الضياء (فصل : كان بعض تلاميذ الشيخ أطال الله حياته في العافية وأفاض علينا جزيل بركاته السابغة الضافية : ربما ركبوا إلى العامة لأخذ الأموال وربما يقبلون الهدايا ممن أتى بها من الخاصة وهو لاينهاهم عن ذلك) •

ثم أخذ يوضح أن هذا عمل مشروع ردا على بعض الزهاد المنكرين : (ممن لم يقف على حقيقة فقهها إما لحال أذهله عن طلب تحقيق فقهها أو لأنه لم يكن ممن له في العلم حظ) (٦) •

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١٦٤ •

(٢) جزء من حديث رواه أبو داود في السنن ، كتاب البيوع والاجارات ، باب في الرجل يأكل من مال ولده ، الحديث رقم (٣٥٣٠) •

(٣) الكوكب الوقاد ص ١٦٣ . ١٦٤ •

(٤) نفسه ص ١٦٥ والغلاوية ص ١٥ (والربعة) أو : (ربعة القادرية) يريدون بها مالا يأخذه الشيخ على أتباعه كهدية سنوية ، أو لعلها المرابعة التي كانت في الجاهلية فردها الإسلام إلى الخمس انظر : القاموس المحيط جـ ٣ ص ٢٤ . ٢٦ •

(٥) المنة ص ٤٩ والطرائف ص ١٦٤ . ١٦٥ و ٤٢٤ . ٤٢٥

(٦) الضياء المستبين ص ١٧١ . ١٧٦ •

وملخص ما حققه هو فيها :

١) أنه يجوز للمرء أن يأخذ لحاجة نفسه إن كان محتاجا ٠

٢) وأنه إذا لم يكن بيت مال للمسلمين أو لم يستطيع المرء استخراج حقه منه (فإنه يجب على الناس أن يجمعوا مالا ليرتبوا منه للجند وحملة العلم يعنون علم فرض الكفاية ٠

٣) وأن الناس إذا لم يفعلوا ذلك باختيارهم (وأمكن بعض حملة العلم من المسلمين به انتفاع أن يتوصل لبعض ذلك على وجه لا بأس به فذلك جائز)

ونقل في تأييد جواز ذلك نصوصا وقال(وبالجملة فعلماء أرضنا هذه وأولياؤها جرت عادة أكثرهم بالركوب إلى الناس ليأخذوا بعض ما أوجب الله لهم على الناس ٠٠) (١)

نقد : إن الاعتراض هنا ليس على هذه الحالات التي ذكرت في هذه النصوص من جواز السؤال للفقير المحتاج الذي يعيش في مجتمع ضيع حقوقه ، أو طالب علم في بيئة تجهل قيمة العلم وأهله ووجوب إعانة طالب العلم على التحصيل فأمكنه استخلاص بعض حقوقه بدون إخلال بمروءته ، أو عالم يعلم أن كثيرا من الناس لا يعرف حقوق الله في المال ولا يخرج زكاة ماله الواجبة عليه فعرض لهم يريد دلالتهم على خير واجب عليهم وهو من مصارف الزكاة إما لفقره واشتغاله بالعلم عن التكسب وخصوصا من كان ينفق على الطلاب كما هو معروف في تلك البلاد فمن كان بهذه الصفات سواء من القادرية أوغيرها فلا ينبغي الاعتراض عليه إلا في حدود توجيهه إلى ما هو الأفضل له من ذلك ٠

وعندي أنه لم تكن هناك حاجة كبيرة في تلك البيئة إلى السؤال حيث إنه من المعروف أن المجتمع كان متراحما ومتكافلا في الجملة وقد اشتهرت فيه المنيحة للمحلوب من الحيوان والسلف في المطعومات ٠

وكان كذلك مجتمعا يعرف قيمة العلم وأهله ويعني كثيرا بالاهداء إلى العلماء مع

---

(١) الضياء المستبين ص ١٧١ ـ ١٧٧ ٠

زهدهم وتعففهم والإنفاق على الغرباء من طلبة العلم (١)

إنما الاعتراض على من وصفهم الأخضري في قدسيته بقوله :

(وظهرت في جملة البلاد   طائفة البلع والازدراد) (٢)

وعلى من قال فيهم سيدي بن حين بعد تكفيره لبعضهم :

وغير من طوائف الأوراد   طوائف البلع والازدراد) (٣)

وحتى لا نعترض على بعض شيوخ القادرية الذين انتصبوا لتدريس العلم ونشره وأنشأوا المراكز وهيئوا المرافق وأنفقوا ما أهدي إليهم على ذلك أو حتى الذين أخذوا من الناس الزكاة لهذه الأغراض وما في معناها (٤) وإن دخلوا في نقد هذا المنهج فإنما يدخلون فيه بقدرما زادوه من اشتراط الهدية على المريدين وتركهم لتلاميذهم الحرية في التجوال وجمع الأموال خروجا عن المنهج المستنى من النقد .

ويمكن تلخيص نقد هؤلاء في المسائل الآتية :

١) أنهم يكادون يوجبون الهدية لهم على الناس أو الصدقة مع أن بعضهم ينتسب لآل البيت ولا تحل الصدقة لهم .

والهدية وصدقة التطوع من الأمور الاختيارية الطوعية مهما كان فيهما من اسباب الالفة والمحبة قال الله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم أأشفقتم أن

---

(١) الوسيط ص ٥١٧ . ٥٢٠ .

(٢) الطريقة الشرعية ص ٥٨ .

(٣) أجوبته للشيخ محمد عبد الله آده ص ٤

(٤) الوسيط ص ٢٤٢ وما بعدها و ص ٣٦٥ وما بعدها .

تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا

الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون ﴾ (١)

قال ابن العربي في هاتين الآيتين مسألتان :

الأولى : نسخ العبادة قبل فعلها ٠

الثانية : وساق ما رجح أنه هو السبب لنزول الآية الأولى . ثم قال : وهذا الخبر يدل على أن الأحكام لا تترتب بحسب المصالح فإن الله تعالى قال : ﴿ ذلك خير لكم وأطهر ﴾ ثم نسخه مع كونه خيرا وأطهر) (٢) ولذا لا تجب الصدقة أو الهدية لأحد على أحد ٠

٢) وهم لا يدعون أن الذي يأخذونه من الناس زكاة ولا أن الذين يرسلونهم سعاة لأن الذي يرسل السعاة لأخذ الزكاة هم الولاة العامون (٣) وهم يقتصرون في ولايتهم على ماقالوا : على الولاية الباطنية فولايتهم أخص كما تقدم ٠

٣) ثم إن هذه الأموال التي يجمعونها تحتكر غالبا لصالح الشيخ وذويه حتى إن بعضهم يقتر على مريديه الذين جمعوا هذه الأموال ولا يستبيحون الاكل منها أو لايباح لهم فقد يكون أحدهم خازنا للأقمشة وهو في عري قبيح أو قائم على تجارة أو زراعة أو مواشي وهو يعيش عيشة المعدمين والشيخ وذوه في بحبوحة من العيش والترفه ومن نظر في موارد الأموال ومصادرها في الإسلام يعلم يقينا أن الله جل وعلا لم يبعث محمد صلى الله عليه وسلم : جابيا وإنما بعثه داعيا وهاديا (٤) ٠

٤) وإن أعطى أحدهم من تلك الأموال شيئا فإنما يخص به من يظن أنه سيردها أضعافا مضاعفة أو غير ذلك من أنواع الفوائد المعنوية ٠

٥) ثم إنهم شغلوا من تبعهم ممن يصلح للعلم بجمع الأموال وحراستها وتنميتها حتى أماتوا فيه غريزه حب العلم وصلاحيته ولم يعوضوه عن ذلك مالا في الدنيا أو جاها والآخرة ليست بيد أحد من الناس ٠

---

(١) سورة المجادلة الآيتان ١٢ . ١٣ ٠

(٢) أحكام القرآن جـ ٤ ص ١٧٦١ . ١٧٦٢ ٠

(٣) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني جـ ٩ ص ٣٠ ٠

(٤) كتاب الخراج لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم ، صاحب أبي حنيفة ، تحقيق قصي محب الدين الخطيب ، ط ٦ سنة ١٣٩٧ هـ المطبعة السلفية انظره كاملا ، وخاصة ص ١٣١ . ١٦١ ٠

٦) ثم إن المريدين المشتغلين في مثل هذه الأمور يضيعون في سبيلها شهود الجمع والجماعات ، وقد تكون فيها أسفار هي معصية لله تعالى فلا يجوز الدخول فيها ابتداء ولا الوفاء بها انتهاء ٠

ويدخل في ذلك إذا كانت فيها مخالفة للوالدين أو تضيع لحقوق واجبة أخرى كما تقدم أو كان فيها أكل لأموال الناس بالباطل أو بالشفاعة أو بالدين كما قال الأخضري في مختصره الفقهي في العبادات ٠

ومن ذلك ارتكاب المسألة المنهي عنها شرعا ٠ فعن قبيصة بن مخارق الهلالي رضي الله عنه قال : تحملت حمالة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال : (أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ثم قال :

يا قبيصه إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ما له فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قال سدادا من عيش ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قال سدادا من عيش فما سواهن من المسألة ياقبيصة سحت يأكلها صاحبه سحتا) (١) هذا بالإضافة إلى ما جاء من الترغيب في التكسب والوعيد في تركه اتكالا على سؤال الناس (٢) .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب إلى الجبل فيحتطب ثم يأتي به يحمله على ظهره فيبيعه فيأكل خير له من أن يسأل الناس ، ولأن يأخذ ترابا فيجعله في فيه خير له من أن يجعل في فيه ما حرم الله) (٣) والله أعلم ٠

---

(١) صحيح مسلم كتاب الزكاة ، باب من تحل له المسألة ٠ وانظر توضيح هذه الرواية في صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٧ ص ١٣٤ ٠

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٧ ص ١٢٣ . وما بعدها والمسند جـ ٩ ص ١٠٦ . ١١٦ ٠

(٣) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني دار أحياء التراث العربي ط ٢ ص ١٠٦ ٠ مصدر سابق ٠

المطلب الرابع : واجب المريدين نحو الشيخ وما ينسب إليه

تقديم :

من آداب صحبة الشيوخ المستفاد منهم في العلم والتربية أن يعتقد المصاحب لهم أن فيهم من الخير والصلاح وبركة العلم والعبادة ما يجعلهم قدوة له في ذلك حتى تحصل له الثقه بهم وبما يأخذه عنهم وأن يلاحظهم ويبادر إلى تلبية طلباتهم ما دامت مشروعة وتطييب خواطرهم مما يعطيه مكانة في نفوسهم حتى تتسع له صدورهم وتزول عن العالم والمتعلم الوحشة والنفور (١) فهذه أمور من مكارم الأخلاق المتعارف عليها بين أهل العلم قاطبة ومن وسائل تحصيل الهدف الأساسي وهو العلم والعمل والتربية على ذلك ٠

ولكن أن تؤخذ على هذه الأمور ومثلها ويزاد فيها العهود والمواثيق وإن حصل بها إخلال كان ذلك خروجا عن العهدة ومروقا على الطاعة ويتوعد الطالب المتربي بالهلاك والبوار فهذا يكفي عندي في الانحراف عن الهدف من أول خطوة إلى هدف آخر وهو طلب تعظيم الشيخ لذاته واكسابه درجة من القداسة والبركة تحتاج إلى دليل ٠

والدليل العام الذي يستدل به القادرية من قياس الشيوخ على النبي صلى الله عليه وسلم لا يصح الاستدلال به لوجود الفارق وعدم اتحاد السبب الشرعي ولوجود نص فى النبي صلى الله عليه وسلم وعدم وجود نص في غيره وخصوصا في التماس البركة الذاتية من شخص معين ، ولكن كثيرا من الناس ينسى هذه الفوارق الأساسية ويطلب العلة ويقيس ويبنى على ذلك أمورا طلبها من البداية بذلك القياس من الخطإ الواضح المفضي بصاحبه في الغالب إلى الغلو الفاضح ٠

ويوجد من نصوص القادرية في كتبها وأقوال أتباعها أن الشيخ وذويه كالنبي صلى الله عليه وسلم في وجوب التعظيم والتوقير والبركة ومن ذلك ما يأتي إن شاء الله تعالى ٠

---

(١) انظركتاب الفقيه والمتفقه جـ ٢ ص ٩٨ ـ ٩٩ وأدب الإملاء والاستملاء ص ١٣٤٠ ـ ١٣٦ ٠

عرض : بعض نصوص القادرية في اعتقاد البركة في الشيوخ وذويهم

يقــول الشيخ سيــدي المختــار الكنتي : (وسبيــل مشايخ الأوراد سبيــل الصحابة ..) (١) يعني مع النبي صلى الله عليه وسلم (٢) ذلك أنهم هم الوارثون للنبي صلى الله عليه وسلـم (٣) وقال الشيخ سيدي محمد ملخصا بعض ما يجب على المريد بعد البيعة :

(ويجب عليه الوفاء بكل ما يشترطه عليه الشيخ صعبا كان أو سهلا ويعتقد أن شيخه عارف بالله ناصح للخلق ، ولا يدخل عليه إلا قبل يده بإطراق ، ولا يديم النظر إليه ، ويمضي لأمر الشيخ وإن كان فيه ضياعه ، وإن مرعلى مسجد تقام فيه الصلاة فليمض إلى أمر شيخه ، ويراعي حرمته في غيبته ما يراعيه في حضرته ، وينبغي له أن لا يمني نفسه بمنزلة فوق منزلة الشيخ ...) (٤)

ويقول صاحب الضياء (بأن على المريد مراعاة الأدب الكامل عند مجالسة الشيخ ، وتقبيل يد الشيخ عند الدخول عليه والإطراق ولزوم الوقار والسكينة ..) إلى أن يقول : (ومما اختص الله به هذا الشيخ من التعظيم أن لا يقبل أحد يد أحد بحضرته) (وأن الطعام والشراب واللباس يزداد ببركته) (٥) .

ويقول الشيخ سيدي محمد الكنتي عن والده : (ومما شاع من بركته وذاع وملأ الأبصار والأسماع أنه كان رضي الله عنه إذا حل بموضع حلت به البركة فدرت أنعامه واستمرأته سوامه كثر مرعاه أو قل حتى كان يقول بعض الجيران إنما ترعى سوامنا الذكر والبركة ونحلبها ..) (٦) .

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١٥ .
(٢) نفسه ١٦٧ - ١٦٨ .
(٣) جنة المريد ص ٦٣ .
(٤) نفسه ص ١٥٤ . ١٥٩ .
(٥) الضياء المستبين ص ٢٧١ و ٣٢٥ .
(٦) الطرائف ص ٥٨٠ .

وهكذا دعى إلى مثل هذه الاعتقادات ونشرها بين الناس هؤلاء ومن جاء بعدهم فيقول الشيخ ماء العينيين : (ومن حق المريد على الشيخ أن يصافحه كلما لقيه بنية التبرك) (١)

نقد :

فهذه بعض نصوصهم التي تشتمل على بعض الآداب المطلوبة شرعا وعرفا من كل صاحب مع صاحبه على ما تقدم بيانه ، ولكنها مع ذلك تشتمل على الدعوة إلى الاعتقاد في المخلوق والتماس البركة منه وحصولها له ولمن صحبه بدون دليل واضح يلحق المدعى له ذلك بدون إخلال بالعقيدة بمقام النبي صلى الله عليه وسلم وبعض صحابته الكرام الذين فازوا بصحبته والاقتباس من بركته .

ونشر هذه المعتقدات أدى إلى ضرر كبير في العقيدة حيث يشاهد من يتمسح بالأضرحة وينقل ترابهاويضعه في ماء ويشربه ، ومن التبرك بالأحجار المنصوبة عليها واعتقاد البركة في ثوب الشيخ وسجادته والتمسح بما له صلة به ، واعتقاد البركة في بلدته وأشجارها وأحجارها ودوابها وتوسع الناس كذلك في التفاؤل بقربهم ممن يوصف بالشيخوخة أو ذويه أو بمقدم أحد منهم عليهم ، حتى إن بعضهم إذا أصابته مصيبة لا يتذكر ذنوبه وما أقترفه في جنب الله تعالى وإنما يقول بأن خاطر الشيخ تغير عليه وبادر بالتمسح والهدية وإخراج النذور ، وإن نجاه الله تعالى قال : جرت علي بركة الشيخ الفلاني أو الصالحين الفلانيين وغير هذا مما هو مسطور نثرا ونظما ومسموع قولا (٢) .

وهو ظاهر في أن الانحراف قد تسلل إلى عقائد كثير من الناس في تلك البيئة بواسطة تكرار مثل هذه الأمور عليهم حتى اعتقدوا أنها من الأمور الجائزة ولم ينظروا في أسباب ظهورها ولا خطر اعتقادها وانتشارها حتى أخذ بعضهم يدافع عنها أو يلتمس لها الأدلة وكأنها من أمور العقيدة التي تجب حمايتها والذود عن حياضها .

والواجب على المسلم أن يعرف حكم الله تعالى فيما يأتي وما يترك في القرب إلى الله تعالى أو في غير ذلك من أموره، وأن لا يقدم على أمر يرجو به الخير والنفع لنفسه

---

(١) نعت البدايات ص ١٠٧ وانظر هامشه راتق الفتق ص ٢١٠ . ٢١٣ .

(٢) الضياء ص ٢٧٢ والطرائف . ٥٨١ . ٥٨٢ .

دينا وأخرى وهو جاهل بحكم الله فيه أو متبع لهواه أوهوى غيره فيه • إن التبرك من الأمور التي اختلط على الناس الأمر فيها من قديم ولم يميز الكثيرمنهم ما هو حد المشروع منه النافع وما هو الضار منه المحرم •

ومن أبرز مظاهرهذا الخلط اعتقاد البركة في بعض ذوات الأشخاص لمجرد أنهم على منهج معين أو ينتسبون لمن اشتهر بالولاية والعلم والصلاح ولا تكون البركة إلا حيث يضعها الله تعالى ولا تكون بالادعاء أو الأنتساب فقط • ويمكن أن يجمل القول في ذلك في النقاط الآتية :

أولا : قد جعل الله البركة في نبيه صلى الله عليه وسلم وكل ما يتصل به وعرف ذلك أصحابه رضوان الله عليهم له خاصة دون غيره من كبار أصحابه فهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مع ما أعطاها الله تعالى من الفضل تقرأ على النبي صلى الله عليه وسلم بالمعوذات في مرضه الذي قبض فيه وتقول : (فأمسح بيد نفسه لبركتها) (١) .
وهذه أم سليم بنت ملحان رضي عنها من حرصها على الحصول على بركة عرق النبي صلى الله عليه وسلم لتطيب به طيبها ترتكب أمرا يوقظ النبي صلى الله عليه وسلم من نومه في القيلولة (٢) ولم تصنع ذلك مع أحد من الناس •

بل وهؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم في جيش كبير يتدافعون ويتزاحمون في مواطن عديدة كل يريد الفوز بشيء مما له صلة بجسده الشريف أو جاء بسبب دعائه أو من إكرام الله له بدون دعاء (٣) ولم تجدهم فعلوا ذلك مع الصديق رضي الله عنه حيث ظهرت على يديه بركات عديدة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فبان من هذا أنه لا يقاس أحد على النبي صلى الله عليه وسلم •

ثانيا : جعل الله تعالى البركة في كتابه وما شرع من دعائه وذكره فهو تعالى واهب البركة ﴿ فتبارك الله رب العالمين ﴾ (٤) ﴿ كتاب انزلناه اليك مبارك ﴾ (٥) وقد بارك

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الطب ، باب المرأة ترقي الرجل ، الحديث رقم (٥٧٥١)
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب طيب عرقه صلى الله عليه وسلم والتبرك به •
(٣) مرويات عزوة الحديبية (جمع وتخريج ودراسة) الشيخ حافظ بن محمد عبد الله الحكمي نشر الجامعة الإسلامية ص ٢٥٨ وما بعدها و ص ٢٩٤ وما بعدها
(٤) سورة غافر الآية ٦٤ •
(٥) سورة ص الآية ٢٩ •

الله تعالى في بعض مخلوقاته وذكر ذلك في كتابه الكريم : مثل : البيت ، والأرض المباركة ، والمطر ، والشجرة المباركة وتحية مباركة وليلة مباركة إلى غير ذلك مما ذكر الله تعالى أنه جعله مباركا .

ثالثا : وجعل سبحانه وتعالى البركة في اتباع هدي كتابه والاستنان بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

فمن ادعى لنفسه البركة ومنحها لغيره من أبنائه وأتباعه أو أنه يعطي البركة للمكان والزمان الذي هو فيه من دون اعتماد على كتاب أو سنة واضحة في ذلك كان هذا من أدلة قلة البركة فيه ، وجرأته على الله واهب البركة .

فالبركة في الايمان والعمل الصالح الخالص لله تعالى ، الموافق لكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

فمن آمن بصدق وعمل بإخلاص وحفظ كتاب الله تعالى وحافظ على سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ودعى الناس إلى ذلك كان مباركا بما جعل الله فيه من خير وبركة وبما كتب الله على يديه من خير وبركة ، ولكنه لا يملك جعل غيره مباركا إلا بحسب ما يأخذه من علم وخير وعمل صالح .

أما أن يورث أبناءه البركة في ذواتهم وأتباعه الجاهلين بأمور دينهم البركة لمجرد أن هؤلاء أبناوه وأولئك أتباعه فهذا لا يقوله أحد في الأنبياء وأحرى غيرهم بأن لا يقال فيهم ذلك .

وقد دفع هذا الاعتقاد كثيرا من الناس إلى اعتقاد البركة فيمن حظه منها لا يعد أولا حظ له فيها .

فيمنحوا البركة لما قام في نفوسهم من تعظيم شيوخهم إلى من لا يحفظ شئيا يذكر من كتاب الله تعالى ولا من سنة رسول الله صلى الله علية وسلم وهو مقصر في تحصيل فرض عينه ، وقد يكون مع ذلك يرتكب الكبائر والصغائر جهارا لجهله بدينه وقلة علمه بآداب دينه (١) .

---

(١) انظرروح المعاني جـ ١١ ص ١٤٩ .

وهؤلاء وأمثالهم قد تحقق فيهم ما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن أمته كما في حديث رواه أبو واقد الليثى قال : (خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ، وينيطون بها أسلحتهم يقال لها : ذات أنواط فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الله أكبر إنها السنن ، قلتم ، والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسي اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . قال : إنكم قوم تجهلون) إنها السنن ، لتركبن سنن من كان قبلكم سنة سنة ...) (١) ويظهر على أصحاب هذه النصوص من الغلو المذموم ما حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم . روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى : ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولاسواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾ (٢) قال: (أسماء رجال صالحين من قوم نوح . فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد حتى هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت) (٣) .

وهكذا يفضي التبرك الممنوع بصاحبه إلى عبادة غير الله تعالى وهذا ما خشيه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه عندما أراد أن يقبل الحجر الأسود وكان يعلم أن أهل الجاهلية من العرب كانوا يعظمون الحجارة وينزلفون بعبادتها والسجود لها ويتمسحون بها تبركا فقال : (والله إنى لأقبلك وأعلم أنك حجر وأنك لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك) في روايات متفق عليها (٤) .

---

(١) الفتح الرباني جـ ١ ص ١٩٨ . ١٩٩ الحديث رقم ٢٧ .

(٢) سورة نوح الآية ص ٢٣ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب (ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق) الحديث رقم (٤٩٢٠) .

(٤) صحيح البخاري مع الفتح ج ٣ ص ٤٦٢ رقم الحديث ١٥٩٧ كتاب الحجج باب ما ذكر في الحجر الأسود ج ٩ ص ١٦ وصحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف .

فاتباع السنن ولو لم تعرف العلة فيها واجب والقياس عليها بدون علة واضحة بدعة ظاهرة كما بينه الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى (١) إذ قال :

(ولقد حكى الفرغانى مذيل تاريخ الطبري عن الحلاج أن أصحابه بالغوا في التبرك به حتى كانوا يتمسحون ببوله ويتبخرون بعذرته . حتى ادعوا فيه الالهية تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا) (٢) وخوفا من هذا التبرك الذي هو أصل العبادة والاعتقاد قطع عمر رضي الله عنه : الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان كما في القرآن الكريم قال الحافظ بن حجر بعد ذكره لاختلاف الناس في عين مكان هذه الشجرة : (... ثم وجدت عند ابن سعد باسناد صحيح عن نافع أن عمر بلغه أن قوما يأتون الشجرة فيصلون عندها فتوعدهم ، ثم أمر بقطعها فقطعت) (٣) وهكذا يجب سد أبواب الشرك . والله أعلم .

---

(١) الاعتصام جـ ٢ ص ٩ . ١١ .

(٢) نفسه ص ١٠ .

(٣) فتح الباري جـ ٧ ص ٤٤٨ وانظر : الطبقات الكبرى ، لمحمد بن سعد بن منيع البصري ، دار صادر ، بيروت سنة ١٣٨٨ هـ جـ ٢ ص ١٠٠ .

المبحث الثاني : آداب الشيخ مع المريدين

الموجود في كتب القادرية عن آداب الشيخ مع مريديه في الغالب منقول من كتب الصوفية وهي مرجعهم في مثل هذه الأمور إلا أنهم يقولون بأن شيوخهم أخذوا آدابهم من آداب النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ثم من آداب الصحابة رضوان الله عليهم مع أصحابهم من التابعين وهكذا • (١)

وهذه بعض نصوصهم الموضحة لآداب الشيوخ وواجباتهم نحو المريدين :

عرض : قال الشيخ سيدي المختار الكنتي : (لا يجوز للشيخ التجاوز عن زلات المريدين ما لم يتنسم ريح إكراه لأن ذلك تضييع لحق الله تعالى ويجب أيضا على المشايخ نصح المريدين ولين الجانب لهم والإغضاء عن زلاتهم غير القادحة في أصل البيعة والتجاوز عن هفواتهم على الوجه الذي يليق بما اختل عليهم من آداب الصحبة وما التبس عليهم من أحوال الطوية كل على قدر مقامه وذوقه من زجر صحيح وإشارة وتلويح وتنبيههم متى غفلوا وإرشادهم إذا ذهلوا مع إرضاعهم لبان المعارف وإمالتهم عن المشارب المخوفة •••) (٢)

ويقول الشيخ سيدي محمد : (اعلم أن أصل هذه الطريقة ومبناها إنما هو سيرته صلى الله عليه وسلم من أقواله وأحواله وأفعاله وتقريراته المفسرة لنص الكتاب الذي جاء به من ربه ثم ما مضى عليه عمل أصحابه من بعده ثم ما انعقد عليه إجماع سلف أمته من بعدهم) (٣) • وينقل عن والده قوله : (ما تمت الأسوة الحسنة بعد الصحابة وأعيان التابعين إلا لهذه الطائفة المتميزه باسم الصوفية •••) (٤) ويروي في الطرائف أن والده كان متخلقا باخلاق ربه المنبئة عن وراثته لنبيه وقدوته وحبه وأنه كان أدبه القرآن الكريم (٥) • ويقول صاحب الضياء : (إن الشيخ محمد فاضل كان يربي مريديـه بمقتضى الكتاب العزيزوالسنة المحمدية) وأنه كان يربي

---

(١) الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٥٧٤ وما بعدها • وعوارف المعارف ص ٤١٥ وما بعدها • والكوكب الوقاد ص ١٥ وما بعدها وجنة المريد ص ٦٧ وما بعدها • ونعت البدايات

(٢) الكوكب الوقاد ص ١٦٩ •

(٣) جنة المريد ص ٦٧ •

(٤) نفسه ص ١١٧ •

(٥) الطرائف ص ٢٤١ و ٢٦٣ و ٣٢٢ وما بعدها • والمراد بأنه كان يتخلق بأخلاق ربه هو : ما يصح من تمثيل أسمائه الحسنى مثل الرحيم الكريم العفو اللطيف ، الرفيق انظر : الفتح الباري جـ ١٣ ص ٣٧٨ •

البليد المغفل والمخالف له كما يربى من صح اعتقاده فيه (١) ويتابعه على ما ذكر الشيخ ماء العينيين في نعت البدايات ويقسم إن دعوة والده كانت دعوة إلى الله تعالى على سنن الأنبياء (٢)

ويذكرأن من آداب الشيخ الاعتناء بهئيته والتزام زي يعرف به مناسب لحاله ، وأن عليه أن يأمر مريديه بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويعفو عن زلاتهم ، ويظهر محاسنهم ويستر عوراتهم ، ويتلقاهم بالترحيب وطلاقة الوجه ويمكنهم من زيارته ومصافحته وتقبيل يديه ويستعمل معهم من التودد إليهم ما يحببهم إليه ويحببه إليهم ما لم يخشى عليهم من العجب أو يؤدي ذلك إلى مخالفة سنة أو ارتكاب محرم . (٣)
ويضيف الشيخ سيدي محمد ان من آداب الشيخ مع المريدين أن يكون حسن الخلق كثير التواضع لهم ولا يسمح بالتنازع والخلاف في حضرته ويطرد عن حضرته من يعترض عليه، ويمنع مريديه من زيارة شيخ آخر سداً لباب التشويش عليهم . (٤)

ويوافقه الشيخ سعد أبيه على مثل هذه الآداب فيقول بأن المريد الذي يعترض على الشيخ في التسليك يكون ذلك دليلاً منه على مصادقته لنفسه ورضاه عنها . قال : (فهذا لا يفلح ولا يشم للطريقة رائحة فيجب على الشيخ أن يقول له إذهب إلى حرفتك لئلا يضيع عليه سائر أصحابه فإن الطبع يسرق الطبع اللهم إلا أن يكون الشيخ من أهل التمكين والتصرف في القلوب فلا بأس أن يقيمه خادما للفقراء فمن بركة خدمته مع قوة الشيخ يفتح الله عليه وينعش عزيمته لقبول السلوك ، ومن شروط الشيخ أن يكون ستارا لأسرار الناس لاسيما المريدون وأن يكون غني النفس حسن الخلق لا يغضب إلا لله وأن يكون أكبرهمه تسليك السالكين لا جمعهم لتنصرف إليه وجوه الناس .) (٥)

نقد : هذا بعض مما نصوا عليه من آداب الشيوخ وواجباتهم نحوالمريدين ، ويمكن تناول ما اشتملت عليه هذه النصوص بالنقد والرد في المسائل الآتية إن شاء الله .

---

(١) الضياء المستبين ص ١٤٠ . ١٤١ و ٣١٧ . ٣٣١ .
(٢) نعت البدايات ص ٩٤ . ٩٥ .
(٣) المصدر نفسه ص ٩٧ وما بعدها .
(٤) جنة المريد ص ١٦١ . ١٦٣ .
(٥) كشف اللبس ص ٨١ . ٨٢ تقدم بيان المراد من عبارة التمكين والتصرف في باب العقيدة .

أولا : يدعون فيها لأنفسهم ولشيوخهم أنهم على خلق القرآن الكريم ، وأنهم الوارثون لأخلاق النبوة والمقتدون بالنبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام في آداب الصحبة وهذه الدعوي على ما فيها من تزكية النفس المنهي عنها شرعا ، والصارفة عن صاحبها عرفا لمنافاتها لمكارم الأخلاق والتواضع الذي هو قمة الأخلاق الحميدة لأمر الشارع به ونصبه لنفسه قدوة فيه ولم يمتدح صلى الله عليه وسلم نفسه بشيء إلا ليقتدى به فيه ولم يمتدح لأمته شيئا إلا للأخذ به والتأسي به فيه (١) فعلى ما فيها . تحتاج إلى دليل . فالنبي صلى الله عليه وسلم قد أثنى الله عز وجل عليه بالخلق العظيم قال تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (٢) فهو صلى الله عليه وسلم الممتثل لتأديب الله له في كتابه العزيز ﴿خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين ﴾ (٣) وقوله ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمرفاذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ (٤) ولذا لما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم . وكان السائل لها سعد بن هشام ابن عامر قال :(فقلت يأم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : ألست تقرآ القرآن قلت : بلى : قالت : فإن خلق النبي صلى الله عليه وسلم كان القرآن ..) (٥) قال النووي : (معناه العمل به والوقوف عند حدوده والتأدب بآدابه والاعتبار بأمثاله وقصصه وتدبره وحسن تلاوته) (٦)

فخلقه صلى الله عليه وسلم معجز على هذا المعنى فلا يليق بمن يدعى التواضع أن يرفع نفسه بالادعاء لنفسه أو لشيخه أنه كان خلقه القرآن الكريم مساواة للنبي صلى الله عليه وسلم في الخلق العظيم وعليه أن يقول كما قال الامام علي رضي الله عنه لما انتهى من وصفه صلى الله عليه وسلم: (لم أر قبله ولا بعده مثله) (٧) ويضع نصب

---

(١) أنظر الشفا جـ ٢ ص ١٣٧ وما بعدها .

(٢) سورة القلم الآية ٤ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٩٩ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي صلى الله عليه وسلم في الليل .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٦ ص ٢٦ .

(٧) الشمائل المحمدية للإمام الترمذي ص ٢١ .

عينيه قول معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه عندما شمت عاطسا أثناء الصلاة ونهره من يعرف منع الكلام أثناء الصلاة قال : (فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني ...) (١) . هذا بالإضافة إلى أنه صلى الله عليه وسلم قال لنا في الحديث الشريف الصحيح : (وإن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد) (٢)

فمن عرف شمائله وفضائله وما كان عليه من الخلق العظيم يعترف بالتقصير لنفسه ولشيوخه عن الحومة حول ذلك الحمى ويكتفي بالقول : الحمد لله الذي جعلني من أمته صلى الله عليه وسلم مهما كان عليه من العلم والأدب وحسن المعاشرة (٣) أما إذا لم يكن على شيىء من ذلك فلا يحفظ القرآن حتى يتخلق بشيىء من أخلاقه ولا يعرف السنة حتى يتأسى ببعض ما فيها كغالبية المصدرين من الشيوخ فإنه بعيد من مضمون هذه الدعوى إذ فاقد الشيىء لا يعطيه ولذا نجد هديهم يخالف هدي النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من أمورهم .

فالنبي صلى الله عليه وسلم يعمل دائما على حمى جانب التوحيد في الأفعال والأقوال وهم يستبيحون ميدانه ليدخل من يريد إحداث الثغرات في ذلك الحصن الحصين حتى إنهم يقرون ويشجعون بعض المادحين لهم على الغلو الظاهر ، ويفسحون المجال لهم حتى يرتكبوا من التجاوزات مالا يليق بمسلم أن يقره مع الجهل فضلا عن شيخ يقتدى به في الدين .

وواجب الصحبة والنصح يحتم على الشيوخ حمل المريدين على الحق مهما كان الحال ولكن بعض الشيوخ يقبل الواردين إليه على جهلهم بالدين وواجبات الأخلاق فلا يعلمهم ولا يكلهم إلى من يعلمهم بل ربما فهموا منه التنفير من أهل العلم وهذا

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته .

(٢) صحيح مسلم كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت في الجنة أو النار عليه .

(٣) الشفا جـ ٢ ص ٨٣ وما بعدها .

إما لجهله هو أو لحرصه على أن يبقوا في جهلهم حتى يتمكن من استخدامهم في أغراضه كما حدثني بذلك من كان له ببعض شيوخهم صلة من أهل الثقة والعلم ، ومضمون كلامه أن أحد المتنورين في الطريقة بعد أن حج بيت الله الحرام ورجع إلى البلاد وهو ابن شيخ في الطريقة أراد أن يعلم بعض مريدي والده (شيخه) بعض الواجبات والسنن فناداه والده الشيخ وقال له : الذي تريد عمله مع هؤلاء هو الحق ولكن إن تماديت فيه تركوك ومضوا إلى سبيلهم (١)

ثانيا : أنه جاء في هذه النصوص أن من آداب الشيخ التزام هيئة أهل العلم والوقار وهذا يقتضي العناية بمظهره في اللباس والسكينة والوقار في الحركات والسكنات .

فهذا الشيخ إن كان من أهل العلم فلا خلاف أن على العالم العناية بمظهره من نظافة وطهارة وتجمل وتحسين هيئته حتى يكون قدوة في ذلك وحتى يحبه الآخذون عنه ويحترمه ويجله الآخرون (٢) حتى يؤلف ويبتعد عن الصفات المنفرة .

وهو ما كان عليه أهل العلم من لدن النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا وما خالف هذا المنهج إلا بعض الصوفية (٣)

أما إن كان اتخاذ الهيئة الحسنة المتميزة يراد بها الشهرة والتميزعلى خلق الله فهذا من المنهي عنه شرعا وصاحبه لا يقتدى به فيه على أنه دين أو أدب حسن ، (ثم إن طالبنا كل مصدر في القادرية باتخاذ شعار العلماء نكون ظلمناه وجعلناه متشبعا بما ليس فيه وإن اتخذ مثل ذلك قد يوقعه في الحرج الذي يسلم منه في حال عدم تشبهه بأهل العلم ودخوله في عامة الناس ، وهذا ما لايرضاه أيضا مصدر لنفسه ، وبهذا يظهر أن للنفس في حب الظهور والرئاسة مدخلا كبيرا ، على أن من حصل من العلم من المصدرين في القادرية أو من اشتهر بالمشيخة منهم ما يعرف به كيف يضع

---

(١) إحدى مقابلاتي مع الشيخ المذكور في شوال سنة ١٤١١ هـ في مكة المكرمة .

(٢) انظر أدب الاملاء والاستملاء ص ٢٥ . ٣٦ .

(٣) ترتيب المدارك جـ ٢ ص ١٣ وما بعدها وتلبيس ابليس ص ٣٢١ ومابعدها .

الأمور مواضعها لايعاب عليه اتخاذ هيئة حسنة لا شهرة فيهاحيث إن التشبه بأهل العلم والفضل مطلوب وباعث على تحصيل ما هم فيه ، ولكن الغالب على المصدرين تحسين ظنهم بأنفسهم حتى يقع من بعضهم خلط ودفاع عن النفس والتأويل المذموم حفاظا على مكانته كما وصفهم أبو بكر ين محمد بن أبي بكر ضمن من حمد الله تعالى على أنه لم يجعله واحدا منهم فقال :

(ولم أك باسم (الشيخ) لفظا ملقبا   مسماه عنه غايـــة في التباعـــد
ولاذا مقـــام في الـــورى متشبشـــــا   بما ليس فيه من خصال الأماجد
تـــراه يحامي دائمـــا عن مقامـــــــه   لخـوف انحطاط القدريين المشاهد) (١)

ثالثا : جاء في عرض نصوصهم في هذا المبحث أن من واجبات الشيخ نحو المريدين حسن المعاشرة والصبر والتواضع لهم وتحسين الظن بهم وستر عوراتهم والتغاضي عن زلاتهم .

وهذه أمور واجبة بين المسلمين عموما شرعا وعرفا وتتأكد في حال دوام الصحبة والملازمة والمجاورة .

والمعروف عن علماء موريتانيا تحمل الطلاب والنصح لهم والإنفاق عليهم سواء عندهم في ذلك القريب والبعيد وعلى هذا فلا مزية لشيوخ القادرية على غيرهم من شيوخ العلم في هذا الميدان . (٢)

على أنه يشهد لبعض شيوخ القادرية الذين جمعوا بين التصوف وتدريس العلم بحسن الصحبة ورعاية حقوق الطلبة والإخوان ، وقد صدرت عن بعضهم دعوات تدل على مكانتهم في هذا الميدان من ذلك قول الشيخ سيديا في أبيات له يحض على حسن المعاشرة واجتناب ما يشغل عن التحصيل العلمي :

---

(١) شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون ص ٥٧٦ .

(٢) انظر الوسيط ص ٥١٨ ـ ٥٢١ .

(أيا معشر الإخوان دعوة نادب — إلى الحق والمعروف ليس بكاذب

أعيروني الاسماع أهد إليكم — وصية مصفى النصح غيرمخالب

فمن كان منكم ذا وداد وخلة — لمرتفع الأخلاق جم المناقب

ليسحب على عيب الخليل ذيوله — ويستر فشأن الخل ستر المعايب

خليلي لا أبدى إلى من يذمه — طلاقة وجهي بل عبوسة حاجبي

أحب الذي يهوى وأبغض ما قلا — ولست عليه إن يزل بعاتب

وماذا دعا يوما لصدمة حادث — ألم عليه كنت أول واثب .) (١)

وللشيخ ماء العينيين في نفس الموضوع ما يأتي :

(تغافل عن الإخوان في كل زلة — وإياك والتبصير في زلة الأخ

وكن راحم المسكين واصل رحمه — وإياك أن تبدو له بالتبلخ

وإياك والتقصير فيما أحبه — وساو زمان العسرفي ذاك والرخي

وداوم على تقوى الإله وعلمه — تفزوتنل مما رجوت بخ بخ) (٢)

فهذه نصائح من بعض الشيوخ الذين كابد واطلاب العلم حسبما اشتهر عنهم وهي نصائح موجهة على العموم ولكن يدخل فيها المريدون دخولا أوليا وقد تقدم في مطلب الحب في الشيخ والبغض فيه معاني ما تدعوا إليه هذه النصائح .

ولكن عند التطبيق العملي على الواقع نجد أن كثيرا من شيوخ القادرية لا يباشرون مكابدة طلاب العلم وحتى مريديهم والمتجردون لخدمتهم ذلك أن كثيرا

---

(١) الوسيط ص ٢٤٢ .

(٢) نفسه ص ٣٦٨ .

منهم لا يصل إلى مرتبة المشيخة في العلم وقد تكون له به عناية ولكن يتركه لبعض أهل حضرته أو النابهين منهم يتولى مكابدة ذلك عنه ، ضمن خدمته للشيخ ، وقد يفسر ذلك من بعض من له حظ في العلم أنه تكبر على منصب الفقهاء والقراء وخصوصا إذا عرف عن صاحبه عناية بدراسة وتدريس كتب الصوفية (١).

كما أنه يحتمل أن يكون المقصود منه إضفاء نوع من القداسة والاحتجاب عن الأنظار دائما وهذا مكسب عند بعضهم ومن ثماره صيانة النفس عن الامتهان ومكابدة أخلاقيات مختلفة قد يكون بعضها مستعصيا وبعضها معترضا إلى غير ذلك من أنواع التغطية والتعمية حتى ولو على الجهل وهذا حال كل من تصدى للسيادة قبل التعلم وبالتالى يكون الشيخ في هذه الأحوال هو المخدوم ومقابلاته للناس محدودة وفي أوقات معينة لإعطاء الورد لمريد جديد أو لتصدير مصدر ٠

رابعا : وفي نصوصهم ، أن من واجب الشيخ منع مريديه عن شيخ آخر ٠

ويظهر أن هذا مخالف لهدي النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته والسلف الصالح حيث إنه من المعروف أن المتعلم والمتأدب يأخذ العلم ممن لديه علم ويتأدب بهذا الشيخ ما دام يليق به ويتحول إلى غيره إذا رآى أنه أصلح لحاله ووضعه (٢) ووجه المصلحة في منع المريدين من الشيوخ الآخرين كما ذكر هو خوف التشويش عليهم وهذا معارض بأن المنع قد يدفع إلى مزيد التشوف والرغبة في الممنوع فيزداد التشويش ولا يزول ٠

ثم كيف يكون من الأدب الواجب منع مريد عن الأخذ من العلماء والأدباء وغيرهم ممن يصلح للأخذ عنه وقصره على شيخ واحد قد لا يكون عنده من العلم والأدب والتربية ما يلبي رغبته وحاجته وقدرته على الاستيعاب والتحصيل ٠ اللهم إلا إن قصد بذلك دفن مواهبه وكبت غريزة العلم فيه كما قالوا بأن المريد لا يجوز له أن يمني نفسه بمكانة الشيخ أو مكانة فوق مكانته وهذه أنانية لا أدب وإلا فمن الذى يحجر على فضل الله الذي يؤتيه من يشاء وقديما قالوا : إنك لا تعرف خطأ معلمك حتى تجالس غيره والله أعلم ٠

---

(١) الطرائف ص ٢٨٠ وجنة المريد ص ٨ ٠

(٢) جامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ٩٢ وما بعدها ٠

المبحث الثالث : آداب المريدين فيما بينهم

عرض : درجت القادرية على مقارنة شيوخها بالنبي صلى الله عليه وسلم كما سبق بيانه وقياس أتباعها على صحابته صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم فكما أن النبي صلي الله عليه وسلم آمن به أفراد من قبائل شتى وشعوب مختلفة كذلك أتباعهم هم وإذا كان الصحابة هاجروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فرارا بدينهم فكذلك من التحق من الناس بشيوخ القادرية فإنما يطبق نفس السنة ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم بايع أصحابه على السمع والطاعة وآخى بينهم في الله حتى كان الأخ يرث أخاه في الدين دون أخيه الكافر في النسب حتى نزل القرآن بنسخ ذلك فكذلك يبايع شيوخ القادرية مريديهم على السمع والطاعة كما تقدم ويوجبون عليهم بالبيعة الموالاة والمصافاة فيما بينهم دون غيرهم من الناس ولو كان في أولئك الناس أقرب إليهم كالوالدين والإخوة والأزواج • (١) ويستدلون على ما يذهبون إليه من وجوب الأخوة الخاصة بين مريديهم : (أنهم تجمعوا من كل ناحية ومن كل قبيلة) (٢) وينصون على أنهم هم المرادون في الاحاديث التي تذكر الغرباء ونزاع القبائل وأنهم كذلك هم الطائفة الظاهرة التي لا تزال على الحق لا يضرها من خالفها إلى قيام الساعة (٣) والأحاديث التي يشيرون إليها هي قوله صلى الله عليه وسلم كما في رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء) (٤) وزاد في مسند الإمام أحمد بعد روايات هذا الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (بلفظ) : (إن الإسلام فذكر مثله وزاد قيل ومن الغرباء قال : النزاع من القبائل) (٥) وقوله صلى الله عليه وسلم كما رواه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر

---

(١) الكوكب الوقاد ص ٢٣ . ٢٧ والضياء ص ١٧٧ ونعت البدايات ص ٢١ وما بعدها وجنة المريد ص ٩٨ . ٩٩ •

(٢) الكوكب المريد ص ٣٠ •

(٣) جذوة الانوار ص ١٠٧ وجنة المريد ص ١٧١ والضياء المستبين ص ١٣٤ •

(٤) صحيح مسلم كتاب الايمان ، باب بيان أن الاسلام بدأ غريبا وسعود غريبا •

(٥) الفتح الرباني جـ ١ ص ١١٥ وقد جمع زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي أحاديث الغربة وتوجيه العلماء لها في كتابه كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة • قدم له وعلق على أحاديثه بدر البدر • الناشر : دار الأرقم ط ١ الكويت ، سنة ١٤٠٤ هـ انظر : ص ١٣ وما بعدها •

الله وهم ظاهرون) (١) • فهذه بعض النصوص التى يذكرونها على سبيل الاستدلال بها على أنهم هم المرادون بها دون غيرهم من المسلمين ، ويريدون بها أن الإسلام إذا كان بدأ في غربة وعلى أيدي الغرباء ونزاع القبائل وأن النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين والأنصار أو آخى بين أصحابه جميعا حتى آخى بين نفسه الشريفة مع علي رضي الله عنه (٢) فإنه بذلك تكون سنة الإخاء جارية بين مريديهم :

يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي : (وسبيل مشايخ الأوراد سبيل الصحابة لأنهم وارثوهم والآخذون عنهم •••) (٣)

وأنه : (من الآداب النافعة للمريد حب مريدي الشيخ وقرابته وأحبابه ••) (٤) ويقول الشيخ ماء العينيين (واعلم أن المؤاخاة أمر مسنون من لدن النبي عليه السلام فإنه آخى بين المهاجرين والأنصار •••) (٥)

(وأن الأخ حيث أطلق عند القوم فالمراد به إخوان المريد الطالبون ما طلب وهم المواريد الذين هم قاصدون ما قصده من الوصول إلى الله •••) (٦)

وهذا المعنى كثير في كتب الشيخ سيدي محمد الكنتي (٧)

نقد : ويفهم من نصوصهم وما استدلوا به الأمور الآتية :

أولا : الاستمرار في الحاق شيوخهم بالنبي صلى الله عليه وسلم في سيرته الشريفة وخصوصا في تأديبه لأصحابه ومعاملته لهم •

ثانيا : قياس المريدين على الصحابة رضوان الله عليهم وادعاء اتباع آثارهم والاقتداء بهديهم مع النبي صلى الله عليه وسلم • وقد تقدم نقد هذه المسالك •

---

(١) صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق وهم أهل العلم •

(٢) الكوكب الوقادص ١٥ وما بعدها •

(٣) نفسه ص ١٦٨ •

(٤) نعت البدايات ص ٢٤ •

(٥) نعت البدايات ص ٢٤ •

(٦) نفسه ص ٢٥ . ٣٠ •

(٧) جنة المريد ص ٥ . ٧ و ٩٥ . ١٠٦ و ١٢٧ وما بعدها • والطرائف ص ٣٧٠ وما بعدها •

ثالثا : ادعاء أنهم هم نزاع القبائل والغرباء الذين لهم طوبى وحسن مآب ، وفي هذا الادعاء من قصر النصوص العامة على بعض الأفراد بدون مرجح واضح ما يدل على الأنانية وتزكية النفس والاستئثار بالفضائل وحيازة الوعد الحسن إلى غير ذلك من الخصال المنافية لمضمون هذه النصوص التي يدعى بها ذلك • فالغربة التي حصلت للمسلمين في بدء الإسلام لكثرة الكفار والأعداء والمخالفين تحصل لكل مؤمن صادق الإيمان إذا وقع مثل ذلك من مخالفة شرع الله تعالى وقلة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أوتخاذلهم عن الحق أو ارتكابهم البدع والدفاع عنها فإنه يعيش في غربة ووحشة ولو كان بين عشيرته وبني جلدته ولذا لا مخصص لهذه الصفة إلا الإيمان (١) وليس الإيمان بالله تعالى حكرا على القادرية أو غيرها من الطرق الصوفية •

ونزاع القبائل الموصفون بالغربة إنما اغتربوا من أجل إيمانهم وحب الخير والتعلم والتعليم ولذا كان الغرباء الأوائل ونزاع القبائل من السابقين الأولين ومن خيرة الأولين ومن خيرة هذه الأمة فكذلك كل مؤمن اغترب طلبا للحق والعلم والهدى كان داخلا في هذا الحديث الشريف وليس ذلك خاصا بالقادرية أو غيرها •

فيجتمع عند العلماء من طلاب العلم من جميع الأجناس والقبائل ما لا يجتمع في الغالب عند شيخ من شيوخ الصوفية •

ويجتمع في ثغور المسلمين من المرابطين المجاهدين من جميع القبائل والأجناس ما لا يوجد في حضرة شيخ صوفية •

قال الإمام النووي في معني حديث غربة الإسلام :(قال القاضي عياض رحمه الله في قوله : غريبا روى ابن أبي أوس عن مالك رحمه الله أن معناه في المدينة وأن الإسلام بدأ بها غريبا وسيعود إليها • قال القاضي : وظاهر الحديث العموم وأن الإسلام بدأ في آحاد من الناس وقلة ثم انتشر وظهر ثم سيلحقة النقص والإخلال حتى لا يبقى إلا في آحاد وقلة أيضا كما بدأ وجاء في الحديث تفسير الغرباء وهم النزاع من القبائل قال الهروي :

---

(١) انظر : كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة ص ٢٦ . ٤١ •

أراد بذلك المهاجرين الذين هجروا أوطانهم إلى الله تعالى ...) (١)

رابعا : ويدعون أنهم هم المرادون بالطائفة الظاهرة على الحق إلى قيام الساعة كما تقدم في الحديث ويحتمل أن يكون المراد بالظهور هنا الغلبه ويحتمل أن يكون المراد به أنهم ظاهرون غير مستترين قال الحافظ بن حجر : (قوله : (حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون) أي على من خالفهم أي غالبون ، أو المراد بالظهور أنهم غير مستترين بل مشهورون والأول أولى) (٢) . وإنما رجح المعنى الأول لوضوح روايات مسلم فيه (٣) وإذا نظرنا إلى واقع الصوفية عموما نجد حظها من الظهور على المعنيين قليلا جدا فهم ليسوا بأصحاب جهاد وغلبة ، ومن بدر منه ذلك يكون على الندور ويعاب على ذلك في المحيط الصوفي لتفضيلهم المسالمة على نشر الإسلام بالجهاد ، وتسير الطرق الصوفية الحالية على نشره بالوسائل السلمية كالدعوة والسياحة وإنشاء المراكز ومجاورة الكفار ليقتدوا بهم فيسلموا فيدخلوا في الطريقة .

وهم كذلك ليسوا بظاهرين على المعنى المرجوح لتفضيلهم مسلك الخمول والتستر وأعتمادهم على الولاية الباطنة كما يقولون .

ولذا فحمل الحديث عليهم غير ظاهر لهذه الأمور المذكورة ولما روي بسند صحيح عن الإمام أحمد رحمه الله من بيانه للمراد بهذه الطائفة فقال : (إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم) (٤) قال الحافظ بن حجر (واخرج الحاكم في علوم الحديث بسند صحيح عن أحمد : إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم) (٥) ويؤكد الإمام البخاري هذا المعنى بقوله :(باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق وهم أهل العلم) (٦)

---

(١) بشرح النووي جـ ٢ ص ١٧٧ .
(٢) فتح الباري جـ ١٣ ص ٢٩٢ .
(٣) صحيح مسلم كتاب الجهاد باب قوله صلى الله عليه وسلم : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم .
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٣ ص ٦٦ . ٦٧ .
(٥) فتح الباري جـ ١٣ ص ٢٩٣ .
(٦) صحيح البخاري مع الفتح كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة الباب المذكور وهو رقم (١٠) .

وقد تقدم أن القادرية وإن كانوا يعتمدون العلم من بين الطرق الصوفية فإن انتشاره بينهم محدود في أفراد حصلوه قبل الانغماس في الطريقة خصوصا الحديث وعلومه فإن بضاعتهم فيه قليلة ٠

ولذا فلا يستقيم لهم حمل هذه الأحاديث على أنفسهم إذ حظهم منها محدود ، على أن أهل العلم لا يسلمون لأحد حمل أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه وقصرها عليه دون غيره ، يوضح ذلك زيادة على ما تقدم ما نقله النووي عن القاضي عياض وما وضحه هو نفسه من المراد بهذه الطائفة المذكورة قال : قال القاضي عياض : (إنما أراد أحمد . يعني بقوله السابق . أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث . قال النووي . قلت : ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون ومنهم فقهاء ومنهم محدثون ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونوا متفرقين في أقطار الأرض وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى الآن ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور في الحديث) (١) ٠ وبهذا يتضح أن حمل القادرية لهذه الأحاديث على الصوفية عموما أو عليها خاصة لا يصح على الاطلاق استنادا على ظاهر الاحاديث نفسها وما وضحه أهل العلم من المراد بها ، ولا يصح كذلك عند التطبيق على واقع القادريـة أو غيرها من الطرق الصوفية ، ومن رام من فقهائهم التحقيق في بعض الأحيان كالشيخ سيدي محمد الكنتي ذهب إلى ما يؤخذ منه ما أوضحناه على العموم من تعدد مسالك الحياة واختصاص كل طائفة بمنحى منها ٠ (٢)

خامسا : ويجعلون من مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار دليلا لهم على ما يحصل بينهم من التقارب والمحبة في الشيخ حتى إن بعضهم يؤدي به

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٣ ص ٦٧ ٠

(٢) الطرائف ص ٤٢٤ . ٤٢٥ ٠

ذلك إلى التعصب ضد ذوي رحمه وقراباته وقد يكونون اتقى من شيخه ومريديه ، ويقع من مريدي هذا الشيخ تعصب ونفور من مريدي شيخ آخر مع أن القادرية تجمعهم وسندها يضمهم .

ويرتبون المريدين حسب التفاني في خدمة الشيخ وذويه وقدمه في الحضرة والتجرد والإخلاص ولا ينظرون في غالب أحوالهم إلى مكانة الشخص العلمية ومعارفه الشخصية فيؤمر كما يؤمر العامي ويخدم في الرعي والزراعة كما يستخدم الأمي أيضا وعليه أن يطيع المقدم عليه من الشيخ طاعة مطلقة إذ إن حرمة المقدم كحرمة الشيخ في الخروج عن بيعته أو إعطاء النيابة والتقديم بدون إذنه (١) . ويدعون في ذلك كله التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم وصحابته المعروف أن التقديم في الإسلام إنما يكون بالسابقة في الإسلام والعلم والعمل ، فمن أكرمه الله بالاستقامة والتقوى والعلم والورع كان مقدما على من دونه في ذلك سواء صحب شيخا أو لم يصحبه ، أخذ الأوراد القادرية أو لم يرغب فيها ، فدعوى التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم تقتضي ذلك فلم يقدم صلى الله عليه وسلم إلا أهل السابقة في الإسلام ولم يدافع صلى الله عليه وسلم إلا عمن دافع الله عنهم وأثنى عليهم في كتابه لسابقتهم وبلائهم في دينه كأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما . وإن كان في الصحابة من هو أقرب إليه منهما نسبا وصهرا وفيهم من أظهرت الصحبة أنه يحبه صلى الله عليه وسلم ويخدمه في خاصة نفسه أكثر من غيره ، فلم يقدم صلى الله عليه وسلم منهم أحدا لذلك ومن قدمه على خلاف ما يظهر للناس من أمره إنما هو للتشريع والتأسي أو لوضع الرجل المناسب في المكان المناسب فهذه هي أبرز دواعي التقديم في الإسلام فمن اختار دواعي أخرى وميزانا آخر يقدم عليه ويؤخر فلا تقبل دعواه في التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وكذلك القول في المؤاخاة فإنه من الثابت في الصحاح والسير أن النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار لسياسة حكيمة في ظروف قاسية على الدعوة الإسلامية واغتراب من بعض الدعاة المخلصين عن أهلهم وعشيرتهم وأموالهم وأوطانهم فكان من الحكمة أن يعوضوا عما فارقوه بإخوان في الله وأصحاب وأنصار على أمور الدين والدنيا فكانت نعمت الأخوة على الله وفي الله

---

(١) جنة المريد ص ١٩٩ . ٢٠٠ والوسيط ص ٢٤١ .

لا تعصب فيها ضد أحد من أهل الإيمان ولا تنافر فيها بين المتحابين من الأرحام والجيران .

قال الإمام البخاري : باب قول الله عز وجل : ﴿ والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ﴾ (١) وساق بسنده إلى ابن عباس قال : كان المهاجرون لما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ورث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه ، للأخوة التي آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينهم ، فلما نزلت : ﴿ ولكل جعلنا موالي ﴾ (٢) نسخت ثم قال : (والذين عاقدت إيمانكم ﴾ إلا النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث . ويوصي له) (٣) وبوب البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب إخاء النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والانصار . وساق بسنده قال : (لما قدموا المدينة آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع ...) (٤) وخرج الإمام مسلم هذه المؤاخاه عن أنس رضي الله عنه في كتاب الفضائل (٥) وأورد ابن هشام خبرها فقال : قال بن إسحاق : وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابة من المهاجرين والانصار ، فقال فيما بلغنا ، ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل : (تآخوا في الله أخوين أخوين) (٦) قال السهيلي في بيان حكمة هذه المآخاه : (المؤخاة بين الصحابة : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه حين نزلوا المدينة ، ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزر بعضهم ببعض ، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل ، وذهبت الوحشة أنزل الله سبحانه : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ أعني في الميراث ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة فقال : (إنما المؤمنون إخوة) (٨) يعني في التواد وشمول الدعوة) (٩)

---

(١) سورة النساء الآية ٣٣ .
(٢) نفس الآية .
(٣) صحيح البخاري كتاب الكفالة الباب المذكور .
(٤) نفسه كتاب مناقب الانصار الباب المذكور .
(٥) صحيح مسلم مع النووي كتاب الفضائل باب مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه رضي الله عنهم .
(٦) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٥١٣ وما بعدها .
(٧) سورة الانفال الآية ٧٥ .
(٨) سورة الحجرات الآية ١٠ .
(٩) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، لأبي القاسم ابن عبد الله الخثعمي السهيلي ، تحقيق طه عبد الرؤف سعد نشر دار الفكر جـ ٢ ص ٢٥٢ .

وبهذه النصوص يتضح أن المؤاخاه ثابتة وأنها لحكم ظاهرة جليلة وأن الأمة جنت ثمارها وحققت للمهاجرين والأنصار معا مقاصدها ونسخ الله بكتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم التوارث على أساسها لدخول القرابات في الإسلام واستحقاقهم للإرث بالقرابة والدين، وقد عمم الله الأخوة بين المسلمين بنص كتابه وأوجب بينهم النصرة والنصح والتعاون على الحق والنصرة للمظلوم والأخذ على يد الظالم .

فمن ادعى مؤاخاة بين أصحابه ومريديه خاصة من دون المسلمين وهو يعيش بين ظهرانيهم كان ذلك منه طعنا في منهجه وسلوكه ودليلا على عدم فهم نصوص الكتاب والسنة أو الاعتماد على هدي غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم لمصلحة يرعاها ولا مصلحة فيما خالف هدي الكتاب والسنة مهما درت على صاحبها من أحلاف وعصبيات . وخشية منه صلى الله عليه وسلم على أمته من الأحلاف والتعصبات قال فيما خرجه مسلم في الصحيح عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا حلف في الإسلام ...) (١) وحمل أهل العلم ما روي عن أنس رضي الله عنه من قوله لما سئل عن هذا الحديث : (حالف رسول صلى الله عليه وسلم بين قريش والأنصار في داره التي بالمدينة) (٢) على المؤاخاه التى أوضحناها بالأدلة (٣) ويظهر أن حمل واقع القادرية على هذه الأحلاف المنهي عنها ظاهر لوجود الأخوة الإسلامية على العموم ، ولما يقعون فيه من التحزب والتعصب الصاد لصاحبه عن سماع الحق واتباعه في غالب مريديهم واجتماعهم على قول الشيخ دون طاعة الوالدين وصلته دون صلة القرابات والتعاطف مع مريديه بالحق وغيره دون جميع المسلمين وهذا من التميز المفضى بالأمة إلى الفرقة والتفرق إلى غير ذلك مما يذم ولا يحمد (٤) .

وبهذا نختم الكلام في فصل السلوكيات لنصله بفصل العبادات التي هي من مظاهر التطبيق العملي للسلوكيات . والله أعلم .

(١-٢) صحيح مسلم كتاب الفضائل ، باب مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه رضي الله عنهم .

(٣) انظر فتح الباري جـ ٤ ٤٧٢ . ٤٧٤ .

(٤) موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية أحمد بن محمد بناني ط ١ سنة ١٤٠٦ هـ ص ٢٥٧ . ٢٥٨ .

الفصل الثاني

الفصل الثاني : العبادات والأوراد عند القادرية ونقدها على ضوء المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم

ويشتمل علي تمهيد ومبحثين :

التمهيد : ويتناول مفهوم العبـــادة بصفة عامة والمراد بالعبادة هنا ٠

المبحث الأول : ويشمتل علي ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : الخلوة وآدابها ٠

المطلب الثاني : ركعات القادرية ٠

المطلب الثالث : النوافل الأخرى ومكانتها عند القادرية ٠

المبحث الثاني : الورد القادري ووظائفه ٠

ويشتمل هذا المبحث علي تقديم وأربعة مطالب ٠

التقديم : ويتناول نشأة الأوراد وأهدافها ٠

المطلب الأول : عمدة الورد القادري في التلقين ٠

المطلب الثاني : عمدة القادرية في الأذكار ٠

المطلب الثالث : مكانة الورد القادري عند الشيوخ وأثر ذلك علي الأتباع ٠

المطلب الرابع : وظائف الورد ٠

تمهيد :

(العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة) (١) فعلى هذا يكون ما تقدم من دراسة ونقد للمسائل العقدية عند القادرية وما يأتي إن شاء الله تعالى كل ذلك داخل في مسمى العبادة إذ (الدين كله داخل في العبادة) (٢)

فعنوان هذا الفصل : (العبادات والأوراد عند القادرية على ضوء المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يراد منه عموم العبادات والأوراد التي يتعبدون الله بها ويشاركهم فيها غيرهم من المسلمين حيث إنه قد تبين أن ذلك شامل للدين كله وإنما المراد ما اشتهر بين القادريين أنه يؤخذ عن الشيوخ باسم القربة إلى الله تعالى وأن الشيوخ هم السند فيه والواسطة حيث إنه لا بركة فيه ولا ثمرة إلا عن طريقهم وتلقينهم ولا يجوز إعطاؤه ولا التعبد به إلا بإذنهم سواء كان صلاة أو ذكرا أو هيئة . (٣)

والمقصود عرض مثل هذه الأمور على المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم لنرى هل هي مشروعة بأصلها أم لا ؟ وهل أضيفت لها هيئات وخصائص تخرجها عن أصل مشروعيتها إن كانت مشروعة ؟ وما يلحق بذلك من دعوى الاختصاص والخصوصية والوقت والهيئة وتحديد الثواب لمن التزم والعقاب لمن قصر أو ترك .

وقد تناول مشايخ القادرية هذه الأمور كلها في مؤلفاتهم ويوجد تعارض بين كلامهم فيها يحتاج إلى بيان واضح فمنهم من يجعل ما يؤخذ عن الشيوخ من باب النذور والفرائض التي يجب أداؤها وإذا فات وقتها تعين قضاؤها ، ومنهم من يفتح الباب واسعا لتتبع الفضائل والإكثار من النوافل ، ومنهم من يقيد ذلك ويحذر من ادعاء الاختصاص وإعطاء الثواب بدون دليل شرعي ، ومنهم من يذكرنية تخص

(١ ، ٢) انظر العبودية لابن تيمية ، مكتبة المعارف الرياض سنة ١٤٠٢ هـ ص ٤ و ٥ .

(٣) يوضح ذلك ما تقدم من البيعة وما يأتي إن شاء الله في مباحث هذا الفصل .

هذه الوظيفة أو هيئة تختص بها ومنهم من يشنع على ذلك ويجعله من البدع الإضافية ومنهم من يقع في تناقض واضح فيذكر استحسانه لأمر من هذه الأمور مرة ويحذر من مثله مرة أخرى وقد يكون منه ذلك في نفس الكتاب أو الموضوع الواحد .

وكل ذلك يزيد من صعوبة دراسة هذا الفصل وما اشتمل عليه من موضوعات على أهميته وخطورة الخلط فيه إذ إن مبنى الطريقة عند أهلها فيما يذكرون هو العبادة والذكر وما يساعد على التفرغ لذلك فإذا كان المبني عليه مختلفا فيه أو غير واضح المعالم للسائرين فما بني عليه كان الاختلاف فيه أكثر والغموض فيه أشد وبالتالي لا يكون له ثمرة أصلا وإن كانت له ثمرة كانت مشوشة ومرة لما يرافقها من الاختلاف على السالك والغموض في المسالك وبالبحث يتضح ذلك كله إن شاء الله تعالى .

المطلب الأول : الخلوة وآدابها

عرض : الخلوة هي عمدة المجاهدات والرياضات عند الصوفية بصفة عامة وتقدم لنا في ترجمة الشيخ عبد القادر أنه كان يلازم الخلوة في بداية أمره وأن مبنى السلوك عند القادرية الذكر في : (العكفة) والمجاهدة الشاقة للنفس .

وتقدم لنا أن القادرية تأخذ بتراث الصوفية في الغالب وتسلم به على علاته ومن ذلك اعتماد الخلوة في تسليكها والأخذ بآداب الصوفية فيها .

يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي (باب في سنية الخلوة بالله وكيف كانت خلوات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ...) (١)

وقد نوه بالخلوة في عدد من كتبه وحث عليها (٢) واستعملها عند شيخه على بن النجيب (٣) وأدخل من أراد تصديره الخلوة (٤) وأخذ بها من صدر عنه كابنه الشيخ سيدي محمد وشرح آدابها وفوائدها (٥) وكان الشيخ محمد فاضل مداوما عليها (٦) وأدخل بعض مريديه في الخلوة ومجاهداتها (٧) وأخذ بها من صدره منهم وقال الشيخ ماء العينيين إن أمرها متروك للشيوخ (٨)

يقول الشيخ سيدي محمد الكنتي في نقله عن والده لمجاهداته عند شيخه سيدي علي بن النجيب : (وأخذت عنه الأوراد القادرية وعملت على الرياضة قال : فأقمت سنة والشيطان ينازعني من داخل ثم أقمت سنة ينازعني عن شمالي ثم أقمت السنة الثالثة ينازعني من عن يميني ثم أقمت السنة الرابعة يخاطبني من بين يدي

---

(١) الجرعة الصافية والنفخة الكافية . مخطوط في زاويته بانواكشوط ص ٢ .
(٢) جذوة الأنوار ص ٣٦ . ٣٧ وفتح الودود ٥٦ وما بعدها . و ٢٨٢ وما بعدها .
(٣) الطرائف ص ٩٧ و ١٠٠ .
(٤) جنة المريد ص ١٣٧ . ١٤٨ .
(٥) الطرائف ص ٣٥٧ . ٣٧٩ والمصدر قبله .
(٦) الضياء ص ١٧٩ . ١٩٠ و ص ٢٣٣ . ٢٣٥ و ٣٥٩ .
(٧) نفسه ص ٣٢٧ . ٣٢٨ .
(٨) نعت البدايات ص ١٦ . ١٧ .

فلما مضت تلك السنة تنحى عني فكان لا يخاطبني إلا من بعد ٠ قال : فلم أكتحل بغمض مدة تلك السنين ولم أضع جنبي إلى الأرض ولم أضحك بل كنت كلما وقع بصري على نائم اعتقدته ميتا أو على ضاحك اعتقدته مجنونا) (١)

وقال : (واتخذت التعليم خلوة للرياضة فكنت لا آوى إلى أحد ولا أخالطه) (٢)

ويقول الشيخ سيدي محمد أيضا : (فكان الشيخ رضي الله عنه لمهارته في باب التربية يأمر المبتدىء من أصحابه بالاختلاء بالكلمة الشريفة حتى يظهر له ما هو مختص به من الأسماء) (٣) وقال : (فقد كان شيخنا رضي الله عنه وأرضاه كثيرا ما يوصيني عند إرادة الدخول في الخلوة فيحذرني من أن أحدث النفس بالخروج بعد الأربعين ٠٠) (٤) ويقول صاحب الضياء عن الشيخ محمد فاضل بنقله عنه : (فلقد كان قبل المراهقة يمكث الأسبوع والأسبوعين ابتداء والشهر والشهرين بعد ذلك لا ينام الليل ولا النهار ولا يشرب ولا يجالس الناس ولا يتحدث معهم وقد دخل خلوة عند (صالحين محمودة) مكث فيها تسعين ليلة ما نام فيها قط ولا أكل ولا شرب ولا كلم أحدا ٠٠٠) (٥)

نقد : هذه بعض النصوص المصرحة بأن القادرية طريقة خلوتية سلك شيوخها الكبار هذا المسلك وسلكوا عليه وقد أوضحوا آداب الخلوة عندهم فقالوا بأنها تكون في مكان على قدر القامة لا منفذ فيه ولا يتسع لغير المختلي ولا يعلم بمكانه أحد ولا يخرج إلا للحاجة الإنسانية وما لابد منه وأن يراعي فيها من الآداب ما يراعي في المسجد من طهارة ووقار وسكينة واشتغال بذكر ، واستحضار صورة الشيخ وروحانيته ونفي الخواطر ، وأن لا يكلم إلا شيخه ويظهر له كل ما يرد عليه ٠ (٦)

---

(١) الطرائف ص ٩٧ ٠

(٢) نفسه ص ١٠٠ و ٣٥٨ وما بعدها ٠

(٣) جنة المريد ص ١٤٣ ٠

(٤) نفسه ص ١٤٧ ٠

(٥) الضياء ص ٣٥٩ (يريد : صالحي محمودة) ٠

(٦) جنة المريد ص ١٣٦ - ١٤٨ ٠

قال الشيخ سيدي محمد الكنتي : (وقد اتجه الكلام هنا على الخلوة التي هي أحد الأركان الأربعة التي هي أساس سلوك المريدين بل يلزم عنها الثلاثة الباقية : الصمت إذ لا يأتي من أكثر الناس إلابالخلوة والعزلة فإن أضاف إليهما المريد الركنين الباقيين اللذين هما شرط الخلوة وهما الجوع والسهر ٠٠) (١)

قال الشيخ سيدي محمد الكنتي أيضا : (ويكون موضع الخلوة على طول القامة أو أطول قليلا لا يسع غيره ولا منفذ فيه وإن استطاع أن لا يطلع عليها أحد فليفعل لأن الأمر مبني على السر والكتمان ، وأقلها ثلاثة أيام ثم أربعون الموسوية وهي أفضلها وأنفعها وهي رياضة الأنبياء وميادين الأولياء ٠٠) (٢) وبعد أن ينقل الشيخ سيدي محمد الكنتي عن والده نصاً طويلاً في سنية الخلوة وأسباب نجاح صاحبها فيها والعلل المؤدية به إلى الخسران ومايعترضه أثناء ها من تخيلات وتشكلات مرعبة ومشوشة ٠

يقول : (واعلم أن عفاريت الجن يعتنون بأصحاب الخلوات ليفسدوا عليهم ماهم بصدده من التبتل إلى الله تعالى والشغل بمناجاته التي هي غاية السعادات فيتغولون لهم ليفزعوهم حتى يصدوا وجوههم عن هذا المقصد العظيم ووجه إبطال حيلهم وقطع حبائلهم عدم المبالات بهم مع إدمان الذكر والحضور معه واحتقار أمرهم فإذا رأوا ذلك منه يئسوا فتركوا ذلك وأقبلوا على الوسوسه فإن وجدوا قلبه عامراً بذكر الله أحرقتهم أنوار الذكر فيفروا (٣) من سلم منهم وإن وجدوه خاليا خرابا أمكنتهم الفرصة فتمكنوا منه فلايزالون به حتى يفسدوا عليه ماهنالك فإذايئسوا من صاحب القلب العامرتحيلوا له بمحيئهم إياه في زي الصالحين ويتسمون له بأسمائهم ويخبرونه بالمغيبات (ويرونه) طي الأرض ويخيلون له البيت الحرام فلا يزالون به حتى (يروه)صفة الجنة والنار٠٠٠٠) (٤).

---

(١) جنة المريد ص ١٣٦

(٢) الطرائف ص ٣٨٠ ٠

(٣) الطرائف ص ٣٥٨ وما بعدها ٠ لعلها : (فيفر) ، ولعلها (ويورونه) ، ولعلها (ويوروه)

(٤) نفسه ص ٣٦٣ ـ ٣٦٥ ٠

ويؤيد ما في هذه النصوص من محاذير يعرض المختلي لها نفسه ماذكره الشيخ سيدي المختار الكنتي نفسه في جذوة الأنوار فقال :

(٠٠٠٠ وليس طريق موت النفس بقطع جميع الأرماق عنها وردها إلى الاجتزاء بالحشيش والنخالة والمبالغة في التقشف والتقلل مع قطع النظر عن أحوال القلب وهممه وقصوره وإرادته وترك الالتفات إلى مايحمد ومايذم فذلك كله غلو وبدعة وقد غلط في هذا الباب طوائف من الناس عملوا عليه في رياضاتهم ومجاهداتهم ولم يقصدوا بذلك إخلاص العبودية لربهم فأفضى بهم ذلك إلى اختلال عقولهم وانحلال قوى أبدانهم ولم يحصلوا من أمرهم على فائدة وما ذلك إلا لجهلهم بالسنة وما كان عليه سلف الأمة ٠٠٠) (١)

هذه بعض نصوص القادرية عن الخلوة والمجاهدات والرياضات الصوفية ويمكن إجمال مضامينها في النقاط الآتية :-

الأولى : اعتمادهم لهذا النوع من المجاهدات في طريقتهم ٠

الثانية : الاعتراف بخطورته على السالك في عقيدته وعقله ٠

الثالثة : تسلط العفاريت عليه ومحاولاتهم لاغوائه ٠

الرابعة : اتخاذ الأماكن المظلمة والموحشة للنفس كالقبور والكهوف والمغارات مقرا مفضلاً للاختلاء ٠

الخامسة : اعتماد أداب من تجارب المختلين الخاصة ٠

سادسا: ادعاء أنها من سنن الأنبياء والصالحين ٠

سابعا: تحديد مدد زمنية وربما أذكار وأقوال أخرى لا يشهد لها دليل واضح ٠

---

(١) جذوة الأنوار ص ٣٧ ٠ ٢

ثامنا : اشتراط صلاح النية لحصول الفائدة من الخلوة مع الاعتراف بأن كثيراً من الناس لا يدخل مثل هذه الخلوات إلا بعلة أو لعلة ٠

تاسعا: استحضار صورة الشيخ وإفشاء الأسرار له وحده والكتمان التام عن غيره ٠

ومما يترتب على هذه الخلوات وآدابها :

١) توعير الولاية بالمعنى الصوفي الخاص واحتكارها على المختلين من أصحاب الطرق المصارعين للعفاريت في الخلوات ٠

٢) الإقامة والتعبد في أماكن ورد الشرع بالنهي عن الإقامة فيها أو التعبد عندها ٠

٣) تضيع الفرائض والواجبات من الجمع والجماعات والمشاركة في التعاون على البر والتقوى والنفع العام ٠

٤) تعريض المسلم لعقيدته وعقله للفساد والتشويش إذ إن ما ذكروه مما يحصل للمختلي لا يمكن تميز الحق فيه من الباطل والتمويه وإن تمكن عالم أو عابد مسدد من الخروج بدون علة في عقيدته وعقله فلا يتمكن غيره من السالكين على هذه المجاهدات من ذلك ٠

٥) ثم إن غالب من اشتهر بمثل هذه الخلوات عرفوا لدى الناس بأنواع الرقي المشتبهة أو الشركية واستخدامات الجن وادعاء علم الغيب وأكل أموال الناس بالباطل وهذه أمور كلها منافية للوصول إلى الله والورع والصلاح ٠ ومع هذا كله فإنه بمناقشة ادعاء سنية الخلوة يتضح أن ما بني على السنة لا يؤدي إلى هذه الأمور المذكورة ٠

القول بأن الخلوة من سنن الانبياء والمرسلين :

يستدل أهل التصوف على هذا القول بأمرين :

أولهما : أن موسى عليه السلام مكث على الطور أربعين ليلة بأمر الله تعالى ووعده

إياه ثم أعطاه التورة في الالواح *

قال الله تعالى : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربيعن ليلة ..) (٢)

قال ابن جرير : في روأية : (يعني ذا القعدة وعشرا من ذي الحجة وذلك حين خلف موسي أصحابه واستخلف عليهم هارون ، فمكث على الطور أربعين ليلة ، وأنزل الله عليه التورة في الألواح ـ وكانت الألواح من برد ـ فقربه الرب إليه نجيا وكلمه ، وسمع صريف القلم . وبلغنا أنه لم يحدث حدثا في الأربعين ليلة حتى هبط من الطور) (٣) . وقد ذكرالمفسرون ما جاء في خبر موسى في هذه الأربعين (٤) .

قال القرطبي : (والأربعون في قول أكثر المفسرين : ذو القعدة وعشرة من ذي الحجة) (٥) ونقل ابن عطية عن النقاس (... فلما نص على الليالى اقتضت قوة الكلام أنه عليه السلام واصل أربعين ليلة بأيامها) (٦) ونقل بسنده إلى الجوهري الامام الواعظ قال حدثني أبي رضي الله عنه قال : سمعت الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهري رحمه الله يعظ الناس بهذا المعنى في الخلوة بالله ، والدنو منه في الصلاة ونحوه وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب) (٧)

قال القرطبي قلت : (وبهذا استدل علماء الصوفية على الوصال وأن أفضله أربعون يوما) (٨) .

---

* عوارف المعارف ص ٢٠٧ وما بعدها .

(١) سورة البقرة الآية ٥١ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٢ .

(٣) تفسير الطبري جـ ٢ ص ٦٢ .

(٤) تفسير الطبري جـ ٢ ص ٦٢ وما بعدها والقرطبي جـ ١ ص ٣٩٤ ومابعدها و جـ ٧ ص ٢٧٤ وما بعدها .

(٥) القرطبي جـ ١ ص ٣٩٥ .

(٦) تفسير بن عطية جـ ١ ص ٢٩١ .

(٧) نفسه ص ٢٩١ .

(٨) القرطبي جـ ١ ص ٣٩٦ .

ثانيهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يختلي في غار حراء يتحنث فيه (١) وقالوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) (٢) وقد جاء في الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في بيانها لأول ما بدئى به النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي قال : (أول ما بدئى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه . وهو التعبد . الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ...) (٣) قال النووي : (أما الخلاء فممدود وهو الخلوة وهي شأن الصالحين وعباد الله العارفين) (٤)

قال ابن اسحاق موضحا القصة كاملة : (فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به . إذا انصرف من جواره . الكعبة ، قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بهاسبعا أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته ، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه الله فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج لجواره (ومعه أهله) ، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم العباد بها ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى ...) (٥)

هذه هي أدلة القادرية على سنية الخلوة ، وقد حاولت توضيح ما استدلوا به بما نقلته من النصوص الواضحة ليكون نقدهم فيما ذهبوا إليه واضحا وسهلاً

---

(١) عوارف المعارف ص ٢١١ .

(٢) نفسه ص ٢٠٧ والحديث فيه متروك النسائي ومسند الشهاب جـ ١ ص ٢٨٥ . وانظر : المقاصد الحسنة ص ٣٩٥ .

(٣) البخاري كتاب بدء الوحي الحديث الثالث وصحيح مسلم كتاب الايمان باب بدء الوحي إلى رسول صلى الله عليه وسلم .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ١٩٨ .

(٥) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٣ وقوله : (ومعه أهله) لم نجدها لغيره .

وما استدلوا به يتلخص في أمرين :

١) أنهم استدلوا بما كان من موسى عليه السلام • وقد كان ذلك أمرا خاصا به صلى الله عليه وسلم دون أخيه هارون وغيره من اتباعه من الأحبار وقومه وقد ثبت شرعا أن هذه الأمة غير مطالبة بالتعبد بأحكام الشرائع المتقدمة ، وكان السلف الصالح لا يتجاوزون الكتاب والسنة وما يستنبط منهما في الوقائع والنوازل وغير ذلك ولا يبحثون عن أحكام في الكتب المنزلة على الأنبياء والمرسلين وما أمروا به ونهوا عنه (١) •

قال الإمام الشوكاني بعد نقله للأقوال في حكم التعبد بشرع من قبلنا من الأمم (وقد فصل بعضهم تفصيلا حسنا فقال : إنه إذا بلغنا شرع من قبلنا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم أو لسان من أسلم كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار ولم يكن منسوخا ولا مخصوصا فإنه شرع لنا) (٢) •

وواضح أن الأمر لموسى من الله تعالى بالمكث مدة أربعين ليلة عند الطور خاص به لما بين القرآن الكريم والأخبار الصحيحة من إرادة الله تعالى لإكرامه وتكليمه واعطائه الكتاب الذي فيه الحلال والحرام والشرائع الأخرى (٣)

على أنه جاء النهي الصريح من الشارع صلى الله عليه وسلم عن الاقتداء بغيره واتباع سنن غير سننه صلى الله عليه وسلم ونص على أن موسى عليه السلام نفسه لو كان حيا ما وسعه إلا إتباع محمد صلى الله عليه وسلم •

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا فإنكم إما أن تصدقوا بباطل أوتكذبوا بحق فإنه لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني) (٤) فهذا الحديث وما في معناه وما هو أصرح منه كاف في الرد على من

---

(١) البرهان في أصول الفقه لإمام الحرمين الجويني ، تحقيق الدكتور عبد العظيم الديب توزيع دار الأنصار بالقاهرة ط ٢ سنة ١٤٠٠ هـ جـ ١ ص ٥٠٣ وما بعدها •

(٢) ارشاد الفحول ص ٢١١ •

(٣) القرطبي جـ ٧ ص ٢٧٤ وما بعدها •

(٤) مسند الإمام أحمد جـ١ ص ١٧٤ - ١٧٥ .

يريد التعبد بهدي غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم (١) .

وما فهموه من الوصال وعملوا عليه حتى وصل بعضهم فيه إلى حد الغلو والشذوذ المفضي بالأخذ به إلى الفتور أو الجنون مردود بما سنه النبي صلى الله عليه وسلم من النهي الصريح عن الوصال في الصيام وأنه إذا جاء الليل فقد أفطر الصائم وأنه من السنة تعجيل الفطر وتأخير السحور .

فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (فضل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر) (٣) وقد جاءت الأخبار الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم بالنهي عن الوصال ووصف متجاوز ذلك النهي بالتعمق وطلب المساواة لنفسه بما اختص به النبي صلى الله عليه وسلم فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(إياكم والوصال قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله قال : إنكم لستم في ذلك مثلي إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني فأكلفوا من الأعمال ما تطيقون) (٤) ومن واصل من السلف أو أجاز الوصال بدليل ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لا تواصلوا ، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر ...) (٥) فإن عموم النهي الذي ذهب إليه الجمهور هو الحق والصواب وهو الذي يكون متبعه مستنا بسنة النبي صلى الله عليه وسلم ومطيعا لأوامره ، وسالما من التعمق في الدين الذي ذمه الشرع الحنيف ولا تلحقه وصمة تكلف ما لايطاق ، ولا يخشى عليه من الملل والفتور أو العجز والانقطاع وكان موافقا لأمر القرآن الكريم في قوله جل وعلا : (ثم أتموا الصيام إلى الليل) (٦)

---

(١) مسند الإمام أحمد . الفتح الرباني جـ ١ ص ١٧٤ . ١٧٥ .

(٢) نفسه جـ ١ ص ١٧٤ . ١٧٦ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الصيام باب فضل السحور وتأكيد استحبابه واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر .

(٤) نفسه الكتاب والباب .

(٥) صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب الوصال إلى السحر . الحديث رقم : (١٩٦٧)

(٦) سورة البقره الآية ١٨٧ القرطبي جـ ٢ ص ٣٢٩ .

٣) استدلالهم بتعبد النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء قبل البعثة الشريفة ، وبما ذكر من الأثر السابق : من أخلص لله أربعين صباحا . والذي تقدم أن في سنده سوار بن مصعب وهو متروك (١) .

وما في شعب الايمان للإمام البهيقي بسنده إلى ذي النون من كلامه :(لم أر شيئا أبعث لطب الإخلاص من الوحدة لأنه إذا خلا لم ير غير الله وذا لم ير غير الله لم يحركه إلا حكم الله ومن أحب الخلوة فقد تعلق بعمود الإخلاص واستمسك بركن من أركان الصدق) (٢) .

وهذا النص في الإخلاص والإخلاص مطلوب دائما وليس في مدة أربعين صباحا فقط (٣) .

والاستدلال للخلوة الصوفية بما جبل عليه النبي صلى الله عليه وسلم من اعتزال الشر وأهله وصيانة الله تعالى له وجذبه إليه بالفطرة غير سديد لأمور :

١) أن الله تعالى لم يأمرنا باتباعه والتأسي به في أفعاله وأقواله إلا بعد بعثته الشريفة ، وقد اختلف العلماء كثيرا فيما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعثه الله نبيا فمن قائل إنه لم يكن على شرع ومن قائل أنه كان على دين آدم أو نوح أو إبراهيم أو عيسى وكل وجه مما ذهب إليه لا يقطع به (٤)

قال الشوكاني : (وأقرب هذه الأقوال قول من قال إنه كان متعبدا بشريعة إبراهيم عليه السلام فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم كثير البحث عنها عاملا بما بلغ إليه منها كما يعرف ذلك من كتب السير وكما تفيده الآيات القرآنية من أمره صلى الله عليه وسلم بعد البعثة باتباع تلك الملة فإن ذلك يشعر بمزيد خصوصية لها فلو قدرنا أنه كان على شريعة قبل البعثة لم يكن إلا عليها) (٥) ولذا قالت أم المؤمنين

---

(١) المغني في الضعفاء والمتروكين للذهبي ج ١ ص ٤١٦ رقم : (٢٧٠١)

(٢) شعب الايمان ج ٥ ص ٣٥٣ .

(٣) مسند الشهاب للقضاعي ج ١ ص ٢٨٥ . ٢٨٦ .

(٤) البرهان لإمام الحرمين ج ١ ص ٥٠٦ . ٥٠٩ .

(٥) إرشاد الفحول ص ٢١٠ .

عائشة رضي الله عنها في الحديث المذكور : (حبب إليه الخلاء) قال الحافظ بن حجر قولـه : (حبب) لم يسم فاعلـه لعـدم تحقـق الباعث على ذلك وإن كان من عند الله ، أو لينبه على أنه لم يكن من باعث البشـر ، أو يكون ذلك من وحي الإلهام) (١) .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتزل الشر وأهله في شهر رمضان من كل عام كما هو واضح من رواية ابن هشام عن ابن اسحاق وكان في مكان معروف على قمة جبل ينظر الواقف عليه إلى مكة كلها ، وكان صلى الله عليه وسلم يطعم من آوى إليه من المساكين ، فهو لم يترك الناس بالكلية وإنما اعتزل الشر وازداد في عمل الخير
ثم إنه صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه الشريف كان يخالط الناس ويذهب إليهم في أماكنهم ليدعوهم إلى الله تعالى ويعلمهم وكانت عزلته للشربالقلب واللسان والعمل وهو مقيم بين أظهر الناس ففي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم : (كان لايقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح أو الغداة حتى تطلع الشمس فإذا طلعت الشمس قام وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم) (٢) وقد سن النبي صلي الله عليه وسلم لأمته الاعتكاف في المساجد بفعله وإقراره وتبعه على ذلك أصحابه والصالحون من أمته صلى الله عليه وسلم وتتأكد سنيته في رمضان وفي العشر الأواخر منه آكد (٣) وبين العلماء فضل الاعتكاف وحكمه وأسراره وآدابه وما يبطل به ، وأقله وأكثره (٤) ولم يسموه خلوة ولم يقولوا بأنه يتعين أن يكون في مكان مظلم قدر القامة لا منفذ فيه وأن أمره مبني على الكتمان وأنه من الأسرار إلى غير ذلك مما ذكر من شروط في الخلوة الصوفية على أن القادرية يخلطـون في أوصاف الخلوة وشـروط الاعتكـاف حتى إن الأمر يتداخل عندمن لا يريد التمييز أولا يحسنـه ، وكـأنهـم يسـوون بيـن الاعتكـاف المشـروع والعزلـة المرغب فيهـا

---

(١) فتح الباري جـ ١ ص ٢٣ .

(٢) صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب فضل الجلوس في مصلاة بعد الصبح وفضل المساجد .

(٣) انظرصحيح البخاري كتاب الاعتكاف وصحيح مسلم كتاب الإعتكاف مع النووي جـ ٨ ص ٦٦ . ٧١ .

(٤) المغني لابن قدامة ، مكتبة الرياض الحديثة سنة ١٤٠٠ هـ جـ ٣ ص ١٨٣ . ٢١٦ وزاد المعاد لابن جـ ٢ ص ٨٦ . ٩٠ .

فيها عند الفتن وفساد الزمن وبين الخلوة التي هي من أعمال أهل الدجل الطالبين لمصاحبة الشياطين أو الاشراقين من الفلاسفة الذين لا دين لهم ولا أحكام تقيدهم أو المجاذيب الذين لا تميز عندهم ٠

أما من تقيده الأحكام الشرعية ويمكن أن يفيد أو يستفيد فإنه لا تشرع له الخلوة ولا يصح له التعبد على طريق من لا دين له أو لا تميز له لأمور :

أولاً : لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الانفراد والوحدة في السفر للجهاد وغيره من الأمور المشروعة أو التي هي من أعظم القرب كالحج والسعي في الأرض طلبا للحلال ٠

فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من رواية ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : (لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده) (١) وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال : (كان الناس إذا نزلوا منزلا تفرقوا في الشعاب والأودية ٠ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن تفرقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان) فلم ينزلوا بعد ذلك منزلا إلا انضم بعضهم إلى بعض ، حتى يقال : لو بسط عليهم ثوب لعمهم) (٢)

ثانيا : إن الذين خرجوا أحاديث العزلة وشرحوها قد خرجوا أيضا أحاديث فضل الاختلاط بالناس والصبر على أذاهم ، وقوى بعضهم حجج القائلين بأن الخلطة أفضل من العزلة أو أن الناس في ذلك مختلفون فقد يفتح على شخص في باب لم يفتح لغيره ، على أن العزلة لا تتأكد إلا في حق الضعيف في حال الفتن ٠ (٣)

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب السير وحده ٠

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب ما يؤمر من انضمام العسكر وسعته ، الحديث رقم : (٢٦٢٨) ٠

(٣) انظرالتمهيد لابن عبد البر ج ١٧ ص ٤٣٩ . ٤٥٠ وإحياء علوم الدين ص ٢٠٤ . ٢٠٥ ٠

ثالثا : وهذا ما رجحه النووي قال : (باب فضل الاختلاط بالناس وحضور جمعهم وجماعتهم ، ومشاهد الخير ، ومجالس الذكر معهم ، وعيادة مريضهم وحضور جنائزهم ومواساة محتاجهم ، وارشاد جاهلهم ، وغير ذلك من مصالحهم لمن قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقمع نفسه عن الإيذاء وصبر على الأذي ٠ واعلم أن الاختلاط بالناس على الوجه الذي ذكرته هو المختار الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وكذلك الخلفاء الراشدون ، ومن بعدهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء المسلمين واخيارهم وهو مذهب أكثر الفقهاء رضي الله عنهم أجمعين ٠) (١) ويؤيد ما قدمناه حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند أحمد في المسند : (أن النبي صلى الله عليه وسلم نهي عن الوحدة وأن يبيت الرجل وحده أو يسافر وحده) (٢) .

رابعا : واقع شيوخ القادرية ومقدميها يخالف متطلبات العزلة وحب الخمول على ما تقدم في تراجمهم وبيان أحوالهم ٠ إذ هم منغمسون مع أصحاب الدنيا ويخدمهم مع ذلك من أطاعهم من الناس ٠

والله أعلم ٠

---

(١) رياض الصالحين باب فضل الإختلاط بالناس ٠

(٢) الفتح الرباني جـ ١٤ ص ٢٤٦ وقال الهيثمي (رجاله رجال الصحيح) ٠

المطلب الثاني : ركعات القادرية

عرض :

المراد بركعات القادرية ست ركعات بين المغرب والعشاء بنية التقرب إلى الله تعالى وحفظ الإيمان والسلامة من أهوال يوم الحشر وقضاء الحاجات ٠

ويقرأ المصلي في **الاولى** بعد فاتحة الكتاب سورة الكوثر ست مرات ٠

وفي **الثانية** بعد الفاتحة سورة الكافرون ست مرات أيضا ٠

ويقول في سجودهما (٠٠ رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري) (١)

ويصلي الوسطين يقرأ في الأولى منهما بعد الفاتحة سورة الإخلاص ست مرات وفي الثانية بعد الفاتحة بالمعوذتين مرة واحدة ٠ ويقول في سجودهما : (اللهم إني استودعك ديني وإيماني فاحفظهما علي في حياتي وعند وفاتي وبعد مماتي) ٠

ثم يدعو بدعاء الاستخارة (٢) إلا أنه يقول في دعائه : (اللهم إن كنت تعلم أن كلما أتحرك بــه من ساعتي هذه إلى مثلها في حقي وحق غيري خير لي في ديني ودنياي ٠٠٠) (٣) .

ثم يصلي الأخيرتين فيقرأ في الأولى بعد فاتحة الكتاب آية الكرسي وفي الثانية بعد الفاتحة (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله إلى آخر السورة) (٤) ويقول في سجودهما : (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهـاب) (٥) ويدعو بدعـاء الاستخـارة أيضـاً (٦)

---

(١) سورة طه الآيتين ٢٥ . ٢٦ ٠

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الدعوات ، باب الدعاء عند الاستخارة ٠

(٣) الكوكب الوقاد ص ١٧٤ ونعت البدايات ص ٢٠٤ ٠

(٤) آخر سورة الحشر من الآية ٢١ . ٢٤ ٠

(٥) سورة آل عمران الآية ٨ ٠

(٦) الكوكب الوقاد ص ٨٨. ٨٩ و١٠٩-١١٠ و١٧٣- ١٧٤ والفتح الباطني والظاهري ص ١٤. ١٦ .

وهذه الركعات من أساسيات ورد القادرية بهذه الصفة المذكورة وهذه الصفة مختلفة نوعا ما عن الصيغة التي أوردها الشيخ عبد القادر في الغنية في : (فصل : فضل الصلاة بين العشائين) (١) ولكنهم يقولون بأن الشيخ عبد القادر تؤخذ من عنده أربعون طريقا مشهورة وغير المشهور لا يعد لكثرته ···) (٢) وذكر ورد الركعات الست بعد المغرب كل من الشيخ سيدي المختار الكنتي وابنه الشيخ سيدي محمد والشيخ ماء العينيين والشيخ التراد وغيرهم من مؤلفي القادرية وشيوخها ٠

قال الشيخ سيدي المختار الكنتي بعد ذكره لبعض فضائل الصلاة بالليل ومدح الله تعالى للمحافظين عليها ٠٠ (والذين تتجافى جنوبهم هم المجتهدون بالليل الذين يحيونه بالصلاة والذكر والفكر قال أنس بن مالك نزلت فينا معاشر الانصار كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع رسول صلى الله عليه وسلم (٣) إلى أن قال : وعلى هذا الأصل بنت القادرية رضوان الله عليهم مذهبا فجعلتها في أثناء وردها) (٤) ٠

وقال : (وفي كتاب الفتح الجلي في مناقب الجيلي لابن باديس أن الجيلي رضي الله عنه كان يأمر تلاميذه بالمواظبة على هذه الركعات الست ويقول لهم : أقل صلاة الأوابين ركعتان وأفضلها ست ركعات وأكثرها عشرون ركعة ···) (٥) وذكرها في فصل الأذكار والدعوات في كتابه المنة في اعتقاد أهل السنة (٦) وفصل القراءة فيها والأدعية والآداب التي تصاحبها في شذرات الأذكار المختارية (٧) وقال الشيخ سيدي محمد في الغلاوية :(إن والده لقن عبد الله بن سيدي محمود عندما صحبه وهو في طريقه إلى الحج : (الأذكار والأدعية والركعات ٠٠) (٨) وفصل القول فيها الشيخ ماء العينيين في أثناء الورد القادري في نعت البدايات (٩) وضمنها الشيخ التراد أوراده التي قال فيها بأنها من أعلا أوراد الاعتدال والكمال والنفل ٠ (١٠) .

---

(١) الغنية جـ ٢ ص ٨١ وما بعدها ٠
(٢) نعت البدايات ص ٢٠١ ٠
(٣) يأتي تخريجه في أثناء النقد الآتي إن شاء الله ٠
(٤) الكوكب الوقاد ص ٢٨ ـ ٢٩ ٠
(٥) نفسه ص ٩٤ ٠
(٦) المنة ص ١١٥ ٠
(٧) المصدر المذكور ص ١٠ ـ ١١ ٠
(٨) الغلاوية ص ١٣ ٠
(٩) المصدر المذكور ص ٢٠٤ ٠
(١٠) نيل المراد المقدمة ص ل و ص ٢ ٠

وبناء على اعتماد هذه الركعات في الورد القادري وأخذها من الشيوخ فإنها عندهم واجبة كالفرائض ويجب قضاؤها ويجب فيها من الطهارة ما يجب للصلاة المفروضة .

قال الشيخ سيدي المختار الكنتي في جواب من سأله عن الركعات وحكمها : (وأما قولك هل لمن عدم الماء وكان حاضرا صحيحا التيمم لركعات الورد كالفرائض ؟

فالجواب : إن حكم أوراد السلف حكم الفرائض لأنها فرائض بالالتزام والعهود والنذور .

وأما قولك هل على من فاته وقت الورد إعادته أم لا ؟

فالجواب : أنه تجب عليه إعادته إذ حكمه حكم الفريضة ..) (١)

نقد :

هذه بعض نصوص القادرية في ركعات الورد القادري ويؤخذ منها ما يأتي :

١) اعتماد صلاة في وقت مخصوص وبأدعية مخصوصة وقراءة مخصوصة .

٢) القول بوجو بها كالفرائض وإيحاب قضائها .

٣) ذم المقصر في أدائها واتهامه بتضيع الواجب والتفريط في المتعين حسبما في كتبهم .

٤) القول بأن الأخذ عن المشايخ يجعل المأخوذ قربة وعبادة بالعهود والنذور كالفرائض .

وقد تضمنت هذه النصوص أموراً جائزة ومشروعة بأصلها وبعضها ورد الحث عليه من الشارع ومن ذلك ما يأتي :

١) مشروعية صلاة النافلة والإكثار منها ما لم يحصل بذلك تضيع واجب ، ووقعت هذا الركعات وقت يباح فيه النفل على العموم ويستحب فيه التنفل (٢) .

٢) ويجوز تكرير سور في ركعة واحدة وخصوصاً ما ورد فيه نص كسورة الإخلاص (٣)

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١٢٧ .

(٢) المغني لابن قدامة المقدسي مكتبة الرياض الحديثة جـ ٢ ص ١٤٠ .

(٣) صحيح مسلم ، فضائل القرآن الكريم باب فضل قراءة قل هو الله أحد .

٣) وصلاة الاستخارة ودعاؤها (١) وتكرار ذلك بعد كل تسليمة من ركعتين (٢)

ونلاحظ هنا قبل الدخول في دراسة استدلالهم على هذا الورد وعمدتهم فيه ما يأتي :

أ) أنهم أدخلوا فيه صلاة الاستخارة (وهي من غير الفريضة) والامر بصلاة ركعتين قبل دعاء الاستخاره ليس للوجوب أصلا قال الحافظ بن حجر (ودل على عدم وجوب الاستخارة ما دل على عدم وجوب صلاة زائدة على الخمس) في حديث : (هل علي غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع) (٣)

ب) أنهم عدلوا عن بعض دعاء الاستخارة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمها أصحابه كما يعلمهم السورة من القرآن وهذا مشعر بتعين المحافظة على ألفاظها وعدم استبدالها بألفاظ محدثة من عند المستخير (٤) .

جـ) والعبارة التي أحدثوها في نص دعاء الاستخارة على ما فيها من العدول عن الدعاء النبوي خالفت نفس ألفاظ النص : (ومراده وسببه) حيث إن الدعاء فيه (إذا هم) وفيه (هذا الأمر) وفيه (ويسمي حاجته) وفي لفظ (ثم يسميه بعينه) وعبارتهم تقول : (اللهم إن كنت تعلم أن كلما أتحرك به من ساعتي هذه إلى مثلها في حقي وحق غيري خير لي في ديني ودنياي ... قال المختار الكنتي ... (لأنه في هذا المحل لم يقصد لأمر معين) (٥) وهذا هو محل الخلل في استحداث هذه العبارة لأن الاستخارة سنة في جميع الأمور المباحة أو المندوبات التي لا يعرف وجه الخير في أحد طرفيها .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الدعوات ، باب الدعاء عند الاستخارة .

(٢) فتح الباري جـ ١١ ص ١٨٥ .

(٣) فتح الباري جـ ١١ص ١٨٥ ويأتي الحديث المذكور إن شاء الله تعالى .

(٤) بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها . شرح مختصر صحيح البخاري لأبي محمد عبد الله بن أبي جمرة دار الجيل ط ٣ ١٩٨٤ م جـ ٢ ص ٨٧ .

(٥) الكوكب الوقاد ص ١١٠ .

أما المحرمات والواجبات والمكروهات فلا يستخار فيها وأما الأمور التافهة فلا يشغل الانســان بها وقته ويكفي الإنسان في هذا كله دوام الدعاء بالتوفيق والسداد (١) ٠

د) ثم إنه من الخطإ نسبة هذه العبارة إلى الشيخ عبد القادر إذ إن أوثق كتبه التي يعتمد عليها في أخذ أوراده وسلوكه هو كتاب الغنية والذي أورده فيه هو رواية جابر لصلاة الاستخارة ودعائها ولم يغير في الرواية شيئا (٢) وأضاف بعد نص الحديث ما يدل على عدم إطلاق الاستخارة كما في العبارة التي قدمناها عنهم قال : (فينبغي لكل أحد إذا تحقق عزمه على الخروج إلى وجه من سفر التجارة أو حج أو زيارة أن يقول عقب الركعتين) ٠ وجاء بدعاء طويل من عنده يتضمن معاني أدعية كثيرة (٣)

و) ومن الخطإ كذلك نسبة إدخال دعاء الاستخارة في صلاة الركعات الست أو الصلاة ما بين العشائين للشيخ عبد القادر فإنه مع ما ذكر في هذا الموضوع مما لا يليق به ذكره وما عاب به أهل العلم بالرواية به كتابه فانه لم يذكر هذه الاستخارة التي ذكروها منسوبة إليه في كتاب الغنية (٤) ٠ والذي يظهر من مقارنة نقل القادرية في هذه الركعات بما في أحياء علوم الدين وما في الغنية يجد أنهم نقلوا عن هذين الكتابين أو من نقل عندهما في الفضائل على العموم وفي هذه الركعات على الخصوص ٠

ومعلوم أن الغزالي والجيلي ليسا ممن تصدى لنقل السنة وليسا ممن التزم الصحة فى كتبهم ولا ادعيا ذلك وفضائل الأعمال قد توسع الناس في تجويز العمل بما ينقل فيها حتى كأنه لم يكن هناك ضابط لحد ذلك التوسع ٠

---

(١) بهجة النفوس وهو : جمع النهاية في بدء الخير والغاية المصدر السابق ٨٧ . ٨٨ وفتح الباري جـ ١١ ص ١٨٦ ٠

(٢) الغنية جـ ٢ ص ١٤٥ وصحيح البخاري كتاب التوحيد باب قوله تعالى ﴿ قل هو القادر ﴾ الفتح جـ ١٣ ص ٣٧٥ ٠

(٣) الغنية جـ ٢ ص ١٤٥ ٠

(٤) فتح البارى جـ ١١ ص ١٨٥ ويأتي الحديث المذكور إن شاء الله تعالى ٠

وهذا في ميدان العبادات وما يتقرب به إلى الله تعالى رآه بعض العلماء مذموما ورآى بعض العباد والزهاد أنه محمود بشروط ولكن هذه الشروط لم يلتزم الناس بها فعملوا بالموضوعات وتتبعوا النوافل والفضائل حتى عجزوا عن الفرائض ووقعوا في البدع والخرافات وفرضوا على الناس بالمنامات فرائض وحدوا لأتباعهم الثواب والعقاب بدون دليل من الشارع (١)

قال ابن الجوزي في الموضوعات : باب ثواب من بلغه حديث فعمل به :

وساق بسند الحديث إلى جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من يلغه عن الله عز وجل شيىء فيه فضيلة فأخذ به إيمانا به ورجاء ثوابه أعطاه الله ذلك وإن لم يكن كذلك) .

ثم قال ابن الجوزي : (هذا حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يكن في إسناده سوى أبي جابر البياض . قال يحي : وهو كذاب .

وقال النسائي : متروك الحديث وكان الشافعي يقول : من حدث عن أبي جابر البياض بيض الله عينيه) (٢) وممن عمل بهذا الحديث الموضوع وتوسع في ذكر كل ما سمع في الفضائل أهل التصوف عموما والإمام الغزالي خصوصا ويظهر ذلك في هذه المسألة بالذات حيث إنه ذكر في فضائل هذه الركعات وما يقرأ فيها وما يثاب به المواظب عليها أشيا ء كثيرة حتى ذكر فيها رواية عن الخضر عن النبي صلى الله عليه وسلم . وتبعه على ذلك الشيخ عبد القادر الجيلي في الغنية فنقل كثيرا مما نقله الامام الغزالي في الاحياء وتبعهما على ذلك من جاء بعدهما نقلا وعملا ومن الناقلين والعاملين القادرية في موريتانيا .

---

(١) انظرشرح حزب الامام النووي لأبي عبد الله محمد بن الطيب الفاسي الشرقي ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي دار الإمام مسلم ط ١ سنة ١٤٠٨ هـ ص ٩٨ وما بعدها . وعلم الحديث لأبن تيمية ص ١٥١ وما بعدها .

(٢) الموضوعات جـ ١ ص ٢٥٨ .

أما ما نقله الغزالي في الاحياء فقد تتبعه العراقي ونسبه إلى من رواه وخرجه وكان حكمه عليه يتراوح بين قوله :

ضعيف ، منكر ، باطل لا أصل ، مرسلا ، بلا سند ، فيه فلان متروك ، متهم بالوضع . (١)

ومع هذا فإنه ينبغي أن تأتي هنا بأحسن ما استدل به على هذا الورد من السنة المخرجة في الكتب المشهورة كالمسند والسنن لنعرف درجة الاستدلال بها .

١) فعن عبيد مولى النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وسئل أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بصلاة بعد المكتوبة ؟
قال : نعم بين المغرب والعشاء) (٢) (ومدار طرقه كلها على رجل لم يسم وبقية رجال أحمد رجال الصحيح) (٣)

٢) وخرج الإمام أحمد بسنده عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه في فضائله أنه قال : قالت لي أمي متى عهدك بالنبي صلى الله عليه وسلم : قلت ما لي به عهد منذ كذا وكذا قال : فهمت بى قلت يا أماه دعينى حتى أذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلا أدعه حتى يستغفر لي ويستغفر لك قال : فجئته فصليت معه المغرب فلما قضى الصلاة قام يصلي فلم يزل يصلي حتى صلى العشاء ...) (٤)

٣) وخرج الترمذي هذا الحديث مرة للاستدلال به على جواز صلاة راتبتي المغرب في المسجد بصيغة التمريض بقوله :(وقد روي عن حذيفة (٥) وخرجه مرة أخرى بسنده كاملا في مناقب الحسن والحسين وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث إسرائيل) (٦)

---

(١) إحياء علوم الدين وبذيله كتاب : المغنى عن حمل الأسفار في الاسفار في تخريج ما في الإحياء من الاخبار جـ ١ ص ١٧٨ و ٣٠٢ و ٣١١ . ٣١٢ .
(٢) الفتح الرباني جـ ٤ ص ٢١٤ .
(٣) نفسه والمغني عن حمل الأسفار المصدر السابق جـ ١ ص ٣١٢ .
(٤) الفتح الرباني جـ ٢٢ ص ٢٢١ .
(٥) جامع الترمذي مع شرحه تحفة الاحوذي ط ١ ١٤١٠ هـ جـ ٣ ص ١٨١ .
(٦) نفسه جـ ١٠ ص ١٩٣ . ١٩٤ .

قال الساعاتي في الفتح الرباني : (واسرائيل هذا هو ابن يونس ابن أبي إسحق السبيعي الهمداني أبو يوسف الكوفي من رواة السنة قال أحمد : ثقة ثبت وقال أبو حاتم صدوق من أتقن أصحاب أبي إسحاق كذا في الخلاصة وقال في التقريب ثقة تكلم فيه بلا حجة) (١)

قال الذهبي : إسرائيل بن يونس ، أحد الثقات الأعلام . قال ابن سعد : منهم من يستضعفه) (٢)

٤) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيل القراءة في الركعتين بعد المغرب حتى يتفرق أهل المسجد) (٣) قال في معالم السنن (في أسناده يعقوب بن عبد الله ، وهو القمي ليس بالقوى) (٤) وعندي أن إطالة القراءة في هذا الحديث إذا أخذ به كان فيه بيان لحديث حذيفة المتقدم حيث إنه لم يذكر فيه عدد ركعات وإنما قال : قام يصلي فما زال يصلي حتى صلى العشاء .

٥) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في هذه الآية : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (٥) قال : كانوا يتيقظون ما بين المغرب والعشاء يصلون ، وكان الحسن يقول : قيام الليل وعنه رضي الله عنه في قوله عز وجل ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ﴾ (٦) قال : كانوا يصلون فيما بين المغرب والعشاء زاد في حديث يحيى : وكذلك (تتجافى جنوبهم) (٧)

قال العراقي : بأن فيه اسماعيل بن أبي زياد وهو متروك يضع الحديث كما قال الدار قطني (٨) وجزم بوضعه الالباني عند الحديث : عليكم بالصلاة بين العشاءين ، فإنها تذهب بملاغاة أول النهار ، وتهذب آخره) (٩)

---

(١) المصدر المذكور جـ ٢٢ ، ٢٢١ .
(٢) المغني في الضعفاء للإمام الذهبي ، نشر إحياء التراث بقطر جـ ١ ص ١٢٦ الرقم ص ٦١٣ .
(٣) سنن ابى داود جـ ٢ ص ٧٠ .
(٤) نفسه جـ ٢ ص ٧٠ .
(٥) سورة السجدة الآية ١٦ .
(٦) سورة والذاريات الآية ١٧ .
(٧) نفسه جـ ٢ ص ٧٩ .
(٨) المغني عن حمل الاسفار جـ ١ ص ٣٠٢ .
(٩) سلسلة الاحاديث الموضوعة جـ ٢ ص ١٢٧ .

وهذا الحديث الموضوع أول حديث ينقل حثا منسوبا إلى الشارع على الصلاة في هذا الوقت بعد حديث عبيد مولى النبي صلى الله عليه وسلم المتقدم .

٦) ومن المنقول في تحديد عدد وثواب عليه ما خرجه ابن ماجه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في باب ما جاء في الصلاة بين المغرب والعشاء . قال بسنده : (عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صلى بين المغرب والعشاء عشرين ركعة بنى الله له بيتا في الجنة) (١) وقال بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى ست ركعات بعد المغرب لم يتكلم بينهن بسوء عدلن له عبادة اثنتي عشرة سنة) (٢)

قال السندي : إن الروايتين ضعيفتين لما فيهما من الكذابين مثل عبد الوهاب واسماعيل بن عياش ، ويعقوب بن الوليد الذي اتفقوا على ضعفه وقال : قال فيه الإمام أحمد : من الكذابين الكبار وكان يضع الحديث) (٣)

٧) وخرج ابن الجوزي في الموضوعات بسنده إلى أبان عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله علية وسلم : (من صلى بعد المغرب اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة قل هو الله أحد أربعين مرة ، صافحته يوم القيامة ومن صفحاته يوم القيامة أمن الصراط والحساب والميزان) قال وهذا لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه مجاهيل وأبان ليس حديثه بشيء) (٤)

وفي هذا الموضوع آثار وأخبار كثيرة مرفوعة وموقوفة وقد ذكرت هنا ما رأيت أنه أحسنها حالا يقابله من الموضوعات مايعكر ما فيه من الحسن وخصوصا ما ذكر

---

(١) سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٤١٤ . ٤١٥ .

(٢) نفسه جـ ١ ص ٣٥٥ . ٣٥٦ .

(٣) نفسه جـ ١ ص ٣٥٥ . ٣٥٦ و ٤١٤ ـ ٤١٥ . أنظر الحكم على هؤلاء في المغني في الضعفاء جـ ١ وص ١٣٩ و ص ٥٨٦ و جـ ٢ ص ٤٣٣ ويأتي التفصيل في الحكم على اسماعيل بن عياش .

(٤) الموضوعات لابن الجوزي جـ ٢ ص ١١٩ .

فيه منها عدد معين أو قراءة معينة أو رتب عليه ثواب محدد ، وهذه هي الأمور التي خرج بها هذا الورد عن السنة والجادة إلى العمل بالموضوع والضعيف أو الاخبار المجهولة وكل ذلك وضع بالرأي لا يكون صاحبه عاملا بقربة أو مستنا بسنة .

ولما تتبع الإمام الشوكاني هذا الموضوع في كتابه نيل الأوطار خلص إلى الخلاصة التالية قال : (والآيات والأحاديث المذكورة في الباب تدل على مشروعية الاستكثار من الصلاة ما بين المغرب والعشاء ، والأحاديث وإن كان أكثرها ضعيفا . ويريد ما ذكره هو . فهي منتهضة بمجموعها لا سيما في فضائل الأعمال) (١)

ونفس النتيجة خلص إليها الساعاتي في الفتح الرباني قال : (الاحكام) : أحاديث الباب مع ما ذكرنا في الشرح تدل على استحباب الإكثار من النوافل بين المغرب والعشاء ، وإن كان أغلب ما ورد في الزيادة على ركعتين ضعيف لكنه ينتهض بمجموعه لا سيما في فضائل الأعمال ، والمؤكد من ذلك ركعتان بعد المغرب لورد الأحاديث الصحيحة بذلك ...) (٢) . وعندي أن استحباب الإكثارمن النوافل على العموم حاصل بدون هذه الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة ضعفا شديدا بحيث لا تنتهض بمجموعها إلى تحصيل ندب أو فضيلة جديدة فكيف تنتهض إلى الاستدلال بها على الصورة التي ذكرتها القادرية أو ترتيب الثواب المدعى بها .

والأحاديث الصحيحة تغنى عن غيرها في هذا الباب (فعن أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعا غيرفريضة إلا بنى الله له بيتاً في الجنة) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : صليت مع رسول الله صلى عليه وسلم قبل الظهر سجدتين وبعدها سجدتين وبعد المغرب سجدتين وبعد العشاء سجدتين

---

(١) نيل الأوطار ط الكليات الأزهرية جـ ٣ ص ٢٩٣ .

(٢) الفتح الرباني جـ ٤ ص ٢١٥ .

وبعد الجمعة سجدتين فأما المغرب والعشاء والجمعة فصليت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بيته) (١)

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها) (٢)

وهذا وتر النبي صلى الله عليه وسلم وصلاته بالليل حضرا وسفرا محفوظة في الصحاح والسنن فمتابعته عليها والمداومة عليها من خير الأوراد وأصح القرب وأوجب السنن واكدها .

فإنه صلى الله عليه وسلم كان يكثر من النافلة ما شاء الله ويترك العمل وهو يحب أن يعمله مخافة أن يفرض على أمته ، روت عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل وكانت عائشة رضي الله عنها إذا عملت العمل لزمته) (٣) وقد نوع صلى الله عليه وسلم النوافل فطول تارة واختصر تارة ، وحافظ على الرواتب حتى تحفظ عنه ويحافظ عليها ، وحافظ على الوتر وركعتي الفجر في السفر والحضر حتى قال بعض أهل العلم بوجوب الوتر ، ويجوز إطلاق لفظ الوجوب على السنن المؤكدة كالوتر لمداومة النبي صلى الله عليه وسلم عليه ولأمره به ولقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المخرج في السنن (عن أبي أيوب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الوترحق ..) (٤) وقد بين أمير المؤمنين علي رضي الله عنه المراد بهذا الحديث فقال : (الوتر ليس بحتم كهيئة المكتوبة ولكنه سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم) (٥) .

---

(١) صحيح مسلم كتاب . صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل السنن الراتبة . .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما وتحقيقهما والمحافظة عليهما
(٣) صحيح مسلم باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره .
(٤) النسائي جـ ٣ ص ٢٣٨ .
(٥) نفسه جـ ٣ ص ٢٩٩ وزاد المعاد جـ ١ ص ٣٠٧ . ٣١٨ .

فعن أبي سهيل عن أبيه أنه سمع طلحة بن عبيد الله يقول جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس صلوات في اليوم والليلة قال : هل علي غيرهن قال لا إلا أن تطوع ..) (١)

فمن أوجب على أحد بعد ذلك صلاة وأوجب عليه اعادتها كالفرائض المكتوبة كان منصبا لنفسه مشرعا وعالما بالثواب على الأعمال ، وهذا من البدع الكبيرة المنافية للولاية واتباع السنة .

أما من استحب للناس المداومة على ما اعتادوه من الخير وتداركه إذا فات بنوم أو عذر على ضوء قول الله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) (٢) فهذا مما يحمد فاعله ويحث عليه إلا إن خلطه بغيره من البدع أو الهيئات المخرجة له عن حد السنة سواء ادعا أنه نذر أو أنه أخذه بالعهود والمواثيق عن المشايخ أو أن بركته لا تحصل إلا على هذه الهيئة (٣) لأنه لا وفاء لنذر في معصية ومن المعصية اختراع عبادة على هيئة معينة وإعطاؤها لعباد الله على وجه الوجوب والنذر. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه) (٤) فمن خلط في نذره طاعة بمعصية أمر بترك المعصية والوفاء بالطاعة (٥) فالايجاب والتحريم والاستحباب من الأدلة الشرعية التي لا

---

(١) صحيح مسلم كتاب الايمان باب بيان الصلوات التي هي اركان الاسلام .

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٢ .

(٣) الموافقات في أصول الاحكام الشاطبي ، دار الفكر سنة ص ١٣٤١ هـ . ج ١ ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الايمان والنذور ، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية الحديث رقم : (٦٧٠٤)

(٥) انظر حاشية السندي على سنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٥٥ .

تثبت إلا بنص من الشارع الحكيم ولو عمل الناس على إثبات الأحكام بغير دليل لكانوا مشرعين من دون الله تعالى وحتى لو قلنا بالتساهل في فضائل الأعمال لوجود ما يشهد أن الله تعالى يحبها ويرضاها ٠

قال شيخ الإسلام بن تيمية : (فإن الاستحباب حكم شرعي فلا يثبت إلا بدليل شرعي ، ومن أخبر عن الله أنه يحب عملا من الأعمال من غير دليل شرعي ، فقد شرع من الذين ما لم يأذن به الله كما لو أثبت الإيجاب أو التحريم ٠٠٠ فإذا تضمنت أحاديث الفضائل الضعيفة تقديرا وتحديدا مثل صلاة في وقت معين بقراءة معينة ، أو على صفة معينة لم يجز ذلك ، لأن استحباب هذا الوصف المعين لم يثبت بدليل شرعي) (١)

ولم تثبت صلاة بعد المغرب عن الشارع على الهيئة التي تعبدوا الله عليها بهذه الركعات وما يرافقها من الهيئات وما رتب عليها من الثواب ، إنما ثبت أن للمغرب راتبة هي ركعتان في البيت ، وأن من سنتها أن لا يتكلم بينها وبين المغرب كما روي عن الإمام أحمد (٢)

وأما مجرد الحث على الصلاة وكثرة السجود لله تعالى في جميع الأوقات التي يباح النفل فيها فيكفي فيه حديث ثوبان المخرج في الصحيح وغيره أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن عمل يحبه الله أو يدخله الله به الجنة قال فقال لي (عليك بكثرة السجود لله فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة) (٣) وكذلك حديث ربيعة بن كعب الأسلمي لما طلب من النبي صلى الله عليه وسلم مرافقته في الجنة قال له : (فأعني على نفسك بكثرة السجود) (٤) .

والله أعلم ٠

(١) علم الحديث لابن تيمية ص ١٥١ ١٥٤ ٠

(٢) المسند مع الفتح الرباني ج ٤ ص ٢١٣ ـ ٢١٤ وزاد المعاد ج ١ ص ٣١٣ ـ ٣١٤ ٠

(٣) صحيح مسلم كتاب الصلاة ، باب فضل السجود والحث عليه ٠

(٤) نفس الكتاب والباب ٠

المطلب الثالث : النوافل الأخرى وما اشتملت عليه ومكانتها

تقدم لنا سؤال اللمتوني للسيوطي عن كتب دخلت البلاد فيها أحاديث كثيرة لا يعرف سندها ، فهل يجوز العمل بها ؟

وأجابه السيوطي بأنه يتعين التحفظ من رواية ما لايوجد في كتب السنة المشهورة (١) وقد سبق إلى هذا التحذير القاضي أبو بكر بن العربي في عارضة الأحوذي ولكن بعض الناس لم يستجب إلى هذا التحذير فروى وعمل بما لا تجوز روايته إلا مع بيان حاله حيث إنه إما موضوع أوواه لا يجوز العمل به ولو في الفضائل ، ومن الذين اعتمدوا الكتب التي تشتمل على مثل هذه الأحاديث القاردية وخصوصا في فضائل الأعمال كصلاة النوافل والأسابيع وصلاة رأس العام ورجب وغير ذلك ويظهر أن أهم مصدر لهم في ذلك إحياء علوم الدين للغزالي والغنية للشيخ عبد القادر . (٢)

أما الغزالي فقد ذكر في فضائل صلاة أيام الأسبوع ولياليه أحاديث تتبعها العراقي وكانت أحكامه عليها تتراوح بين ضعيف وضعيف جدا أو لا إسناد له أولا أصل له أو منكر أو فيه فلان كذاب . (٣)

وقد تتبع ابن الجوزي هذه الأحاديث في كتابه الموضوعات وقال في أحكامه عليها مثل ما قال العراقي في المذكور في الإحياء وقال : (وقد ذكر صلوات الأسبوع أبو طالب المكي وتبعه أبو حامدالغزالي وكل ذلك لا أصل له) (٤) وبما أن القادرية مسلمة بما في هذه الكتب المذكورة فقد ذكر بعضهم هذه الصلوات في أوراده وذكر من فضائلها ما يحث به مريديه للعمل بها (٥) ولكن نجد للشيخ سيدي المختار الكنتي

---

(١) الحاوي للفتاوى جـ ١ ص ٢٩٠ و ٢٩٣ .

(٢) إحياء علوم الدين جـ ١ ص ١٧٨ - ١٨١ والغنية جـ ١ ص ١٧٩ وما بعدها و جـ ٢ ص ٩٣ وما بعدها و جـ ٢ ص ١٣٩ وما بعدها .

(٣) المغني عن حمل الأسفار في الأسفار على كتاب إحياء علوم الدين جـ ١ ص ١٧٨ - ١٨١ .

(٤) الموضوعات لابن الجوزي جـ ٢ ص ١١٩ .

(٥) نعت البدايات ص ٦٣ وما بعدها و ١٩١ وما بعدها . ونيل المراد ص ٢ .

وابنه سيدي محمد كلاما يدل على عدم القول بهذه الصلوات وما شابهها من القرب التي لا يشهد لها نص صريح .

قال الشيخ سيدي المختار الكنتي في جواب على السؤال الآتي : وأما قولك وهل ما عمت به البلوى من صلاة الخمس آخر يوم الجمعة من رمضان له أصل أم لا ؟ (١)

فالجواب : (أنه لا أصل له بل هو بدعة قبيحة أحدثها عوام الناس في أواخر القرن الثاني وكان التابعون وتابعوا التابعين ينكرون على أهل البدو وعوام الناس ذلك ويعيبونه عليهم ويقولون لهم : إنكم قد أحدثتم في الدين ما ليس منه فإن الغلو في الدين كالنقص منه فلا يبعد أن تكونوا قد خرجتم عن الدين بما أحدثتموه فيه مما لم يرد عن سلفكم لا في ضعيف من الأثر ولا في مقطوع ولم يقل به أحد من سلفكم مع كذبكم على الله بأنها تقضي ما فات عليكم من الصلوات المكتوبة الواجبة عليكم بالكتاب والسنة والإجماع ، فإن الله تعالى لا يمحو السيىء بالسيىء وانما يمحو السيىء بالحسن وأنتم إنما تريدون غسل الدم بالعذرة فقبحهم الله وقبح صنيعهم وما أحدثوه في الدين .

وأما قولك هل الأحاديث التي اعتاد الناس سردهاعلى العام والخاص يذكرون فيها أنه صلى الله عليه وسلم قال : من صلى في كل يوم من رمضان أو في كل ليلة منه (٢) إلى آخره كذا وكذا من الركعات كان له كذا وكذا من الأجر موضوعة أم لا ؟ فالجواب : (أن أكثرها موضوع لكن مثل ذلك لا ينكر لأن الله تعالى لم يحد في نوافل الخير حدا بل أطلق الأمر فيها وقد ثبت وصح (٣) أن من بلغه عن الله تعالى فضل فعمل به بنية خالصة يرجو فضل الله تعالى الواسع كان له ذلك ولو لم يكن كذلك أخرجه النسائي والطبراني (٤) وغيرهما قال الله تعالى :

---

(١) الحديث المشار إليه خرجه ابن الجوزي في الموضوعات وقال : (هذا حديث موضوع بلا شك وكأن واضعه من جهلة القصاص وأخاف أن يكون قاصدا لشين في الاسلام ...) ج ٢ ص ١٣٥ . ١٣٦ .

(٢) قيام رمضان إيمانا واحتسابا يغفر ما تقدم من الذنب والأحاديث التى فيها تحديد وهيئات تقدم أنه لا يصح منها شيىء .

(٣) والحديث الذي قال فيه بأنه ثبت وصح تقدم أنه موضوع ابن الجوزي ج ١ ص ٢٥٨ .

(٤) تقدم قريبا بسنده مع بيان العلماء أنه موضوع .

﴿ يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾ (١) وقال : ﴿ إن لك في النهار سبحا طويلا ﴾ (٢) وأن النافلة التي لم تكن بدعة شنيعة لا تأتي إلا بخير وينبغي أن يكون خصوص ما ارتكبوه من تلك الصلوات شاملا له عموم الإذن المطلق) (٣) قلت في هذين النصيين ما يحتاج إلى إيضاح : فإن صاحبهما ينقل ذم الغلو والإحداث في الدين ما ليس منه مؤيدا لذلك ، ويقبح أهل البدع ، ثم يقول بأن أكثر الأحاديث في هذا الباب موضوعة ، ومع ذلك يفتح الباب واسعا للعمل بمثل هذه الموضوعات راويا حديثا موضوعا مستدلا به على جواز العمل بها في النافلة المطلقة ما لم تكن بدعة شنيعة ، ولا يخفى أنه من أشنع البدع العمل بالموضوعات . يقول شيخ الإسلام بن يتيمة : (فما علم أنه باطل موضوع لم يجز الالتفات إليه ، فإن الكذب لا يفيد شيئا) (٤) .

ثم إن المسؤل عنه صلاة الرغائب كما يسمونها وهي داخلة في عموم النوافل المبتدعة وهيئاتها المنكرة (٥) .

وقد سئل عنها شيخ الإسلام بن تيمية خاصة فأجاب :

(صلاة الرغائب بدعة باتفاق أئمة الدين لم يسنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أحد من خلفائه ، ولا استحبها أحد من أئمة الدين : كمالك ، والشافعي وأحمد وأبي حنيفة ، والثوري ، والأوزاعي ، والليث ، وغيرهم . والحديث المروي فيها كذب بإجماع أهل المعرفة بالحديث ...) (٦)

---

(١) الآيات من سورة المزمل ١ ـ ٤ .

(٢) السورة المذكورة الآية ٧ .

(٣) الكوكب الوقاد ص ١٣٩ . ١٤٠ .

(٤) علم الحديث ص ١٥٣ .

(٥) انظرالسنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات ، محمد عبد السلام حضر الشقيري ص ١٧٩ . ١٨٠ .

(٦) مجموع الفتاوى جـ ٢٣ ص ١٣٤ .

ومن هنا قال الشيخ سيدي محمد الكنتي : (ومن له بالبدع خبرة ولم تلحقه في وجوه الحقائق حيرة علم أن من خواص البدع الشنيعة عند علماء الحقيقة والشريعة أنها لا توجد غالبا إلا مقرونة بمحرم صريح أو آئلة إليه أو يكون تابعا لها ، ومن تأمل ذلك وجده في كل أمر قيل إنه بدعة لا ينخرم بحال ... وأنها لا توجد غالبا إلا في الأمور المستغربة غير المألوفة في الدين وفي الكفايات من المندوبات وتوابع الأعمال وما تميل إليه النفوس وتستحنه كالذكر جهرا أو برسم الحضرات المبتدعة والتلاوة والصلاة والصوم بمايدخلون عليها من الكيفيات ونحوها والسلوك والتربية ونحو ذلك فتأملوه ثم إنها لا توجد غالبا إلا مسندة لوجه من الشريعة أو معنى من الحقيقة يلتبس على قليل العلم ضعيف الفهم فيتحير أو يسلم وتروج في عين الجاهل فيظنها دينا قيما من حيث لا يعلم وما غره في ذلك إلا شبهة الأصل أو التسليم لمن يعتقد فيه العلم والفضل ...) ثم بين الموازين التي يعرف بها الحق من الباطل فقال :

الأول : النظر في المحدث أله مستند شرعي لوجه شامل محيط هو جملة الشريعة ومعظمها فإن كان هذا الأمر مما يشهد له معظم الشريعة وأصلها فليس ببدعة ، وإن أباه بكل وجه فهو باطل ضلال مبتدع إلحاد إن كان في جانب الاعتقاد ونحوه) (١)

إلى إن قال : (وإن كان مما تراجعت فيه الأدلة وتناولته السنة واستوت فيه الشبه اعتبرت وجوهه فما ترجح فيه من ذلك رجع إليه) (٢)

الثاني : (التميز بشواهد الأحكام وينقسم إلى أقسام الشريعة الخمسة الوجوب والحظر والندب والكراهة والجواز فكلما انحاز لأصل بوجه صحيح واضح لابد فيه ألحق به وما لا فهو بدعة ...) (٣)

وبناء على هذه الموازين التي يعرف بها الحق من الباطل قسم الشيخ سيدي محمد الكنتي البدع إلى ثلاثة أقسام هي :

١) (صريحة وهي ما أتت من غير أصل شرعي في مقابلة ما ثبت شرعاً من

---

(١) الغلاوية ص ١٦٥ . ١٦٦ .

(٢) الغلاوية ص ١٦٦ .

(٣) نفسه ص ١٦٦ . ١٦٧ . ١٦٨ .

واجب أو سنة أو مندوب أو غيره فأماتت سنة وأبطلت حقا ثابتا وهذه شر البدع وإن كان لها ألف مستند من الأصول والفروع فلا عبرة به .

٢) البدعة الإضافية وهي التي تضاف لأمر لو سلم منها لم تصح المنازعة في كونه سنة أو غير بدعة بلا خلاف أو على خلاف ...

٣) البدع الخلافية وهي المبنية على أصلين يجذ بها كل منهما بحكمه فمن قال بهذا قال بدعة ومن قال بمقابله قال سنة كما في حزب الإرادة وذكر الجماعة ونحوهما) (١)

والذي لا يوجد بين القادرية خلاف فيه ولو لفظيا هو ما تضمنه الورد القادري من النوافل غير الركعات الست المتقدمة : ركعتي الضحى وركعتي التهجد وما يقرؤ فيهما وما يدعى به فيهما وبعدهما ولذا يحسن الاقتصار على نقد ذلك بعرضه على الكتاب والسنة وعمل السلف . ونبدأ من ذلك بركعتي الضحي :

ركعتا الضحى

يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي : (وأما صلاة الضحى فإنها قد وردت فيها أحاديث كثيرة مع اضطراب روايتها واختلاف رواتها فمنهم المثبت ومنهم النافي (٢) . وأورد بعضها وناقشة مناقشة حسنة إلى أن قال . (وقد جمع العلماء بين هذه الأحاديث بأنه صلى الله عليه وسلم كان لا يداوم على صلاة الضحى مخافة أن تفرض على أمته فيعجزوا عنها وكأن يفعلها في بيته حرصا على الخير لما فيها من جزيل الفضل والثواب كما نص عليه وندب إليه ورغب في ذلك خواص أمته ليفوزوا بذلك الفضل الجزيل ويحيطوا بذلك الشرف الأثيل ..) (٣) ثم ذكر عدد ركعاتها

---

(١) نفسه ص ١٦٨ . ١٦٩ وقد صرح أنه اعتمد في هذا التقسيم على الشيخ زروق في عمدته وهو عندي مخطوط ص ٣ منه .

(٢) الكوكب الوقاد ص ٨٣ .

(٣) نفسه ص ٨٥ .

حسب الآثار الواردة فيها وأن من فوائد هذه الصلاة أنها تجزىء عن الصدقة التي تصبح على مفاصل الإنسان : (ويتحصل ذلك الفضل بركعتي الضحى وقد ورد أنها أفضل التطوع بعد الرواتب) (١)

ثم قال وروى الحاكم من طريق أبي الخير عن عقبة بن عامر قال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نصلي الضحى بسور منها والشمس والضحى (وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الله علي النحر ولم يكتب عليكم وأمرت بصلاة الضحى ولم تؤمروا بها رواه الطبراني (٢) ومعنى أمره بها الوجوب وعدم أمرنابها الاستحباب من غير تحتم إلا أن خلفاءه عليه الصلاة والسلام وهم الأولياء كالجيلي ونحوه قد التزموها كما التزموا غيرها من الأوراد) (٣)
وجاء في نص الورد : (وتصلي ركعتي الضحى تنوي بهما التقرب إلى الله تعالى وشروق القلب يقرأ في الأولى منها بأم القرآن والشمس والثانية بأم القرآن ووالضحى وتقول في سجودهما : اللهم ارحم ذلي وضراعتي إليك وأنس وحشتي بين يديك وارحمني برحمتك يا كريم وتسلم وترفع يديك وتدعو بهذا الدعاء : اللهم يا منور يافتاح نور قلبي بنور معرفتك وافتح لي أبواب حكمتك وانشر علي خزائن رحمتك إنك على ما تشاء قدير عشرا) (٤)

قال الإمام النووي بعد إيراد الإمام مسلم للأحاديث الواردة في صلاة الضحى (هذه الأحاديث كلها متفقة لا اختلاف بينها عند أهل التحقيق وحاصلها أن الضحى سنة مؤكدة وأن أقلها ركعتان وأكملها ثمان ركعات وبينهما أربع أو ست كلاهما أكمل من ركعتين ودون ثمان) (٥) ثم أخذ يبين أوجه الجمع بين الأحاديث المثبة لها والنافية لها ويتلخص كلامه فيما يلي :

---

(١) نفسه ص ٨٦ .

(٢) نفسه ص ٨٦ والمستدرك رواه أحمد في المسند والحاكم في المستدرك والطبراني والبرزار وبكل طرقه ضعيف .

(٣) نفسه ص ٨٦ والطبراني . تنظر الفتح الرباني .

(٤) نفسه ص ٨٦ قلت : في رواية ابن ماجه : كتاب الدعاء باب أسماء الله تعالى ج ٢ (١٢٦٩) (النور ، المنير) ولم نجد هذا اللفظ : (منور) في الكتب التي رويت فيها أسماء الله الحسنى . وسيأتي مزيد بيان لهذا .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٥ ص ٢٢٨ - ٢٣٠

١) أنه صلى الله عليه وسلم كان يصليها بعض الأوقات لفضلها ويتركها في بعضها خشية أن تفرض ..

٢) و يقال في توجيه قول عائشة : (ما كان يصليها) أي ما يداوم عليها فيكون نفيا للمداومة لا لأصلها .

٣) وأن قول ابن عمر فيها هي بدعة يحمل على التظاهر بها في المساجد أو المواظبة عليها لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يواظب عليها خشية أن تفرض وهذا في حقه صلى الله عليه وسلم .

٤) ونقل التوقف فيها عن ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم .

٥) وجمهور العلماء على استحباب المحافظة على الضحى في حقنا . (١)

فهذا تفصيل أقوال العلماء في صلاة الضحى ، وقد نسب الشيخ سيدي المختار الكنتي للشيخ عبد القادر التزامها والذي في الغنية في فصول أوراد النهار لا يفهم منه ما قال به الشيخ سيدي المختار (٢)

قال الشيخ عبد القادر (فصل) وأما الورد الثاني : فصلاة الضحى ، وهي صلاة الأوابين وهل يستحب المداومة عليها أم لا ؟ على وجهين عند أصحابنا) (٣) ثم ذكر بأسانيده بعض الآثار في فضلها يظهر أن بعض ما ذكره من الموضوعات التي لا يحل ذكرها إلا على سبيل القدح فيها للعالم بحالها . (٤) ثم أن الشيخ عبد القادر ذكر اختلاف العلماء فيها قريبا مما ذكره النووي بعده على ما تقدم عنه وقريب أيضا منه ما ذكره تلميذه ابن قدامة في المعني فقال : (منها صلاة الضحى وهي مستحبة وقال

---

(١) نفسه جـ ٥ ص ٢٣٠ .

(٢) الغنية جـ ٢ ص ٩٥ وما بعدها .

(٣) نفسه جـ ٢ ص ٩٥ .

(٤) الموضوعات لابن الجوزي جـ ٢ ص ١١١ . ١١٢ وسلسة الاحاديث الضعيفة والموضوعة جـ ١ ص ٣٨٨ رقم ص ٣٩٣ و ٣٩٤ .

بعض أصحابنا لا تستحب المداومة عليها لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يداوم عليها ٠٠ وقال أبو الخطاب : تستحب المداومة عليها لأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بها أصحابه (١) يعني صلاة الضحى والمداومة عليها ٠

قال الشيخ عبد القادر قال النخعي رحمه الله : (كانوا يكرهون أن يديموا صلاة الضحى فيصلون ويدعون لئلا تكون كالمكتوبة) (٢) وقال الشيخ عبد القادر في توجيه عدم استحباب المداومة عليها : (وإنما أرادوا بذلك أن لا تشبه بصلاة الفروض فيعتقد الناس وجوبها وليس كل الناس سواء في نشاط العبادة ، فطلبوا الخفة عنهم وتسهيل الطاعة عليهم ٠٠) (٣)

وعلى هذا فإن نسبة هذا الورد على سبيل الألتزام والإلزام للآخرين بالعهود والمواثيق للشيخ عبد القادر غير صواب حسبما في نصوصه في الغنية ويقال بأن الرواتب التي واظب النبي صلى الله عليه وسلم عليها لم تكن واجبة على أحد من الناس وإن كانت المداومة عليها مستحبة ومتأكدة لما فيها من الأجر الجزيل من الشارع الحكيم والتزام النبي صلى الله عليه وسلم لها أمام الناس بخلاف صلاة الضحى فإنه حصل في مشروعيتها خلاف ولو حصل الاتفاق على أصل مشروعيتها فتكون داخلة في التطوع المشروع لا في الرواتب الملتزمة ولا في الفرائض المفروضة ومن هنا قال شيخ الإسلام ابن تيميه : (ومن هذا الباب . يعني التطوع المشروع . (صلاة الضحى) فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يدوام عليها باتفاق أهل العلم بسنته، ومن زعم من الفقهاء أن ركعتي الضحى كانتا واجبتين عليه ، فقد غلط ٠ والحديث الذي يذكرونه (ثلاث هن علي فريضة ، ولكم تطوع : الوتر ، والفجر، وركعتا الضحى) حديث موضوع (٤) بل ثبت في حديث صحيح لا معارض له أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي وقت الضحى لسبب عارض (٥) لا لأجل الوقت : مثل أن ينام من الليل ٠٠٠) (٦) ويظهر أن ابن القيم يستخلص من الأدلة ما ينصر هذا القول

---

(١) المغني جـ ٢ ص ١٣١ ص ١٣٢ ٠

(٢) الغنية جـ ٢ ص ٩٥ ٠

(٣) نفسه جـ ٢ ص ٩٧ ٠

(٤) انظر : الفتاوى جـ ٢٢ ص ٢٨٣ . تقدم أنه ضعيف لأن في سنده جابر الجعفي وهو ضعيف ، وابن حنان الكلي - أنظر : المغني في الضعفاء جـ١ ص١٩٢

(٥) صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٠

(٦) مجموع الفتاوي جـ ٢٢ ص ٢٨٣ ٠

فمما قال : (وذهبت طائفة رابعة إلى أنها تفعل لسبب من الأسباب ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما فعلها بسبب ، قالوا : وصلاته صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ثمان ركعات ضحى ، إنما كانت من أجل الفتح) إلى أن قال وقالوا : (وفعل الصحابة رضي الله عنهم يدل على هذا ، فإن ابن عباس كان يصليها يوما ، ويدعها عشرة ، وكان ابن عمر لا يصليها ، فإذا أتى مسجد قباء ، صلاها ، وكان يأتيه كل سبت)

إلى أن قال ابن القيم : (ومن تأمل الأحاديث المرفوعة وآثار الصحابة ، وجدها لا تدل إلا على هذا القول ، وأما أحاديث الترغيب فيها ، والوصية بها ، فالصحيح منها كحديث أبي هريرة وأبي ذر لا يدل على أنها سنة راتبة لكل أحد وإنما أوصى أبا هريرة بذلك ، لأنه قد روي أن أبا هريرة كان يختار درس الحديث بالليل على الصلاة ، فأمره بالضحى بدلا من قيام الليل ، ولهذا أمره ألا ينام حتى يوتر ، ولم يأمر بذلك أبا بكر وعمر وسائر الصحابة • وعامة أحاديث الباب في أسانيدها مقال ، وبعضها موضوع لا يحل الاحتجاج به ••) (١) •

قلت : وعلى هذا فلا يسلم وضع الغزالي لها في الرواتب من نظر ولا يسلم قوله عنها : (صلاة الضحى : فالمواظبة عليها من عزائم الأفعال وفواضلها) (٢) ما دام لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه واظب عليها وكان وصيته بها لبعض أصحابه لعلة كما تقدم •

ثم إنه لم يثبت في الصحاح شيىء عن المقروء فيها ولكن قال الشيخ عبد القادر (فصل) والذي يقرأ فيها ، فما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (صلاة الضحى بسورة والشمس وضحاها والضحى) (٣)

وقال الإمام الشوكاني : (وأخرج البهيقي في الشعب عن عقبة بن عامر قال : (أمرنا رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم أن نصلي ركعتيي الضحى بسورتيهما بالشمس

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد جـ ١ ص ٣٤١ . ٣٦٠ و ٢٥٤ و ٢٥٦ و ٢٥٧ •
(٢) إحياء علوم الدين جـ ٢ ص ٩٦ •
(٣) الغنية جـ ٢ ص ٩٦ •

وضحاها والضحى) (١) وتتبعت مرويات عقبة بن عامر في الشعب فلم نعثرله على هذا الحديث وإنما وجدت له الأمر المتكرر بقراءة المعوذتين والاستعاذة بهما(٢) وقد تقدم نقل الشيخ سيدي المختار الكنتي لهذا الحديث عن الحاكم ولم يذكر لنا من أي كتاب له نقل هذا الحديث وللحاكم كتاب أفرده للضحى سماه ابن حجر : المفرد في صلاة الضحى وقال ابن القيم بعد أن نقل عنه حديثا من رواية يعلى بن شداد في الحث على المحافظة على الضحى ، قال : (فياعجبا للحاكم كيف يحتج بهذا وأمثاله ، فإنه يروي هذا الحديث في كتاب أفرده للضحي ، وهذه نسخة موضوعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى نسخة يعلى بن الأشدق ...) (٣) والرواية المشار إليها ذكرها الساعاتي في الفتح الرباني قال : (لطيفة) (قال الحافظ روى الحاكم من طريق أبي الخير عن عقبة بن عامر قال (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نصلي الضحى بسور ، منها والشمس وضاحها والضحى ، قال الحافظ ومناسبة ذلك ظاهرة جداً) (٤) وهذا هو النص الذي نقله الشيخ سيدي المختار الكنتي كما تقدم . ولم يحكم الحافظ ابن حجر على الحديث بشييء وتدل عبارته الأخيرة على قبول له .

أما الدعاء المذكور في سجود الركعتين وبعد السلام منهما فإنه لا يوجد في الغنية عند ذكر الشيخ عبد القارد لصلاة الضحى على ما ذكر فيها مما تقدم .

وهم أيضا لم يرفعوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولا لأحد من أهل العلم والأثر . فيبقي النظر في مضمونه وهل يعد من الأدعية الجامعة المرغب فيها ؟ والذي يظهر من الفاظه والهيئة المطلوبة فيه من رفع الأيدي أن ذلك كله مشروع وإن كان الدعاء بالمأثور والوارد في الكتاب والسنة وعن الصحابة أولى منه وأكثر بركة وأجمع لخيري الدنيا والآخرة مما تضمنه هذا الدعاء .

---

(١) فتح القدير جـ ٥ ص ٤٤٧ .

(٢) شعب الايمان جـ ٢ ص ٥١١ . ٥١٣ .

(٣) زاد المعاد جـ ١ ص ٣٥٨ .

(٤) الفتح الرباني جـ ٥ ص ٤٠ . وفتح الباري جـ ٣ ص ٥٤ .

ولكن ما دام الدعاء في الصلاة وبعدها مرخصا فيه وعبادة عظيمة ما لم يدع الداعي بإثم أو قطعية فإنه دعاء مشروع ويؤيده ما جاء في الصحيحين في التشهد الأخير في الصلاة قال البخاري : باب مايتخير من الدعاء بعد التشهد ، وليس بواجب . وفيه : (ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو) (١) وفي مسلم في باب التشهد (ثم يتخير من المسألة ما شاء) (٢) قال النووي : (فيه استحباب الدعاء في آخر الصلاة قبل السلام وفيه أنه يجوز الدعاء بما شاء من أمور الآخرة والدنيا ما لم يكن اثما وهذا مذهبنا ومذهب الجمهور وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يجوز إلا بالدعوات الواردة في القرآن والسنة) (٣)

قال الحافظ بن حجربعد أن ذكر مذاهب العلماء في جواز الدعاء بما ليس في القرآن والسنة ومخالفة الإمام أبي حنيفة ومن معه في ذلك قال : (ولكن ظاهر حديث الباب يرد عليهم ، وكذا يرد على قول ابن سيرين : لايدعو في الصلاة إلا بأمر الآخرة . ثم قال الحافظ : وقد ورد فيما يقال بعد التشهد أخبار من أحسنها ما رواه سعيد بن منصور وأبو بكر ابن أبي شيبة من طريق عمير بن سعد قال : (كان عبد الله . يعني ابن مسعود . يعلمنا التشهد في الصلاة ثم يقول : إذا فرغ أحدكم من التشهد فليقل : اللهم إني أسألك من الخير كله ما علمت منه وما لم أعلم ٠ اللهم إني أسألك من خير ما سألك منه عبادك الصالحون ، وأعوذ بك من شرما استعاذك منه عبادك الصالحون ٠ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) قال ويقول : لم يدع نبي ولا صالح بشيىء إلا دخل في هذا الدعاء ٠ وهذا من المأثور غير مرفوع ، وليس هو مما ورد في القرآن) (٤) ٠ فالدعاء في الفريضة والنافلة ثابت سواء كان في أثنائها أو بعد الإتيان بالأذكار الورادة بعدها (٥) .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأذان الباب المذكور ، الحديث رقم : (٨٣٥) ٠

(٢) مسلم كتاب الصلاة باب التشهد في الصلاة مع النووي ٠

(٣) النووي جـ ٤ ص ١١٧ ٠

(٤) فتح الباري جـ ٢ ص ٣٢١ . ٣٢٢ ٠

(٥) زاد المعاد جـ ١ ص ١٦١ . ١٦٤ . و ٢٩٥ . ٣٠٥ ٠

ركعتا التهجد :

قال الشيخ سيدي المختار الكنتي : (وأما الأصل في صلاة التهجد والقراءة فيها بالكهف والدخان فقد ورد في الكتاب والسنة · أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ فأمره عليه الصلاة والسلام أمرنا . كذا . لأنه خص بوجوبه عليه دوننا إلا من نذره منا وأخذ عليه العهد بالقيام كما في أوراد المشايخ لأنها عقود وعهود ·

وأما السنة فمنها ما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من قرأ الكهف كما أنزلت كانت له نورا يوم القيامة من مقامه إلى مكة (١) ومن قرأها في التهجد حاضرا معها بقلبه كان له بكل حرف منها مائة حسنة ورفعت له بكل حرف منها درجة وحطت عنه مائة سيئة ولا يصيبه ليلته بلاء ومن قرأ في الثانية من تهجده بسورة الدخان حبب الله إليه لقاءه وخفف عليه سكرات الموت وكتب له أجر شهيد رواه الترمذي واللفظ له) (٢) ثم ذكر من الآثار والأحاديث الواردة في فضل هاتين السورتين ما رواه الحاكم والنسائي وأبو داود والاصبهاني والطبراني ثم قال : (ولهذا الفضل الجليل الوارد في الصحاح اقتصر الجيلي رضي الله عنه وعن جميع مشايخنا على التهجد بها لأنه قد ورد عن المنذري أن من صلى بهاتين السورتين ركعتين في جوف الليل كانتا خيرا له وأفضل من قيام الليل بغيرهما رواه باسناد يرفعه إلى أنس بن مالك كما في مسند أحمد وغيره من الصحاح) (٣) والذي في نص الورد (وتصلي في جوف الليل ركعتين يقال لهما التهجد تنوي بهما التقرب إلى الله تعالى وإحياء القلب من موت الجهل والغفلة ، الأولى منهما بأم القرآن وسورة الكهف ، والثانية منهما بأم القرآن وحم الدخان أو سورة يايس وسورة الملك أو سورة الكافرون وقل هو الله أحد بقدر الحفظ وسعة الوقت · وتقول في سجودهما : اللهم أرحم ذلي وضراعتي إليك وأنس وحشتي بين يديك وارحمني

---

(١) الكوكب الوقاد ص ٨٦ . ٨٧ إلى هنا رواية الحاكم في المستدرك جـ ١ ص ٥٦٤ فضائل القرآن قال وفيه من رفعه وفيه من أوقفه على الثوري عن أبي هاشم ·

(٢) نفسه ص ٨٧ . ٨٨ ·

(٣) سيأتي نص الحديث قريبا إن شاء الله تعالى ·

برحمتك يا كريم ، وتسلم ثم تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم مائة ثم تقرأه سيف الحكماء ثم تقول رافعا يديك فاتحا : اللهم إني أسألك إيمانا دائما ويقينا صادقا وقلباً خاشعاً ولساناً ذاكراً وعلماً نافعاً وجوارح طائعة وعملاً صالحا متقبلا بإحسانك وإفضالك يا محسن يا مفضل . كذا) (١) ٠ هذا هو نص هذا الورد وما يلحق به من الوظائف ، ويمكن أن يدرس على النحو الآتي :

أولا : نسبته للشيخ عبد القادر ٠

ثانيا : الأحاديث والآثار المستشهد بها على فضيلة الاقتصار في صلاة هاتين الركعتين على السورتين المذكورتين سورة الكهف والدخان ٠

ثالثا : الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة ٠

رابعا : قراءة سيف الحكماء ٠

* **أولا** : أما نسبة هذا الورد على هذه الصفة للشيخ عبد القادر فتحتاج إلى تأمل أكثر فأني تتعبت كلامه في الغنية عن أوراد الليل وخاصة الصلاة بعد العشاء الآخرة فلم نجد فيه ما هو مطابق لنص هذا الورد ووظيفته ، ويظهر من كلامه أن قيام الليل موسع فيه من شاء صلى ركعيتن ومن شاء زاد ومن شاء أوتر من أول الليل ومن علم من نفسه أنه يستيقظ آخر الليل كان التأخير أولى له : (ومن أوتر أول الليل ثم قام إلى التهجد فهل يفسخ وتره أم يصلي ما يشاء من غير أن يفسخه على روايتين عن أحمد رحمه الله : أحدهما لا يفسخه ٠٠) وذكر ما يدعى به في الوتر بعد الرفع من الركوع وهو دعاء القنوت المعروف إلا أنه ذكر برواياته وأسانيده آثارا تحتاج إلى تخريج منها قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتان يصليهما العبد في جوف الليل خير من الدنيا وما فيها ، ولو لا أن أشق على أمتي لفرضتهما عليهم) (٢) ثم قال : (كل ذلك ليسهل على أمته قيام الليل والعبادة ، ولا يثقل عليهم ، ويبغض العبادة إليهم فيسأموا ، بل أرشدهم صلى الله عليه وسلم لقيام الليل وذكر فضله وثوابه لئلا يقتصروا على الفرائض والسنن خاصة) (٣)

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١٧٣ . ١٧٤ ٠

(٢) الغنيه ج ٢ ص ٨٦ ٠

(٣) نفسه ج ٢ ص ٨٨ ٠ لم نعثر عليه بعد بحث .

ثانيا : الاحاديث والآثار المستشهد بها على فضيلة الاقتصار في صلاة هاتين الركعتين على السورتين المذكورتين الكهف والدخان .

ورد في هاتين السورتين وقراءتهما ليلة الجمعة ويومها أحاديث وآثار جمعها الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب ويظهر أن الشيخ سيدي المختار الكنتي نقل عنه ما نقل من فضائل هاتين السورتين (١) إلا أنه نسب إليه أنه رفع بسنده إلى أنس بن مالك أن من صلى بهاتين السورتين ركعتين في جوف الليل كانتا خيراً له وأفضل من قيام الليل بغيرهما) (٢) وهذه الرواية لم نقف عليها بعد بحث وتتبع في الترغيب والترهيب (٣) ولا في مسند الإمام أحمد (٤) والذي ورد في مسندا الإمام أحمد أنه صلى الله عليه وسلم كان يوتر بتسع سور من المفصل وأنه كان يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى وقل يايها الكافرون وقل هو الله أحد (٥) .

وأقرب شيء لما ذكره الشيخ سيدي المختار الكنتي عن المنذري عن أنس ما خرجه في الترغيب قال : (وروي عن أنس رضي الله عنه يرفعه قال : صلاة في مسجدي تعدل بعشرة آلاف صلاة ، وصلاة في المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة ، والصلاة بأرض الرباط بألفي ألف صلاة ، وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد في جوف الليل لا يريد بهما إلا ما عند الله عز وجل . رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب) (٦) وهذا الحديث وإن كان لا دليل فيه لأنه لم تذكر فيه قراءة بسورة معينة فقد خرجه الألباني بغير هذا الترتيب وبدون ذكر للركعتين في السلسلة الضعيفة وحكم عليه بالوضع (٧) والذي في الصحيح من فضل سورة الكهف كما في مسلم عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال . وفي رواية من آخر الكهف) (٨) . والذي في المسند تنزل السكينة والملائكة عند قراءة القرآن عن البراء ابن عازب رضي

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٤٢٢ . ٤٣٣ الترغيب في قيام الليل . والترغيب في قراءة سورة الكهف وما يذكر معها ليلة الجمعة ويوم الجمعة . ص ٥١٢ . ٥١٤ والترغيب في قراءة سورة الكهف أو عشر من أولها أو عشر من آخرها جـ ٢ ص ٣٧٥ . ٣٧٦ .
(٢) الكوكب الوقاد ص ٨٨ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٥١٢ . ٥١٤ .
(٤) مسند الإمام أحمد . مع الفتح الرباني جـ ١٨ ص ٢٠ . ٢١ و ٢٦٧ . ٢٦٩ .
(٥) مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ٣٠٤ وما بعدها .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٤٣٠ .
(٧) سلسلة الاحاديث الضعيفة جـ ٢ ص ١٨٧ و ٤٨٣ .
(٨) صحيح مسلم فضائل القرآن مع باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي .

الله عنه قال : رضي الله عنه قال (قرأ رجل الكهف) (١) ومثل ذلك في جامع الترمذي وذكر في فضلهما حديثين كلاهما حسن صحيح عنده (٢) والرواية التي عزاها له الشيخ سيدي المختار (وقال رواه الترمذي واللفظ له) (٣) لم نجدها فيه بعد تتبع لا في التهجد (٤) ولا في فضائل القرآن ولا في التفسير (٥) .

وخرج البيهقي في شعب الايمان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق) وفي هذا قرب من رواية الشيخ سيدي المختار الكنتي المتقدمه . قال البيهقي : (هذا هو المحفوظ موقوف ، ورواه نعيم بن حماد عن هشيم فرفعه) وفي رواية أخرى عنه من (من قرأ سورة الكهف كما أنزلت كان له نوراً يوم القيامة) (٦) وخرج ابن القيم في الهدي قريبا منه وحكم شعيب الأرناؤط وزميله في التحقيق عليه بالصحة . (٧) وعن ابن سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (أن من قرأ سروة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين (الجمعتين) قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه) . وقال الذهبي : (فيه نعيم ذو مناكير) (٨)

وهذه الآثار والأحاديث وإن أفادت فضيلة قراءة سورة الكهف على العموم وقراءتها يوم الجمعة على الخصوص فإنها لا تفيد مشروعية التهجد بها دائما واتخاذها وردا يؤخذ على الناس به العهد ويلزمهم شرعا الوفاء به ويثابون من الله عليه ، على أن الرواية التي ذكرت في النص القادري والمبالغات الواردة فيه لم نجدها في الكتب المعتمدة ، من كتب السنة .

---

(١) المسند مع الفتح الرباني جـ ١٨ ص ٢٠ . ٢١ .
(٢) جامع الترمذي مع التحفة جـ ٨ ص ١٥٦ . ١٥٧ .
(٣) الكوكب الوقاد ص ٨٧ .
(٤) جامع الترمذي جـ ٢ ص ٤٢٢ . ٤٧٤ .
(٥) نفسه جـ ٨ ص ١٤٤ - ١٩٧ .
(٦) شعب الايمان جـ ٢ ص ٤٧٤ - ٤٧٥ .
(٧) زاد المعاد جـ ١ ص ٣٧٧ .
(٨) المستدرك جـ ٢ ص ٣٦٨ .

أما سورة الدخان فالذي ورد فيها عند الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك) قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه • وعمر بن خثعم يضعف • قال محمد هو منكر الحديث • وفي روايته الثانية : (من قرأ حم الدخان في ليلة الجمعة غفر له) قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه • وهشام أبو المقدام يضعف ، ولم يسمع الحسن من أبي هريرة هكذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد) (١) •

ولم نقف على لفظ فيه الصلاة بهاتين السورتين أو إحداهما في السنن المعروفة ولكن ورد في لفظ عند الطبراني والاصبهاني بذلك وهو : (من صلي بسورة الدخان فى ليلة بات يستغفر له سبعون ألف ملك) (٢)

وفي المستدرك للحاكم في صلاة حفظ القرآن وما يدعى به فيها :

(وفي الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب وحم الدخان ••) وقال في آخره (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه) قال الذهبي : (هذا حديث منكر شاذ أخاف أن يكون موضوعا) (٣) وهذا الحديث وان كان ورد فيه ذكر للصلاة ليلة الجمعة وقراءة حم الدخان في إحدى الركعات فيها فإنه لا يصح وأورده العلماء في الموضوعات (٤) والحاكم الذي رواه روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام ولا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي) وهذا على شرطهما كما ذكره هو وسلمه له الذهبي (٥) وبهذا تبين أنه لا دليل لهم على هذا الورد الخاص إما لضعف ما استدلوا به ، واما لعدم دليل لهم فيما يصلح من الأدلة على ما استدلوا عليه ، وقد تقدم

---

(١) جامع الترمذى جـ ٨ ص ١٦٠وذكره ابن الجوزي أعني الأول في الموضوعات وقال : تفرد به عمر قال أحمد بن حنبل : عمر بن راشد لا يساوي شيئا ، قال ابن حبان : يضع الحديث لا يحل ذكره في الكتب إلا بالقدح فيه جـ ١ ص ٢٤٨

(٢) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٥١٣ يوثق من الطبراني •

(٣) المستدرك جـ ١ ص ٣١٦ . ٣١٧ •

(٤) تحفة الذاكرين للشوكاني المكتبة الثقافية . بيروت ص ١٣٦ . ١٣٧ •

(٥) المستدرك جـ ١ ص ٣١١ •

أن التخصيص بدون دليل ومخصص من الشارع باطل ومابني على باطل فهو باطل ٠ ويتضح بذلك أنه لا يجوز لأحد أن يشرع للناس عبادة خاصة في الوقت المذكور وبالسورتين المذكورتين ٠ وأما قيام الليل والحث عليه وما ورد فيه من الاجر والترغيب فأمر معروف في الكتاب والسنة وعمل النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته ومن تبعهم من الصالحين ، لكن بدون حدود أو تخصيص أو إلزام من أحد لأحد ، وفي حدود طاقة المرء المسلم ، فعن أبي أمامة الباهلي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة لكم إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم) وقال الحاكم وتبعه الذهبي أنه على شرط البخاري) (١)

ثالثا : مائة من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ٠

إن الشيخ سيدي المختار الكنتي يقول : (وأما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم التي أوردها المشايخ في هذا الورد المبارك فإنهم يعتمدون في ذلك على الكتاب والسنة وإجماع الأمة . ثم يورد بعض النصوص الواردة في فضلها وفوائدها في العاجل والآجل . ويقول : (ولهذا المعنى جعل المشايخ مائة من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم دبر كل صلاة ليجتمع من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في كل يومين ألف صلاة فيكون قد فدى نفسه من كل يومين من النار ٠٠) (٢)

وفي نص الورد كما تقدم أن المريد يصلي مائة مرة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد ركعتي التهجد قبل قراءة سيف الحكماء ٠٠) (٣)

وقد ذكر الشيخ سيدي المختار صلاة التسبيح وفيها : (فإذا سلمت فصل على محمد مائة مرة ٠٠) (٤)

---

(١) المستدرك جـ ١ ص ٣٠٨

(٢) الكوكب الوقاد جـ ٨٠ ص ٨٣ ٠

(٣) نفسه ١٧٤ ٠

(٤) فتح الودود ٦٩٠ ٠

وفي الكوكب الوقاد : (ومن الأدعية الواردة في متن هذا الورد الدعاء الذي يسمى عند السلف بسيف الحكماء ووقته بعد صلاة الصبح وصلاة المغرب وإن شاء قرأه في جوف الليل بعد التهجد وبعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مائة أو ألفا ٠٠) (١)

وفي المقاصد السنية للأوراد المأوية من الاختيارات المختارية ما نصه : (مقصد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلم تسليما ﴾ (٢) لبيك اللهم ربي وسعديك والخير بيديك عبدك الضعيف بين يديك متعرضا لنفحات فضلك معولا في إصلاح حاله إليك قائلا امتثالا لأمرك وأداء لحق رسولك ومحبة في مخاللة خليلك : اللهم صلى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم مائة مرة) (٣)

نقد هذه بعض نصوصهم في اتخاذ هذا الورد الذي هو مائة من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وهي تفيد ما يأتي :

١) اعتماد مائة من اللهم صلى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ٠

٢) تعليل ذلك بأن فاعله يعتق نفسه من النار كل يومين ٠

٣) التزام هذا العدد أو الزيادة عليه إلى الألف قبل دعاء سيف الحكماء الذي سيأتي إن شاء الله تعالى ٠

وقد بينا أن العبادات توقيفية لا يتجاوز بها ما ورد به الشرع الحنيف ولا مدخل للعقل والرأي في أعطاء عبادة ما ثواباً معيناً أو عدداً محدوداً أو وقتاً بذاته ومن فعل ذلك فقد رضي بتنزيل نفسه منزلة المشرع الذي يوحي أو يوحى إليه وادعاء ذلك كاف لاقصاء صاحبه من ولاية الرحمن إلى ولاية الشيطان فحري أن لا يقبل منه ويعمل بما شرع وأوجب على أتباعه ومريديه ٠

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١١٢ - ١١٣ ٠

(٢) الأحزاب (الآية ٥٦) ٠

(٣) المرجع المذكور ص ٧ ٠

ثم إني تتبعت روايات صلاة التسبيح وغيرها لعلي أجد عدداً مذكوراً عن النبي صلى اللـه عليـه وسلم يحسن الاقتصـار عليه في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم فلم نجده فيهـا حسب الروايـات التي وقفت عليهـا في مستدرك الحاكم (١) والترمذي (٢) وأبي داواد (٣) وابن ماجه (٤) ثم إن صلاة التسبيح لا يثبت بها شيىء لعدم ثبوتها من أصلها وإيراد العلماء لها في الموضوعات (٥) وقد أورد الشوكاني مجمل أقوال العلماء فيها في تحفة الذاكرين وقال : (ولا شك ولا ريب أن هذه الصلاة في صفتها وهيئتها نكارة شديدة مخالفة لما جرت عليه التعليمات النبوية ، والذوق يشهد ، والقلب يصدق) (٦) ولكن خرج البيهقي عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن أقربكم مني يوم القيامة في كل موطن أكثركم علي صلاة في الدنيا ، من صلى علي في يوم الجمعة وليلة الجمعة مائة مرة قضي الله له مائة حاجة سبعين من حوائج الآخرة وثلاثين من حوائج الدنيا ثم يوكل الله بذلك ملكا يدخله في قبري كما يدخل عليكم الهدايا يخبرني من صلى علي باسمه ونسبه إلى عشيرته (أو عشرة) فأثبته عندي في صحيفة بيضاء) وله عن علي رضي الله عنه قال : قال علي : (من صلى على النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة مائة مرة جاء يوم القيامة وعلى وجهه من النور نور يقول الناس أي شيىء كان يعمل هذا) (٧) ولم يتكلم البيهقي على هاتين الروايتين بشيىء حتى نعرف درجتهما ، ولكن يعرف أن البيهقي لم يلتزم الصحة فيما يخرج في شعب الإيمان ، وقد خرج عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أكثروا الصلاة علي يوم الجمعة وليلة الجمعة فمن صلى علي صلاة صلى الله عليه عشرا) (٨) وذكره ابن القيم في

---

(١) المستدرك جـ ١ ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٢) الترمذي جـ ٢ ص ٤٨٥ - ٤٩٥ .

(٣) سنن أبي دواد جـ ٢ ص ٦٧ - ٦٩ .

(٤) سنن ابن ماجة جـ ١ ص ٤١٩ - ٤٢٢ .

(٥) ابن الجوزى جـ ٢ ص ١٤٣ - ١٤٦ .

(٦) تحفة الذاكرين ص ١٤٢ .

(٧) شعب الإيمان جـ ٣ ص ١١١ - ١١٢ .

(٨) نفسه جـ ٣ ص ١١٠ .

الهدي في خصائص يوم الجمعة فقال :(الخاصة الثانية : استحباب كثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه وفي ليلته ، لقوله صلى الله عليه وسلم (أكثروا من الصلاة علي يوم الجمعة وليلة الجمعة) قال الارناؤطيان : وهو حسن) (١)

والذي في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه بدون قيد بيوم أو أعداد معينة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا) (٢) وإطلاق الحث والترغيب وبيان الفضل والثواب في الإكثار من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم هو الصحيح الغالب في الآحاديث والآثار (٣) قال القاضي عياض : (اعلم أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فرض على الجملة غير محدد بوقت لأمر الله تعالى بالصلاة عليه (٤) وحمل الائمة والعلماء له على الوجوب وأجمعوا عليه • وحكى ابو جعفر الطبري أن محمل الآية عنده على الندب وادعي فيه الاجماع (٥) ولعله فيما زاد على مره والواجب منه الذي يسقط به الجرح ومأثم ترك الفرض مره كالشهادة له بالنبوة وما عدا ذلك فمندوب مرغب فيه من سنن الإسلام وشعار أهله) (٦)

وقال : (قال القاضي أبو بكر بن بكير : افترض الله على خلقه أن يصلوا على نبيه صلى الله عليه وسلم . ويسلموا تسليما ولم يجعل ذلك لوقت معلوم فالواجب أن يكثر المرء منها ولا يغفل عنها) (٧)

والذي يتلخص من كلام أهل العلم بناء على ما ثبت في الكتاب الكريم والسنة المطهرة أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مأمور بها على الاطلاق ليتنافس في الإكثار منها من وفقه الله تعالى وأراد أن يكفيه أمر دنياه وأخراه (٨) ويتأكدا استحبابها في المواطن الآتية :

---

(١) زاد المعاد جـ ١ ص ٣٧٦ •
(٢) صحيح مسلم كتاب الصلاة باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد التشهد •
(٣) عمل اليوم والليلة ص ١٥٨ - ١٦٧ •
(٤) الشفاء جـ ٣ ص ٧٢٦ . ٧٢٧ •
(٥) انظر تفسير القرطبي جـ ١٤ ص ٢٣٢ . ٢٣٧ •
(٦) الشفاء جـ ٣ ص ٧٢٦ . ٧٢٧ •
(٧) الشفا جـ ٣ ص ٧٢٦ - ٧٢٧
(٨) شعب الايمان جـ ٢ ص ٢١٧ •

١) بعد التشهد الأخير وقبل الدعاء وفي وجوبها أو استحبابها في هذا الموطن خلاف بين أهل العلم (١)

٢) قبل الدعاء ووسطه وآخره وأن الدعاء معلق بين السماء والأرض حتى يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم • (٢)

٣) وعند ذكر اسمه الشريف صلى الله عليه وسلم فالبخيل من ذكر اسمه عنده فلم يصل عليه صلى الله عليه وسلم • (٣)

٤) الإكثار من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة وليلتها على ما تقدم في الأحاديث (٤)

أما أذكار الصلاة المحددة بعدها بعد د زائد على الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو من باب التشريع للناس والاستدراك على المشرع وكفى بمن اختار ذلك شاهدا على نفسه بعدم استقامة سلوكه (٥)

رابعا : سيف الحكماء وما اشتمل عليه : ونصه :

(يا الله ثلاثا ، يارب ثلاثا ، يارحمن ثلاثا ، يارحيم ثلاثا ، لا تكلني إلى نفسي في حفظ ما ملكتني مما أنت أملكه مني وامددني بدقائق اسمك الحفيظ الذي حفظت به جميع الموجودات واكسني بدرع كفايتك وكفالتك وقلدني بسيف نصرك وحمايتك وتوجني بتاج عزك وكرمك وردني برداء أمنك وركبني مركب النجاة في

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٤ ص ١٢٣ وما بعدها وفتح الباري جـ ٢ ص ٣٢٠ . ٣٢١ والشفا جـ ٣ ص ٧٢٩ وما بعدها •

(٢) سنن أبي داود جـ ٢ ص ١٦٢ والشفا جـ ٣ ص ٧٤٤ وما بعدها ومسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ٢٢ •

(٣) عمل اليوم والليلة ص ١٦٣ •

(٤) الحاكم المستدرك جـ ١ ص ٢٧٨ •

(٥) مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ٥٣ وما بعدها •

الحيــاة وبعد الممـات بحق (فجش) (بجس) وامـددني بدقائق اسمك القهار (القاهر) ما تدفع به عني (من) أرادني بسوء من جميع المؤذيات وتولني بولاية العز يخضع لها كل جبار عنيد وشيطان مريد يا عزيز يا جبار ثلاثا ٠ اللهم سخر لي جميع خلقك . (اللهم الق علي من زينتك ومن محبتك ومن نعوت ربوبيتك ما تبهر له القلوب وتذل له النفوس وتخضع له الرقاب) كما سخرت البحر لموسى عليه السلام ولين لي قلوبهم كما لينت الحديد لداود عليه السلام فإنهم لا ينطقون إلا بإذنك نواصيهم في قبضتك وقلوبهم في يدك تصرفهم (تقلبهم) حيث شئت يا مقلب القلوب يا علام الغيوب ثلاثا (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على الإيمان بك) أطفأت غضب الناس بلا إله إلا الله واستجلبت مودتهم بسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهم وقلن حشى لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) (١) ﴿ يأيها الذين أمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾ (٢) (والقيت عليك محبة مني) (٣) (يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله) (٤) ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ (٥) ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين ﴾ (٦) ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً (١١٠) وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له من الذل وكبره تكبير» ﴾ (٧) الله أكبر مما أخاف وأحذر ثلاثا) (٨)

---

(١) سورة يوسف الآية ٣١ ٠

(٢) سورة الأحزاب الآية ٦٩ ٠

(٣) سورة طه الآية ٣٩ ٠

(٤) سورة البقرة الآية ١٦٥ ٠

(٥) سورة آل عمران الآية ١٣٤ ٠

(٦) سورة الأنعام الآية ١٢٢ ٠

(٧) سورة الاسراء الآيتين ١١٠ . ١١١ ٠

(٨) الكوكب الوقاد ص ١٧٤ . ١٧٥ ونعت البدايات ص ٢٠٣ وقد فسر صاحب نعت البدايات ص ١٧٥ وما بعدها كلمة بجش ب : (بر جبار شكور) فكأنها اختصار لهذه الكلمات والاسمـاء الحسنة وفي فتح الباطني والظاهـري (فجش) (فـرد ٠ جبـار ٠ شكور) ص ١٢ ٠

نقد : هذا نص دعاء سيف الحكماء ، وقد تقدم أن وقته الذي يدعى به فيه مخير فيه فيدعى به بعد صلاة الصبح أو صلاة المغرب أو في جوف الليل بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة أو الفاً (١)

وهذا الدعاء لم ينسبوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم نعثر عليه في مظان الدعوات المروية عن السلف كما نسبه المختار الكنتي إلى السلف (٢) ورجعت كذلك إلى الدعوات التي ذكرها الشيخ عبد القادر في كتابه الغنية فلم نجد من أدعيته ما يوافق ما تضمنه هذا الدعاء (٣) ثم إن هذا الدعاء يدل عنوانه على أنه ليس من وضع السلف بالاصطلاح المعروف لما يأتي إن شاء اللـه تعالى : المراد بالحكماء وأنواعهم : (فالحكماء : هم الذين يكون قولهم وفعلهم موافق للسنة) (والحكماء الإشراقيون : وريسهم افلاطون) والحكماء المشاؤن : ورئيسهم أرسطو) (٤) فالحكماء على هذا لفظ مشترك ينصرف عند الاطلاق على الفلاسفة ومن سلك سبيلهم من المتكلمين والاطباء الاقدمين) (٥)

فالحكماء الإشراقيون منزلتهم في الفلسفة والحكمة هي منزلة علوم التصوف من العلوم الإسلامية فإن بنوا طريقتهم في الرياضة والمجاهدات والسلوك على ملة من الأنبياء كانوا من حكماء المتكلمين أو من الصوفية ، وإلا فهم مشاؤون (٦) فالمراد بالسلف هنا هم الفلاسفة والمرتاضون المشتغلون بعلوم أسرار الحروف والأسماء والكلمات الذين يطلبون المناسبات العددية والتراكيب اللفظية المعينة وأنماط الأسماء . (٧) وهو علم انتشر بين علماء القادرية وشيوخها ولهم فيه مؤلفات كثيرة تقدم ذكربعضها (٨) أما السلف الصالح فإنه لا يجوز أن ينسب إليهم هذا الدعاء بهذه الصفة المرتبة على هذه الهيئة لأمور عديدة منها :

١) أن السلف لا يعرفون بالحكماء وإن كانوا هم أحكم الناس لوضعهم الأمور في مواضعها ، وإنما يعرفون بالسلف الصالح أو الصحابة أو التابعين ، أو القرون

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١١٢ ـ ١١٣ .
(٢) الكوكب الوقاد ص ١١٢ و ١٢٧ .
(٣) الغنية جـ ٢ ص ٤٤ وما بعدها و ٨٦ وما بعدها .
(٤) كتاب التعريفات للجرجاني ص ٩٢ .
(٥) الملل والنحل ص ٣١٥ وما بعدها .
(٦) ابجد العلوم جـ ٢ ص ٤٨٨ .
(٧) مقدمة ابن خلدون ص ٩٣٦ .
(٨) الطرائف ص ٢٩٨ وما بعدها .

المفضلة ، أو على وجه الخصوص : العباد ، أو الزهاد منهم فإنما يعرفون بهذه الألقاب الشريفة .

٢) ثم إنهم رضي الله عنهم لا يعرفون هذه التعمقات والتكلفات الفلسفية والبحث في أسرار الكلمات أو الحروف وتناسبها على نمط معين ، وإنما يكتفون بالأدعية المأثورة والأدعية الواضحة المفهومة وإذا دعوا الله تعالى بأسمائه الحسنى فإنهم يكتفون بذكر الإسم الشريف المناسب للحاجة المدعو بها مثل : يارحمن ارحمني ، ويا رزاق ارزقني (١)

٣) وهذا الدعاء وإن وردت فيه بعض من الأسماء الحسنى وآجزاء من آيات قرآنية كريمة فإنه تضمن أمورا لا يليق بمسلم أن ينسبها للسلف الصالح رضوان الله عليهم . مثل :

أ) التسمية بسيف الحكماء وطلب إلقاء نعوت الربوبية التي هي حق خاص له تعالى على الداعي .

ب) سؤال الله تعالى أن يمنح الداعي دقائق اسمائه : الحفيظ ، القهار ..

جـ) اشتماله على اسماء أعجمية يحرم الدعاء بها ولو فسرت أو اختصار أسماءحسنى لها معاني متعددة في كلمة واحدة(فجش أو يجش) (فرد جبار شكور) هكذا فسرها بعضهم بها وقالوا :(إن ذلك من كتم الأسرار)

د) سؤال الله تعالى خصائص الأنبياء ومعجزاتهم وتسخير المخلوقات لهم .

و) الإتيان ببعض أجزاء من آيات القرآن الكريم طلبا لخاصية في الفاظها وتعمد بترها من الأول أو الآخر طلبا لتلك الخاصية : (أما الآية التي في آخر سيف الحكماء فإن من خواصها الحفظ من كل مكروه ولا سيما السراق والقطاع والمحاربون) (٢) ولما سئل الشيخ سيدي المختار عن السبب في الوقف على لظفـــة : (كذلك زين) قبل تمام الآية . قال (إن ذلك ليس بوقف وإنما جيء بها للمصاحبة مع مثلها من الفاظ المحبة القرآنية طلبا للخاصة الورادة عن السلف وليس ذلك بوقف وإنما هي الفاظ جمعت لخاصة فيها عن السلف فتبقى) (٣)

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي جـ ٢ ص ٨١٥ .

(٢) الكوكب الوقاد ص ١٦٢ .

(٣) الكوكب الوقاد ١٢٧ .

وبالإضافة إلى ما ذكر فإن هذا الدعاء يمكن أن يرد على واضعه بأنه ارتكب فيه أمرين عظيمين :

أحدهما : التعدي في الدعاء المنهي عنه شرعا بطلب المحال والمبالغة في الدعاء وطلب خصائص الربوبية ومنازل الانبياء وخصائصهم .

ثانيهما : ارتكاب اقتطاع أجزاء من الآيات القرآنية وتعمد عدم إتمام الآيات القرآنية طلبا للخاصة اللفظية .

أما الأمر الأول : فإن الله تعالى يقول لعباده المؤمنين : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ (١)

ويقول جل من قائل : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ (٢)

قال القرطبي في تفسير الآية الاولى (الثانية : قوله تعالى : ﴿ إنه لا يحب المعتدين) يريد في الدعاء وإن كان اللفظ عاما ، والمعتدي هو المجاوز للحد ومرتكب الحظر . وقد يتفاضل بحسب ما اعتدى فيه . وذكر آثارا ثم قال : (والاعتداء في الدعاء على وجوه : منها الجهر الكثير والصياح)

ومنها : أن يدعو الإنسان في أن يكون له منزلة نبي ، أو يدعو في محال ، ونحو هذا من الشطط . ومنها : أن يكون يدعو طالبا معصية وغير ذلك . ومنها : أن يدعو بما ليس في الكتاب والسنة ، فيتخير الفاظا مقعرة وكلمات مسجعة قد وجدها في كراريس لا أصل لها ولا ومعول عليها ، فيجعلهاشعاره ويترك ما دعا به رسوله عليه السلام . وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء) (٣)

وقال القاضي أبو بكر بن العربي في تفسير الآية الثانية : هذه آية عظيمة من الآي التي جمعت العقائد والأعمال . وذكر اسماء الله تعالى ودلائلها . ثم قال : (وأما قوله: (فادعوه بها) فهذا هو قسم العمل . والدعاء في اللغة والحقيقة هو الطلب ، أي

---

(١) سورة الاعراف (الآية ٥٥) .

(٢) سورة الاعراف (الآية ١٨٠) .

(٣) القرطبي جـ ٧ ص ٢٢٦ .

اطلبوا منه بأسمائه ، فيطلب بكل اسم ما يليق به . إلى أن قال : قوله : (وذروا الذين يلحدون في أسمائه) يقال : الحد ولحد : إذا مال والإلحاد يكون بوجهين : بالزيادة فيها ، والنقصان منها ، كما يفعله الجهال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الباري بغير أسمائه ، ويذكرونه بما لم يذكره من أفعاله إلى غير ذلك ، مما لا يليق به فحذار منها ، ولا يدعون أحد منكم إلا بما في الكتب الخمسة ، وهي كتاب البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وأبي داود والنسائي ، فهذه الكتب هي بدء الإسلام ، وقد دخل فيها ما في الموطإ الذي هو أصل التصانيف ، وذروا سواها ، ولا يقولن أحد : اختار دعاء كذا ، فإن الله قد اختار له وأرسل بذلك إلى الخلق رسله) (١) وخرج الإمام أحمد والحاكم وغيرهما تحت باب كراهة الاعتداء في الدعاء : عن أبي نعامة أن عبد الله بن المغفل رضي الله عنه سمع ابنه يقول : اللهم إني سألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها (وفي لفظ : اللهم إني أسألك الفردوس وكذا) فقال : يا بني سل الله تبارك وتعالى الجنة وعذ به من النار فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يكون قوم (وفي لفظ يكون في هذه الأمة قوم) يعتدون في الدعاء والطهور) (٢)

وفي لفظ للطبراني وأحمد عن مولى لسعد بن أبي وقاص أن ابنا لسعد كان يدعو فذكر الجنة ، فقال : (اللهم إني أسألك الجنة من نعيمها وأزواجها وثمارها وأكثر من نحو هذا ، وأعوذ بك من النار من سلاسلها وأغلالها وسعيرها ، هذا ونحوه وأكثر فسكت عنه سعد ، فلما فرغ من صلاته قال له سعد : لقد سألت الله عز وجل نعيما طويلا وتعوذت به من شر طويل .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء وبحسبك أو كفاك . شك شعبة . أن تقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل وقرأ : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ (٣)

---

(١) أحكام القرآن جـ ٢ ص ٨٠٢ و ٨١٥ . ٨١٦ .

(٢) المسند جـ ١٤ ص ٢٧٦ وهذا لفظه والحاكم المتسدرك جـ ١ ص ٥٤٠ وصححه وأقره الذهبي .

(٣) كتاب الدعاء للطبراني ، تحقيق الدكتور محمد سعيد بن محمد حسن البخاري ، دار البشائر الإسلامية . بيروت ط ١ ص ١٤٠٧ هـ المجلد الثاني ص ٨٠٩ . في مسند أحمد جـ ١٤ ص ٢٧٦ . ٢٧٧ .

قال الساعاتي في بيان الحديث الأول قال التوربشتي : (إنما أنكر عبد الله على ابنه هذا الدعاء لأنه طمع في ما لا يبلغه عملا حيث سأل منازل الأنبياء ، وجعله من الاعتداء في الدعاء لما فيه من التجاوز عن حد الأدب ونظر الداعي لنفسه بعين الكمال ... والاعتداء في كل شيىء هو تجاوز الحد فيه ، ويكون الاعتداء في الدعاء أيضا بطلب ما يستحيل شرعا ، وقد قال العلماء : إنه لا يجوز أن يدعو الإنسان بتحول الجبل الفلاني ذهبا أو يحي الله له الموتى ، وقيل الاعتداء في الدعاء أن يدعو بإثم أو قطيعة رحم وهو وجيه) (١)

وفي بيان الشيخ ابن تيمية لمعاني هذا الحديث عند كلامه على الاعتداء في الدعاء قال : (وأن الدعاء ليس كله جائزا ، بل فيه عدوان محرم ، والمشروع لا عدوان فيه ، وأن العدوان يكون تارة في كثرة الألفاظ وتارة في المعاني ..) (٢)

ولما سئل شيخ الإسلام عن رجل إذا صلى ذكر في جوفه : بسم الله) باينا (تبارك) حيطاننا ، (يس) سقفنا) وأن رجلا سمع هذا الدعاء فقال : (هذا كفر) . قال شيخ الإسلام في جوابه : (ليس هذا كفراً ..) إلى أن قال : (ولكن هذا الدعاء المسؤل عنه ليس بمأثور ، والمشروع للإنسان أن يدعو بالأدعية المأثورة ، فإن الدعاء من أفضل العبادات ، وقد نهانا الله عن الاعتداء فيه ، فينبغي لنا أن نتبع فيه ما شرع ، وسن كما أنه ينبغي لنا ذلك في غيره من العبادات ، والذي يعدل عن الدعاء المشووع إلي غيره . وان كان من أحزاب بعض المشايخ . الأحسن له أن لا يفوته الأكمل الأفضل ، وهي الأدعية النبوية ، فإنها أفضل ، واكمل باتفاق المسلمين من الأدعية التي ليست كذلك ، وإن قالها بعض الشيوخ فكيف يكون في عين الأدعية ما هو خطأ أو إثم أو غير ذلك . ومن أشد الناس عيبا من يتخذ حزبا ليس بمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وان كان حزبا لبعض المشايخ ، ويدع الأحزاب النبوية التي كان يقولها سيد بني آدم وإمام الخلق ، وحجة الله على عباده ، والله أعلم) (٣)

---

(١) الفتح الرباني جـ ١٤ ص ٢٧٦ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٢٢ ص ٤٧٤ . ٤٧٥ .

(٣) نفسه ص ٥٢٣ . ٥٢٥ .

أما الأمر الثاني : وهو ارتكاب اقتطاع أجزاء من الآيات القرآنية عمدا طلبا للخاصة اللفظية والمناسبات الحرفية فهو أمر مخالف للسنة للنصوص الآتية : (عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته يقرأ : الحمد لله رب العالمين • ثم يقف • الرحمن الرحيم • ثم يقف • وكان يقرأها : ملك يوم الدين) (١) هذا حديث غريب)

(وعن عبد الله بن أبي ملكية ، عن أم سلمة أنها ذكرت أو كلمة غيرها ، قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم (بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، ملك يوم الدين) يقطع قراءته آية آية) (٢)

هذا من المنقول من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل نفسه ومن المنقول عنه بأمره وتقريره ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قال : (قال لي النبي صلى الله عليه وسلم إقرا علي ، قلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : نعم ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت على هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شيهداً • (٣) قال : حسبك الآن فلتفت إليه ، فإذا عيناه تذرفان) (٤) وعن عبد الله بن مسعود أنه قال لمن أراد قراءة القرآن من القراء : (لا تهذوا القرآن هذ الشعر ولا تنثروه نثر الدقل وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب) (٥)

وفي صحيح البخاري أن أم المؤمنين عائشة رضي عنها أخرجت المصحف لمن سألها عن تأليف القرآن (فأملت عليه آي السور) (٦)

---

(١) جامع الترمذي جـ ٨ ص ١٩٨ •

(٢) سنن ابى داود جـ ٤ ص ٢٩٤ •

(٣) سورة النساء الآية ٤١ •

(٤) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب قول المقرىء للقارىء : حسبك • الحديث رقم (٥٠٥٠) •

(٥) شعب الايمان جـ ٢ ص ٣٦٠ •

(٦) صحيح البخاري . كتاب فضائل القرآن ، باب تأليف القرآن الحديث رقم (٤٩٩٣) •

قال البيهقي : وأحسن ما يحتج به في هذا الفصل أن يقال هذا التأليف لكتاب الله عز وجل مأخوذ من جمعه النبي صلى الله عليه وسلم ولعله أخذه من جبريل عليه السلام فالأولى بالقاريء أن يقرأه على التأليف المنقول المجتمع عليه . ثم نقل عن الحسن وابن سيريـن : (أنهما كانا يقرآن القرآن من أوله إلى آخره ويكرهان الأوراد • قال : وقال بن سيرين : تأليف الله خير من تأليفكم • قال أبو عبيد : وتأويل الأوراد أنهم كانوا أحدثوا أن يجعلون القرآن أجزاء كل جزء منها فيه سورة مختلفة من القرآن على غير التأليف ، ولكن جعلوا السورة الطويلة مع أخرى دونها من الطوال ثم كذلك حتى يختموا الجزء •••) (١)

هذا في النهي عن خلط سورة بسورة فكيف بقطع آية أو جزء منها وخلطه بآية من سورة أخرى بتنكيس ظاهر مخالف لتأليف المصحف الشريف عدة مرات قال البيقهي : (فصل في تقطيع آية آية في القرآن . وذكر بسنده حديث أم سلمة المتقدم من رواية أبي داود . ثم قال : (ومتابعة السنة أولى مما ذهب بعض أهل العلم بالقرآن من تتبع الأغراض والمقاصد والوقوف عند انتهائها) (٢) وهذا الذي ينبغي اتباعه والأخذ به لأنه هو السنة وصاحبه يسلم من الإخلال بنظم القرآن وآيه واتساق معانيه قال القرطبي قال ابو بكر الأنباوي : (فمن عمل على ترك الأثر والإعراض عن الاجماع ونظم السور على منازلها بمكة والمدينة ، لم يدرأين تقع الفاتحة ، لاختلاف الناس في موضع نزولها ، ويضطر إلى تأخير الآية التي في رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ، ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به ، ورد على محمد صلى الله عليه وسلم ما حكاه عن ربه) (٣)

وساق البيهقي بسنده إلى ابن أبي الهذيل قال : (إذا قرأ أحدكم الآية فلا يقطعها حتى يتمها) (٤)

---

(١) شعب الايمان فصل في ترك خلط سورة بسورة جـ ٢ ص ٤٣٠ . ٤٣٤ •

(٢) نفسه جـ ٢ ص ٥٢٠ . ٥٢١ •

(٣) القرطبي جـ ١ ص ٦٢ •

(٤) شعب الايمان جـ ٢ ص ٥٢١ •

قال ابن الطيب في مقدماته لشرح حزب الإمام النووي : (هل يصح قراءة آية من القرآن متفرقة ؟

ثم قال : (جرت عادة أهل الأحزاب بذكر آيات من القرآن متفرقة ، واستعمل ذلك كثيراً إمام الصنعة الصوفية أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه . في أحزابه ، وتابعوه على ذلك ، وارتكبه المصنف رحمه الله كغيره ، وقالوا : إن السر الأعظم في ذلك الترتيب الذي رتبوه ، ولا شك أنهم على بصيرة من ربهم ونية ، وأقوالهم وأحوالهم كلها تلقيات والهامات ، ويوافق آراءهم ما ورد عن بلال رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مربه وهو يقرأ آية من هذه السورة وآية من هذه فسأله عن ذلك عليه الصلاة والسلام ، فقال : أخلط الطيب بالطيب ، فقال له عليه الصلاة والسلام : (اقرأ السورة على وجهها) وفي بعضها ، قال له . (أحسنت) وعلى رواية أحسنت يصلح شاهدا في الجملة دون الرواية الأولى ، فإن فيها الأمر بالمحافظة على النظم الكريم .. إلى أن قال : وقد رأيــت أحاديث في الرقي والحفظ من الغوائل تقتضي جواز قراءة القرآن مفرقا ..) (١) .

تعقيب : أما أن عادتهم جرت بذلك وأنهم اتبعوا فيه إمام الصنعة فلا يثبت به شيء ولا يدل صنيعهم هذا على أنهم على بصيرة من ربهم لما تقدم من مخالفة ذلك الصنيع لنظم القـرآن والسنة الفعليـة والتقريريـة والقولية . وإجماع العلماء على أن ترتيب الآيات توقيفي وإجماع الصحابة على تأليف المصحف على ما هو عليه بين أيدي المسلمين (٢)

يضاف إلى هذا أن المريدين يحفظون هذه الأوراد والأحزاب غيبا وكثير منهم لا يعرف كيف يرد الآية إلى مكانها ، ولا يفهم من هذا الترتيب الذي جعلوا السر فيه حكماً شرعياً أو دعوة كاملة واضحة .

---

(١) شرح حزب الإمام النووي لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن الطيب الفاسي الشرقي ص ٣٧ . ٣٨ .

(٢) انظرفتح الباري جـ ٩ ص ٤٠ .

والأحاديث التي ذكرها أو أشار إليها في باب الرقي وأخذ منها جواز قراءة القرآن مفرقا لا يؤخذ منها جواز أخذ جزء من آية طلبا للفظ فيها دون إتمامها هذا مع أنها روايات ضعيفة واجتهادات معارضة بما تقدم من نصوص لا يجوز الاجتهاد معها .

وهذه هي الرويات المستند عليها : (فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن أبيه أبي ليلى ، قال كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه أعرابي فقال : إن لي أخا وجعا قال : ما وجع أخيك ؟ قال : به لمم ، قال : فذهب فجاء به فأجلسه بين يديه فسمعته عوذه بفاتحة الكتاب ، وأربع آيات من أول البقرة ، وآيتين من وسطها ، والهكم إله واحد وآية الكرسي وثلاث آيات من خاتمتها ، وآية من آل عمران أحسبه قال : (شهد الله أنه لا إله إلا هو) وآيه من الأعراف (إن ربكم الله الذي خلق) الآية ، وآية من المؤمنين (ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به) وآية من الجن (وأنه تعالى جدر بنا ما أتخذ صاحبة ولا ولدا) وعشر آيات من أول الصافات ، وثلاث آيات من آخر الحشر ، وقل هو الله أحد والمعوذتين ، فقام الأعرابي قدبرئي ليس به بأس) (١)

ويوضح هذه الرواية رواية الحاكم في المستدرك (فعن عبد الرحمن ين أبي ليلى حدثني أبي بن كعب رضي الله عنه قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابي فقال يا نبي الله إن لى أخا وبه وجع قال : وما وجعه . قال : به لمم . قال فأتني به فأتاه به فوضعه بين يديه فعوذه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بفاتحة الكتاب وأربع آيات من آخر سورة البقرة وهاتين : الآيتين والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم وآية الكرسي وآية من آل عمران (شهد الله أنه لا إله إلا هو) وآية من الأعراف (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض) وآخر سورة المؤمنين (فتعالى الله الملك الحق) وآية من سورة الجن (وأنه تعالى جدر بنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) وعشر آيات من أول الصافات ، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر وقل هو الله أحد والمعوذتين فقام الرجل كأنه لم يشك شيئا قط) قال الحاكم (قد احتج

---

(١) سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ٣٦٦ .

الشيخان رضي الله عنهما برواة هذا الحديث كلهم عن آخرهم غير أبي جناب الكلبي والحديث محفوظ صحيح ولم يخرجاه . قال الذهبي قلت : أبو جناب الكلبي ضعفه الدار قطني والحديث منكر) (١)

وهو في مسند الإمام أحمد من زوائد ابنه عبد الله قال شارحه (أورده الهيثمي وقال : (رواه عبد الله بن أحمد وفيه أبو جنات وهو ضعيف وثقه بن حبان وبقية رجاله رجال الصحيح) (٢) وهذا قريب مما قاله الحاكم ، ونقل الشوكاني سبب تضعيف أبي جناب وهو كثرة تدليسه) (٣) قال الذهبي (يحى بن حية ، أبو جناب الكلبي ، مشهور ، سمع الشعبي ونحوه ، قال أبو زرعة (صدوق مدلس) وقال النسائي والدار قطني : (ضعيف) وقال يحي بن سعيد القطان : (لا أستحل أن أروي عنه) (٤) . فهذا حال هذا الرجل الذي تدور عليه رواية هذا الحديث المستدل به على جواز قراءة القرآن مفرقا ، والحديث مع ضعفه ليس فيه ما يشهد بجواز جمع الفاظ من القرآن وأجزاء من آيات وقطعها دون النظر إلى معانيها في السياق القرآني طلبا لخاصة لفظية لا يشهد لها دليل من الشارع الحكيم .

وجاء في شعب الإيمان للإمام البيهقي : فصل في ترك خلط سورة بسورة : وأرد فيه حديثا براوية الحليمي رحمه الله قال :(وذلك لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بأبي بكر وهو يتخافت ومر بعمر وهو يجهر ومر ببلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة .. إلى أن قال : وقال لبلال : مررت بك وأنت تقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة قال: أخلط الطيب بالطيب قال: (اقرأ السورة على وجهها) (٥)

أما رواية مرور النبي صلى الله عليه وسلم على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وأمره لأبي بكر أن يرفع من صوته ولعمر أن يخفض شيئا فهي مخرجة في السنن (٦) قال أبو داود حدثنا أبو حصين بن يحيى الرازي ، حدثنا أسباط بن محمد ، عن

---

(١) المستدرك جـ ٤ ص ٤١٢ . ٤١٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد الفتح الرباني جـ ١٧ ص ١٨٣ . ١٨٤ .

(٣) تحفة الزاكرين ص ٢١١ . ٢١٢ .

(٤) المغني في الضعفاء جـ ٢ ص ٣٩٩ الرقم ٦٩٥٤ د ت ق .

(٥) شعب الإيمان جـ ٢ ص ٤٣٠ .

(٦) الترمذي باب ما جاء في قراءة الليل جـ ٢ ص ٤٣٣ وأبي داود جـ ٢ ص ٨٢ .

محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم بهذه القصة ، لم يذكر (فقال لأبي بكر أرفع من صوتك شيئا ، ولعمر اخفض شيئا) زاد : وقد سمعتك يا بلال وأنت تقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة ، قال : كلام طيب يجمع تعالى بعضه إلى بعض فقال النبي صلى الله عليه وسلم (كلكم قد أصاب) (١) .

وعنوان البيهقي يدل على ترجيحه لعدم جواز خلط سورة بسورة ولذا أورد روايات تدل على أن صاحب القصة عمار بن ياسر وفيها (وقيل : لعمار لم تأخذ من هذه السورة ومن هذه السورة قال : أتسمعني أخلط به ما ليس منه قال : لا قال فكل طيب . ونقل البيهقي بسنده عن أبي الأحوص عبد الله قال : (لا بأس أن يأخذ من هذه السورة ومن هذه السورة) (٢) ولكن لم نجد من جوز اتخاذ مثل هذا الورد والدعاء بالتمكن وقهر الخلق وتسخير المخلوقات والتصرف بدقائق أسماء الله الحسنى أو الدعوة بما هو داخل في معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، هذا مع أن الدعاء موسع فيه ومرغب فيه إذ هو العبادة (٣) ما لم يحصل فيه تعد بالتزام ما لم يلتزمه الأنبياء والسلف الصالح من الأدعية وترتيبها على الناس أو تضمينها ما لا يجوز من الدعاء بالإثم أو القطعية (٤) أو الدعاء بما لا يفهم معناه أو ما فيه إخلال بالآداب الشرعية من الإخلال بتعظيم القرآن الكريم وما يجب أن يراعى فيه من الدعاء بالأدعية المباركة التي ذكرها عن الأنبياء أو أمر الله تعالى أن يدعى بها أو كان النبي صلى الله عليه وسلم يواظب عليها (٥) وقد اشتغل الشيخ سيدي المختار بشرح ما اشتمل عليه هذا الدعاء وتوجيه المنقود فيه وكان معظم ما جلبه من الأدلة غير ظاهرالدلالة على مراده (٦) والله أعلم .

---

(١) مسند أبي داود باب صلاة الليل مثنى ج ٢ ص ٨٢ .
(٢) شعب الإيمان ج ٢ ص ٤٣١ . ٤٣٢ .
(٣) المستدرك للحاكم ج ١ ص ٤٩٠ . ٤٩١ .
(٤) عمل اليوم والليلة ص ١٦٧ و ١٨٦ و ٣٤٦ و ٤٨٠ .
(٥) شعب الإيمان ج ٢ ص ٣١٩ وما بعدها باب في تعظيم القرآن الكريم والقراء والقراءات بالمغرب ، سعيد أعراب ، دار الغرب الإسلامي . ط ١٤١٠ هـ ١٧٨ وما بعدها .
(٦) الكوكب الوقاد ص ١١٢ وما بعدها .

المبحث الثاني الورد القادري ووظائفه : عمدة الورد القادري في التلقين والاذكار

وفيه مطالب : عمدة الورد القادري في التلقين - وعمدتهم في الاذكار - ومكانة الورد عندهم

تقديم :

عرفنا في المقدمة أن التصوف حادث في الملة بعد قرنين أو ثلاثة ، وأنه لم يظهر وينتشر إلا في القرون اللاحقة بعد ذلك ، ثم رأينا أن الصوفية أقسام كثيرة وطرق عديدة ولكل قوم منهم مشرب في التعبد والأحزاب والأوراد والسلوك والاعتقاد وعلى ضوء ذلك أنشأ كل إمام في الطريقة لأتباعه أحزابا وأوراداً وأدعية وتحصنات .

وهذه الأوراد والأحزاب المحدثة وما يلحق بها لا يمكن الحكم عليها بالرد المطلق ولا بالقبول التام إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة والمأثور عن السلف الصالح إذ إن فيها ما يحتاج الحكم عليه إلى تفصيل ، هذا اذا سكتنا عن أصل أحداثها ولم نناقش كونها صارفة للناس عن المنصوص عليه في الكتاب والسنة من الأدعية والأذكار مع إجماع السلف وصالحي الخلف من أهل العلم بأن الاقتصار عليها يكفي من الأذكار (١) وخصوصا إذا أخذنا في الاعتبار أن هذا من العبادات والعبادات من الأمور المحظورة حتى يرد دليل يأمر بها أو يندب إليها والنبي صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث المخرج في السنن : (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار) (٢)

قال النووي (فمن العض على السنة الأخذ بها وعدم اتباع آراء أهل الاهواء

---

(١) المنة في اعتقاد أهل السنة . فصل جامع لأذكار ودعوات متنوعات يتنوع الأحوال والأزمان من مولد الإنسان إلى نقلته إلى حضرة ربه ص ١١٠ وما بعدها

(٢) سنن أبي داود جـ ٥ ص ١٣ . ١٥ والترمذي جـ ٧ ص ٣٦٦ وما بعدها ، وابن ماجه جـ ١ ص ٢٠ • وكل ضلالة في النار من زيادة النسائي ج٣ ص ١٨٨-١٨٩

والبدع) (١) ويقول ابن الصلاح لما سئل عن القدر الذي يصير به العبد من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات فقال : (إذا واظب على الذكر المأثور صباحا ومساء في الأوقات المختلفة فهو من الذاكرين الله كثيرا) (٢) ومع هذا فقد أحدث الناس أوراداً وأحزاباً وأدعوا لها الثواب العظيم ، وأن صاحبها لا يموت إلا على حسن الخاتمة إلى غير ذلك من الفوائد المرغبة . يقول ابن الطيب الفاسي : (المقدمة الثامنة : نشوء الأحزاب والأوراد : (هذه الأحزاب لم تكن في الصدر الأول ولا من بعدهم بقريب ، لكن جرت على أيدي المشايخ الصوفية وصالحي الأمة بحكم التصريف والنظر السديد ، أشتغالا للبطالين ، وإعانة للمريدين ، وتقوية للمحبين ، وحرمة للمنتسبين ، وترقية لهمم المتوجهين من العباد والزهاد ، وأهل الطاعة والسداد ، والجد في العبادة والاجتهاد ، وفتحا للباب حتى يدخله عوام المؤمنين) ثم ذكر أن من الشيوخ من اقتصر على جمع ما ورد به الشرع (وهو أسلم) . ومنهم من وضع من نفسه عن طريق التلقي والإلهام وتناوله من أصوله في اليقظة والمنام ، (وهو أكمل وأتم) .

(ومنهم من وقف فيه موقف المعارف والعلوم ، ولم يبال بمبهم ولا موهم) (٣) وقد قال بأن من شروط العمل بالأحزاب : (تقديم ما جاء عن صلى الله عليه وسلم لأنه الأهم والأوجب ..) (٤) . وعندي أن هذا متناف مع حكمه السابق حيث قال بأن جمع الأحاديث والأدعية والاقتصار عليها : (أسلم) وأن الذين وضعوا من عند أنفسهم على سبيل التلقي والإلهام حالهم :(أكمل وأتم) والأكمل والأتم كان الأولى به أن يقدم لأن ما حكم أنه أسلم لوروده عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو أيضا : الأكمل والأتم ولكن : (.. ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا) (٥) وعلى هذه المفاهيم الصوفية نهجت القادرية على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

---

(١) شرح متن الاربعين النووية ، تحقيق الشيخ عبد الله الانصاري ، مكتبة جدة ص ١١٥ .

(٢) الأذكار المنتجة من كلام سيد الأبرار ، للإمام النووي ، دار العربية - بيروت ص ١٠

(٣) شرح حزب النووي المقدمات ص ٢٦ . انظر هامشه : (للباطلين) في الهامش ، ولعل الصواب : (اشغالا للباطلين) هامش (١) المحقق .

(٤) نفسه ص ٣٤ .

(٥) سورة النساء الآية ٨٢ .

المطلب الأول : عمدة القادرية في التلقين :

تعتمد القادرية في تلقين الأذكار على أمور عديدة تقدم معظمها ومن أبرزها الادعاء والقول بوراثة الصوفية للنبي صلى الله عليه وسلم في تربية الأمة التربية الباطنية ، ويقدمون بين يدي ذلك الحديث الآتي : (عن يعلى بن شداد قال حدثني أبي شداد بن أوس وعبادة بن الصامت حاضر يصدقه قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هل فيكم غريب ؟ يعني أهل الكتاب ، فقلنا : لا يا رسول الله ، فأمر بغلق الباب وقال ارفعوا أيديكم وقولوا : لا إله إلا الله ، فرفعنا أيدينا ساعة ، ثم وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ثم قال الحمد لله الذي بعثني بهذه الكلمة وأمرني بها ووعدني عليها الجنة وأنك لا تخلف الميعاد ، ثم قال : أبشروا فإن الله عز وجل قد غفر لكم) (١) ورواه الحاكم في المستدرك إلا أنه قال (اللهم) بعد (الحمد لله) ثم قال : (حال إسماعيل بن عياش أحد أئمة أهل الشام وقد نسب إلى سوء الحفظ) (٢) قال الذهبي : (قلت : راشد ضعفه الدار قطني وغيره ووثقه دحيم) (٣) وقال (إسماعيل بن عباش أبو عتبة ، عالم أهل حمص ، صدوق في حديث أهل الشام ، مضطرب جدا في حديث أهل الحجاز . قال أحمد : (ما روى عن الشامين صحيح وما روى عن الحجازين فليس بصيحيح) وقال ابن حبان : (لا يحتج به) وضعفه النسائي (ووثقه ابن معين) (٤) قال (وراشد بن داود الصنعاني الدمشقي ، عن أبى أسماء الرحبى ، وثقه دحيم ، وضعفة الدار قطني) (٥) هذا هو الحديث المستدل به على تلقين هذه الكلمة الشريفة (لا إله إلا الله) ويوجد فيه من هو مختلف فيه إلا أن المنذري في الترغيب والترهيب قال (رواه أحمد بإسناد حسن) (٦) قال الشيخ سيدي محمد الكنتي بعد ذكره للرواية السابقة : وروى أيضا من وجه غريب عن علي رضي الله عنه وهو : (أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله دلنى على أقرب الطرق إلى الله ،

---

(١) مسند الإمام أحمد جـ ١٤ ص ٣١٣ . ٣١٤ .
(٢) المستدرك جـ ١ ص ٥٠١ .
(٣) نفسه جـ ١ ص ٥٠١ .
(٤) المغني في الضعفاء جـ ١ ص ١٣٩ رقم (٦٩٧ . عه (ي)) .
(٥) نفسه جـ ١ ص ٣٢٩ رقم (٢٠٦٦ س) .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٤١٥ .

وأسهلها على عباده وأفضلها عند الله تعالى فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا علي عليك بذكر الله في الخلوات فقال علي رضي الله عنه : هكذا فضيلة الذكر وكل الناس ذاكرون فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا علي لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول : الله الله . فقال علي وكيف يا رسول الله . فقال : أغمض عينيك واسمع مني ثلاث مرات ثم قل أنت ثلاث مرات وأنا أسمع ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا إله الا الله ثلاث مرات مغمضا عينيه رافعا صوته وعلي يسمع ثم قال علي رضي الله عنه : لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضا عينيه رافعا صوته والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع) (١) هذه الرواية بهذا اللفظ لم نجدها في مظانها وقد صدرها بقوله : (روي) بصيغة التمريض وحكم عليها بالغرابة .

وقد خرج الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله) (٢) وخرج روايات بهذا اللفظ وغيره وليس فيها شيىء لعلي رضي الله عنه . (٣)

وأما الذكر في الخلوات فقد خرج البيهقي فيه في باب محبة الله تعالى وإدامة ذكره قال : (ومنها الذكر في خلوة وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي رزين : يا أبا رزين إذا خلوت فأكثر ذكر الله) (٤)

وأما تغميض العينين في الرواية المذكورة فهو مقصود الصوفية في الغالب من ايراد هذه الروايات . وتغميض العينين ليس عبادة في حد ذاته وإن كان أقرب إلى تحصيل الخشوع قيل يستحب وقيل بالكراهة على كل حال ولم نقف على أثر يدعوا إليه أو يأمر به . (٥) والذي يؤخذ من الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يغمض عينيه في الصلاة وينهى عن رفع البصر في السماء والألتفات أو ما في معناه مما يخالف الخشوع في الصلاة (٦) .

---

(١) جنة المريد ص ٢٠٠ . ٢٠١ .
(٢) صحيح مسلم كتاب الايمان . ذهاب الإيمان آخرا الزمان .
(٣) المستدرك للحكام جـ ٤ ص ٤٩٤ . ٤٩٥ كتاب الفتن الملاحم .
(٤) شعب الإيمان جـ ١ ص ٤٠٥ .
(٥) زاد المعاد جـ ١ ص ٢٩٣ . ٢٩٤ .
(٦) مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ٩٠ و ٩٦ . ٧٩ . ١٠١ .

وعلى هذا فالمقصود من الاستدلال بهاتين الروايتين هو أن النبي صلى الله عليه وسلم لقن كلمة الشهادة لعلي رضي الله عنه على الهيئة المذكورة وأن عليا رضي عنه لقنها للحسن البصري أو الحسن بن علي رضي الله عن الجميع وعن هذه الطريقة والسند أخذت بها الصوفية وعلى هذا فهم مستنون بسنة النبي صلى الله عليه وسلم ويلقنون مريديهم على هذه الصفة .

وبما أننا عرفنا أن هذه الرواية لا يعتمد عليها في شيء لعدم ثبوتها على الهيئة المذكورة المتسدل لها بها ، وأنه تقدم لنا أن سلاسل الصوفية والقادرية ضمنها لا يصح منها شيء ولا يستقيم بالتالي الاستدلال بشيء من طرقها فإنه لم يبق إلا أن يقال بأن النبي صلى الله عليه وسلم وردت عنه الأحاديث الصحاح في الحث على كلمة الشهادة والإكثار منها والإكثار من أذكار أخرى غيرها وفضل الاجتماع على الذكر وتلاوة القرآن في المساجد وغيرها وأمر المار برياض الجنة . مجالس الذكر . أن يرتع كل ذلك عام لهذه الأمة ولا يخصص منه أحد وليس فيه مايدل على تخصيص هيئة أو فئة (١) وعلى هذا فإن التلقين للشهادة لا يكون واجبا على أحد بعينه إلا عند الدخول في الإسلام والخروج من الكفر وهذا لم يرد فيه نص عند القادرية يبين واجباته وهيئاته عندهم حتى يعرف إنه هو المراد عندهم بتلقينه الشهادتين حتى يدخل في دين الله أما من نشأ في الإسلام فإنما يطالب بالقيام بوظائف الدين من صلاة وذكر وصوم وزكاة وحج وغير ذلك من شرائع الإسلام فإذا قام بذلك حكم بإسلامه واستمراره على ذلك بعد بلوغه وتكليفه وإلا حكم بردته عن دينه الذي فطره الله عليه ونشأ عليه (٢) قال محمد بن ميارة (أما المؤمن بالاصالة فيجب أن يذكرها مرة في العمر ينوى في تلك المرة بذكرها الوجوب وإن ترك ذلك فهو عاص وإيمانه صحيح والله أعلم) (٣) ونطق المكلف بالشهادتين بنية أداء الواجب قالت به القادرية عند التلقين (٤) ولكن القائلين بوجوب النطق بها على الناشئ في الملة الإسلامية من العلماء لم يوجبو اعليه أن يكون نطقه بها مبايعة لأحد مبايعة توجب له عليه الطاعة والاتباع كما أرادت القادرية (٥).

---

(١) مسند الإمام أحمد جـ ١٤ ص ١٩٧ وما بعدها . وشعب الايمان جـ ٢ ص ٣٨٩ وما بعدها .

(٢) صحيح مسلم كتاب الايمان . النووي جـ ١ ص ١٤٤ وما بعدها ١٥٠ وميارة ٥٢ وما بعدها .

(٣) ميارة ص ٥٢ .

(٤) جنة المريد ص ٢٠١ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان جـ ١ ص ١٤٩ .

المطلب الثاني : عمدة القادرية في الاذكار

رأينا في المطلب السابق أن القادرية تعتمد في تلقين أورادها على الحديثين اللذين بينا حالهما وأنه لا يثبت بهما شيء من المدعى لعدم ثبوتهما وأن أصل وجوب النطق بالشهادتين والدعوه إليهما والإكثار من ذكرهما ثابت بنص الكتاب والسنة الصحيحة بدونهما ومع ذلك فإن القادرية زادت أوراداً أخرى على مجرد تلقين الشهادتين وأوجبت الأخذ بها والمحافظة عليها (١)

يقول الشيخ سيدي محمد بعد بيانه لمكانة السند في (علوم الحقائق والأذكار) وأن (السند عندهم هو العروة الوثقـى التي بها يستمسكون ..) يقول : (ومن ثم كانت إقامة الورد المأخوذ عندهم في وقته عند إمكانه لازمة لكل صادق فإذا عارضه عارض بشرية أو ما هو واجب من الأمور الشرعية لزم انفاذه بعد التمسك بما هو في جهده من غير إفراط مخل بواجب الوقت ثم يتعين تداركه بمثله لئلا يعتاد البطالة ولأن الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أوأراد شكورا (٢) والأوقات كلها لله فليس للاختصاص وجه إلاحيثما خصص الشارع (٣)

ويقول : (ومن ضرورة الصحبة كان أهل الصوفية يجوبون الفيافي والقفار : (طلبا للاجتماع بمرشد ناصح أو مرب صالح أو مرق بهمته نافح وإن لم يجتمع به إلاقدر ما يلقنه كلمة الشهادة بسندها ..) (٤) ثم أخذ يترجم لسلسة القادرية على ما تقدم بيانه في دراسة سلاسلهم ثم قال : (فهذه سلسلة سندنا في الأوراد ولنا أخرى تختص بالتلقين بالهيللة برسم البيعة على النحو المتواتر في بيعة الرضوان عن سيد الأكوان للصحابة الأعيان أضربنا عنها صفحا لضيق المقام عن خرطها في سلك هذا النظام وعسى إن ساعد القدر وساعفت المشيئة أن أفردها بمجموع يخصها أو مع غيرها) (٥) . ويظهر أنه ساعده القدر فذكرها في مجموع آخر هو جنة المريد ونصها :

(١) الكوكب الوقاد ص ٢٤ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٦٢ .
(٣) الطرائف ص ١١٢ . ١١٤ .
(٤) نفسه ص ١١٣ .
(٥) نفسه ص ١٥٩ .

أولا : ما يلقن للمبتدئن : (لا إله إلا الله تنفي الشقاق .
لا إله إلا الله تنفي النفاق .
لا إله إلا الله تخرق الطباق .
لا إله إلا الله تزيل ظلمة الليالي المحاق .
لا إله إلا الله السباق السباق .)

ثم يقول بعد ذلك : (لا إله إلا الله الكلمة الشما .
لا إله إلا الله النفحة العظمى .
لا إله إلا الله الشجرة التي أصلها ثابت .
في أرض القلوب وفرعها في سماء الغيوب .)

ثانيا : ما يلقن للمنتهين :(لا إله إلا الله الكلمة التي يزال بها الكرب عن كل مكروب
لا إله إلا الله الكلمة التي تزيل الحجاب عن كل محجبوب .
لا إله إلا الله الكلمة التي ينال ببركتها كل مرغوب .
لا إله إلا الله الكلمة التي من تحلى بها فهو عند الله محبوب

ثم يقول بعد ذلك : (لا معطي ولا مانع ولا ضار ولا نافع إلا الله . ثلاثا) .
(١) ويقول الشيخ سيدي المختار الكنتي : (لا إله إلا الله بداية السلوك ، واعلم أن لا إله إلا الله وسط السلوك وقل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون نهاية السلوك . فإذا ارتقى . يعني في السلوك . إلى درجة الشهادة اكتفى بقوله الله الله . إلى أن قال فصار عبداً محضا لرب محض قال الله تعالى (هو الله الذي لا إله إلا هو) (٢) ثم نقل بأن الشبلي (كأن لا يزيد على أن يقول الله فقيل له ألا تقول لا إله إلا الله فقال : أخشى أن أموت في وحشة الجمود) (٣) ونقل عن الجنيد من قوله (وما جن مجنون من العارفين إلا بتحسي خمرة الجلالة ..) (٤)

ويقول الشيخ سيدي محمد الكنتي : (فكان الشيخ رضي الله عنه لمهارته في باب التربية يأمر المبتدىء من أصحابــــه بالاختلاء بالكلمة الشريفة حتى يظهر له ما

---

(١) جنة المريد ص ٢٠١ . ٢٠٣ .
(٢) الكوكب الوقاد ص ٥٤ . من سورة الحشر الآية ٢٣ .
(٣) نفسه ص ٥٥ .
(٤) نفسه ص ٥٥ .

هو مختص بــه من الأسمـاء فيدرجه إليه حتى ينفتح عليه باب معرفة بحسب اللائق به) (١) قلت : وصاحب هذا النص هو الذي عاب على الاغظفية كما تقدم الاقتصار على كلمة التوحيد وسمى ذلك تجريدا وتمشدقا) (٢) وهو في نقده محق فيما بينه ولكن امتداحه لوالده بأمره لمريديه بالاقتصار على كلمة الشهادة وأن ذلك مهارة في التربية وذم غيره بالتسليك على نفس المنهج يلاحظ عليه ٠ ويفهم من كلام الشيخ محمد فاضل بن الحبيب صاحب الضياء أنه يرد على الشيخ سيدي محمدفي نقده للأغظفية في عدم جمعهم عند الذكر لطرفي الكلمة الشريفة فيقول بعد بيان لفضل الذكر بلا إله إلا الله (٣) (لم يفرض الله تعالى على الذاكر أن يقرن محمد رسول الله بلفظ لا إله إلا الله إلا مرة واحدة ليدخل بذلك في الإسلام وما عدا ذلك من المواطن فالذاكر مخير إن شاء قال في ذكره لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن شاء قال لا إله إلا الله محمد رسول وإن شاء اقتصر على لا إله إلا الله وإن شـــاء كـرر لا إله إلا الله مرارا ثم اتبعها بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم مـــرة) (٤) ثم أورد بعض الأذكار وقال : (فإن هذه كلها أذكار ولم يرد عن الله تعالى ولا عن رسوله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة ولا التابعين بل ولا عن أحد من علماء هذه الملة وجوب اقتران ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ببعض ولا وجوب اقتران بعضها ببعض) (٥) ٠ وهذا الكلام صواب من حيث القول بأنه لا يجب ذلك ولكن من حيث الأدب والكمال وطلب الأفضل فلا يخفى أن إضافة الشهادة للنبي صلى الله عليه وسلم علاوة على ما فيه من تجديد الايمان قائد إلى الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم وتلك عبادة عظيمة وأجرها كبير ، أما إذا صح ما قاله الشيخ سيدي محمد الكنتي عنهم من قولهم : (إنما تبلغ الغاية وينال الوصول بذكر الله وذكـر النبي حجاب عـن الغـاية) (٦) فمن قال منهم هـذا القول محجـوب عن

---

(١) جنة المريد ص ١٤٣ ٠

(٢) الغلاوية ص ١٩٢ و ١٩٤ ٠

(٣) الضياء ص ١٥٠ . ١٥٢ ٠

(٤) نفسه ص ١٥٢ ٠

(٥) نفسه ص ١٥٢ ٠

(٦) الغلاوية ص ١٩٢ ٠

الغاية سواء ذكر الله أو لم يذكره إن أراد بهذا القول تنقيص الجانب الشريف وإن أراد شيئا آخر فإنه أقل ما يقال فيه أنه سوء أدب ولا أظن مسلما يرتكب مثل هذا القول وهو في وعي وإيمان بالله ورسوله ٠ وهذا المستدل بأن الأذكار التي أوردها ليس فيها ما يوجب اقتران ذكر النبي والصلاة عليه صلى الله عليه وسلم بكلمة(لا إله إلا الله) عند الذكر بها لا من الكتاب ولا من السنة ولا قول عن التابيعن ولا علماء الملة . يورد بعد هذا القول والاستدلال مباشرة ما يأتي (فصل كان الشيخ حفظه الله ورعاه وأطال حياته فيما يحب ويرجو من مولاه كثيرا ما يذكر تلاميذه بلفظ الله الله وربما سمعته هو بنفسه الشريفة يذكر به مفردا تمسكا بقوله تعالى : ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ (١) وقوله تبارك وتعالى : ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا﴾ (٢) ثم ذكراجتهادات وآراء لبعض الصوفية في ترجيح الذكر بالاسم المفرد وقال : (فلهذا رجحت الطائفة لفظة ﴿ الله ﴾ وحدها أو ضميرها من غير تقييد ثم إن الله ما وصف بالكثرة شيئا إلا الذكر وما أمر بالكثرة من شييء إلا من الذكر قال تعالى : ﴿ والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ﴾ (٣) وقال ﴿اذكروا الله ذكرا كثيرا﴾ (٤) وما أتى الذكر إلا بالاسم (الله) فإنه معرى عن التقيد فقال :(اذكروا الله) وما قال بكذا ﴿و لذكر الله أكبر ﴾ (٥) ولم يقل بكذا وقال : ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ (٦) ولم يقل بكذا وقال ﴿ فاذكروا اسم الله عليها ٠٠ ﴾ (٧) ولم يقل بكـذا وقال ﴿ كلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ (٨) ولم يقل بكذا وقال صلى الله عليه وسلم (لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول الله الله) (٩) فما قيده بأمر زائد على هـذا اللفظ لأنــه ذكــر الخاصـــة من عبـاده الذيــن يحفظ بهـم عالم الدنيـــا ٠٠) (١٠)

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩١ ٠
(٢) المزمل الآية ٨ ٠
(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٥٠ ٠
(٤) سورة الأحزاب الآية ٤١ ٠
(٥) العنكبوت الآية ٤٥ ٠
(٦) البقرة الآية ٢٠٣ ٠
(٧) سورة الحج الآية ٣٦ ٠
(٨) الانعام الآية ١١٨ ٠
(٩) تقدم الحديث ٠
(١٠) الضياء ص ١٥٢ . ١٥٥ ٠

وقال : (فصل كان الشيخ حفظ الله ساحته وأطال الفسحة في حياته وأفاض علينا جزيل بركاته كثيرا ما يذكر مريدوه بحضرته بهو هو وكثيرا ما أسمعه أعز الله جنابه الكريم وأدام له العافية في أكمل عز وأتم نعيم يذكر بنفسه الشريفة ويقول : هو هو وذلك أن لفظ هو موضوعة لغائب حسا حاضر ذهنا لتقدم ذكره لفظا أو حضوره هو ذهنا ...) (١) ويقول : (فصل كان الشيخ حفظه الله ورعاه كثيرا ما يذكر مريدوه بأنت أنت، وربما سمعته أعزه الله وعمره في العافية يقول أنت أنت ..) (٢)

ويقول : (فصل كان الشيخ حفظه الله ورعاه وأطال حياته في عافية من مولاه كثيرا التأوه بمعنى أنه كثيرا ما يقول أه أه وهذا اللفظ إما اعتبار أو ذكر وقد قال تعالى في خليله إبراهيم على نبينا وعليه السلام﴿إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ (٣) قيل الأواه كثير التفكر وقيل كثير(التنهت) بالتفكر وقيل الرجاع إلى الله تعالى في الأمور .. وأما الذكر بها أي استعمالها ذكراً لله تعالى فليس لغير كمل المحققين أهل الأخذ عن الله تعالى ... فمن فاتحه الحق سبحانه يعلم هذه الإشارات المأخوذة بطريقة الكشف في ميدان المناسبة صح له أن يذكر الله تعالى بأي كلمة شاء وبأي حرف شاء .. وبالجملة فإن الذكر بلفظة أه سره مكنون وغيبه مصون وعلمه مخزون ..) (٤) . بمثل هذه الأقوال والاستدلال لها وعليها يقول الشيخ ماء العينيين أيضا (٥) .

نقد ما تضمنته هذه النصوص : هذه بعض النصوص الشاهدة على أن القادرية يعتمدون هذه الأذكار (الله الله هو هو أنت أنت أه أه) ورأينا تلمسهم أو تكلفهم لها أدلة من الكتاب والسنة بإيراد بعض الآيات التي ورد فيها اللفظ المذكور ولو لم يقصد به ذكر في ذلك المحل ، ويظهر أن اعتمادهم لها ومحاولة الاستدلال على مشروعية الذكر بها إنما نشأ من أعتمادهم لتراث الصوفية بدون تمحيص كما تقدم .

---

(١) الضياء ص ١٥٦ .

(٢) نفسه ص ١٥٨ .

(٣) التوبة الآية ١١٤ .

(٤) الضياء ص ١٥٩ ـ ١٦٢ . قلت : (التنهيت او النهيت) : صوت يخرج من الصدر شبيه بالزمير ، قال ابن الأثير : (نهت) فيه (أريت الشيطان ، فرأيته ينهت كما ينهت القرد) أي يصوت . النهاية في غريب الحديث والأثير . جـ ٥ ص ١٣٤ .

(٥) نعت البدايات ص ٥٣ ـ ٦٠ ـ ٦٣ ـ و ٧٤ ـ ٧٩ .

ذلك أن ما ذكروه فيها وفي جواز الذكربها إنما هو تكرار لما اشتهر عن ابن عربي ومن تبعه من تلاميذه من غلاة المتصوفة ومع أن بعضهم لا يقول بهذه الأذكاركالشيخ سيدي محمد الكنتي الذي صرح بأنه لا يقول بها ويرى أن من خصائص طريقتهم عدم الأخذ بها وإن كان بعض شيوخ السلسة لا يأباها كما يقول .

قال : (ومن خصائص طريقتنا هذه خلوها عما في غيرها من الطرق من الشطح والتماوت والتغاشي والرقص ورفع الصوت بأذكار المستغرقين كهو هو وياه ياه والله الله ونحو ذلك من الإنشادات والسماع ...) (١) ويؤكد هذه الخصائص في معرض نقده لبعض متصوفة زمانه الذين اشتهروا كما يقول بمثل استعمال هذه الأذكار وما يصاحبها (٢) وقد قدمنا في هذا المطلب عن الشيخ سيدي المختار ما يدل على تجويزه للذكر بلفظة الجلالة (الله الله) كما يفهم من نقله عن الشبلي أنه كان لا يزيد على قول : (الله الله) ما ذكره الشيخ سيدي محمد من أن بعض رجال السلسلة ومنهم الشبلي يأخذون بهذا الذكر والله أعلم .

وإليك نقد ما تضمنته هذه النصوص :

أولا : التلقين تقدم لنا بيان حال الحديث الذي استدل به القادرية على البيعة وتلقين الأذكار من حيث سنده ودلالته على المستدل به عليه واتضح أنه لا حجة فيه لهم ، وإن أخذ منه دليل على شيىء ما فإنما هو جواز الاجتماع على الذكر وتجديد الإيمان (٣) وهذا فيه من الأدلة الثابتة ما يغني عن الاستدلال عليه بهذا الاثر الضعيف .

ثم إنه قد تبين لنا بما تقدم من إيراد أدلة وجوب النطق بالشهادتين على الكافر والخلاف في وجوب ذلك على الناشيء في الإسلام ما يكفي عن اعادته هنا فيبقى أن الشيخ سيدي محمد الكنتي قال بأنه سيأتي بالتلقين المختص بالهيللة برسم

---

(١) الطرائف ص ١٥٩ .

(٢) الغلاوية ص ١٩٥ وما بعدها .

(٣) سند الإمام أحمد جـ ١٤ ص ٢١٣ . ٢١٤ .

البيعة على النحو المتواتر في بيعة الرضوان ثم جاء بهذه الصيغة المذكورة ونصوص بيعة الرضوان تقدمت في نقد مسالكهم في البيعة واعتقادهم فيها وقياسهم لشيوخهم على النبي صلى الله عليه وسلم ولمريديهم على الصحابة رضوان الله عليهم وليس في تلك النصوص بصيغها ما يشبه هذه الصيغة المذكورة (١) وكذلك ليس في نصوص بيعه العقبة الأولى والثانية ما يمكن أن يكون صاحب هذه الصيغة قصده إلا إن أراد الاقتصار على مجرد الشهادة بالتوحيد (لا إله إلا الله) والذي كان في بيعة العقبة أكثر من ذلك وما كان في بيعة الرضوان المبايعة على عدم الفرار أو الموت على ما تقدم إيضاحه (٢) ثم إذا قارنا هذه الصيغة بما كان النبي صلى الله عليه وسلم يلقن الناس عند الدخول في الإسلام نجد أن هذه الصيغة تختلف عنه بأمرين ظاهرين :

أحدهما : الإقرار له صلى الله عليه وسلم بالرسالة .

ثانيهما : ما تضمنته هذه الصيغة من السجع المنهي عنه في الذكر والدعاء .

فأما الأول : وهو الشهادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة فقد تقدم نقد الشيخ سيدي محمد نفسه لقوم اقتصوروا في ذكرهم على كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) دون الشهادة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة وأحرى بالنقد من يقتصر عليها عند التلقين الذي يمكن أن يعتبر في مفهوم القادرية شاملا للكافر والمسلم عند دخول الأول في الإسلام والطريقة ودخول الثاني في الطريقة والبيعة للشيخ.

أما في حق الكافر فالأمر واضح فإنه لا إسلام بدون النطق بالشهادتين فعن معاذ رضي الله عنه قال : (بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ..) (٣) قال النووي في بيان هذه الرواية : (وفيه أن السنة أن الكفار يدعون إلى التوحيد قبل القتال وفيه أنــه لا يحكم بإسلامه إلا بالنطق بالشهادتين وهذا مذهب أهل السنه) (٤)

---

(١) انظر مباحث الفصل السابق مكانة الشيخ وآداب الطريق .

(٢) أنظر مبحث : واجب المريدين نحو الشيخ وذويه من الفصل السابق .

(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرايع الإسلام .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ١٩٧ .

ويقول الحافظ بن حجر بعد إيراده لألفاظ حديث معاذ رضي الله عنه (وقد بينت في آخر (كتاب الزكاة) (١) أن الأكثر رووه بلفظ : (فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ٠٠) (٢) وبمثل ما جمع به الحافظ بن حجر بين الروايات جمع به الامام النووي بينها في باب : الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لااله إلا الله محمد رسول الله ٠٠٠) (٣) وهذا هو الذي ينبغي أن ينسب للشيخ عبد القادر حيث يقول في الغنية : (باب نبدأ فنقول الذي يجب على من يريد الدخول في ديننا : أولا : أن يتلفظ بالشهادتين ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . ويتبرأ من كل دين غير دين الإسلام ٠٠) (٤) .

أما الثاني وهو السجع المتعمد فإنه مخالف لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من القصد إلى المطلوب والاقتصار على أقرب عبارة تبلغه ففي مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم لو فد عبد القيس عن ابن عباس رضي الله عنهما : (قال أمرهم بالإيمان بالله وحده وقال هل تدرون ما الايمان بالله ، قالوا الله ورسوله أعلم ٠ قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ٠٠) (٥) وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ليلة العقبة : (بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ٠٠) (٦) ٠ ولم نجد في الفاظ مبايعات النبي صلى الله عليه وسلم للناس شرحا لمدلول كلمة الشهادة وما تتضمنه من الفوائد أكثر من بيانه للفظ الشهادة أو بيان بعض اركان الإسلام التي تجب بالدخول في الإسلام إجمالا ، فالأولى لمن أراد أن يبلغ عن الله أن يستعمل الألفاظ الواردة عن الرسول صلى الله عليه وسلم الثابته في القرآن والسنة والاقتصار على تلك الألفاظ المباركة فيه خير كثير وخصوصا في أصول الدين وأركانه ، وأسلـم من الدخول في الاجتهادات التي تفضي بمرتكبها إلى أمور

---

(١) فتح الباري جـ ٣

(٢) فتح الباري جـ ١٣ ص ٣٥٤ . ٣٥٥ ٠

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ٢٠٠ . ٢٠٧ ٠

(٤) الغنية جـ ١ ص ٢ ٠

(٥) صحيح مسلم كتاب الايمان باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ٠

(٦) صحيح البخاري كتاب الايمان باب حدثنا أبو اليمان الحديث رقم : (١٨) ٠

أقلها أن يضيف عبارات من عنده أو يحذف بعض ما نطق الشارع به في حالة تبليغ مثل هذه العقيدة أو يأخذ إلى أنماط من أساليب التعبير والترغيب باستعمال الأناشيد أو السجع المتكلف . قال البخاري : باب ما يكره من السجع في الدعاء .

وروى عن عكرمـــة عن ابن عباس في إرشاده له في التحديث والوعظ : وفيه : (فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه ، فإني عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب) (١) وظاهر أن لا إله الله محمد رسول الله هي أفضل وجوه الذكر والدعاء (٢) ولذا يتأكد اجتناب الخلط في تبلغيها أو السجع المتلكف في أدائها ولو أن فاعله ضمنه بعض دلائل هذه الكلمة الشريفة فانه وضعه في قالب يشبه الأناشيد المسجعة ويحفظه للمريدين حيث إنه من أساسيات الورد (٣) وعندي أن ظاهرة تغني المغنين في البلاد بهذه الكلمة الشريفة ناشيء من أنشاد المريدين لها على هذه الصورة وما شاكلها من الوظائف التي يتضمنها الورد وهذا فيه من الجرءه على الله تعالى باتخاذ أفضل ذكره لهوا ولعبا وإدخاله في أثناء الغناء المحرم شرعا لما اشتمل عليه من مصاحبة المنكرات ووصف المحرمات ولعل أرباب التصوف هم المتسببون في التسيهل على عوام الناس وجهالهم بحقوق الله تعالى وما يليق بعظمته وجلاله في البلاد عموما بوضعهم مثل هذه المقطعات وإنشاد الأبيات المشتملة على ذكر الله تعالى ومدائح رسوله صلى الله عليه وسلم ومن حكم النهي عن السجع في الكلام أنه يؤثر في النفوس والطبائع وأنه من صنيع الكهان ، هذا مع مخالفته لروح الذكر وما يطلب فيه من الخشوع والخشية (٤) وهذه أمور ذكرها صاحب هذا النص المنقود واعتبرها من بدع صوفية الزمان وفاته أن له حظا من ذلك بمثل هذا (٥)

---

(١) صحيح البخاري كتاب الدعوات الباب المذكور ، الحديث رقم : (٦٣٣٧) .

(٢) عمل اليوم والليلة ص ٤٨٠ ومابعدها .

(٣) الكوكب الوقاد ص ١٧٦

(٤) فتح الباري جـ ١١ ص ١٣٩ .

(٥) الغلاوية ص ١٩٥ وما بعدها .

ثانيا : الذكر بالاسم المفرد: لفظة الجلالة (الله)

جاء في بعض النصوص المنقولة عن القادرية في تجويز الذكر بالاسم المفرد قولا وفعلا أن الله تعالى أمر بذكره بهذا اللفظ (الله) ولم يقيده بأمرزائد على هذا اللفظ لأنه ذكر الخاصة من عباده الذين يحفظ بهم عالم الدنيا ..) (١)

ففي هذا النص إجمال يحتاج إلى إيصاح ، فإن أراد صاحب النص أن الله أمر بذكره تعالى بهذا اللفظ فقط فهذا غير صحيح لما فيه من مصادمة نصوص الكتاب والسنة إذ إن الله تعالى يقول في محكم كتابه العزيز: ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ (٢) ويقول تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ (٣) وفي الصحيح : (إن للـه تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة) (٤) فما علمناه من أسمائه سبحانه وتعالى في الكتاب والسنة كنا مطالبين بذكره به ودعائه به جل وعلا ، وما لم نعلمه مما علمه أحداً من خلقه غيرنا كالملائكة والأنبياء والجن أو استأثر تعالى بعلمه كان لنا أن ندعو به على حسب الألفاظ الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم كما في مسند الإمام أحمد عن بن مسعود رضي الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(ما أصاب أحد قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همه وحزنه وأبد له مكانه فرحاً قال فقيل يارسول الله ألا نتعلمها ؟ فقال بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها) (٥) ثم إن هذا الاحتمال إن كان مراده قد نقضه هو بما ذكر من أذكار بعد قوله ذلك بالفاظ أخرى سيأتي إن شاء الله نقدها .

---

(١) الضياء ص ١٥٥ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٠ .

(٣) سورة الإسراء الآية ١١٠ .

(٤) البخاري كتاب التوحيد باب إن لله مائه اسم إلا واحدة تقدم الحديث .

(٥) مسند الإمام أحمد ج ١٤ ص ٢٦٢ . ٢٦٣ .

ونقضه كذلك بقوله إنه يصح لبعض الناس المكاشفين كما يقول أن يذكر الله تعالى بأي كلمة شاء وأي حرف شاء ...) (١) وهذا المذهب الذي ألمح إليه في هذه العبارة من أقوال الحلولية الذين يقولون بأن الله حال في كل شييء وأن الذاكر للصنم ذاكر لله وما شابه ذلك وكفى بهذا سوء الاعتقاد والتناقض ولكن يظر أنه نقل هذا الكلام عن الشعراني عن ابن عربي الطايء وأمثالهم كما صرح بأسمائهم وكتبهم التى تضمنت هذا القول (٢) ويحتمل أنه أراد بهذا القول أن المجال واسع في الذكر فأيّ لفظ شئت فاذكر الله به وهذا باطل لما يقتضي من القول بأن الله تركنا سدى ولم يبين لنا في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته ما يجوز أن نذكر الله تعالى به من أسمائه وصفاته وما يليق به سبحانه وتعالى من نعوت الجلال والكمال .

فذكر الله تعالى من أعظم العبادات وأنفع القربات بعد أداء الواجبات والمفروضات وهو شامل لأمور كثيرة من عبادات ومعاملات باللسان والقلب والفكر والعمل وكل هذه مبينة في الكتاب والسنة وعلى درجات متفاوتة (٣)

وإن أرادت القادرية قصر الذكر هنا على الذكر باللسان وأن الذكر بلفظ الجلالة (الله) هو ذكر الخاصة فهذا لا يسلم فيه القول على الاطلاق إيضاً إلا بعد الإيضاح والتقيد بالقيود المشروعة حيث إن المراد من الذكر ذكر الله تعالى الذي هو الذات العلية . وهذا الاسم العظيم علم عليها ولم يطلق على غيرهاولذا كان هو الأصل في الأسماء الحسنى (٤) قال القاضي أبو بكر بن العربي في عده لاسماء الله الحسنى وبيانه لمدلولاتها ومعاني مشتقاتها . قال : (الأول : الله ، وهو اسمه الأعظم الذي يرجع إليه كل اسم ، ويضاف إلى تفسيره كل معنى ، وحقيقته المنفرد في ذاته وصفاته ،

---

(١) الضياء ص ١٦١ .
(٢) انظرنفسه ص ١٦١ .
(٣) انظرفتح الباري جـ ١١ ص ٩٤ وما بعدها .
(٤) نفسه جـ ١١ ص ٢٢٤ والقرطبي جـ ١ ص ٣٧ و ١٧١ . ١٧٢ .

وافعاله عن نظير ، فهذه حقيقة الإلهية ومن كان كذلك فهو الله) (١)

فهذه الذات الكريمة المقدسة هي التي تذكر ويكثر من ذكرها ليلاً ونهاراً وعلى كل حين ولكن بما شرع في الكتاب والسنة قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فانبئنى منها بشيء أتشبث به ، قال : لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله عز وجل) (٢) ونلاحظ لفظة (من) .

ثم إن الخاصة أعظمهم ومعلمهم هو النبي صلى الله عليه وسلم ولم يروعنه أنه كان يذكر بلفظ الجلالة مفردا ويكرره على الهيئة التي يصفونها عن أنفسهم ، وكذلك لم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر أحدا من أصحابه أن يتخذ وردا من اللفظ الكريم يردده مفردا .

وهم لم يدعو هذه الأمور بنقل صحيح خاص بذلك ولكن قالوا بأنه عمل الخاصة والخاصة لفظ تستعمله الصوفية خاصا بها والخواص الذين قالوا بأن الذكر بالاسم المفرد ذكر لهم ليس في عملهم حجة ، والكتاب والسنة هما الحكم الحاكم عليهم ، ولا يفيدهم لقب الخواص مزية في الشريعة يخصصون به ، وترجيحهم الذي ذكره صاحب الضياء (٣) لا يلتفت إليه ما دام لامر جح له من كتاب ولاسنة ولاتساعدهم اللغة العربية لو كان في أسماء الله تعالى قياس واجتهاد فكيف وأسماء الله الحسنى وما يذكر به جل وعلا وما يوصف به كل ذلك توقيف لا محل للرأي فيه ولا اجتهاد ، فلا اجتهاد فيه لأنه توقيفي ولا يقبل أيضا اجتهاد من تجاوز وادعى عدم التوقيف في الذكر والدعاء لأنه لا أجتهاد مع النص قال الحافظ بن عبد البر رحمه الله تعالى : (ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصاً في كتاب الله أو صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أجمعت عليه الأمة وما جاء من أخبار

---

(١) آيات الاحكام جـ ٢ص ٨٠٨ .

(٢) سنن ابن ماجه باب فضل الذكر جـ ٢ ص ٤١٨ .

(٣) الضياء ص ١٥٢ .

الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم له ولا يناظر فيه) (١) . وقد جاءت نصوص فيها تكرير اللفظ الشريف (الله) ومناسبتها تبين المراد منها وإيراد العلماء لها في أبواب غير أبواب الذكر توضح فهمهم للمقصود منها .

من ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه في باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله) وفي لفظ له (لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله) (٢) .

قال الإمام النووي في بيان هذه الرواية من حيث ضبط الاسم المقدس فيها وتكريره :(وفيه قوله صلى الله عليه وسلم على أحد يقول الله الله هو برفع اسم الله تعالى وقد يغلط فيه بعض الناس فلا يرفعه ، واعلم أن الروايات كلها متفقة على تكرير اسم الله تعالى في الروايتين وهكذا هو في جميع الأصول قال القاضي عياض رحمه الله وفي رواية ابن أبي جعفر يقول : لا إله إلا الله) (٣)

وقال الآبي شارح مسلم تحت عنوانه: أحاديث قوله صلى الله عليه وسلم: (لاتقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله) ثم قال : قال القرطبي . يعني صاحب المفهم على مسلم . (قيدنا الكلمتين بالنصب وهو كالنصب في قوله الأسد الأسد بفعل لا يظهر لنيابة التكرار عنه ولذا إذا لم يكرروا يظهرون الفعل فيقولون احذر الأسد ، وقيدهما بعضهم بالرفع على الابتداء ورفع الخبر قال القاضي عياض : (الله الله) هي روايتنا عن الجميع ورواه ابن أبي جعفر : (لا إله إلا الله) قلت . والكلام للأبي : هو تفسير لرواية الله الله لأن ذكر الاسم لا ينقطع لعدم إنكار الصانع ولا يقال فيه جواز ردة كل الأمة لأنه فرق بين الأمة ارتدت والأمة لم يبق منهم أحد) (٤)

---

(١) جامع بيان العلم وفضله جـ ٢ص ٩٦ .
(٢) صحيح مسلم وقد تقدم الحديث .
(٣) النووي جـ ٢ ص ١٧٨ .
(٤) إكمال إكمال المعلم جـ ١ ص ٢٥٥ . ٢٥٦ .

فهاتان الروايتان وضحتا مناسبة إيردهما بالاضافة إلى رواية ابن أبي جعفر المفسرة لهما أن المراد بهما أن الساعة لا تقوم إلاعلى شرار الخلق الذين كفروا بالله وأعرضوا عن ذكره واستحلوا محارمه وبهذا جاءت الأحاديث الصحاح فلا حجة في هذه الرواية على جواز الاقتصار على الاسم المقدس مفردا والذكر به واتخاذه وردا .

وقد جاء في روايات أخرى في المسند والسنن في باب ما يقال عند الكرب والهم والغم ورد فيها هذا الاسم المقدس مكررا وغير مكرر .

ففي المسند عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولها عند الكرب : الله ربي لا أشرك به شيئا) (١)

قال الساعاتي : (ظاهره أنه يكتفى بهذا الدعاء مرة واحدة) (٢) وفي سنن أبي داود عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب ، أو في الكرب ، الله الله ربي لا أشرك به شيئا) (٣)

قلت : ومثله في سنن ابن ماجه قال السندي في إعراب هذا الحديث : (الله الله الخ : الأول مبتدأ والثاني تأكيد له وربي خبر وجملة لا أشرك خبر بعد خبر ومعنى لا أشرك به أي في العبادة أو في إثبات الألوهية) (٤) وعلى هذه الروايات أيضا لا مستند لهم في جواز الذكر بالاسم المقدس مفردا لورودها في مقام بيان إظهار الافتقار واللجإ والدعاء إلى الله تعالى والتوسل إليه جل باعتقاد وحدانيته ثم إن الاسم الكريم لم يرد هنا إلا في جملة تامة هي المبتدأ والخبر ، وكل ذكر تام متضمن لكلمة التوحيد أو معناها مثل ما في هذه الروايات فجائز الذكر به والدعاء به وعلى هذا فسر العلماء الآية الكريمة المستدل بها على جواز الذكر بلفظ الجلالة مفردا والاقتصار عليه في الجواب على السؤال الموجه بأمر من الله تعالى لليهود مثل قولتهم :(وما قدروا الله حق إذ قالوا ما أنزل على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا

---

(١) مسند الامام أحمد جـ ١٤ ص ٢٦٢ .

(٢) الفتح الرباني جـ ١٤ ص ٢٦٢ .

(٣) سنن أبي داود كتاب الصلاة باب في الاستغفار جـ ٢ ص ١٨٢ .

(٤) ابن ماجه باب الدعاء عند الكرب جـ ٢ ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥ .

آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خضوهم يلعبون) (١)

قال بن جرير الطبري : (وأما قوله : (قل الله) فإنه أمر من الله جل ثناؤه نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يجيب استفهام هؤلاء المشركين عما أمره باستفهامهم عنه بقوله : (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) بقيله الله ۰ ثم نقل بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : الله أنزله) (٢) وبما نقل الطبري عن ابن عباس نقله ابن كثير وقال : (وهذا الذي قاله ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة لا ما قاله بعض المتأخرين من أن معنى (قل الله) أي لا يكون خطابك لهم إلا هذه الكلمة (الله) وهذا الذي قاله هذا القائل يكون أمرا بكلمة مفردة من غير تركيب والإتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة فائدة بحسن السكوت عليها) (٣)

فالاسم المفرد كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (لا يكون كلاما مفيدا عند أحد من أهل الأرض ، بل ولا أهل السماء ، وإن كان وحده كان معه غيره مضمرا ، أو كان المقصود به تنبيها وإشارة كما يقصد بالأصوات التي لم توضع لمعنى ، لا أنه تقصد به المعاني التي تقصد بالكلام ، ولهذا عد الناس من البدع ما يفعله بعض النساك من ذكر اسم (الله) وحده بدون تأليف كلام ۰ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله والله أكبر ۰ رواه أبو حاتم في صحيحه (٤)

وقال أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير) رواه مالك (٥)

---

(١) سورة الانعام الآية ٩١ ۰

(٢) تفسير القرطبي جـ ١١ ص ٥٢٨ ۰

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٥٦ ۰

(٤) عمل اليوم والليلة ص ٤٨١ ۰

(٥) الموطأ (ولفظه : (أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة ۰ وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) آخر كتاب الصلاة باب ما جاء في الدعاء ، رقم ٤٩٩ وباب جامع الحج ٩٦٣ ص ١٧٠ ـ ٣٢٧ وهو مرسل قال الحافظ بن عبد البر ولا أحفظه بهذا الإسناد مسندا من وجه يحتج بمثله ۰۰) التمهيد جـ ٦ ص ٣٩ ۰

وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يعلم أمته ذكر الله تعالى بالجمل التامة مثل (سبحان الله) و (الحمد لله) و (لا إله إلا الله) و (الله أكبر) و (لا حول ولا قوة إلا بالله) .

وقال : (أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهي من القرآن : (سبحان الله) و (الحمد لله) و (لا إله إلا الله) و (والله أكبر) (١) رواه مسلم .

وفي صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لأن أقول (سبحان الله) و (الحمد لله) و (لا إله إلا الله) و (الله أكبر) أحب إلى مما طلعت عليه الشمس) (٢) .

وقال (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة) (٣) ومثال ذلك . فظن طائفة من الناس أن ذكر (الاسم المفرد) مشروع ، بل ظنه بعضهم أفضل في حق الخاصة من قول : لا إله إلا الله) ونحوها وظن بعضهم أن ذكر الاسم المضمر) وهو . (هو هو) أفضل من (الاسم المظهر) . واخرجهم الشيطان إلى أن يقولوا لفظا لا يفيد إيمانا ولا هدى ، بل دخلوا بذلك في مذهب أهل الزندقة والإلحاد . أهل (وحدة الوجود) الذين يجعلون وجود المخلوقات وجود الخالق . ويقول أحدهم : (ليس إلا (الله) و (الله) و (الله) فقط ونحو ذلك) (٤) هذا كلام شيخ الإسلام بن تيمية ومع ما عرف عنه غالبا من حمل كلام العباد النساك على محمل حسن فيما يمكن أن يصحح أو يحمل على وجه يصلح صححه لهم فإنه لم يصحح لهؤلاء ، حيث بين أن المجوز لهذا النوع من الذكر بالاسم المفرد (الله) والمفضل له على الذكر بالجمل التامة خالف ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من تعليمه لأمته الذكر بالكلام التام المفيد ودخل في البدعة وابتعد عن الاتباع والسنة ، والحال أنه طالب للخير والخير في الاتباع والشر في الابتداع . (٥) .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الآداب ، باب كراهة التسمية بالاسماء القبيحة ، وفيه بلفظ :(أحب الكلام إلى الله أربع سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) .

(٢) صحيح مسلم كتاب الذكر ، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء .

(٣) مسند الامام أحمد جـ ١٤ ص ٢١٣ (وجبت له الجنه)

(٤) الرد على المنطقين لابن تيمية ، ادارة ترجمان السنة ، ط ٢ سنة ١٣٩٨ هـ ص ٣٥ . ٣٦

(٥) انظرالعبودية ص ٤٨ . ٤٩ .

ثالثا : الذكر بالضمير : (هو)

تقدم لنا بعض من الكلام على نقد الذكر المحدث بالاسم المفرد الظاهر والمضمر كذلك إذ إن الذكر الذي له معنى وأثرا في النفس هو ما شرع في الكتاب والسنة وأوضحنا أن العبادات المنصوصة لا مسرح للاجتهاد فيها وخصوصا في أسماء الله الحسنى وما يذكر به جل وعلا من الصفات والدعوات المختصة بالذات ٠ يقول الحافظ بن عبد البر: (وما غاب عن العيون فلا يصفه ذوو العقول إلا بخبر ولاخبر في صفات اللـه إلا ما وصف نفسه به في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فلا تتعدى ذلك إلى تشبيه أو قياس أو تمثيل أو تنظير فإنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (١)

ويقول أبو الحسن القابسي : (أسماء الله وصفاته لا تعلم إلا بالتوقيف من الكتاب أو السنة أو الاجماع ، ولا يدخل فيها القياس ولم يقع في الكتاب ذكر عدد معين ، وثبت في السنة أنها تسعة وتسعون ٠٠) (٢) وقال بعض أهل العلم أنه لا يجوز أن يذكر الله أو يدعى إلا بهذه الأسماء التسعة والتسعين المذكورة (٣) وأنه من الالحاد في أسمائة الزيادة فيها أو النقص منها أو تسميته بما لم يرد في الكتاب أو السنة وحذروا من ذلك (٤)

قال ابن ماجه بعد روايته لأسماء الله الحنسى قال : (قال زهير : فبلغنا من غير واحد من أهل العلم ، أن أولها يفتح بقول : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله له الأسماء الحسنى) (٥)

وقد تتبعت كثيرا من روايات أسماء الله الحسنى فلم نجد من ذكر أن هذا الضمير الذي يذكرون به من أسماء الله تعالى الحسنى إلا أن الحافظ بن حجر ذكر في

---

(١) التمهيد ج ٧ ص ١٤٥ ٠
(٢) فتح الباري ج ١١ ص ٢١٧ ٠
(٣) نفسه ج ١١ ص ٢٢٠ ٠
(٤) أحكام القرآن لابن العربي ج ٢ ص ٨١٦ ٠
(٥) سنن ابن ماجه ج ٢ ص ٤٣٩ ٠

عده للأقوال الواردة في الاسم الأعظم أن بعض أهل الكشف قال بأن الاسم الأعظم هو : (هو) ونص كلامه (الأول : الاسم الاعظم : (هو) نقله الفخر الرازي عن بعض أهل الكشف ، واحتج له بأن من أراد أن يعبر عن كلام معظم بحضرته لم يقل له : أنت قلت كذا ، وإنما يقول هو يقول تأدبا معه) (١) . وقد عرفنا أنه لا مسرح للاجتهاد والكشف في تحديد اسم أو صفة لله تعالى فكيف باسمه الأعظم الذي استأثر الله بعلمه وأخفاه عن خلقه ليجتهدوا في ذكره تعالى بأنواع أسمائه الحسنى ، والذين تتبعوا أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة ، وأخذوا فيها بالاشتقاق لم يذكروا مثل هذا القول . (٢)

وعلى هذا فالذكر بهذا الضمير (هو) لا مستند له من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة المقتدى بهم وقد عدوه من البدع في باب أسماء الله الحسنى ، ولأنه ترديد ضمير لا يعطى معنى ولا يفيد الذاكر به أثرا ، وبسبب ذلك دخل الذاكرون به في مجالات من الإلحاد والزندقة وادعاء الحلول أو وحدة الوجود .

يقول شيخ الإسلام بن تيمية في وصفه لحال بعض أصحاب الرياضات والتجرد وأن في ذكرهم مالا يفيد بنفسه معنى خارجا عن ذهن المتكلم به لعدم اشتماله على معنى بذاته يقول :

(.. وكذلك أصحاب الرياضة والتجرد : فإن صفوتهم الذين يشتغلون بذكر بسيط مثل : لا إله إلا الله إن لم يغلوا فيقتصروا على مجرد الله ، الله ، ويعتقدون أن ذلك أفضل وأكمل . كما فعله كثير منهم ، وربما اقتصر بعضهم على هو ، هو أو على قوله : لا هو إلا هو ، لأن هذا الذكر المبتدع الذي هو لا يفيد بنفسه إلا أنه مطلقا ، ليس فيه بنفسه ذكر لله إلا بقصد المتكلم ..) (٣) ويوضح هذا بقوله في رسالة العبودية :(وأما الاسم المفرد مظهراً أو مضمرا فليس بكلام تام ولا جملة مفيدة ولا يتعلق به إيمان ولا كفر ولا أمر ولا نهي، ولم يذكر ذلك أحد من سلف الامة ولا

---

(١) فتح الباري جـ ١١ ص ٢٢٤ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي جـ ٢ ص ٨٠٢ . ٨١٦ وفتح الباري جـ ١١ ص ٢١٤ . ٢٢٥

(٣) مجموع الفتاوى جـ ٢ ص ٦٣ .

شرع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعطى القلب بنفسه معرفة مفيدة ، ولاحالا نافعا ، وانما يعطيه تصورا مطلقا لا يحكم عليه بنفي ولا إثبات ، فإن لم يقترن به من معرفة القلب وحاله ما يفيد بنفسه وإلا لم يكن فيه فائدة ، والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره ، وقد وقع بعض من واظب على هذا الذكر في فنون من الإلحاد وأنواع من الاتحاد ... فالذكر بالاسم المفرد أو المضمر أبعد عن السنة وأدخل في البدعة وأقرب إلى إضلال الشيطان ، فإن من قال يا هو يا هو أو هو هو ونحو ذلك لم يكن الضمير عائدا إلا إلى ما يصوره قلبه والقلب قد يهتدي وقد يضل) (١)

ومن هذا نستلخص أن الذكر بضمير (هو) أمرشنيع لما يأتي :

١) أنه ليس في أسماء الله الحسنى وأن أسماءه جل جلاله توقيفية .

٢) أن إدخاله فيها من الالحاد فيها الذي توعد الله مرتكبه .

٣) أنه لا يفيد فائدة يحسن السكوت عليها وما يضمره الذاكر به على مخالفته لا يعرفه إلا هو وهو قد يضمر إيمانا وقد يضمر كفراً .

٤) أن العلماء حذروا من الذكر به لما فيه من الانحراف وترك الذكر المشروع .

٥) قد لاحظ بعضهم دخول المواظب على الذكر به في متاهات وحدة الوجود ودعوى الاتحاد والحلول .

٦) وهذا الذكر المبتدع أدى إلى الإعراض عن الذكر المشروع بأنواعه وحلاوة الفاظه والجزم من الشارع بالأمر به وكثرة ثوابه مما لا يترك لأحد يطلب الحق مجالا لتركه وطلب غيره والاستحسان لما ابتدعه أهل الشطح والخلط في الدين ممن يدعي الكشف أو يدعى له من أهل القرون المتأخرة .

هذا والله تبارك وتعالى يقول في محكم كتابه محذرا من الحياد عن طريقة النبي صلى الله عليه وسلم ومخالفة أمره : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنه أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ (٢) والتوفيق بيد الله وحده .

---

(١) رسالة العبودية ص ٤٨ ص ٤٩ .

(٢) سورة النور الآية ٦٣ .

رابعا : نقد الذكر بضمير المخاطب أنت أنت

هذه الألفاظ انفرد صاحب الضياء بذكرها واستدل لها بأدلة منها : قوله تعالى حكايـــة عن يونس عليـــه الســـلام : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك أني كنت من الظالمين ﴾ (١)

وقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿ انك كنت بنا بصيرا ﴾ (٢)

وقوله على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ﴾ (٣)

وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث : (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ..) (٤)

وقال (وهذه الحضرة أعنى حضرة الذكر بأنت هي حضرة الأنبياء وخاصة خاصة الأولياء) (٥) (ولقد كان بعض العارفين يذكر الله تعالى مشيرا إليه تعالى بالضمائر كلها خطابية كانت أو غيبية أو تكلمية متصلة أو منفصلة ..) (٥)

هذا ملخص من كلامه المعروض سابقا وتلك أدلته وهذا نقدها : .

فالآية الأولى هي دعوة يونس عليه السلام وقد ورد في فضل الدعاء بها أحاديث كثيرة في السنن وغيرها وهي من أدعية الكرب فعن سعد بن مالك رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : هل أدلكم على اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى ، الدعوة التي دعا بها يونس حيث ناداه في الظلمات الثلاث لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فقال رجل يا رسول الله هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تسمع قول الله عز وجل : ﴿ فنجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ (٦)

---

(١) سورة الانبياء الآية ٨٧ ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ .

(٢) سورة طه الآية ٣٥ .

(٣) سورة المائدة الآية ١١٦ .

(٤) الموطأ باب ما جاء في الدعاء رقم ٤٩٧ / ١٧٠ وصحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود ويأتي بنصه قريبا .

(٥) الضياء ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٦) المستدرك للحاكم ، كتاب الدعاء ، جـ ١ ص ٥٠٦ والآية من سوة الآنبياء ٨٨ .

قال ابن كثير : (أي إذا كانــوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا ولا سيما إذا دعــو ابهـذا الدعــاء في حــال البــلاء فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء ٠٠) (١) ومثله عن القرطبي وغيره من المفسرين (٢)

وأما الآية الثانية فقد قال القرطبي فيها (قال الخطابي : البصير المبصر ، والبصير العالم بخفيات الأمور ، فالمعنى ، أي عالما بنا ، ومدركا لنا في صغرنا فأحسنت إلينا ، فأحسن إلينا أيضا كذلك يارب) (٣)

وأما الآية الثالثة المستبدل بها فإن العلماء فسروا فيها المعنى العام المراد منها فقال القرطبي :(تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) أي تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك ٠ وقيل : المعنى تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم (إنك أنت علام الغيوب) ما كان وما يكون ، وما لم يكن وما هو كائن) (٤)

وأما الحديث فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو في سجوده فيأتي بجوامع الكلم المشتملة على الحمد والثناء على الله بما هو أهله ويبالغ في إظهار العجز عن الوفاء بما يستحقة تعالى من الثناء إذ لا يحصــى ذلك أحد مهما بالغ وواظب (فعن عائشة رضي الله عنها قالت : فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (٥)

فلا مستند في هذه الآيات والحديث على أن ضمير المخاطبة فيها كان ذكرا للأنبياء والأولياء كما اتضح ذلك من سياقها ومناسبتها وأقوال أهل العلم في بيان المراد منها ٠

---

(١) ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ١٩٢ ـ ١٩٣ ٠

(٢) القرطبي جـ ١١ ص ٣٣٤ ٠

(٣) نفسه جـ ١١ ص ١٩٤ ٠

(٤) نفسه جـ ٦ ص ٣٧٦ وفتح القدير جـ ٢ ص ٩٥ ٠

(٥) صيحيح مسلم كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود ٠

وأما مجرد مخاطبة أنبياء الله تعالى للمولى جل وعلا فهذا كثير في الكتاب والسنة بحيث لا يحتاج إلى تمثيل عليه ، ومن أراد أن يخاطب المولى تعالى من غير ترجمان فليقرأ القرآن الكريم أو يدع بالأدعية الواردة في الكتاب والسنة ولا يكون في هذه الحالة ذاكراً بضمير فقط بل يكون ذاكرا لله تعالى بجميع حروف المتلو والمدعو به ، وله في ذلك الأجر والثواب العظيم إن شاء الله تعالى .

ثم إنه إذا كان كل ما ذكره الله في كتابه من الضمائر والحروف يجوز للناس أن يجعلوه وردا لكان في ذلك من الامور التي يستحيل أن يذكر الله تعالى بها عند أهل الإسلام ، ولكن إن قصد المجوز لذكر الله بالضمائر بأنواعها كلها الواردة في الكتاب والسنة فإنه يكون بذلك ابتدع طريقة في الذكر بعيدة عن طريقة الأنبياء ويكفي في الرد عليه ظهور ابتداعه وعدم وجود دليل يساعده على ما ذهب إليه من كتاب أو سنة ولو قال بأن ذلك الذكر من ذكر الأنبياء والأولياء وخاصة الخاصة فهذه عبارات لا تجعل المبتدع سنة ولا الباطل حقا .

وقد قدمنا في نقد الذكر بالضمير (هو) قول بعضهم أن ذلك هو الأدب في الاعراب عن كلام عظيم حاضر . (فتقول هو يقول كذا ..) وعلى هذا يكونون في مخاطبتهم لله تعالى بضيمر (أنت أنت) والحال أنهم يدعون حضورهم معه دائما يكونون غير مؤدبين وربما أخذ من ذلك أنهم ينسبون للأنبياء الذين قالوا بأن هذا ذكرهم نفس الحكم فإن لم يرضوا بهذا التناقض الذي أوقعهم فيه طلب ما لم يكلفوا به دل ذلك على أن العارف عندهم يذكر الله تعالى ويخاطبه بما لا يفهم منه ذكر أو أي معنى آخر إلا في ذهن المتكلم وما في ذهن المتكلم قد يكون هدى وقد يكون ضلالا ووحدة وجود أو حلولا أو غير ذلك من الانحرافات التي لا يجوز أن تنسب للأنبياء ولا للأولياء .

ولعل عبارة صاحب الضياء تدل على هذا الأخير وهو أن الذاكر من هؤلاء بالضمائر غالبا ما يكونون قد وصلوا إلى درجة تختلط عليهم فيها الأمور فيعجزون كما يقول عن التصريح بالأسماء وحتى كأنهم لا يرون للوضع اللغوى أثرا (لانطماسه . يعني الذاكر بهذه الضمائرعن تلمح عالم الحس فكان لا يرى إلا ذاته تعالى ولا يسمع إلا

كلامه ولا يتخيل إلا نعوته فكان يشير إليه بكل ما أدرك كان ما كان) (١) ·
وعندي أنه لا يحل لمسلم أن ينسب هذه الحالة للأنبياء والأولياء فإنهم ما صدرت عنهم في جانب الله تعالى إلا أمور موزونة بالشرع لا خلط فيها ولا غموض فالرب عندهم رب والعبد عبد والخالق هو الخالق والمخلوق هو المخلوق لاكما يدعي بعضهم : (العبد رب والرب عبد) كما تقدم (٢) ·

خامسا : نقد الذكر بأه أه :

تقدم لنا أن صاحب الضياء : قال بأنه كثيرا ما يسمع الشيخ محمد فاضل يقول أه أه ·

وقال : بأن الذكر بهذه اللفظة ليس لغير المحققين أهل الأخذ عن الله تعالى الذين يجوز لهم لمفاتحة الله لهم أن يذكروه بأي كلمة وأي حرف ، وخلص إلى أن الذكر بلفظة (أه) سره مكنون وغيبه مصون وعلمه مخزون ·· (٣)

ثم أورد قول الله تعالى في الثناء على خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ (٤)

والذي يهمنا من هذا الكلام هو الجواب على هذا السؤال هل يجوز الذكر بلفظ (أه أه) ؟ ولماذا أورد الشيخ محمد فاضل بن الحبيب هذه الآية الكريمة هنا ؟

أما كونه يجوز الذكر بأي كلمة أو أي حرف أو أي إشارة لمن فاتحهم الحق أو أن الذكر (بأه) له سر مكنون فهذا يتضح مدى صدقه بالاجابة على هذين السؤالين ·
(فأه) بفتح الهمزة وسكون الهاء كما هو مضبوط في نسخة الضياء التى ذكرت هذا الذكر (٥) لم نجده في اللغه العربية فهو لفظ مهمل لا معنى له ولم نجد من يدع أنه اسم من أسماء الله تعالى حتى نبحث في مظانه إلا أن الشيخ على محفوظ في رده على بدع الطرق الصوفية في الأذكار قال:(وقالوا يجوز بلفظ(أه) لما ورد أنه الاسم الاعظم ونقول لهم لم يثبت من طريق صحيح أنه من أسماء الله تعالى · وقد علمت أن أسماءه تعالى توقيفية فلا يجوز الذكر به وما قيل في بعض الحواشي من أنه الاسم لا سند له) (٦)

---

(١) الضياء ص ١٥٩ ·
(٢) انظرفتح الباري ، كتاب التوحيد ، باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامى الله عز وجل جـ ١٣ ص ٣٨١ وما بعدها ·
(٣) الضياء ص ١٦٢ ·
(٤) سورة التوبة الآية ١١٤ ·
(٥) الضياء ص ١٦٠ ·
(٦) الابداع في مضار الابتداع دار الباز ص ٣٢٠ ·

قلت : وقد تتبع الحافظ بن حجر كلام العلماء في أسماء الله الحسنى والاسم الأعظم بالذات منها فانتهى من ذلك إلى أربعة عشر قولا عد فيها عن أهل الكشف كما قال عن الرازي (هو) ولم يذكر فيها (أه) لا عن أهل الكشف ولا أهل الحواشي (١)

وقال الشيخ على محفوظ في نقله لفتوى شيخ الأزهر: الشيخ محمد أبو الفضل في مسألة الذكر: (يأه أه) قال : إن هذا اللفظ المسؤل عنه (أه) بفتح الهمزة وسكون الهاء ليس في كلمات العربية في شيىء ، بل هو لفظ مهمل لا معنى له مطلقا ، وإن كان بالمد فهو إنما يدل في اللغة العربية على التوجع ، وليس من أسماء الذوات فضلا عن أن يكون اسما من أسماء الله الحسنى التي أمرنا أن ندعوه بها) (٢)

وإذا أخذنا في البحث عن معنى هذا اللفظ في اللغه العربية إذا كان بالمد (آه) فإننا نجده لفظاً آخر له معنى ولكنه مغاير للفظ الذي جوزواهم الذكربه . والحال أنه لا معنى له من نفسه •

فنجد في اللغة العربية ألفاظا للتوجع والتشكي والمتوجع والشاكي قد يكون بسبب علة بدنية أو خشية قلبية أو وجل ومخافة من الله تعالى أو بسبب حزن على التفريط أو التقصير إلى غير ذلك مما يكون مصدراً للتوجع • يقول صاحب القاموس : (أوه) كجير وحيث وأين وآه وأوه بكسر الهاء والواو المشددة وأو بحذف الهاء وأوه بفتح الواو المشددة وآووه بضم الواو وآه بكسر الهاء منونة وآو بكسر الواو منونة وغير منونة وأوتاه بفتح الهمزة والواو المثناة الفوقية وآوياه بتشديد المثناة التحتية كلمة تقال عند الشكاية أو التوجع آه أوهاً وأوه تأويها وتأوه قالها والأواه الموقن أو الدعاء أو الرحيم الرقيق أو الفقيه أو المؤمن بالحبشية •• والأهة التحزن أه أها وأهة وتأهه توجع الكئيب فقال آه أوهاه) (٣)

قلت: وهذه الألفاظ كلها واردة في كتب اللغة والتفسير عند تفسيرهم للأواه قال القاضي عياض بعد ذكر بعض هذه الالفاظ في المشارق (••• بمعنى التذكر والتحزن ومنه إن إبراهيم لأواه في قول أكثرهم أي كثيرالتأوه شفقاوحزنا وقيل أواه دعاء) (٤)

---

(١) فتح الباري جـ ١١ ص ٢٢٤ . ٢٢٥ •

(٢) الابداع في مضار الابتداع ص ٣٢٠ •

(٣) القاموس المحيط جـ ٤ ص ٢٨٠ •

(٤) المشارق جـ ١ ص ٥٢ •

وقد ذكر القرطبي وغيره (١) أن العلماء اختلفوا في المراد بالأواه على خمسة عشر قولا ونسبها إلى قائليها : (٢)

١) أنه الدعاء الذي يكثر الدعاء ٠

٢) أنه الرحيم بعباد الله ٠

٣) أنه الموقن ٠

٤) أنه المؤمن بلغة الحبشة ٠

٥) أنه المسبح الذي يذكر الله في الأرض القفر الموحشة ٠

٦) أنه الكثير الذكر لله تعالى ٠

٧) أنه الذي يكثر تلاوة القرآن ٠ قال القرطبي : (قلت : وهذه الأقوال متداخلة وتلاوة القرآن يجمعها)

٨) أنه المتأوه ٠ وكان إبراهيم عليه السلام يقول : (آه من النار قبل ألا تنفع آه)

٩) أنه الفقيه ٠

١٠) أنه المتضرع الخاشع ٠

١١) أنه الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها ٠

١٢) أنه الكثير التأوه من الذنوب ٠

١٣) أنه المعلم للخير (يعني مظنته) ٠

١٤) أنه الشفيق (وكان أبو بكرالصديق رضي الله عنه يسمى الأواه لشفقته ورأفته)

١٥) أنه الراجع عن كل ما يكره الله تعالى ٠

وأصله من التأوه ، وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء) (٣) قال الشوكاني : (والمطابق لمعنى الأواه لغة أن يقال إنه الذي يكثر التأوه من ذنوبه ، فيقول مثلا : آه من ذنوبي آه مما أعاقب به بسببها ونحو ذلك) (٤)

هذه المعاني كلها مقبولة لغة وحسنة شرعا ، وقد أشار صاحب الضياء إلى بعضها فلو اقتصر عليها لما كان لأحد نقده عليها ، ولكنه خلطها بأمور لعلها هي مقصده منها أو لعله يجهل مغزاها وخطورتها تقليدا لمن سبقه وهذه الأمور هي :

---

(١) ابن كثير . تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٣٩٤ . ٣٩٥ وفتح القدير للشوكاني جـ ٢ ص ٤١١ ٠

(٢) انظر : القرطبي جـ ٨ ص ٢٧٥ . ٢٧٦ ٠

(٣) نفسه جـ ٨ ص ٢٧٥ . ٢٧٦ ٠

(٤) فتح القدير جـ ٢ ص ٤١١ ٠

١) أنه جعل لفظة (أه أه) ذكرا لله تعالى والله لا يعبد إلابما شرع ، وكان كلاما مفيدا يفيد السامع أن الناطق به يريد ذكر الله لا أي كلام آخر لا معنى له في لغة الذاكر ٠

٢) أنه جعله من ذكر أهل التحقيق في الايمان والخشية من الله تعالى كإبراهيم عليه السلام ٠ وقد تبين بما تقدم معاني الأواه وأنها لا تختلط (بأه أه) ٠

٣) أنه أجاز أن يذكر الله تعالى بأي لفظ وبجميع الضمائر الواردة في الكتاب أو السنة وهذا إنما جوزه أهل التخليط لا أهل التحقيق ٠

٤) امتدح هذا اللفظ الذي لا معنى له مفهوما وجعل له أسرارا لا يعرفها إلا أهل الأخذ عن الله ، وقد تقدم لنا أن الذي يدعى الأخذ عن الله بلا واسطة كتاب أو سنة إنما يتخذ إلهه هواه ومن أضل ممن اتخذ إلهه هواه ٠٠) (١)

٥) وهذا السر الذي أشار إليه نقله في شرحه لمدلول هذا اللفظ المهمل في اللغة عن ابن عربي وواضح فيه القول بوحدة الوجود والانطلاق بلا قيد بدعوى: (الأخذ عن الله عن طريق الإلهام الصحيح من غير تعب ولا نصب ولا سهر) (٢) وقد تقدم نقد ذلك ٠

فهذه الأمور ضيعت عليه إمكانية حمل كلامه محملا حسنا وحتمت المصير إلى الحكم عليه بالبطلان ٠ هذا بالاضافة إلى أن المسلم الذي يريد الخير لا يحتاج إلى هذه الطرق المعوجة والتلفيقات التي أقل ما فيها أنها مواقف تهم وقد نهينا أن نقف مواقف التهم ، ثم انه لولا تصريح صاحب الضياء بسماعه كثيرا من الشيخ محمد فاضل يذكر بهذا الذكر لما جاز لنا التوقف عنده أو نقده لأننا نسمع ذكرهم وجهال مريديهم لا يذكرون به وهم في أنواع من الشطح حتى إن أحدهم يرمي لباسه بين الناس ويقول : (بأنه هو الله) ومع ذلك لا نسمع منهم هذا الذي ذكره صاحب الضياء ٠ والله أعلم ٠

---

(١) اقتباس من قول الله تعالى في سورة القصص : ﴿ ومن أضل اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ الآية ٥٠ ٠

(٢) الضياء ص ١٦٢ ٠

المطلب الثالث : مكانة الورد القادري عند شيوخ القادرية وأثر ذلك على الاتباع ٠

تقديم :

رأينا فيما مضى أن القادرية ينسبون هذا الورد للشيخ عبد القادر الجيلي وتبين من الدراسة والنقد أنه لا تصح نسبة هذا الورد على هذه الصورة للشيخ عبد القادر لا متنا ولا سندا ٠

ورأينا كذلك أنهم يذكرون أن وردهم مأخوذ من الكتاب والسنة وأن آدابهم وسلوكهم في الطريقة مستمدة من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه رضوان الله عليهم ابتداء من البيعة وانتهاء بالتعبد والمشيخة ، ولكن تبين بالدراسة والنقد أن ذلك المدعى ليس صحيحا وأن الطريقة فيها خلط كبير لا يجوز لمسلم أن ينسبه هكذا للنبي صلى الله عليه وسلم وصحابته والسلف الصالح رضوان الله عليهم ٠

ومع أن الورد لا يصح متنا ولا سندا منسوبا للشيخ عبد القادر فأحرى أن لا يثبت لمن بعده فإن القادرية يبنون عليه أمورا كبيرة منها حسن الخاتمة والغنى من الفقر في الدنيا وغير ذلك مما يأتي في نصوصهم الآتية إن شاء الله تعالى ٠

عرض : يقول الشيخ سيدي محمد الكنتي في معرض بيانه لاستغنائه بالذكر المجرد والأدعية المأثورة والأحزاب والتوجهات التي أنشأها والده وشيخه الشيخ سيدي المختار الكنتي . عن علم الاوفاق والجداول بعد أن أدرك منه حسب دعواه ما لم يدركه أحد على ما تقدم يقول (٠٠ إذ انعقد إجماع الصوفية على أن لكل عصر أذكاراً وأدعية هي أولى بالعمل فيه وأسرع إجابة من الأذكار والأدعية المتقدمة عليه يجريها الحق جل وعز على ألسنة أولياء ذلك العصر أو من خص منهم بالتقديم في العصر) (١)

ويضيف في معرض ذمه لعبد الله بن سيدي محمود لارتكابه في نظره ما هو من المحظور يقول : (ومن أدهاها أكل ربعة السلسلة (٢) القادرية التي أجمع من يعتد به

---

(١) الطرائف ص ٣٠٢ ٠

(٢) رباعة الرجل : شأنه وحاله التي هو رابع عليها أي : ثابت عليها ٠ يعني أنها عادتهم المعروفة لهم كما تقدم بيانه ٠ انظر : النهاية في غريب الحديث جـ ٢ ص ١٨٩ ٠

من أعيان الطائفة الصوفية أنها أقوى الطرق سندا وأوفرها مددا وأن وردها أعظم الأوراد قدرا وأوفرها ذخرا وأكثرها أجرا وأن صاحبها المحافظ عليها لا يموت إلا على أحسن حال وإن عمل ما عمل وأن تضيعه والانخلاع من ربقة سلسلته موجب لسوء الخاتمة والعياذ بالله) (١)

ويقول : (وكانت طريقتنا من بينهم . يعنى الطرق الصوفية . طريقة القادرية التي هي أسد الطرق متنا وأشدها دون العوائق والبوائق حصنا ووردها أجل الأوراد قدراً وأفرها ذخراً وأكثرها أجرا وأشيعها ذكرا ومن أعظم فوائده أن صاحبه لا يموت إلا على أحسن حال وإن عمل ما عمل وسنده أقوى الإسناد وأعلاه وأكمله رجالا وأتمه اتصالا) (٢) • ويضيف بعد ترجمته للشيخ عبد القادر الجيلي وبيان كراماته فيقول : (ويكفي من الكرامة بقاء طريقته وانتشار صيته وبقاء ذكره آخر الأبد وقد توفي رحمه الله ورضي عنه في حدود الخمسين بعد خمسمائه (٣) وطريقته الآن ولله الحمد والمنة والشكر بعد النيف والعشرين بعد المأتيين والألف أشهر الطرق جادة وسالكوها أكثر السالكين مددا ومادة وسندها أظهر الإسنادات شرفاً وسيادة ووردها أوفر الأوراد نورا وسعادة بل لا يزيدها تزايد العصور إلا جدة وزيادة وبلى الأيام إلامتانة وإشادة يؤديها العدل إلى العدل ويأخذها فحل الدولة على الفحل ، أبقى الله سلسلتها النورانيـة متصلة مسلسلة مرسلة إلى أن يرث الباعث الـوارث الأرض ومن عليها) (٤)

ويقول الشيخ ماء العينيين في نقله للأوراد التي تؤخذ في المغرب لأنها كما يقول فرع مما عندنا يقول . (ومن ذلك ورد السلسلة المباركة القادرية وهومن أجل الأوراد قدرا وأوفرها ذخرا وأعلاها ذكرا وهو يغنى عن جميع الأوراد ولا يغني عنه ورد ومن أجل فوائده أن صاحبه لا يموت إلا على حسن الخاتمة وكفى بها مزية وحدثني من أثق به أنه من أسباب الغنى ••) (٥)

---

(١) الغلاوية ص ١٥ •

(٢) الطرائف ص ١١٥ •

(٣) تقدم في ترجمته أنه توفي سنة ٥٦١ هـ

(٤) الطرائف ص ١٥١ •

(٥) نعت البدايات ص ٢٠٢ •

ويقول في فاتق الرتق على راتق الفتق : (ووجدت بخط أبي وشيخي شيخنا محمد فاضل رضي الله عنه أن ورد القادرية لا يستديمه أحد إلا كفاه الله أمر آخرته ودنياه وعن جميع خلقه أغناه وأن صاحبه لا يموت إلا على حسن الخاتمة) (١)

نقد :

قلت : وقبل الدخول في نقد أساسيات هذه النصوص فإني ألاحظ على أصحابها ما يأتي :

أولا : فتحهم لباب إنشاء الأدعية والأوراد لكل من جاء من الشيوخ ، وأن ذلك إجماع علماء الصوفية ، ومعلوم أن كل أوراد وأحزاب وأدعية محدثة يكون فيها من إماتة الأدعية النبوية المباركة ما لا ينكره أحد لتصديق الواقع له وبإقرار الشيوخ للمريدين عليه .

ثم إن علماء الصوفية المحكي إجماعهم ندرة وأهل العلم متوافرون ولم يقروا هذا الاجماع لمخالفته لما عليه إجماع المسلمين قاطبة من أن الأذكار والأحزاب النبوية والقرآنية أسرع إجابة وأبرك أثرا وأعظم أجرا وأقل تكلفا وأسلم للداعي والذاكر سواء كان عالما أو جاهلا ويؤيد هذا أن فتح هذا الباب أي باب إنشاء الأحزاب والأوراد أدى إلى وضع كل من هب ودب من المصدرين في الطريقة إلى أحزاب وأوراد وأدعية من نفسه لا حلاوة لها ولا طلاوة عليها بل إنها قد تكون مشتملة على شركيات لا يعلمها أو يعلمها ويقرها .

وبهذا يعلم أن إجماعهم هذا مردود بالكتاب والسنة والإجماع .

ثانيا : افتخارهم ببقاء القادرية إلى هذه القرون المتأخرة وحكاية إجماع من يعتد به من أعيان الطائفة الصوفية على قوة متنها وسندها .

وهذا من الدعاية للطريقة يؤخذ منه التعصب الذي عم مشايخ الطرق الصوفية حيث إن كل واحد ينشر الدعاية ويزين العبارة لجمع أكبر عدد ممكن من الخدام من المريدين والمتعاطفين ولا ينبغي لمن وضع نفسه في مكان القدوة والمشيخة أن يفتخر أو يدعو إلا للكتاب والسنة وما تفرع عنهما من علوم السلف .

---

(١) هامش نعت البدايات ص ١٥٨ .

وأما المتن والسند المفتخر بهما فقد رأينا فيهما خلاف المدعى ثم إن أهل العلم بالإسناد والمتن لا يقبلون رواية الداعي لبدعته وخصوصا أنه ظهر تعصبه ، ثم لنفرض أن أعيان كل طائفة شهدت لنفسها بصحة منهجها وسلامة منطلقها فهل يسلم ذلك لها وإن كان الواقع يكذب ما شهدت به لنفسها ؟

إن الأعيان الذين يعتد بقولهم في الطرق الصوفية نزر ولا يعتبر إجماعهم في مقابل أهل العلم المخالفين لهم (١) وإذا جمعوا حولهم طوائف الطرق الأخرى كان المدعى إجماع الجهال وإجماع الجهال مهدور لأن الجهل لا يقود إلى خير وغالبا ما نجد أهل الجهل مجتمعين ومجمعين على ضلالة وبدعة شنيعة .

وعلى هذا فهذه دعاية واضحة وتعصب حاجب عن معرفة أين الصواب وأين الخطأ .

ثالثا : ويدعون أن هذا الورد يغني عن كل ورد ولا يغني عنه ورد . وهذه الدعوى يدعيها كل واحد ممن وضع الأوراد والوظائف حتى إن كل مصدر جديد يضع لنفسه ولأتباعه ما عن له من الكلام المسجع أو المفكك ويناديهم بترك غيره ويحذرهم من الاشتغال بورد غير ورده ويعدهم فيه الوعود والآمال حتى إن بعضهم وضع في أوراده ما كفر بسببه لما يتضمن من أمور غريبة ودعوى باطلة كصلاة الفاتح التي يدعي أربابها أن قراءتها أفضل من القرآن الكريم وختمه عدة مرات (٢) فمن يصدق في أن أوراده أعظم الأوراد وأفرها ذخرا وأنها تغني عن جميع الأوراد ولا يغني عنها ورد ؟

والذي يظهر لي أن الدافع إلى مثل هذه الدعاية هو التعصب وحب اكتساب أتباع كثيرين وبسط السيطرة عليهم بالترغيب تارة والتخويف تارة أخرى فالذي يحب الجنة وما يقرب إليها يقال له هذا الورد صاحبه لا يموت إلا على أحسن حال أو على حسن الخاتمة ، والذي يحب الجاه والمال يقال له هذا الورد يغنيك الله به عن جميع الخلق ويكفيك أمر آخرتك ودنياك وإذا لم يكن التعصب المدفوع بالجرءة على الله تعالى وراء هذه الدعاوى فما الدليل عليها ؟

---

(١) الطرائف ١٦٠ وجنة المريد ص ١١ وما بعدها .

(٢) انظر : جواهر المعاني في نصوص هذه الأوراد وما يدعى فيها من الثواب جـ ١ ص ٨٨ وما بعدها وانظر نقدها في التيجانية : دراسة لاهم عقائد التيجانية على ضوء الكتاب والسنة ، علي بن محمد الدخيل الله ص ١١٦ وما بعدها .

فهل من التجارب يأخذ المسلم مقدار الثواب والعقاب والميتة على أحسن حال ؟

ثم إن كنا لا نعرف خاتمة أحد في الدنيا على وجه التحقيق فإننا نعرف أن كثيرا من شيوخ القادرية عالة على المجتمع وهدايا المريدين والزائرين فإن كانوا مواظبين على الورد فقد تخلف عنهم هذا الوعد ، وإن كانوا غير مواظبين على الورد فبأي حق حازوا هذه المكانة والمشيخة في الطريق ؟ فلم يبق إلا أن يقال بأن أدعية القهر والتسخير وعلوم الشر بأنواعها وراء إقبال الناس عليهم بالعطايا والهدايا والطاعة والخدمة كما يفهم من بعض نصوصهم ٠

رابعا : المواظب على الورد القادري لا يموت إلاعلى أحسن حال أو على حسن الخاتمة هذه هي الدعوى التي أغتر بها كثيرمن أتباع القادرية حتى المحدثون منهم (١) فما دليل ذلك ؟ هذه هي الفكرة الأساسية في هذه النصوص وتحتاج إلى مزيد بيان ونقد لأن الذين قرروها لم يذكروا مستندا لها حتى ينظر فيه هل يصح أن تبنى عليه مثل هذه الدعوى ، وإن كان دليلهم فيها هو نفس ما تضمنه الورد من أذكار وأدعية وأن المواظب عليها إلى الموت يكون من الذين وفقوا للعمل الصالح حتى كان آخر أعمالهم العمل الصالح الذي يحكم لصاحبه أنه مات على الإيمان وحسن الخاتمة لحديث أنس رضي الله عنه قال قال رسول صلى الله عليه وسلم (إن الله إذا أراد بعبد خيرا استعمله ، فقيل : كيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت) هذا حديث صحيح ٠ (٢) إذا كان هذا من مقاصدهم في هذه الدعوى . وإن لم يذكروه . فإن أذكار الورد القادري وإن اشتمل على أذكار ورد الشرع بالحث عليها فإنهم أضافوا إليها زيادات وهيئهات هي من قبيل الابتداع المخرج للعبادة المشروعة عن أصل مشروعيتها على ما تقدم بيانه ، ثم إن الورد مشتمل على كثير من كلام البشر الذي تقدم نقد ما يحتاج إلى نقد منه وهو بعمومه لا يعطى هذه الدعوى ٠ لأن السعادة والشقاوة من الأمور التي لا يعلمها البشر إلا بظواهر الأعمال وقد فرغ من البشر فريق في الجنة وفريق في السعير . نسأل الله العافية لنا ولجميع المسلمين . سواء في ذلك القادرية وغيرهم وقد يواظب المرء على الخير مدة طويلة ثم يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار . والعياذ بالله .

---

(١) الفتح الباطني والظاهري ص ٨ ٠

(٢) جامع الترمذي كتاب القدر جـ ٦ ص ٢٩٤ رقم (٢٢٢٩) ٠

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له بعمل أهل الجنة) (١)

ولهذا ترجم البخاري بقوله باب العمل بالخواتيم ، وساق حديث الذي قاتل قتالا شديدا حتى أعجب به المسلمون ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لهم : (أما إنه من أهل النار) فلما أصابته جراح انتحر بسهم من كنانته لقلة صبره على آلام الجراح فصدق الله نبيه صلى الله عليه وسلم (فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك : إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة ، ويعمل عمل أهل الجنة وانه من أهل النار ، وإنما الأعمال بالخواتيم) (٢) إلا أننا مطالبون بالعمل وكل ميسر لما خلق له ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة ، ومن مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة وإن زنى وإن سرق كما يشهد بذلك حديث أبي ذر في الصحاح (٣) وليس في هذا كله خصوص للقادرية أو غيرها وهذه المعاني قررها الشيخ سيدي المختار الكنتي في المنة في اعتقاد أهل السنة والكوكب الوقاد (٤)

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى (٥) يقول : (والله ما أدري . وأنا رسول الله . ما يفعل بي) فالأولى بغيره أن يقول ذلك مهما كانت استقامته فإنه لا عهد لأحد عند الله تعالى يوجب عليه أن يختم له بالخير ولكن على المرء المسلم أن يسأل الله تعالى الثبات وأن يعيش بين الخوف والرجاء فعن ابن شهاب قال : أخبرني خارجة بن زيد ابن ثابت أن أم العلاء امرأة من الأنصار بايعت النبي صلى الله عليه وسلم . أخبرته أنه اقتسم المهاجرون قرعة ، فطار لنا عثمان بن مظعون فأنزلناه في أبياتنا ، فوجع وجعه الذي توفي فيه ،

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته .

(٢) صيحيح البخاري كتاب القدر ، باب العمل بالخواتيم .

(٣) صيحيح البخاري ، كتاب الجنائز وصيحيح مسلم كتاب القدر .

(٤) المنة ص ١٠٨ وما بعدها . الكوكب الوقاد ص ٩٦ .

(٥) اقتباس من سورة النجم الآيتان ٣ . ٤ .

فلما توفي وغسل وكفن في أثوابه دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم وما يدريك أن الله قد أكرمه ؟ فقلت : بأبي أنت يا رسول الله ، فمن يكرمه الله ؟ فقال أما هو فقد جاءه اليقين ٠ والله إني لأرجو له الخير ، والله ما أدري . وأنا رسول الله . ما يفعل بي ٠ قالت : فوالله لا أزكي أحدا بعده أبدا) (١).

ففي هذا الحديث زجر من الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم لأمته عن التحكم على الله تعالى ومثل بنفسه الشريفة وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وقد استجابت أم العلاء رضي الله عنها وفهمت فورا ما في هذا الحكم الذي أصدرته فتراجعت وأقسمت أن لا تزكي على الله أحدا بعد ذلك ٠

هذا في صحابي جليل هاجر مرتين فما بالك بغيره من الناس ٠ ثم إن هذا الحكم الذي أصدرته القادرية وحكمت به لمن واظب على وردها من الموت على حسن الخاتمه وإن عمل ما عمل على ما فيه من الدعاية للدخول في الطريقة والوعد بما ليس في المقدور البشري فإن فيه إرجاءاً ظاهرا يعتمد عليه الجهلة من شيوخ الطريقة ومريديها فيرتكبون من المنكرات ما لا يعلمه إلا الله اعتمادا على الوعد بحسن الخاتمة ، ومقتضي هذا الوعد : ادخل في الطريقة القادرية واعمل ما شئت فإنك من أهل الجنة ، ومشابهة هذا بما تقوله المرجئة ظاهر حيث إنهم يقولون للناس : لا يضركم مع الايمان ذنب كما أنه لا ينفعكم مع الكفر عمل (٢) فالدخول في القادرية هو الايمان والانخلاع من ربقة سلسلتها كما يقول الشيخ سيدي محمد الكنتي لعبد الله بن سيدي محمود (موجب لسوء الخاتمة والعياذ بالله بعد التغلغل بربقتها) (٣)

والخوف والرجاء هو الطريق الصحيح الذي يتعين على المسلم أن يعيشه ليعمل على ضوء الكتاب والسنة وينزجر عن البدع والمحرمات ، أما من يؤمن الناس حتى

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الدخول على الميت بعد الموت اذا ادرج في أكفانه ٠

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣١٩ ٠

(٣) الغلاوية ص ١٥ ٠

يوقعهم في الهلكة فذلك من مشابهات أعمال الشيطان وأوليائه من النصارى الذين ابتدعوا صكوك الغفران وغير ذلك من البدع التي تتعارض مع مسمى الايمان بالله تعالى . (فعن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب أي الهمداني أن عائشة . رضي الله عنها . زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ (١) قالت عائشة : هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : (لا يا بنت الصديق . ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) (٢) ثم إن الله تعالى يقول : ﴿ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ (٣) قال الحسن البصري رحمه الله : (المؤمن من يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن) (٤)

وهذا الذي ذكر القشيري عن مشايخ الصوفية الأولين الذين ترجم لهم فبين أنهم كانوا على منهج الخوف والرجاء وهو مذهب أهل السنة والجماعة (٥)

قال الطحاوي : (ولا ننزل أحدا منهم جنة ولا ناراً ، ولانشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق ، ما لم يظهر منهم شيء من ذلك ونذر سرائرهم إلى الله تعالى) (٦) وقد لاحظ بعض الفقهاء الموريتانين انتشار عدم الخوف من العاقبة لدى بعض المتصوفة فأخذوا يحذرون من ذلك وكان من بين المحذرين من هذه العقيدة سيدي محمد بن عبد الجليل الملقب سيدي بن حين فقال في دمغ المريد :

---

(١) سورة المؤمنين الآية ٦٠ .

(٢) جامع الترمذي كتاب التفسير ج ١٩ ص ١٥ رقم ٣٣٨٩ .

(٣) سورة الاعراف الآية ٩٩ .

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٥) الرسالة القشيرية ج ١ ص ٣٤٢ وما بعدها ونفسه ج ٢ ص ٦٦٥ .

(٦) شرح العقيدة الصحاوية ص ٣٦٦ . ٣٦٧ .

(واعلم بأن المرء إن تيسـرت له العلوم وامتثاله ثبـت

في عمره أجمع (١) ما فيه عمـل ذنبا فلا يلزم أن ذا قبـل

بل يبقى الاحتمال أنه يطـل وأنه هو شقـي في الأزل .) (٢)

وبهذا نكون قد انتهينا من بيان ما اشتمل عليه الورد القادري بعرضه على الكتاب والسنة وعمل سلف الأمة واتضح جليا أن ما اشتمل عليه الورد من الخير والذكر لا اختصاص لهم به فكل من جاء بما ورد به الشرع من المحدود من الأذكار والأعمال والنوافل الموسع فيها فهو على خير سواء كان قادريا أوغير قادري وسواء كان صوفيا أو غير صوفي ، واتضح كذلك أن ما اشتمل عليه الورد القادري من مسائل تخالف الشرع الحكيم إما بالزيادة أو بالنقصان فذلك عليهم لا لهم وهم مطالبون شرعا بالتوبة منه والرجوع إلى الجادة البيضاء .

والله أعلم .

---

(١) تقبل التوبة من التائب مالم يغرر

(٢) دفع المريد الرحلة العلمية ص ٢٣ .

المطلب الرابع : وظائف الورد أو قواعد الورد القـــــادري الأربع (أو المقاصد السنية للأوراد المأوية)

للورد القادري في موريتانيا أربع قواعد يؤخذ على المريد المواظبة عليها عقب كل فريضه من الصلوات الخمس .

عرض : يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي في معرض شرحه لدلائل هذه القواعد الأربع وفوائدها وبيان الوجه الذي رتبت به على هذا الشكل وبهذا العدد .

يقول : (واعلم أن وردنا هذا مبني على الكتاب والسنة فليست فيه لفظة إلا وهي مستندة إلى كتاب الله أو سنة رسوله فأوله دعوة يونس .. ثم بين فضل الذكر بهذا الدعاء وقال (ولهذا المعنى جعلها مشايخنا فاتحة لهذا الورد المبارك اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وامتثالا لأمره ورغبة فيما رغبهم فيه واغتباطا باللهج باسم الله الأعظم فإنه الكيمياء والكنز الذي لا يبيد) . (١) إلى أن قال :

١) (ومن قواعد هذا الورد المبارك الحسبلة الورادة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يقول : حسبنا ونعم الوكيل ... ثم بين فضل الذكر بها وقال : (ولهذه الفوائد الجليلة التي لا يقدر قدرها إلا الله اتخذها الجيلي رضي الله عنه لغزارة علمه ومكاشفة بلوغه في أسرار الحقائق كل مبلغ متنا لأوراده وأسا لتوجهاته حتى قيل إنه بها بلغ كل مبلغ ، وسر كونها مائتين ليجتمع في كل يوم للعامل بها ألف حسبلة لأنها مشتملة على ثلاثة أسماء عظام من أسماء الله تعالى : الحسيب والله والوكيل) (٢)

٢) (وأما الاستغفار الذي هو قاعدة من قواعد وردنا هذا فإنا مستندون فيه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فإن الله تعالى أمر أنبياءه وأولياءه بالاستغفار وحثهم عليه في آي كثير ... ثم أخذ يبين من الكتاب : والسنة فضل الاستغفار وقال:(وسركونها في هذا الوردالمبارك مائتين بعد كل صلاة ليجتمع

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١١ و ١٤ والذي في نعت البدايات أنها تقال بعد صلاة المغرب والصبح سبعا ص ٢٠٢ .

(٢) الكوكب الوقاد ص ٤٤ و ٤٧ والفتح الباطني والظاهري ص ٨ .

من ذلك في اليوم والليلة ألف من الاستغفار فيكون في صحيفة صاحبها يوم اللقاء استغفار كثير إذ الألف هي أكبر العقود وإليها تنتهي لأن العشرة عقد وكل مائة عقد فيجتمع عقود الأعداد كلها في الألف ٠٠) (١)

٣) (ومن قواعد هذا الورد المبارك كلمة الشهادة بعد كل فريضة مائة مرة وقد رويت على ثلاث هيئات : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ٠ ولا إله إلا الله الملك الحق المبين ٠ ولا إله إلا الله بالتجريد فهو أساس الإسلام والإيمان ٠٠) (٢)

٤) الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة ٠ وقد تقدم الكلام على باقي وردها

نقد :

توضيح : هذه الأذكار الواردة في هذه القواعد أو المقاصد فضيلتها معلومة بالكتاب والسنة وقد ورد كثيرا الحث عليها ليلا ونهارا وهذا يدل على أنها من الأذكار المطلقة التي لم يحد الشارع فيها وقتا معينا ولا عدداً محددا ٠

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيىء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئه وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك ومن قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر) (٣)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة) (٤)

---

(١) الكوكب الوقاد ص ٦٦ . ٦٧ ٠

(٢) نفسه ص ٧٤ وما بعدها ٠ الفتح الباطني والظاهري ٨ ونعت البدايات ص ٢٠٢ وقد أقرها الشيخ سيدي المختار في مقاصد سماها شذرات الأذكار ص ٦ منه وما بعدها ٠

(٣) صيحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل التهليل والتسبيح وعمل اليوم والليله وما بعدها ص ٣٣ ٠

(٤) صحيح البخاري كتاب الدعوات ، باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة ٠

(وعن مصعب بن سعد حدثني أبي قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة فسأله سائل من جلسائه كيف يكسب أحدنا ألف حسنة • قال : يسبح مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة أو يحط عنه ألف خطيئة) (١)

فهذه الأحاديث الصحاح التي نصت على عظم ثواب الاستغفار والتسبيح والتهليل فيهاغنية عن الزيادات التي وردت في هذه القواعد ، وتغني كذلك عن اجتهادات الشيوخ في تحديد الكثرة بعقود الأعداد ، هذا بالإضافة إلى أنني لم أجد في الأذكار الصحاح طلب الإتيان بعدد أزيد من مائة ولمن أراد أن يزيد على ذلك العدد متسع وفضل كبير يحوزه بزيادته على من اقتصرعلى المائة فقط ولكن بدون أن يحدد عددا من نفسه يلتزمه كواجب أو قاعدة ثابته أو أن يأخذ ذلك عن أحد من الناس إذ مرتكب ذلك شابه المنصب لنفسه مشرعا يحدد العبادات والأذكار وثوابها وإن كانت بأصلها مشروعة وفضلها عظيما (٢)

هذا إذا لم يتعارض هذا الورد مع الورد الذي سنه النبي صلى الله عليه وسلم لأمته دبر كل فريضة وبين لهم أنه سبب لغفران الذنوب وإلا كان هذا الورد بوضعه هذا بدعة شنيعة لإماتته لسنة عظيمة مقطوع بثبوتها عن الشارع الحكيم قولا وفعلا وتقريرا وقتا وعددا (فعن كعب بن عجرة عن رسول اله صلى الله عليه وسلم قال : (معقبات لا يخيب قائلهن أو فاعلهن ثلاث وثلاثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميدة وأربع وثلاثون تكبيرة في دبر كل صلاة) وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد الله ثلاثا وثلاثين وكبر الله ثلاثا وثلاثين فتلك تسعة وتسعون وقال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيىء قدير غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر) (٣)

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل التهليل والتسبيح •

(٢) فتاوى الإمام الشاطبي تحقيق محمد أبو الأجفان ط ٢ سنة ١٤٠٦ توس ص ١٩٨ وما بعدها

(٣) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ن باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته •

وإذا كان ذلك الورد القادري لا يطالب به المريد الا بعد الاتيان بالورد الذي سنه النبي صلى الله عليه وسلم فانه يبقى النظر فيه في الأمور الآتيه :

١) أن ورد النبي صلى الله عليه وسلم مائة واحدة وهذا الورد مائيتان من غير الألفاظ التي وردت في الورد النبوي فهو مختلف عنه لفظا وعددا ، فتعين الاقتصار على ورد النبي صلى الله عليه وسلم ٠

٢) أن ألفاظ الورد القادري ورد الشرع بالحث على الذكر والدعاء بها مطلقا أو في حالات الكرب كالحسبلة مثلا (١) بدون تحديد بعدد ولا وقت فتعين الوقت والعدد فيه تحكم على الشارع وتخصيص بلا مخصص ٠

٣) أن الزيادة على المائة الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأذكار يفهم منه استدراك أوطلب شيىء أفضل مما حدده الشارع وكفى بهذا محبطا للعمل وبركته ، وقد جرجب إتقان هذا الورد عددا إلى اتخاذ سبحة وحملها دائما فيكون صاحب هذا الورد مرتكبا لأمرين عظيمين أحدهما التزام ما لم يشرعه الشارع من عدد معين في الأذكار ٠ وثانيهما : اتخاذ وسيلة (٢) غير مأذون فيها شرعا وهي المسبحة وإنما قلت بأنها غير مشروعة لأنها تقضي على سنة العد بالأصابع الثابت في السنة (٣) ولحصول الوضع في الحديث بسببها ، وعدم ثبوت القول بإقرار النبي صلى الله عليه وسلم لمثلها ٠ ولما في حملها أمام الناس من الرياء في العبادة ولو ظاهرا والرياء محبط للعمل (٤)

يقول الشيخ الألباني : (وقد يقول قائل : إن العد بالأصابع كما ورد في السنة لا يمكن أن يضبط به العدد إذا كان كثيرا ٠

---

(١) القرطبي ج ٤ ص ٢٨٢ ٠

(٢) نعت البدايات ص ١٧ ـ ١٨ وكتته الشرقيون ص ١٥١ ٠

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب التسبيح أول النهار ٠

(٤) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء على الأمة ج ١ ص ١١٠ وما بعدها ٠

فالجواب : قلت : إنما جاء هذا الإشكال من بدعة أخرى وهي ذكر الله في عدد محصور لم يأت به الشارع الحكيم ، فتطلبت هذه البدعة بدعة أخرى وهي السبحة فإن أكثر ما جاء من العدد في السنة الصحيحة ، فيما أذكر الآن مائة ، وهذا يمكن ضبطه بالأصابع بسهولة لمن كان ذلك عادته .

ولو لم يكن في السبحة إلا سئية واحدة وهى أنها قضت على سنة العد بالأصابع أو كادت ، مع اتفاقهم على أنها أفضل ، لكفى ! فإني قلما أرى شيخا يعقد التسبيح بالأنامل ! ثم إن الناس قد تفننوا في الابتداع بهذه البدعة ، فترى بعض المنتمين لاحدى الطرق يطوق عنقه بالسبحة ! وبعضهم يعد بها وهو يحدثك أو يستمع لحديثك ! وآخر ما وقعت عيني عليه من ذلك منذ أيام أننى رأيت رجلا على دراجة عادية يسير بها في بعض الطرق المزدحمة بالناس وفي إحدى يديه سبحة ! ! يتظاهرون للناس بأنهم لا يغفلون عن ذكر الله طرفة عين ! وكثير ما تكون هذه البدعة سببا لإضاعة ما هو واجب ..) (١)

---

(١) نفسه جـ ١ ص ١١٦ .

عرض وظائف الورد القادري :

الوظائف جمع وظيفة وهي أذكار وأدعية تكرر في الصباح والمساء بقصد التحصن والتحرز واستجلاب الخير ، وترى القادرية أن إنكار بعض الفقهاء على موظف الوظائف والأوراد على جهة الالتزام وإيجابها وإيجاب تداركها وقضائها إنما هو ناشيء عن الجهل بطريق القوم ٠ (١)

الوظيفة الأولى : وهي التى تقدم أن الورد يستفتح بها كما قال الشيخ سيدي المختار الكنتي وهي : (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين (٢) سبع مرات (٣) .

الوظيفة الثانية : وهـي : (قولك اللهم يا لطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير سبعا ٠ يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي ناقلا عن غيره أن هذه الدعوة سر هذا الإسم الأعظم وأنه لا يقولها أحد سبعا بعد كل صلاة إلا وقى من بوائق الدهور وصوحب باللطف الخفي في حركاته ٠ وبساط هذه الدعوة وأصلها قوله تعالى : ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز ﴾ (٤)

الوظيفة الثالثة : يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي (ومن هذه الأوراد ما يقال بعد صلاة الصبح والمغرب سبعا كيا الله يا واجد يا أحد يا موجود يا جواد انفحني منك بنفحة تغنيني بها عمن سواك وعن رحمة من سواك إنك على ما تشاء قدير) (٥)

قلت : وقد بين المراد بالنفحة وأنها ضد اللفحة ، فالنفحة الهبة من الرحمة التي تعم وقال : بأن في الحديث : تعرضوا لنفحات الله (٦)

---

(١) الطرائف ص ٥٧ ٠

(٢) سورة الانبياء الآية ٨٧ ٠

(٣) نعت البدايات ص ٢٠٢ والكوكب الوقاد ص ١١ ٠

(٤) سورة الشورى الآية ١٩ ٠

(٥) الكوكب الوقاد ص ٢٠ ودرسنا ما فيها في سيف الحكماء ٠

(٦) الكوكب الوقاد ص ٤٧ ونعت البدايات ص ٢٠٣ الكوكب الوقاد ص ٦٥ ٠

الوظيفة الرابعة : (ومن أصول هذا الورد قولهم بعد الصبح والمغرب أربعا وعشرين (اللهم بارك لي في الموت وفيما بعد الموت ، والأصل فيه قوله صلى الله عليه وسلم أكثروا من ذكرها ذم اللذات فإنكم إن ذكرتموه في قليل كثره أو في كثير قلله) (١)

الوظيفة الخامسة : (ومن وظائف هذا الورد كلمات يدعى بها بعد التهجد وهي : اللهم إنى أسألك إيمانا دائما اللهم إني أسألك ياذا الأسماء الحسنى والصفات العليا إيمانا دائما وتصديقا دائما ورد عنك على لسان رسولك) (٢) (وعلماً نافعاً) والاصل في هذه الوظيفة قوله عليه الصلاة والسلام (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تقنع أعوذ بك من هؤلاء الأربع ٠٠) (٣)

اللهم صلى على سيدنا محمد وارضى على روح غوث الثقلين سيدي عبد القادر الجيلي وارضى عن شيخي فلان أي من أخذت عنه وعن أشياخي أولهم وآخرهم واجزهم عني خيرا ثلاثا أو سبعا اللهم إني أعوذ بك من كل صاحب يرديني ومن كل أمل يغويني ومن كل عمل يخزينى ومن كل غنى يطغيني ومن كل فقر يلهيني اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من الجبن والغل وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ، وأعوذ بك من قلب لا يخشع وعين لا تدمع ونفس لا تقنع وعلم لا ينفع وأعوذ بك من هؤلاء الأربع) (٤)

وقال الشيخ سيدي المختار الكنتي (وأما قولنا : اللهم ارضى على روح غوث الثقلين إلى آخره فإنه مأخوذ من كتاب الله لأنه تعالى أمر بالدعاء لمن سبقنا بالايمان والترضي عنهم بأي لفظ شئنا خصوصا المشايخ بدليل قوله تعالى : ﴿ والذين جاء وامن بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ٠٠) (٥) .

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١٤١ ٠

(٢) الكوكب الوقاد ص ١٤٩ ٠

(٣) نفسه ص ١٥٠ . ١٥١ ٠

(٤) نعت البدايات ص ٢٠٣ ٠

(٥) سورة الحشر الآية ١٠ ٠

قلت : وهذه الوظائف مختلف في ترتيبها وعددها وأعداد تكرارها وقد سماها جامع الشذرات : الأذكار المختارية بالمسبعات ، وزاد فيها بعض الأمور التي هي من قواعد الورد المتقدمة (١) .

نقد

تتهم الصوفية عموما من يعترض على أورادها ووظائفها أو ينتقد التزاماتها ومظاهر الانحراف في سلوكها بأنه متعصب أو جاهل بطريقتهم ، ولا ينظرون في وجاهة اعتراضه والعمل على تصحيح ما اعترض عليه أو انتقد ، ومجرد وصف المعترض أو الناقد بالتعصب أو جهل طريقة القوم لا يفيد الطرفين كما أن الاعتراض من أجل الاعتراض فقط أو التعصب لغير الحق لا يفيد أيضا أحد الطرفين وأما جهل الفقيه لما عليه الصوفية لا يبرؤه من إنكار المنكر إذا كان يعلم أنه منكر بحكم معرفته بالكتاب والسنة إذ إن موسى عليه السلام أنكر على الخضر عليه السلام على ضوء شريعة موسى عليه السلام ولم يمنعه جهله بما عليه الخضر عليه السلام من الانكار ولم يتركه حتى بين له أنه لم يفعل ما فعل عن أمره هذا بين نبيين كل منهما مأمور بأمر لم يبين للآخر المراد منه فكيف بمن ليس بنبي ولا معصوم من الخطإ والكفر وكل مخاطب بشريعة واحدة الخارج منهما عنها في مسألة واحدة كان هو المخطيء بلا شك ووجب على العالم بوجه تلك المسألة أن يأمره وينكر عليه حتى يرجع إلى الصواب أو تكون الحجة قد قامت عليه وبرئت الذمة من واجب الأمربالمعرف والنهي عن المنكر في حدود المخالفة بدون زيادة ولا نقصان ولا تشنيع ولا تقصير في النصح والبيان وعلى هذا فمما تتهم به القادرية الناقدين لها على توظيف الوظائف والأحزاب والأوراد والألتزامات الأخرى من طلب العلم للرئاسة أو الإنكار من أجل التعصب وحب الظهور أو بسبب الجهل بطريق القوم فكل هذه العبارات مهدورة إذا كان مضمون النقد وجيها ومنصبا على المنقود ولم يتجاوز الفقيه الناقد فيه حد المطلوب بالسباب والاتهام ، ومن رد هذا كان الأولى بالوصف بالتعصب وحب الرئاسة والمكابرة والجهل بطريق الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح .

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١٤ نفس المراجع والشذرات ص٩ . ١٠ .

والذي ينقد في الوظائف هو ما خالفت به أو فيه الشرع الحنيف فإن كان الدعاء الموظف ورد الشرع بأصله فالانحراف عن ألفاظه مع القدرة على حفظها والتعبد بها مظنة لأمور منها : التقصير في معرفة ما ورد عن الشارع الحكيم من أدعية وأذكار في هذا الوقت المعين مثلا وهذا المقصر ولو كان في منصب المشيخة لا يعتبر في قانون الصوفية أهلا لهذا المكان لأنهم يقولون بأن طريقتهم مبنية على الأخذ بالعزائم ومراقبة الأنفاس وأولى ما يؤخذ فيه بالعزيمة وصرف الأنفاس فيه هو معرفة ما يذكر الله به في المساء والصباح بنصه من القرآن الكريم أو لفظه من النبي صلى الله عليه وسلم والاقتصار على ذلك لما فيه من الكفاية والبركة المرجوة في العاجل والآجل .

ومنها أنه إذا لم يرض بالتقصير واختار مع ذلك أدعية وأذكاراً يتعبد الله بها ويلزم غيره من الناس المطيعين له بها فإنه لا يخلو حاله من أحد أمرين :

أحدهما : أنه يرى أن أدعيته وأذكاره هذه التي اختارها خير من الأدعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي هذا من المنافاة مع الشرع ما يحكم لصاحبه بالبعد من الولاية والمشيخة اللذين نصب نفسه بهما مطاعا ومتبعا .

ثانيهما : أن يكون ارتكب هذا الاختيار بسبب الجهل بالكتاب والسنة وهذا يكفي دليلا على عدم صلاحيته لوضع مثل الأوراد والوظائف إذ الجاهل لا حجة في عمله ولا يجوز أن يتبع على جهله .

فإذا كان مقرا بأن فيه من الأدعية والأذكار الواردة في الصباح والمساء عن النبي صلى الله عليه وسلم ما هو معترف بأفضليته وكفايته للمتعبدين والمتحصنين عن إحداث غيره بألفاظ وأعداد وأوقات معينه وادعى مع ذلك أنه إنما وظف هذه الوظائف على هذا النمط لعلمه بصحة أصولها ومشروعية الدعاء بمثلها تسهيلا على المريدين والسالكين . فيقال له هذه الدعوى على ما فيها من النزول إلى امستوى العوام بدلا من العمل على رفعهم إلى درجة العلم والفهم الذي به يزداد الايمان فإنها دعوى تحتاج إلى بينة . وعرض ونقد ما اشتملت عليه هذه الوظائف يوضح ما يقبل من هذه الدعوى وما يريد إن شاء الله .

أما الوظيفة الأولى : وهي : دعوة يونس عليه السلام فقد تقدم بيان ما ورد فيها وأنها من أدعية الكرب التي لا يرد دعاء مسلم مضطر دعابها (١) ولم نجد أثرا يحدد عددا معينا يدعى بها بعدده لا ثلاثا ولا سبعا ولكن ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم (كان يعجبه أن يدعو ثلاثا ، ويستغفر ثلاثا) (٢)

فمن قصد التأسي به في ذلك في دعائه لنفسه فلا نجد ما يرده ولكن إن أخذ من ذلك جوازا ملطقا لوضع أعداد معينة من عنده لأدعية وردت مطلقا فهذا ما يعد من التحكم والتخصيص بدون مخصص من الشارع .

أما الوظيفة الثانية : فإنها تضمنت سؤال الله تعالى باسمه اللطيف اللطف فيما جرت به المقادير وسؤال الله باسم مناسب للحاجة المطلوبة من آداب الدعاء ومن أسباب استجابة الله تعالى ، وقد أمر الله عباده أن يدعوه بأسمائه الحسنى على الإطلاق فيدعى بها على الإطلاق أو يدعى بما ورد منها ضمن الأدعية النبوية أما توظيف عدد منها بعد كل فريضة فلا يمنعه من أن يكون بدعة ما ورد من الحث على الدعاء بأسماء الله الحسنى على الاطلاق وما يناسب الحاجة المدعو بها كيا رحمان ارحمني ويا رزاق ارزقني (٣) فإن الإضافات التي يظن صاحبها أنها أفضل أو أقرب للخير هي من باب تخوين حامل الرسالة ومبلغ الخير للناس فانه صلى الله عليه وسلم ما ترك خيرا إلا ودل أمته عليه ولا شرا إلا حذرها منه فمن أحدث بعذ ذلك شيئا في باب العبادات والقربات قليلا أو كثيرا لفظا أو عددا فهو استدراك على النبي صلى الله عليه وسلم فيكون مردودا على صاحبه(فليس في خلاف السنة رجاء ثواب) (٤)

وأما الوظيفة الثالثة : فقد اشتملت على سؤال الله والتوسل له ببعض أسمائه الحسنى وهو من التوسل النافع واستحسانهم لهذه الوظيفة في هذا الوقت أي بعد

---

(١) المستدرك كتاب الدعاء ج ١ ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦ .

(٢) عمل اليوم والليلة ص ٣٣١ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ج ٢ ص ٨١٠ و ٨١٦ والقرطبي ج ١٦ ص ١٦ ـ ١٧ .

(٤) فتاوى الشاطبي ص ١٨١ .

صلاة الصبح وصلاة المغرب وكونها سبعا لم نجد له مستندا ينص عليه من كتاب أو سنة إذ إن سؤال الله بأسمائه الحسنى ورد مطلقا كما تقدم وورد أيضا الترغيب في الذكر والدعاء بعد هذين الوقتين المذكورين دبر المكتوبة وهو من الذكر بالغدو والآصال والمحدد من ذلك عن الشارع هو ما تقدم بيانه من المعقبات وما زاد على ذلك فموسع فيه ولا مسرح للاستحسان في تحديد ذكر معين في وقت معين وقد جاء في هذه الوظيفة لفظة : (يا موجود) ولم نجده في أسماء الله المروية في السنن (١) هكذا وقال القاضي أبو بكر بن العربي : وقد زاد بعض علمائنا فيها . يعني اسماء الله الحسنى : شيىء ، موجود ...) (٢)

وفي هذه الوظيفة أيضا لفظة : (انفحنى منك بنفحة) ويظهر أن الشيخ سيدي المختار الكنتي سئل عنها فقال بأنها من نفحات رحمة الله تعالى وهبته كما في قوله عليه الصلاة والسلام : (تعرضوا لنفحات رحمة الله فإن لله تعالى نفحات فمن أصابته نفحة من تلك النفحات سعد سعادة لا شقاوة بعدها) (٣)

ولفظ الحديث الذي ذكره الشيخ سيدي المختار الكنتي كما في شعب الإيمان للبيهقي وشرح السنة للإمام البغوي هو : (عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اطلبوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات رحمة الله ، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده ، وسلوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم) (٤) قال البغوي هذا حديث غريب) .

ولعل الغرابة التي ذكرها الإمام البغوي بسبب أن في سند الحديث من اختلف فيه إذ فيه حرملة بن يحى التجيبي ، شيخ مسلم ، صدوق يغرب . قال أبو حاتم (لا يحتج به) وقال عبد الله ابن محمد الفرهياني (ضعيف) وقال ابن عدي: (قدتبخرت فى حديثه وفتشته الكثير فلم أجد له ما يجب أن يضعف من أصلـه (٥) ولولا ان بعض أهل العلم يقول : (إذا روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحلال والحرام

---

(١) المستدرك جـ ١ ص ١٦ . ١٧ وغيره .
(٢) أحكام القرآن لابن العربي جـ ٢ ص ٨٠٧ .
(٣) الكوكب الوقاد ص ٦٥ .
(٤) شعب الإيمان جـ ٢ ص ٤٢ (رقم ١١٢١) وشرح السنة جـ ٥ ص ١٧٩ (رقم ١٣٧٨)
(٥) المغني في الضعفاء جـ ١ ص ٢٢٩ رقم ١٣٥١ ـ م س (٥ ق ٥) .

والأحكام شددنا في الأسانيد وانتقدنا الرجال وإذا روينا في فضائل الأعمال والثواب والعقاب والمباحات والدعوات تساهلنا في الأسانيد) (١) لقلت بأن هذا الحديث المستدل به على جواز إطلاق هذه اللفظة والدعاء بها فيه نظر لضعف الحديث الوارد عند بعضهم لما في سنده من الاختلاف في حرمله المذكور .

الوظيفة الرابعة : التي تشتمل على طلب المباركة في الموت وفيما بعد الموت أربعاً وعشرين مرة بعد الصبح والمغرب . وأن الأصل عندهم في هذه الوظيفة هو ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من الحث على تذكر الموت وقصر الأمل والمباركة في الموت قد يراد به عندهم أن يكون راحة من كل شيء ، وما ذكروه في الأصل وارد ولكنهم لم يراعوا ماورد في الأصل من الحث والترغيب وتعليل ذلك فقط حيث إنهم زادوا على النص فقيدوه بعدد أربع وعشرين ولم يذكروا لهم مستندا لذلك ولم نجده أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي يوخذ عنه أصل العبادة وهيئتها ، والذي يعرف عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه يحب الوتر وإذا دعا دعا وترا ثلاثا مثلا كما تقدم (٢) ثم إن الحديث الذي ذكروه أصلا لهم في هذه الوظيفة ويطلب فيه الإكثار من هادم اللذات قال في بيانه القرطبي في التذكرة (فصل) قال علماؤنا رحمة الله عليهم قوله عليه الصلاة والسلام (أكثروا ذكر هادم اللذات الموت) كلام مختصر وجيز قد جمع التذكرة وأبلغ في الموعظة فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره نغص عليه لذته الحاضرة ، ومنعه من تمنيها في المستقبل وزهده فيما كان منها يؤمل ، ولكن النفوس الراكده ، والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ ، وتزويق الألفاظ وإلا ففي قوله : (صلى الله عليه وسلم) عليه الصلاة والسلام (أكثروا ذكر هادم اللذات) مع قوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) (٣) ما يكفي السامع له ، ويشغل الناظر فيه) (٤)

قلت : وأحاديث الحث على قصر الأمل والعمل لما بعد الموت كثيرة مخرجة في السنن وغيرها (٥) وأقرب شيء للعدد الذي ذكروه في هذه الوظيفة هو ما أورده القرطبي بصيغة التمريض فقال : (وروي عنه عليه السلام أنه قال : كفى بالموت واعظا وكفى بالموت مفرقا) وقيل له يا رسول الله : هل يحشر مع الشهداء أحد ؟

---

(١) المستدرك كتاب الدعاء جـ ١ ص ٤٩٠ .

(٢) شرح السنة جـ ٥ ص ٣٠ و ١١١ و ١١٢٠

(٣) سورة آل عمران الآية ١٨٥ .

(٤) التذكرة في أحوال الموتى والآخرة جـ ١ ص ٩ .

(٥) شعب الايمان جـ ٧ ص ٣٥٤ وسنن ابن ماجه جـ ٢ص ٥٦٥ . ٥٦٦ .

قال : نعم ، من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة) (١) فالأولى الاقتصار على القول بهذه الرواية على مايظهر عليها من دلائل الضعف أو العمل على الإكثار من ذكر الموت والاستعداد لــه بدون حد لأن لفظ النبي صلى اللــه عليه وسلم (أكثروا) لا يعطى هذا العدد الذي ذكروه وهو أربع وعشرون بعد صلاة الصبح وصلاة المغرب • والله أعلم •

وأما الوظيفة الخامسة : التي يدعى بها بعد التهجد فإنهما مشتملة على الفاظ ومعاني أدعية نبوية شريفة في الصحاح والسنن والمسانيد (٢)

ولكن مع ذلك أضافوا إليها من الأمور ما يخرجها من حد السنة إلى البدعة لتخصيصها بوقت لم يرد عن الشارع والتخصيص والقصد إليه من البدع في شرع الله ثم إنه ورد عن الشارع في هذا الوقت أدعية كثيرة غير هذه (٣) فا لاقتصار عليها كوظيفة ثابتة ينافي ما كان عليه المصطفى صلى الله عليه وسلم من التعبد في هذا الوقت المبارك من الليل بأنواع من الأدعية الجامعة لخيري الدنيا والآخرة وإن كانت الوظيفة لما فيها من الآثار النبوية والأدعية الشريفة وما في معناها قد اشتملت على جوامع من ذلك فلو سلمت من تخصيصهم للوقت وما ختمت بــه من دعــاء للمشــايخ مشتمل على لفظة (الغوث) لكانت مقبولة إن شاء الله •

وهذه اللفظة تقدم نقدها في باب العقيدة عند الكلام على القطب حيث قالوا : بأن الغوث: هو القطب حين ما يلتجأ إليه ، ولا يسمى في غير ذلك الوقت غوثا (٤) فالغوث لفظة محدثة كعلم على منصب في الدين والولاية كالقطب والمراد بهما باطل شرعا وواقعا لما يأتي :

فهي من حيث اللغه كما في القاموس المحيط (غوث) تغويثا قال واغوثاه والاسم

---

(١) التذكرة جـ ١ ص ٨ •

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الدعوات ، باب التعوذ من الفتن والمستدرك كتاب الدعاء جـ ١ ص ٥٣٣ وما بعدها • ومسند الإمام أحمد جـ ١٤ ص ٢٨٦ و ٣٠٠ وما بعدها •

(٣) انظر فتاوى الشاطبي ص ١٩٣ وما بعدها •

(٤) التعريفات للجرجاني ص ١٦٣ •

الغوث والغواث بالضم وفتحه شاذ واستغاثني فأغثته إغاثة ومغوثة والاسم الغياث بالكسر ... وما أغثت به المضطر من طعام أو نجدة وسموا غياثا ومغيثا ... والمغيثية مدرسة ببغداد ويغوث صنم كان لمذحج) (١)

فهذه اللفظه إما أن يكون المسمى بها عندهم يملك الغوث مطلقا من دون الله تعالى وهذا هو الذي يفهم من كلام الصوفية المدعين لشيوخهم القدرة على التصرف في الكون بالنفع والضر ويؤكد أن هذا مرادهم ما قدمناه في مبحث ادعاء التصرف في الكون لبعض مشايخ القادرية ويؤخذ من قولهم في القطب وأنه هو الغوث في حالة اللجإ إليه ، واللجأ في حال الاضطرار لا يكون إلا إلى من يعتقد الملتجيء فيه أنه قادر على جلب النفع أو دفع الضر . وهذا لا يعتقده مسلم في أحد دون الله تعالى لانه جل وعلا هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء قال الله تعالى :

﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون ﴾ (٢)

وقال جل من قائل عليما : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ..... ﴾ (٣)

فهذا القرآن الكريم يوبخ من يعتقد أن أحدا سوى الله يكشف الضر أو يجلب الخير ويقول لمعتقد ذلك (أإله مع الله) ذلك أن الآله هو الذي من شأنه لقدرته وجوده وكرمه إغاثة الملهوف على الإطلاق وليس ذلك لأحد سواه ، فمن انقطعت به السبل وضاقت به الأرض فلجأ إليه مضطراً يدفعه الإخلاص واللجأ أجابه (٤) فلا أحد في السماوات ولا في الأرض يملك مثقال ذرة معه لا استقلالا ولا مشاركة ولا أحد يشفع

---

(١) القاموس المحيط جـ ١ ص ١٧١ .

(٢) سورة النمل الآية ٦٢ .

(٣) الآيتين من سورة سبأ الآية ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) القرطبي جـ ١٣ ص ٢٢٣ .

عنده من الملائكة أو من الجن أو الانس إلا بإذنه ولا تنفع شفاعة شافع لم يأذن الله له ويرضى بشفاعته ٠ (١)

فهذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة فمن خالفها واعتقد في مخلوق أنه يستغاث به من دون الله فيما لا يقدر عليه إلا الله سواء كان هذا المخلوق حيا أوميتا فقد ارتكب إثما عظيما : ﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾ (٢) فمن قامت عليه الحجة بهذه العقيدة واستمر عليها كان كافرا إذ إن هذا من الاستغاثة التي لا تجوز إلا لله تعالى فمن اثبتها لغيره بعد أن كان جاهلا أو متأولا وقامت عليه الحجه بالبيان التام كان مصرا على عقيدة عباد الكواكب و أمثالهم من المجوس (٣) أما إن أراد بهذه التسمية (الغوث) أنه يسغاث به فيما يقدر عليه المخلوق من مساعدة بدعاء صالح أو قول حسن أو شفاعة عند مخلوق من البشر الذين شرعت الشفاعة فيما بينهم أو استجابة لنداء في دفع صائل أو مساعدة مادية فهذه من الأمور المشروعة المرغب في التعاون فيها وهي لا تكون إلا من الحي الحاضر حيث يمكن أن يسمع نداء المستغيث أو يصله طلبه ، والشيخ عبد القادر قد مات رحمه الله فهو بحاجة إلى أن يدعى له لا أن يدعى هو أو يستغاث به ٠

ومع بيان القصد الحسن الجائز في هذه الأمور إن كان هو المراد عندهم مع مابيناه من استحالته أيضا يبقى النظر في جواز استعمال هذه الكلمة من حيث الأمور الاتية :

أولا : أن الغوث اسم لرجل قيل إنه كانت له خدمة البيت الحرام وإجازة الحجيج من عرفة وهو الغوث ين مرين أدبن طابخة وهو صوفة الذي رجح ابن الجوزي أن الصوفية تنتسب إليه لما كان عليه من التنسك وخدمة الكعبة والاجازة بالحاج (٤) ويقول الدكتور النشار : (أجمعت المصادرعلى أن أول من سمي صوفية هو رجل يمني اسمه الغوث ابن مرين طابخة) (٥)

---

(١) نفسه جـ ١٤ ص ٢٩٥ ٠
(٢) سورة النساء الآية ٤٨ ٠
(٣) الرسائل الكبرى ، رسالة الاستغاثه جـ ١ ص ٤٨٥ ٠
(٤) تلبيس إبليس ص ٢٠٠
(٥) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ٢ ص ٤٠ ٠

فالمتعلق باسم رجل جاهلي كان له تنسك بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الخير العميم إما جاهل يعلم أو مغرم بعصر الجاهلية بعد النور والإيمان والقرآن والسنة وهذا فيه من السفه أو الكفر والفسوق ما لا يخفى .

ثانيا : أن الغوث اسم لصنم كان عليه نزاع بين قبائل من طيء في جاهليتها وقد دخلت طيء ولله الحمد في الإسلام وحطمت معبودها وعبدت الله وحده وآمنت برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهم إما أن يكونوا سموه باسم أحد أصنام قوم نوح عليه السلام وهو (يغوث) ﴿ وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾ (١) وهذه الأصنام كما قال أهل العلم بأنها من معبودات الهند التي انتشرت عنها في بلاد فارس والروم حتى أدخلها إلى أرض العرب عمرو بن لحي (٢) وقد أثرت الهند بعباداتها ومعبوداتها في الديانات السابقة للإسلام وسجل بعض الناس مظاهر من تأثيرها في التصوف في الإسلام (٣) وإما أن يكونوا سموه باسم الرجل الذي كان له تنسك في الجاهلية وخدمة للبيت العتيق وقيادة الحجيج .

وإما أن يكونوا أخذوا هذا الإسم (الغوث) من الطلب وهو الاستغاثه أي الذي يستغاث به في الملمات والشدائد ، أو من الإجابة أي أنه يملك إسعاف المستغيث به بطلبته ومعلوم أن أهل الجاهلية كانوا يتخذون الوسائط في طلب حاجاتهم من الله مع علمهم واعتقادهم أن الله تعالى هو قاضي الحاجات وإنما هذه الوسائط من الأصنام والأوثان تقربهم إلى الله زلفى ولذا هم يصرفون لها بعضا من القربات ويقدمون لها بعض القرابين وبهذا كانوا مشركين في توحيد العبادة ولا يقبل منهم توحيد الربوبية فمن شابههم في مثل صنيعهم في الدعاء والاستغاثة بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله كما كان ذلك من صنيعهم هم كان حكمه كحكمهم في الاشراك بالله تعالى وواضح كما سبق . من توجههم إلى الغوث عندهم في الملمات والشدائد انهم يريدون المعنى الأخير

ولعل هذا ماخشى منه النبي صلى الله عليه وسلم عند إطلاق بعضهم لهذه العبارة

---

(١) سورة نوح الآية ٢٣ .

(٢) فتح الباري كتاب التفسير جـ ٨ ص ٦٦٨ والقرطبي جـ ١٨ ص ٣٠٧ . ٣٠٩ .

(٣) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ٣ ص ٦٧ وما بعدها والصوفية معتقدا ومسلكا ص ٥٣

وإن كان الذي أطلقها لا يخشى عليه من إرادة المعنى الفاسد ولكن يخشى على غيره ممن كان يألف الاستغاثة واللجأ إلى الأصنام وما في حكمها فيما لا يقدر عليه إلا الله جل وعلا ٠ فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : (كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ٠ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنه لا يستغاث بي وإنما يسغاث بالله) (١)

قال صاحب فتح المجيد في بيان ما يؤخذ من هذا الحديث : (فيه النص على أنه لا يستغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا بمن دونه ٠ كره صلى الله عليه وسلم أن يستعمل هذا اللفظ في حقه وإن كان مما يقدر عليه في حياته ، حماية لجناب التوحيد ، وسدا لذرائع الشرك وأدبا وتواضعا لربه وتحذيرا للأمة من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال ٠٠) (٢) فالمغيث على الاطلاق هو الله وحده وهو غياث المتسغيثين كما في حديث الاستسقاء في الصحيحن : (اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم أغثنا) (٣) قال الحافظ بن حجر (وجائز أن يكون من الغوث أو من الغيث ، والمعروف في كلام العرب غثنا لأنه من الغوث ، وقال ابن القطاع : غاث الله عباده غيثا وغياثا سقاهم المطر ، وأغاثم أجاب دعاءهم ، ويقال غاث وأغاث بمعنى والرباعي أعلى ٠ وقال ابن دريد : الأصل غاثه الله يغوثه فأغيث واستعمل أغاثه ، ومن فتح أوله فمن الغيث ويحتمل أن يكون معنى أغثنا أعطنا غوثا وغياثا) (٤)

قال تعالى : ﴿ إذ تسغيثون ربكم فاستجاب لكم إني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ (٥) (٠٠٠ فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ٠٠) (٦) فالاستغاثة في طلب النصر وجلب النفع ودفع الضر على الاطلاق لا تجوز إلا بالله إذ هو القادر على إيجاد ذلك وتقديره (٧)

---

(١) الطبراني في الكبير٠

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، تأليف الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ط ٧ دار الفكر سنة ١٣٩٩ هـ ص ١٨٤ ـ ١٨٥ ٠

(٣) صحيح البخاري كتاب الاستسقاء ، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة ٠ الحديث رقم : (١٠١٤)

(٤) فتح الباري جـ ٣ ص ٥٠٣ ٠

(٥) سورة الانعام الآية ٩ ٠

(٦) سورة القصص الآية ١٥ ٠

(٧) القرطبي جـ ٧ ص ٣٧٠ ٠

والاستغاثة بمعنى دفع معتد أو مساعدة على قمع عدو مقدور عليه جائزة كما في استغاثة الذي من شيعة موسى على الذي من عدوه (فوكزه موسى فقضى عليه) (١)

ومن هنا قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (••• ولهذا قال العلماء المصنفون في أسماء الله تعالى : يجب على كل مكلف أن يعلم أن لا غياث ومغيث على الإطلاق إلا الله ، وأن كل غوث فمن عنده ، وإن كان جعل ذلك على يدي غيره فالحقيقة له سبحانه وتعالى ولغيره مجاز •• قالوا وأجمعت الأمة على ذلك ••• ولهذا لا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين أنه جوز مطلق الاستغاثة بغير الله ، ولا أنكر على من نفى مطلق الاستغاثة عن غير الله) (٢) وعلى هذا فلايجوز إطلاق لفظ الغوث على أحد لما فيها من الاحتمالات التي بيناها وأن منها ما يصل بمعتقده إلى حد الكفر والاشراك بالله وأقلها خطرا على العقيده سوء الأدب في استعمال الفاظ موهمة تحتاج إلى تفصيل لما فيها من الإجمال أو النظر في القرائن التي تعطى مراد من أطلقها (٣) وما ذكره الشيخ محمد حبيب الله بن ما يأبي من اعتذار عن إطلاق اسم الغوث على الشيخ عبد القادر في الورد القادري غير مسلم • وما ذكره هو كما في هامش الفتح الباطني والظاهري بنظم ونثر الورد القادري قال :

(غوث الثلقين في الحقيقة هو النبي عليه الصلاة والسلام وإنما قيل للجيلاني ذلك على سبيل وراثته وكونه من علماء البضعة النبوية وقد تتلمذ له الإنس والجن كما تواتر عنه فالمراد المجموع لا الجميع فلا وجه للاعتراض) (٤)

قلت : الاعتراض باق ووجيه لما تقدم من بيان ولرد النبي صلى الله عليه وسلم على من قال : نستغيث به وجزم بأنه لا يستغاث إلا بالله ومن أين يأخذ السامع أن المراد بغوث الثقلين المجموع لا الجميع الذي يدخل فيه الأنبياء وغيرهم ؟ • وأما

---

(١) نفس الآية السابقة •

(٢) مجموع الفتاوى جـ ١ ص ١١٠ و ١١١ و ١١٢ •

(٣) السيف الرباني ص ١٩٠ وفتوح الغيوب ص ١٣٠ وما بعدها •

(٤) المصدر المذكور ص ٩ •

اعتذار الشيخ سيدي المختار الكنتي قبله عند هذه اللفظة :(الغوث) بقوله بأن الترضى عمن سبقنا بالإيمان مأخوذ من الكتاب العزيز فهو كلام صحيح والآيه التي ذكرها وهي قوله تعالى : (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤف رحيم) (١)

فإن الأمة إما مهاجرون أو أنصار أو من جاء بعدهم من التابعين ومن دخل في الإسلام إلى يوم القيامة : ﴿ والذين تبوء الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (٢) فمن خرج عن هذه المنازل الثلاثة فلا يرحم عليه ولا يستغفر له ومن دخلها كان واجبا على المسلم أن يترضى عنهم ويترحم ويستغفر ، وله الأجر من الله تعالى على ذلك ويتأكد الاستغفار والمحبة والترضي عن الصحابة رضوان الله عليهم والقرون المفضلة لما لهم من الشيوخة والفضل على من جاء بعدهم ولم يخالف هذا المنهج الكريم إلا أهل الرفض والزندقة (٣) . ولكن من الموهم قوله : (والترضى عنهم بأي لفظ شيئنا) (٤)

فإن أراد به من ألفاظ الترضي الواردة في الكتاب والسنة أو ما صح إطلاقه لفظا ومعنا بدون إخلال بعقيدة التوحيد أو ما في حكمها من قواعد الشريعة وكانت خالية من الغلو المذموم والسجع المنفر المتكلف فهذا صحيح وحسن وينبغي الإكثار منه لما في ذلك من علامات الإيمان وحب أهل السابقة فيه ومن جاء بعدهم على نهجهم (٥) أما إن أراد الإطلاق فهذا ليس بصحيح لأن الإسلام يحافظ على الألفاظ كما يحافظ على المعاني والمقاصد فلفظة (الغوث) مثلا ليست من العبارات المشروعة كما تقدم ولم تطلق على النبي صلى الله عليه وسلم ولا أحد من أئمة الصحابة رضوان الله عليهم ولا من جاء بعدهم حتى أطلقها بعض الصوفية على بعض مشايخهم فصار كل أهل طريقة يطلقونها على شيخهم ويتجاذبونها وما في معناها من الألفاظ المحرمة لما تحتمله من عقائد الباطنية ومن نحى نحوهم (٦) وبهذا نختم فصل العبادات لنصله بفصل الأحوال والمقامات . والله أعلم .

---

(١) سورة الحشر الآية ١٠ .

(٢) سورة الحشر الآية ٩

(٣) العواصم من القواصم . تحقيق محب الدين الخطيب ، بيروت سنة ١٣٩٩ هـ ص ١٨١ . ١٨٥ .

(٤) الكوكب الوقاد ص ١٤ .

(٥) صحيح مسلم المقدمة النووي جـ ١ ص ٣٩ .

(٦) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول جـ ١ ص ٢٠٢ .

الفصل الثالث

الفصل الثالث

الأحوال والمقامات عند القادرية

وفيه تمهيد ومبحثان :

تمهيد :

عاشت القادرية في موريتانيا منذ القرن الثاني عشر وحتى هذا القرن الخامس عشر الهجري تحت مراقبة الفقهاء وملاحظتهم ونقدهم من خارجها وداخلها وقد وجد من فقهاء القادرية من ينقد مسالكها في كثير من الأحوال والمعارف والأعمال الصوفية الأخرى وهو وإن كان يوجه نقده لبعض الطوائف التي لا ينتمي إليها فإنه ينقد أيضا أمورا هو واقع فيها بحكم تلبسه بالمشيخة القادرية وتأليفه فيها ، وهذا النقد الداخلي في القادرية نشأ عنه صراع كبير بين الطرق الصوفية المتفرعه عنها فأثرى ذلك مجال النقد وتوجه لكل طرف أنه يرتكب في تسليكه وطريقته ما يؤخذ عليه شرعا وأدبا ، وهنا وجد الفقهاء من غيرهم مجالا واسعا للمناقشة والنقد فكان منهم من شنع على العموم وحذر من الطرق الصوفية وشيوخها وأحوال مريديها وشطحات شيوخها وأتباعها ، ومنهم من وجه نقده لفرع معين لما ظهر له فيه من انحرفات وكل هذا النتاج النقدي الداخلي والخارجي مسجل في شكل ردود وأجوبة ورسائل ونصائح عامة وقصائد شعرية وقطع أدبية .

وقد حظي جانب الأحوال والمقامات في التصوف بنقد حاد يقابله دفاع مستميت وكان معظم النقد موجها إلى مظاهر حال أهل الأحوال من ارتكاب أمور تسبب زوال العقل الذي هو مناط التكليف ويضيع الفرائض كالصلوات أو الهذيان بأمور غير معروفة وبعبارات مشتبهة موهمة محاكاة لأهل الحكمة والبصيرة كما يقول بعضهم هذا مع إهمالهم للمظهر المناسب والانغماس في الدنيا جمعا وتنمية مع إهمال العلم وطلبه أو الزهد والتنفير منه ومن أهله مع الاختلاط والمساكنة بين الرجال والنساء الأجانب بدعاوى لا تقبل شرعا ولا عقلا ولا فطرة والواقع كذبها ، كل هذا مع ادعاء الولاية

والحال الحسنة مع الله تعالى وحبه وحب نبيه صلى الله عليه وسلم والوصول إلى المقامات الايمانية أو ادعائها ، وحجبها عن فلان إلى غير ذلك مما عده بعض شيوخهم من بطالاتهم وتحكماتهم •

فهذه أهم المظاهر التي سببت لهم النقد من داخل الطريقة وخارجها وبسببها أيضاكان دفاع المدافعين منهم عنها ضعيفا ومفككا ومعظمه سباب وشتم يعف المسلم عن كتابته بقلمه أو التلفظ به بلسانه (١)

وعندي أن الناقد والمنقود مشتركان في الإساءة وعدم الإنصاف وقصد التعصب والإجحاف وهذه صفات يصعب على من اتصف بها إصابة وجه الحق والصواب أو الإنصاف في الحكم وفصل الخطاب لذا كانت نتائجها وقتية وآنية لا تخلف إلا الجفوة والتباغض والتدابر وكل ذلك مذموم في شرع الله تعالى لما يترتب عليه من فرقة المسلمين وضياع الحق وتشتيت العامة وتحييرها •

وطلبا للفائدة وإيضاحا للحقيقة سأتناول هذا الفصل في مبحثين :

الأول : الأحوال وأعرض فيه من نصوص القادرية ما يتضح به موقفهم منها سلبا وإيجابا قبولا ورفضا ونعقب عليها بدراسة نقدية تبين الصواب من الخطإ إن شاء الله تعالى •

المبحث الثاني : المقامات وقد اخترت الاقتصار على ثلاثة منها لها أثر كبير في حياة المسلم العقدية والعلمية والبيئة والأخلاقية وهي :

أولا : مقام الجذب وأثره •

ثانيا : مقام الفناء وأثره •

ثالثا : مقام التوكل وأثره •

مراجع التمهيد :

(١) جذوة الانوار ص ١ ـ ٢ و ٨٢ و ٨٨ ـ ٨٩ و ٩٧ جنة المريد ص ١٢ ـ ٢٤ والغلاوية ص ١٦٠ وما بعدها ص ١٨٣ ـ ١٨٥ والطرائف ص ٥١ ـ ٦٢ و ٨١ ـ ٨٣ و ١٦٠ والضياء ص ١١٦ ـ ١٧٧ و ١٦٣ ـ ١٦٩ ونعت البدايات ص ١١ و ٢٠ و ٤٧ ـ ٤٨ و ٥٣ ـ ٥٤ و ١٢٧ والرد على الحسن القظفى ص ٣ وما بعدها وتحذير اولاد الزوايا والطلبة من الدخول في طريق زنادقة المتصوفة الجهلة الكذبه : بكامله ص ٥ ـ ١٥٨ • والرحلة العلمية ص ٦ ـ ٧ و ٢٢ ـ ٢٣ وديوان الشيخ باب ص ٢١ •

المبحث الأول : الأحوال :

الاحوال جمع حال وهو على ما في القشيرية : (معنى يرد على القلب ، من غير تعمد منهم ، ولا اجتلاب ، ولا اكتساب لهم ، من طرب ، أو حزن ، أو بسط ، أو قبض أو شوق ، أو انزعاج ، أو هبة ، أو احتياج ، فالأحوال : مواهب والمقامات مكاسب والأحوال تأتي من عين الجود ...) (١)

فالاحوال على هذا هي عبارة عما يعرض للإنسان في الحياة من ألم وحزن أو فرح وسرور دون اتخاذ وسائل معينة تكون سببا ولو في الظاهر لهذه التقلبات التي تصيب الإنسان في حياته فيرجعها لسببها . (٢)

فعلى أنها ليست كسبية فلا معنى لجعلها من خصائص أهل التصوف والصوفية لأن التصوف مكاسب وهي لاكسب فيها لمن ترد عليه والقلوب بيد الرحمن يصرفها كيف يشاء (٣) ودوام الحال من المحال كما يقول الناس ويصدقه الواقع إلا أنه يوجد في كتب الصوفية على العموم خلط كبير بين الأحوال والمقامات عندهم وسبب ذلك الخلط أو الأختلاف بين الشيوخ المعبرين عنهما يمكن أن يكون ناتجا عن اعتبار بعضهم الأحوال سلما في طريق السالكين إلى المقامات واعتبار بعضهم أن الحال قد يستقر عليه المريد فيصير بذلك له مقاما ثابتا ، ومن لم يستقر في مقام معين من البسط أو الحزن أو السرور والصحو أو غير ذلك من عباراتهم فإنه يظل في طريق السالكين أهل الأحوال ولا يمكن اعتباره والحالة هذه في صفوف الشيوخ المربين (٤)

والذي يظهر لي أن سبب هـذا الخلط وذلـك الخـلاف هو أن هذه الألفاظ محدثة وليست من الألفاظ الشرعية التي يمكن أن يضيق الخلاف والنزاع فيها بسبب النصوص الشرعية الواردة كالإسلام والإيمان والإحسان يضـاف إلى هـذا أنها محاولة

---

(١) الرسالة القشرية جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٢) التعريفات للجرجاني ص ٨١ .

(٣) كتاب الصفات للدار قطني مصدر سابق ص ٥٤ .

(٤) عوارف المعارف ص ٤٦٩ وما بعدها .

لتعريف أحوال النفوس البشرية المتقلبة فعبر كل عما يجد أو يتذوق ، والتعبير عن الوجديات والذوقيات المعنوية لا يستقيم على حد جامع مانع ، فعلى هذا يمكن أن نفهم ماسنلاحظه في نصوص القادرية في الأحوال والمقامات من خلط واختلاف في العبارة عند النقل عمن سبقهم أو عند وصفهم للأحوال التي تصيبهم أو عند بيانهم لموقفهم من الأحوال وأهلها فهم في ذلك كله ناقلون ومقلدون لمن قبلهم من الصوفية الذين حاول السهروردي أن يقرب عباراتهم ويخلص منها بنتيجة واضحة وأراه لم يتمكن ٠ (١) وهكذا حال من تبعه من مؤلفي الصوفية عموما حسبما وقفت عليه من مؤلفاتهم وهو نفس الحال عند القادرية منهم فإنهم تارة يذمون صفات لبعض الطوائف ناتجة عن سماع أو إنشاد أو ذكر وتارة يثنون على الوجد والذوق وأهله والأحوال السنية كما يقولون ، وتارة يفضلون ويستحسنون حال من ذهب عقله بسبب هذه الأحوال إثرهذه الإنشادات والأذكار ، وتارة يصفون أهلها بالمروق والشهوانية والزندقة والتكلف ، وتارة يقولون بتحريم السماع وأنه لا يقول به في هذه الأزمان من يقتدى به وأن شيوخهم يحرمونه وينهون عنه ، وتارة يختلفون في رفع الصوت بالذكر وصفة الاجتماع له وهل يرفع الصوت به أو يسر أو يتوسط في ذلك أو كل يأخذ بمذهب شيخه ومريديه المجتمعين عنده ، ويختلفون كذلك في صلاة أهل الأحوال هل هي صحيحة إذا طرقتهم الأحوال في أثناء أدائها ؟ أم باطلة وتلزمهم الإعادة ؟ وهل من يغلب عليه الحال حتى يترك فرائض متعددة يقاس على من يغمى عليه ثم يفيق فلا إعادة عليه عند بعض العلماء أم أن عليه الإعادة إما أبداً أو في الوقت ؟ وهل من ترك الفرائض بدعوى أنه مغلوب على عقله وهو يتصرف في شؤن دنياه كافر أو لا ؟ (٢)

فهذه الأمور دالة على تشعب مذاهبهم في الأحوال وما يلحق بها وسنورد هنا من نصوصهم فيها وفي موقفهم من أصحابهــامايتضــح به إن شاء الله مكانتهاوأثرها عندهم

---

(١) عوارف المعارف ص ٤٦٩ . ٤٧٣ ٠

(٢) جذوة الانوار ص ٩٧ الطرائف ص ٨١ . ٨٤ و ١٥٩ والغلاوية ص ١٦٣ وما بعدها ٠ الضياء ص ١٤٤ و ١٦٢ . ١٦٩ وحياة الشيــــخ أحمد أبو المعالى ص ١٨ ومابعدها ٠ ورشد الغافل ص ٤٣ . ٥٦ ٠ وبرهان أهل الجهر بالذكر لعبد الله بن داداه نظم مخطوط خاص ص ١ . ٥ والرد على الحسن القظفي ص ١٦ وما بعدها ٠

عرض

يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي في وصفه لأحوال العارفين : (... وفي أحوالهم متباينون فمنهم من يغلب على عقله لكثافة أنوار حاله فيظهر تخليط في أفعاله فيظنه من لاذوق له مجنونا وما هو بمجنون ويتوهم من لا فهم له أنه زنديق وما هو إلا صديق ولكنه شرب فسكر ولا عدوان إلاعلى الظالمين ولذلك قال بعضهم في وصف الحال (١) :

(وقل للذي ينهى عن الوجد أهله   إذا لم تذق معنى شراب الهوى دعنا

فإنا إذا طبنا وطابــت عقولنا   وخامرنا خمر الغرام تهتكنـــا

فلا تلم السكران في حـــال سكره   فقد رفع التكليف في سكرنا عنا) (٢)

يقول هو هذا بينما الشيخ سيدي محمد الكنتي في الطرائف يقول فى معرض بيانه لخصائص طريقتهم : (ومن خصائص طريقتنا خلوها عما في غيرها من الطرق من الشطح والتماوت والتغاشي والرقص ورفع الصوت بأذكار المستغرقين .. ونحو ذلك من الانشادات والسماع ..) (٣) ونجد الشيخ محمد فاضل بن الحبيب يقول في الضياء : (إن تلاميذ الشيخ حفظه الله ورعاه كثيرا ما يأخذهم الجذب والشطح والرقص والسكر والوجد وكنت أسمع أنه حفظه الله تعالى ورعاه في ابتداء أمره كان كثير الوجد وما ذلك إلا لأن طريقتهم الذكر ومن لوازم الذكر الوجد والاهتزاز والتحرق .)
وقال الشيخ محمد فاضل في منظومة الاحوال :

(الوجد ما يصادف القلب يرد   بلا تعمد عليك فاعتمد)

وقال بعد نقولات كثيرة مستدلا بها على جواز ما ذكره عن شيخه وتلاميذه : (.. ولم أره يستعمله . يعني السماع . بل ولا يأمر به بل قد سمعته ينهى عن صورته ويزجر عنها) (٤)

---

(١) نسبها الشيخ سيدي محمد الكنتي في الطرائف لأبي مدين ص ٨٢ .

(٢) الكوكب الوقاد ص ٥٥ . ٥٦ .

(٣) الطرائف ص ١٥٩ .

(٤) الضياء ص ١٦٣ و ١٦٤ . ١٦٥ و ١٦٩ .

ويقول الشيخ علي بن عبد الله بن علي بن آف في نصيحة المعتز وكفاية المغتر :

(الدامغ والباطل والعوائـدا من حضرة القهار سمى الواردا

فالواردات كالرياح والقلوب مثل الغصون والثمار والحبوب

فالرجل الضعيف غصنا يفزع لكل وارد عليه يقـــع) (١)

ويقول الشيخ سعد أبيه : (وأما علم الأحوال فلا سبيل إليه إلا بالذوق ولا يقدر عاقل على وجدانه ومعرفته بدليل البتة ..) (٢)

ويقول الشيخ ماء العينيين في معرض بيانه لأحوال أهل الذكر عند قوله تعالى : (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ..) الآية (٣)

(واعلم أن الآية تدل على جواز ذكر الله تعالى قائما ولهذا قال المشايخ ولا بأس أن يقوموا ترويحا لقلوبهم ولا يتحركوا في ذلك ولا يستظهر وابحال ليس عندهم منه حقيقة . قال شيخنا رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة منزله ومثواه :

ولا تمل للرقص والتواجد إلا إذا غيبت عن تواجد) (٤)

إلى أن قال : (ومن الآداب في العبادات التي لا ينبغي للمريد إهمالها الهروب من إظهار المعاني التي تلوح له وذلك لأن المعاني نور كلما تراكمت الأنوار في قلب العبد تمكن وقوى استمداده وكلما أظهر معنى خرج النور أولا فأولا فلا يثبت له قدم في الطريق ومن كلامهم أول مايجب على سالك طريقتنا هذه ترك الدعوى الصادقة وإخفاء المعانى الخارقة ..) (٥) ويقول الشيخ أبو المعالى في : مزيل الإشكال عن صحة صلاة أهل الأحوال : بعد بيانه لصحـة صلاة المغلوبين منهم : (.. ثم اعلم أيها الناظر أنما قدمناه كله إنما هوفيمن استغرقه الوجد واستولى عليه الحال كما ذكرنا

---

(١) المصدر المذكور . ملف الرحلة العلمية ص ١١ .

(٢) كشف اللبس عن المسائل الخمس ص ٣٧ .

(٣) سورة آل عمران .

(٤) نعت البدايات ص ٤٧ .

(٥) نفسه ص ١٩ .

بحيث لم يجد عن بدوه مصرفا ، ولم يمكنه صونه ولا دفعه ، بل جرى مجرى الميد والعطاس وغلبة النوم والنعاس ، أما من يمكنه صونه بوجه ما فظهوره عليه مذموم ومشؤم عندنا في غير الصلاة فكيف بها لأنه منخرط في سلك الأفعال الاختيارية المبطلة للصلاة فلتحذروا من ظهور شيء منه جهدكم ما أمكنكم إلى إخفائه سبيل فإنه السم القاتل ..) (١)

وتوجد لهم نصوص دالة على أن هذه الأحوال تطرق بعض مريديهم حتى يغلب عن صلاته فما دونها (٢)

نقد :

تقدم لنا موقف القادرية من العقل وبينا مكانته عند أئمتها وأن المحافظة عليه واجبة إذ لا تصح العبادة إلا باستقامة التوازن العقلي وأن الجوارح تابعة له ، وتقدم كذلك نقد الشيخ سيدي محمد الكنتي للأغظفية بنفله أنه بلغه أنهم يسرون للمستجد من المريدين بكلام في أذنه يفقد بسببه قواه العقلية (٣) وشدد النكير عليهم ونسبهم إلى أصحاب الدعاوى الباطلة الذين تثير طبائعهم الأناشيد والقصائد السماعية والألحان المطربة ولا تؤثر فيهم الختمات القرآنية المتتالية التي هي سماع أهل الإيمان والإسلام وسبقه إلى نقد هذه الظواهر المنحرفة والده الشيخ سيدي المختار الكنتي فسماهم أهل الحضرات والرقص والشهوة وحكم عليهم بالانحراف ووجوب الاستتابة أو القتل والنفي من الأرض (٤)

وقد نقلنا في النصوص السابقة من كتب الأغظفية (الفاضلية) ما يدل على عدم تصويبهم للسماع والتعبد به ، ولكن في نصوصهم أن الذي يصيبهم من رقص

---

(١) حياة الشيخ أحمد أبو المعالى ص ١٨ .

(٢) الطرائف ص ٨٤ وجنة المريد ص ٢٠٥ - ٢٠٨ .

(٣) نقلت عن أحد الشيوخ الأغظفية أنه لا يعرف عن أحد منهم الإسرار للمستجد بشيء يفقده عقله قلت : وعدم علمه به لا ينفي وجوده .

(٤) الغلاوية ص ١٦٤ وما بعدها والطرائف ص ٣١٤ ومابعدها . وجذوة الأنوار ص ٩٧ - ٩٨ .

وشطح وزوال عقل هو بسبب الذكر أو ما يعرض من خواطر على القلب قد يستمر ويطول مع الشخص فترة من الزمن تذهب عليه فيها فرائض وواجبات ومصالح دنيوية ، وقد يموت بسبب ذلك الحال وهم في ذلك كله يرون أنهم على أحسن حال وأنهم في فيوضات ربانية ومحبة وولاية لله تعالى حتى لو صدر عنهم زيادة على تعطيل الفرائض كلام يدل على الكفر والزندقة (١)

ويتلخص من نصوصهم ما يأتي :

أولا : القول بأن الأحوال المذهبة للعقل تصيب أهل الايمان وأن ذلك مسقط للتكليف عنهم ما داموا في غياب من عقولهم وأنه لا لوم عليهم فيها ٠

ثانيا : إنشاد أشعار مشتملة على الفاظ السكر والخمرة والتهتك وهذه عبارات أهل الجنون أو المجون لا أهل الإيمان والعرفان ٠

ثالثا : القول بأن الذكر يسبب أحوالا يترتب عليها ذهاب العقل وعدم التميز بالكلية أو عدم تميز أوقات العبادات أو عدم المقدرة على أدائها هذا مع ارتكاب محاذير في الشرع إما قولا كطامات الشطح أو عملا كالرقص والغناء والانشادات المشتبهة ٠

والذكر المشروع بألفاظه وأحواله المعروفة لا يسبب هذه الأمور أما إن خلط بغيره أو استعمل غير المشروع من الأذكار والهيئات وحركت به القلوب فإنها تتحرك بحسب ما فيها من طبائع وأغراض شهوانية ، ولا ينسب ما يحصل لصاحب هذه الأحوال إلى أهل الايمان بل ينسب إلى السبب الباعث عليه ويحكم على صاحبه بما يؤديه حاله إليه وهذا مايؤكده اعترافهم أن في الأحوال أحوالا ربانية وأخرى شيطانية ٠

رابعا : يقرون بأن في المريدين من يتظاهر بأحوال ليست لها حقيقة ويرتكب في أثناء ذلك من المحاذير ما لا يجوز أن ينسب إلى أهل الايمان قولا وعملا يؤكد ذلك

---

(١) نيل المرادالمقدمة ص ٩ . ط ونصيحة أولاد الزوايا ص ٣٥ . ٣٦ والرد على الحسن القطفي ص ٤٨ . ٥٠ ٠

تحذيرهم من ارتكاب مثل ذلك وأنه من الرياء والسمعة وذلك من الأمور المحبطة للعمل ، والتمييز بين المحق من المبطل المرائي إنما هو باستقامة العقل ولزوم الشرع وهم يقولون بأنهم من طائفة الجنيد ابن محمد والجنيد رحمه الله يفضل من يسرق ويزني على من يقول بأنه عارف وأن العارف يصل إلى ترك الأعمال لأي سبب أو أنه يمكنه أن يعبد الله بطريق غير طريق الكتاب والسنة والاتباع التام . (١)

خامسا : يدعون عدم القول بالسماع أو الاجتماع عليه في نصوصهم السابقة ولكن الواقع يخالف المدعى عند بعض من عرفته منهم فإن لهم ليالي كليلة الجمعة والاثنين يحيونها بما يعتبرخلطا في الدين من هيلية تارة وإنشاد قصائد مشتملة على غلو كبيرفي شيوخهم هذا مع السهر الطويل الذي هو فظنة لتضيع صلاة الفجر في الجماعات ومظنة كذلك لتحريك القلوب والأرواح بما فيها من شهوات شيطانية وسماع أهل الإيمان في مثل هذه الأوقات دون تخصيص لليلة هو القرآن الكريم وهو الذي وصف الله تعالى سامعيه من أوليائه بقوله في معرض الثناء عليه وعليهم :

(الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) (٢) هذا بعد قوله تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ﴾ (٣) ويقول تعالى : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (٤) فمن زاد في سماعه على القرآن الكريم والسنة وما ورد فيهما من ذكر وأذكار أصابه بقدر انحرافه ما يذم به ، ومن زاده هذا السماع المشروع على مانعت الله به أولياءه من صحابة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن سار على هديهم في

---

(١) طبقات الصوفية ص ١٥٩ .

(٢) سورة الزمر الآية ٢٣ .

(٣) سورة الزمر الآية ٢٢ .

(٤) سورة الرعد الآية ٢٨ .

اتباعهم لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرىء عليهم القرآن من دمع العين ولين القلب والخشوع وقشعريرة الجلد كان ما أصابه محل نظر ونزاع (١) وأقل ما يقال في صاحبه أنه في حال نقص وضعف وهذا ما توافق عليه القادرية (٢) فإن خرج إلى حد ما يحد أو يعزر عليه شرعا كان ذلك متعينا على من يملكه كما تقدم في بيان مواقف العلماء في شطح أهل التصوف وكان عليه من اللوم مثل ما على قساة القلوب من ذكر الله تعالى ٠

ويمكن أن يضاف إلى ما اشتملت عليه هذه النصوص المنقودة أمور مقابلة لها تضمنتها نفس النصوص وهي أمور دالة على الخلط الواضح عندهم وهي :

أولا : تشنيع بعضهم على أصحاب هذه الأحوال التي تخرجهم عن حد العقل والشرع ، وذمهم لها ولأسبابها ٠

ثانيا : تحذيرهم من إظهار المريدين لمثل هذه الأحوال المخرجة عن حد التميز سواء كانوا صادقين أو غير صادقين ، وسواء كانوا في عبادة أو خارجها ٠

ثالثا : اعتبار بعضهم أن من يحفظ من وقوعها له مع الذكر والخشوع والخضوع خير وأفضل ممن تصيبه أو يظهرها مع القدرة على كتمها ٠

وأما عذر الصادق منهم في ظهور آثار عليه عند سماع القرآن أو أثر الذكر المشروع فإنه واضح فإن التابعين ربما مات أحدهم أو صعق أو صرخ لسماع وعد أو وعيد أو حصل له اضطراب عند ذكر رحمة أو عذاب رغبة ورهبة وقد حصل مثل ذلك لأفراد من الصحابة رضوان الله عليهم (٣) ولكن لم ينشروا ذلك أو يجعلوه من فضائل الأعمال أو يخرج بهم إلى القول المذموم أو العمل المحرم ، كالقول بالحلول أو وحدة الوجود وما يشابه ذلك من الشطح والتخليط ٠

---

(١) القرطبي جـ ١٥ ص ٢٤٩ ٠

(٢) جنة المريد ص ٢٠٥ . ٢٠٨ وذم ما عليه مدعو التصوف لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن قدامة المقدس ، تحقيق زهير الشاويس ، المكتب الإسلامي ط ٣ سنة ١٤٠٤ هـ ص ٦ وما بعدها ٠ ومجموعة الرسائل الكبرى جـ ٢ ص ٢٩٨ وما بعدها ويقارن بما في الغلاوية ص ٢٠٥ ٠ وما بعدها ٠

(٣) مجموعة الرسائل الكبرى ، كتاب السماع والرقص جـ ٢ ص ٢٩٨ . ٣٠٣ ومجموع الفتاوى جـ ١٠ ص ٧٦ وما بعدها ٠

رابعا : وليس معنى أن المغلوب على عقله بمشروع معذور جواز الاقتداء به فيما يرتكبه مما يخالف الشرع لسقوط تميزه الذي هو مناط تكليفه ، أو تصحيح ما يأتي به من عبادات في حال غيبوبته ، وانما المراد أنه لم يتسبب بأمر ظاهر يزيل به عقله وأن الذي كان يمارسه حالة زوال عقله ذكر مشروع أو سماع مأمور به . فتدور أحكامه حسب الظاهر من حاله على أمور :

١) أنه معذور في نفسه غير ملام على ما كان يشتغل به بل محمود . والله حسيبه فيما خفي علينا من أمره .

٢) لا تصحح صلاته ولا شيء من عباداته لزوال عقله واحتمال تكلفه ومراءاته ، أو انتقاض وضوءه بغير زوال العقل إن كان مدعيا ، أو لصدور كلام منه في أثناء فرائضه . وقد استوفى الحافظان ابن عبد البر في التمهيد (١) والشوكاني في نيل الأوطار (٢) ما في هذه المسائل من خلاف وأقوال للعلماء حول أدلتها مثل حديث مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار ، وعن بسر بن سعيد وعن الأعرج كلهم يحدثه عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (من أدرك ركعة من الصبح قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح ، ومن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر) (٣)

٣) ولا يصح عقلا ولا شرعا القول بأنه يكشف له عن علوم ويفتح عليه من أبواب العلوم والمعارف ما يؤخذ عنه أو يصدق فيه أو يتبع عليه وذلك أنه إما مدع منافق مراء فهذا ساقط المروءة لا يصدق في حال صحوه ومشاهداته بأم رأسه ، وإما أنه صادق في زوال عقله وغيابه عن حسه وإدراكه فلا يصح له هو أن يدعى شيئا زائدا على إحساسه بعد رجوع عقله له أنه ازداد إيمانا أو

---

(١) التمهيد جـ ٣ ص ٢٧٠ . ٢٩٩ .

(٢) نيل الأوطار ، أبواب ما يبطل الصلاة وما يكره ويباح فيها . باب النهي عن الكلام في الصلاة جـ ٣ ص ١٨٠ . ١٩٠ .

(٣) التمهيد جـ ٣ ص ٢٧٠ .

اطمئنانا أو راحة نفسية حسيما يتذوق من إيمان ، فإن ادعا شيئا آخر قيل له إنك غير صادق فيما تدعيه كله أو فيما تدعيه حالة غياب عقلك لسقوطك عن درجة التميز والتلقي وضعفك عن تحمل وقع الوعد والوعيد عليك إن كنت من الصادقين قال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض بيانه لحال من يغيب عقله بسبب المحبة والخشية لله تعالى : (.. لكن إن كان هذا لقوة المحبة والذكر من غير أن يحصل عن سبب محظور زال به عقله كان معذورا في زوال عقله ، فلا يكون مؤاخذا بما يصدر منه من الكلام في هذه الحال التي زال فيها عقله بغير سبب محظور ، كما قيل في عقلاء المجانين : إنهم قوم آتاهم الله عقولا وأحوالا فسلب عقولهم وأبقى أحوالهم ، وأسقط ما فرض بما سلب) (١)

خامسا : ويؤخذ من قولهم إن الصلاة تبطل على أهل الأحوال إذا ظهرت منهم وهم في حال يمكنهم معه كتمانها أو الامساك عنها قولا أو حركة ، واعتبارهم أنها في هذه الحالة أعمال اختيارية مع جعلهم التصوف من قواعدهم ، واعتبارهم لإنكار الفقيه عليهم ووجوب الرجوع إلى نصوص الفقه والأحكام الشرعية ما يدل على أن هذه الأحوال التي تصيبهم لا يدعون بها سقوط تكليف شرعي عند زوالها . (٢)

ويؤيد هذا تنصيصهم على أن السماع المؤدي إلى الشطح أو الرقص أو التخليط في القول والعمل مذموم عندهم وينهون عنه ولا يأخذون به في طريقتهم ، وأن صاحبه ساقط المروءة ولا يجوز الاقتداء به وقولهم : (إن إقامة الحق الشرعي واجبة وأنه لا يصرف عن إقامته اعتقاد في الصوفية ولهذا قال الشيخ سيدي محمد (ومن هنا تعلم زور دعوى من ينسب نفسه للولاية والارشاد إلى السلوك وتربية المريدين بالهمة مع تركه للصلاة المفروضة والصوم الواجب والحج وسائر أركان الاسلام ومع ذلك يأكل ويشرب ويوانس أصحابه ويعدهم ويمنيهم ..) (٣)

---

(١) انظر مجموع الفتاوى جـ ١٠ ص ٦٠ ويقارن بما في الغلاوية ص ٢٠٨ .

(٢) الطرائف والتلائد ص ٧٦ وما بعدها .

(٣) نفسه ص ٨٢ .

قلت : وهذا منهم موافق لنصوص الفقهاء وأحكام الشريعة ، وقد أجرى كثير من الفقهاء هذه الأحكام على من ظهر منه حال يترك به الفرائض أو يتنطق فيه بمحذور شرعي ومن أبرز هؤلاء الفقهاء الشيخ محمد يحى الولاتي في رده على من يشير إليهم الشيخ سيدي محمد الكنتي في نصه السابق وهم (القظف) فاضلية وغيرها (١) ولا يخفى أنه يدخل في هذا الحكم كل مرتكب لما يكفر به قولا أو عمدا أو ادعاء لزوال عقله مع أكله وشربه ومؤانسته لأصحابه كما قال الشيخ سيدي محمد الكنتي الذي قال في مثل من هذا حاله : (٠٠ وليت شعري بأي وجه تسبوه إلى الإسلام وقد أمات شعائره وأمات أركانه وقطع أواصره فضلا عن الايمان فضلا عن الإحسان ٠) (٢)

فمن أنكر هذه الأحوال التي تصيب القادرية وغيرها ممن يدعى الذكر والمحبة حتى يفقد عقله ويمنعه ذلك من أداء فرائضه له سلف من الصحابة والتابعين الذين لا يمكن أن يتهمهم أحد بالتعصب أو قساوة القلب وما ذلك إلا لأنها تشتمل على أمور لم تكن تصيب النبي صلى الله عليه وسلم ولا خيار صحابته مع كثرة ذكرهم لله تعالى وشدة محبتهم له وشوقهم إليه (٣)

ويزداد ما في هذه الأحوال من سوء إذا كانت الفرائض تضيع بسببها أو يدعون حصولها مع التصرف في أمور الدنيا على أتم وجه، أو كان أهلها يرون أنهم في أحوالهم هذه أفضل من غيرهم ممن لا تصيبه مع ذكره وخشيته لله تعالى وأتيانه بواجباته المفروضه عليه إذ رفع القلم بالاغماء أو الجنون أوغير ذلك لا يوجب مدحا لصاحبه (٤)

---

(١) شرح الداه بن أحمد للإضاءة ص ٢٨ ـ ٢٩ ورد الولاتي على مقالات محمد الأمين بن أحمد الجيد القلقمي ـ نصيحة أولاد الزوايا ص ٢ وما بعدها وكذلك رده على الحسن القظفي ص ٣٢ وما بعدها ورد سيدي بن عبد الجليل (سيدي بن حين) على محمد عبد الله بن آده ص ٦ وما بعدها ٠

(٢) الطرائف ص ٨٢ ٠

(٣) القرطبي جـ ١٥ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ ٠

(٤) مجموع الفتاوى جـ ١٠ ص ٤٤ ٠

ولذا لا يوجد من أهل العلم من أقرها بما فيها أو رضي عن أصحابها على وجه العموم (لأن الأحوال لفظ مجمل والتميز بين الصادق من الكاذب متعذر والحكم على الناس) بحسب الظاهر ولم يعرفوا هل أحوال هؤلاء شيطانية بسبب تركهم للصلاة أو الرقص أثناء العبادات أو إيمانية بسبب دخولهم في زمرة المسلمين الذاكرين لله تعالى ، فاشتبه الأمر بسبب التخليط الذي يرتكبه هؤلاء فحكم عليهم الناس بأحكام متفاوتة فمن الناس من استعاذ من أحوالهم عندما ذكرت له كاسماء بنت أبي بكر الصديق وابن عمر رضي الله عنهم ومن ذهب مذهبهم من علماء الصحابة رضوان الله عليهم .

ومن الناس من كذبهم في ادعائهم الغلبة على عقولهم كابن سيرين ومن قال بقوله من العلماء التابعين .

ومن العلماء والفقهاء من كفرهم لما يظهر عليهم من أحوال تخالف أحوال أهل الإيمان . (١)

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا) (٢)

قال النووي : (قال صاحب التحرير رحمه الله معنى رضيت بالشيء قنعت به واكتفيت به ولم أطلب معه غيره فمعنى الحديث لم يطلب غير الله تعالى ولم يسع في غير طريق الإسلام ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد صلى الله عليه ولا شك في أن من كانت هذه صفته فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه) (٣) .

فمن زاد على الكتاب والسنة والإيمان بهما والعمل بمقتضاهما شيئا يحرك به قلبه فقد فسد ذوقه واختلط عليه أمره ، وكان مستحقا للأحكام القاسية حسب جرمه وجنايته على نفسه وملته وأهله وإخوانه من المسلمين ، وكان أولى أن ينسب إلى قساوة القلب والجرأة على الله من غيره . والله أعلم .

---

(١) القرطبي جـ ١٥ ص ٢٤٩ . ٢٥٠ ومجموع الفتاوى جـ ١٠ ص ٤٤٢ ومابعدها . ومجموع الرسائل الكبرى جـ ٢ ص ٣٠٨ وما بعدها . والقدسية ص ٣٢ . ٣٣ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا فهو مؤمن وإن إرتكب المعاصي الكبائر .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ٢ .

المبحث الثاني : المقامات :

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : مقام الجذب وأثره على القادرية ٠

المطلب الثاني : مقام الفناء واثره ٠

المطلب الثالث : مقام التوكل واثره ٠

تقديم

تعريف المقامات لغة واصطلاحا عند الصوفية .

تقدم في الكلام على الأحوال أنها متداخلة مع المقامات ، وأنه لدى مؤلفى الصوفية بينهما خلط كبير إلا أنهم يذكرون فروقا بينهما ولا يسلم عند الفحص منها إلاواحد إن سلم وهو قولهم : (الأحوال مواهب والمقامات مكاسب) (١)

والمقام لفظ مشترك بين الأمور الحسية والأمور المعنوية وانما يفرق بينهما بالقرينة عند التعبير عن أحدهما .

قال القاضي عياض في المشارق (.. في مقامي هذا وعن مقامك ، وذلك المقام المحمود هو حيث يقوم المرء ، ويكون مصدر قيامه أيضا ، يقال فيه مقاما ومقاما ، وقال صاحب العين (٢) الفتح الموضع والضم اسم الفعل) (٣)

قال الله تعالى لعباده المؤمنين : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) (٤) واختلف العلماء في المراد بمقام إبراهيم عليه السلام فقيل إنه الحجر الذي وقف عليه عندما ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناوله إياها عند بنائهما للعكبة (٥) وقيل المقام المسجد الحرام ، وقيل المقام مواقف الحج كلها . (٦)

---

(١) القشيرية جـ ٢ ص ٢٠٦ .

(٢) هوالخليل بن أحمد الفراهيدي اللغوي المتوفي سنة ١٧٤ هـ انظر : تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات ط ١٥ ص ٣٧١ - ٣٧٣ .

(٣) المشارق جـ ٢ ص ١٩٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٢٥ .

(٥) انظر : البداية والنهاية جـ ١ ص ١٤٧ .

(٦) تفسير القرطبي جـ ٢ ص ٢٣ و ٦٨ وابن عطية جـ ٢ ص ٤٨٠ .

وقال الجوهـري : (.. وأما المقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة ، وقد يكون موضع القيام ، لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح ، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم ، لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم ، لأنه مشبه بنات الأربعة ، نحو دحرج وهذا مدحرجنا . وقوله تعالى : ﴿ لا مقام لكم ﴾ أي موضع لكم وقرىء بالضم أي لا إقامة لكم و (حسنت مستقراً و مقاما) (٢) أي موضعا.) (٣) (وقيل المقام بالفتح المشهدو المجلس ، وبالضم يمكن أن يراد به المكان ، ويمكن أن يكون مصدرا ، ويقدر فيه المضاف ، أي في موضع إقامة) (٤)

قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا ﴾ (٥)

قال القرطبي : (اختلف في المقام المحمود على أربعة أقوال :

الأول . وهو أصحها . الشفاعة للناس يوم القيامة ..) (٦)

وفي الصحيح عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامه) (٧)

وقد ورد في الحديث ما يبين جانبا مما يراد بالمقام هنا الذي هو الوسيلة فعن عبد الله عمرو بن العاص رضي الله عنهما : (أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة) (٨)

---

(١) سورة الأحزاب الآية ١٣ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٧٦ .

(٣) الصحاح جـ ٥ ص ٢٠١٧ .

(٤) القرطبي جـ ١٦ ص ١٥٢ .

(٥) الإسراء الآية ٧٩ .

(٦) القرطبي جـ ١٠ ص ٣٠٩ وفتح الباري جـ ٢ ص ٩٥ .

(٧) صحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب الدعاء عندالنداء الحديث رقم : (٦١٤)

(٨) صحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسأل له الوسيلة .

فالمقامات تكون مقامات زمانية ومكانية ومعنوية بمعنى منزلة أو درجة عالية يحمد عليها ، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا والأخرى مقامات لا يطمع مخلوق في نيلها أو الوصول إليها (١) ، وللمتقين كذلك مقامات في الدنيا والأخرى كل بحسب إخلاصه وعمله واجتهاده وما وهبه الله تعالى له من الإيمان واليقين والاتباع

قال اللــه تعالى : ﴿ إن المتقين في مقــام أميــن ﴾ (٢) (أي يؤمن فيه من الآفات) (٣) والواضح من المقامات الإيمانية هو ما يشهد له الشرع الحنيف كما في حديث سؤال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم (أخبرني عن الإسلام .. فأخبرني عن الإيمــان ... فأخبرني عن الاحسان) (٤) فهذه مقامات إيمانية محصورة ، فمن وصل إلى درجة المراقبة في العبادة كان محسنا والله تعالى يقول في كتابـــــه : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة .. ﴾ (٥) فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن عز وجل (٦) وهذه هي المقامات الحقيقية ، أما تكثير العبارات من غير اعتماد على شرع مثل ما نجد في كتب الصوفية فإنه غير مفيد في تحصيل هذه الدرجات المعبرعنها في الشرع بالإسلام والإيمان والإحسان ، علاوة على أن دلالة عباراتهم واصطلاحاتهم في درجات الإيمان واليقين غير واضحة المعنى من حيث الدلالة اللغوية ، ويصفون بها في اصطلاحاتهم من لا يتصف بها شرعا وهم مع ذلك لا يتفقون على عدد معين من المقامات ينتهي إليه المترقى بل أحيانا يقولون إلى ما لانهاية له (٧) ، وهذه عبارة موهمة قد يفهم منها السوء في العقيدة .

---

(١) فتح الباري جـ ٢ ص ٩٥ وما بعدها و جـ ٦ ص ٢٨٦ وما بعدها . والنووي على مسلم جـ ٤ ص ٨٨ .

(٢) سورة الدخان الآية ٥١ .

(٣) القرطبي جـ ١٦ ص ١٥٢ .

(٤) صحيح مسلم كتاب الايمان ، جـ ١ ص ١٧٥ وصحيح البخاري ، كتاب الايمان ، جـ ١ ص ١٤٤

(٥) سورة يونس الآية ٢٦ .

(٦) ابن كثير جـ ٢ ص ٤١٤ .

(٧) وتقدم نقل ذلك عنهم في باب العقيدة .

والمقام في اصطلاحهم هو : (ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب ، مما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلب ، ومقاساة وتكلف) وهذا معنى قولهم : (والمقامات مكاسب ٠٠) أو : (المقامات تحصل ببذل المجهود) (١) وفي التعريفات للجرجاني : (المقام : في اصطلاح أهل الحقيقة عبارة عما يتوصل إليه بنوع تصرف ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساه تكلف ، فمقام كل واحد موضع إقامته عند ذلك) (٢) . قلت : وكأنه نقله بالحرف من الرسالة القشيرية • وفي شرحه للحال والمقام والفرق بينهما يقول السهروردي :

(قد كثر الاشتباه بين الحال والمقام ، واختلفت إشارات الشيوخ في ذلك ، ووجود الاشتباه لمكان تشابههما في نفسهما وتداخلهما ٠٠ فالحال سمى حالا لتحوله ، والمقام مقاما لثبوته واستقراره ، وقد يكون الشيىء بعينه حالا ثم يصير مقاما ٠٠) (٣) إلا أن القشيري يرى أن : (صاحب المقام ممكن في مقامه ، وصاحب الحال مترق عن حاله) (٤) •

قلت وبالله التوفيق :

إن اصطلاحات الصوفية لا يكاد يوجد منها شيىء سالم من المعارضه أو المناقضة بمثله وخصوصا في هذا المجال المضطرب من حالات الروح البشرية التي تصفو تارة وتتكدر أخرى ، ولا تدوم على حال ولا يستقر لها مقام) (٥) وهذا ما سيتأكد إن شاء الله تعالى جليا في المطلب الآتي :

---

(١) الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ •

(٢) التعريفات ص ٢٢٧ •

(٣) عوارف المعارف ص ٤٦٩ •

(٤) الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٢٠٦ •

(٥) نفس المرجع •

المطلب الأول : مقام الجذب وأثره في الطريقة القادرية

تعريف : الجذب والمجذوب

الجذب كما في الصحاح للجوهري هو : (المد ٠ يقال جذبه ، وجبذه على القلب ، واجتذبه أيضا ٠ يقال للرجل إذا كرع في الإناء : جذب منه نفسا أو نفسين ٠ وبينى وبين المنزل جذبة ، أي قطعة ، يعني بعد ٠ ويقال جذبة من غزل ، للمجذوب منه مرة ٠

وجذبت المهر عن أمه ، أي فطمته ٠٠ أبو عمرو : الجذب : انقطاع الريق ٠٠ وجاذبته الشيء ، إذا نازعته إياه ٠ والتجاذب : التنازع ٠ والانجذاب : سرعة السير) ٠ (١) فمادة جذب دالة على الاخذ والنزع والتنازع والقطع والسير بسرعة وكل هذه المعاني متقاربة فيقول الناس وجدناهم يتجاذبون أطراف الحديث ، وفلان منجذب إلى كذا بمعنى مائل إليه ٠

والمجذوب على هذه المعاني يكون بمعنى المنزوع أو المقطوع على أنني لم نعثر على تعريف له في كتب الأقدمين من الصوفية مع كثرة عباراتهم وتشعب استخراجاتهم ، وأقرب معنى لمادته : (الجذب) (المجذوب) هو لفظ : (المراد) الذي هو كما في التعريفات :(عبارة عن المجذوب عن إرادته ، والمراد من المجذوب عن إرادته المحبوب ٠٠) (٢)

وتدور عباراتهم عن المراد والفرق بينه وبين المريد على هذا المعنى من كونه جذب إلى الحق حتى انتهى (فكل مريد على الحقيقة مراد ٠٠٠ فالمريد عندهم هو المبتدىء ، والمراد : هو المنتهي ٠٠ أو المراد : الذي كفي بالأمر من غير مشقة ٠)

قال القشيرى : (وسئل الجنيد رحمه الله ، عن المريد والمراد ، فقال : المريد تتولاه سياسة العلم ، والمراد : تتولاه رعاية الحق ، لأن المريد يسير ، والمراد يطير ، فمتى يلحق السائر الطائر ؟) (٣)

---

(١) الصحاح جـ ١ ص ٩٧ . ٩٨ ٠
(٢) التعريفات ص ٢٠٨ ٠
(٣) القشيرية جـ ٢ ص ٤٣٨ . ٤٣٩ ومثله في الغنية جـ ٢ ص ١٥٨ وما بعدها ٠

ويكاد يكون المجذوب في اصطلاح الصوفية وعامة الناس في العصور المتأخرة هو الشخص الذي إذا أخذ في الذكر زال عقله أو فقد التميز بين الأمور ، وربما شطح أو بطش وتكلم بأمور لا يليق الكلام بها عقيدة أو عادة وعرفا ، وقد يستمر معه زوال العقل لفترة من الزمن حتى يعرف بذلك ، ولا يكون أمره ملفتا للنظر لإلف الناس لحاله ، وقد توسع في البئة القادرية في هذا الاصطلاح حتى أطلقوه على كل من يتكلم في الأمور بصراحة زائدة أولا يحفظ السرأو على من يعرف بالعته وقلة المحافظة على الطهارة والنظافة وخصوصا إذا كان من ذرية قوم صالحين حتى قال بعض العقلاء : إنهم لا يفسد لهم أحد فالمجنون عندهم صالح مجذوب ، والمعتوه صالح ولي تخشى خواطره ، ويعلم من هذا ومما يأتي من النصوص أن الجذب والمجاذيب في الطريقة القادرية من الأمور المعروفة ، وهم مختلفون في الحكم على المجذوب بعد اتفاقهم على أن الجذب من المقامات الرفيعة ، ولكن وجد من القادرية ومن العلماء والفقهاء من نقد ظاهرة الجذب وعلى وجه الخصوص إذا كانت تؤدي إلى ترك الفرائض أو الشطح والكلام بالبوائق ، أو ترك العناية بما يناسب من المظاهر أو الوقوع في البطش وارتكاب المحرمات والكبائر . وسيأتي إن شاء الله تفصيل ذلك .

عرض :

تقدم في الكلام على الأحوال نقد موقف القادرية من الأحوال وأصحابها مع التفصيل المناسب للمقام هناك . والأحوال والمقامات متداخلة .

ومما جاء في مبحث الأحوال النقل عن الشيخ سيدي المختار الكنتي في الوجد والتواجد وأن أهل ذلك يتهتكون ويعذرون . ويهرفون بما لا يعرفون ، ونقلنا اعتذاره عنهم ونقله لكلام الواصفين لهم بأعلا مقامات الولاية (١)

ونفس هذه النقول استرضاها ولده الشيخ سيدي محمد الكنتي وزاد عليها نقولا أخرى عن والده وعن غيره (٢) فمما نقله عن والده قوله : (سمعت شيخنا الوالد

---

(١) الكوكب الوقاد ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) الطرائف والتلائد ص ٨٢ وما بعدها .

رضوان الله عليه يقول : أدركت سيدي عمر بن سيدي أحمد التوجي ، وكان من المجاذيب الصحاح كلما أخذ في ذكره وطاب طاربه الحال من موضعه فإن كان بإزاء منارة مسجد مشرفة وقع بإحدى رجليه على شرفة المنارة وأخذ يدور بالأخرى دوران الخذروفة ، فإذا سكن حاله وقع لرأسه ٠٠) (١)

وفي معرض توضيحه لأسباب الجذب ووجه الاعتذار عن المجاذيب يقول : (٠٠ إذ معنى المجذوب المستور العقل المأخوذ عن عالم حسه ، وهؤلاء أهل غلبة الأحوال وهـم المسمون في القديم بعقـلاء المجانين وفي العرف بالبهاليل وفي الاصطلاح بالمجذوبين) (٢)

وقال : (ومقام المجذوب مقام عين اليقين وهو نهاية السالكين ، وبداية المجذوبين لأن المجذوب أول ما تبدوله الحقيقة ثم يتدلى إلى ما ترقى فيه السالك إلا أنه أسرع في تدليه من السالك في ترقيه لأنه مصحوب بالنور من أول قدم والنور يكشف ظلمة الطريق) (٣)

وما دام الجذب من المقامات العالية في الطريقة القادرية فإنه لا يستبعد أن تدعيه كل طائفة لنفسها وإن اختلفت عباراتهم فيه لعدم الاتفاق على مصطلح ثابت في مثل هذه العبارات ودلالاتها ، فبعضهم يسميه جذبا وبعضهم يسميه فتحا أو فيضا٠ (٤) ويعتبر عندهم من الطرق الموصلة لله تعالى حسب عباراتهم بل إن الشيخ سيدي محمد الكنتي يحصر الطرق الموصلة للـه في مصطلح الصيوفيـة . على الأقل . في طريقتين هما : الجذب والسلوك ٠

فيقول بعد تأكيده على السلوك على يد المشايخ :

---

(١) نفسه ص ٨٣ . ٨٤ ٠

(٢) نفسه ص ٨٣ ٠

(٣) نفسه ص ٨٤ ٠

(٤) نفسه ص ٨٣ و ٩٨ وما بعدها ٠ جنة المريد ص ٩٠ ونعت البدايات ص ١٩ والضياء ص ١٦٣ وما بعدها ٠

(.. إذ لا وصول إلا بأحد طريقتين جذب إلهي أو سلوك على يد شيخ وبدون ذلك الوصول محال) (١)

ويستدل الشيخ سيدي محمد على هذا الحصر بقوله تعالى : ﴿ ... الله يجتبى إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ (٢) فيقول في بيان هذا الاستدلال : (فقوم خصوا بالاجتباء للصرف ، وقوم خصوا بالاجتباء بشرط الإنابة ، فالأول حال المجذوب ، والثاني حال السالك المحبوب) (٣)

نقد : قلت وبالله تعالى استعنت : هذه بعض نصوصهم المصرحة بوقوع الجذب في طريقتهم واعتبارهم له مقاما وطريقا إلى الله ، وأن المجذوب مجتبى من الله تعالى وهذا موافق لمعنى المراد الذي نقلناه عن القشيري وغيره . ويمكن حصر نقد هذه النصوص في المسائل الآتية إن شاء الله تعالى :

أولا : لفظ الجذب لفظ محدث بعد القرون المفضلة الثلاثة الأولى وقد وصف الله تعالى عباده وأولياءه في الكتاب والسنة بما يغني عن إحداث ألفاظ لهم تدل عليهم أو على صفاتهم ، وهذا كاف في رد هذا اللفظ على المصطلحين عليه كوصف أو حال لأهل الله وعباده الصالحين على أنه تبين من قبل أنه لا يطرد مصطلحالهم على العموم حتى من القائلين به (٤)

ثانيا : أن الموصوفين بالجذب قد يصيبهم هذا (المقام) باستعمال أمور محرمة مادية أو معنوية كالاعشاب المخدرة أو المفترة أو الأسحار المكفرة أو السماعات والإنشادات البدعية المحرمة (٥)

---

(١) الطرائف ١٦٠ ومثله في جنة المريد ص ١٢٨ ومابعدها .

(٢) الشورى الآية ١٣ .

(٣) جنة المريد ص ١٢٨ .

(٤) الغلاوية ص ١٦٥ .

(٥) الفتاوى جـ ١٠ ص ٧٦ وما بعدها و ٤٤٠ . ٤٤٤ والطرائف ص ٣١٣ ومابعدها والغلاوية ص ١٩٦ . ٢٠٠ .

ثالثا : أن هؤلاء المجاذيب على تسليم أنهم دخلوا في عبادة فاضلة وهي ذكر الله تعالى . فأصابهم الجذب وغطى عل عقولهم . فإنه يحصل منهم من الأمور ما لا يجوز نسبتها إلى أهل الايمان بالله تعالى الذين تولى الله حفظهم من الوقوع في الانحرافات أو ما يدل على فساد المعتقدات ، إذ إن ذلك انما يحصل لمن كان قبل الدخول في العبادة في الظاهر متلبسا بمحرم كالاختلاط بالمحارم أو في اعتقاده علل قبيحة فإذا غاب عقله وقع في المحظور أو تنطق بالمحذور (١) وهذا ما يطابق قول الأخضري :

(والرقص والصراخ والتصفيق عمدا بذكر الله لا يليق

فقد رأينا فرقة إن ذكـروا تبدعوا وربما قد كفروا) (٢)

يقول شيخ الإسلام ابن يتمية في معرض بيانه لحال عقلاء المجانين بعد أن بين أن زوال العقل لا مدح فيه : (ومن علامة هؤلاء : أنهم إذا حصل لهم في جنونهم نوع من الصحو تكلموا بما كان في قلوبهم من الإيمان ، لا بالكفر والبهتان ، بخلاف غيرهم ممن يتكلم إذا حصل له نوع إفاقة بالكفر والشرك ، ويهذي في زوال عقله بالكفر فهذا إنما يكون كافرا لا مسلما ، ومن كان يهذى بكلام لا يعقل بالفارسية أو التركية أو البربرية وغير ذلك مما يحصل لبعض من يحضر السماع ويحصل له وجد يغيب عقله حتى يهذي بكلام لا يعقل . أو بغير العربية . فهؤلاء إنما يتكلم على السنتهم الشيطان كما يتكلم على لسان المصروع .) (٣) .

رابعا : أن بعض شيوخ القادرية بالإضافة إلى كثير من الفقهاء ردوا على المجاذيب من القادريـــة وغيرها لما رأوا عليهم من عدم الصدق في المدعى بدليل أن الباعث لوجدهم كان محرما أو مقترنا به أو مفضيا إلى ترك الواجب وتضيع الفرائض

---

(١) جذوة الأنوار ص ٩٧ والغلاوية ص ١٦٨ وما بعدها . ودراسة عن الإسلام في إفريقيا السوداء الفرنسية مصدر سابق ص ١٣٩ . ١٤٠ .

(٢) القدسية ص ٣٢ .

(٣) الفتاوى ج ١٠ ص ٤٤٢ . ٤٤٣ .

. وهذا الرد من شيوخ القادرية القائلين بأن الجذب من مقامات العارفين بالله تعالى . إما أنه تناقض منهم أو تحيز إلى طائفة دون طائفة أخرى من القادرية • وهذا ذمه ظاهر • وإما أنهم يرون أنه مقام ولكن وجدوا في إطلاقه على العموم من المحاذير ما جعلهم يفرقون بين المتصفين به حسبما يظهر عليهم من أحوال أهل الإيمان وأحوال أهل الشيطان •

والرادون على المجاذيب متفاوتون منهم الواصف لهم بالبدعة الشنيعة كالشيخ سيدي محمد الكنتي حيث رد في الطرائف والتلائد والغلاوية على الطائفة الأغظفية التي هي في الغالب أصل الفاضلية (١)

ومنهم المكفر لهم كالشيخ محمد يحي الولاتي لتركهم للفرائض بدعوى غياب عقولهم مع حسن تصرفهم في دنياهم (٢)

خامسا : أنهم يقولون بأن الجذب من أعلا المقامات ومع ذلك لابد لصاحبه من الأخذ في التدلي في السلوك ليصلح مرشدا يربي غيره ، وأن سنة الرياضة لابد منها وأن السالك وإن كان يكابد ويعاني المشاق والمجاهدات فإنه في النهاية أحسن حالا من المجذوب لأنه عرف الطريق ومنازلها بخلاف المجذوب فإنه طفل الطريق • (٣) وفي هذا الكلام من الخلط مالا يخفى ، ذلك أنهم يقولون بأن المقامات يرتقى معها وأن المقامات مكاسب ، ولكن الجذب مقام لا كسب فيه وانما هو اصطفاء واجتباء من الله تعالى ومع ذلك لا يغني صاحبه عن السلوك بل لابد له أن ينزل بدلا من الارتقاء • والقشيري يقول عن المقام : (وشرطه : أن لا يرتقى من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام) (٤) فالجذب على هذا لا يصلح عده مقاما على منهجهم وشروطهم فيه : (والمقام مقام لثبوته واستقراره).(٥)

---

(١) الطرائف ص ٣١٣ وما بعدها • والغلاوية ص ١٨٣ وما بعدها •

(٢) الرد على الحسن القظفي ص ١١٠ وما بعدها •

(٣) جنة المريد ص ١٢٧ ونا بعدها •

(٤) القشيرية جـ ١ ص ٢٠٤ •

(٥) عوارف المعارف ص ٤٦٩ •

سادسا : استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ ... الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ فإنه غير واضح الدلالة على مرادهم إذ إن المراد بالآية كما فسرها به علماء التفسير هو أن المقصود بالاجتباء الاختيار للتوحيد والإيمان والمراد بالهداية لمن ينيب هو الاستخلاص .

قال القرطبي : (الله يجتبي إليه من يشاء) أي يختار ، والاجتباء الاختيار ، أي يختار للتوحيد من يشاء . (ويهدي إليه من ينيب) أي يستخلص لدينه من يرجع إليه) (١) (فهو تعالى الذي يقدر الهداية لمن يستحقها ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد ..) (٢)

ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في أضواء البيان عند بيانه لهذه الآية وما في معناها : (قوله تعالى : الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب) . الاجتباء في اللغه العربية معناه الاختيار والاصطفاء .

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنه تعالى يجتبي من خلقه من يشاء اجتباءه .

وقد بين في مواضع أخر بعض من شاء اجتباءه من خلقه ، فبين أن منهم المؤمنين من هذه الأمة في قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير ﴾ إلى قوله : ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ . (٣) وقوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ (٤) .

وبين في مواضع أخر أن منهم آدم وهو قوله تعالى : ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ (٥) وذكر أن منهم إبراهيم في قوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمة . إلى قوله شاكرا لأنعمه اجتباه) (٦)

---

(١) القرطبي جـ ١٦ ص ١٢ .
(٢) ابن كثير جـ ٤ ص ١٠٩ .
(٣) الحج الآيتين ٧٧ - ٧٨ .
(٤) فاطر الآية ٣٢ .
(٥) طه الآية ١٢٢ .
(٦) النحل الآية ١٢١ .

إلى غير ذلــك من الآيات الدالة على اجتباء بعض الخلق بالتعيين • وقوله تعالى ﴿ ويهدى إليه من ينيب ﴾ أي من سبق في علمه أنه ينيب إلى الله أي يرجع إلى ما يرضيه ، من الايمان والطاعة ، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الرعد (١) ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب) (٢)

قلت : وبالله تعالى وحده استعنت : إن هذه الآيات المبينة لهذه الآية المستدل بها على اجتباء الله تعالى للمجذوبين لا دليل للمستدل بها على مراده ، ذلك أن الاجتباء والاصطفاء للايمان شامل لكل من شاء الله هدايته للايمان والتخصيص بدون مخصص من الشارع تحكم وابتداع في الدين فالمؤمنون على العموم اجتباهم الله تعالى وهداهم للايمان به تعالى • والمنصوص عليهم من الانبياء هم كذلك في أول من اجتباهم الله من المؤمنين لإيمانهم •

والمجذوب إما أن يكون من المؤمنين فهو داخل في الاجتباء والاصطفاء العام ولا مزية له على غيره منهم . هذا إذا كان جذبه لا يخرجه عن حد . الشرع أو التقصير في أداء الفرائض أو ارتكاب ما يخرجه عن حد الاصطفاء بما يكفر به . والغالب على الموصوفين بالجذب يحصل منهم أشياء مما ذكر حالة جذبهم ولذا فالقادرية أنفسهم يفضلون عليهم من يقع له من الوجل والخشوع والسكينة عند ذكر الله تعالى مع حفظ عقله عليه • (٣)

وهذا دال على أن الجذب عندهم حالة ضعف لا مدح فيها ولا ثناء وخصوصا إذا كانت تؤثر على صاحبها فتضيع عليه من الخير أكثر مما يظن أنه حصل له من الايمان واليقين • وإما أن يكون المجذوب ممن كان مسرفا على نفسه فتداركته عناية الله تعالى بالتوبة والإنابة فهذا فضل من الله تعالى ينبغي لصاحبه أن يكون ممن تطمئن قلوبهم لذكر الله تعالى ولا يخلط مع توبته أمورا تخرجها عن التوبه المطلوبة إلى البدعة المذمومة •

---

(١) أضواء البيان جـ ٧ ص ١٨٢ •

(٢) سورة الرعد الآية ٢٧ •

(٣) جنة المريد ص ٩٠ وما بعدها •

المطلب الثاني : مقام الفناء وأثره

تعريف الفناء لغة واصطلاحا :

الفناء لغة : قال في القاموس : (فني) كرضي وسعى فناء عدم ، وأفناه غيره وفلان هرم والفاني الشيخ الكبير) (١)

وفي الصحاح : (فني) الشيء فناء وأفناه غيره • وتفانوا ، أي أفنى بعضهم بعضا في الحرب) (٢) وقال ابن مالك في منظومة المقصور والممدود :

(كفى بالفنا قوتا لنفس فناؤها قريب ويكفيها صراً وصراء) (٣)

فالفنا بالقصر : ما تساقط من الطعام أو من تافه المتاع ، والفناء بالمد ضد البقاء • (٤)

قلت : فالفناء على هذه التعريفات هو الإعدام أو الانعدام أو ما في حكمهما وواضح أنه ضد البقاء الذي هو على الإطلاق من صفات الله تعالى وحده قال الله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ (٥)

الفناء اصطلاحاً : والفناء في الاصطلاح الصوفي له إطلاقات متعددة وإجمال يحتاج إلى بيان وتفصيل لما في بعض إطلاقاته من المحذور في المعتقد عند بعض الصوفية ، وقد عرفه الجرجاني بقوله : (الفناء سقوط الأوصاف المذمومة كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة •

والفناء فنا آن : أحدهما ما ذكرنا وهو بكثرة الرياضة ، والثاني : عدم الإحساس بعالم الملكوت ، وهو بالاستغراق في عظمة الباري ، ومشاهدة الحق ••) (٦) ومثله في الرسالة القشيرية (٧) وقريب منه مع شيء من التفصيل في عوارف المعارف • (٨)

---

(١) القاموس المحيط جـ ٤ ص ٣٧٥ •
(٢) الصحاح للجوهري جـ ٦ ص ٢٤٥٧ •
(٣) فتح الودود ص ٦٠ •
(٤) نفسه ص ٦٠ . ٦١ •
(٥) سورة الرحمن الآيتين ٢٦ . ٢٧ •
(٦) التعريفات ص ١٦٩ •
(٧) التعريفات ص ١٦٩ •
(٨) عوارف المعارف ص ٥٢٠ وما بعدها •

قال السهروردي : (واعلم أن أقاويل الشيوخ في الفناء والبقاء كثيرة فبعضها إشارة إلى فناء المخالفات وبقاء الموافقات ، وهذا تقتضيه التوبة النصوح ... إلى أن قال : ولكن الفناء المطلق هو ما يستولي من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد ، فيغلب كون الحق سبحانه وتعالى على كون العبد ، وهو ينقسم إلى فناء ظاهر ، وفناء باطن ..) (١)

ونقل عن إبراهيم بن شيبان أنه قال : (علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية ، وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة) (٢)

وقد عرفت القادرية الفناء بأنواعه ونشرته في بيئتها حتى صار يتكلم به من يعرف معناه ومن لا يدركه ، فإذا رأوا محباً لشيء قالوا : فلان فان في حب كذا ، أو رأوا شخصا منهمكا في عمل أو أمر قالوا : فلان متفان في كذا أو يفنى في كذا .

وقد نقلت القادرية من كتب الصوفية الكلام في الفناء ودرجاته ، ولهم نصوصهم الخاصة بهم أيضا في توضيح معانيه ومرادهم به عند الإطلاق في جانب الله تعالى كما لهم نصوص أخرى يفهم منها الرد على بعض القائلين بفناء الأبدان والأرواح أو القائلين بالفناء بمعنى الحلول والاتحاد أو وحدة الوجود ، على أنه يوجد في بعض إطلاقاتهم للفناء من الكلام المتشابه ما يعرف منه الخلط المتعمد أو عدم التمييز بين المعاني الصحيحة والباطلة المأخوذة من الألفاظ المجملة ، وهذا ما سيتضح بجلاء إن شاء الله تعالى بعد عرض نصوصهم ونقدها .

---

(١) عوارف المعارف ص ٥٢١ .

(٢) نفسه ص ٥٢٠ .

عرض :

تعرض الشيخ سيدي المختار الكنتي أثناء منـــاقشة لمعانى اسم اللـه تعالى (الباعث) إلى الكلام على الفناء والبقاء واختلاف الناس فيما يفنى وما يبقى من الجواهر والأعراض ، وهل البقاء والفناء من المعاني أم ليسا من المعاني ٠٠ ؟ (١) فقال: (واختلف المتأخرون في البقاء والفناء فقال قوم : البقاء معنى يبقى به الباقي ، والفناء معنى يفنى به الفاني وهو قول القابسي (٢) من أهل السنة ، وقال قوم : الفناء معنى والبقاء ليس بمعنى وبه قال الجبائي وابنه (٣) وقال قوم : البقاء والفناء ليسا بمعنى وبه قالت طائفة من أهل السنة ونفت فناء الأعراض ٠٠) (٤) وقد تناول الشيخ سيدي المختار الكنتي هذه المعاني رادا على المعتزلة والجبرية والقدرية ومن خالف مذهب السلف في القول بأن الأبدان تتحول من حال إلى حال إلا ما استثني وأن الله تعالى ينشؤها نشأة أخرى وأن الأرواح يختلف مستقرها في البرزخ ما بين منعمة ومعذبة وسعيدة وشقية إلى غيـــر ذلـــك مما ناقشـــه في أثنـــاء كلامه على الفناء والبقاء والباعث (٥)

وهذا من مباحث الآخرة والبعث وإنما ذكرته لما فيه من بعض أوجه المناسبة وأما الفناء الذي نعرض نصوصه فهو من مباحث الأحوال والمقامات التي يتوصل إليها بنوع من الرياضة والمجاهدة ٠ يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي واصفا تدرج السالكين في مقاماتهم وأثر الذكر في ذلك : (٠٠٠ فيضع . يعني الذاكر . أول قدم في المحبة فيكون كالمدله وليس بمدله ولكنه شرب فسكر لأنه غاب عن الأكوان وفني عن حقيقته وغرق في بحور المعارف الربانية فهو الذي يقال الفاني ، فيفنى في الصفات ثم يفنى في الأسماء ثم يفنى في الذات فيغيب عما سوى الله تعالى فذلك قوله : فيفنى ثم يفنى فكان فناؤه عين البقاء) (٦)

---

(١) الكوكب الوقاد ص ١٢٩ وما بعدها ٠

(٢) هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري المعروف بابن القابسي ، انظر ترجمته في ترتيب المدارك جـ ٧ ص ٩٢ . ١٠٠ ٠

(٣) هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي ، من أئمة المعتزلة ، انظر البداية والنهاية جـ ١ ص ١٢٥ ٠

(٤) الكوكب الوقاد ص ١٣٦ . ١٣٧ ٠

(٥) نفسه ص ١٢٩ وما بعدها والمنة ص ٦٤ وما بعدها ٠ وفتح الودود ص ٦١ . ٦٢ ويقارن بما في شرح الطحاوية ص ٣٨٧ وما بعدها ٠

(٦) الكوكب الوقاد ص ١١٣ ٠

قلت : وقد نسب هذا القول في جذوة الأنوار للجنيد (١) وأضاف موضحا موقفه من هذه المجاهدات التي يدعي أصحابها أنهم يرتاضون لأجل تحصيل الفناء في الله تعالى فقال : (... وليس طريق موت النفس بقطع جميع الأرماق عنها وردها إلى الاجتزاء بالحشيش والنخالة والمبالغة في التقشف ، والتقلل ، مع قطع النظر عن أحوال القلب وهممه وارادته ، وترك الالتفات إلى ما يحمد وما يذم فذلك كله غلو وبدعة ، وقد غلط في هذا الباب طوائف من الناس عملوا عليه في رياضتهم ومجاهداتهم ولم يقصدوا بذلك اخلاص العبودية لربهم ، فأفضى بهم ذلك إلى اختلال عقولهم ، وانحلال قوى أبدانهم ، ولم يحصلوا من أمرهم على فائدة وما ذلك إلا لجهلهم بالسنة وما كان عليه سلف هذه الأمة .) (٢)

وبعد نقده لمسلك هؤلاء يأتي ببيان لأصناف السالكين الآخذين في الترقي على النهج السليم حسب ما يراه هو فيقول : (ومنهم من يرقى إلى مقام الفنا مشتملا على قلبه نور اليقين والمشاهدة مغمور في شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين وهذه رتبة في الوصول ، وفوق هذا رتبة حق اليقين ويكون من ذلك في محو وهو سريان نورالمشاهدة في كلية العبد حتى تحظى بها روحه وقلبه ونفسه وقالبه وهذا من أعلى مراتب الوصول ...) (٣)

قلت : ولو لا أنه قدم قبل هذا الكلام مراده بالوصول بما يتضح به أنه لا يريد المعنى الذي يقصده أهل وحدة الوجود أو الاتحادية لكان في كلامه هذا إجمال يمكن حمله على سوء المعتقد (٤) خصوصا أنه يتأول بعض كلام القائلين بالوحدة المطلقة أو المقيدة فيقول في معرض دفاعه عن الصوفية ، وأنه لا يجوز الانكار عليهم إلا لمن عرف مصطلحاتهم وذاق أذواقهم فيقول : (واعلم أن من ذلك قولهم : الرب عبد والعبد رب . اذا سمع هذا من لاذوق له أمر بقتل قائله وذبحه واذا عرف أن مرادهم بذلك أن العبد إذا بذل نفسه لمولاه وفني في مرضاته وغاب بشهوده عن شهود نفسه ملكه الله ملكا كبيرا وجعل الأمر في يده حتى إذا قال للشيء كن فيكون بتكوينه قال

(١) جذوة الأنوار ص ٣ .

(٢) جذوة الأنوار ص ٣٧ .

(٣) نفسه ص ٥٥ .

(٤) نفسه ص ٥٤ . ٥٥ .

الجيلي رضى الله عنه :

وأمري بأمر الله إن قلت كن يكن   وكل بأمر الله فاحكم بقدرتي) (١)

قلت وعلى الله توكلت :تقدم بعض هذا الكلام في باب العقيدة عند الكلام على ادعاء التصرف في الكون من بعضهم ونسبة هذا القول للشيخ عبد القادر الجيلي لا تصح ٠

فمعرفة اصطلاح الصوفية فيما يعبرون عنه : (من التجلى الذاتي والصوري وتنوع المقامات وأنواع الذوق والسكر والصحو والفناء والمكافحات إلى غير ذلك أمر لابد منه لمن يريد التصدي للإنكار عليهم كما يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي (٢) ويقول في معرض رده على من أسقط التكاليف من الصوفية بدعوى الفناء أو اليقين : (ولقد جازف بعض المتصوفة الجهلة ، فقال : إن الولاية أعلى من رتبة النبوة وأن الولي يبلغ حالة يسقط عنه فيها التكليف محتجين بقوله تعالى : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ (٣) فقد حرفوا كتاب الله وكذبوا على انبيائه وأوليائه جهلا منهم وتحريفا للكلم من بعد مواضعه وزيغا عن الحق والحادا في الدين ، فإن اليقين في هذه الآية إنما المراد به الموت ، فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعبده حتى يأتيه الموت وهو على ذلك بل لم يزل صلى الله عليه وسلم في زيادة من عبادته واجتهاده حتى قبض صلى الله عليه وسلم وهو على ذلك) (٤)

فالتكاليف لا تسقط عن أحد ما دام عاقلا ، ولا إسلام ولا ولاية لمن لم يؤد الفرائض ويحافظ على المأمور به شرعا ٠٠ (٥) ويشرح الشيخ سيدي محمد الكنتي مصطلحات الصوفية فيقول :

(ومنها الفناء والبقاء والفناء أن يفنى عن الحظوط فلا يكون له في شيء حظ حتى يفنى عن الأشياء كلها شغلا بمن فني فيه ، والبقاء يعقبه وهو : أن يفنى عما له ويبقى بما لله فتكون حركاته في موافقة الحق دون مخالفة ، فكان فانيا عن المخالفة باقيا في الموافقات ثم الفنا على ثلاثة أوجه فناء في الأفعال ومنه قولهم لا فاعل إلا الله

---

(١) نفسه ص ٨٧ ـ ٨٨ ٠

(٢) نفسه ص ٨٩ ٠

(٣) سورة الحج الآية ٩٩ ٠

(٤) جذوة الأنوار ص ١١١ ٠

(٥) الطرائف ٨١ ـ ٨٢ و ٣٦١ ٠

وفناء في الصفات لا حي ولا مدبر ولا عالم ولا قادر ولا سميع ولا بصير ولا متكلم إلا الله ، وفناء في الذات لا موجود على الإطلاق إلا الله) (١)

وقد نهج صاحب الضياء نهج هذين الشيخين في الكلام على الفناء وتقسيمه إلى ثلاثة أقسام فيشرح ذلك أثناء كلامه على الدعوة إلى الله ومرتبة الشيخ التي يستحق القائم فيها أن يدعو الناس لمقامه في شهود : (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتي وأنه على كل شيء قدير) (٢) قال : (وفائدتها الفناء عن الأكوان والبقاء مع المكون ومعنى الفناء عن الاكوان استفراغ أوقات القلب في شهود الله تعالى عن شهود وجود غيره من خلقه ، فيفنى أولا في شهود الأفعال بأن لا يرى الفعل صادراً إلا من الله تعالى فيوحده بالفعل أي يشاهد كونه متحداً (٣) بالاختارع والتخليق فيرى الأفعال مخلوقة لله تعالى شاربا من تحقيق حقيقة : (والله خلكقم وما تعملون) (٤)

(فينتج له هذا الشهود عدم التسخط على الأقدار كائنة ما كانت وعدم الخوف والطمع من غير الله تعالى اللذين هما أصل كل مفسدة دينية أو دنيوية ، وينتج له التوكل على الله تعالى والتسليم له فيما يريده منك والرضا بالقضا إن نزل والإخلاص في أعمال البر لله تعالى لأنه لا يرى النفع ولا الدفع إلا منه إلى غير ذلك من الأوصاف المحمودة شرعا وطبعا المذموم عكسها كذلك) .

قلت : وهذا هو القسم الأول من الفناآت الثلاثة والثاني قوله : (ثم يفنى في شهود صفات الحق سبحانه وتعالى فلا يري في الوجود قدرة ولا علما ولا حياة ولا غير ذلك من الصفات إلا لله تعالى فيوحده بصفات الكمال لأنه المتحد بها (٥) حقيقة وحكما فينتج له هذا الشهود استحكام الله تعالى في قلبه وتوهب له العلوم ويتحقق بحقائق كل علم ويفتح له في أثر الصفات أعني الآثار الكونية) (٦)

قلت : وهذا توحيد الأسماء والصفات، والقسم الثالث عنده من أقسام الفناء قوله :

---

(١) جنة المريد ص ٢٢٨ .

(٢) سورة الحج الآية ٦ .

(٣) هكذا في الأصل ولعلها : متصفا به فحرفها الناسخ أو لعل المراد متوحدا أي متفرداً .

(٤) سورة الصافات الآية ٩٦ .

(٥) هكذا في الأصل ولعل المراد أنه متفرد بصفات الكمال .

(٦) الضياء المستبين ص ١٢٥ .

(ثم يفنى في شهود وجود ذات الله تعالى فلا يشهد وجود غيره فيوحده بالوجود إذ الوجود صفة ذاتـه تعالى ومن المستحيل أن يتصف بصفات اللـه تعالى غير ذاته إذ ما من عامر (١) ولا غيره إلا ويعلم أن الله تعالى واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ٠٠) (٢)

وهذا النص الطويل الذي بين فيه الشيخ محمد فاضل الفناآت الثلاثة عند القادرية وشرح مراده من كل فناء بالأمثلة يلخصه الشيخ ماء العينيين في أسطر قليلة فيقول : (واعلم أن الفناء في الله عند القوم حاصله ثلاث فناآت ولو كانت أنواعه كثيرة وهي : فناء في الأفعال كأن يقول المرء في قلبه لا فاعل إلا الله ولا مانع إلا الله ولا معطي إلا الله ونحو ذلك ٠

الثاني : فناء في الصفات كأن يقول لا حي إلا الله ولا سميع إلا الله ولا بصير إلا الله ونحو ذلك ٠

الثالث : فناء في الذات كأن يقول لا موجود إلا الله وكلها . يعنى الفناآت . توجد سريعا بلا إله إلا الله) (٣) يريد الذكر بها دائما ٠ وهو الذي أراده الشيخ التراد في قوله : (وعمر الأوقات بالتهليل فذاك أقوى سبب التحصيل

لمن يريد في إلهنا الفنا عما سواه وهو غاية المنى) (٤)

(١) هكذا في الأصل ولعل المراد (أنه ما من عاقل ٠٠) فتغيرت على الناسخ ٠

(٢) الضياء ص ١٢٥، ١٢٦ ٠

(٣) نعت البدايات ص ٦٠ ٠

(٤) نيل المراد ص ٤٧ ٠

نقد

لفظ الفناء في الله تعالى من الألفاظ المحدثة التي لم يُعرف في القرون المفضلة أنها من الألفاظ الشرعية الدالة على مرتبة من التوحيد والإيمان واليقين ، وقد عرفت في التراث الصوفي حالا ومقالاخصوصا عند أصحاب الخلة والمدعين للمحبة الغالين في المجاهدات والرياضات وتعذيب النفس (١) حتى أصابهم الذهول أو الجنون فادعوا ادعاءات باطلة أخرجتهم من الإيمان إلى الكفر (٢) ثم أخذت كلمة الفناء تنتشر بين الصوفية وهي لفظ مجمل يحتمل الخير والشر ، فمن أطلقه وكانت أعماله ودعاواه مثل أصحاب الخلة والمحبة من المفكرية والروحانية وأوائل زنادقة المتصوفة ومن جاء بعدهم على نهجهم كالحلاج وابن عربي لا يحتاج المرأ أن يتأول له أو يطلب له المحامل الحسان لأنه هو لم يردها أصلا على قول أكثر العلماء وأئمة الصوفية الصادقين ، وأحواله وأقواله في صحوه وغيابه دالة على إرادة المعتقد الفاسد • (٣)

أما من استعمل لفظة الفناء في الله تعالى وفسرها بمعنى صحيح شرعا ولم يخالف حاله ما وصف في مقاله كان أمره أهون وحمله على الخير أسلم وتكون مؤاخذته ونقده في استعماله لألفاظ موهمة استعملها أهل الزندقة وهم يريدون بها من المعاني الفاسدة ما أرادوه من دعوى الحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود فيما بعد ، أومعاني دون ذلك ولكنها لا تصح شرعا ولا عقلا • هذا مع أن المسلم مطالب باستعمال الالفاظ الشرعية المتعارف عليها كالإيمان واليقين والاحسان والحب في الله ومحبة الله تعالى واخلاص العبودية له تعالى

وقد عرضنا نصوص القادرية في الفناء فوجدناهم يعتبرونه من أعلى المقامات الايمانية وأشرفها وأن الوصول إليه لابد فيه من الترقي مع التزام الشرع وأداء الفرائض ، وإخلاص العبودية لله وحده ، ويظهر من بيانهم لأقسامه الثلاثه على مافي عباراتهم من إيهام المعتقد الفاسد أنهم يفسرونه على نحو تقسيم الايمان بالله تعالى من توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وتوحيد الالهية ، وهذا تقسيم حسن ولاقتصار على أحد الاقسام الثلاثة أو جعل توحيد الربوبية منها الذي يسمونه هم في تقسيمهم : الفناء في وجود الله تعالى وأنه هو المدبر القادر الخالق الرازق يعد نقصا في الايمان •

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام جـ ٣ ص ١٨٧ وما بعدها •
(٢) التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع ص ٩٣ . ٩٥ وتلبيس إبليس ص ٢٠١ . ٢١٥
(٣) طبقات الصوفية ص ٣٠٧ وما بعدها • والرد على المنطقين ص ٥٢١ وما بعدها • والفتاوى جـ ٢ ص ٤٦١ وما بعدها •

ومع نقدنا للقادرية على استعمالها هذه الأفاظ الموهمة التي لم يرد بها نص شرعي فإنه مما يحمد لها أنها فسرت المراد منها عندها وهذا التفسير مقبول في عمومه مع أنه ترد فيه بعض العبارات التي تحتاج إلى إيضاح عند إطلاقها مثل : (أنه هو الموجود على الاطلاق) (١) أو (لأنه هو المتحد بها) (٢) على أنها ليست تحريفا من الناسخ على ما تقدم التنبيه عليه .

وقد عرفنا من هذه النصوص القادرية أنهم ليسوا من القائلين بما تقول به طائفة أهل الخلة الغالين في المجاهدة وتعذيب النفس حتى يأتيهم اليقين على ما تقدم في رد الشيخ سيدي المختار الكنتي عليهم وتكفيره لهم ولأمثالهم من أهل الشطح الذين سماهم الطائفة الشهوانية (٣)

وهم كذلك ليسوا من أصحاب الحلول ووحدة الوجود لما تقدم من بيان حالهم وتشنيع شيوخهم على القائلين بهذه المعتقدات الفاسدة وأنه لا يعذر من يقول بها (٤) هذا بالإضافة إلى أن تفسيرهم لكلمة الفناء أو الشهود في هذه النصوص توضح أنهم يعتقدون أن الله تعالى بائن من خلقه ، وأن ذاته لا تشبه الذوات وأفعاله لا تشابه أفعال خلقه فالفناء عندهم أن الله تعالى موجود بذاته وصفاته وأفعاله ، وأن الفاني من الناس فيه موجود وأن غيره من المخلوقات موجودة وأن لكل ذاته ووجوده وصفاته ، وأن الفناء هنا إنما هو في عظمة هذا الموجود المنفرد بالاختراع والتخليق .

والفاني أيضا في الصفات فإنما فناؤه أيضا في إفراد الله تعالى بها والتسليم له في أمره ونهيه وقضائه وقدره .

فعلى هذا فالفناء عندهم هو إفراد الله تعالى بتوحيد الربوبيه والأسماء والصفات والعبادة .

---

(١) أنظر النصوص المعروضة في هذا المطلب .

(٢) نفسها .

(٣) جذوة الأنوار ص ٩٧ و ١١١ .

(٤) نفسه .

وهذا ما نص شيخ الإسلام ابن تيمية على أنه هو مراد الشيوخ الذين لهم لسان صدق في الأمـة وسماه الفناء الكامل المحمدي (١) أو الفناء المحمود (٢) وظاهر في هـذه الألفـاظ أن شيخ الإسـلام يفصـل في الفنـاء وهـو مـا فعلـه في عدد من مؤلفاته (٣) ·

فيقول في الفتاوى في معرض بيانه للألفاظ المتشابهة وتمسك بعض الناس بكلام المشايخ المتشابه : (مثال ذلك اسم (الفناء) فإن (الفناء ثلاثة أنواع) : نوع للكاملين من الأنبياء والأولياء ، ونوع للقاصدين من الأولياء والصالحين ، ونوع للمنافقين الملحدين المشبهين ·) (٤)

ويمكن الجزم بأن القادرية في نصوصها الماضية أرادت المعاني الصحيحة من تقسيم الفناء إلى ثلاثة أنواع أو أن أنواعه كثيرة ولكن حاصلها يرجع إلى ثلاثة كما قال شيخ الإسلام هنا وهو أيضا ما نص عليه الشيخ ماء العينيين (٥) إلا أنهم هم يرون في توضيحهم للأنواع الثلاثة التي ذكروها أنها كلها محمودة وشيخ الاسلام يرى أن الثالث مما ذكر هنا هو فناء المنافقين الملحدين المشبهين ، وإذا نظرنا إلى هذا النوع من الفناء نجد أنه ينطبق عليه هذا الوصف فعلا في تفسير شيخ الاسلام ابن تيمية ·

وهذا مختصر لتفسيره لهذه الفناآت الثلاث :

قال : (فأما الأول) فهو : (الفنا عن إرادة ما سـوى اللـه) بحيث لا يحب إلا الله ، ولا يعبد إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يطلب غيره ، وهو المعنى الذي يجب أن يقصد بقول الشيخ أبي يزيد حيث قال : أريد أن لا أريد إلا ما يريد أي المراد المحبوب المرضي ، وهو المراد بالإرادة الدينية) (٥)

ويوضح شيخ الإسلام أن الإرادة الشرعية هي عمدة هذا الفناء وهي التي يسمى صاحبها صاحـب القلب السليم : (إلا من أتى الله بقلب سليم) (٦) (قالوا : هو

---

(١) الفتاوى ج ٢ ص ٤٥٩ ·
(٢) الرد على المنطقين ص ٥٢٠ ·
(٣) الفتاوى ج ١٠ ص ٢١٨ وما بعدها · والرد على المنطقين ص ٥١٦ وما بعدها والاستقامة ج ٢ ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ·
(٤) الفتاوى ج ١٠ ص ٢١٨ ·
(٥) الفتاوى ج ١٠ ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ·
(٦) الشعراء الآية ٨٩ ·

السليم مما سوى الله ، أو مما سوى عبادة الله • أو مما سوى إرادة • أو مما سوى محبة الله ، فالمعنى واحد وهـذا المعنى إن سمي فنـاء أو لم يسم هو أول الإسلام وآخره • وظاهر الدين وباطنه) (١)

قلت : واضح من كلامه أنه لا يريد أصلا تسميته بالفناء وإن سمي وفسر بهذا المعنى الصحيح فلا لبس ولا بأس •

قال : (وأما النوع الثاني) فهو : (الفناء عن شهود السوى) وهذا يحصل لكثير من السالكين ، فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد وترى غير ما تقصد ، لا يخطر بقلوبهم غير الله ، بل ولا يشعرون ، كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ (٢) قالوا : فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى) (٣)

ويقرر شيخ الإسلام أن هذا النوع من الفناء الذي يغيب به صاحبه عن كل شيء إلا ما فنيي بسببه حصل ويحصل لكثير من الناس حتى يستغرقهم وأنه غلط فيه أقوام وظنوا أنه اتحاد وهذا معتقد فاسد وباطل شرعا وعقلا ، ولم يقع في هذا الفناء من الأنبياء وأكابر الأولياء من الصحابة فمن بعدهم أحد ، ومن وقع له واستغرقه حتى ضعف عن التميز وصدر منه قول غير لائق اعترف بغلطه في صحوه واعتدال حاله ، وعلى كل فإن هذا النوع من الفناء فيه نقص (٤) (بل الكمل تكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته ، وعندهم من سعة العلم والتميز ما يشهدون الأمور على ما هي عليه ، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله مدبرة بمشيئته بل مستجيبة له قانتة له ، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى ، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيدا وممدا لما في قلوبهم من إخلاص الدين ، وتجريد التوحيد له ، والعبادة له وحده لا شريك له) (٥)

---

(١) الفتاوى جـ ١٠ ص ٢١٨ - ٢١٩ •

(٢) القصص الآية ١٠ •

(٣) الفتاوى جـ ١٠ ص ٢١٩ •

(٤) الاستقامة جـ ٢ ص ١٤٢ . ١٤٣ والرد على المنطقتين ص ٥١٨ •

(٥) الفتاوى جـ ١٠ ص ٢٢١ •

وغير هذين الفناءين هو من فناء الكافرين وصاحبه إذا قامت عليه الحجة الواضحة ولم يكن جاهلا أو متأولا كان كافرا • وإن كان جاهلا أو متأولا ومات على ذلك فأمره إلى الله تعالى • (١)

قال شيخ الإسلام : (وأما النوع الثالث) مما قد يسمى فناء : فهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله ، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق فلا فرق بين الرب والعبد فهذا فناء أهل الضلال والالحاد الواقعين في الحلول والأتحاد) (٢)

قلت : قريب من هذا القول ما تقدم من نقل الشيخ سيدي المختار الكنتي له واعتذاره عن قائله وهو : (الرب عبد والعبد رب) (٣)

وعندي أنه لم يوافق الصواب في نقله لهذا القول على وجه الاعتذار عن الصوفية لما عرف من سوء اعتقاد قائله ، ولكن يقال بأنه جانبه الصواب في ذلك لأنه يكفر القائلين بوحدة الوجود ولا يرى الاعتذار عن أصحاب الاتحاد والحلول ، ولكن حب الصوفية وهو في مقام الدفاع عنهم والتشنيع على المنكر عليهم جعله يقع في هذا التناقض وإلا فإن هذا القول يعد من الكفر الواضح بغض النظر عن تأويل الشيخ سيدي المختار له ، على أن المعنى الذي أوله به لا يحتمله لانفصاله عن متقتضى لفظه ودلالة عبارته ثم إن صاحبه ليس ممن يطلب له الاعتذار والتأويل (٤)

إلا أن شيخ الإسلام ابن تيميه يرى أن المشايخ المستقيمين المعروفين بالصلاح والورع إذا صدر منهم كلام مشتبه مثل : (ما أرى غير الله ، أولا أنظر إلى غيرالله ، ونحو ذلك فمرادهم بذلك ما أرى ربا غيره ولا خالقا غيره ولا مدبراً غيره •••) (٥) وهذا منه أعتذار عنهم لما عرف عنهم من صلاح القلب واللسان ولما هم عليه حال صحوهم من اليقين والإيمان • وهذا الاعتذار هو الذي قصده بيدر بن الإمام عند ما لاحظ انتشار مثل هذه العبارات واختلاف العلماء في الحكم على من يطلقها حالة صحوة فقال نظما في ذلك ونصه :

---

(١) الاستقامة جـ ٢ ص ١٤٣ . ١٤٤ •

(٢) الفتاوى جـ ١٠ ص ٢٢٢ •

(٣) انظر ص ٦٧٧ من هذا المبحث •

(٤) تلبيس إبليس ص ٢١٠ . ٢١٣ •

(٥) الفتاوى جـ ١٠ ص ٢٢٢ •

(٦) هو أحد علماء موريتانيا .

عقيدة الصوفي والموحـــد لم ترجعا إلى سوى متحـــد (١)

كلتاهما تنتهيان للكمـــال والعجز عن إدراك ذي الجلال

لكن باستدامة الفكر والتذكر للصوفي والتبصـــــــر

يكون في الأوقات كالمشاهد للذات والأوصاف كالمشاهد

وكلما أبصر كونا بالـبصر رآه بالبصيـــرة المولى الأبـــر

فذا لدى الموحديـــن غني ليس كمثلـــه تعالى شيـــي

فالعالم الصوفي في ذا يعذرو لعلمه وفضلـــــه ويحـــــذر

واتفقت مسألـــة الحلاج قتل وهو حسن المنهـــاج) (٢)

قلت : تقدم مرات أن الحلاج لم يقتل وهوحسن المنهاج ، وإنما قتل بعد إقراره على نفسه وتكلمه في صحوه وحضوره بما حكم أكثر الفقهاء وأئمة الصوفية به عليه بالردة والزندقة (٣) (وقد اتفقت الأمة على أنه إما مخطىء ، وإما عاص ، وإما فاسق ، وإما كافر ...) (٤) وقد قامت على الحلاج ومن نهج نهجه ممن يعتد به الحجة التى حكم عليه بها حتى استبيح دمه ، وأما من لم تقم عليه الحجة أو كان جاهلا أو متأولا غير معاند أو ادعى الغياب عن عقله وتميزه ، وصدر عنه ما يوجب الحكم بالكفر فإنه والحالة هذه يقال بأن هذا الكلام الذي صدر عنه من الكفر الذي لا يحوز أن يعتقده مسلم أو يتلفظ به على سبيل القبول والاستحسان وهذا من التكفير المطلق الـذي هـو عنـد أهل السنة مثل الوعيد المطلق الذي لا يستلزم الوقوع على المعين . (٥)

والله أعلم .

---

(١) يريد متفق .

(٢) ملف الرحلة العلمية ص ٧ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ وتلبيس إبليس ص ٢١٣ وما بعدها .

(٤) الاستقامة جـ ١ ص ١١٦ ـ ١١٧ .

(٥) نفسه جـ ١ ص ١٦٤ وما بعدها .

المطلب الثالث : مقام التوكل وأثره

التوكل لغة وشرعا :

التوكل لغة : قال في القاموس : (وكل) بالله يكل وتوكل على الله وأوكل واتكل استسلم إليه ووكل إليه الأمر وكلاً ووكولاً سلمه وتركه ... والتوكل إظهار العجز والاعتماد على الغير) (١)

وقريب منه ما قاله الحافظ بن حجر وهو : (وأصل التوكل الوكول ، يقال وكلت أمري إلى فلان أي الجأته إليه واعتمدت فيه عليه ، ووكل فلان فلانا استكفاه أمره ثقة بكفايته) (٢)

فالتوكل في اللغه على هذا استسلام أو تسليم ثقة بالمستسلم إليه واعتماداً عليه وإظهاراً للعجز عن القيام بالأمر المتوكل عليه فيه .

التوكل شرعا : هو تفويض الأمر إلى الله ثقة بتدبيره وكفايته بعد الإتيان بالأسباب المطلوبة شرعا .

هذا مجمل ما عرفه به معظم العلماء الذين تكلموا فيه .

مكانة التوكل : التوكل شعبة عظيمة من شعب الإيمان والتزامه دليل على كمال التوحيد وصدق الإيمان ، قال الله تعالى : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (٣) وقال جل من قائل عليما : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) (٤)

فمكانة التوكل ثابتة بالكتاب والسنة وهو عمل الأنبياء والصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وقد ألف فيه أئمة كبار وبينوا أنه مقام عظيم وأثره في العقيدة كبير فمن

---

(١) القاموس المحيط جـ ٤ ص ٦٦ .

(٢) فتح الباري جـ ١١ ص ٣٠٥ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٦٠ .

(٤) سورة الأنفال الآية ٢

ذلك أن البخاري بوب له في صحيحه فقال : (باب (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (١) وبوب له البيهقي في شعب الإيمان فقال : (الثالث عشر من شعب الإيمان • وهو باب التوكل بالله عز وجل والتسليم لأمره في كل شيء) (٢)

وبوب له القشيري (٣) والغزالي (٤) والشيخ عبد القادر الجيلاني (٥) والسهروردي (٦) وكل هؤلاء شيوخ القادرية في السلوك الصوفي في وضعهم لهم في سلاسلهم في الطريقة أو بتلمذتهم على كتبهم وغالب نصوصهم التي سنعرضها بعد قليل مأخوذة عنهم •

عرض :

يعتبر أهل التصوف أنفسهم أهل توكل على الله واعتماد عليه في جميع شؤوهم ، وأنهم لا يلتفتون إلى الأسباب حتى غلا بعضهم في ذلك فعرض نفسه إلى التهلكة والضياع وهو في ذلك متبع لهواه مخالف لأوامر كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقادرية يدعون لأنفسهم التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه ويحثون أتباعهم ومن يطيعهم على التوكل على الله تعالى سواء في كتاباتهم ومقالاتهم وظاهر هيئياتهم ، وهم في ذلك كعامة أهل التصوف منهم المتعرض للأسباب ، ومنهم المتظاهر بتركها كل حسب فقهه في الدين وقربه وبعده من الاتباع وهذه بعض نصوصهم في التوكل وأهميته وأثره : يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ (٧) قال : (فمن رأى الرزق من الله تعالى والقى الأسباب لأنها لا تؤثر في الرزق مع تسببه أدبا مع الله تعالى وإجراء للحكمة على وجهها الذي أراد الله إظهاره فهو مؤمن ، ومن رآى الرزق من

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، والآية من سورة الطلاق آية ٣ •

(٢) شعب الإيمان جـ ٢ ص ٥٧ •

(٣) الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٤١٥ وما بعدها •

(٤) إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٢٢٧ •

(٥) الغنية جـ ٢ ص ١٨٩ وما بعدها •

(٦) عوارف المعارف ص ٤٤٩ وما بعدها •

(٧) سورة الذاريات الآية ٢٢ •

الله تعالى ومن السبب فهو مشرك ، ومن رآى الرزق لا من الله بل من الأسباب فهو كافر محضا كالقدرية ...) (١)

ويذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم مع ما أعطاه الله تعالى كان يأتي الأسباب : (يجهز الجيوش ويبعث العيون ويناهد المشركين فإذا فتح قرية أو استولى على بلدة تبرأ من جميع ذلك ...) (٢) وتحدث عن الدعاء وفضله وعرض لاختلاف الناس فيه فقال : (واختلف في الدعاء والتسليم أيهما أولى فذهبت طائلة من السلف وهم الأكثرون إلى أن الدعاء أفضل وأولى لكونه مخ العبادة وما فيه من إظهار الفاقة بين يدي الله تعالى لأنه سبحانه لم يخلق خلقه إلا لإظهارهم الفاقة بين يديه إما بالدعاء والضراعة وإما بالتوحيد والعبادة وإلا فقد قضى أزلا لكن الله تبارك وتعالى يمحو أو يثبت وتجري الأسباب إلى مسبباتها كما يشهد لذلك قوله عليه الصلاة والسلام : (لا يرد القضاء المبرم إلا الدعاء) (٣)

ويأتي التوكل عند الشيخ سيدي المختار الكنتي بعد مقام المراقبة وقبل مقام التفويض والتسليم (٤)

ويقول الشيخ سيدي محمد الكنتي إن التوكل لازم لأهل الايمان لأن الله تعالى يقول : (يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) (٥) ومن العقود التي عاقدته عليها الاكتفاء به والأنقطاع إليه ورفع الهمة عن الخلق توكلا عليه وذلك هو ميزان المريد الصادق ..) (٦)

وللقادرية نصوص كثيرة عن الأسباب وأثرها في جلب النفع ودفع الضر ، وتقدم بعضها في باب العقيدة في فصل الولاية عند الكلام على دعوى التصرف في الكون بالحيل والأسباب ، ويدخل في ذلك الرقى والعزائم والتداوي والتطير وعلوم السر أو

---

(١) المنة ص ٦٨ .

(٢) جذوة الأنوار ص ١١٠ .

(٣) الكوكب الوقاد ص ٣١ وانظر ما بعدها ويرجع في الأحاديث إلى كتاب الدعوات في جامع الترمذي جـ ٧ ص ٢١٨ وما بعدها .

(٤) الكوكب الوقاد ص ١٥٠ .

(٥) سورة المائدة الآية ١ .

(٦) جنة المريد ص ٢٨ .

الشر كما يسميها الشيخ سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم (١) وتحدثوا عن العمل والتكسب والأخذ بالأسباب ، وقد تقدم في مبحث جمع الأموال والهدايا للشيخ وحضرته عرض ونقد بعض نصوصهم في ذلك ومن نصوصهم في ذلك ما يأتي :

يقول الشيخ سيدي محمد الكنتي بعد إيراد طويل لمسالك الناس في الحياة وأن القادرية مشاركة في كل ناحية منها وأن الشيخ المختار الكنتي جمع الله له تلك المسالك كلها : (ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد) (٢) يقول بعد ذلك أن والده الشيخ سيدي المختار الكنتي كان يجيب على أسيئلة مريديه وأتباعه ويحثهم على الكسب والتجارة والاستغناء عن التعرض لأهل الدنيا ، وأنه كان حريصا على الأمن وحماية المسافرين والقوافل التجارية ، وأنه كان له عمال كثيرون يتجرون له وآخرون ينمون له المواشي (٣) .

ومن نصوصه في الحث على العمل والتكسب إجابة على أسئلة لمريد له :

(الحمد لله الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم والصلاة والسلام على النبي الأكرم أما بعد فإن التجارة من أفضل الحرف وأشرفها وهي من فرض الكفاية وكفى من شرفها أنها كانت حرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ... إلى أن قال : والتجريد إن سبق إليه . يعني السالك . فهو الأفضل والأولى وإلا فليقم السالك حيث أقامه الله تعالى ، قال ابن عطاء : إرادتك التجريد مع إقامة الله لك في الأسباب من الشهوة الخفية وإرادتك الأسباب مع إقامته إياك في التجريد انحطاط من الرتبة العلية . (٤) وأما تجريد علماء السلف للدرس والتدريس دون الاشتغال بالتجر فذلك لتوفر الأحباس الموقوفة لذلك في جميع الأقطار والأمصار ووجود بيوت الأموال المعدة لما هنالك وتعلق همم الناس بالعلم والديـن فإذا ظهر عالم أتحفه الأمراء بالهدايا العريضة

---

(١) أنظر : الطرائف ص ٢٨٥ وما بعدها والضياء ص ٩ و ٢١١ . ٢١٢ وكتاب الشموس الأحمدية ص ٢٠ وكشف اللبس عن المسائل الخمس ص ١ . ١٣ .

(٢) الطرائف ص ٤٢٥ وهذا شطربيت من قصيدة للبحتري يمدح فيها أحد الخلفاء العباسين .

(٣) الطرائف ص ٣٩٢ و ٤٢٤ . ٤٢٨ .

(٤) أظن أن كلام ابن عطاء الله انتهى هنا .

فمنهم من كان يأخذها وكثير منهم يردها عليه أنفة وتنزها وتحرجاً وتأثما وكان يأتي الواحد من العلماء من عند واحد من الأمراء في يوم واحد ما ينيف على مائة ألف دينار فلما أفضي الأمر إلى علماء الخلف تكالبوا على الدنيا وقد بلغهم ما كانت تتحف به أمراء السلف فرغبوا في ذلك إذ ليس لأكثرهم عظيم نية في طلب العلم ، ما نيتهم إلا حطام الدنيا فتراموا بكليتهم على الأمراء فزهدوا فيهم وفيما معهم من العلم لما رأوا سوء منزلته عندهم فمنعوهم العطاء فضلا عما كان يعطى لعلماء السلف من غير قصدوهم عنه راغبون وفيه زاهدون فوجب على العلماء في عصرنا اتخاذ مرمة لمعاشهم تغنيهم عن بذل ماء وجوههم وتكففهم الناس فتلك سنة الأنبياء وحرفة الأولياء ، وعلى المتسبب شروط لابد له أن يعتني بها وإلا كان تكسبه عليه وبالا ، أولها : أن يدخل ذلك بربه لابنفسه وأن يرى الرزق فضلا من الله لم يحصل له من كده وأن لا يطري ولا يذم ولا يقسم ولا يخالب وأن لا يشغله عن نوافل دينه ولا عن تحصيل العلم الذي لابد له منه وأن يدقق مسائل الربويات والبيوع الفاسدة من جميع فصول الفقه وأن يستعمل ذلك في محاله أخذاً وتركا وأن ينوي بتجره أنه قائم عن الأمة بواجب من واجبات دينها ودنياها ..) (١)

ويحذر الشيخ سيدي محمد من الاعتماد على الأسباب أو الاتكال على المخلوق معتبرا ذلك من عبادة الأوثان (٢) .

وقد نظم الشيخ ماء العينين قصيدة في التوكل وشرحها قائلا : (وضعتها في التوكل وعدم عيب ذي التكسب) إلى أن قال : (واعلم أن مقام التوكل على الله مقام شريف علي بل لا في مقامات التقوى أعلا منه ولا ما يصدر منه من الخير مثل ما يصدر عنه وهو أدل شييء على الإيمان والتقوى وبه وبالتقوى ينال المرء ما يهوى ... إلى أن قال :(وليس من شـــرط التوكل ترك التكسب والتداوي والاستســلام للمهالك وذلـك خطـأ بل حـرام في الشرع وإذا اعتقـد أنــه لاحول ولا قوة إلا باللــــه فالحول

---

(١) الطرائف ص ٤٨٣ . ٤٨٤ .

(٢) الغلاوية ص ٢٢١ .

(٣) فاتق الرتق على راتق الفتق ، الصفحات ص ٣ و ٦ . ٧ و ١٣ .

الحركة والقوة القدرة فإذا كان هذا حالك فأنت متوكل وإن سعيت) قال : (وصاحب التوكل وصاحب التكسب كلاهما مدفوع فيما هو فيه من حيث لا يعلم وذلك أن كلا منهما مجبور على ما هو عليه لقولهم : العبد مجبور في قالب الاختيار ... وذلك أن صاحب التوكل لا أيسر عنده من التوكل ولا أصعب عنده من التكسب ، وصاحب التكسب لا أصعب عنده من التوكل ولا أيسر عنده من التكسب فسبحان من أعطى لكل قلب ما أشغله ...) إلى أن قال : (ثم اعلم أنه لن يجعل الله من تفرغ لعبادته وشغل أوقاته به كالداخل في الأسباب ولو كان فيها متقيا فالمتسبب والمتجرد إذا استوى مقامهما من حيث المعرفة بالله فالمتجرد أفضل وما عليه أعلا وأكمل) (١) .

نقد :

اشتملت هذه النصوص على أمور منها :

١) أن التجرد أكمل وأفضل إذا كان السالك وجد من نفسه الميل إليه .

٢) أن التكسب لاينا في التوكل إذا كان المتكسب عالما بالأحكام غير متكل على الاسباب .

٣) أن المعتقد في الأسباب وأثرها كعابد صنم ومن توكل عليها وكل إليها وإذا رأى الرزق من الله ومن السبب كان مشركا وإن رآه من السبب وحده فهو كافر كالقدرية .

هذه نصوص القادرية وتلك معطياتها ، وقد استدل القادرية على ذلك بنصوص الكتاب والسنه في أثناء كلامهم على التوكل ضمن النصوص المذكورة وفي المراجع المعلومة ، وبالنظر إلى هذه النصوص وما تشتمل عليه فإن القادرية تتبع المنهج الشرعي في التوكل اعتقادا وعملا ، لكن عند التمعن والمقارنة بالواقع العملي يجد الباحث المجال واسعاً لنقد القادرية في المجالين المذكورين : التوكل اعتقادا وعملا .

---

(١) نفس الصفحات السابقة .

أمـا اعتقـادا فـلأن اللـه سبحانه وتعالى يقول : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (١) ويقول النبي صلى الله عليه وسلم في وصف القوم الذين يدخلون الجنة بغير حساب (قال هم الذين لا يكتون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون) (٢)

والعامل بمقتضى هذا الاعتقاد يعلم أن الله تعالى وحده حسبه وكافيه (من كل ما ضاق على الناس (٣) سواء اكتوى أو استرقى على ما في ذلك من خلاف بين العلماء في أي ذلك أقرب إلى كمال التوكل أي الاكتواء والاسترقاء (٤) وإن كانت وردت أحاديث تدل على أن من اكتوبي أو استرقي (لم يتوكل) (أو برىء من التوكل) (٥) .

إلا أن القادرية يعتبرون من العاملين والناشرين للرقي بأنواعها المعروف منها وغير المعروف بالعربية وغيرها ويتربصون بالأماكن التي تروج فيها أحرازهم وتعاويذهم وتمائمهم حتى اعتقـد الجهـال أن من لم يحمل على صدره من تعاويذهم وتمائمهم (حرزاً) أو (كتاب صحة) أو (كتاب قهر) أو (كتاب نصر) إلى غير ذلك من المسميات فإنه عرضة للمهالك أو الوساوس وهمهم من ذلك جمع المال واعتقاد البركة والإجابة فيهم ٠

وهذا ينافي التوكل المزعوم من جهتين ٠ أولاهما : أنهم خرجوا بالعمل بالرقي وطلبها من ظاهر الحديث (لا يسترقون) ٠

وثانيهما : أنهم بفعلهم هذا يصرفون الناس عن التوكل على الله تعالى إلى التوكل على المخلوقين والاعتقاد فيهم وطلب أسباب العلاج والتحصن والتحرز منهم وترك التوجه إلى الله تعالى والاعتماد عليه في النفع والدفع ثم إن التطير والتشاؤم بالمخوقات التي لا تملك نفعـا ولا ضـرا يكـاد يكون عقيـدة ثابتة في بعض الناس في البئة القادريـة حيث

---

(١) سورة الطلاق الآية ٣ ٠

(٢) صحيح البخاري كتاب الرقاق ، باب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب

(٣) صحيح البخاري المرجع المذكور ٠

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٣ ص ٩٠ ـ ٩١ وفتح الباري جـ ١١ ص ٤٠٨ ـ ٤١٠ ٠

(٥) انظر : شعب الإيمان جـ ٢ ص ٦٠ ـ ٦١ ٠

يتطيرون ببعض أصحاب المهن كالحدادة أو الغناء والطرب أو المداحين أو يتطيرون ببعض الألوان أو الأجناس أو الطيور أو الأيام إلى غير ذلك مما لم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة بل هو من عادات الجاهلية التي لم يتخلص منها إلا أهل الإيمان الصادق والتوكل التام ، ذلك أن كلا من المتطير والمتطير منه خلق لله تعالى لا يقدر أحد منهم أن يجلب للآخر نفعا أو يدفع عنه ضرا من دون الله ، فالاعتقاد فيه أو الخوف منه أو إعطائه أي صفة مزية من دون الله يعد خدشا في عقيدة التوكل على الله والثقة به دون من سواه ويكون مرتكب ذلك أو معتقده بين أمور خطيرة في الاعتقاد أو العمل بموجب مقام التوكل ، ذلك أن التطير قد يصل بصاحبه إلى الشرك والعياذ بالله فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الطيرة شرك ، الطيرة شرك ثلاثا ، وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل) (١) هذا لفظ أبي داود ولفظ الترمذي : (الطيرة من الشرك ...) (٢) قال القاضي أبو بكر بن العربي في فوائد هذا الحديث وما في معناه : (الطيرة زجر وهو نوع من التعلق بأسباب يزعم المتعلق بها أنها تطلعه على الغيب وهي كلها كفر وريب وهم يستعجله المرء إن كان حقا ولا يقدر على دفعه إن كان قدرا مقدورا ولذلك جعله النبي صلى الله عليه وسلم : من الشرك ، فإنهم يريدون أن يشركوا الله في غيبه ويساونه في علمه فإذا وجد ذلك أحدكم فليطرحه عن نفسه وليتوكل على ربه كما قال ابن مسعود) (٣) يريد أن جزء هذا الحديث : (وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل) من كلام ابن مسعود رضي الهل عنه والمراد : وما منا إلا ويقع في نفسه شييء ولكن بالتوكل على الله وعدم الالتفات إلى ذلك يذهب الله عنه ذلك الوسواس أو الشييء الذي يقع في النفس ذلك أن الطيرة المرادة هنا إنما هي ما أمضاك أو صدك اعتقادا كما تشهد لذلك الأحاديث (٤) على أن الحديث المخرج في الصحيحين والمتقدم في وصف الطائفة الذين يدخلون الجنة بلاحساب في بعض ألفاظه :

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الطب ، باب في الطيرة ، الحديث رقم (٣٩١٠)

(٢) سنن الترمذي ، أبواب السير ، باب ماجاء في الطيرة الحديث رقم : (١٦٦٣)

(٣) عارضة الأحوذي جـ ٧ ص ١١٦ ـ ١١٧ .

(٤) المراجع السابقة ومسند الإمام أحمد جـ ١٦ ص ١٣٤ .

(ولا يتطيرون) (١) فمن كان واقعا في الطيرة بأي درجة فإنه لا يعد في أهل هذه المكانة الرفيعة التي ينال أهلها هذه المزية العظيمة جعلنا الله وإخواننا المسلمين من أهلها .

أما من الناحية العملية والدخول في الأسباب فإن القادرية فيه حسب فهمي لواقعهم أقسام :

منهم الشيوخ الذين يبايعون الناس كما تقدم على تمليك النفس والمال والخدمة بالبدن في جمع المفقود وتنمية الموجود هذا مع أن الشيوخ يزهدونهم في الدنيا ولكن إذا أحسوا منهم فتورا في الإقبال عليها وجمعها قالوا لهم : المذموم أن تكون الدنيا في القلب ولا يضر أن تكون في يديك منها الكنوز وضربوا لهم الأمثلة بأثرياء الصحابة رضوان الله عليهم .

وإذا رأوا منهم حرصا على جمعها وكنزها زهدوهم فيها وزينوا لهم الانخلاع منها إلى الحضرة وإلى النفقة على المتجردين والضيوف وضربوا لهم الأمثلة بأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأمثاله من الصحابة الذين كانوا يتجردون من أموالهم لله ورسوله وهؤلاء توكلهم مطعون فيه لهذه الأمور ولما تقدم في مبحث جمع المال والهدايا للحضرات الصوفية .

وينطبق على هؤلاء ما وصف به الشيخ سيديا بابه العارف الكامل في عصره :

(آكل مال الناس بالباطل ... مزخرف القول بلا طائل
مميلهم عن سنة المصطفى ... إلى طريق البدعة المائل
محصل المال بلا فترة ... في جمعه المانع للحاصل
عجلان في حظ له عاجل ... كسلان في منفعه الآجل
فذلك المعروف بين الورى ... في عصرنا بالعارف الكامل) (٢)

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب : ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، وصحيح مسلم كتاب الإيمان باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين بغير حساب ولا عذاب .
(٢) ديوان الشيخ سيديا بابه ، مخطوط شخصي ص ٣٧ .

ومنهم المسرفون على أنفسهم في جمع المال ولو بالحيل والدجل واستعمال علوم الشر وهؤلاء لا يبحث عن حالهم في هذا المقام وانما يقال لهم ولأمثالهم إن ابن مسعود رضي الله عنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أيها الناس إنه ليس من شيىء يقربكم من الجنة ، ويباعدكم من النار إلا قد أمرتكم به ، وإنه ليس شيىء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا قد نهيتكم عنه ، ألا وإن الروح الأمين نفث في روعي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها ، فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم اسبتطاء رزق أن تطلبوا بمعاص الله ، فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته) (١)

ويقال لهم إن رقياكم المشتملة على ما ذكر ينطبق عليها حديث النبي صلى الله عليه وسلم (إن الرقي والتمائم والتولة شرك) (٢)

ومنهم من يدعي التجرد والغالب أن من يفعل ذلك ويبايع عليه يكون من الذين لا يعرفون حرفا ولا يتقنون تدبيرا ، فينضمون لخدم الحضرة ورعاية مصالحها ويعيشون كما يعيش الخدم لا علم ولا مال ولا عبادة لأنه لا يتفرغ لشيىء من ذلك إذا كان فيه أهلية له وهذا عاجز منقطع يريد من يعوله ، والغالب أنه يموت أعزب مراعاة لشرط التجرد من جهة ولأنه عالة ولا يصلح له أن يحمل الحضرة أكثر من مؤنته هو بمفرده فهذا متكل غير متوكل ولو كان يعمل الأعمال الشاقة ويحصد الثمار الكثيرة فهذه مكانته وواقعه وصاحب هذه الوظيفة محبب لدى أصحاب الحضرات لخفة مؤنته وأنقطاعه للخدمة كما رأينا مدحه في عرض النصوص ٠

ومنهم طائفة لم تتمكن من اللحوق بأي قسم من الأقسام السابقة ورأوا كغلاة الصوفية أن الاسباب يكفي منهـا الاشتغال بالطهارة والصـلاة والذكر والتجوال هنا وهناك ، مع إظهار التوكل على الله والزهد في الدنيا وأسبابها ٠

---

(١) شرح السنة للإمام البغوي ، تحقيق : زهير الشاديش وشعيب الأرناؤط ، المكت الإسلامي ط ٢ سنة ١٤٠٣ هـ والراجح أنه مرسل لكن رجاله ثقاه ٠ انظر نفس المرجع المذكور (٤١١٣)

(٢) سنن أبي داوود ، كتاب الطب ، باب في تعليق التمائم الحديث رقم (٣٨٨٣) ٠

وهذا القسم وإن كان مصيبا في اختيار جانب التفرغ للتعبد فإنه مسيء في التفريط في جانب التسبب مع التوكل على الله حيث إنه لابد للحي من رزق ومعيشة واليد العليا خير من اليد السفلي (١) فلو أن أصحاب هذا القسم أضافوا إلى تعبدهم ذلك شيئا من الأسباب الظاهرة لكان توكلهم أقرب إلى الصدق والإيمان والاتباع ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول كما في حديث عمر رضي الله عنه : (لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا) (٢) والمراد أنه لابد من الحركة والاتيان بالأسباب الظاهرة والمعول عليه بعد ذلك هو التوكل على الله في جلب الأرزاق ٠

قال البيهقي : (قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : ليس في هذا الحديث دلالة على القعود عن الكسب بل فيه ما يدل على طلب الرزق ، لأن الطير إذا غدت فإنما تغدو لطلب الرزق وإنما أراد . والله تعالى أعلم . لو توكلوا على الله تعالى في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم ورأوا أن الخير بيده ومن عنده لم ينصرفوا إلا سالمين غانمين كالطير تغدو خماصا ، وتروح بطانا لكنهم يعتمدون على قوتهم وجلدهم ويغشون ويكذبون ، ولا ينصحون وهذا خلاف التوكل) (٣)

فغالبية القادرية يمكن أن يحكم عليهم بهذا الأثر المروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (عن معاوية بن قرة أن عمر بن الخطاب أتى على قوم فقال: ما أنتم؟ قالوا : نحن المتوكلون ، قال بل أنتم المتكلون ، ألا أخبركم بالمتوكلين ؟ رجل القى حبة في بطن الأرض ثم توكل على ربه ٠

وقوله : (المتكلون) يعني على أموال الناس) (٤)

---

(١) انظر : الاكتساب في الرزق المستطاب ، تأليف : محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة تحقيق ، محمود عرنوس ، ط ١ سنة ١٤٠٦ دار الكتب العلمية ص ٦٤ وما بعدها ٠

(٢) سنن ابن ماجه ، باب التوكل واليقين ٠

(٣) شعب الايمان ج ٢ ص ٦٦ . ٦٧ ٠

(٤) نفسه ص ٨١ ٠

وللشيخ سيديا بابه في وصفهم ومن على شالكتهم الأبيات الآتية وهي إن لم تعمهم فإنها صادقة على الأقسام التي ذكرناها . وهي : .

(إن اخترعت الوعظ أو حكيتا ... ثم ذكرت الذنب واشتكيتا

ثم تباكيت ولـــــو بكيتــــا ... وقلت كيت ظـاهرا وكيتـا

فالقلب لا يريد إلا الكيتـــــا ... أعطيت من ذلك أو أوكيتـا

فجئت في حلبتهم سكيتا) (١)

قلت : وهذا الانحراف الذي وقع في مفهوم التوكل أو ترك التوكل بالكلية أضر بمسير العقيدة والحياة معا ، فجر إلى الوقوع في متاهات من الدجل والشعوذة وإلى جبرية عاجزة وتواكل يعطل نمو الحياة ، فانتشر الكسل بدعوى أن الرزق مكتوب ، وأنه يطلبك فاسترح وأن الله لم يضمن لابن آدم إلا الرزق إلى غير ذلك مما هو مخالف لروح التوكل الذي هو إمضاء العزيمة والإتيان بالأسباب المشروعة على وجهها مع الثقة والرضي بما قدر الله .

والله أعلم

---

(١) الكيت اسم يطلقونه على العملية الورقية

(٢) ديوان الشيخ سيديا بابه ص ١١ .

فصل الختام : الصحوة السلفية في الطريقة القادرية وسبل تدعيمها

ويشتمل علي تمهيد وأربعة مباحث :

التمهيد :

المبحث الأول : منطلقات هذه الصحوة ٠

المبحث الثاني : مظاهر الصحوة في تصحيح العقيدة ٠

المبحث الثالث : مظاهر الصحوة في تصحيح الاتجاهات السلوكية في التصوف ٠

المبحث الرابع : سبل تدعيم هذه الصحوة ٠

التمهيد :

إن هذا البحث يعد استجابة لقول الله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ (١) ولقوله تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (٢)

ولقوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ (٣)

فأرجو أن يكون البحث فيما مضى منه وما يأتي إن شاء الله متمشياً مع مقتضيات هذه الآيات وما في معناها من الآيات والأحاديث النبوية التي تدعونا جميعا إلى بيان الحق والأخذ به على بصيرة ورفق ﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) (٤) .

وقد تناول هذا البحث بالدراسة والنقد موضوعات مهمة في العقائد والسلوك ويأتي هذا الفصل بمثابة تعقيب على ما تناولته الفصول السابقة التي تندرج تحت أبواب هذا البحث الثلاثة التي هو مستقل عنها بعنوانه وربما بمضامينه . فإذا كانت الفصول السابقة أوضحت بالدراسة والنقد أن للقادرية انحرافات في مجال العقائد والسلوك والتعبد فإن هذا الفصل يحاول أن يأتي بما لهم من إيجابيات في تلك المجالات للإنصاف . الذي هو من شيمة الأشراف هذا من جهة ولتكتمل الدراسة النقدية من جهة ثانية ، وليكون أيضاً دليلا وحجة يحتج به على من انحرف منهم وهو يدعي الانتماء لمن سنذكره في هذا الفصل من شيوخهم .

بيان عنوان الفصل :

المراد بالصحوة : إن العلماء والمفكرين والكتاب كتبوا في هذه السنوات الأخيرة عن صحوة إسلامية شـــاملة وأظهروا محاسنها وحاولوا معالجة مساوئها حباً

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤ .

(٢) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٣) سورة الإنعام الآية ١٥٣ .

(٤) سورة يوسف الآية ١٠٨ .

لها وإرشادا لشبابها ونصحاً للأمة في عقيدتها وفكرها وجمعا للكلمة الإسلامية في وجه أعداء الدين والملة • وهذه الصحوه الإسلامية المباركة منطلقة في الغالب من غيرة دينية على واقع الأمة الأليم وما ابتليت به بعض المجتمعات الإسلامية من نبذ الكتاب والسنة وجلباب حياء الإيمان •

وما ابتلي به أيضا بعض البيئات الإسلامية من الجمود أو الغلو في الدين فكانت الصحوة مطالبة بالعمل الجاد لتصحيح هذه الانحرافات وتوجيه تلك المسارات وجهة صحيحة على ضوء الكتاب والسنة ومنهج سلف الأمة فتحملت بسبب هذه المهام الصعبة عداوات كثيرة محلية وإقليمية وخارجية فاتهمت بالتشدد في الدين تارة وبالجهل تارة وبالتهور والتسرع تارة وبالغلظة والخشونة في الدعوة تارة بل اتهمت بالغلو والتعصب والتطرف تارات أخرى •

وقد قال أحد علماء موريتانيا :

(شكى دين الهدى ممادهاه بأيدي جامدين وملحدينا

شباب يحسبون الدين جهلا وشيب يحسبون الجهل دينا) (١)

إذا فالبئة القادرية الموريتانية شملتها هذه الأوضاع البيئة المذكورة وشاركت في الصحوة الإسلامية بصفة عامة ، ونادى بعض شيوخ القادرية إلى العودة إلى الكتاب والسنة ومنهج سلف الأمة في فهمهما والعمل بهما وتحكيمهما دون سواهما فكانت له بذلك منزلة خاصة بين أهل العلم والدين فاقتدى به كثير منهم في ذلك واحتذى المصلحون حذوه في ذلك إلى أن ظهرت في البلاد الموريتانية صحوة إسلامية ودعوة صادقة لمقاومة الانحرافات بألوانها وأشكالها •

هذا عن الصحوة الإسلامية بوجه عام ، ولكن عنوان الفصل الصحوة السلفية في الطريقة القادرية ، وهذا يتطلب مقياسا أدق من مجرد الصحوة ، علما أن بعض الأستاذة في موريتانيا لا يرون أن فيها صحوة ويقولون ، إنما هم خلف يقلد سلفاً ويتحفظ بعض الأساتذة من الطريقة القادرية على لفظ (الصحوة) مدعين أنهم ما غفلوا حتى تدعى لهم الصحوة •

---

(١) ينسبان للشيخ محمد سالم بن محمد علي بن عبد الودود (عدود) وقريب من مضمونها كتاب الأمة رقم (٢) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ، تأليف : يوسف القرضاي ط ١ سنة ١٤٠٢ هـ •

وكلا الرأيين ليس على إطلاقه كما سيتبين إن شاء الله تعالى بعرض نصوصهم في مباحث هذا الفصل . المراد بالسلفية :

إن السلف أو السلفية لقبان محببان للنفوس لما لهما من الدلالة على الخير الكثير ولذا فقد تجد من يدعيهما لنفسه وهوغير مدرك لعمق ما يدعيه ، ذلك أن السلف إذا أطلق على قوم فإنه يتبادر إلى الذهن أن الموصوفين به قوم على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته وخيار تابعيهم من أهل القرون المفضلة الثلاثة من صحة العقيدة وعمق الإيمان ، وصفاء النفوس والبعد عن التكلف والتنطع والبدع والغلو إلى غير ذلك من القوة في الدين ومجاهدة الكافرين والبراءة من المشركين والمنافقين والمنحرفين والحب والولاء للمسلمين ، ونشر علوم الدين وتبليغه البلاغ المبين واقامة الحجة برفق ولين على المخالف من أهل أي نحلة ودين ، والإنفاق في سبيل الله على الفقراء والمحتاجين والمجاهدين كل ذلـــك تطبيقـا لكتاب رب العالمين وهدي خاتم النبين ، وهذا منهج كبير وعميق متكامل ، قل أن يتكامل في مجتمع بعد القرون المفضلة بدليل حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال : (خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . قال عمران : فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنيين أو ثلاثا . ثم إن بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن) (١)

فهذا نص صريح بتعديل النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة وتفضيله لهم على غيرهم وهكذا من كان من أهل القرون المفضلة متصفا بصفاتهم الحميدة دون من أظهر البدعة والمروق من الدين في عهد الصحابة ومن بعدهم ولذا قال الحافظ بن حجر في شرحه لهذا الحديث : (واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومائتين ، وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهور افاشيا ، وأطلقت المعتزلة ألسنتها ، ورفعت الفلاسفة رؤسها ، وامتحن اهل العلم ليقولـوا بخلق القرآن ، وتغيرت الأحـوال تغيـرا شديـدا ، ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن ، وظهـر قولـه صـلى اللـه عليـه وسلم (ثم يفشو الكذب) ظهورا بينا حتى يشمـل

(١) صحيـح البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، الحديث رقم : (٣٦٥٠) .

الأقوال والأفعال والمعتقدات والله المستعان) (١) .

فإذا نظرنا إلى مفهوم السلف أو السلفية بمنطوق هذا الحديث الشريف ومفهومه فإنه يكون من العسير الحكم لأحد بالسلفية على الإطلاق وخصوصاً إذا أضيف لذلك ما رواه الحاكم وغيره في بيان افتراق هذه الأمة المحمدية من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعد بيانة لافتراق الأمم السابقة : (وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا ملة واحدة فقيل له : ما الواحدة قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابي) (٢) هذا لفظ الحاكم وفي جامع الترمذي : (... قالوا من هي يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي) (٣) قال الترمذي : (هذا حديث حسن غريب مفسر لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه (٤) .

وجاء من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره) قال الترمذي : (وهذا حديث غريب من هذا الوجه قال وروي عن عبد الرحمن بن مهدي أنه كان يثبت حماد بن يحيى الأبح وكان يقول : هو من شيوخنا) (٥) هذا بالإضافة إلى أنه ثبت كما تقدم في الصحيح أنه لاتزال طائفة من هذه الأمة ظاهرة ومنصورة وإن كانت متفرقة في المعمورة ، فالخير في هذه الأمة إلى نهاية الدنيا مع كثرة الاختلاف وظهور الفرق التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم وحذر من مناهجها وعقائدها وبين

---

(١) فتح الباري جـ ٧ ص ٦ .

(٢) مستدرك الحاكم ، كتاب العلم ، جـ ١ ص ١٢٩ .

(٣) جامع الترمذي ، أبواب الإيمان ، باب افتراق هذه الأمة ، الحديث رقم : (٢٧٧٩) .

(٤) نفسه وقد بين الشارح وجه الغرابة وهو أن (في سنده عبد الرحمن بن زياد بن انعم الافريقي وهو ضعيف فتحسين الترمذي له لاعتضاده باحاديث الباب) انظر تحفة الاحوذي جـ ٧ ص ٣٣٤ .

(٥) جامع الترمذي ، أبواب الأمثال . وقد ضعفه النووي في فتاواه ص ٢٨٢ لكن ليس بهذا السند الذي قواه الحافظ بن حجر في الفتح جـ ٧ ص ٦ .

العلماء أصولها وفروعها وأسباب خروجها وضلالها ومفارقتها للجماعة التي حث النبي صلى الله عليه وسلم على لزومها : (ولسنا نجد اليوم من فرق الأمة من هم على موافقة الصحابة رضي الله عنهم غير أهل السنة والجماعة من فقهاء الأمة ومتكلميهم الصفاتيـــة دون الرافضـــة والقدريـــة والخوارج والجهمية والنجارية والمشبهة والغلاة والحلولية) (١) .

وإن إختلفت عبارات العلماء في تحديد الفرقة الناجية المستثناة في الحديث السابق من الفرق الهالكة فإنهم يتفقون على أن لهم أصولا ثابتة يعتمدون عليها في اعتقادهم وعملهم ومنهجهم ٠ وهذه الأصول بإختصار هي : .

الكتاب والسنة والاجماع والقياس الصحيح ٠ فمن اعتمد هذه الأصول وقدمها على عقله ورأيه وحكمها في معتقده وفعله وتركه ولم يشبها بشيء من عقائد الفرق الضالة فهو من أهل الكتاب والسنة ، ومن أهل السنة والجماعة ومن الفرقة الناجية بإذن الله (٢) .

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٣٠٤ وانظر ص ٢٩٩ منه .

(٢) انظر عارضة الاحوذي جـ ١٠ ص ٣٠٧ والاعتصام جـ ٢ ص ٢٥٨ ـ ٢٦٥ وقد لخص شيخ الإسلام بن تيمية عقيدة أهل السنة والجماعة وأصولهم وأسباب نجاتهم في العقيدة الواسطية ٠ فيرجع إليها ٠

المبحث الأول : منطلقات هذه الصحوة ٠

إنه بناءً على ما تمهد في التمهيد السابق من بيان لشمول الصحوة الإسلامية للطريقة القادرية ، وبيان للمراد بالسلفية فإنه يمكن للباحث أن يعرض في هذا المبحث أبرز منطلقات هذه الصحوة في الطريقة القادرية في نقاط محصورة ليكون ذلك أيسر لتفهمها ومقارنتها بما عليه أهل السنة والجماعة من التمسك بالكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح في فهمهما والعمل بهما ٠

أولاً : أنهم من صوفية أهل السنة والجماعة الذين قدمنا عن الرازي في أقسام الصوفية أنهم من فرقهم ، والذين عدهم البغدادي في فرق أهل السنة والجماعة الذين يشكلون الفرقة الناجية في نظره وذلك حيث يقول : (والصنف السادس منهم : الزهاد الصوفية الذين أبصروا فأقصروا وأختبروا فأعتبروا ورضوا بالمقدور وقنعوا بالميسور ، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك مسؤل عن الخير والشر ومحاسب على مثاقيل الذر فأعدوا خير الاعتداد ليوم المعاد وجرى كلامهم في طريقي العبارة والإشارة على سمت أهل الحديث دون من يشترى لهو الحديث (لا يعلمون) (١) الخير رياء ولا يتركونه حياء دينهم التوحيد ونفي التشبيه ومذهبهم التفويض إلى الله تعالى والتوكل عليه والتسليم لأمره والقناعة بما رزقوا والإعراض عن الاعتراض عليه ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ٠ (٢)

وقد بين البحث في السابق ما لهم من هذه الأوصاف وما عليهم منها إلا أنه لابد من القول إن لفظ (الصوفي صار مشتركا) (٣)

فمن الصوفية من هو : (على مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب أهل الحديث ٠٠٠ لكن بعض المتأخرين منهم كان على طريقة بعض أهل الكلام في بعض فروع العقائد ، ولم يكن فيهم أحد على مذهب الفلاسفة ، وإنما ظهر التفلسف في

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٣٠٢ . ٣٠٣ ٠ في النسخة المطبوعة هكذا لا يعلمون ولعلها : (لا يعملون) إذ هو الموافق للمراد منها ٠

(٢) سورة الجمعة الآية ٤ أو الحديد الآية ٢١ ٠

(٣) كتاب الصفدية جـ ١ ص ٢٧٠ ٠

المتصوفة المتأخرين ، فصارت المتصوفة تارة على طريقة صوفية أهل الحديث وهم خيارهم وأعلامهم ، وتارة على اعتقاد صوفية أهل الكلام فهؤلاء دونهم ، وتارة على اعتقاد صوفية الفلاسفة كهؤلاء الملاحدة) (١) يريد أصحاب وحدة الوجود كابن عربي ومن تبعه ، وقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية بعد هذا النص الذي نقلناه في بيان أقسام الصوفية من حيث الاعتقاددرجة كل قسم ورد على القائلين بوحدة الوجود في ترتيبهم للصوفية حسب منهجهم العقدي المفضي إلى الإنسلاخ من الدين بالكلية (٢) إلا أنه أثنى على : (الشيوخ الأكابر الذين ذكرهم أبو عبد الرحمن السلمي في (طبقات الصوفية) وأبو القاسم القشيري في (الرسالة) (٣) .

وممن نص على الثناء عليهم بأسمائهم : الجنيد ، وسهل التستري ، وعبد القادر الجيلاني وهؤلاء هم في الغالب عمدة القادرية في الانتساب والاستشهاد . وهذه هي النقطة الثانية .

ثانياً : أنهم جنيديون . كما ينصون على ذلك في مقدمات كتبهم وأورادهم أو عند الكلام على من يجوز لانتساب إليه (٤)

أما الجنيد فإن السلمي قال : (إنه مقبول على جميع الألسنة) (٥) ولذا لم نجد له نقدا مباشرا في أئمة الصوفية الذين نقدهم ابن الجوزي ونسب إليهم من الكلام ما ينبيء عن سوء الاعتقاد وإن قيل إنه كان يتستر بفقهه (٦) .

والذي نقله عنه السلمي بسنده هو أنه كان يقول : (الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم ، واتبع سنته ، ولزم طريقته ، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه) (٧)

---

(١) نفسه ص ٢٦٧ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٦٧ . ٢٧٠ .

(٣) نفسه .

(٤) انظر : مقدمة هداية الطلاب ص ٢ وراتق الفتق . ص ١٠٩ .

(٥) تلبيس إبليس ص ٢١٤ .

(٦) طبقات الصوفية ص ١٥٩ .

(٧) نفسه .

وبسنده إلى سهل التستري قوله : (أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة وأداء الحقوق) (١)

وأما الشيخ عبد القادر فإنه تقدم في ترجمته بيان معتقده ومكانته وسلوكه والتزامه بهذه الأصول المذكورة ٠

فمن كان هؤلاء وأمثالهم عمدته في الطريقة والتزم أصولهم فهو من أهل السنة والجماعة المتمسكين بمنهج سلف الأمة ومن حاد عن هذه الأصول وابتدع في الدين أو تمسك بأصول أهل الكلام أو فلاسفة الصوفية فإنه يكون الطعن فيه بقدر بعده من أهل السنة والجماعة وأصولهم ، ولذا دافع شيخ الإسلام بن تيمة عن كبار شيوخ الصوفية الذين اعتبرهم القشيري في (الرسالة) بما أخذ من كلامهم أشاعرة أو كلابية (٢) فبين شيخ الإسلام ابن تيمية أنهم على اعتقاد السلف الصالح وأن ما ذكره عنهم القشيري من الاعتقاد يعد انحطاطا بهم (٣) وهذا يقتضي النظر علاوة على ما تقدم في باب العقيدة . في موقف القادرية من علم الكلام وهي النقطة الثالثة ٠

ثالثا : إن القادرية يقولون بأن الانتساب لأهل العلم والفضل سائغ وأن الأكابر من أهل العلم يفعلونه ، وذلك مثل : المالكي مذهبا والأشعري اعتقادا وقد فعل ذلك بعضهم في مقدمات مؤلفاتهم ، ودافعوا كذلك عن بعض المتكلمين المنتسبين لمذهب الإمام مالك ٠ (٤)

ونجدهم كذلك يخوضون في مؤلفاتهم في أشياء من علم الكلام مما يدل على معرفتهم بأساليب المتكلمين ومناهجهم ٠

ولكن هذا لا يصحح الحكم عليهم بأنهم من متكلمي الصوفية أو فلاسفتهم أو أنهم أشاعرة على الإطلاق وذلك لأمور :

---

(١) نفسه ص ٢١٠ وأنظر : الشفا جـ ٣ ص ٥٢٤ وجذوة الأنوار ص ٩٦ ٠

(٢) انظر الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٤٩ وما بعدها ٠

(٣) انظر الاستقامة جـ ١ ص ٨١ وما بعدها ٠

(٤) انظر مقدمة هداية الطلاب ص ٢ ونعت البدايات ص ١٠٩ ٠

منها : أن الانتساب للأشعري كأنه صار في القرون المتأخرة في بلاد المغرب بصفة عامة نوعا من التقليد المتعارف عليه بدليل أن بعضهم ينتسب إلى الأشاعرة في مقدمة مؤلفه ويأتي في وسطه بما يناقض هذا الانتساب كأن يذم مناهج المتكلمين وترتيباتهم على أقوال مشهورة عن الأشاعرة إلى غير ذلك • (١)

ومنها : أنهم يصرحون بأن علم الكلام من البدع الشنيعة في الدين ، ولكن لا بأس من تعلمه لوضعه في نحور أهل البدع والأهواء ، وأنه يقتصر في ذلك على ما ألفه الإمام أبو الحسن الاشعري وإمام الحرمين • (٢)

ومنها : أنهم يرون المعتزلة وغلاة المتكلمين هم أول من حكم العقل من هذه الأمة واشتغلوا بزبالات العقول عن الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة • (٣)

ومنها : أنهم يكفرون الفلاسفة والطبائعيين ويردون عليهم رداً شديداً ويبطلون بنصوص الكتاب والسنة ما كانوا عليه ويحذرون من كتب المتأثرين بهم من المسلمين • (٤)

يقول الشيخ سيدي المختار الكنتي:(وبقي النظر في أهل الزيغ والأهواء فالجمهور على تكفيرهم إلا مدعي خلق فعله كالقدرية أو عدم تأثير القدرة في المعاني كالمعتزلة أو معتقد التأثير بأعيان الأسباب كالمرجئة أو المدعي أن تعذيب المطيع ظلم فهؤلاء لا خلاف في تكفيرهم كالفلاسفة والدهرية والبراهمة بخلاف الشيعة والنصيبية والزيدية فإن الإمام عليا ـرضي الله عنه ـ أبى تكفيرهم وقال إخواننا بغوا علينا • وأما الروافض فقد ورد النص أنهم كلاب النار) • (٥) قلت : الذي وجدت من النصوص التي فيها ذكر للرافضة مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم هو من حديث علي رضي الله عنه قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم : (يظهر في آخر الزمان قوم يسمون الرافضة يرفضون الاسلام (٦) وعلى

---

(١) انظر : المنة ص ١٤ ـ ١٦ و ص ١١١ ـ ١٢٠ •

(٢) نفسه وجذوة الأنوار ص ١٠ و ٢٠ ـ ٢١ •

(٣) أنظر نفس المراجع •

(٤) الكوكب الوقاد ص ١٢٩ وما بعدها • والمنة ص ١٢٠ ونعت البدايات ص ٣٧ ـ ٤٢

(٥) الشموس الاحمدية ص ٦ ـ ٧ •

(٦) مسند الإمام أحمد مع الفتح الرباني جـ ٢٤ ص ٢٠ انظر تخريجه فيه •

كل فالقادرية مجمعون على ذم أهل البدع والأهواء المذكورين في هذا النص وغيره وهم في ذلك تابعون لأهل السنة والجماعة وسلف الأمة وبئتهم وعلومهم التي كانوا يدرسونها في العقائد والفرق دالة على ذلك ومساعدة عليه حيث إنهم ينطلقون بوجه عام من المأثور عن الإمام مالك فيهم ، وما كتبه أبو الحسن الأشعري وأصحابه عنهم ، وما دونه القاضي عياض وأمثاله من علماء الدولة المرابطية عنهم حسبما سلف في مقاصد العقيدة في موريتانيا قبل ظهور القادرية وبعدها ٠

فإذا كانت هذا المنطلقات صحيحة وواضحة في المنهج العام للقادرية فإنه لابد من القول بأن لهذه المنطلقات أثر في العقيدة يمكن أن يثمر صحوة تصحح العقيدة وتزيل عنها ما تراكم على بياضها الناصع عبر القرون الماضية ٠ وهذا هو موضوع المبحث الآتي إن شاء الله تعالى ٠

المبحث الثاني : مظاهر الصحوة في تصحيح العقيدة

إنه تبين بالعرض والنقد في مقاصد العقيدة في موريتانيا قبل دخول القادرية وبعد دخولها أن البلاد كانت على عقيدة السلف الصالح ، وأن الناس توارثوها عن آبائهم وشيوخهم من المرابطين ولقنوها من أمهاتهم وحفظوها من الكتاب والسنة ثم من رسالة ابن أبي زيد القيرواني : (التي من المؤكد أنها كانت موجودة وكان لها أثرها) (١) حتى قيل إن بعض فقهائهم كان يقتصر عليها . (٢)

ولما دخلت البلاد عقائد السنوسي الثلاثة : الصغرى والوسطى والكبرى . كان حظها من الدرس يكاد يكون محصوراً في جهات من البلاد وفي مدارس محدودة هذا مع أن بعض علماء البلاد نظمها كما تقدم وأبدى البعض إعجابه بها وبمؤلفها .

وعقائد السنوسي وإن كانت تعتمد تقسيم المتكلمين ومؤلفها يعد متكلما فإنها تتضمن سردا لمذاهب المتكلمين ومناهج الأشاعرة على العموم بحيث لا يجد الدارس لها فرضا لعقائد معينة إلا تقسيمها للصفات ، ومع ذلك فإن مؤلفها يؤكد بعد ذكر مذاهب المتكلمين على طريقة السلف وأنها أسلم وأحوط للمرء المسلم ، ولما نظمها المقري حرص على بيان منهج السلف وترجيحه على غيره كلما سمحت له ضرورة النظم ومن ذلك نختار ما يأتي :

(وذوا احتياط في أمور الدين	من فر من شـــك إلى يقيـن
ومن له عقل أبي عن شرب ما	لم يصف مذ ألفى زلالاً شبما) (٣)

إلى أن يقول :

(واحذر أقاويل ذوي الأهواء	فإنهـا مـن أدوإ الأدواء
واسلك سبيل السنـة الغـراء	فنورهـا باد لـعين الرائى
فالشر مقرون بالابتـــداع	والخير مضمون بالاتباع) (٤)

---

(١) مقدمة تحقيق كتاب السياسة ، مصدر سابق ص ٢٨ .

(٢) انظر : الحاوي للفتاوى جـ ١ ص ٢٨٧ .

(٣) إضاءة الدجنة ص ١٥ .

(٤) نفسه ص ٩٩ .

إلى أن قال :

(وفي كتاب الله أسنى مكتفى ... به وما سن النبي المقتفى
وما عليه أجمع الأعلام ... ممن تزكت منهم الأحلام
وفي اتباع السلف الهداة ... وسيلة للأمن والنجاة) (١)

هذا مع أن البرنامج الدراسي الذي ذكر عن العلمين الأولين من أعلام القادرية المترجمين لا يشتمل على شيىء من كتب الأشاعرة في العقائد أو علم الكلام ولكن فيه أن كلا منهما درس رسالة ابن أبي زيد القيرواني .(٢)

وبالنظر إلى مؤلفاتهم في العقيدة فإن الباحث يجد فيها خلطا بين عقائد السلف ومذاهب الخلف (٣) هذا مع إدعائهم أنهم على منهج السلف الصالح ، وأنهم من أهل السنة والجماعة والفرقة الناجية مع الحث على الأخذ بالكتاب والسنة ورد ما خالفهما (٤) (فالاجتهاد المخالف للكتاب والسنة منبوذ) وأن الأولياء والعلماء مصدقون : (إلا في ما خالف الكتاب والسنة وحاشاهم من ذلك) وأنه : (لن يأتي آخر هذه الأمة بأفضل مما جاء به أولها) وأن : (كل علم لا يرشد إليه الكتاب والسنة فهو ضلال وإضلال) (وكل علم لا يصدقه الكتاب والسنة فاضرب به وجه صاحبه) (٥) .

هذا مقتبس من كلام الشيخ سيدي المختار الكنتي الذي يقول ولده الشيخ سيدي محمد عنه إنه كان مجدد القرن الثاني عشر لاقتصاره على ما اقتصر عليه السلف الصالح . على ما تقدمت مناقشته في ترجمته ويقول عنه : (والذي كان الشيخ يميل إليه ويرتضيه ويخوض فيه إلى الساحل توحيد القوم المبني أساسه على حقائق الكتاب والسنة ورقائقهما من غير إلحاد ولا تحريف ولا زيغ ولا تكليف مع سلامة تكيف المباني وسلامة المعاني) (٦) ويضيف في وصفه لعقيدة والده وما كان عليه : (فالعقد

---

(١) نفسه ص ١٠١ .
(٢) انظر : الطرائف ص ١٠١ والضياء المستبين ص ٢٣٧ .
(٣) أنظر المنة ص ١٣ وما بعدها والشموس الأحمدية ص ٣ وما بعدها والضياء المستبين ص ١٩١ و ٢٨١ .
(٤) انظر نفس المراجع والكوكب الوقاد ص ٤٨ و ٥٣ و ٥٨ و ١٠٨ و ١٣١ و ١٥٨ .
(٥) جذوة الأنوار ص ٤ و ١٠ و ٢٢ و ٣٩ و ١١٥ .
(٦) الطرائف ص ٢٨٤ .

الأهم هو ما درج عليه السلف من الصحابة وأعيان التابعين مما أخذوا من نصوص الكتاب والسنة كسورة الإخلاص وآية الكرسي وآية (ليس كمثله شيىء وهو السميع البصير) وغير ذلك ... إلى أن يقول : (والقرآن كلامه عز وجل منزلا حقا ميسر صدقا من غير التفات للكيفية قال الله تعالى : ﴿ ونزلناه تنزيلا ﴾ ﴿ وإنما يسرناه بلسانك ﴾ والإيمان بالكتاب والسنة بخاصه وعامه ومجمله على مقتضى اللسان العربي ما عرفت العقول معناه وما لم تعرفه تسلم فيه وتذعن إليه من غير اعتراض ولا تأويل وإن أوله فعلى ما يليق بجلاله جل وعز وعظمة كما له ، والتصديق بما أخبر به الكتاب والسنة من أنواع المغيبات على ما أخبر عنه صلى الله عليه وسلم ... إلى أن قال : (وأما ما حدث بعد الصدر الأول من تفاصيل العقائد وتنقيح الدلائل العقلية ، فالنظر فيه متعين لمن قويت قريحته وصحت فطنته واستقامت فكرته واحتيج إليه في الرد على الفرق الضالة ولم يخف التشويش على عقائده وعقائد المتعلمين . هذا ما عليه الشيخ الوالد رضي الله عنه وأرضاه وهو مذهب المحدثين وأكابر علماء المفسرين) . (١)

ثم يأتي هذا الشيخ بقصيدة لوالده مستدلا بها على التزامه بالكتاب والسنة مقدما لها بقوله : (وكان رضي الله عنه لا يعد متفقهة الزمن المقتصرين على أخذ مسائل الفروع من المختصرات وكتب النوازل من غير اعتماد على أصل من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس شيئا ويقول : من لم يثبت على دعيمة أصل تلاعبت به أقوال المذاهب وقد أنشد في ذلك رضي الله عنه قصيدته الطويلة البائية التي جمعت من الأساليب العجيبة والمنازع الغريبة ما لم يجتمع في غيرها حيث يقول :

وإياك ترضى باقتناص فروعها	دون ارتشاف من مشارعها العذب
فلِن الأصول كالقواعد تقتضي	طمأنينة للقلب والنجح بالأرب
فمن لم يقيد بالكتاب علومه	طغى وبغى واستبدل اليسر بالرطب
ولا تقتصر إن الحديث بيانه	وتفسيره فقه الائمة لا الشعب
ومن يترك القرآن نسيا وراءه	فقد زل في التمثيل عن ناجم الرتب

---

(١) جنة المريد ص ٣٠ . ٣١ .

ومن حاد عن نص الحديث سفاهة فقد أبدل الجياد بالحمر الحدب
ومن يترك الفقه المهذب رغبة فقد رام تجهيلا وعن رشده يذب
ولكن تفقه وانتق الحق مذهبا وميزه بالذكر الحكيم ولا تؤب
إلى غير تحقيق من القول واضح تداوله التحقيق والسلف النجب
تخير من الأقوال كل مهذب صحيح ولا تعبأ بأقوال من كلب
وثق بكتاب الله والسنة التي أتت عن رسول الله والعكس فاجتنب
ولا تقفون ما لست تعلم إنه ضلال وإضلال وداهية تشب
لتعلم حكم الله فيه وقوله وإن يك مسكوتا فسر نحوه ودب
ودع عنك أقوال الرجال ورأيهم لقول رسول فهو الذي يطب
ولا تبتدع فولا تخاف عقابه فمن يبتدع في النار مع قوله يغب) (١)

قلت : فهذا الحث على التزام الكتاب والسنة وتقديمهما ونبذ ما خالفهما وترك الأقوال التي لا تعتمد عليهما ، والدعوة إلى التحقيق والتميز والاختيار وعدم الاغترار بأقوال الرجال ، والنهي عن الأبتداع والتحذير من عاقبته ، وغير ذلك من الأمور الحسنة التي تضمنتها هذه النصوص القادرية يدل على تبصر وصحوة في العلم والعقيدة والفكر •

ولا يستغرب على من يعرف تاريخ هذه الحقبة التاريخية التي قيليت فيها هذه النصوص أن يدعى لصاحبها التجديد ، ذلك أنها حقبة تعصب وجمود ، يشهد لذلك ما قدمناه من محاربة العلماء في ذلك العصر لأي داع إلى تصحيح في العقيدة أو إلى الأخذ بنصوص الكتاب والسنة أو عرض أقوال الأئمة عليهما وكان من بين هؤلاء الشيخ سيدي المختار الكنتي صاحب هذه القصيدة إلا أنه يمكن أن يقال بأن دعوته التي تضمنتها النصوص بما فيها القصيدة (٢) موافقة لما سماه علماء عصره وهو منهم ببدع ابن حبل ومقالاته التي كانوا يفخرون بالرد عليها • (٣)

---

(١) الطرائف ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ •

(٢) انظر : ترجمة الشيخ سيدي المختار الكنتي في هذا البحث وانظر فتح الشكور ص ١٤١ •

(٣) المرجع السابق وجـ ١٧ من موسوعة ابن حامد ص ٥٣ وما بعدها •

وعلى كل فقد انتشرت كتب الشيخ سيدي المختار الكنتي في شرق البلاد وغربها وكذلك كتب خليفته التي تشتمل على الدعوة إلى تصحيح المناهج العقدية حسبما رأينا بالتزام الكتاب والسنة والأخذ بسنن السلف الصالح (١) حتى وجدنا بعده من شيوخ القادرية من يدعى له التجديد أيضا وأنه : (كان يربي مريديه بمقتضى الكتاب العزيز والسنة المحمدية) ويحذر من البدع أو التقليد الذي يؤدي إلى التضيق على المسلمين في الفتيا وأنه بلغ الاجتهاد وجدد العلوم بكاملها ، وجدد الإيمان في القلوب بالصحبة وجدد الحجاب على النساء وأن طريقته قرآنية (٢) إلى غير ذلك من المزاليا العلمية والإيمانية .

إلا أنه لم يشتهر أحد العلماء المعتبرين بعد المجيدري بمواجهة الناس بنقد صريح للمناهج العقدية والتعصبات المذهبية والجمودات الفقهية . وإن كان لا يخلو الوقت من عالم يتخذ موقفا من مسألة معينة أو بدعة منكرة ويدعو في وقته إلى الكتاب والسنة والاتباع ونبذ التقليد والابتداع ، وغالبا ما تنسى تلك المواقف لعدم تسجيلها ووضعها في مؤلف معروف يرجع إليه ولذا فلا يبقى في ذاكرة الناس إلا أن فلانا كانت له مواقف شجاعة من البدع أو الانحرافات الأخرى أو أنه كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . أما تحديد المنكر أو البدعة أو الانحراف أو كيف كان ذلك العالم أو الفقيه يتعامل معه فلا تجده .

وظل الأمر هكذا حتى ظهر الشيخ سيديا بابه الذي تقدم ذكره في موقف القادرية من الجهاد فوجد البلاد تعيش في دوامة من الجمود والتعصب لرواية ابن القاسم عن مالك في الفروع ويحصرون الحق في مختصر خليل ورواية ابن القاسم في المدونة وعقائد السنوسي في المعتقدات الأشعرية وفي التصوف على طريقة أبي القاسم الجنيد .

وهذا تعريف به وبمكانته العلمية والدعوية الإصلاحية تنقله عن أحد تلاميذه وأهل قراباته المطلعين على مراحل حياته بمصاحبته له ومصاحبة أبيه لجده وأبيه .

---

(١) انظر : كنتة الشرقيون ص ١٥٣ . ١٥٤ .

(٢) انظر الضياء المستبين ص ١٠٥ . ١١٣ و ١٤٠ و ٣٦٧ . ٣٦٨ .

يقول صاحب التعريف . وهو محمد بن أبي مدين :

(هو محي السنة ومجدد القرن الرابع عشر أبو محمد الشيخ سيدي بابه بن الشيخ سيدي محمد الخليفه بن الشيخ سيدي الكبير ... ولد في ربيع الأول عام سبع وسبعين وألف هجرية وتوفي جده وله سبع سنوات ووالده وعمره ثمان سنين فحفظ القرآن وله دون العشر واشتغل بالعلم على علماء تلامذة أبويه فأجازوه في مدة يسيرة في جميع ما تعلم عليهم وكان بعضهم يقول أرسل إلينا لنعلمه فصار يعلمنا . كما أجازوه في الأوراد القادرية والاختيارات المختارية حسبما أجازهم في ذلك والده ، فلما ناهز العشرين من عمره تاقت نفسه إلى معرفة الحق من منبعه وترك التقليد فيه فعكف على كتاب الله تعالى وما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واستجلب الكتب من الآفاق النائية بالأثمان الغالية واستنسخ منها ما لم يكن مطبوعا حتى اجتمع له منها ما لم يجتمع لغيره من أهل هذه البلاد وأقبل على مطالعتها ليلا ونهارا مع الذكاء المفرط وسرعة الحفظ المدهشة) (١)

قلت : الذي نستفيده من هذا النص أن هذا الشيخ تربى في حجر والده وجده وهما من أشهر شيوخ العلم والتصوف في بلادهما ثم أكمل تعليمه وتربيته الصوفية على تلاميذهما حتى أجازوه في العلوم والأوراد القادرية والاختيارات المختارية فهو على هذا يحمل سلسلة أبيه عن جده عن الشيخ سيدي محمد الكنتي عن والده الشيخ سيدي المختار الكنتي إلى آخر السلسلة القادرية البكائة المختارية . هذا على الأقل في بداية حياته إلى العشرين من عمره تقريبا .

ويستمر صاحب التعريف بهذا الشيخ في وصف حاله مع كتبه وطلبه للحق إلى أن يقول : (ولما حفظ السنة جعلها نصب عينيه وعمل بها حتى أصبحت قطب رحايدور عليها سائر تصرفاته في عباداته ومعاملاته بل في حركاته وسكناته وشرع في تعليمها والدعاء إليها) . (٢)

---

(١) حياة الشيخ سيدي بابة وعقيدته ، بقلم محمد بن أبي مدين ص ١ .

(٢) نفسه .

فهذه مرحلة صار فيها هذا الشيخ حافظا للسنة عاملا بها داعية إليها وهذا ما نريده من إدخاله في الصحوة السلفية في الطريقة القادرية ، ويبقى أن نعرف مظاهر مشاركته في هذه الصحوة علاوة على ما تقدم .

يقول ابن أبي مدين : (ولما كان أهل القطر الموريتاني في المعتقدات على مذهب أبي الحسن الاشعري الأوسط (١) وهو التأويل ، وفي الفروع على رواية ابن القاسم عن مالك في المدونة ، وفي التصوف على طريق أبي القاسم الجنيد بن محمد ويرون الحق منحصر في هذا وهذا وهذا بين الشيخ رحمه الله تعالى أن الأولى في المسألة الأولى مذهب أهل القرون الثلاثة المفضلة وهو الانكفاف عن التأويل وإمرار الظواهر كما جاءت من غير تعطيل ولا تشبيه ولا تكييف وتفويض معانيها إلى الله تعالى وهو الذي قصد تحريره في أبياته الأربعة عشر وهي :

(ما أوهم التشبيه في آيات	وفي أحاديث عن الثقات
فهي صفات وصف الرحمن	بها وواجب بها الايمان
ثم على ظاهرها نبقيها	ونحذر التأويل والتشبيها
قال بذا الثلاثة القرون	والخير باتباعهم مقرون
وهو الذي ينصره القرآن	والسنن الصحاح والحسان
وكم رآه من إمام مرتضى	من الخلائق بناظر الرضا
ومن أجاز منهم التأويلا	لم ينكروا ذا المذهب الأصيلا
والحق أن من أصاب واحد	لا سيما إن كان في العقائد
ووافق النص وإجماع السلف	فكيف لايتبع هذا من عرف
ومن تأول فقد تكلفا	وغير ما له به علم قفا
وفي الذي هرب منه قد وقع	وبعضهم عن قوله به رجع
حتى حكى في منعه الاجماعا	وجعل اجتنابه اتباعا
وقد نماه بعض أهل العلم	من الأكابر لحزب جهم
فاشدد يديك أيها المحق	على الذي سمعت فهو الحق) (٢)

(١) لعله يريد الدور الثالث من مراحل حياة الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله وانظر : تقديم الدكتورة فوقيه حسن محمود للايانة ص ٣٤ ـ ٣٥ ونص الابانة بتحقيقها ص ٢٠ ـ ٢١

(٢) حياة الشيخ سيدي بابه وعقيدته ص ١ ـ ٢ .

وللشيخ بابـه إملاءات على هـذه الأبيات يبين فيها مضمونها ويشرح مراده منها (١) وهي تؤيد ما كان عليه السلف من الايمان بما ورد في الكتاب والسنة من صفات الباري جل جلاله وعدم الخوض في معانيها أو طلب تأويلها طلبا للتنزية أو فرارا من التشبيه .

ومع أن هذه الأبيات في حد ذاتها تعتبر صحوة سلفية في العقيدة إلا أنها غير كافية من ذلك الإمام الذي يعد بما قام به من جهود مجددا وناشرا للسنة وقامعا للبدعة فلو كان استبدل عقائد السنوسي بكتاب يعتمد على نصوص الكتاب والسنة والمأثور عن السلف الصالح في باب الاسماء والصفات وغيرها من العقائد الغيبيات لكان له التجديد التام في المجالات الثلاث التي سبق النص على أنه وجد البلاد عليها .

ففي باب العقائد مثلا وهو أهمها كانت له هذه المشاركة التي شرحها بنقول جلها من كتب لعلماء من القرون المتأخرة وهم من متأخري الأشاعرة (٢) ثم إنه يكتب تقريظا لكتاب الشيخ عبد القادر بن محمد بن محمد سالم يشرح به وسيلة السعادة لابن بون . وقد تقدم القول بأن صاحب النص يعد إمام الأشعرية في موريتانيا وأن نظمه : وسيلة السعادة ضمنه عقائد السنوسي الثلاث وأضاف إليها . يقول الشيخ بابه سامحه الله :

(حاج المباحث ذي الحجا والباحث — ما في المباحث من جليل مباحث
تحوي مراد كليهمـا فمبـاحث — أو باحث من دونهـا كالباحـث
ورثت من التوحيد كل طريقـة — فيها رضى رب الأنام الـوارث) (٣)

وبالنظر لنص نظمه السابق في الصفات نجد أنهاتتلخص فيما يأتي :

أولاً : أن الآيات والأحاديث الصحاح التي وصف الرحمن بها يجب الإيمان بها .

ثانياً : أنها مع إيهامها للتشبيه تبقى على ظاهرها ويحذر فيها التأويل والتشبيه .

---

(١) انظر هذه الاملاءات في مصادرها : عقيدة الشيخ بابه مخطوط خاص ص ١ . ٧ وشرح السنة للإمام البغوي ج ١ ص ١٦٨ . ١٧١ وانظر : شرح كتاب الفقه الأكبر لملا على القاري الحنفي ، دار الكتب العلمية ، ط ١ سنة ١٤٠٤ هـ ص ٥٧ . ٦١ .

(٢) ولو أن بعضهم من المحدثين كالنووي وابن حجر وغيرهما .

(٣) ديوان الشيخ سيدي بابه ص ١٣ .

ثالثاً : أن هذا هو عقيدة السلف من القرون المفضلة الثلاثة ومن تبعهم من الائمة المرضين عند المسلمين ٠

رابعاً : أن من أجاز التأويل من المتأخرين لم ينكر مذهب السلف الأصيل ٠

خامساً : أن من تأول فقد تكلف ما لا علم له به ووقع فيما فر منه ٠

سادساً : أن الحق واحد وأن المصيب من المجتهدين واحد لا سيما في باب العقائد وليس في باب العقائد اجتهاد ٠

سابعاً : أن مذهب السلف هو الذي وقع عليه الاجماع وهو الذي ينصره الكتاب والسنة الصحيحة ، وأن من انغمس في التأويل من الأئمة الكبار رجع عنه في آخر عمره وندم عليه (١) وعندي أن البيت الأول من نظمه رحمه الله موهم . وهو قوله :

(ما أوهم التشبيه في آيات وفي أحاديث عن الثقات)

فكيف يكون ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم موهم للتشبيه الذي هو كفر صريح حتى يختلف الناس فيه هل يمر ويترك على ظاهره الموهم مع الإيمان به أو يؤل إلى احتمالات اللغة أو ما يسمى بالقواطع العقلية ؟ ٠ إن الإيمان والتنزيه والتسليم يغني عن هذا كله ٠

والذي يظهر أن الشيخ أوهمه المقري بقوله :

(والنص إن أوهم غير اللائق بالله كالتشبيه بالخلائق
فاصرفه عن ظاهره إجماعا واقطع عن الممتنع الأطماعا) (٢)

وقد تقدم الكلام على حكاية هذا الاجماع وعلى ذلك الايهام الذي يأتي به النص ، وذلك في باب العقائد من هذا البحث (ويجب أن يعلم أن المعنى الفاسد الكفري ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه ، وأن من فهم ذلك منه فهو لقصور فهمه ونقص علمه) ٠ (٣)

---

(١) أنظر: شرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٧ وما بعدها ٠

(٢) الإضاءة ص ٨٨ ٠

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٥ وانظر ما بعدها وقارن بما في أضواء البيان جـ ٢ ص ٣١٩ وكتاب : تنبيه الخلف الحاضر على أن تفويض السلف لاينا في الإجراء على الظواهر ، تأليف : الشيخ بداه بن البوصيري ص ٢ وما بعدها ٠

وبين الشيخ محمد سالم بن عدود في نظمه الذي حاول فيه أن يصوب الناظمين المقري وبابه لحكاية كل منهما الإجماع على ما ذهب إليه في نصيهما السابقين فقال :

(الظاهر الذي عليه نبقي ... موهم تشبيه لرب الخلق
هو الذي أهل اللسان فهموا ... إذ نزل الوحي به عليهم
فلا أبو بكر لخير الرسل ... يقول أشكل علي اشرحه لي
ولا أبو جهل يقول اختلفا ... أثبت ما من التماثل نفى
وهو الذي في قول باب المرتضى ... سيف الهدى العضب الحسام المنتضى

ما أوهم التشبيه الخ

والظاهر الذ صرفه عنه يجب ... هو الذي يفهمه من قد حجب
فهو يسير في الظلام الدامس ... بين موامي الفتنة الطوامس
وهو الذي يقول فيه المقري ... المغربي المالكي الاشعري

والنص الخ

فواجب الذمنه تشبيها فهم ... جراء ضعف فهمه أن يتهم
في ذاك فهمه فلا دلاله ... فيه لما من شبه جلاله
أصلا ولو سلم تسليم الجدل ... أن كان ظاهرا على التشبيه دل
تعين الصرف بلا خلاف ... فليس في النظمين من تناف
إذ وحدة الموضوع للتناقض ... شرط وباختلافه هنا قضي
يبقى لنا تصويب قول المقري ... فاصرفه عن ظاهره فهو حري
بقوله بدله فاصرفه عن ... موهمه إذ ذابه الإشكال عن) (١)

وعلى كل فالشيخ بابه كما قال الشيخ بداه : (وباب باب هديه مرضي : لأنه هو قطب رحى نصرة السنة في هذه البلاد وهو إمام متقدميها ومتأخريها فكل من جاء بعده عيال عليه في النصرة المذكورة ، فإنه نصر السنة بالقول والعمل وغير ذلك بخلاف غيره ...) (٢)

---

(١) مخطوط شخصي ص ١ . ٢ .

(٢) شرح نظم : الحجر الأساس لمن أراد شرعة خير الناس ، كلاهما للشيخ بداه بن البوصيري بهامش : أسنى المسالك في أن من عمل بالراجح ما خرج عن مذهب الإمام مالك . لنفس المؤلف ، المطبعة الوطنية بانواكشوط سنة ١٩٧٣ م ص ٣٤٢ .

أما نصره للسنة بالتأليف فمن أبرز مؤلفاته في الحث على السنة والتمسك بالأدلة وعدم تقليد غير المعصوم بلا دليل . كتابه :

إرشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين (١) وهو وإن كان معظمه نقول كما قال مؤلفه في مقدمته : (أما بعد فهذه نقول) فإنها نقول دالة على حسن الاختياروالتبصر مع سعة الاطلاع وحسن المقصد • وكان فاتحة لمن جاء بعده في التأليف في المسائل الخلافية وإظهار الحق فيها بالدليل لا بالتعصب المذهبي والجمود •

وأما مشاركته في الصحوة السلفية في الطريقة القادرية في تصحيح السلوك الصوفي فيأتي إن شاء الله ما نقل عنه في ذلك في المبحث المخصص لذلك •

ومن الذين يدعون التجديد في الطريقة القادرية الشيخ التراد بن العباس بن الحضرامي ابن الشيخ محمد فاضل الذي تقدمت ترجمته في أعلام القادرية حيث عرضنا هناك لأدوار حياته . يقول في إيضاح الطريق بعد ذكره لتصدير شيخه له وتصدير الشيخ محمد فاضل لشيخه الشيخ سعد أبيه :

(فصرت داعيا لما قد دعيا   إليه راعيا لما قد رعيا

مجددا من الطريق ما اندرس   مبينا آثار ما منها انغرس

إلى أن يقول :

وما لنا سوى اعتقاد الاشعري   عقيدة وما سواها فاحذر) (٢)

بعد هذا القول ينظم قصيدة طويلة تشتمل على أمور كثيرة في العقائد والسلوك يسميها تصفية الطريق يحذر فيها من سؤال غير الله تعالى أو شد الرحال إلى المزارات أو التمسح بالقبور أو البناء عليها على ما يأتي بنصه إن شاء الله ثم ألف رسالة سماها : (تنبيه المريدين إلى ما نحن عليه من الدين) بدأها هكذا :

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على النبي الكريم وبعد فليعلم أني مالكي المذهب لا أحب العدول عن مشهوره إلى ضعيفه ولا الخروج عنه إلى مذهب غيره في

---

(١) طبع الكتاب في تونس سنة ١٣٨٠ هـ انظر مقدمته وتقاريظه ص ٢ و ٨٩ . ٩١ •

(٢) نيل المراد ص ٤٧ •

غير ضـــرورة نازلة فاضلي الطريقة ما صحبت في طريقة القوم غير شيخنا الشيخ سعد بـوه ··· سلفي العقيدة بمعنى أني أسلك في المتشابه كالاستواء والنزول والفوقية والضحك مذهب السلف الذي هو الوقوف والتسليم دون التفسير والتأويل والكيف والتشبيه والتعطيل) ثم ينقل نصوصا توضح مذهب السلف من أهل القرون الثلاثة المفضلة وترد خوض المتكلمين وتكلفهم مالا يعرفون ، ثم يورد نص أبيات الشيخ سيدي بـاب المتقدمـة مستـدلا بها لصحة مذهبه معقبا عليها بنصوص مطابقة لمضمونها · ثم يقول : (قلت : فهذا هو الذي نقول به ونعتقده انتظاما في سلك سلف الأمة وخروجا من اختلافات الأئمة فإن المتكلمين يقولون بحدوث التلاوة ولهم خوض عظيم في مسألة الكلام النفسي والقرآن المتلو ويقولون بغباوة من يقول بضد ذلك كما في الإضاءة وغيرها ، وغيرهم كالإمام أحمد وأكابر أهل مذهبه كشيخنا سيدي عبد القادر الجيلي رحمهم اللـــه يشـــددون النكير على من يقول بذلك كما في الغنية وغيرهـا) (١) · هذا من مظاهر الصحوة السلفية في باب الأسماء والصفات يعممه هذا الشيخ على مريديه لعلهم يحفظونه عنه ويتبعونه عليه ، كما عمم عليهم أيضا قصيدته المشار إليها سابقا وهي : تصفية الطريق ·

ومن مظاهر الصحوة السلفية فيها نختار منها ما له صلة بالعقيدة وخصوصا في باب توحيد الربوبية والعبادة ·

يقول موجها كلامه لمريديه ولمن يسمع بعد بيان لحقوق الشيوخ وما يجب لهم من إكرام واحترام :

(ولا تغال فيهم بكالحلف ... يهم وبالخوض بغيب ما عرف
كمثل إن شيخنا قد ترزق ... به العباد وهـو غوث مطلـق

إلى أن قال :

ولا تقل في شدة وكربـه ... يا سيـــدي وشيخنا وحزبـه
مبتهلا وداعيا غير الإلـه ... مستغرقا عـن الإله في سواه

---

(١) كتاب تنبيه المريدين على ما تحن عليه من أمور الدين ، تأليف : الشيخ التراد مخطوط خاص ص ١ وما بعدها وص ٦ · وقارن بما في الغنية جـ ١ ص ٥٣ وما بعدها ·

تقــول قد غفل عني أبــي | وشيخي حيث لــم تــفز بالأرب
وحيثما فزت بنيل ما تريد | شرعت في الثنا على غير المجيد
فبعضهم بذا المقــال كفــرا | وبعضــهم لنحـــو ذا ما أنكـــرا

إلى أن قال :

وشد رحلك إلى الأموات | منعــه البعــض من الهداة

إلى أن قال :

وندب زوردون شد الرحل | هو الذي رجحه ذو النقـــل

إلى أن قال :

فلا تقل يا سيدي جئت إليـك أريد حاجي واتكالي عليـــك
حاشاك أن تردني صفر اليدين وأنت ذو التمكين غوث الثقلين
وإنما يسأل ربنا الــكريم | مجيب من دعاه ذو الفضل العميم) (١)

وكل من هذين العلمين : الشيخ سيدي بابه والشيخ التراد أخذ عنه وانتشر عنه مريدون وتلاميذ نابهون يحفظون أقواله وأشعاره ويستحضرون سيرته ، ومناقبه ، ويستشهدون بما في مؤلفاته ٠

وإذا لم نقل بأن جهودهما وتلاميذهما من بعدهما أحدثوا صحوة سلفية بالمعنى التام والمطلوب فإنهم لا شك أثروا في المحيط العام وأيقظوا المجتمعات العلمية وأثروا الساحة بما لو استثمر ورعي الرعاية الصحيحة جاء بما تحمد عقباه ، ولاشتهار أمرهما فيما ذكر وما يأتي في المبحث الآتي إن شاء الله فضلت الاقتصار عليهما كنموذج للمختارية والفاضلية ثم لتقارب زمنهما وتباعد مراكزهما حيث إن الشيخ سيدي بابه في أقصى غرب البلاد والشيخ التراد في شرقيها ، وما بينهما من البلاد في الغالب داخل في نفوذهما ٠ والله أعلم ٠

---

(١) نيل المراد ص ٥٠ . ٥١ ٠

المبحث الثالث : مظاهر الصحوة في تصحيح الاتجاهات السلوكية في التصوف

إن الانحراف في السلوك الصوفي بدأ مع نشأة التصوف نفسه وظل يزداد سوء كلما تقدم الزمان وازداد الجهل في المحيط الصوفي أو المحيط العام الذي يتوقع منه ظهور منكرين ومصححين ٠

وكان للتصوف في موريتانيا حظ وافر من الانحراف السلوكي كما رأينا في باب السلوكيات وظل الأمر يزداد كلما مات عالم أو مصلح ٠

وما دام الانحراف السلوكي منشأه سوء الاعتقاد أو الجهل بالدين ، وقد رأينا في المبحثين السابقين بوادر صحوة في العلم والعقيدة فإنه يتوقع من المصلحين في هذين الميدانين العناية بتصحيح المسار العام للسلوك الصوفي وهذا ما حدث فعلاً في الطريقة القادرية كما يستضح من خلال نصوصهم ولكن .

وقبل أن نورد النصوص الدالة على ذلك فإنه من المناسب تلخيص أسباب هذه الصحوة في الطريقة القادرية لننطلق منها إلى الثمار المتوقعة إن شاء الله ٠

تتلخص هذه الأسباب أو العوامل فيما يأتي :

١) أن القادرية تدعى التزام الكتاب والسنة ، وتحث في مؤلفاتها ورسائلها إلى اتباع مذهب أهل السنة والجماعة وتزعم أنها تنتسب للشيخ عبد القادر ثم إنها من طائفة الجنيد بن محمد ، وليس في هذه الادعاءات والانتسابات مجال للانحراف ولذا فقد اتخذ الفقهاء والمصلحون منها دليلا على مطاعنهم في الانحراف المتفشي بين أكثر المريدين ومن يكون لهم قدوة من الشيوخ المتبوعين ٠

٢) أن القادرية في موريتانيا نشأت في محيطات علمية في الغالب ، وتنافر الصوفية مع العلماء قديم يضاف إلى ذلك ما عرف عن الإمام مالك رحمه الله من الشدة على أهل البدع والأهواء والقادرية تدعي التمذهب بمذهبه وتجاور العلماء والفقهاء الذين يتبعونه ٠

٣) لذا فقد أطلق العلماء والفقهاء والشعراء ألسنتهم وأقلامهم في أهل الانحراف من

الشيوخ وأتباعهم ، فحكموا عليهم بالبدعة والافتيات على الدين ومن سبقهم من الشيوخ الصالحين ، وحاكموا بعضهم إلى الأمراء وناظروهم مشافهة ومكاتبة وأصدروا فيهم الأحكام المتفاوتة نظما ونثرا ٠ وقد تقدم بعض من ذلك في ثنايا البحث ٠

٤) هذه المواقف الشجاعة من أهل العلم والإصلاح أيقظت بعض الشيوخ من القادرية فحاولوا تدارك ما فاتهم وترميم ما اشتهرعنهم ، تارة بإنكاره وتارة بالدفاع عن النفس بالحق أو بالباطل والتلفيق ، المهم أنهم شعروا بما يهدد كيانهم واستمرار طريقتهم إذا لم يفعلوا شيئا خصوصاً في عهد الشيوخ الذين ظهرت التجانية ومن عاصرها من الطرق المنفصلة حديثا عن الطريقة حيث إنهم وجدوا أنفسهم أمام تيار جارف يكاد يقضي على مصالحهم ونفوذهم الروحي من جهة وأجملوا معه في الأحكام الصادرة عليه بالكفر تارة والانحرافات الأخرى ٠ فبدؤا يظهرون أنفسهم بمظهر المتمسك بالدين الحامي لعقائد المسلمين ، الذاب عن أولياء الله المتقين ٠

ومع ذلك ظل في الطريقة انحراف في السلوك يحتاج إلى نصح تارة وبيان للسنة تارة أخرى أو مواجهة بالطعن والتضليل والتدجيل إلى غير ذلك من المواقف التي يتطلبها الاصلاح والدعوة إلى الله تعالى وكل هذه المواقف ظلت موجودة ولله الحمد ومنها نأخذ هذه النماذج :

أولاً : الشيخ سيدي بابه :

وجد الشيخ سيدي بابه البلاد تعيش في واقع مؤسف ، تعصب وجمود من الفقهاء وانحراف سافر في التصوف ، وفوضى أمنية زهيبة فحاول أن يعالج هذه الأوضاع كلها فألف كتابه : (إرشاد المقلدين) إلى جميع المتعصبين والمنحرفين عن أصول الدين من كتاب رب العالمين وسنة خاتم النبيين ، فبين فيه للمتفقهين والمتصوفين أن التقليد الأعمى مذموم شرعاً وعقلاً وأنه لا يتبع على الإطلاق إلا الوحي المعصوم وخاطب الجميع في تقريظه لكتابه هذا قائلاً :

(هذه نقول صحيحات صريحات ... في قفوها لإله الناس مرضاة
تهديك نحو كتاب اللـه أو سنن ... قد أثبتتها عن المختار أثبات

إلى أن قال :

فهذه السنة البيضاء دارسة ... وأهلها في تخوم الأرض أموات

وفي اتباع كتاب الله أو سنن ... صحت عن المصطفى للدين منجاة) (١)

ويقول ناصحاً باتباع السنة ومحذراً مما أحدثه أهل البدعة وراداً لأعذارهم :

(كن للإله ناصرا ... وأنكر المناكرا

وكن مع الحق الذي ... يرضاه منك دائرا

ولا تعد نافعا ... سواءه أو صائرا

واسلك سبيل المصطفى ... ومت عليه سائرا

فما كفى أولنا ... أليس يكفى الآخرا ؟

وكن لقوم أحدثوا ... في أمره مهاجرا

قدموا هو يشبه ... واعتذروا معاذرا

وزعموا مزاعما ... وسودوا دفاترا

واحتنكوا أهل الفلا ... واحتنكوا الحواضرا

وأورثت أكابر ... بدعتها أصاغرا

فاحكم بما قد أظهروا ... فما تلى السرائرا

وإن دعا مجادل ... في أمرهم إلى مرا

فلا تمار فيهم ... إلا مراء ظاهرا) (٢)

ويقول مؤكداً هذا الموقف وناصحاً ومبيناً :

(آمن أخي واستقم ... ونهج أحمد التزم

واجتنب السبل لا ... تغررك أضغاث الحلم

لا خير في دين لدى ... خير القرون قد عدم

أحدثه من لم يجيء ... قطع بأنه عصم

من بعد ما قد أنزلت ... اليوم أكملت لكم

وبعدما صح لدى ... جمع على غدير خم

ادع إلى سبيله ... وخص في الناس وعم

واذكر إذا ما اعرضوا ... عليكم أنفسكم) (٣)

---

(١) المصدر المذكور ص ٨٩ . ٩٠ وديوانه ص ١٠ .

(٢) ديوانه ص ٢١ .

(٣) نفسه ص ٤٤ .

قلت : وتوفي الشيخ سيدي بابه سنة ١٣٤٢ هـ وهو جاد في معالجة بقية الأوضاع المذكورة وجاء بعده الشيخ محمد يحيى بن سليمة اليونسي . وهو النموذج الثـاني .

ثـانيـاً : الشيخ محمد يحيى بن سليمة عالم ومحدث له كلمة مسموعة ومؤلفات واختصارات لمؤلفات ونصائح للتجانية عموما والحموية خصوصا ، (١) وله مواقف من الانحراف السلوكي في التصوف بوجه عام أدى به إلى التحذير من صحبة شيوخ الصوفية ورماهـم بالجهـل والزندقة فمن قوله في ذلك وفي الحث على طلب العلم والتحقيق فيه . قولـه :

(دع المشايخ قد عداك زمانهم إيـاك فاحذر بابهم أن تطرقـه
واعكف على طلب العلوم محررا من ماجد كشف الغوامض أرقـه
قد ميز الخبـر الصحيح وضـده ومقيد الشـرع العزيز ومطلقـه
وعمومه وخصوصه ومفهومـه وكذا يـرى الزامـه ومعلقـه
وإذا تعارضت النصوص عليـه أمعن فكـره فيما لديه ودققـه
فاستخرج الدر الثمين بفكـره وجنى بـه مسلك المقول وورنقـه
هذا الـذي ترضى مشيختـه وذا هو الذي عرف السبيل وحققه
أما التصوف دون علم سـابق فهو الجهالة والهـوى والزندقـه) (٢)

وتوفي الشيخ محمد يحيى سنة ١٣٥٤ هـ وجاء بعده الشيخ التراد الذي قيل لي إن هذه الأبيات كانت تعجبه ويستنشدها (٣) وهذا النموذج الثالث :

ثـالثـا : الشيخ التراد وصف نفسه فيما سبق أنه مجدد في الطريق وكانت طريقته الفاضلية كما سبق بيانه من الطرق المعروفة بالشطح والرقص والجذب والسكر والوجد والكلام الموهم المعمم الذي لايعرف مراده ولا المراد منه وأول ذلك قوله هو :

(أحطت بعرش الله والكون مشهدا وشاهدت ما قد كان من ذاك أبعدا)

---

(١) بلاد شنقيط ص ٦٠١ . ٦٠٢ .

(٢) ملف الرحلة العلمية ص ٦ و ١٢ .

(٣) نفسه .

هذا الشيخ يأتي في مقدمة رسالة بين فيها مراده بهذا البيت وصاحبه وسماها : (إزالة الرين عن معنى البيتين) فيقول في مقدمة تلك الرسالة : إنه من كذا سنة وهو لا يخوض في المواجيد والخواطر وعلوم الصوفية وأسرارها . وأنه لا يعطي الأوراد إلا لمن عرف فروض العين واستقام على العمل بالطاعات (١) .

قلت : هذا منه دفاع عن النفس واعتذار أو حكاية حال . ولكن ما هي مشاركته في تصحيح السلوك الصوفي الذي عرفنا أنه مختل ؟

إن الناظرفي نتاج الشيخ التراد في هذا المقام يجد فيه محاولة صادقة ورغبة في التصحيح وإظهار الحق ، ولكن الناقد يجد خلطاً بين تحقيق تلك الرغبة وبين التمسك بالتقاليد الصوفية المتوارثة من تقديس الشيخ وطاعته المطلقة والاعتذار له عن الانحراف المشاهد ولو الكبائر (٢) ولكن هذا الفصل بمباحثه مخصص لإظهار جانب الصحوة والصفاء ، وما يشوب هذا الصفاء والصحوة قد تقدم نقله ونقده ولذا فنختار من نتاجه ما يناسب موضوع هذا المبحث .

يقول الشيخ التراد في معرض التبري من بعض السلوك الصوفي المنحرف في مجال العقائد التي يتفاخرون بها :

(أنا العبد ما التصريف في الكون شيمتي	ولكنما التسليم لله حرفتي
وهل أنا للتصريف أصبحت فارغا	وقد كنت مشغولا بآداب رتبتي
فلا تطلبني ماشيا فوق أبحر	ولا تطلبني خارقا أي عادتي
ولا تطلبني رائدا ما أريده	ولا تطلبن مني انفصالا بقدرتي
ولا تطلبن مني غيوبا أبينها	ولا تطلبن مني معاشا بهمتي) (٣)

ويحذر الشيخ التراد في الأبيات الآتية من معتقدات فاسدة وبدع شنيعة يعتقدها ويرتكبها كثير من الناس وهي من قصيدته : تصفية الطريق :

(ولمسك القبر ونقلك التراب	منه فدع عنك هديت للصواب
والضرب بالدفوف والمدافع	لديهم خلف سبيل الشافع
إذ هم محل الاعتبار والأدب	لا الانبساط بالملاهي والطرب
ولا تسق إليهم للذبح	شاءا وغيرها فذاك نصحي

---

(١) مقدمة الرسالة المذكورة ، مخطوط شخصي ص ١ وما بعدها وانظر : الرحلة العلمية : مقابلة مع ولده وخليفته الشيخ سعد أبيه في أنواكشوط ٢٧ / ٨ / ١٤١٠ هـ .

(٢) انظر : نيل المراد : المقدمة وص ٥ ، ١١ ، ١٨ ، ٣٤ ، ٤٦ .

(٣) نيل المراد ص ٣ .

حــرم ذا أئمــة كالنـــووي — والأكل منه منعه عنــه روي
وجعلك الاستار فوق القبــر — إضاعــة للمـــال دون بـــر
ورمي الأموال لدى القبر بلا — تعيين مالـك لها من البــلا
ولا عليهم في البنا من حاج — وذمه في مدخل ابن الحــاج
وكم به من آفـــة محظـوره — فانظر إذا ماشئتها مسطوره
وإنني أصيكـــــم أبنائـــي — لا تجعلوا عــلي من بنـــاء
لأنني إلى الدعـــاء أحــوج — وفي الدعاء مغفـرة وفــرج
نسأله عند الممـات حسنـا — خاتمـــة ورحمـــة وأمنـــا
قد أنتهت تصفية الطريـــق — موزونة بالشرع والتحقيـــق) (١)
صلى إلهنــــا على النبـــي — وآلــه عـــدد كـــل شيء)

وبهذه التصفية وما تضمنته من مظاهر الصحوة والإصلاح كانت حياة الشيخ التراد فترة من الزمن إلى أن حج عام ١٣٦٥ هـ فذكر أحد الحاضرين مجلسه في المدينة المنورة على سبيل التعريض والقدح أن السلفية في الحجاز لا يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وسلم أولا يحبونه صلى الله عليه وسلم فرد عليه بقوله : لا . إنما هؤلاء جردوا التوحيد لله حتى ظن الناس أنهم لا يحبون النبي صلى الله عليه وسلم أو أنهم محضوا التوحيد لله تعالى حتى لم يبق شيىء لمخلوق) (٢)

وبعد صدور هذه العبارات من الشيخ التراد وبعد أدائه لمناسك الحج توفي يوم السبت ١٧ محرم سنة ١٣٦٥ هـ قبل أن يصل إلى بلاده التي كان يتوقع أن ينشط في إصلاحاته المتقدمة بعد وصوله إليها من الديار المقدسة وكان من أبرز مصدريه الشيخ عبد الله بن داداه الذي ترجم له في أعلام القادرية وكان صحب الشيخ التراد في آخر حياته وتأثر بصحوته وحج والتقى بالشيخ محمد الأمين الشينقيطي وأثنى عليه وقرر أمام بعض تلاميذه صحة ما قرره صاحب أضواء البيان في كتابه المذكور من عقيدة السلف الصالح قائلا : هذا هو الذي نعتقده (٣) .

---

(١) نفسه ص ٥١ .

(٢) نقلا عن الشيخ محمد بن آل آب أحد شيوخ العلم في المدينة المنورة وخطيب جامع بحيى المالح .

(٣) نقلا عن الشيخ محمد الحسن بن عمر أحد التلاميذ القدامى مع الشيخ المذكور .

ونقلت عن عدد من تلاميذ الشيخ عبد الله بن داداه أن هذا الشيخ المذكور نقل لهم وعمل بمقتضى نقله : أن الشيخ التراد : (ترك البيعة الصوفية والخلوة والطبل والجداول . وأنه نهى عن شد الرحال إلى المشايخ والمشاهد وإقامة المولد والاحتفال به . وأن الشيخ عبد الله أعرض عن تدريس مقدمة ابن عاشر الكلامية ، وعدل عن بعض ما في الورد القادري .(١)

وقد حاولت معرفة واقع القادرية بفرعيها (المختارية) و (الفاضلية) في الوقت الحالي وذلك أثناء رحلتي العلمية إلى كل من المغرب وموريتانيا .

فقابلت من أجل هذه المهمة كلاً من :

الشيخ سيدي اعمر بن سيدي الأمين العام لزاوية الشيخ سيدي المختار الكنتي والقاضي الشيخ عبد الله بن الرقاد . هذين عن المختارية . والشيخ سعد أبيه بن الشيخ التراد وولده القاضي محمد . عن الفاضلية . فكان من كلام أمين عام زاوية الشيخ سيدي المختار الكنتي في انواكشوط : أن الطرق الصوفية أصبحت عبئا على الإسلام وخصوصاً بعد انتصار الطرق المنحرفة ونشرها لبدعها ، وتشويشها على الطرق السنية .

وأن مهام الزاوية تنحصر في جمع كتب (الشيخ) وأبنائه والتعريف بهم وبقيمة مؤلفاتهم وأضاف أن آل الشيخ سيديا نصحوه عندما كان يصور من مكتبتهم بعضا من مؤلفات هؤلاء الشيوخ أن لا يشتغل بنشرها إلا بعد غربلتها واستبعاد ما لا يتماشى مع الواقع الآن لأن لكل قوم ما يناسبهم .

ولما سألته ، هل تنوي الزاوية أن تنصب شيخا للتربية الصوفية وإعطاء الأوراد ؟

استبعد ذلك قائلا : إنه يوجد شيخ في البادية يصلح لهذه المهمة ولكنه أي سيدي أعمر لا يظن أنه سيستجيب إذا طلب منه ذلك .

وأما القاضي عبد الله بن الرقاد فهو المسؤل المالي في الزاوية وقد ركزفي كلامه على أن التعصب مذموم ، وأن الرجوع إلى الحق فضيلة وأن البحث من أجل إحقاق الحق مع الفهم وحسن النية مزيته عظيمة وأن الناس في موريتانيا ظهر بينهم في السنوات الأخيرة تعصب وأنهم مبتلون بالتناصف والرجوع إلى الحق وأن الاختلاف بين الناس وارد ولكن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم هو المصدر المعصوم . (٢)

---

(١) ملف الرحلة العلمية ص ٤ و ١٥ - ١٧ .

(٢) أجريت المقابلات بتاريخ ٢٥ / ٨ / ١٤١٠ هـ و ٢٦ / ٨ / ١٤١٠ هـ .

وكانت أجوبة الشيخ سعد أبيه بن الشيخ التراد تتلخص فيما يأتي :

أنه لا بأس على الملتزمين من الشيوخ القادرين إلا أنه لا ينبغي التعرض للمشيخة والظهور ، وأنه من الشيوخ من تكثر منهم الدعاوى .

ومن تعينت عليه المشيخة وجب عليه الالتزام بأعبائها وأن يطلب نجاة نفسه ومن تبعه من الناس .

وأن موقف والده الشيخ التراد من السلفية هو : الثناء عليهم مع نصحه لهم بالتريث قبل تكفير الناس ، وعدم التسرع في ذلك .

وأنه هو يقر بما جاء في تصفية الطريق لوالده .

وكان حديث القاضي محمد يتلخص فيما يأتي :

أن الزوايا تؤدي إلى التعصب ومنع المريدين من الأخذ من غير أهل الزاوية أو الزيارة للشيوخ الآخرين ، ولكن (الحضرة) هي المصطلح الذي استقرت عليه تسميتهم وهو اسم شامل لطلب العلم والتفرغ للعبادة بخلاف الاشتغال بتأسيس الزوايا .

وأن القادرية في الأوراد أشياخ للجميع بخلاف المعتقد فإنه لا يجمعهم مع أهل الطرق الأخرى معتقد فاسد . وسمعني فتوى الشيخ محمد عبد الله بن أحمذي في التجانية غيبا .

وسمعني أيضا من حفظه مقاطع من تصفية الطريق لجده . وقال : إنه هم بهدم بعض المباني على الأضرحة وما منعه إلا خوف الفتنه وتغير خواطر أهله عليه . (١)

وعقبت على هذه المقابلات بمقابلة مع الشيخ بداه بن البوصيري . حفظه الله . فعرضت عليه الأفكار العامة لخطة هذه الرسالة فاستحسنها قائلا : (إن عقيدة الشيخ عبد القارد الجيلي سلفية مائة في المائه) (والمرابطون سلفيون) وأن الشيخ سيدي المختار الكنتي والشيخ محمد فاضل والشيخ ماء العينيين كانوا لا يخوضون في كثير مما خاضته الصوفية وأن المعول عليه هو صحبة الصالحين من الشيوخ وأن من مزاياها في بلادنا أنه تاب بسببها كثير من أهل السلب والنهب . ثم أطلعني على بعض مؤلفاته التي يمكن أن يستفاد منها في موضوع البحث (٢)

قلت : هذه الصحوة وما أثمرته حتى الآن ما زال دون المستوى المطلوب ، وفي حاجة إلى الدعم والتنظيم وهذا هو موضوع المبحث الآتي إن شاء الله تعالى .

---

(١) أجريت بتاريخ ٢٨ / ٨ / ١٤١٠ هـ .

(٢) أجريت المقابلة بتاريخ ٢٨ / ٨ / ١٤١٠ هـ .

المبحث الرابع : سبل تدعيم هذه الصحوة

إنه بإزاء ما عرضناه من صحوة عامة وصحوة خاصة بالطريقة القادرية فإنه توجد مدارس في البئة القادرية الموريتانية مشهورة بسلفيتها ودعوتها إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة وتكوين شباب المسلمين واعداده إعدادا يؤهله لتحمل مسؤلياته الدينية . ونكتفي بنماذج من هذه المدارس يمكن أن تكون سبل دعمها أوضح وأثمر .

فمن هذه المدارس مدرسة الشيخ بداه بن البوصيري فإن صاحبها مشهور بدعوته إلى التزام الكتاب والسنة عقيدة وسلوكا ، وألف في ذلك وتحمل في سبيله الأذى ولكنه صبر . أثابه الله . وثابر حتى ظهرت لدعوته استجابة مباركة وتفرعت عنه مدارس عديدة تعطي عطاء حسنا في سبيل التمكين للكتاب والسنة وكل ما كان عليه سلف الأمة . يقول هذا الشيخ معلنا عقيدته في آخر مؤلفاته : (ثم إني أعتقد أن الله جل وعلا (ليس كمثله شيىء وهو السميع البصير) (١) ونؤمن بما جاء عن الله تعالى على مراد الله جل وعلا ، وبما جاء عن نبيه صلى الله عليه وسلم على مراد نبيه من غير تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل ولا تكييف تبعا لما صح عن شيخ الإسلام أبي الحسن الأشعري تابعا رضي الله عنه لعقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين وغيرهم رضي الله عن الجميع الآخذ عقيدته من الكتاب والسنة) (٢)

ومن سبل دعم مدرسة هذا الداعية السلفي طبع مؤلفاته ومد مدرسته بالأستاذة الخيرين المتفرغين ، وإعانته على تعمير مقر مناسب لها وتعريف الناس بجهوده لأن الناس بحاجة إلى قدوة في الخير دائما .

ومن هذه المدارس التي تستحق الدعم المادي والمعنوي مدارس (بتلميت) وخصوصا المدارس التي اشتهرت بالعناية بالكتاب والسنة ومجانبة أهل البدع كمدارس آل الشيخ سيدي ومدارس آل الشيخ محمد علي ابن عبد الودود وذلك لما قدمناه من سلفية الشيخ سيدي بابسه ولما كان يقوم به الشيخ محمد علي ابن عبد

---

(١) سورة السورى (الآية ١١) .

(٢) تنبيه الخلف الحاضر على أن تفويض السلف لا ينافي الإجراء على الظواهر ، مصدر سابق .

الودود من نشر الكتاب والسنة وعلومهما وما ينافح به عن حياضهما ولما يقوم به من بعده الشيخ محمد سالم ابن عبد الودود من نشر عقيدة السلف الصالح والتحذير من عقائد الخلف وادعاءاتهم حيث يقول في مقدمة نظمه لمختصرخليل المالكي :

(أذكر جملة من العقائـــد — على طريق السلف الأماجـد
ولست أذكر سوى المتفـــق — عليه من قبل نشوء الفـــرق
مما إليه الأشعري قد رجـــع — متبعـــا أحمد نعم المتبـــع
لا ما يقول من لذا أوذا انتمى . — زعما ولم يسر على مارسما) (١)

ثم نظم بعد هذا ثمانين بيتا في عقائد السلف الصالح في توحيد الربوبية والالهية والأسماء والصفات وأجمل عقائدهم في الملائكة والنبوات وغير ذلك من المغيبات في أحد عشر بيتا ٠ (٢)

فلو شرح هذه العقائد واستخرج أدلتها وما يقربها للدارسين لكانت عقيدة صالحة للحفظ والتدريس والتقرير كمنهج محضري ٠

ومن المدارس المهمة في مجال نشرالكتاب والسنة وعلومها : مدرسة العون للتعاليم الإسلامية في انواكشوط وفروعها داخل البلاد ، وهي مدرسة تعتبر امتدادا لمدارس المرابطين ومديرها وخطيب الجامع بها الشيخ محمد الأمين بن الحسن مشهور بالدعوة إلى الله تعالى والوقوف مع الحق ومصارحة أهل البدع وهو من أبرز تلاميذ الشيخ بداه السالف الذكر وقد حصلت على آخر تقرير سنوي لهذه المدرسة يقول معده فيه :

(لقد قامت مدرسة العون للتعاليم الإسلامية منذ أن تأسست : ١٣٩٣ بدور ريادي في مجال نشر وترسيخ التعاليم الشرعية والإسلامية والعقيدة السلفية الصحيحة حتى غدى طلابها المادة الأساسية لنشر الدعوة الإسلامية في هذه البلاد ٠٠٠) (٣) فدعم هذه الرسالة السلفية يكون بالتعريف بها وبجهودها وبمدها بالاساتذة والكتب وبالدعم المادي حتى تتمكن من تغطية نفقاتها وتواجه متطلبات نموها حسب ما يذكر التقرير المشار إليه ٠ ٠

---

(١) مقدمة نظم المختصر خليل ، تأليف : محمد سالم ابن عبد الودود ، مخطوط شخصي ص ١-٥ ٠

(٢) نفسه ٠

(٣) التقرير السنوي عن نشاط مدرسة العون ، تاريخ ١١/٣/ ١٤١٢ هـ ٠

ومن المدارس التي تحتاج الدعم وتستحقه : (مدارس ابن عامر) هذه المدارس تحمل اسم الأمير المرابطي اللمتوني أبو بكر بن عمر الذي تقدمت ترجمته في أول الكلام على العقائد في موريتانيا • ولهذا الاسم دلالة خاصة في المحيط الموريتاني حيث إن هذا الأمير استشهد مجاهدا في سبيل الله تعالى وكان أمير المرابطين السلفين •

ومدير هذه المدارس الشيخ محمد الأمين بن الشيخ داعية مشهور في البلاد الافريقية بصفة عامة وفي موريتانيا بصفة خاصة ، وله مشاركات في المؤتمرات الإسلامية وإصدارات في الدعوة إلى الله تعالى والتعليم وغير ذلك (١) ونظراً لكثرة فروع هذه المدارس وإقبال الطلبة عليها نظرا لنظامها الدراسي المسائي فإنها تحتاج بالإضافة إلى المناهج والأساتذة الدعم المادي حتى تتمكن من إنشاء مقر دائم لها بدلا من الاستئجار السنوي •

وهناك مدارس أخرى أعلنت عن منهجها في العقيدة السلفية وأنها تقتصر على تدريس ديباجة رسالة ابن أبي زيد القيرواني (٢)

وهناك أساتذة ودعاة سلفيون يقومون بجهود فردية تحتاج إلى دعم وتنظيم حتى لا تكون الجهود مكررة أو مشتة •

ومن ذلك ما حصلت عليه من لقاءات أجراها أحد الأساتذة (٣) في أنواكشوط مع بعض الأساتذة وشيوخ المحاضر والدعاة استطلاعا لنشاطهم في مجال الدعوة إلى الله ونشر العلوم الشرعية •

فنختار الاقتباس من اثنتين منها :

أولاً : حوار مع الناجي بن عبدي إمام جامع وشيخ محظرة في أنواكشوط •

---

(١) انظر له : الكتاب الأول من وحي الاسلام : الإيمان والإسلام • والكتاب الرابع : التعليم والدعوة ط الرياض •

(٢) انظر : الشعاع ، مجلة المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية • العدد (٣) ص ٦ والمحاضر الموريتانية وأثارها التربوية مرجع سابق ص ٧٩ وما بعدها • وبلاد شنقيط ص ١٣٦ وما بعدها •

(٣) هو عبد الله بن السالك أستاذ بثانوية الميناء بانواكشوط وخريج كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية عام ١٤٠٥ •

فبعد أن يتحدث المحاور عن إجازاته في القرآن وحيازته على الشهادة العالمية في الفقه والأصول يتحدث عن نشاطه في الدعوة والتعليم فيقول :

(أسير في هذا المجال على خطين الأول : تعليم الناس العقيدة والفقه والقرآن إلى جانب التعليم المحظري الأهلي : (مدرسة قرآنية كبيرة يبلغ عدد تلامذتها سبعين طفلا أربعين من الأولاد وثلاثين من البنات تزيد حتى تصل إلى المائة وتصل إلى هذا الحد ، ولا تقل عنه في الغالب .

الخط الآخر في مجال الدعوة هو محاضرات وخطب في المساجد وغيرها من الأماكن إلى جانب دروس لمجموعة من النساء مخصصة في العقيدة والفقه مع ملاحظة أن هذه العقيدة هي العقيدة السلفية الصحيحة) (١)

قلت : لم يذكر كتاباً معينا يعتمد عليه في العقيدة السلفية الصحيحة التي لاحظ أنه يدرسها ولكن يمكن أن يستأنس على سلفية عقيدته بأمرين :

أولاً : أنه من مسومة وهي كما يقول المختار بن حامد : (مسومة إحدى قبائل لمتونة المشهورة بالصلاح والعلم والولاية لا تكاد تجد فردا منها لا يحفظ القرآن العظيم حتى إن أمرأة منهم قالت : (اللهم أهلك كل مسومي لا يحفظ القرآن) (٢) .

ووجه الاستئناس بهذا أن أصولهم من المرابطين السلفين حسب نص ابن حامد هنا ، وأن شهرتهم بالقرآن دالة على ذلك .

ثانياً : أنه ذكر في أول الحوار أنه مجاز في القرآن الكريم من الشيخ محمد المصطفى بن سيدي يحيى وهذ الشيخ مشهور عنه أنه ما صحبه أحد إلا حفظ القرآن الكريم واستفاد من العلوم الأخرى مع استقامة في الدين وعلمي أن معظم الإجازات القرآنية في منطقته صادرة عنه وعرف به ابن حامد في موسوعته تعريفا مقتضا لكن له دلالة وهو :

(أهل عيسى بوبه : منهم شيخ الشريعة والحقيقة محمد المصطفى بن سيدي يحيى الذي ازدهى الزمان به وبأنواره وأسراره أخذ عن الشيخ التراد وأخذ عنه ابنه وارثه علما ودينا السالك) . (٣) هو محمد احيد السالم ولا نعرف له من اسمه السالك .

---

(١) أجريت المقابلة في انواكشوط بتاريخ ١٥/ ١١ / ١٩٩١ م وعندي منها صورة على الآلة الكاتبة

(٢) موسوعة ابن حامد ، مرجع سابق جـ ٥ الفصل الثاني . جزء مسومة ص ١ .

(٣) نفسه ص ٧ .

قلت : لعله ممن صحب الشيخ التراد في آخر حياته بعد أن ترك كثيرا مما كان عليه أهل التصوف حسب ما ذكرناه عنه في المباحث الماضية عن الصحوة السلفية في الطريقة القادرية ويمكن أن يؤيد هذا أن أحد أبناء هذ الشيخ وهو الشيخ محمد بن محمد المصطفى بن سيدي يحيى من أبرز دعاة الإصلاح واعتماد الكتاب والسنة والبعد عن الخرافات والبدع ، سمعت ذلك منه أثناء رحلتي العلمية في عدد من المساجد في انواكشوط وبحوزتي أشرطة فيها دعوة صادقة إلى الرجوع إلى منابع الوحي الصافية الكتاب والسنة • وهو رئيس حزب الأمة والذي أكد لي سلفيته ما كتبه أمين الدائرة الإعلامية في حزب الأمة محمد ولد المختار حيث يقول عن نفسه (••• وبدأت المشاورة مع إخواني السلفين حول إنشاء حزب الأمة ••• إلى أن قال : فلم يعد أمام السلفية إلا منازلة الاستبداد جليا كان أو خفيا جزئيا أو كليا إلى أن تدول دولته بعون من الله ولطفه والحرب سجال ، والأيام دول ، ولن يزيد السلفية القمع والتنكيل إلا قوة وتمحيصا إن شاء الله تعالى) (١) •

الاقتباس الثاني : من حوار مع الأستاذ بمعهد العلوم الإسلامية والعربية بموريتانيا • التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . وهو الأستاذ : أحمد بن الطالب يقول المحاور واصفا تعليمه الأهلي : (وتعلمت في المدرسة الأهلية حيث حفظت القرآن مبكراً وحصلت على سند (إجازة) في قراءة الإمام نافع ثم مبادئي الفقه المالكي والنحو والصرف والعقيدة السلفية (ابن أبي زيد القيرواني) وأكثر ما تتلمذت عليه الشيخ بداه بن البصيري العلامة المجاهد قامع البدع بموريتانيا ، وهو من الأشخاص القلائل الذين يتمسكون بالمذهب السلفي في العقيدة •)

ويضيف : (ثم توجهت بعد ذلك إلى المشرق حيث التحقت بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، حيث تخرجت فيها من كلية الحديث الشريف)

وعن نشاطه الحالي في أنواكشوط يقول : (أكبر نشاط هو العمل التدريسي الذي أمارسه في المعهد ، وأشرف من خلاله على توجيه مجموعة كبيرة من أبنـــاء

---

(١) صحيفة الزمان الاسبوعية المستقلة ، العدد ١٩ • تاريخ ٢٩ دجنمبر ١٩٩١ م ص ١٠ •

المسلمين ، وهذا في نظري أهم بكثير من أي نشاط آخر يضاف إليه توزيع الكتب الإسلامية الدعوية إلى جانب بعض الدروس والمحاضرات وخطب الجمع داخل العاصمة وخارجها مما كان له الأثر والركيزة في هداية بعض الشباب التائهين بعون الله وتوفيقه) (١) ٠

تلك هي أعظم منطلقات الصحوة السلفية في الطريقة القادرية وأبرز مظاهرها في العقيدة والسلوك ، وأقرب السبل لتدعيمها ٠

وإنني في الختام وفي سبيل تدعيم هذه الصحوة أقترح وأدعو إلى ما دعا إليه كل من الأستاذ : حمداً بن التاه ٠ والأستاذ : شبيهنا حمداتي ماء العينيين ٠

من أنه يتعين على شيوخ الطرق الصوفية الاستفادة من مكاسبهم في مجال خدمة الإسلام ، وأن يستخدموا نفوذهم الروحي وإمكانياتهم المادية من أجل تنقيتها . أي المكاسب . والعمل بموجبها وذلك له وسائل علمية :

منها : (فتح مدارس يشرف عليها علماء مقتدرون من علماء الشريعة ، ويلزمون طلبتهم بتعلم العلوم الشرعية والتخلق بآدابها ٠٠٠ وإصدار توصية رسمية للطلبة تلزمهم بالتقيد بأحكام الشريعة وعقيدتها وآدابها ومعاقبة من يخالف ذلك بالطرد ٠٠٠) (٢)

ومنها : (محاولة عقد لقاء في أيام دراسية (وخارجها) بين أصحاب الطرق الصوفية السنية مع دعاة الفكر السلفي ، لإزالة ماهو محدث ، والبقاء على ما هو مقرر بالكتاب والسنة بدون تعصب ، ولامداهنة أو مهادنه في أحكام الله ، ومن ثم فإن ما وافق طريقة السلف الصالح فهو لنا جميعا ، وما خالفها فعلينا حربه جميعا) (٣)

ومنها : أن على العلماء والدعاة إلى الله تعالى الجد في معالجة إصلاح مجتمعاتهم

---

(١) أجريت المقابلة بتاريخ ١٥ / ٥ / ١٤١٢ هـ ص ١ ٠

(٢) مجلة الشعاع رجب ١٤٠٤ هـ العدد ٣ ص ٦٨ ٠

(٣) ندوة الحركة السلفية في المغرب العربي ، مصدر سابق ، الفكر السلفي عند الشيخ ماء العينيين وأثره في مواجهة الاستعمار ، د ٠ شبيهنا حمداتي ماء العينيين ص ٢٠٥ ٠

عقيدة وسلوكا وذلك بالبيان الواضح والجرأة في الحق مع الرفق واللين ، والبعد عن الأغراض الشخصية والتعصب والأنانية •

ومنها : تحديد نقاط الاتفاق حتى تضيق الشقة فيطلب الحق في نقاط الاختلاف بدون خلط وإضاعة وقت •

ومنها : البعد عن التجريح بدون دليل ، والكف عن الأذى بجميع صوره وأشكاله لأن المعالج يكفيه تشخيص الداء لمعالجته وليس من مصلحته الاستمرار في إثارته وتهييجه •

ومنها : المرونة في قبول الحق من المخالف لأنه ما من قوم إلا وعندهم مع الباطل حق كثير وإنما يغطي الباطل على الحق لشهوة أو شبهة ، فإذا قبل من صاحب الحق ما معه من الحق أطمأن باله واستعد لقبول بديل عن شهوته أو انقطع بالدليل والبرهان عن شبهته •

ومنها : الاقلاع عن التعميم في الأحكام لما في ذلك من عدم التحري والإنصاف •

ومنها : أن على أهل السلطة والجاه والبسطة في العلم والمال أن يجتمعوا على تنقية المجتمعات الإسلامية من مظاهر الانحراف في العقائد والسلوك وأن يشتركوا بما وهبهم الله في إصلاح ذات البين وإحقاق الحق وزهق الباطل •

وهذا جهد من مقل فقير إلى الله تعالى يشارك به في محاولات تشخيص الأدواء وصرف الدواء • والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وسلم •

الخاتمة

الخاتمة

نسأل الله لنا ولإخواننا المسلمين أحسنها

إنه باستقراء هذا البحث يتبين للمرء المسلم الناقد أنه جاء بعرض ونقد أمهات من المسائل التاريخية والعقدية والعلمية والسلوكية وأثبت من ذلك سلبا أو إيجابا ما نصره الدليل وظاهره الواقع ٠

وهذه أبرز إيجابيات وسلبيات تلك الأمهات مرتبة حسب أهميتها ٠

العقيدة :

١) تبين أن الشيخ عبد القادر الجيلي رحمه الله كان على عقيدة السلف إلا أنه تأثر في مؤلفاته بعلوم عصره في أساليب الدفاع عن العقيدة السلفية وجره ذلك إلى الدخول في تفاصيل من النفي والاثبات واستعمال توضيحات وعبارات لم يكن السلف الصالح يتركون البحث في جانب الوحي والمغيبات يصل إليها ثقه في حجية النص وإدراكا للعجز عن بيان بعده ٠ والقادرية بعده وخصوصا في موريتانيا كغيرهم عالمهم كالعلماء من غيرهم ، منهم السلفي ومنهم المؤل ، وجاهلهم كغيره على الفطرة والإيمان المجمل بالكتاب والسنة وكل ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن بعضهم فسدت فطرهم بسبب ما أدخله الشيوخ عليهم من :

٢) زيادات اختصت بها الصوفية من عقيدة التأويل الباطني والحقيقة والشريعة إلى غير ذلك من عقيدة صرف النصوص عن ظاهرها إلى أمور لا دلالة فيها عليها وقد تبين بالبحث أن هذا من عقائد الزنادقة . والعياذ بالله ٠ كما تبين أن القادرية لا تؤمن بعقيدة الحلول والاتحاد وإن كان عندهم من الكلام الموهم ما يجب تجنبه ٠

٣) وعقيدة الغلو في الاشخاص بدعوى الولاية والحب في الله والبغض فيه تكاد تكون عقيدة غالبة على جميع الصوفية فجرت القادرية إلى الاعتقاد بأن بعض الناس يعلم الغيب ويتصرف في الكون إلى غير ذلك مما تبين أنه يتراوح معتقده وفاعله بين كفر اعتقادي أو عملي ٠ ويبقى حب الأولياء وطاعتهم في المعروف من أعظم

دلائل الايمان دون المعتقدات الفاسده .

٤) أما عقيدة القادرية في القضاء والقدر فتكاد تكون موافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة لولا مبالغات قد تصل ببعضهم الى الجبر .

٥) وإذا سلمت عقائدهم في الملائكة والنبوات من كثرة الدعاوي الموهمة بإدعاء فتح باب الوحي والنبوة فلا يأس بها في مجملها إلا أنهم يقولون (قيل لي) (وهذا المعراج الروحي) . إلى غير ذلك من العبارات التي تقدم نقد ما فيها من ضرر .

٦) يمجدون العقل ويمتد حونه ويرون فيه الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، ومع ذلك يأمرون المريد بالتسليم والتقليد الأعمى .

٧) ولهم مشاركات في العلم ونشره والدعوة إليه والتأليف فيه ، ولكن يشوبون ذلك بكثرة الدعاوى وذم المعترضين عليهم من العلماء وتنفير المريدين من الأخذ عنهم أو قبول حججهم لأنهم من علماء الظاهر المحجوبين ، وأنهم هم من علماء الباطن وأهل العلم اللدني ، ويصدقون مع ذلك بالخرافات والأوهام والمنامات والمواجيد والذوقيات ولو خالفت النصوص ويستعملون الطلسمات وغيرها مما يسمونه علوم السر ، ويستدلون بالضعيف والموضوع من الأحاديث إلى غير ذلك مما أوضحناه في البحث من الاغلاط العلمية التي أدت في بعض الأوقات إلى إثارة جدل بين العلماء فأثرت الساحة العلمية والأدبية .

٨) وهم في الجهاد كغيرهم من أهل زمانهم فمنهم من جاهد ومنهم من قعد وتذرع بما لا حجة فيه ، ومنهم من عكف على أوراده ونوافله معتقداً أن ذلك هو الجهاد الأكبر ، إلا أن لهم حظاً كبيراً من الدعوة الإسلامية بطرقهم الخاصة وأساليبهم في كسب الاتباع ومع ما يؤخذ على وسائلهم في ذلك فإنها أفادت في إدخال كثير من الوثنين في الإسلام وتاب بسببها كثير من الفساق والمتلصصين وأشغلت أوقاتهم بذكر الله والعبادة وطلب العلم في بعض الحالات .

السلوكيات والعبادات :

١) إنه مع أهمية القدوة والصحبة للمتعلم والمتربي فإن القادرية يبالغون فيها حتى يسدون أبواب الخير في وجه من لم تكن عنده بيعة لشيخ يطيعه الطاعة المطلقة أو العمياء أحيانا .

٢) ولبعضهم عبادات مبتدعة أصلا وبدع في عبادات مشروعة بأصلها بالتحديد في الأعداد والأوقات والهيئات وهذا مانتج عنه :

٣) الانحراف الخلقي لدى بعضهم واتباعهم لشهواتهم وأهوائهم ومنافرتهم من ينكر عليهم أو يوجههم من أهل العلم حتى يصل ببعضهم :

٤) إلى رؤية الفضل على الغير والتدابر والتفرقة بين الأسرة الواحدة والخلاف والنزاع بين القبائل إلى غير ذلك من أمراض القلوب التي يدعون معالجتها .

أغلاط تاريخية : تتمثل في الأنساب أحيانا وفي ادعاء اتصال أسانيد أحيانا لا يمكن تاريخيا أن تتصل كالسلاسل القادرية بصفة عامة .

٥) وكما ظهر في فصل الختام فإنه قد رجع شيوخ كبار عن النمط الصوفي الذي ثبت لديهم انحرافه وطلب بعضهم الخلاص لنفسه وسعى في إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وان كانت مواقفهم في ذلك متفاوته حسب تفاوتهم في العلم والجرأة وحب العاجلة . والمطلوب من الموجودين الانابة إلى الله تعالى ومواصلة جهود أولئك الشيوخ في الإصلاح والتصحيح .

والله أعلم

المراجع

والملحقات

المراجع والملحقات

كلمة :

وصلت مراجع هذا البحث إلى ثلاثمائة مرجع منها أربعون من المخطوطات التي تعتبر مصادر البحث الاساسية ، ومع أنه جرى توثيق كل مصدر أو مرجع عند أول ذكره فإنه مما جرت به العادة أن تثبت أهم المصادر العلمية التي أمدت البحث بمواده الأساسية أو ساهمت في بنائه مساهمة ظاهرة أن تثبت في خاتمة البحث لما في ذلك من الاعتراف العلمي والفائدة الواضحة للباحثين لذا نبرز هنا أهم المصادر المخطوطة والمطبوعة تاركين المراجع الثانوية أو الهامشية على ماجرى من توثيق لها في ثنايا الرسالة .

المخطوطات :

١ . الأدلة الشافية الكافية في إبطال حجج مدع المعية الذاتية ، تأليف : الشيخ أحمد أبو المعالي . مخطوط بدار الثقافة بانواكشوط تحت رقم : (١٨٠٩) .

٢ . برهان أهل الجهر بالذكر ، نظم : الشيخ عبد الله بن داداه ، مخطوط خاص .

٣ . بهجة الناظر في فضائل الشيخ عبد القادر أو البهجة الصغرى في مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني تأليف : عبد العزيز الديريني . يراجع ما ذكر عن هذا المؤلف في ترجمة الشيخ عبد القادر . الخزانة العامة بالرباط تحت رقم (٨٩٩) .

٤ . تاريخ الإسلام ، تأليف : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، (مكروفيلم تحت رقم (٢٩١٧) جـ ١٣ .

٥ . تاريخ إدوعيش ومشظوف ، تأليف : الشيخ سيديا بابه ، مخطوط خاص .

٦ . التخليص والنجاة ، تأليف : الشيخ التراد ، مخطوط خاص .

٧ . تنبيه المريدين على ما نحن عليه من أمور الدين ، تأليف : الشيخ التراد بن العباس مخطوط خاص .

٨ . الجرعة الصافية والنفحة الكافية ، تأليف : الشيخ سيدي المختار الكنتي ، مخطوط بزاويته في أنواكشوط .

٩ . جذوة الأنوار في الذب عن مناصب الأولياء الأخيار ، تأليف الشيخ سيدي المختار الكنتي ، مخطوط خاص . وتوجد منه نسخة من مكتبة الكتاني بخزانة القروين بفاس تحت رقم : (٨٩٥) .

١٠ . جواز الانتقال من طريقة إلى طريقة أخرى ، تأليف الشيخ التراد . جوابا لسؤال . محمد فال بن محمد محمود ، مخطوط خاص .

١١ . الدر النصير في علم الكلام وحقيقة التوحيد ، تأليف : محمد بن البوصيري الملقب (بداه) مخطوط خاص .

١٢ . دقائق الحقائق في حقائق الدقائق ، تأليف : الشيخ التراد ، مخطوط خاص .

١٣ . ديوان شعر الشيخ محمد المامي ، زاوية علم الشيخ بانواكشوط .

١٤ . ديوان الشيخ سيديا بابه مخطوط خاص جمع وترتيب : عبد الله بن باباه .

١٥ . الرد على الحسن القظفي ، تأليف : محمد يحي الولاتي ، مخطوط خاص .

١٦ . رد الشيخ المحفوظ بن بيه على القائلين بمعية الذات ، مخطوط خاص .

١٧ . رد سيدي بن حين على أسئلة محمد عبد الله بن آده ، مخطوط خاص .

١٨ . رسالة الشيخ سيدي أحمد البكاي إلى أهل مراكش ، الخزانة العامة بالرباط (د ١٠٧١) .

١٩ . الصوارم الهندية في حسم دعاوى المهدية ، تأليف : الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي مخطوط خاص .

٢٠ . الضياء المستبين في كرامات الشيخ محمد فاضل بن مامين ، تأليف : الشيخ محمد فاضل ابن الحبيب ، مخطوط خاص .

٢١ . الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد ، تأليف : الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي ، مخطوط خاص ٠ ومنه نسخ بزاوية الشيخ بانواكشوط ودار الثقافة تحت رقم (٣٥١) ٠

٢٢ . غبطة الناظر في ترجمة مولاي الشيخ عبد القادر ، تأليف : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (د ⁄ ١٦١٧) ٠

٢٤ . الغلاوية ، تأليف : الشيخ سيدي محمد الكنتي مخطوط خاص ٠

٢٥ . كشف الاستار عن نسب آل اجيه المختار ، تأليف : الشيخ التراد ٠

٢٦ . كشف اللبس عن المسائل الخمس ، تأليف : الشيخ سعد أبيه ، مخطوط خاص ٠

٢٧ . المدرسة الكنتية القادرية بأزواد وغرب إفريقيا ، تأليف : محمد المديوني مخطوط بزاوية الشيخ سيدي المختار الكنتي بانواكشوط ٠

٢٨ . مطية المجد ، نظم : الشيخ محمد فاضل بن محمد الأمين ، مخطوط بدار الثقافة بانواكشوط تحت رقم (٢٠٨٦) ٠

٢٩ . المنة في اعتقاد وطريقة أهل السنة ، تأليف : الشيخ سيدي المختار الكنتي مخطوط خاص ٠

٣٠ . نصيحة أولاد الزوايا والطلبة عن الدخول في طريق زنادقة المتصوفة الجهلة الكذبة ، تأليف : الشيخ محمد يحي الولاتي ٠ مخطوط خاص ٠

٣١ . نظم الشيخ سيدي بابه للعقيدة في الاسماء والصفات مع شرحها مخطوط خاص ٠

٣٢ . نظم الشيخ محمد سالم بن عدود لمختصر خليل . مقدمة النظم . مخطوط خاص ٠

٣٣ . هداية الطلاب ، تأليف : الشيخ سيدي المختار الكنتي . المقدمة ، مخطوط خاص .

٣٤ . وسيلة السعادة ، نظم للشيخ المختار بن بون ، مخطوط خاص .

المطبوعات :

٣٥ . الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى ، بحث تاريخي مذهبي تأليف صالح باجية ط ١ تونس (بدون) .

٣٦ . الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري ، تحقيق الدكتورة فوقية حسين محمود الناشر دار الانصار ط ١ سنة ١٣٩٧ هـ .

٣٧ . إبراهيم أنيس وآراؤه ، تأليف : محمد الطاهري ميغرى الفلاني البرناوي ط دار العربية بيروت ط ١ سنة ١٤٠١ هـ .

٣٨ . الإبداع في مضار الابتداع تأليف الشيخ علي محفوظ ، نشر دار الباز .

٣٩ . ابن الجوزي وتربية العقل . تأليف : عبد الرحمن صالح عبد الله ط ١ مكة المكرمة سنة ١٤٠٦ هـ .

٤٠ . أبو حامد الغزالي والتصوف . تأليف عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية ط ١ الرياض .

٤١ . التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار المائة الحادية والثانية عشر تأليف : محمد بن الطيب القادري تحقيق هاشم علوي . منشورات دار الاوقاف الجديدة بيروت . (بدون) .

٤٢ . الأثـر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين ، تأليف : السيد محمد أبو العزم داوود . الناشر المكتبة الفيصلية ، ط سنة ١٤١٢ هـ .

٤٣ . أحمد زروق والزروقية تأليف الدكتورعلي فهمي حشيم ، الناشر : دار مكتبة الفكر ، طرابلس . ليبيا ط ١ سنة ١٣٩٥ هـ .

٤٤ . إحياء علوم الدين ، تأليف : محمد بن محمد بن محمد الغزالي دار العلم بيروت ط ٣ .

٤٥ . إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، للوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي ، الناشر: مطبعة السعادة ط ١ سنة ١٣٢٦ هـ .

٤٦ . الأدب المفرد للإمام البخاري ، تحقيق وتقديم كمال يوسف الحوت ، نشر عالم الكتب ط ١ سنة ١٤٠٤ هـ .

٤٧ . أدب الإملاء والأستملاء تأليف : عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني ، الناشر: دار الكتب العلمية ط ١ سنة ١٤٠١ هـ .

٤٨ . إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، الناشر : دار المعرفة بيروت .

٤٩ . أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تأليف : شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني ، نشر: صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المغرب والإمارات .

٥٠ . استحالة المعية بالذات وما يضاهيها من متشابه الصفات ، تأليف : الشيخ محمد الخضر بن مايا يأبي . نشر: المحمودية بالقاهرة ط ١ .

٥١ . الاستعمار الفرنسي في إفريقيا السوداء ، تأليف : فيليب فونداس الفرنسي تعريب : محي الدين القليبي ، دار الفكر الإسلامي ط ١٩٧٠ م .

٥٢ . الاستقامة لابن تيمية تحقيق : الدكتور محمد رشاد سالم ، نشر: مؤسسة قرطبة ط ٢ سنة ١٤٠٢ هـ .

٥٣ . الاستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى ، لأحمد بن خالد الناصر السلاوي ط المغرب .

٥٤ . الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر ، طبع على هامش الإصابة في تميز الصحابة الناشر دار الشعب (بدون) .

٥٥ . الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، تأليف : حسن أحمد محمود ، نشر : دار الفكر العربي ط ٣ .

٥٦ . الإشارة في تدبير الإمارة تأليف : أبي بكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي القروي تحقيق : على سامي النشار ، ط ١ الدار البيضاء سنة ١٩٧٥ م .

٥٧ . إضاءة الدجنة للمقري مع شرحها للداه محمد بن أحمد الشنقيطي ، الناشر : مطبعة الفجالة الحديدة بالقاهرة (بدون) .

٥٨ . أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن تأليف : الشيخ محمد الأمين الشنقيطي الناشر : عالم الكتب بيروت .

٥٩ . اعتقاد فرق المسلمين والمشركين تأليف : الإمام الرازي ط الكليات الأزهرية .

٦٠ . الأعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام تأليف : عباس بن إبراهيم ط ١ الرباط .

٦١ . الأعلام ، تأليف : خير الدين الزركلي . الناشر : دار العلم للملايين ط ٢ سنة ١٩٨٩ م .

٦٢ . اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية نشر دار الفكر .

٦٣ . الاكتساب في الرزق المستطاب ، تأليف : محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة تحقيق : محمد عرنوس نشر : دار الكتب العلمية ط ١ سنة ١٤٠٦ هـ .

٦٤ . إكمال إكمال المعلم ، تأليف : محمد بن خلفة الوشتاني الأبي ، نشر : دار الكتب العلمية بيروت .

٦٥ . أنتشار الإسلام ، وأشهر مساجد المسلمين في العالم ، تأليف : محمد كمال حسن ط ١ سنة ١٩٧٦ ط ١ (بدون) .

٦٦ . البرهان في أصول الفقه تأليف : إمام الحرمين محمد بن عبد الملك الجويني تحقيق : الدكتور عبد المنعم الديب ، توزيع دار الانصار بالقاهرة ط ٢ سنة ١٤٠٠ هـ .

٦٧ . بغية المستفيد لشرح منية المريد : تأليف سيدي محمد العربي السائح الشرقي العمرى التجاني ط دار الجيل بيروت (بدون) .

٦٨ . البرهان الجلي في تحقيق انتساب الصوفية إلى علي ، تأليف : أحمد بن محمد الصديق الغماري الحسيني ط السعادة سنة ١٣٨٩ هـ .

٦٩ . البداية والنهاية لابن كثير الناشر : دار الفكر العربي (بدون) .

٧٠ . البدعة تحديدهاوموقف الإسلام منها ، تأليف : الدكتور عزت علي عيد عطية ، الناشر : دار الكتب الحديثة (بدون) .

٧١ . بذل الوسع في تفسير الآيات التسع ، تأليف : الشيخ سيدي المختار الكنتي ط ١ دمشق .

٧٢ . بلاد شنقيط المنارة والرباط ، تأليف : الخليل النحوي ، ط تونس سنة ١٩٨٧ م .

٧٣ . بهجة المجالس وأنس المجالس : تأليف الحافظ بن عبد البر ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، الناشر : دار الكتب العلمية القاهرة ط سنة ١٩٨١ م .

٧٤ . بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها . شرح مختصر صحيح البخاري لأبي محمد عبد الله بن أبي جمره ، الناشر : دار الجيل ط ٣ سنة ١٩٨٤ م .

٧٥ . البوصيري المادح الأعظم للرسول صلى الله عليه وسلم ، تأليف : عبد العال الحماطي ، نشر: دار المعارف كتابك ، عدد ٣٤ .

٧٦ . البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب تأليف : ابن عذاري المراكشي ، تحقيق ، ومراجعة الدكتور إحسان عباس ، الناشر : دار الثقافة ط ٣ سنة ١٩٨٣م .

٧٧ . البيان والتبين ، تأليف : الجاحظ : عمرو بن بحر ، الناشر : دار الفكر للجميع ط سنة ١٩٦٨ م .

٧٨ . تأويل مختلف الحديث ، تأليف : ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الناشر : دار الكتب العلمية بيروت ط ١ سنة ١٤٠٥ هـ .

٧٩ . تاج العروس تأليف مرتضى الزبيدي ، الناشر : مكتبة الحياة .

٨٠ . تاريخ جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ومدرسته العلمية تأليف : الشيخ هاشم الأعظم ط ١ بغداد سنة ١٣٩١ هـ .

٨١ . تاريخ العراق الأخير تأليف بدرى محمد فهد (بدون) .

٨٢ . التبرك المشروع والتبرك الممنوع ، تأليف : علي بن نفيع العلياني ، نشر: دار الوطن الرياض ط ١ سنة ١٤١١ هـ .

٨٣ . التجانيـة ، تأليف : على بن محمد الدخيل الله ط الرياض دار طيبة سنة ١٤٠١ هـ .

٨٤ . تحفة الالباب بشرح الانساب نظم عمود النسب ، لأحمد البدوي ط قطر سنة ١٤٠٥ هـ .

٨٥ . التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية ، تأليف : فالح بن مهدي آل مهدي نشر : الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ط ٢ سنة ١٤٠٦ هـ .

٨٦ . تخريج الأربعين السلمية في التصوف للسخاوي تحقيق : علي حسن علي عبد الحميد الناشر : المكتب الإسلامي ط ١ سنة ١٤٠٨ هـ .

٨٧ . التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، تأليف : محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي نشر : دار الكتب العلمية ط ٢ سنة ١٤٠٧ هـ .

٨٨ . ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك . تأليف : القاضي عياض اليحصبي ، تحقيق : عبد القادر الصحراوي وغيره ط ٢ سنة ١٤٠٣ هـ .

٨٩ . التشوف إلى رجال التصوف ، وأخبار أبي العباس السبتي ، تأليف : أبي يعقوب يوسف بن يحي التادلي عرف بابن الزيات ، تحقيق : أحمد التوفيق ط ١ بالمغرب سنة ١٤٠٤ هـ .

٩٠ . التصوف المنشأ والمصدر ، تأليف : إحسان إلهي ظهير ، نشر: ترجمان السنة ط ١ سنة ١٤٠٦ هـ .

٩١ . التصوف في تراث ابن تيمية ، تأليف : الطبلاوي محمود سعد . الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ط سنة ١٩٨٤ .

٩٢ . التعرف لمذهب أهل التصوف ، تأليف : أبو بكر محمد الكلاباذي ، تحقيق : عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي ط القاهرة ١٩٦٠ .

٩٣ . تلبيس إبليس ، تأليف : عبد الرحمن بن الجوزي ، أبي الفرج البغدادي ، تحقيق : السيد الجميلي ، الناشر : دار الكتاب العربي . بيروت ط ١ سنة ١٤٠٥ هـ .

٩٤ . تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب . لابن الفوطي ، تحقيق : مصطفى

جواد نشر : وزارة الثقافة والارشاد ، وإحياء التراث القديم .

٩٥ . التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع ، تأليف : محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي . قدم له وعلق عليه محمد زاهد بن الحسن الكوثري ط بغداد .

٩٦ . تنبيه الخلف الحاضر على أن تفويض السلف لا ينافي الإجراء على الظواهر ، تأليف : الشيخ بداه بن البوصيري على الآله الكاتبة .

٩٧ . التوسل أنواعه وأحكامه ، تأليف : محمد ناصر الدين الألباني ، نشر: المكتب الإسلامي ط ١ سنة ١٤٠٦ هـ .

٩٨ . ثبوت النسب دراسة مقارنة ، تأليف : ياسين بن ناصر بن محمود الخطيب ، الناشر : دار البيان العربي جده ط ١ سنة ١٤٠٧ هـ .

٩٩ . الجامع لأحكام القرآن الكريم ، لمحمد بن أحمد الأنصاري ، القرطبي ، نشر : دار إحياء التراث العربي .

١٠٠. جامع بيان العلم وفضله تأليف ابن عبد البر أبو عمر يوسف النمري القرطبي ، الناشر : دار الكتب العلمية .

١٠١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، وأحمد شاكر نشر : دار المعارف ط ٢ .

١٠٢. جامع الترمذي مع شرحه تحفة الاحوذي ، دار الكتب العلمية .

١٠٣. جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ، تأليف : محمد بن محمد ابن سليمان ط ١ سنة ١٣٤٥ هـ .

١٠٤. جمهرة أنساب العرب لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، الناشر : دار المعارف بمصر سنة ١٣٩١ هـ .

١٠٥- جنة المريددون المريد ، تأليف : الشيخ : سيدي محمد الكنتي على الآلة الكاتبة .

١٠٦. جواهر المعاني . لعلي حرازم ، الناشر : دار الكتاب العربي بيروت ط ٢ سنة ١٣٩٣ هـ .

١٠٧. كتاب الحسين عليه السلام تأليف علي جلال الحسيني ، الناشر: المطبعة السلفية بالقاهرة .

١٠٨- حاضر العالم الإسلامي تأليف : لوثروب استوارد الأمريكي نقله إلى العربية عجاج نويهص مع تعليق الأمير شكيب ارسلان ، الناشر : دار الفكر ط٤ .

١٠٩. الحاوي للفتاوي تأليف : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الناشر : دار الكتب العلمية ط سنة ١٠٤٣ هـ .

١١٠. حلية الأولياء الأصفياء للحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الاصبهاني ، الناشر: دار الفكر .

١١١. حياة الداعية إلى الله في موريتانيا : الشيخ عبد الله بن داداه بحث أعده عبد الله سراج في المعهد العالي لاعداد الائمة والدعاة في مكة المكرمة عام ١٤٠٨ هـ .

١١٢. حياة الشيخ سيدي بابه بقلم محمد بن أبي مدينه على الآلة الكاتبة .

١١٣. حياة الشيخ سعد أبيه ، إعداد محمد يصلح بن الأمانه .

١١٤- دائرة معارف المعلم بطرس البستاني ، الناشر : دار المعرفة لبنان .

١١٥. دائرة المعارف الإسلامية ط العربية .

١١٦. دراسة شخصية الشيخ المصطفى بن الشيخ القاضي ، إعداد محمد مصطفى بن أحمد ومبارك ، المعهد العالي للدراسات والبحوث ، انواكشوط سنة ١٤٠٥ هـ .

١١٧. كتاب الدعاء للإمام الطبراني ، تحقيق الدكتور محمد سعيد بن محمد حسن البخاري الناشر : دار البشائر الإسلامية بيروت ط سنة ١٤٠٧ هـ .

١١٨. الدعوة إلى الإسلام ، تأليف : السير توماس وارنولد ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وغيره مكتبة النهضة المصرية ط سنة ١٩٧٠ م .

١١٩. الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني . لحسن عيسى عبد الظاهر ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٤٠١ هـ .

١٢٠. دليل خارطة بغداد المفصل ، تأليف مصطفى جواد وأحمد شوشة ، نشر : المجمع العلمي العراقي سنة ١٣٧٥ هـ .

١٢١. دولة السلاجقة ، تأليف عبد المنعم محمد حسنين ، الناشر : مكتبة الانجلو المصرية ط عام ١٩٧٥ م .

١٢٢. الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكي ، تحقيق : محمد الاحمدي أبو النور ، الناشر : دار التراث (بدون) .

١٢٣. كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي ، الناشر: دار المعرفة .

١٢٤- ذيل تاريخ بغداد للحافظ محب الدين أبي عبد الله محمد بن محمود بن الحسن المعروف بابن النجار البغدادي : نشر : دائرة المعارف العثمانية الدكن الهند ط ١ سنة ١٣٩٨ هـ .

١٢٥. ذيل الروضتين في تراجم رجال القرنين السادس والسابع تأليف : شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي .

١٢٦. رحلة بن بطوطة ، المسماة : تحفة النظار في غرائب الأمصار . شرحه وكتب هوامشه طلال حرب ، الناشر : دار الكتب العلمية ط ١ سنة ١٤٠٧ هـ .

١٢٧. رحلة الحج إلى بيت الله الحرام بقلم العلامة الشيخ : محمد الأمين الشنقيطي الناشر: دار الشروق جدة ط ١ سنة ١٤٠٣ هـ .

١٢٨. كتاب الرد على الأخنائي واستحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية ، الرياض ط ١ سنة ١٤٠٤ هـ .

١٢٩. الرد على المنطقين لابن تيمية نشر: إدارة ترجمان السنة ط ٣ سنة ١٣٩٨ هـ .

١٣٠- رسائل بن عزوز المكي ، تحقيق على الرضا التونسي ط ١ سنة ١٤٠٤ هـ .

١٣١. الرسائل السلفية في إحياء سنة خير البرية ، تأليف : محمد بن على الشوكاني نشر : دار الكتب العلمية سنة ١٣٤٨ هـ .

١٣٢. رسالة الشرك ومظاهره ، تأليف : سارك بن محمد الميلي ، نشر الجامعة الإسلامية ط ٢ سنة ١٤٠٨ هـ .

١٣٣. رسالة العبودية لابن تيمية نشر : مكتبة المعارف بالرياض سنة ١٤٠٢ هـ .

١٣٤- الرسالة الفقهية للشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني . تحقيق الهادي حمد وزميله . الناشر : دار الغرب الإسلامي ط ١ سنة ١٤٠٦ هـ .

١٣٥. الرسالة القشيرية : تأليف : أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشري ، تحقيق : عبد الحليم محمود وزميله ، الناشر : مطبعة حسان .

١٣٦. رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم بهامش جواهر المعاني المتقدم .

١٣٧- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، تأليف : محمود الألوسي البغدادي ، نشر : إحياء التراث العربي ، بيروت .

١٣٨. الروح لابن القيم ، نشر : دار العلوم الحديثة .

١٣٩- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ، تأليف ميرزا محمد بن باقر الموسوي الخوانساري الاصبهاني . الناشر : مكتبة اسماعيليان طهران وقم ط سنة ١٣٩٢ هـ .

١٤٠- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام تأليف : أبي القاسم ابن عبد الله الخثعمي السهيلي ، تحقيق طه عبد الرؤف سعد ، نشر: دار الفكر .

١٤١. الزهر النضر في نبإ الخضر للحافظ بن حجر، ضمن مجموعة الرسائل المبيرية .

١٤٢. السلسبيل المعين في الطرائق الاربعين ، تأليف : محمد بن علي السنوسي الخطابي ط سنة ١٣٨٨ هـ .

١٤٣. سلسلة الاحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيىء على الأمة ، تأليف : محمد ناصر الدين الألباني ، نشر : المكتب الإسلامي ط ٥ سنة ١٤٠٥ هـ .

١٤٤. سلسلة عقائد السلف ، كتاب النزول وكتاب الصفات كلاهما للحافظ ابن الحسن علي بن عمر الدار قطني ، تحقيق : علي بن محمد بن ناصر الفقيهي ط ١ سنة ١٤٠٣ هـ .

١٤٥. سنن أبي داوود ، تأليف : سليمان بن الاشعث السجستاني ، إعداد وتعليق : عزت عبيد الدعاس ، وعادل السيد ط ١ دار الحديث بيروت سنة ١٣٩٣ هـ .

١٤٦. السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات ، تأليف : محمد عبد السلام خضر الشقيري .

١٤٧. سنن ابن ماجه محمد بن يزيد الغزويني ، نشر: دار الفكر .

١٤٨- سير أعلام النبلاء ، تأليف : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق : مصطفى جواد الناشر : مؤسسة الرسالة ط ١ سنة ١٤٠٥ هـ .

١٤٩. شجرة النور الزكية : تأليف محمد بن محمد مخلوف، الناشر : دار الفكر ط ١

١٥٠ .شخصية الشيخ أحمد أبو المعالي إعداد ، محمد يحي بن الشيخ محمد الحايوس ، المعهد العالي للدراسات والبحوث انواكشوط سنة ١٤٠٤ هـ .

١٥١- شذرات الذهب ، تأليف : عبد الحي بن العماد الحنبلي ، الناشر : مكتبة القدس القاهرة (بدون) .

١٥٢. شرح تحفة الذاكرين ، للإمام الشوكاني . نشر : المكتبة الثقافية . بيروت .

١٥٣- شرح حزب الإمام النووي لأبي عبد الله محمد بن الطيب الفاسي الشرقي تحقيق : بسام عبد الوهاب الجابي دار الإمام مسلم ط ١ سنة ١٤٠٨ هـ .

١٥٤. شرح رشد الغافل للشيخ سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم ط ١ مصر سنة ١٣٥٥ هـ .

١٥٥. شرح السنة للإمام البغوي ، تحقيق : زهير الشاويش وشعيب الأرناؤط ، نشر : المكتب الإسلامي ط ٢ سنة ١٤٠٣ هـ .

١٥٦. شرح متن الأربعين النووية للنووي تحقيق الشيخ عبد الله الانصاري ، الناشر : مكتبة جده .

١٥٧. شرح نظم : الحجر الاساس لمن أراد شرعة خير الناس ، تأليف : الشيخ بداه بن البوصيري . المطبعة الوطنية بانواكشوط ط سنة ١٩٧٣ م .

١٥٨. شعب الإيمان ، تأليف : البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق : أبي هاجر محمد السعيد الناشر : دار الكتب العلمية ، ط ١سنة ١٤١٠ هـ .

١٥٩. شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون تأليف : يوسف مقلد ط ١ الدار البيضاء سنة ١٩٦٢ م .

١٦٠. الصحاح تأليف : اسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق عبد الغفور عطار ط ٣ سنة ١٤٠٤ هـ

١٦١. الصفات وكتاب النزول كلاهما تأليف علي بن عمر الدار قطني تحقيق الدكتور علي بن محمد بن ناصر الفقيهي ط ١ سنة ١٤٠٣ هـ .

١٦٢. صفة الصفوة تأليف ابن الجوزي ، الناشر: الدكن الهند ط ٢ سنة ١٣٨٧ هـ .

١٦٣. الصفدية لابن تيمية ، تحقيق : محمد رشاد سالم ط ٢ سنة ١٤٠٦ هـ .

١٦٤- الصلة بين التصوف والتشيع تأليف : كامل مصطفى الشيبي ، الناشر : مكتبة النهضة ببغداد سنة ١٣٨٦ هـ .

١٦٥. الصوفية في نظر الإسلام دراسة وتحليل سميح عاطف الزين ، الناشر : دار الكتاب البناني ط ٣ سنة ١٤٠٥ هـ .

١٦٦. صحيح البخاري ، دار المعرفة بيروت .

١٦٧- صحيح مسلم بشرح النووي ط دار الفكر ١٤٠١ هـ .

١٦٨. صيد الخاطر ، تأليف : عبد الرحمن بن الجوزي ، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت .

١٦٩. عارضة الاحوذي بشرح صحيح الترمذي تأليف القاضي ابو بكر بن العربي نشر : دار الفكر .

١٧٠. العبر في خبر من غبر للذهبي تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد الناشر مطبعة الحكومة بدولة الكويت ط سنة ١٣٨٦ هـ .

١٧١. العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر تاريخ ابن خلدون الناشر : مؤسسة جمال للطباعة والنشر . بيروت ط سنة ١٣٩٩ هـ .

١٧٢. عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية . تأليف عثمان عبد المنعم عيش ط ١ سنة ١٣٩٦ هـ مكتبة الأزهر .

١٧٣. عقيدة أم البراهين للسنوسي . مع شرحها لأحمد بن عيسى الانصاري ، الناشر: المكتبة الثقافية ، بيروت (بدون) .

١٧٤. العقيدة الطحاوية بتعليق الشيخ عبد العزيز بن باز ، نشر : مكتبة الطرفين .

١٧٥- العقيدة في ضوء القرآن الكريم ، تأليف : صلاح عبد العليم إبراهيم ، الناشر : مكتبة الأزهر ط ١ سنة ١٤٠٢ هـ .

١٧٦. عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ، تأليف : أحمد بن على الحسني المعروف بابن عنبة . ضمن مجموعة رسائل الكمالية في الأنساب : الناشر دار الشعب .

١٧٧. عمل اليوم والليلة ، تأليف : أحمد بن شعيب النسائي دراسة وتحقيق فاروق حمادة الرباط سنة ١٤٠١ هـ .

١٧٨. العواصم من القواصم ، تأليف : القاضي أبو بكر بن العربي ، تحقيق وتعليق محب الدين الخطيب ، ط مكتبة أسامة بن زيد سنة ١٣٩٩ هـ .

١٧٩. عوارف المعارف تأليف : ابو النجيب عبد القاهر بن عبد الله السهروردي ، الناشر : دار الكتاب العربي ، بيروت ط ٢ سنة ١٤٠٣ هـ .

١٨٠. الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض تأليف : القاضي عياض اليحصبي ، دراسة وتحقيق ، الدكتور محمد بن عبد الكريم ، الناشر : دار العربية للكتاب . لبييا وتونس ط سنة ١٣٩٨ هـ .

١٨١. الغنية لطالبي طريق الحق ، تأليف : الشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني ، ط دار الألباب دمشق .

١٨٢. فاتق الرتق على راتق الفتق ، تأليف : محمد المصطفى بن محمد فاضل (ماء العينيين) الناشر : دار الفكر بهامش نعت البدايات وتوصيف النهايات .

١٨٣. فتاوي الإمام الشاطبي ، تحقيق محمد ابو الاحفان ط ٢ سنة ١٤٠٦ هـ .

١٨٤- الفتح الباطني والظاهري في نثر ونظم الورد القادري ، تأليف : محمد حبيب الله ابن ما يأبى ، الناشر : مطبعة العلوم المصرية بمصرسنة ١٣٤٥ هـ .

١٨٥. الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى ، الناشر: دار إحياء التراث العربي ط ٢ ٠

١٨٦. فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ، تأليف : الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي ، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ، ومحمد حجى ٠ الناشر : دار الغرب الإسلامي ط ١ سنة ١٩٨١ م ٠

١٨٧. فتح المجيد شرح كتاب التوحيد تأليف : الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ دار الفكر ط ٧ سنة ١٣٩٩ هـ ٠

١٨٨. فتح المنعم ببيان ما احتيج لبيانه من زاد المسلم ، تأليف : محمد حبيب الله بن ما يأبى ، الناشر : دار الفكر ط سنة ١٤٠١ هـ ٠

١٨٩. فتوح الغيب ، تأليف : الشيخ عبد القادر الجيلي طبعه ووثقه محمد سالم البواب ، الناشر: مطبعة دار الالباب (بدون) ٠

١٩٠. فوات الوفيات، تأليف : محمد شاكر الكتبي تحقيق : إحسان عبد القدوس ، الناشر دار صادر ٠

١٩١. الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي ، تأليف : الفرد بل الفرنسي ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ط دار الغرب الإسلامي ٠

١٩٢. الفروق اللغوية تأليف : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد العسكري تحقيق : حسام الدين القدسي ، نشر : دار الكتاب العلمية بيروت (بدون) ٠

١٩٣. فهرس الفهارس والاثبات ، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، تأليف عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني ، الناشر : دار الغرب الإسلامي ٠

١٩٤. قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية ٠

١٩٥- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز بادي ، الناشر : دار المعرفة بيروت ٠

١٩٦. قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر، تأليف : يحي التاد في (بدون) .

١٩٧. قيام دولة المرابطين ، تأليف : الدكتور حسن أحمد محمود ، الناشر دار الفكر العربي .

١٩٨. طبقات الصوفية تأليف : عبد الرحمن السلمي ، تحقيق : نور الدين شريبة ، الناشر : الخانجي بالقاهرة ط ٣ سنة ١٤٠٦ هـ .

١٩٩. التعريفات للسيد الشريف الجرجاني ، الناشر : الكتب العلمية ط ١ سنة ١٤٠٣ هـ .

٢٠٠. طبقات المدلسين، تأليف أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ط ١ مكتبة المنار .

٢٠١. الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية ، أو الفراسة المرضية في أحكام السياسة الشرعية لابن القيم ، تحقيق : محمد حامد فقي ، نشر: دار الكتب العلمية .

٢٠٢. الطريقة الشرعية وبراءتها من الطرق المنحرفة وضلالتها (القدسية) نظم محمد بن سعيد الأخضري ، نشرالرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السعودية، بتحقيق رئسها الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ .

٢٠٣. ظهر الإسلام ، تأليف : أحمد أمين ، الناشر : دار الكتاب العربي بيروت .

٢٠٤. كتاب الفقية والمتفقة ، تأليف : أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الناشر : دار الكتاب العلمية .

٢٠٥. كتاب الإمام عبد الله بن ياسين تأليف : إبراهيم الجمل (بدون) .

٢٠٦- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، تأليف : مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة ، الناشر : مكتبة المتنبي ببغداد .

٢٠٧. كشف المحجوب ، تأليف : علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي ، الهجويري ترجمة الدكتوره : إسعاد عبد الهادي قنديل ، مراجعة : أمين عبد المجيد بدوي نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر سنة ١٣٩٤ هـ .

٢٠٨. كنتة الشرقيون ، تأليف : بول مارتي الفرنسي ، تعريب : محمد محمود ودادي ، ط دمشق (بدون) .

٢٠٩. الكوكب الوقاد ، تأليف : الشيخ سيدي المختار الكنتي ط حجرية دكار سنة ١٣٩٢ هـ .

٢١٠. اللباب في تهذيب الأنساب ، لعز الدين ابن الأثير الجزري ، الناشر : دار صادر .

٢١١. اللمع ، تأليف : عبد الله ين علي الطوسي أبو نصر ، تحقيق : عبد الحليم محمود وزميله . الناشر : لجنة التراث الصوفي ، ط دار الكتب الحديثة ، مصر سنة ١٣٨٠ هـ .

٢١٢. مجموع فتاوى ابن تيمية . أحمد بن عبد الحليم ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد ابن القاسم بمساعدة ابنه محمد ، الناشر: مكتبة المعارف ، الرباط . المغرب سنة .

٢١٣. المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني . رسالة ماجستير من جامعة الملك سعود بالرياض أعدها : محمد الصوفي بن محمد الأمين . نوقشت في ١٦ / ٩ / ١٤٠٦ هـ .

٢١٤. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ، تحقيق الرحالى الفاروق وعبد الله إبراهيم الأنصاري ط ١ سنة ١٣٩٨ هـ .

٢١٥. مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بن العباس ، تأليف : الشيخ ظهر الدين علي بن محمد البغدادي المعروف يابن الكازروني الناشر : وزارة الاعلام بالعراق بغداد سنة ١٣٩٠ هـ تحقيق : مصطفى جواد .

٢١٦. المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الديبثى للذهبي ، تحقيق مصطفى جواد وناجي معروف ط سنة ١٣٩٧ هـ .

٢١٧. مذهب المخوف على دعوات الحروف تأليف الشيخ ماء العينيين نشر: المكتبة الشعبية بيروت (بدون) .

٢١٨. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، تأليف : عبد الله بن سعد بن علي اليافعي اليمني ، أبو محمد ، الناشر ، الأعلمي للمطبوعات بيروت . ط ٢ سنة ١٣٩٠ هـ .

٢١٩. المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر مع شرحه الدر الثمين والمورد المعين تأليف : محمد بن أحمد ميارة المالكي ، الناشر : دار الفكر .

٢٢٠. مرويات غزوة الحديبية (جمع وتخريج ودراسة) الشيخ حافظ بن محمد عبد الله الحكمي . نشر : الجامعة الإسلامية .

٢٢١. مساهمة في إبراز الأدوار الفكرية والسياسية للشيخ ماء العينيين ، تأليف : عبد الله بن محمد الأمين ، أنواكشوط سنة ١٩٨٤ م .

٢٢٢. مشارق الأنوار للقاضي عياض نشر المكتبة العتيقة بتونس .

٢٢٣- المشترك وضعا والمفترق صقعا ، تأليف : أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، الناشر: مكتبة المثني ببغداد (بدون) .

٢٢٤. مشتهى الخارف الجاني في رد زلقات التجاني الجاني ، تأليف : الشيخ محمد الخضر بن ما يأبى ، الناشر دار البشير بعمان الأردن سنة ١٤٠٥ هـ .

٢٢٥. مصرع التصوف أو تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي ، تأليف : برهان الدين البقاعي تحقيق : عبد الرحمن الوكيل ط ١٤٠٠ هـ .

٢٢٦. المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تأليف : عبد الواحد المراكشي ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي العلمي ، الناشر : دار الكتاب الدار البيضاء ط ٧ سنة ١٩٧٨ م .

٢٢٧. معجم البلدان لياقوت الحموي ، دارصاد بيروت ط سنة ١٣٨٨ هـ .

٢٢٨- معجم المؤلفين تأليف عمر رضا كحالة ط بيروت .

٢٢٩. المعجم الوسيط . مجمع اللغة العربية ط قطر .

٢٣٠- معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار للذهبي ، تحقيق : بشار عواد معروف وشعيب الأرناؤط ، نشر مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٤ هـ .

٢٣١. المعسول : تأليف المختار السوسي ط المغرب (بدون) .

٢٣٢- المغني لابن قدامة مكتبة الرياض الحديثة ط سنة ١٤٠٠ هـ .

٢٣٣. المغني في الضعفاء تأليف الإمام الذهبي ، نشر إحياء التراث بقطر .

٢٣٤- مقالات الإسلامين واختلاف المصلين ، تأليف : الإمام أبي الحسن علي بن اسماعيل الاشعري . عني بتصحيحه هلموت ريتر . الناشر : دار النشر فرانز شتايز بفيسبادن ط سنة ١٤٠٠ هـ .

٢٣٥. مقدمة ابن خلدون . تأليف عبد الرحمن بن خلدون ، الناشر : دار الكتاب اللبناني بيروت ط سنة ١٩٨٢ م .

٢٣٦. مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ، لحافظ السيوطي ، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ط ١ سنة ١٤٠٩ هـ .

٢٣٧. الملل والنحل للشهر ستاني ، الناشر : دار الفكر .

٢٣٨. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم تأليف : ابن الجوزي ، نشر: دائرة المعارف العثمانية حيدر باد الدكن ط ١ .

٢٣٩. المنقذ من الضلال ، تأليف الإمام أبوحامد الغزالي محمد بن محمد بن محمد تحقيق : عبد الحليم محمود ، الناشر دار الكتب الحديثة ط ٨ سنة ١٣٩٤ هـ .

٢٤٠. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، تأليف : ابن تيمية تحقيق : محمد رشاد سالم ط جامعة الإمام .

٢٤١. المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق ، تأليف : محمد بن علي السنوسي الخطابي ط ١ ليبيا سنة

٢٤٢. المنهيات للحكيم الترمذي ، دراسة وتحقيق : محمد عثمان الخشت ، الناشر : مكتبة القرآن القاهرة .

٢٤٣. الموافقات في أصول الأحكام للإمام الشاطبي ، نشر : دار الفكر سنة ١٣٤١ هـ .

٢٤٤- موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لابن تيمية ط ١ دار الكتب العلمية .

٢٤٥. موسوعة التاريخ الإسلامي : تأليف أحمد شلبي : الناشر : مكتبه النهضة المصرية ط ٣ سنة ١٩٧٨ م .

٢٤٦. موسوعة المختار ابن حامد على الآلة الكاتبة .

٢٤٧- كتاب الساقية الحمراء ، تأليف : محمد الغربي ط المغرب (بدون) .

٢٤٨. الموضوعات لابن الجوزي ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، نشر : المكتبة السلفية في المدينة المنورة ط ١ سنة ١٣٨٦ هـ .

٢٤٩. الموطأ للإمام مالك ، تحقيق : سعيد محمد اللحام وزملاؤه نشر: دار العلوم ط ١ سنة ١٤٠٨ هـ .

٢٥٠. الموفي بمفرقة التصوف والصوفي ، تأليف :كمال جعفر الأدفوي تحقيق : محمد عيسى صالحية ط ١ في الكويت سنة ١٤٠٨ هـ .

٢٥١. النبذة الشريفة النفسية في الرد على القبورين ، تأليف : أحمد بن ناصر بن

عثمان آل معمر ، تحقيق : عبد السلام بن برجس بن ناصر آل عبد الكريم نشر دار العاصمة الرياض ط ١ سنة ١٤٠٩ هـ .

٢٥٢. ندوة الحركة السلفية في المغرب العربى ط المغرب (بدون) .

٢٥٣. نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ، تأليف : علي سامي النشار ، الناشر: دار المعارف ط ٧ سنة ١٩٧٨ م .

٢٥٤. نشـــر البنود على مراقي السعود تأليف : الشيخ سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط ١ سنة ١٤٠٩ هـ .

٢٥٥. نظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي : تأليف آدم عبد الله الألوري ، الناشر: دار العربية بيروت ط ٣ سنة ١٤٠١ هـ .

٢٥٦. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تأليف : أحمد بن محمد المقري التلمساني ، دار صادر بيروت .

٢٥٧. نيل الابتهاج للتنبكتي . ط بهامش الديباج المذهب لابن فرحون المالكي ، الناشر : دار الكتب العلمية (بدون) .

٢٥٨. نيل المراد من كلام الشيخ التراد على الآلة الكاتبة / محمد بن أحمد ناه ط ٢ أنواكشوط .

٢٥٩. نيل الأوطار للإمام الشوكاني ، نشر: الكليات الأزهرية .

٢٦٠- واقعنا المعاصر ، تأليف : الشيخ محمد قطب نشر : مؤسسة المدينة ط ٢ سنة ١٤٠٨ هـ .

٢٦١. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، تأليف : أحمد بن الأمين الشنقيطي ط ٤ في جدة مطبعة المدني سنة ١٤٠٩ هـ .

٢٦٢. هدية العارفين إلى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، تأليف : اسماعيل باشا البغدادي ط وكالة المعارف باستانبول سنة ١٩٥١ م .

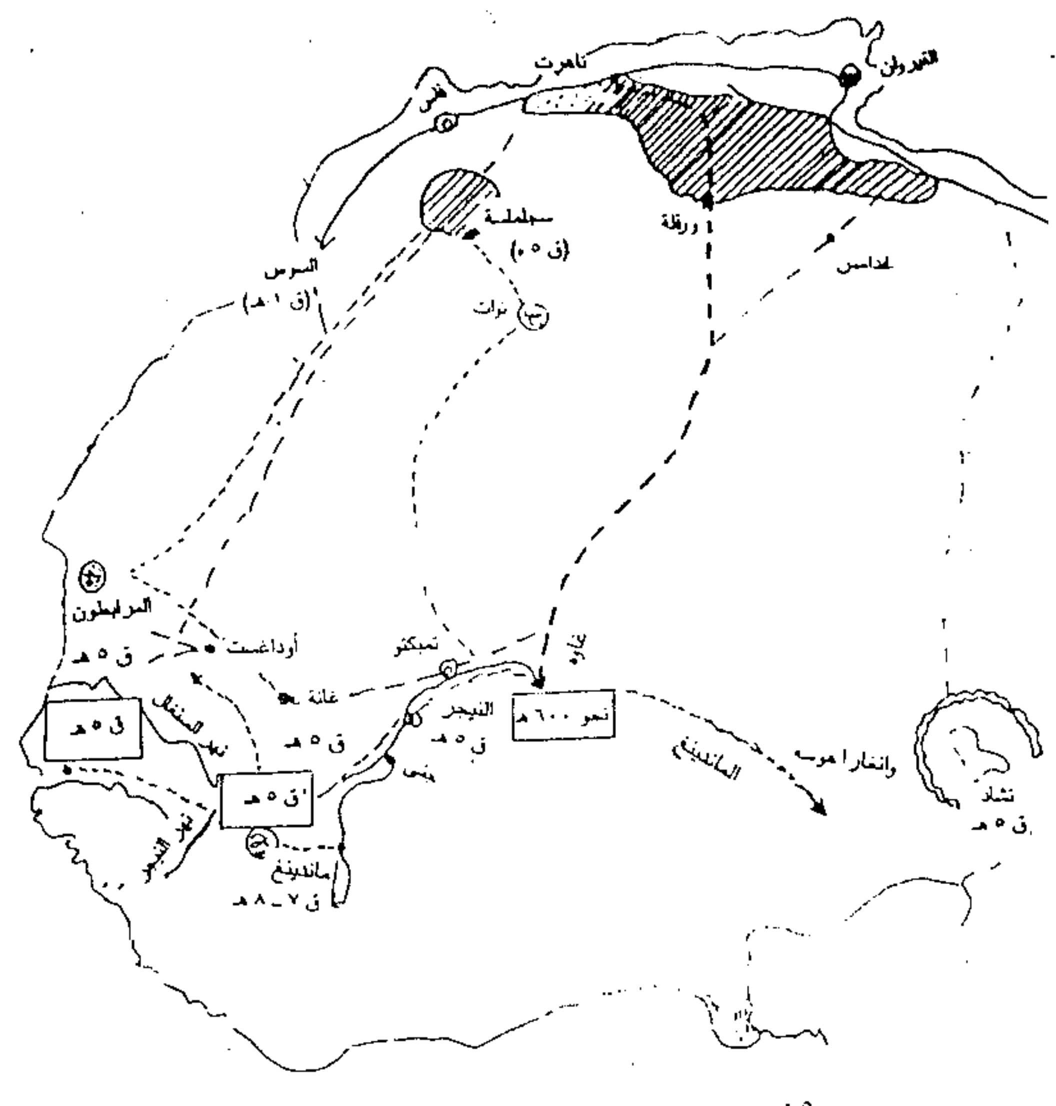
٢٦٠. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، تأليف : أحمد بن الأمين الشنقيطي ط ٤ في جدة مطبعة المدني سنة ١٤٠٩ هـ .

٢٦١. هدية العارفين إلى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، تأليف : اسماعيل باشا البغدادي ط وكالة المعارف باستانبول سنة ١٩٥١ م .

الملحق الاول

خرائط توضح ميدان البحث وتظهر عليها

أسماء أماكن كثر ذكرها أثناء البحث



انتشار الاسلام في افريقيا الغربية ـــــــ ٥٠٠ هـ

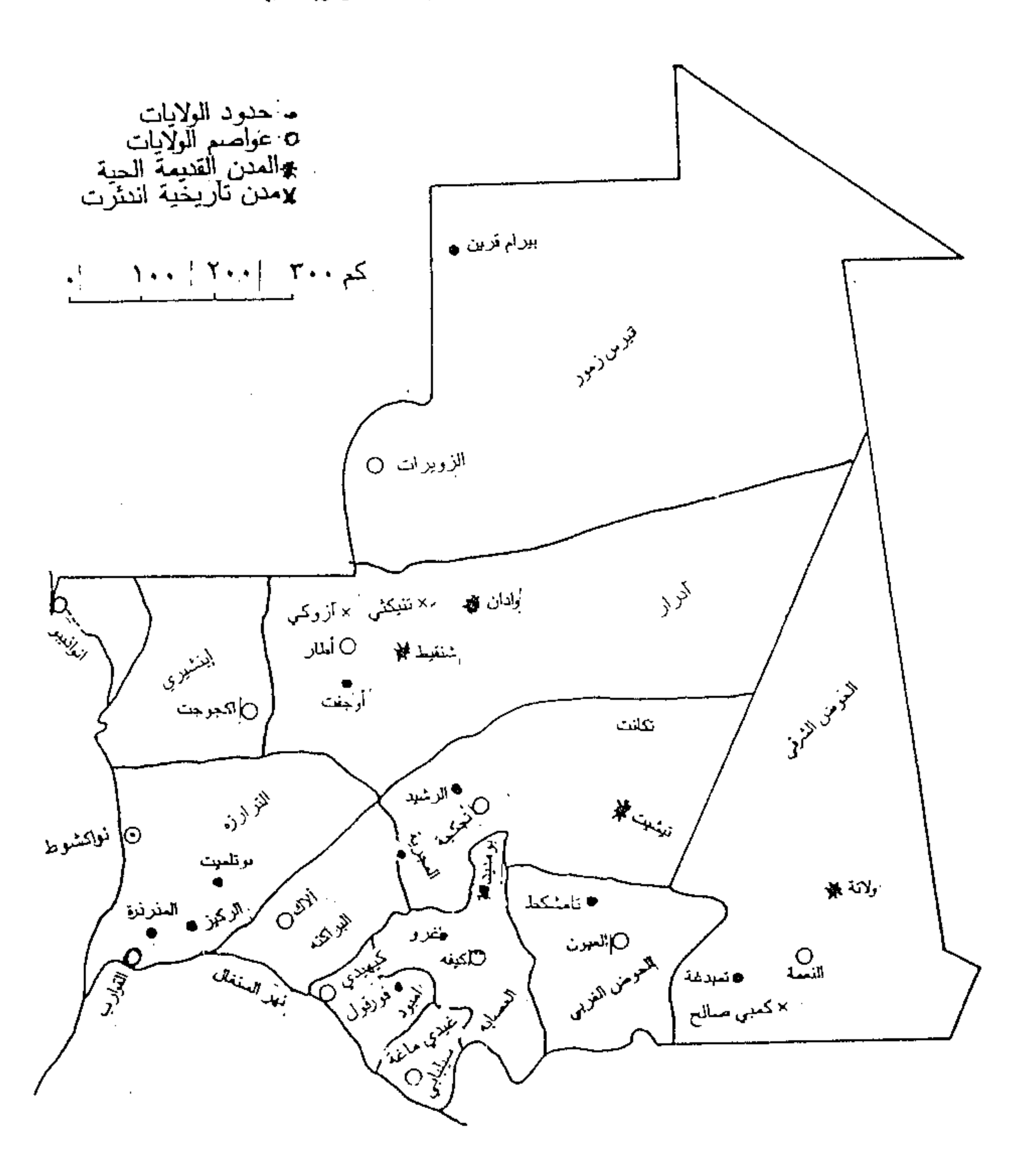
←--- طريق الفتح العربي ـ الاسلامي   ⊛ مراكز ورابط نشر الاسلام

--- خطوط التجارة العربية

المغرب
تندوف
الجزائر
الساقية الحمراء
الصحراء المحتلة
فورتونكيه
وادي الذهب
(ريو دورو)
فورجورو
شنقيط
اطار
الجوجت
تجكجة
بوتيلميت
تيشيت
تشاكيت
ولاتة
نواكشوط
كيفا
العيون
النعمة
روصو
نهر السنغال
السنغال
مالي
جمهورية

(المدن المهمة في موريتانية) كم

الجمهورية الاسلامية الموريتانية



بسم الله الرحمن الرحيم 1 وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي نعم قلوب أوليائه بأسرار خفيت عن مدارك العيون، ودبر الخليقة كيف شاء
بما شاء في الحركات والسكون، فسبحان من إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، رتب الـ
المسبب على الأسباب ترتيبا لا يعلمه إلا العالمون، نعم الله أهل وداده بالعلم عنه من ينكرون
وأبعد المنكرين عن بابه فهم في تيه الغفلة يترددون، نكر تمر عليهم الآيات والعبر وهم لا يعتبرون
كبر على هؤلاء نعي إلى التشبث بأذيال أوليائه وهم لا يعلمون، بغرورهم مالا حتى ظنوا أنهم
مسلوكون لا تسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون، أحمده سبحانه
إذ لا يبلغ أحد بتحميده، وأشكره جل وعلا على ما منح من فضله ومزيده، وأشهد أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله المختار من خليقته، صلى الله عليه وعلى آله
الفضلاء وصحابته، هذا وإنه عن لي أن أذب عن حرمات أولياء الله الصالحين بما فيه من نصوص
كتاب الله ونصوص سنة خير خلق المرسلين، وما أجمع عليه السواد الأعظم من العلماء الراسخين
من وجوب تعظيمهم وتحقيق تقيتهم في مقامات التمكين، والسبب في ذلك ما بلغني
مستفيضا من خروج رجلين متلوثين وتلفظهما أبعدهما الله من مراتب الأنبياء أحرمهما الله
تجرءا على تكفير من يلفظ بقول الأولياء الصالحين بغير نص معتمد ولا حجة من الحكمين التكفير
فيه ما جاء صريحا في نص الكتاب المبين، وهو قوله تعالى ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون
اعلم أيها الأخ الناصح والمحب الصالح ما ذا فتحت في تفسير هذه الآية التي تفسير من يستحق الولاية وهو
الولي قال ابن عباس هم الذين يذكر الله برؤيتهم كما أخرجه الكبير ابن جرير عن سعيد بن جبير قال
سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولياء الله من هم فقال هم الذين إذا رؤوا ذكر الله وقال زيد
هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ولن يتقبل الأعمال إلا بالتقوى وذهب قوم إلى أنهم المتحابون في الله كما
جاء عليه ما روي عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من عباد الله لأناسا ما هم
بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله قالوا يا رسول الله من هم قال
هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم
لعلى

محمد عبد الحي الكتاني

فاس

والمسألة ليست من العمليات، فتكتفى فيها بالأدلة الظنية وإنما هي من الاعتقاديات،
فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعي كما أجمع على ذلك جميع الأمة وأفصحت هذه القاعدة
أئمة الجرح والتعديل من الأصوليين كالقرطبي وابن الصلاح والإمام السبكي والنووي وغير
أولئك وقد بينت مما اختلف فيه قليلا والله عند ما تعلمه حبا لرياسة وطلب السيادة
أو انتحال مذاهب الغوائل في العمار بمنته في هذه العجالة من الحق الذي لا غبار عليه، وأن
والسبيل الذي لا يعول إلا عليه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وإليه المرجع والسبيل، وهو الهادي
المعتمد والكفيل، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الرسول وعلى آله وصحبه وسلم تسليما
قال المؤلف ولما من الله بجمع هذه العجالة وتسويد مبيضتها سميتها بنزهة الأ
الأنوار في الذب عن مذاهب الأولياء أهل الأخيار، والله أسأل أن يمدها بالقبول، ويجعلها
جامعة بالسول والمأمول، ويعم من استظلها بأنوار الهداية، وظلال العناية، ويثبت
قدمه على الصراط المستقيم، والمنهج القويم، لا رب غيره ولا خير إلا خيره، ولا حول ولا قوة
إلا بالله العلي العظيم وكان الفراغ من جمعها وتدوينها عشية يوم الاثنين تاسع
عشر رمضان عام 1225

كملت بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وحسبنا الله ونعم الوكيل صحيحة
يوم الجمعة ... عام 1266 ذو القعدة

بسم الله الرحمن الرحيم وبعد فهذا الضياء المستبين بإملاء
الشيخ محمد العاقل بن الشيخ محمد الأمين لمولفه الشيخ محمد فاضل بن الحبيب

حمداً لمن فتح ببركة أوليائه أقفال مقفلات القلوب وفتق بوجاهة
مكانتهم منه رتق مستغلقات الغيوب وأزال بهممهم الحجاب عن كل
محجوب فأفاض عليهم بعد إزالة الحجب أنوار فيضه أتم هبوب وجعل
خدمتهم وذكر مناقبهم من أجل الكروب وسبباً لمغفرة الذنوب فبسببها
يصير المكروه والمقصي مقرباً ومحبوباً أي محبوب وأشهد أن لا إله إلا
الله وحده لا شريك له شهادة أكون بها عنده مقرباً مخصصاً بإبلاغي منيته
وكل مطلوب وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله
صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ما طلع في الأفق طالع ومال إلى الغروب
وبعد فإنه ما زال يخطر ببالي ويختلج في خاطري أن أصنع كتاباً مختصراً
أذكر فيه بعض كرامات شيخنا الشيخ محمد الفاضل ومناقبه الشريفة
الرفيعة الغر المنيعة وبعض سيرته الحميدة وآدابه القرآنية متكلاً
به على مولاي أهل تلك الحضرة القدسية المطهرة مع علمي أني لست
ممن يهتدي بمنارهم بل ولا يمكنه أن يسرح في تيارهم لكن الطمع يحمل على
تجشم الأمور العظام وينبئ المرء نفسه وما هي متلبسة به من أسباب
الملام فعسى الله أن لا يخيب من استشفع إليه بهم وتوسل إلى جنابه
الكريم بجنابهم فإنهم الوسيلة الكبرى وبذكرهم تتنزل الرحمات وبحبهم
تتسهل المستصعبات وتنفتح المقفلات قال من أشرح حديث الطلبة
وسميته ❁ عند ذكرهم تتنزل الرحمات ❁

❁ وإلى مجالسهم تنزل بركاتهم ❁ وقبورهم زرها إذا ما فاتوا ❁

وها أنا أشرع في هذا الكتاب إن شاء الله مستمداً بعون الملك
الوهاب وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب
وسميته الضياء المستبين في كرامات الشيخ محمد الفاضل
ابن محمد الأمين فأقول وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء
الطريق أردت أن أرتب الكتاب على مقدمة وأربعة أبواب
وخاتمة أما المقدمة ففي التعريف بالشيخ رضي الله عنه
وأرضاه ومتعنا بحياته وعافاه وجمع في كل ذلك حالته ومبتغاه

وفي

وعصيانك بجاه ما التصقت ذاته من حسنات وأسألك اللهم يا علي يا عظيم
بجاه الشيخ ومن ينتسب إليه وبجاه ما تجليت به وتفضلت به عليه
أن تفتح على جميع من يراه وأن تنصر كلهم على كل عدو لهم وأسألك
اللهم بجاه الدعوات المستجابات وبجاه الأسماء والآيات أن ترزق
شيخنا محمد كريما بالأجر فخرا جليلا وتصحبه العافية بكرة وأصيلا
ورواحا ومقيلا وأن تجعلنا من أهل محبته حتى نعلم بمحبته أن من
أحبني محبة خالصة أكون بها الدنيا من خاصة الخاصة وأن تجعلني
أكمل الناس حالا في حبه وأكثرهم له مودة وأن تجعلني أوجههم بركة
فيه وأن تجمع بيننا جميع الإخوان والخلان وأن تحشرنا جميعا
مع أوليائك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وأن تعتق جميع
المؤمنين من أمة المصطفى من النار وتغفر لهم ذنوبهم إنك أنت الكريم
الغفار وأقول حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم وأستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم
وأتوب إليه توبة عبد ظالم لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا
ولا حياة ولا نشورا اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا
وأصدقائنا ولمن سبقونا بالإيمان واغفر للمؤمنين والمؤمنات
والمسلمين والمسلمات يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم
النبيين وإمام المرسلين وعلى آله كلهم وأزواجه وذريته الطاهرين
الطيبين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

انتهى الضياء المستبين في كرامات الشيخ محمد الفاضل بن
الشيخ محمد الأمين على بركة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أهل
[illegible] القرية عشية [illegible] كتبه شيخ [illegible] شيخنا
الشيخ أحمد الحبيب أطال الله [illegible]
[illegible] من [illegible] الخميس ثالث
ذي الحجة عام 1391 [illegible]
على صاحبها أفضل الصلاة
والسلام وعلى آله وأصحابه
[illegible] غفر الله للجميع

٣٩٤

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

الحمد لله ناصر الحق وأهله كاسر الباطل ومذهب محله والصلاة والسلام على خيرة رسله مؤسس الدين وجامع شمله ودامغ الباطل ومجتث أصله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم حشر الخلق لفصله هذا وإنه من عبد ربه الغني به محمد بن المختار بن أحمد أبا بكر إلى عيبة النصح وصفوة الراجح أعيان الخلف وأخلاف السلف نخبة الدين وخصوصا المهديين وصفوة العلماء المهتدين عموما وخصوصا الفاضل الشيخ الطالع بن محمد البشير والسلطان المؤيد بعون الله المعتصم بعين الله تكوي بن أق بن ايج الشيخ ومن يشار إليه من جهته أو يرجع إليه في سلمه وحربه السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ما لازمت الفلك حركاته وخسفت بالمتبطل المارق حركاته أما بعد فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو وأوصيكم ونفسي

بتقوى

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

مبارك الابتداء ميمون الانتهاء

كتاب الكرامات والتلاميذ من كرامات الشيخين الوالد والولد الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار رضي عنهما ونفعنا وجميع المسلمين بهما آمين آمين آمين

حمدا لمن منح أولياءه كرامات الخوارق وتلاميذها، وأسلم إليهم مقاليد الخلافة وحكمهم في [illegible]ها،
وأتاهم مفاتيح الخلافة وألبسهم [illegible]ها، وأباحهم [illegible] الرقائق فحلقوا في [illegible]ها ما هزؤوا
النفوس وهم في عوائدها وهدموا أسوارها، وأطلقوا من إصرها، وأحرقتهم الشياطين فأبطلوا
مكائدها ومن فواحش [illegible]ها ومقاصدها، وأذاقتهم [illegible] نفوسهم عنها واشتغلوا [illegible]ها
واشتغلوا [illegible] ومقاصدها [illegible] عنهم [illegible] وقد تمكن منهم [illegible] في [illegible]
[illegible] في تقلبها [illegible] الجنوب وذات الشمال [illegible]
[illegible] ملكها [illegible] أو [illegible]
[illegible] ثبتوا بالثلاثة [illegible] في ديوان الحق [illegible]
[illegible] على حقيقتها [illegible] إمام الأنبياء وفخر العلماء الأولياء صلى الله عليه
وسلم صلاة [illegible] علينا [illegible] وعلى آله [illegible] وصحابته [illegible] واستمر به [illegible]
من [illegible] كرامات الأولياء الأعيان واستكمل [illegible] في نصر ما خص به الشيخين من
خوارق العادة وقلب الأعيان واستخرج [illegible] العثرات [illegible] المعجزات [illegible] على
استيفاء أوجه البشارات في إيضاح وجوه العبارات والإشارات وأصلي على [illegible] فبله
صاحب [illegible] بحر الوجود [illegible] وأسلم عليه وعلى آله الكرام وصحابته الأعلام أئمة الإرشاد
والأعلام الذين [illegible] الأقدام في [illegible] رضي الله تعالى عنهم أجمعين والحمد
في [illegible] أما بعد فيقول عبد ربه [illegible] المختار [illegible]
[illegible] الكنتي [illegible] الله قلبه [illegible] في مرضاته [illegible] من الله الكريم على
[illegible] أعلام الأئمة [illegible] الأعيان [illegible] في رتبة المكانة والتمكين
مجمع البحرين [illegible] شيخ الطريقة [illegible] حجة الإسلام [illegible] الأنام إلى [illegible]

[illegible]

هذه هي الرسالة الغلاوية التي كتبها الشيخ سيد محمد بن
الشيخ سيد المختار فيها انساب كنتة وتاريخهم وتارة
اخرى العلاج وكثير من انواع العلوم

1

حمدا لمن افاض بكل علم من يعطي العلم حقه وتوفيته
ويحفظ على الامة دينها القويم وينفي عنه تحريف المبطلين
وتبديله وفضله على ذلك من يعتمد عليه ليحكم احكامه ويرفع
ذكره وتعليته وشغل اعباء ذلك عليه بما صح عن الصادق
المصدوق مما يثبت كل كامل الايمان ويسليه
حيث قال لو كان المومن في جحر ضب لقيض الله فيه منافقا
يوذيه احمده على منة الصدق والتصديق واشكره على
نعمة التوفيق وحلاوة التحقيق وملازمة الحق وان لم يكن في
العقائد من صديق واصلي على نبي الرحمة الشفيع
في الاراحة من الزحمة بالمقام المحمود لكافة الامم
وخاصة الامة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه
اولي النبوة والنصرة والقوة في ذات الله والشدة صلاة وسلاما
يبيضان ليس لا ينفصلان منه الى يوم نبعث فنرى الذين
كذبوا على الله وجوههم مسودة
بعد فانه من عبد ربه الغني به محمد بن المختار بن
احمد بن ابي بكر الى عامة عباد الله ممن فيه من رتبة

وخا

الشيخ سيرى التي كتب أنه استكتبها
وتولى مقابلتها بنفسه لأواخر جمادى
الأولى من سنة اربعين وثمانين
وألف فكان بين الأولى
وهذا التي أنا عليها قدر النسخة
مائة وخمس وستون سنة

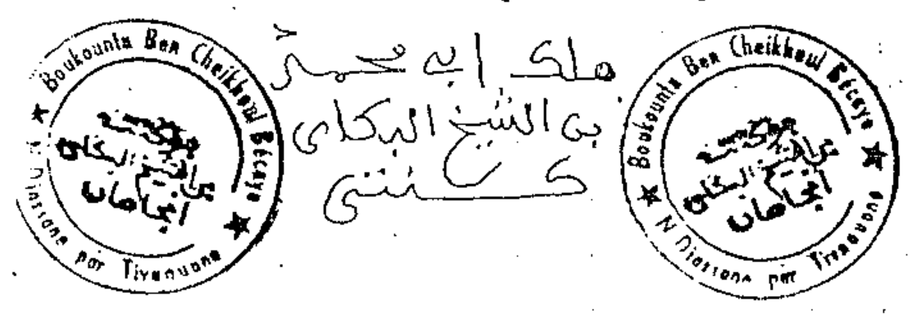
بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب المنة في اعتقاد أهل السنة

قال الشيخ العارف الرباني إنسان عين الحقيقة الصمدانية ولسان ترجمان الرقائق القدسية العرفانية النورانية جامع بين الشريعة والحقيقة وحامل راية السنة البيضاء والطريقة إمام الأئمة وخاتمة خلاصة الأمة أبي الأنس و الأنوار شيخنا الشيخ المختار كان الله له وأحضر ما يحبه ويرضى له ومختار ابن الشيخ البكاي بن الشيخ أبي بكر الوافي ثم الكنتي أعاد الله تعالى علينا من بركاته و [illegible] بجاه سكناته وحركاته آمين يا رب العالمين

الحمد لله

اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال والآفات وترفعنا بها أعلى الدرجات وتقضي لنا بها جميع الحاجات وتطهرنا بها من جميع السيئات وتبلغنا بها أقصى الغايات من جميع الخيرات في الحياة وبعد الممات انه رفيع [illegible]



بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى اله وصحبه وسلم

مبادئ الابتداء ميمون الانتهاء

الاجوبة الشافية الكافية لمن

في ابطال حجج مدعي المعية الذاتية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد فهذا
تاليف الغوث الكامل والعالم العلامة والسيد الفا
ضل والحبر الفهامة منار الولاية الكبرى وعلم الدر
اية الشهير وسراج الهداية المنير اوحد العلماء
العاملين وخاتمة الفضلاء المحققين وامام افاضل
الوجود العارف الجامع بين حقيقة الباطن وتشريع
الظاهر شيخنا ووسيلتنا الى ربنا الشيخ احمد ابن
المعالي الاغلاوي وعليه من الله سحائب الرضوان ما دامت
ربابا تتحف السادات افاض الله علينا وعلى المسلمين من بركاته
واسبغ علينا وعليهم من بركاته قال المؤلف ابقى
الله بركته وقدس سره بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتنزه بالعظمة والجلال المتوحد باستحقاق
نعوت الكمال والجمال المنفرد عن الشريك والاشباه والامثال
المتعالي عن الاتحاد والحلول بالمكونات المتقدس في ذاته
ومعيته عن مصاحبة المخلوقات ومماثلتها بالكينونة
في الاماكن والجهات والصلاة والسلام على سيدنا محمد
وعلى اله وصحبه وسلم ائمة الهدى السادات الذابين
عن سنته والحامين لشريعته والباطلين اهل الزيغ والبدع
ارتاب الشبهات بقواطع البراهين والادلة الساطعات
اما بعد

الحمد لله الذي قال وما من غائبة في السماء والارض الا في كتاب
مبين وجعل قلوب المومنين خزينته او صح وعينه لتجلي
لتجليه في اسرار صنع ربه المنبي الفتاح المبين وغوصه على
الاسرار واحتوائه على الكون بالحكمة يعود الى رب العالمين والصلاة
والسلام على من بعثه للخلق اجمعين واتى بعلوم الاولين والاخرين
محمد سيدنا ومولانا الذي فضلنا الله به على الامم السالفين وعلى
آله وعلى جميع نعمه التي لا يحصيها اقوال القائلين وعلى الصحابة
الماهرين في دينهم والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين اما
بعد فلما راى بعض اخواني حين طال الحال وقل العمل والعلم
وكثر الهرج في اهل زمانه عما يفعله في خاصة نفسه في
دينه وان ادله على من يقتدي به في ذلك وهل هو موجود او
لا فقصد افضل الزمان عما يصح في اوان الجهل ليعمل على اقتدا
الخير باهل الاقتداء من اهل الافتاء والاقراء لا كما جار الى
في ما ذكر احتاج الناس الى ادنى دليل وادنى شيء او مجدد
فليس للنعج ما ان الله تبارك وتعالى اذا اراد شيئا وتعجل او تعذر الى
الى مجاري وقال الشاعر ولا كل البلاد الخ وقال الاهوى العدل
فقامر رقضية ويحدر ما احدثوا من الفجور وقال صلى الله عليه وسلم
اذا امرتكم بشيء فاتوا منه ما استطعتم وقال تبارك والعلماء
انشاء كما ليس اعلموا وقال العلوي وجمع ما استبان امر
مستقل الى المجاز او الاقوى حفظ ولا سوى الله فهو القهار عما
[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم بالتبليغ

الحمد لله الذي أنزل على رسوله الصادق الأمين بقوله فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين وبيّنه في كتابه العزيز أنه أكمل به هذا الدين في حجة الوداع أحسن تبيين ... صلى الله عليه وسلم ولم يمت صلى الله عليه وسلم حتى حذّر أمته أن يبتدعوا من بعده وسنّ لهم اتباع سنن الخلفاء الراشدين وحذرهم من ابتداع سبل المبتدعين صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

أما بعد فقد بدا لي أن أضع مقالا في الفرق بين الذكر المشروع وغير المشروع فأقول وبالله التوفيق والهداية والصواب ليعلم أن ما لم يكن من الدين سنة فلا يكون إلا بدعة إذ السنة تقابلها البدعة كما أن الإسلام يقابله الكفر والطاعة تقابلها المعصية والسنة كما يعلم كل من له أدنى اطلاع بعلم الشريعة والاعتناء به هي قوله صلى الله عليه وسلم وفعله وتقريره فكل ما جاء من تبليغه مما يتعلق بالدين من عقيدة والذكر ورد كله والترغيب فيه والتحضيض عليه في الكتاب والسنة ورودا لا يحتاج لاستفاضته ببراهين للاستشهاد عليه ويكفي من الأمر على كل حال كقوله تعالى فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم وقوله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وغير ذلك مما جاء في الكتاب والسنة كثير معلوم مما لا يحتاج إلى ... ولا كيفية ولا هيئة فهذا القسم من الذكر لا بدعة فيه ولا يسع من رغب في الخير والاعتناء بأمر الشريعة تركه وأما ما جاء مما لم ... فلا بد من النظر فيه والبحث عنه حتى يتبين هل هو مأثور عن الشارع أم لا فإن كان مأثورا عنه فهذا القسم إنما هو المشار إليه وإن كان غير مأثور عنه فهو ابتداع وتشريع مع الشارع ... وإن كان فهو من أحدث ... بالسنة ... ابتداع ومعصية شنيعة والعياذ بالله تعالى

رسالة الفرق بين الذكر المشروع وغير المشروع

الشيخ التراد = وصايا = الفيض اللدني في وصايا أهل الإذن

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على النبي الكريم

اللهم ارحم بفضلك المؤلف والكاتب والناظر والمستمع

أما بعد فهذه وصايا من العبيد الضعيف الراجي الله
ربه الطيب التراد لمن أعطي الإذن في تلقين الأوراد
من أتباعه الذين كتب له عليهم الفضل والفتح
بفضل الله وسماها الفيض اللدني في وصايا أهل
الإذن اعلموا وفقنا الله وإياكم أن أول ما أوصيكم به
أن لا تنقلوا قدما واحدا إلا على أثر رسول الله صلى الله عليه
وسلم ما استطعتم ولا تتكبروا عن سؤال العلماء عما لا تعلمون
وتعليمه وما أتيتم مؤسسا لكم بفننا هذه فلا تعملوه
ولا تحتاجون إلى السؤال عنه بعد كفيناكم ذلك ومما أوصيكم
به الحذر من انتحال الأنوار من قلوبكم بالتبرع عن اقتفاء
الأولياء الأماجد في مخالطة الناس وتهاون بالرياضة فإن دوام ذلك
يقسي القلب ويذهب الأنوار ولا تغتروا بحالة الأقطاب فإن لهم
لهم رسوخا في الكبرياء خاطبهم الثانية الفصلون في حق
الشيخ اعتقادا ومحبة أو أعرض عنه أو مكابرة معه أو
إهمال المشاركة معه فهي في الحقيقة الكفر والهلاك وكل من
يلبس الله به الأنوار يبتلى بعذابه حفظنا الله وإياكم ومما
أوصيكم به أن لا تشتغلوا بطلب إقبال الناس عليكم بالتبجيل
وعليكم بالخمول ولا تستحكموا إهانة الناس لكم وجهلهم بحقكم

كتاب تنبيه المريد على ما يخفى عليه من الدين الإسلامي والعلم
العلامة الفاضل قدوة المحققين وأستاذ العارفين وبستان العارفين
شيخنا الشيخ أبي العباس أحمد [illegible] الله بن [illegible] الصلاة
الطاهر [illegible] من نجباء النبي صلى الله عليه وسلم وعمه العباس
وأعطاه الله [illegible] في الدنيا والآخرة حتى لا يخفى [illegible]
وصلى الله على [illegible] محمد

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على النبي الكريم ومحمد
فليعلم أن ما [illegible] المريد للأحباب الحلول عن [illegible] التي [illegible]
والأخروج عند [illegible] غيره في غير [illegible] [illegible] فاضل
[illegible] [illegible] في [illegible] القوم غير شيخنا الشيخ [illegible]
[illegible] الله [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] والإمام [illegible]
[illegible] وأستاذ [illegible] [illegible] فتح الله علي [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] ما [illegible] الله على [illegible] من ذاق [illegible]
[illegible] والمسموعات والمذوقات والمشاعر [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] التوبة ولا [illegible] [illegible] [illegible] العلمات
[illegible] لا اعتقادات ولا [illegible] والصور في [illegible]
في [illegible] [illegible] [illegible] الأولى [illegible] والسماوات
[illegible] [illegible] [illegible] عليه من الأنوار [illegible]
[illegible] والتجليات والمعارف والفتوحات والمواهب [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] الحضرة [illegible] [illegible]
[illegible] الاستواء والنزول [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
والتسليم دون [illegible] [illegible] [illegible] والتشبيه والتحصيل

الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده انه من كان يبدأ لي من بلغ
الله امله وختم بالخير عمله اخي وفقه الله سيدي محمد احيد موجبه بعد
السؤال عن ذلك وطلب طالب على ان الذي طلبت مني من الجواب للورقة
التي قرأتها عليك من عندي سيدي عبد الجليل واشتغلت عن ذلك فليس
امتناع استثقالا مني ولا صدودا عن ذلك وانما كنت في زيادة من
التعصب لما هو فيه حتى كان الكلام معه ساقطا والوسائل التي
يترتب عليها مقصود شيء على كل شيء ولو كان الكلام معه جاريا
لكفاك ما كتبه الشيخ التواتي من لا نقال في المسئلة التي ليس له فيه
الا حركة لا طائل فيه وفيه قوله بما لا طائل تحته وخرج عما هو بصدده
فتارة يقول الآية متشابه وتارة يجعله صريحا في معية الذات وكل يقول
ما قيل نفسه في ينسب الخلاف من علماء الامة اذا استغنا بجهله ولكن لا
يسعني الا اسعافك فيما طلبت اعلم ايها السيد انه كتب لنا نصه بقول
ان معية ذات الله تعالى لخلقه ثابتة بالنص الصريح من الكتاب والسنة
بخصوصها وكما هو الظاهر ويحتمله اما الكتاب فقوله تعالى والله معكم
وما هو معناه من القرءان واما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم افضل الايمان
ان يعلم ان الله معه حيثما كان ومعلوم ان مع لا تحتمل معنى غير
المصاحبة [illegible] فيهما وجوابه ان نقول اما قوله ان
معية ذات الله تعالى لخلقه ثابتة بالنص في كتاب [illegible]
ما يعني فيما استدل به من النص فلعلها ان كانت ثابتة
بالنص [illegible] غير ما ذكرت والا فليس بعد نص [illegible] ان معية
الله بالذات فلو قلت معية الله لخلقه ثابتة بالنص [illegible]
لسلمت من نسبتك للنص ما لم يكن فيه اذ النص قال فيه [illegible]
[illegible] السعود معنى له في النص فلا [illegible] وهو الذي [illegible]
[illegible] يستعمل نصا اذا افاد ما لا يحتمل غيرا وكما هو ان [illegible]

سلسلة الذهب فى الورد القادرى

*- اخذ الورد القادرى شيخنا ووالدنا الشيخ الحاج عمر الشهير بالحاج بنقا الكسنمى عن شيخه الشيخ سيدى باب * عن شيخه ووالده الشيخ محمد الخليفة * عن شيخه ووالده الشيخ سيدى الكبير * عن شيخه الشيخ محمد الخليفة * عن شيخه ووالده الشيخ المختار الكنتى * عن شيخه الشيخ عال بن النجيب * عن شيخه الشيخ الامين ذى النقاب * عن شيخه الشيخ اعمر الشيخ * عن شيخه الشيخ احمد * عن شيخه الشيخ على بن احمد * عن شيخه الشيخ احمد * عن شيخه الشيخ محمد الرقاد * عن شيخه الشيخ احمد الفيرم * عن شيخه الشيخ عمر المعمر * عن شيخه الامام المغيلى * عن شيخه الامام السيوطى عن شيخه الامام الثعالبى * عن شيخه الامام محمد ابن العربى المغربى * عن شيخه الامام ابن مرزوق التلمسانى * عن شيخه الامام المشذالى * عن شيخه الامام ابى حامد محمد الغزالى * عن شيخه الامام الشاذلى * عن شيخه الامام عبد السلام بن مشيش * عن شيخه الامام محمد بن العربى الحاتمى * عن شيخه الامام عبد القاهر السهرودى * عن شيخه الشيخ على ابن هيتا * عن شيخه قطب دائرة الاقطاب محيي الدين الشيخ عبد القادر الجيلى * عن شيخه الشيخ ابى الوفا على تاج العارفين * عن شيخه الامام الشنبكى * عن شيخه شيخ الطائفة الصوفية الامام الجنيد النهاوندى * عن شيخه الامام السرى السقطى * عن شيخه الشيخ معروف الكرخى * عن شيخه الشيخ داود الطائى * عن شيخه الشيخ حبيب العجمى * عن شيخه الشيخ الحسن البصرى